الحروب الصليبية

في شمال إفريقية

وأثرها الحضاري

سنة ٦٦٨ - ٧٩٢ هجرية ١٢٧٠ - ١٣٩٠ ميلادية

الدكتور ممدوح حسين

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
كلية التربية - جامعة السابع من ابريل

الدكتور شاكر مصطفى

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي
ورئيس قسم التاريخ الإسلامي بجامعة الكويت

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من استشهد في بلاد الإسلام

دفاعاً عن عقيدته وأرضه

هذا الكتاب

شيء كسعادة الأبوة يشعر به الإنسان وهو يشهد عملاً يبدأ أمامه فكرة ثم ما ينفك يتكامل جهداً ويتكامل تكوناً حتى يبلغ درجة العمل السوي ويخرج إلى الناس مشروعاً سوياً... هذا ما شعرت به وأنا أقلب صفحات هذه الرسالة الجامعية في شكلها الأخير.

لهذا يسعدني أن أشارك صاحبها في تقديمها للناس والباحثين... ولو لم يكن لي فيها إلا ما لضوء المصباح من الإنارة في الغابة البعيدة. وأعترف أني لم أكن أقدر – والرسالة فكرة بعد – أنها سوف تكون بهذه الضخامة، وهذه الغزارة في التفاصيل، وبهذا العدد من الحاجة إلى التعب والسفر وسهر الليل... ولكنها احتاجت ثم احتاجت، وأتعبت صاحبها بحثاً وراء المصادر، وتعقباً للحقائق ومتابعة للسابقين في دروب التاريخ حتى استوت عملاً متكاملاً. ولم يبخل صاحبها عليها بشيء. لم يقصر. بل ركض في كل درب على تباعد دروب عمله عن دروب علمه. وكانت النتيجة هذه الرسالة لا بل هذا الكتاب الضخم القيم.

وقد يكون من الصعب أو من الفضول أن أضيف إلى هذه الصفحات – على ضخامتها – مقدمة أو نحواً منها فليس على طالب المعرفة أن يتوقف عند هذه الكلمات، ولكن عليه أن يبحر فكل المرافئ مفتوحة للأشرعة... كل ما يجب أن يعرف ليس أكثر من بضعة أفكار تفتح الطريق.

أولها : أن هذه الملحمة الصليبية لن ينقضي الكلام عنها مهما كثر الكلام وتوالت الأبحاث والكتب. إنها واحد من أربعة أو خمسة أحداث تملأ وحدها التاريخ العالمي كله : غزو الإسكندر المقدوني للعالم المتمدن كله. الانسياح الروماني على بحر الحضارات، الفتح العربي. الصليبيات، الغزو المغولي. حركة الاستعمار الأوروبي للعالم – هذه الأحداث تلخص كل تاريخ الدنيا – وتتميز الصليبيات بالذات بكثرة ما يكتب عنها. لأنها تكتب

وسوف تظل تكتب على الجبهتين اللتين اصطلتا بنارها وسفحتا الدماء والأشلاء والجماجم والجهد والمال فيها... جبهة العرب المسلمين وجبهة الغرب المسيحي...

على أن الصليبيات كانت تكتب دوماً بأقلام غربية ومن وجهة النظر الغربية. ولخدمة أغراض غربية. حتى بعض كتابنا المسلمين ما انفكوا يعتمدون دراسات الغرب فيسقطون في الفخ... وتتضح لديهم الرؤية الغربية أكثر بكثير من الرؤية العربية الإسلامية. والتاريخ – رغم ادعائه استهداف الحقيقة – كان دوماً وجهات نظر ورؤية متأثرة بألوان النظارات التي يضعها المؤرخ أمام عينيه، أو في خلفيته الفكرية. وسيمضي وقت طويل قبل أن تكتمل لدينا وجهة نظرنا نحن. ومثل هذه الرسالة إنما أرحب بها لأنها جهد على هذا الطريق الطويل. إنها لا تضع أوروبا في المركز ولكنها تضع العرب والإسلام بدلاً منها في المركز...

ولم يكن التوفيق الذي حققه صاحب الرسالة في هذا الأمر فحسب ولكنه كان في مواقف أخرى ليست أقل شأناً. فقد اعتبر الصليبيات في شمال إفريقيا جزءاً من الملحمة الصليبية الشاملة، وبعضاً من الحرب التي شنها الغرب على امتداد حدوده مع العرب المسلمين من الأندلس حتى المشرق. فأحداث تونس جزء من أحداث الشام وأحداث الأندلس، كما أن هذه الأحداث جزء منها. ثم أن صاحب الرسالة كشف أن العرب المسلمين في ذلك العهد كانوا يعتبرون الاعتبار نفسه وقد يتعاونون بين مشرق ومغرب لدفع العدو المشترك...

ومن العدو المشترك وما هو؟ إنه أوروبا كلها. وقد كانت تتناوب الهجمات على العالم الإسلامي في المغرب تماماً كما تتناوبها في المشرق. وقد فشلت في المشرق ولكنها في الواقع حققت الكثير من النجاح في المغرب. ألم تسلب الأندلس وصقلية؟ وهذا التناوب تعاونت عليه شعوب أوروبا كلها بعد أن فشلت في الشرق فتارة نورمان صقلية وتارة فرنسا لويس التاسع وتارة ثالثة لويس دي بوربون ورابعة أساطيل المدن الإيطالية جنوة والبندقية وخامسة ممالك أرغونة وإسبانيا وسادسة مملكة البرتغال... وقد يستخدمون الخونة المحليين أيضاً كما يجري إلى اليوم. وقد ينزلون ويحتلون ويقتلون يريدون﴿**أن يطفئوا نور الله بأفواههم**﴾! لكنه دوماً التكالب نفسه والحقد الصليبي الأسود نفسه... وفي الأعماق المصالح الاقتصادية

الحركة نفسها!

ومن باب التوفيق في منظور هذه الرسالة أخيراً أنها تناولت الصليبيات الوسطى وأعني تلك الصليبيات التي وقعت جغرافياً بين المشرق والمغرب لتظهر بأثرها بما يجري على الطرفين على حد سواء. كانت تلك الصليبيات في الشمال الإفريقي لسان الميزان في الحركة الصليبية كلها. حين فشل لويس التاسع في مصرنفث غله الصليبي كله في تونس! وحين لم يجد الغرب سبيلاً إلى المشرق بعد أن طرد منه طرداً وبعد أن استولى على معظم الأندلس جعل همه في احتلال إفريقية والمغرب. وفي محاولة تنصير إفريقية والمغرب وعينه ترنو إلى ما وراء هذه المنطقة من ذهب غينيا والنيجر والسودان الغربي!...

إن هذا الكتاب فصل من فصول الملحمة الصليبية الكبرى وفيه ملامح من فصولها المشرقية ومن فصولها المغربية والأندلسية على السواء. ولعله يؤدي المعنى الكبير من كتابته إذ استطاع أن يفتح الأعين العربية المسلمة أكثر فأكثر على أن الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا...

لا لن يلتقيا ما دام الحقد الصليبي معششاً في النفس الغربية كبعض الأفاعي السامة. وما دام الشرق الإسلامي يجتر أحلامه الذهبية ويحلم بالأمس الغابر... ناسياً الأمر الإلهي :

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾!...

فهل يذكر أولو الألباب؟

د. شاكر مصطفى

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ .

[سورة المائدة : آية ٥٩]

المقـــــدّمـــة

اللهم إني أحمدك بما أنت أهله، وأصلي وأسلم على نبيك محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والرسل، وأعوذ بك من خطأ القول وخطل الرأي، وبعد، فقد اتخذ الصراع بين الشرق والغرب صوراً متعددة عبر عصور التاريخ، وتتبوأ الحركة الصليبية مكانة فريدة في هذا الصراع ليس في العصور الوسطى فحسب، بل في تاريخ البشرية جمعاء نظراً لدوافعها العديدة المتشابكة ونتائجها التي مسّت مختلف نواحي الحياة البشرية من قريب أو بعيد. ونظراً لذلك فقد شغلت هذه الحركة الباحثين والدارسين منذ زمن طويل، فتناولوها بالدراسة والتحليل من زواياها المختلفة. وقد اختلفت نظرة المؤرخين إلى تلك الحركة تبعاً لاختلاف ميولهم ومفهومهم لها، وتشعبت آراؤهم حول أسبابها وماهيتها وبدايتها ونهايتها والميادين التي شهدت نشاطاتها والنتائج التي ترتبت عنها، ولا زالت الدراسات تطالعنا بين الفينة والأخرى بآراء جديدة، مسلطة بذلك مزيداً من الضوء على بعض زوايا تاريخ هذه الحركة. ولا يتسع المجال في هذا المقام لاستعراض الآراء التي ظهرت حول أسباب هذه الحركة وماهيتها ونتائجها [1]، فهي مبسوطة في العديد من كتب التاريخ يمكن للمستزيد الرجوع إليها[2]، ومع ذلك فإنني أرى أنه لا بد من التعرض لموضوع بدايتها ونهايتها لما لذلك من علاقة مباشرة بهذه الدراسة.

---

(١) عن هذه الآراء انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٢٢ وما بعدها.

(٢) من أهم هذه الكتب : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية.

ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية.

ارنســت باركر : الحروب الصليبية.

A. Atiya : The crusade in the later middle ages

A. Atiya : The crusade, old ideas and new conseptions.

K. Setton : A history of the crusades.

H. E. Mayer : The Crusades,

Rene Grousset : Histoire des Croisades et du Royame France de Jerusalem.

فقد درج مؤرخو المدرسة الأوربية القديمة ابتداء بولكين (Wilken) سنة ١٨٠٧م وانتهاءً إلى هانس ماير (Hans Mayer) عبر سلسلة طويلة منهم على تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بالفترة الممتدة بين سنتي ٤٨٨ – ٦٩٠ هـ / ١٠٩٥ – ١٢٩١م، ولكن هذه النظرية أخذت تهتز بقوة منذ أواخر القرن التاسع عشر الماضي نتيجة لجهود العديد من الباحثين الذين رأوا أن جذور هذه الحركة تمتد إلى ما قبل سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م بكثير، كما أن ذيولها وبقاياها استمرت إلى ما بعد سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م بوقت طويل، وبعبارة أخرى فإن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م – ٦٩٠هـ / ١٢٩١م هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور، فهو (لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة، ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى)(١). والذي أراه، هو أن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج العرب المسلمين من جزيرتهم واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تتطور كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي ٤٨٨ – ٦٩٠هـ / ١٠٩٥ – ١٢٩١م إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد أن يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقالها في هذه الفترة.

وبصرف النظر عن هذه الأسباب، إلا أنه يبقى سبب هام لا بد للباحث من أن يضعه في اعتباره هو تبدل ميزان القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوربي مركز الحركة الصليبية، فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات السلاجقة القوية جعلها تسارع إلى الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم

---

(١) د. سعيدعاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٢٦

الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوروبي يرفد النصارى الإسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس، وتسليط النورمان على صقلية، الأمر الذي أجبر مسلمي الأندلس على الاستنجاد بالمرابطين، ومسلمي صقلية على الاستنجاد بإفريقية من ناحية ثانية كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية في طورها الجديد الذي اتخذ صفة العالمية بعد أن كان الصراع الإسلامي المسيحي يتسم عادة بالمحلية.

ومع أن بعض المؤرخين يحاولون استثناء الهجوم الإسباني المسيحي على مسلمي الأندلس وهجوم النورمان على صقلية من الحروب الصليبية تبعاً لمفهومهم للحركة الصليبية ككل، فيحاول ماير (Mayer) مثلاً تضعيف رأي أردمان (Erdman) الذي يعتقد أن حروب النورمان في صقلية واستيلائهم عليها هي حروب صليبية، إلا أن الأدلة التي قدمها ماير لا تعتبر مقنعة ولا تثبت للنقد، ويبقى رأي أردمان هو الأقرب إلى الحقيقة والمنطق، ويستطيع الباحث أن يستشف الدليل على بعد ماير عن الصواب من أقواله نفسها، إذ أنه بعد أن يستعرض الجهود التي بذلها البابا نقولا الثاني (١٠٥٨ - ١٠٦١م) لحل مشكلة الوجود النورماني في جنوب إيطاليا، حيث تم الاتفاق بين هذا البابا والأميرين النورمانيين ريتشارد الكابوي (Richard of Capua) وروبرت جيسكارد (Robert Giscard) في ملفي سنة ١٠٥٩م على أن تكون الأراضي التي احتلاها في جنوب إيطاليا إقطاعاً لهما من البابوية وأن يكونا أفصالا إقطاعيين للكنيسة وبالتالي يضعا قواتهما في خدمتها، يقول : (هذه القوة التي يمكن أن تستعمل في أغراض حرب مقدسة، وقد عرف النورمان من جانبهم فوائد الحرب المقدسة مثل رجال الدين، وقد نقل روبرت جيسكارد (١٠٦١ - ١٠٧٢م) فتوحاته إلى شمال صقلية كنوع من الحرب المقدسة ضد «الكفار!!»، وقد أعلن عن غرضه هذا في ملفي سنة ١٠٥٩م وهكذا نال موافقة الكنيسة على هذا المشروع... ولكن في الحقيقة إن عنصراً جوهرياً للحروب الصليبية كان مفقوداً في هذه الحرب، فليس ثمة دليل على اشتراك فعال للبابوية بالرغم من أنه من الصعب تصديق أن البابوات قد تجاهلوا ذلك)[1].

---

(١) =H. E. Mayer : The Crusades, p.19

فالملاحظ هنا أن ماير قد أوقع نفسه في التناقض، فكيف يمكن لروبرت جيسكارد التابع الإقطاعي للبابوية أن يعلن عن مشروعه المتعلق بشن الحرب ضد مسلمي صقلية وينال موافقة البابوية على هذا المشروع ثم نعتبر أن ذلك كان مجرد غض طرف من البابوية ليس إلا، وأن تلك الحروب ليست حروباً صليبية لأن البابوية لم تشترك فيها بشكل فعال، فإذا لم تكن هذه حرباً صليبية فما هي الحرب الصليبية إذن؟ فهل اشتركت البابوية في الحروب الصليبية التالية لتلك الحرب بأكثر من الموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي؟ وكل ذلك قد توفر في حروب النورمان في صقلية، فهل اشتركت قوات بابوية ذات فعالية عسكرية في أية حملة صليبية تالية؟ فإذا كانت الحروب التي شنت ضد المسلمين بتشجيع البابوية وزعامتها الروحية هي حرب صليبية، فمن باب أولى أن تعتبر الحروب التي شنها تابع إقطاعي للكنيسة وبتوجيهها وموافقتها هي حروب صليبية، وما ينطبق على صقلية ينطبق على الأندلس ثم إفريقية بعد ذلك. ومن هنا نخلص إلى نتيجة هامة هي أن الهجوم الذي شنته قوى العدوان على هذه الأقطار الإسلامية الثلاثة ما هي إلا حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م.

وتقودنا هذه النتيجة إلى موضوع آخر هو تحديد مكانة إفريقية كميدان من الميادين الهامة التي شهدت صراعاً إسلامياً صليبياً مريراً بدءاً من القرن الخامس الهجري. فالملاحظ أن الجزء الأكبر من جهود الباحثين في الحركة الصليبية قد انصرف إلى معالجتها في ميدانها الرئيسي في الشام ومصر، بحيث طغى ذلك على ميادين أخرى هامة لنشاط هذه الحركة عانت منها وذاقت من ويلات حروبها الكثير. وتعتبر إفريقية بمدلولها التاريخي إحدى هذه الميادين. فقد كانت الجبهة الإفريقية ميداناً نشطت فيه قوى العدوان الصليبي لعدة قرون، يتمثل ذلك في حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى ولم تفتر للصليبيين في ذلك همة ولم يوهن الفشل لهم عزيمة. فكما أن بلدان المغرب العربي كانت أول من اكتوى من البلاد العربية بنار الاستعمار الأوروبي الحديث، كانت بلدان الجناح الغربي من العالم الإسلامي ومن ضمنها إفريقية هي التي تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب في ذلك

=وعن الاتفاق بين البابا نقولا الثاني وهذين الأميرين النورمانيين انظر أيضاً :
Bernard Guillemain : The Early Middle Ages, p. 70-71.

يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها قربها الشديد من غرب أوروبا مركز الحركة الصليبية، ومعرفة الأوروبيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين في هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كان يكنه الأوروبيون للمسلمين المغاربة (١) بالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد في أوروبا أكثر من غيرهم من المسلمين، وما كان يشعر به الأوروبيون من خطر هؤلاء إذا تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة. لكل ذلك كانت أوروبا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر وتتحفز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى العدوان الصليبي تتهيأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردي إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حال منهم، فكان هذا التمزق وافتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء، وما أشبه اليوم بالأمس، لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم. فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جبهات في آن واحد، في الأندلس وصقلية وإفريقية.

فقد شهدت الجبهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قبل النصارى الإسبان بزعامة مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس (٢)، حيث أخذت المدن والمعاقل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره،

---

(١) كانت كلمة المغاربة في العصور الوسطى تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره والذي يضم الأندلس والجزر الإسلامية في غرب المتوسط إلى جانب أقطار المغرب العربي، وليس كما درج في العصر الحديث بقصرها على أهل المغرب الأقصى، وسترد في هذه الرسالة بالمدلول القديم ما لم يرد تخصيصها.

(٢) عن هذا الموضوع انظر: B. Guillemain : Op. Cit., p. 68-69

وحيال هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان اضطر مسلمو الأندلس إلى الاستنجاد بالمرابطين في العدوة المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف بن تاشفين على جيوب المقاومة لدولته في العدوة المغربية، عبر البحر إلى الأندلس بجموع غفيرة حيث التقى بألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م التي سطر المرابطون ومن ساعدهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وبانتصار المسلمين في تلك المعركة أوقف المد المسيحي الإسباني مؤقتاً حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد.

وأما الجبهة الصقلية، فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى في غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد يجدون موطئ قدم لهم في جنوب إيطاليا ويحصل روبرت جيسكارد أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثاني به في مؤتمر ملفي سنة ١٠٥٩م كما أسلفت القول، حتى أعلن عن مشروعه في توجيه قواه ضد مسلمي صقلية إرضاء للبابوية التي كانت ترى في ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية، وإبعاداً للخطر النورماني عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكارد راية مقدسة لينال هو وجنده ببركتها النصر على المسلمين، وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح (عليه السلام) هي أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما، وينقل نورمان دانيال (Norman Daniel) عن المؤرخ النورماني مالاتيرا (Mallatera) قوله : إن البابا أراد مكاسب دائمة في صقلية [١]، وساعد ما كان يجري في الجزيرة روبرت جيسكارد ورجار الأول على تنفيذ مشروعهما، فانتهزا الفرصة الذهبية التي قدمها لهما ابن الثمنة حينما استنجد بهما ضد منافسه ابن الحواس وعبرا مضيق مسينا سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م متعللين بهذه الذريعة، وحيال هذا التدخل النورماني استنجد مسلمو صقلية بالمعز بن باديس أمير إفريقية، ولكن إفريقية كانت في تلك الآونة تعاني من التمزق والضعف ما لم تعرفه في طور آخر من تاريخها في ظل الهجرة الهلالية إليها، ومع ذلك فإن المعز عمر أسطولاً كبيراً

(١) Norman Daniel : The Arabs and Mediavel Europe, p.146

وأرسله لنجدتهم ولكن قدر لذلك الأسطول أن لا يصل إلى صقلية إذ هبت عليه عاصفة بحرية في عرض البحر أغرقت معظم سفنه، وقدحاول ابنه وخليفته تميم معاودة الكرة في إغاثة مسلمي صقلية فأرسل حملة عسكرية بقيادة ابنيه أيوب وعلي أقامت في الجزيرة أربع سنوات ولكنها اضطرت للعودة إلى إفريقية كما سيذكر في موضعه، ووجد الغزاة النورمان موطئ قدم لهم في الجزيرة وبدأوا في الاستيلاء على معاقلها، وبعقد معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م بين تميم بن المعز ورجار الأول، فتح المجال أمام الأخير لمواصلة خطته في الاستيلاء على الجزيرة باطمئنان حتى استكمل ذلك في سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩٠م، ثم وثبت قواته على مالطة في العام التالي واحتلتها وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على إفريقية.

وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هي الأخرى من العدوان الصليبي في تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هي المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لانشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخلية، وأخذت تعمل على بناء قوة بحرية بهمة ونشاط، ولم تكد تمضي سنوات قليلة حتى أخذت أساطيلها تمخر مياه ذلك البحر القريبة من الشواطئ الأوروبية أولاً خوفاً من أسطول مجاهد العامري صاحب دانية الذي استطاع تجميدنشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية في خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها. فبتشجيع البابا لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا (بيشة) على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م، ثم على قورسقة (كورسيكا) بعد ذلك بقليل، وهاجم أسطول بيزا مدينة بلرم الصقلية سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م حيث خرب أرباضها وميناءها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل في حروب الجبهة الصقلية اشتركت في حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت في مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت لها تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ ١١٣ ألف دينار ذهبي، كما أجبرت بلنسية على دفع أتاوة مماثلة

تقدر بمبلغ ٢٠ ألف دينار ذهبي لتفتدي نفسها بذلك من النهب والسلب [١]، وهاجمت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات.

ونتيجة لذلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هي المتحكمة في مياه البحر الأبيض المتوسط، مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التي كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحريّة آخذة في النمو حتى تنفرد بالسيطرة على ذلك البحر من ناحية، والحيلولة دون قيام مسلمي إفريقيةبمدّ يد المساعدة لإخوانهم في صقلية أو غيرها من ناحية ثانية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية من ناحية ثالثة، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولي جنوة وبيزا مدعومة بفرق من مدينة أمالفي وقوة عسكرية أخرى أمدهما بها البابا بمهاجمة مدينة المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م أي بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وظلت في يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للقوى المتحالفة فدية ماليّة ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهّد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية في المياه الإفريقية ومنحهم امتيازات تجارية في بلاده كما سيذكر في موضعه.

مما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبي على القسم الغربي من العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والذي كانت تدير دفته البابوية قد احتدم في ثلاث جبهات كانت إفريقية إحداها، ولا ينكر إلا مكابر أن هذا الهجوم إنما كان وجهاً من أوجه الحركة الصليبية، وإن تطرق الشك إلى دور البابوية في الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس وصقلية، فإنه لا مجال لهذا الشك في دورها في الهجوم على إفريقية بدليل اشتراك قوات تحت لوائها في هذا الهجوم. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩١هـ إذ يفهم من النص الذي أورده أن تلك الحوادث كانت مترابطة يحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية إذ يقول : (كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ص٣٧٢.

إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها... وتطرقوا إلى إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم – ثم ملكوا غيره على ما تراه – فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام) (١).

لقد كانت إفريقية محط أنظار القوى الصليبية قبل تطلعهم إلى المشرق، وقد فطن ابن الأثير لهذه الحقيقة حتى إنه اعتبرها هي المقصودة بالزحف الصليبي إلى أن تمكن صاحب صقلية من تحويل هذا الزحف إلى المشرق فيقول في ذلك : (فلما كانت سنة تسعين بعد الأربعمائة خرجوا – أي الفرنج – إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي الذي ملك صقلية، فأرسل إلى رجار يقول له : قد جمعت جمعاً كثيراً، وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها وأكون مجاوراً لك. فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك فقالوا : وحق الإنجيل، هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاداً نصرانية... (فاستسخف رأيهم) وقال : إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعسكر من عندي أيضاً، فإن فتحوا البلاد كانت لهم، وصارت المؤونة لهم من صقلية، وينقطع عني إليهم ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم، ويقول تميم : غدرت بي، ونقضت عهدي، وتقطع الصلة والأسفار بيننا. وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها، وأحضر رسوله وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود، فتجهزوا وخرجوا إلى الشام) (٢). وبصرف النظر عما يمكن أن يوجه لهذا النص من نقد، إلا أنه يثبت أن تطلع القوى الصليبية إلى إفريقية قد برز منذ بداية هذا الطور من أطوار الحركة الصليبية، وقبل تطلعها إلى المشرق وما منعهم من الاتجاه إليها بكل قواهم إلا صدُّ النورمان لهم الذين كانوا يريدونها خالصة لهم وحدهم دون غيرهم من تلك القوى

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠، ص٢٧٢ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠، ص٢٧٢.

وأنهم سيقومون باحتلالها متى وجدوا في أنفسهم القوة وتهيأت لهم الظروف.

وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا أن ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقية ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس شرقاً إلى قرب مدينة تونس غرباً في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، فكانت الحرب الصليبية مشتعلة في الجبهة الإفريقية أثناء احتدامها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين الأول بطردهم من المهدية آخر معاقلهم فيها سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م كما سيذكر فيما بعد، وحينما دب الوهن في جسم الدولة الموحدية منذ أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) عادت القوى الصليبية لممارسة نشاطها في جبهتها من جديد بصور مختلفة حتى إذا ما انهارت تلك الدولة وجهت إليها حملة صليبية ضخمة هي التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م والتي عرفت في التاريخ بالحملة الصليبية الثامنة. وبالرغم من أن تلك الحملة لم تحقق معظم أهدافها، إلا أن ذلك لم يصرف القوى الصليبية عنها بل كان العكس هو الذي حدث إذ أنها أخذت تشهد ضغطاً صليبياً متواصلاً.

ومنذ طرد الصليبيين من المشرق، اتجهت الحركة الصليبية إلى إفريقية باهتمام أشد، فتارة يهاجمها قراصنة الصليبيين، وتغير عليها جيوشهم تارة أخرى، وتحاك المؤامرات ضدها تارة ثالثة، حتى قيل إن الحروب الصليبية انتقلت من المشرق إلى المغرب، ولعل في ذكر حملة الجنويين على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م وحملة لويس البوربوني على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م ما يكفي للدلالة على صحة هذا القول. وزادت ضراوة الهجوم الصليبي عليها في القرنين التاليين التاسع والعاشر للهجرة (الخامس عشر والسادس عشر للميلاد)، حينما حمل النصارى الإسبان لواء الحركة الصليبية وبدأوا يضربون سواحل المغرب العربي الشمالية من برقة إلى طنجة في حين تولى البرتغاليون مهاجمة سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي، وقد استمر هذا الهجوم طوال بقية العصور الوسطى، وظلت إفريقية ميداناً للصراع بين المسلمين والصليبيين الإسبان حتى أواسط القرن العاشر

الهجري (السادس عشر للميلاد) حينما انضوت إفريقية تحت لواء الدولة العثمانية.

وبالرغم من أهمية جبهة إفريقية في تاريخ الحركة الصليبية وضراوة الصراع الإسلامي الصليبي فيها، فإنها لم تلق العناية الكافية من الباحثين، الأمر الذي جعلني أختار دوراً من أدوار نشاط الحركة الصليبية في هذه الجبهة موضوعاً لهذه الدراسة لبحث الحوادث التي جرت خلاله وتسليط مزيد من الضوء عليها، وهو ذلك الدور الذي غطى الفترة الممتدة بين سنتي ٦٦٨ - ٧٩٢هـ / ١٢٧٠- ١٣٩٠م لعلي بذلك أسهم في سد النقص في المكتبة العربية عامة والتاريخية بصفة خاصّة التي تخلو من الدراسات العلمية لنشاط الحركة الصليبية في هذه الجبهة، وأضع علامة واضحة على الطريق لدراسات متخصصة تالية تغطي جميع أدوار هذا النشاط. وتكمن أهمية هذا الدور في أن بدايته ونهايته تمثلان منعطفين هامين في تاريخ الحركة الصليبية، فقد شهدت سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م قيام لويس التاسع بحملته على إفريقية والتي كانت آخر الحملات الصليبية التي قادها أحد ملوك أوروبا العظام ضد العالم الإسلامي، وعقدت عليها الآمال العريضة لتحقيق أهداف صليبية هامة، ولكن فشلها كان له أثره الفعال في تطور الحركة الصليبية ودخولها في طورها الجديد الذي ظهرت به في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد)، في حين تمثل سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م منعطفاً آخر في تاريخ تلك الحركة، إذ بفشل حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية التي قام بها في ذلك العام، وما تلا ذلك من سحق الأتراك العثمانيين للحملة الصليبية في نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م أي بعد ذلك بست سنوات فقط، أفل نجم فرنسا من سماء الحركة الصليبية، تلك الدولة التي كانت بمثابة العمود الفقري للحركة المذكورة واضطرت للتخلي عن دورها الهام في نشاطها لتكتفي بدور المشجع الأمر الذي كان له بلا شك أثره القوي على تلك الحركة. لقد لبست الحركة الصليبية في هذا الطور الذي بدأ منذ أواخر القرن السابع الهجري وشمل القرن الثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ثوباً جديداً مما جعله طوراً مميزاً عن سواه من أطوار تلك الحركة. أما أسباب هذا التطور الذي جد على الحركة الصليبية في هذا الطور فتعود إلى أن كلا العالمين الإسلامي والمسيحي بدآ منذ أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) يشهدان تبدلاً في أوضاعهما السياسية

والاجتماعية والاقتصادية، إذ اختفت قوى كان لها دور بارز في السابق وظهرت بدلاً منها قوى جديدة، وتلاشت قيم ومثل لتحل محلها أخرى جديدة، فكان ذلك سبباً وفي الوقت نفسه نتيجة لهذا التطور.

فمنذ منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أخذت البابوية تسير نحو الضعف بخطوات حثيثة، فما كاد ذلك القرن يشارف على الانتهاء حتى أصبحت شبه عاجزة، إلى أن انتهى بها الأمر إلى نقل مقرها من روما إلى أفينون بفرنسا، لتبدأ فترة من تاريخها نزلت فيها من عليائها وأصبحت رهينة رغبة ملوك فرنسا، تلك الفترة التي عرفت في تاريخ البابوية بالأسر البابلي والتي امتدت من سنة ١٣٠٥م إلى سنة ١٣٧٨م (١). وتلا الأسر البابلي حدث آخر كان أشد نكاية عليها من الأول هو الانشقاق الديني الأكبر (سنة ١٣٧٨ – ١٤١٧م) والذي كان في حقيقته كارثة حلت بها (٢). وقد أدى هذا الانشقاق إلى انقسام أوروبا الغربية إلى معسكرين، وأخذ كل من الفريقين يسفه الآخر ويبدي معايبه ويظهره بمظهر عدم اللياقة وقلة الصلاحية ويستصدر ضده قرارات الحرمان، مما ترك أسوأ الأثر في نفوس المعاصرين (٣) الذين بدأوا يعيدون النظر في حقيقة منصب البابا ومصدر سلطته، فظهر عدد من المفكرين المعتدلين والمتطرفين ينادون بتحرير الفكر من القيود التي فرضتها البابوية (٤). وكان لكل ذلك أثره على البابوية فقد اهتزت مكانتها السامية في النفوس وتزعزعت ثقة الناس بها، فأثر ذلك بدون شك على الحركة الصليبية، إذ بضعف

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص٥٠٩ وما بعدها، د. عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج١ ص٢٩ حاشية ٢ .
A. Atiya : The Crussade in the later Middle Ages, p.48.

(٢) عن الأسر البابلي والانشقاق الديني انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص٥٠٩ وما بعدها. د. عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ج١ ص٢٩٨.

(٣) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٥١٥.

(٤) من المفكرين المعتدلين الذين ظهروا في القرن الرابع عشر : مارسيليو دي بودا (١٢٧٠ – ١٣٣٤م) صاحب كتاب دي فنسن باسيز، ومساعده الفرنسي جين دي جوندن، ثم وليم وجون من ويسل وغيرهم. أما المتطرفون فمنهم جون ويكلف (١٣٢٧ – ١٣٨٤م) وأتباعه في إنجلترا ثم جون هيس وأتباعه في بوهيميا. انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص ٥١٠ وما بعدها، د. عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ص٢٩٨ وما بعدها.. A. Atiya : Ibid, p.9.

البابوية فقدت تلك الحركة زعامتها الروحية الفعالة، حتى إن المحاولات التي قام بها بعض بابوات القرن الرابع عشر للدعوة لحملات صليبية أدت إلى نتائج هزيلة إذا ما قورنت بالدور الذي كانت تقوم به البابوية في السابق [(١)].

أما الامبراطورية الرومانية المقدسة التي قذفت بآلاف المحاربين في ساحات القتال أثناء الحملات الصليبية الأولى، فقد انحلت وازداد نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة الأمبراطورية [(٢)]، واكتفى ذوو النزعة الصليبية من الألمان بتوجيه جهودهم ضد الوثنيين في شرق أوروبا لتنصيرهم بالقوة ومنهم من ارتكب أبشع الجرائم في حق البروسيين باسم التنصير إرضاءً لنزعتهم تلك [(٣)]. وقد شعر هؤلاء أنهم بذلك إنما يكونون قد أدوا ما عليهم في خدمة المسيحية وبالتالي شغلوا عن التفكير في الاشتراك في أية حملة صليبية جديدة ضد المسلمين، اللهم إلا حينما أخذ الأتراك العثمانيون يدقون أبواب أوروبا الشرقية حينئذٍ اتجهت جهود الكثيرين منهم إلى العمل لمواجهة هذا الخطر. وأما فرنسا وإنكلترا اللتين كانتا فيما مضى عماد الحركة الصليبية – وبصفة خاصة فرنسا – فزيادة على المشاكل الداخلية التي واجهتها كل منهما [(٤)]، اشتبكتا معاً في حروب مريرة غطت فترة طويلة من أواخر العصور الوسطى هي الحرب التي عرفت في التاريخ باسم حرب المئة عام والتي استنزفت جزءاً كبيراً

---

(١) من هذه المحاولات الجهود التي قام بها البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ – ١٣١٤م) الذي كان أول بابا في حقبة الأسر البابلي، إذ جمع مبلغ ثلاثمائة ألف فلورين ذهبي لتمويل حملة صليبية، وعندما توفي تركها في عهدة قريبه برتراند دي جوت، وحاول خلفه البابا يوحنا الثاني والعشرين تنفيذ وصيته بتسيير حملة صليبية لكن جهوده باءت بالفشل. انظر عن ذلك :

A. S. Atiya : Op. Cit., p13

(٢) A. S. Atiya : Op. Cit., p.4

(٣) من هؤلاء جماعة الفرسان التيوتون الذين نقلوا نشاطهم من الديار المقدسة بعد سقوط عكا في يدالمسلمين سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م إلى شرق أوروبا.

(٤) من أهم المشاكل الداخلية التي واجهتها فرنسا في القرن الرابع عشر، المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها وباء الموت الأسود الذي أنشب أظفاره في مناطق واسعة من العالم القديم (١٣٤٧ – ١٣٥٠م) وكان أكثر المتضررين الفرنسيين منه هم طبقة العمال والفلاحين فهبوا يطالبون بحقوقهم الأمر الذي أدى إلى إصدار الميثاق الكبير سنة ١٣٥٧م ولكن ملكها شارل الخامس نقضه في العام التالي فثارت ثائرة هذه الطبقة وانفجر الوضع في شكل ثورة عارمة=

من طاقات كل منهما وجمدت نشاط فرسان كلا البلدين للحرب على الأرض الفرنسية، مما جعل الحركة الصليبية تخسر الكثير بتقييد هذه الحرب لهاتين الدولتين، ومما يدل على أهمية هذا الصراع بالنسبة للحركة الصليبية أن فترة التقارب بين الدولتين التي تمت في عهد شارل السادس ملك فرنسا قد تمخضت عن حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وإسهام كل منهما بنصيب وافر في حملة نيقوبوليس الصليبية سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م هذا المجهود الذي لم يكن ليتم لو بقيت الحرب مشتعلة بين الطرفين في تلك الفترة.

وأما المدن البحرية الإيطالية التي كانت دائما لا تهمها الحركة الصليبية إلا بالقدر الذي تحقق لها هذه الحركة مصالحها، فقد بقيت تقوم بدور المحرك لقوى العدوان الصليبي وتوجيه ذلك العدوان حيثما يمكنها من إحراز مكسب لها، إلا أنه جد أمر جديد عليها في هذا الطور إذ اشتد التنافس فيما بين المدينتين اللتين كانتا أكبر هذه المدن وهما البندقية وجنوة، وتحول هذا التنافس إلى صراع مرير خرجت منه البندقية ظافرة فنالت تبعاً لذلك نصيب الأسد من تجارة الشرق بينما أخذت جنوة زعيمة مدن ليجوريا تحاول تعويض خسارتها بإيجاد مراكز لها في المغرب العربي عامة وإفريقية بصفة خاصة، مسخرة كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق هذا الهدف، يساعدها في ذلك حليفتها بيزا. فكانت جنوة تمارس نشاطها العدواني لوحدها أو بمعونة بيزا لنيل المكاسب التي تبتغيها، ولكنها إذا أحست أن تنفيذ أحد مشاريعها تلك هو فوق طاقتها كانت تستعين بالقوى الصليبية الأخرى. وأما مملكة

=اشتعلت سنة ١٣٥٨ هي التي عرفت بثورة الجاك (الفلاحين). أما بالنسبة لإنجلترا فقد أدى فشل ريتشارد قلب الأسد في حروبه الصليبية إلى يقظة الشعب الإنكليزي فبدأ الصراع بينه وبين ملوكه مما اضطر الملك يوحنا إلى إصدار الميثاق الأكبر Magna Carta في ١٥يونيو ١٢١٥م واستمر نضال الشعب الإنجليزي في عهد خلفه هنري الثالث الذي كرهه الشعب لاعتماده على الفرنسيين في إدارته وخضوعه للبابا فأعلن الشعب قيام البرلمان سنة ١٢٣٩م واستمر نضال الشعب طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إذ كان النزاع بينه وبين الملك يتجدد كلما حاول الملك تجاهل مكاسبه أو التعدي على حرياته.

عن هذا الموضوع : انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٤٧٤ وما بعدها كذلك فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج٢ ص٢٩٤ وما بعدها.

الصقليتين، فمنذ سقوط أسرة هوتفيل النورمانية التي أسهمت بنصيب كبير في نشاط الحركة الصليبية في ميادين المشرق والمغرب على حد سواء، أخذ دور تلك المملكة في هذا النشاط في التراجع، وما أن سقطت أسرة هوهنشتاوفن في أواسط القرن الثالث عشر حتى أصبحت هذه المملكة ذاتها موضع تنافس بين فرنسا وإنجلترا وأرغونة، وخرجت إنجلترا من هذا التنافس ليستمر بين الدولتين الأخريين، وفاز شارل صاحب أنجو بعرشها مما مكنه من القيام بدور بارز في حملة أخيه لويس التاسع على تونس، وزادت وفاة شارل أنجو سنة ١٢٨٢م من حدة هذا التنافس بين هاتين الدولتين، ولما كان لكل منهما أسلوب يغاير الآخر في تنفيذ مخططات الحركة الصليبية فقد ترك ذلك أثراً سيئاً على دورها في النشاط الصليبي وزاد الطين بلة انقسامها إلى مملكتين إحداهما صقلية التي خضعت لملوك أرغونة والثانية مملكة نابلي التي ظلت تحت حكم الأسرة الأنجوية، مما أدى إلى تقليص هذا الدور إلى حد كبير واكتفائها بدور المساند طوال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد). وأما بالنسبة لشبه جزيرة إيبريه، فقد سيطر النصارى على الجزء الأكبر منها بينما حصر المسلمون في رقعة صغيرة في ركنها الجنوبي الشرقي هي مملكة غرناطة، وظل هؤلاء النصارى طوال القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) يحاولون انتهاز أي فرصة تسنح لمواصلة الضغط على المسلمين لطردهم من شبه الجزيرة مما كان يجعل هؤلاء لا يكفون عن استصراخ مسلمي العدوة المغربية، فكان لذلك أثره القوي في إبقاء جذوة الروح الصليبية متقدة في نفوس النصارى الإسبان، حتى أصبح منهم من يرى أن الصليبية الحقة هي تلك التي تتبنى طرد المسلمين من الأندلس وضربهم في العدوة المغربية حتى لا يعاود هؤلاء تجميع قواهم والوثوب إلى البر الأندلسي من جديد.

إن هذه التطورات السياسية بالإضافة إلى التطورات الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي استجدت في الغرب الأوروبي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) والتي تمثلت في ازدياد شعور الولاء لدى الشعوب الأوروبية للوطن الكبير، ومساندة تلك الشعوب لملوكها على حساب أمراء الإقطاع نظراً لاتفاق مصلحتها مع مصلحة هؤلاء الملوك وإحساس تلك الشعوب بأن الملكيات القوية هي التي في استطاعتها توفير الأمن

الداخلي وحماية المواطنين من المظالم والابتزاز الذي كان يتعرض له هؤلاء من الأمراء الإقطاعيين، والدفاع عن الوطن ضد العدوان الخارجي، ثم تحرر الفكر الأوروبي من القيود التي فرضتها عليه الكنيسة، ثم ازدياد حجم التبادل التجاري بين الشرق والغرب وما صاحبه من اتصال حضاري كبير بينهما، كل هذه التطورات أدت إلى دخول الحركة الصليبية في هذا الطور الجديد.

ولاستكمال توضيح الصورة، تجدر الإشارة إلى التغيرات التي شهدها العالم الإسلامي في ذلك القرن أيضاً والتي أثرت بدون شك في الحركة الصليبية من قريب أوبعيد، فقد انهارت امبراطورية الموحدين في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م في المغرب الإسلامي بعد فترة طويلة من الضعف والاعتلال لتقوم على أنقاضها أربع دول يتفق بعضها حيناً وتتخاصم أحياناً، هي دولة بني الأحمر في غرناطة، والدولة المرينية في المغرب الأقصى والدولة الزيانية أو العبداودية في المغرب الأوسط، والدولة الحفصية في إفريقية، وكانت تنتاب هذه الدول في ذلك القرن فترات من الضعف والقوة، ولكن انشغال كل منها بمشاكلها الداخلية من ناحية، وبمنازعاتها مع شقيقاتها من دول المغرب الإسلامي الأخرى من ناحية ثانية، أدى إلى ضعفها جميعاً وأبقى الأمل قوياً لدى الحركة الصليبية في تحقيق أهدافها في الأندلس وإفريقية. أما في المشرق، فقد أخذت المشاكل الداخلية ترهق دولة المماليك التي ضمت قسماً كبيراً من الشرق الأوسط الإسلامي، بعد أن كانت قد حملت لواء الجهاد الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، فطردت الصليبيين من معاقلهم في الشام، كما أوقفت المد التتاري شرقي نهر الفرات واجتاحت مملكة أرمينيا الصغرى التي كانت بمثابة رأس حربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامي، كما ربطت مملكة النوبة المسيحية بعجلتها، ولكن عدم وجود نظام ثابت لولاية عرش هذه الدولة فت في عضدها، فكانت هذه المشكلة هي أهم المشاكل التي شغلت بال أمرائها ففترت هممهم عن الجهاد لا سيما بعد طرد الصليبيين من عكا، واعتناق تتار فارس الإسلام، فركزت هذه الدولة جل نشاطها على كونها الوسيط الرئيسي للتجارة بين الشرق والغرب، وفقدت دورها القيادي في جهاد أعداء الإسلام، لتتولى رفع رايته قوة إسلامية أخرى هي دولة الأتراك العثمانيين التي بدأت

عهدها إمارة صغيرة من ضمن الإمارات التركية العديدة التي قامت في الأناضول لكنها سرعان ما نمت ووسع أمراؤها رقعتها على حساب جيرانهم بالحرب تارة وبالمصاهرات السياسية تارة أخرى، وما كاد ذلك القرن ينتصف، حتى وثبت جيوشها إلى البر الأوروبي حاملة لواء الجهاد في شرق أوروبا، وقد أرهبت هذه القوة الإسلامية الفتية الممالك الأوروبية وشدت انتباهها، فأخذت توليها قسطاً كبيراً من اهتمامها وهرعت للعمل على مواجهتها وتحطيمها مسخرة في سبيل ذلك جزءاً كبيراً من إمكانياتها وكان ذلك بالطبع على حساب الميادين الأخرى، حتى وجهت ضدها في أواخر ذلك القرن حملة صليبية ضخمة عدتها مائة ألف جندي كانت آخر حملة صليبية كبيرة في العصور الوسطى، ولكن السلطان بايزيد الأول الملقب بالصاعقة تمكن من سحقها في معركة نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م كما أسلفنا القول، فكانت هذه النهاية كارثة كبرى حلت بأوروبا، ولولا اضطرار العثمانيين للمبادرة إلى مواجهة خطر تيمورلنك الزاحف على بلادهم من الشرق بعيد هذه المعركة لمضوا في تقدمهم غرباً إلى قلب أوروبا.

كل تلك الظروف طبعت الحركة الصليبية في هذا الدور بسمة خاصة مميزة، أما ماهية هذا التطور فتتمثل في أن الحملات الصليبية الموجهة ضد العالم الإسلامي اتخذت صفة الغارات السريعة جاعلة من القول المأثور (اضرب واهرب) شعاراً لها، فلم تكن لها القدرة على الاستقرار، ثم بروز الصليبية السلمية أي الدعوة إلى استعمال الوسائل السلمية لتحقيق الأهداف الصليبية وقد اتخذ العديد من صليبيي هذا القرن من الدعوة لتنصير المسلمين بالإقناع شعاراً لهم. لقد برزت حركة التنصير هذه إلى سطح الحوادث لا لتحل محل الدعوة لحرب المسلمين، وإنما لتقف إلى جانبها وتكون مكملة لها. صحيح أن فكرة التنصير لم تكن بالشيء الجديد على الحركة الصليبية، إذ منذ أوائل القرن الثالث عشر اتجهت جهود البابوية إلى دعوة الحكام غير المسيحيين إلى اعتناق الديانة المسيحية، ووجدت في رهبان منظمتي الدومنيكان والفرانسيسكان جيشاً من المنصرين الذين كانوا على أهبة الاستعداد للذهاب إلى آخر مكان في العالم حاملين لواء التنصير، فيذكر لنا التاريخ عدة محاولات جرت في هذا الاتجاه منها مقابلة فرانسيس الأسوزي (القديس فرانسيس) مؤسس منظمة

الفرانسيسكان للسلطان الكامل الأيوبي إبان الحملة الصليبية الخامسة على مصر بهدف إقناعه بالتنصر، ثم محاولات البابوية ولويس التاسع مع خانات التتار، ثم محاولات البابوية مع الخليفة المرتضى الموحدي، ولكن الجديد في الأمر أن حركة التنصير منذ أوائل الدور الذي نبحث فيه (أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد) اتجهت إلى الشعوب بدلاً من الحكام ولعل أكثر ما يتجلى ذلك في جهودها في المغرب العربي وبخاصة إفريقية.

لقد اتجهت جهود القوى الصليبية لتنصير مسلمي إفريقية منذ وقت مبكر، ويمكن للباحث أن يستشف ذلك من رسالة البابا جريجوري السابع التي وجهها إلى الملك الناصر ابن علناس الحمادي سنة ١٠٧٦م كما سنذكره في موضعه، ثم حقد البابوية على الامبراطور فردريك الثاني لأنه لم يسمح فيما زعمت للأمير عبد العزيز الحفصي الذي كان لاجئاً سياسياً لديه بالسفر إلى روما لتعميده، ويبدو هذا الأمر أشد وضوحاً في أقوال لويس التاسع لسفراء المستنصر الحفصي عشية الإعداد لحملته على تونس بالإضافة إلى أن تنصير مسلمي إفريقية كان من أهم أهداف تلك الحملة، ثم أخيراً ما يستفاد من الرسائل المتبادلة بين ملوك أرغونة وابن اللحياني الحفصي كما سيذكر في موضعه، ولما باءت تلك الجهود مع الحكام بالفشل، نظراً لعدة أسباب أهمها ما كان يتمتع به معظم هؤلاء من الثقافة الدينية بحيث صعب على المُنصِّرين إن لم يكن استحال عليهم إقناعهم بالحجج التي كان يسوقها هؤلاء على صحة المسيحية وبطلان الإسلام في زعمهم، ثم تيقظ الشعب وشدة تمسكه بعقيدته الإسلامية بحيث كان من المستحيل أن يمر موضوع تنصر الحاكم بسلام لو حدث، ثم ارتكاز الحفصيين إلى ركيزة دينية في وصولهم إلى الحكم هي المبادئ الموحدية من ناحية والنسب العمري (١) من ناحية ثانية، فلم يكن من السهل على هؤلاء هدم أهم ركن من أركان وجودهم ليعتنقوا المسيحية، حتى لو تعهد لهم ملوك أوروبا بالمحافظة على عروشهم لأن الشعب سيطردهم إن آجلاً أم عاجلاً، لكل ذلك اتجهت حركة التنصير في إفريقية إلى الشعب مباشرة عاقدة الأمل على أنها باتصالها به تستطيع جذب أبنائه إلى المسيحية، وعندئذٍ

---

(١) استند بنو حفص في نسبهم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في حين استند بنو زيان في نسبهم إلى النسب النبوي الشريف، أما بنو مرين فقد وصلوا نسبهم بقيس عيلان.

سينقلب الوضع في المنطقة لصالح المسيحية وبالتالي ستتحقق أهداف الحركة الصليبية فيها بطريقة أسهل. ولعل جهود رامون لول في هذا المجال تعتبر خير دليل على هذا الاتجاه.

وببروز حركة التنصير بهذا الشكل تكون قد اكتملت الأركان الثلاثة للحركة الصليبية في إفريقية التي استمد منها الاستعمار الأوروبي الحديث نظريات وجوده. فالاستعمار الحديث قام على ثلاثة أركان هي : الجندي الاستعماري والقسيس والمستوطن (المعمر)، وتبدو هذه الأركان الثلاثة متمثلة بوضوح في نشاط الحركة الصليبية في إفريقية، فالجندي الصليبي والمستوطن سايرا بعضهما إلى إفريقية منذ الهجوم النورماني عليها، إذ ما كاد (رجار الثاني) يحتل ما احتله من سواحلها حتى وجه الدعوة لرعاياه في جنوب إيطاليا وصقلية للهجرة إلى إفريقية والاستقرار فيها واستغلالها، وقد لبى العديد منهم هذه الدعوة كما فعل أحفادهم حينما دعاهم موسوليني في القرن العشرين لنفس الغرض. ومنذ اتجاه إفريقية إلى الانفصال عن الدولة الموحدية عادت الجاليات الأوروبية للاستقرار فيها من جديد لتنهب خيراتها بشكل أو بآخر على أمل استيطانها إلى الأبد، وكان مما شجعهم على ذلك تردي الأوضاع فيها إبان عصر الفوضى والاضطراب الذي أظلها عقب وفاة المستنصر الأول، ثم جاءت حركة التنصير برهبانها وقساوستها لتكتمل بها هذه الأركان الثلاثة.

ولعل فيما تقدم ما يكفي لتوضيح أهمية هذا الدور الذي اختصت به هذه الدراسة بالنسبة لتاريخ إفريقية من ناحية والحركة الصليبية من ناحية أخرى، والتي جعلتُ عنوانها (الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري) «سنة ٦٦٨هـ - ٧٩٢هـ / ١٢٧٠م - ١٣٩٠م»، والتي قسمتها إلى مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة، فقد بينت فيها أهمية هذا البحث والسبب في اختياره وألمحت فيها إلى أوضاع العالمين المسيحي والإسلامي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) والتطورات التي استجدت على الحركة الصليبية في ذلك القرن، ثم بينت منهج الدراسة وقمت بتحليل أهم المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها والتلميح إلى معاناتي في جمع المادة والمشقات التي كابدتها في سبيل ذلك، وأشرت فيها أخيراً إلى النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

وأما التمهيد، فقد تعرضت فيه لجغرافية إفريقية طبيعياً وبشرياً وأثر تلك الجغرافية في تاريخها، ثم تناولت تاريخها قبل الفتح الإسلامي لها بإيجاز شديد حيث ركزت على تبيين أهميتها بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي، هذه الأهمية التي جعلتها محط أنظار القوى المسيحية المناهضة للإسلام وموضعاً لتطلعها الدائم للاستيلاء عليها وإعادتها إلى المسيحية، وإن استهداف الحركة الصليبية لها إنما كان حلقة في سلسلة الصراع الإسلامي المسيحي العام، ثم تتبعتُ بإيجاز شديد أيضاً مراحل الفتح الإسلامي لها ودور مسلميها في الجهاد منذ استقرار الفتح في ربوعها. وأخيراً أشرت إلى أهم الحوادث التاريخية التي مرت بها في القرون الأربعة الأولى للهجرة مبيناً ما كان لقيام الدولة الفاطمية فيها في أواخر القرن الثالث الهجري (العاشر للميلاد) من أثر في خُبُوِّ جذوة هذا الجهاد في نفوس مسلميها.

وخصصت الباب الأول لمعالجة الحركة الصليبية في إفريقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) إلى أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وقسمته إلى ثلاثة فصول، أشرت في الفصل الأول إلى الهجوم الصليبي على المسلمين في كل من الأندلس وصقلية، وبينت ما أسهمت به إفريقية من جهود في مساندة مسلمي هذين البلدين ومساعدتهم في مواجهة هذا العدوان والتصدي له. وتعرضت في الفصل الثاني للهجوم الصليبي على المشرق في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وبحث الصدى الذي أحدثه هذا الهجوم في المغرب العربي بشكل عام وإفريقية بصفة خاصة مبيناً أن رَدَّ فعل مسلمي إفريقية تجاه هذا الهجوم اتخذ ثلاثة اتجاهات أولها : الدفاع عن بلادهم وصد الهجوم النورماني عليها، وثانيها : مساعدة مسلمي الأندلس بما تيسر لديهم من إمكانيات للوقوف في وجه الهجوم الصليبي المسعور الذي كانوا يتعرضون له. وثالثها : مساعدتهم لإخوانهم مسلمي المشرق في مواجهة الصليبيين في تلك المنطقة، كما أشرت إلى الاتصالات التي كانت تجري بين حكام إفريقية ونظرائهم من حكام المسلمين في المشرق والمغرب في تلك الفترة بغية توحيد الجهود لمواجهة العدوان الصليبي على العالم الإسلامي مبيناً أهمية تلك الاتصالات وما حققته من نتائج. وخصصت الفصل الثالث لدراسة العدوان النورماني على إفريقية مبيناً ماهيته ومراحله والأسباب التي أدت إلى نجاح رجار الثاني في احتلال ساحل إفريقية في أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر

للميلاد)، كما أشرت إلى وضع إفريقية في ظل هذا الاحتلال، ثم تتبعت ثورات مدن إفريقية على النورمان وزحف عبد المؤمن بن علي الموحدي إلى المهدية آخر معاقل النورمان في إفريقية وتحريرها.

وأما الباب الثاني الذي قسمته إلى ثلاثة فصول أيضاً، فقد درست فيه حملة لويس التاسع ملك فرنسا على إفريقية، فبحثت في الفصل الأول النشاط الصليبي لهذا الملك بعد فشل حملته على مصر، وبينت أثر فشل مخططاته العدوانية وجهوده طوال إقامته في الديار المقدسة في اتجاهه بحملته الجديدة إلى إفريقية، ثم الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيامه بتلك الحملة والجهود التي بذلت في الإعداد لها والظروف التي أحاطت بها وأهدافها والآمال التي عقدت عليها. وتتبعت في الفصل الثاني مسيرة هذه الحملة منذ خروجها بحراً من جنوب فرنسا ونزولها في قرطاجة ثم المقاومة الإسلامية التي واجهتها وموت لويس التاسع والصلح الذي عقد بين الصليبيين والمستنصر الحفصي ثم انسحاب الصليبيين عائدين إلى بلادهم، ودرست في الفصل الثالث النتائج التي أسفرت عنها تلك الحملة في ضوء تحليل وثيقة الصلح المبرم بين الطرفين.

أما الباب الثالث فقد تعرضت فيه لبحث التآمر الصليبي على إفريقية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بصوره المختلفة، وقسمته إلى فصلين، بينت في الفصل الأول أثر طرد الصليبيين من بلاد الشام في تحويل أنظارهم إلى إفريقية، وتخصيص قسم كبير من جهودهم لمواصلة نشاطهم في جبهتها، ثم أشرت إلى مشاريع الدعاة الصليبيين التي تعرضت لإفريقية في ذلك القرن، وسلطتُ الضوء على وجود الجند النصارى في البلاط الحفصي كحرس للسلاطين مبيناً أن هؤلاء ما كانوا إلا مشروعاً صليبياً له خطورته. وخصصت الفصل الثاني لدراسة حركة التنصير في إفريقية في تلك الفترة كوجه آخر من وجوه الصراع الإسلامي الصليبي في جبهة إفريقية، حيث تعرضت فيه لجذور تلك الحركة ثم لجهود المنصرين في إفريقية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، ثم في القرن الذي يليه مركزاً على جهود رامون لول كمثال على جهود هؤلاء المنصرين، وأشرت بعد ذلك إلى دور مملكة أرغونة في هذه الحركة، ثم بينتُ فشل الحركة المذكورة وانتصار

المسلمين فكرياً بالإضافة إلى انتصارهم العسكري.

وقمت في الباب الرابع بدراسة الحملات التي شنها الصليبيون على إفريقية في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وطوال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) وقسمته إلى ثلاثة فصول، خصصت الفصل الأول منها لدراسة نشاط مملكة أرغونة العسكري في هذه الجبهة، حيث أشرت إلى اضطراب أوضاع إفريقية عقب وفاة المستنصر الأول كعامل مشجع لأرغونة لإلقاء ثقلها في إفريقية، ثم تناولت محاولة بطرس (بيدرو) الثالث احتلال قسنطينة، ثم قيام أسطول أرغونة بمهاجمة جزيرة جربة واحتلالها وفشله في احتلال المهدية بعد ذلك، وتعرضت لحركة ابن أبي دبوس التي كانت مدعومة من تلك المملكة، وأخيراً أشرت إلى هجمات قراصنة أرغونة وصقلية على شواطئ إفريقية كوسيلة لتحقيق أهداف ملوكهم فيها. وبحثت في الفصل الثاني الحملات التي شنتها أساطيل المدن الإيطالية على إفريقية في النصف الثاني من ذلك القرن مبيناً أثر النزاع بين جنوة والبندقية على الصراع الإسلامي الصليبي في جبهة إفريقية، ثم تعرضت لحملة الجنويين على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م مبيناً دوافعها ومتتبعاً حوادثها، ودرستُ أخيراً حملة هؤلاء وحلفائهم على جزيرة جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م واحتلالهم لها. وخصصت الفصل الثالث لدراسة حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م حيث أشرت إلى أهم دوافعها وتتبعت حوادثها ونتائجها.

وأما الباب الخامس فقد خصصته لدراسة أهم مكسب أحرزته الحركة الصليبية نتيجة لنشاطها الصليبي في جبهة إفريقية وأعني به تسرب مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية من إفريقية إلى أوروبا من خلال الاتصال الطويل والمستمر الذي تم بين الأوروبيين والمسلمين فيها، فأشرت إلى نشأة الحركة العلمية في القيروان وتطورها كأول مركز لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية في الغرب، ثم ما آل إليه أمر تلك الحركة في ظل الهجرة الهلالية إلى إفريقية وبيَّنتُ دور القيروان في نشأة وتطور الحركة الحضارية في كل من الأندلس وصقلية بصفتهما أهم معبرين للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا الأمر الذي جعل من إفريقية معبراً حضارياً غير مباشر له أهميته، ولم يقتصر دور إفريقية الحضاري على ذلك فحسب، بل حاولت أن

أبرز دورها كمعبر مباشر لهذه الحضارة خلال ذلك العصر، ولعلي بذلك أكون قد أضفت معبراً رابعاً للمعابر التقليدية الثلاثة التي تسربت منها هذه الحضارة إلى أوروبا.

ثم اختتمت هذه الدراسة بخاتمة قصيرة ضَمَّنتها النتائج التي توصلت إليها خلالها، وأشرت فيها إلى أن الحروب الصليبية في جبهة إفريقية لم تنته بانسحاب حملة لويس الثاني دي بوربون وعودتها إلى أوروبا، وإنما كان الذي انتهى هو دور من أدوار تلك الحروب ليبدأ دور جديد آخر تلاه مباشرة تولى مهمة العدوان الصليبي فيه كل من الإسبان والبرتغاليين الذين أخذوا منذ مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) يهاجمون سواحل المغرب العربي ومن ضمنها سواحل إفريقية، والذي لا زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا متمثلة في إصرار إسبانيا على الاحتفاظ بسبتة ومليلة المدينتين المغربيتين جغرافياً وتاريخياً.

هذا وقد حرصتُ أثناء دراستي للحوادث التاريخية التي تعرضت لبحثها على مقابلة الروايات الواردة في المصادر التاريخية الإسلامية بما ورد عنها في المصادر والمراجع الغربية محاولاً بذلك الوصول إلى الحقيقة التاريخية وتسجيلها، ولذلك عانيت مشقة كبيرة في جمع مادة هذه الدراسة إذ أن مصادر تاريخ المغرب العربي قليلة كما هو معروف، سواء المنشور منها أو الذي لا يزال مخطوطاً إذا ما قيس إنتاج المغاربة في كتابة التاريخ بإنتاجهم في باقي فروع المعرفة الأخرى مثل الفقه والنحو والتوحيد والتصوف[1]، وحتى هذا القليل لم يصلنا منه إلا الجزء الأقل نظراً لعدة أسباب أهمها قلة اهتمام المغاربة على المستوى الشعبي بالتاريخ واستنساخ كتبه والمنافسة في اقتنائها مما أوجد الفرصة لضياع الكثير منها، ثم تبدل الدول المذهبية في المغرب العربي إذ كانت كل دولة تقوم تحاول طمس تاريخ الدولة التي سبقتها لمخالفتها لها في المذهب، ولعل خير دليل على ذلك هو تاريخ المرابطين الذي لا زالت جوانب عديدة منه مجهولة نتيجة لجهود خلفائهم الموحدين في هذا المجال. وتنفرد إفريقية عن بقية دول المغرب العربي بسببين آخرين، أولهما: إهمال بعض سلاطين بني حفص في الكتب مثل السلطان ابن اللحياني الذي بدد مكتبة القصر السلطاني التي كانت تضم أكثر

(١) انظر عن هذا الموضوع المقدمة التي وضعها عبد الوهاب بن منصور لكتاب روضة الآس للمقري، ص (و) وما بعدها.

من ثلاثين ألف مجلد وذلك بعرضها للبيع عشية رحيله إلى المشرق متعللاً بأن ذلك يعمم فائدتها مع أن هدفه الحقيقي من ذلك كان هو اكتناز ثمنها مما تسبب في ضياع الكثير من نفائس كتبها[1]، وثانيهما : يد الصليبي الإسباني الحاقد التي عبثت ببقية تراث إفريقية العلمي إبان احتلالهم لتونس سنة ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م وعَرَّضته للضياع. يقول ابن أبي دينار في ذلك : (وفي تلك الأيام أهين المسجد الأعظم – جامع الزيتونة – ونهبت خزائن الكتب به ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبددت في الشوارع حتى قيل إن المار من شرقي الجامع حيث النواوريين الآن إنما يمر على الكتب المطروحة) [2]، وأخيراً جاء المستعمر لينهب كل ما وصلت إليه يده من نفائس الكتب في شتى أنواع المعرفة لتستقر في المكتبات الوطنية في الدول الأوروبية.

وعلاوة على ما تقدم، تصادفُ الباحثَ في تاريخ المغرب العربي – ومن ضمنه إفريقية– صعوباتٌ أخرى أهمها إغفال كثير من المصادر العديدَ من الحوادث التاريخية، بالإضافة إلى الإيجاز الشديد بالنسبة لما تعرضت له منها، فحادث مثل حملة لويس التاسع على تونس بالرغم من أهميته تناوله ابن خلدون في ما لا يزيد عن الصفحة الواحدة من تاريخه، وأقل من ذلك كل من ابن الشماع وابن القنفذ، وأما الزركشي فقد أغفله تماماً، ولا ينتظر من مؤرخي المشرق أن يولوا تاريخ المغرب اهتماماً أكثر من اهتمام أبنائه به، فجاءت مؤلفاتهم خلواً من التفصيل والتعليل، لذلك فلا خيار أمام الباحث في أن يكون اعتماده على المصادر الأجنبية أكثر من اعتماده على المصادر الإسلامية، وثمة صعوبة أخرى تواجه الباحث هي تفرق كثير من المصادر الإسلامية المخطوطة في المكتبات الأوروبية للسبب الذي ذكرناه آنفاً، مما يحتم عليه تتبع هذه المخطوطات ليتيسر له الاطلاع عليها واستقاء مادة بحثه منها.

وتبعاً لذلك، كان عليّ أن أرحل إلى أوروبا ودول المغرب العربي لجمع مادة هذه الدراسة، فقمت بعدة رحلات علمية، الأولى في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ زرت

---

(١) انظر عن هذه المكتبة : ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية ص٤٦ – ٤٧، كذلك محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون ص١٦٥ وما بعدها.

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ص١٧٥ .

فيها باريس ولندن، والثانية في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٧٨ زرت فيها روما وتونس، والثالثة في شهر تموز (يوليو) من نفس ذلك العام زرت فيها إسبانيا والمغرب، والرابعة في نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٩ زرت فيها تونس مرة ثانية، كما أتيحت لي الفرصة لزيارة إسبانيا مرة ثانية في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٠ وزيارة تونس للمرة الثالثة في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٨٠ أيضاً أثناء مشاركتي في أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ المغرب العربي وحضارته، يضاف إلى ذلك كله رحلاتي المتكررة إلى القاهرة. وقد اطلعت خلال هذه الرحلات على محفوظات المكتبات الوطنية للدول التي زرتها سواء المخطوط منها أو المطبوع مما له صلة بهذه الدراسة وصورت منها ما دعت الحاجة إليه، وكنت أحرص عند وصولي لكل بلد من هذه البلدان على الاتصال بالعلماء المتخصصين في الدراسات التاريخية والحضارية، وقد يسر لي الله سبحانه وتعالى الالتقاء بالعديد منهم فله الحمد والمنة.

وأول من أذكر منهم أستاذي، الأستاذ الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض الذي أنجزت هذه الدراسة تحت إشرافه، والذي كان لي نعم الأستاذ والموجه والمرشد طيلة مدة العمل فيها، كما ربطتني صلة قوية بالأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الأستاذ بجامعات القاهرة، وبيروت العربية، والكويت، الذي خصني عن طلابه المنتشرين في أرجاء العالم الإسلامي بعنايته ورعايته الأبوية اللتين هما موضع اعتزازي وتقديري، فأفدت كثيراً من توجيهاته وإرشاده. وفي مدريد أتيحت لي فرصة تجديد العهد بأستاذي الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي وجهني لكل ما ينفعني من المصادر والمراجع الموجودة في إسبانيا وأرشدني إلى المكتبات المحفوظة فيها وقدمني للمستشرق الإسباني فرناندو لاجرانخا الذي أفدت أيضاً من توجيهاته، أما في الرباط فقد حظيت بمعرفة كل من الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي الأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات في الخزانة العامة، والأستاذ محمد المنوني قيم المخطوطات بالخزانة الملكية، وفي تونس كان لي عدة لقاءات مثمرة مع كل من الأستاذ الدكتور محمد الطالبي والأستاذ الدكتور البشير التليلي والأستاذ الدكتور الحبيب الجنحاني والأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي والأستاذ الدكتور ابراهيم شبوح، والأساتذة عبدالمجيد الشرفي، وسعد

غراب، والمنجي الكعبي.

كما أفدت كثيراً من توجيهات كل من أستاذي الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي ، والأستاذ الدكتور شاكر مصطفى، والأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، الذين أتاح لي وجودهم في الكويت الفرصة للاتصال بهم باستمرار، وفي القاهرة تيسر لي أكثر من لقاء بأستاذي الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي، والأستاذ الدكتور عبد المقصود نصار اللذين أفدت كثيراً من إرشاداتهما، ثم الأستاذ الدكتور محمد حسنين ربيع الذي حظيت بالكثير من نصحه وتوجيهه، وغيرهم، ومن كُلٍّ أفدت، ومنهم من تفضل مشكوراً بترجمة ما لزمني من المصادر والمراجع التي كتبت بلغات لا أحسنها، ومنهم من أعارني بعض المصادر والمراجع من مكتبته الخاصة هي في حكم المفقود حيث قمت بتصويرها، لذلك فلكلٍّ أدين بالعرفان والتقدير لما قدموه لي من توجيه ومساعدات لولاها لما أنجزت هذه الدراسة على النحو الذي تبدو فيه، ولا يسعني إلا أن أوجه جزيل الشكر لموظفي المكتبات التي زرتها على مساعداتهم وأخص بالذكر الأستاذ سعيد بن سعيد قيم المخطوطات في المكتبة الوطنية بتونس، والأستاذ حسين لبيب مسؤول المكتبة بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد على مساعداتهم القيمة التي قدموها لي.

وقد اغتنمت فرصة زياراتي لتونس لمعاينة المواقع التي تردد ذكرها في هذه الدراسة على الطبيعة، وكان مرشدي وموجهي في ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح، مدير المعهد القومي للآثار، بالجمهورية التونسية، فزرت موقع قرطاجة حيث نزلت حملة لويس التاسع، كما زرت مدينة المهدية فطفت بها لمعاينة جغرافيتها لما لهذه المدينة من أهمية خاصة في هذه الدراسة، ثم زرت سوسة والمنستير والقيروان وغيرها، وكنت أثناء رحلاتي الآنفة الذكر أحرص على زيارة المتاحف الوطنية في عواصم تلك الدول للاطلاع على محفوظاتها مما له علاقة بهذه الدراسة من قريب أو بعيد.

وكانت حصيلة هذه الرحلات هي أنني استطعت الحصول على المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة،ومن أهم المصادر العربية التي

استندت إليها (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) لمؤلفه ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون. يقع هذا الكتاب في سبعة أجزاء بما في ذلك المقدمة والسيرة الذاتية التي ذَيَّلَ بها المؤلف كتابه، وابن خلدون نظراً لمعاصرته لمعظم الحوادث التاريخية التي تعرضت لها هذه الدراسة من ناحية، وقربه من مركز السلطة في دول المغرب الإسلامي وتقلده بعض المناصب فيها ومشاركته في بعض الحوادث التي تتعلق بها من ناحية ثانية، يعتبر تاريخه أهم مصادر التاريخ المغربي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد). فقد تيسر لابن خلدون ما لم يتيسر لكثير من مؤرخي ذلك العصر من الاطلاع على الوثائق والمصادر التاريخية من مظانها والاتصال بشيوخ عصره لكثرة تجواله في أقطار المغرب الإسلامي، يضاف إلى ذلك ما تمتع به من ثقافة واسعة وحس تاريخي مرهف مكَّناهُ من ناصية التاريخ، ومما يزيد في أهمية هذا المصدر بالنسبة لهذه الدراسة أنه يغطي الحوادث التي تتصل بها والتي سبقت مولده برواية أخبارها عن شيوخه الذين تبوؤوا مكانة علمية ممتازة وكانوا شهود عيان للعديد منها كالآبلي وغيره، أو عن آل بيته وهم الذين احتلوا مكانة رفيعة في ميداني العلم والسياسة في الدولة الحفصية كأخبار حملة لويس التاسع التي يرويها عن أبيه عن جده.

ويعتبر ابن خلدون أميناً في معظم ما كتب، إلا أن دخوله المعترك السياسي في عصر مضطرب كثرت فيه الدسائس والمشاكل السياسية جعله يضطر أحياناً للمداراة فهو يمر سريعاً على بعض الحوادث التي لم تكن توافق هواه، أو يغمز غمزاً خفياً في خصومه مما يوجب على الباحث التنبه لمثل هذه الأمور، ولما كان قد انتقل إلى مصر منذ سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م[1] ،وبالتالي ابتعد عن مجرى الحوادث في المغرب العربي واعتمد على روايات المغاربة القادمين إلى مصر لمعالجة أخبار ما كان يجري في المغرب العربي جعل القيمة التاريخية لما كتبه عن حوادث تلك المنطقة أقل من سابقتها نظراً لما قد يدخل الروايات من تحوير أو إغفال لبعض الأمور وما يتفاوت فيه الرواة من الثقافة والصدق والقرب من مركز الحوادث أو إضفاء الميول الشخصية، فهو مثلاً لم يشهد حملة الجنويين وحلفائهم على

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج٧ ص٤٥١ .

جزيرة جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م وحملة لويس دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وإنما استقى أخبارهما من هؤلاء القادمين المغاربة، كما يؤخذ على ابن خلدون توزيع وقائع كثيرة من الحوادث في أماكن متعددة من كتابه مما يضطر القارئ للرجوع إلى أكثر من موضع للإلمام بالحادثة الواحدة ثم التكرار والاستطراد في مواضع متعددة. ويؤخذ على طبعة بولاق من الكتاب وهي التي اطلعت عليها سوء التحقيق والطباعة مما اضطرني للاستعانة بطبعة دار الشعب للمقدمة وطبعة دار الكتاب اللبناني للسيرة الذاتية لابن خلدون، الأمر الذي يوجب إعادة تحقيق هذا الكتاب الهام لاسيما المجلدين السادس والسابع منه وإعادة نشره بطباعة وإخراج جديدين.

ثم كتاب (الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية) لأبي العباس أحمد بن الشماع (ت سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م) الذي استعرض فيه تاريخ الدولة الحفصية منذ تأسيسها حتى سنة ٨٣٩هـ، وهذا الكتاب مقسم إلى مقدمة تشتمل على خمسة أبواب أولها : في حد المغرب وإفريقية وما ورد في فضلهما، وثانيها : في التعريف بمدينة تونس، وثالثها : في ذكر رادس، ورابعها : في التعريف بمن غزا إفريقية من الصحابة وما يتصل إلى ذلك، وخامسها : في وجوب طاعة ولاة الأمور، ويتلو المقدمة كتاب سلاطين بني حفص ويقف فيه عند أبي عمرو عثمان يذكرهم ويعدد مزايا كل منهم والحوادث التي جرت إبان حكمهم. ثم خاتمة في بابين أحدهما : في الحرابة [1] وذكر بعض أحكامها والثاني : في دخول العرب إفريقية وسبب ذلك. كما ألحق الناشر بالكتاب ثلاث ضمائم أولاها : شرح قصيدة الدماميني في مدح الساطان أبي عمر عثمان الحفصي وبيان مناقبه، والثانية : نتف من فهرست الرصاع، والثالثة : وصية محمد الظريف. وللكتاب تكملة تدعى (تكميل التاريخ المسمى الأدلة البينة النورانية) استدرك فيها المؤلف بعض الحوادث التي فاته ذكرها في الكتاب، وهي لا تزال مخطوطة تحتفظ بها المكتبة الوطنية بتونس تحت رقم ١٠٣٨.

كان ابن الشماع على صلة وثيقة بالدولة الحفصية وتولى منصباً رسمياً فيها إذ كان أحد قضاتها مما أتاح له فرصة الاطلاع على الوثائق الرسمية لتلك الدولة والرجوع إلى

---

(١) الحرابة هي قطع الطريق وإفساد السبل.

المصادر المحفوظة في مكتبة القصر السلطاني إذ يقول : (وألفت ذلك بخزانة الحضرة العلية الإمامية المجاهدية المتوكلية – أدام الله نصرها – وشيد على المنابر ذكرها)[1]، كما أن كونه تلميذاً لابن القنفذ القسنطيني جعله يستمد من شيخه هذا الكثير من المعلومات والوقائع التاريخية التي جرت في إفريقية التي قد تكون خفيت على غيره، لكل ذلك فإن المعلومات المستقاة من هذا المصدر في غاية الأهمية. ولكن يؤخذ على ابن الشماع أنه بحكم منصبه في الدولة الحفصية قد طبع كتابه بالطابع الرسمي حتى إنه يبدو في بعض المواضع وكأنه تعبير عن وجهة النظر الرسمية للدولة، فهو يُبرزُ محاسنَ سلاطين بني حفص ويتغافل كثيراً عن مساوئهم، ويكاد الباحث يشعر أنه ما وضع كتابه هذا إلا لغاية سياسية هي إقناع الناس بوجوب طاعة السلطان نظراً للاضطراب السياسي الذي ساد في الدولة الحفصية في تلك الآونة كما يظهر ذلك بوضوح في الباب الخامس من المقدمة الذي سماه (في وجوب طاعة ولاة الأمور) والذي أقحمه إقحاماً على الكتاب مما يفرض على الباحث وضع ذلك في اعتباره، وكان هذا الكتاب مصدراً هاماً من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون من بعد ابن الشماع مثل ابن أبي دينار في المؤنس والوزير السراج في الحلل السندسية وغيرهما، والكتاب بالرغم من أنه مطبوع في تونس إلا أنه يعتبر في حكم النادر.

ثم كتاب (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) لأبي العباس أحمد بن حسين بن علي ابن الخطيب بن القنفذ القسنطيني الذي يعرف بابن القنفذ أحياناً، وبابن الخطيب أحياناً أخرى. ولد ابن القنفذ في قسنطينة سنة ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م في أسرة اشتهرت بالعلم والجاه في تلك المدينة وتولى العديد من أبنائها منصب القضاء فيها، فنشأ تبعاً لذلك في بيئة علمية، وبعد أن أخذ عن آل بيته وعلماء بلده رحل في طلب العلم عدة رحلات إلى مختلف بلدان المغرب العربي التقى فيها بشيوخ عصره وأخذ عنهم، ومن أشهر شيوخه ابن مرزوق صاحب المسند، والشريف التلمساني، وابن عرفة فقيه المغرب المشهور ومنافس ابن خلدون المؤرخ، ثم لسان الدين ابن الخطيب الوزير الغرناطي المعروف، فكسب حصيلة علمية طيبة، وقد اتصل بالبلاط الحفصي حيث تولى قضاء بلده قسنطينة [2]. ويعتبر ابن القنفذ من

---

(١) ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية ص٣ .

(٢) انظر مقدمة الفارسية، كذلك ترجمته في ابن القاضي : درة الحجال ج١ ص١٢١ . الوزير السراج :=

مؤرخي الدولة الحفصية البارزين، ساعده في ذلك ثقافته الواسعة وصلاته بالعديد من صانعي حوادث عصره. فمركز أسرته وجاهها العريض في قسنطينة، وصلته بأستاذه ابن مرزوق كاتب الدولة المرينية في عهد السلطان أبي الحسن، ثم اتصاله بلسان الدين بن الخطيب أثناء إقامته الأخير في المغرب الأقصى، واتصاله بالشريف التلمساني عالم تلمسان حاضرة بني زيان (عبد الواد) وصلته هو بالبلاط الحفصي، كل ذلك جعله على علم ودراية بأوضاع المغرب الإسلامي في عصره، ومكّنه من الاستقاء من أفضل المصادر ولذلك كانت مؤلفاته التي زادت عن ٣٣ مؤلفاً منها المطبوع ومنها الذي لا يزال مخطوطاً ومنها ما لم يصلنا منه إلا اسمه، في غاية الأهمية لا سيما التاريخية منها.

أما كتاب الفارسية، فقد ألفه ابن القنفذ للسلطان أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس أحمد الذي كان ولياً لعهد أبيه وقائداً للجيوش الإسلامية إبان حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية، وباسمه دعاه، وهو عرض لتاريخ سلاطين الدولة الحفصية منذ تأسيسها حتى عهد هذا السلطان حيث توقف فيه عند حوادث سنة ٨٠٦هـ، ولا يتوقع من ابن القنفذ بحكم صلته بالدولة الحفصية أن يسجل الحقيقة التاريخية كاملة فهو يشيد بمناقب هذه الدولة ويغض الطرف عن كل ما يشينها مع إيجاز شديد في سرد الحوادث وإغفال لبعضها. وقد نشر هذا الكتاب في تونس سنة ١٩٦٨ بتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي (١)، والنسخة التي اعتمد عليها المحققان هي تلك المحفوظة في مكتبة الأسكوريال والتي حذف منها ناسخها عمداً الأشعار التي لها علاقة بالحروب الصليبية وحملات الأوروبيين على إفريقية، وقد نشر قسم من تلك الأشعار في المجلة الأسيوية ضمن ما نشره شربونو من الفارسية. وقد ضاع لابن القنفذ كتاب اسمه (الكتاب الكبير المتوكلي)(٢) فَصّل فيه أخبار حملة لويس التاسع على تونس والذي لو وصلنا لأمدنا

= الحلل السندسية ج١ ق٣ ص٦٥٧ . عجاج نويهض، معجم أعلام الجزائر ص٢١ .

(١) نشر المستشرق شربونو Cherbonneau قسماً من الفارسية يعادل ٥٢ صفحة من نسخة الأسكوريال في السلسلة الرابعة من المجلة الأسيوية، كما طبعت منها طبعة أخرى على الحجر في باريس سنة ١٨٤٧م في ١٢٣ صفحة. انظر الفارسية : المقدمة، ص١٢ وما بعدها.

(٢) ابن القنفذ : الفارسية ص ١٣٢ .

بمعلومات جديدة عن هذه الحملة. وقد اعتمد كثير من المؤرخين المغاربة الذين جاؤا بعد ابن القنفذ على الفارسية في مؤلفاتهم مثل ابن الشماع في تاريخه الآنف الذكر.

وكانت (رحلة التجاني) من مصادر الدرجة الأولى التي اعتمدت عليها أيضاً. ومؤلفها أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني وكما هو معروف سليل أسرة علمية عريقة في تونس [1]، وقد خدم السلطان ابن اللحياني الحفصي فكان كاتبه ومستودع أسراره، وقد رافقه في رحلته التي قام بها في الأقاليم الشرقية للدولة الحفصية حينما كان ابن اللحياني لايزال شيخ الموحدين ومدبر الدولة، والتي كان الهدف الأساسي منها هو الابتعاد عن تونس العاصمة لاضطراب الأحوال فيها وترقب ما تتمخض عنه الحوادث التي كانت تجري فيها، فطوف معه في بلاد شرق إفريقية، وحينما توجه ابن اللحياني إلى الشرق لأداء فريضة الحج قفل التجاني عائداً إلى تونس، وسجل أخبار رحلته هذه في كتابه الآنف الذكر، وهذا الكتاب هو عرض ممتاز لتاريخ المدن التي مر به التجاني في رحلته تلك، فهو لم يقتصر على وصف تلك المدن وما كان فيها من مدارس ومعاهد ومعالم مشهورة بل تعداها إلى التعريف بالنابغين من أبنائها ما بين فقهاء وقواد وأدباء وصلحاء قدامى ومعاصرين له، وبذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن إفريقية قلما نجد لها شبيهاً في مؤلف آخر من هذا النوع من المؤلفات، كل ذلك بلغة سهلة وأسلوب سلس، يضاف إلى ذلك أنه حفظ لنا أقوال كثير من المؤرخين الذين لم تصلنا مؤلفاتهم مثل الرقيق القيرواني وغيره، وبالتالي لم تقتصر المعلومات التي أمدنا بها التجاني على الحوادث التي عاصرها، وإنما تعدادها لما سبق عصره منها، فكانت رحلته من أحسن ما كتب في تاريخ إفريقية، حتى أصبحت من المصادر الهامة التي اعتمد عليها كثير من المؤرخين من بعده مثل ابن خلدون في تاريخه، ويؤخذ على هذا الكتاب مأخذين أولهما : كثرة إشادته بمآثر الدولة الحفصية ومناقب سلاطينها لا سيما مخدومه

---

(١) يقول العبدري في حديثه عن مدينة تونس : (... ولقيت بها الشيخ الأديب الكاتب البليغ ذا الفضائل المعروفة والمآثر المأثورة شيخ الأدباء وواحد البلغاء وزين الناظمين الشعراء أبا الحسن علي بن إبراهيم التجاني له بيت عريق في العلم والأدب، قال لي بمسجد اقرائه أنا الثاني عشر مدرساً من آبائي على نسق كلهم قد قعد هنا للإقراء وبيتهم بالعلم شهير وقل من نسائهم من لايقول الشعر...) العبدري : الرحلة المغربية ص٢٥٧ .

إشادة تصل إلى حد المبالغة وصمته عن مثالبها بحكم صلته بتلك الدولة، وثانيهما : كثرة الاستطراد حتى ولو كان هذا الاستطراد نافعاً في بعض الأحيان. وقد طبعت هذه الرحلة بتحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس سنة ١٩٥٨.

وأفدت من مصدر آخر هو (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لمؤلفه أبي عبد الله محمد المراكشي المعروف بابن عذارى المراكشي، وهو يتضمن أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح حتى سقوط الدولة الموحدية، وتكمن أهمية البيان المغرب في أن مؤلفه كتبه في حدود سنة ٧١٢هـ (١) أيام الدولة المرينية مما جعله بعيداً عن المؤثرات التي كثيراً ما تبعد المؤرخين عن الحقيقة التاريخية وبالتالي تزيد من ثقة الباحث فيما أورده من معلومات لا سيما عن الدولة الموحدية، ويقول المؤلف إنه جعل لكتابه هذا صلة (٢) لم يُعْثَر عليها بعد، والتي لو وصلتنا لجلت كثيراً من الغموض الذي يكتنف بعض جوانب تاريخ المغرب الإسلامي في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، والكتاب في ثلاثة أجزاء نشر الجزأين الأول والثاني منه أكثر من مرة (٣)، آخرها صدرت عن دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ وهي التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة، المجلدين الأول والثاني بتحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، والثالث بتحقيق إ. بروفنسال أيضاً والرابع علق عليه الدكتور إحسان عباس. أما الجزء الثالث فقد نشرته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك محمد الخامس تحت إشراف معهد مولاي الحسن بتطوان سنة ١٩٦٣م بتحقيق أمبروسي هويسي ميرانده ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، وأخيراً عثر الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني على الورقات الأخيرة من الجزء الثالث التي كانت مفقودة ونشرها في العدد العاشر من مجلة تطوان سنة ١٩٦٥، وقد أفدت من هذا المصدر في التمهيد والباب الأول من هذه الدراسة بصفة خاصة.

ومن مصادر الدرجة الثانية التي اعتمدت عليها كتاب (فيض العباب وإفاضة قداح

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٤٥٤ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٤٠٢ .

(٣) انظر ابن سوده : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ص١٥٩ - ١٦٠، كذلك مقدمة الجزء الثالث من الكتاب، انظر أيضاً د. سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربي ص١٢ وما بعدها.

الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب) لمؤلفه إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري المعروف بابن الحاج. ولد ابن الحاج سنة ٧١٣هـ وأخذ العلم عن شيوخ عصره في المغرب وتدرج في مناصب الدولة المرينية حتى أصبح كاتب السلطان أبي عنان المريني ومن المقربين إليه، وقد توفي سنة ٧٦٨هـ، وهذا الكتاب هو تسجيل لحوادث الحملة التي قام بها أبو عنان على إفريقية سنة ٧٥٦هـ وهي آخر محاولات توحيد المغرب العربي في العصور الوسطى. وقد اتبع ابن الحاج في تأليفه طريقة المذكرات اليومية، يسجل فيها أخبار الحملة أولاً بأول، ويزيد في أهمية هذا المصدر أن ابن الحاج كان مرافقاً لأبي عنان في حملته هذه ومطلعاً على خفايا سياسته، فجاء كتابه هذا معبراً عن وجهة النظر الرسمية للدولة المرينية، كما إنه يمدنا بمعلومات هامة عن أوضاع إفريقية في أواسط القرن الرابع عشر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، يضاف إلى ذلك وصفه للمدن والنواحي التي كانت تمر بها الحملة. ولكن يؤخذ على ابن الحاج أنه يضفي هالة من التقديس على الدولة المرينية ويكيل المدح لمخدومه يصل إلى حد المبالغة، وينتقص مخالفيه ويصفهم بأقبح الصفات من ناحية، ثم إغراقه في الصناعة اللفظية شأنه شأن الكثير من كُتّاب الدواوين لدى سلاطين المسلمين في ذلك العصر، حتى إن المعلومات التاريخية كثيراً ما تكاد تحتجب خلف ستار المحسنات البديعية، ويشعر القارئ بالملل في أكثر من موضع قبل وصوله إليها من ناحية ثانية. وهذا الكتاب لازال مخطوطاً تحتفظ الخزانة الملكية في الرباط بالنسخة الوحيدة – فيما أعلم – منه تحت رقم (٣٢٦٧)، وتوجد منه نسخة مصورة بالميكروفيلم عن الأصل في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم (٣٤٥ / ٥)، والنسخة الأصلية تقع في ٣٥٢ صفحة من الحجم المتوسط ٢٠,٥×٢٥,٥ سم مسطرتها (٢٠) سطراً، وهي بخط المؤلف الذي هو فوق مستوى الجيد وبها بعض الصفحات الملونة. وقد أفدت من هذا المصدر في الباب الرابع من هذه الدراسة.

وأخيراً أفدت في الباب الثالث من كتاب (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) لمؤلفه عبد الله الترجمان. ومؤلف هذا الكتاب كان راهباً (frair) من ميورقة إحدى الجزائر الشرقية (جزر البليار) ويدعى (Anselmo Turmeda)، ويقول في ذلك الكتاب في ترجمته لنفسه إنه تلقى علومه الأولية وكانت دينية في مجملها في بلده ثم رحل إلي لارده، والتحق

بجامعتها، وبعد تخرجه تصدر لتدريس الإنجيل في تلك المدينة، ثم رحل إلى بولونا لاستكمال دراسته في جامعتها المشهورة حيث التقى بنقولا مارتل أحد أساتذتها المشهورين فلازمه مدة طويلة، وبالرغم من الثقافة الواسعة التي اكتسبها والتي قصد بها إعداد نفسه ليكون أحد رهبان حركة التنصير، مع أنه لم يتعرض لهذا الأمر في كتابه كما سيذكر في موضعه، إلا أن تلك الثقافة أخفقت في توفير الاطمئنان الروحي له، فعاد إلى بلده ثم رحل منها إلى تونس في زمن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي حيث أسلم على يده وتسمى بعبد الله وعاش في كنفه وكنف ابنه أبي فارس عبد العزيز من بعده، ولقب بالترجمان كما سيذكر في موضعه أيضاً. وتتمثل أهمية كتاب تحفة الأريب في أن المؤلف يكشف كثيراً من التحريفات التي جرت في الإنجيل ثم يسرد الأدلة والبراهين المستقاة من التوراة والإنجيل على نبوة سيدنا محمد ﷺ، ويفند الكثير من ادعاءات المسيحية، فهو يورد الادعاء ويفنده بالحجة تلو الحجة دون الرجوع في حججه تلك لغير التوراة والإنجيل، أعانه في ذلك سعة اطلاعه على الدين المسيحي بحكم نشأته وثقافته الدينية، وكل ذلك بلغة سهلة وأسلوب جيد، وقد طبع هذا الكتاب مرتين الأولى بمطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٩٠٤ وقد ذيله الناشر بقصيدتين للشيخ أحمد علي المليجي في نفس موضوع الكتاب، والثانية صدرت في روما سنة ١٩٧١ بتحقيق وتقديم المستشرق الإسباني ميجيل دي ابلزا (Miguel de Epalza) مع ترجمة للنص العربي للغة الإسبانية.

وهنالك مصادر أخرى ثانوية منها (الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية) المنسوب للسان الدين ابن الخطيب، وكتاب (أعمال الإعلام فيمن بويع من ملوك المسلمين قبل الاحتلام) للسان الدين ابن الخطيب أيضاً، وكتاب (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) وكتاب (الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية) وكلاهما لأبي زرع، وكتاب (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية) للزركشي، ثم (المؤنس في أخبار إفريقية وتونس) لابن أبي دينار، و (الحلل السندية في الأخبار التونسية) للوزير السراج، وغيرها كثير مما هو مذكور في ثبت المصادر والمراجع.

ومن أهم المصادر الأجنبية التي اعتمدت عليها رسائل بيير دي كونديه (Pierre de

المنشورة في كتاب (Saint Louis Roui de France)بإشراف (Le Duc de Condet) (Le'vis Mirepoix) ونشر جيرار وولتر (Girard Walter). وبييردي كونديه كان راعي الكنيسة بقصر لويس التاسع ملك فرنسا وقد رافقه في حملته على تونس، وقد أمدتنا تلك الرسائل التي كانت أشبه بتقارير رسمية متلاحقة يبعث بها إلى فرنسا بمعلومات هامة عن حوادث تلك الحملة وما كان يجد عليها من تطورات، مما لا توجد في مصدر مسيحي أخر فكانت هذه المعلومات من الطراز الأول لا سيما فيما يخص نزول الصليبيين في قرطاجة وموقفهم أثناء وجودهم في ذلك الموقع، ثم ما يتعلق بمفاوضات الصلح بينهم وبين المسلمين وشروطه، ومما زاد في أهمية هذه الرسائل أن بيير دي كونديه ابتعد فيها عن المبالغات والتمجيد التي تحفل بها العديد من المصادر والوثائق المسيحية، وهي أربعة رسائل الأولى والرابعة وجههما إلى رئيس كنيسة (Argenteuil) والثانية إلى المسؤول المالي في كنيسة (Saint - Franchour) ووجه الثالثة إلى رئيس دير القديس دينيس (Saint - Denis)، وقد اعتمدت عليها في الباب الثاني من هذه الدراسة.

وقد أفدت في البابين الثالث والرابع من مصدر هام آخر هو كتاب (Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de Aragon) أي الوثائق الدبلوماسية العربية في أرشيف مملكة أرغونة، ويحتوي على مجموعة من رسائل سلاطين المسلمين في مملكة غرناطة ودول المغرب العربي ومصر التي كانوا يبعثون بها إلى ملوك أرغونة، قام بترجمتها إلى الإسبانية ونشرها (Maximiliano A. Alaracon) وآخرون وصدر الكتاب في مدريد سنة ١٩٤٠، وتُقَدِّم لنا رسائل سلاطين بني حفص المنشورة في ذلك الكتاب معلومات في غاية الأهمية عن علاقات إفريقية بأرغونة في فترة نشاط أرغونة في جبهة إفريقية والتي امتدت من أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) حتى أواسط القرن التالي بالرغم من كثرة عبارات المجاملة الواردة فيها والتي تكون أحياناً تورية عن المقصود الحقيقي بها.

واعتمدت في الباب الرابع أيضاً على حولية كباريه دورفيل (Cabaret d' Orville) المسماة (La Chronique du Bon Duc Loys de Bourbon) أي (حولية لويس الطيب دوق بوربون) وقدوضع دورفيل حوليته هذه باللغة الفرنسية القديمة اعتماداً على المعلومات التي أمده

بها جان دي كاستيليوس شاتو مورا Sire Jeun de Chastelus Chatoau Morand الذي يعتبر المؤلف الحقيقي لها والذي كانت تربطه بالدوق لويس الثاني دي بوربون صلة قرابة ويبدو أنه كان قريباً منه أيضاً أثناء حملته على المهدية، ومما يؤخذ على هذه الحولية أن مؤلفها قد أغرق في تمجيد الدوق لويس كما أنه وقع في أخطاء عديدة في التواريخ والتفاصيل الدقيقة نتيجة الإدلاء بها من الذاكرة بعد حوالي أربعين عاماً من حوادث تلك الحملة.

ثم حولية جون فرواسار (John Froissart) التي كتبت باللغة الفرنسية القديمة أيضاً وترجمها إلى الإنكليزية توماس جونز Thomas Johnes وصدرت في لندن في مجلدين سنة ١٨٣٩ تحت عنوان (Chronicles of England, France, Spain and the Adjoin-ing countries, from the latter part of the reign of Edward II to the coronation of Henry IV.) (أي حوليات إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبلاد المجاورة من أواخر عهد إدوارد الثاني حتى تتويج هنري الرابع). وقد قَدَّم المترجم لهذه الحولية بمقدمة طويلة ضمنها نبذة عن حياة فرواسار وأهم أعماله، فيقول : إنه ولد في هينولت (Hinault) بفرنسا حوالي سنة ١٣٣٧م لأب كان يعمل في تجارة الأسلحة وأغلب الظن أن فرواسار توفي بعد سنة ١٤٠٠م. وقد وضع حوليته هذه بناء على رغبة صديقه لورد بوفورت (Lord Beauforte) الذي طلب منه أن يضع تاريخاً للحروب الصليبية المعاصرة له. وقد أمدتنا هذه الحولية بمعلومات هامة عن حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م حيث أفرد فصولاً قائمة بذاتها عنها فزودنا بتفاصيل كثيرة قلما توجد في مصدر آخر، ولكن يؤخذ عليه أنه كان كثير التحامل على لويس الثاني دي بوربون قائد الحملة، ثم سرده لنص المحادثات التي كانت تدور بين مختلف الأطراف بصورة تفصيلية وذكره لأسماء المسلمين بطريقة يصعب – إن لم يكن من المستحيل – الاهتداء لاسم واحد منها في المصادر الإسلامية الأمر الذي يوحي أن هذه التفاصيل لم تكن تستند في معظمها إلى الحقيقة، وإنما لعب خياله دوراً كبيراً في اختلاقها لاضفاء نوع من الأهمية والمتعة على حوليته.

ومن مصادر الدرجة الثانية الأجنبية كتاب (حياة القديس لويس The Life of Saint Louis) لجوانفيل (Jean Joinville)، والحوليات المسماة (Annali della Republica de

(Geneva) أي (حوليات جمهورية جنوة) لمؤلفها أغسطينو جستنيانو (-Augostino Guis tiniano) وكتاب (Vita Sancti Ludovici Regis Franciae) أي (فضائل القديس لويس وأعماله) لوليم دي نانجي (Guillaume de Nangis)، وكتاب (-La via et les Mir acles de Monseigneur Saint - Louis) أي (حياة القديس لويس ومعجزاته أو كراماته) لمؤلفه وليام دي سانت باثوس (Guilaume de Saint Pathus) وغيرها.

كما رجعت إلى الكثير من المراجع العربية والأجنبية. أما المراجع العربية فيتصدرها كتاب (الحركة الصليبية – صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي) للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ويقع في جزأين صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٧ وأعيد طبعه عدة مرات، وهو الكتاب الوحيد – فيما أعلم – الذي عالج الحركة الصليبية كموضوع متكامل من وجهة النظر العربية الإسلامية، وبالرغم من أن الكتاب لم يتعرض للحروب الصليبية في المغرب الإسلامي بالتفصيل حسب ما تقتضيه خطته، إلا أنني أفدت منه في تتبع نشاطات الحركة الصليبية وتياراتها المتشابكة واتجاهاتها من مختلف نواحيها. فضلاً عن أنني أفدت أيضاً من مؤلفات الأستاذ الدكتور سعيد عاشور الأخرى وبصفة خاصة كتابه المسمى (أوروبا العصور الوسطى).

كما أفدت من كتاب (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) للدكتورين أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، اللذين تناولا فيه نشأة البحرية الإسلامية في الجناح الغربي من العالم الإسلامي وتطورها منذ الفتح حتى نهاية العصور الوسطى وما أسهمت به الأساطيل الإسلامية في تلك المنطقة من مجهودات كبيرة في الفتوحات الإسلامية في جنوب غرب أوروبا وجزر القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وهو كتاب عظيم الفائدة في موضوعه وبصفة خاصة فيما يتعلق بالصراع البحري بين المسلمين والصليبيين في عصر الحروب الصليبية.

ثم كتاب (ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية) لمؤلفه الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، ويقع في ثلاثة أجزاء ويضم مجموعة من البحوث والمحاضرات التي أعدت لمناسبات مختلفة، وقد تضمن هذا الكتاب معلومات مفيدة كثيرة نظراً لما عرف عن مؤلفه

من الصبر على البحث وسعة الاطلاع على تاريخ إفريقية في عصرها الإسلامي وبصفة خاصة في العهدالأغلبي، وقد نشر هذا الكتاب في تونس وكانت طبعته التي اطلعت عليها هي الطبعة الثانية التي صدرت عن مكتبة المنار سنة ١٩٧٢ .

وأما المراجع الأجنبية فيأتي في مقدمتها كتاب : The Crusade in the Later Middle Ages للأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية الذي صدر في لندن سنة ١٩٣٨، وقد استعرض فيه مؤلفه جهود الدعاة الصليبيين في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) ثم أهم الحملات الصليبية التي وجهت ضد العالم الإسلامي في المشرق والمغرب في ذلك القرن. ويعتبر هذا الكتاب فريداً في موضوعه، ولا يزال مرجعاً هاماً للدارسين والباحثين في تاريخ الحركة الصليبية وتطورها، ولكن يؤخذ عليه أن مؤلفه اعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على المصادر والمراجع الأجنبية، ولم يطلع على كثير من المصادر الإسلامية لتاريخ المغرب الأمر الذي كان له انعكاس على ما ورد فيه من معلومات، فبدا القصور واضحاً في مواضع عديدة منه في عرض وجهة النظر العربية الإسلامية بالنسبة للحركة الصليبية فيما يخص المغرب العربي على الأقل، كما أنه أحياناً يورد المعلومات التي استقاها من المصادر والمراجع الأجنبية على أنها هي الحقيقة دون العناية بمقابلتها بالروايات الإسلامية لتمحيصها أو نقدها.

كما أفدت من كتاب :

(La Berberie Orientale Sous Ies Hafsides des Origines a la Fin du XV Siecle) لمؤلفه روبير برنجفيك (Robert Brunschvig) ويقع في جزأين صدرا في باريس، الأول منهما سنة ١٩٤٠ والثاني سنة ١٩٤٧ وهو عرض لتاريخ الدولة الحفصية السياسي والحضاري منذ تأسيسها حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد)، وهو كتاب عظيم الفائدة بلا شك لا غنى للباحث في تاريخ إفريقية في هذه الفترة عنه، وقد بذل فيه مؤلفه مجهوداً ضخماً، ومما أعانه على ذلك سعة اطلاعه ومعرفته باللغة العربية فضلاً عن لغات أجنبية أخرى، ويؤخذ عليه ما يؤخذ على مؤلفات كثير من المستشرقين من محاولة طمس بعض الحقائق وإلقاء ظلال من الشك على بعض آخر منها، ثم التعليل الخاطئ المتعمد لبعض الأمور سببه الكره الدفين المتمكن من قلوب هؤلاء لكل ما يمت للإسلام والمسلمين بصلة.

ثم كتاب (Saint Louis de France) لجان لارسينا (Jean Larcena) وكتاب (The Franciscan Concept of Mission in the High Middle Ages) لمؤلفه ئي. راندولف دانيال (E. Randolph Daniel)، وكتاب (The Norman Fate) لدافيد دوغلاس (David C. Douglas) وكتاب (The Two Italies, Economic Relations between the Noman Kingdom of Sicily and the Northern Communes) لمؤلفه (David Abulafia) وكتاب (Saint Louis Roi de France) لمؤلفه (Paul Guth) وكتاب (Saint Louis et son Rayaume) لمؤلفه (Albert Garreau) ومن الكتب المعربة (تاريخ إفريقيا الشمالية) لشارل أندري جوليان، وكتاب (القوى البحرية والتجارية في البحر الأبيض المتوسط ٥٠٠ – ١٠٠٠م) لأرشيبالد لويس، وكتاب (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين) ليوسف أشباخ وغيرها كثير مما هو مذكور في ثبت المصادر والمراجع.

وبعد، فقد قادني البحث إلى التوصل إلى نتيجة هامة تتلخص في أن الحركة الصليبية قد وجدت في إفريقية ميداناً آخر من ميادين صراعها مع القوى الإسلامية مستهدفة بذلك تحقيق أهداف دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في نطاق الإطار العام لتلك الحركة وهو ما حاولت عرضه في هذه الدراسة. والله الموفق.

د. ممدوح حسين

﴿يا أيها الذين آمنوا قد جاءتكم مـوعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ .

[سورة يونس : آية ٥٧]

تمهيد

(جغرافية إفريقية وأثرها في تاريخها – أهمية إفريقية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي في العصور الوسطى – فتح المسلمين لإفريقية – دور إفريقية في الجهاد)

جغرافية إفريقية وأثرها في تاريخها :

إفريقية [1] هي القسم الأول من أقسام بلاد المغرب العربي مما يلي إقليم برقة

---

(١) تقرأ إفريقية بفتح الياء الثانية وتشديدها، كما تقرأ بفتح هذه الياء دون تشديد، ويرى فليشر أن النطق الثاني أصح من الأول (مادة إفريقية في دائرة المعارف الإسلامية ج٢)، ولعله اعتمد في رأيه هذا على أن أصل هذه الكلمة لاتيني هو (Africa) وأنه مادام الأصل بدون تشديد فالتعريب جرى بدون تشديد أيضاً، فإن كان الأمر كذلك فإن الحجة مع ذلك لا تكون معه، ذلك أن العرب سلكوا مسالك عدة في تعريبهم لما يسمعونه من ألفاظ ربما خرجت باللفظ عن أصل وضعه، أو لعله اعتمد في رأيه هذا على ما قاله بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن خلكان وعنه نقل النائب الأنصاري (المنهل العذب ص١٩)الذي ضبطها بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء وسكون الياء المثناة التحتية وكسر القاف وفتح الياء المثناة التحية وبعدها هاء آخر الكلمة، وأياً كان الأمر فإن الشائع هو نطقها بكسر الهمزة وتشديد الياء الثانية حسب ما ضبطها ياقوت (معجم البلدان ج١ ص٢٢٨)، وتكتب الكلمة حالياً على وجهين بالهاء أو بالألف، فالمكتوبة بالهاء هي الدالة على القسم الأول من أقسام المغرب وأما التي بالألف فهي الدالة على القارة بأكملها وبهذا المدلول يرد هذين اللفظين في هذه الدراسة. ويبدو أن اشتقاق هذا اللفظ من الأصل اللاتيني قد مر بأطوار قبل أن يتخذ شكله المذكور، إذ يتضح من الرسالتين المتبادلتين بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بشأن فتحها أنها عربت إفريقيا أولاً (انظر نص الرسالتين في فتوح إفريقية والأندلس لابن عبد الحكم ص٣٣)، وأفريقا كما يظهر على قطعة نقود ضربت سنة ١٤٢هـ إذ ورد في النقش الذي عليها (ضرب هذا الفلس بأفريقا)، (انظر حسن عبد الوهاب : ورقات ق١ ص٤٢٥) ثم تطور بعد ذلك إلى أن وصل إلى الشكل الذي سبق ذكره. أما كلمة (Africa) اللاتينية فهي بدورها مشتقة من كلمة (Aphri) التي أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا (Utica) وقرطاجنة، وقد عمم اليونانيون هذه التسمية فيما بعد على سكان شمال القارة من حدود مصر الغربية حتى المحيط، وأصبحت هذه التسمية بذلك شاملة لسكان ليبو أو ليبيا التي كانوا يطلقونها على البلاد التي سكنتها العناصر البيضاء من شمال القارة تمييزاً لها عن القسم الصحراوي الذي أطلقوا عليه بلاد الأحباش السود، ولما جاء الرومان اشتقوا منها كلمة (Africa) وقصروها على الجزء الشمالي الشرقي من جمهورية=

غرباً، والواضح أن هذه التسمية قد اشتقت من كلمة (Africa) التي أطلقها الرومان على الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية الحالية، ولكن مدلول هذا الاسم قد اتسع في العهد البيزنطي فشمل كل ما دخل تحت نفوذ البيزنطيين من أراضي المغرب العربي من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً وبهذا المعنى استعمله الجغرافيون المسلمون الأوائل، ولكن هذا المدلول لم يلبث أن أخذ يضيق شيئاً فشيئاً ويحل لفظ المغرب محله حتى أصبح المغرب هو الذي يدل على الإقليم الممتد بين برقة وطنجة ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً، في حين أصبح لفظ إفريقية يدل على أحد أقسام هذا الإقليم الثلاثة التي جرى التعارف عليها في العهد الإسلامي ألا وهو المغرب الأدنى.

وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تعيين حدود ثابتة متعارف عليها لإفريقية كما اختلف نظراؤهم من الرومان في ذلك من قبل، فالجغرافيون المسلمون الأوائل جعلوا حدودها من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً كما كانت في العهد البيزنطي كما أسلفت القول، وجاراهم في ذلك من نقل عنهم من المتأخرين [(١)]، في حين جعلها البعض الآخر [(٢)] من حدود طرابلس الغربية شرقاً إلى طنجة غرباً مخرجاً منها طرابلس الغرب [(٣)]، وبقي هذا

=تونس الحالية، ولابن أبي دينار تفسير طريف لهذا الاسم فهو يقول (المؤنس ص١٩) : (إفريقية أوسط بلاد المغرب وخير الأمور أوسطها وقد سميت إفريقية لأنها فرقت بين المشرق والمغرب ولا يفرق بين الاثنين إلا أحسنهما، وقيل سميت إفريقية باسم أهلها الأفارقة، والأفارقة من ولد فارق بن مصرايم) ومع طرافة هذا التعليل إلا أنه لا يمكن الأخذ به إذ لا شك أنها مشتقة من اللفظ اللاتيني الآنف الذكر. انظر لمزيد من التفصيل د. سعد زغلول : تاريخ المغرب ص١٠، طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية، ص٢، الحسن الوزان : وصف إفريقيا ص٣٥، مجهول : ذكر بلاد إفريقية، ورقة ١ .

(١) مجهول : كتاب الاستبصار، ص١١١، مجهول : ذكر بلاد إفريقية ولم سميت بهذا الاسم. ورقة ١ . (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم D787).

(٢) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص٦١، ابن الشماع : المصدر السابق ص٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٢٠ .

(٣) طرابلس : أطلق عليها الجغرافيون المسلمون الأوائل اسم أطرابلس بفتح الهمزة وسكون الطاء وضم الباء واللام وكان ذلك تعريباً للفظ اللاتيني (Tripolis) ويعني ثلاث مدن (انظر ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص٣٣، مجهول : كتاب الاستبصار : ص١١٠، ياقوت : المصدر السابق ج١ ص٢١٧، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٩) ثم حذفت الألف للتخفيف.

الخلاف قائماً في القرنين السابع والثامن للهجرة وهو العصر الذي اختصت به هذه الدراسة، ففي القرن السابع الهجري قال عنها ياقوت : (وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل : إلى مليانة، فتكون مسافة طولها شهرين ونصف) (١)، في حين يقول ابن سعيد الأندلسي عنها إنها تمتد (من جبال نفوسه إلى جبال الونشريس) (٢) أي من قرب طرابلس إلى وهران، وأما في القرن الثامن الهجري فقد أخرج ابن خلدون بجاية وقسنطينة منها وجعلهما من المغرب الأوسط (٣)، بينما جعلهما ابن فضل الله العمري تابعتين لها وقال عن بجاية إنها ثانية تونس والحاضرة الثانية لإفريقية (٤)، ويؤيده ابن رشيد السبتي في كون قسنطينة من إفريقية في معرض ترجمته لأبي بكر عمر القسنطيني (٥)، في حين جعل ابن مرزوق حدها الغربي جزائر بني مزغنان (٦) أي مدينة الجزائر الحالية، ويرى الحسن الوزان أن نهر النيل هو حدها الشرقي وأعمدة هرقل – مضيق جبل طارق – حدها الغربي وتذهب غرباً من هذا المضيق حتى نون الواقعة في جمهورية موريتانيا حالياً وهي آخر موقع من ليبيا على المحيط فتشمل بذلك الصحراء الإفريقية (٧)، وحيال هذا الاختلاف في تعيين حدودها، يصعب على الباحث الوصول إلى نتيجة محددة في هذا الموضوع، والذي أراه هو أن إفريقية في القرنين السابع والثامن للهجرة كانت تشمل ممتلكات الدولة الحفصية بفرعيها التونسي والبجائي والممتدة من خليج سرت شرقاً إلى تاهرت غرباً وتشمل إقليم طرابلس الغرب من الجماهيرية الليبية ثم الجمهورية التونسية والقسم الشرقي من الجمهورية الجزائرية في وقتنا الحاضر، وبهذا المفهوم يرد مدلول هذا اللفظ في هذه الدراسة (٨).

---

(١) ياقوت : المصدر السابق ج١ ص٢٢٨ .

(٢) انظر ابن الشماع : المصدر السابق ص٥، حاشية ١ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٠٢ وما بعدها.

(٤) ابن فضل الله العمري : وصف إفريقية من المسالك ص٢، انظر كذلك عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ص١٦ .

(٥) ابن رشيد السبتي : ملء العيبة، ج٣، مخطوط الأسكوريال رقم (MSS 1737) ورقة ٣٥ .

(٦) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن، مقتطفات منه، نشرها بروفنسال في مجلة (Hespris) عدد ٥، سنة ١٩٢٩، ص٣١ .

(٧) الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص٣٥ – ٣٦ .

(٨) على ضوء هذا التحديد يتضح أنني عنيت في عنوان الرسالة الإقليم وليس القارة، وكان ما قصدت بقولي في ذلك العنوان (شمال إفريقية) هو مزيد من الدقة في تحديد ميدان الصراع الإسلامي الصليبي في تلك الجبهة.

وتؤلف إفريقية مع باقي أراضي المغرب العربي وحدة جغرافية وسكانية مستقلة عن باقي أجزاء القارة الإفريقية مما جعل الجغرافيين في القرن التاسع عشر يطلقون عليها اسم إفريقيا الصغرى، فهي شبه جزيرة تحيط بها مياه المحيط الأطلسي من الغرب، ومياه البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشمال الشرقي ورمال الصحراءالكبرى من الجنوب. وتمتد سلسلتا جبال الأطلس في أقطار المغرب العربي الثلاثة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتتدرجان في الانحدار في هذا الاتجاه حيث تنتهيان في جمهورية تونس الحالية أولاهما في جبال خمير والثانية في جبل زغوان، وتحصران بينهما هضاباً متفاوتة الارتفاع تدعى في الجزائر وتونس بالشطوط وأهمها شط الغرسة وشط الجريد. ويطل المغرب العربي على البحر بواجهتين بحريتين، غربية على المحيط الأطلسي وشمالية على البحر الأبيض المتوسط، والسهول الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ضيقة بصفة عامة تقطعها الصخور المطلة على البحر مباشرة في عدة مواضع، إلا في شرقي البلاد حيث يتسع هذا السهل الساحلي ليشغل النصف الشرقي منها بطول يبلغ ٣٠٠ كلم وعرض يتراوح ما بين ٢٠ - ٨٠ كلم. ويقسم خليج قابس هذا السهل إلى قسمين يعرف القسم الشمالي منهما باسم الساحل ويعرف الجنوبي باسم الجفارة، وتتخلل الساحل بعض السبخات الواسعة مثل سبخة سيدي الهاني وسبخة المكنين وسبخة المنستير، أما الجفارة فيعتبر من أكبر سهول قارة إفريقية إذ تبلغ مساحته ثلاثمائة وسبعين ألف كيلومتر مربع نصفها في تونس ونصفها الآخر في ليبيا الحاليتين، وفي المغرب العربي عدة سهول داخلية هامة مثل سهل فاس ومكناس في المغرب الأقصى وسهل ماكتة وسهل وادي شليف في المغرب الأوسط وسهل وادي مجردة في إفريقية، يضاف إلى ذلك سهول الواحات مثل تلك التي حول نفطة وتوزر وقفصة في إفريقية والمعروفة كلها باسم بلاد قسطيلية وواحتي فزان وودان جنوبي طرابلس.

وقد تعددت في الساحل المطل على البحر الأبيض المتوسط المراسي الآمنة مثل مراسي طرابلس وقابس وسفاقس وميت المياه والمهدية وسوسة ورادس (مرسى تونس) وبنزرت وبونه والقل وجيجيل وبجاية في إفريقية ومثلها في المغربين الأوسط والأقصى (1)، كما

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر الإدريسي : وصف إفريقية الشمالية والصحراوية من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر هنري بيريس، ص٩١ - ٩٢

توجد قبالة هذا الساحل عدة جزر متفاوتة المساحة والأهمية، مثل جزيرة جربة بين قابس وصبره، ويتصل بها من الشرق جزيرة زيزو، ويقابل قابس جزيرة رازوا، وقرقنه (المقابلة لقصر زياد وسفاقس)، وتقع قبالة المهدية جزيرتان تشق السفن طريقها من وإلى المهدية بينهما، وجزيرتي الزرقاء الكبيرة والزرقاء الصغيرة أمام رأس قبودية، وجزيرة مليطمه وجزيرة قورية (المقابلة للمنستير)، وعلى مقربة من بنزرت جزيرة قملاريه وجزائر الكراث، ثم جزيرتي الجامور الكبير والجامور الصغير قبالة مرسى بونه، وجزيرة جوبة تجاه مرسى بجاية [1]... إلخ.

ومناخ أقطار المغرب العربي الثلاثة شأنه شأن مناخ بلدان البحر الأبيض المتوسط، معتدل الحرارة جاف صيفاً، معتدل البرودة ممطر شتاءً، لذلك فإن الزراعة السائدة في هذه الأقطار هي الزراعة الشتوية التي تعتمد على المطر، وأما الزراعة التي تعتمد على الري النهري والينابيع فهي قليلة نسبياً، وأهم الحاصلات الزراعية الحبوب والزيتون والحمضيات والفواكه والتمور والخضر، ويتذبذب الإنتاج من عام لآخر تبعاً لتذبذب المطر، وتربى الأغنام والمواشي في الهضاب، في حين تربى الإبل في المناطق الجنوبية المتاخمة للصحراء، وتكثر الأشجار الحرجية في الجبال المرتفعة مما كان يوفر للسكان الأخشاب اللازمة لهم للوقود وأعمال البناء وصناعة السفن.

وتشكل سلسلتا جبال الأطلس بامتدادهما من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حاجزاً طبيعياً لبلدان المغرب العربي حيال المؤثرات الخارجية في حين أنها لم تمنع اتصال أقطار المغرب العربي الثلاثة بعضها ببعض، ولما كان أقصى ارتفاع لهما في المغرب الأقصى، كان ذلك القطر أشد بلدان المغرب العربي عزلة، بينما كانت إفريقية أكثر جهاته انفتاحاً على العالم الخارجي نظراً لانخفاض هاتين السلسلتين ثم تلاشيهما في أراضيها. وتبعاً لهذه الجغرافية المتميزة للمغرب العربي كان لطبيعة هذه البلاد أثر قوي في تاريخها إذ فسحت المجال أمام تكوين جماعات بشرية محافظة على تقاليدها وتراثها الاجتماعي والأدبي تأبى

---

(١) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٥٥ وما بعدها.

التنازل عنهما بسهولة، مما ساعد على القضاء على وحدة المغرب العربي السياسية[1].

وإذا كانت الطبيعة الجبلية هي السمة الغالبة على أراضي المغربين الأقصى والأوسط، فإن السهول هي الغالبة على أراضي إفريقية بحيث لم يتجاوز الحقيقة من وصفها بالخضراء لكثرة الزروع والأشجار في سهولها الخصبة الأمر الذي كان له بالإضافة لسهولة اتصالها بباقي أقطار المغرب العربي من ناحية وبالعالم الخارجي من ناحية ثانية انعكاس قوي على تاريخها. فقد جعلها هذا الموقع بمثابة قلب المغرب العربي وأهَّلَهَا لتكون مركزاً وحاضرة لحكمه في فترات تاريخية مختلفة، ثم إن قربها الشديد من جنوب أوروبا حيث لا يفصلها عن صقلية إلا مضيقاً لا يتعدى عرضه (١٣١) كلم وهي ليست بالمسافة البعيدة على المؤثرات الحضارية، جعلها تتلقى هذه المؤثرات بسهولة ويسر، كما أن الناظر إلى الخريطة يمكنه أن يتخيل خطاً ماراً بإيطاليا وصقلية فيجد إفريقية على امتداد هذا الخط جنوباً ويمكنه أن يرى بوضوح أن هذا الخط يقسم البحر الأبيض المتوسط إلى قسمين شرقي وغربي، فإفريقية في موقع متوسط في شواطئ هذا البحر الذي كان مركز الحركة التجارية في العالم القديم، وكان على السفن التي تمخر فيه شرقاً وغرباً أن تمر بهذا المضيق الذي تشكل إفريقية إحدى عدوتيه، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت إفريقية محط أنظار مؤسسي الأمبراطوريات في المناطق القريبة منها، فتطلعوا إليها للتمركز فيها وبسط نفوذهم منها على باقي أقطار المغرب العربي غرباً وليبيا شرقاً، فليس من قبيل الصدفة أن تقوم فيها أمبراطورية قرطاجنة، أو أن تكون قاعدة حكم المغرب العربي بأسره في العهد الروماني والوندالي ثم البيزنطي، وفي العصر الإسلامي أسست فيها دون غيرها من بلاد المغرب العربي مدينة القيروان لتكون مركزاً لحكم المنطقة بأسرها، وعليها وقع اختيار الفاطميين لتكون مركزاً لدولتهم التي امتدت منها شرقاً وغرباً. ثم ليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تكون هي الهدف الرئيسي من بين أقطار المغرب العربي للهجمة الصليبية الشرسة طوال عدة قرون، وإنما كان كل ذلك عن معرفة تامة بإمكانياتها وأهميتها وموقعها الاستراتيجي الفريد.

والملاحظ أن هذا الموقع فرض على الدول التي قامت في إفريقية أن تتبع في علاقاتها

---

(١) انظر شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، ج١ ص١٥ .

الخارجية أسلوبين يغاير كلٌّ منهما الآخر، صراع مرير دائم مع جنوب أوروبا، وسلام ووئام مع قلب القارة الإفريقية، ولِكُلٍّ من هذين النوعين من العلاقات أسبابه ومبرراته، فبالنسبة لصراعها مع جنوب أوروبا فكما أسلفت القول إن إفريقية هي العدوة الجنوبية للمضيق الهام الواقع في وسط البحر الأبيض المتوسط والذي يمثل الباب الهام لهذا البحر فيقف على قدم المساواة مع مضيق جبل طارق إن لم يفقه في الأهمية نظراً لكونه المتحكم الرئيسي في حركة الملاحة في وسط هذا البحر بين نصفيه الشرقي والغربي، في حين تمثل صقلية عدوته الشمالية، ولذلك كان لابد لكل قوة تسيطر على إحدى هاتين العدوتين من العمل على السيطرة على العدوة الأخرى لإحكام سيطرتها على هذا المضيق الهام. ولعلنا في ضوء هذه الحقيقة نستطيع فهم الأسباب الحقيقية لمحاولات قرطاجنة التمركز في صقلية ثم للحروب البونيقية التي دارت رحاها بين روما وقرطاجنة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد والتي انتهت باستسلام الأخيرة لعَدُوَّتها روما بعد نضال مجيد وبالتالي إحكام قبضة روما على هذا المضيق. وبقي هذا المضيق منذ ذلك الوقت تحت سيطرة الأمبراطورية الرومانية حتى انهيار القسم الغربي منها أمام ألاريك القوطي الذي دخل روما سنة ٤٧٦م، والذي حينما أدرك أهمية العُدْوَة الإفريقية بالنسبة لدولته التي أنشأها في إيطاليا وأن تلك العدوة خارجة عن نطاق سيطرته عمل على إحياء سياسة روما تجاه إفريقية من جديد، فشرع في إعداد العدة لغزوها، ولكن المنية عاجلته وحالت دون تحقيق هذا المشروع[1]، ومن هذا المنطلق تفسر هجمات الوندال على صقلية وإيطاليا، فما أن تمركز هؤلاء في إفريقية وتم لهم إنشاء امبراطوريتهم فيها حتى أخذوا يعملون جاهدين للاستيلاء على العدوة الصقلية الإيطالية، وسجل أسطولهم القوي الذي كان يخرج من قواعده في إفريقية عدة هجمات موفقة على هذه العدوة لتحقيق هذا الهدف، ولكن انحلال امبراطورية الوندال السريع بعد وفاة ملكهم جنسريك حال دون تحقيق طموحاتهم في العدوة الشمالية، وجعل من إفريقية نفسها هدفاً للامبراطور البيزنطي جستنيان الذي كان يعمل جاهداً على استعادة أملاك الامبراطورية الرومانية التي اقتطعها البرابرة الجرمان وأسسوا ممالك لهم فيها، وكان يدرك أن استعادة إفريقية لحظيرة الدولة البيزنطية إنما هو في حقيقته دعامة قوية لتثبيت نفوذه في إيطاليا

(١) د. إبراهيم علي طرخان : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ص١٢٤ .

وصقلية، وأثبتت الحوادث التالية صواب هذه النظرة، فما أن قضى قائده بلزاريوس على امبراطورية الوندال وبسط النفوذ البيزنطي على إفريقية حتى خضعت إيطاليا لسلطانه، وجرى نفس الأمر في العهد الإسلامي، فمنذ أن تم للمسلمين فتح إفريقية حتى اتخذتها جيوشهم قاعدة لعمياتها العسكرية وبدأت تخرج منها رافعة لواء الجهاد في جنوب غرب أوروبا، وإن كانت قوة الأسطول البيزنطي قد حالت دون فتح صقلية في وقت مبكر، وتأخر فتحها عن فتح الأندلس وجنوب فرنسا، فإن ذلك لم يصرف نظر المسلمين عنها فقد سبق فتحها في العهد الأغلبي عدة محاولات بدأت منذ وقت مبكر، حتى إذا ما أصاب الأسطول البيزنطي الضعف في تلك المنطقة نجح الأغالبة في فتحها. وحينما تراخت القبضة الإسلامية عن هذا المضيق منذ العهد الزيري، بدأت القوى المعادية في العدوة الشمالية ممثلة بالمدن البحرية الإيطالية والنورمان تعد العدة للاستيلاء على العدوة الإفريقية، وهكذا كانت علاقة إفريقية بجيرانها في الشمال تتسم بطابع العداء مذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ما يكاد هذا الصراع يهدأ حتى يبدأ من جديد ولكل دور من أدواره إضافة إلى ما ذكرناه أسبابه وعوامله الخاصة به. وقد لاحظ ابن خلدون ذلك الأمر فبدا جلياً في قوله : (فكانت هذه عادة لأهل البحر – البحر الأبيض المتوسط – الساكنين حفافيه، معروفة في القديم والحديث) [1].

وعلى العكس من ذلك، كانت علاقات إفريقية بقلب القارة منذ العصر القديم علاقات سلميّة طيبة محورها التجارة، فمنذ أن وصل الفينيقيون إليها وأنشأوا مراكزهم التجارية فيها وفي باقي أقطار المغرب العربي واتصلوا بقلب القارة بغية الحصول على منتجاتها من الذهب والعبيد وريش النعام وغيرها، وضعوا أسس هذه العلاقات التي استمرت في العهود القرطاجني والروماني والوندالي والبيزنطي ثم الإسلامي، وكانت الحكومات المتعاقبة على إفريقية تبذل كل ما في وسعها لتدعيم هذه العلاقات الطيبة وتنشيطها لجني ثمارها، ولم يحدث أن قامت علاقات عدائية بين الطرفين. ومع التجارة كانت تتسرب المؤثرات الحضارية منها إلى قلب القارة، إذ لم يحدث في التاريخ أن قامت في قلب القارة حضارة أرقى من تلك التي كانت

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص٦٢٧ .

تتواجد في إفريقية، ولذلك كانت إفريقية هي المصدر الرئيسي لهذه المؤثرات الواصلة إلى قلب القارة، ويبرز دور إفريقية الحضاري بالنسبة لتلك المنطقة في العصر الإسلامي بالذات، إذ منذ استقرار الفتح فيها بدأ الإسلام يشق طريقه منها إلى قلب القارة مع القوافل التجارية، وكلما توثقت العلاقات بين الطرفين على مر السنين انعكس ذلك إيجابياً على انتشار الإسلام في بلدان وسط القارة، فقد أثبت التاريخ أن إسلام مملكة مالي وما يجاورها من البلدان الواقعة حول بحيرة تشاد إنما حصل بفعل تجار إفريقية في وقت مبكر [(١)]، وكان لهجرة عرب التنجور من إفريقية إلى دارفور في السودان الشرقي في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) أثر كبير في بذر بذرة الإسلام في تلك المنطقة حتى جاء إخوانهم العرب الذين قدموا من المشرق فاستكملوا ما كان قد بدأه عرب التنجور وثبتوا الإسلام في تلك النواحي [(٢)].

أهمية إفريقية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي في العصور الوسطى :

لا تقتصر أهمية إفريقية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي على ناحية بعينها، وإنما تشمل النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاستراتيجية، فأما بالنسبة للناحية الدينية فقد جاءت هذه الأهمية نتيجة لأمرين هما : نضال إفريقية الطويل في سبيل نصرة المسيحية بعامة والمذهب الكاثوليكي بصفة خاصة، ثم المكانة التي تبوأتها كنيستها بين الكنائس المسيحية، ولبيان ذلك لا بد أن نتعرض لهذا الموضوع بإيجاز.

وصلت المسيحية إلى إفريقية في وقت مبكر يعود إلى أواخر القرن الأول للميلاد، ولكنها برزت كحقيقة تاريخية منذ أواخر القرن الثاني بجلاء في خطاب القديس ترتليانوس (Tertullianus) الذي ألقاه سنة ١٩٧م حين يقول : (نحن لم نخلق إلا البارحة، ومع ذلك

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١ ص ٤٣٥ . ولمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. إبراهيم علي طرخان : امبراطورية غانة الإسلامية ص٤١ وما بعدها، وعن تطور العلاقات بين المغرب العربي والسودان الغربي ودور مسلمي المغرب العربي في نقل الحضارة الإسلامية إلى قلب القارة، انظر د. محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى (بحث)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ص٧٣ .

(٢) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٣٥٩ .

أصبحنا نملأ كل مكان)[١]، ويبدو أن كنيسة قرطاجة قد تأسست في تلك الآونة أو قبل ذلك بعهد قصير. وقد تعرض مسيحيو إفريقية الأوائل لما تعرض له المسيحيون في شتي أنحاء العالم الروماني من صنوف الاضطهاد كالقتل والتعذيب والسجن والنفي لا سيما في عهد الامبراطورين دكيوس وفاليريانوس، وكان من بين الذين لاقوا حتفهم آنذاك القديس سيبريانوس أو سيبريان (Saint Cyprien) أسقف قرطاجة الذي نفي أولاً ثم أعدم في قرطاجة في يوم ١٤ أيلول (سبتمبر) سنة ٢٥٨[٢]، كذلك أسهمت إفريقية في الخلافات المذهبية التي ظهرت في العالم المسيحي غداة اعتراف الامبراطور قسطنطين الأول بالمسيحية[٣]، الأمر الذي ترك أثراً سيئاً على المسيحية فيها إذ ارتدت جموع غفيرة من متنصرة البربر عن المسيحية وعادت إلى وثنيتها، أما من بقي فيها على مسيحيته فقد تعرض لامتحانات صعبة في عقيدته، فمع أن المذهب الأثناسيوسي (الكاثوليكي) هو الذي ساد فيها شأنها في ذلك شأن الغرب الروماني، إلا أن هذا المذهب تعرض فيها لهزات قوية من البدع والنحل والحركات الهرطقية التي كان منها ما تسرب إليها من الخارج مثل المونتانية (Montanisme) التي كان من معتنقيها القديس ترتليانوس في أول حياته ثم نبذها، والماركونية (Marcionisme) والمانوية التي اعتنقها القديس أوغسطين أول الأمر ثم نبذها

---

(١) أحمد صفر : مدنية المغرب في التاريخ ص٣٦٢ .

(٢) أحمد صفر : المرجع السابق ص٣٦٤ .

(٣) ظهر هذا الخلاف بادئ ذي بدء على طبيعة السيد المسيح عليه السلام في الإسكندرية بين اثنين من قساوستها هما أثناسيوس وأريوس، إذ قال أثناسيوس إن للمسيح طبيعتين هما الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، وقال أريوس : إن له طبيعة واحدة هي البشرية، ونفى أن يكون للمسيح أي صفة إلهية، ولم يلبث هذا الخلاف إن انتشر بين المسحيين مما أدى إلى انقاسمهم إلي معسكرين كبيرين : الأريوسيون أو (الموحدون) والأثناسيوسيون أو (الثالوثيون)، وبينما كان المذهب الأريوسي يستند إلى المنطق كان المذهب الأثناسيوسي يقوم على أساس عاطفي روحي. ولذلك ساد المذهب الأول في الشرق المتأثر بالثقافة اليونانية بما عرف عن اليونان من شغف بالجدل ودراية بالفلسفة والحكمة، بينما ساد المذهب الثاني في الغرب. وقد عقدت عدة مجامع دينية لتسوية الخلاف بين الفريقين دون جدوى وظل قائماً إلى وقتنا الحاضر. لمزيد من التفاصيل انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٥٧ .

أيضاً [١]، ومنها ما نبت في إفريقية نفسها مثل الحركة الدوناتية (Donatisme) [٢]، وبالرغم من ذلك فقد خرجت الكاثوليكية في إفريقية من هذه الأزمات ظافرة، وبقيت على ولائها لهذا المذهب وسنداً قوياً لكنيسة روما، وصمدت للاضطهاد المرير الذي مارسه الوندال على مسيحييها الكاثوليك أولاً ثم البيزنطيون بعد ذلك لمخالفتها لكلا الطرفين في المذهب الأمر الذي عزز مكانة مسيحييها في عالم غرب البحر الأبيض المتوسط.

وأما بالنسبة لمكانة كنيسة إفريقية في العالم المسيحي، فإن هذه الكنيسة تبوأت

(١) أسس المونتانية، منتانوس الفريجي حوالي سنة ١٧٠م، ويتلخص معتقدها في القول باستمرار تدخل وتوسط روح القدس (البارقليط Paraclet) وانتشرت في إفريقية وجنوب إيطاليا، أما الماركونية فتنتسب إلى الفيلسوف ماركيون. من سينوب بآسيا الصغرى وتقول بأن العالم من صنع الصانع أو الإله العادل وهو الذي اصطفى بني إسرائيل وفضلهم على الناس وأنزل عليهم التوراة ولكن قدرته انتهت بظهور الإله الخير الذي يتجسد في المسيح ويمنح البشرية هبة الخلاص والفداء. وقد انتشر هذا المذهب في إيطاليا وإفريقية ومصر. وأما المانوية فتنسب إلى (ماني) من بلاد فارس الذي يقول بمبدأ الثنوية. لمزيد من التفصيل انظر أحمد صفر : المرجع السابق ص٣٦٤ وما بعدها.

(٢) تنسب الدوناتية إلى زعيمها ومؤسسها (Donatus) وقد نشأت في إفريقية في أوائل القرن الرابع الميلادي نتيجة لأوضاع إفريقية المتردية في ذلك الوقت فكانت في حقيقة أمرها ثورة سياسية واجتماعية اتخذت من الدين وسيلة للتعبير عن نفسها، سياسية لأنها هدفت للتحرر من المستعمر الروماني الذي كان مدعوماً من رجال الدين الكاثوليك في إفريقية فنادت بنبذ المستعمر والمذهب الكاثوليكي معاً، واجتماعية لأنها احتوت الطبقة المحرومة الناقمة على طغيان طبقة النبلاء المتحكمة في مقدرات الشعب. أما السبب المباشر والرئيسي لنشوء هذه الحركة فكان نقمة الكثير من مسيحيي إفريقية على رجال الدين الذين تخاذلوا إبان موجة الاضطهاد في عصر دقلديانوس في مطلع القرن الرابع وفرطوا في الكتب والآثار المقدسة الموجودة لديهم وسلموها للوثنيين الرومان لإحراقها وإتلافها، ثم تخاذلهم وعجزهم عن شد أزر الشهداء والتف كثير من المسيحيين حول دوناتوس الذي تزعم هذه الحركة والذي سخّر قوة بيانه للتنديد برجال الدين الكاثوليك ونادى بإبعادهم عن الكنيسة واصفاً كنيستهم بأنها كنسية أبناء الإثم والخطيئة (Las Fils des Pechurs) في حين قال عن كنيسة حركته بأنها هي الكنيسة الحقة وكنيسة القديسين الأطهار (L' eglise des Saints) وصمدت هذه الحركة للكاثوليكية طوال القرن الرابع، ثم أصيبت بالضربة القاصمة نتيجة للقرارات التي صدرت عن مجمع قرطاجة الذي عقد سنة ٤١١م، إذ منذ ذلك الوقت بدأ مسيحيو إفريقية ينفضون عنها، وأخذت تسير نحو الانحلال حتى تلاشت وبذلك انتصرت الكاثوليكية في إفريقية من جديد. لمزيد من التفصيل عن هذه الحركة، انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٩٥ وما بعدها، فيشر : المرجع السابق ق١ ص٩، أحمد صفر : المرجع السابق ص٣٦٦ وما بعدها.

مكانة سامية في ذلك العالم، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة أهمها أنه بالإضافة إلى نضالها الطويل في سبيل نصرة المسيحية ضد الوثنية بصفة عامة ونصرة المذهب الكاثوليكي ضد الهرطقات والبدع والنحل الأخرى بصفة خاصة والذي سبق أن ألمحنا إليه وما ارتبط به هذا النضال من ذكرى الشهداء والقديسين الذين لاقوا حتفهم أثناءه، فقد كانت هذه الكنيسة هي إحدى الكنائس الرئيسية الأولى الست التي تأسست في العالم [1]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية نظراً لما قدمته للمسيحية من فقهاء ومفكرين كانوا من أبرز آباء الكنيسة الأول، وما أثرى به هؤلاء الفكر المسيحي من آراء ونظريات ظلت تؤثر في هذا الفكر طوال العصور الوسطى، الأمر الذي أكسبها احتراماً كبيراً في نفوس المسيحيين الغربيين.

فمنذ حدوث الخلاف المذهبي واعتناق مسيحيي الغرب للمذهب الكاثوليكي أخذت كنيستا روما وقرطاجة تتنافسان على زعامة المسيحية في هذا الغرب، ومع أنه لم يكن في إمكان كنيسة قرطاجة إحراز السبق على كنيسة روما لعدة أسباب أهمها مكانة روما في نفوس سكان العالم الروماني لكونها عاصمته وما كانت تتمتع به في أذهان الناس من مجد كبير، ثم ارتباطها ارتباطاً أبدياً بذكرى القديس بطرس مؤسس كنيستها الذي قيل عنه إن السيد المسيح عليه السلام اتخذ منه الصخرة التي بنى عليها كنيسته [2]، وأنه أعطاه مفاتيح

---

(١) هذه الكنائس الست، أربعة منها تأسست في المشرق هي : كنائس بيت المقدس والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية، واثنتان في الغرب هما كنيسة روما، وكنيسة قرطاجنة.

(٢) كان الاسم الأصلي للقديس بطرس هو سمعان فسماه المسيح بطرس (Petrus) أي الصخرة، فقد ورد عنه أنه قال : (استدع سمعان الملقب بطرس) (إنجيل متى، سفر أعمال الرسل، إصحاح ١١، ١٣) وقوله : (وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي) (إنجيل متى، إصحاح ١٦، ١٨ - ١٩)، ولعل هذا القول كان سبباً هاماً في استعلاء كنيسة روما على غيرها، إذ أن الكاثوليك يفسرون هذا القول بأن المسيح قد اعتبر بطرس أساس الكنيسة المسيحية المتين كالصخرة وعلى باقي الكنائس أن تتبع كنيسته، في حين يقول أصحاب المذاهب الأخرى بأن الكاثوليك حمّلوا هذا القول من المعنى أكثر مما يحتمل، إذ أنه لا يعني في نظرهم إلا أن بطرس صلب في عقيدته كالصخرة، وسيكون له شأن في نشر المسيحية، وأن المسيح لم يكن يعني ما ذهب إليه الكاثوليك. لمزيد من التفصيل انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٦٧، كذلك فيشر : المرجع السابق ق١ ص١٠٧ .

ملكوت السماوات فضلاً عن ذكرى القديس بولس الذي ضمت كنيسة روما رفاته مع رفات القديس بطرس، هذا فضلاً عن عامل آخر لا يقل عن العوامل السابقة في الأهمية هو عدم مقاومة كنيسة روما للهجمة الجرمانية على الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس للميلاد الأمر الذي جعلها تحتفظ بكيانها، بل إن تمكنها من الانفصال بسرعة عن الامبراطورية الشرقية حينما خضع القسم الغربي للجرمان، وخُلُوٌّ هذا القسم من امبراطور أوجد فراغاً فيه لم يتعوده الناس الأمر الذي جعل تلك الكنيسة تسارع إلى سد هذا الفراغ وبسط هيمنتها الروحية على هذا الغرب المضطرب، مما جعل الناس ينظرون إلى أسقف روما نظرتهم الاحترامية إلى الامبراطور، في حين أن كنيسة قرطاجة قاومت هجمات البربر أولاً ثم الهجمة الوندالية حيث تصدت لها بكل ما أوتيت من قوة حتى إن القديس أوغسطين مات وهو يقاوم الوندال، مما جعلها هدفاً للضغط الشديد والتجميد في الوقت الذي كانت فيه كنيسة روما تعمل جاهدة على استقطاب الغرب الأوروبي وجمع المسيحيين فيه تحت سيطرتها، كل تلك الأسباب مجتمعة جعلت كنيسة روما تتفوق على كنيسة قرطاجة، ومع ذلك فإن هذا التنافس الذي قام بين الكنيستين إنما يدل دلالة واضحة على أنه كان هنالك قدر كبير من الندية بينهما وأن كنيسة قرطاجة كانت ترى نفسها ومثلها الكثير من مسيحي الغرب أنها مساوية لمنافستها في المكانة إن لم تكن تَفُوقْها سيما وأن هذه الزعامة التي أحرزتها كنيسة روما لم يجر الإجماع على الإقرار بها (١)، وعلى أية حال فقد بقيت كنيسة قرطاجة محتفظة بمكانتها السامية في نفوس مسحيي الغرب وكانوا يعتبرونها الثانية بعد كنيسة روما حتى إن بعض البابوات مثل جريجوري الأكبر كان يعتبرها ابنة كنيسة روما (٢).

وإنْ كانت كنيسة قرطاجة قد تخلفت عن كنيسة روما في إحراز زعامة المسيحية في الغرب، فإنها فاقتها في أثرها في الفكر المسيحي، إذ أنها أنجبت من المفكرين الذين أثروا في هذا الفكر بما قدموه من نظريات وآراء دينية على مدى عدة أجيال ما لم تعرف كنيسة روما

---

(١) فيشر : المرجع السابق ق١ ص١٠٦، د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٦٧ .
(٢) يحيى بو عزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ص٣٧٩ .

مثلهم[1]. فمن المعروف أن مراكز الفكر المسيحي خلال القرون الأربعة الأولى لظهور المسيحية كانت هي أنطاكية والإسكندرية وقرطاجة ولم ينشأ في الغرب الأوروبي مفكر واحد ذا بال في تلك الفترة عدا إيريناوس أسقف ليون (ت سنة ٢٠٢) وهو مشرقي الأصل، وأمبراوز (St.Ambroise) وئيس أساقفة ميلان الذي عاش مطلع حياته في إيطاليا ثم انتقل إلى فلسطين حيث قضى بقية حياته فيها (ت سنة ٣٩٧م). وكل ما يهمنا في هذا الموضوع هو الإشارة إلى أولئك المفكرين العظام الذين أنجبتهم إفريقية، والذين تبدأ سلسلتهم بالقديس ترتليانوس أسقف قرطاجة (١٥٥ – ٢٤٥م) والذي يعتبر من أوائل مفكري المسيحية، والذي أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عنها ضد الوثنية، وكانت حياته سلسلة من النضال المجيد في سبيل نصرتها حتى لاقى حتفه في سبيلها أثناء موجة اضطهاد المسيحيين كما سبق أن ذكرنا، أما مكانته الفكرية فقد اكتسبها بالإضافة إلى نضاله الآنف الذكر من كتابه المسمى «الدفاع عن المسيحية» (Apologitique) الذي تعمق فيه في بحث أصل الخلاف بين الوثنيين والمسيحيين واستنكر الاضطهاد الذي كان ينال المسيحيين وحدهم من أجل جرائم خيالية لم يتم التحري في أمرها، ومن أجل ازدرائهم بالديانة الرسمية للدولة وامتناعهم عن عبادة الامبراطور[2].

---

(١) أدى انتشار المسيحيةبين طبقة المثقفين الذين ألفوا التفكير الكلاسيكي ومرنوا طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة إلى تطور جديد في الدراسات اللاهوتية إذ أن هؤلاء المثقفين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله سبحانه وتعالى والمسيح عليه السلام ويحاولون تحديدها، وكذلك عن ما هو المقصود بالقربان (مايعتقده المسيحيون من الصلة بين الخمر والخبز من ناحية ودم المسيح وجسده من ناحية ثانية اعتماداً على ما قاله للحواريين «تلاميذه» عن الخمر أثناء العشاء الأخير هذا دمي فاشربوا، وكسر الخبز وناوله لهم قائلاً وهذا جسدي فكلوا، فهم يتناولون القربان المكون من الخمر والخبز اعتماداً على هذا الأساس) ثم عن طبيعة الملائكة والمسائل الدينية الأخرى، وسرعان ما أصبحت هذه الأمور تحتل جانباً كبيراً من تفكير المسيحيين خاصة عندما أصبحت ديناً رسمياً في الدولة الرومانية مما استلزم وضع دراسات لا هوتية توضح هذه الأمور، فقام بهذه المهمة نخبة من كبار مفكري المسيحية وهم الذين يطلق عليهم عادة آباء الكنيسة، ومن أشهرهم : كلمنت الإسكندري (عاش في القرن الثالث)، أوريجن (١٨٥ – ٢٥٤م)، جيروم (٣٣١ – ٤٢٠م)، أمبراوز (٣٤٠ – ٣٩٧م)، أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠م). لمزيد من التفصيل انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٦٥ .

(٢) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٥٨ .

ويتلوه القديس سبيريانوس أسقف قرطاجة أيضاً الذي لاقى حتفه هو الآخر في ١٤ سبتمبر ٢٥٨م في موجة الاضطهاد تلك بعد كفاح طويل في نصرة المسيحية [١]، وتكمن مكانته الفكرية في الحجج المؤيدة للمسيحية التي استنبطها للرد على اليهود ضمن مؤلفه المسمى (Testimonia ad Quirinum) الذي وضعه لأحد أصدقائه واستند في تلك الحجج إلى الكتب السماوية [٢]، ثم مينوس فيلكس الذي ألف كتاباً موجهاً إلى المثقفين اسمه (Octavius) والذي هو عبارة عن حوار يرد فيه مسيحي على الاعتراضات المألوفة الموجهة ضد المسيحية ويخلص فيه في النهاية إلى إقناع محدثه بصحة المسيحية [٣]، وكانت مؤلفات هؤلاء المفكرين الثلاثة المرجع الأول لكل الذين جاؤا من بعدهم من مفكري المسيحية في العصور الوسطى الذين تعرضوا لهذا الموضوع، وبصفة خاصة تلك الحجج التي قدمها ترتليانوس في هجومه على الوثنية إذ استعملوها هي نفسها ولم يزيدوا عليها [٤]. وأهم من كل هؤلاء القديس أوغسطين الذي يعتبر بحق من أشهر أعلام الفكر المسيحي في العصور الوسطى والذي يمثل القمة التي وصلت إليها الحياة الفكرية في إفريقية المسيحية وبلغ من شهرته أن تسمى عصره بالعصر الأوغسطيني نسبة إليه [٥].

---

(١) لمزيد من التفصيل عن حياته انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٧٩ .

(٢) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٧٩ .

(٣) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٦٣ .

(٤) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٦٠ وما بعدها.

(٥) ولد أوغسطين في بلدة تاجستة (سوق هراس) جنوب بونه (عنابه) في ١٣ نوفمبر ٣٥٤ من أب وثني وأم مسيحية شديدة التدين تدعى منيكا (Manique) ورسمت فيما بعد قديسة، وتلقى علومه في بلده ثم رحل في طلب العلم إلى مداوروش ثم منها إلى قرطاجة وبعد أن أكمل علومه بها رحل إلى روما فدرس فيها أعمال شيشرون وغيره من المفكرين الرومان، وكان في هذه المرحلة من حياته وثنياً يعيش حياة ماجنة حتى إنه اتخذ لنفسه خليلة في سن الثامنة عشرة وأنجب منها ولداً، ثم أعجبته المانوية فاتبع نحلتها، ولكن آراء أمه كانت تؤثر في أعماقه، ولما كان في روما قد درس الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فإن هذه الدراسة قربته مراحل من المسيحية، وانتهى به تجواله في إيطاليا إلى الإقامة في ميلان حيث أخذ يقوم بتدريس البلاغة فيها منذ سنة ٣٨٤م، وفيها التقى بالقديس أمبراوز فأعجب به وبخطبه الوعظية، وعلى يده تنصر بعد صراع مرير مع نفسه وقبل منه المعمودية سنة ٣٨٧م وكانت سنه آنذاك ٣٣ سنة. وفي العام التالي عاد إلى وطنه فتبرع بممتلكاته للفقراء وأنشأ ديراً اعتكف فيه وتسامع الناس به فقصدوه لأخذ العلم عنه، وفي سنة ٣٩١م عين أسقفاً لبونة.=

وتعود شهرة أوغسطين إلى عدة عوامل أهمها كفاحه ضد مخالفي المذهب الكاثوليكي ثم شخصيته الفذة المتعددة المواهب إذ كان خطيباً بليغاً وأديباً وواعظاً قوي الحجة ورجل فكر من الطراز الأول، ثم إلى مؤلفاته العديدة التي تجاوزت المائتي مؤلف كتبها جميعها باللاتينية وإلى الآراء والنظريات التي ضمنها تلك المؤلفات، ويعتبر كتابه المسمى مدينة الله (La Cite de Dieu) أشهر مؤلفاته والذي فاق أثره أثر أي كتاب آخر في العصور الوسطى، وقد بدأ في تأليفه سنة ٤١٣ وفرغ منه في سنة ٤١٧، ومن الواضح أن الهدف الرئيسي من وضعه كان هو الدفاع عن المسيحيين الذين كان خصومهم يُحَمِّلُونهم مسؤولية أفول نجم الامبراطورية، وقد حرص فيه على وجه الخصوص على التمييز بين زيف المجتمعات الدنيوية التي لا يهم زوالها، وبين مدينة الله الأبدية، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن أوغسطين قد وضع فيه فلسفة سياسية ظلت قائمة في أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وتدور هذه الفلسفة حول محور رئيسي هو أن الكنيسة من صنع الله وأن لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية في حين أن الدولة من صنع الإنسان ولذلك فهي تتصف بالنقص والشر ولا بد من خضوعها لنفوذ الكنيسة (1)، وبالرغم من أنه كان قاسياً في حكمه على الدولة، فإنه كان يعتبرها الدرع الواقي من الفوضي ويوصي بطاعة رجالها مهما كانت مساوئهم، وكان يميل بطبيعة الحال إلى الدولة المسيحية التي تسخر

=ومنذ ذلك الوقت أخذ يعمل بكل ما أوتي من قوة لجمع شمل المسيحيين في إفريقية وتصدى لقمع المناوئين للمذهب الكاثوليكي والهراطقة، فكان وراء عقد مجمع قرطاجة الديني الذي عقد في سنة ٤١١م الذي حضره مئات من الأساقفة الكاثوليك والدوناتيين وانتهى باتفاق وقع إثباته في دستور ٣٠ يناير سنة ٤١١م الذي نص على وجوب رجوع المنشقين إلى الكنيسة الكاثوليكية وإلا تعرضوا للتعذيب والسجن والنفي ومصادرة الممتلكات فرجع كثير منهم إلى الكاثوليكية. كما قام بإصلاح ذات البين بين الامبراطورة بلاسيديا والكونت بونيفاس الذي كان فساد العلاقة بينهما هو السبب في إدخال الوندال إلى إفريقية، وكان هدفه حماية الكاثوليكية من الوندال الأريوسيين وقاد حركة المقاومة ضد الوندال حتى لقي حتفه أثناء ذلك في ٢٩ أغسطس ٤٣٠م، بعد أن قاد المقاومة ١٤ شهراً، وواتته الفرصة للهرب أكثر من مرة فرفض مفضلاً الموت في سبيل عقيدته على الهرب. انظر يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص٣٠٤، عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر ص٢٠ .

(١) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٣٣٥ وج٢ ص٤٢٥ .

قوتها في سبيل الكنيسة وتقاوم البدع [1]. وعلى هذه النظرية اعتمد البابا جريجوري السابع في تدعيم مطامحه في إقرار نظرية الحكم الإلهي، ومن أشهر مؤلفات أوغسطين الأخرى كتابه المسمى الاعترافات (Mes Confessions) وهو ترجمة ذاتية أمينة وضعه سنة ٣٩٧–٣٩٨ وقص فيه تاريخ حياته وتجربته في مسيرة إيمانه بالمسيحية.

ولعل مما يوضح مكانة أوغسطين في الفكر المسيحي هو أنه يكفي أن نعرف أنه مؤسس المدرسة الفكرية الكبرى التي عرفت بالمدرسة الأوغسطينية والتي قلما لم يتأثر بها مفكر أوروبي في العصور الوسطى من قريب أو بعيد على اختلاف ميوله وآرائه حتى قال عنه فيشر : (ظلت العقيدة المسيحية في المجتمع الأوروبي الغربي حافظة لما انطبعت به من تفكير القديس أوجسطين حتى مطلع القرن الثالث عشر)[2]، ثم إن أوغسطين كان الشريان الرئيسي الذي وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحي في العصور الوسطى، تلك الفلسفة التي بلغت ذروتها فيما بعد على يد ديكارت والتي تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر : (فأنا أستطيع أن أشك في كل شيء إلا في وجودي لأنني أفكر، وما دمت أفكر فأنا موجود)[3]، كما أن المذهب الإرادي (Volavtarism) في الفلسفة المسيحية وعلاج مشكلة الشر ترجعان جميعاً إلى أوغسطين[4]. أما عن المفكرين الذين تأثروا به فمن أشهرهم القديس أنسلم (Anselme) (١٠٣٣ – ١١٠٩م) رئيس أساقفة كانتربري سنة ١٠٩٣م الذي كان يعترف بأنه تلميذ أوغسطين وأنه أخذ عنه منهج (تعقل الإيمان)[5]، والإسباني أرزيوس (Orosius) الذي وضع مؤلفاً سماه (سبع رسائل تاريخية للرد على الوثنية) نال شهرة واسعة في العصور الوسطى[6]، ثم القديس بونافنتورا (Bonaventura) (١٢٢١ – ١٢٧٤م)، وروجر بيكون (١٢١٠ – ١٢٩٢م) ولما كثرت حركات الهرطقة في العصور الوسطى

---

(١) يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص٣١٤ .
(٢) فيشر : المرجع السابق ق٢ ص٢٦١ .
(٣) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٣٥٨ .
(٤) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٣٥٨ .
(٥) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص١٦٣ .
(٦) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٤٢٩ .

المتأخرة عاد مفكرو الكنيسة الكاثوليكة إلى آراء القديس أوغسطين وحججه في الرد على مناوئي الكاثوليكية واستمدوا منها حججهم التي ردوا بها على هؤلاء وعلى الهراطقة[1] .

ولا يتسع المقام لبحث آراء ونظريات القديس أوغسطين وأثرها في الفكر المسيحي بالتفصيل، ولكن يهمنا أن نتعرض لنظرية واحدة منها هي تلك التي اعتمدت عليها الكنيسة في إشعال نار الحروب الصليبية. فمن المعروف أن الديانة المسيحية – شأنها في ذلك شأن كافة الرسالات السماوية – هي ديانة سلام وتسامح، وقد اعتمدت مبدأ الدعوة إليها سلماً، ونبذت استعمال القوة حتى للدفاع عن النفس على أساس أن تحمل العذاب هو السبيل إلى خلاص النفس، وقدوة المسيحيين في ذلك هو السيد المسيح عليه السلام الذي تحمل عذاب الصلب – على حد قولهم – فداء للبشرية وتخليصاً وإنقاذاً لها. وانطلاقاً من هذا المبدأ حرمت المسيحية على معتنقيها القتال أو حتى الانخراط في سلك الجندية، ومما يدعم هذا القول ما قاله القديس ترتليانوس من (إن المسيحي لا يمكن أن يكون جندياً وإن واجب الجندي إذا تنصر أن يلوذ بالفرار) [2]، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره شارل أندري جوليان من أن شخصاً أحضر ابنه إلى القنصل في تبسه لإلحاقه بالجيش فرفض الابن ذلك قائلاً : (لا يمكن أن أخدم في الجندية، إنني مسيحي، لن أكون جندياً، اقطعوا رأسي، إنني لست جندي الحكم القائم، إنني من جيش الله) [3] لهذا تحمل المسيحيون الأوائل الاضطهاد وشتى أنواع العذاب بقلوب مطمئنة وصبر عجيب، وقد استمرت فكرة نبذ العنف راسخة في أذهان المسيحيين حتى بعد انتصار المسيحية على الوثنية.

وعندما تحول أوغسطين إلى المسيحية وبدأ نضاله ضد مناوئي المذهب الكاثوليكي الذي كان في نظره يمثل المسيحية الحقة ضَمَّنَ مجادلاتِه ومناظراته مع هؤلاء فتوى مغايرة لهذا المبدأ مفادها أنه يجوز للسلطات العامة الالتجاء إلى إرهاب مُجْدٍ لحمل المبتدعة على الرجوع إلى المذهب الكاثوليكي ومنع ضعفاء الشخصية والعقيدة من التنكب عنه، وبرر

---

(١) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٣٧٤ . ولمزيد من التفصيل عن أثر أوغسطين في الفكر المسيحي انظر : E. R. Daniel : The Franciscan Consept of Missions. p13

(٢) شارل جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٥٦ .

(٣) شارل جوليان : المرجع السابق ج١ ص٢٨٧ .

ذلك دينياً بقول المسيح عليه السلام : (ادفعوهم إلى دين الله دفعاً) [(١)]، كما صرح في كتابه «مدينة الله» بأنه من الممكن القيام بهذا الواجب الحربي بأمر من الله، فتلقفت الكنيسة هذه الفتوى وأخذت تستنبط منها التشريعات المتعلقة بمحاربتها لأعدائها، وبدأت تشجع على هذا القتال وتحض عليه حسب ما يخدم أغراضها، وحرصت على الإشراف عليه وتوجيهه الوجهة التي تراها، وأعلنت أن من يموت في سبيل الكنيسة يموت شهيداً ويكتب له الثواب العظيم، ووجهت هذا القتال أولاً ضد الجرمان، ثم بعد ذلك ضد المسلمين غرباً وشرقاً في ما سمي بالحروب الصليبية، وخلاصة القول إن أوغسطين فاق غيره من آباء الكنيسة في تأثيره في العقلية الأوروبية في العصور الوسطى.

ونخلص مما تقدم إلى نتيجة هامة هي أن كفاح إفريقية الطويل في سبيل نصرة المذهب الكاثوليكي، وما قدمه مفكروها للفكر المسيحي الغربي قد عزز الروابط بين مسحيبها ومسيحيي الغرب الأوروبي لوحدة المذهب الديني بين الطرفين. فقد اعتبر الغرب الأوروبي هذا النضال جزءاً من نضاله، وأن أعمال مفكريها جزءاً هاماً من تراثه الفكري مما أوجد التلاحم بين الطرفين، وفي هذا ما يكفي لتفسير ما كانت تشعر به البابوية بصفة خاصة ومسيحيو الغرب الأوروبي بصفة عامة من حنين لأمجاد كنيستها منذ الفتح الإسلامي لها والإصرار على استعادتها للهيمنة المسيحية احتراماً وتقديراً لتلك الأمجاد، وكان لهذا الإصرار أثره القوي بلا شك في نشاط الحركة الصليبية في ميدانها في أدوار تلك الحركة المختلفة، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة من قرون مختلفة، فمنذ وقت مبكر نجد شارلمان يرسل سفارة إلى الأمير إبراهيم الأغلبي تطلب منه السماح لها بنقل رفات القديس سبريانوس الذي كان مدفوناً في قرطاجنة، ورفات باقي القديسين وآثارهم من إفريقية إلى أوروبا، فلبى الأمير هذا الطلب حيث تم نقلها بالفعل [(٢)]، وإن كانت المصادر التاريخية الإسلامية قد صمتت عن تعليل هذا الطلب الغريب، فإنه ليس من العسير فهمه في ضوء المعطيات التاريخية اللاحقة، فالذي أراه أن الدافع لذلك كان رغبة الغرب الأوروبي في

---

(١) يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص٣١١ .

(٢) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص١٧٨، انظر كذلك شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص١٧٢، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص٥١ .

تحرير هؤلاء القديسين من الحكم الإسلامي ما دام تحريرهم بالقوة كان متعذراً في ذلك الوقت، نظراً لمكانة هؤلاء القديسين السامية في نفوس المسيحيين، فقام شارلمان وهو الذي حمل لقب الصليبي الأول بهذا الأمر إرضاءً لهذه النزعة، ثم جاء العدوان الصليبي المتكرر على إفريقية تعبيراً آخر عن تلك النزعة، ونجد تأكيداً آخر لها في العصر الحديث يصدر عن الكاردينال لافيجري الذي يعتبر من أشهر العاملين على تنصير المسلمين في الجزائر في القرن التاسع عشر، إذ كان يعتبر نفسه أنه جاء إلى الجزائر لإحياء الماضي المجيد لكنيسة إفريقية. فكان يقول عن نفسه إنه الوارث لكرسي القديس سبيريانوس وأن كنيسة تونس ما هي إلا كنيسة قرطاجة التي هي مهد المسيحية في إفريقية (وفيها كرسي الجاثليق المشرف على سبعمائة كنيسة أسقفية، وهي مدينة العديد من الشهداء والعلماء والمعرفين والعذارى المقدسات، وهي مدينة ترتليان وسبيريان، وفولجانوس وفيلستي وبريستو، ومدينة تلك المجامع الشهيرة التي كانت مدة طويلة نور العالم المسيحي)(١).

ولم تقتصر أهمية إفريقية بالنسبة للفكر الأوروبي في العصور الوسطى على التأثير في الفكر الديني المسيحي فقط، وإنما كان لأبنائها تأثير قوي على الأدب اللاتيني، فقد نبغ منهم كتاب وأدباء وخطباء وشعراء زادوا في ثروة هذا الأدب بما قدموه من إنتاج. وتزيد أهمية هذه الناحية عندما نلاحظ أن التراث اللاتيني ظل يمثل أكبر قوة فعالة في الدراسات الأدبية في العصور الوسطى، وكانت إفريقية قبل الفتح الإسلامي مركزاً هاماً لهذا الأدب لا يقل في أهميته عن إيطاليا نفسها، وعقب وفاة ثيودريك انتقل مركز الثقافة اللاتينية من إيطاليا إلى إفريقية حيث ظهر فيها أدباء مبدعون مثل الأسقف فركندوس (Verecundus) (ت سنة ٥٥٢م)(٢) الذي كان له دور بارز في حمل مسيحيي إفريقية على معارضة الامبراطور جستنيان إبان فتنة الفصول الثلاثة(٣). ومن إفريقية انتقل مركز نشاط هذه الحركة إلى

---

(١) د. الحبيب الجنحاني : من قضايا الفكر ص١٤٢ .

(٢) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٣٢ .

(٣) عن فتنة الفصول الثلاثة انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص١١٩ وما بعدها، د. السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص٩٦ وما بعدها، يحيي بو عزيز : المرجع السابق ص٣٧٣ وما بعدها.

إسبانيا عند الفتح الإسلامي حينما هاجر كثير من رجال العلم من إفريقية إليها حاملين معهم كتبهم وعلومهم [1]، وانطلاقاً من هذه الحقيقة نستطيع القول بأن إفريقية كونها كانت مركزاً هاماً لهذا الأدب لم تغب من مخيلة دارسيه من الأوروبيين بعدالفتح الإسلامي لها، وكانوا يتمنون استخلاصها من المسلمين واستعادة مجدها في تلك الدراسات التي استقوا منها قسطاً وافراً من ثقافتهم.

وأما من الناحية السياسية فإن إفريقية نظراً لأنها كانت قبل الفتح الإسلامي لها ولاية هامة من ولايات الامبراطورية الرومانية، فقد أسهمت بنصيب كبير في صنع تاريخ هذه الامبراطورية فكان في استطاعة من يسيطر عليها أن يكون له صوتاً مسموعاً في تسيير دفة الحكم في العالم الروماني كما حدث أثناء الصراع الذي نشب بعد الامبراطور دقلديانوس، إذ انتهز حاكم إفريقية دوميسيوس الإسكندر هذه الأزمة وأعلن نفسه امبراطوراً في سنة ٣٠٥م، ومع أن ماكسينوس بن مكسيميانوس تمكن من القضاء على هذه الحركة إلا أن ذلك يدل دلالة واضحة على مدى أهمية إفريقية بالنسبة للامبراطورية، تلك الأهمية والإمكانية الكبيرة التي جعلت حاكمها يعلن نفسه امبراطوراً، ويزيد في تلك الأهمية أن حاكم إفريقية كان يستطيع تهديد إيطاليا قلب الامبراطورية تهديداً مباشراً وخطيراً، لذلك حرص أباطرة روما دائما على إسناد ولايتها للموالين لهم تفادياً لذلك الخطر، وزيادة في توضيح هذا الثقل السياسي لإفريقية في الامبراطورية الرومانية يكفي أن نشير إلى أنها قدمت لعرش هذه الامبراطورية امبراطورين كبيرين هما سبتيم سيناروس وأصله من لبده والذي رفعه الجند إلى العرش سنة ١٩٣م والذي قام بعدة إصلاحات هامة في الامبراطورية لا سيما في بلاده إفريقية، وعندما توفي محارباً في إنجلترا سنة ٢١١م خلفه ابنه على العرش [2].

وفي العهد البيزنطي نرى أن شرارة المقاومة البيزنطية للهجوم الفارسي الكاسح الذي كاد يطيح بالامبراطورية البيزنطية تنطلق من إفريقية، إذ حينما شعر أهالي القسطنطينية بالخطر الفارسي العظيم المحدق بالامبراطورية وعجز حكومتهم عن الوقوف في وجه الفرس

---

(١) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٣٢ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص٣٢ .

أخذوا يستنجدون بهراكليوس والي إفريقية الذي كان ثائراً على الامبراطور فوقاس منذ أن اغتصب العرش من الامبراطور موريس سنة ٦٠٢م عارضين عليه عرش الامبراطورية ليخلصهم من امبراطورهم العاجز عن التصدي للفرس ولينقذهم من الكارثة المرتقبة. ولكن هراكليوس نظراً لكبر سنه شعر أن ابنه هرقل أقدر منه على تحمل هذه المسؤولية الجسيمة فأرسله على رأس جيش إفريقي إلى تسالونيك وأرسل جيشاً آخر إلى مصر بقيادة حفيده ناتياس ليبدأ منها الزحف إلى الشمال باتجاه القسطنطينية، وكان بعد ذلك ما هو مبسوط في كتب التاريخ التي تعرضت لهذا الموضوع من تولي هرقل العرش وانتصاره على الفرس. يضاف إلى ذلك كفاح البيزنطيين الطويل ضد المسلمين في ساحتها منذ أن وصل هؤلاء إلى أطرافها الشرقية لصدهم عنها أولاً ثم لاستعادتها منهم بعد الفتح كما سنشير إليه فيما بعد، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أهميتها بالنسبة لتلك الدولة، وكل ذلك يؤكد أن بلداً له هذا الوزن السياسي في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط لا بد وأنه كان دائم الحضور في أذهان سياسيي الغرب الأوروبي الذين ورثوا عن الدولة البيزنطية بعد اضمحلالها كافة مشاريعها السياسية، وأن نواياهم كانت دائماً تتجه للعمل على استعادتها للهيمنة الأوروبية.

وأما بالنسبة للناحية الاقتصادية فإن إفريقية بموقعها المتوسط في عالم البحر الأبيض المتوسط مركز النشاط والحركة في العالم القديم، ثم منتجاتها الوافرة اللذين سبق أن أشرنا إليهما قد ساعداها على أن تسهم بقسط كبير في الحركة الاقتصادية العالمية في العصور الوسطى، فقد كان جنوب غرب أوروبا كثير الاعتماد عليها في تزويده بما كان يحتاجه من غلال خاصة في العهد الروماني حتى سميت بمطامير روما [1] وكذلك الزيت والخمور وغيرها، وليس أدل على أهميتها الاقتصادية بالنسبة لروما مما ورد في خطاب عضو مجلس الشيوخ الروماني (السناتور كاتون Caton) الذي ألقاه في مجلس الشيوخ بروما بعد عودته من زيارة قام بها لإفريقية يحرضهم فيه على احتلالها عارضاً عليهم تيناً طرياً أحضره معه منها بقوله لهم إن هذا التين يبعد عن روما ثلاثة أيام فقط وإن أرضاً تنتج مثل هذه الخيرات يجب أن تكون لروما، وبعد خضوعها للرومان كان تدفق الغلال منها إلى روما شغل الأباطرة الشاغل،

(١) انظر فيشر : المرجع السابق ق١ ص٣٠ .

وقد سبب احتلال الوندال لها ومنعهم تصدير غلالها لإيطاليا مشاكل عديدة للإيطاليين. وبقيت هذه الأهمية على حالها في العهد البيزنطي إذ تحولت شحنات غلالها إلى القسطنطينية وقد كان لقطع هراكليوس لهذه الشحنات عن القسطنطينية إبان ثورته على الامبراطور فوقاس أثر قوي في تذمر سكان العاصمة واستدعائهم له لتولي العرش كما سبق أن ذكرنا.

وقد كان جنوب غرب أوروبا يعتمد عليها إلى حد كبير في حصوله على حاجته من زيت الزيتون الذي كان بالإضافة إلى أنه مادة ضرورية للطعام، يستعمل في الإضاءة والعديد من مستحضرات التجميل، حتى أصبح هذا الزيت عماد اقتصاد إفريقية في العهد البيزنطي ويؤكد هذه الحقيقة ما رواه ابن عبد الحكم من أن عبد الله بن أبي السرح حينما افتتحها (كان يوضع بين يديه الكوم من الوَرِقِ فيقال للأفارقة من أين لكم هذا، قال : «فجعل إنسان منهم يدور كالذي يلتمس الشيء حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه فقال من هذا نصيب الوَرِقَ» قال وكيف قال إن الروم ليس عندهم زيتون فكانوا يأتوننا فيشترون منا الزيت، ونأخذ هذا الوَرِقِ منهم) (١)، وبالرغم مما يمكن أن يوجه لهذا القول من نقد، إلا أنه يدل دلالة قاطعة على مدى أهمية إفريقية في تصدير هذا الزيت إلى أوروبا، ومدى اعتماد أوروبا عليه، ولم تقل هذه الأهمية بعد الفتح الإسلامي كما سنشير إليه فيما بعد.

وكانت إفريقية هي المنفذ الهام لمنتجات قلب القارة لأوروبا مثل الذهب والعاج وريش النعام وخشب الأبنوس والصندل والرقيق والحيوانات لا سيما الضارية منها اللازمة لحفلات التسلية والترفيه، تلك الحفلات التي كانت تعتبر من ضروريات الحياة في المجتمع الروماني، واستمر هذا المنفذ يقوم بدوره هذا بعد الفتح الإسلامي، ويتصدر الذهب هذه القائمة إذ كان يشق طريقه بواسطة القوافل البرية عبر الصحراء إلى موانئ طرابلس وقرطاجة وبونة ثم المهدية التي حلت محل قرطاجة بعد الفتح حيث كان يحمل من تلك الموانيء إلى أوروبا. ولم يتوقف تدفقه إليها عبر هذا الطريق إلا لفترة بسيطة إبان الفتح ثم عاد إلى التدفق من جديد. ومع أنه وجدت طرق أخرى بعد الفتح لتجارة الذهب مثل تلك التي كانت تمر

---

(١) ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص٣٩، انظر كذلك التجاني : رحلة التجاني، ص٦٥ – ٦٦، ابن الشماع : المصدر السابق ص٢٨ .

بالمغرب الأقصى والتي زادت أهميتها إلى حد كبير في عهد المرابطين، إلا أن طريق إفريقية بقي محافظاً على أهميته. وقد تأسست في العهد الإسلامي مدن هامة على الطرق التي كان يمر بها الذهب في رحلته من قلب القارة إلى الخارج مثل مدينة سجلماسة التي أثرى أهلها من الاتجار به وتصنيعه [١]، فكانت إفريقية تقوم بدور الوسيط النشط في هذه التجارة الأمر الذي أضفى عليها أهمية خاصة بالنسبة للاقتصاد الأوروبي في العصور الوسطى.

وأما مكانتها الاستراتيجية بالنسبة لأوروبا الغربية، فانطلاقاً من المبدأ الذي سبق أن قررناه من أن إفريقية هي العُدْوَة الجنوبية للمضيق الهام في وسط البحر الأبيض المتوسط، وأن من يسيطر على إحدى عدوتي هذا المضيق لا بد وأن يعمل للسيطرة على العدوة الأخرى، فإن إفريقية هي عورة أوروبا الغربية وخط الدفاع الأول عنها، ولذلك لا يمكن أن تقبل التنازل عنها والتفريط بها بسهولة أو السماح لقوة معادية بالسيطرة عليها عن طيب خاطر، لأن في ذلك الخطر الأكيد عليها، والاحتمال كبير في أن تصاب منها بمقتل، ولو أعدنا إلى الأذهان أن في العدوة الشمالية لهذا المضيق توجد روما مركز المسيحية الكاثوليكية، لتبين مدى أهمية إفريقية بالنسبة للعالم المسيحي في العصور الوسطى.

فتح المسلمين لإفريقية :

كانت إفريقية قبيل الفتح الإسلامي قد انسلخت عن الامبراطورية البيزنطية انسلاخاً يكاد يكون تاماً نتيجة لوقوفها موقفاً عدائياً من بدعة سرجيوس (Sergius) بطريرك القسطنطينية [٢]، فقد أدى ذلك إلى تمرد حاكمها جريجوريوس الثاني [٣] على الامبراطور وأخذ يصرف أمور

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. الحبيب الجنحاني : تاهرت عاصمة الدولة الرستمية (بحث).

(٢) تتلخص هذه البدعة في أن سرجيوس أنكر أن تكون للمسيح عليه السلام طاقة خاصة في كل حالة من حالات طبيعته وكان يقول إنه ليس له إلا إرادة واحدة إلهية وبشرية معاً، وكان مكسيموس (Meximus) كبير رهبان كريزوبوليس (Chrysopolis) أشد المعارضين لهذا القول وهو الذي تزعم حركة المعارضة في إفريقية وألهب حماس الناس بها واشتد هياجهم، وعقدت مجامع دينية في قرطاجة استنكرت هذا القول واعتبرته بدعة ووجهت رسائل إلى البابا والامبراطور تندد بآراء سرجيوس، ولم يتردد أهل إفريقية في الدعوة لإسقاط الامبراطور، فركب حاكمها هذه الموجة من السخط وشق عصا الطاعة على الدولة.

(٣) هو ابن نيكيتاس حفيد هراكليوس حاكم إفريقية إبان الهجوم الفارسي على الامبراطورية البيزنطية=

البلاد دون الرجوع إلى القسطنطينية. وكان سكانها آنذاك عبارة عن خليط من العناصر البشرية قلما وجد بينهم التمازج والانسجام وينقسمون إلى ثلاث فئات رئيسية هي :

١ - البربر : وهم غالبية السكان وكانوا يقطنون المناطق الداخلية وينقسمون بدورهم إلى أرومتين كبيرتين هما البربر البتر، والبربر البرانس (١).

٢ - الأفارقة : أو الأفارق وهم بقايا شعب قرطاجة وخليط من المستعمرين اللاتين والوطنيين الذين تأثروا بالحضارتين الرومانية والبيزنطية وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة (٢).

٣ - الروم : وهم البيزنطيون وكانوا يوجدون في شكل حاميات في المدن والمعسكرات الهامة أو كبار الملاك والنبلاء ويكونون الطبقة العليا في المجتمع.

وأما ديانتهم فكانت المسيحية وقد تركزت في المناطق الساحلية والمدن، كما اعتنقتها بعض قبائل البربر في الداخل، في حين كانت الوثنية هي ديانة قسم كبير من البربر، وقد وجدت اليهودية في بعض نواحي إفريقية ولكنها بقيت محصورة في نطاق محدود.

تم فتح المسلمين لإفريقية والمغرب على عدة مراحل، وليس المقصود هنا أن نستعرض حوادث هذا الفتح، فذلك أمر يطول بحثه ويخرجنا بطبيعة الحال عن الخطة الأساسية لهذه الدراسة، وتلك الحوادث مبسوطة في العديد من كتب التاريخ يمكن للراغب في الزيادة الرجوع إليها (٣)، ولكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو بضع ملاحظات على هذه

=وابن عم الامبراطور هرقل وتسميه المصادر الإسلامية (جرجير).

(١) عن البربر وأصلهم وتفرعاتهم ومساكن قبائلهم انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١١٤ ومابعدها، ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في الدولة المرينية ص١٤ وما بعدها، مجهول : ذكر الياقوتة الجلية، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد رقم (MSS. 5180) ورقة ١ وما بعدها، د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي، ص٢١ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هؤلاء الأفارقة انظر د. سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص٥١ وما بعدها، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٢٠٦، الحسن الوزان : المصدر السابق ص٤٣ وما بعدها.

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر: د. حسين مؤنس : بعد فتح العرب للمغرب، د. السيد عبد العزيز=

الحوادث التي استغرقت فترة زمنية طويلة تقارب السبعين سنة، امتدت منذ أن قام عمرو بن العاص بغزو أطراف إفريقية الشرقية سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م بعد فتح مصر مباشرة، وفتح في تلك الغزوة طرابلس، حتى سنة ٩٠هـ / ٧١١م حينما قضى موسى بن نصير على كل مظاهر المقاومة ضد الإسلام في المغرب العربي بأسره، ولم تستعص عليه إلا مدينة سبتة لمناعتها وتوالي وصول الإمدادات إليها من إسبانيا، وعدم وجود بحرية لديه لإحكام الحصار عليها من البر والبحر، فكلف مولاه طارق بن زياد واليه على طنجة بمراقبتها واغتنام الفرصة لفتحها، وما تبع ذلك من إجراءات هامة قام بها موسى لتثبيت أركان هذا الفتح، أبرزها العمل على إضعاف العصبية القبلية لدى البربر، تلك العصبية التي كانت سبباً هاماً في الثورات التي أعاقت عملية الفتح وما نتج عنها من كوارث، حيث قام بتغيير مواطن العديد من هذه القبائل فنقلها من مواطنها الأصلية إلى مواطن جديدة [1] ليباعد بينها فيضعفها، ثم اهتم بنشر الإسلام بين البربر معتبراً أن إسلامهم هو وحده الكفيل بإقرار الفتح فأمر العرب في جيشه بتعليمه للبربر وتفقيههم فيه [2]، وآتت هذه السياسة الحكيمة أكلها إذ لم تلبث أن تفتحت قلوب البربر للإسلام وتسابقوا إلى اعتناقه، بل لم تكد تمضي فترة وجيزة حتى جردوا سيوفهم لنصرته والعمل على نشره، وهو موقف يكاد ينفرد به المغرب العربي عن باقي الأقطار التي فتحها المسلمون، أي تبدل الوضع بهذه السرعة من المقاومة إلى الحماس الشديد لنصرة الدين الجديد [3]، وقد عزز الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فيما بعد

=سالم : المغرب العربي الكبير – العصر الإسلامي، د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي وبحث : فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية (لنفس المؤلف)، الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا. وغيرها فضلاً عن المصادر.

(١) الرقيق القيرواني : فتح إفريقية والمغرب ص٦٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٤٢ .

(٣) يكرر شارل أندري جوليان مزاعم العديد من المؤرخين الغربيين والمستشرقين الذين دأبوا على ترديد القول بأن الإسلام قد فرض على البربر بالقوة فيقول : (ولقد فرض موسى الدين الإسلامي في حزم شديد على هذه القبائل المسيحية أو اليهودية المنصرفة غالباً إلى عبادة الطبيعة) وكذلك توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام ص٣٤٩»، والحقيقة أن سرعة استجابة البربر للإسلام قد أذهلت هؤلاء فلم يجدوا أمامهم لتبريرها إلا هذه التهمة الباطلة لإلصاقها بالإسلام والمسلمين، ونسوا أو تناسوا أن إفريقية بصفة خاصة والمغرب العربي بصفة عامة كانا يعيشان قبيل الإسلام في فراغ روحي لشدة=

هذه السياسة، فاستكمل ما بدأه موسى في هذا المجال إذ أرسل عشرة من أجلاء التابعين رضي الله عنهم إلى إفريقية والمغرب لتعليم البربر الإسلام كما سيذكر في موضعه، وكانت أثناء ذلك قد أسست مدينة القيروان [1] لتكون قاعدة للجيوش الإسلامية في المغرب العربي بأسره والتي ستصبح منطلقاً هاماً للفكر الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا فيما بعد كما سيذكر في موضعه، كما كان قد تم إنشاء دار الصناعة في تونس [2]، التي

= النكبات التي توالت على المسيحية الكاثوليكية فيهما حتى أصبحت هذه الديانة لا تلبي حاجة الإنسان فيهما من الإيمان، فقد قصرت كل من المسيحية بانحرافاتها المتكررة واليهودية بتقوقعها على نفسها وطقوسها المعقدة ومن باب أولى الوثنية عن تقديم الطمأنينة الروحية التي كان ينشدها هذا الإنسان والتي قدمها له الإسلام ببساطة متناهية خالية من كل تعقيد، هذا بالإضافة إلى مبادئه السامية كالتسامح والمساواة ، والحرية والإخاء فجذبه كل ذلك إلى هذا الدين. ولو كان الإسلام فرض على البربر بالقوة لما ظلت بقايا المسيحيين في إفريقية والمغرب إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) كما يقول توماس أرنولد نفسه (المرجع السابق ص١٤٣).

(١) كان أول من فكر في إنشاء القيروان هو معاوية بن حديج إذ اختطها في موضع يقال له القرن، ولما ولي عقبة بن نافع ولايته الأولى على إفريقية ترك ذلك الموقع واختط القيروان الحالية ولكن خليفته أبا المهاجر دينار تركها واختط مدينة أخرى بالقرب منها، ولما ولي عقبة ولايته الثانية أمر الناس بالعودة إلى قيروانه الأولى. وأما السبب في إنشائها فكان لتثبيت الفتح إذ قال عقبة لأصحابه حينما عزم على إنشائها : (إن إفريقية إذا دخلها أمير تحرم أهلها بالإسلام، فإذا خرج منها عادوا إلى الكفر، وإني أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسكراً وقيرواناً تكون عزاً للمسلمين إلى آخر الدهر). انظر ابن الشباط : صلة السمط ص١٧٩، كذلك الدباغ : معالم الإيمان ج١ ص٨، وعن اشتقاق اسمها انظر ابن الشباط : المصدر السابق ص١٩٠ .

(٢) اختلف المؤرخون المسلمون في اسم الذي أنشأ دار الصناعة في تونس وشق القناة ليصلها بالبحر، فذكر الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص٦٦) أن الذي أنشأها هو حسان بن النعمان ويؤيده في ذلك كل من البكري (مسالك الأبصار ص٣٩) والتجاني وابن خلدون (المقدمة / طبعة دار الشعب ص٢٢٥)، في حين ذكر ابن الشباط (المصدر السابق ص١٨٥) وعنه نقل ابن أبي دينار (المصدر السابق ص١٥) أن موسى بن نصير هو الذي فعل ذلك وخرق البحر إلى دار الصناعة، أما ابن الشماع (المصدرالسابق ص١٧) فيقول إن الذي أنشأها هو عبدالله بن الحبحاب سنة ٧٨هـ، وهذا وهم منه بالطبع لأن ابن الحبحاب تولى إفريقية سنة ١١٠هـ ، ويذكر الوزير السراج (الحلل السندية ج١ ق٣ ص٥٦٥) كلا القولين دون ترجيح أحدهما على الآخر، وحيال هذا الخلاف يصعب على الباحث التوصل إلى رأي محدد حول هذا الموضوع، ومع ذلك فإنني أميل إلى ترجيح رأي الدكتورين أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم (المرجع السابق ص٣١ وما بعدها) والذي مفاده أن حسان بن النعمان شرع في إنشائها وأن موسى بن نصير أتمها. وأما الهدف من إنشائها=

كانت نواة للبحرية الإسلامية في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، فاكتملت بذلك العناصر اللازمة للنهوض بعبءالدور الكبير الذي قدر لإفريقية أن تقوم به في الجهاد، والذي سأتعرض له بعد قليل.

وأما بالنسبة لما يلاحظه الباحث على حوادث الفتح، فإن أولى تلك الملاحظات هي أن الكثير من المؤرخين والمستشرقين ومن جاراهم من الباحثين العرب يعللون أسباب الفتوحات الإسلامية، ومن ضمنها فتح إفريقية والمغرب، بأسباب كثيرة اقتصادية وسياسية وعسكرية ويتغافلون عن الهدف الرئيسي لهذه الفتوحات ألا وهو الدعوة إلى الإسلام، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل نبيه الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام للبشرية جمعاء كما جاء في قوله تعالى : **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾** [1]. وقوله تعالى : **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾** [2]، ثم قوله سبحانه وتعالى : **﴿إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر﴾** [3]، والآيات الدالة على عالمية الإسلام في القرآن الكريم كثيرة، وبهذه الرسالة خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم، ونشرها كان هدفهم الأول والأسمى، وما يعلل به هؤلاء لهذه الفتوحات [4] ما هو إلاّ من قبيل صرف الأذهان عن هذا الهدف لتقليل دور الإسلام فيها بل ومحوه إن أمكن.

وهنالك ملاحظة أخرى على هذا الفتح هي طول المدة الزمنية التي استغرقها قبل استقراره إذا ما قورن بفتح الشام ومصر والعراق وفارس الأمر الذي يستلفت النظر، وقد عزا العديد من المؤرخين السبب في ذلك إلى شدة مقاومة البربر للمسلمين [5] وحقيقة الأمر في

= فكان لجهاد الروم إذ يقول ابن خلدون (المقدمة / طبعة دار الشعب ص٢٢٥) إن عبد الملك بن مروان أوعز (إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على الجهاد) ويقول البكري (نفس المصدر ص٣٩) إن عبد الملك (كتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم «القبط» دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر وأن يجعل على البربر جر الأخشاب لإنشاء المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر) ويذكر الرقيق (المصدر السابق ص٦٦) نحو هذا القول.

(١) سورة الفرقان آية (١).　　(٢) سورة سبأ آية (٢٨).

(٣) سورة المدثر آية (٣٦).

(٤) عن هذه التعليلات والرد عليها انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص١٤٤ وما بعدها.

(٥) انظر مثلاً الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص١٠٥ .

رأينا هي غير ذلك، فمقاومة البربر كانت شيئاً ثانوياً، ويعود السبب الرئيسي في طول هذه المدة إلى عدة عوامل أهمها الفتن والثورات الداخلية التي كانت تجتاح الدولة الإسلامية الأمر الذي كان يشغل المسلمين عن مواصلة الفتح كالفتنة الكبرى في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه والحروب بين علي ومعاوية وثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، فكانت هذه الفتن والثورات تحول دون مواصلة عملية الفتح وتحرم المسلمين من الاستفادة من الانتصارات التي كانوا يحرزونها، ثم إن المسلمين في الشام والعراق وجدوا من إخوانهم العرب الذين كانوا يقيمون في كلا القطرين قبل الفتح مساعدة كبيرة في حروبهم ضد الفرس والروم، وينطبق نفس الأمر على مصر وإن لم يكن أهلها آنذاك عرباً أقحاحاً، فقد كانوا يرزحون تحت نير الاضطهاد الديني البيزنطي ويتمنون ساعة الخلاص فوجدوها في الإسلام القادم إليهم مع العرب المسلمين فساعدوهم بقدر ما سمحت به إمكانياتهم، وأما فارس فإن الضربات القوية التي تلقاها الفرس في العراق كانت قاتلة فانهارت على أثرها دولتهم المتداعية ولم يعد في إمكانها النهوض ثانية، وأما بالنسبة لإفريقية والمغرب فلم يكن للعرب المسلمين فيها إخوة ينصرونهم [1]، يضاف إلى ذلك بعدهما عن مركز الدولة الإسلامية بحيث كانت الإمدادات تستغرق زمناً طويلاً قبل وصولها، كما كانت طبيعة البلاد الجغرافية وافتقار المسلمين إلى أسطول لحماية ما كانوا يفتحونه منهما إذ كانت سواحلهما مكشوفة للأسطول البيزنطي، تشكل أسباباً أخرى في إعاقة الفتوح، ومع أهمية هذه الأسباب في تلك الإعاقة، إلا أنه كان هنالك ثمة سبب هام ورئيسي في ذلك تجدر الإشارة إليه هو نشاط الدولة البيزنطية، إذ أن الاحتفاظ بإفريقية كان أمراً حيوياً بالنسبة للبيزنطيين للدفاع عن ممتلكاتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي. لذلك فقد ألقوا

---

(١) يرى بعض المؤرخين المسلمين أن البربر من العرب يتصلون في نسبهم إلى بر بن قيس عيلان هاجروا من فلسطين إلى المغرب العربي، ويؤيدهم في ذلك بعض نسابة البربر (انظر مثلاً ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص١٤ وما بعدها، كذلك مجهول : ذكر الياقوتة الجلية، ورقة ١ ومابعدها) ويرى بعض آخر أن صنهاجة تنتسب إلى حمير، ولكن ابن خلدون ينفي هذه الصلة بين البربر والعرب، وأياً كان الأمر فإن صلة النسب بين العرب المسلمين الفاتحين والبربر إن كان هنالك ثمة صلة بينهما، حتى لو أضفنا إلى ذلك اعتباراً آخر هو وجود بقايا شعب قرطاجة الفينيقي الأصل في إفريقية، فإن هذه الصلة لا يمكن أن ترقى إلى صلة النسب الصريح والقوي التي كانت تربط عرب شبه الجزيرة بعرب الشام والعراق.

بثقلهم في الجبهة الإفريقية في حرب مكشوفة تارة، والتآمر والدس وإثارة الفتن تارة أخرى.

فالصراع في الجبهة الإفريقية لم يكن إسلامياً بربرياً في حقيقته كما يصوره هؤلاء المؤرخون وإنما كان صراعاً إسلامياً بيزنطياً وقف منه قسم كبير من البربر موقفاً محايداً في معظم مراحله، ودليلنا على هذا القول أن أكبر حركتين بربريتين في مقاومة الفتح وهما حركتا كسيلة[1] والكاهنة[2] كان للبيزنطيين اليد الطولى فيهما، فقد مثلوا في كلا الحركتين دور المحرض والمخطط والمعين. فقد كان كسيلة نصرانياً قبل إسلامه شأنه في ذلك شأن قبيلته أوربة التي كان يتزعمها ثم أسلم لا عن اقتناع بهذا الدين وإنما عن رغبة في مكسب دنيوي كما دلت الحوادث التالية أو ربما نكاية في البيزنطيين الذين كانوا يضطهدون قومه لمخالفتهم لهم في المذهب، لأن من دخل الإيمان إلى قلبه وذاق حلاوته لا يمكن أن يتحول عنه إلى الضلال من جديد، ثم ارتد ليس نتيجة لإساءة عقبة بن نافع إليه كما تعلل بعض المصادر التاريخية ذلك[3]، لأن عقبة وهو الصحابي الجليل لا يمكن أن

---

(١) تذكر العديد من مصادر التاريخ الإسلامي أنه كان من سياسة أبي المهاجر دينار الذي عزل به عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية في المرة الأولى مصانعة البربر لتأليف قلوبهم واستطاع بهذه السياسة أن يكسب كسيلة بن لمزم زعيم قبيلة أوربة المشهورة فاعتنق الإسلام، وأسلم بإسلامه الكثير من قومه، ولكنه عاد فارتد في ولاية عقبة الثانية نتيجة لإساءة عقبة إليه كما تزعم بعض المصادر فقطع على عقبة الطريق أثناء عودته إلى إفريقية من الغرب مما اضطر عقبة وأصحابة لقتاله فاستشهدوا جميعاً بالقرب من (تهوده) وزحف كسيلة شرقاً حتى دخل القيروان ودحر المسلمين إلى برقة فأقاموا بها حتى وصلهم المدد من الخليفة فزحفوا بقيادة زهير بن قيس البلوي وقضوا على كسيلة. وقد اختلف المؤرخون في ضبط اسمه فيذكر الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص٤٦) أن اسمه كسيلة بن ليوم، أما ابن عذارى (ج١ ص٤٥) فيسميه كسيلة بن لمزم، ويسميه صاحب كتاب الاستبصار (ص١٧٥) كسيلة بن أقدم، في حين يدعوه ابن الأثير (ج٤ ص١٠٧) كسيلة بن كمرم.

(٢) هي زعيمة قبيلة جراوة الزناتية وملكة الأوراس وقد التف حولها جمع من البربر بعد مقتل كسيلة، وتزعمت المقاومة ضد المسلمين وبقيت تعيث في إفريقية فساداً حتى تمكن حسان بن النعمان من القضاء على فتنتها وقتلها في موقعة بئر الكاهنة، وكان اسمها داهية بنت ماتية بن تيغان، ويسميها ابن أبي دينار (المؤنس ص٣٤) دامية بنت ينفاق، ويدعوها ابن أبي الضياف (إتحاف الزمان ص١٠٤) دهيا، ولقبها جورج مارسيه بالدبورة البربرية (Debore Berbere) (شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص٢٥).

(٣) انظر مثلاً ابن الأثير : المصدر السابق ج٤ ص١٠٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٤ ص١٨٦ .

يحاول إيقاع الظلم بمسلم وإن كان ضعيفاً فكيف بكسيلة الذي كان يعرف مكانته حق المعرفة لخبرته الواسعة بشؤون إفريقية، ولكن الأمر في رأيي أن عقبة إن صح أنه قد أغضب كسيلة، فهو إنما كان يريد أن يحطم نخوة الجاهلية في نفسه التي لا بد أن يكون قد لمسها فيه، والمؤمن الحق لا يمكن أن يتخلى عن إيمانه مهما بلغ غضبه من سلطانه فيرتد عن دينه، وحقيقة الأمر في اعتقادنا أن ارتداده كان نتيجة للإغراءات التي قدمها الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع له ولقبيلته، إذ حينما أدرك هذا الامبراطور أن نفوذ البيزنطيين في إفريقية صائر إلى زوال، رأى ردم الهوة التي كانت تفصل بين دولته وأهل إفريقية ورأب الصدع بين الطرفين والعمل على إرضائهم وجعلهم يلتفون حول دولته من جديد، لذلك عقد مجمعاً دينياً سنة ٦٨٠م نجح في وضع حد للخصومات المذهبية في تلك الدولة[١]، ثم كانت الخطوة التالية التي خطاها في سبيل تحقيق هدفه هي اتصاله بقبيلة أوربة التي كان يتزعمها كسيلة نظراً لكثرة عددها وشدة بأسها إذ كانت مضاربها تنتشر من جبال الأوراس إلى القيروان[٢] من ناحية، ثم لأن الكثير من أبنائها كان لا يزال على نصرانيته من ناحية ثانية، يضاف إلى ذلك أنها كانت تبسط نفوذها على العديد من القبائل الأخرى مثل هوارة وجراوة ونفوسه وعدة بطون من زناته. ونجح قسطنطين في إثارة الفتنة وإشعال ثورة كسيلة تحت المظلة البيزنطية وكان ما كان من أمرها والقضاء عليها. فكسيلة في حقيقة أمره لا يعدو أن يكون عميلاً بيزنطياً، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره الرقيق القيرواني من أن جيشه كان يضم الكثير من الروم إلى جانب البربر[٣]، كما يقطع ابن الأثير الشك باليقين في هذا الأمر حين يقول (... ولما رأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله، وكان في عسكر عقبة مضمراً للغدر، وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة)[٤]، يضاف إلى ذلك أنه لو كانت

(١) د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص٩١ .

(٢) د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص٩١ .

(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص٤٦، انظر كذلك الدباغ : المصدر السابق ج١ ص٥٦ ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٣٢ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج٤ ص١٠٧ . أثار انفراد عقبة بن نافع عن الجيش الإسلامي بنفر قليل من الجند مما أدى لاستشهاده، عدة تساؤلات لدى المؤرخين، والذي أراه في هذا الموضوع أنه إما أن=

حركة كسيلة حركة بربرية خالصة لما اشترك البربر في الجيش الإسلامي الذي زحف للقضاء عليها حتى بلغ عددهم ثلث هذا الجيش، إذ يقول الدباغ في ذلك : (فاعتد زهير هو ومن معه وكانوا ستة آلاف : ألفان من البربر وأربعة آلاف من العرب) [1]، وثمة دليل آخر على هذه الصلة القوية بين كسيلة والبيزنطيين، أن الأخيرين إثر انتصار كسيلة على عقبة بن نافع وتراجع الجيش الإسلامي إلى برقة عادوا إلى قرطاجة وسواها من مدن ساحل إفريقية التي كانوا يتمركزون فيها قبل الفتح.

ولم تكن الكاهنة في وضع مغاير لوضع كسيلة، ومع أن الغموض يكتنف ديانتها الحقيقية، إذ يقول بعض المؤرخين إنها كانت يهودية اعتماداً على أن هذه الديانة كانت معروفة في قبيلتها جراوة [2]، ويرى آخرون أنها كانت وثنية لانتحالها الكهانة، إلا أنني أرى أنها كانت تمت إلى النصرانية بصلة قوية إن لم تكن نصرانية بحق هي الأخرى، والدليل على ذلك ماذكره ابن عذارى من أنه كان لها ولدان أحدهما يوناني والثاني بربري [3]، فكون أحد ولديها يونانياً يعني أنها كانت قد تزوجت من نصراني، ثم إن قبيلتها جراوة كانت تدور في فلك قبيلة أوربة النصرانية، ولعل انتحالها الكهانة ما كان إلا من قبيل المحاولة لإقناع البربر بقوتها الخارقة للالتفاف من حولها نظراً لما فطروا عليه من طبيعة متدينة تؤمن بالخوارق فكانت تبهرهم الأعمال الخارجة عن المألوف فيصدقونها، يؤكد ذلك أن العديد من مؤسسي الدول في المغرب العربي مارسوا مثل هذه الأعمال حتى في العصر الإسلامي حيث كان لها أثر كبير في اجتذاب البربر إليهم. فهل من المستبعد أن يكون البيزنطيون قد أسندوا إليها الدور الذي فشل كسيلة في أدائه خاصة وأنها كانت تنتحل الزعامة وتوصف بأنها ملكة الأوراس؟ وأن المصادر التاريخية لم تشر إلى زعيم بربري آخر معاصر لها سوى كسيلة؟

=يكون قد شعر بتحركات البربر والروم وأن جيشه لم يكن له قبل بحشود العدو فقصد بعمله ذلك القيام بخدعة حربية للتمويه ليفسح المجال لمعظم الجيش الإسلامي للنجاة، أو أنه خرج في ذلك النفر للاستكشاف فاصطدم بالعدو ليصرفه عن باقي الجيش بدليل ما ذكره صاحب الاستبصار (ص١٧٥) الذي يقول : (فلما رجع قال أمر على مدينة تهودة وبادس وأعرف ما فيهما من القوة والجيش).

(١) الدباغ المصدر السابق ج١ ص٥٦ .

(٢) الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص١٠٢ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ج١ ص ٣٧ .

يضاف إلى ذلك أن المساعدات البيزنطية كانت تتوالى عليها هي الأخرى فقد كان جيشها الذي قابلت به المسلمين يضم هو الآخر أعداداً غفيرة من الروم إلى جانب البربر(١)، فلو كانت حركتها هي الأخرى بربرية خالصة لتزعم ولداها هذه الحركة بعد مقتلها ولما اعتنقا الإسلام وانضما إلى الجيش الإسلامي بعد انتهاء المعركة التي قتلت فيها أمهما مباشرة، أو حتى قبل بدء تلك المعركة على حد قول ابن الأثير (٢) ليصبحا من قادة هذا الجيش (٣)، ولا تفسير في رأينا لهذا الأمر أقرب للمنطق من أن الكاهنة قد أدركت تورطها في حرب لن تجني من ثمرتها إذا انتصرت فيها إلا القليل في حين سيستأثر البيزنطيون بنصيب الأسد من تلك الثمرة، أما إذا هزمت فيها فستحل الكارثة بها وبقومها دون البيزنطيين الذين قد يستطيعون إيجاد البديل عنها لتنفيذ مآربهم، فأمرت ولديها بالانضمام للمسلمين، وإلا فما معنى احتفاظها بخالد بن يزيد القيسي بعد انتصارها على حسان بن النعمان في معركة نهر البلاء ومؤاخاته بولديها(٤) لولا أنها كانت لا تريد لهما نفس مصيرها وأن يكون خالد شفيعاً لهما عند حسان بن النعمان؟ فالمقاومة إذن كانت بيزنطية تسترت بالبربر ولا يتناقض هذا القول مع ما رواه ابن خلدون عن أبي زيد من (أن البربر ارتدوا بإفريقية والمغرب اثنتي عشرة مرة وزحفوا في كلها للمسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير وقيل بعدها)(٥)، إذ أن أصابع البيزنطيين كانت لا تكف عن الدس والوقيعة لإثارة المشاكل والفتن في وجه المسلمين ولو تتبعنا هذه الثورات لوجدنا أن للبيزنطيين علاقة بها من قريب أو بعيد.

وثمة ملاحظة أخرى يلاحظها الباحث هي المزاعم التي يرددها بعض المؤرخين من أن

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٣٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج٤ ص٣٧١ .

(٣) يقول الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص٦٤) إن حسان بن النعمان عقد لكل منهما لواء القيادة على ستة آلاف من البربر ويؤيده في ذلك ابن أبي دينار (المصدر السابق ص٣٥) ويقول ابن الأثير (ج٤ ص٣٧٢) إن حسان شرط على البربر أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألف جندي يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك فجعل على هذا العسكر إبني الكاهنة، أما النائب الأنصاري (المنهل العذب ص٧٩) فيقول إن حسان عقد للأكبر على قومه جراوة وأغفل ذكر الأصغر، وأياً كان الأمر فإن هذه النصوص تؤكد انضمامهما لجيش المسلمين.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج٤ ص٣٧٠ .

(٥) ابن خلدون : المصدرالسابق ج٦ ص١١٣ .

الفتح الإسلامي كان هو السبب في خراب إفريقية التي كانت في رأيهم مزدهرة وخضراء متصلة الأشجار من طرابلس إلى طنجة قبل الإسلام حتى جاء المسلمون فكانوا السبب في خرابها، والحقيقة في رأينا هي غير ذلك، إذ أن حالة إفريقية كانت قد تدهورت قبل الفتح الإسلامي، فثورات البربر المتكررة ضد طغيان الرومان ومحاولاتهم نيل استقلالهم، والصراع المذهبي بين الطوائف المسيحية الذي سبق أن أشرنا إليه، والموجة الوندالية المدمرة وأخيراً سياسة الدولة البيزنطية في جباية الضرائب والتي ألحقت الضرر بالمزارعين مما جعلهم يهجرون مزارعهم، كل هذه العوامل مجتمعة كانت هي السبب في هذا التدهور الذي شهدته إفريقية قبيل الفتح الإسلامي، ولعل في ما نقله توماس أرنولد عن جيبون ما يدعم ما ذهبنا إليه إذ يقول : (وهكذا تم خراب إفريقية حتى إن الغريب كان يطوف في أنحائها أياماً كاملة دون أن يصادف وجه صديق أو عدو)(١). ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الشباط في شرح القصيدة الشقراصية حين يقول : (ووقع في التاريخ المنسوب إلى الفقيه الحافظ أبي الطاهر رحمه الله تعالى أن معاوية بن حديج غزا إفريقية وكانت خرابات كلها وذلك في سنة خمس وأربعين زمن معاوية بن أبي سفيان)(٢)، فالتاريخ وخصوصاً علم الآثار كما يقول حسن حسني عبدالوهاب يكذبان هذه الدعوة الملفقة(٣)، وما هي إلا تهمة باطلة يروجها المؤرخون الغربيون ليشيعوا أن ماضي إفريقية الروماني الزاهر أصبح بعد الفتح أثراً بعد عين. حتى إن أعمال التخريب التي جرت أثناء الفتح لم يكن للمسلمين يد فيها(٤)، والأصح من ذلك أن إفريقية انتعشت في العهد الإسلامي انتعاشاً فاق ما كانت عليه في عهودها السابقة.

---

(١) توماس أرنولد : المرجع السابق ص١٤٦ .

(٢) ابن الشباط : صلة السمط، شرح القصيدة الشقراصية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم ٣٢٠٨ ورقة ٧٤أ.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١ ص٤١ – ٤٢، انظر كذلك عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص٢٢٧ وما بعدها.

(٤) يذكر الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص٦١) أن الكاهنة كانت تقول : (إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نطلب المزارع والمراعي فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، ويقل طمعهم فيها)، فكانت تأمر بقطع الأشجار وتخريب المزارع وتعيث في=

دور إفريقية في الجهاد :

يتمثل دور إفريقية في الجهاد في القرون الأربعة الأولى للهجرة في وجهين رئيسيين أولهما تخفيف حدة الضغط البيزنطي على المسلمين في جبهة الصراع التقليدية بين القوتين في بلاد الشام ومصر في البر والبحر على حد سواء، وثانيهما أنها أصبحت منذ فتحها قاعدة للفتوحات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي بأسره، وقامت بنفس الدور الذي قام به العراق في فتوحات المسلمين في المشرق مع حفظ الفارق الذي يكمن في حقيقة هامة هي أن انهيار الدولة الفارسية المبكر منذ السنوات الأولى للفتح الإسلامي خلص العراق من المقاومة الفارسية وأتاح له حرية العمل، في حين أن بقاء الدولة البيزنطية متماسكة بالرغم من الضربات القوية التي تلقتها من المسلمين وانتزاعهم لأقاليم هامة من ممتلكاتها، جعل خطر هذه الدولة قائماً سواء على إفريقية والمغرب أو الشام ومصر، وبقيت ممتلكات هذه الدولة في غربي المتوسط مراكز خطر على المناطق المفتوحة في غرب العالم الإسلامي لمدة طويلة الأمر الذي ألقى علي كاهل إفريقية مسؤولية كبيرة فرض عليها أن تقوم ببذل مجهود مضاعف في الدفاع والهجوم في جهادها للقوى المعادية.

فبالنسبة لتخفيف الضغط البيزنطي عن الجبهة الشرقية، فإن فتح المسلمين لجبهة جديدة في الصراع الإسلامي البيزنطي حينما أخذوا يهاجمون إفريقية، قد جعل البيزنطيين يشعرون بالخطر الأكيد والجسيم الذي يعنيه فتح هذه الجبهة، فخسارة إفريقية كان يعني بالنسبة لهم مقدمة لفقدانهم كل ممتلكاتهم في غرب المتوسط وتطويق امبراطوريتهم ثم خنقها، لذلك حتم عليهم هذا الوضع توزيع قواهم بين الشرق والغرب بعد أن كانت منصبة على الشرق وحده، وبالتالي فرض عليهم أن يتحولوا من سياسة الهجوم في الشرق إلى سياسة الدفاع في الشرق والغرب على حد سواء، وتسخير جل طاقاتهم لتقوية سبل هذا الدفاع خاصة عن الغرب، وقد ظهرت هذه السياسة بوضوح في عهد الامبراطور قسطانز الثاني الذي نقل مقر

= إفريقية الفساد وتدمر كل مظاهر الحضارة والعمران فيها مما جعل البربر والأفارقة يستصرخون حسان بن النعمان لإنقاذهم من هذا البلاء. انظر أيضاً الدباغ : المصدر السابق ج١ ص٦٤ – ٦٥، التجاني : المصدر السابق ص٥٨، ابن الأثير : المصدر السابق ج٤ ص٣٧١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٣٤ .

حكمه من القسطنطينية إلى صقلية سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م ليشرف بنفسه على تقوية وسائل الدفاع عنها، وعن إيطاليا قائلاً إن حماية الأم أولى من حماية البنت أي أن الدفاع عن روما أم الملك ومركزه أوجب من حماية القسطنطينية (١)، حيث كرس باقي حياته، ولم تخف هذه الحقيقة عن المؤرخين المسلمين فقد أشار إليها ابن الأثير في معرض حديثه عن صقلية بقوله : (وعمرها الروم من جميع الجهات وعمروا فيها الحصون والمعاقل، وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها...) (٢). ويضيف في موضع آخر (وأنشأوا فيها أسطولاً، وكانوا يهاجمون به مراكب المسلمين ويقطعون البحر عنهم) (٣)، ومما لا شك فيه أنه كان لهذه السياسة الجديدة التي اتبعتها الدولة البيزنطية بتحولها من الهجوم إلى الدفاع انعكاس قوي على الصراع الإسلامي البيزنطي شرقاً وغرباً.

وأما بالنسبة للوجه الآخر لدور إفريقية في الجهاد وكونها أصبحت قاعدة لهذا الجهاد في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد ارتكز على دعامتين هامتين أولاهما الدفاع عن نفسها ضد هجمات القوى المعادية المتكررة، وثانيتهما العمل على نشر الإسلام في تلك المنطقة من العالم. فالبنسبة للشطر الأول، فإن ولاتها في بداية عهدها الإسلامي ساروا وفق الخطة الدفاعية العامة الإسلامية التي وضعت منذ أن أطل المسلمون على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية والتي كانت تدور حول محور واحد هو الإكثار من إنشاء الحصون التي عرفت بالرباطات (٤) في النقاط الهامة من السواحل وشحنها بالمقاتلين لأنها كانت الوسيلة الوحيدة المتيسرة في ذلك الوقت للدفاع عن هذه السواحل نظراً لقلة خبرة

---

(١) انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٩٤، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠ وما بعدها، د. السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص١١٦، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ج٣ ص١١٠ حاشية ١ .

(٢) ابن الأثير : انظر المكتبة العربية الصقلية ص٢٢٠ .

(٣) ابن الأثير : انظر المكتبة العربية الصقلية ص٢٢٠ .

(٤) الرباطات أو الأربطة أو الرُبُط جمع مفردها رباط، وهو شبه حصن أو ثكنة عسكرية تضم مسجداً وغرفاً لإقامة المجاهدين ومناراً عالياً لمراقبة البحر وكانت هذه الرباطات تتناقل أخبار تحركات العدو فيما بينها والإنذار به بإشارات معينة كالتنوير ليلاً والتدخين نهاراً، وأطلق على المجاهدين الذين كانوا يقيمون فيه لقب المرابطين نسبة إليه، وغالباً ما كان العلماء الذين يقيمون في الرباط يتولون تدريس الطلاب مختلف العلوم في المسجد، وكان المقيمون فيه ينقطعون للجهاد والعبادة.

المسلمين بشؤون البحر في ذلك العهد المبكر وعدم وجود أسطول لديهم يستطيع مواجهة الأسطول البيزنطي المتمرس في شؤون البحر وحذق القتال فيه لا سيما وأن البيزنطيين كانوا ورثة الأمم البحرية التي سبق أن سيطرت على هذا البحر. لذلك تركز اهتمام المسلمين في الدفاع عن إفريقية على الرباطات وتحصينها وشحنها بالمجاهدين طوال فصل الصيف الذي كان موسم الغارات البحرية، ثم الإكثار منها فيما بعد لكثرة ما كانت تتعرض له من هجمات معادية لا سيما وأن قربها الشديد من قواعد الأسطول البيزنطي في صقلية والجزائر الشرقية (جزر البليار) وريجو (Reggio) وباري (Bari) في قلورية (كلابريا) بإيطاليا، كان يفسح المجال أمام هذا الأسطول للاطلاع على نقاط الضعف في وسائلها الدفاعية بسرعة وبالتالي الانقضاض عليها في غارات مفاجئة.

لذلك، كان الدفاع عن إفريقية شغل المسلمين الشاغل في المشرق والمغرب على حد سواء، حتى إن العديد من علماء المسلمين ساووا في الأجر مرابطة يوم في إفريقية للجهاد بأداء فريضة الحج، فقد ذكر الرقيق القيرواني أن علماء المشرق كتبوا إلى أهل إفريقية يقولون لهم : (من رابط عنا يوماً برادس حججنا عنه حجة) (١)، كما أشيعت عدة أحاديث نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحث على المرابطة في إفريقية وتبين الثواب العظيم الذي يناله كل من فعل ذلك (٢). لهذا أقيمت الرباطات في كافة أنحائها وبأعداد تفوق الحصر في

---

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص٦٥، انظر أيضاً ابن أبي دينار : المؤنس ص١٥، التجاني : المصدر السابق ص٦ .

أما رادس فقد كانت مرسى تونس، وتبعاً لذلك كانت من أهم مواضع المرابطة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام، وهي الآن إحدى ضواحي مدينة تونس.

(٢) أوردت مصادر التاريخ الإسلامي لا سيما المغربية منها عدة من هذه الأحاديث مثل : «إن المنستير باب من أبواب الجنة من دخله فاز بالبركة ومن خرج منه نال المغفرة» ذكره الوزير السراج (ج١ ق١ ص٢٤٠)، سليمان زبيس (المنستير ص٥)، ثم «إن من رابط بالمنستير ثلاثة أيام نال الجنة» ذكره التجاني (ص٣١)، سليمان زبيس (ص٥)، والوزير السراج (ج١ ق١ ص٢٤٠ – ٢٤١) بتحريف بسيط. ثم «ليأتين أناس من أمتي من إفريقية وجوههم أفضل نوراً من القمر ليلة البدر» ذكره كل من ابن عذارى (ج١ ص٧) وابن أبي دينار (ص٢١) والوزير السراج (ج١ ق١ ص٢٣٦ – ٢٣٧)، ثم «إن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية» ذكره الوزير السراج (ج١ ق١ ص٢٣٨)، ثم «ينقطع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى إلاّ في موضع في المغرب يقال له إفريقية فبينما القوم بإزاء=

عهود مختلفة حتى إنها كانت تعتبر بأسرها رباطاً كبيراً يؤمها المجاهدون من جميع أنحاءالمغرب العربي للمرابطة نظراً لأنها كانت دائمة التعرض للغارات البحرية المفاجئة حتى وبعد ظهور البحرية الإسلامية في غرب المتوسط وسيطرتها على المنطقة، فقد توسع ولاتها لخلفاء بني العباس خاصة المهالبة في إنشاء تلك الرباطات، ولكن الاهتمام بها بلغ ذروته في العهد الأغلبي، حيث لم يترك الأمراء الأغالبة موضعاً هاماً في إفريقية إلا وأنشأوا فيه رباطاً حصيناً حتى إن أحدهم وهو الأمير أحمد أبو إبراهيم الأغلبي شيد وحده عشرة آلاف رباط بالحجارة والكلس محكمة البناء والصنعة [1]، ولم يقتصر إنشاء هذه الرباطات على الدولة، وإنما كان الموسرون والمتعبدون من الأهالي يقومون بذلك أيضاً. فقد ذكر القاضي عياض أن عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي المعروف بالزاهد بنى الرباط المعروف بقصر زياد وأنفق في بنائه اثني عشر ألف دينار نصفها من عنده ونصفها الآخر من إخوانه [2]، وتبعاً لذلك غصت سواحل إفريقية بهذه الرباطات حتى كان المسافر في نواحيها لا يكاد يسير أكثر من

=عدوهم نظروا إلى الجبال قد سيرت فيخرون لله سجداً فلا ينزع عنهم أخلاقهم – يعني ثيابهم – إلاّ خدمهم في الجنة» ذكره الوزير السراج (ج١ ق١ ص٢٣٧) وقد أورد كل من التجاني (ص٣١ – ٣٢)، وابن عذارى (ج١ ص٦ وما بعدها) والوزير السراج (ج١ ق١ ص٢٣٦ وما بعدها) عدة من هذه الأحاديث بروايات وأسانيد مختلفة، وهي وإن كانت بلا شك أحاديث موضوعة (انظر عن ذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٢٠)، إلاّ أنها تدل دلالة واضحة على مدى اهتمام المسلمين بالمرابطة في إفريقية للدفاع عنها.

أما المنستير التي ورد ذكرها أعلاه، فهي من أشهر رباطات إفريقية بل والمغرب العربي وأقدمها، وقد ضبط ابن الشباط (صلة السمط – شرح القصيدة الشقراصية ورقة ٧١) لفظها بضم الميم وضم النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة وبعدها ياء أخت الواو وآخرها راء مهملة، ويقول العبدري (المصدر السابق ص٢٣٧) : «المنستير بضم الميم هكذا سمعت أهل إفريقية يتلفظون به»، وتنطقها العامة في عصرنا الحاضر بحذف النون. وتقع على شاطئ البحر بين المهدية وسوسة، والرباط فيها لا زال قائماً عاينته أثناء زيارتي لتلك البلدة، لمزيد من التفصيل عن هذا الرباط انظر سليمان زبيس : المرجع السابق.

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٤ ص٢٠١، انظر كذلك حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص٥١ – ٥٢، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٤١٦ .

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك، مقتطفات منه بعنوان (تراجم أغلبية مستخرجة من المدارك) تحقيق د. محمدالطالبي ص١٦٣ .

عشرين كيلومتراً دون أن يجد أحدها [١]، ولشدة عناية أهل إفريقية بها ألفوا فيها المؤلفات لنشر فضائلها وبيان أجر من يرابط فيها مثل كتابي (أحمية الحصون) و (فضائل المنستير والرباط) لسحنون [٢]، وكتاب (فضائل المنستير والرباط) أيضاً ليحيى بن عمر [٣]، وكان من أشهر هذه الرباطات، رباط المنستير الآنف الذكر ويضم القصر الكبير الذي أنشأه هرثمة بن أعين سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م [٤] أثناء ولايته على إفريقية لهارون الرشيد، ثم رباط سوسه ومحرس بطوية الذي كان يضم مناراً مفرطاً في الارتفاع يرقى إليه في ١٦٦ درجة، ومحرس حبلة ومحرس أبو الغصن ومحرس مقدمانة ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة ومحرس رادس ومحرس جراح ومحرس سلقطة [٥].

هذا عن الرباط، أما بالنسبة للمرابطين الذين كانوا يقيمون فيه فكانوا فئات مختلفة من المسلمين، علماء وفقهاء وعباد وزهاد وطلاب علم وغير ذلك جمعت بينهم جميعاً نية الجهاد، وقلما وجد عالم أو فقيه أو متعبد زاهد من أهل إفريقية لم يرابط في هذه الرباطات فترات من حياته، ومن يطالع كتب الطبقات مثل رياض النفوس للمالكي، والمدارك للقاضي عياض، ومعالم الإيمان للدباغ والديباج المذهب لابن فرحون يجد أمثلة كثيرة تؤكد هذا القول. وكان هؤلاء ينقطعون للعبادة وجهاد العدو طوال فصل الصيف ويَتَّصِفون بالزهد مكتفين بالنزر القليل من الطعام الذي كان قوامه دقيق الشعير الملتوت بالزيت، ومع أن ميسوري الحال كانوا يساعدونهم بالطعام والنفقة إلا أن كثيراً منهم من كان يرفض هذه

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٤١٥ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ص١٦٧ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ج٢ ص٣٥٥ .

(٤) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص٢٠٤، ابن الأثير : المصدر السابق ج٥ ص٩٦، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص١٠٩، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج٣ ص١١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٤٨، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص١٢٣ . وكل هذه المصادر ذكرت أن هرثمة أنشأ هذه الرباط سنة ١٨٠هـ، ولا ندري على أي مصدر اعتمد الأستاذ سليمان زبيس (المنستير ص٤) حينما ذكر أن سنة إنشائه كانت سنة ١٧٩هـ.

(٥) د. أحمد مختار العبادي، د.السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٤٣، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص٥٠ وما بعدها.

المساعدة ويعف عنها. ولم تقتصر المرابطة على هؤلاء بل كانت تشمل القادرين على الجهاد من الأهالي فقد ذكر المالكي أن القرويين كانوا يأتون من النواحي إلى سوسه كل ليلة جمعة ليرابطوا بها [1].

وبقيت هذه المكانة السامية للرباط والمرابطين حتى العهد الفاطمي، فأخذت مكانتهما في التراجع لأن الخلفاء الفاطميين كانوا يوالون الضغط على المرابطين نظراً لأن الغالبية الساحقة من هؤلاء كانوا على المذهب المالكي حتى (كان حمى قصور زياد – المرابط بساحل إفريقية – يسمى دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك)[2]، وكان هؤلاء بطبيعة الحال يمقتون الدعوة الشيعية، وحيث إنهم كانوا قد بلغوا من الكثرة حداً كبيراً حتى إن سعدون بن أحمد الخولاني كان يخرج للمرابطة في أربعة آلاف مرابط[3]، فإن ذلك كان يثير مخاوف الفاطميين وقلقهم، لذلك لم يكتفوا بموالاة الضغط والتضييق عليهم، بل عملوا على إجلاء العديد منهم عن هذه الرباطات[4] وذلك حتى لا تصبح مراكز لمقاومتهم والتحريض على الثورة عليهم الأمر الذي كان له أسوأ الأثر على الرباط والمرابطة فقل الاهتمام بهما طوال العهد الفاطمي والشطر الأول من العهد الزيري. ويبدو أنه قد عادت للرباط بعض أهميته السابقة منذ ظهور الخطر الصليبي على إفريقية[5]، ولكن هذه الأهمية لم ترق إلى ما كانت عليه في السابق، مما كان سبباً في ضعف مقاومة إفريقية ضد الهجمات الصليبية المعادية.

وأما بالنسبة لكونها أصبحت قاعدة الفتوحات في القسم الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط، فإن منها خرجت الجيوش الإسلامية رافعة لواء الجهاد في تلك المنطقة، فمنذ وقت مبكر من وصول الإسلام إليها وحتى قبل استقرار الفتح فيها كانت

---

(١) المالكي : رياض النفوس ج١ ص٣٩٣ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ص٢٩٤، كذلك التجاني : المصدر السابق ص٦٧ .

(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ص٤٠٨ .

(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ص٤٠٧ .

(٥) يذكر القاضي عياض نصاً يرويه عن ابن العربي من (سراج المريدين) أن ابن العربي دخل رباط المنستير سنة ٤٩٤ هـ فروى له مشايخ ذلك الرباط أنهم صدوا غارة للروم. انظر القاضي عياض : المصدر السابق ص١٦٧ حاشية ١٣ .

الحملات توجه منها إلى الأقطار المجاورة لها لإيصال الإسلام إلى شعوبها. فقد ذكر ابن الشباط أن معاوية بن حديج أثناء ولايته عليهاأغزى جيشاً في البحر إلي صقلية في مائتي مركب، وقد مكث فيها شهراً ثم عاد محملاً بالغنائم(١)، كما أرسل في سنة ٤٧هـ / ٦٦٧م حملة أخرى بقيادة رويفع بن ثابت الأنصاري عامل طرابلس غزت جزيرة جربة(٢)، وأرسل واليها أبو المهاجر دينار سنة ٥٦هـ / ٦٧٤م حملة في عهده غزت شواطئ إسبانيا(٣). والذي يسترعي الانتباه هو من أين لإفريقية بهذا الأسطول الذي أقل هذه الحملات ولم تكن دار الصناعة قد أنشأت فيها بعد؟ فإن كان ذلك الأسطول لها فإن ذلك يدل دلالة واضحة على أنها بدأت دورها في الجهاد في عهد مبكر جداً عما هو معروف، وإذا كان جزءاً من أسطول الشام أو مصر فإن ذلك يؤكد مدى أهميتها في عملية الجهاد الإسلامي ككل، إذ أنها أصبحت رأس الحربة الموجه إلى الممتلكات البيزنطية في غرب المتوسط، فلولا وجود المسلمين فيها لكان من الصعب على أساطيلهم المشرقية غزو تلك المناطق النائية نسبياً عن المشرق، ولكان ذلك الغزو مجازفة غير مأمونة العواقب خاصة لأن الأسطول البيزنطي في تلك المنطقة علاوة على تمرسه بشؤون البحر كان قريباً من قواعده العديدة فيها بعكس الأسطول الإسلامي الذي كان بعيداً عن قواعده في المشرق.

ولم يلبث ولاة إفريقية أن أدركوا مدى أهمية وجود أسطول مستقل لها حتى تقوم بدورها كاملاً في الجهاد، لذلك تم إنشاء دار الصناعة في تونس التي كانت أول دار صناعة

---

(١) ابن الشباط : المصدر السابق ص١٨٣، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص١٦ – ١٧، ويجعل ابن أبي الضياف (المصدر السابق ص٩٩) هذه الغزوة سنة ٤٥ هـ، أما ابن الخطيب (أعمال الأعلام ج٣ ص١٠٨) فيذكر أن أول من غزا صقلية هو معاوية بن حديج في سنة ٣٤هـ أو سنة ٣٥هـ من قبل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلم تزل تغزى بعد ذلك، ولمزيد من التفصيل عن هذه الحملة وتحقيق السنة التي تمت فيها، انظر د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٢ ومابعدها، كذلك د. مارتينو مورينو مارينو : المسلمون في صقلية ص٦ .

(٢) المالكي : رياض النفوس ج١ ص٥٣، انظر أيضاً أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص١٣٢، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٢٤، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٤ .

(٣) د. إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ص١٢٦ .

أسست في الإسلام [١]، ويبين الرقيق القيرواني بوضوح أن الهدف من إنشائها كان للجهاد ومشاغلة الروم، فيذكر أن الخليفة الأموي أمر حسان بن النعمان (أن يخرق البحر إلى تونس وأن يجعل بها دار صناعة وأن يعمل المراكب ويستكثر منها، ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغير على سواحل الروم، ويشغلهم عن بلاد الإسلام)[٢]، وبإنشائها تكون إفريقية قد استكملت اعتمداها على نفسها في جهاد العدو فكان على هذا الأسطول الذي بني فيها أن يغل يد الأسطول البيزنطي المتواجد في غرب البحر الأبيض المتوسط والتي كانت طليقة في الإغارة على سواحل إفريقية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تم استكمال الخطة الإسلامية الشاملة لمواجهة القاطاعات البحرية للدولة البيزنطية الخصم الرئيسي للمسلمين، تلك القطاعات التي كانت بتوزيعها المحكم تتيح لها حرية أكبر في العمل [٣]. ولم تكد تمضي فترة وجيزة على إنشاء دار صناعة تونس حتى سارت البحرية الإسلامية في إفريقية بخطى حثيثة في سبيل الهدف الذي وجدت من أجله، وقد ساعدها في ذلك وفرة المواد اللازمة لها في إفريقية، فالأخشاب والزفت والقطران الجيد كان متوفراً في جبال بجاية وأوديتها[٤]، والقنب اللازم لصنع الحبال كان يزرع بكثرة في نواحي

---

(١) عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج١ ص١٩٠ .

(٢) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص٦٦، ويذكر أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمه عبد العزيز بن مروان والي مصر يأمره بمد حسان بن النعمان بألف قبطي بأسرهم لإنشاء دار صناعة تونس، وهذا وهم من الرقيق في اسم الخليفة، فقد كان هذا الخليفة هو عبد الملك بن مروان وليس الوليد، وعبد العزيز كان ولياً لعهد أخيه عبد الملك لكنه توفي في زمنه فأخذ عبد الملك البيعة لابنه الوليد بدلاً منه.

(٣) كان الأسطول البيزنطي في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين مكوناً من أسطول مركزي وأربعة أساطيل إقليمية، فالأسطول المركزي كان مقره القسطنطينية وقد خصص لحمايتها. أما الأساطيل الإقليمية فكانت اثنان منها في الشرق هما أسطول بحر إيجه، وأسطول كبير هايوت، والآخرين في الغرب أحدهما مقره صقلية والثاني في رافنا. لذلك وضع الأمويون خطتهم البحرية بتقسيم مشابه لمواجهة هذه الأساطيل، فأنشأوا أسطولاً في مصر وكانت مهمته مواجهة الأسطول المركزي ثم آخر في بلاد الشام لمواجهة أسطولي بحر إيجة وكبير هايوت في آسيا الصغرى، وكان لا بد من إيجاد أسطول آخر لمواجهة أسطولي الغرب، فتم إنشاء أسطول في إفريقية للنهوض بهذا العبء (لمزيد من التفصيل انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص١١٣).

(٤) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص٦٣ .

سوسه، والكتان اللازم للقلوع والشراعات كان يزرع في نواحي تونس وبونة، والحديد في بونة ومرماجنة [١]، والأهم من كل ذلك توفر القوة البشرية التي كانت تتقد حماساً للجهاد. فمع أن أقباط مصر هم الذين أنشأوا دار الصناعة في تونس، إلا أن أهل إفريقية أبناء القرطاجيين وأحفاد الفينيقيين هم الذين ركبوا متن البحر وخاضوا عبابه يجاهدون العدو وينشرون رسالة الإسلام أينما حلوا [٢].

ولما تولى موسى بن نصير إفريقية أولى بحريتها الناشئة عناية كبيرة، فاشتد عودها في عهده، وما أن قضى على تمردات بعض قبائل البربر، حتى أخذ يرسل الحملات البحرية الواحدة تلو الأخرى إلى الأقطار المجاورة من أوروبا، ففي سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م أرسل حملة لغزو صقلية بقيادة ابنه عبد الله، وكان يرغب في قيادتها بنفسه فأمر أن لا يشترك فيها إلا (أهل الجلد والنكاية والشرف)[٣] فسميت غزوة الأشراف بذلك، وقد تمكنت من اقتحام عدة مواقع في الجزيرة وعادت محملة بالغنائم. وفي السنة التالية عقد لعياش بن أخيل على أسطول إفريقية فشتا في البحر وغزا صقلية فأصاب مدينة سرقوسة وقفل عائداً إلى إفريقية سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م [٤]، وفي سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م أرسل حملة بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري غزت جزيرة قوصرة (بنطلارية)[٥]. وفي سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م أرسل حملة إلى

---

(١) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص٨٦ .

(٢) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص٨٦، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢ ص٣٠ وما بعدها، أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٢٤٩ .

(٣) ابن الشباط : المصدر السابق ص١٨٦ انظر كذلك ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب ج٢ ص٤٦٦، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٤٢، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٦، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٥ وما بعدها، د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٦ – ٧ .

(٤) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص١٠٥ (ويسميه جياش)، كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٥ .

(٥) يقول ياقوت الحموي (المصدر السابق ج٤ ص٤١٣) إن جزيرة قوصرة فتحت أيام معاوية بن أبي سفيان وبقيت في أيدي المسلمين إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم خربت، والراجح أن أول من غزاها من المسلمين هو عبد الملك بن قطن الفهري أثناء ولاية موسى بن نصير على إفريقية سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م. انظر البحث المستفيض الذي كتبه حسن حسني عبد الوهاب عن فتحها وتاريخها في العهد=

الجزائر الشرقية فعادت مظفرة ومحملة بالغنائم والأسرى كان من بينهم ملكها نفسه [1]، وفي سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م أيضاً عقد لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فغزا سردينيا وافتتح مدنها وغنم غنائم كثيرة [2]، وفي قول آخر إنها فتحت سنة ٩٢هـ / ٧١١م، ونظراً لهذا النشاط البحري المتزايد أصبح بحر إفريقية منذ سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م عملاً يتولاه أمير كان في تلك السنة محمد بن أوس الأنصاري [3]، وتوج أسطول إفريقية نشاطه في هذه المرحلة من تاريخه بعملين هامين هما اشتراكه في فتح الأندلس، إذ تشير العديد من المصادر التاريخية الإسلامية إلى أنه ساهم بنصيب كبير في نقل الجيش الإسلامي عبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) إلى العدوة الأندلسية [4]. ثم اشتراكه في حصار القسطنطينية أيام سليمان بن عبد الملك الذي حشد لهذا الحصار إمكانيات هائلة، ومع أن نتيجة هذا الحصار كانت كارثة على الأسطول الإسلامي بوجه عام إلا أن ولاة إفريقية تمكنوا من تعويض خسارتهم بسرعة وأعادوا بناء أسطول بديل.

وتابع ولاة إفريقية بعد موسى بن نصير تسيير الحملات البحرية إلى أرض العدو، ففي سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م غزا إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر صقلية، ثم غزيت من جديد

=الإسلامي (ورقات، ق٢ ص٢٨١ وما بعدها) انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٥ وما بعدها، كذلك أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص١٢٢، د. إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ص٩٨.

(١) يقول د. حسين مؤنس (رحلة الأندلس ص٢٧٩) إن عبد الله بن موسى كان هو أول من غزاها وذلك في سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م، في حين يقول شكيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب ص٢٤٤) إن فتحها تم سنة ٨٩هـ / ٧٠٧ - ٧٠٨ اعتماداً على تاريخ الخلفاء للسيوطي، ولكن ابن الشباط (المصدر السابق ص١٨٦) يرى أن هذه الغزوة تمت سنة ٨٥هـ ويسميها غزوة الأشراف، وأعتقد أن هذا وهم من ابن الشباط وأنه خلط بين هذه الغزوة وغزوة عبد الله بن موسى لصقلية كما خلط بينهما كل من الذهبي وأبي المحاسن.

(٢) ابن الأثير : المصدرالسابق ج٤ ص٢٣٢ وما بعدها، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٥ وما بعدها، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٢٤٤ (ويرى أن فتحها تم سنة ٨٧هـ) والأرجح ما ذكرناه.

(٣) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٤٢ .

(٤) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٦ وما بعدها.

في السنوات ١٠٩هـ / ٧٢٧م، ١١١هـ / ٧٢٩م، ١١٢هـ / ٧٣٠م، ١١٥هـ/ ٧٣٣م [١]، كما تعرضت كل من سردينيا وجنوب إيطاليا ونواحي عديدة أخرى من شواطئ جنوب غرب أوروبا في تلك الآونة إلى غزوات مشابهة. ولا يسعنا في هذه العجالة تتبع كل هذه الغزوات والجهود بالتفصيل والتي كان من نتيجتها بدء انتشار الإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، واستمر نجم المسلمين في صعود في تلك المنطقة حتى أصاب إفريقية والمغرب داء الفتن والمشاكل الداخلية الوبيل الذي أخذ يمزق وحدة المسلمين فيها نتيجة للسياسة الخاطئة التي مارسها بعض ولاة إفريقية في أواخر العصر الأموي [٢]. فكان أن أدت تلك السياسة إلى تذمر البربر، الأمر الذي جعل منهم تربة صالحة لأصحاب المذاهب والأحزاب المناوئة لبني أمية كالخوارج فانجذبوا إليهم بسرعة وانفجر الوضع في ثورة عارمة هي ثورة ميسرة المدغري الخارجي. وتحولت نقمة البربر على الدولة الأموية إلى كره متبادل بينهم وبين العرب امتدت ذيوله إلى الأندلس بسرعة وأشعلت فيه نار الفتنة، وزاد من سوء الوضع بروز العصبية القبلية بين العرب أنفسهم، فثارت الأحقاد بين العرب اليمانية الذين كانوا قد استوطنوا إفريقية فعرفوا تبعاً لذلك بالبلديين، والشاميين القيسية، فماجت البلاد بالفتن التي لولاها لمضى المسلمون قدماً في فتوحاتهم التي كان من الممكن أن تغير وجه التاريخ، ذلك أن هذه الفتن حالت دون استمرار حركة الفتح لا سيما وأنه لم يكن في أوروبا في تلك الفترة دولة قوية قادرة على الوقوف في وجه المسلمين. ودليلنا على هذا القول هو أنه نتيجة لثورة ميسرة الخارجي سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م اضطر عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية إلى استدعاء حبيب بن أبي عبدة من صقلية بعد أن كان قد توغل فيها وأخذ يستعد لاستكمال فتحها [٣]، لمواجهة هذه الثورة، حتى إن شكيب أرسلان عزا هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء (تور – بواتيه) سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م لثورة البربر [٤]،

---

(١) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٨ وما بعدها. انظر كذلك أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص١٠٧ وما بعدها.

(٢) عن هذا الموضوع انظر د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب العربي الكبير ص٢٩٣ وما بعدها.

(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص١٠٨ وما بعدها، كذلك د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٦ وما بعدها، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٣٦٨ .

(٤) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص١٤٣ حاشية ١ .

وبذلك أخذت حركة الفتح في التراجع، وكلما زادت حدة هذه الفتن ضعفت حركة الفتح حتى توقفت عند انهيار الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس، إذ لا يتوقع من والي إفريقية أن يقوم بنشاط جدي في سبيل مواصلة الفتح في ظل وضع داخلي غير مستقر.

ولم يتمكن العباسيون في بداية عهدهم من فرض سيطرتهم على قسم كبير من المغرب الإسلامي الذي كان يدار من إفريقية، وكان أمر استقرار إفريقية المنطلق الطبيعي لغرب العالم الإسلامي من أكبر مشاغل أبي جعفر المنصور الذي كان (عالماً بالمغرب خائفاً عليه، وكان لا يبعث إليه إلا أهل ثقته من ذوي الرأي الأصيل والخطر الجليل) [1]، إلا أن الخرق اتسع على الراقع، فانفصلت الأندلس أولاً بمقدم عبد الرحمن بن معاوية إليها وتأسيسه دولته الأموية فيها، ثم تبعها معظم المغرب الأقصى في الانفصال عن الدولة العباسية حينما تمكن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن الذي نجا من موقعة فخ سنة ١٦٩هـ / ٧٨٦م[2] من الفرار إليه وتأسيس دولته العلوية فيه، كما قامت للخوارج دول أخرى في بعض نواحي المغرب العربي، وبذلك ضاعت وحدة هذا المغرب التي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على الفتوحات. وبقيت الأمور مضطربة على بني العباس في تلك المنطقة، بالرغم من أن عمالهم عليها كانوا عادة من أعظم رجالات دولتهم وأكثرهم خبرة وحنكة مثل هرثمة بن أعين والأمراء المهالبة، إذ لم يفلح هؤلاء في إعادة الهدوء والاستقرار إليها، وحيال هذا الوضع لم ير الخليفة الرشيد بدأً من قبول ما عرضه عليه إبراهيم بن الأغلب في أن يتولى إفريقية على أن يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي وأن تبقى إمارتها متوارثة في عقبه. وبتولي إبراهيم بن الأغلب إمارتها سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م يبدأ عهد جديد في تاريخها.

تمكن ابن الأغلب من قمع الشر من إفريقية وضبط أمورها وإعادة الهدوء إلى ربوعها [3]، ثم وجه عنايته – وتبعه خلفاؤه في ذلك – إلى الأسطول لأهميته البالغة في

---

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص١٥١ .

(٢) وقعت معركة فخ في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ١٦٩هـ حيث قضت فيها جيوش الهادي العباسي على ثورة الحسين بن علي العلوي (انظر ابن أبي زرع :الأنيس المطرب ص١٧)، ولمزيد من التفصيل انظر د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٦٥ وما بعدها.

(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص٢٢١ .

حركة الفتوحات فجددوا دار صناعة تونس كما أسسوا دار صناعة جديدة في سوسة[١] اللتين أخذتا تعملان بنشاط كبير لإعادة بناء هذا الأسطول، وقد بلغ من اهتمام الأمراء الأغالبة بهذا الأسطول أن أحدهم أمر بهدم الأضرحة في القيروان لاستعمال خشبها في بناء السفن[٢]، ولم يدخروا جهداً في توفير كل الإمكانيات المتاحة وتسخيرها في سبيل النهوض به وتدعيمه، وسلحوه بأحدث الأسلحة وأكثرها فاعلية في ذلك الوقت، فضموا إليه عدداً كبيراً من السفن قاذفات اللهب (الحراقات)[٣] التي كانت قبل ذلك وقفاً على الأسطول البيزنطي، والمجانيق التي (لم يكن قد رؤي حينئذ مثلها في بعد مرماها وضخم الحجارة التي تقذفها)[٤]، كل ذلك لإعداده للدور الكبير الذي سيقوم به في الجهاد في عهد دولتهم، وما أن تم لهم ذلك حتى استؤنفت حركة الفتوحات من جديد بعد توقف دام حوالي نصف قرن.

ففي سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥م أغار هذا الأسطول على البلوبونيز[٥]، وفي سنة ١٩٤هـ / ٨٠٩م غزا جزيرة سردينيا التي كانت قد خرجت من سيطرة المسلمين، كما غزا في تلك الآونة أيضاً صقلية وبعض نواحي شواطئ أوروبا الجنوبية، ويبدو أن نشاط الأسطول الأغلبي خاصة إغارته على صقلية أثار القوى الأوروبية في ذلك الوقت فتحالفت كل من لوني وبيزا وانضمت إليهما قوة كارولنجية من توسكانيا وربما قوة بيزنطية وشكلت أسطولاً هاجم مدينة بونة (عنابة) في سواحل إفريقية بقيادة بونيفاس (Boniface) أمير كوريسكا، في حين بقي الأسطول البندقي مربطاً في المياه الصقلية لحماية الجزيرة[٦]، ولكن هذه الحملة لم تحقق نتيجة ملموسة، إذ أن الأسطول الأغلبي أعاد الكرة على جزيرة سردينيا بقيادة أسد بن الفرات حتى

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص٤٩ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ص٢٦٧ .
(٣) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٢٤٢ .
(٤) د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص١٢ .
(٥) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص١٦٥ .
(٦) انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص١٦٦، ص ٢١٢، كذلك شكيب أرسلان : المرجع السابق ص١٩٣ – ١٩٤، W. Heyd . Histoire du Commerce, du Levant, Vol. 1, p. 121.

إنه أشرف على فتحها، فحسده بعض من كان معه فتظاهر بالهزيمة الأمر الذي أضعف الروح المعنوية لدى جيش المسلمين مما أجبر أسد بن الفرات على الانسحاب منها، وعندما علم الأمير زيادة الله الأغلبي بحقيقة ما جرى طلب من أسد أن يسمي له ذلك الشخص فأبى [١].

وفي سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م شرع الأغالبة في فتح صقلية [٢]، ثم لم تلبث جيوشهم أن انتقلت إلى بَرِّشبه الجزيرة الإيطالية قبل أن يستكملوا فتح تلك الجزيرة مغتنمين فرصة نشوب النزاع بين أمراء الإقطاع في تلك المنطقة وأخذوا يفتحون الجزء تلو الآخر من أرضها. وفي سنة ٢٢٢هـ / ٨٣٦م تجرأ الأسطول الأغلبي وهاجم روما نفسها واقتحم الفاتيكان وغنم ما في كنيستها، وأقام رجاله هنالك حوالي الشهرين أنشأوا خلالها رباطاً على مصب نهر التيبر لا تزال آثاره باقية إلى الآن [٣]. وفي سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م قام هذا الأسطول بالتعاون مع أسطول مسلمي إقريطش (كريت) بالهجوم على برنديزي وفتحها، واشتبكا مع أسطول البندقية الذي قدم لنجدتها في معركة حامية قرب كروتوني على خليج تارنت انتهت بتحطيم الأسطول البندقي، وقد أدى هذا الانتصار إلى فتح البحر الأدرياتيكي أمام البحرية الإسلامية [٤]، كما غزا جبلة مولى الأغلب مدينة باري فلم يقدر على فتحها، فغزاها خلفون البربري من بعده ففتحها، وقام بعده المفرج بن سلام فتوسع في نواحيها وأسس إمارة باري الإسلامية [٥]، وبتحطيم الأسطول البندقي في معركة كروتوني فقدت أوروبا الغربية معظم قوتها الدفاعية البحرية الذاتية، وأصبحت شواطئها مفتوحة للمسلمين فلم تجد بدأ من الاستنجاد بالأسطول البيزنطي للوقوف في وجه مسلمي إفريقية الذين أخذوا يتقدمون فاتحين في جنوب غرب أوروبا. وكان هذا الأسطول قد مني بهزيمة شنيعة أمام أسطول صقلية الأغلبي بالقرب من جزيرة إقريطش (كريت) في عهد الأمير أبي إبراهيم أحمد

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ص٦٧ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٣٨٥ وما بعدها.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص٨٢ – ٨٣، كذلك أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص١٤٧، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢ ص١٠٤ وما بعدها.

(٤) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٢١٤ – ٢١٥ .

(٥) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص١٩٧ .

الأغلبي [١]، مما أوجد حافزاً آخر للصدام بينه وبين أسطول الأغالبة. فلما تولى الأمير أبو الغرانيق محمد الثاني الأغلبي الإمارة، قلد خفاجة بن سفيان ولاية جنوب إيطاليا وأخرجه في سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م لفتح جنوة، فحاصرها حتى فتحها ثم تقدم فاتحاً في اتجاه جبال الألب، وقد دامت حملته تلك حتى نهاية سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م. وحيال ذلك أسرع الأسطول البيزنطي إلى مياه غرب البحر الأبيض المتوسط ليحول دون استمرار تقدم المسلمين في جنوب غرب أوروبا، واشتبك في سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م مع خفاجة في معركة دارت رحاها بالقرب من شواطئ جنوة انتصر فيها خفاجة وألحق بالأسطول البيزنطي خسائر فادحة [٢]. وفي سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م غزا الأسطول الأغلبي مالطة وفتحها [٣]، ولما تولى الأمير إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلبي الإمارة قلد الحسن بن رباح ولاية جنوب أوروبا وأمره بمواصلة الفتح فتقدم باتجاه مرسيليا وفتح إقليم بروفانس مما أجبر الفرنجة على الاستنجاد بالدولة البيزنطية فأرسلت أسطولاً مكوناً من ١٤٠ قطعة لنجدتهم فاشتبك هذا الأسطول مع الأسطول الأغلبي في معركة مروعة، وبالرغم من انتصار الأسطول البيزنطي فيها إلا أن قوات المسلمين البرية استمرت في التوغل في جنوب فرنسا من سنة ٢٦٦ – ٢٧٢ هـ / ٨٧٩ – ٨٨٥م فاحتلت كولونا وامتلكت بعض شواطئ الرون، وقد حاول البيزنطيون إعادة حملتهم البحرية وقطع خطوط الاتصال بين أوروبا وإفريقية فاحتل أسطولهم مدينة سيبريه، لكن مقاومة المسلمين العنيفة لهم منعتهم من التقدم وشلت حركتهم. ولم يسكت الأغالبة على هذا النشاط البيزنطي فجهزوا في سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م أسطولاً ضخماً لتعقب البيزنطيين وتطهير المياه الغربية منهم، فاشتبك هذا الأسطول مع الأسطول البيزنطي وضربه ضربة قاصمة [٤] كان من نتيجتها إبعاد الخطر البيزنطي عن غرب المتوسط وبالتالي تثبيت أقدام المسلمين في المناطق التي فتحوها في إيطاليا وفرنسا ثم مواصلة

---

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٣٦٩ .

(٢) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٣٦٩ .

(٣) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٣٦٩، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص٨٧ .

(٤) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٣٦٩ وما بعدها.

فتوحاتهم في تلك الجهات. وبذلك أصبح الأسطول الأغلبي سيد الموقف في وسط البحر المتوسط، ويعلق أرشيبالد لويس على ذلك بقوله : (وكان أبلغ الحملات أثراً على مصير سيادة البيزنطيين الحربية تلك التي قامت بها الأساطيل الإفريقية في بحار صقلية وإيطاليا وتلك التي قامت بها أساطيل كريت الإسلامية في بحر الأرخبيل والبحر اليوناني، على أن الحملات التي وقعت في البحار الغربية ترتب عليها نتائج أخطر مما ترتبت عليه في البحار الشرقية) (١). وهكذا عاد لإفريقية في عهد بني الأغلب مجدها السابق في الجهاد.

ومما لا شك فيه أن الوازع الديني المتمثل في الرغبة في نشر الإسلام كان العامل الرئيسي في جهاد إفريقية المجيد في ذلك العهد كما كان الأمر في السابق، يدل على ذلك كثرة العلماء والفقهاء والعباد والصلحاء من أهالي إفريقية الذين ساهموا في هذا الجهاد، مثل أسد بن الفرات فقيه إفريقية وعالمها المشهور الذي قاد حملة الفتح في صقلية وقبلها حملة سردينيا كما سبق أن ذكرنا، ثم أبو زكريا الهرقلي وصاحبه المرابط أبو إبراهيم الخراساني اللذان استشهدا أثناء غزوة روما (٢)، وعمر بن يوسف بن عامر الكناني والد يحيى بن عمر فقيه إفريقية المعروف والذي لزم جزيرة إقريطش للجهاد (٣)، وسعدون بن أحمد الخولاني الذي اشترك في غزوات عديدة حتى قال عن نفسه :(غزوت بضعاً وسبعين غزوة لطلب الشهادة) (٤)، وغيرهم كثير ممن ذكرت أسماؤهم في كتب التراجم والطبقات. وكثيراً ما كان الأمراء الأغالبة يباشرون الجهاد بأنفسهم مثل الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي تنازل عن الإمارة لابنه أبي العباس وتصدق بجميع أمواله وخرج إلى صقلية مجاهداً (فجاهد في الله حق جهاده، وفتح الفتوحات العظيمة) (٥)، وانتقل إلى جوار ربه مجاهداً عند كوسنثه (Cosenza) بإيطاليا سنة ٢٨٥ هـ (٦)، وبقيت جذوة الجهاد في سبيل الله

---

(١) انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٢١٢ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢ ص١٠٩ .

(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ص٢٧١ .

(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ص٤٠٦ .

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٥٢، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص١٣٢ .

(٦) زامباور :معجم الأنساب والأسرات في التاريخ الإسلامي ج١ ص١٠٦، ويذكر ابن خلدون (المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤) أن المدينة التي توفي عندها هذا الأمير اسمها كسنه، في حين =

متقدة لدى مسلمي إفريقية طوال العصر الأغلبي حتى ظهرت الدعوة الفاطمية فيها فشغلوا بها مما جعل تلك الجذوة تخبو من جديد (١).

ورث الفاطميون دولة الأغالبة إلا أنهم نظراً لكراهية مسلمي إفريقية وتوابعها المالكية للدعوة الشيعية واجهوا صعوبات كبيرة في سبيل المحافظة على ما كان قد أحرزه الأغالبة من فتوحات، فلم تلبث الولايات الأوروبية أن أعلنت انفصالها عن إفريقية، وانتخبت أحمد بن زيادة الله بن قرهب والياً عليها، فاتصل هذا الأمير بالمقتدر العباسي معلناً تبعيته له طالباً منه تقليده أمر هذه الولايات، فبعث إليه بالتقليد والخلع (٢)، ولكن المهدي الفاطمي لم يسكت على ذلك، فلجأ إلى الدس والوقيعة وإثارة الفتن حتى نجح أخيراً في إشعال الثورة ضد ابن قرهب في صقلية مما اضطره للتنازل عن الإمارة وكانت نهايته أن أعدم في المهدية سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م، وعند ذلك لم ير المسلمون في صقلية وما حولها بداً من الإتصال بالمهدي لعلمهم بعجز الخليفة العباسي عن نصرتهم إذا ما تعرضوا للخطر، طالبين منه أن يولي عليهم من يشاء من الولاة وأن يمدهم بجيش يدافعون به عن أنفسهم ضد القوى الأوروبية التي أدركت مدى حراجة موقف مسلمي الولايات الأوروبية فبدأت تتحرك للانقضاض عليهم، إلا أن المهدي لم يغفر لهم اتصالهم بالدولة العباسية فبدلاً من أن يقبل خضوعهم إليه طائعين أرسل إليهم أسطولاً بقيادة سعيد بن المضيف لإخضاعهم بالقوة لسلطانه، فقام هذا الأسطول بمحاصرة صقلية عدة أشهر حتى تمكن أخيراً من النزول فيها واستباحها وفعل جنده من بربر كتامة الأفاعيل المنكرة بالمسلمين فيها من قتل وتعذيب وهتك أعراض، ثم أمر سعيد بن المضيف بهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح وفرض على أهلها المغارم الكبيرة، ثم ولى عليهم أحد طغاته ويدعى سالم بن أبي راشد الذي أفحش هو وجنوده الكتاميون فيها.

=يذكر ابن أبي دينار (المصدر السابق ص٥٢) أنه توفي بالدرب وحمل إلى القيروان، بينما يرى ابن عذارى (ج١ ص١٣٢) أنه توفي بأرض الروم فحمل إلى صقلية ودفن بها والأرجح أن جثمانه حمل إلى القيروان ودفن بها. لمزيد من التفصيل انظر د. السيد عبدالعزيز سالم : المغرب الكبير ص٣٩١ .

(١) عن هذا الموضوع انظر البحث الذي كتبه عبدالعزيز الثعالبي في تاريخ غزوات العرب لشكيب أرسلان ص٣٦٧ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٣ ص٣٦٦ .

فانقبضت النفوس وفترت الهمم وخارت العزائم عن الجهاد والفتح حتى طمع في المسلمين رعاياهم من الإيطاليين والفرنسيين. وأسند الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله بن المهدي أمر الولايات الأوروبية إلى طاغية أخر هو خليل بن إسحق الذي ارتكب خلال حكمه الذي استمر أربع سنوات من الجور والفساد ما لم يسبقه إليه أحد حتى كان يفاخر بأنه قتل أثناء فترة ولايته تلك ألف ألف نفس (١) مما زاد في سوء أوضاع المسلمين في تلك الولايات حتى فر من جوره وطغيانه كثير من المسلمين إلى بلاد النصارى وتنصروا.

ومع أن الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر قاموا ببعض الجهود في سبيل التوسع في أوروبا، إلا أنها كانت محدودة النتائج والأثر، ذلك أنهم بعد أن ثبتوا سلطانهم في صقلية سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م بدأت جيوشهم تغير على الأراضي الإيطالية، ففي سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م هاجمت قلورية، وعادت لمهاجمتها في سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م بقيادة مسعود الفتى الذي غزاها في أسطول من عشرين سفينة واستولى على مدينة أغاتى (Sante Agata) واستباحها (٢)، وتجدد غزو قلورية مرة أخرى سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م، وفي سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م قاد أبو أحمد جعفر حملة عسكرية على جنوب إيطاليا من صقلية حيث افتتح عدة مدن منها مدينة (وارىOria) وغنم غنائم كثيرة (٣)، كما قام صابر الفتى الصقلبي في سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م بغزو السواحل الإيطالية في ٢٤ سفينة وعاد محملاً بالغنائم، وقام في العام التالي بغزو قلورية في ثلاثين سفينة ففتح تارنت وزحف منها حتى وصل إلى أدرنت وحاصرها وخرب كثيراً من مبانيها واستمر في تقدمه حتى وصل إلى سالرنو فصالحه أهلها على مال ودبياج، ثم قصد نابلي فصالحه أهلها على مال وثياب أيضاً (٤). وفي سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م غزا صابر غزاتة الثالثة في أربع سفن، فالتقى في البحر بسبع سفن بيزنطية بقيادة السردغوس، فانهزم البيزنطيون أمامه، وقد نجح صابر في افتتاح مدينة ترموله (Termoli) في تلك الغزوة وغنم غنائم كثيرة (١)، وحيال هذه الهجمات الفاطمية المتكررة

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص٣٧١ – ٣٧٢ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٦٤ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٧٠ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٧٣ .

على جنوب إيطاليا اضطر حاكم قلورية إلى تجديد دفع الجزية البالغة أحد عشر ألف قطعة ذهبية للخليفة الفاطمي ليكفه عن بلاده، وحذت حذوه كل من سالرنو ونابلي.

وعندما شعر الفاطميون بمعاودة الأسطول البيزنطي لنشاطه في البحار الغربية بمهاجمته لمعقل فراكسنتيوم الإسلامي في بروفانس، أرسلوا أسطولهم سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م لتثبيت سلطانهم في البحر التيراني، فأغار هذا الأسطول على جزيرتي سردينيا وكورسيكا (٢)، كما وجه القائم بأمر الله في تلك الآونة مولاه جوهراً بأسطول إلى جنوة ففتحها واستباحها (٣)، إلا أن توجيه الفاطميين اهتمامهم إلى المشرق من ناحية، وصراعهم مع أمويي الأندلس من ناحية ثانية، والثورات الداخلية التي واجهوها والتي كادت تعصف بدولتهم كثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي والثورة التي اشتعلت في صقلية بين سنتي ٣٢٦ - ٣٢٩هـ / ٩٣٧ - ٩٤٠م من ناحية ثالثة، ثم كراهية أهالي إفريقية والمغرب ومسلمي الولايات الأوروبية للفاطميين ودعوتهم الشيعية كما أسلفنا القول وبالتالي العزوف عن الجهاد تحت لوائهم حتى إن من فقهاء إفريقية من اعتبر أن جهاد هؤلاء أولى من جهاد النصارى من ناحية رابعة، كل هذه الأسباب مجتمعة قلصت دور إفريقية في الجهاد في العهد الفاطمي إلى حد كبير.

وبانتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م تضاءل هذا الدور أكثر فأكثر، إذ أنهم نقلوا معهم معظم أسطولهم - الذي كان أداة الجهاد الفعالة - إلى المشرق، ولم يتركوا لواليهم على إفريقية والمغرب يوسف (بلقين) بن زيري إلا عدداً قليلاً من السفن ليس للجهاد وإنما لحماية ولايته من أمويي الأندلس (٤)، ومع أن بلقين حاول تعويض هذا النقص ببناء أسطول مستقل، فكلف عبد الله بن محمد الكاتب عامله على المهدية بذلك، فشرع هذا في بنائه في ذي الحجة سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٦م، إلا أنه واجه صعوبة كبيرة في جمع البحارة

---

(١) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص١٣٨ .
(٢) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٢٣٤ وما بعدها.
(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج٣ ص٥٣، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص١٨٢ حاشية ٢، د. أحمد مختار العبادي ود. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص١٣٩
(يذكران أن هذا الأسطول كان بقيادة يعقوب بن إسحق). W.Heyd : Op. Cit., I, p.121
(٤) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٣١٢ .

اللازمين له مما اضطره إلى حشدهم من أنحاء البلاد بالقوة وزج بمن امتنع منهم في السجن، وفي أول المحرم سنة ٣٦٦هـ خرج هذا الأسطول من المهدية للغزو، فتعذرت عليه الريح وأقام البحارة في سفنهم حتى فرغت أزوادهم فنهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح وهربوا إلى الساحل [1]، وشغل الولاة من بني زيري عن الجهاد بما دهمهم من الفتن والمشاكل الداخلية فتوقفت حركته من جديد. وليت سوء الوضع وقف عند هذا الحد إذن لهان الأمر، ولكن تلك الفتن أنهكت قوى إفريقية مما جعلها هي نفسها تصبح هدفاً للقوى المعادية التي استغلت الأوضاع المتردية فيها وأخذت تتحفز للوثوب عليها وهو ما سنبحثه في الباب الأول من هذه الدراسة.

ولربما يقال إنني قد استطردت في هذا التمهيد إلى حد قد يكون أبعدني قليلاً عن موضوع البحث، ولكنني رأيت أن هذا التمهيد هو خلفية تاريخية لا بد منها لأبين أن اهتمام الحركة الصليبية بإفريقية لم يخلق فجأة في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، وإنما كان له جذور تضرب في أعماق التاريخ لتصل إلى أيام الفتح، وأن مكانة إفريقية السامية في نفوس مسيحيي الغرب وبالتالي شعورهم بالأسى لفقدانها وتلاشي المسيحية فيها، ثم الإحساس بالخطر الذي يأتي منها إلى أوروبا إذا بقيت في أيدي المسلمين وهو ما أكدته الحوادث التي تلت فتحها والتي سبق أن أشرت إليها، كل ذلك كان حافزاً هاماً لهذا الاهتمام وعاملاً رئيسياً في التنبه الدائم لنزعة العدوان عليها وتحريكها في نفوسهم باستمرار.

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٢٧ .

الباب الأول

إفريقية والحروب الصليبية
حتى منتصف القرن السابع الهجري
(الثالث عشر للميلاد)

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونـكم من الكفار ولْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .

[سورة التوبة : آية ١٢٣]

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ .

[سورة الروم : آية ٤١]

إفريقية والهجــوم الصليبي على غــرب العالــم الإســلامي

(انقلاب ميزان القوى في غرب البحر المتوسط - بنو زيري وضياع وحدة المغرب العربي - انفصال إفريقية عن الدولة الفاطمية - هجرة الأعراب الهلالية إلى إفريقية وآثارها - بدء الهجوم في الغرب : أ - الأندلس. ب - صقلية. جـ - إفريقية)

انقلاب ميزان القوى في غرب البحر الأبيض المتوسط :

بالرغم من الصراع الحاد الذي احتدم بين الفاطميين حكام إفريقية والمغرب وأمويي الأندلس، ظلت كفة المسلمين هي الراجحة على القوى المسيحية في غرب المتوسط، بحيث إن تلك القوى لم تكن تجرؤ على مهاجمتهم بل وفي أحيان كثيرة لم تكن قادرة على حماية نفسها منهم. ولكن انتقال الفاطميين إلى مصر بغالبية قوتهم البرية والبحرية سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، وانشغال أمراء بني زيري ولاتهم على إفريقية والمغرب بالمشاكل والفتن الداخلية والثورات القبلية والمذهبية العديدة التي واجهتهم والتي سنتعرض لها بشيء من التفصيل فيما بعد، وما واكب ذلك من ضعف مسلمي الأندلس إثرانقضاء عهد الدولة العامرية وانهيار الخلافة الأموية في مطلع القرن الخامس الهجري وقيام دول ملوك الطوائف، كل ذلك فسح المجال لمسيحيي غرب أوربا لالتقاط أنفاسهم والبدء في تجميع قواهم للكرّة على العالم الإسلامي.

وجاءت الظروف المواتية لتقدم لهم مساعدة كبيرة في سبيل تحقيق هدفهم المنشود، إذ أنهم تمكنوا منذ أواخر القرن الرابع الهجري(العاشر للميلاد) من تنصير عنصرين بشريين جديدين هما النورمان والمجريون الذين طالما أزعجوهم بهجماتهم المخربة واستنزفوا الكثير من جهودهم، ولم تقتصر أهمية تنصر هذين العنصرين على إراحة مسيحيي غرب أوروبا من شرهم، بل إنهما أمدا أوروبا الغربية بمقاتلين جدد متحمسين لقتال أعداء الكنيسة الكاثوليكية. حدث ذلك في نفس الوقت الذي بدأت فيه المدن البحرية الإيطالية في تطوير قواتها البحرية نظراً لما انتاب الأسطولين الإسلامي والبيزنطي من ضعف، وقد لمست مدينتا بيزا وجنوة بصفة

خاصة أن ثمة مغانم كبيرة يمكنهما جنيها لو غامرتا في البحر، فبدأت أساطيلهما تحترف القرصنة وتتعرض للسفن التجارية الإسلامية وتنهبها، وكان قسم من مغانم هذه القرصنة يخصص لتدعيم هذه الأساطيل وزيادة عدد قطعها، وشجعهما ذلك فتجرأتا وخطتا خطوة أخرى في مغامراتهما البحرية وهي بدء مهاجمة المدن الساحلية الإسلامية كلما واتتهما الفرصة المناسبة بغرض نهبها، ومن أمثلة ذلك تلك الحملة التي قامتا بها على مدينة بونة (عنابة) سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م الأمر الذي يقدم دليلاً واضحاً على بدء انقلاب ميزان القوى في تلك الآونة لصالح القوى الأوروبية إذ أن هذا الهجوم يعني تحول أوروبا الغربية في صراعها مع المسلمين من الدفاع إلى الهجوم. ولم يفلح مجاهد العامري صاحب أكبر قوة بحرية إسلامية في شرق الأندلس في وقف المد البحري الأوروبي، كما فشل البيزنطيون في ذلك أيضاً، والذين كانوا يحاولون منذ انتهائهم من حروبهم في الجبهتين السورية والبلغارية في أوائل ذلك القرن إعادة فرض سيطرتهم على وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، فوجهوا حملة كبيرة للاستيلاء على صقلية سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م وأخرى إلى مالطة سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م ولكن فشلهما أكد سيادة المدن البحرية الإيطالية على تلك المنطقة، وكان لذلك أهميته البالغة إذ أنه في نفس الوقت الذي وفر لبلدان غرب أوروبا الفرصة التي كانت لازمة لها لتجميع قواها بعد أن أمنت من هجوم المسلمين عليها، وضع في يدها سلاحاً هجومياً فعالاً وأداة ضغط قوي على المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي.وجاء هذا التحول في ميزان القوى مصحوباً بيقظة دينية شملت أوروبا الغربية في تلك الآونة علاوة على عوامل عديدة أخرى هامة ومتشابكة كانت تؤثر بقوة في مجتمعها الأمر الذي يوضح أبعاد الخطر الذي كان قد أخذ يهدد المسلمين. ويؤدي بنا ذلك بالضرورة إلى إلقاء نظرة أشمل وأعمق على أوضاع المسلمين في إفريقية بصفة خاصة والمغرب العربي بصفة عامة كون بلادهم هي العدوة المقابلة لأوروبا الغربية التي كانت تتحفز للانقضاض عليهم.

بنو زيري وضياع وحدة المغرب العربي :

لم تكد تمضي بضع سنوات على رحيل الفاطميين إلى مصر حتى تفجرت الثورات القبلية والمذهبية في أنحاء عديدة من المغرب العربي، وقد بذل أمراء بني زيري ولاتهم على

إفريقية وباقي ممتلكاتهم في المغرب العربي منذ عهد أميرهم الأول بلقين (بلكين) أو (يوسف) بن زيري جهوداً مضنية في سبيل إخماد تلك الثورات التي ما كانت نارها تخبو حتى تشب من جديد، والتي كان من نتائجها أن أخذت قبضتهم تتراخى عن جزء من أرض المغرب في عهد كل أمير من أمرائهم الأربعة الأول. وكانت زناته القبيلة البربرية المشهورة هي ألد خصوم بني زيري الصنهاجيين لما بين القبيلتين من عداوة(في قديم الزمان وحديثه... وحروب عظيمة وأضرار متصلة وحسائف ظاهرة وكامنة)[1]، فأشعلت الثورة على بلقين والتي استهلها بنو خزرون ملوك مغراوة الزناتيون في نواحي طرابلس، وعندما اشتدت وطأته عليهم ارتحلوا إلى المغرب الأقصى واستأنفوا ثورتهم من جديد، ولما رأى بلقين أن المغرب الأقصى الذى ظل ساحة للصراع الفاطمي الأموي لمدة طويلة قد أخذ يموج بالفتن زحف إليه زحفه المشهور في سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م على أمل إعادة بسط نفوذه عليه، ومع أنه في زحفه قضى على العديد من الثوار ودخل فاس واضطر مغراوة إلى اللجوء إلى ساحل سبتة[2] وتمكن من إعادة الهدوء النسبي إلى المغربين الأقصى والأوسط بعد عامين قضاهما في حروب مستمرة ضد الحلف الأموي الزناتي، إلا أنه مع ذلك لم يتمكن من اجتثاث جذور التمرد والعصيان، فما كاد نبأ وفاته في طريق عودته إلى إفريقية سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م يصل إلى مسامع خصومه حتى عادوا إلى شق عصا الطاعة فرجع بنو خزرون وبنو يفرن إلى مواضعهم الأولى[3]- وأشعلوا نار الثورة في كلا المغربين الأوسط والأقصى والتي كان يذكيها أمويو الأندلس، وبذلك ضاعت جهود بلقين عبثاً الأمر الذي أدى إلى انحسار الظل الزيري عن المغرب الأقصى وتركه نهباً للطامعين.

ولم يكن حظ المنصور بن بلقين الذي خلف أباه في الحكم سنة ٣٧٣ – ٣٨٦هـ

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٦٢-٦٣ .

(٢) عند لجوء هؤلاء إلى سبتة استصرخوا المنصور بن أبي عامر في الأندلس فحضر إليهم بنفسه ليستطلع أمرهم، ثم أرسل إليهم عند عودته إلى الأندلس جيشاً كبيراً يقوده جعفر بن يحيى لشد أزرهم في حربهم مع بلقين، كما انضم إلى هذا الحلف عدة بطون أخرى من زناته أشعلت نار الثورة في المغرب الأوسط ثم أعلنت تبعيتها للدولة الأموية في الأندلس سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٩ .

(٩٨٣-٩٩٥م) بأفضل من حظ أبيه، فقد استمرت ثورات زناته في كلا المغربين الأوسط والأقصى، ونشبت في عهده عدة ثورات خطيرة مثل ثورة أبي الفهم الكتامي سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م(١)، وثورة أبي البهار حاكم تاهرت سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م(٢)، ثم ثورة أبي الفرج الذي ادعى انتسابه إلى الخليفة الفاطمي القائم سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م أيضاً، فقضى الشطر الأكبر من سني حكمه في مكافحة الثوار، وبذل أخوه حماد الذي تولى مهمة إخماد عدد من هذه الثورات جهوداً مضنية في سبيل ذلك، ولكنه لم يحقق إلا نتائج جزئية، ومات المنصور في سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٥م ولما تستقر الأوضاع في إمارته بعد. وبوفاته زادت الثورات حدة وخطورة وامتدت في عهد ابنه وخليفته باديس (٣٨٦-٤٠٦هـ/ ٩٩٥-١٠١٥م) إلى إفريقية نفسها حتى اضطربت بالفتنة على حد تعبير ابن خلدون(٣)، وأخذ العديد من زعماء القبائل في المغرب العربي كل يحاول أن يؤسس لنفسه ملكاً بحد سيفه وكان من أشهر هؤلاء زيري بن عطية الزناتي(٤) وفلفل بن سعيد الزناتي(٥) أيضاً الذي انقلب على باديس وثار عليه في أشير

(١)انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤١ وما بعدها.

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٤ وما بعدها.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٠ .

(٤) كان زيري بن عطية مصافياً للمنصور بن بلقين وقد أسهم بنصيب وافر في القضاء على ثورة أبي البهار، ثم انقلب على بني زيري وحالف أمويي الأندلس، وأصبح رجلهم القوي في المغرب الأوسط، ولكنه عاد وانقلب على المنصور بن أبي عامر متعللاً بأنه يناصر الخليفة الأموي المؤيد الذي كان المنصور قد فرض ما يشبه الحجر عليه، فأرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة واضح الفتى لإخضاعه ثم أردفه بجيش آخر بقيادة ابنه عبد الملك المظفر بن المنصور الذي انتصر على زيري واضطره إلى اللجوء إلى الصحراء حيث لحقت به فلول جيشه وبعض بطون زناته، وعندما رأى اختلال أوضاع باديس زحف على تاهرت وبها يطوفت بن بلقين، ولما علم باديس بذلك وجه إليه جيشاً بقيادة محمد بن أبي العرب كما أوعز والى فلفل بن سعيد والي أشير لمساندته وانضم إليهما حماد بن بلقين عم باديس ولكن زيري انتصر عليهم واستولى على معسكرهم فقويت شوكته، وانضم إليه بعض أعمام باديس وبدأ يقض مضجع الأمير الزيري، ثم كتب إلى المنصور بن أبي عامر يسترضيه ويعلن ولاءه له ويطلب منه أن يوليه المغرب الأوسط ففعل، واشتد بذلك خطر حركته على باديس، وزحف إلى أشير ومات أثناء حصاره لها وسار ابنه المعز على نفس سياسته، وبقي على اتصاله بالأمويين حتى انهيار دولتهم في الأندلس فاستقل بأمره. انظر: ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣١ وما بعدها.

(٥) فلفل بن سعيد بن خزرون هو من بيت زيري بن عطية كان أبوه قد لجأ إلى المنصور بن بلقين=

وهزم الجيوش التي أرسلت لإخضاعه وهدد القيروان نفسها، فلم ير باديس بداً من الخروج لقتاله بنفسه في حين عهد إلى عمه حماد بن بلقين بالقضاء على ثورة أعمامه ماكس وزيري وغرم ومقنين التي انفجرت في تلك الآونة لتزيد من حراجة موقف باديس. والتقى باديس بفلفل بن سعيد بالقرب من مرماجنة – تقع حالياً على الحدود الجزائرية التونسية – في أواخر سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م وانتصر عليه وأسرع بإرسال البشير إلى القيروان ليطمئن أهلها الذين(كان الإرجاف أخذ منهم المآخذ وفر كثير منهم إلى المهدية وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقعون من فلفل بن سعيد)[١]، ولكن هذه الهزيمة لم تقض على ثورة فلفل بل كانت له مع باديس وقعات عديدة[٢] حتى استطاع أخيراً أن يملك طرابلس ويستقر فيها[٣] حيث أخذ يقض منها هو وخلفاؤه من أهل بيته مضجع الدولة الزيرية.

وأما حماد بن بلقين الذي كان قد اشترط على ابن أخيه باديس أن يوليه على كافة البلاد التي ينتزعها من الثوار ووافقه باديس على ذلك[٤]، فإنه زحف إلى المغرب الأوسط وأخمد الثورات فيه[٥]، كما قضى على ثورة إخوته فقتل ماكس وأرغم زاوي على الرحيل إلى

=مغاضباً للحسن بن عبد الودود والي المنصور بن أبي عامر على المغرب نظراً لتفضيله مقاتل وزيري ابني عطية عليه، فأكرم المنصور وفادته وعقد له على طبنة، وعندما توفي من سنته في القيروان أمر المنصور بإعداد جنازة فخمة له وكفنه بسبعين ثوباً مبالغة في إكرامه ووفد ابنه فلفل بن سعيد على المنصور بعد ذلك فأكرمه وعقد له على عمل أبيه ووصله بثلاثين حمل من المال وزوجه من ابنته، وعندما تولى باديس الإمارة أقر فلفل على عمله، وبقي كذلك من المنزلة الرفيعة لدى باديس إلى أن ثار قريبه زيري بن عطية وهزم جيش باديس، ودبت الكراهية والريبة بين الصنهاجيين قوم بني زيري وقبيلة زناتة في إفريقية قوم فلفل وبدأت الشكوك تساور كل منهما تجاه الآخرحتى انتهى الأمر بإعلان فلفل لثورته. انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ و ج ٧ ص ٤٠ وما بعدها.

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٠-٤١ .

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٠ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٠ – ٤١، انظر كذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٠-٨١، محمد بوراس الجربي : مؤنس الأحبة ص ٦٢-٦٣ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٦٩-٧٠ .

(٥) لمزيد من التفصيل عن هذه الثورات انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٦ وما بعدها، ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها.

الأندلس سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[١]، وبدأ يعيد الهدوء إلى المغرب الأوسط، ولكن باديس كان مع عمه حماد هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ لم يلبث حماد أن شرع في التأهب للاستقلال بولايته الأمر الذي أثار شكوك باديس، وعندما تبين نية عمه نشبت الحرب بين الطرفين، ولما هزم حماد جيشاً أرسله باديس لحربه بقيادة هاشم بن محمد بالقرب من مدينة الكاف، قطع حماد كل صلة له مع باديس[٢]، ولم يكتف بذلك بل خلع طاعة الفاطميين وأعلن تبعيته للدولة العباسية، فكان ذلك بداية لعداوة بين الفرعين الزيريين دامت حتى انقضاء عهد الدولتين، ويصف ابن الأثير هذه العداوة بقوله عن بني حماد : (... وفي نفوسهم من الضغائن والحقود من باديس ومن بعده من أولادهم، يرثه صغير عن كبير)[٣]، وبذلك انسلخ المغربان الأقصى والأوسط عن إفريقية، وعلى هذا يمكننا القول بأن المغرب العربي قبيل وفاة باديس أي منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) قد فقد وحدته وتمزق إلى كيانات عديدة متناحرة، إذ أصبح المغرب الأقصى مقسماً بين عدة متنفذين تغلب(كل منهم علي موضعه كما فعل ملوك الطوائف بالأندلس)[٤] وأسس بنو يعلى إمارة لهم في تلمسان[٥]، واستأثر الحماديون بباقي المغرب الأوسط، بينما انفرد بنو خزرون الزناتيون بطرابلس ونواحيها[٦] واقتصر سلطان باديس على ما تبقى من إفريقية، ومات في سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م بالمحمدية أثناء حروبه مع عمه حماد[٧] بعد حياة لم يعرف فيها الراحة

---

(١) يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٢) انظر ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٧٢ وما بعدها، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٢، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ١٦٨، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ١٠٨، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٤–٤٥ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠، د.عبدالله العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب ص ١٤٢ .

(٥) عن هذه الإمارة انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٤ .

(٦) عندما امتلك فلفل بن سعيد طرابلس ونواحيها اعترف بأمويي الأندلس وأرسل بطاعته إلى الخليفة محمد بن هشام وضرب الدنانير باسمه ولكنه مات سنة ٤٠٠ هـ قبل عودة رسله من قرطبة فخلفه أخوه (ورو) فسار على نفس سياسة أخيه حتى انهارت الخلافة الأموية في الأندلس.

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٢ .

والاستقرار قضاها في مكافحة الأعداء على حد تعبير ابن أبي دينار[1].

وخلف باديس في الحكم ابنه المعز الذي كان طفلاً لا يتعدى عمره الثمانية أعوام، فزادت الثورات والفتن في عهده حدة فكان عليه أن يحارب في جبهتين في آن واحد عمه حماد في الغرب وبني خزرون في الشرق، وكثر القائمون عليه حتى إن زناته هددت الوجود الزيري نفسه تهديداً خطيراً مرتين زحفت فيهما على القيروان إحداهما في سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، يقول ابن عذارى في حوادث تلك السنة (زحفت جموع زناته تريد حضرة القيروان طمعاً منها في الملك)[2] فخرج المعز إلى المهاجمين بنفسه وهزمهم بعد قتال مرير، وثانيتهما في سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م حينما زحفت جموعها مرة أخرى وهزمت جيش المعز ووصلت في هذه المرة إلى ما بين المنصورية والقيروان[3] وثبتت أمام جيش المعز حتى كاد يكون الفناء بين الطرفين، ولم يتمكن المعز من إبعاد خطرهم عن القيروان إلا في العام التالي حيث انتصرعليهم انتصاراً حاسماً في سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م وقتل منهم عدداً كبيراً[4]، ولكن ذلك الانتصار لم يمنع زناته من معاودة الثورة، إذ تجددت ثورتها في نواحي طرابلس سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م وكانت من الحدة بحيث اضطرت المعز للاستنجاد بعبدالله ابن حماد حيث كانت العلاقات بين الطرفين تمر آنذاك في فترة وئام بعد أن تزوج عبدالله بأم العلو أخت المعز فحضر عبدالله بنفسه نجدة للمعز ولكن الزناتيين انتصروا عليهما وقتلوا عبد الله وأسروا زوجته أم العلو[5]، وكلف إخماد تلك الثورة المعز كثيراً من الجهود، وعادت زناته للثورة ثانية سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م فأرسل المعز ابنه نزار على رأس جيش كبير تمكن من إخمادها، وقتل كثيراً من الثوار حتى أفحش في سفك الدماء[6]. أما علاقته بالحماديين فبعد فترة الوئام القصيرة التي أشرنا إليها آنفاً تجددت الفتنة بين الطرفين سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م فخرج المعز لقتالهم بنفسه وحاصر القلعة مدة سنتين دون أن يتمكن من دخولها

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص ١٩ .

(٤) انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ص ٧٩ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٦ .

فاضطر للعودة عنها[١].

أما الفتن المذهبية التي واجهها المعزفقد استهلت بثورة أهل القيروان بالشيعة في أوائل عهده (لأنهم كانوا يتجاهرون بمذهبهم الخبيث فقتلت نساؤهم وأولادهم وكانت فتنة بالقيروان)[٢] وامتدت هذه الفتنة إلى المهدية وتونس وباجة وغيرها من مدن إفريقية فكانت مجزرة عظيمة راح ضحيتها عددكبير من الشيعة في إفريقية قدر من قتل منهم في القيروان وحدها بما يزيد عن الثلاثة آلاف نفس[٣]، ولم يكف أهل إفريقية بعد ذلك عن تبرمهم بالمذهب الشيعي (حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم –خلفاء الفاطميين– فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سراً«اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثم ينصرف فيصلي ظهراً أربعاً إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فقطعت الجمعة دهراً)[٤]، وكانوا يثورون بالشيعة كلما سنحت لهم الفرصة. كما قام الخوارج بالثورة أكثر من مرة، فيذكر الوسياني أنهم ثاروا في جبل نفوسة فأرسل المعز إليهم جيشاً تمكن من إخضاعهم بعد مقاومة شديدة[٥]، كذلك يذكر ثورة أخرى قام

---

(١) ابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٣) تزعم هذه الحركة كبار فقهاء المالكية في إفريقية مثل الشيخ الحسن بن خلدون البلوي في القيروان والشيخ محرز بن خلف في تونس ونظرائهما، وقد عالج المعز هذه الفتنة بأن دبر اغتيال الشيخ حسن بن خلدون حيث هجم عامل القيروان وشرطته عليه في مسجده وقتلوه، فدبت الفوضى في القيروان إثر ذلك، وخرج العبيد والعامة في المنصورية ونهبوا حوانيت التجار، وألقيت النار في الأسواق الكبيرة فشغل الناس بأنفسهم عن مقتل الشيخ حسن بن خلدون، ثم تفاقمت الفتنة فاضطر عامل القيروان إلى الإسراع لتهدئة الوضع فأتى برجلين زعم أنهما هما اللذان قتلا الشيخ ابن خلدون وقتلهما حتى هدأت الفتنة. لمزيد من التفصيل انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٣ وما بعدها، ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٢، ابن مقديش الصفاقسي : نزهة الأنظار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم(10380) ورقم ١٣١ .

(٤) ابن عذارى المصدر السابق ج١ ص ٢٧٧ .

(٥) الوسياني : كتاب السير، مخطوط دار الكتب المصرية رقم(٩٠٣٠خ) ورقم ٨٠–٨١، انظر تعريف الدكتور سعد زغلول عبد الحميد بهذا المخطوط في بحثه(هامش على مصادر تاريخ الأئمة الأباضية في المغرب)، أعمال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، تونس سنة ١٩٧٩، ج ١ .

بها بنو درجين في القلعة فأرسل إليهم المعز قائده ابن قطلو فقضى عليها وقتل ما يزيد عن (١٥٠٠) رجل من الثوار كان من بينهم الشيخ أبي يعقوب أحد زعمائهم البارزين[١]، وتجددت ثورة الخوارج سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م حيث ثاروا في جزيرة جربة فأرسل المعز أسطولاً إلى الجزيرة قضى على الثورة وقتل العديدمن زعمائها مثل أبي عمرو النميلي الزواغي، وأبي محمد كموس، وأبي صالح البهراسني، وأبي موسى بن السمح[٢].

وخلاصة القول أن هذه الثورات والفتن مزقت المغرب العربي وأفقدته وحدته، وأنهكت قوى إفريقية بصفة خاصة واستنزفت طاقاتها وحدّت من مقاومتها للخطر القادم من الشرق والمتمثل في هجرة الأعراب الهلالية إليها والتي زادت من تردي الأوضاع فيها.

انفصال إفريقية عن الدولة الفاطمية :

لم تكن فكرة انفصال إفريقية عن الدولة الفاطمية التي نفذت في مطلع الأربعينات من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) فكرة مرتجلة أو بنت ساعتها، بل تعود إلى ما قبل إعلان المعز بن باديس لها بوقت طويل قد يرجع إلى زمن انتقال الفاطميين منها إلى مصر، ودليلنا على ذلك ما رواه ابن عذاري من أن المنصور ثاني أمراءبني زيري قال لأعيان القيروان الذين وفدوا عليه لتهنئته بالإمارة : (... وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير)[٣] وإذا كان هذا

---

(١) الوسياني : المصدر السابق ورقة ٨٤

(٢) الوسياني : المصدر السابق ورقة ١٢٥، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص ١٢٥، محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص ٦٤-٦٥، د.سعد زغلول عبد الحميد هامش على مصادر تاريخ الأئمة الأباضية في المغرب، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٠ . وأما ذكر أجداده حمير الذي ورد في النص، فإن صنهاجة التي ينتمي إليها أمراء بني زيري قد ادعت أنها عربية نسبها في حمير ملوك العرب في الجاهلية، وكان بنو زيري يفاخرون بهذا النسب سواهم من البربر، وقد مدحهم الشعراء به، فقد قال ابن رشيق يمدح المعز بن باديس :

يا ابن الأعزة من أكابر حمير   وسلالة الأملاك من قحطان

(انظر أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ص ٨٣). وقد ذكر العديد من المؤرخين نسب بني زيري=

الانفصال لم يتم قبل عهد المعز فإن ذلك يعود إلى عدة أسباب أهمها أن الدولة الفاطمية كانت لا تزال في طور القوة وليس في إمكان بني زيري الوقوف في وجهها، ثم إن الدولة الأموية في الأندلس كانت تمر هي الأخرى في دور صحوة في عهد المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر، وأطماعها في المغرب العربي لم تكن خافية على أحد خاصة وأن قبيلة زنانة العدو اللدود لبني زيري كانت تقوم بدعوتهم في المغرب،فليس من الحكمة أن يضع بنو زيري أنفسهم بين نارين إذا انفصلوا عن الفاطميين في وقت كانوا فيه يجابهون الأمويين وأحلافهم، ولم يكن في نيتهم الاتصال بالأمويين لأنهم كانوا لا يريدون استبدال سيد بآخر، هذا بالإضافة إلى احتمال استمرار فقدانهم تأييد شعبهم السني لهم إذا قاموا بذلك لأن الخلافة العباسية كانت في نظر هذا الشعب هي الخلافة الشرعية التي أجمع عليها جمهرة السنة وليست الأموية في الأندلس.

أما في عهد المعز بن باديس فقد تغير الوضع، فالخلافة الأموية كانت قد انهارت وتمزق الأندلس إلى دويلات الطوائف، وبالتالي زال خطرها عن الزيريين، ثم إن الخلافة الفاطمية كانت هي الأخرى قد دخلت في طور الضعف والانحلال، ولم يكن بإمكانها المغامرة بإرسال حملة عسكرية إلى إفريقية لإعادة بسط نفوذها عليها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الفتن والثورات التي استنزفت قوى الدولة الزيرية خاصة في عهد باديس وابنه المعز قد فرضت على الأخير العمل على تدعيم جبهته الداخلية بتحقيق رغبة معظم شعبه في نبذ الدعوة الفاطمية. وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن الانفصال كان بدافع الخلاف المذهبي فقط، بل هو بالأحرى كان خطوة سياسية كان هذا الخلاف أحد مبرراتها، بدليل أن المعز بن باديس أراد ركوب موجة السياسة إلى أبعد الحدود ففكر في إعلان نفسه خليفة ثالثاً في العالم الإسلامي يقف على قدم المساواة مع خليفتي بغداد والقاهرة[1]، ولم يثنه عن عزمه إلا أحد مستشاريه الذي نصحه بصرف النظر عن هذه الفكرة لضعف الاحتمال في وجود

=في حمير، مثل العماد الأصفهاني في الخريدة، وعنه نقل ابن خلكان(وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧١-٢٧٣)، وعن ابن خلكان نقل الوزير السراج(المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ٩٤٠)، كما ذكره أبو المحاسن(المصدر السابق ج ٥ ص ١٩٨)، وقد أنكر ابن خلدون وغيره صلة صنهاجة بحمير كما أنكروا صلة نسب زنانة بقيس عيلان.

(١) محمد بن عبد الجليل : كيف قاومت المالكية التشيع من أول عهد الدولة الزيرية إلى عهد المعز بن=

التأييد الكافي لها. كما أنه لو كان هذا الانفصال مذهبياً ونتيجة لاقتناع المعز برأي أهل السنة بتأثير من أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي البغدادي كما يقول الضبي[(١)]، أو من مؤدبه ثم وزيره ابن أبي الرجال الذي دله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة كما يقول ابن عذارى[(٢)]، لما دبر اغتيال الشيخ الحسن بن خلدون الذي تزعم حركة قتل الشيعة في القيروان ولما أمر بقتل الشيخ محمد بن عبد الصمد الواعظ المعروف الذي كان يحرض على قتل الشيعة[(٣)]، وأخيراً وليس آخراً لما أعاد حفيده يحيى بن تميم اعترافه بالتبعية للدولة الفاطمية فيما بعدكما سيذكر في موضعه.

وأما متى حدث هذا الانفصال فذلك موضع خلاف بين المؤرخين، فابن عذارى يروي عن هذا الأمر ثلاث روايات مختلفة يقول في الأولى أنه حدث سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م[(٤)] ويذكر في الثانية أن المعز قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر إفريقية سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م[(٥)]، ومفاد الثالثة أنه لبس السواد شعار العباسيين وكساه رجال دولته ودعا للقائم العباسي في سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م[(٦)] في حين يذكر ابن خلدون أن المعز قطع أسماء الخلفاء الفاطميين من الطرازات والرايات وبايع للقائم العباسي (وخاطبه ودعا له على منابره سنة سبع وثلاثين وبعث بالبيعة إلى بغداد)[(٧)] ويقول في موضع آخر إن المعز قطع دعوة الفاطميين سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٩ م[(٨)]، بينما يذكر ابن الأثير أن ذلك كان سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م[(٩)]، وجعله ابن الخطيب سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م[(١٠)]، ويروي أبو المحاسن

=باديس الصنهاجي، بحث منشور ضمن أعمال الملتقى التونسي الإسباني، ص ١٤-١٥ .

(١) الضبي : بغية الملتمس ص ٩٧-٩٨ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٣ .

(٣) انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٠ وما بعدها.

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٧ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٠ .

(٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤ .

(٨) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ .

(٩) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٩ ص ٢١٧ وص ٢٣٦ .

(١٠) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص٧٣، انظر كذلك ابن أبي الضياف المصدر السابق=

روايتين عن ذلك دون أن يرجح إحداهما على الأخرى فيقول أن المعز قطع الخطبة للفاطميين سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م (وقيل سنة خمس وثلاثين)[١]، أما الدباغ فيذكر أن المعز تبرأ من الدعوة الفاطمية وصرح بذلك على المنابر في مستهل شهر صفر سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م[٢]، وحدد المؤرخ الإنجليزي لين بول (S.Lane Poole) تاريخ الانفصال بسنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦ – ١٠٤٧م معتمداً في ذلك على آخر عملة نقدية تحمل اسم الخليفة الفاطمي ضربت في مدينة المنصورية[٣]، ويرجح الدكتور أحمد مختار العبادي بأن ذلك كان في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م اعتماداً على ما ورد في النسخة الخطية من كتاب(اتعاظ الحنفا) للمقريزي المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث في استانبول(لوحة رقم ٨٨)[٤].

وحيال هذا الاختلاف يصعب على الباحث التوصل إلى رأي محدد حول هذا الموضوع، والذي أراه هو أن قول برنجفيك في أن هذا الانفصال قد تم بالتدريج هو الأقرب إلى الصواب مع أنه لم يقدم الأدلة التي استند إليها في هذا الرأي[٥] مع وجود عدة منها سأتعرض لها بعد قليل، لقد استغرق هذا الانفصال التدريجي في اعتقادي مدة تقارب السبع سنوات تبدأ من سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م، والدليل على ذلك هو أنه يتضح من روايات عديدة أن المعز كان يراسل أبا القاسم أحمد بن علي الجرجرائي الوزير الفاطمي ويلمح له بتبرمه وضيقه بالفاطميين ويستميله إلى جانبه ليثير شكوك الخليلفة الفاطمي في وزيره فيوقع به لما كان يخشاه من شره نظراً لأنه كان (أحد رجال الدنيا سياسة ودهاء وبعد غور ونفوذ فكرة) على حد تعبير التجاني[٦]، ويبدو أن الجرجرائي فهم ما كان يعتزم المعز القيام به

=ص١٧٢، الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ص ٤٦ .

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٢، وص٥٠ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٨ .

(٣) S. Lane Poole : AHistory of Egypt in the middle Ages,p,18.

(٤) د. أحمد مختار العبادي: أعمال الأعلام لابن الخطيب ق ٣ ص ٧٣ تعليق ٢، انظر كذلك د.أحمد مختار العبادي: سياسة الفاطميين في المغرب والأندلس، بحث في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد عدد سنة ١٩٥٨ .

(٥) M.M.A. Basset : Initiation a la Tunisie, p. 87

(٦) التجاني : المصدر السابق ص ٢١ .

فكتب إليه يحثه على الاستمرار في الطاعة[1]، ولما كان الجرجرائي قد توفي سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م[2]، فإن من المفروغ منه أن تكون تلك المراسلات التي كانت استهلالة الانفصال قد تمت قبل تلك السنة ولا يستبعد أن يكون قد بدأ في نفس ذلك الوقت بمراسلة الدولة العباسية، ولا بد أن يكون الفاطميون قد بدأوا يرتابون في المعز وعلموا باتصاله بالعباسيين فحاولوا خلق المتاعب له للتخلص منه أو لإعادته إلى جادة الصواب على الأقل، فأرسلوا أحد دعاتهم إلى قبيلة كتامة استطاع أن يحرضها على المعز فأعلنت عليه الثورة، ولكن المعز أفشل هذه الخطة بأن قمع تلك الثورة بسرعة، ولما عادت للثورة بعد ذلك بقليل قضى عليها بعنف ملحوظ، ويؤكد ابن خلدون ما ذهبنا إليه بقوله : (... وقتل دعاة الرافضة يومئذ فامتعض لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني – الجرجرائي – محذراً وهو يراجعه بالتعريض لخلفائه والمزج فيهم حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر وأحرق بنوده ومحا اسمه من الطرز والسكة)[3]، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الشماع بقوله : (فكان المعز لا يزال ينحي على بني عبيد ويلعنهم خفية ويؤذي أشياعهم ثم آل أمره إلى أن صرح بلعنهم على المنابر وقتل أشياعهم المرة بعد المرة)[4]، ثم ابن أبي دينار بقوله : (وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر الدعوة لبني العباس وورد عليه عهد من الإمام القائم بأمر الله العباسي وفي سنة أربعين وأربعمائة قطع خطبة بني عبيد وقطع بنودهم وأحرقها بالنار)[5]. وأما عن سنة إعلان الانفصال النهائي فإنني أرجح أن تكون هي سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م أي بعد تولي الحسن بن عبد الرحمن اليازوري منصب الوزارة في الدولة الفاطمية والذي تولاه سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م، ذلك لأن اليازوري هو الذي كان وراء الهجرة الهلالية إلى إفريقية، هذه الهجرة التي مثلت رد الدولة الفاطمية على هذا الانفصال كما سيأتي ذكره، ومن المستبعد أن

---

(١) التجاني : المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) التجاني : المصدر السابق ص ٢١ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ .

(٤) ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٣ .

تسكت الدولة الفاطمية وتغفل الرد على المعز لو تم انفصاله النهائي عنها قبل تلك السنة لحين تولي اليازوري الوزارة، ولذلك فإنني أرى أن الروايات التي ذكرت أن ذلك الانفصال تم سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م والتي أشرت إليها آنفاً هي الأقرب إلى الصواب.

ويعلل ابن مقديش الصفاقسي سبب هذا التدرج في الانفصال بقوله : (ولم يبق المعز من آثار بني عبيد إلا أسماءهم على السكة والبنود فسأله أبو عمران الفاسي عن ذلك فاعتذر بالخوف على الحجاج لبيت الله الحرام والمسافرين يعني لو أزال ذلك من السكة، إما بقتل أو أخذ مال أو منع الطريق أو غير ذلك)[١]. وكانت طوال تلك الفترة تدور حرب باردة بين الطرفين تتمثل في رسائل التهديد من قبل الفاطميين للمعز، ومحاولة إثارة المتاعب في وجهه، وردود تفاخر واستعلاء من المعز[٢]. ولم يتأخر رد الفاطميين على المعز فرموه بالأعراب الهلالية[٣].

---

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٣١ .

(٢) من ذلك ما ذكره ابن مقديش (المصدر السابق ورقة ١٣١) والوزير السراج (ج ١ ق ٤ ص ٩٤٠) من أن المستنصر الفاطمي أرسل إلى المعز رسالة جاء فيها : (هلا اقتفيت أثر آبائك في الطاعة والولاء) فرد المعز عليها برسالة جاء فيها : (إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملك أسلافك ولهم عليهم من الجرم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموهم بأسيافهم).

(٣) أطلق على هؤلاء الأعراب اسم الهلالية من باب تسمية الكل باسم الجزء لشهرته والحقيقة أنهم كانوا ينتمون إلى قبيلتين من قبائل الحجاز هما هلال التي كانت تسكن جبل زغوان بالقرب من الطائف وسليم التي كانت تقيم بالقرب من المدينة. وأغلب الظن أن الصفات المشتركة كانت تجمع بينهما وعززت ذلك أواصر المصاهرة بينهما بحيث تحولت إلى تماسك حيوي ومصيري فكانتا معًا في الحل والترحال حتى نسبهما العديد من المؤرخين إلى أصل واحد. وقد انضمتا إلى القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري وارتحلتا مع قواتهم إلى الشام، وحينما وقع الصدام بين القرامطة والفاطميين والذي انتهى بهزيمة القرامطة، أعجب الخليفة العزيز بالله الفاطمي بشجاعة الهلالية فرغبهم في الإقامة بمصر ليستفيد منهم في حروبه فأسكن قسماً منهم في الصحراء الشرقية والقسم الآخر في الصعيد، ولكنهم لم يخلدوا للسكنية والعيش بسلام فكانوا كثيراً ما يعتدون على جيرانهم ويعيثون الفساد في النواحي المجاورة لهم حتى تسببوا في كثير من المتاعب للفاطميين وكان بعد ذلك ما كان من أمر هجرتهم إلى إفريقية (انظر د.عبدالله علام : الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص ٢٠٢ حاشية ١)

هجرة الأعراب الهلالية إلى إفريقية و آثارها :

كان أسلوب الفاطميين في الانتقام من المعز بن باديس أسلوباً فذا حيث إنهم حققوا أكثر من هدف دون أن يكلفهم ذلك شيئاً، فقد أشبعوا رغبتهم في الانتقام، كما تخلصوا من شر هؤلاء الأعراب الذين طالما أزعجوهم بإعاثتهم الفساد في صعيد مصر، ولعل ذلك كان هو المكسب الرئيسي للفاطميين، فأغلب الظن أنهم كانوا يعلمون مسبقاً أن هؤلاء الأعراب لن يعيدوا إفريقية لهم، وأغلب الظن أيضاً أنهم كانوا يعلمون ما ستؤول إليه الحال فيها من التسيب والفوضى لما عرفوه عن هؤلاء من عدم الانضباط وتعلقهم بالنزعة الاستقلالية. ومن أهم ما يلاحظه الباحث حول موضوع هذه الهجرة هواختلاف المؤرخين في الوزير الفاطمي الذي كان وراءها، إذ يذكرابن عذارى أن هذا الوزير كان الجرجرائي الآنف الذكر الذي ينسب إلى بلدة جرجرايا بالعراق(١)، ويؤيده في ذلك كل من ابن الخطيب(٢)، وابن الشماع(٣)، في حين يستبعد ابن خلدون أن يكون الجرجرائي ويرى أ نه الحسن بن عبد الرحمن اليازوري(٤)، ويؤيده في ذلك ابن مقديش الصفاقسي(٥)، بينما يذكر التجاني اعتماداً على رواية ابن بسام في الذخيرة أنه الجرجرائي ولا يستبعد في نفس الوقت أن يكون اليازوري اعتماداً على أن الجرجرائي توفي في سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م أي قبل تلك الهجرة بحوالي سبع سنوات(٦)، ويؤيده في ذلك الوزير السراج ويكرر نفس القول تقريباً(٧)، وهنالك روايات أخرى وردت في بعض المصادر التاريخية تحمل في طياتها التناقض مثل رواية ابن أبي دينار الذي يعتقد أنه اليازوري ولكنه يضيف أنه قد قال يوماً لجلسائه أثناء فترة تردد الرسائل بين المعز والوزير الفاطمي : (ألا تعجبون من صبي بربري

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٤ .
(٣) ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٨٤ .
(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٤ .
(٥) ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٣٥ .
(٦) التجاني : المصدر السابق ص٢١ – ٢٢ .
(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص٩٤٣ .

مغربي يحب أن يخدع شيخاً عربياً عراقياً؟)[(١)]، ويذكر ابن أبي الضياف رواية مشابهة لها[(٢)]، والتناقض في هاتين الروايتين – إن صحتا – واضح، إذ من غير الممكن أن يصدر مثل هذا القول عن اليازوري لأنه ليس بعراقي، فيازور التي ينتسب إليها هي بلدة بفلسطين قريبة من الرملة[(٣)]، والذي أراه واستناداً إلى ما سبق أن رجحناه من أن انفصال المعز عن الفاطميين كان تدريجياً، أنه ليس من المستبعد أن يكون كلا الوزيرين قد اشتركا في دفع الهلالية للهجرة، بأن يكون الجرجرائي قد فكر في الخطة وربما شرع في إجراء الاتصال مع الأعراب الهلالية لتنفيذها فحالت وفاته دون ذلك فنفذها اليازوري من بعده.

وثمة ملاحظة ثانية على هذه الهجرة هي تحديد الزمن الذي وصل فيه الهلالية إلى إفريقية، فقد ذكر أبو الفدا أن ذلك كان في سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠[(٤)] في حين يرى ابن عذارى[(٥)]، وابن خلدون[(٦)]، أن ذلك تم في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م، ومع أنني أرى القولين الأخيرين هما الأصح لأن اليازوري تولى منصب الوزارة سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م كما سبق أن ذكرناه، إلا أن علاقة العرب الهلالية بإفريقية تعود إلى ما قبل هذا التاريخ بكثير، فقد كان قسم منهم موجوداً في برقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري كان قد بعث بهم الحاكم بأمر الله مع يحيى بن علي بن حمدون حينما أرسله والياً على طرابلس، وعندما عاد علي إلى مصر استقر هؤلاء ببرقة، ثم لم يلبثوا أن انقلبوا على الدولة الفاطمية فاشتركوا في ثورة أبي ركوة سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م وكان ممن اشتهر من بطونهم في تلك الثورة بنو قرة[(٧)] الذين شاركوا أيضاً في الهجرة الهلالية إلى إفريقية فيما بعد. ومنذ استقرار هؤلاء في برقة أخذوا يغيرون على أطراف إفريقية الشرقية كلما واتتهم الفرصة فيعيثون فيها الفساد، وقويت شوكتهم فثاروا على والي برقة الفاطمي وتمكنوا من طرده منها، وعندما استنجد بهم فلفل

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٨٤، انظر كذلك التجاني : المصدرالسابق ص١٩ .

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص١٧٣ .

(٣) انظر ياقوت : المصدر السابق ج٥ ص٤٢٥ .

(٤) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص١٧٠ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٨٨ .

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٤ .

(٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٧ .

ابن سعيد لمساعدته في حروبه ضد بني زيري أنجدوه، وتجرأوا في سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م على نهب هدية كان قد أرسل بها باديس إلى الحاكم بأمر الله، وظلوا على هذه الحال من عدم الانضباط حتى قدم إخوانهم الهلالية من مصر عليهم في طريقهم إلى إفريقية فانضموا إليهم وكان من رؤسائهم في تلك الفترة ماضي بن مقرب (١)، وليس من المستبعد وجود اتصال بين هؤلاء وقومهم حينما كانوا في مصر وربما كانوا قد أطلعوهم على أوضاع إفريقية وزينوا لهم الهجرة إليها. وأياً كان الأمر فإن هذه الهجرة كانت على أكثر من دفعة، إذ أن الدفعة الأولى وصلت إلى حدود إفريقية الشرقية وأقامت بها ريثما تستطلع أحوالها وكتب زعماؤها لإخوانهم في مصر يستدعونهم للحاق بهم (٢)، فلبى قسم كبير منهم هذه الدعوة، ويبدو أن موجات منهم أقل عدداً من الموجتين الأوليين قد توالت على إفريقية بعد ذلك، خاصة بعدما ظهروا على الدولة الزيرية إذ يذكر ابن عذارى أنه في سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م وصلت دفعة منهم إلى إفريقية ونزلت حول القيروان وما والاها (٣).

أما الملاحظة الثالثة فهي مبالغة العديد من المؤرخين القدامى والمحدثين في إبراز الدور السلبي لهذه الهجرة (٤) وإغفال الدور الإيجابي لها. فهم يعزون خراب إفريقية وما شاع فيها من الفوضى لهذه الهجرة حتى شبههم حسن حسني عبد الوهاب بقبائل الهون (٥) التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي، والحقيقة كما أراها أنه كان لهذه الهجرة آثار سلبية وأخرى إيجابية، أما بالنسبة لسلبياتها فإنها وإن كانت عديدة، إلا أن مسؤوليتها لا تقع على كاهل الهلالية وحدهم، فالفوضى السياسية والاجتماعية والتدهور الاقتصادي كانت

---

(١) الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص٢٠٩ .

(٢) ابن الشماع : المصدر السابق ص١٨٥ – ١٨٦ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٠ .

(٤) انظر على سبيل المثال ابن خلدون (ج٦ ص١٤) حيث يقول : إنهم كانوا (كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه)، ويقول (ج٦ ص١٥٩) : (وانتزى البوار بالبلاد) ويكرر مثل هذين القولين في عدة مواضع من تاريخه، ثم ابن الخطيب (أعمال الأعلام ق٣ ص٧٥) الذي يقول عنهم : (وحسبك بدخول القيروان شهرة ووقيعة شنيعة)، وابن الشماع (ص١٨٣) الذي يقول عنهم : (... لأن هذه المفسدة ببلاد إفريقية فاشية منتشرة من هؤلاء الأعراب الذين ليس لهم في الإسلام إلا مجرد القول والاسم والله حسيب من كان السبب في دخولهم إفريقية).

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٢٥٩ .

كلها موجودة في إفريقية قبل دخول الهلالية إليها، وخير دليل على تلك الفوضى السياسية التي كانت فيها هي تلك الفتن والثورات التي أشرنا إليها فيما مضى والتي شملت نواحيها والتي لا يمكن أن تكون دليل صحة، ثم إن الموجات البشرية التي تهاجم دولاً قائمة ليس من السهل أن تتغلب عليها إذا كانت تلك الدول متماسكة قوية البناء، أما إذا كانت الآفات قد نخرتها فلا يتعدى دور مهاجميها كونهم السبب الظاهر في انهيارها فقط، وتنطبق هذه القاعدة على إفريقية إبان الهجرة الهلالية إليها، إذ أن عدد محاربي الهلالية الذين اشتبكوا مع جيش المعز في موقعة حيدران ثاني أيام عيد الأضحى سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥٢م (١) والتي كانت أكبر المعارك التي دارت بين الجانبين لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف محارب فقط، في حين تذكر معظم المصادر التاريخية أن جيش المعز كان يتألف من ثلاثين ألف جندي (٢)، ومع ذلك انتصر الهلالية فيها على المعز انتصاراً حاسماً، فلم يغلب هذا الجيش من قلة وإنما للخور والضعف الذي كان قد استحكم في الدولة وفي جيشها وقد عبر علي بن رزق الرياحي عن ذلك أصدق تعبير بقوله :

وإن ابن باديس أفضل مالك ... لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألف منهم قد هزمتهم ... ثلاثة آلاف وذاك ضلال (٣)

وقد أدت هذه الفوضى السياسية إلى تخلخل اجتماعي واضح في إفريقية، إذ اتسعت الهوة بين الطبقة الحاكمة المتحالفة مع المشارقة الشيعة والطبقة الوسطى التي كانت تسعى لتحسين وضعها فوجدت أنه من الأفضل لها التحالف مع عامة الشعب، لذلك لم تكن الثورة على الشيعة في مطلع عهد المعز ثورة مذهبية فقط، وإنما كانت أيضاً مظهراً لثورة الطبقة

---

(١) انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٩١، أما التجاني (المصدر السابق ص١٨) فيقول : إن تلك المعركة جرت سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م.

(٢) انظر التجاني : المصدر السابق ص٢٠ . وينفرد ابن عذارى (ج١ ص٢٩١) عن المصادر الأخرى التي أجمعت على هذا العدد برواية جاء فيها أن عدد الفارين من جيش المعز بعد المعركة فقط كان (٨٠) ألف جندي وأعتقد أن في ذلك مبالغة واضحة.

(٣) انظر التجاني : المصدرالسابق ص٢١، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٠٠ ويورد البيت الثاني باختلاف طفيف، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٥، ابن الشماع : المصدر السابق ص١٨٥ - ١٨٦ .

الوسطى وعامة الشعب على الطبقة الحاكمة (الأرستقراطية)[1] نظراً للجور الاجتماعي الذي كانت تعاني منه، بدليل أنها استغلت تلك الثورة لتعمل النهب في أملاك الأغنياء وحرق الأسواق في المنصورية كما ذكرنا. ثم إن المؤسسة العسكرية في الدولة الزيرية كانت هي الأخرى في حالة تدهور واضح بعد أن سار أمراء بني زيري خطوات واسعة في سبيل إلغائها وإحلال جنود من العبيد السود محلها حتى بلغ عدد مماليك المعز من هؤلاء السود ثلاثين ألفاً مما أثار تذمر هذه المؤسسة وجعلها غير راضية عن هذا الوضع. حتى العصبية الصهناجية التي كان من المفروض أن تكون دعامة الحكم الرئيسية في الدولة الزيرية كان المعز يعمل على إلغائها، يقول ابن عذارى في ذلك : إن المعز كان (كارهاً لإخوانه صنهاجة، محباً للاستبدال بهم، حاقداً عليهم) [2]، حتى إنه حينما وصل هؤلاء الهلالية إلى حدود إفريقية عمل على الاستفادة منهم وإلحاقهم بخدمته (للاستغلاظ بهم على نواحي بني عمه)[3]، فقرب مؤنس ابن يحيى الرياحي أحد رؤسائهم (واستخلصه لنفسه وأصهر إليه)[4]، وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنه كان من الطبيعي أن تتسبب الفتن والثورات العديدة التي اجتاحت البلاد في كثير من الأمراض والآفات الاجتماعية الأخرى.

أما اقتصاد إفريقية فكان هو الآخر يعاني من أزمات خطيرة كانت تهدد بانهياره، إذ لم يكن من المنتظر ازدهار زراعة أو صناعة أو تجارة في ظل وضع سياسي غير مستقر، وهذا ما تؤكده الوثائق التاريخية المعاصرة للفترة التي سبقت دخول الهلالية، فحركات الجيوش وهجمات الثوار في تلك العصور كانت بلا شك تتسبب في إتلاف المزارع وهجر أصحابها لها، كما كانت تتسبب في قطع الطرق التجارية أو عرقلة الحركة التجارية على الأقل، كما أن تدفق الذهب من قلب القارة عبر إفريقية الذي كان يدر عليها مبالغ طائلة كان هو الآخر في طريقه إلى التوقف منذ أن عمل أمويو الأندلس على تنشيط طريقه عبر

---

(١) ج. بونصي : أسطورة الكارثة الهلالية، تقديم المنصف الشنوفي، حوليات الجامعة التونسية، العدد الخامس سنة ١٩٦٨، ص ١٣٦ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٨٨ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٤، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص١٨ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٤، انظر التجاني : المصدر السابق ص١٨ .

المغرب الأقصى وجعله الطريق الرئيسي له، وبدء إفلات المحور الجريدي الخاضع لنفوذ الخوارج والمتحكم في الطريق الإفريقي له شيئاً فشيئاً من السيطرة الزيرية [1]، لذلك فإن الحياة الإقتصادية في إفريقية كانت في وضع سيئ وهذا ما تؤكده وثائق الجينيزا (Geniza) التي عثر عليها في القاهرة، والتي درسها غويتان (S. d. Goitan) ونشر نتيجة هذه الدراسة في عدة مقالات حيث يقول : (أفكر في تلك المقاطع من رسائل القيروان التي تبكي سقوط المغرب الإسلامي العام في ثلاثينات وأربعينات القرن الحادي عشر قبل اجتياح الأقوام البدوية الحجازية بزمن طويل على حين نستطيع في مطلع القرن الحادي عشر قراءة ملاحظات فخورة عن حالة القيروان المزدهرة)[2]، وقد حاول المعز التغلب على الأزمة المالية والاقتصادية التي كانت تمر بها إفريقية قبيل دخول الهلالية باللجوء إلى تخفيض العملة، فعندما انفصل عن الفاطميين جمع العملة التي كانت متداولة والمضروبة باسم الخليفة الفاطمي وأعاد صهرها وضربها من جديد ولكنه خفض قيمة الدينار بمقدار الربع من قيمته الأصلية [3] محتفظاً بالفرق لنفسه، ومن المعروف أن تخفيض العملة هو إجراء تلجأ إليه الحكومات إبان الأزمات الإقتصادية. وليست مظاهر الأبهة الزيرية من إنفاق الأموال بسعة والحفلات الفخمة والصلات الجزيلة التي كان يغدقها الزيريون دليلاً على الرخاء والازدهار، بل كانت كما يقول بونصي تهدف إلى استمالة الأنصار وإبهار العامة واستبدال عناصر الجند البربرية بالعبيد السود[4]، وكانت أموال المصادرات تشكل جزءاً هاماً من الدخل الذي كان ينفق في هذه الوجوه.

وأما الخراب والدمار الذي حل بإفريقية من جراء الهجرة الهلالية إليها فلا يتحمل وزره هؤلاء وحدهم، وإنما يقاسمهم في ذلك جل قواد الدولة الزيرية بل وبعض أمرائها أنفسهم، فإثر هزيمة جيش المعز في موقعة حيدران فضل معظم قواد جيشه اللجوء إلى

---

(١) ج. بونصي : المرجع السابق ص١٣٦ .

(٢) انظر د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص١٥٧ .

(٣) ج. بونصي : المرجع السابق ص١٣٨، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٧٨ – ٢٧٩، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١ ص٤٤٦ وما بعدها.

(٤) ج. بونصي : المرجع السابق ص١٣٧

المغامرة والنهب على العودة إلى الخدمة لديه، وحينما رأى العامة ذلك اقتدوا بهم [١]، حتى إن المعز نفسه شجع على ذلك أحياناً، يقول ابن عذارى في ذلك : إن المعز بعد تلك المعركة أمر (كافة الناس بانتهاب الزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة والمنصورية فَسُرَّ المسلمون بذلك وحسبوها من أرزاقهم وكان ما قدر الله من فسادها وأكل البهائم لها)[٢]، كذلك يذكر أنه كان هو الذي تسبب في خراب صبرة، ذلك أنه حينما اقترب الهلالية من القيروان أمر (أن ينتقل عامة أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان، ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة، وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة، وينزلوا في حوانيتها وأسواقها، فارتج البلد لذلك، وعظم الخطب، واشتد الكرب، ومد العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها، واقتلعوها، وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة)[٣]، ويذكر في موضع آخر أن تميم بن المعز هو الذي تسبب في خراب أراضي سفاقس الزراعية المعروفة بالغابة حينما حاصرها سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م إذ يقول (... وعاث عسكره في أجنتها المعروفة بالغابة، وأفسدوها)[٤]، ومن يتتبع مصادر التاريخ الإسلامي التي تعرضت لهذه الفترة يجد الكثير من الأمثلة على ذلك.

كما أن تردي أوضاع إفريقية وتمزقها إلى عدة كيانات في ظل هذه الهجرة لم يكن الهلالية السبب الوحيد فيه، إذ أن ذوي الأطماع والنزعة الاستقلالية وكانوا كثيرين استغلوا انهيار الدولة الزيرية أمام الهلالية واستقل كل منهم بناحيته، فمن بين الإمارات العديدة التي قامت في إفريقية في ذلك الوقت لم تكن للهلالية منها إلا إمارة واحدة فقط هي إمارة بني جامع في قابس، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن بعض حكام هذه الإمارات يتحملون مسؤولية كبيرة في خلق هذا الوضع والإبقاء عليه مخيماً على البلاد سواء كان ذلك بوعي منهم أو بلا وعي، ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا في الهلالية جنوداً مرتزقة فقط فكان كل منهم وهم الذين أسهموا بنصيب وافر في تمزيق إفريقية أصلاً، يسعى لمحالفة فريق منهم لمساعدته

---

(١) ج. بونصي : المرجع السابق ص١٣٩ – ١٤٠ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٩١ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٩١ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٠ .

في تنفيذ مشاريعه ضد الآخرين فاستعان بنو حماد بفريق منهم على قتال المعز ولما يمض على دخولهم إفريقية إلا فترة وجيزة، ووضح هذا الإتجاه في عهد الناصر بن علناس الحمادي الذي استعان بعدة بطون منهم في حربه ضد تميم بن المعز سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م (١)، كما استعان بهم حمو بن مليل البرغواطي صاحب سفاقس في قتاله لتميم أيضاً (٢)، ولم يتورع تميم هو الآخر عن الاستعانة ببعض بطونهم خاصة بني رياح في معظم حروبه وغير هؤلاء الأمراء كثير حتى سرت عدوى داء الفرقة إلى صفوف الهلالية أنفسهم فدب بينهم الخلاف وفرقهم كتلاً بعد أن كانوا قد دخلوا إفريقية وكلمتهم مجتمعة، ذلك أن الهلالية لم يكونوا جيشاً تحكمه قواعد الضبط والربط العسكري وإنما كانوا مجموعة بشرية غير منظمة وبالتالي كان لا بد أن يشيع بين أفرادها بعض الصفات السلبية كما هو الأمر بالنسبة لمثيلاتها من الهجرات البشرية، فقد كان يَتحكم في أفرادها الشعور بالندية كل منهم تجاه الآخر، وتهوى نفوسهم الحرية الفردية، فما من قوة تلزم الفرد منهم على القيام بعمل يكرهه أو الامتناع عن عمل يريده، له قسط كبير من حرية الخيار في أن يقبل أو يرفض أي قرار لرئيس عشيرته لا يوافق هواه أو مصلحته، لذلك فدخول هذه المجموعة التي لم يكن يحكمها الانضباط إلى إفريقية التي كانت أصلاً سيئة الأوضاع كان عاملاً مساعداً على زيادة تردي تلك الأوضاع ولم يكن السبب الوحيد في هذا التردي الذي أصابها في ظل تلك الهجرة.

وبناء على ما تقدم، فإنني أعتقد أن رأي ج. بونصي المتمثل في قوله بأنه ليس لبني هلال يد في الكارثة التي حلت بإفريقية والتي نسبت إليهم خطأ، بل إن هذه الكارثة كانت نتيجة حتمية لانهيار اقتصادي واجتماعي وسياسي ترجع أصوله إلى ثلاثة أرباع القرن قبل هجرتهم إليها وأنهم انتفعوا من وضع لم يتسببوا فيه(٣) هو الأقرب إلى الصواب. ويبدو أن بعض المؤرخين المحدثين أخذ بأقوال بعض المؤرخين القدامى مثل ابن عذارى والتجاني وابن خلدون وابن الخطيب وابن الشماع الواضحي التحامل على الهلالية كحقيقة مسلّم بها بدون تمحيص، وقبلوها على علاتها مع أن أياً منهم لم يعاصر حوادث تلك الهجرة ومنهم

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٤٤ – ٤٥ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٩٩ .
(٣) ج. بونصي : المرجع السابق ص١٤٠ .

من نقل عن مؤرخين سبقوه كانوا يتولون مناصب رسيمة في البلاط الزيري، ومؤرخون هذا شأنهم ينبغي أخذ أقوالهم بحذر شديد لأنهم يجاملون أمراءهم كثيراً على حساب الحقيقة التاريخية، هذا بالإضافة إلى أن ابن خلدون وابن الخطيب وابن الشماع على سبيل المثال كانوا متأثرين بأعراب عصرهم، فموقف ابن خلدون من الأعراب معروف، وقد أقحم ابن الشماع موضوع أحكام الحرابة الذي دون فيه آراءه عن الهلالية إقحاماً على كتابه بغية تأييد سلطانه أبي عمرو عثمان الحفصي على ما يبدو كما سبق أن ذكرنا، الذي كان يواجه فتناً ومشاكل داخلية عديدة كان الأعراب الهلالية طرفاً في بعضها وتنفير الناس منهم، وحكم هؤلاء لا يتفق وحكم العديد من المؤرخين والرحالة الذين تقدموهم والذين كان منهم من عاصر الحوادث المعنية[1].

وأما إيجابيات هذه الهجرة فتتمثل في عدة وجوه أهمها أنها أمدت إفريقية بدماء فتية ومحاربين كانوا لا يزالون يحتفظون بشجاعة وخشونة البادية وكانت في حاجة ماسة إليها في صراعها المقبل مع الحركة الصليبية، فكانت بهم أقدر على مواجهة قوى العدوان، كما أن منهم من أسهم في حفظ النظام في إفريقية في تلك الفترة الحرجة من تاريخها خاصة بنو رياح الذين أصبحوا بعد محالفتهم لتميم بن المعز سنداً قوياً لأمراء بني زيري في وجودهم لحفظ الأمن في إمارتهم بل وفي توسيع رقعتها، ثم إن منهم من أسهم في إعادة النشاط الاقتصادي لبعض مدن إفريقية مثل مدينة قابس التي شهدت في عهد أمرائها من بني جامع الهلالية نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً، يقول شارل أندري جوليان في ذلك : (وهضمت قابس أسيادها الجدد من بني جامع الهلاليين (سنة ١٠٩٩م) الذين ساروا حتى غزوة النورمان سيرة رؤساء الحضر همهم ضمان الازدهار الاقتصادي لممتلكاتهم، وغايتهم تحسينها. وظلت زراعة النخيل على عنفوانها واستبقت التجارة المحلية حيويتها)[2]، وأخيراً وليس آخراً دورها في استكمال تعريب المغرب العربي[3].

---

(١) انظر ج. بونصي : المرجع السابق ص١٣٤ .

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤١ – ١٤٢ .

(٣) انظر عن ذلك شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ج٢، ص٩٧ وما بعدها، كذلك

M. M. A. Basset : Op. Cit., p.87 - 88.

خلاصة القول، إن هزيمة المعز بن باديس في موقعة حيدران ثم رحيله عن القيروان بعد أن أدرك عجزه عن الدفاع عنها ولجوئه إلى مدينة المهدية الحصينة سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م وانزوائه فيها (أسقط من الشمس في الميزان، وأهون من الفقير على القيان)[١]، ثم وفاته بعد ذلك بفترة وجيزة في سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م الأمر الذي أزال بقية هيبة الدولة الزيرية من النفوس إن كان قد بقي منها شيء، حتى إن ابنه وخليفته تميم لم (يكن له إلاّ ما ضمّه السور)[٢] أي مدينة المهدية فقط، الأمر الذي خلق في إفريقية وضعاً أشبه ما يكون بوضع الأندلس إثر سقوط الخلافة فيها، إذ قام فيها هي الأخرى ملوك طوائف كالأندلس، فغلب حمو بن مليل البرغواطي على سفاقس، وأعلنت سوسه حكومة شورى فيها [٣]، وانفرد بنو خزرون بطرابلس، وبنو الرند بقفصة، وبنو الورد ببنزرت [٤]، واستبد عبد الحق بن خراسان بتونس، وكان قد أرسله الناصر بن علناس الحمادي والياً عليها من قبله فخلع طاعته [٥]. وتغلب بنو جامع على قابس[٦]، واستقلت جربة وأظهر أهلها العناد وأنشأوا مراكب يقطعون بها السبل في البحر[٧]، ومن هؤلاء من ضرب النقود باسمه[٨]، وحيال هذا الوضع

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٢٩٧، انظر أيضاً التجاني : المصدر السابق ص١٨ .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٥٩ – ١٦٠، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٦، أبو الفدا : المصدر السابق ج٢ ص١٨٠، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٦ .

(٣) التجاني : المصدر السابق ص٢٨ – ٢٩، الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ق٢ ص٣٠١، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٣٦ .

(٤) ابن خلدون : المصدرالسابق ج٦ ص١٦٩، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١ ص٤٤٩ – ٤٥٠ .

(٥) ابن خلدون : المصدرالسابق ج٦ ص١٥٩ .

(٦) ابن خلدون : المصدرالسابق ج٦ ص٤٢٠ – ٤٢١ .

(٧) ابن خلدون : المصدرالسابق ج٣ ص٢٠١، انظر كذلك البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق البارون دي سلان، ص١٩ و ٨٥، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٦، محمد بوراس الجربي : المصدرالسابق ص٦٦ وما بعدها.

(٨) من هؤلاء حمو بن مليل البرغواطي وخليفته وتوجد نماذج لعملتهما في متحف باردو بتونس، كذلك رشيد بن كامل أمير قابس من بني جامع والذي عرفت نقوده بالرشيدية ويوجد نموذج منها بأحد متاحف إسبانيا (انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١ ص٤٤٩ – ٤٥٠، كذلك أحمد بن عامر : المرجع السابق ص٣٨ – ٣٩).

رأى أمراء المهدية الزيريين أن الاتجاه إلى البحر أسلم عاقبة لهم، فبدأوا في إنشاء بحريتهم، ولكن ظروف البحر الأبيض المتوسط كانت قد تغيرت لصالح القوى الأوروبية وكان ذلك التغير هو النذير ببدء الهجوم الصليبي على الجناح الغربي من العالم الإسلامي الذي بدا منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) ممزق الأوصال معدوم الترابط ومهيض الجناح، كل قطر من أقطاره لديه من المشاكل ما يكفيه وهذا ما كانت تنتظره الحركة الصليبية لبدء هجومها الكبير.

الهجوم الصليبي في الغرب :

بدأ هذا الهجوم الثلاثي الاتجاه منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) في ثلاث جبهات هي الأندلس وصقلية وإفريقية في آن واحد تقريباً، وقد توزعت القوى التي قامت به الأدوار في هذا الصراع ولكن مع الإبقاء على قدر كبير من التنسيق فيما بينها ومساندة بعضها البعض كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت البابوية الزعيم الروحي للحركة الصليبية تسهم بنصيب وافر في هذا التنسيق وتوفير الدعم المعنوي وأحياناً المادي لهذه القوى في صراعها مع المسلمين، ويبدو للمرء للوهلة الأولى أن كلاً من هذه القوى كانت تعمل منفردة ولحسابها الخاص، ولكنه عندما يلقي نظرة أعمق لكشف بواطن الأمور يتبين له مدى الترابط الوثيق بينها وأنها كلها وضعت نفسها في خدمة الحركة الصليبية يحدوها هدف رئيسي واحد هو ضرب المسلمين أينما وجدوا والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من بلادهم، فكانت في وضعها ذاك أشبه بروافد تصب في نهر واحد، وهذا يقودنا إلى حقيقة هامة هي وجوب الربط بين مختلف التيارات والقوى والاتجاهات الصليبية في كافة جبهات الصراع الإسلامي الصليبي عند دراسة أحد أدوار هذا الصراع في أي جبهة منها لأنها لا تعدو كونها صوراً لأصل واحد وإن اختلفت أحياناً في الرتوش على عكس ما يحاول بعض مؤرخي الغرب من تجريد الهجوم في بعض هذه الجبهات من صفته الصليبية. وبناء على ذلك تجدر الإشارة إلى الهجوم الصليبي على كل من الأندلس وصقلية كمدخل للهجوم على إفريقية كون هاتين الجبهتين سبقتا إفريقية في تلقي الضربات الصليبية.

أ – الأندلس :

كان انهيار الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد حدثاً خطيراً في تاريخ المسلمين في الأندلس، وزاد من خطورته أن ذلك تم في وقت كان فيه الوجود المسيحي القوي في شمال شبه جزيرة إيبريه قد أصبح حقيقة فقد كانت للمسيحيين هنالك أربع دويلات [1] يتقد شعبها حماساً لقتال المسلمين تدعمه أوروبا الغربية بأسرها وترفع من معنوياته وتنفخ فيه الروح الصليبية، وقد آلت زعامة هذه الدويلات في مطلع ذلك القرن إلى مملكة نفارة التي استطاع ملكها سانشو Sancho (شانجة) (سنة ٩٨٠ –سنة ١٠٣٥م) توحيد قسم كبير من إسبانيا المسيحية ويخضعها لسلطانه، وبدأ يتأهب للهجوم على المسلمين أطمعه في ذلك ما آل إليه أمرهم من الضعف والفرقة في ظل ملوك الطوائف، وقد بدأت المساعدات تتوالى من أوروبا عليه وعلى سواه من حكام النصارى الإسبان استعداداً لهذا الهجوم، فقد قدمت في سنة ١٠١٨م مجموعة من المحاربين ومعهم أتباعهم لحرب المسلمين. وفي سنة ١٠٣٣م عبرت جبال البرتات إلى إسبانيا جماعة أخرى بقيادة بعض أمراء برجنديا [2] وهكذا توالت المساعدات على المسيحيين وأخذوا يستعدون لبدء الهجوم، ولكن وفاة سانشو حالت دون ذلك، كما أن تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة والنزاع الذي دب بينهم أنقذ المسلمين من خطر محقق [3]، وكانت قشتالة من نصيب ابنه فردناند الأول الذي كان لا يقل طموحاً عن أبيه فأخذ يهاجم إمارة سرقسطة، وعندما ضم إليه مملكة ليون القديمة بدأ يتوسع وبسرعة كبيرة في حوض نهر دورو[4]، وكانت المساعدات تتوالى عليه من أوروبا خاصة عندما أعلن البابا الإسكندر الثاني (١٠٦١ – ١٠٧٣م) قبول التوبة من جميع الذين يخوضون الحرب ضد مسلمي الأندلس وكاد أن يمنحهم الغفران[5]، فعبرت

(١) هي مملكتا ليون ونفارة وكونتيتا برشلونة وقشتالة.

(٢) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٧٢ – ٧٣، انظر عن هذا الموضوع أيضاً ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص٦٨ وما بعدها.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٩ وما بعدها.

(٤) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٥٤٣ .

(٥) James A. Brundagr : Holy War in the Medieval Ages, p.119.

مجموعة ضخمة من المحاربين إلى إسبانيا من فرنسا سنة ١٠٦٣م، وفي العام التالي جاءت حملة أخرى من إقليم نورماندیا بتحريض البابا المذكور لإنقاذ مملكتي أرغونة ونفارة من الخطر الإسلامي بعد معركة جرادوس (Gradus) سنة ١٠٦٣م التي انتصر فيها المقتدر بن هود أمير سرقسطة عليهما فكانت تلك المعركة كارثة على كلا المملكتين، وقد استولت هذه الحملة على قلعة بربشتر (Barbastro) سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م وارتكبت في مسلميها أبشع الفظائع[١]، وبدلاً من أن يتنبه ملوك الطوائف لهذا الخطر الذي أخذ يحدق بهم فيوحدوا جهودهم لمواجهته، أسرع كثير منهم لاتقائه بدفع الجزية إلى فردناند مثل ابن هود صاحب سرقسطة وابن ذي النون صاحب طليطلة[٢] والمعتضد بن عباد صاحب أشبيلية، وقد كانت وفاة فردناند في سنة ١٠٦٥م وتقسيم مملكته هو الآخر بين أبنائه وانشغالهم بخصوماتهم ومحاربتهم بعضهم البعض[٣] فرجاً للمسلمين ولو بصفة مؤقتة[٤]، وبعد صراع مرير بين هؤلاء الورثة تمكن ألفونسو السادس من التغلب على باقي إخوته وإعادة توحيد القسم الأعظم من مملكة أبيه تحت سلطانه.

كان ألفونسو (الفنش أو الادفونش) لا يقل طموحاً عن أبيه وجده، فبعد أن فرغ من حروب الوراثة ضد إخوته، بدأ في شن هجومه الكبير على المسلمين يساعده في ذلك أمران هما دعم أوروبا الغربية والبابوية له من ناحية، ووضع ملوك الطوائف المزري من ناحية ثانية، وكانت خطته التي وضعها لتحقيق هدفه تقوم على دعائم ثلاث رئيسية، أولها : إذكاء نار الفتنة بين ملوك الطوائف ومساعدة كل منهم في نزاعه مع الآخر فربطهم كلهم بعجلته حتى كانوا يتسابقون في التقرب إليه[٥]، وثانيها : ابتزاز أموالهم مقابل تلك المساعدات التي كان

---

(١) ابن الكردبوس : المصدر السابق ص٦٩ حاشية ٢، ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ (القسم الخاص بالموحدين) ص٢٢٥، ابن الأبار : الحلة السيراء ج٢ ص٢٤٧ .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٤ ص١٨٢، ولمزيد من التفصيل انظر محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص٧٢ وما بعدها.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر يوسف أشباخ : المرجع السابق ص٢٠ وما بعدها، كذلك ابن الكردبوس : المصدر السابق ص٧٦ حاشية ٢ و ٣ .

(٤) انظر ابن الكردبوس : المصدرالسابق ص٧٣ – ٧٤، كذلك ابن الأثير : المصدرالسابق ج١٠ ص١٢٢ .

(٥) يقول ابن الكردبوس في ذلك : (فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناوئيهم بأنجاد=

يقدمها إليهم علاوة على الجزية السنوية التي كانوا يدفعونها إليه[1]، اتقاء لشره حسب اعتقادهم وهدفه من ذلك إضعافهم وتدعيم قوته بتلك الأموال، وثالثها : تخريب أراضيهم وانتساف زروعهم ومحاصيلهم وأقوات رعاياهم بالغارات المخربة الناهبة حيث يقوم بعد ذلك باقتطاع حصونهم ومدنهم الواحدة تلو الأخرى بعد أن يكونوا قد عجزوا عن الدفاع عنها[2]. وكانت إمارة طليطلة هي هدفه الأول فبدأ في مهاجمتها حتى أنهك قواها، وفي سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م زحف إليها بجيش ضخم ضم جموعاً غفيرة من الفرنسيين الذين قدموا إليه في حملة صليبية جديدة بقيادة بعض الأمراء البرجنديين وكونت تولوز[3] وحاصر مدينة طليطلة حتى استولى عليها ودخلها في ٢٧ محرم سنة ٤٧٨هـ / ٢٥ مايو ١٠٨٥م، وقد أحدث سقوطها في يده ضجة كبرى في العالم الإسلامي، وألقى الخوف والفزع واليأس في قلوب الكثير من مسلمي الأندلس[4]، وجاء بعد طليطلة دور إمارة

=الرجال، واللعين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور، وهم في ذلك مشتغلون بشرب الخمور، واقتناء القيان، وركوب المعاصي وسماع العيدان، وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية، متى طرأت من المشرق، كي يوجهها إلى الفنش هدية ليتقرب بها إليه، ويحظى دون مطالبه لديه، إلى أن ضعف من أولئك الطالب والمطلوب، وذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية، وأذعن من بقي منهم خارج الذمة إلى أداء الجزية وصاروا للفنش عمالاً يجبون له الأموال لا يخالف أمره أحد)، ابن الكردبوس : المصدر السابق ص٧٧ .

(١) الضبي : المصدر السابق ص٣١ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٨٦، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص٧٤ وما بعدها، د. عبد الله العروى : المرجع السابق ص١٦٧ .

(٣) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٥٤٢ .

(٤) يقول الأمير عبد الله الزيري في ذلك (مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٠) : إن سقوطها في يد ألفونسو أحدث (في الأندلس رجة عظيمة حتى أشرب أهلها خوفاً وقطع رجاء في استيطانها). ويعبر الشاعر الطليطلي أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال عن هذه الروح الانهزامية بقوله :

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

(ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب ج٢ ص٢١، انظر كذلك د. محمد الطالبي :=

إشبيلية فأرسل يتهدد المعتمد بن عباد صاحبها، وحيال ذلك رأى ابن عباد هو وبعض ملوك الطوائف الآخرين وكبار فقهاء الأندلس ضرورة الاتصال بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في العدوة المغربية والاستغاثة به لإنقاذ بلادهم من هذا الخطر، فلبى يوسف داعي الجهاد وعبر البحر إلى الأندلس في جيش ضخم والتقى بألفونسو في معركة الزلاقة بالقرب من بطليوس في يوم الجمعة ١١ رجب سنة ٤٧٩هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م حيث انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً كان من نتيجته إيقاف المد المسيحي وإنقاذ مسلمي الأندلس من فناء أكيد مما أكسبهم حياة جديدة في بلادهم.

ب – صقلية :

أخذت أوضاع المسلمين في صقلية في التردي منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وقد حاولت الدولة البيزنطية الاستفادة من هذا الوضع للاستيلاء على الجزيرة ولكن محاولاتها التي كانت أشدها خطراً تلك الحملة التي وجهتها إليها في سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م بقيادة أحد ألمع قوادها هو جورج منياس (George Maniaces)[1] باءت كلها بالفشل. وبعزل الحسن الصمصام آخر أمراء الأسرة الكلبية من الحكم سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م[2] اضطربت أحوال المسلمين في تلك الجزيرة (واستولى الأراذل، وانفرد كل

=الهجرة الأندلسية إلى إفريقية ص ٤٨).

(١) عن هذه الحملة انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٣١٠ وما بعدها.

(٢) تولى الحكم في صقلية أمراء من الأسرة الكلبية ولاة للدولة الفاطمية، لكنهم كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال الذاتي وكانوا كلما أحسوا باشتداد وطأة خلفاء الفاطميين عليهم لوحوا لهم بالانفصال عنهم والاعتراف بأمويي الأندلس (انظر عن ذلك ما ذكره ابن الخطيب في أعمال الأعلام ق٣ ص١٢٧ – ١٢٨ عن ما جرى بين جعفر بن محمد الكلبي والعزيز الفاطمي) وفي سنة ٣٨٨هـ أصيب الأمير أبو الفتوح يوسف بن عبد الله الكلبي بالفالج فشلّ جانبه الأيسر وضعف عن الحركة فأناب عنه ابنه جعفر في الحكم فسار في الناس سيرة حسنة وضبط الأمور، وفي سنة ٤٠٥هـ ثار عليه أخوه علي بمساعدة بربر كتامة الذين كانوا قد جاءوا مع ولاة الفاطميين في السابق، فقضى جعفر على الثورة بعنف وقتل أخاه، وكانت تلك الثورة نقطة تحول في سياسته فنفى كثيراً من الثوار إلى إفريقية فكان ذلك أول أسباب ضعف المسلمين في الجزيرة إذ قل فيها الجند (انظر عن ذلك ابن الأثير المصدر السابق ج١٠، ص١٩٤ – ١٩٥) وأساء معاملة الناس فثاروا عليه وحاصروه في قصره ولكن أباه يوسف الذي كان لا يزال حياً خرج إليهم لتهدئتهم فطلبوا منه=

إنسان ببلد)[1] وبدأ فيها هي الأخرى عهد ملوك طوائف شبيه بما جرى في الأندلس، فاستقل عبد الله بن منكوت بمازرة وطرابنش وغيرهما، والقائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس بقصريانة وجرجنت (كركنت) ونواحيهما، والقادر بالله محمد بن الثمنة بسرقوسة وقطانية ونواحيهما، وابن المكلاتي بناحية أخرى[2]. وهكذا تفرقت كلمة المسلمين وشغلوا بأنفسهم عن ما كان يجري في العدوة الإيطالية، فلم يتنبهوا لعدو جديد اتصف بالشراهة والخبث والمغامرة والمهارة في انتهاز الفرص، استطاع في غفلة منهم تثبيت أقدامه في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية على حساب البيزنطيين والحكام المحليين والبابوية والمسلمين على حد سواء وبدأ يتطلع إلى بلادهم بعين طامعة ألا وهو النورمان[3]. وقدم ابن الثمنة أحد ملوك

= عزل جعفر وتولية ابن آخر له بدلاً منه يسمى أحمد ويعرف بالأكحل ففعل، وأخرج جعفر إلى مصر وتبعه هو بعد مدة وجيزة حيث بقي فيها حتى وفاته، ولكن الأكحل اتبع سياسة خرقاء هي التفريق بين الصقليين والأفارقة وإثارة الحزازات بينهم أي سياسة فرق تسد، فقرب الأفارقة واضطهد الصقليين مما أحفظهم عليه فخرج بعض رجالاتهم إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم وقالوا له نحب أن نكون في طاعتك، وإلا سلمنا البلد إلى الروم (انظر ابن الأثير :ج١ ص١٩٤) فأرسل ابنه عبد الله في حملة عسكرية إلى الجزيرة لمواجهة البيزنطيين الذين كانوا يهددونها وإعادة الهدوء إليها ولكن بعد فشل حملة جورج منياس عليها، اتفق أهلها على جند المعز الذين قدموا لنجدتهم مما اضطر هؤلاء للعودة إلى إفريقية. بعد ذلك ولى الصقليون عليهم الحسن الصمصام أخو الأكحل الذي لم يكن أفضل من أخويه فثار عليه الناس وعزلوه سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م، (انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٤ – ١٩٥، أبو الفدا : المصدرالسابق ج٢ ص٢٠٠، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٨٨، د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص١٧، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣، ص٤٤٥ وما بعدها، أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص١٤٤ وما بعدها).

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٤، انظر أبو الفدا : المصدر السابق ج٢ ص٢٠٠ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٤، انظر أبو الفدا : المصدرالسابق ج٢ ص٢٠٠، د. أمبرتو ريتستيانو : العلاقات بين النورمنديين وبني زيري ص٣ .

(٣) تعود بداية الوجود النورماني في جنوب إيطاليا إلى القرن الحادي عشر حيث سادت الاضطرابات تلك المنطقة ووصلت الأنباء إلى نورماندي بفرنسا بذلك فتشجع صيادو الحظ من شباب النورمان على الهجرة إلى تلك المنطقة والتحقوا كجند مرتزقة في جيوش أمرائها، وفي سنة ١٠٣٠م منح دوق نابلي جماعة منهم مقاطعة آفرسا مكافأة لهم على خدماتهم له فكان ذلك بمثابة موطئ قدم لهم، ولكن خطر النورمان لم يظهر بشكل جدي إلا بقدوم جماعة كبيرة منهم يتزعمها أبناء المغامر النورماني الكبير تانكرد هوتفيل الاثنى عشر والذين كان من أشهرهم روبرت جيسكارد ورجار فبدأوا في جمع شمل النورمان وتقديم خدماتهم لكل من يطلبها لقاء أموال وأراض عازمين على تأسيس ملك لهم وفي فترة=

الطوائف في صقلية الفرصة الذهبية لرجار الذي عرف في التاريخ برجار الأول أحد زعماء النورمان في العدوة الإيطالية وذلك بلجوئه إليه بعد هزيمته أمام خصمه ابن الحواس [1] يستعديه على هذا الخصم، إذ أخذ يغريه بدخول صقلية ويهون عليه أمرها فوافق هذا بعد

= وجيزة تمكن رجار من السيطرة على إقليم قلورية (كلابريا) واتخذ لقب كونت في حين نجح أخوه الأكبر روبرت في السيطرة على إقليم بوليا (أبوليا)، بعد أن طردا البيزنطيين من كلا الإقليمين واتخذ هو الآخر أيضاً لقب دوق، ولم يكتفيا بذلك بل أخذا يتقدمان في أملاك البابوية مما أفزعها وجعلها تستنجد بالأمبراطور البيزنطي (انظر فصول من رسالة البابا ليو التاسع إلى الامبراطور بهذا الشأن في أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص١٣١) ولكن الامبراطور لم يقدم للبابوية المساعدة المرجوة فاتجهت إلى الألمان لمساعدتها، ولما فشلت في ذلك لم ير البابا بداً من مواجهة النورمان فقاد جيشاً بنفسه لكنه هزم ووقع في الأسر ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة. وأخيراً رأت البابوية ضرورة التفاهم مع النورمان لتسخيرهم لتحقيق أهدافها فعقد البابا نيقولا الثاني اجتماعاً مع زعمائهم في ملفي سنة ١٠٥٩م والذي اعترف البابا بموجبه بروبرت جيسكارد وريتشارد الكابوي أميرين على الأراضي التي كانا قد احتلاها ووافقا هما بدورهما على أن تكون تلك الأراضي إقطاعاً لهما من البابا أي أصبحا أفصالاً إقطاعيين للكنيسة، وفي نفس الوقت أعلن روبرت عن عزمه بنقل الحرب إلى صقلية لطرد المسلمين منها ووافق البابا على ذلك وعلى أن يكون رجار نائباً للبابا عليها، حدث ذلك قبل دخول النورمان للجزيرة مما يدل دلالة واضحة على صليبية هذه الحرب.
(انظر د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص١٨، فيشر : المرجع السابق ق١ ص١٣٣ - ١٣٤، أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٣٧٣ وما بعدها، أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص١٣٢، (H. Mayer : Op. Cit., p.19

(١) نشب الخلاف بين ابن الثمنة وابن الحواس بسبب ميمونة أخت ابن الحواس التي كان قد تزوجها ابن الثمنة بعد انتصاره على زوجها السابق ابن المكلاتي وقتله، وحدث أن نشب خلاف بعد ذلك بينها وبين زوجها ابن الثمنة وكان سكراناً فأمر بفصدها في عضديها حتى تموت. ولما علم ابنه إبراهيم بما حدث أحضر الأطباء وعالجوها حتى شفيت، وقد اعتذر لها زوجها عن ما بدر منه بسبب سكره فأظهرت قبول عذره، وعندما تم شفاؤها طلبت من زوجها أن يسمح لها بزيارة أخيها فوافق وزودها بالهدايا فقصت على أخيها ما حدث لها فأقسم أن لا يعيدها إلى زوجها، ولما أرسل ابن الثمنة يطلبها رفض ابن الحواس إعادتها إليه، فجمع ابن الثمنة جيشه وكان قد ملك معظم الجزيرة وسار إلى ابن الحواس في قصريانة حيث اشتبكا في معركة انتصر فيها ابن الحواس، فهرب ابن الثمنة إلى رجار. (انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٦، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٤ وما بعدها، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٧، انظر كذلك رواية المؤرخ النورماني مالاتيرا Malaterra في :
(Norman Daniel : The Arabs and Mediaval Europe, p.144 - 145.)

تردد[١]، حتى إن بعض المصادر الإيطالية تقول : إن ابن الثمنة وضع ابنه رهينة عند روبرت جيسكارد أخو رجار الأكبر وزعيم أسرة هوتفيل مبالغة منه في إظهار حسن نيته[٢]، حدث ذلك بعيد عقد معاهدة ملفي بين البابوية وزعماء النورمان سنة ١٠٥٩ والتي تعهد روبرت جيسكارد عند إبرامها أنه سينقل الحرب إلى صقلية لاستعادتها من المسلمين فوافق البابا وشجعه على ذلك، فجمع روبرت ورجار قواتهما وعبرا مضيق مسينا ليلاً وبصحبتهما ابن الثمنة سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م بعد أن قام البابا بمباركة الحملة وزودها براية مقدسة لتساعدها في تحقيق النصر على المسلمين على حد تعبيره، كما أصر على أن تكون الفتوحات في صقلية باسم المسيح وأنها يجب أن تكون دائمة فذلك أهم بكثير في نظره من إرسال الهدايا إلى روما[٣] مما ينفي أي مجال للشك في صليبية هجوم النورمان على صقلية، وقد تمكن الغزاة من مفاجأة مسينا واحتلالها كما احتلوا حصن رمتا (Remeta) أيضاً ثم زحفوا واشتبكوا مع ابن الحواس في شهر رجب من ذلك العام في معركة حامية أمام قصريانة هزم فيها ابن الحواس والتجأ إلى المدينة، فتركه النورمان وشأنه ريثما يثبتون أقدامهم في المناطق التي احتلوها، وبعد هذه المعركة عاد روبرت جيسكارد إلى أبوليا تاركاً لأخيه رجار مهمة استكمال الاستيلاء على الجزيرة[٤].

(١) د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٥، ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠، ص١٩٦ – ١٩٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٤ .

(٢) د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٥ – ٦، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٧ .

(٣) Norman Daniel : Op. Cit., p.146.

(٤) تعود علاقة النورمان بصقلية إلى ما قبل بدء احتلالهم لها بزمن طويل، ففي حوالي سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م كانت جماعة منهم قادمة من الديار المقدسة في طريقها إلى بلادها نورمانديا، فتصادف أن وجدت أثناء مرورها بالجزيرة نشوب قتال بين المسلمين والمسيحيين في بعض نواحيها فاستنجد المسيحيون بهؤلاء فأنجدوهم حيث كسبوا لهم النصر، وبعد المعركة طلب المسيحيون من هؤلاء البقاء لمساعدتهم في حربهم ضد المسلمين، ولكنهم اعتذروا ووعدوهم بأن يرسلوا إليهم جماعة أخرى من مواطنيهم لهذا الغرض، وعند رحيلهم زودهم المسيحيون ببعض روائع ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية في صقلية من منسوجات حريرية وثمار شهية كالبرتقال وسواه والسكر والتي كانت كلها مجهولة في أوروبا وقتئذ، فأسالت هذه المنتجات لعاب شباب نورمنديا فبدأوا يخرجون في جماعات يجوبون بحار صقلية ويحترفون القرصنة وينهبون الإيطاليين واليونانيين والمسلمين على حد سواء=

فزع المسلون من دخول النورمان إلى بلادهم ومنهم من أخذ يغادرها إلى إفريقية ثم سافر وفد من أعيان الجزيرة إلى المعز بن باديس يستصرخونه لإغاثتهم، وبالرغم مما كان يعانيه المعز في ذلك الوقت من الهلالية فإنه حشد أسطولاً من أربعمائة سفينة أرسله إلى صقلية ولكن عاصفة بحرية هبت عليه بالقرب من جزيرة قوصرة دمرت معظم سفنه(١) فكانت تلك فرصة للنورمان لتثبيت أقدامهم في الجزيرة أخذوا يتقدمون بعدها فيها ببطء نتيجة للمقاومة الإسلامية ولكن في ثبات، ولم يلبث ابن الثمنة أن اغتيل بيد أحد أصحابه سنة ١٠٦٢م جزاء على خيانته لدينه ووطنه. وقد أثار ما كان يجري في الجزيرة مطامع عدو آخر هو مدينة بيزا التي حاولت انتهاز الفرصة والزج بنفسها في حوادث الجزيرة للمشاركة في الغنيمة، فعرضت على رجار عقد اتفاق معه لمساندة قواته البرية بأسطولها من البحر وقد أرسلت أسطولها بالفعل إلى المياه الصقلية لهذه الغاية، ولكن رجار بالرغم من شدة حاجته لتلك المساعدة رفض التعاون معها لأنه لم يكن يرغب في وجود شريك له في الجزيرة، فما كان من ذلك الأسطول إلا أن شن هجوماً منفرداً على بلرمة (بالرم، بالرمو) سنة ١٠٦٣م محاولاً الاستيلاء عليها، ولما لمس صعوبة تحقيق ذلك لافتقاره لمساندة القوات البرية عمد إلى النهب والتخريب فأحرق البساتين المحيطة بها ودمر السفن الراسية في مينائها ثم انسحب محملاً بالأسرى والغنائم حتى إنه سلب السلسلة الضخمة التي كانت تسد باب ميناء تلك المدينة(٢).

وأما رجار فقد استمر في تقدمه في الجزيرة خاصة بعد أن عقد مع تميم ابن المعز معاهدة الصداقة وحسن الجوار سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م كما سنذكره فيما بعد وكان آخر ما صمد من مدنها في وجهه مدينتي جرجنت وقصريانة فحاصرهما حصاراً شديداً حتى اضطر أهلهما لأكل الجيف والجلود، ولما لم يبق لدى أهل جرجنت ما يأكلونه استسلموا له، وبقيت قصريانة

= ويتحينون الفرصة للنزول في الجزيرة وقد تمكنت جماعة منهم أخيراً من إنشاء مركز لها في بعض نواحيها تحصنت فيه وجعلته وكراً ومركزاً لعملياتها ولكن إقامتهم لم تطل إذ على مايبدو أن المسلمين طردوهم منه سريعاً. (انظر أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص١١٦).

(١) ابن الأثير : المصدرالسابق ج١٠ ص١٩٧، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٧، د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص٨، د. أحمد العبادي، د. سالم : المرجع السابق ص٢٠٨ .

(٢) David Abulafia : The Two Italies, p.52.

تدافع عن نفسها دفاعاً بطولياً ثلاث سنوات أخرى حتى اضطرت للتسليم في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩٠م[1] وبذلك استكمل رجار استيلاءه على الجزيرة بعد أن استغرق منه ذلك ثلاثين سنة.

جـ - إفريقية :

كانت إفريقية هي الجبهة الثالثة التي فتحتها الحركة الصليبية على المسلمين في غرب العالم الإسلامي، والتي لم تكن غائبة عن أذهان المخططين لهذه الحركة، ولكن أدوار القوة التي مرت بها كانت تقف حائلاً دون البدء في تنفيذ ما يرغبون، أما وقد ترددت الأوضاع فيها إلى الحد الذي أشرنا إليه فيما تقدم، فإن هذه الحركة وجدت أن الوقت قد حان لتحقيق أهدافها فيها، ومثلت المدن البحرية الإيطالية وبصفة خاصة مدينتي بيزا وجنوة القوة الضاربة للحركة الصليبية آنذاك في هذه الجبهة، وتحاول العديد من المراجع الغربية صرف الأذهان عن الهدف الحقيقي للهجوم الذي شنته أساطيل تلك المدن على إفريقية بقصر ذلك على أهداف اقتصادية فقط دوافعها التنافس التجاري أو القضاء على القرصنة لتأمين الطرق التجارية أو لنيل مكاسب وامتيازات تجارية إلى غير ذلك، فيقول (W. Heyd) إن تميم بن المعز دفع بأسطوله للقيام بأعمال القرصنة حتى اشتهر بذلك وامتد نفوذه على كامل البحر الأبيض المتوسط فنشر بذلك الرعب على المنطقة كلها، كما اتخذ من الأسرى المسيحيين الكثيرين الذين كان يأسرهم رجاله عبيداً له[2]، ويقول (K. M. Setton) إن الزيريين حاولوا استعادة ثرواتهم بالاتجاه إلى البحر مستفيدين من كون المهدية قاعدة بحرية منيعة، فأرسلوا الحملات إلى صقلية وغيرها وأخذوا يهاجمون السفن الإيطالية، ورداً على هذه القرصنة قامت المدن البحرية الإيطالية بالهجوم على المهدية سنة ٤٨٠هـ /١٠٨٧[3]، كما يقول David Abulafia[4] ويؤيده في ذلك كل من W. Heyd[5] وشاخت[6] إن تميم بن المعز

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٨ .

(٢) W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.121 - 122

(٣) K. M. Setton : A History of the Crusades, Vol, 2, p18.

(٤) David Abulafia : Op. Cit., p.52 - 53 .

(٥) W. Heyd : Ibid, vol.1. p.121.

(٦) شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ص٣٣١ - ٣٣٢ .

سد أبواب المهدية في وجه التجار الإيطاليين وخاصة البيازنة وأساء إليهم، ويتجاهلون تجاهلاً تاماً أن الغرض الحقيقي لهذا الهجوم كان لتحقيق أهداف الحركة الصليبية، ومتناسين أن هنالك عدة أدلة تؤكد هذه الحقيقة.

ومن أهم هذه الأدلة أن هذا الهجوم قد تم بعلم البابوية وبمباركتها ومساندتها المعنوية بل والمادية أيضاً، فقد شاركت في هذا الهجوم بكتائب من قواتها وتحمل رايتها، هذا بالإضافة إلى أن قائد الحملة التي قامت بهذا الهجوم وهو Praesul Benediches قد تم تعيينه من قبل البابا نفسه[١]، لذلك فإن وجد أدنى شك في صليبية هجوم المسيحيين الإسبان على مسلمي الأندلس، أو هجوم النورمان على مسلمي صقلية، مع أننا فيما تقدم أوردنا من الأدلة ما يكفي في اعتقادنا لإزالة هذا الشك، فإنه ليس هنالك ثمة مجال لهذا الشك في صليبية الهجوم على إفريقية نظراً لمشاركة البابوية الفعلية فيه من ناحية، ثم لكون قسطنطين الإفريقي المعروف بنزعته الصليبية كان الموجه لذلك الهجوم[٢] من ناحية ثانية، يضاف إلى ذلك دليل آخر هو اشتراك أسقف مودينا نفسه فيه وأخيراً ما أشاعه المهاجمون من أنهم في طريقهم إلى المهدية شاهدوا هالة في السماء تمثل القديس بطرس يقودهم نحو النصر[٣] مما يعطي الانطباع بأن الهوس لدى المهاجمين للعمل من أجل المسيحية قد بلغ بهم حداً – إن صحت الرواية – بحيث يهيأ لهم مثل هذه التهيؤات. ويؤكد ذلك ما ذكره Robert S. Lopez من أن المهاجمين كانوا مشحونين بالتعصب الديني ضد الكفرة – أي المسلمين في

---

(١) W. Heyd : Op. Cit., vol. 1, p.121 - 122. M. M. A.Basset : Op. Cit., p.88.

(٢) M. M. A. Basset : Op. Cit., p.88.

وتعود علاقة قسطنطين الإفريقي بهذه الحملة إلى علاقته القوية بالبابا فيكتور الثامن المشجع الرئيسي لها، ذلك أن هذا البابا كان قبل اعتلائه كرسي البابوية رئيساً لدير مونت كاسينو الذي كان يقيم فيه قسطنطين وكان اسمه آنذاك ديسيديريوس (Desiderius) وأثناء رئاسته لذلك الدير انتخب بابا سنة ١٠٨٥م لذلك ارتبطا بصلة صداقة حميمة، وكان من الطبيعي أن يقوم هذا البابا عندما بدأ التفكير في توجيه هذه الحملة باستشارة قسطنطين لمعرفته الواسعة بإفريقية بحكم مولده ونشأته فيها والذي لم يبخل بتزويده بكل ما لزمه من معلومات. (عن العلاقة بين هذا البابا وقسطنطين الإفريقي انظر : Thomas Curtiz Van Cleve : The Emperor Frederick II p.289.)

(٣) انظر د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٣٩ .

زعمهم –، وإن حملتهم كانت صورة مصغرة للحملة الصليبية الأولى على المشرق[1].

لكل ذلك فإن هذا الهجوم الذي تعرضت له إفريقية ومدينة المهدية بالذات في سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كان هجوماً صليبياً واضحاً، وإن برزت في ثنايا أهدافه بعض الأهداف الثانوية الأخرى التي شدت انتباه بعض الباحثين إليها مع أنها لا تتعارض أصلاً مع الأهداف الصليبية بل هي من صميمها. والذي يسترعي الانتباه حقاً هو هذا التوافق الزمني بين سقوط طليطلة في يد النصارى الإسبان سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م وسقوط سرقوسة المدينة الصقلية العريقة في يد النورمان في نفس ذلك العام أيضاً، والهجوم على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، فهل لعبت الصدفة وحدها الدور الأكبر في هذا الأمر؟ إن المرء ليشك في ذلك كثيراً لا سيما وأن البابوية كانت هي القوة المحركة لهذا الهجوم في اتجاهاته الثلاث.

مهاجمة المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م :

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تهاجم فيها إفريقية من قبل قوى أوروبية منذ تحول ميزان القوى في البحر الأبيض المتوسط لصالح أوروبا، ففي سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م تعرضت بونة (عنابة) إلى الهجوم الكبير الذي قاده أمير كورسيكا كما سبق أن ذكرنا، كما يذكر ابن عذارى أنه في سنة ٤٣١هـ / ١٠٣٩م تعرضت جزيرة جربة لهجوم مماثل قامت به جيوش قال إنها من مالطة وقتلت كثيراً من أهلها[2]. كذلك ينقل حسن حسني عبد الوهاب عن الذخيرة لابن بسام أن أسطول الروم فاجأ المهدية ليلاً[3] أثناء إقامة المعز بن باديس بها أي خلال الفترة ٤٤٩ – ٤٥٣هـ / (١٠٥٧ – ١٠٦١م)، ولكن الهجوم الذي تعرضت له المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م يختلف عما سبقه من الغارات بكبر حجمه ووضوح الهدف

---

(١) Robert S. Lopez : The Commercial Revolution of the Middle Ages, p.65.

(٢) ابن عذاري : المصدر السابق ج١ ص٢٧٥ . ولا ندري ما الذي قصده ابن عذارى بمالطة، هل هي ملطية أو مليطو (Malito) التي عناها عند قوله أن ابن الثمنة قد ذهب إليها حيث قابل رجار فيها، أم هي مالطة المعروفة؟ وإن كنت أستبعد الافتراض الثاني لأن مالطة الجزيرة كانت في ذلك الوقت لا تزال إسلامية، وقد قاومت في سنة ١٠٤٠م أي بعد ذلك بعام الهجوم البيزنطي عليها، وبقيت إسلامية حتى سنة ١٠٩١ حينما استولى عليها رجار الأول بعد استكماله الاستيلاء على صقلية.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق، ص٩١ .

الصليبي له.

تم الإعداد لهذا الهجوم الذي اشتركت فيه قوات من بيزا وجنوة وأمالفي والبابوية كما أسلفنا القول بعناية، ويضيف (W. Heyd) أن قوات أمالفي ضمت جنداً من روما أيضاً [1]، وقد حاول الحلفاء إشراك رجار الأول في مشروعهم ولكنه رفض[2] لا ترفعاً عن العدوان أو تمسكاً بمعاهدة حسن الجوار التي كان قد عقدها مع تميم بن المعز كما ادعى، ولكن لأنه كان يرغب في حصر جهوده في استكمال استيلائه على صقلية فذلك أجدى له من تشتيت قواه من ناحية، ثم لأن إفريقية كانت هي هدفه التالي للاستيلاء عليها ولكن دون شركاء خاصة أن هؤلاء لم يكونوا يقلون عنه طمعاً وخبثاً. وقد أبحرت هذه القوات التي قدرتها المصادر الإسلامية بثلاثين ألف جندي تحملهم ثلاثمائة سفينة[3]، قاصدة المهدية التي كانت في تلك الآونة قد بدأت تشهد نهوضاً وانتعاشاً اقتصادياً ملحوظاً منذ أن أصبحت حاضرة الإمارة الزيرية[4]، فنزلت في زويلة الربض التجاري للمهدية واستولت عليها. ثم هاجمت المهدية نفسها واستولت عليها باستثناء قلعتها، والمستفاد من روايات العديد من المصادر التاريخية الإسلامية التي يبدو أنها استقت من مصدر واحد أن هذه الحملة لم تواجه مقاومة إسلامية، إذ يعلل ابن عذارى سهولة استيلاء المهاجمين على المدينة بسبب (غيبة عسكر سلطانها عنها، ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها، وأخذ الأهبة للقائهم، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعدد، وقصر الأسوار وتهدمها، وتكذيب تميم بخبرهم، وسوء تدبير عبد الله بن منكور متولي أمور الدولة في قصده مخالفة قائد الأسطول في الخروج إليهم للقائهم في الماء ومنعهم من النزول في البر. فكان ذلك كله سبب تغلبهم على المدينتين المهدية وزويلة، ونهبهم إياهما، وقتلهم الناس فيهما، وإحراقهم بالنار)[5]، ويؤيده في ذلك ابن مقديش الصفاقسي[6]

---

(١) W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.121.

(٢) D. Abulafia : Op. Cit., p.52.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠١، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٣ ص٧٨ .

(٤) D. Abulafia : Op. Cit., p.52.

(٥) ابن عذارى : المصدرالسابق ج١ ص٣٠١ .

(٦) ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٣٦ .

والوزير السراج[1] وغيرهم، والذي أراه أن هذا التعليل ينافي الحقيقة والواقع من عدة وجوه :

١ – كيف يكون أهل المهدية خلوا من السلاح والعدد وهم المهددون في كل وقت إن لم يكن من العدو الصليبي فمن المناوئين لتميم، وكم من طامع منهم زحف على المهدية لاحتلالها وعاد خائباً كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وينطبق هذا التساؤل على القول بقصر الأسوار وتهدمها وهي المدينة التي أجمعت المصادر التاريخية الإسلامية وحتى الغربية منها على حصانتها وشدة مناعتها خاصة في تلك الفترة إذ أنها كانت حاضرة الإمارة الزيرية وقاعدة أسطولهم الذي نشر الرعب في كامل مياه البحر الأبيض المتوسط على حد تعبير (W. Heyd)[2]، فكلا الأمرين لا يصدقهما العقل وينفيهما المنطق. وأما القول بغيبة العسكر عن المدينة، فإن أياً من هذه الروايات لم تشر إلى الجهة التي كان ذلك العسكر غائباً فيها، فلو كان الأمر كذلك لأشارت رواية واحدة منها على الأقل لتلك الجهة.

٢ – هذه الرواية ومثيلاتها تتضمن نقضها في طياتها لسببين :

أ – لقد جاء فيها أن تميم قد كذب بخبرهم، ومعنى ذلك أنه قد علم بأمر الحملة قبل وصولها، ولم يكن تميم من الحكام اللامبالين الذين لا يعدون للأمر عدته ولو من قبيل الاحتياط.

ب – تنسب هذه الرواية أحد أسباب هذا الاحتلال لسوء تدبير عبدالله بن منكور (أو ابن منكوت كما تسميه بعض المصادر الأخرى) لأنه خالف قائد الأسطول عثمان بن سعيد المعروف بالمهر في الخروج للقاء أسطول الأعداء في البحر ومنعهم من النزول إلى البر، فيدل ذلك دلالة واضحة على أن أسطول تميم كان موجوداً في المهدية أثناء الهجوم، وإلا فبأي شيء يريد قائده أن يخرج إلى البحر لمواجهة أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة كما تقول بعض المصادر أو ٤٠٠ سفينة كما تقول مصادر أخرى إن لم يكن لديه القوة المقابلة له؟ وعلى ذلك إن كان هذا الأسطول موجوداً في المهدية فهل وقف جنده موقف المتفرج من هذا الهجوم؟

لذلك، فإنني أعتقد أن ما جاء في هذه الرواية ومثيلاتها لا يمثل كامل الحقيقة، بل إنها

(١) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦٧ .

(٢) W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.121.

أغفلت عنصراً هاماً من عناصر هذه الحقيقة هو المقاومة الإسلامية للمهاجمين، ولما كانت هذه الروايات متأخرة نوعاً ما عن حوادث تلك الحملة فإنه من غير المستبعد أن تكون قد نقلت عن مصدر عاصرها ولم يصلنا، برر احتلال المهدية بهذا التبرير رهبة أو مجاملة لأمراء بني زيري، ومحاولة إخفاء الحقائق مداراة للحكام أمر شائع لدى بعض المؤرخين المسلمين.

والأصح من هذه الرواية ومثيلاتها هو ما ورد في بعض الوثائق المسيحية «والفضل ما شهدت به الأعداء» كما يقال، من أن المسلمين واجهوا هذه الحملة بمقاومة شديدة، ولكن المهاجمين تغلبوا عليهم بكثرة عددهم وربما عُددهم وبالاستفادة من بعض الأخطاء العسكرية التي وقع فيها المسلمون مثل منع الأسطول من الخروج لمواجهة أسطول العدو في البحر، مما مكن المهاجمين من اقتحام أسوار المدينة ودخولها، ومن هذه الوثائق قصيدة نظمها باللاتينية شاعر من بيزا في أعقاب تلك الحملة تناولت حوادثها وسماها (Carmen In Victoriam Pisanorum) أي (قصيدة في انتصار البيازنة) بينت هذه المقاومة بوضوح فقد جاء في الأبيات ٦١ – ٦٥ من أبياتها الثلاثة والسبعين ما ترجمته :

(بينما كانوا – أي الغزاة – واقفين ينظرون إلى الغنائم إذ أبصروا القبائل العربية تدخل زويلة – ويسميها Sibilia – ففر الجنود المشاة هنا وهنالك بسرعة تفوق سرعة الريح، وحارب الفرسان بسرعة تفوق سرعة الريح الشرقية، كان هؤلاء العرب مهرة ومحنكين في فن الكر والفر، كما كانوا يجيدون إصابة مقاتل أعدائهم بينما هم – أي العرب – في حالة الفر، وكانوا أسرع من على وجه الأرض في الالتفاف في دوائر، كانوا يمتطون جياداً نحيفة – أي خفيفة – يوجهونها بأجسادهم، وقد استحوذ مائة ألف من أولئك الأشاوس على زويلة إذ فر منها البيازنة، وزحفوا – أي العرب – نحو الشاطئ الذي اكتظ بهم وأوقعوا هزيمة بالبيازنة الذين كانوا يتولون حراسة الميناء، ولما سمع النبلاء المعسكرون في المهدية – ويسميها Madia – بما حدث انتظموا في صفوف وخفوا للنجدة بسرعة تفوق سرعة الفهود، وكان الملك تميم – ويسميه Taminus – يرقب ما يجري من أبراجه الشاهقة، ويتطلع بسرور إلى الأخطار المحدقة بالفئتين، إلا أن العرب لم يطمئنوا إلى أسلحتهم أو شجاعتهم بل فروا بسرعة مذهلة، وتعرض من بقي منهم للقتال وجهاً لوجه لأسلحة البيازنة

التي كانت تخرق أجسادهم كما ذبحهم البيازنة أيضاً بسيوفهم)[١].

وبصرف النظر عن ماورد في هذه القصيدة من مبالغات، إلا إنه يستفاد منها أن المقاومة الإسلامية للمهاجمين كانت عنيفة إلى حد أنهم أخرجوهم من زويلة كما أنهم اشتبكوا معهم في قتال مرير في شاطئ المهدية مما أجبر أصحابهم الذين كانوا في تلك المدينة على الخروج منها لنجدتهم. ولعل ما ذكره D. Abulafia عن هذه الحملة ما يؤكد هذه الحقيقة إذ يقول : (وفي سنة ١٠٨٧م هاجم الأسطول الإيطالي المهدية على أمل الاستيلاء عليها، وبعد قتال مرير طرد الإيطاليون، ولكن ليس قبل دخولهم المدينة)[٢].

وقد استباح الغزاة المدينة وأعملوا فيها القتل والتدمير والأسر والنهب حتى ملأوا مراكبهم بالأسرى والأسلاب، أما تميم الذي كان قد لجأ إلى قلعتها، فقد وجد أفضل وسيلة لإخراجهم من المدينة هي مفاوضتهم على ما يقنعهم بالانسحاب، ولم يكن هؤلاء أقل رغبة منه في ذلك، إذ أنهم رأوا استحالة بقائهم في المدينة واتخاذها موطئ قدم لهم في إفريقية نتيجة لشدة المقاومة الإسلامية وما كانوا يتوقعونه من وصول النجدات إليها من نواحي عديدة من إفريقية وبصفة خاصة من الهلالية الذين كانت بطون منهم قد دخلت المعركة بالفعل فأكثر ما ينطبق الوصف الذي ورد في الأبيات أعلاه عليهم وعلى أسلوبهم في القتال فضلاً عن جموع المجاهدين من مرابطين وسواهم التي كان من المتوقع وصولها لمجاهدة العدو الصليبي، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لافتقارهم إلى القوة البرية اللازمة لمساندة الأسطول في عملياته العسكرية، وقد حاولوا التنسيق مع النورمان لزيادة قدرتهم الحربية، فعرضوا المدينة على رجار فرفض[٣] للأسباب التي ذكرناها آنفاً، فضلاً عن أن المدن البحرية الإيطالية التي قامت بهذا الهجوم كانت تعي تماماً أن إمكانيتها البشرية لوحدها لا تمكنها من المحافظة على نتيجة النصر الذي أحرزته وهي عن التوسع أعجز، ولما فشلت في إيجاد من يؤازرها ويتعاون معها أدركت أن انتصارها هذا مؤقتاً وأنها ستخسر المدينة إن عاجلاً أم آجلاً، لذلك لم تجد بداً من الوصول إلى اتفاق مع تميم،وفعلاً دارت

---

(١) English History Review, vol. 362, January, 1977.

(٢) D. Abulafia : Op. Cit., p.52.

(٣) شاخت وبوزورث : المرجع السابق ص٣٣١ – ٣٣٢ .

المفاوضات بين الطرفين وتم عقد صلح بينهما فرض الغزاة بموجبه على تميم شروطاً ثقيلة هي أقرب إلى الابتزاز منها إلى الصلح اضطر الأخير لقبولها، وانسحبوا عائدين بغنائمهم إلى بلادهم.

وأهم ما يستخلص من شروط هذا الصلح ما يلي :

١ – حصل الغزاة على فدية مالية ضخمة قدرتها المصادر الإسلامية بمائة ألف دينار بين نقد وأواني ذهبية وفضية [١].

٢ – وافق تميم على فتح أبواب إمارته لتجار المدن المتحالفة لممارسة نشاطهم فيها[٢]، مما فسح المجال أمامهم لجني أرباح كبيرة.

٣ – وافق تميم على إطلاق جيمع الأسرى المسيحيين الموجودين لديه[٣]، في حين عادت سفن الغزاة محملة بأسرى المسلمين[٤].

٤ – تعهد تميم بعدم التعرض لسفن المدن المتحالفة في المياه الإفريقية[٥].

ولكن، هل حقق هذا الهجوم أهدافه؟ في الحقيقة أنه لم يحقق إلا جزءاً ضئيلاً منها إذا ما قورن بما كان مقدراً له، ويتمثل هذا الجزء بمكاسب اقتصادية فقط، ولعل ذلك كان من بين الأسباب التي حملت البعض على الاعتقاد بأن هذه الحملة لم تكن تتصف بالصليبية، فقد حصلت المدن البحرية الإيطالية على امتيازات تجارية وأمنية لسفنها هذا بالإضافة إلى المبلغ الضخم الذي

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ق٣ ص٧٨، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٣٦ . الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ق٢ ص٤٦٧ وما بعدها، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٤٩ . د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٣٩، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٥ .

(٢) W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.122 Robert S. Lopez : Op. Cit., p.65.
كذلك د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٣٩ .

(٣) W. Heyd : Ibid, vol. I, p.122.

(٤) يستفاد من رواية ابن مقديش الصفاقسي (المصدر السابق ورقة ١٣٦) أن أخذ الأسرى المسلمين معهم إلى أوروبا كان شرطاً في هذا الصلح، إذ يقول : (... إلى أن وقع الصلح بينه – تميم – وبينهم على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقلعون بما حصل في أيديهم من المسلمين فدفعت لهم وأقلعوا بأموال المسلمين ونسائهم وأبنائهم). انظر عن هذا البند ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٣ ص٧٨ .

(٥) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٥ .

كسبته والذي مكنها من زيادة قوتها البحرية ببناء سفن جديدة وتجنيد بحارة جدد مما دعم التغير في الهيكل الاقتصادي لهذه المدن والذي كان قد حصل منذ بدء مغامرتها في البحر[1]، كما أدى إلى زيادة رأس المال المستخدم في التجارة والذي وسع بدوره القاعدة التجارية لهذه المدن[2]، يضاف إلى ذلك أن هذه الأموال أتاحت الفرصة لهذه المدن لتنفيذ بعض مشاريعها الهامة، فقد مكنت بيزا مثلاً من تشييد كاتدرائيتها المشهورة المسماة بكاتدرائية القديس سيستو (San Sisto) في (Corteverchia)[3] والتي بالإضافة إلى كونها أنشئت من هذه الأموال، قيل : إنه استخدم في بنائها وتأثيثها بعض قطع الرخام والتحف والزخارف التي نهبت من المهدية[4].

لكن هذا الهجوم فشل في تحقيق أهدافه الأخرى، إذ لم يتمكن الغزاة من الاستقرار في المهدية واتخاذها قاعدة لعملياتهم المستقبلية لاستكمال احتلال إفريقية، كما أنه فشل في توجيه ضربة قاصمة للبحرية الزيرية، إذ أنها استمرت في تدعيم قوتها بحيث تمكنت في سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م أي بعد هذا الهجوم بفترة وجيزة من صد هجوم آخر تعرضت له المهدية قام به هذه المرة أهالي روما[5]، كما أنها أرهبت في زمن يحيى بن تميم (٥٠١ – ٥٠٩هـ) شواطئ جنوب غرب أوروبا، الذي دأب على ترديد (البعوث إلى دار الحرب حتى اتقته أمم النصرانية بالجزية من وراء البحر) [6].

نستخلص مما تقدم أن الحركة الصليبية منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) قد شنت هجومها الكبير على المسلمين في غرب العالم الإسلامي في ثلاث جبهات هي الأندلس وصقلية وإفريقية، ومع أنها لم تحقق كافة أهدافها في الأندلس نتيجة لتدخل المرابطين، كما أنها صدت في الجبهة الإفريقية، إلا أنها نجحت في صقلية واستطاعت سلخها

---

(١) Robert S. Lopez : Op. Cit., p.65.

(٢) D. Abulafia : Op. Cit., p.49 - 50.

(٣) D.Abulufia : Ibid, p.52.

(٤) د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٣٩ – ٤٠ .

(٥) عن هذه الغزوة انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٢ وما بعدها، محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص٧٦ حاشية ٢، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٤٩ . د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٠، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٥، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص١١٥ .

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٤ وما بعدها ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٠ .

عن بلاد المسلمين، وما كاد ذلك القرن يشارف على الانتهاء حتى فتحت ميداناً جديداً للصراع الإسلامي الصليبي بالإضافة إلى ميداني الأندلس وإفريقية ألا وهو ميدان المشرق، فكانت الحركة الصليبية تدير دفة الصراع مع المسلمين في هذه الجبهات في آن واحد، وقد أدرك العديد من المؤرخين المسلمين حقيقة الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي في تلك الآونة، وأدركوا الصلة والروابط بين الصليبيين المحاربين في الجبهات الآنفة الذكر، وأن هجومهم فيها كلها هو عبارة عن وجوه لأصل واحد، وأشاروا إلى ذلك في مؤلفاتهم، مثل ابن الأثير الذي ربط بين الهجوم على غرب العالم الإسلامي وشرقه بوضوح في حوادث سنة ٤٩١هـ كما سبق أن ذكرنا، كما كان أبو الحسن علي بن طاهر السلمي صاحب (كتاب الجهاد)[١] المتوفى سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٣م أي بعد أقل من خمس سنوات من وصول الصليبيين إلى بلاد الشام يقول أثناء تدريسه لكتابه الآنف الذكر في الجامع الأموي بدمشق بأن الغزو الصليبي لبلاد الشام هو جزء من هجومهم على المسلمين في المغرب الإسلامي، وكان يعتبر أن كلا الهجومين مترابطين وأن كافة جبهات الصراع الإسلامي الصليبي هي فروع لأصل واحد[٢]، ويؤكد ابن خلدون هذه الحقيقة في عدة مواضع من تاريخه فيقول مثلاً في معرض حديثه عن الصليبيين الذين هاجموا بلاد الشام : (وكانت دولة هؤلاء الإفرنس منهم من أعظم دولهم واستفحل أمرهم بعد الروم وصدراً من دولة الإسلام العربية، فسموا إلى ملك بلاد المشرق من ناحيتها وتغلبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجالاً من ملوكهم إلى صقلية وملكها من يد المسلمين سنة أربع وثمانين وأربعمائة ثم سموا إلى ملك ما وراء البحر من إفريقية وبلاد الشام...)[٣]، وما دام هذا الترابط بين نشاط الحركة الصليبية في هذه الجبهات كان معروفاً لدى كثير من المسلمين، فهل وجد مثل هذا الترابط بين شرق العالم الإسلامي وغربه لمواجهة هذا الخطر؟

---

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الظاهرية بدمشق، وقد انتشر في المغرب انتشاراً فاق انتشاره في المشرق لدرجة كبيرة لشدة اهتمام المغاربة بالجهاد وما يتصل به، فكان يدرس في المدارس والجوامع والزوايا حتى بات من المعتقد لدى الكثيرين أنه مغربي، وتبعاً لذلك يوجد منه عدة نسخ في المكتبات الوطنية بأقطار المغرب العربي.

(٢) شاخت وبوزورث : المرجع السابق ص٢١٧، حاشية.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص١٨٧، انظر كذلك ج٣ ص٢٠١ – ٢٠٢ .

﴿قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .
[سورة التوبة : آية ٣٦]

الفصل الثاني

الهجوم الصليبي على المشرق وصداه في المغرب

(اتجاه النشاط الصليبي إلى المشرق وأسبابه – أثر نجاح الحملة الصليبية الأولى على المغرب الإسلامي – إفريقية والدعوة لتوحيد الجهود لمواجهة العدوان – إفريقية ومواجهة الحركة الصليبية في : أ – الأندلس. ب – صقلية. جـ – المشرق)

اتجاه النشاط الصليبي إلى المشرق وأسبابه :

إذا كانت الحركة الصليبية بمعناها الواسع تستهدف ضرب المسلمين في كل مكان يمكن النيل منهم فيه، فإننا لا ننسى أن مكانة بيت المقدس وما حولها من بلاد في تاريخ المسيحية جعلت هذه المنطقة هدفاً أساسياً من أهداف الحركة الصليبية، خاصة وأن انطلاقتها في الغرب قد حققت من النتائج قدراً كان كافياً لتشجيعها على المضي قدماً في سبيل تحقيق كافة أهدافها وبرز في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) الحافز الهام الذي حرك مسيحيي غرب أوروبا وجعلهم يصابون بحمى حرب المسلمين وشد أنظارهم تجاه المشرق بصفة خاصة، ذلك الحافز هو توالي ورود الأنباء عليهم بتداعي الدولة البيزنطية أمام سلاجقة الروم الذين كانوا يسددون لها ضرباتهم القوية، وفزعت أوروبا لهذه الأنباء لا حرصاً على سلامة هذه الدولة التي لم تكن تكترث بها بل وكانت تتمنى إزالتها من الوجود نظراً للعداء المذهبي المستحكم بين الطرفين، على أن يكون ذلك بفعل قوة كاثوليكية لا قوة إسلامية، ولكن ذلك الفزع كان حرصاً على سلامتها هي، إذ لو سقطت هذه الدولة لانهار بسقوطها ذلك السد المنيع الذي وقف حائلاً دون وصول المسلمين إلى قلب أوروبا منذ عهد الفتوحات الإسلامية الأول، ولأصبحت أوروبا في موقف المدافع من جديد بدلاً من موقف المهاجم الذي اتخذته منذ مطلع ذلك القرن، وامتزج هذا العمل بعوامل أخرى عديدة[1] تظافرت كلها لدفع الصليبيين لغزو المشرق الإسلامي.

وكانت الظروف مواتية لتنفيذ هذا المشروع، فأوضاع المسلمين في المشرق لم تكن

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه العوامل انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١ ص٢٨ وما بعدها.

أفضل من أوضاع إخوانهم في المغرب، فكلا الخلافتين العباسية والفاطمية كانتا آيلتين للسقوط، وامبراطورية السلاجقة التي كانت قد جددت قوة المسلمين في المشرق كانت قد تفسخت إلى دويلات وإمارات عديدة، ولم تكن هذه الأمور لتخفى على أقطاب الحركة الصليبية لا سيما وأن الاتصال بين المشرق والمغرب كان قد شهد منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً سواء عن طريق التجارة أو عن طريق تزايد أعداد زوار الديار المقدسة من الأوروبيين، لذلك، وفي اجتماع عام عقد في كليرمونت سنة ١٠٩٥م، أعطى البابا أوربان الثاني إشارة البدء للزحف الصليبي إلى المشرق، وقد حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحاً كبيراً بالرغم من المصاعب الكثيرة التي واجهتها في طريقها إلى بلاد الشام، تمثل ذلك في الانتصارات التي أحرزتها وتمكنها من تأسيس أربع إمارات صليبية في الأراضي التي استولت عليها هي مملكة بيت المقدس وإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس.

أثر نجاح الحملة الصليبية الأولى على المغرب الإسلامي :

استبشرت أوروبا وعمها الفرح والابتهاج بالنتائج التي حققتها الحملة الصليبية الأولى على المشرق، ودب الحماس والحمية في نفوس النصارى الإسبان الذين كانوا قد منعوا من الاشتراك في تلك الحملة خوفاً من اختلال الجبهة الصليبية في المشرق والمغرب على حد سواء، إذ رأت الحركة الصليبية أن نقصان المقاتلين الإسبان في ميدان الأندلس برحيلهم إلى المشرق سيؤدي إلى ظهور المسلمين في ذلك الميدان، وإذا سمح لهؤلاء بالعودة للدفاع عن وطنهم فإن ذلك سيضعف القوة الصليبية في ميدان المشرق في وقت قد يكون حساساً مما قد يؤثر على الوجود الصليبي في ذلك الميدان أيضاً، وزاد هذا الحماس بقدوم جموع غفيرة من أنحاء أوروبا إلى إسبانيا بعد أن منحت البابوية في سنة ١٠٩٨م الصليبيين المحاربين في الجبهة الأندلسية نفس الامتيازات الممنوحة للمحاربين في جبهة المشرق[١]، فآثرت هذه الجموع التوجه إلى إسبانيا بدلاً من المشرق لقربها من مواطنهم، لذلك صبا النصارى الإسبان لتحقيق انتصارات على مسلمي الأندلس مماثلة لتلك الانتصارات التي أحرزها

---

(١) Jonathan Raley - Smith : What were the crusades, p.24.

إخوانهم في المشرق، ودعمت البابوية هذا الحماس بأن أعلن البابا باسكال الثاني الحرب الصليبية في الأندلس[1]، فنشط النصارى الإسبان تبعاً لذلك في مهاجمة المدن والحصون الإسلامية، وكانت المساعدات تتوالى عليهم حتى قيل إن بعض قادة الحملة الصليبية الأُولى الذين اشتركوا في حروب المشرق قد قدموا إلى إسبانيا واشتركوا في حصار سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م[2]، وسرى الوهن إلى دولة المرابطين التي وقفت تصارع تلك القوى وحدها، فلم يزد ذلك القوى الصليبية إلا حماساً، وما أن ظهر الضعف البين على تلك الدولة حتى أخذت المدن والحصون الإسلامية تتهاوى في أيدي النصارى، ونالت الجبهة الإفريقية هي الأخرى نصيبها من هذا النشاط فشن أهالى روما هجوماً على المهدية سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م لاحتلالها، ولكن هذا الهجوم قد فشل كما سبق أن ذكرنا.

أما بالنسبة للمسلمين في المغرب الإسلامي فقد أصابهم لأول وهلة ما أصاب باقي أرجاء العالم الإسلامي من الذهول والأسى والشعور بالفجيعة لسقوط بيت المقدس في يد الصليبيين، ولكنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم وأدركوا أن بذل جهود مضاعفة في صراعهم مع الصليبيين في ميدان المغرب له أهميته وأثره البالغ على الصراع الإسلامي الصليبي في ميدان المشرق للترابط الوثيق بين الغزاة في كلا الميدانين، وانعكس ذلك المجهود في صور شتى، فثبات المرابطين القوي لهجمات النصارى الإسبان في الأندلس وردهم عليها بهجمات مماثلة هو إحدى هذه الصور، ومنازلة أسطولهم لأسطولي بيزا وجنوة اللذين احتلا جزيرة يابسة في سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م ثم هاجما جزيرة ميورقة بعد ذلك، وطرد هذين الأسطولين هو صورة أخرى[3]. أما بالنسبة لإفريقية فقد نشط الأسطول الزيري خاصة في زمن يحيى بن تميم في مهاجمة السفن الإيطالية التي كانت الشريان الرئيسي لإمدادات الصليبيين في المشرق ثم الإغارة على شواطئ أوروبا الجنوبية إذ أنه كان (قد صرف همه إلى غزو النصارى في الأساطيل البحرية، فاستكثر منها، واستبلغ في اقتنائها،

---

(١) يوسف أشباخ : المرجع السابق ص١٣٩ .

(٢) د. عبد الله علام : المرجع السابق ص١٧٦ حاشية ٢ .

(٣) انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ص١٢٢ وما بعدها.

وردد البعوث إلى دار الحرب[1]، كما أن جموع المجاهدين المغاربة أخذت منذ بداية هذا الهجوم تقصد المشرق للمشاركة في جهاد الصليبيين كما سيذكر فيما بعد هو تعبير آخر عن الصدى الذي أحدثه نجاح الحملة الصليبية الأولى في المشرق في نفوس مسلمي المغرب.

إفريقية والدعوة لتوحيد الجهود لمواجهة العدوان :

في ظل الهجوم المسعور الذي شنته الحركة الصليبية على المسلمين في المشرق والمغرب، لم يجد حكامهم بداً من العمل على توحيد جهودهم للتصدي لهذا العدوان، فجرت اتصالات عديدة لهذا الغرض منها ما كان على المستوى الشعبي ومنها ما كان على المستوى الرسمي، وتبودلت السفارات بين الحكام لإزالة الضغائن والإحن، كتلك الاتصالات التي جرت بين ملوك الطوائف في الأندلس بيوسف بن تاشفين، واتصالات يوسف بن تاشفين بالدولة العباسية للعمل على تحقيق وحدة شاملة بين المغرب والمشرق[2]،

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٤ .

(٢) ورد في العديد من المصادر التاريخية الإسلامية مثل ابن خلدون (ج٦ ص١٨٨)، ابن الأثير (ج١٠ ص٤١٧)، ابن الخطيب (أعمال الأعلام ق٣ ص٢٥٢)، أبو المحاسن (ج٥ ص١٩٠) أن يوسف بن تاشفين خاطب المستظهر بالله العباسي وطلب منه تقليداً بالبلاد التي فتحها فأجابه لطلبه، ويبرر ابن الأثير (ج٨ ص١٤٣) ذلك بأن علماء الأندلس قالوا له أثناء وجوده فيها بأن طاعته ليست واجبة حتى يخطب للخليفة ويتسلم منه التقليد، ويرجع د. حسين مؤنس (سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ص٦٣) علاقة المرابطين بالدولة العباسية إلى أيام أميرهم الأول أبي بكر اعتماداً على قطعة نقود مرابطية ضربت سنة ٤٥١هـ نقش عليها اسم الخليفة القائم العباسي، فيكون يوسف بن تاشفين بعد معركة الزلاقة قد جدد الاتصال ولم يكن البادئ به. أما الاتصال الذي جرى بعد الزلاقة وتولى مهمته ابن العربي وأبوه، فيقول د. حسين مؤنس (الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص١١٩ – ١٢٠) أن هذين الرجلين قاما (بانتداب نفسيهما لهذه المهمة) وهدفهما من ذلك (التقرب من المرابطين، والوصول إلى مكانة طيبة في دولتهم)، ومع احترامنا وتقديرنا للأستاذ الدكتور حسين مؤنس ومكانته العلمية نقول : إن الأدلة التي استند إليها للوصول إلى رأيه هذا ضعيفة ولا تثبت للنقد، فكون الرسالة التي رفعاها للخليفة العباسي لا تشير إلى أن أحداً كلفهما بهذه المهمة لا ينفي هذا التكليف إذ ربما أجلا ذكره لمخاطبة الخليفة به مشافهة خوفاً من عيون الفاطميين اللذين سيمران بأراضيهم في طريق العودة إلى المغرب، ولعل ذلك كان هو السبب أيضاً في عدم حملهما رسالة مكتوبة من يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي، وأما المبالغة في إطرائهما ليوسف بن تاشفين في=

ثم لكسب دعم الخلافة العباسية المعنوي له في جهوده ضد المسيحيين من ناحية وضد ملوك الطوائف الذين كانوا بخلافاتهم وتخاذلهم وصلاتهم بالعدو يعرقلون توحيد الصف الإسلامي في مواجهة العدو في تلك الجبهة من ناحية ثانية، ثم اتصالات أهل صقلية بالدولة الزيرية لمواجهة الخطر البيزنطي ثم الخطر النورماني بعد ذلك، كذلك ما جرى من اتصالات أهل الشام بالخلافة العباسية وبالسلطان السلجوقي من ناحية، وبالدولة الفاطمية من ناحية أخرى، وما جرى بين الخلافة العباسية والسلطان السلجوقي إلى غير ذلك، ولا يسعنا بطبيعة الحال في هذا المقام أن نستعرض كافة هذه الاتصالات لأن ذلك يخرجنا عن خطة هذه الدراسة، ولكننا سنكتفي بالتعرض لدور إفريقية فيها بشيء من التفصيل لإبراز هذا الدور لعلاقته المباشرة بموضوعنا.

سارت سياسة حكام إفريقية منذ بداية العدوان الصليبي في أكثر من اتجاه بغية إيجاد تعاون أفضل بينهم وبين حكام البلاد الإسلامية الأخرى والعمل على توحيد الجهود لمواجهة هذا العدوان، فقد سار تميم ين المعز على نفس سياسة أبيه في التفاهم مع الخلافة العباسية، وإذا كان أبوه المعز قد خطا خطوة اعترافه بتبعيته للدولة العباسية لأهداف أخرى غير هدف مواجهة العدوان الصليبي الذي لم يكن قد بدأ بعد، فإن ابنه تميم الذي بدأ هذا العدوان في

= مجلس الخليفة التي اتخذها الدكتور حسين مؤنس دليلاً على انتداب نفسيهما لهذه المهمة، فتلك المبالغة لا توحي بنفي التكليف إن لم تكن دليلاً ضد رأي الدكتور مؤنس وليس معه، وعلى كل حال فقد جرت العادة أن يبالغ كل رسول في إطراء مرسله ووصفه بشتى الصفات المحمودة والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة إذا كان المبعوث من وال إلى خليفة، لذلك فإنني أرى أن الأصوب هو ما ذهب إليه الدكتور عبد الهادي التازي من أن ابن العربي قد بعث سفيراً من قبل يوسف بن تاشفين إلى الخليفة العباسي، وكان هدف هذه السفارة هو اطلاع الخليفة على الوضع في الأندلس وأن يستطلع رأيه (في نقاط معينة يهدف بحثها إلى تحقيق مشروع مغربي للتضامن بين حكومة المشرق وحكومة المغرب لصالح الدولة الإسلامية المرتقبة هذا الموضوع الذي كان أول بادرة في العالم الإسلامي لتحقيق وحدة شاملة) (د. عبد الهادي التازي : جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، ص٧) ، ويقطع ابن خلدون (المصدر السابق ج٦ ص١٨٨) الشك باليقين بشأن هذه السفارة، إذ يقول في معرض حديثه عن يوسف بن تاشفين (وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعامي الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس وانقلبا إليه بتقليد الخليفة).

عهده كان يرى ضرورة المضي قدماً في هذه السياسة للوصول إلى هذا الهدف انطلاقاً من حقيقة هامة هي أن كل تنسيق وتعاون بين المسلمين هو زيادة في قوتهم، وبذلك حقق الانسجام مع باقي أقطار المغرب الإسلامي التي أخذت منذ سقوط الخلافة الأموية في الأندلس تنتظم في سلك الدولة العباسية من جديد، والتقت كلها حول هدف واحد هو محاولة إيجاد نوع من الوحدة في العالم الإسلامي وخلافة واحدة هي الخلافة العباسية، وقد عزز ظهور المرابطين هذه الفكرة الطموحة، وأخرج هذا الأمل الذي طالما راود أهل المغرب إلى حيز الوجود، فكان تميم بمواصلة اعترافه بالدولة العباسية قد أزال حاجزاً كان يحول دون هذا التناسق، وخطا خطوة محمودة في سبيل وحدة الهدف والمصير لأقطار المغرب، ولربما قيل إن مواصلة تميم السير في هذا النهج لم يكن وعياً منه لهذا الأمر، وإنما أملتها سياسة ابتعاده عن الفاطميين، فسواء كان ذلك بوعي كامل منه أو بلا وعي فالنتيجة في كلتا الحالتين واحدة هي تحقيق هذا الانسجام بين المغرب والخلافة العباسية، وإن كنت أستبعد أن لا يعي مثل تميم هذه الخطوة أو لا يقدرها حق قدرها وهو السياسي الواسع الأفق فضلاً عن أن شعبه كان من أشد المتحمسين لوحدة العالم الإسلامي عملاً بالسنة التي كانوا يتمسكون بها أشد تمسك.

ومنذ ظهور دولة المرابطين، اتجهت السياسة الزيرية إلى تحقيق تعاون وتفاهم معها، فسادت العلاقات الحسنة بين الطرفين والتي كانت تعززها القرابة القبلية بينهما من ناحية، والشعور بوحدة الهدف في مواجهة الطرفين للعدو المشترك من ناحية ثانية، ودليلنا على ذلك تلك الرسالة التي أسرع يوسف بن تاشفين بإرسالها إلى تميم عقب انتصار الأول في معركة الزلاقة يعلمه بهذا النصر ويصف لقاءه للعدو في تلك المعركة، وكان يعلم مقدار ابتهاج تميم بهذه البشرى وأثرها في رفع الروح المعنوية لأهل إفريقية الذين كانوا يتوقعون الشر من نفس العدو في كل وقت، يقول ابن أبي زرع في ذلك : (وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدوة وإلى تميم صاحب المهدية فعمت الفرحات في جميع بلاد إفريقية وبلاد المغرب والأندلس واجتمعت كلمة الإسلام)[1]، واستمرت العلاقات الطيبة وظل

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص٥٢، انظر نص هذه الرسالة في محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص٤٤٦ وما بعدها.

التنسيق السياسي بين الطرفين قائماً طوال عهد يوسف بن تاشفين وتميم بن المعز.

وتطور هذا التنسيق بين الجانبين إلى مرحلة القيام بعمل مشترك ضد الصليبيين النورمان الذين كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على إفريقية، فحيال تهديدات رجار الثاني لعلي بن يحيى بن تميم كما سيأتي ذكره، تم الاتفاق بين الأخير وبين علي بن يوسف بن تاشفين على مهاجمة صقلية، يقول ابن الأثير في ذلك : إن علي بن يحيى (كاتب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش بالاجتماع معه على قصد جزيرة صقلية)[1]، وكان هذا الاتفاق كافياً لإعادة الصواب إلى رجار فعدل عما كان ينويه من مهاجمة إفريقية، إذ خشي مغبة الاشتباك في حرب سافرة مع كلا المرابطين والزيريين، وبالرغم من ذلك فقد أخذ كل من علي بن يحيى وعلي بن يوسف بن تاشفين في الاستعداد لتنفيذ هذا المشروع ولكن وفاة علي بن يحيى بعد ذلك بمدة وجيزة (ت سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م) حالت دون اشتراك الزيريين الفعلي في ذلك المشروع، واكتفى الأمير الزيري الجديد الحسن بن علي الذي كان طفلاً بتأييد المرابطين في جهودهم ضد النورمان، فمضى علي بن يوسف قدماً في تنفيذه منفرداً حيث أرسل أمير البحر المرابطي المشهور أبا عبد الله محمد بن ميمون[2] في أسطول كبير فأغار على مدينة نقوطرة (Nicotra) سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م[3] ففتحها واستباحها وعاد محملاً بالأسرى والغنائم، فلم يشك رجار في علاقة الحسن بن علي بهذه الغارة وحمله

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٦١١، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٦٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٠، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٤، د. أحمد مختار العبادي د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٤٥ – ٢٤٦، K. M. Setton Op. Cit., vol. 2, p.20. تختلف المصادر الإسلامية في اسم الأمير الزيري الذي اتصل بعلي بن يوسف، فالوزير السراج (ج١ ق٢ ص٤٧٠) يذكر أنه الحسن بن علي ويؤيده في ذلك الباجي المسعودي (ص٥١) في حين أن ابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون كما مر آنفاً يذكرون أنه علي بن يحيى والد الحسن، وأعتقد أنه لا تعارض بين القولين وأن الاتصالات بين المرابطين والزيريين كانت مستمرة.

(٢) يرد اسم هذا القائد في المصادر الإسلامية أحياناً باسم محمد بن ميمون وأحياناً أخرى باسم علي بن ميمون، انظر د. أحمد العبادي، د. سالم : المرجع السابق ص٢٤٦ حاشية ٢، ويعتقد (K. M. Setton : Ibid, v. 2, p. 20) أنه كان والي المرابطين على الجزائر الشرقية.

(٣) اختلف المؤرخون في موقع مدينة نقوطرة فيذكر ابن خلدون (ج٦ ص١٤٠)، د. سعيد عاشور (بعض أضواء ص٤٠)، الدكتوران العبادي وسالم (ص٢٤٥) أنها في صقلية، بينما يقول ابن الأثير (ج١٠ ص٦١١)، وأماري (المكتبة العربية الصقلية – الفهرست، مادة نقوطرة) ود. أمبرتو ريتستيانو : (ص١٤) أنها في قلورية بجنوب إيطاليا.

مسؤوليتها[1]، وكان ذلك هو السبب في حملة رجار على المهدية سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م كما سنذكره فيما بعد، وليس أدل على هذا التنسيق بين الجانبين مما قاله ابن عذارِى عن رجار من أنه كان كلما شن المرابطون غارة على بلاده نسب السبب فيها للحسن بن علي[2].

ولم يهمل تميم بن المعز وخلفاؤه من بعده شأن أبناء عمومتهم أمراء الدولة الحمادية بالمغرب الأوسط الذين كانوا يناصبونهم العداء منذ عهد حماد بن بلقين مؤسس تلك الدولة كما أشرنا إلى ذلك من قبل، إذ عندما بدأ الخطر الصليبي يهدد الطرفين بدأت الاتصالات تجري بينهما، وتبودلت السفارات، وكان الهدف منها رأب الصدع وتوحيد الصف لمواجهة الخطر المحدق بهما، فقد بذل أبو بكر بن أبي الفتوح وزير الناصر بن علناس الحمادي جهوداً طيبة في إصلاح ذات البين وكان يميل إلى تميم، حتى إنه ترأس سفارة إليه من قبل الناصر فرد تميم عليها بسفارة مماثلة يرأسها محمد بن البعبع، وقد أسفرت هذه السفارات والاتصالات عن عقد الصلح بين الطرفين، وتبع ذلك الصلح مصاهرة دعمت أركانه، إذ تزوج الناصر بن علناس من بلارة بنت تميم في سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م وأمهرها ثلاثين ألف دينار أخذ تميم منها ديناراً واحداً وردَّ الباقي، وأصحبها من الحلي والجهاز ما يفوق الوصف[3]، وبالرغم من أن النزاع بين الطرفين تجدد أكثر من مرة، إلا أن الجهود كانت تبذل في كل مرة لإزالة أسبابه وبقيت العلاقات بين الدولتين في مد وجزر حتى انقضاء عهدهما.

وما كاد يحيى بن تميم يتولى الحكم (سنة ٥٠١ - ٥٠٩هـ) حتى عاود الاتصال بالدولة الفاطمية، وأعاد الدعاء على منابر إفريقية للخليفة الفاطمي أبي علي المنصور، وتبادلا الهدايا في سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م[4]، وسار خلفاؤه من بعده على هذه السياسة في الاعتراف بتبعيتهم للدولة الفاطمية، والذي يستلفت انتباه الباحث هو ما الذي قصده يحيى ابن تميم بمعاودة طاعة الفاطميين؟ لا بد من وجود حافز قوي دفعه إلى ذلك أقوى من

(١) ابن عذارى : ج٣ ص٦٧، ابن خلدون : ج٦ ص١٦٠ .
(٢) ابن عذارى : ج١ ص٣٠٥ .
(٣)ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٠٧، كذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٥ .
(٤) ابن عذارى المصدر السابق ج١ ص٣٠٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠ .

السلبيات التي سيتسبب فيها هذا القرار، فهو بلا شك سيثير حفيظة رعيته التي يتمسك معظمها بالمذهب المالكي، كما أنه قد يثير حفيظة المرابطين الموالين للخلافة العباسية، وقد يجد بنو عمه الحماديون الموالون هم الآخرون للدولة العباسية، في هذا الأمر ذريعة لإثارة رعاياه عليه، وتكون فرصة طيبة لهم للتخلص منه بعد أن يكسبوا رعاياه لجانبهم، وتساور الباحث الحيرة حول هذا الحافز حينما يدقق النظر في أوضاع إفريقية في تلك الفترة، فقد كان وضعه أفضل من وضع أبيه وجده في عهد ما بعد الهجرة الهلالية، بدليل أنه استطاع أن يوسع رقعة إمارته عن ما كانت عليه في عهد أبيه، كما أنه امتلك أسطولاً استطاع أن يرهب به شواطئ جنوب غرب أوروبا حتى اتقته أمم النصرانية بالجزية كما تقدم ذكره، ثم إن العاصفة التي أثارتها الهجرة الهلالية إلى إفريقية كانت قد بدأت تهدأ وأخذت الأمور تميل نحو الاستقرار، كما أن ظواهر الأمور كانت تشير إلى أن الدولة الفاطمية كانت في ذلك الوقت لا تملك له ضراً ولا نفعاً، إذ كانت أعجز من أن تمد له يد المساعدة فيما إذا احتاج إليها، وأعجز أيضاً من أن تسلط عليه سيف الانتقام لو أرادت ذلك لأنها كانت وقتئذٍ آيلة إلى السقوط والانهيار، ولم يكن يتوقع منها شراً اتقاه بهذا القرار إذ أنها كانت قد أطلقت آخر سهم في كنانتها على إفريقية، وتزداد هذه الحيرة حينما لا نجد في المصادر التاريخية أي رد فعل لهذا القرار لا من رعيته ولا من المرابطين، فلا احتجاج من هذه الرعية يذكره أحد هذه المصادر، ولا تدهور في العلاقات مع المرابطين بل ما حدث معهم هو العكس إذ استمرت العلاقات الطيبة بين الطرفين وتطورت إلى الأحسن. ولا يجد الباحث في هذه المصادر ما يجلي هذا الغموض فكل المصادر التي اطلعت عليها أوردت هذا الخبر دون تعليق أو تعليل مما يزيد في الصعوبة على الباحث ليخرج برأي محدد في هذا الموضوع.

والذي أراه، أنه ما دام قطع العلاقات مع الدولة الفاطمية كان لغاية سياسة كما سبق أن ذكرناه، فإنه ليس من المستبعد أن تكون إعادتها لغاية سياسية أيضاً، وعلى ذلك فإنني أعتقد أن تبرير هذا الافتراض ليس بالأمر البالغ الصعوبة، إذ ما دام الخطر الصليبي على إفريقية قد برز بشكل واضح، سواء أكان ذلك الخطر من المدن البحرية الإيطالية أو من النورمان، فالأجدر بيحيى أن يكسب ثقل الدولة الفاطمية في معترك السياسة الدولية إلى جانبه كقوة ضاغطة

على المتربصين به من الصليبيين، فالدولة الفاطمية كانت ترفع شعار مسالمة الصليبيين بتأثير من مستشاريها من غير المسلمين[1]، وبناءً على ذلك فقد يستطيع يحيى بن تميم بإعلانه تبعيته لتلك الدولة أن يقنع القوى الصليبية بأنه ملتزم بهذه السياسة التي تنتهجها الدولة المركزية، وبالتالي يبعد المطامع الصليبية عن إفريقية، ثم إنه كانت تربط نورمان صقلية بالدولة الفاطمية علاقات طيبة بالرغم من وجود بعض المنغصات في بعض الأحيان، وبهذه التبعية يجعل رجار يفكر أكثر من مرة قبل إقدامه على العدوان على إفريقية التي تكون رسمياً عبارة عن ولاية فاطمية، وينطبق نفس الأمر على المدن البحرية الإيطالية التي إن فكرت في الاعتداء هي الأخرى على إفريقية فإن ذلك سيكلفها الكثير لأنه سيحرمها من التجارة الشرقية التي تتحكم فيها الدولة الفاطمية، والحصول على تلك التجارة كان في نظر تلك المدن أهم بكثير من القيام بمغامرة في إفريقية غير مضمونة النتائج. وعلى أية حال فإن ما نتج عن هذا القرار هو أن إفريقية وصلت حبلها بالقوى الأخرى في المشرق، وبذلك تكون قد مدت كلتي يديها للمسلمين شرقاً وغرباً بهدف تقوية الصف الإسلامي في مواجهة الحركة الصليبية.

إفريقية ومواجهة الحركة الصليبية :

قامت إفريقية بدور بارز في مواجهة الحركة الصليبية في جبهات الصراع الإسلامي الصليبي الأربع، فعلاوة على دفاعها عن نفسها، لم تأل جهداً طوال الفترة الممتدة ما بين أواسط القرن الخامس إلى أواسط القرن السابع للهجرة (من أواسط القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد) بل وحتى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة في سبيل مد يد المساعدة للمسلمين في كل من الأندلس وصقلية والمشرق، أما بالنسبة لدفاع إفريقية عن نفسها ضد مطامع الحركة الصليبية فيها فقد أفردنا لبحثه الفصل الثالث من هذا الباب، وسنتعرض فيما يلي لمساعدة أهل إفريقية لإخوانهم في جبهات القتال الثلاث الأخرى :

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه السياسة انظر د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص١٩٣ وما بعدها، كذلك د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص١٩١ وما بعدها.

أ – الأندلس :

يعود تطلع مسلمي الأندلس لطلب المساعدة من إخوانهم في إفريقية إلى أيام سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، إذ يروي ابن الأثير أن أعيان قرطبة اجتمعوا إلي القاضي ابن أدهم وعرضوا عليه فكرة استقدام قسم من أعراب إفريقية إلى الأندلس يقاسمونهم أموالهم وأراضيهم ليكونوا لهم عوناً في حربهم ضد النصارى الإسبان الذين أخذوا يكتسحون بلادهم، ولكن ابن أدهم خشي من حدوث مزيد من الفوضى في البلاد الأندلسية ولذا فضل الاستنجاد بالمرابطين[1]، وبدخول هؤلاء إلى الأندلس، وما تبع ذلك من توحيدها مع المغرب الأقصى في دولة واحدة، وتولي المرابطين عبء جهاد الصليبيين في ذلك الميدان، ثم بروز الخطر النورماني على إفريقية بعد ذلك بفترة وجيزة، كل ذلك صرف مساعدة إفريقية عن الأندلس، اللهم إلا ما كان من جهود فردية محدودة لم تقدم ولم تؤخر.

وبظهور دولة الموحدين وقيام عبد المؤمن بن علي خليفتهم الأول بطرد النورمان من المهدية آخر معاقلهم في إفريقية وما تبع ذلك من توحيد المغرب العربي بأسره والأندلس في دولة واحدة، برز دور إفريقية في الجهاد في ميدان الأندلس بشكل واضح، إذ عمل عبد المؤمن على الاستفادة من الطاقة الكبيرة للهلالية فيها في مشروعاته التالية لمواجهة النصارى الإسبان، لذلك عمل منذ احتكاكه بهم على كسبهم إلى جانبه، ولم يحاول إذلالهم عندما انتصر عليهم في معركة سطيف سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، فأكرم نساءهم وأطفالهم الذين وقعوا أسرى في يده في تلك المعركة، وأخذهم مكرمين إلى مراكش، ثم أرسل إليهم يخبرهم بأن هؤلاءالأسرى من ذويهم في الحفظ والبر وطلب منهم القدوم لاستلامهم، وأطلقهم بأجمعهم حينما وفد عليه رؤساؤهم إلى مراكش في طلبهم[2]، وتقرب إليهم حتى كان يخاطبهم ببني العم، فلانت له عريكتهم وبدأوا ينقادون إليه لذلك انضموا إلى جيشه حينما زحف إلى إفريقية لتحرير المهدية، وعندما قفل عائداً إلى مراكش اصطحب معه ألف

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٥١ – ١٥٢ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ص٧٦ .

أسرة من كل بطن من بطون أعراب جشم[1] وأسكنهم في المغرب الأقصى، ويقول ابن الأثير أنه صرح لهم برغبته في إرسالهم الأندلس للجهاد قائلاً : (قد وجبت علينا نصرة الإسلام، فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس، واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فتحت البلاد أول الإسلام، وبكم يدفع عنها العدو الآن)[2] وبالفعل صحبه جماعة منهم في جوازه إلى الأندلس سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م. وفي سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م بدأ في الاستعداد للجواز إلى الأندلس من جديد، فاستنفر الهلالية من إفريقية للجهاد فلبوا نداءه، يقول البيذق في ذلك إن عبد المؤمن جاز إلى سلا وعسكر بها في انتظار تكامل جيشه، وأثناء ذلك قال (ليوسف بن سليمان، ركب لي العرب، ركب لي منهم أربعة عشر ألفاً وأعطيك البشارة، فركبها حتى تخاطفت العرب على الخيل، ودخل عليه يوسف بن سليمان بالبشارة)[3]، ويؤيد ابن أبي دينار رواية البيذق بقوله عن عبد المؤمن : (واستجلب الأجناد والمطوعة من سائر عمله يستنفرهم للجهاد فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من بلاد إفريقية والمغرب والقبائل واجتمع له من الموحدين وقبائل زناته ومن العرب أزيد من ثلاثمائة ألف فارس...)[4]، وإن كان لم يقدر لهذا الجيش دخول الأندلس نظراً لابتداء المرض بعبد المؤمن قبل زحفه ثم وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ / مايو سنة ١١٦٣م، فإن ابنه وخليفته أبا يعقوب يوسف حينما اشتدت فتنة ابن مردنيش في الأندلس بتحريض من النصارى وهاجم قرطبة، أرسل أخاه أبا حفص سنة ٥٦١هـ / ١١٦٦م في جيش كبير ضم قبائل زغبة ورياح والأثبج[5] من أعراب إفريقية حيث التقى بابن مردنيش وحلفائه من النصارى في فحص مرسية وانتصر عليهم.

وعندما عزم أبو يعقوب على الجواز بنفسه إلى الأندلس وبدأ في حشد جيوشه سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م، استدعى الهلالية من إفريقية (وخاطبهم بقصيدة يحرضهم فيها على

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص١٣٩، انظر كذلك البيذق : المصدرالسابق ص٨٠ .
(٢) ابن الأثير :المصدرالسابق ج١١ ص٢٤٦ .
(٣) البيذق : المصدر السابق ص٨١ .
(٤) ابن أبي دينار: المصدر السابق ص١١٧ م، انظر كذلك ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص٢٠١ .
(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٣٨ .

الجهاد ويستدعيهم إلى الغزو وعلى الاستعداد ويصفهم فيها بما هم فيه من الرحامة والشهامة ويستدنيهم غاية استدناء)[١]، ويبدو أن مرضه الذي دام أربعة عشر شهراً قد أخر تنفيذ هذا المشروع، وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م وصلته رسالة من أخيه أبي حفص يشرح له فيها تكالب العدو على الأندلس وكان لا يزال مريضاً، فأمر باستداعاء (العرب من إفريقية وخاطبهم بهذه القصيدة من قول ابن طفيل :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب   لغزو الأعادي واقتناء الرغائب)[٢]

ولما أبطأوا في الوصول إلى مراكش خاطبهم بقصيدة أخرى من نظم ابن عياش يستعجلهم فيها[٣]، (فلما وصلت إلى العرب هاتان القصيدتان وأوضحوا قراءتهما وتبينت لهم معانيهما وفصاحتهما وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار أجابوا إلى الطاعة

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٧٦ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٨٨ . ومن هذه القصيدة

ألا فابعثوها همة عربية   تخف بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر   وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها   بطاعة أمر الله من كل جانب
دعوناكم نبغي خلاص جميعكم   دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبتغي لنفوسنا   ونؤثركم زلفى بأعلى المراتب
بكم نصر الإسلام بدءاً فنصره   عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به   ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٨٩. ومما جاء فيها :

وقوموا لنصر الدين قيمة ثائر   وشدوا على الأعداء شدة صايل
واسروا بني قيس إلى نيل غاية   من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نيّة   عواقبها منصورة بالأوائل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي   تنجز في أفق الهدى بدلائل
فطيروا إليها يا هلال بن عامر   ثقالاً خفافاً بين حاف وناعل

(انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٨٩)

بأجمل البدار ووصلوا بجميعهم إلى السيد الأسنى أبي زكريا يحيى بن عبد المؤمن ببجاية فتحرك معهم إلى مراكش... وكان عدد الخيل الواصلة من إفريقية أربعة آلاف فرس ومائة وخمسون حملاً من المال الصامت)[١].

وقد استبشر الخليفة بقدومهم وكان في ذلك الوقت قد أبل من مرضه فباشر من فوره في المسير، وخرج من مراكش قاصداً إشبيلية في يوم السبت الرابع عشر من رجب سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م ويبدو أن عدد الهلالية في هذا الجيش قد تزايد بعد ذلك حتى ساوى عدد فرسانهم فيه عدد فرسان الموحدين إذ يقول ابن عذارى : (فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس دون المطوعة والناس)[٢]، ومن الثابت أنهم أقاموا مع أبي يعقوب مجاهدين ما يزيد عن الأربع سنوات وكان لهم أثر محمود في تلك الغزوة التي حقق فيها أبو يعقوب عدة انتصارات، ودعم موقف المسلمين في الأندلس، وتصمت المصادر التاريخية عن ذكر ما إذا كان قسم منهم قد عاد مع الخليفة إلى المغرب سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م أم أنهم واصلوا جميعاً إقامتهم في الأندلس. واستمرت الحرب شديدة بين الموحدين والنصارى بعد عودة الخليفة إلى مراكش، ولم يجد هذا الخليفة بداً من دعم جبهة الأندلس من جديد خاصة بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش الموحدي سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٧م بالقرب من قونقة أمام جيوش قشتالة وأرغونة فعزم في سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م على معاودة العبور إلى الأندلس وأخذ يعد العدة لذلك فنظر (في استجلاب العرب من إفريقية)[٣]، فقدمت عليه حشودهم سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بصحبة ابن جامع فنهض بهم وبمن اجتمع عنده من غيرهم في صفر سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م[٤] من فاس قاصداً إشبيلية ومنها دخل إلى بلاد النصارى غازياً حتى وصل إلى شنترين وحاصرها وكان ما كان من استشهاده بالقرب منها.

وفي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م جاز أبو يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدي الثالث جوازه الأول إلى الأندلس للجهاد، وقد ضم جيشه عدداً كبيراً من هلالية إفريقية بين فارس

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٩١ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٩١ وابن خلدون : العبر ج٦ ص٢٣٩ وما بعدها.
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص١١٣ . انظر ابن خلدون : العبر ج٦ ص٢٣٩ .
(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٤١ .

وراجل [١]، ويفهم من نص لابن عذارى ورد في معرض حديثه عن هذه الغزوة أنه كان هنالك فئات من الهلالية مقيمة في الأندلس للجهاد ضمن الحاميات الموحدية[٢]، وقد فتح المنصور في تلك الغزوة حصن طرش، وهاجم حصن المنار ومدينة شلب وارتد عنهما، واضطر للعودة إلى المغرب لتجدد فتنة ابن غانية في إفريقية، ونظراً لانشغال المنصور بتلك الفتنة، ووقوع الخلاف بين ملوك النصارى الإسبان في تلك الآونة هدأت الحرب في الأندلس بضعة أعوام. بيد أن تعيين مارتين دي بسيرجا الذي كان شديد الحماس لقتال المسلمين أسقفا لطليطلة أعاد التوتر للجبهة الأندلسية من جديد، إذ في العام التالي لتعيينه قاد بنفسه حملة تخريبية كبيرة إلى بلاد المسلمين مما حفز ألفونسو الثامن ملك قشتالة على معاودة هجومه على المسلمين، وبلغت به الصلافة والجرأة أن أرسل إلى المنصور رسالة يتحداه فيها بشكل استفزازي[٣]، فأخذت المنصور حمية الإسلام، وباشر في حشد الجيوش، وعندما استكمل استعداداته جاز إلى الأندلس في سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م في جيش ضخم كان من بين جنده عدد كبير من هلالية إفريقية[٤] حيث التقى بألفونسو في معركة الأرك وانتصر عليه انتصاراً باهراً لا يقل في أهميته عن انتصار يوسف بن تاشفين يوم الزلاقة وظلت إفريقية تمد الجيش الموحدي كلما عزم على الجهاد في الأندلس بآلاف المجاهدين اشتركوا في غالبية المعارك التي خاضها الموحدون في الجبهة الأندلسية[٥]، فقد بلغ عدد فرسان هلالية إفريقية فقط في جيش الناصر بن المنصور يوم العقاب على سبيل المثال حوالي عشرة آلاف فارس عدا المشاة والمطوعة[٦] وما سوى الهلالية.

وعندما أفل نجم الدولة الموحدية وآذنت بسقوط وتكالب العدو على مسلمي الأندلس، وأخذ فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس (El Santo) «١٢١٧ – ١٢٥٢م» يستولي على نهر الوادي الكبير بما عليه من مدن هامة مثل قرطبة التي سقطت في

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٤ ص٢٤٥، كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص١٧٤ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص١٧٨ .
(٣) انظر ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص٢٢١ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٢٢٣، كذلك ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص٢٢١ وما بعدها.
(٥) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٦٢ .
(٦) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص٤٦ .

يده سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٦م وغيرها، بينما بدأ خايمي (جاقمه) الأول Jaime I (١٢١٣ - ١٢٧٦م) ملك أرغونة الذي تلقبه المصادر الإسبانية بالفاتح (El Conquistador) في الزحف على شرق الأندلس، تطلع الأندلسيون إلى إفريقية فمدوا أيديهم إلى الأمير أبي زكرياء الأول الحفصي، الذي كان قد انفصل عن الدولة الموحدية المعتلة حينما أعلن المأمون الموحدي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م إبطاله لمهدوية ابن تومرت[١] حيث بدأ في إرساء قواعد الدولة الحفصية، مستغيثين به من هذا الخطرالذي دهمهم، فكانت بلنسية من أوائل مدن الأندلس التي استغاثت بأبي زكريا وأرسلت له ببيعتها حينما شرع خايمي الأول في مهاجمتها سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م بتحريض من البابا جريجوري التاسع (Gregory IX) الذي أصدر مرسوماً بإضفاء الصفة الصليبية على حروب إسقاط بلنسية، فأرسل أميرها أبو جميل زيان بن مردنيش كاتبه ووزيره ابن الأبار إثر هزيمة البلنسيين في موقعة أنيشة (أنيجة) Puig de Caballa[٢] إلى تونس للاستنجاد بأبي زكريا، ولا تمدنا النصوص التاريخية التي بين أيدينا بتاريخ واضح لهذه السفارة فيما إذا كانت تمت قبل الحصار الذي ضربه خايمي الأول على المدينة في شهر رمضان سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م[٣] أو أثناء الحصار الذي دام حتى استسلام المدينة له في ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م[٤]، وأياً كان الأمر فإن ابن الأبار مثل بين يدي أبي زكريا وأنشده قصيدته الرائعة التي مطلعها :

(١) عن هذا الموضوع : انظر ابن عذارى : المصدرالسابق ج٣ ص٢٦٧ وما بعدها.

(٢) دارت هذه المعركة بين أهل بلنسية ومن ناصرهم من أهل شاطبة وجزيرة شقر، وجيش خايمي الأول في يوم الخميس الموافق ٢٠ ذي الحجة ٦٣٤هـ هزم فيها المسلمون واستشهد كثير منهم في ساحة المعركة كان من بينهم عالم الأندلس وفقيهها المشهور أبو الربيع بن سالم الكلاعي، فضلاً عن سبعين من أهل الصف الأول بجامع بلنسية الأعظم كلهم خرجوا للجهاد فنالوا الشهادة.
انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٤ ص١٦٧، ابن الشماع :المصدر السابق ص٤٨، حاشية ٢، المقري : نفح الطيب ج٤ ص٤٧٣، د. عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص٤٧٥ . وانظر ترجمة الكلاعي في : ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٠٢، ابن بشكوال : الصلة ج١ ص١٩٧ - ١٩٨، الضبي : المصدر السابق ص٢٨٥ الغبريني : عنوان الدراية ص٢٧٩، ابن فرحون : المصدر السابق ج١ ص٣٨٥ وما بعدها.

(٣) كان جيش خايمي الذي حاصر بلنسية يضم جموعاً غفيرة من الفرنسيين بقيادة مطران أربونة، وجموعاً أخرى من جنوة (انظر عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ص٤٧٥).

(٤) يرجح الدكتور عبد الرحمن الحجي أن هذه السفارة تمت قبل الحصار، انظر عبد الرحمن الحجي :=

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا[1]

فلبى أبو زكريا هذه الاستغاثة وعجل بإرسال أسطول مكون من ١٨ سفينة إلى بلنسية محملاً بالمؤن والأسلحة قدرت بعض المصادر قيمتها بمائة ألف دينار[2]، ويضيف ابن عذارى إلى ذلك أنه كان بصحبة هذا الأسطول أبو يحيى الهنتاني ومعه مال ناض أيضاً ليدفعه إلى أميرها ابن مردنيش[3] ليتقوى بها، ولكن هذا الأسطول لم يتمكن من دخول المدينة لأن العدو كان قد شدد عليها الحصار، فكتب قائده بذلك للأمير أبي زكريا في رابع محرم سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م فأمره بدفع ما معه لأهل دانية ثم العودة إلى تونس ففعل، ولم يكن تفريغ حمل الأسطول في دانية اعتباطاً بل لأن العدو كان سيهاجمها إن آجلاً أو عاجلاً، فهو بذلك قد قدم الدعم العاجل لتلك المدينة في صراعها المقبل مع العدو ما دامت الظروف قد حالت دون استفادة بلنسية منها.

ولم يصرف سقوط بلنسية في يد العدو مسلمي الأندلس عن التعلق بأبي زكريا، فتوالت وفود كبريات مدنها في الوصول إلى تونس ببيعات تلك المدن، وظل أبو جميل زيان ابن مر دنيش على طاعته لأبي زكريا إذ بعد خروجه من بلنسية ذهب إلى جزيرة شقر وأخذ على أهلها البيعة أيضاً لأبي زكريا، وعندما هاجمها العدو غادرها إلى دانية وأخذ على أهلها البيعة أيضاً لأبي زكريا، ويذكر ابن عذارى أن كلاً من مرسية وشاطبة ولورقة وجزيرة شقر قد بايعته[4]، وبذلك (انتظمت البلاد الشرقية من الأندلس في طاعة الأمير أبي زكريا)[5] فولى عليها جميعاً أبا جميل زيان بن مردنيش. وفي سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م عقب وفاة الخليفة الرشيد الموحدي قطع ابن الأحمر محمد بن يوسف بن نصر الدعوة للخليفة الجديد

= المرجع السابق ص٤٧٥ وما بعدها.

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ج٢ ص١٢٧، ابن عذارى : المرجع السابق ج٣ ص٣٤٤، ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٢٦ وما بعدها. ابن الشماع : المصدر السابق ص٤٨، حمودة بن عبد العزيز : التاريخ الباشي، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس ورقة ٩٩ وما بعدها، محمد بن أحمد المعسكري : عجائب الأسيار، مخطوط ورقة ٧٠.

(٢) الزركشي : تاريخ الدولتين ص٢٧.

(٣) ابن عذارى : ج٣ ص٣٤٤.

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٥٤.

(٥) ابن عذارى المصدر السابق ج٣ ص٣٤٧، انظر أيضاً حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق، ورقة ٩٩ - ١٠٠ .

السعيد الموحدي وبايع أبا زكريا، وقد توجه ببيعته إلى تونس أبو بكر بن عياش شيخ مالقة وأبو بكر التزولي فأرسل إليه أبو زكريا أموالاً كثيرة (برسم أن يستعين بها المسلمون على الجهاد)(١)، ثم تبعت إشبيلية شرق الأندلس في إعلان تبعيتها لأبي زكريا، فأرسل أهلها بيعتهم إليه سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م(٢) واقتدى بهم أهل المرية وشريش وطريف(٣)، فولى أبو زكريا على إشبيلية ابن عمه أبا فارس بن يوسف بن الشيخ أبي حفص، وأرسل معه رسالة إلى أهلها يطمئنهم ويعدهم فيها بالمساعدة(٤)، ولكن يبدو أن عمال أبي زكريا لم يكونوا على مستوى المسؤولية (فاشتغلوا بما لا يصلح من الفساد وجرت لهم أمور شنيعات لا يمكن ذكرها فأخرجهم أهل إشبيلية)(٥) إلى سبتة وأعادوا واليهم السابق ابن الجد، ولكنهم عادوا فثاروا عليه وقتلوه ربما لخيانته واتصاله بالنصارى، وأعادوا أبا فارس والياً عليهم مرة أخرى، وقد استغل فرناندو الثالث ملك قشتالة هذه الحوادث التي كانت تدور في المدينة وبدأ في شن غاراته على نواحيها منذ أواخر سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م، فأرسل أبو زكريا حينما علم بذلك أسطولاً يحمل الإمدادات إليها لتتمكن من الصمود في وجه العدو، يقول ابن عذارى في ذلك : (وفي سنة أربع وأربعين وستمائة وصلت الأجفان(*) التونسية إلى سبتة وإشبيلية)(٦)، ويبدو أن المدد من أبي زكريا لإشبيلية قد توالى بعد ذلك لإدراكه ما يبيته العدو لها، فعمل كل ما في وسعه لشحنها بالقوة، وصدق حدسه، إذ لم يلبث أن زحف

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٠٩، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق، ورقة ١٠٠، أما ابن خلدون (ج٤ ص١٧٠ – ١٧١) وابن الشماع (ص٥١) فيقولان أن بيعة إشبيلية وصلت أبا زكريا سنة ٦٤٣، والأصح في اعتقادنا هو ما ذكرناه في المتن لأن أبا فارس الذي تولاها لأبي زكريا قد تولاها مرتين الأولى سنة ٦٤١هـ والثانية سنة ٦٤٣هـ فاعتبرا أن سنة ٦٤٣ هي سنة البيعة ولكنها في الحقيقة كانت سنة عودة أبي فارس مرة أخرى لولايتها.

(٢) ابن القنفذ : المصدرا لسابق ص١٠٩، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٧٩ وما بعدها.

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٧٩ وقد أورد نص هذه الرسالة مختصرة، انظر كذلك ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص٦٧ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٧٩ .

(*) الأجفان : جمع جفن وهي سفينة حربية بطيئة الحركة لكبر حجمها. (انظر د. سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ص٣٣٦).

(٦) ابن عذارى : المصد رالسابق ج٣ ص٣٨٠ .

فرناندو إليها متعللاً بمقتل ابن الجد، يقول ابن عذارى في ذلك : (ولما قتل ابن الجد رحمه الله كان قتله سبباً في نزول النصارى مدينة إشبيلية لأن أذفونش كان مصافياً لابن الجد ومصالحاً له على المسلمين فلما مات فسد الصلح بينهم فحاصرهم)[1]، وضيق عليها الخناق براً وبحراً في جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م، وتصمت معظم المصادر التاريخية عن ذكر ما قام به أبو زكريا في سبيل نصرتها وإنقاذها من العدو، وطال بحثي في هذه المصادر عن ذلك لاعتقادي بأن لإشبيلية مكانة خاصة في نفس أبي زكريا، ومن غير المعقول أن يقف من حصار العدو لها موقف المتفرج، حتى عثرت على نص أورده حمودة بن عبد العزيز في التاريخ الباشي يدعم وجهة نظري في هذا الموضوع يقول فيه إن أبا زكريا أرسل أسطوله إليها بالمدد (فوصل إلى وادي إشبيلية وغلبهم أسطول الطاغية على المرسى (فرجعوا)[1]، وحالت الظروف دون أن يعاود أبو زكريا إغاثة المدينة من جديد نظراً لأن الخليفة السعيد الموحدي كان في تلك الآونة يعد العدة لاكتساح إفريقية والقضاء على أبي زكريا نفسه، حيث كان السعيد قد استعد (لهذه الحركة استعداداً عظيماً لم يعهد به قبله فيما تحرك من الحركات مثله فقد كان يستعد لها من حين ولي الإمارة إلى هذه السنة المؤرخة — سنة ٦٤٦هـ — فتحرك لها)[3] حتى إنه لم يتورع عن محالفة الإمبراطور فردريك الثاني (وطلب منه الإعانة بالأجفان الصقلية إذا وصل إلى البلاد الإفريقية)[4] وحتى إنه لم يكترث باستغاثات أهل إشبيلية التي كانوا يرسلونها إليه لشدة رغبته في القضاء على أبي زكريا، فلم يسع الأخير إلا أن يبادر في الاستعداد لمواجهته، ولما أعيى الحصار المدينة الباسلة اضطرت إلى الاستسلام في ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م[5]، ولم يلبث أبو زكريا أن توفي في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م وخلفه ابنه المستنصر الذي سار على سنة أبيه في مساعدة الأندلس حسب ما كانت تسمح به ظروفه.

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٨١.
(٢) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٨٦ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٨٦ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٨٥، انظر أيضاً ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص٦٩ .

أما عن السبب في إخفاق أبي زكريا وابنه المستنصر من بعده في إنقاذ الأندلس من تكالب العدو عليها منذ هزيمة الناصر الموحدي في وقعة العقاب منتصف صفر سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م[١] فيعود إلى عدة أسباب منها بعد إفريقية عن الأندلس وعدم وجود البحرية القوية لديها لنقل المدد وسيطرة النصارى على البحر الأبيض المتوسط ثم العداء بين الحفصيين وبني زيان الذين كانوا في ذلك الوقت يقومون بتأسيس إمارتهم في المغرب الأوسط ثم مع الموحدين في المغرب الأقصى بعد انفصالهم عن خلافتهم الأمر الذي لم يكن يمنع إرسال الجيش عن طريق البر فحسب، وإنما كان يهدد الوجود الحفصي ذاته كما حدث بالنسبة للخليفة السعيد خاصة وأن الدولة الحفصية كانت لا تزال في طور التأسيس لا سيما في عهد أبي زكريا، ثم إن العدوان الصليبي على الأندلس كان عدواناً منظماً يسير وفق خطط مدروسة وضعتها الحركة الصليبية وسخرت لها جزءاً كبيراً من إمكانيات أوروبا الغربية البشرية والمادية في حين أن الدولة الحفصية كانت محدودة الإمكانيات إذا ما قورنت بإمكانيات العدو، ثم إن نجم بني مرين كان قد بدأ في الصعود، ولم يكونوا يقلون لا عن الموحدين ولا عن سواهم حماساً للجهاد ونصرة الإسلام حتى إن أميرهم أبا بكر بن عبد الحق حينما بدأ النصارى في منازلة إشبيلية في أواخر سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م عزم على الجواز إلى الأندلس للجهاد وبدأ يستعد لذلك فمنعه ابن خلاص صاحب سبتة ونصحه بالقضاء على دولة الموحدين أولاً ثم التفرغ بعد ذلك للجهاد في الأندلس[٢] فقبل النصيحة خشية أن تقطع عنه الإمدادات أو طريق العودة، ولكن خليفته يعقوب بن عبد الحق عبر إلى الأندلس في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م أي قبل استكمال الإطاحة بالموحدين بحوالي عشر سنوات (فغزا بلاد الروم ودوخها وملك بالأندلس ثلاثة وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون، وأما القرى والبروج فما يزيد على ثلاثمائة قرية)[٣]، وبذلك كفى بنو مرين الحفصيين مؤونة الجهاد في الأندلس، ولا ننسى أن بني مرين في تلك الفترة كانوا في طاعة المستنصر الحفصي إذ كانوا قد بايعوا أبا زكريا[٤] ثم بايعوا

---

(١) عن هذه المعركة انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٢٤١ وما بعدها، ابن فرحون : المصدر السابق ج١ ص٢٣٣ وما بعدها.

(٢) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص٦٧ .

(٣) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص٩٠ .

(٤) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .

المستنصر من بعده، فمنذ ذلك الوقت تولى بنو مرين عبء الجهاد في الأندلس وتعزز دورهم هذا بعد سقوط الدولة الموحدية فكانت معالجة القرحة الأندلسية مسؤوليتهم وشغلهم الشاغل، يضاف إلى كل ذلك أن أمراء الأندلس كانوا كما هي عادتهم دون مستوى المسؤولية وعلى أشد الخلاف فيما بينهم، فلم تعلمهم التجارب التي مرت بها بلادهم مع العدو، فبدلاً من التكتل وتوحيد صفوفهم لمواجهة هذا العدو كان بعضهم يحارب البعض الآخر، فابن مردنيش كان رجل الحفصيين في الشرق، وأعلن محمد بن يوسف بن هود تبعيته للدولة العباسية[1]، أما ابن الأحمر فكان مصافياً للنصارى حتى إنه لم يتورع عن إعانة فرناندو الثالث ملك قشتالة على إشبيلية[2]، فكان ذلك سبباً هاماً في ضعف الأندلسيين وبالتالي عدم فعالية مساعدات إفريقية لهم.

ومع ذلك، فإن سلاطين بني حفص لم يكفوا عن تقديم كل عون ممكن لأهل الأندلس، إذ يقول عبد الله الترجمان عن مخدومه السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي إنه كان قد رسم (لأهل الأندلس منه الإحسان الدائم فقد رتب لهم ألف قفيز من القمح في كل عام لتوزع على أولي الفاقة منهم سوى ما يصحب ذلك من إدام ومال عين وخيل عتاق وكمية من السلاح النفيس وما لا يوجد عندهم من البارود الجيد)[3]، ويفهم من نص لابن الشماع أن هذه المعونة كانت ترسل إليهم في كل سنة إذ يقول في معرض حديثه عن مآثر مخدومه السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي (٨٣٩هـ - ٨٩٣هـ) : (ومن مآثره - نصره الله - صدقته الجارية في كل عام على أهل جزيرة الأندلس إعانة لهم على ما هم بصدده من جهاد عدو الدين. واتبع في ذلك سبيل آبائه الكرام)[4]، ولم تكن مساعدة الأندلس وقفاً على السلاطين، وإنما تعدتها للأمراء وأبناء الشعب، من ذلك ما ذكره ابن القنفذ القسنطيني أنه في سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م حينما قضى المستنصر على ثورة أخيه الأمير أبي إسحق خرج

---

(١) أعلن ابن هود تبعيته للخلافة العباسية ووصله التقليد والراية سنة ٦٣١هـ مع حسن بن علي الكردي الملقب بالكمال (انظر ابن خلدون : المصدرالسابق ج٣ ص١٧٠ - ١٧١)

(٢) حمودة بن عبد العزيز : المصدرالسابق ورقة ١٠٠ .

(٣) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص١٣ - ١٤ .

(٤) ابن الشماع : المصدر السابق ص١٦٣ .

الأخير مع من بقي من أنصاره إلى المغرب الأقصى ثم عبر البحر إلى الأندلس (فوقف معه الأمير أبو عبد الله بن الأحمر ورعى له ذمة أبيه، وشهد هنالك الوقائع في عدو الدين وأبلى البلاء الحسن، واشتهر اسمه وعلا صيته)[1].

وبالاضافة لما تقدم، فإن سلاطين بني حفص فتحوا بلادهم للذين هاجروا من الأندلس فراراً بدينهم وأرواحهم من بطش العدو وتنكيله، فأحسنوا وفادتهم وفتحوا لهم أبواب الرزق والحياة الكريمة، فكان الوافدون منهم يجدون مجالاً واسعاً لاستثمار مواهبهم في مجالات التجارة والصناعة زيادة عن الحقل الثقافي وميدان السياسة والإدارة، فكانت إفريقية في نظرهم تعتبر الملاذ الأخير لهم[2] فقصدوها بأعداد غفيرة في أكثر من موجة خاصة في زمن أبي زكريا الأول وابنه المستنصر اللذين كانا يميلان إلى الأندلسيين ويقدران مواهب النابهين منهم حتى أصبح هؤلاء عيون الدولة الحفصية في عهدهما وتولوا فيها أسمى المناصب مثل أبي المطرف المخزومي الذي وفد على أمير بجاية زكريا بن أبي زكريا الأول الحفصي فأكرم مثواه، وأقام أبو المطرف في كنفه يراسل ملوك المسلمين يستنهض هممهم لنصرة الأندلس وألف لمخدومه رسالة شرح فيها الأرزاء والنكبات التي حلت ببلاده والتي كان شاهد عيان لها، كما ألف كتاباً آخر عن الأندلس نحا فيه منحى العماد الأصفهاني في الفتح القسي، ثم ارتحل بعد ذلك إلى تونس وأقام في كنف أبي زكريا الأول وكتب له رسالته المشهورة يستنهضه لإغاثة الأندلس[3]، ثم أبي الحسن حازم القرطاجني شاعر البلاط أيام المستنصر الذي وصف مكانته في الدولة الحفصية بقوله :

بلغت آراب المنى في دولة   أولت يدي أسنى الأيادي واللها[4]

وابن الأبار الذي عاد إلى تونس بعد سقوط بلنسية في يد العدو وتولى كتابة العلامة لأبي زكريا، ثم أبي بكر بن خلدون الجد الأعلى للمؤرخ الذي تولى الحجابة لأبي فارس بن أبي إسحق حينما ولي بجاية، والرئيس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين الذي كان المدبر

---

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٨ .

(٢) انظر د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص٢٧ .

(٣) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون ص٦٥ .

(٤) د. محمد الحبيب بن الخوجة : قصائد ومقطعات صنعة حازم القرطاجني ص٢٧ .

لشؤون دولة أبي زكريا الأول وابنه المستنصر[1] وغيرهم كثير، وهنالك نص أورده ابن عذارى يفهم منه أن أبا جميل زيان بن مردنيش أمير شرق الأندلس السابق قد لجأ إلى تونس هو الآخر وكان من خاصة المستنصر، إذ يقول في معرض حديثه عن المؤامرة التي تعرض لها المستنصر في مطلع حكمه : (وبعد سنة وأشهر من ولايته – المستنصر – أراد بعض الموحدين أن يخلعوه واجتمعوا على عمه أبي عبد الله اللحياني فبايعوه بيعة الخاصة وهو قاعد في داره والموحدون معه يتفاوضون في أمره. إلى أن دخل على المستنصر علجه ظافر الكبير وأعلمه بما وقع في دار عمه من التدبير فأمره باستدعاء بعض الفرسان وحضر ابن أبي الحسين خاصة وأبو جميل زيان بن مردنيش وغيره من رؤساء الأندلسيين...)[2] حيث قاموا بالقضاء على هذه المؤامرة وقتلوا اللحياني. كما يستفاد من هذا النص أيضاً أن الأندلسيين كانوا هم أركان دولة المستنصر وخاصته وموضع ثقته. وأما عدد هؤلاء الأندلسيين الذين لجأوا إلى إفريقية فيقدرهم الدكتور محمد الطالبي ببضع عشرات الآلاف[3]، وعلى ذلك تكون إفريقية قد قامت بدورها كاملاً غير منقوص في مد يد العون والمساعدة لأهل الأندلس سواء في بلادهم أو على أرضها.

ب – صقلية :

كان لصقلية ومسلميها مكانة خاصة لدى حكام إفريقية وأهلها منذ فتحها أيام الأغالبة، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن أهل إفريقية هم الذين نالوا شرف فتحها ونشر الإسلام فيها، أو لكونها ظلت تابعة لإفريقية منذ ذلك الفتح حتى انتقال الفاطميين إلى مصر، أو نظراً لقربها منها مما وثق الروابط والصلات بين البلدين، فلطالما رحل من شاء من أهل إفريقية إلى صقلية إبان الأزمات ولطالما رحل بالمقابل العديد من الصقليين إلى إفريقية لأغراض مختلفة كما سيذكر فيما بعد مما أوجد اختلاطاً في الدم بين الطرفين، وربما كان ذلك نتيجة لهذه الأسباب مجتمعة، مما جعل الحكومات التي تعاقبت على حكم إفريقية

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص٥١ وما بعدها.
(٢) ابن عذارى : المصدرالسابق ج٣ ص٣٩٨ .
(٣) انظر د. محمد الطالبي : المصدر السابق ص٥٦ .

تنظر لصقلية هذه النظرة الخاصة وجعلها تقدم كل ما تستطيعه من مساعدات لمسلميها حينما يتعرضون للخطر، وكان أهل صقلية يبادلون إخوانهم في إفريقية نفس الشعور ويتطلعون إليهم كلما ألمت بهم الملمات، فحينما بدأ البيزنطيون يتطلعون للاستيلاء على بلادهم منذ أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) منتهزين فرصة الاضطرابات والفتن الداخلية التي حدثت فيها في تلك الآونة، حيث أرسل الامبراطور بسيل الثاني حملة عسكرية ضخمة في سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م للاستيلاء على كل من صقلية وقلورية ووصلت تلك الحملة إلى الجزيرة بالفعل وحاصرت بلرمة، استنجد الصقليون بالمعز بن باديس الذي سارع إلى إعداد أسطول كبير أرسله لنجدتهم، ولكن هبوب عاصفة بحرية عليه في الطريق أغرقت معظم قطعه ولم يصل منه إلى الجزيرة إلا عدد قليل كما سبق أن ذكرنا، إلا أن الذي أنقذ الجزيرة من الخطر كان هو موت بسيل الثاني في تلك الفترة ورغبة خليفته قسطنطين الثامن في عقد الصلح مع الفاطميين، ذلك الأمر الذي تم بالفعل في سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م.

وفي سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م جثم الخطر البيزنطي على صقلية من جديد، إذ عمل البيزنطيون على الاستفادة من حالة السلم التي كانت بينهم وبين البلغار، ومن الاتفاقية التي عقدوها مع الدولة الفاطمية والتي تعهدت تلك الدولة بموجبها بعدم مد يد المساعدة لصقلية إذا ما أراد البيزنطيون غزوها، ومع أن أمير صقلية الأكحل الكلبي كان قد أدرك مغزى تلك الاتفاقية والنوايا البيزنطية فاستبق الحوادث بإعلانه الاعتراف بسيادة الامبراطور البيزنطي على الجزيرة في سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م ليأمن العدوان، إلا أن ذلك لم يثن هذا عن عزمه في احتلال الجزيرة فأرسل في سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م الحملة التي قادها جورج منياس كما سبق أن ذكرنا والتي نزلت في شرقها واستولت على سرقوسة، فسار جماعة من زعماء المسلمين في الجزيرة إلى المعز بن باديس وأطلعوه على أوضاع بلادهم التي أطمعت العدو فيها، ومع أن المعز كان يعاني آنذاك من الثورات والفتن التي زادت حدتها في إفريقية بشكل كبير، إلا أنه صعب عليه التفريط فيها فأرسل جيشاً بقيادة ابنه عبد الله لنصرتها، الذي تمكن من اقتحام الحصار البحري البيزنطي المفروض عليها، وأن يخلص شلفودة ثم يحاصر

الأكحل والي الجزيرة في الخالصة لتواطئه مع البيزنطيين وأن يقضي عليه، ولكن الصقليين بدلاً من أن يلتفوا حول عبد الله بن المعز لدفع الخطر البيزنطي عن بلادهم، عاد بعضهم إلى بعض وفضلوا الاستقلال بشؤونهم على التبعية للمعز، ونشبت الفتنة بين الصقليين ومنجديهم تطورت إلى قتال هزم فيه ابن المعز وقتل ثمانمائة رجل من جيشه[1] مما اضطره إلى الانسحاب والعودة إلى إفريقية، وقد صحبه عدد كبير من أشرافها وعلمائها وصلحائها مؤثرين الهجرة على العيش في ظل المشاكل الداخلية وتهديد الخطر الخارجي[2]، ولم ينقذها من البيزنطيين في تلك المرة إلا حسن حظها أيضاً، إذ انسحب منياس منها هو الآخر نظراً للمتاعب التي سببها له فرسان النورمان الذين كانوا يعملون خلف خطوطه في جنوب إيطاليا، وكذلك لانعدام التنسيق بين القوات البحرية التي كان يقودها والقوات البرية التي كانت بقيادة القائد ستيفن[3]، وبالرغم من انسحاب عبد الله بن المعز من الجزيرة، إلا أن المعز لم يتركها وشأنها، إذ يبدو أن أسطوله استمر في التعرض للأسطول البيزنطي ومهاجمته في المياه الصقلية فيما بين عامي ٤٣٠ – ٤٣٥هـ / ١٠٣٨ – ١٠٤٣م[4].

وحينما دخل النورمان الجزيرة سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م وهزموا ابن الحواس أمام قصريانة كما تقدم، فزع أهلها وغادرها كثير منهم إلى إفريقية لائذين بالمعز واستغاثوا به لإنقاذ بلادهم مما نزل بها، وبالرغم من أن صرخة الاستغاثة هذه جاءت في وقت كان فيه المعز يتعرض للهجمة الهلالية، إلا أنه رأى بذل ما يستطيع لنصرة مسلمي صقلية، فعمر أسطولاً من أربعمائة سفينة شحنه بالجنود والأسلحة والمؤن، وكان الوقت شتاء، فلم يطق الانتظار حتى فصل الصيف خشية أن يقوم النورمان بتثبيت أقدامهم فيها فعجل بإرسال ذلك الأسطول فهبت عليه عاصفة بحرية قرب جزيرة قوصرة دمرت أكثر سفنه ولم ينج منها إلا القليل[5]، ويعلق ابن الأثير على هذه الكارثة بقوله : (وكان ذهاب الأسطول مما

(١) ابن الأثير : المصدرالسابق ج١٠ ص١٩٤، انظر كذلك أبو الفدا : المصدرالسابق ج٢ ص٢٠٠ .
(٢) أبو الفدا : المصدر السابق ج٢ ص٢٠٠ .
(٣) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص٣١٠ وما بعدها.
(٤) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص١٩٧ .
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٧، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا =

أضعف المعز، وقوى عليه العرب، حتى أخذوا البلاد منه)[1]، لذلك لم يتمكن المعز من المحاولة مرة أخرى حتى وفاته سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م وما أن هدأت حدة الموجة الهلالية نوعاً ما وتمكن تميم بن المعز الذي خلف أباه في الحكم (٤٥٣هـ - ٥٠١هـ / ١٠٦١ - ١١٠٧م) من التفاهم مع بعض بطون الهلالية حتى عاد لإحياء مشروع أبيه في إنقاذ صقلية من النورمان، فأرسل إليها حملة عسكرية بقيادة ولديه أيوب وعلي، فنزل أيوب بمعظم الجيش في المدينة بينما نزل علي في جرجنت (كركنت) Girgenti بين مظاهر الابتهاج والاستبشار، وعندما انتقل أيوب إلى جرجنت أمر ابن الحواس بإنزاله في قصره إكراماً له، وحينما لمس أهل تلك المدينة طيبة أيوب وحسن معاملته لهم أحبوه، فحسده ابن الحواس الذي خشي على مركزه منه، فكتب إلى أهل المدينة المذكورة يأمرهم بإخراجه من بلدهم فرفضوا، وبذلك يقدم ابن الحواس الدليل على أنه لم يكن أفضل من ابن الثمنة الذي أدخل العدو إلى بلاده، وتطور الأمر بين أيوب وابن الحواس إلى قتال نشب بينهما حيث انتصر أيوب وقتل ابن الحواس، فولى أهل صقلية أيوب عليهم[2] الذي أخذ يبذل أقصى الجهود لتوحيد المسلمين في الجزيرة تمهيداً لمنازلة النورمان، وبدأ الأمل في الخلاص يراود النفوس الغيورة، وكان الشعراء يذكون الحماس في النفوس في تلك الفترة ويستنهضون الهمم بما يقولونه من قصيد أمثال عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية المشهور[3]، وأثناء ذلك حدث

= وتونس ص٣٨، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٧، د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص١٨، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٨، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص١٥٥، د. إبراهيم طرخان : المرجع السابق ص٢٤٧ .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٧، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٣٨ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٧، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٠٩ .

(٣) كان مما قاله ابن حمديس في تلك الآونة قصيدته التي جاء فيها :

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي ... إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف إني خائف أن تدوسكم ... دواه وأنتم في الأماني مع الحلم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة ... مصرحة الروم بالثكل واليتم
تهيل مع النقع المحلق بالضحى ... على الشمس ما هالته ليلاً على النجم =

ما لم يكن في الحسبان، إذ اندلعت الفتنة بين أهل صقلية والجيش الزيري بسبب خلاف بسيط حدث بين بعض جند أيوب وبعض الأهالي فتطور هذا الخلاف إلى فتنة بسرعة مذهلة مما يثير الشك لدى الباحث في أن أصابع أعداء الإسلام لم تكن بعيدة عنها، ونشب القتال بين الطرفين، وحيال ذلك اضطر أيوب وأخوه إلى الانسحاب والعودة إلى إفريقية في سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م[1] تاركين صقلية تواجه مصيرها التعس، وصحبهما العديد من أعيان البلاد ومثقفيها كان من ضمنهم ابن حمديس نفسه، يقول ابن الأثير في ذلك : (وصحبهم جماعة من أعيان صقلية والأسطولية، ولم يبق للفرنج ممانع)[2].

ولما وجد مسلمو الجزيرة أنفسهم في مواجهة النورمان دون نصير وأنه لا قبل لهم بشن حرب مواجهة منظمة ضدهم، لجأوا إلى حرب العصابات، وكان أسطول تميم بالرغم مما حدث مع ولديه لا يكف عن الإغارة على مواقع النورمان سواء في صقلية أو في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية لمشاغلتهم مساندة منه لمسلمي صقلية. فقد أغار في سنة ٤٦٧هـ /

= وصولوا ببيض في العجاج كأنها ... فروق بضرب الهام محمرة السجم
فلا عدمت من سلّها من غمودها ... ظهوراً، فقد تخفى الجداول بالرجم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر ... أحب إلى سمعي من النقر في البم

ومنها :

ولله أرض إن عدمتم هواءها ... فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم
وعزكم يفضي إلى الذل والنوى ... من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
وإن بلاد الناس ليست بلادكم ... ولا جارها والحكم كالجار والحكم
أعن أرضكم تغنيكم أرض غيركم ... وكم خالة جداء لم تغن عن أم
تقيد من القطر العزيز بموطن ... ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
وإياك عنه أن تجرب غربة ... فلن يستخير العقل تجربة السم

(انظر أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص١٦٠).

(١) ابن الأثير : المصدرالسابق ج١٠ ص١٩٨، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٨، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص١٦٠ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٨ .

١٠٧٤م على نقوطرة ونواحيها غارة موفقة وعاد إلى إفريقية غانماً، وأغار في العام التالي على مازرة وحاصرها ولكنها امتنعت عليه مما اضطره للرجوع عنها[١]، وكانت هذه الغارات من أهم الأسباب التي جعلت رجار يعقد معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م مع تميم، والتي بموجبها تعهد تميم الكف عن مضايقة رجار في حين تعهد الأخير باستئناف شحن القمح الصقلي إلى إفريقية[٢].

وعندما استولى النورمان على الجزيرة بأكملها اشتدت وطأتهم على المسلمين فيها بعكس ما يشاع عن تسامحهم معهم، وإذا كانت هنالك أدلة يسوقها البعض على تسامح ملوكهم، فإن الأدلة على الاضطهاد والتعصب ضد الإسلام والمسلمين كثيرة، وإن تسامحهم المزعوم مع المسلمين لم يكن إلا بقدر حاجتهم إليهم نظراً لتفوقهم عليهم في أعمال الإدارة والزراعة والصناعة وغيرها، فمنذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزيرة بدأوا يعملون على القضاء على مظاهر الإسلام فيها بقدر الإمكان[٣]، وإذا كان نضوج الحضارة العربية الإسلامية فيها قد حدث في عهدهم فإن ذلك أمر لم يكن لهم يد فيه وإنما جرى بحكم طبيعة الاستمرار شأنه كشأن شجرة طيبة غرست في أرض الجزيرة وتعهدها أصحابها حتى أثمرت وبدأ هذا الثمر في النضوج، فكان لا بد أن يتم نضجه، ففي رواية المؤرخ مالاتيرا التي يصف فيها الفظائع التي ارتكبها الغزاة النورمان في المسلمين ما يدحض القول عن تسامحهم إذ يقول (إن القدر أحياناً أسوأ من الموت، فالعربي الهارب من الهجوم

---

(١) أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٩.

(٢) كان الحصول على قمح صقلية أمراً حيوياً بالنسبة لأمراء بني زيري خاصة في سنوات القحط والمجاعة التي كانت تصيب إفريقية، ولذلك كثيراً ما اضطروا لقبول شروط النورمان حتى لا ينقطع عن إفريقية هذا المصدر للقمح

انظر : A. Belkhdja : Les Normands de Sicile en Ifriqiya, p.37 - 38.

كذلك د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٦، ويؤكد ابن الأثير ذلك بقوله في حوادث سنة ٥٣٦ عن رجار : (ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية إلى إفريقية).

(٣) انظر وصف وليم الأبولي (William of Apulia) لاستيلاء رجار على بلرمةوتدمير مساجدها وتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة حيث يقول إن رجار أسس تلك الكنيسة للعذراء ليجلس الرب في نفس المكان الذي كان يجلس فيه الشياطين – ويعني بهم المسلمين – ذلك أنهاباب يؤدي إلى الفردوس العلوي. انظر : (Norman Daniel : Op. Cit., p.148)

النورماني كان يقتل أخته التي تعجز عن السير ليجنبها الأسر والاغتصاب)[1]، وإن رجار الثاني الذي تعتبره العديد من المراجع قمة هذا التسامح قد أعدم فيليب المهدوي قائد أسطوله لمجرد أنه سمح لبعض النساك والعباد المسلمين بمغادرة بونة (عنابة) عند احتلاله لها في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م دون أن يقتلهم مما عرضه لتهمة أنه مسلم في السر وكانت هذه التهمة كافية لقتله حرقاً[2]، وليس أدل على هذا الاضطهاد والتعصب مما رواه ابن جبير عن أوضاع المسلمين المؤلمة التي شاهدها وخبرها بنفسه عندما زار الجزيرة إذ يذكر اجتماعه بشخص من وجوه المسلمين فيها اسمه عبد المسيح فعلم منه أنه مسلم في السر ولا يقدر على المجاهرة خوفاً من بطش النورمان فيقول بلسانه : (ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، ومتمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً، معتقلون في ملكة كافر بالله، وقد وضع في أعناقنا ربقة الرق)[3]، وينقل صوراً مشابهة شاهدها عياناً أو قيلت له[4]، فكان من الطبيعي أن لا يسكت المسلمون على هذا الاضطهاد وأن تتعدد ثوراتهم، وكان من أكبر هذه الثورات تلك التي نشبت في عهد وليام الأول (غليالم، غليوم، غليام Gulliuime).

فقد دب الحماس في نفوس المسلمين للمقاومة والثورة بعد طرد النورمان من المهدية سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م مما أثار هؤلاء عليهم فدبروا لهم مذبحة بلرمة سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م التي راح ضحيتها العديد من المسلمين[5] وغادرها الباقون واعتصموا بالجبال وأقاموا حكومة خاصة بهم[6]، ويشهد المؤرخ فلكاندو (Ugo Falcandus) بنجاح هذه

---

(١) Norman Daniel : Op. Cit., p.144 - 145.

(٢) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٨٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٤، د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص٢٧٥، أما دافيد دوغلاس (: D. Douglas Op. Cit., p.60) فيعتقد أن السبب في قتله هو الصراع الذي كان بين رجال البلاط، والأصح هو ما روته المصادر الإسلامية والتي منها المصدرين الآنفي الذكر.

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص٢٩٩ – ٣٠٠ .

(٤) انظر ابن جبير : المصدر السابق ص٣١٣ وما بعدها حيث يورد العديد من هذه الأمثلة.

(٥) عن هذه المذبحة انظر د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٢١، K. Setton : Op. Cit., v. 2, p.32. Norman Daniel : Ibid, p. 149 - 150.

(٦) د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٢٥ .

الثورة إذ يقول واصفاً التفكك الذي حدث في صقلية بين المسلمين والمسيحيين معلقاً على وفاة وليام الثاني دون عقب ووصيته للامبراطور الألماني هنري السادس بملك صقلية : (لو توج أهالي صقلية رجلاً مقراً له بالقدرة، ولو زال التنازع بين المسيحيين والعرب، لتمكن الملك الذي يختارونه من رد حملات الأجانب ومن إصلاح أمور الدولة البادية علائم انحلالها، ولكن بعد أن سادت الفوضى وعاد الناس لا يخافون سلطة الملك، قد أصبح وللأسف، من المتعسر أن يكف النصارى عن التعدي على العرب، وأن يكف هؤلاء، وهم مسيئو الظن بهم وناقمون ظلمهم، عن التمرد وعن كبس حصن على البحر تارة، وقلعة في الجبال طوراً)[1]، وقد طالت مدة هذه الثورة فكانت لا تزال مشتعلة في سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م، إذ يذكر أبو شامة أنه في تلك السنة ورد كتاب من المهدية إلى الإسكندرية جاء فيه أن (أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها وأن عسكر الفرنج قد خرج لإنجاد أصحابهم بصقلية والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخفية)[2]، ونتيجة لما تقدم من النصوص، يدور في مخيلة الباحث تساؤل هام هو هل كانت هذه الثورة وما سبقها من مقاومة للاحتلال تتغذى ذاتياً أو أنها كانت مدعومة من قوة خارجية تبعث إليها بالمساعدات وتساندها؟

في الحقيقة، إن النصوص التاريخية المتوفرة لا تقدم الجواب الواضح والشافي على هذا السؤال، ولكن توجد هنالك مؤشرات يستطيع الباحث أن يستشف منها أن عناصر المقاومة الإسلامية كانت تتلقى دعماً خارجياً. فالدولة الموحدية منذ طرد النورمان من المهدية وتوحيد المغرب العربي والأندلس في دولة واحدة قد اقتربت من صقلية بالقدر الكافي الذي يجعلها تتحسس مشاكل المسلمين فيها ومتاعبهم، ومن المستبعد وهي الدولة التي تولت عبء جهاد الصليبيين في غرب العالم الإسلامي أن تقف موقف اللامبالاة من ثورة إسلامية ضد نصارى غاصبين ودامت وقتاً طويلاً كهذه الثورة، خاصة وأنها عاصرت عهد خلفاء الموحدين الثلاثة الأول العظام، وأن أخبارها كانت معروفة في إفريقية بدليل أن تلك الأخبار قد وصلت إلى مصر عن طريقها كما يقول أبو شامة في النص الآنف الذكر والتي كانت

---

(١) د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٢٤ - ٢٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية ج٢ ص١٧٧ .

ولاية موحدية في ذلك الوقت، ثم إن مملكة النورمان أصبحت لا يخشى بأسها منذ وفاة رجار الثاني. ويلقي ابن جبير بعض الضوء على هذا الموضوع، الذي يمكن اعتبار قوله هذا أحد هذه المؤشرات، فيذكر في حديثه عن القائد أبي القاسم بن حمود الذي كان من الأشراف العلويين أن ملك صقلية قد غضب عليه وألزمه داره وصادر ما تزيد قيمته عن ثلاثين ألف دينار من ممتلكاته لأن أعداءه اتهموه بالاتصال بالموحدين(١)، ومع أن ما يفهم من رواية ابن جبير أن هذه التهمة باطلة، إلا أن ذلك يدل على ريبة ملك صقلية بزعماء المسلمين فيها بشأن اتصالهم بالموحدين، ومن المستبعد أن تقوم تلك الريبة والشكوك بدون أساس ذلك أنه لا دخان بدون نار كما يقال، ومن المحتمل أن تكون حقيقة هذا الأمر قد خفيت على ابن جبير فلم يشر لها بوضوح، ثم إننا لو افترضنا جدلاً ببطلان هذه التهمة عن ابن حمود فإن ابن جبير لا ينفيها عن غيره، وهنالك ثمة مؤشر آخر إلى ذلك هو أنه أثناء الصراع على السلطة بين مستشاري الملك وليام الأول وهما اصطفان ومايو اجتهد اصطفان في تأليب النصارى على المسلمين الذين كانوا يميلون إلى خصمه متعللاً بأن الموحدين بعد أن وصلوا إلى إفريقية يتأهبون لاستعادة صقلية مستعينين بمن فيها من المسلمين(٢)، وكانت النتيجة المذبحة التي نفذت في المسلمين في بلرمة والتي سبق أن أشرنا إليها، فهل كان ذلك محض اختلاق دون استناد إلى دليل؟ إن المرء ليشك في ذلك خاصة وأن أياً من المصادر المسيحية التي اطلعت عليها لم تنفيها أو تشكك بها على الأقل، وما دام احتمال مساعدة المقاومة الصقلية قائماً فلن يكون هنالك من سبيل لهذه المساعدة إلا من إفريقية.

ويزودنا فلكاندو بمعلومات هامة عن تلك الفترة إذ يقول معقباً على وضع الصقليين بعد موت وليام الثاني وانضمامها للامبراطور هنري السادس : (... فكيف يتمكن الصقليون من مقاومة غزوات العرب بيد، ومحاربة الألمان – والحرب معهم عنيفة – بالأخرى؟ فيا ليت وحد الأشراف والعوام، والنصارى وأهل الإسلام نياتهم، وأجمعوا على اختيار ملك لهم، وبذلوا كل جهودهم في سبيل رد هجمات المعتدين)(٣)، فمن هم العرب

(١) ابن جبير : المرجع السابق ص٣١٤ .
(٢) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص٢٨٦ – ٢٨٧ .
(٣) د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص٢٥ .

الذين تحدث عنهم هذا النص والذين كانوا يقومون بغزو صقلية في ذلك الوقت؟ لو كانت جيوش الدولة الموحدية لذكرتها المصادر بوضوح، ولكنها على الأرجح غزوات صغيرة، والأقرب إلى العقل والمنطق ما دام أن هذا المؤرخ المعاصر قد اعترف بها أن تكون من إفريقية، ولا يتحتم في مثل هذه الغزوات أن يكون هدفها الغزو فقط فقد تكون أيضاً لتقديم العون المادي والعسكري. ثم يأتي ابن عذارى ليلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع ويؤكد اتصال ثوار صقلية بإفريقية واعتراف هؤلاء بتبعيتهم للموحدين وبالتالي طلب المساعدة منهم إذ يقول في حوادث سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م (وصلت الأنباء إلى الحضرة بتغليب المسلمين على كثير مما في أيدي الروم من معاقل صقلية ووصول أعيانهم ووجوههم إلى مدينة تونس إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص وإطلاق الخطبة في بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية وإنكارهم ما سواها من المقصورة على العباسية)(١)، فما بين بدء نشوب هذه الثورة سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م ولحين الإشارة الصريحة بطلب المساعدة سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ما يزيدعن الخمسين سنة فهل يمكن أن تدوم جذوة هذه الثورة مشتعلة طوال هذه المدة دون مساعدة خارجية؟ إن ذلك أمر من غير الممكن حدوثه على الأرجح، وفي الغالب أنها كانت تتلقى من المساعدات ما أعانها على الاستمرار، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تكون إفريقية على الأرجح هي التي قدمت للثوار المساعدات التي مكنتهم من الصمود طوال هذه المدة، وأما ما بعد ذلك، فمنذ مقابلة الوفد الصقلي لأبي محمد بن أبي حفص بادر الأخير إلى إيلاء مسلمي صقلية عنايته فلم يدخر جهداً في مدهم بما استطاع من دعم مادي ومعنوي.

وبعد انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية وتأسيس أبي زكريا الأول الحفصي لدولته فيها، كانت الثورة في صقلية لا زالت مشتعلة وزادها حدة انشغال الامبراطور فردريك الثاني بنزاعه مع كل من البابوية والمدن اللمباردية ومشاكله في ألمانيا(٢)، فكان أبو زكريا يمد الثوار بالعون سراً حتى لا يثير عليه الامبراطور في وقت كانت فيه دولته في طور التأسيس، ولكن الامبراطور بعد تغلبه على مشاكله زحف على الثوار وأنزل بهم ضربة قاصمة وشنق

---

(١) ابن عذارى : المرجع السابق ج٣ ص٢٣٤ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص٣٩١وما بعدها.

قائدهم ابن عباد ونفى معظمهم إلى مدينة لوجارة (Lucera)[(١)] الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في إضعاف المقاومة الإسلامية في الجزيرة، ومع ذلك فقد كان للمعاهدة التي عقدها أبو زكريا مع الامبراطور في سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م أثر محمود على المسلمين فيها، إذ تضمنت شرطاً يضمن لهم حرية دينهم وذواتهم وأملاكهم وأن يكونوا شركاء للنصارى في البلاد والضاحية[(٢)] فصلحت حالهم وظلوا يتمتعون بهذه الرعاية الحفصية حتى وفاة أبي زكريا سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، حينذاك تجرأ النصارى عليهم ونقضوا العهد، ولجوا في طغيانهم عليهم مما اضطرهم للالتجاء إلى الجبال من جديد حيث نصبوا عليهم زعيماً من بني عبس وأخذوا يدافعون عن أنفسهم، ولكن النصارى كاثروهم وحاصروهم حتى اضطروهم للتسليم، فقبضوا عليهم وقتلوا منهم من قتلوا وأجلوا الباقين عن صقلية[(٣)].

وكما استقبلت إفريقية اللاجئين إليها من الأندلس، فتحت أبوابها أيضاً للصقليين الذين قدموا إليها في فترات متفاوتة كما سبق أن ذكرنا، وقد قدر حسن حسني عبد الوهاب عددهم ما بين العشرين ألفاً والثلاثين ألفاً[(٤)]، استقر معظمهم في المدن الساحلية حيث توفرت لهم أسباب الحياة الكريمة، ولا زال أحفادهم لغاية وقتنا الحاضر يعيشون في العديد من مدن الساحل التونسي مثل المنستير، خنيس، هيبون، رجيش، ويمكن التعرف عليهم من ألقابهم التي تدل على أصلهم الصقلي، كالصقلي والمازري إلى غير ذلك[(٥)].

جـ – المشرق :

وأما في المشرق، فإنه يتعذر على الباحث فرز جهود مسلمي إفريقية من بين جهود باقي إخوانهم المغاربة التي بذلوها في هذه الجبهة، لأن المغاربة في نظر المؤرخين والجغرافيين

---

(١) د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٢٥ .

(٢) انظر ابن خلدون : المرجع السابق ج٦ ص٢٨٠، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص١٨٢، د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص٢٥ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٨٠، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص١٨٢ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٢٥٦ .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٢٥٧ .

المسلمين هم أهل البلاد الممتدة من حدود إقليم برقة الغربية شرقاً إلى آخر بلاد الإسلام غرباً بما في ذلك الأندلس والجزر الإسلامية في غرب البحر الأبيض المتوسط وليسوا أهل المغرب الأقصى فقط، ومن هذا المنطلق نستطيع القول إن المغاربة ومن ضمنهم أهل إفريقية قد أسهموا بنصيب مرموق في الحروب الصليبية التي دارت رحاها في المشرق، فمنذ السنوات الأولى لوصول الصليبيين إلى بلاد الشام، انخرط كثير من المغاربة في سلك القوى الإسلامية التي تصدت للغزاة، ولم يكن هؤلاء المجاهدين المغاربة بطبيعة الحال جيوشاً منظمة أرسلتها حكوماتهم لنصرة إخوانهم، ولكنها كانت جهود أفراد وجماعات كانت تأتي إلى المشرق لأغراض عدة أهمها الحج أو طلب العلم أو التجارة أو خصيصاً للجهاد، فكان هؤلاء حينما يرون احتدام المعارك بين المسلمين والصليبيين تهزهم الحمية ويلقون بأنفسهم في أتونها، فركب الحجاج المغاربة الذي كان يصل سنوياً إلى المشرق ويضم الآلاف كان العديد منهم بعد أدائه فريضة الحج يتوجه إلى بلاد الشام إما لزيارة الأماكن المقدسة فيها كالمسجد الأقصى في بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين والحرم الإبراهيمي في الخليل وغيرهما، أو تجنباً للمرور بمصر خوفاً من التعرض لأذى حكامها الفاطميين أيام دولتهم، يقول ابن الأثير في ذلك: (إن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر)(1)، فكان من تواتيه الفرصة من هؤلاء لأن يقرن فريضة الحج بالجهاد لا يدعها تفوته. وأما طلاب العلم المغاربة الذين كانوا يقصدون المشرق لأخذه عن مشاهير شيوخه فكانوا على مر السنين يفوقون الحصر نظراً لرغبة المغاربة إجمالاً في استقاء العلم من منابعه الأصلية في المشرق بالإضافة إلى ما اكتسبوه في المغرب، فكان العديد منهم يشارك في الجهاد ضد الصليبيين، ويؤكد ذلك ما ذكره الدكتور صلاح الدين المنجد نقلاً عن ابن عساكر أن من هؤلاء من كان يجاهد في سبيل الله أثناء مقامه في المشرق(2). يضاف إلى هاتين الفئتين فئة التجار التي كانت تفد إلى بلدان المشرق لأغراض التجارة، وأخيراً فئة المجاهدين الذين كانوا يقصدون المشرق بنية الجهاد، فقد وجد من بين

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق ج١٠ ص٤١٤.

(2) د. صلاح الدين المنجد: دمشق في نظر الأندلسيين ص٣٩، كذلك د. صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص٢٣.

المغاربة من كان يقسم عمره في المرابطة سنة في الأندلس وسنة في المشرق يقيم بينهما سنة في أهله، وقد قدم هؤلاء المغاربة لإخوانهم المشارقة مساعدات جلّى سجلتها كتب التاريخ.

ونظراً لشدة بأسهم وحسن بلائهم في القتال، رغب حكام المشرق من المسلمين فيهم وعملوا على إلحاقهم بجيوشهم، فقد ذكر ابن الأثير أن بدر الدين الجمالي حاول جهده لاستمالتهم وضم من يقدر عليه منهم إلى جيشه، ولكنه فشل في ذلك لازورارهم عن الدولة الفاطمية (فلما ولي الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج)[1]، كما يذكر ابن جبير (أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر)[2]، وقد قدر صلاح الدين المنجد عددهم في جيش صلاح الدين أثناء حصاره لمدينة عكا سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف[3] اعتماداً على نص أورده عبد اللطيف البغدادي وكرره المقريزي بحرفيته جاء فيه : (وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام وكان أكثر ما يتولاه المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً، ويسيرونه بحطب وحصير، ويقطعون حطباً من البساتين التي حولهم، ويحمون الماء في قدور، وصار حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر)[4]، وكانت نكاية هؤلاء المغاربة بالعدو شديدة مما أحفظه عليهم وبالغ في الإساءة إليهم حتى إنه فرض على المارين منهم بالبلاد الواقعة تحت سيطرته دفع ضريبة رأس عن كل فرد دون غيرهم إمعاناً منه في القسوة عليهم، وفي ذلك يقول ابن جبير : (وقال الفرنج : إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو)[5].

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٤١٤ .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٧٤ .

(٣) د. صلاح الدين المنجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص٢٣ .

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ق١ ص٩٤ .

(٥) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٧٤ .

ولكن أكثر ما اشتهر به المغاربة في المشرق هو جهادهم في البحر، فقد انخرط قسم كبير منهم في أسطول مصر بصفة خاصة حتى أصبحوا قوام الأسطول الإسلامي في المشرق في العصرين الأيوبي والمماليكي، ويعود ذلك إلى الفكرة التي كانت شائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر(١)، يضاف إلى ذلك عزوف الكثير من المشارقة عن الخدمة في الأسطول في عهد خلفاء صلاح الدين من بني أيوب لأنها كانت في نظر البعض أقل مرتبة من الجهاد في البر الذي يعتمد على الفروسية حتى كانت كلمة أسطولي إذا لقب بها المرء تعتبر شتيمة قبيحة في مصر في تلك الفترة(٢)، لذلك ألقي معظم عبء الجهاد في البحر على كاهل المغاربة، الذين أثبتوا أنهم ند للصليبيين في البحر وخصم عنيد لهم بل تفوقوا عليهم في مواقع عديدة، فحينما أجرى صاحب الكرك من أمراء الصليبيين عدة من سفنه في البحر الأحمر لقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام وأخذ جنده يعتدون عليهم ويروعونهم، حتى هموا بما هو أقبح وأفظع من ذلك، إذ أنهم عزموا (على دخول مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإخراجه من الضريح المقدس)(٣)، أمر صلاح الدين بإنشاء أسطول من عدة قطع (دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلو مع أنجاد من المغاربة البحريين، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم)(٤) حيث وزعوا على البلاد وأعدموا بها وسيق نفر منهم إلى منى وذبحوا ذبح الهدي (٥). ومن ذلك أيضاً ما جاء في رسالة من إنشاء القاضي الفاضل أرسلت عن صلاح الدين للخليفة العباسي يصف فيها غزوة بحرية قام بها الأسطول الأيوبي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وأن ذلك الأسطول كانت (عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت واستفرغت فيها عزائم الجهاد

---

(١) المقري : نفح الطيب ج٣ ص١١١ – ١١٢، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٧٩ .

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج٢ ص١٩٤، انظر كذلك د. سعيد عاشور : الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ص١٨٣ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ص٣٥ .

(٤) ابن جبير : المصدر السابق ص٣٥ .

(٥) لمزيد من التفصيل انظر المقريزي : السلوك ج١ ص٧٩، انظر كذلك د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٧٨٤ وما بعدها.

واستقصيت واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر ويفتكون في البر ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر)[١]، وظلوا على حالتهم هذه من المداومة على الجهاد البحري طوال جثوم الخطر الصليبي على مصر والشام في العصور الوسطى.

وقد اشتهر الكثير من هؤلاء المغاربة الذين قصدوا المشرق وجاهدوا الصليبيين في ساحات القتال بربوعه، ذكرت المصادر التاريخية الإسلامية أسماء عدة منهم مثل عبد السلام المغربي الذي كان قائداً لأسطول صلاح الدين الذي حاصر مدينة صور[٢]، والفقيه يوسف بن دوناس المغربي شيخ المالكية في دمشق الذي خرج للجهاد حينما هاجم الصليبيون دمشق سنة ٥٤٣هـ إبان الحملة الصليبية الثانية فحاول معين الدين أنر وزير الدولة البورية في ذلك الوقت ثنيه عن عزمه نظراً لكبر سنه وضعفه قائلاً له : (يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال. قال : قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله يعني قول الله تعالى : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ الآية وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيداً)[٣]، ويذكر ابن فرحون في ترجمته لعبد الله بن نجم بن شاس بن عشائر أن هذا الفقيه (توجه إلى ثغر دمياط – لما أخذه العدو المخذول – بنية الجهاد، فتوفي هناك أول رجب سنة عشر وستمائة)[٤]، ومنهم أيضاً عبد الله بن أحمد بن وشون الهذلي الذي (خرج إلى الحج وجاهد في سبيل الله)[٥]، والمتتبع لكتب الطبقات يجد الكثير من أسماء هؤلاء المجاهدين المغاربة في صفحاتها. ويبدو أن الحركة الصليبية قد أدركت أهمية المغاربة في دعم جبهة المشرق فكان من بين أهداف الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع على تونس احتلال إفريقية لقطع الاتصال بين الطرفين كما سيذكر في موضعه.

وقد حفظ المشارقة لإخوانهم المغاربة هذا الجميل، فأنشأ حكامهم وميسورو الحال

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ج٢ ص١٣ – ١٤ .
(٢) أبو شامة : المصدر السابق ج٢ ص١١٩ .
(٣) أبو شامة : المصدر السابق ج١ ص٥٣ . انظر أيضاً ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج ١ ص٢١ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ج١ ص٤٤٣ .
(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج٢ ص٤١٩ .

منهم المدارس لطلبة العلم منهم، مثل نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وسواهما، كما أنشأوا كذلك الرباطات والزوايا لإيوائهم، وأوقفوا على هذه المنشآت الأوقاف الكثيرة[1]، وساعدوا أبناء السبيل والفقراء منهم قدر المستطاع، من ذلك ما ذكره ابن جبير أن صلاح الدين قد عين (لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله، فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أكثر)[2]، وفتحوا المجال للراغبين في العمل منهم حتى خاطب ابن جبير الراغبين من أهل المغرب في العلم يحرضهم على الرحيل إلى المشرق دون تردد أو وجل لأن عيشهم مكفول بقوله : (فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام)[3]، كما بالغوا في العناية بافتكاك الأسرى منهم من يد الصليبيين، وفي ذلك يقول ابن جبير : (ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها، إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل)[4]، حتى إن نور الدين زنكي نذر حينما أصابه مرض أن ينفق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة إذا شفي، وفعلاً وفى بهذا النذر حينما شفي إذ أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة قائلاً إن هؤلاء يفتكهم أهلهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم[5]، وقد ذكر ابن جبير أسماء اثنين من تجار دمشق قد نصبا نفسيهما لافتكاك

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٥٧ .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ص١٦ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٥٨ .

(٤) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٨٠ .

(٥) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٨٠ .

الأسرى المغاربة هما نصر بن قوام، وأبو الدر ياقوت مولى العطافي[١].

وقد دعمت إفريقية جبهة المشرق بمادة هامة كانت في أمسّ الحاجة إليها هي الخشب اللازم لصناعة السفن الحربية، فكما هو معروف أن مصر كانت تفتقر إلى ذلك، وكانت معظم مناطق إنتاجه في بلاد الشام واقعة تحت سيطرة الصليبيين، لذلك كانت مصر تحصل على جزء لا يستهان به من حاجتها منه من إفريقية، وأما الباقي فمن إيطاليا وربما الأناضول، وقد اشتدت الحاجة إليه إبان مواجهة صلاح الدين للحملة الصليبية الثالثة ولهذا طلب من المنصور الموحدي إعانته بأسطوله[٢] وحينما لم يسع المنصور تلبية طلبه اتجه إلى إفريقية للحصول على ما يحتاجه من الخشب والملاحين المهرة منها لتدعيم بحريته[٣]، ولعل ضمان استمرار حصوله على الخشب كان من بين أهداف تدخله في إفريقية من خلال نشاط قراقوش التقوى مملوك أخيه فيها.

وزيادة على ما تقدم، فإن حكام إفريقية بحكم صلاتهم مع الدول الأوروبية خاصة منذ قيام الدولة الحفصية، كانوا على قدر من الاطلاع على نوايا الصليبيين، فكانوا يمدون سلاطين مصر والشام في العصرين الأيوبي والمملوكي بالمعلومات عما يبيته الصليبيون للمشرق الإسلامي، فقد ذكر ابن القنفذ القسنطيني أن الأمير أبا زكريا الأول الحفصي أرسل للملك الصالح نجم الدين أيوب يعلمه بأنباء الحملة الصليبية السابعة قبل مسيرها إلى مصر بمدة طويلة إذ يقول : (وكان الملك الصالح ابن الملك الكامل بن أيوب صاحب الديار المصرية يعد للأمير أبي زكرياء هذه الفضيلة ويراه أخاً، فإنه تحقق قصد الفرنسيس إلى الديار المصرية قبل أن يبلغ الملك الصالح فوجه كتابه في ذلك في البر إلى الملك الصالح فدخل عليه الرسول بالقاهرة فجاءه بالكتاب فإذا فيه الإعلام بما عزم عليه العدو – دمره الله – والاعتذار على عدم المبادرة إليه بنفسه وجنده، لما يخشى من عدو صقلية المجاورة له، ومن أعراب

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٨١ .

(٢) عن هذا الموضوع : انظر أبو شامة : المصدر السابق ج٢ ص١٧٠ وما بعدها، كذلك د. سعد زغلول عبد الحميد : العلاقات بين صلاح الدين والمنصور الموحدي ص٦٩ وما بعدها، عبد القادر الصحراوي : جولات في تاريخ المغرب ص٦٩ وما بعدها.

(٣) انظر عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ ص٢٧ حاشية ١ .

إفريقية، فأفاض على ذلك الملك الصالح في شكر الأمير أبي زكريا، وأثنى عليه، وأخذ حينئذٍ في الاجتهاد للقاء العدو، وأتى العدو عقب ذلك ونزل بدمياط)[1]، والمستفاد من هذا النص هو شعور الأمير الحفصي بواجبه تجاه سلطان مصر والشام فبادر إلى تحذيره بما تدبره له الحركة الصليبية، ثم إنه لم يكن ليكتفي بهذا التحذير فقط بل كان سيبادر بالمسير إلى مصر بنفسه وجنده ليشارك في الدفاع عنها لولا خشيته من العدو المتربص به في صقلية ثم الفتنة الداخلية التي قد يثيرها الأعراب الهلالية أثناء غيابه.

ومع أن محقق كتاب الفارسية الذي ورد فيه هذا النص يعلق عليه بما يفيد استبعاده لصدور هذا التحذير من أبي زكريا لنجم الدين أيوب، ويعتقد أن ابن القنفذ أحب أن يرفع من مكانة أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية التي كان هو في خدمتها فذكر له هذه المأثرة ويعلل ذلك بأنه ربما كان ذلك مشاعاً فحكاه ابن القنفذ على علاته[2]، معتمداً في ذلك على ما ورد في المواعظ والاعتبار للمقريزي[3] ووفيات الأعيان[4] لابن خلكان من أن الملك الصالح علم بأنباء هذه الحملة أثناء وجوده في دمشق، وليس أثناء وجوده في القاهرة كما ورد في النص، إلا أن ذلك في اعتقادي لا ينفي وقوعه، فكون الملك الصالح قد علم بأنباء هذه الحملة أثناء وجوده في دمشق فأسرع بالعودة إلى القاهرة[5] لا ينقض رواية ابن القنفذ، فقد يكون رسول أبي زكريا قد اجتمع بالملك الصالح في تلك الآونة، وأما بالنسبة للإشارة التي وردت في هذه الرواية والتي تفيد بأن أبا زكريا كان أول من أعلم الملك الصالح بهذا الأمر قبل أن يعلم به من جهة أخرى، فلعل ذلك على الأقل ما كان يعتقده أبو زكريا لأنه بطبيعة الحال لم يكن يعلم باتصال فردريك الثاني بالملك الصالح، الذي دخل رسوله على الصالح في زي تاجر مبالغة في الكتمان، لذلك فإنني لا أستبعد صحة رواية ابن القنفذ لا سيما وأنه كان حسن الاطلاع على وثائق الدولة الحفصية بحكم صلته بالسلطان أبي فارس

---

(١) ابن القنفذ القسنطيني : المصدر السابق ص١١٢ .

(٢) ابن القنفذ القسنطيني : المصدر السابق ص٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج٣ ص٣٨٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٢٨٥ .

(٥) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٥٤ وما بعدها.

عبد العزيز الحفصي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ومما يزيد في ترجيح هذا الاعتقاد في نظري هو تلك العلاقات الطيبة التي كانت تربط سلاطين بني حفص بسلاطين مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي والتي لم تتعكر إلا لفترة وجيزة بين الظاهر بيبرس والمستنصر الحفصي عادت بعدها تلك العلاقات الطيبة بين الطرفين من جديد، والتي كان أساسها نظرة الاحترام والإكبار التي كان ينظرها الحفصيون لسلاطين مصر كون الأخيرين هم المشرفون على خدمة الحرمين الشريفين هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية بهدف المحافظة على تسهيل أمور الحجاج إلى بيت الله الحرام من أهل إفريقية نظراً لأن مصر كانت طريقهم الرئيسي في الذهاب والإياب.

ولذلك، ومما تقدم عرضه يتبين بجلاء أن مساندة إفريقية للمسلمين في جبهة المشرق في صراعهم مع العدو الصليبي لا تقل أهمية عن مساندتها لباقي جبهات الصراع الإسلامي الصليبي الأخرى.

﴿أفَمَنْ أسس بُنيـانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم مـن أسَّس بنيانه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين﴾ .

[سورة التوبة : آية ١٠٩]

الفصل الثالث

هجوم نورمان صقلية على إفريقية

(العلاقات بين النورمان وبني زيري حتى مطلع القرن الثاني عشر – ظهور مطامع النورمان في إفريقية – مهاجمة المهدية سنة ٥١٧هـ / ١١٢٢م – فرض الحماية النورمانية على إفريقية – الاستيلاء على ساحل إفريقية – إفريقية في ظل الاحتلال – الثورة وبداية التحرير – الموحدون واستكمال التحرير)

العلاقات بين النورمان وبني زيري حتى مطلع القرن الثاني عشر :

كانت معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م التي عقدت بين رجار الأول وتميم بن المعز نقطة تحول في العلاقات بين الطرفين، فقد استطاع رجار في ظل تلك المعاهدة استكمال استيلائه على صقلية والتغلب على المشاكل العديدة التي واجهته ثم تمكن من الاستيلاء على مالطة سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩١م، وبذلك فرض الوجود النورماني في وسط البحر الأبيض المتوسط بشكل قوي، ولم يتنبه العديدَ من المؤرخين للعلاقة الوطيدة بين النورمان والحركة الصليبية، وبالتالي لم يتنبهوا لتربص هؤلاء بإفريقية قبل هجومهم عليها بمدة طويلة، حتى إن الأستاذ الدكتور حسين مؤنس يرى أن هجومهم على إفريقية كان من قبيل الحرب الوقائية الهدف منها تأمين دولتهم في صقلية (لا إضافة شيء من بلاد المسلمين إليها)(١) ويؤيده في ذلك دافيد دوغلاس (D. Douglas)(٢)، ولكن الواقع في اعتقادي يغاير ذلك، إذ أن ذلك الهجوم كان المقصود به تحقيق هدف أكبر من مجرد تأمين صقلية، لقد كان وجهاً آخر من أوجه الصراع الإسلامي الصليبي اتخذ من إفريقية ميداناً له.

فحينما لمست الحركة الصليبية إخفاق المدن البحرية الإيطالية في الاستقرار في إفريقية عند غزو المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، أدركت أنه لا بد من إيجاد قوة أخرى تمتلك من المقدرات والإمكانيات أكبر من تلك التي كانت تمتلكها هذه المدن لتحقيق أهدافها، ولم يكن في مقدور تلك الحركة إسناد هذه المهمة لإحدى القوى الأوروبية الكبرى التي كانت

---

(١) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص٢٧١ .

(٢) D. Douglas : The Norman Fate, p. 55.

تستعد في تلك الآونة لغزو المشرق، فوجدت ضالتها المنشودة في النورمان، ولعل ذلك يقدم لنا التفسير المنطقي لعدم اشتراك رجار الأول في الحملة الصليبية الأولى وسكوت البابوية عنه، إذ لو لم تكن الحركة الصليبية تعده لدور مماثل لجردت البابوية عليه أسلحتها المعهودة، ولا ينبغي أن يعتبر اشتراك بوهيمند النورماني في تلك الحملة مبرراً لسكوت الحركة الصليبية عن رجار الأول، لأن بوهيمند لم يكن يمثل رجار وله مطامعه وطموحاته الخاصة به التي لم تكن تخفى على تلك الحركة، لذلك فالأمر لم يكن في نظر تلك الحركة إلا توزيع أدوار، بحيث خصصت لكل قوة من القوى الصليبية الجبهة الأكثر ملائمة لها، فالنصارى الإسبان لجبهة الأندلس، والنورمان لجبهة إفريقية بعد فروغهم من صقلية، وباقي القوى الأوروبية للمشرق تحسباً لما كانت تتوقعه تلك الحركة من دعم كافة مسلمي المشرق لتلك الجبهة.

والأدلة على علاقة النورمان بالحركة الصليبية كثيرة، فكما سبق أن أشرنا أن رجار الأول كان نائباً للبابا في صقلية بموجب المعاهدة التي عقدت بين البابا نيقولا الثاني وزعماء النورمان في ملفي سنة ١٠٥٩م، ومن كانت هذه صفته من المستبعد أن لا تكون له علاقة بالحركة الصليبية، ويعطينا المدح الذي أضفاه بطرس الكولوني (Peter of Cluny) على رجار الثاني حينما احتل معظم ساحل إفريقية دليلاً آخر على هذه العلاقة، فقد وصف ذلك الاحتلال بأنه زيادة في أراضي كنيسة الله من تلك الأراضي التي كان يمتلكها السراسنة (المسلمون) أعداء الله(١)، وقد قوبل هذا المديح بالاستحسان في الأوساط الصليبية، ثم محاولة رجار الثاني تنظيم حملة صليبية على إفريقية بالتعاون مع كونت برشلونة(٢)، واستجابته لطلب المساعدة الذي وجهه إليه ريموند برنجار الثالث (Reymond Berangar III) كونت برشلونة أيضاً في سنة ١١٢٨م واعداً إياه بإرسال أسطول نورماني من خمسين سفينة لخدمة الله (in svitium Dei) لمساعدته في حربه ضد مسلمي الأندلس في صيف ذلك العام، ولكن الظروف حالت دون تنفيذ كلا المشروعين(٣)، ثم محاولته الاشتراك في الحملة الصليبية الثانية(٤)، فكيف يكون

---

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.16.

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤٢ .

(٣) K. M. Setton : Ibid, vol, 2. p.21., D. Douglas : Op. Cit., p.55.

(٤) عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٢٢.

اتجاهه ناحية المشرق صليبياً أما اتجاهه في إفريقية غير صليبي؟ ثم ما يستخلصه الباحث من أقوال المؤرخين المسيحيين القدامى عن الغزو النورماني لإفريقية والذين يؤكدون الصفة الصليبية لهذا الغزو مثل (Robert of Torigny) و (Peter of Venerable)(1)، هذا فضلاً عن أن هذه الحقيقة لم تخف على العديد من المؤرخين المسلمين كما ورد في أقوالهم التي سبق أن أشرنا إليها، ونعود مرة أخرى إلى نص ابن الأثير الذي أوردناه في مقدمة هذه الدراسة والذي يقدم الدليل القاطع على علاقة النورمان بالحركة الصليبية وبالتالي تربصهم بها لغزوها عندما تحين الفرصة يدل على ذلك قوله كما جاء في ذلك النص (إن إفريقية لنا متى وجدنا في أنفسنا القوة أخذناها)(2)، وبناء على ذلك فإن غزو النورمان لإفريقية ثم استيلائهم عليها كان تحقيقاً لأهداف الحركة، وإذا كانت الأهداف الاقتصادية لهذا الاحتلال قد برزت إلى سطح الحوادث بشكل واضح، فإن ذلك لا ينفي صلته بالحركة الصليبية، ألم تقم هذه الحركة لتحقيق أهداف دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية؟ لذلك فكل هذه الدلائل تشير إلى أن استيلاء النورمان على إفريقية لم يكن إلا تعبيراً عن إرادة الحركة الصليبية وتحقيقاً لهدف من أهدافها، وإذا كان رجار الأول لم يكن بوسعه الإفصاح عن هذا الهدف فلأن الوقت لم يكن قد حان بعد، نظراً للظروف التي كانت تمر بها دولته في صقلية من ناحية، وإفريقية من ناحية أخرى، فقد وضع خططه لتحقيق هذا الهدف دون استعجال أو استباق للحوادث لما عرف عن النورمان عامة وعنه بصفة خاصة من حذر وروية، لقد كانت معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م في نظره هي محطة في الطريق لا يلبث أن يتجاوزها، فالصداقة وحسن الجوار اللذين أقرتهما تلك المعاهدة لم تكونا إلا ذراً للرماد في العيون، وصرفاً لذهن تميم عن هدفه في إفريقية الذي كان لا يزال يحتفظ بقوة بحرية تستطيع التصدي لرجار، علاوة على قدرة تميم في ذلك الوقت على خلق المتاعب له في صقلية وجنوب شبه الجزيرة الإيطالية اللتين لم يكن قد ثبت أقدامه فيهما بعد، خاصة صقلية، وما غزوات أسطوله لهما قبيل عقد تلك المعاهدة إلا دليلاً واضحاً على تلك المقدرة.

لقد فرضت الظروف عليه عقد تلك المعاهدة التي لم يكن يضمر لها في نفسه أي

---

(1) D. Douglas : Op. Cit., p. 76.

(2) ابن الأثير : المصدر السابق حوادث سنة ٤٩١هـ.

احترام، ولم يكن يبالي بنقضها إن وجد في ذلك مصلحة له، وإلا فما معنى استيلائه على مالطة سنة ٤٨٥ / ١٠٩١م أي بمجرد استكماله احتلال صقلية وهي التي كانت تابعة للدولة الزيرية؟ ألم يكن من المفروض التقيد بتلك المعاهدة إن كان جاداً في احترامها؟ ولكن هذا التقيد والاحترام كان في نظره شيء والوصول إلى هدفه شيء آخر، فاحتلاله لمالطة كان خطوة أخرى لها أهميتها في سبيل الوصول إلى إفريقية ، إذ أنه باحتلالها يحكم قبضته على المضائق الهامة في وسط البحر الأبيض المتوسط، ثم إنه بذلك يستطيع إبعاد القوى الأوروبية الأخرى التي لو احتلتها واحدة منها لربما وقفت حجر عثرة في سبيل تنفيذ مشاريعه المستقبلية في المنطقة أو على الأقل فرضت عليه أن تكون شريكة له في تلك المشاريع لا سيما وأن مالطة تشكل قاعدة ممتازة تتيح لمن يمكلها القدرة على المناورة في كافة الاتجاهات، ولم يكن رجار على استعداد للتضيحة بكل ذلك من أجل احترام تلك المعاهدة. وعلى ذلك فإن تلك المعاهدة لم تكن سارية المفعول إلا بالقدر الذي تخدم به أغراضه، لهذا فإننا وبناء على ما تقدم نستطيع القول بأن العلاقات بين النورمان وإفريقية في عهد رجار الأول كانت مرحلة إعداد للوثوب على إفريقية، وحينما توفي في سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م ترك لخليفته تنفيذ هذه المهمة.

ظهور مطامع النورمان في إفريقية:

لم يكن سيمون الذي خلف أباه رجار الأول في الحكم في مستوى أبيه كفاية وحنكة، ولم يرث عنه من الصفات ما يؤهله لتنفيذ مشروع كبير كمشروع إفريقية، لذلك كان عهده عبارة عن استمرار لعهد أبيه، وبوفاته وتولي أخيه رجار الحكم سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م والذي عرف في التاريخ باسم رجار الثاني، طويت صفحة في تاريخ العلاقات بين النورمان وإفريقية، لتبدأ صفحة جديدة، فقد ورث عاهل النورمان الجديد عن أبيه العديد من صفاته كحزمه وكفايته الإدارية وأناته وبعد نظره وربما فاقه في طموحاته، ولما كان لا يزال صغيراً عند وفاة أخيه سيمون فقد تولت أمه الوصاية عليه لفترة من الزمن حتى شب واستقل بالأمور، وقد واجهته في مطلع حكمه العديد من المشاكل التي كادت تعصف بدولته، إلا أنه تصدى لها بكل حزم حتى تمكن من التغلب عليها، إذ كان عليه أن يحارب جميع القوى التي وجدت نفسها مهددة بظهور دولة النورمان القوية التي كانت تتحكم في وسط البحر

الأبيض المتوسط، كالدولة البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة والمدن البحرية الإيطالية، فاستغلت هذه القوى انقضاء عهد رجار الأول وابنه سيمون ووجود رجار الثاني الطفل في الحكم وأخذت تعمل على القضاء على الوجود النورماني ذاته، لكن رجار الثاني بعزيمته وقوة إرادته تغلب على هذا الخطر وتمكن من إحراز انتصارات هامة على أعدائه هؤلاء أعانه ذلك أن التعاون بينهم كان مفقوداً فضرب كلاً منهم على حدة، وبذلك ثبت أركان دولته من جديد.

كما كانت الفوضى والاضطرابات التي عمت المقاطعات النورمانية في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية تتطلب منه التدخل السريع، لا سيما وأن ثورة البارونات في إقليم أبوليا كانت قد استفحلت بشكل ينذر بالخطر، لذلك زحف بجيوشه وأخمد تلك الثورة وبسط نفوذه على معظم ممتلكات النورمان في جنوب إيطاليا، ولكنه لم يكتف بذلك، بل أخذ في التوسع مما أفزع البابوية فهبت تدافع عن نفسها، وتطور الأمر إلى نشوب حرب سافرة بينه وبين البابا هونوريوس الثاني (١١٢٤ - ١١٣٠م)، ولكنه تمكن من إرغام البابا على الاعتراف به وتتويجه ملكاً على صقلية وجنوب إيطاليا سنة ١١٣٠م حيث عرفت تلك المملكة في التاريخ بمملكة الصقليتين(١). وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن حروب رجار الثاني مع البابوية قد قطعت صلته بالحركة الصليبية، ذلك أن أهداف تلك الحركة كانت فوق مستوى الخلاف، إن هذه الحروب التي كانت تنشب أحياناً بين القوى الأوروبية كانت نتيجة لخلافات سياسية فقط ولا تمس مصالح الحركة الصليبية، مثل اشتباك فرنسا وبريطانيا في حرب المائة عام - فيما بعد - الذي لم يبعد أياً منهما عن الحركة الصليبية بدليل مساهمة بريطانيا ولو مساهمة بسيطة إلى جانب فرنسا في حملة لويس الثاني دي بوربون علي المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وحملة نيقوبوليس الصليبية سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م، ومثل ذلك يقال عن صراع البابوية مع الامبراطورية الرومانية المقدسة، والحروب التي كانت تنشب بين ممالك النصارى الإسبان من حين لآخر وبين بعض القوى الصليبية في بلاد الشام والتي لم تقطع صلة أي منها بالحركة الصليبية.

---

(١) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٩٦، انظر أيضاً شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤٧. وكذلك :

K. M. Setton : Op. Cit., vol 2. p.7., D. Abulafia : Op. Cit., p.83., D. Douglas : Op. Cit., p.52.

لذلك فإن هذه المشاكل قد شغلت رجار الثاني عن إفريقية، فتثبيت أركان دولته كان أولى من فتح جديد، ولكنه مع ذلك كان يراقب كل ما يدور في ساحتها بعين يقظة، ولا يدع أي فرصة للتدخل في شؤونها تفلت من يده، كان وهو في خضم المشاكل التي أشرنا إليها يلوح بمعاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م وفي الوقت نفسه يبث وكلاءه وعيونه في المدن الإفريقية، الوكلاء لمحاولة السيطرة على اقتصادها، والعيون لموافاته بأخبارها، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان له وكلاء في المهدية سنة ١١١٧م يقومون بتسويق القمح في إفريقية لحسابه[١]، وكان هؤلاء إلى جانب ذلك يقومون بإقراض الأموال للتجار في المدينة وللأمير الزيري نفسه، وربما وجد له أمثال هؤلاء في مدن إفريقية الأخرى، كل ذلك ليتمكنوا من التحكم في اقتصاد البلاد، وكما لايخفى أن الاقتصاد هو أفضل نافذة يدخل منها التدخل الأجنبي إلى دولة ما، والأمثلة على ذلك في تاريخ الاستعمار الأوروبي الحديث كثيرة. وأما العيون الذين كانوا يوافونه بالأخبار فقد انبثوا في المدن الإفريقية منذ مطلع عهده على الأقل إن لم يكونوا قد وجدوا في عهد أبيه، يقول الوزير السراج في ذلك : (وكان لروجار جواسيس بالمهدية)[٢]، وبالإضافة إلى ذلك كان يعمل جاهداً لاستجلاب الأنصار الذين سيساعدونه في تحقيق مآربه، فبذل الأموال الطائلة في محاولة لشراء الذمم. وتنتهي هذه المرحلة التي يمكن تسميتها مرحلة التدخل المقنع بدخول جرجي الأنطاكي في خدمة رجار، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل علاقات النورمان بإفريقية حيث أخذت مطامع رجار في الظهور بشكل واضح.

تجمع المصادر والمراجع التاريخية[٣] على أن جرجي بن ميخائيل الأنطاكي قد نشأ في

---

(١) D. Abulafia : Op. Cit., p.40., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p19.

(٢) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥.

(٣) انظر على سبيل المثال، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١، الوزير السراح : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦٩ (ويسميه جرجير) والنائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٢٢ (ويسميه زورزي)، ابن مقديش : المصدر السابق، ورقة ١٧٣ ويسميه جرجير أيضاً، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥١، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١٣، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٢،

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p. 19., D. Douglas : Op. Cit., p.58.

أنطاكية ونهل من الثقافة العربية الإسلامية في بلاد الشام حتى أتقن اللغة العربية والعلوم الرياضية وسواها، ثم غادرها إلى إفريقية طلباً لحظه، فاتصل بالأمير تميم بن المعز الذي ألحقه في خدمته، ولم يلبث أن وثق به فعهد إليه بشؤون بيت المال وحكمه (في دخله وخرجه وجعل مصاريف الأموال لنظره فصارت أموال المسلمين كلها في يده ويد أقاربه)[١]، ومن هذا النص والنصوص الأخرى المشابهة التي أوردتها العديد من المصادر التاريخية، نستطيع تقدير مكانة جرجي الأنطاكي في الدولة الزيرية، ومدى سعة اطلاعه على أحوالها، حتى إنَّ ابن خلدون يقول عنه إنه استولى على تميم[٢]. وعندما توفي تميم في سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م بدأت الرغبة تحدو جرجي للالتحاق بخدمة النورمان، والذي يفهم من رواية الوزير السراج عن هذا الموضوع أن جرجي خاف على نفسه من يحيى بن تميم الذي خلف أباه في الحكم فهرب إلى صقلية[٣]، ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أن مكانته في دولة يحيى بقيت على حالها إذ يقول (وكان يحيى يشاوره)[٤]، ولما كان من الثابت أن جرجي قد اتصل برجار الثاني الذي تولى الحكم في سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م فإن ذلك يعني أنه قد خدم يحيى ما لا يقل عن خمس سنوات، فلو كان يخشى من يحيى لامتداد يده إلى الأموال في عهد تميم كما تقول بعض المصادر[٥] لما سكت عنه يحيى طوال هذه المدة ولما أبقاه في مكانته الرفيعة في دولته، والأرجح في اعتقادي أن جرجي الذي كانت تتحكم في سلوكه النزعة الصليبية من جهة والنزعة الانتهازية من جهة ثانية، قد شعر بطموح رجار ثم طمعه في إفريقية الذي لم يعد خافياً على الكثيرين، أو على شخص مثل جرجي على الأقل، لذلك بادر بالاتصال به عارضاً عليه خدماته.

رحب رجار الثاني بانتقال جرجي إليه، إذ أدرك مدى النفع الذي سيجنيه منه في مشروعه لاحتلال إفريقية، ويروي الوزير السراج كيفية خروجه من المهدية فيقول : (فوجه

(١) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦٩، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١.
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١.
(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦٩.
(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١.
(٥) انظر مثلاً ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥١.

رجار إليه قطعة أظهرت أنها وصلت في رسالة فخرج هذا النصراني وأقاربه في يوم جمعة عند اجتماع الناس للصلاة وتزيوا بزي البحريين فطلعوا إليها وتم لهم أمرهم فلم يفطن الناس لهم إلا وقد أقلعوا)[1]، فابتهج رجار بمقدمه وألحقه بوزيره عبد الرحمن النصراني صاحب الأشغال في دولته لحين الحاجة إليه إذ أن ظروف رجار لم تكن تسمح له في ذلك الوقت بتنفيذ مشروع إفريقية، فأسند إليه عبد الرحمن أمر الجبايات فقام هو وأقاربه بهذه المهمة خير قيام[2]، وعندما احتاج رجار إلى إرسال سفارة للخليفة الفاطمي في مصر أشار عليه عبد الرحمن النصراني بجرجي لسعة اطلاعه على أوضاع المشرق بحكم نشأته فيه وحسن تصرفه، فأبدى من البراعة السياسية في هذه المهمة ما جعله ينال الحظوة عند رجار، يقول الوزير السراج في ذلك (فنصح وأقبل بذخائر ملوكية حظي بها عند رجار)[3].

وفي تلك الآونة حانت الفرصة لرجار للتدخل السافر في شؤون إفريقية، إذ نشب خلاف سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م بين رافع بن مكي صاحب قابس، وعلي بن يحيى بن تميم الأمير الزيري الجديد (٥٠٩ – ٥١٥هـ / ١١١٦م – ١١٢٢م) بسبب سفينة أنشأها ابن مكي للنقل التجاري، فلم يسمح له علي بن يحيى الذي كان يعمل على احتكار تجارة إفريقية الخارجية بذلك، وأرسل قطعاً من أسطوله إلى مياه قابس لمنعها من الإقلاع وأخذها إن خرجت إلى البحر، فاستنجد ابن مكي برجار الثاني وزعم له بأنه لم يصنع تلك السفينة إلا ليبعث بها هدية إليه[4] فوجد رجار في ذلك سبباً للتدخل إلى جانب ابن مكي، نابذاً المعاهدات التي بينه وبين علي والتي كانت معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م أساساً لها وتجدد كلما تولى أمير زيري جديد مقاليد الحكم، وكانت ظروف إفريقية التي استفحل فيها عهد ملوك الطوائف وقتئذٍ مشجعة، فأرسل في سنة ٥١١هـ / ١١١٧م أسطولاً من ٢٤ قطعة

---

(١) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦٩، كذلك ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣.

(٢) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦٩، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ص٤٦٩، K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p. 19.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١، ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٥٢٩، التجاني : المصدر السابق ص٩٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩١، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٥٤.

لنصرة ابن مكي[1]، وعندما علم علي بن يحيى بذلك استشار رجال دولته فأشاروا عليه بسحب أسطوله من مياه قابس، والكف عن ابن مكي حفاظاً في تصورهم على ما بينه وبين رجار من المصالحة، ولكن علياً إدراكاً منه لخطورة الوضع وتأزمه بدخول رجار معترك الصراع، رفض ذلك وأمر بقية أسطوله المرابط في ميناء المهدية بالتوجه إلى قابس لشد أزر قطعه المتواجدة في مياهها في معركة محتملة مع أسطول رجار لكفه عن التدخل في شؤون إفريقية، وعندما وصل أسطول علي إلى قابس، وجد النورمان قد خرجوا من مراكبهم لحضور وليمة أعدها لهم ابن مكي، فلما شاهدوا أسطول علي هرعوا إلى سفنهم، ودارت معركة حامية بين الطرفين انتصر فيها الأسطول الزيري، وانسحب النورمان عائدين إلى صقلية[1]، ولم يكتف علي بهذا النصر وإنما عمل على قطع صلة رجار بإفريقية واقتلاع جذوره منها بإفساد تدابيره التي وضعها لإحكام قبضته على اقتصادها، فصادر أمواله التي كانت في المهدية، وألقى بوكلائه في السجن[3]، فحنق رجار عليه نتيجة لذلك، وزاد من أسباب هذا الحنق أن علياً رفض مصالحة ابن مكي صنيعته مما جعل الأخير يجمع الجموع ويزحف على المهدية لاحتلالها، ولكن علياً انتصر عليه وطارده حتى ألجأه إلى القيروان، وبعد ذلك أرسل جيشاً احتل قابس[4]، فكانت هذه الأمور هي السبب المباشر في الوحشة بين علي ورجار.

وحيال ذلك، وللانتقام من علي رداً لاعتباره فكر في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م في غزو

---

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.20.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٥٢٩ – ٥٣٠، التجاني : المصدر السابق ص٩٨، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٥٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٢١، د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص٢٨٣. K. M. Setton : Ibid, vol. 2. p.20. وقد مدح محمد بن عبد الله الكاتب الأمير علي بن يحيى ذاكراً هذه المعركة بقصيدة منها :

تعدت الأعلاج في بحر قابس وسار إليهم في الخميس العرمرم

فولوا على الأدبار رعباً وأجفلوا بناب نبا عنها وظفر مقـــــلم

(٣) K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.20.

(٤) التجاني : المصدر السابق ص٩٩.

المهدية[1]، ولكن نظراً لظروفه وخشيته من الاشتباك مع المرابطين الذين كانوا يساندون الزيريين في حرب لا يستطيع تقدير نتيجتها عدل عن هذه الفكرة، ولكنه لم يشأ السكوت فلجأ إلى أسلوب الترغيب والترهيب والمراوغة حتى تواتيه الفرصة للانتقام فأرسل في العام التالي (٥١٢هـ / ١١١٨م) رسولاً إلى علي يطلب منه (تجديد العقود، وتأكيد العهود، ويطلب أموالاً كانت له موقفة بالمهدية، وذلك بعنف وغلظة، فرد علي رسوله دون جواب، وجبهه بالقول، فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار، فأوسع شراً، وحاول بعد ذلك مكراً)[2]، ويقول ابن أبي دينار إن رجار بعث إليه يهدده بغزو المهدية[3]، ولكن علياً لم يخضع للتهديد ولم يرهبه الوعيد، بل قابل ذلك بلهجة أشد (ومشت بينهما مراسلات بالتهديد من الجانبين)[4]، وحينما شعر علي بأن رجار يفكر فعلاً في غزو المهدية أرسل يهدده بإدخال الهلالية إلى صقلية، وفي مرة أخرى هدده بالمرابطين[5]، واتصل بالفعل بعلي بن يوسف بن تاشفين واتفق معه على مهاجمة صقلية[6] كما تقدم، ولتحقيق هذا الهدف باشر في تدعيم أسطوله بإنشاء قطع جديدة ضمها إليه وشحنه بالرجال والأسلحة والمعدات وزاد في تحصينات المهدية[7] فارتفعت الروح المعنوية بهذه الاستعدادات واشتد حماسهم لجهاد العدو (فكف رجار عما كان يعتمده)[8] من غزوها. ومضى علي في

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٧، الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ص٣٥٥.
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٧، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص١٧٩.
(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩١ .
(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩١ .
(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠.
(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٥٣٠ وص٦١١، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٠، د. أحمد مختار العبادي ، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١١. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.80.
(٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٠، انظر أيضاً ابن الأثير : المصدرالسابق ج١٠ ص٦١١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩١، الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ق٢ ص٤٧٠.
(٨) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٥٣٠، انظر كذلك الوزير السراج : المصدر السابق : ج١ ق٢ ص٤٧٠، ويذكر أن الشعراء قد مدحوا علياً على هذه الاستعدادات مثل محمد بن بشير الذي مدحه بقصيدة يصف فيها تدعيم الأسطول منها : =

استعداداته إلا أن وفاته في تلك الآونة (سنة ٥١٥هـ / ١١٢٢م) مخلفاً ابنه الصبي الحسن بن علي في الحكم حالت دون اشتراك الزيريين الفعلي في هذا الهجوم، فقام الأسطول المرابطي بمفرده بالهجوم على نقوطرة في العام التالي (٥١٦هـ / ١١٢٢م) لإعادة الصواب إلى رجار كما سبق ذكره. وهنا بدأ رجار في الاستعداد للهجوم على المهدية ليس غارة انتقامية كما تقول بعض المراجع الغربية[1] ولكن للاستيلاء عليها توطئة لاحتلال إفريقية، ويدعم وجهة نظرنا هذه ما ذكره ابن أبي دينار إذ يقول : (ومنته نفسه أن يستأصل إفريقية)[2]، ويؤكد ذلك ما قاله ابن حمديس الصقلي يمدح الحسن بن علي إثر فشل تلك الحملة :

فكم قسموا في الظن أميال أرضنا ... ولم يطأوا منها مكاناً هو الشبر

لذلك، دعا إلى حملة صليبية كبيرة لتحقيق هذا الهدف، فأجابت دعوته جموع غفيرة من إيطاليا وسواها، يقول ابن عذارى في ذلك : (فاستنفر أهل الروم قاطبة، فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة)[3]. وعندما استكمل استعداداته وجه بأسطوله حملة على المهدية.

مهاجمة المهدية سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م :

صاحب سوء الحظ هذه الحملة منذ البداية، فبالرغم من أن رجار بالغ في التكتم عليها

= وأعددت للأعداء كل مصمصم ... يسير إليهم قاصداً وهو أهوج
كمثل الرواسي منعة غير أنها ... على ثبج أدماء تردي وتولج
كأن القنا والنبل في جنباتها ... سبال بأكناف الهضاب وعوسج
يعيد مضيء الجو أكتم حالكاً ... دخان لظى من نارها يتوهج
إذا نضنضت من ألسن لهيبة ... بمارج نار يستقل ويعرج
رأيت صلالاً أخرجت من جهنم ... تحرق أكباد العداة وتنضج

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.20.

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٢.

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٨ انظر كذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٢، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥١، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٠.

فمنع السفر إلى سواحل إفريقية[١] ليمنع تسرب أخبارها كي يستفيد من عنصر المفاجأة، إلا أن الأمير الحسن بن علي الزيري علم بأمرها فأخذ يتأهب للقائها فحشد جيشاً ضخماً واستكثر من الأسلحة ودعم تحصينات المهدية، كما دعا العرب الهلالية للمساهمة في صد الغزاة فبادرت جموعهم لتلبية داعي الجهاد ونزلت بظاهر المهدية[٢]، ويقدر ابن أبي دينار عدد الجيش الذي حشده الحسن بمائة ألف رجل وعشرة آلاف فرس[٣] كانوا يتقدون حماساً لمنازلة العدو، وبذلك خسرت هذه الحملة الاستفادة من عنصر المفاجأة، وزاد الطين بلة بالنسبة لها أنها وهي في طريقها إلى المهدية هبت عليها عاصفة بحرية أغرقت بعض سفنها وشتتت بعضاً آخر عن بقية الأسطول جنحت إحداها إلى ساحل إفريقية فوقعت في يد قوات الحسن[٤] فعرف ممن كان فيها قدراً كبيراً من المعلومات التي كانت تهمه معرفتها عن الحملة.

وفي يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥١٧هـ / أواخر يوليو١١٢٣م وصل الأسطول النورماني المقل للحملة المذكورة إلى مياه المهدية، وكان في طريقه إليها قد مر بجزيرة قوصرة واستولى عليها[٥]، وقد قدرت المصادر الإسلامية هذا الأسطول بحوالي ثلاثمائة سفينة تقل ثلاثين ألف جندي وألف فارس يقودهم عبدالرحمن النصراني وجرجي الأنطاكي[٦]، فلم يهاجم المهدية مباشرة لعلم قائديه بمناعتها وصعوبة اقتحامها من البحر، بل

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧١.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٦١٢، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٩، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٤، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧١ .

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٢، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٦١١، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص١٤٢.

(٤) ابن الأثير المصدر السابق ج١٠ ص٦١٢، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١.

D. Douglas : Op. Cit., p.57.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١، ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٦١١، الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ق٢ ص٤٧١. د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١.

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٩، ابن خلدون : المصدرالسابق ج٦ ص١٦١، ابن أبي =

نزلت الحملة بجزيرة الأحاسي على بعد عشرة أميال من المدينة(١). ولدينا وثيقة تاريخية هامة تصف حوادث هذه الحملة هي فصول من إحدى الرسائل التي وجهها الأمير الحسن ابن علي إلى جهات مختلفة بخبرها أوردها التجاني(٢) والوزير السراج(٣) يصف فيها استعدادات الطرفين ووصول أسطول رجار بعد هبوب العاصفة عليه وتشتته ثم نزول العدو بجزيرة الأحاسي، وطواف قائدي ذلك الأسطول في بعض قطعه في صبيحة اليوم التالي على وصوله حول المهدية لمعاينتها، ثم يصف إنزالهم للفرسان لصدام المسلمين الذين تجمعوا قبالتهم بغية تشتيتهم لفتح الطريق لمشاة الأسطول للزحف بأسلحتهم ومعداتهم إلى المدينة لضرب الحصار عليها من البر بينما يقوم الأسطول بمحاصرتها من البحر(٤)، وتجمع المصادر الإسلامية على أن المسلمين أفسدوا هذه الخطة إذ اشتبكوا مع الفرسان وأجبروهم على التراجع إلى الجزيرة فقويت معنويات المسلمين بذلك، ولكن العدو استطاع بعد ذلك في ليلة ٢٨ جمادى الأولى أخذ قصر الديماس الحصين(٥). نتيجة لخيانة رجل من الأعراب الهلالية ساعدهم في دخوله، فقتلوا من فيه واستقر به حوالي مائة منهم، ولم يفت ذلك في عضد

= دينار : المصدر السابق ص٩٢ الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ص٤٧٣، أما (K. M. Setton : Op. Cit., v. 2, p.20) فيقول إن هذه الحملة كانت بقيادة كريستودولوس (Christodoulos) وأن جرجي الأنطاكي كان مساعداً له، ولعل كريستودولوس هو تحريف لاسم عبد الرحمن بن عبد العزيز النصراني.

(١) يرد وصف هذه الجزيرة في رسالة الحسن بن علي المذكورة فيقول عنها إنها جزيرة (ذات أحساء بينها وبين البحر مجاز متداني البرين، قريب ما بين الشطين، هين مرامه، سهل على الفارس والراجل خوضه واقتحامه) انظر التجاني (ص٣٣٩)، الوزير السرج (ج١ ص٤٧٣).

(٢) انظر التجاني : المصدر السابق ص٣٣٩.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٢ وما بعدها.

(٤) انظر التجاني : المصدرالسابق ص٣٣٩ وما بعدها، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٢ وما بعدها.

(٥) قصر الديماس : هو حصن منيع في وسطه حصن آخر، وهو مشرف على البحر، ويقع بالقرب من قرية البقالطة الحالية في منتصف الطريق بين المهدية والمنستير حيث ما تزال توجد آثار قصر (رباط) كان قد أقيم على أنقاض مدينة تبسة (Thapsa) الرومانية القديمة التي أقيمت هي بدورها على أنقاض مدينة فينيقية. انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٦١٢، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤٣،حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٣٥١.

المسلمين، إذ في آخر ليلة من جمادى الأولى كبروا ودخلوا الجزيرة على الأعداء الذين أصابهم الفزع نتيجة لذلك فلم يكن أمامهم إلا أن يهرعوا إلى سفنهم تاركين أثقالهم وأسلحتهم ومعداتهم وخيولهم غنيمة للمسلمين الذين تبعوهم وقتلوا من وصلت إليه سيوفهم منهم، ثم تحولوا بعد ذلك إلى قصر الديماس وحاصروه، وبقي العدو في مراكبه ثمانية أيام يرقب المعركة بين المسلمين والمحصورين في ذلك القصر وهو عاجز عن أن يمد لهولاء المحصورين يد المساعدة، ولما يئس من إنقاذهم أقلع بأسطوله عائداً إلى صقلية تاركاً إياهم يواجهون مصيرهم المحتوم، وقد طلب هؤلاء حينذاك الأمان ويسلموا القصر للمسلمين، ويقول ابن عذارى إن الحسن مال إلى ذلك ولكن الهلالية رفضوا منحهم الأمان(1)، وفي منتصف جمادى الآخرة خرجوا من القصر بعد أن أضر بهم الحصار يحاولون شق طريق لهم للهرب فتخطفتهم سيوف المسلمين وقتلوا عن آخرهم(2).

وهكذا فشلت هذه الحملة في تحقيق أهدافها مما زاد في حنق رجار على الحسن، ويعلل (K. M. Setton) هذا الفشل بعدة أسباب أهمها أن هجوم المسلمين قد بدأ قبل أن يتكامل أسطول رجار، ثم عدم وجود تنسيق بين القوات البرية والقوات البحرية، كما أن المهاجمين كان ينقصهم في رأيه الحماس والروح القتالية، في حين أن المسلمين كانوا يعرفون ما يحاربون من أجله وأظهروا أن انتصارهم هو انتصار للإسلام على المسيحية، ويضيف أن الحوليات المسيحية لا تشير إلى هذه الحملة، ويرى أن صمتها هذا يدل دلالة واضحة على مدى الإحساس بالكارثة الذي عم بلاط بلرمة(3)، أما المسلمون فقد عمهم الفرح بهذا النصر، وطير الحسن أخباره إلى الآفاق، ومدحه العديد من الشعراء كان من بينهم ابن

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٩.

(٢) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص٦١١، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣٠٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٢، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥١، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١٣، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١.

D. Douglas : Op. Cit., p.57., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.21

(٣) K. M. Setton : Ibid vol. 2, p.21.

حمديس الصقلي الذي كان من أشد الناس ابتهاجاً بكل هزيمة تلحق بالنورمان الذين سلبوا وطنه، فمدح الحسن بقصيدة جاء فيها :

أبى الله إلا أن يكون لك النصر وأن يهدم الإيمان ما شاده الكفر
وأن ترجع الأعلاج بعد علاجهـــا خزايا على آثارها الذل والقهر[1]

فرض الحماية النورمانية على إفريقية :

أدرك رجار حينما فشلت حملته هذه أنه لا زال بإفريقية بقية من قوة فضلاً عن مساندة المرابطين لها الذين ردوا عليها سريعاً إذ قام أسطولهم بقيادة ابن ميمون بالإغارة على صقلية إثر ذلك فعاث فيها وعاد محملاً بالأسرى والغنائم[2]، الأمر الذي جعله يوقن بصعوبة احتلال إفريقية في مثل هذه الظروف ويبدو أن غارات المسلمين تكررت على صقلية في تلك الآونة فقد هوجمت مدينة باتي ثم مدينة سرقوسة، ومع أن معظم المصادر والمراجع التاريخية تنسب هذه الغارات للمرابطين[3]، إلا أن وليم الصوري (William of Tyre) الذي كان حسن الاطلاع على أوضاع جنوب إيطاليا وصقلية يقول إنها كانت تقوم من إفريقية[4]، وأياً كان الأمر فإن ذلك أرغم رجار على تأجيل مشروع الاحتلال حتى تواتيه الفرصة، إلا أنه مع ذلك لم يكف عن تهديد الأمير الزيري وغيره من حكام دويلات إفريقية لفرض حمايته عليهم وربطهم بعجلته. أما الأمير الزيري فكان هو الآخر يفضل إنهاء حالة

---

(١) انظر أحمد بن عامر : المرجع السابق ص١٤١، ومن هذه القصيدة :

هناك شفا الإسلام منهم غليلـــه بطعن له تبر وضرب له هبـــر
وكانوا رأوا مهديتيك وفيهمـــا لعز الهدى أمر فهالهم أمـــر
فما للعلوج امتد في الغي جهلهم أما كان فيهم من لبيب له حجر
فكم قسّموا في الظن أميال أرضنـا لم يطؤوا منها مكاناً هو الشبـــر

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦١، الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ق٢ ص٤٧٣، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤.

(٣) انظر مثلاً K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.21, D. Douglas : Op. Cit., p. 57.

(٤) William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond The Sea. v. 2, ch. 13, p.22.

الحرب بينه وبين رجار لشعوره بالعجز عن مواصلة مواجهته عسكرياً وإيثاره الدعة والخلود إلى الراحة على تحمله مسؤولية الدفاع عن وطنه ولم يدر بخلده أن عدوه لن يتركه وشأنه كما اعتقد، لذلك دارت بين الطرفين مفاوضات أسفرت عن عقد صلح بينهما، فرض بموجبه رجار على الحسن شروطاً قاسية قبلها الأخير. ولم تخف حقيقة أمر هذا الصلح على العديد من المؤرخين المسلمين فيقول الوزير السراج في ذلك: (وأنشأ في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صلحاً وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده)[١].

ولم يرض هذا الصلح المهين أهل المهدية فكاتبوا الأمير يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية الذي لم يكن أفضل من الحسن لانغماسه في اللهو والصيد والشهوات، ومع ذلك تعلقوا به وعقدوا آمالهم عليه لإنقاذهم من المهانة ووعدوه بتسليم المدينة إليه، كما وفد عليه رؤساء بعض بطون الهلالية وأطلعوه على وضع الحسن مع رجار وأشعروه بأنفتهم من ذلك، ووعدوه هم الآخرون بالنصرة، فأرسل في سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م قائده الفقيه مطرف بن علي بن حمدون بجيش كبير إلى المهدية، كما أرسل أسطوله لمساندة هذا الجيش ومحاصرتها بحراً[٢]، أما الحسن فبدلاً من أن يحاول التفاهم مع ابن عمه يحيى لتوحيد جهودهما ضد العدو المتربص بهما معاً، أرسل لرجار يطلب منه المساعدة، فرحب رجار بهذه الفرصة الذهبية التي ستتيح له التدخل في شؤون إفريقية بشكل أقوى عن ذي قبل باسم مناصرة الحسن وما يتوقع أن يكسب من ذلك، فهو بإمكانه فرض الشروط التي يريدها على الحسن بعد أن بدا عجز الأخير واضحاً في الدفاع عن نفسه دون أن يستطيع هذا مخالفته خشية من فقدانه كنصير، ثم إنه يستطيع احتلال نواحي إفريقية الغير خاضعة للحسن وهو ضامن عدم تدخله إن لم يقف إلى جانبه، وهو ما جرى بعد ذلك بالفعل كما سنذكره بعد قليل، لذلك أرسل أسطوله لمساعدة الحسن، وعندما ظهر الأسطول النورماني

---

(١) الوزير السراج: المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٤، انظر كذلك ابن خلدون: المصدر السابق ج٦ ص١٦١، ابن أبي دينار: المصدر السابق ص٩٢، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٤.
(٢) انظر عن ذلك ابن خلدون: المصدر السابق ج٦ ص١٦١، ابن الأثير: المصدر السابق ج١١، ص٣١ – ٣٢، ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص٣١٢ (ويجعل ذلك سنة ٥٣٠)، ابن أبي دينار: المصدر السابق ص٩٢، الوزير السراج: المصدر السابق، ج١ ص٤٧٤، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق، ورقة ١٧٥.

في مياه المهدية لم يجد مطرف بدا من فك الحصار عنها والانسحاب إلى بجاية بعد هجوم استمر (٧٠) يوماً[١]، وأراد قائد الإسطول النورماني انتهاز هذه الفرصة لإضعاف الحماديين أيضاً بحرمانهم من أسطولهم إذ عزم على إغراقه[٢] لأن كلا المتخاصمين عدو لرجار، ولكن الحسن منعه من ذلك ربما إدراكاً منه لنوايا ذلك القائد والهدف من ورائها وانسحب الأسطول الحمادي بسلام.

أما أول مغانم رجار من هذه المساعدة فكان الاستيلاء على السفن الراسية في ميناء المهدية بما تحمله من سلع، إذ كان جواسيسه في المهدية قد أرسلوا يعملونه أن بمرساها مراكب قد استوفت وسقها فما كان من قائد أسطوله المذكور إلا أن هجم بعد انسحاب الحماديين على الميناء واستولى على تلك السفن وأخذها إلى صقلية[٣]، مما يدل دلالة واضحة على أنه كانت لديه تعليمات مسبقة من رجار للقيام بذلك، وبدلاً من أن يعمد الحسن إلى مقاومة هذا الغدر أو يحتج عليه على الأقل، سكت عنه، ولم يكتف بالسكوت بل سارع إلى شكر رجار على مساعدته له فكتب إليه (يشكره على فعله وأنه داخل تحت أمره ونهيه)[٤]، ولهذا النص دلالته الهامة إذ أنه يتضمن اعترافاً صريحاً من الحسن بتبعيته لرجار، وبالتالي بدء فرض الحماية النورمانية على إفريقية، فكان ذلك مكسباً آخر لرجار، أما مكسبه الثالث فكان البدء في احتلال نواحي إفريقية الخارجة عن طاعة الحسن، ففي نفس ذلك العام أي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م ولم تكد تمضي فترة وجيزة على اعتراف الحسن بتبعيته له، أرسل أسطولاً هاجم جزيرة جربة في غفلة من أهلها، وقدتصدى هؤلاء للغزاة يدافعون عن أنفسهم فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى قتل منهم خلق كثير ثم كاثرهم العدو، فدخل الجزيرة وارتكب في أهلها الفظائع (فقتل رجالها وسبى حريمها وباعهم في

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدرالسابق ج٦ ص١٦٢، ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٣١ – ٣٢، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١٥، د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص٢٨٣، عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج١ ص٣٨٠.

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣، انظر كذلك ابن الأثير : ج١١ ص٣٢.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤.

(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣.

صقلية)[1] وبعد فترة عاد إليها من سلم من أهلها من القتل والأسر ودخلوا (تحت طاعة رجار وولى عليها عاملاً من قبله وكتب لهم أماناً من عنده وجعلهم خولاً له)[2]، ومنذ ذلك الوقت اتخذ جربة قاعدة لعملياته، وعندما احتج الحسن على هذا الاحتلال، برر رجار ذلك بأنه ما حارب أهل تلك الجزيرة إلا لكونهم غير مطيعين له أي للحسن[3]، فسكت ولكن إذا كان ما أصاب أهل جربة لم يحرك نخوة الحسن، فإنه أثار استنكار المسلمين في أقطار عديدة حتى إن الخليفة الفاطمي أرسل إلى رجار رسالة يحتج فيها على ذلك الاحتلال[4].

واستمرت سياسة الذئب والحمل بين رجار والحسن، مدة ست سنوات أخرى، كان كلما اشتط أثناءها رجار بمطالبه يقابله الحسن بالخضوع وربما التزم في غضون ذلك بدفع أتاوة سنوية له[5]، ويصف ابن أبي دينار هذا الوضع بقوله : (وتشمخ اللعين – رجار – بأنفه والحسن في غالب أوقاته يدافعه عن نفسه بالتي هي أحسن)[6] إلى أن كانت سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م حينما غضب رجار على الحسن بسبب مال كان قد استسلفه الحسن من بعض وكلائه وماطل في تسديده، فأرسل جرجي الأنطاكي في أسطول من ٢٥ سفينة فهجم على مرسى المهدية وأخذما به من سفن من بينها سفينة كان الحسن قد أعدها وتأنق فيها وشحنها

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣.

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣، انظر أيضاً ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٣٢، محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص١٠١، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١، D. Douglas : Op. Cit., p.58., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.22

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٣٢، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٧.

(٤) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص٢٦٩ – ٢٧٠.

(٥) K. Belkhodja : Op. Cit., p.38.

(٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣.

(٧) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣١٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥١، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١٦، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٧، K. M. Setton : Ibid, vol. 2. p.23.

بالذخائر الملكية ليوجهها هدية للخليفة الفاطمي الحافظ كانت تدعى نصف الدنيا(٧). وحيال ذلك الهجوم بادر الحسن لإرضاء رجار فأرسل إليه رسولاً لمفاوضته أو بالأحرى للاعتذار إليه عما بدر منه، وأهدى إليه عدة أسرى كانوا لديه، ولكن هذا لم يرض إلا أن يكون الحسن (عاملاً من عماله)(١)، فوافق على ذلك فضلاً عن أنه أجاز له الاستيلاء على كل ناحية من نواحي إفريقية غير خاضعة له أي للحسن أو قد تثور عليه في المستقبل إجازة صريحة بعد أن كان موقفه في السابق هو السكوت، ومن المحتمل بالإضافة إلى ذلك أن يكون قد حصل على عائدات الجمارك المحصلة في مينائي المهدية وسوسة(٢)، وبذلك يكون رجار قد عزز حمايته على الدولة الزيرية وأحكم قبضته على مواردها، وتذرع بهذا الاتفاق للمضي قدماً في الاحتلال بعد أن صرح الحسن له علانية بذلك.

وجاءت الظروف لتخدم رجار، فقد كان في تلك الآونة قد فرغ من مشاكله في أوروبا، وأخضع ثورة البارونات سنة ١١٣٩ / ١١٤٠م وعقد مع البابا إينوسنت الثاني سلام ميجنانو سنة ١١٣٩م(٣)، وبذلك وجه جل اهتمامه لإفريقية التي كانت الأمور تسير فيها لغير صالح المسلمين، إذ كانت دولة المرابطين التي طالما أرهبت رجار وكفت يده عنها قد آذنت شمسها بمغيب بعد أن استفحلت حركة الموحدين في المغرب الأقصى وأحرزت عدة انتصارات على جيش المرابطين، ففقدت إفريقية بذلك خير نصير، وأما على الصعيد الداخلي فقد ازدادت الفتن حدة بين حكام الدويلات فيها وزاد الطين بلة حدوث مجاعة شاملة فيها منذ سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢م دامت عدة سنوات ولم تلبث أن شملت كافة أقطار المغرب العربي، وانتشر الوباء (وأكل الناس بعضهم بعضاً وكثر الموت في الناس)(٤) حتى اضطر كثير من أهلها لمغادرتها إلى صقلية، (فاغتنم – رجار – الفرصة وقدر أنه إن لم يبادر

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣.

(٢) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.23.

(٣) D. Douglas : Op. Cit., p.53.

(٤) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج١، ص٣١٣، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣، ج٧ ص٤٤، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٤، ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٤ –١٢٥، أبو الفدا : المصدرالسابق ج٣ ص١٩، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٦. K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.23.

في هذه الشدة لم يتأتى له مطلوب)[١]، وعلى هذا أيقن رجار أنه قد وصل في لعبته السياسية إلى نهايتها، وأن الفريسة قد وقعت في براثنه، ولم يبق إلا الإجهاز عليها.

الاستيلاء على ساحل إفريقية :

بدأ أسطول رجار منذ ذلك العام يهاجم مدن إفريقية الساحلية وجزرها بقيادة جرجي الأنطاكي، ففي سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م أغار على طرابلس فاستنجد أهلها بالعرب المحيطين بهم فأنجدوهم وتعاونوا معهم حتى تم صد الغزاة[٢]، ولكن الأسطول النورماني عاد في نفس العام فهاجم جيجل التابعة لبني حماد (فأخذها عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حريمها وأحرقها بالنار)[٣] كما أغار على جزيرة قرقنة بعد ذلك وفعل بأهلها ما فعله بأهل جربة وجيجل[٤]، وفي العام التالي عاود الكرة على جيجل واحتلها ثم احتل برشك وشرشال وتنس[٥]، كما شن غارة مشابهة على بونة[٦]، وهكذا انفرط العقد ولم يبق إلا أن تسقط كبريات درره أمهات المدن الإفريقية في يده.

---

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤.

(٢) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٩١، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٢، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٢١ – ١٢٢، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٧، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١٦، الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص٢٢٩ – ٢٣٠. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.22.

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣، ويقول الشريف الإدريسي (المصدر السابق ص٩٦) إن أهلها إثر ذلك رحلوا منها إلى جبل على بعد ميل منها وبنوا هنالك مدينة حصينة، فإذا كان زمن الشتاء سكنوا المرسى والساحل وإذا أقبل الصيف نقلوا أمتعتهم وجملة بضائعهم إلى الحصن الأعلى البعيد عن البحر وبقي الرجال باليسير من المتاجر. انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٩٢، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص١٧، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١، عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج١ ص٣٨١.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٠٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٣.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٠٢، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤١، عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج١ ص٣٨١.

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣١٣، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤١.

احتلال سفاقس :

في سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م هاجم الأسطول النورماني مدينة سفاقس. وتختلف المصادر التاريخية الإسلامية في نتيجة ذلك الهجوم فابن عذارى يقول إن العدو (دخل مدينة سفاقس، ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية)[١]، في حين يقول الباجي المسعودي إن احتلالها كان سنة ٥٣٦هـ / ١١٤٢م[٢] بينما يذكر الشريف الإدريسي[٣] ويؤيده كل من ابن خلدون[٤] وابن مقديش الصفاقسي[٥] وابن أبي الضياف[٦] أن ذلك كان في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، إذ يقول الشريف الإدريسي في ذلك : (وافتتحها الملك المعظم رجار في عام ٥٤٣ من سني الهجرة)[٧]، وأما ابن خلدون فيعطي تفصيلاً أكثر عن كيفية هذا الاحتلال فيقول إن جرجي الأنطاكي بعد احتلال المهدية بفترة وجيزة أرسل جيشين أحدهما إلى سفاقس، وكان أهلها قد امتنعوا بمن قدم إليهم من الأعراب الهلالية فحاربوا الجيش النورماني، وحيال ذلك عمد المهاجمون إلى الخديعة فأظهروا الهزيمة فتبعهم المسلمون حتى ابتعدوا عن البلد حينذاك عطف العدو عليهم فهرب قسم من المسلمين إلى البرية وعاد القسم الآخر ممن نجا من القتل إلى المدينة، فتبعهم النورمان ودخلوا المدينة وملكوها بعد قتال شديد في ٢٣ صفر سنة ٥٤٣هـ وأعملوا فيها النهب ثم نادوا بعد ذلك بالأمان فعاد من سلم من أهلها إليها[٨]، وللتوفيق بين هذه الروايات وبعد استبعاد رواية الباجي المسعودي لأنها رواية مفردة لم نجد لها تأييداً في مصدر آخر وأعتقد أن ذلك وهماً منه في السنة، نقول إنه لا تعارض بين الرأيين الآخرين، فما أراه أن رجار في المرة الأولى أي في سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م وكما هو واضح من نص ابن عذارى الآنف الذكر قد فرض

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣١٣.
(٢) الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥٢.
(٣) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص٧٨.
(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٢ و ص١٦٦.
(٥) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٦ - ١٧٧.
(٦) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص١٨٠، انظر أيضاً جوليان : المرجع السابق ج٢ ص٢٤٦.
(٧) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص٧٨.
(٨) لمزيد من التفاصيل انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٨.

عليها نفوذه وأجبرها على إعلان تبعيتها له، ومن غير المستبعد أن تكون قد خلعت طاعته بعد ذلك، فأرسل جرجي جيشه في المرة الثانية أي في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لإخضاعها وضمها إلى ممتلكات النورمان الأخرى .

احتلال طرابلس :

كان محمد بن خزرون بن خليفة الزناتي يتولى طرابلس ويؤدي للأمير الزيزي جعلاً سنوياً، وكان بنو مطروح ذوي المكانة الرفيعة والنفوذ في المدينة يساندونه في ولايته، وحينما رأى ابن خزرون اختلال أمر الحسن، قطع صلته به، وامتنع عن دفع ما كان يؤديه إليه، وأعلن طاعته المباشرة للخليفة الفاطمي، ولم ييأس رجار من احتلال تلك المدينة بعد فشل هجومه الأول عليها سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م، بل ظل يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها من جديد، وفي سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م اشتدت حدة المجاعة فيها حتى أرهقت أهلها (وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها)[1]، وزادت أوضاعها سوءاً بحدوث فتنة داخلية فيها، إذ كان أهلها يكرهون ابن خزرون لقسوته، وزادت الشدة التي أصابتهم من هذه الكراهية، وفشل بنو مطروح في حمله على تغيير سياسته أو التخفيف من وطأته على مواطنيهم، فثاروا عليه، وأخرجوه هو وبعض أنصاره من المدينة، ويبدو أن بني مطروح ساروا أيضاً في الناس سيرة سيئة الأمر الذي اضطرهم لطرد هؤلاء أيضاً وتولية أحد أمراء المرابطين الذي تصادف وجوده آنذاك في المدينة في طريقه إلى الحج أميراً عليهم، فانتهز رجار هذا الوضع السياسي المضطرب في المدينة وأرسل جرجي الأنطاكي في أسطول ضخم مكون من مائتي سفينة لاحتلالها. فحاصرها جرجي براً وبحراً وقاتلها ثلاثة أيام، وفي هذا الوقت العصيب تجددت الفتنة فيها إذ أن من بقي فيها من أنصار بني مطروح، حينما رأوا انشغال الناس بقتال العدو أعادوا بني مطروح إليها ودار القتال بين بني مطروح وأنصارهم من جهة وبين خصومهم من جهة أخرى وعلت الضوضاء، فأدرك جرجي ما كان يدور في المدينة، فحمل بجنده على من كان على الأسوار وأزاحوهم عنها ولم يشعر

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص٤٤.

الناس إلا والعدو قد دخل عليهم المدينة وأعمل فيهم السيف، فقتل من قتل منهم وهرب من استطاع الهرب، واستباح العدو المدينة وانتهبها، ونادى جرجي بعد ذلك بالأمان في الناس فرجع كثير من أهلها إليها، وأقام جرجي فيها ستة أشهر أصلح أسوارها ونظم أمورها ثم ولى عليها أبا يحيى رافع بن مطروح وأخذ رهائن من وجوهها معه إلى صقلية[١].

وكما اختلفت الروايات في السنة التي احتلت فيها سفاقس، اختلفت أيضاً في سنة احتلال طرابلس، فابن خلدون يذكر مرة أن ذلك كان في سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م[٢] وفي موضع آخر يقول أنه في سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م[٣]، في حين يذكر ابن الأثيرأن احتلالها تم في سنة ٥٤١هـ [٤] ويؤيده في ذلك أبو الفدا [٥] وابن أبي دينار[٦] والوزير السراج الذي يحدد اليوم تحديداً يوهم بالدقة فيقول إنه كان في يوم الثلاثاء سادس محرم سنة إحدى وأربعين وخمسمائة[٧]، ولكنني أرجح صحة رواية ابن خلدون الأولى التي تقول إن الاحتلال تم سنة ٥٤٠هـ بدليل ماذكره الإدريسي في نزهة المشتاق حيث يقول عنها : (... واستفتحها الملك رجار في سنة ٥٤٠ فسبى حرمها، وأفنى رجالها، وهي الآن في طاعته ومعدودة في جملة بلاده ...)[٨] ذلك لأن الإدريسي عاصر حوادث هذا الاحتلال.

احتلال قابس :

خضعت قابس إثر فرار رافع بن مكي منها كما سبق أن ذكرنا، لعلي بن يحيى بن تميم،

---

(١) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٠٨، أبو الفدا : المصدر السابق ج٣ ص١٨، ابن خلدون المصدر السابق ج٧ ص٤٤ ج٥ ص٢٠٢ – ٢٠٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ص٦٦٣، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٢٢ – ١٢٣، الطاهرالزاوي : المرجع السابق ص٢٣٠ – ٢٣١
K. M. Setton : I Op. Cit., vol. 2. p.23.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٨.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص٢٠٢.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٠٨.

(٥) أبو الفدا : المصدر السابق ج٣ ص١٨.

(٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٤.

(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص٩٦٣.

ولكن يبدو أن الزيريين لم يستطيعوا الاحتفاظ بها إذ يذكر ابن الأثير[1]، ويؤيده ابن خلدون في ذلك[2] أن رشيد أمير دهمان من بطون الهلالية استبد بها وحكمها حتى وفاته سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٣م وكان مولاه يوسف هو المدبر لشؤون دولته، وعندما توفي نصب يوسف ابن سيده الصغير محمد خلفاً لأبيه مقصياً بذلك أخاه الأكبر معمر بن رشيد ليس عن الحكم فحسب، وإنما عن المدينة أيضاً، في حين يذكر ابن أبي دينار رواية أخرى مفادها أن يوسف انتهز فرصة خروج رشيد عن قابس لقتال بعض مناوئيه مخلفاً ابنه نائباً عنه، فطرد ابن مولاه واستبد بالبلد[3]، وأياً كان الأمر فإن يوسف أساء السيرة وأخذ يتعرض لحرم مولاه وكان فيهن امرأة من بني قرة الهلالية، فأرسلت تخبر أهلها فشكوه للحسن بن علي الزيري فكتب إليه يستكفه، ولكن يوسف لم يرتدع بل كتب إلى الحسن يهدده بإدخال النورمان إلى المدينة إن هو حاول التدخل في شؤونه، وكان رجار في ذلك الوقت قد احتل طرابلس، فأرسل يوسف إليه بطاعته وطلب منه التقليد وتوليته على قابس ففعل، ويعلق ابن أبي دينار على ذلك بقوله : (... قلت أعوذ بالله من الخذلان وإلا كيف تعد هذه الطائفة من حزب المسلمين وإنما هي من حزب الشيطان لكن حب الدنيا والرياسة ألجأهم إلى هذه الرذائل وحبك الشيء يعمي ويصم)[4]، فحيئذٍ جهز الحسن جيشاً بعث به إلى قابس، وناصره أعراب بني قرة فحاصروها وكان أهلها حينما علموا بمداخلة يوسف لرجار استاؤا من ذلك، وعندما وصل جيش الحسن ثاروا على يوسف وحصروه في قصره ثم قبضوا عليه وسلموه لبني قرة الذين قتلوه بعد تعذيبه، وآل الأمر إلى أن ولي معمر بن رشيد على المدينة مكان أخيه الذي فر منها[5].

وكان ليوسف أخ يدعى عيسى استطاع الفرار إلى صقلية، حيث أطلع رجار على ما

---

(٨) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص٩٠.
(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٠.
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣.
(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٤، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص١٠٠.
(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٤.
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٠، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣ و ج٦ ص١٦٧، التجاني : المصدر السابق ص١٠٠، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٥٦.

حدث، وقال له إنه لم يحصل لأخيه ما حصل إلا لكونه منتسباً لطاعته فغضب رجار، وصمم على التدخل في الأمر بسرعة، فأرسل أسطوله إلى قابس فحاصرها مدة ولكنه نظراً لمقاومة أهلها الشديدة من ناحية، ثم انشغاله وقتئذٍ بمشروع كبير في اليونان(١) مما جعله لا يستطيع تعزيز ذلك الأسطول، فشل في احتلالها واضطر لسحب ذلك الأسطول وإعادته إلى صقلية(٢)، وبقي الوضع في قابس على تلك الحال، إلى أن تم احتلال المهدية كما سنذكره فيما يلي، حيث أرسل جرجي الأنطاكي إليها أسطولاً احتلها وضمها لباقي ممتلكات النورمان في إفريقية، بل إن إعادة محمد بن رشيد إلى قابس كانت الذريعة التي تعلل بها جرجي الأنطاكي عند هجومه على المهدية كما سيأتي ذكره.

احتلال المهدية :

بعد ذلك جاء دور المدينة العتيدة المهدية لتنتظم في سلك ممتلكات رجار، وكان لديه أكثر من دافع لاحتلالها بالإضافة إلى دوافعه الصليبية منها إدراكه لضعف الحسن التام وعدم قدرته على الدفاع عنها، ثم كون أسطوله قد فرغ من مهمته في ساحل اليونان بتقوية كورفا (Curfa) فضلاً عن تأكده من انشغال الدولة البيزنطية بحربها في شمال البلقان في ذلك الوقت(٣)، ثم سعيه لإيجاد البديل المجزي له ما دام لم يسمح له بالاشتراك في الحملة الصليبية الثانية(٤) من ناحية، وللحركة الصليبية من ناحية ثانية إذ كانت تلك الحملة قد باءت بالفشل فكانت مكاسبه في إفريقية ومكاسب النصارى الإسبان في الأندلس في تلك الفترة هي التعويض الذي كسبته الحركة الصليبية عن فشل الحملة المذكورة(٥)، وعلى ذلك بدأ في حشد أسطوله وجنده لمهاجمة المهدية، وكما كانت عادته، تكتم تكتماً شديداً على استعداداته ومنع السفر من صقلية إلى إفريقية للحيطة من

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.24.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣ و ج٦ ص١٦٧، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٥٦.

(٣) K. M. Setton : Ibid, vol. 2. p. 24.

(٤) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع : انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٢٢.

(٥) K. M. Setton : Ibid, vol. 2. p.16.

تسرب الأخبار إلى الحسن، ولكن الحسن حينما توقف السفر بين البلدين أوجس خيفة من شر رجار، فأرسل بعض عيونه إلى قوصرة لموافاته بأخبار تحركات أسطول النورمان بالحمام الزاجل.

أقلع أسطول رجار الذي قدرته بعض المصادر الإسلامية بمائتين وخمسين قطعة[1] وبعض آخر بثلاثمائة قطعة[2] من صقلية بقيادة جرجي الأنطاكي، ومر في طريقه بجزيرة قوصرة، وتقضي مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يقع جواسيس الحسن الذين كانوا بها في يد جرجي، فسألهم فيما إذا كانوا قد طيروا أي خبر إلى المهدية، فلما أجابوه بالنفي وأقسموا له بما أرضاه وطمأنه من الإيمان على ذلك (أمر الرجل الذي كان الحمام بصحبته أن يكتب بخطه أنه لما وصلنا إلى جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخذول فذكروا أنه أقلع إلى جزاير القسطنطينية وأطلقوا الحمام)[3]، وذلك لتتم خديعة الحسن فيستفيد من عنصر المفاجأة، فاطمأن الحسن بهذه الأخبار، وفي صباح يوم الاثنين الباكر الثامن من صفر سنة ٥٤٣هـ / ٢٢ يونيو ١١٤٨م[4] وصل هذا الأسطول إلى مياه المهدية، وكان يروم تطويقها قبل أن يتنبه له أهلها، ولكن الريح لم تساعده (فلو تم له ذلك لم يفلت من الناس أحد)[5]، ومنعته الريح القوية المعاكسة من دخول الميناء حتى إنه لم يستطيع الحركة إلا بالمقاذيف[6]، فأرسى بعيداً عنها ينتظر هبوب الريح المواتية، وأدرك جرجي أن المفاجأة فاتته وأن أهل المهدية تنبهوا له، فأرسل إلى الحسن يخادعه فأعلمه أنه باق على الصلح وأنه إنما جاء ليرد محمد بن رشيد إلى قابس ويطلب منه عسكراً لمساعدته في

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥.

(٢) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥.

(٣) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣، د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص٢٨٤.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣.

(٥) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٢١.

مهمته[1]، فلم تنطل هذه الحيلة على الحسن، لذلك جمع رجال دولته واستشارهم في الأمر، فكلهم أجمع على قتال العدو[2] إلا الحسن الذي أسقط في يده سيما وأن جيشه كان غائباً عن المدينة لمساعدة محرز بن زياد صاحب المعلّقة في قتاله ضد ابن خراسان صاحب تونس، فقال لمستشاريه إنه إن نزل إلى البر حال بيننا وبين الميرة (فتؤخذوا قهراً وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خير من الملك وقد طلب مني عسكراً لقابس فإن فعلت فما يحل لي معونة الكفار على المسلمين وإن منعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأي أن يخرج الأهل والولد ونترك البلد فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم بأهاليهم وأولادهم وما خف من حملهم وأثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس)[3].

وهكذا خلت المدينة في سويعات ومنعت الريح جرجي من دخولها حتى العصر حيث دخلها وأباحها لجنده بقية ذلك النهار، ودخل هو قصر الحسن فوجده على حاله لم يرفع منه شيء يذكر، مليء بالذخائر الملوكية فختم عليها، كما وجد فيه بعض محظيات الحسن وبعض أمهات أولاده أعجله الهرب عن اصطحابهن معه، فأحسن إليهن وأرسلهن إلى صقلية[4]، ثم نادى في الناس بالأمان فعاد إليها الكثير من أهلها حتى إنه أرسل دواباً لمساعدة الناس بالعودة، وبادر جرجي بعد أسبوع من ذلك اليوم إلى إرسال إسطول إلى سوسة وكان

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥ الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥٢.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٦، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٥٤، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٢١.

(٣) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٦، انظر أيضاً ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٦ – ١٢٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٤، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٢٢، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥،

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.24

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٧، أبو الفدا : المصدر السابق ج٣ ص١٩ – ٢٠، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٢، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٧٥ وما بعدها، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥٢.

يتولاها علي بن الحسن، وكان قد سمع بما حل بالمهدية فلحق بأبيه وخرج الناس بخروجه فدخلها النورمان ونهبوها ثم نادوا بالأمان فعاد أهلها إليها(١)، كما وجه أسطولاً إلى سفاقس وقابس واحتلهما كما تقدم ذكره، فولى عليهما ولاة من قبله بعد أن أخذ الرهائن منهما كعادته، وقد حاول جرجي مزيداً من التوسع فسار بأسطول إلى قلعة إقليبية، وكانت قلعة منيعة بغية احتلالها، فلما تسامع الهلالية بوصوله إليها سارعوا للدفاع عنها وهزموا جرجي وأصحابه بعد أن قتلوا كثيراً منهم(٢)، وبذلك ملك النورمان ساحل إفريقية من طرابلس شرقاً إلي قرب تونس غرباً فضلاً عن جزرها وما سبق لهم امتلاكه من المدن في غربها، ولولا تجدد الخلاف بين رجار والدولة البيزنطية في تلك الآونة، إذ كان الأمبراطور البيزنطي مانويل يعد العدة لاستعادة كورفا منه ثم غزو إيطاليا(٣) بعدذلك، لاستولى رجار على كل إفريقية، يقول ابن الأثير في ذلك :(في هذه السنة – سنة ٥٤٤هـ – اختلف رجار الفرنجي صاحب صقلية وملك القسطنطينية، وجرى بينهما حروب كثيرة دامت عدة سنين، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين، ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد إفريقية)(٤)، أما الحسن بن علي الزيري فإنه بعد مغادرته المهدية لجأ إلى محرز بن زياد أمير المعلقة وأقام عنده بضعة أشهر، وعزم على الرحيل إلى مصر ولكنه علم أن جرجي يتربص به للقبض عليه، فعدل عن ذلك ورحل إلى ابن عمه يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية، فأمر الأخير بالعدول به إلى الجزائر حيث أقام بها مضيقاً عليه من قبل الأمير الحمادي حتى افتتحها عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين فأكرمه واصطحبه معه إلى المغرب وألحقه بخواصه(٥)، ثم صحبه معه حينما زحف إلى إفريقية كما سيذكر فيما بعد.

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٦.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، د. أمبرتو ريتستيانو : المرجع السابق ص٢٢.

(٣) K. M. Setton : Op. Cit., vol, 2. p.24.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٤٥.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٥٩، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص١٩٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٢، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ص٤٧٦.

إفريقية في ظل الاحتلال :

منذ أن احتل النورمان طرابلس، وضعوا عدة تدابير لضمان سيطرتهم عليها من ناحية وللاستفادة من خيراتها من ناحية ثانية، وقد عمموا هذه التدابير فيما بعد على كافة البلاد الإفريقية التي استولوا عليها، وتتمثل هذه التدابير في العمل على إشاعة الاطمئنان فيها، فتركوا أهلها يديرون شؤونهم الداخلية بأنفسهم، فعينوا على كل مدينة منها الوالي والقاضي اللذين ارتضاهما أهلها، ورمموا أسوارها وحافظوا على النظام فيها، وشجعوا على عودة الحياة الطبيعية إليها[(١)]، ولولا الرهائن التي أخذوها من كل مدينة، والجزية التي فرضوها على غير المسيحيين من أهلها، وحاميات الجند النورماني التي وضعوها فيها بهدف حمايتها، لصعب على المرء إيجاد الفرق بين وضع هذه المدن قبل الاحتلال وبعده، يقول ابن خلدون في ذلك : (وكان مذهب رجار ودينه فيما ملك من سواحل إفريقية يبقيهم ويستعمل منهم ويذهب إلى العدل فيهم)[(٢)]، ويؤكد ابن مقديش ذلك بقوله إنه بعد الاحتلال (... وصلت كتب رجار لأهل إفريقية بالأمان والمواعيد الحسنة طامعاً في بقاء المسلمين تحت حكمه)[(٣)]، ولدفع عجلة الحياة وإنعاشها شجعوا على التجارة بين صقلية وإفريقية، وقد أسهمت المدن الإيطالية بنصيب وافر في هذا النشاط لا سيما جنوة خاصة بعد حصولها على امتياز سنة ١١٥٦م من رجار[(٤)]، وقد تحدث كثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين عن ذلك النشاط، فقد ذكر ابن الأثير أن الصقليين والروم (سكان إيطاليا واليونان) قد بدأوا يترددون على طرابلس للتجارة منذ احتلال النورمان لها[(٥)]، كما يذكر ابن أبي دينار أن من بين الإجراءات التي قام بها جرجي الأنطاكي حينما احتل المهدية أنه عمر (المدينتين زويلة والمهدية ودفع للتجار رؤوس

---

(١) لمزيد من التفصيل عن إدارة النورمان للمناطق المحتلة انظر : K. Balkhodja : Op. Cit., p.37 - 38.
K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.25, D. Douglas : Op. Cit., p.58.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٩.

(٣) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص١٢٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٤.

(٤) D. Abulafia : Op. Cit., p. 108 - 109.

(٥) D. Abulafia : Ibid, p.109.

أموال)[1] مما يدل دلالة واضحة على شدة اهتمام رجار بتنشيط الحركة التجارية في إفريقية وإنعاش اقتصادها، ولمزيد من الاستقرار الاقتصادي ضرب في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م في المهدية دنانير شبيهة بالدنانير الإسلامية سواء من ناحية الشكل أو النقوش أو من ناحية الوزن[2]، جرى ذلك بعد احتلال المهدية بقليل، وكان لذلك أثره الحسن على الحياة الاقتصادية بطبيعة الحال إذ أنه وفر مزيداً من الثقة في التعامل التجاري.

ويبرز هنا تساؤل هام عن الدافع لهذه التدابير، وما يلاحظه الباحث حول هذا الموضوع هو المبالغة في الإشادة بهذه التدابير التي يرددها مؤرخو الغرب، حتى إن منهم من يظهر رجار بصورة المنقذ لإفريقية من الخراب والدمار الذي كان قد حل بها، ويكاد يقترب من القول أن ذلك الاحتلال كان نعمة عمت إفريقية بالخير الوفير دون تقديم تفسير لهذا الأمر، والأمر في نظرنا لا يعدو كونه تعبيراً عن شعور صليبي يستهدف تمجيد الحكم الأوروبي على حساب الحكم الإسلامي. إننا لا ننكر أن هذه التدابير ساعدت على إنعاش إفريقية، ولكن هل نسي أصحاب هذه الأقوال أولاً وقبل كل شيء استنزاف رجار لمقدراتها إبان فترة ما قبل الاحتلال بنهب خيراتها وابتزاز حكامها ثم تدمير العديد من مدنها أثناء الغارات التخريبية التي كان يشنها أسطوله على تلك المدن كما سبق أن ذكرنا الأمر الذي يجعله السبب الأهم في ما لحق بها من خراب؟ وهل نسوا ما نعمت به إفريقية تحت حكم المسلمين عقب فتحها من أمن واستقرار وازدهار حضاري حتى غدت القيروان مركز إشعاع حضاري في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط بأكمله؟ ومهما يكن من أمر، فإن رجار كان هو المستفيد الأول والرئيسي من ثمرة هذه الإجراءات، فقد امتلأت خزينته بالأموال من عائدات التجارة لا سيما تجارة القمح التي كان يحتكرها، ثم رسوم الموانئ وضرائب الأسواق وعائدات استئناف تدفق الذهب من قلب القارة علاوة على المبلغ الضخم الذي كان يجنيه سنوياً من ضريبة الرأس التي فرضها على غير المسيحيين، وقد كانت هذه الفوائد من الضخامة بحيث أن برنجفيك جعل الغاية من هذا الاحتلال اقتصادية بحتة[3]،

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص٩٤ – ٩٥.

(٢) K. Balkhodja : Op. Cit., p. 38. D. Abulafia : Op. Cit., p.109. M. M. A. Basset : Op. Cit, p.89.

(٣) M. M. A. Basset : Ibid, p.89.

ومع تحفظنا على رأي برنجفيك الذي تجاهل فيه الأهداف الصليبية الأخرى لهذا الاحتلال، إلا أننا نوافقه على أن تحقيق الغاية الاقتصادية كان هدفاً بارزاً من أهدافه.

وخطا رجار خطوة أخرى لها أهميتها في سبيل تدعيم أركان هذا الاحتلال والتي يجد الباحث لها مثيلاً في أسلوب الاستعمار الأوروبي الحديث، إذ شجع على هجرة الصقليين خاصة والإيطاليين عامة إلى إفريقية للاستيطان بها، يقول ابن خلدون في ذلك (... ونادوا في صقلية بالمسير إلى طرابلس فساروا (فسار) إليها الناس...)[(١)]، ويقول ابن مقديش الصفاقسي إنه بعد احتلال سفاقس ومنح أهلها الأمان ورجوعهم إليها سكن (بالبلد طائفة من النصارى)[(٢)] وقل مثل ذلك بالنسبة لباقي المدن والنواحي المحتلة، ولا يخفى على أحد ما تنطوي عليه هذه الدعوة، فالاستعمار يظل مزعزع الأركان إن لم يصاحبه المعمر، ذلك أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي، فقد تتبدل الظروف في وقت من الأوقات ويتحول الانتصار العسكري إلى هزيمة فيغادر من حيث أتى، أما إذا ضرب المعمر جذوراً له في الأرض، حينئذٍ يصعب اقتلاعه منها، والأمثلة على كلتا الحالتين كثيرة في التاريخ، فموجات التتار مثلاً كانت تحرز انتصارات عسكرية ساحقة وتكتسح أقطاراً عديدة، ولكنها كانت تغادرها سريعاً بمجرد تبدل الظروف دون أن تخلف لها ذيولاً، وتعود الشعوب التي كانوا قهروها عسكرياً لممارسة حياتها الطبيعية دون قيود، أما الشعوب التي خضعت للاستعمار الأوروبي مثلاً لأن المعمر كان أحد أركان هذه الاستعمار الثلاثة بالإضافة إلى الجندي والمنصّر، صعب عليها التخلص منه واجتثاثه، وعانت الكثير حتى نالت حريتها، وبالرغم من تحررها استمرت ذيول هذا الاستعمار تعايشها لفترة طويلة، فكان رجار بدعوته تلك يسعى لتثبيت أركان الاحتلال على أسس راسخة قوية لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية. ولكن هل خدع أهل إفريقية بالقناع الزائف الذي لبسه رجار واستكانوا للاحتلال؟

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٣، انظر كذلك الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق١ ص١٢٣،
D.Abulafia : Op. Cit., p.85 - 86., N. Daniel : Op. Cit., p.249., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.28

(٢) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، انظر أيضاً ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٩.

الثورة وبداية التحرير :

اعتقد رجار أن باحتلاله إفريقية وبما وضع لها من تدابير قد ضمن بقاءها في ملكه، فأضاف لقب ملك إفريقية (Rex Africa) إلى ألقابه[1]، ولم يكن يدور بخلده أن صاحب الحق لن يكف عن العمل للوصول إلى حقه، ومات في سنة ٥٤٨هـ / ٢٦ فبراير سنة ١١٥٤م وهو مستغرق في نشوة فتوحاته، ولم يعلم بأن الوضع سيتبدل من بعده، فقد خلفه ابنه وليام الأول الذي لم يكن يتمتع بشيء من صفات أبيه وجده، بل كان (فاسد الدين والتدبير)[2]، كما أنه لم يتوفر له أحد من الرجال الأكفاء من ذلك الطراز الذي توفر لأبيه والذين كانوا أركان دولته مثل جرجي الأنطاكي الذي كان قد توفي سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م – ١١٥٢م[3]، وعبد الرحمن النصراني وفيليب المهدوي وروبرت السلبي (Robert of Salabiy)، ونظراً لضعف شخصيته دب النزاع بين رجالات بلاطه، فقد أثارت تصرفات مايو (Maio of Bari) مدبر دولته، سخط قطاعات كثيرة في الإدارة الصقلية لا سيما نبلاء النورمان ورجالات البلاط اليونان واللاتين، ولعل فيما يقوله فيلكاندو الذي صب لعناته على مايو وهجاه بشتى أنواع الهجاء المقذع وحمله مسؤولية ما حل بالمملكة من كوارث[4] يقدم لنا صورة واضحة عن سوء أوضاع دولة وليام، فانتهز أهل جزيرة جربة تلك الأوضاع المضطربة في المملكة وأعلنوا الثورة في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م، ولكن وليام أرسل أسطولاً إلى الجزيرة قمع ثورتها بعنف فقتل كثيراً من أهلها وسبى الكثير ليباعوا في سوق الرقيق في صقلية فلم يبق بها إلا الضعفاء ومن لا يؤبه بشأنه[5]، ولكن ذلك لم يطفئ جذوة الثورة في إفريقية بل بقيت كامنة تنتظر الفرصة، واستمرت أوضاع مملكة النورمان في التردي، وزاد الحالة سوءاً ظهور مخاطر جديدة تهدد كيانها، فقد خفت في تلك الآونة حدة التوتر بين الامبراطورين الألماني والبيزنطي الأمر الذي شكل خطراً جسيماً

---

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.27.

(٢) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٤، انظر أيضاً D. Douglas : Op. Cit., p.59.

(٤) D. Abulafia : Op. Cit., p.86.

(٥) التجاني : المصدر السابق ص١٢٦، كذلك محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص١٠١.

على مملكة وليام لأن كليهما كان له مطالب فيها بدأ يعمل للحصول عليها، حتى أشرفت تلك المملكة على الانهيار في سنة ١١٥٥ - ١١٥٦م إذ سيطر البيزنطيون على ساحل الأدرياتيكي من فيستا إلى برانديزي، كما تقدم جيش بابوي في بنفنتو (Benvento)، وزاد الطين بلة اشتعال ثورة البارونات في أبوليا من جديد والتي لم تلبث أن امتدت إلى صقلية[١]، فأدركت إفريقية أن ساعة الخلاص قد حانت فأشعلتها ثورة عارمة على الاحتلال النورماني البغيض.

كانت سفاقس هي السباقة بعد جربة للثورة، ذلك أنه عندما احتلها النورمان ولوا عليها الشيخ أبا الحسن الفرياني[٢] نظراً لما كان يتمتع به من مكانة سامية في نفوس أهل بلده لسعة علمه ورجاحة عقله وحسن خلقه وصلابته في دينه، فتولاها مدة بسيطة ثم اعتزل معتذراً بكبر سنة، وأشار بتولية ابنه عمر بدلاً منه[٣]، وفعلاً ولى رجار ابنه عمر وأخذه هو رهينة إلى صقلية من ضمن رهائن سفاقس، ويذكر ابن الأثير[٤] ويؤيده في ذلك كل من التجاني[٥] والوزير السراج[٦] وابن مقديش الصفاقسي[٧]، أن أبا الحسن قبل مغادرته سفاقس أمر ابنه بالثورة حينما تتهيأ له الظروف المناسبة لذلك، وحينما اعترض وأبدى عدم استعداده للتفريط به أجابه بقوله : (يا ولدي أنا كبير السن وقد قارب أجلي فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر إليّ فإني أقتل واحسب أني قد مت)[٨]، وأما ابن خلدون فيروي روايتين عن هذا الموضوع إحداهما تطابق هذه الرواية[٩]، ومفاد الثانية أن أبا الحسن حينما علم بأن النصارى الذين كانوا يقيمون بسفاقس قد امتدت

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, 29.
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٥، التجاني : المصدر السابق ص٧٤.
(٣) أما ابن مقديش (المصدر السابق ورقة ١٧٧) فيروي أنه لم يتول سفاقس ويقول إنه عندما طلب النورمان منه ذلك رفض وأشار بتولية ابنه عمر.
(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٣.
(٥) التجاني : المصدر السابق ص٧٤.
(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٢٢ - ٣٢٣.
(٧) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.
(٨) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.
(٩) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٥.

أيديهم إلى المسلمين وألحقوا بهم الضرر كتب إلى ابنه عمر من صقلية يأمره بانتهاز الفرصة فيهم فثار عمر لوقته سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م[(١)].

وأياً كان الأمر فإن عمر أخذ يتأهب للثورة، فأقام مكاناً على هيئة صهريج للماء شرقي المسجد الجامع كان ينزل إليه الصناع كل ليلة لصناعة الأسلحة فسمي بعد ذلك ماجل الصناعة، ووزعت تلك الأسلحة على المسلمين سراً[(٢)] وفي ليلة الأول من يناير سنة ١١٥٦م وإبان احتفال النصارى في المدينة بالسنة الميلادية الجديدة، أمر عمر بمهاجمتهم، وحينما أبدى المسلمون تخوفهم على أبيه قال لهم بأنه هو الذي أمره بذلك (وإذا قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات)[(٣)]، فوثبوا من ساعتهم على أعدائهم (فلم تطلع الشمس حتى قتل الإفرنج عن آخرهم)[(٤)]، وتمضي المصادر الإسلامية في وصف ما حدث بعد ذلك مبينة أن وليام حينما علم بهذه الثورة استدعى أبا الحسن وأعلمه بما فعل ابنه وطلب منه أن يكتب إليه ليردعه ويحثه على الطاعة فرفض الشيخ ذلك قائلاً إن من أقدم على مثل هذا الأمر لن يرجع عنه بكتاب. فأرسل وليام رسولاً إلى عمر يهدده بقتل أبيه إن هو استمر في تمرده وعصيانه، وحينما وصل الرسول إلى سفاقس أدرك عمر الغرض من قدومه فرفض استقباله في ذلك اليوم ولم يمكنه من دخول البلد، وفي صبيحة اليوم التالي خرج أهل سفاقس بأجمعهم من باب البحر يحملون نعشاً على مرأى من الرسول، فتقدم عمر وصلى على النعش ثم دفنوه وعزاه الناس وانصرفوا والرسول يشاهد كل ذلك، ولما طلب الرسول مقابلته قيل له إنه مشغول بالعزاء في والده الذي بصقلية والنعش الذي رأيت نعشه وقد عزم على موته والسلو عنه[(٥)]، فعاد إلى صقلية وأخبر وليام بما حدث فلم يجد هذا ما يطفئ به نار غيظه إلا الشيخ أبا الحسن، فسحب إلى المشنقة وشنق وهو يتلو القرآن

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٩.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر التجاني : المصدر السابق ص٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧ وما بعدها، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٣٢.

(٣) التجاني : المصدر السابق ص٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٤) التجاني : المصدر السابق ص٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٥) التجاني : المصدر السابق ص٧٥، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٤، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

حتى فاضت نفسه[١]. وبذلك نجحت سفاقس في تحرير نفسها.

كان نجاح ثورة سفاقس (سبباً في انتقاض سائر بلاد الساحل)[٢] على النورمان، إذ ما لبثت الثورة أن امتدت إلى جربة وقرقنة[٣] وطرابلس سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م التي تزعم ثورتها واليها أيضاً رافع بن مطروح، إذ يقول ابن خلدون إنه (مشى في وجوه الناس وأعيانهم وداخلهم في الفتك بالنصارى فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار)[٤]، ثم ثار محمد بن رشيد في قابس[٥]، وأخيراً لم يبق تحت حكم النورمان إلا زويلة والمهدية، فأرسل عمر بن أبي الحسن الفرياني إلى أهل زويلة يحرضهم على الثورة والوثوب (على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك)[٦]. وعندما علم الأعراب الهلالية بثورة زويلة قدموا إليها لإعانة أهلها فاشتد ساعد هؤلاء بهم، كما قدم لنصرتهم جمع من أهل سفاقس بعث بهم الشيخ عمر، فكثر عددهم فزحفوا إلى المهدية وحاصروها في شوال سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م، وقطعوا عنها الميرة وضيقوا عليها[٧]، وحينما قلت الأقوات بها استنجدت حاميتها بوليام فأرسل إليهم أسطولاً من عشرين قطعة مشحونة بالطعام والجند والسلاح، ويفهم من رواية ابن مقديش الصفاقسي[٨] أن النورمان استمالوا بعض ضعاف النفوس من الأعراب فبيتوا الغدر بإخوانهم من المسلمين، وحينما اطمأن النورمان لاستجابة هؤلاء الخونة

---

(١) التجاني : المصدر السابق ص ٧٥، ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٤ (ويذكر أنه صلب حتى مات)، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٩، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٢) التجاني : المصدر السابق ص ٧٥، ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٦٩، ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٦٨، انظر كذلك ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٢٨ (ويذكر أن ذلك تم في سنة ٥٥٥هـ وهو وهم منه والأصح ما أثبتناه في المتن بدليل باقي الروايات)، الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص٢٣٤.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٤، ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٤، ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٤، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣١٦، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٨) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

لهم وأحكموا التدبير، خرجوا من المهدية لقتال المسلمين، وعندما احتدمت المعركة نفذ أولئك النفر ما تم الاتفاق عليه من الغدر فأظهروا الهزيمة وتبعهم بعض من ذهل من هزيمتهم بينما ثبت الباقون في ساحة القتال، ولما تكاثر النورمان عليهم واستمر القتل فيهم بادر أهل سفاقس إلى مراكبهم وأقلعوا بها عائدين إلى بلدهم، وتراجع الباقون حتى وصلوا زويلة، فعاجلهم النورمان عنها، فأغلق من بها أبوابها خشية دخول النورمان عليهم، فلما وجد المسلمون أبواب زويلة مغلقة ومعظمهم كانوا من أهلها، لم يكن أمامهم إلا الاستماتة في القتال، فقاتلوا النورمان تحت أسوارها قتالاً شديداً فقتل منهم خلق كثير وتفرق الباقون، وشدد النورمان هجومهم على زويلة حتى اقتحموها، فقتلوا كثيراً من أهلها ونهبوها[(١)]، وبذلك فشلت ثورة زويلة وخضعت للنورمان من جديد، ولكن نفراً ممن كتبت لهم النجاة من أهلها ذهبوا إلى الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي في مراكش وشكوا إليه ما حل ببلدهم وطلبوا منه النصرة[(٢)].

الموحدون واستكمال التحرير :

نلاحظ مما تقدم أن الثورة قد عمت إفريقية وأن معظم الجهات المحتلة منها قد تحررت قبل زحف عبد المؤمن بن علي إليها، لذلك يخطئ من يظن أن عبد المؤمن هو الذي تولى وحده عبء تحريرها، صحيح أن فكرة تحريرها كانت تعتمل في أعماق نفسه، لكن المشاكل التي كانت تواجهه كانت تفرض عليه تأجيل تنفيذها، فقد كان عليه أن يدعم جبهة الأندلس التي كانت أوضاعها لم تستقر بعد برغم الجهود التي بذلها في سبيل ذلك منذ قضائه على دولة المرابطين، فكان النصارى وحليفهم ابن مردنيش وابن همشك لا يزالون يهددون تلك الجبهة ويشكلون خطورة كبيرة عليها، ثم كان عليه أن يتخلص من الدولة الحمادية التي استقبلت فلول المرابطين وأخذت تناصبه العداء لا سيما وأنها كانت تشكل حاجزاً بينه وبين

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٠٥، ص٢٤٤، ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣١٦، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤٢.

إفريقية، كما كان عليه أن ينهي تمرد وعصيان الأعراب الهلالية في المغرب الأوسط الذين كانوا يفضلون الحياة المستقلة على الانضواء في نطاق دولته، خاصة وأن رجار الذي كان يدرك مقدار خطورة الموحدين على ممتلكاته في إفريقية حاول التحالف مع هؤلاء الهلالية للتصدي للموحدين، فعرض عليهم أن يمدهم بخمسة آلاف فارس لمساعدتهم على مقارعة عبد المؤمن على أن يعطوه رهائن منهم فرفضوا[1]، لذلك آثر عبد المؤمن التغلب على هذه المشاكل أولاً ثم التوجه بعد ذلك إلى إفريقية، ومرت بضع سنوات تمكن فيهما من تذليل تلك الصعوبات، حيث أعاد الهدوء النسبي إلى الأندلس وانتصر على الهلالية في موقعة سطيف سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م فلانت له عريكتهم كما سبق أن ذكرنا، كما قضى على الدولة الحمادية وضم المغرب الأوسط إلى دولته، وقد حاول ابنه عبد الله المضي شرقاً في فتوحاته إثر ذلك فحاصر تونس التي كان يتولاها ابن خراسان، ولكنه اضطر للارتداد عنها سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، ومع ذلك فقد امتدت حدود دولة الموحدين شرقاً إلى قرب تونس.

وفي تلك الآونة وصل إليه أولئك النفر من زويلة يستنجدون به على النورمان وأطلعوه على أوضاع المسلمين مع العدو (فأثر فيه كلامهم تأثيراً عظيماً حتى دمعت عيناه وأطرق ملياً وأخذته غيرة الدين وغضبة الإسلام وعزة الله فرفع رأسه وقال أبشروا لأنصرنكم إن شاء الله ولو بعد حين)[2]، وأمر من وقته بالبدء في الاستعداد للمسير إلى إفريقية، ولما كان يدرك طول المسافة بين مراكش والمهدية وحاجة الجيش للزاد والمياه خلال هذه الطريق، فقد أمر عماله بحفظ ما يحصل من الغلات وأن يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار على طول الطريق[3]، فلما تم ذلك وجمعت غلات ثلاث سنوات نادى في أنحاء المغربين الأقصى والأوسط بالجهاد فوافته جموع المجاهدين من كل ناحية، ولما تكامل هذا الجيش الذي قدرته بعض المصادر الإسلامية بمائة ألف فارس وأما الرجالة فلا يحصون كثرة[4]

---

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.28.

(٢) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٤١.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٦، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧ – ١٧٨.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٤٢، انظر عن ذلك أيضاً ابن عذارى : المصدر السابق ج١ =

خرج من مراكش في صفر سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م وكان أسطوله في البحر يحاذيه في سيره وقد بلغ عدد قطعه (٧٠) قطعة مختلفة الأحجام والأشكال بقيادة محمد بن عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر، وابن الخراط وأبي الحسن الشاطبي وغير هؤلاء ممن هم مثلهم في المعرفة والشهرة[١]، وقد أثار هذا الجيش إعجاب أهل إفريقية بحسن انضباطه، إذ كان يمر بالمزارع في الطريق الضيق فلا تقطع سنبلة واحدة، كما كان يصلي الصلوات الخمس بإمام واحد وتكبيرة واحدة[٢]، وكان عبد المؤمن كلما مر بحي من أحياء العرب بادروا بالانضمام إليه[٣] حتى نزل على تونس، وحينما رأى أهلها عدم جدوى مقاومته استسلموا له فأقام بها ثلاثة أيام ثم ارتحل عنها إلى المهدية.

وصل عبد المؤمن إلى المهدية ضحوة يوم الأربعاء الثاني عشر من رجب سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م فنزل في زويلة التي كان النورمان قد أخلوها وتحصنوا بالمهدية حينما سمعوا بقدومه[٤]، وتذكر بعض المصادر الإسلامية أن عبد المؤمن طاف حول المهدية بأحد مراكبه يرافقه الحسن بن علي الزيري آخر أمرائها الزيريين وذلك لمعاينة تحصيناتها فهاله ما رأى من مناعتها، فقال للحسن كيف نزلت من هذا الحصن فأجابه بقوله لقلة من يوثق به وعدم القوة وحكم القدر[٥] وتبين لعبد المؤمن أنها لا تؤخذ إلا بالمطاولة في الحصار، فحاصرها براً وبحراً ونصب عليها المجانيق وأخذ يراوحها القتال ليلاً ونهاراً، وعندما سمعت المدن الإفريقية التي تحررت من ربقة الاحتلال بنزول عبد المؤمن على المهدية أرسلت وفودها إليه

= ص٣١٦، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٦، ج٦ ص٢٣٧، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص١١٥، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص١٩٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١١٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ص٤٧٩.

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٨٠.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٤٢، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص١٩٨، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٨٠، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥٥.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٨٠، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٥ ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٥) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٤٣، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص١١٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨ — ١٧٩، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥٥.

ببيعتها وإعلان ولائه إليه فأكرمها وبرها[1]، كما أرسل بعض سراياه إلى النواحي الأخرى المتمردة فأنابت إلى الطاعة وبذلك استبرأ إفريقية من داء الفرقة الذي جر عليها الوبال.

إما وليام ملك صقلية، فإنه عندما علم بحصار عبد المؤمن للمهدية، أرسل أسطولاً من مائة وخمسين قطعة حربية لنجدتها، ولما وصل ذلك الأسطول إلى مياهها خرج إليه أسطول الموحدين واشتبك معه في معركة بحرية هائلة على مرأى من عبد المؤمن الذي كان أثناء احتدام تلك المعركة (يمرغ وجهه على الأرض ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر)[2]، وأخيراً ولى الأسطول النورماني هارباً فتبعه الأسطول الموحدي إلى عرض البحر وأسر سبعة من قطعه علاوة على ما كان قد فقده ذلك الأسطول في المعركة، وحينما رأى النورمان في المهدية هزيمة أسطولهم أسقط في يدهم وأيقنوا بسوء العاقبة، ولم يعاود وليام إرسال نجدة ثانية، إذ أنه على ما يبدو أدرك عدم الجدوى من ذلك، وآثر عدم التورط في حرب مع الموحدين في وقت كانت فيه مملكته أحرص ما تكون على الاحتفاظ بقواها لمجابهة فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا الذي كان يهدد وجودها بالخطر[3]، ومع ذلك فلم تجر الأمور بسهولة على عبد المؤمن إذ أن النصارى الإسبان أثناء حصاره للمهدية أوعزوا لحليفهم وصنيعتهم ابن مردنيش للضغط على الموحدين في الأندلس فخرج من فوره على رأس جيش كبير أكثره من نصارى قشتالة ودهم مدينة جيان الموحدية على حين غفلة من أهلها واستولى عليها[4]، وكان هدفهم من ذلك إجبار عبد المؤمن على فك الحصار عن المهدية، وهذا يقدم لنا دليلاً آخر على الارتباط الوثيق بين فروع الحركة الصليبية في مختلف جبهات الصراع الإسلامي الصليبي، ولكن ذلك لم يزد عبد المؤمن إلا عناداً وإصراراً على فتح المهدية، فشدد عليها الحصار وأنهك حاميتها بالقتال الشديد حتى أدركت تلك الحامية عبث المقاومة وأنه لا

---

(١) ابن خلدون :المصدر السابق ج٥ ص٢٠٦، ج٦ ص١٦٨، الزركشي : المصدر السابق ص١٢.

(٢) ابن مقديش :المصدر السابق ورقة ١٧٩، ابن الأثير : ج١١ ص٢٤٤، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص١١٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٦.

(٣) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٤٤، انظر كذلك :

K. M. Setton Op. Cit., vol. 2, p.31., D. Abulafia : Op. Cit., p.123.

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٤٠، انظر كذلك د. عبد الله علام : المرجع السابق ص١٩٠ – ١٩١.

مفر من التسليم فدخلت معه في مفاوضات لهذا الغرض، وكان وليام أثناءها حسب ما تذكره بعض الروايات الإسلامية يهدد بقتل كافة المسلمين في صقلية إذا قتل عبد المؤمن نورمان المهدية[1]، ولعل ذلك كان هو السبب الذي جعل عبد المؤمن يقبل بما عرضه عليه النورمان في أن يسلموه المدينة على أن يسمح لهم بالخروج منها بأموالهم، وأياً كان الأمر فقد سمح لهم بالرحيل، بل وزودّهم بسفن لتقلهم، إلى صقلية وكان الوقت شتاء فهبت عليهم عاصفة في الطريق دمرت معظم تلك السفن ومات معظمهم غرقاً في البحر[2]. ودخل عبد المؤمن المدينة صباح يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥هـ / ٢٢ يناير سنة ١١٦٠م، بعد حصار دام ستة أشهر وتسعة أيام[3] وأقام بها عشرين يوماً ينظم أمورها وولى عليها والياً من قبله ضم إليه الحسن بن علي الزيري أميرها السابق لمساعدته، ثم قفل عائداً إلى مراكش، وبذلك تم توحيد المغرب العربي بأكمله والأندلس في دولة واحدة تحت راية الموحدين. أما نصارى صقلية فكان وقع سقوط المهدية عليهم شديداً فدبروا للمسلمين مذبحة بلرمة سنة ١١٦٠م كما تقدم ذكره.

* * *

منذ أن انضوت إفريقية تحت لواء الدولة الموحدية هدأت حدة الصراع الإسلامي الصليبي في جبهتها نسبياً، وجمدت الحركة نشاطها فيها خوفاً من سطوة الموحدين، فلم توجه لها حملات صليبية كبيرة على غرار الحملات السابقة، واقتصر نشاط الصليبيين فيها على غارات كان يشنها قراصنتهم على بعض نواحيها كلما واتتهم الفرصة[4]، ولكن

---

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٩.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٤٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٦، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص١١٨ – ١١٩.

(٣) الزركشي : المصدر السابق ص١١ – ١٢، أبو الفدا : المصدر السابق ج٣ ص٣٤، ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٣٩ (ويذكر أن الحصار دام سبعة أشهر)، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٥٦، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢٥١ – ٢٥٢، د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص٢٨٩، أحمد بن عامر : المرجع السابق ص٤٦.

(٤) ذكر ابن عذارى أمثلة عديدة على هذه الغارات مثل الهجوم الذي تعرضت له المهدية سنة ٥٥٨هـ وعرف بكائنة السبت لحدوثه في يوم السبت، والغارة على سوسة في تلك الآونة والتي تمكن =

جبهتها الداخلية لم تخلد للسكينة، إذ نظراً لبعدها عن مركز الدولة بقيت أرضاً طيبة للقلاقل والفتن، والتي كان منها ما هو داخلي[1] يثيرها بعض الطامعين وبعض الهلالية، ومنها ما كان بفعل مؤثرات خارجية كنشاط قراقوش التقوى في جهاتها الشرقية، وبني غانية الذين فجروا فيها ثورة دامت مدة طويلة استنزفت قسطاً وافراً من جهود وإمكانيات الدولة الموحدية. وما زاد في خطورة هذه الثورة التي شملت إفريقية وقسماً كبيراً من المغرب الأوسط أنه كان لها ارتباط بقراقوش التقوى من ناحية وبعض القوى الصليبية من ناحية أخرى، ولم تكن نارها تخبو حتى تشب من جديد، لذلك فإن هذه الفتن التي كانت تدور في أرض إفريقية وضعت الدولة الموحدية بين ناري الأندلس وإفريقية، إذا هدأت الأولى اشتعلت الثانية، وتبعاً لذلك توزعت جهود خلفائها بين القطرين، وكان الأجدر أن توجه كافة الجهود لدعم جبهة الأندلس، ولهذا اضطر بعض خلفاء الموحدين لمسالمة النصارى الإسبان أكثر من مرة للتفرغ إلى إفريقية، من ذلك ما ذكره ابن الأثير عن أبي يوسف بن يعقوب المنصور أنه أقام مجاهداً في الأندلس (ثلاث سنين، انقطعت أخباره عن إفريقية، فقوي طمع علي بن إسحق الملثم الميورقي، وكان بالبرية مع العرب، فعاود قصد إفريقية فانبث جنوده في البلاد فخربوها، وأكثروا الفساد فيها، فمحيت آثار تلك البلاد وتغيرت، وصارت خالية من الأنيس، خاوية على عروشها، وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها، وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب، فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ما ذكرناه، وعاد إلى مراكش عازماً على قصده، وإخراجه من البلاد، كما فعل سنة إحدى وثمانين وخمسمائة)[2]، وتوفي المنصور وخطر بني غانية كان لا يزال جاثماً على إفريقية، وتبين للناصر بن المنصور الذي خلف أباه في الحكم أثناء وجوده في إفريقية لمواجهة فتنة ابن غانية عدم فعالية هذه الزحوف، إذ كان من سبقه من الخلفاء ما يكاد يغادرها إلى المغرب الأقصى حتى تثور الفتنة فيها من جديد، فرأى أن من الأفضل

= القراصنة من احتلالها ولم يخرجوا منها إلا بعد أن نهبوا جميع ما فيها، والغارة على المهدية سنة ٥٧٣هـ والتي عرفت بكائنة يوم الجمعة وغيرها. (انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٣١٦).

(١) عن ذلك انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٢٠٦ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير :المصدر السابق ج١٢ ص١١٦.

إسناد أمرها إلى شخصية قديرة تمنح حرية التصرف لمعالجة الأمور من قبل تفاقمها، لذلك وبعد أن ألحق بابن غانية هزيمة ساحقة وألجأه إلى الصحراء ولى عليها سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م وقيل سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م[١] أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص أحد رجالات الدولة البارزين، الذي استطاع خلال الثلاث سنوات التي أقامها والياً عليها أن يعيد الهدوء إلى ربوعها، عاد بعدها إلى المغرب الأقصى مؤثراً ذلك على البقاء فيها، ولكن ابنه أبا زكريا يحيى هو الذي سيؤسس الدولة الحفصية فيها بعد ذلك بفترة وجيزة.

ذلك أنه عندما دخلت الدولة الموحدية طور الاعتلال إثر الهزيمة التي لحقت بالخليفة الناصر في موقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م[٢] أخذت إفريقية تتجه نحو الاستقلال، ثم جاء إعلان المأمون الموحدي بطلان مهدوية ابن تومرت ليقطع آخر الروابط بين إفريقية والدولة الموحدية إذ استنكر واليها أبو زكريا آنف الذكر إعلان المأمون وأعلن تمسكه بالمبادئ الموحدية وقطع آخر ما كان يربطه بالخلافة الموحدية وشرع في إرساء قواعد الدولة الحفصية المستقلة، وكان بنو مرين قد بدأوا آنذاك يظهرون كقوة تضغط على الموحدين في المغرب الأقصى، وانفرد بنو زيان أصحاب تلمسان بالمغرب الأوسط، وتمخضت حوادث الأندلس عن تأسيس دولة بني الأحمر في غرناطة، وبذلك حينما سقطت الدولة الموحدية سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م كان قد قام على أنقاضها أربع دول، وتمزق المغرب الإسلامي من جديد، فنشطت الحركة الصليبية محاولة الاستفادة من هذه الظروف، ووجهت إلى إفريقية حملة صليبية ضخمة قادها لويس التاسع ملك فرنسا هي التي سنتعرض لها بالتفصيل في الباب التالي.

---

(١) انظر ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج١ ص٢٠٧.

(٢) عن هذه الموقعة انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٢٤١ وما بعدها.

الباب الثاني

حملة لويس التاسع على إفريقية

﴿ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يُضِلونكم وما يُظِلُّون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

[سورة آل عمران : آية ٦٩]

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّونكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

[سورة البقرة : آية ٢١٧]

نشاط لويس التاسع الصليبي
بعد فشل حملته على مصر

(محاولات تدعيم صرح منهار – نذر الكارثة – الدعوة إلى حملة صليبية جديدة – الظاهر بيبرس والحملة الصليبية الجديدة – بين المستنصر الحفصي ولويس التاسع – إفريقية طريق إلى بيت المقدس)

محاولات تدعيم صرح منهار :

يعتبر فشل حملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٧ – ٦٤٨هـ (١٢٤٩ – ١٢٥٠م) المعروفة بالحملة الصليبية السابعة نقطة تحول في اتجاه الحركة الصليبية، فقد كان ذلك الفشل سبباً مباشراً وهاماً في زعزعة أركان الكيان الصليبي في المشرق، ذلك أن هزيمة لويس التاسع في مصر لم يترتب عليها حرمان ذلك الكيان من النجدة الغربية التي ظل يمني نفسه بها لتدعيم وجوده في المشرق فحسب، بل ذهب ضحيتها أيضاً عدد كبير من فرسان الشام وقبرص ومحاربي الداوية والاسبتارية مما جعل الصليبيين في الشام بالذات يعيشون تحت رحمة ما تتمخض عنه الظروف والحوادث(١)، وكان لويس التاسع من أكثر الصليبيين إحساساً بفداحة هذا الخطب، فعلاوة على أن فضيحة الهزيمة وعار الأسر قد لطخا سمعته، كان يعتقد أنه المسؤول الأول عما لحق ببلاده خاصة، وبأوروبا الغربية بصفة عامة من الكوارث، لذلك رأى أنه لا بد من القيام بعمل ما، يحقق به مكسباً ولو بسيطاً يعيد إليه ماء وجهه، ولهذا لم يتجه إلى بلاده مباشرة بعد إطلاق سراحه من الأسر إثر معاهدة الصلح التي

---

(١) انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٣٦١، المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٣، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٨٤، د. جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ص٧٠، د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٥٦ .
Rothlın : Continuation de Guillaume de Tyre dite du manuscrit de Rothelin. II, p.622.
R. Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem.

عقدها مع المماليك في ٦ مايو سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ[١]، بل فضل الاتجاه إلى عكا لتدبر أمره، وليبقى قريباً من الحوادث الهامة التي كانت تدور في منطقة الشرق الأوسط في تلك الآونة، وليس في المصادر التاريخية الغربية أو الشرقية ما يدل على الوقت الذي اتخذ فيه ذلك القرار، وإن كانت هنالك بعض الدلائل تشير إلى أنه فكر في هذا الأمر طويلاً إبان أسره بدليل اتجاه زوجته التي كانت قد غادرت مصر قبله إلى عكا، إذ لولا هذه النية لأبحرت إلى بلادها مباشرة [٢]، وأما العوامل التي دفعته إلى ذلك فكانت عديدة، منها ضرورة قيامه بأي عمل من شأنه أن يرد إليه ولو جزءاً قليلاً من اعتباره كما سبق أن ذكرنا، ثم ليطمئن على تخليص رجاله وجنده الذين ظلوا أسرى في مصر والذين بلغ عددهم حوالي أربعة عشر ألف أسير[٣]، ثم شبوب نار الفتنة بين المماليك حكام مصر الجدد وأمراء البيت الأيوبي في الشام مما أعطاه الأمل في التدخل لتحقيق مكاسب على حساب الفريقين المتنازعين، هذا فضلاً عن تردي أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وشعوره بضرورة العمل على تدعيم كيانهم الآيل للانهيار، ثم الأمل الذي كان يعلقه على الاستفادة من قوة التتار الجبارة التي كانت قد أخذت تكتسح العالم الإسلامي من الشرق، لكل ذلك ما أن أطلق سراحه وغادر دمياط في ٨ مايو سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ حتى اتجه إلى عكا حيث وصلها في ١٣ مايو سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ[٤].

كان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذٍ أحوج ما يكونون إلى زعيم قوي يجمع شملهم، ويحل مشاكلهم، وينظم صفوفهم، ويبث فيهم روح الثبات والعزيمة، لذلك رحبوا بالملك الفرنسي ترحيباً كبيراً[٥]، وعقدوا عليه الآمال في إنقاذهم مما كانوا فيه من الضعف

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ص١٠٨٣، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٧٠. H. E. Mayer : Op. Cit., p.255.

(٢) انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٧٠.

(٣) R. Grousset : Op. Cit., Tom III, p.494.

(٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٨٤، انظر أيضاً :
Nangis : Vita Sancti Ludovici regis franciae, XX, p.383., R. Grousset : Ibid, Tom III, 493.
د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٧٠.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر Rothelin : Op. Cit., T. II, p.619 - 621 Joinville: The life of Saint Louis, p.266. R. Grousset : Ibid, Tom III, p.493. H. E. Mayer : Ibid, p.264 - 271.
الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٨٤ – ١٠٨٥، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٦٩،=

والانقسام واليأس، حتى إن منهم من اعتبر أن عودته سالماً في ذلك الوقت نصراً كبيراً[1]، وطوال السنوات الأربع التي قضاها في الشام (مايو سنة ١٢٥٠ - إبريل سنة ١٢٥٤م) بذل جهوداً مضنية في سبيل تحقيق أهدافه الصليبية. لقد وقف وسط القوى المتصارعة في المنطقة يصانع قوة ويهدد أخرى ويلوح لثالثة بالاتفاق مع خصومها كل ذلك لتسخيرها لتحقيق أهدافه. وقد سارت سياسته خلال تلك الفترة في أربع اتجاهات تلتقي كلها لتحقيق الهدف المنشود هي الاستفادة من الصراع المملوكي الأيوبي[2]، وكسب دعم القوى الصليبية الأوروبية المادي والمعنوي في تشكيل حملة صليبية تلحق به في المشرق، والاحتفاظ بالكيان الصليبي في بلاد الشام، وأخيراً السعي لكسب التتار إلى الجانب الصليبي وإقامة حلف معهم ضد المسلمين[3]، ولكن على الرغم من الجدية التي اتصفت بها جهوده في الشرق طوال هذه السنوات الأربع، فإنها لم تسفر عن نتائج إيجابية حاسمة لأسباب خارجة عن إرادته، إذ لم يستطع استغلال النزاع بين المماليك والأيوبيين إلى الحد الذي كان يشتهي بسبب تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله لفض النزاع بين الطرفين، واقتصرت نتيجة جهوده في هذا الاتجاه على إحراز مكاسب محدودة تمثلت في إعفائه من نصف الفدية المتبقي عليه وإطلاق سراح عدد من جنده الأسرى[4]، كما أنه لم يتمكن من القضاء نهائياً على أسباب النزاع بين الصليبيين في المشرق، وإن كان قد نجح في تهدئة الوضع طوال مدة إقامته في الشام، ذلك لأن أسباب الشقاق والنزاع التي أدت بدورها بهم إلى الضعف كانت أقوى وأعمق جذوراً من أن يستطيع القضاء عليها[5]، فضلاً عن أنه أحرز نجاحاً محدوداً في سبيل تنظيم

= د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٥٦ .

(١) Rothelin : Op. Cit., Tom II, P.621., R. Grousset : Op. Cit., Tom III, p.494.
د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٦٩ .

(٢) R. Grousset : Ibid, Tom III, p.497.

(٣) R. Grousset : Ibid, Tom III, p.497.

(٤) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١٥٦ - ١٥٧، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٨١، د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٥٧
R .Grousset : Ibid, Tom, III, p.503., H. E. Mayer : Op. Cit., p.256.

(٥) لمزيد من التفصيل عن هذا النزاع وجهود لويس التاسع في القضاء عليه انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٠٥ وما بعدها، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٢٨٦ - ٢٧٨ . =

الدفاع عن باقي ممتلكاتهم آنذاك تمثل في تجديد تحصينات بعض مدنها الهامة مثل عكا وحيفا وقيسارية ويافا وصور وصيدا(١)، وفشلت مساعيه في التحالف مع التتار ضد المسلمين(٢)، ذلك لأن التتار على ما يبدو كانوا يريدون أن تكون كلمتهم هي العليا فيما يتعلق بالعالم الإسلامي وأنهم بالتالي لم يكونوا يرغبون في القيام بدور التابع للحركة الصليبية في تنفيذ هذه السياسة، ولذلك لم تترجم أفكار لويس التاسع والحركة الصليبية في هذا المجال إلى أعمال وبقيت فكرة هذا التحالف في عداد الأماني، خاصة بعد أن فشلت بعثات التنصير في جذب التتار للمسيحية ليصبح الدين أساساً لهذا الحلف. ولم يكن من المنتظر أن تسفر اتصالاته مع القوى الثانوية الأخرى في المشرق كإسماعيلية الشام (الحشاشين)(٣) وسواهم عن نتائج فعالة، ذلك لأن تلك القوى كان من الممكن أن تكون عوامل مساعدة لقوة رئيسية، ولا ترقى لدرجة تمكن لويس التاسع من الاعتماد عليها في تحقيق أهدافه.

وكما فشلت جهود لويس التاسع في المشرق، فشلت كذلك في تشكيل حملة صليبية من الغرب الأوروبي تلحق به في الشام قبل عودته إلى بلاده في إبريل سنة ١٢٥٤(٤)، فقد كانت أوروبا الغربية في ذلك الوقت مشغولة عنه بالصراع الذي كانت تدور رحاه بين

= W. Heyd : Op. Cit., Tom, 2 p.343 -44. A. N. Hachette : de Siecle de Saint LouiS p.236, R. Grousset : Op. Cit., Tom, III p.433 & p.509 - 510., H. E. Mayer : Op. Cit., p. 256.

(١) عن ذلك انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٩٣ - ١٠٩٤،
R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.505 - 506, H. E. Mayer : Ibid, p.256. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.507.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٠٠ وما بعدها، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٢٤٤ وما بعدها،
A. S. Atiya : Op. Cit., p.233., R. Grousset : Ibid, Tom III, p.519., R. Grousset : Bilan de l' Histoire, p.224 - 6., N. Daniel : Op. Cit., p.234., A. N. Hachette : Op. Cit.,p.233.
H. E. Mayer : Ibid, p.257. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.507 - 8.

(٣) عن اتصالات لويس التاسع بإسماعيلية الشام انظر المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٨٧ حاشية ٤، د.جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٢٢٥ وما بعدها، د. سعيدعاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٩٧، د. سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص٨١ وما بعدها،
Joinville : Op. Cit., p.277 - 8., R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.516 - 517., A. N. Hachette : Ibid, p.235.

(٤) انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٩٠ و ١٠٣ و ١١٤ .

البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة[1]، وكان اهتمام البابوية بالقضاء على الامبراطور فردريك الثاني وخلفائه من بعده أكبر بكثير من اهتمامها بدعم الملك الفرنسي في الشرق، فبالرغم من إظهار البابا للأسى والتألم لأخوي الملك حينما قابلاه وأبلغاه بتفاصيل ما حل بأخيهما، إلا أنه لم يفعل شيئاً يذكر[2]. واقتصرت مساعداته على السماح للويس التاسع بالاستفادة من ضريبة العشور لمدة ثلاث سنوات، وأما ملك إنجلترا الذي كان قد أظهر رغبته في الاشتراك في الحملة المرتقبة، دلت الحوادث التالية لإعلانه عن ذلك الاشتراك على أنه لم يكن جاداً في الأمر، وأنه اتخذ من ذلك الإعلان وسيلة لابتزاز الأموال من شعبه إرضاء لجشعه، فقد دفع للبابوية مبلغاً ضخماً من المال لتعفيه من العهد الذي ارتبط به، كما حصل على تفويض من البابا أنوسنت الرابع لمنع الإنكليز من الإبحار إلى الشرق، ولم يكتف بذلك بل فرض حراسة مشددة على الموانئ الإنجليزية لمنع رعاياه الذين حملوا الصليب من اللحاق بالملك الفرنسي، وكان العون الوحيد الذي تلقاه لويس من ملك إنجلترا هو موافقته على مد أجل الهدنة المعقودة بينهما لحين انتهاء الحملة وعودة لويس التاسع إلى بلاده[3]، وأما الامبراطور فردريك الثاني فلم يقدم للملك الفرنسي أي مساعدة تذكر بل ظل على علاقته الطيبة بأولي الأمر في مصر، حتى إن جوانفيل يتهم رسله الذين أرسلهم إلى لويس التاسع بأنهم ما قدموا إلى المشرق إلا لإثارة مزيد من المتاعب في وجه الملك الفرنسي[4]، ومع أن فرناندو الثالث ملك قشتالة كان قد أعلن عن عزمه على مساعدة لويس التاسع، إلا أن وفاته في سنة ١٢٥٠م وبعداستلامه الصليب بفترة وجيزة قضى على أمل الملك الفرنسي في تلك المساعدة إن كان قد أمل فيها بالفعل.

وأما فرنسا فقد نشطت فيها الدعوة للحملة الصليبية، وبرز فيها راهب مسن أطلق على نفسه اسم سيد هنغاريا لأنه كان هنغاري المولد[5]، وادعى أن الله أمره بتزعم حملة صليبية

---

(١) انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٩٤ Dr. M. Talbi : Document divers relatifs, a la croisade de Saint Louis Contre Tounis. p.246., Auguste Bailly : Saint Louis, p.113 - 121.

(٢) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٩٣ .

(٣) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١٠٣ .

(٤) Joinville : Op. Cit., p.278., R. Grousset : Op. Cit., Tom III, p.294.

(٥) تعددت أسماء زعيم هذه الحركة في المصادر التاريخية فهو تارة روجيه (Rogier) وتارة يعقوب، وتارة =

لإنقاذ الديار المقدسة، فاستجابت له جموع غفيرة من الشعب الفرنسي وحملت الصليب، وعرفت هذه الحملة في التاريخ باسم (صليبية الرعاة) لأن قوامها كان من الرعاة والفلاحين والأقنان، وكان من الممكن لهذه الحملة لو وصلت إلى المشرق أن تشد أزر لويس التاسع، ولكن انضمام الكثير من اللصوص وقطاع الطرق إلى صفوفها وعدم الانضباط الذي شاع بين أفرادها بحيث إنها أصبحت في وقت تجمعها موجة تخريبية أكثر منها حملة صليبية فرضت على الملكة بلانش (بلانكا) محاربتها حتى قضت عليها وبذلك أجهضت هذه المحاولة[١]، وبالرغم من أن البعض قد حمل الصليب بعدذلك ولحق بلويس التاسع، إلا أن هؤلاء لم يزيدوا عدد جيش الملك عن ١٤٠٠ محارب[٢] كان معظمهم من فلول قواته السابقة، ويأبى سوء الحظ مفارقة هذا الملك، إذ إن الأموال التي جمعتها أمه بلانش ولاقت في سبيل ذلك صعوبات كبيرة حتى أن سالمبين (Salimbene) سمع في إيطاليا أن الفرنسيين غضبوا على الرهبان الذين كانوا يجمعون هذه الأموال لدعم لويس التاسع وكانوا يسخرون من عاداتهم في استجداء الأموال بأن أخذوا يدفعون الصدقات للفقراء باسم محمد –صلى الله عليه وسلم – وليس باسم السيد المسيح عليه السلام لأنه في رأيهم أثبت أنه أقوى من المسيح[٣] فإن السفينة التي حملت هذا المال إلى المشرق هبت عليها عاصفة في الطريق فأغرقتها قبل وصولها إلى عكا[٤].

لذلك، وبعد أن رأى لويس التاسع فشل جهوده، وتبخرت مع هذا الفشل أحلامه وطموحاته، أدرك أن إقامته في المشرق لم تعد مجدية، ولم يلبث أن وصله في تلك الآونة نبأ وفاة أمه بلانش التي كانت قد توفيت في أواخر سنة ١٢٥٢م وحل محلها إخوته في حكم مملكته، والذين كانوا بدائل ضعافاً لها مما تسبب في اضطراب الأمور فيها الأمر الذي دفعه للتفكير جدياً في العودة إلى بلاده ومن المرجح أن يكون الأمراء الصليبيون في بلاد الشام

= جاك.(انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١٠٤ حاشية ٤).

(١) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١٠٤ وما بعدها.

(٢) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١١٢، Joinville : Op. Cit., p.300.

(٣) N. Daniel : Op. Cit., p.159.

(٤) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١٠٦ .

ورجال الدين فيها قد ملوا آنذاك سياسة الحزم والشدة التي أخذهم الملك الفرنسي بها، فعملوا على التخلص منه، وواتتهم الفرصة بموت الملكة بلانش فشجعوه على الرحيل[1]، وأخيراً وبعد تداول الرأي مع أصحابه ومستشاريه وكبار صليبيي الشام[2] قرر العودة إلى فرنسا، وفي ٢٥ إبريل سنة ١٢٥٤م أبحر من عكا[3] يحدوه الأمل في أن ينظم أمور مملكته ويجهز حملة صليبية جديدة يعود بها إلى المشرق لاستئناف جهوده الصليبية ضد المسلمين، ولذلك أبقى حامية صغيرة مكونة من مائة فارس بقيادة جيوفري دي سارجين (Geoffroi de Sar-gines)[4] للمساهمة في الدفاع عن الممتلكات الصليبية في الديارالمقدسة لحين عودته، كما عبر عن أمله في هذه العودة بقوله حين رحيله عن عكا أن حجه لم ينته، ولذلك يمكن اعتبار أن رحيله عن عكا كان نهاية مرحلة من مراحل جهوده الصليبية وبداية لمرحلة جديدة.

نذر الكارثة :

ولم يخلد لويس التاسع إلى الراحة بعد عودته إلى بلاده، وبالرغم من المشاغل العديدة التي واجهها في أوروبا، إلا أن مشاعره كانت لا تزال مرتبطة بالشرق، وقد تملكته فكرة الإعداد لحملة صليبية جديدة ووله بها إلى حد الجنون[5]، لذلك كان شديد الاهتمام بكل ما يجد في ذلك الشرق من حوادث، ولم تلبث أن بدأت تتوالى عليه الأنباء المقلقة، فقد ألحق قطز سلطان المماليك هزيمة شنعاء بجحافل التتار في معركة عين جالوت في سبتمبر سنة ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ[6] وتمت مطاردة فلولهم حتى أخرجت من الشام، وكان ذلك في الوقت

---

(١) H. E. Mayer : Op. Cit., p.257.

(٢) عن هذا الموضوع انظر Joinville : Op. Cit., p.318., Nangis : Op. Cit., XX, p.389.
د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٣٣٥ .

(٣) Joinville : Ibid, p.318.

(٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٠٤، د. محمد محمد أمين : (بحث شمال إفريقية والحروب الصليبية)، ص١٥٦، K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, 508.

(٥) Auguste Bailly : Op. Cit., p.127., Dr. M. Talbi : Op. Cit., p.247., Paul Labal : La Siecle de Saint Louis, p. 122., Leon Cristiani : Saint Louis Roi de France, p.178.

(٦) لمزيد من التفصيل عن هذه المعركة انظر د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٠ وما بعدها، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٣٧ .

الذي تجددت فيه النزاعات والخصومات بين الصليبيين في تلك البلاد خاصة بين جاليات المدن الإيطالية فيها ثم بين منظمات الرهبان العسكرية خاصة بين الداوية والاسبتارية[١] دون التنبه لخطر دولة المماليك الفتية التي ولدت على ضفاف النيل. ويبدو أن خطر التتار لم يكن يقلقهم أيضاً ليكون عاملاً مهماً في توحيدهم، بل على العكس من ذلك وجدوا أن تهديد التتار للدول الإسلامية هو في صالحهم، فنظروا إليه بعين الرضى والأمل[٢] واستمروا في نزاعاتهم التي كثيراً ما كانت تتطور إلى حروب دامية حتى إن لويس التاسع نفسه اضطر إلى التدخل في سنة ١٢٧٠م وقبيل حملته على تونس لفض النزاع الذي احتدم بين البندقية وجنوة في الشرق[٣]، ولن نعدو الحقيقة إذا قلنا أن موقف الصليبيين في المشرق في تلك الآونة كان يتلخص في أن القومونات الإيطالية كانت هي المسيطرة على المدن، بينما كانت منظمات الرهبان العسكرية هي المسيطرة على الأرياف[٤]، أما معظم البارونات فقد أصابهم الفقر وغرقوا في الديون حتى اضطر كثير منهم لبيع ممتلكاته لمنظمات الرهبان العسكرية[٥]، وبناء على ذلك فإن السمة المميزة لهذه الفترة في تاريخ الإمارات الصليبية في المشرق كانت غياب سياسة ثابتة متينة وذات هدف محدد، ومما يدل على سوء أوضاع الصليبيين في تلك الآونة تلك الانتقادات التي تظهر في كتابات المؤرخين الغربيين الذين عاصروها والتي كانت تنعي على الصليبيين انحرافهم عن المبادئ الصليبية الحقة وعدم تحليهم بروحها.

وإذا كان سر نجاح الصليبيين في السابق يكمن في عفوية المسلمين وعشوائيتهم كما

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٠٥ وما بعدها، R. Grousset : Op Cit., Tom III, p. 543., R. Grousset : Bilan de l' Histoire, p.224, Leon Cristiani : Op Cit, p.179, H. E. Mayer : Op. Cit., p. 266

د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٢٨٦ – ٢٨٧ .

(٢) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٠٥، R. Grousset : Bilan de l' Histoire. p.224.

(٣) H. E. Mayer : Op Cit, p.263, R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.543.

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٠٥ وما بعدها.

(٤) H. E. Mayer : Ibid, p.264., R. Grousset : Ibid, Tom, III, P.543.

(٥) H. E. Mayer : Ibid, p.267.

يقول رينيه جروسيه (R. Grousset) فقد انقلبت الآية وقتئذٍ إذ أصبحت هذه العشوائية هي سمة الصليبيين[1] في حين تمخضت الحوادث في دولة المماليك عن اعتلاء الظاهر بيبرس سدة السلطنة في أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م الذي أعاد وحدة مصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطانه وأخذ يسدد ضرباته القوية لمعاقل الصليبيين وحصونهم حتى أخذت تتهاوى في يده. فقد بدأ هجماته هذه على الصليبيين في وقت مبكر من عهده، إذ في نوفمبر سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ هاجم إمارة أنطاكية لمعاقبة أميرها بوهيمند السادس على محالفته للتتار، وكرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢م / ٦٦٠هـ حيث أوشك في هذه المرة على فتح مدينة أنطاكية ذاتها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى الذي هب لنجدة صهره أمير أنطاكية وطلب العون من التتار مما أجبر بيبرس على الجلاء عن المدينة[2]، ولم يضعف ذلك الانسحاب من عزيمة الظاهر بيبرس بل عاد في السنة التالية ٦٦١هـ / ١٢٦٣م إلى مهاجمة الصليبيين من جديد ففتح مدينتي الناصرة وبيت لحم[3].

كانت هذه الأنباء تتوالى على لويس التاسع فتقض مضجعه، لأنه بحكم اطلاعه الواسع على أحوال المشرق كان يدرك أن مع نشاط الظاهر بيبرس بدأت تلوح نذر الكارثة على الوجود الصليبي في بلاد الشام، وأن كلا جيوفري دي سارجين الذي تركه نائباً عنه في الديار المقدسة، ويوحنا الثاني الإبليني أمير يافا والوصي على عرش مملكة بيت المقدس لم تكن لأي منهما الشخصية القوية التي تستطيع فرض احترامها على جميع الصليبيين وتمكنه من النهوض بعبء الصمود أمام العاصفة التي بدأت في الهبوب مستهدفة اقتلاع الكيان الصليبي من جذوره. أما الظاهر بيبرس فإنه بدأ منذ سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م في تشديد هجماته على الصليبيين أو بالأحرى حربه الشاملة ضدهم، ففي أوائل فبراير من ذلك العام زحف بجيش ضخم ففتح قيسارية ويافا وعتليت ثم أرسوف التي استسلمت له بعد مقاومة شديدة أبدتها

---

(١) R. Grousset : Bilan de l' Histoire. p.227.

(٢) انظر أبو الفدا : المصدرالسابق حوادث سنة ٦٦٠هـ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٥٩ – ٦٠ .

(٣) Paul Guth : Saint Louis Roi de France, p.231., August Bailly : Op Cit, p.127., Albert Garreau : Saint Louis et Son Royame, p.187., Dr. M. Talbi : Op Cit, p.247 .

حاميتها من الاسبتارية(١)، ثم هاجم عكا ولم ينقذها منه إلا تدخل (هيو الثالث) الوصي على عرش قبرص الذي قدم إليها في إبريل سنة ١٢٦٥م / ٦٦٤هـ بجيش ضخم للدفاع عنها مما اضطر بيبرس للانسحاب والعودة إلى مصر(٢). وحيال هذا الوضع لم يجد لويس التاسع بدأً من القيام بمحاولة جادة لإنقاذ صليبيي بلاد الشام من المصير التعس الذي ينتظرهم، وقوى ذلك العزم لديه تلك الاستغاثات التي كانت تتوالى على الغرب الأوروبي من هؤلاء وخاصة من رجال الدين الكاثوليك، وتفكير جيوفري دي سارجين في العودة إلى فرنسا(٣).

الدعوة إلى حملة صليبية جديدة :

لم تكن الحوادث التي أشرنا إليها آنفاً إلا أحد الأسباب المباشرة فقط للدعوة إلى حملة صليبية جديدة، ذلك أن لويس التاسع لم يكف عن التفكير في استئناف جهوده الصليبية ضد المسلمين وهو لم يرحل عن الشرق إلا لتنظيم حملة صليبية جديدة والعودة إليه من جديد كما أسلفنا القول. ولذلك كان ينظر إلى جهود الدعاة الذين انبثوا بين طبقات الشعب الفرنسي يدعون الناس لحمل الصليب بعين الرضى والأمل، ففي سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م كان القديس سييج (Saint - Sie'ge) يدعو لحملة صليبية(٤)، وفي أول مايو سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ وبعد استقبال لويس التاسع للسفارة التي أرسلها إليه التتار(٥) انتهز إحدى المناسبات الدينية ودعا إلى اجتماع عام حضره الأمراء والفرسان ورجال الدين واتخذ

---

(١) انظر أبو الفدا : المصدر السابق حوادث سنة ٦٦٣هـ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٦٠،

Dr. M. Talbi : Op. Cit., p.247., Albert Garreau : Op. Cit., p.187 - 8., Auguste Bailly : Op. Cit., p.127

(٢) د. سعيد عاشور : العصر المماليكي، ص٦٠، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٤١ .

Jean Larcena : Saint Louis de France, p.180.

(٣) Aalbert Garreau : Ibid, p.187.

(٤) Albert Garreau : Ibid, p.187.

(٥) كانت هذه السفارة مكونة من ٢٤ سفيراً ومعهم راهبين كمترجمين، وكانت غايتها حمل لويس التاسع على الإقرار بخضوعه وتبعيته للخاقان الأعظم، وإلا فإن التتار سيمضون في زحفهم قدماً إلى فرنسا، وكان رد لويس رفض مطالبهم بطبيعة الحال، إلا أنه أملاً في اكتساب التتار لصف المسيحيين عاملهم معاملة حسنة ثم أرسلهم لمقابلة البابا.

المجتمعون قراراً بضرورة مراقبة إحياء شعائر الدين وإقامة الصلوات في جميع كنائس المملكة وعدم التهاون في معاقبة المذنبين والفساق ووجوب التقشف في المأكل والملبس، والتوقف عن إقامة الحفلات العامة والمباريات الرياضية لمدة سنتين باستثناء مباريات الرماية كل ذلك لتطهير الأنفس وإعدادها للمهمة الجديدة في خدمة الحركة الصليبية، ويضاف إلى ذلك قرار هام آخر صدر عن المجتمعين هو تكليف رئيس الوعاظ (Le Provincial des Frares Precheirs) بالدعوة للحملة الصليبية في فرنسا[١]، وتوالت الحوادث بعد ذلك بسرعة لتزيد من تصميم الملك الفرنسي على هذا الأمر، ففي التاسع عشر من نفس ذلك الشهر (١٩ مايو سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ) وصلت إليه استغاثة من بطريك بيت المقدس الذي اعتلى كرسي البابوية فيما بعد باسم كلمنت الرابع (Clement IV)[٢]، تطلب تدخله السريع لإنقاذ الكيان الصليبي في الشام، وبعد ثلاثة أشهر وفي ١٩ أغسطس سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ على وجه التحديد أرسل إليه البابا أربان الرابع (Urban IV) يعلمه بأن الظاهر بيبرس قد نقض معاهدة الهدنة مع الصليبيين[٣] وبدأ بشن هجماته التي سبق أن أشرنا إليها، فكانت هذه الأمور حوافز أخرى له للإسراع في الاستعداد لحملته الصليبية الجديدة، وكإجراء سريع أمر بزيادة الضرائب على الكنائس الفرنسية مقدار ١٪ لجمع مبلغ من المال أرسله إلى جيوفري دي سارجين كمعونة مستعجلة[٤] زيادة عن المبلغ الذي كان يرسله إليه كل عام.

ومما شجع لويس التاسع على المضي قدماً في مشروعه أن ظروف فرنسا كانت في ذلك الوقت أفضل بكثير مما كانت عليه أثناء وجوده في المشرق والتي كان لها أثر كبير في اتخاذه قراره بالعودة إلى بلاده[٥]، لقد كانت جهوده منذ عودته سواء في مجال سياسته الداخلية أو علاقاته الدولية ليس لها إلا هدفاً كبيراً واحداً هو إعداد حملة صليبية جديدة تساهم فيها أوروبا موحدة يسودها السلام[٦]، ومن هذا المنطلق تمكن من إنجاز عمل

---

(١) انظر Albert Garreau : Op. Cit., p.188.

(٢) Albert Garreau : Ibid, p.188.

(٣) Albert Garreau : Ibid, p.188.

(٤) Albert Garreau : Ibid, p.188

(٥) Paul Guth : Op. Cit., p.234., Leon Cristiani : Op. Cit., p.178 - 9.

(٦) Leon Cristiani : Ibid, p.179., Jean Larcena : Op. Cit., p.133.

سياسي ضخم كفل لبلاده الاستقرار والأمن بعقده معاهدة ابفيل (Traite L'Abbeville) مع هنري الثالث ملك إنجلترا في ٢٨ مايو سنة ١٢٥٨م[١] حيث استتب السلام بين الدولتين وبذلك أمنت فرنسا من تهديد الخطرالخارجي. كذلك أخذ في نفس السنة يفاوض ملك أرغونة لحل الأمور التي كانت معلقة بينهما[٢]، كما رحب بعد ذلك بقليل بما عرضته عليه السفارة التي أرسلها إليه امبراطور القسطنطينية البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوج (Michel VIII Paleologues) الذي كان قد أعاد تأسيس الامبراطورية البيزنطية على أنقاض دولة اللاتين فيها، من أن يبذل جهوده لدى البابوية للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية[٣] كخطوة أولى في سبيل إعادة الوحدة للمسيحية للصمود أمام التحديات التي كانت تواجهها، وقد بذل لويس التاسع جهوداً كبيرة في هذا المجال. ونظراً لسعة أفقه وترفعه عن النزاعات الإقليمية ورغبته في إشاعة السلام في أوروبا ولكونه بدا للجميع مسالماً ومحترماً لحقوق الغير، غيوراً على الصالح المسيحي العام، لم يلبث أن حظي باحترام بقية حكام أوروبا[٤]، وفي ذلك الوقت كان قد انتهى النزاع بين البابوية والامبراطورية وهو النزاع الذي شغل أوروبا لفترة طويلة واستنزف كثيراً من طاقاتها، كما أحب لويس التاسع وبما يخدم هدفه الصليبي، ذلك أن البابوية ولكي تتخلص نهائياً من خطر آل هوهنشتاوفن، عرضت عرش مملكة الصقليتين على شارل صاحب أنجو شقيق لويس التاسع، فوافق الملك الفرنسي على ذلك بعد أن أقنعه البابا أربان الرابع بأن هذه الخطوة ضمان لنجاح أي حملة صليبية مستقبلية[٥]، وأكد هذا الأمر خليفته البابا كلمنت

---

(١) For more details see : Jean Larcena : Op. Cit., p.132 - 3, 173 - 174.

(٢) Jean Larcena : Ibid, p.133.

(٣) Jean Larcena : Op. Cit., p.190., Albert Garreau : Op. Cit., 191. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.507

(٤) ومما يدل على هذه المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها أنه عندما دب النزاع بين البارونات الإنكليز وهنري الثالث ملك إنجلترا ارتضى الطرفان به حكماً لفض هذا النزاع فكان أن تدخل بينهما وأنهى حرباً أهلية مريرة أريقت فيها دماء كثيرة، كما أدى تدخله أيضاً بين الكونت دي بار (Comte de Bar) وكونت لوكسمبورج إلى إنهاء الحرب بينهما، ولذلك أطلق عليه لقب حكم أوروبا. لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر Jean Larcena : Ibid, 173 - 4.

(٥) Jean Larcena : Ibid, p. 180., Leon Cristiani : Op. Cit., p. 181., Auguste Bailly : Op. Cit., p.116 - 118.

الرابع الذي اعتلى كرسي البابوية سنة ١٢٦٤م، وكلا هذين البابوين كان فرنسياً، وكانا على صلة قوية بلويس التاسع قبل انتخابهما بابوين وعلى اطلاع على مشاريعه الصليبية، وبالفعل ما أن تم هذا الاتفاق بين البابوية والملك الفرنسي وشقيقه شارل حتى زحف الأخير بجيش كبير إلى إيطاليا في سنة ١٢٦٥م بعد أن كان قد ضم إليه إقليم بروفانس اعتماداً على حقوق وراثية لزوجته في ذلك الإقليم[١]، واستطاع القضاء على عاهل الهوهنشتاوفن وتتويج نفسه ملكاً على الصقليتين الأمر الذي اعتبره لويس التاسع نجاحاً له أهميته في سبيل تنفيذ مشروعه الصليبي الجديد، كل هذه الأسباب وفرت الظروف الملائمة للملك الفرنسي للقيام بحملته الصليبية الجديدة.

وحانت الفرصة التي طالما انتظرها لويس التاسع، إذ حدث في سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م أن قام الظاهر بيبرس بهجومه الشامل على الصليبيين في المشرق كما سبق أن ذكرنا، وعندئذٍ دعت البابوية لحملة صليبية جديدة[٢]، فكان أن كتب الملك الفرنسي إلى البابا كلمنت الرابع مبدياً رغبته الشديدة في الاشتراك شخصياً في هذه الحملة ومتمنياً عليه موافقته على تحقيق هذه الرغبة التي تملكته والتي لم يشأ أن يصرح بها قبل الوقوف على رأيه[٣]، ولكن هذا البابا بما عرف عنه من ترو وحذر رفض ذلك في البداية لعدة اعتبارات أهمها أن خطر الهوهنشتاوفن على البابوية كان لا يزال ماثلاً لا سيما وأن الملك الفرنسي هو الردء الطبيعي للبابوية وحليفها المخلص إذا ما تعرضت للخطر، ثم خشيته من تجدد النزاعات في أوروبا بعد رحيل الملك إلى الشرق نظراً لأنه كان عاملاً فعالاً في حفظ التوازن وإزالة أسباب الخلاف وتهدئة الأوضاع فيها، كما أن الحالة الصحية للملك لم تكن تعينه على مشاق السفر وقيادة الجيوش[٤]، وإذا حدث له مكروه في الشرق فإن معنى ذلك الفشل الأكيد للحملة وكارثة محققة جديدة، وأخيراً فإن اشتراكه شخصياً في الحملة سيعطيه المبرر لفرض ضرائب جديدة على ممتلكات الكنيسة الفرنسية واستئثاره بقسم كبير من

---

(١) ج. كرامب : تراث العصور الوسطى ج١ ص٢٢ .

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.188.

(٣) Leon Cristiani : Op. Cit., p.182, Albert Garreau : Ibid, p.188.

(٤) Leon Cristiani : Ibid, p.182, Albert Garreau : Ibid, p.188.

أموال عائداتها التي كانت خزانة البابوية بحاجة إليها بعد أن استنزفها الصراع مع الامبراطورية[١]، لكل ذلك أرسل البابا إلى لويس التاسع في أواخر سبتمبر سنة ١٢٦٦م رسالة يصده فيها عن الاشتراك بنفسه في الحملة[٢]، ولكن الأخير أصر في رسالة جديدة بعث بها إليه في أكتوبر من ذلك العام على موقفه، فلم يسع البابا إلا الموافقة[٣] وأرسل إليه نائباً عنه هو الكاردينال رودلف دي البانو (Rodolph d'Albano) ليسلمه الصليب ثم لمرافقته في الحملة كنائب بابوي بعد ذلك.

ومنذ حصول لويس التاسع على موافقة البابا نشط في العمل على تنفيذ مشروعه[٤] فأرسل إلى كافة الأمراء والفرسان وكبار رجال الدين وعلية القوم في مملكته وجيرانه من الملوك والأمراء يستدعيهم إلى اجتماع عام يعقد في باريس يوم ٢٤ مارس سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ وكان الجميع يدرك الهدف من هذه الدعوة ولذلك فإن جوانفيل صديقه ومرافقه في حملته الأولى تملصاً من رغبة الملك التي لم يفاجئ بها أحداً كما يقول (Auguste Bailly)[٥] اعتذر عن حضور ذلك الاجتماع متعللاً بحمى دورية تنتابه، ولكنه تحت إصرار الملك الذي أرسل إليه يرد على اعتذاره ذلك بأن لديه أطباء مهرة يستطيعون معالجته من تلك الحمى اضطر إلى القدوم إلى باريس[٦]. وفي صباح يوم ٢٥ مارس سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ وفي القاعة الكبرى باللوفر عقد ذلك الاجتماع بحضور نائب البابا حيث أخرجت الآثار المقدسة للحضور والتي كان من ضمنها قطعة من خشبة الصليب الأصلي[٧] للتأثير عليهم، وبالرغم من حالة الإعياء والمرض التي كان الملك عليها فإنه اعتلى المنصة وألقى خطبة أفصح فيها عن

---

(١) Paul Guth : Op. Cit., p.233.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.188., Dr. M. Talbi : Op. Cit., 247.

(٣) Albert Garreau : Ibid, p.188., Paul Guth : Ibid, p.233., August Bailly : Op. Cit., p128.

(٤) انظر المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٤، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٦٢ .

Albert Garreau : Ibid, p. 188., Paul Guth : Ibid, p.233., August Bailly : Ibid, p.128.

(٥) August Bailly : Ibid, p.128.

(٦) Joinville : Op. Cit., p.345.

(٧) Auguste Bailly : Ibid, p. 128., Paul Labal : Op. Cit., p.122.

رغبته وحث الحضور على الاقتداء به والالتفاف من حوله لخدمة الصليب، ثم تلاه نائب البابا حيث ألقى هو الآخر كلمة وعظ فيها الجميع وحثهم على متابعة الملك ثم سلم الصليب إلى الملك، واقتدى أبناء الملك الثلاثة فيليب Philippe ولي العهد (٢٢ سنة) وحنا الحزين Jean - Tuisten كونت Nevers (١٨ سنة) وبطرس Pierre كونت Alengoy (١٧ سنة) بأبيهم في استلام الصليب من نائب البابا دلالة على رغبتهم في الاشتراك في الحملة، وسرعان ما تبعهم أخوا الملك شارل صاحب أنجو Charles d'Anjo وألفونس كونت بواتييه Alphonse de Poitiers وابن أخيه روبرت كونت أرتوا Robeir de Artois ابن كونت أرتوا الذي قتل في المنصورة بمصر، وتتابع القوم بعد ذلك على استلام الصليب حيث اقتدى بالملك وأسرته كل من ملوك أرغونة وقشتالة والبرتغال وابني ملك إنجلترا وتيبلط (ثيبوت) Thibaut ملك نفارة وصهر لويس التاسع، وكونتات أو EU وبريتاني Guy de Dampierre وكونت الفلاندرز Flanders وكونت Marche وكونت Sissons وكونت لوكسمبورغ وكذلك العديد من البارونات والأمراء والفرسان الحضور(١) حيث انضم إليهم العديد ممن هم على شاكلتهم فيما بعد، كما أن من بين الذين استلموا الصليب في ذلك الاجتماع من لم يشارك في الحملة فعلاً مثل ملوك قشتالة وأرغونة والبرتغال(٢). أما جوانفيل صاحب شامباني Champagne وصديق الملك وتابعه الأمين كما ذكرنا آنفاً فقد اعتذر عن المشاركة في

---

(١) R. Brunschvig : La Berberia Oriental sous las Hafsides, Tom, 1 p.55 - 6., Leon Cristiani : Op. Cit., p.182., M. Talbi : Op. Cit., p.248. K. M., Setton : Op. Cit., vol. 2, p.510. Abert Garreau : Op. Cit., p.188., Paul Guth : Op. Cit., p.233.

أما مصادر التاريخ الإسلامية والتي يبدو أنها اعتمدت على ابن الأثير في ذكرالمشاركين في الحملة فتورد هذا الأمر باختلاف بسيط، فيقول ابن خلدون في ذلك : (وكان الذين أجابوه – لويس التاسع – للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الأنكتار وملك أسكوسنا وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون) (ج٦ ص٢٩١) ويقول في موضع آخر (ج٦ ص٢٩٢ – ٢٩٣) : (وكانوا سبعة يعاسيب كان فيهم الفرنسيس وأخوه جرون صاحب صقلية وصاحب الجزر والعلجة زوج الطاغية تسمى الرينة وصاحب البر الكبير وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك وإنما كان واحداً وهو طاغية الفرنجة وإخوته وبطارقته عدكل واحد منهم ملكاً لفضل قوته وشدة بأسه). انظر عن ذلك أيضاً المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٤ – ٣٦٥.

(٢) لقد تراجع ملك أرغونة عن المشاركة في تلك الحملة وكان السبب في ذلك على ما يبدو أنه حينما علم أنها موجهة إلى تونس لأنه كانت تربطه بالسلطان الحفصي علاقات وئام من ناحية، كما =

الحملة، وقد علل ذلك في مذكراته فيما بعد بقوله : (لقد ألح عليّ ملك فرنسا وملك نفارة في خدمة المسيحية والمشاركة في الحملة الصليبية فأجبت قائلاً : عندما كنت أخدم الله والملك خارج البلاد قسا عرفاء كل من ملك فرنسا وملك نفارة على أتباعي وأرهقوهم وعندما عدت وجدتهم في حالة مزرية من الفقر والبؤس حتى إننا جميعاً لم نعد نرى حالة أشد تعاسة وفقراً مما رأيناه قد ألم بنا، ولهذا أريد أن أقول إنني إذ أردت إرضاءالله لزمني أن أبقى هنا لأساعد أتباعي وأحميهم، وذلك لأنني إذا وهبت نفسي في سبيل مغامرة الحج من أجل الصليب(!) فإنني أكون بذلك قد أسأت في حق رعيتي وأكون بالتالي قد أغضبت المسيح الرب(!) الذي ضحى بجسده على الصليب من أجل خلاص شعبه(!)[١])، ولم يكتف جوانفيل بهذا الاعتذار وإنما اعتبر أن كل من أشاروا على الملك بالاشتراك في تلك الحملة بأنهم مذنبون متعمدون[٢].

وقد أثار موقف جوانفيل هذا من الحملة الكثير من الجدل بين المؤرخين وتباينت وجهات نظرهم بشأنه، فبينما اعتبر Paul Guth مثلاً جوانفيل ذئباً متحايلاً مخادعاً قدم حججاً ملفقة لتغطية عورة خيانته[٣]، عده Auguste Bailly من أولئك الحكماء الذين كانوا يرون أن القيام بحملة صليبية ثانية بعد الفشل الذريع الذي منيت به الحملة الأولى وما أدت إليه من مآسي يعتبر ضرباً من الجنون[٤]، ولكن الحقيقة، مهما اختلفت وجهات النظر هذه، هي أن جوانفيل لم يكن إلا مثالاً فقط لمعارضي هذه الحملة والذين كانوا كثيرين خاصة من أبناء الطبقة البرجوازية المترفة التي وجدت أنها ستكون أكثر من يتضرر بالضريبة التي أقرها البابا للإنفاق على الحملة، لذلك نظمت هذه الطبقة عدة اجتماعات أبدت فيها معارضتها للملك ثم تطورت

= كانت له هو الآخر مطامع في إفريقية خاصة به ولذلك لم يرغب في أن يكون له شريك في إفريقية بل أرادها خالصة له وحده. عن علاقته بالمستنصر الحفصي وقتئذٍ انظر :

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p. 50., S. Clissoid : The Barbary Slave, p.19.

(١) Joinville : Op. Cit., p.346. See also : Jean Larcena : Op. Cit., p.181., Leon Cristiani : Op. Cit., p.182., Paul Labal : Op. Cit., p.122 - 3.

(٢) Joinville : Ibid, p.346. See also : Paul Guth : Op. Cit., p.234, Albert Garreau : Op. Cit., p.189.

(٣) Paul Guth : Ibid, p.233.

(٤) Auguste Bailly : Op. Cit., p.128.

هذه المعارضة في السنة التالية إلى اضطرابات عديدة حدثت في كثير من مدن وقرى فرنسا(١)، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً ممن قبلوا الاشتراك فيها لم يفعلوا ذلك عن اقتناع وإنما مسايرة للملك وكسباً لوده، يدل على ذلك ما ذكره جوانفيل عن حديث دار بين فارسين على مسمع منه قبيل استلام الملك للصليب حيث قال أحدهما للآخر : (إذا التزم الملك بقيادة حملة صليبية فإن أيام فرنسا ستكون من أتعس الأيام وأشدها بؤساً. وإذا لم نساير الملك فيما اعتزم على القيام به فإننا سنخسر حبه، وإذا وافقناه وعاهدناه على الاقتداء به فإننا سنخسر حب الله وذلك لأننا سوف لن نقاتل حباً في نشر المسيحية وكلمة الله وإنما خوفاً من الملك)(٢).

ومع ذلك ينبغي أن لا نعتقد أن الدعوة لحملة صليبية جديدة كانت كصرخة في واد، وأنها لم تلق استجابة وحماساً، وأن المناصر الوحيد المؤمن بها كان لويس التاسع فقط، وأن قوة شخصيته ومكانته في النفوس هما اللتان مكنتاه من فرضها على المشتركين فيها، وإنما كان هنالك العديد يتمنون على الملك القيام بهذه الحملة، الأمر الذي يبدو بوضوح في الأشعار المعاصرة وقتئذٍ(٣). لذلك فإن لويس التاسع لم يكترث كثيراً بصوت المعارضة الذي

---

(١) Paul Labal : Op. Cit., p.123.

(٢) Joinville : Op. Cit., p.345. See also : H. E. Mayer : Op. Cit., 270., Jean Larcena : Op. Cit , p.181. Paul Guth : Op. Cit., p.233 - 4, Girard Walter : Saint Louis Roi de France, p.123.

(٣) من ذلك ما جاء في أشعار (Rutebouf) الذي كان معاصراً لتلك الفترة، فقد وصف في قصيدته التي يعتبر اسمها دليلاً على مضمونها خصام بين صليبي ومعارض Dispute du Croise et du decroise الجدل الذي كان يدور بين المؤيدين والمعارضين لتلك الحملة، ولما كان ذلك الشاعر من مؤيديها فقد أشاد بالإيمان الذي يملأ قلوب جمهرة الناس بالمبادئ الصليبية وأهداف الحركة الصليبية، وكان في قصيدته المسماة (أنشودة ما وراء البحر Complainte d' Outrmer) يلح على الملك ليسكت الأصوات المعارضة ويقود الحملة الصليبية التي كانت في رأيه ستطهر الدنيا تطهيراً أضحى ضرورياً في اعتقاده، ومما جاء فيها :

ولكنني سأقول ليلاً ونهاراً	Mais je dirai et jour et nuit
ليس ذهب كل ما يلمع	N' est pas tout or ce qui reluit
آه، أيا ملك فرنسا، أيا ملك فرنسا	Ah roi de France, roi de France
القانون، والإيمان والمعتقد	La loi, la foi et la croyance,
ستنتشر مغنية في كل البقاع	Vont presque partout chanclant

عن ذلك انظر : Jean Larcena : Ibid :, p.182 - 3.

ثار في وجهه، وبدأ في الاستعداد لتلك الحملة التي شاع نبؤها في أنحاء أوروبا، ولم يكن يجعل أي فرصة تفلت من يده ليحث الناس على الاشتراك فيها. ففي ٥ يونيو سنة ١٢٦٧م وكما كانت تقضي العادة أثناء الاستعداد للحرب رسم حوالي (٧٠) فارساً كان من بينهم ابنه وولي عهده فيليب وابن أخيه روبرت كونت أرتوا، وإدمون(Edmond) ابن ملك إنجلترا وأحد أبناء ملك أرغونة، جرى ذلك في احتفال كبير أقيم بساحة نوتردام (- Notre Dam) فانتهز تلك المناسبة وألقى في الحضور خطبة حماسية لشحذ هممهم وحثهم على المشاركة في الحملة وتلاه بعد ذلك العديد من الخطباء في إلقاء كلمات مماثلة مما حدا بالعديد من البارونات والنبلاء لاستلام الصليب في تلك المناسبة. وفي صبيحة اليوم التالي ذهب الملك والفرسان الجدد في موكب بولغ في إظهار روعته إلى دير القديس دينيس (- Saint Denis) راعي ملوك فرنسا حيث أدوا الصلاة أمام آثار السيد المسيح(١)، فكان ذلك حافزاً آخر لإثارة الحماس في قلوب الشعب الفرنسي.

وكان على لويس التاسع أن يولي موضوع تمويل الحملة جل اهتمامه، إذ كان عليه أن يتدبر أمر الأموال اللازمة لشراد الأسلحة والتموين واستئجار الأسطول اللازم لنقل الجند، هذا بالإضافة إلى المعونات المالية الضخمة التي كان عليه أن يدفعها للكثير من المشاركين في الحملة لمساعدتهم على تجهيز أنفسهم للرحيل، وإذا عرفنا أنه دفع لدوق برجنديا منحة مالية قدرها (٧٠) ألف ليبرة (Livres Tournois) لهذا الغرض وهو الذي كان يعد من كبار الأغنياء في فرنسا، لأدركنا أن الأمراء والفرسان المشاركين الذين كانوا أقل منه ثراء، كانوا أكثر منه اعتماداً على الملك في نفقاتهم(٢) وبالتالي يمكننا تصور المبالغ المالية الضخمة التي كان على الملك جمعها لمواجهة نفقات الحملة، ولذلك أخذ يبحث عن هذا المال في كل سبيل، واتخذ عدة إجراءات هامة تكفل له الحصول على حاجته منه، فعلاوة على استمراره في تحصيل ضريبة (١٪) التي كان قد أقرها البابا أربان الرابع طلب من خليفته البابا كلمنت الرابع الموافقة على فرض ضريبة جديدة فأقر هذا فرض ضريبة العشر لمدة ثلاث سنوات

---

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.189.

(٢) K. M. Setton : Op. Cit., Vc1.2, p.510.

بالرغم من المعارضة والاستنكار الذي وجهت به تلك الضريبة من قبل الكثيرين(١)، كما أمر بالاقتصاد في النفقات الملكية قدر المستطاع ولم يبق إلا على الضروري منها، ثم فرض ضريبة جديدة على أفصاله الإقطاعيين(٢)، ورصد كذلك الأموال العائدة من هدايا المدن ورسوم القضايا الجنائية والمدنية لهذا المشروع(٣)، وأخيراً ألقى القبض على كثير من اليهود في مملكته متعللاً بكثرة شكوى الشعب من جشعهم ومغالاتهم في الربا ولم يطلقهم إلا بعد أن دفع له كل منهم مبلغاً من المال يتناسب مع ثرائه، وضم الأموال المحصلة منهم إلى المبالغ المرصودة للحملة(٤).

وعلى صعيد آخر في نطاق هذه الاستعدادات دخل في مفاوضات مع كل من البندقية وجنوة لاستئجار الأسطول اللازم له، وقد انتهت هذه المفاوضات أخيراً بعقد اتفاقية مع جنوة لهذا الغرض دون تحديد وجهة السفر مبالغة منه في التعتيم على هدف الحملة، وكل ما عرفه الجنويون أن على أسطولهم أن يكون مستعداً للإبحار في ميناء (Aignes - Mortes) في مايو سنة ١٢٧٠م، كما أعطت هذه الاتفاقية للملك الفرنسي الحرية لاستعمال هذا الأسطول أكبر مما كان عليه الحال في سنة ١٢٤٠م، فقد نصت أن للملك الحق في أن يتوقف في أي ميناء أو جزيرة يشاء لمدة لا تتجاوز الشهر، يعود بعده للإبحار وله أن يتوقف به مرة أخرى إذا شاء، ويمكنه الاحتفاظ به إلى ما بعد انقضاء فصل الشتاء مقابل دفعة إضافية مقدارها خمس المبلغ الأساسي المتفق عليه(٥). وبناء على ذلك سرعان ما بوشر في تجديد

(١) Paul Guth : Op. Cit., p.235., Auguste Bailly : Op. Cit., p.130., Leon Cristiani : Op. Cit., p.183.
وقد تعرض كثير من المؤرخين المسلمين لموضوع دعم البابوية للويس التاسع في هذا المجال في مؤلفاتهم، فقد قال المقريزي في ذلك : (وبعث – لويس التاسع – إلى البابة خليفة المسيح بزعمهم، فكتب البابة إلى ملوك النصارى بالسير معه وأطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء). المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٤، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣.

(٢) Auguste Bailly : Ibid,p.130., Leon Cristiani : Ibid, p.183., K. M.Setton : Op. Cit., v.2, 510.

(٣) Jean Larcena : Op. Cit., p.182 - 3., Paul Labal : Op. Cit., p.123. K. M. Setton : Ibid, vol. 2., p.510

(٤) Jean Larcena : Ibid, p.183. Paul Labal : Ibid, p.123.

(٥) K. M. Setton : Ibid, V.2, p.511. Paul Guth : Ibid, p.235. Leon Cristiani : Ibid, p.183.

أسوار مدينة (Aignes - Mortes) وإعداد مينائها ليكون نقطة انطلاق الحملة[1]، وأخيراً وفي جلسة البرلمان يوم ٩ فبراير سنة ١٢٦٨م أعلن لويس التاسع قراره بأن موعد سفره سيكون في مايو سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ[2].

الظاهر بيبرس والحملة الصليبية الجديدة :

بالرغم من تكتم لويس التاسع على هذه الحملة فقد تسربت أنباؤها إلى شرق العالم الإسلامي وغربه، فإن نشاط الصليبيين لم يكن ليخفى على الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام اليقظ الذي وضع منذ اعتلائه سدة السلطنة نصب عينيه القضاء على الأخطار التي تواجه المسلمين في هذين القطرين والتي كان أشدها خطر التتار والخطر الصليبي، فصرف جل سني حكمه في التنقل بين القطرين زاحفاً بجيشه يضرب أعداء الإسلام في شتى الاتجاهات حتى إن الشاعر الذي مدحه بقوله :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب[3]

وصف جهوده أبلغ وصف بحيث إنه لم يكن يعدو الحقيقة، ولا تمدنا المصادر التاريخية هذه المرة بكيفية تسرب أنباء هذه الحملة إلى الظاهر بيبرس مثلما كان الأمر بالنسبة لحملة لويس التاسع السابقة (الحملة الصليبية السابعة). وأياً كان الأمر فإن بيبرس كان يدرك أن فتحه لأنطاكية وهي ثاني إمارة صليبية تؤسس في المشرق سيثير أوروبا الغربية ضده مثلما أدى سقوط الرها في يد عماد الدين زنكي إلى تحريك الحملة الصليبية الثانية، فكان لذلك يراقب الموقف بحذر شديد، فما أن علم بأمر الحملة الجديدة حتى شرع في الاستعداد لمواجهتها. وكما كانت عادته في مواجهة الأخطار لم تقتصر جهوده على مجال واحد وإنما سارت في عدة اتجاهات في آن واحد. فقد بدأ في تحصين الموانئ المصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وشحنها بالسلاح والرجال والأزواد ليحول دون أي نزول محتمل

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.189., Jean Larcena : Op. Cit., p.183., Leon Cristiani : Op. Cit., p.184. Auguste Bailly : Op. Cit., p.130.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.191., Leon Cristiani : Ibid, 183.

(٣) المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٦٣٨.

للصليبيين في أحدها كما حدث بالنسبة للحملة الصليبية السابقة، يقول ابن خلدون في ذلك : (فاهتم الظاهر بحفظ الثغور واستكثر من الشواني والمراكب)[1]، وبالإضافة إلى ذلك اهتم بتدعيم الأسطول وزيادة عدد قطعه كما يفهم من نص ابن خلدون الآنف الذكر. ونشط في نفس الوقت في حشد الجيوش وتنظيمها وتوزيعها على الثغور المصرية والشامية. ولم يغفل أثناء ذلك عن تحصين الحدود الشرقية لبلاد الشام لمواجهة أي هجوم تتاري محتمل أثناء انشغاله بقتال الصليبيين. وبالإضافة إلى ذلك اتصل بالبنادقة ووعدهم بمنحهم عدة امتيازات تجارية في شطري سلطنته مصر والشام مقابل امتناعهم عن تقديم المساعدة البحرية للملك الفرنسي، ولما كان البنادقة قد أبدوا خشيتهم من عدة ضغوط تمارس عليهم للدخول في مفاوضات مع ملك فرنسا بهذا الشأن، فإنه أشار عليهم بالمغالاة في مطالبهم والتقدم بشروط قاسية بحيث لا يقبلها الملك[2]، وهو الأمر الذي تم بالفعل مما جعل لويس التاسع يستبعد البندقية ويعقد الاتفاق مع جنوة لاستئجار أسطولها.

ولم يكتف الظاهر بيبرس بذلك بل أرسل سفارة إلى لويس التاسع يتهدده ليثبط عزيمته هو وصحبه عما اعتزموه من العدوان على المسلمين، ويصف ابن الشماع استقبال الملك الفرنسي لرسول الظاهر بقوله : (فكتب إليه صاحب الديار المصرية من نظم كمال الدين بن مطروح أبياتاً، وبعث بها مع رسوله، فلما ورد على الفرنصيص – الفرنسيس – استجلسه، فأبى أن يجلس، فأنشده وهو قائم بمجلسه :

قـل للفـرنصـيـص إذا ما جئتـــه
مقال صدق من قؤول فصيح[3]

ويزيد ابن خلدون على ذلك : (... فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك الطاغية إلا عتواً

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٣٩٠.
(٢) د. محمد محمد أمين : بحث (شمال إفريقية والحروب الصليبية) ص١٦٠.
W. Hiyd : Op. Cit., v. 1.,p.409.
(٣) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٦، انظر كذلك ، ابن القنفذ : الفارسية المصدر السابق ص١١٠، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٧، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٤.
والفرنصيص الواردة في هذا البيت يعني بها الشاعر : الفرنسيس أي ملك فرنسا.

واستكباراً واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات عذراً دافعهم به وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه)[1]، ومع أن السلطان الظاهر بيبرس وكما يستفاد من هذا النص علم أن الحملة لن توجه ضد بلاده، وإنما ستوجه ضد الدولة الحفصية، فإن ذلك لم يصرفه عن العمل على مواجهتها، فهو لم يهمل أمر تونس، فبالرغم من فتور العلاقات بينه وبين المستنصر الحفصي[2]، إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بواجبه في شد أزر إخوانه مسلمي إفريقية، لقد كان الظاهر بيبرس على مستوى المسؤولية فوضع مصلحة المسلمين العليا فوق مستوى الخلاف، لذلك لم يكد يعرف بتحرك الحملة إلى تونس حتى بادر إلى مساعدة المستنصر، يقول المقريزي في ذلك في حوادث شهر محرم سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م : (وفيه ورد الخبر بمسير الفرنسيس وسلوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها، فكتب السطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج، وكتب إلى

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢. وأما نقض العهد الذي ورد ذكره في النص فهو يشير إلى أن لويس التاسع كان قد تعهد للمماليك بموجب المعاهدة التي عقدت بينه وبينهم والتي عملاً بنصوصها أطلق سراحه، أن لا ينزل ببر المسلمين مرة ثانية (انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٣٧٣، ابن القنفذ : الفارسية ص١٠.
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٩٠ .

Joinville : Op. Cit., p.281., R. Grousset : Op. Cit., Tom, III, p.500.

(٢) يعود سبب هذا الفتور إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، إذ عندما أسقط هولاكو الخلافة العباسية في بغداد، أصبح العالم الإسلامي بدون خليفة، اللهم إلا ما كان من الخلافة الموحدية في المغرب الأقصى التي كانت في النزع الأخير وهو أمر لم يتعوده المسلمون، ولما كانت الدولة الحفصية في تلك الآونة في أوج مجدها وتتمتع بسمعة طيبة في المشرق والمغرب أصبحت هي الأمل الذي تعلق به المسلمون، وتطلعوا إلى المستنصر الذي اعترف بسيادته معظم المغرب الإسلامي بما في ذلك بني مرين في المغرب الأقصى وبني زيان (عبد الواد) في المغرب الأوسط، كما كانت تربطه علاقات طيبة بمعظم حكام عصره سواء ممالك النصارى شمالاً أو قلب القارة الإفريقية جنوباً، فلم يجد المسلمون أفضل منه لتولي منصب الخلافة سيما وأنه كان يدعي النسب العمري، فكان أن بايعه شريف مكة من المشرق فضلاً عن حكام المغرب، ولما كانت دولة المماليك الناشئة في حاجة إلى سند شرعي اعترف به بيبرس أيضاً خليفة وأميراً للمؤمنين، يؤكد ذلك قول ابن القنفذ (الفارسية ص١٢٥) : (وفي سنة تسع وخمسين وستمائة المذكورة قرئ كتاب هزيمة التتار على المستنصر وخططه أهل الديار المصرية في الكتاب المذكور بأمير المؤمنين، وكان هذا أكبر آمال المستنصر وأحبها إليه)، ولكن هذا الاعتراف من بيبرس بخلافة المستنصر لم يدم إلا فترة وجيزة، إذ بإحيائه للخلافة العباسية في القاهرة سحب اعترافه بخلافة المستنصر الأمر الذي كان سبباً للخلاف وفتور العلاقات بين العاهلين.

عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته، وأمرهم حفر الآبار في الطرقات برسم العساكر، وشرع في تجريد العساكر، فورد الخبر بموت الفرنسيس وابنه وجماعة من عسكره، ووصول نجدات العربان إلى تونس وحفر الآبار، وأن الفرنج رحلوا عن تونس)[١]، وقد وصلت جماعات من أعراب برقة إلى تونس بالفعل، وشاركت في التصدي للحملة.

بين المستنصر الحفصي ولويس التاسع :

وكما أن أخبار هذه الحملة لم تخف عن الظاهر بيبرس علم بها المستنصر الحفصي أيضاً، وبالرغم من أنه هو الآخر شرع في الاستعداد لمواجهتها فأمر كما يقول ابن خلدون : (في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب)[٢]، إلا أنه اعتمد أسلوباً يغاير أسلوب الظاهر بيبرس للاختلاف الواضح بين شخصيتي هذين العاهلين، فأسلوب الظاهر بيبرس كان أسلوب الرجل العسكري القوي الذي يؤمن بأن القوة العسكرية هي وحدها الكفيلة بالقضاء على الخطر الصليبي، وأما المستنصر فأسلوبه هو أسلوب السياسي الذي يرى أن العاقبة تكون أسلم بالمفاوضات. ولهذا فقد فضل اعتماد هذا النهج منذ البداية ومنذ علمه بما يدبر لبلاده وحتى النهاية ورحيل الصليبيين من إفريقية، وقد ظهر الفرق واضحاً بين كلا الأسلوبين في بلاط لويس التاسع، فمنذ أن علم المستنصر بما اعتزمه الملك الفرنسي أوفد هو الآخر سفارة إليه يبدو من رواية ابن خلدون أنها سبقت رسول الظاهر بيبرس في الوصول إلى بلاط لويس التاسع[٣]، وقد استقبلها هذا في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ[٤]، وقد تصادف أن اجتمعت كلتا السفارتين في بلاط الملك الفرنسي في آن واحد. وبينما وقف رسول الظاهر بيبرس ينشد شعراً هو أقرب ما يكون للهجاء والوعيد دون أي اعتبار للكياسة والأعراف الدبلوماسية،

---

(١) انظر المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٥٩٠، كذلك د. سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص١١٣ – ١١٤، د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٧٧.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٤) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p. 56., Leon Cristiani : Op. Cit., p.184.

ويذكره بالعهد الذي كان قد قطعه على نفسه، وإذا بسفارة المستنصر تلجأ إلى أسلوب المفاوضة واسترضاء لويس التاسع، ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : (وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيس لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه)[1]، كما أن المصادر التاريخية سواء الإسلامية أو الغربية لم تشر إلى أن رسول الظاهر قد اصطحب معه هدية للملك الفرنسي مثلما كانت تقضي العادة في تبادل السفارات بين الملوك، في حين بعث المستنصر مع سفرائه هدية قيمة للملك الفرنسي، فضلاً عن أنه زودهم بثمانين ألف دينار ذهبي دفعوها إلى لويس التاسع لاسترضائه وكفه عن عزمه ثم (لاستتمام شروطهم)[2].

وتبعاً لذلك اختلف موقف لويس التاسع من كلتا السفارتين، فبينما أخذ يعتذر لرسول الظاهر ويبرر نقضه (العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات)[3] على حد قول ابن خلدون كما سبق أن ذكرنا، اختلفت معاملته لرسل السلطان الحفصي، فإنه بالرغم من قبوله الهدايا والمال منهم واستماعه لوجهة نظرهم، لم يعدهم بشيء بل مارس معهم اللعبة السياسية التي كان يجيدها وأخذ يماطلهم، ويبدو أنهم أدركوا فشل مهمتهم فطلبوا منه المال كما يقول ابن خلدون، (فاعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه)[4]، وبذلك خسر المستنصر أمواله دون طائل، ومع أن برنجفيك (R. Brunschvig) يستبعد مثل هذا التصرف من لويس التاسع ويقول إن تدينه وأخلاقه لا تسمحان له بذلك[5]، إلا أنه يبدو أن برنجفيك تناسى أن هذه الصفات التي كان يتصف بها ذلك الملك واحترامه لحقوق الغير كانت تطبق في معاملاته مع المسيحيين، أما تعامله مع المسلمين فكان يتم بشكل معاكس تماماً، ولذلك لا نستبعد أن ما ذكرته الروايا ت الإسلامية عن امتناعه عن إعادة المال لسفراء المستنصر كان صحيحاً، وأياً كان الأمر، فالمستفاد من تلك الرواية هو أن لويس التاسع لم يستجب لدعوة

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١، المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٥، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ٢٠٣.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٥) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.53.

تلك السفارة في السلام، وأما ابن الشماع فيقول في معرض حديثه عن تلك السفارة إن السلطان طلب من لويس التاسع (المهادنة، فامتنع من ذلك، وأغلظ للرسول، وعرفه أنه متوجه إليه)[١]، فإذا صحت هذه الرواية فإن سياسة الاسترضاء والملاينة التي اتبعها المستنصر قد جاءت بنتائج عكسية، فهي لم تزد الملك الفرنسي إلا غلواً واستكباراً وتصميماً على تنفيذ ما اعتزمه، لذلك فإنه كان الأجدر بالمستنصر أن يتبع نفس سياسة الظاهر بيبرس، فكان الأصح عوضاً عن محاولته شراء السلم بالمال من عدو حاقد متربص أعماه التعصب للفكرة الصليبية، أن يستفيد من المبلغ الضخم الذي أرسله إليه في الاستعداد للتصدي للحملة وبصفة خاصة في تدعيم أسطوله الهزيل لحماية سواحل بلاده ببحرية قوية بدلاً من تركها تحت رحمة العدو سيما وأن الطاقات البشرية والمادية التي كانت لديه كانت تؤهله لذلك، علماً بأنه لم يفاجأ بالعدو بل كان لديه من الوقت ما يمكن اعتباره كافياً لمثل هذا العمل، فذلك أفضل من أن يقدم ذلك المبلغ لعدوه ليستفيد منه في حربه ضده.

ولم يكتف الملك الفرنسي حينما لمس هذا الموقف من المستنصر بعدم الاستجابة لعرض المسالمة الذي تقدم به الأخير وجبه الرسل بغليظ القول والتصميم على الحرب، وإنما آذى الرسل في مشاعرهم الدينية وأهان سلطانهم بتعبيره عن أمنيته في تنصيرهم وسلطانهم، فقد انتهز مناسبة احتفال أقيم بوم ٩ أكتوبر سنة ١٢٦٩م وأثناء وجود كلا السفارتين في بلاطه بتعميد أحد كبار اليهود الذي كان قد تنصر على يده ودعا سفراء المستنصر فقط دون رسول بيبرس الذي يبدو أنه لم يجرؤ على دعوته، وأثناء الحفل توجه إلى هؤلاء السفراء بقوله إنه يتمنى تنصير سلطانهم على يده وتعميده مثل ذلك اليهودي[٢]، كما سيذكر فيما بعد، ويزعم (Jean Larcena) أن أحد السفراء وهو كما هو مفروض فيه أن يجيد المجاملة وانتقاء الكلمات الدبلوماسية أجاب بأن ذلك ليس أمراً مستحيلاً[٣]، وما نعتقده أن هذا القول لا يقبله لا العقل ولا المنطق، ذلك لأن السفراء في تلك الأزمنة كانوا يختارون في

---

(١) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٦، انظر أيضاً ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.

(٢) Jean Larcena : Op. Cit., p.187., Albert Garreau : Op. Cit., p.192., Leon Cristiani : Op. Cit., 184 - 5.

(٣) Jean Larcena : Ibid, p.185.

العادة من بين ذوي الخلق الحسن والكياسة والدين القويم والفطنة والثقافة الواسعة التي كانت أغلب ما تكون ثقافة دينية إن لم يكونوا فقهاء أو قضاة، فكيف يصدر مثل هذا القول من فقيه وعلى مسمع من زملائه وفي ملأ من الناس؟ لذلك، فالواضح أن هذا القول هو محض اختلاق وأن صاحبه قد اعتمد فيه على أوهام نانجي (Nangis) التي سنتعرض لها فيما بعد. وعلى كل حال فإن إقامة هؤلاء السفراء في بلاط لويس التاسع لم تطل كثيراً بعد ذلك، إذ عادوا إلى تونس يحملون أنباء الغزو القريب. يقول ابن خلدون في ذلك : (فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم)[1] وعندها أدرك المستنصر فشل مساعيه السلمية فجد في اتخاذ أهبته للتصدي للغزاة.

إفريقية طريق إلى بيت المقدس :

قرر لويس التاسع الاتجاه بحملته الصليبية الجديدة إلى تونس، والذي يدعو إلى التساؤل هو ما هي الدوافع والأسباب التي جعلته يغير اتجاهه عن المشرق في وقت كان فيه الصليبيون هنالك في أشد الحاجة للمساعدة والدعم؟ في الحقيقة، لقد أثار هذا الأمر كثيراً من الجدل بين المؤرخين المسلمين والغربيين القدامى والمحدثين على حد سواء وعللوه بتعليلات مختلفة، فمعظم الروايات التاريخية الإسلامية التي تعرضت لهذه الحملة لم تسبر غور الحقيقة للوصول إلى الدوافع الحقيقية لهذا الأمر، فابن الشماع يعلل ذلك بتعليلين مختلفين أولهما أن السبب في ذلك كان استجابة لويس التاسع لطلب بعض التجار من رعاياه الذين ادعوا أن لهم في ذمة أحمداللياني وزير أمور البحر في دولة المستنصر الحفصي[2] مبلغ ثلاثمائة

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢.

(٢) هو الفقيه العالم أحمد بن إبراهيم القيسي اللياني أحد شراح المدونة ينسب إلى قرية ليانة من أعمال المهدية، كان أبوه يتولى أمور المهدية، وقد نشأ أحمد في طلب العلم فلازم الإمام أبا زكريا البرقي وأخذ عنه، وبرع في علوم كثيرة فكان فقيهاً عالماً أديباً شاعراً، ثم نهض إلى تونس فولي بها الأعمال الجليلة وبلغ من الرئاسة في الدنيا الغاية القصوى حتى أصبح وزيراً لأمور البحر للمستنصر، غير أنه كان يحدث نفسه بأمور كثيرة وأعمال خطيرة حتى خشي منه المستنصر، لسعاية أعدائه به بأنه ينوي الثورة بالمهدية فنكبه وأمر المحتسب بمحاسبته وتعذيبه وطولب بأموال كثيرة وذلك في سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م فكان يدفعها شيئاً فشيئاً حتى استخلص منه مال جليل ثم عذب بعد ذلك حتى مات تحت =

ألف دينار كان قد اقترضها منهم وحينما نكبه المستنصر وصادر أمواله طالبوا الأخير بها الذي نظراً لعدم وجود إثباتات لديهم تدعم مطالبهم رفض دفعها لهم، فكان أن شكا أولئك التجار لملكهم ما أوقعه المستنصر بهم في زعمهم من ظلم فغضب لهم وجرد حملته تلك على تونس، فهو يقول في ذلك : (إن ما أدعاه للنزول بتونس فيما زعموا أن تجار أرضه ادعوا على اللياني بعد نكبته أنهم أسلفوه ثلاثمائة ألف دينار فامتنع من إعطائهم. فشكوا ذلك إلى ملكهم، فامتعظ لهم... وعمر على تونس)[1]، ويروي كل من ابن خلدون[2] وابن أبي دينار[3] والوزير السراج[4] وحمودة بن عبد العزيز[5] روايات مشابهة لما ذكره ابن الشماع مع تغيير طفيف فيها، ومع أن المستفاد من هذه الروايات بترديدها كلمة (زعموا) أن ذلك السبب ليس بالأمر القاطع وإنما هو أمر مشكوك فيه، إلا أن هؤلاء المؤرخين باستثناء ابن خلدون الذي سنتعرض لقوله فيما بعد، لم يقدموا السبب البديل الذي يعتقدونه صحيحاً ويعبر عن وجهة نظرهم.

وتحاول الرواية الثانية لابن الشماع والتي رددها كذلك ابن أبي دينار[6] والوزير السراج[7] أن تضفي على هذا الأمر اعتبارات شخصية هي انتقام لويس التاسع من المستنصر لانتقاصه منه في مجلسه إذ يقول : (... وقيل في حركته على تونس : أن الفرنصيص - الفرنسيس - ذكر عند المنتصر - المستنصر - فقال : «هو الذي أسره هؤلاء فأطلقوه؟» - يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه - وكان اجتمع له منهم جماعة وافرة - احتقاراً

= العذاب بدار السكة في المحرم من تلك السنة وأخرجت جثته إلى الصبيان فجروها في الشوارع ثم ألقوها في بحيرة تونس. انظر ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٢٥، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٥ - ٢٠٦، محمد النيفر : عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب ص٧٣ - ٧٤، M. Talbi : Op. Cit., p.249 - 50.

(١) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٥.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.

(٤) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.

(٥) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣.

(٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.

(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.

لأمره. فبلغ الفرنصيص مقالته. فحقدها عليه. وحشد أهل ملتهم واستعان بملوكهم... وشرع في حركته إلى تونس)[1]، ومما لا شك فيه أن أصحاب هذه الأقوال قد قصروا في فهم الأسباب الحقيقية لهذا الغزو الصليبي. وإننا نتفق في ذلك مع برنجفيك مع تحفظنا على وجهة نظره في تعليل هذا الأمر الذي نذكره فيما بعد، في أننا نكون مجازفين كثيراً إذا ذهبنا إلى أن موضوع أموال التجار البروفانسيين التي قيل إنها كانت لهم في ذمة اللياني هي السبب الرئيسي في تحويل مسار هذه الحملة إلى تونس رغم ما كان للناحية الاقتصادية من أهمية في العلاقات الدولية في العصور الوسطى ورغم مشابهتها الظاهرية لأسباب احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م / ١٢٤٦هـ[2] ذلك أن لويس التاسع المشهور بتعقله واتزانه من غير المعقول أن يجازف بحملة يتطلب إعدادها أكثر من هذا المبلغ بكثير لحمل المستنصر على تسوية مطالبات هؤلاء التجار، لا سيما وأن المستنصر كان على استعداد لتسويتها بالغاً ما بلغت بالرغم من عدم وجود مستندات تثبت صحتها إذا كان ذلك يكف عزم لويس التاسع عن حربه، كما يمكن اعتبار مبلغ الثمانين ألف دينار التي أرسلها إلى الملك الفرنسي إقراراً منه بهذه المطالبات واعتبار ذلك المبلغ دفعة أولى منها ودليلاً على إمكانية تسويتها عن طريق المفاوضات، ويقوي هذا الظن ما ذكره ابن خلدون من أن لويس التاسع حينما طالبه سفراء المستنصر برد هذا المبلغ إليهم عندما يئسوا من إقناعه بكف عزمه عن قصد تونس رفض ذلك متعللاً عليهم (بأنه لم يباشر قبضه)[3]، فكيف أخذ منهم الهدايا ولم يقبض المال؟ ومن الذي تولى قبضه منهم؟ ولذلك فإنه ليس من المستبعد في رأينا أن يكون الهدف من إرسال ذلك المبلغ خاصة وأنه لم تجر العادة في المهاداة بين الملوك أن تتضمن الهدايا مبالغ نقدية، إن لم يكن لاسترضاء الملك الفرنسي فلتسوية مطالب هؤلاء التجار، الأمر الذي ينفي أن تكون تلك المطالبات هي السبب في اتجاه لويس التاسع بحملته إلى تونس . وأما بالنسبة للقول الثاني فإنه من المستبعد أيضاً إن لم يكن من المستحيل أن توجه حملة ضخمة تتكلف نفقات باهظة تستنزف كثيراً من إمكانيات الشعب الفرنسي وطاقاته ويتكبد الملك مشاق

---

(١) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٥ – ٦٦.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.56 - 57.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

السفر من أجل كلمة قيلت – هذا إذا صحت الرواية – علاوة على أن المصادر المسيحية لم تشر إليها، والأصح من كلا القولين أن الأسباب الحقيقية لهذا الأمر أعمق من ذلك بكثير.

أما معظم المراجع الغربية وكذلك العديد من العربية التي اعتمدت عليها فإنها تعزو ذلك لسببين رئيسيين هما جهودشارل صاحب أنجو ملك الصقليتين الذي تحقيقاً لمصالحه الذاتية تمكن من إقناع أخيه لويس التاسع بالاتجاه بالحملة إلى إفريقية، ثم تحقيقاً للنزعة الدينية القوية لدى الملك الفرنسي التي صورت له أن بإمكانه بهذه الحملة أن يقضي على تردد السلطان الحفصي الذي كما زعم بعض رجال الدين من بطانة لويس التاسع يبدي ميلاً نحو المسيحية، ويقوم بتنصيره حيث كان من المأمول أيضاً اقتداء شعبه به في الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية[١]، وتتمثل مصالح شارل في رأي أصحاب هذه المراجع في ناحيتين أولاهما إجبار المستنصر على أن يدفع له الأتاوة التي كان يؤديها لأسلافه ملوك الصقليتين من أسره الهوهنشتاوفن[٢]، وثانيهما كف المستنصر عن دعم

---

(١) انظر على سبيل المثال : Paul Guth : Op. Cit., p.131 & p.237., Leon Cristiani : Op. Cit., p.184 - 5, K. M. Setton : Op. Cit., v.2, p.512, Albert Garreau : Op. Cit., p.191, M. Talbi : Op. Cit., p.257., H. E. Mayer : Op. Cit., p.270., S. Clissoid : Op. Cit., p.19, David O'co-nell : La propose de Saint Louis, p.82 - 83.

حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص١٣٠، العروسي المطوي : الحروب الصليبية ص١٠٠، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٥٧ – ١٥٨.

(٢) أصل هذه الأتاوة التي فرضها ملوك صقلية على حكام إفريقية لفترة طويلة يكتنفه الغموض، ولا ندري إذا كان ذلك يعود إلى أيام النورمان حينما فرض رجار الثاني أتاوة سنوية على الأمير الحسن بن علي الزيري كما ذكرناه آنفاً، أم أنها تعود كما يقول كل من (D. Abulafia : Ibid, p.124) و(K. M. Setton : Ibid, v.2, p.32 & 42). إلى سنة ١١٨٠م حينما وافق الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على أن يدفع للخزينة الصقلية مبلغاً سنوياًمن المال دون أي احتمال في أن يكون في ذلك أي تبعية سياسية بطبيعة الحال، إنما هو نظير حماية التجار المسلمين من أهل إفريقية الذين كانوا يصلون إلى صقلية لشراء السلع الصقلية وخاصة القمح لحاجة إفريقية إليه وبصفة خاصة في سنوات القحط والمجاعة وذلك بموجب اتفاقية بينه وبين وليام الثاني مدتها عشر سنوات والتي ظل وليام حريصاً على تطبيقها حتى إنه طلب من ابن غانية كما يقول (K. M. Setton : Ibid, v.2, p.33) عدم خلق المشاكل التي قد تكون سبباً في نقضها. أو أن ذلك يعود إلى وقت لاحق حينما عقدت المعاهدة بين الامبراطور فردريك الثاني والأمير أبي زكريا الأول الحفصي حسب رأي برنجفيك (Brunschvig : Ibid, Tom. P.54) في سنة ١٢٣٩م حينما شدد فردريك الثاني الرقابة على تصدير=

مناوئي شارل في صقلية وإيواء الهاربين منهم إلى بلاده علاوة على إمكانية الاستفادة من الحملة في تحقيق خطوة هامة على طريق تنفيذ مشاريعه في إنشاء امبراطورية واسعة في شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وأما برنجفيك فإنه يعزو ذلك لسببين رئيسيين هما اعتقاد الملك الفرنسي بأن احتلال إفريقية سيسهل عليه مهمته ضد دولة المماليك في مصر والشام، ثم كما سبق أن ذكرنا الأمل في اعتناق المستنصر المسيحية وإن كان هذا الأمل في رأيه كان يبدو واهياً إلا أن لويس التاسع قد تعلق به، ولفهم ذلك يرى برنجفيك أن هذا الأمر يتطلب البحث في عقلية الملك نفسه وأنه ينبغي تذكر عقيدته القوية وجهوده في سبيل تنصير خانات التتار وتأثير المنصرين من الفرانسيسكان والدومنيكان البالغ في معتقده والذين كانوا نشيطين في الدولة الحفصية وكان كثير منهم قد شارك في الحروب الصليبية واستطاعوا إقناع الملك منذ السنة السابقة على قيام الحملة بإمكانية تنصير السلطان الحفصي[1]، وينفي أن يكون لشارل صاحب أنجو أي علاقة في تحويل اتجاه الحملة إلى إفريقية بل على العكس من ذلك يعتبر أن ذلك التحويل ضد مصلحته لأن

=القمح من صقلية إلى إفريقية، وبعد عقد تلك المعاهدة وفي ربيع سنة ١٢٤٠م على وجه التحديد أمر فردريك ونظير حصوله على مبلغ سنوي من المال من أبي زكريا بإطلاق حرية التجارة بين صقلية وإفريقية فتم وقتئذٍ وتبعاً لذلك شحن ألف حمل من القمح الصقلي إلى إفريقية، وأياً كان الأمر فإن ذلك لم يتضمن أي تبعية سياسية من ناحية، كما أنه من الثابت أنها لم تكن تدفع بانتظام من ناحية ثانية، وإنماكما يقول برنجفيك كان للحفصيين مقابل واضح لهذا المبلغ يتمثل في ممارسة النشاط التجاري البحري ممارسة خالية من كل شرط أو قيد وفي انتفاع الجمارك التونسية من النشاط التجاري للنصارى مما كان يوفر عائدات هامة للخزينة الحفصية. وبتولي شارل عرش مملكة الصقليتين اعتبرها حقاً مكتسباً لمملكته فطالب بها حتى كرستها معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين كما سيذكر فيما بعد. ثم طالب بها ملوك أرغونة بعد ذلك حينما تبعتهم صقلية مما جعل الدولة الحفصية الضعيفة وقتئذٍ بفرعيها التونسي والبجائي تلتزم بدفعها إلى صقلية منذ سنة ١٣١٤م، وفي سنة ١٣٦٠م اعترف أبو اسحق الثاني الحفصي في المعاهدة التي أمضاها مع ملك أرغونة بأنه مدين له بهذه الأتاوة وبقي الأمر كذلك إلى أن ألغاها بعد ذلك ببضع سنوات السلطان الحفصي الحازم أبو العباس أحمد إلى الأبد

عن هذا الموضوع انظر : N. Daniel : Op. Cit., p.142, D. Abulafia : Op. Cit., 124., M. M. Basset : Op. Cit., p.94, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p53 - 4 & 431 - 2, K. M. Setton : Op. Cit., v. 2, p.32 & 42. M. Talbi : Op. Cit., p.246

(١) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.57.

شارل كان يتطلع إلى الشرق وبصفة خاصة إلى أملاك الدولة البيزنطية ولم يكن له مطامع في إفريقية.

وإننا إذ نتفق مع برنجفيك في وجهة نظره المتمثلة في استبعاد أن يكون لشارل علاقة في اتجاه الحملة إلى إفريقية ونعتبر أن الحجج والبراهين التي ساقها للتدليل على صحة رأيه مقنعة[١]، وإن كان لم يوفها حقها من التوضيح، فإننا نختلف في تعليله لأسباب هذا التحول في مسار الحملة، وبناء على ذلك فإننا نرى أنه ينبغي لتوضيح موقف شارل أن نتعرض لهذا الموضوع بمزيد من التفصيل. فبالرغم من التوتر الشديد في العلاقات بين المستنصر وشارل منذ اعتلاء الأخير عرش مملكة الصقليتين نظراً لأن المستنصر زج بنفسه في الصراع الذي كانت تدور رحاه بين شارل وأسرة الهوهنشتاوفن ومساعداته التي قدمها لهذه الأسرة وأنصارها ربما خشية من مطامع شارل وطموحاته وإيوائه لمناوئي شارل هؤلاء وبصفة خاصة إيوائه لكل من هنري (Henri) وفردريك القشتالي (Frederic de Castilla) أخوي ألفونسو العاشر ملك قشتالة اللذين لجآ إليه هرباً من أخيهما منذ سنة ١٢٦٠م[٢] وأصبحا فيما بعد من أبرز أنصار الهوهنشتاوفن، حيث انضما إلى قوات مانفريد (Manfrid) ملك صقلية الهوهنشتاوفني حينما التقى بشارل الزاحف بجيشه إلى جنوب إيطاليا في معركة (Benevent) في فبراير سنة ١٢٦٦م / ٦٦٤هـ[٣]، وبعد هزيمة مانفريد ومصرعه في المعركة عاد فردريك إلى تونس فضلاً عن عدد آخر من أنصار مانفريد الذين لجأوا إليها وكان من أبرزهم Nicolas Meletta و Fredric Lancia[٤] والذين انضموا بعد ذلك إلى كونرادين (Conradin) وريث الهوهنشتاوفن المطالب بعرش صقلية والذي أرسل في ربيع سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ يستدعيهما للانضمام إلى قواته التي يقوم بحشدها لانتزاع صقلية من شارل، فغادر خمسمائة منهم تونس في أواخر أغسطس سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ على سفن قدمتها بيزا

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.53 - 54.

(٢) انظر ابن القنفذ :المصدر السابق ص١٢٣.

(٣) لمزيد من التفصيل عن الحرب بين شارل ومانفرد انظر : M. Talbi : Op. Cit.,, p.246.

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.53 - 4., M. Talbi : Ibid, p.247.

لكونرادين لهذا الغرض[1]، وحاربوا شارل إلى جانب كونرادين في معركة (Togliacozza) وعودة هؤلاء إلى تونس ثانية إثر مقتل كونرادين بعد هزيمته في تلك المعركة بشهرين مما جعل شارل يعتبر أن موقف السلطان الحفصي عملاً عدوانياً موجهاً ضده[2] الأمر الذي أدى إلى أزمة شديدة بين العاهلين، بالرغم من كل ذلك فقد كانت هذه الأزمة آخذة في الانفراج وبدأت العلاقات في التحسن منذ أوائل سنة ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ أي قبل قيام لويس التاسع بحملته بحوالي سنة ونصف على الأقل، والدليل على ذلك أنه في ٢٠ ابريل سنة ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ قامت مدينة مرسيليا التي كانت تابعة لشارل آنذاك بتسمية أحد مواطنيها وهو Hugues Borgonion قنصلاً لها في بجاية التي كانت وقتئذٍ تابعة للمستنصر الحفصي[3] وقد استمرت العلاقات بين الطرفين في التحسن وتبودلت بينهما منذ ذلك الوقت عدة سفارات، وليس أدل على التقارب بينهما مما تضمنته رسالة من شارل إلى نائبه في لوجارة (Lucera) مؤرخة في ١٨ أغسطس سنة ١٢٦٩م / ٦٦٧هـ يأمره فيها بمنح المسلمين في صقلية أهم المناصب الإدارية وأعلاها في حكومة الجزيرة بالرغم من تمردهم على حكمه – وكان هذا مما يرضي الحفصيين – كما أمره بأن يستقبل سفراء السلطان الحفصي القادمين إليه استقبالاً لائقاً ومشرفاً[4]، الأمر الذي يثبت زوال الأحقاد والضغائن بين العاهلين. وإذا كان قد بقي بينهما موضوع الأتاوة لا زال معلقاً والتي يحتمل أن يكون شارل قد طالب المستنصر بها أثناء فترة توتر العلاقات بينهما[5]، فإن المفاوضات كانت جارية بين الطرفين في جو ودي لتسويتها وتبودلت عدة سفارات بينهما لهذا الغرض كان من ضمنها سفارة في ٢٢ ابريل سنة ١٢٧٠م ترأسها الراهب Berengar[6] أي بعد رحيل لويس التاسع عن باريس في طريقه إلى تونس بأكثر من شهر ونصف. كما يذكر Pierre de Condet في رسالته الثالثة الموجهة إلى Mathew Vandome رئيس دير القديس دينيس Saint - Denis وأحد نائبي لويس التاسع

(١) R. Brunschvig Op. Cit., Tom, 1, p.54., K. M. Setton : Op. Cit., V.2, p.512.
(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54.
(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54.
(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54.
(٥) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54 - 5.
(٦) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p55.

اللذين استخلفهما في حكم المملكة عند رحيله إلى تونس أن شارل كان حتى أثناء وجود الصليبيين في قرطاجنة وقبيل رحيله إلى إفريقية كان لا يزال يفاوض المستنصر بشأن هذه الأتاوة فأرسل رسولاً له من أجل هذا الغرض، وأن المستنصر قد وافق على دفعها عن المدة التي تبدأ باعتلاء شارل عرش صقلية ولكن نقطة الخلاف بين الطرفين كانت هي أن شارل كان يطالب بدفعها أيضاً عن السنوات التي لم تدفع فيها في عهد كل من فريدريك الثاني ومانفرد(١) اللذين سبقاه في حكم الجزيرة حيث إنها كما ذكرنا لم تكن تدفع بانتظام. وبالتالي فإنه ما دام شارل كان قد حل معظم خلافاته مع السلطان الحفصي وما لم يحل فإن المفاوضات كانت جارية بين الطرفين لحله فإنه لم يكن في صالحه أن يقنع أخاه بتوجيه الحملة إلى إفريقية لأن ذلك سيكون سبباً هاماً ومباشراً في تأزم الوضع بين الطرفين من جديد، كما أن احتلال لويس التاسع لإفريقية سيحرمه من هذه الأتاوة بكليتها، لذلك فإننا نستبعد أن يكون له دخل في تحويل مسار تلك الحملة، وأما تعليل اشتراكه فيها بالرغم من كونها لا تتوافق مع مصالحه فإن ذلك يعود في رأينا لسببين هامين أولهما رغبته في عدم الظهور بمظهر المتخاذل في الحروب الصليبية أو من يؤثر مصلحته الشخصية على مصلحة الحركة الصليبية، لا سيما وأنه كان يدين بعرشه للبابوية الزعيم الروحي لتلك الحركة، خاصة وأن مصير الهوهنشتاوفن الذين خرجوا عن إرادتها كان لا يزال ماثلاً أمام عينيه وأن وصوله إلى عرش الصقليتين لم يكن إلا ثمرة لغضبها على تلك الأسرة، وثانيهما حرصه على أن لا يسيطر الصليبيون على إفريقية بدون مشاركته فيما إذا كتب للحملة النجاح لأن ذلك سيورطه في مشاكل وتعقيدات كثيرة كان هو في غنى عنها، ودليلنا على ذلك تلك الرسالة التي بعث بها لأخيه لويس التاسع أثناء وجود الأخير في قرطاجنة يطلب منه فيها عدم شن هجوم رئيسي على المسلمين أو الدخول مع السلطان الحفصي في مفاوضات لحين حضوره كما سيذكر في موضعه، ولعل فيما قاله كل من شارل أندري جوليان(٢) و (Jean Larcena)(٣)، فضلاً عن

---

(١) Pierre de Condet : Saint Louis Roi de Francc, presente par le duc de Levis Mirepoix, le memorial des siecles, seri 13, etabli par Girard Walter, p.229.

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠.

(٣) Jean larcena : Op. Cit., p.184 - 5.

برنجفيك باستبعاد أن يكون لشارل أي دور في توجيه الحملة إلى إفريقية ما يدعم وجهة نظرنا، ويضيف (Jean Larcena) دليلاً هاماً آخر على ما سبق أن ذكرناه حول هذا الموضوع هو أن (Robert Primat) الذي تخصص في التأريخ لشارل لم يشر إلى تدخل الأخير في توجيه هذه الحملة وجهتها الآنفة الذكر[١]، ومما جعل المؤرخين في رأينا يتهمون شارل هذه التهمة الباطلة هو أنه كان المستفيد الرئيسي من نتيجة تلك الحملة مع أنه حقق هذه الفائدة من وضع لم يتسبب فيه، فكان دوره كما يقول بول لابال (Paul Labal)[٢] ينحصر فقط في أنه حينما لمس أوضاع الصليبيين المتردية استغل وجود الحملة في تونس وقد أصبح الموجه لها بعد وفاة أخيه ليفرض على المستنصر الاستجابة لمطالبه.

وكما استبعدنا دور شارل في اتجاه هذه الحملة إلى إفريقية، نستبعد أيضاً ما ذكره كل من (Paul Guth)[٣]، و (Leon Cristiani)[٤]، و(K. M. Setton)[٥] في تعليلهم لهذا الأمر من أن الملك الفرنسي بغزوه إفريقية ربما كان يهدف إلى إضعاف دولة المماليك لأنه باحتلالها يحرمها من الحصول على المحاربين والخيول التي كانت إفريقية في رأي (Paul Guth) أهم مصدر لهما بالنسبة للجيش المماليكي ذلك لأننا لم نجد في المصادر التاريخية الإسلامية أو الغربية المتيسرة ما يدعم هذا القول، اللهم إلا إذا كان ما ظنه (Paul Guth) بالمحاربين إن صح أن لويس التاسع قد اعتقد ذلك هو ركب الحجاج المغاربة الذي كان يتوجه سنوياً إلى المشرق والذي لم يكن من إفريقية وحدها وإنما من أنحاء المغرب الإسلامي بأسره. حتى الافتراض الذي قدمه (K. M. Setton)[٦] لهذا الموضوع من أن لويس التاسع ربما كان يجهل جغرافية إفريقية وأنه تبعاً لذلك قد ظنها قريبة جداً من مصر وبالتالي تقدم لها هذا الدعم هو افتراض غير مقبول إذ كل الدلائل تشير إلى أنه كان على معرفة جيدة

---

(١) Jean Larcena : Op. Cit., p.185.

(٢) Paul Labal : Op. Cit., p.124.

(٣) Paul Guth : Op. Cit., p.237.

(٤) Leon Cristiani : Op. Cit., p.187.

(٥) K. M. Setton : Op. Cit., Vol, 2, p.514.

(٦) K. M. Setton : Ibid, Vol. 2, p.514.

بتلك الجغرافية، فالاتصالات بين إفريقية والممالك النصرانية في العدوة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط كانت مستمرة وبصور مختلفة وكان أهل كل من العدوتين على اطلاع واسع بطبيعة العدوة الأخرى، وحتى لو تطرق إلينا الشك في دور التجار النصارى والسفراءوالرهبان الدومينكان والفرانسيسكان الذين كانوا يمارسون نشاطهم بدرجة ملحوظة في الدولة الحفصية كما سيأتي ذكره، يضاف إلى ذلك أعضاء المنظمات الرهبانية الأخرى أمثال منظمة الأخوة ذوي الحمير (Donky Brothers) الوثيقة الصلة بالملك الفرنسي والتي كان أعضاؤها يجوبون أنحاء المغرب العربي بحثاً عن الأسرى المسيحيين للعمل على إطلاق سراحهم[١] والذين كانوا دون شك يطلعونه على المعلومات اللازمة له، فإن هذا الشك لا يبقى له مجال إذا عرفنا أن أندري لونججيميوه صديق الملك الفرنسي قد قضى في تونس فترة طويلة قبيل الحملة اطلع خلالها على ما كان يحتاجه من معلومات كما سيذكر فيما بعد، ثم إن لويس التاسع لم يكن من النوع المتهور بحيث يقوم بحملة على بلد يجهل جغرافيته أو يستند إلى وهم. والدليل على شدة اهتمامه بالناحية الجغرافية أنه كان مزوداً بخرائط ملاحية دقيقة للقسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط بحيث إنه كان يستطيع بها وهو في عرض البحر تحديد الموقع الذي هو فيه بدقة[٢]، وأخيراً هل كان من الممكن للويس أن لا يستفيد من العبرة التي مرت به فيكرر خطأه السابق لتحل به كارثة جديدة كتلك الكارثة التي حلت به في مصر والتي كان أحد أسبابها الهامة جهله بجغرافية الدلتا المصري؟ ولعل في التعليل الثاني الذي أورده (Paul Guth)[٣] والمتمثل في أن الملك الفرنسي قد هدف بالإضافة إلى افتراضه الأول الآنف الذكر إلى القضاء على القرصنة

---

(١) تأسست هذه المنظمة سنة ١١٩٨م لافتكاك الأسرى المسيحيين من المسلمين والعناية بهم وكان مقرها (Saint Maturin) بباريس، وكان أعضاؤها يلقبون باللقب الذي ذكرناه في المتن والذي ترجمناه بتصرف ذلك أن ترجمته الحرفية هي (أخوة الحمير) ولقبوا بذلك لاستعمالهم الحمير في تنقلاتهم، وكانت هذه المنظمة وثيقة الصلة بلويس التاسع بالذات وكان يصطحب العديد من أعضائها في حملاته الصليبية كما أنه اختار بعض القساوسة المرافقين له من بينهم. لمزيد من التفصيل انظر : R. Bruschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.455., S. Clossoid : Op. Cit., p.13 - 4.

(٢) خوان برنيط : بحث (هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية؟)، ترجمة د. أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الأول ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م، ص٧٢ - ٧٣.

(٣) Paul Guth : Op. Cit., p.237.

البحرية التي كان يمارسها مسلمو إفريقية ضد السفن المسيحية المارة قرب سواحل بلادهم تجاوز كبير أيضاً للحقيقة، ذلك أن البحرية الإسلامية في غرب المتوسط كان قد انتابها ضعف شديد منذ زمن طويل بحيث لم تعد تشكل خطورة جدية على السفن المسيحية في تلك المنطقة بل على العكس هو الصحيح فالسيطرة المسيحية على تلك المنطقة من البحر الأبيض المتوسط كانت في تلك الآونة سيطرة شبه كاملة، وإذا وجدت بعض أعمال الغزو البحري من بعض المسلمين فإنها كانت محدودة لا تستحق ولا تتطلب مثل هذه الحملة الضخمة للقضاء عليها.

والآن، وبعد أن استعرضنا تلك الأقوال والآراء والرد عليها نعود إلى التساؤل الذي طرحناه في البداية مرةَ أخرىَ وهو ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعت لويس التاسع إلى الاتجاه بحملته الجديدة إلى إفريقية؟ إن المدخل الصحيح للوصول إلى معرفة هذه الأسباب في رأينا يفرض علينا العودة إلى تذكر أهداف الحركة الصليبية التي كان الملك الفرنسي يؤمن بها أشد الإيمان وكرس حياته لأجلها وبذل كل ما استطاع من جهد في سبيل خدمتها والعمل على تحقيقها، إن الملك الفرنسي في رأينا قصد بهذه الحملة تحقيق أقصى ما يستطيع من أهداف الحركة الصليبية الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل ما يقال عدا ذلك أو يفسر في ضوء تطورات التاريخ الأوروبي فإنه يعتبر في رأينا صرفاً للأذهان عن هذه الحقيقة. ولتوضيح ذلك ينبغي التعرض لهذا الأمر بشيء من التفصيل.

تتمثل الأهداف الدينية للملك الفرنسي في أمر هام هو تنصير مسلمي إفريقية وإعادة بلادهم إلى حظيرة المسيحية. ولعل فيما قاله ابن خلدون المؤرخ المسلم الواسع الأفق ما يؤكد هذه الحقيقة حين يقول في مستهل حديثه عن هذه الحملة : (... وكان ولاة الأغالبة ومن قبلهم أيضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم – أي الفرنج – على الجزر البحرية ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن فكان يخالجها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها)[1]، فهذا أمر قد جرى التخطيط له بعناية

(١) ابن خلدون :المصدر السابق ج٦ ص٢٩٠.

وهدف بذل الكثير من الجهد في سبيل تحقيقه، ولم يكن جرياً وراء وهم خلقه فجأة في ذهن الملك الفرنسي بطانته من الفرانسيسكان والدومنيكان، أو شطحة خيالية كما تحاول أن تشيعه العديد من المراجع الغربية، مرددة أن شدة إيمان هذا الملك وتقاه هما اللذان جعلا ذلك الوهم يصبح في ذهنه كأنه حقيقة، ذلك أن الوهم المفاجئ والشطحة الخيالية شيء والهدف المخطط لتحقيقه بدقة وعناية شيء آخر. ثم إن ما يستلفت انتباه الباحث حقاً هو تلك الهالة من التدين والورع والتقى التي تحاول المصادر والمراجع الغربية إضفاءها على هذا الملك، وأنه لمما يؤسف له حقاً أن العديد من المراجع العربية تردد ما تذكره هذه المصادر والمراجع من تلك الصفات آخذة الأمر على علاته دون مناقشته. فهل كان لويس التاسع حقاً يتمتع بهذه الصفات؟ الحقيقة أنه كان صليبياً حقاً وليس فقط مجردمسيحي كما ينبغي للمسيحي المتمسك بمبادئ الديانة المسيحية الصحيحة أن يكون، فالمسيحية الصحيحة كديانة سماوية شيء والصليبية شيء آخر، إن المراجع الغربية الحديثة اعتمدت في إطلاقها هذه الصفات على الملك الفرنسي على سابقاتها من المصادر المسيحية التي جعلت التمسك بالأفكار الصليبية هو مقياس التدين والتقوى لدى المسيحي.

ولويس التاسع في رأينا كان نموذجاً ممتازاً للصليبي وليس للمسيحي المتدين، لقد كان صليبياً متعصباً تعصباً أعمى ضد المسلمين، ولعل لنشأته أثره القوي على ذلك، فكون أمه بلانش (بلانكا) قشتالية، نشأت في ظل المفاهيم الصليبية الإسبانية وتشبعت بها، جعلها تغرس هذا التعصب ضد المسلمين في نفس ابنها منذ الصغر وتربيه على كرههم فضلاً عما أثره فيه البلاط الفرنسي الوثيق الصلة بالبابوية، فنشأ تبعاً لذلك مفعماً بالروح الصليبية، وإذا أدركنا هذه الحقيقة ووعيناها فإنها تقودنا إلى حقيقة أخرى هي أن لويس التاسع كان يحاول بحملته هذه تنصير مسلمي إفريقية بالحسنى أو بالقوة فإن ذلك كان لديه سيان، وكان ابن خلدون في تعليله الآنف الذكر لغزو لويس التاسع لإفريقية من بين المؤرخين المسلمين القلة الذين أدركوا حقيقة هذا الأمر، ولعل فيما قاله برنجفيك في معرض حديثه عن أسباب اتجاه هذا الملك بحملته إلى إفريقية ما يمكن اعتباره دليلاً على صحة رأي ابن خلدون، بالرغم من أن برنجفيك يحوم حول السبب الحقيقي دون الإشارة المباشرة إليه في محاولة يبدو أنها متعمدة كعادته دائماً في كل أمر مشابه من أن السبب في ذلك يعود إلى الأفكار التي كانت

سائدة في تلك الفترة من العصور الوسطى[1]، فهل كان شائعاً في تلك الفترة تجاه الإسلام إلا البغض والحقدوالتعصب والرغبة في الانتقام لما حل بالمسيحية والكنيسة من انحسار إثر انتشار الإسلام على حسابها[2]؟، هذه الأفكار التي جرى تلخيصها كلها في عبارة موجزة شاملة المعنى كانت تلقن للصليبي : عليك (أن تؤمن وتضرب)[3]، وهل على هذا الصليبي إلا أن يضرب المسلمين أينما كانوا؟

لذلك، بدأت تطلعات لويس التاسع لإفريقية والعمل على تنصير سلطانها ومسلميها قبل القيام بحملته تلك بوقت طويل، ويمكننا تبين ذلك من نشاط رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان الكبير فيها[4] قبل الحملة والعلاقة بين هؤلاء والملك الفرنسي واضحة، وأقل ما يقال في ذلك إنه كان يحيط نفسه برهبان هاتين المنظمتين فأثروا فيه تأثيراً كاملاً ومباشراً[5]، ثم ما يعتقده العديد من المؤرخين من أن سفر أندري لونججيميوه (Andre de Longjumeau) إلى إفريقية كان بإيفاد من لويس التاسع والذي كان أندري أحد أتباعه المخلصين وكاتم أسراره وخبيره لشؤون الشرق[6] فضلاً عن أنه كان يشاركه طموحاته الصليبية حيث توجه إليها بعد عودته من المهمة التي أوفده لويس من أجلها إلى قراقورم مقر خاقان التتار، وأقام في تونس في وقت غير معروف بين سنتي ١٢٥٤م - ١٢٦٩م / ٦٥٢هـ - ٦٦٨هـ يمارس نشاطاته التنصيرية[7]، إذ من غير المستبعد أن تكون مهمته الرئيسية نظراً لعلاقته الوثيقة بالملك الفرنسي هي إجراء دراسة شاملة لأوضاع المسلمين فيها لما كان يتمتع به من معرفة واسعة بالمسلمين لصلته الطويلة بهم في بلاد الشام وفارس وإتقانه اللغة العربية، ومن الثابت تاريخياً أنه عاد إلى فرنسا قبل سنة ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ وأنه لم يرافق لويس التاسع

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.57.

(٢) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٧، طاهر راغب حسين : المرجع السابق ص١٩٩.

(٣) M. Talbi : Op. Cit., p.245.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.454.

(٥) انظر : Robert Fawtiez : The Capetian Kings of France, p.31.

وانظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٢٧٦.

(٦) A. N. cl. Hachette : Op. Cit., p.233.

(٧) A. S. Atiya : Op. Cit., p.88., Paul Labal : Op. Cit., p.123.

في الحملة ربما بسبب كبر سنه، ومن المعتقد أنه أطلع الملك على نتائج رحلته التي من الصعب تقدير مدى أهميتها[1] نظراً لقلة المعلومات عنها في المصادر التاريخية ربما بسبب طبيعتها الآنفة الذكر مما كان سبباً في التعتيم عليها. وبالإضافة إلى جهود أندري لونجيميوه وغيره من رهبان الدومنيكان والفرانسيسكان في هذا المجال، كان هنالك راهب آخر يقيم في تونس ويمارس نشاطه التنصيري فيها بكل حرية هو رامون مارتي (Raymond Martin) أستاذ اللغتين العربية والعبرية في دير الدومنيكان بتونس وصديق المستنصر الحفصي[2] كما سيذكر فيما بعد والذي كان على اتصال وثيق بلويس التاسع والذي نظراً لصلته القوية بالعاهلين يعتبر العديد من المؤرخين إصرار لويس على الاتجاه بحملته إلى إفريقية إنما كان بوحي منه[3]، وكل هذه الأدلة لا تشير إلى مدى اهتمام لويس التاسع بتحقيق هدف الحركة الصليبية الديني في إفريقية والمتمثل في تنصير مسلميها وبالتالي إعادتها للمسيحية فحسب، وإنما تشير أيضاً إلى الخطوات العملية التي قام بها في سبيل تحقيق هذا الهدف.

ويزيدنا نانجي Gullaume de Nangis إيضاحاً لهذا التخطيط الذي كان يقوم به لويس التاسع في سبيل الوصول لهذا الهدف بقوله إنه كان هنالك كثير من المحادثات السرية بين ملك فرنسا والسلطان الحفصي تسجل ميل الأخير للتنصر مما جعل الملك الفرنسي يردد في أحيان كثيرة الإعراب عن أمنيته في تحقيق هذا الأمل بقوله : (آه، يا إلهي لو أستطيع أن أنصر عدوك وأبعده عن الكفر ليؤمن بك)[4] ويمضي نانجي في روايته قائلاً إنه كثيراً ما عزم المستنصر على الذهاب إلى كراكسون (Carcassonne) وناربونة (Norbonne) وكأنه ذاهب لزيارة المشاهد المقدسة فيها حتى يتم تعميده هنالك[5]. وإننا إذ نتفق مع نانجي في أنه كانت هنالك جهود مكثفة تبذل في سبيل تنصير السلطان الحفصي عبرت عنها اتصالات عديدة جرت بين هذا السلطان والملك الفرنسي سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، ولكننا نختلف معه في قولة إن هذه

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p.88 - 9.

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠.

(٣) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠.

(٤) Nangis : Op. Cit., XX, 449, See also : Jean Larcena : Op. Cit., p.185.

(٥) Nangis : Ibid, XX, 449.

الاتصالات أظهرت ميل السلطان الحفصي للتنصر، وحقيقة الأمر في اعتقادنا أن القائمين على مشروع تنصير هذا السلطان اعتبروا التسامح الذي كان يتصف به ميلاً منه للتنصر لأن التسامح كان شيئاً غير معروف لدى القائمين على الحركة الصليبية، وكل ما كانوا يعتقدون فيه هو التعصب ضد المسلمين، فكانوا تبعاً لذلك يظنون أن كل تسامح يبدو من مسلم تجاه المسيحية هو ميل منه لاعتناقها، لذلك فإن ما اعتقده نانجي لا يعدو كونه أماني فقط ولا تمت للحقيقة بصلة.

وكان تصرف لويس التاسع مع سفراء المستنصر أثناء الاحتفال بتعميد اليهودي الذي سبق أن أشرنا إليه خطوة عملية أخرى في سبيل تنفيذ هدفه، إذ كان ذلك من قبيل الإعداد النفسي للمستنصر وشعبه لتقبل أفكار لويس التاسع وبالتالي الانصياع لها حينما يصل بحملته إلى إفريقية، لقد قال لهم حسب روايه نانجي : (أخبروا عني سيدكم بأنني شديد الرغبة في إنقاذ روحه حتى لو قضيت بعد ذلك ما بقي لي من عمر في سجون مسلمي إفريقية لا أرى فيها النور مقابل تعميد ملككم ورعيته تعميداً صادقاً كما نصرت هذا اليهودي لفعلت)(١)، فهل يوجد أبلغ من هذا الدليل على الهدف الديني الذي كان الملك الفرنسي يسعى لتحقيقه؟ ثم يتابع روايته التي تلقي مزيداً من الإيضاح على هذا الموضوع حيث يضيف أن لويس التاسع أردف للسفراء قائلاً : (إن لويس يريد للمسيحية أن تزدهر في تلك البلاد الإفريقية خاصة قرطاجة، تلك البلاد التي عرفت المسيحية الازدهار فيها أيام القديس أوغسطين وغيره الذين قاموا على رعاية هذه الديانة، أخبروا ملككم أن القديس لويس يرجو لهذه الديانة التي آتت ثمارها في الماضي أن تزدهر اليوم تعظيماً وتمجيداً لإلهنا! المسيح)(٢)، وبناء على ذلك فإن لويس التاسع لم يقم بحملته تلك لتحقيق هذا الهدف مدفوعاً بحمى هوس تعلق به وحرمه من التخطيط السليم لم يقدر عواقبه كما تشيع بعض المصادر والمراجع الغربية محاولة منها لإيجاد المبررات لما مني به من فشل، وإنما كان يعمل بكل ما أوتي من قوة ووسعه الجهد والتخطيط لتحقيق هدف صليبي لم يبرح مخيلة القائمين على الحركة الصليبية، ويمكننا القول تبعاً لذلك أن تلك الحملة قد قامت على دراسات وافية

---

(١) Nangis : Op. Cit., XX, 449, see also : David O'conell : Op. Cit., p.82 - 3, Paul Guth : Op. Cit., p.237, M. Talbi : Op. Cit., p.250 - 1, Leon Cristiani : Op. Cit., 184 - 5, Jean larcena : Op. Cit., p.185., Albert Garreau : Op. Cit., p.192 - 3.

(٢) Nangis: Ibid, XX, 449.

وإعداد كبير، وقد بنيت خطته على أسس ثابتة وقوية، فبعد مرحلة المسح الشامل لأوضاع المسلمين في إفريقية التي قام بها رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان وبصفة خاصة لونججيميوه ومارتي، ثم مرحلة الإعداد النفسي للمسلمين بما قاله للسفراء، وفي كلتا المرحلتين كانت الجهودمركزة على تنصير السلطان الحفصي، بدأت مرحلة ثالثة في تنفيذ هذه الخطة أيضاً هي العمل على تنصير الشعب نفسه ببث دعاة التنصير بين طبقاته وقد بدأ هذه المرحلة بقوله لبطانته : (بمشيئة الله، لنبحث كيف يمكن نشر الديانة المسيحية في تونس، ومن عسى من الرجال الذين سنرسلهم وعاظاً لينشروا المعتقد)[١]، فكان لويس بذلك ينفذ خطة محكمة، ومما يدعم وجهة نظرنا هذه ما قاله (Girard Walter) : (وكثيراً ما جرى ترديد أن الحملة إلى تونس لا تجد أي مبرر سياسي، ولم تكن سوى تنفيساً عن شطحة دينية عند القديس لويس الذي كان قد اتجه وانتمى إلى عالم الروح، بينما هي في الحقيقة تقوم على أساس من التفكير متين)[٢]، ولا شك أن ما جاء في معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين بهذا الشأن والذي سنتعرض له فيما بعد يعتبر دليلاً آخر على هذا الأمر.

وأما الأهداف السياسية لهذه الحملة فتتمثل في محاولة تمزيق العالم الإسلامي بفصل غربه عن شرقه، وبالتالي انقسام بلاد المسلمين في الشرقين الأدنى والأوسط إلى جيبين يجري الضغط على المسلمين فيهما معاً تمهيداً للقضاء على دينهم في آن واحد، إذ بتمركز المسحيين في إفريقية سواء بتنصير المسلمين من أهلها أو باحتلالها بالقوة العسكرية ينحصر مسلمو الأندلس والمغربين الأدنى والأقصى بين مطرقة المسيحيين الإسبان وسندان المسيحيين في إفريقية خاصة وأن الوضع في تلك المنطقة كان وقتئذٍ مشجعاً للملك الفرنسي نظراً لانهيار دولة الموحدين قبيل قيام الحملة وتمزق المغرب الإسلامي الذي لا نستبعد أن يكون لويس التاسع قد أخذ ذلك الأمر في اعتباره وحاول الاستفادة منه، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية وضع دولة المماليك الفتية في مصر والشام بين فكي كماشة أحد طرفيها صليبيو الشام والقوى الأخرى المناهضة للمسلمين في المنطقة والآخر القاعدة الصليبية الجديدة في

---

(١) Nangis : Op. Cit., XX, 461., Beaulieu : Vita et Sancta Conversatio piae memoriac, Ludovici noni regis Francorum, XX, 23.

(٢) Girard Walter : Saint louis Roi de France. p.124.

إفريقية، ومما يدعم وجهة نظرنا هذه ما يقوله (Albert Garreau) في هذا الموضوع : (فما أراده – لويس التاسع – هو أن ينتصب في قلب البحر الأبيض المتوسط وينصر الدولة الحفصية ولا يكون بذلك قد أفقد مصر سنداً طبيعياً لها وقسم الامبراطورية العربية الممتدة من إسبانيا إلى آسيا الصغرى إلى قسمين فحسب، بل جعل من المستنصر أيضاً حليفاً له ضد بيبرس)[1]. ومتى تمكن من تثبيت أقدامه في إفريقية واتخذها قاعدة له يبدأ منها زحفه شرقاً لاجتياح مصر التي فشل في اجتياحها في المرة السابقة من الشمال، ومما يدعم وجهة نظرنا هذه مايقوله شارل أندري جوليان في هذا الموضوع : (... فقد تحمس الملك عندما تصور أنه في الإمكان أن تصبح إفريقية قاعدة منيعة للمسيحية أو على الأقل منطلقاً للهجوم على بيبرس سلطان مصر الذي أصبح نشاطه ينذر بالخطر)[2]. ولم تخف هذه الحقيقة عن العديد من المؤرخين المسلمين مثل ابن أيبك الدواداري الذي يقول في حوادث سنة ٦٦١هـ : (... وتوجه – لويس التاسع – إلى بلاده بعد إطلاقه، وفي قلبه نار لا تطفأ لما جرى عليه. وأضمر في نفسه العودة إلى الديار المصرية لأخذ ثأره. فجمع جموعاً عظيمة، وأهتم اهتماماً زائداً في مدة سنين إلى هذه السنةعزم على التوجه إلى الديار المصرية. فقال له كبار دولته : «أنت قصدت ديار مصر في الأول، وأنت أخبر بما جرى لك، ومن المصلحة أن تقصد تونس من بلاد إفريقية – وكان ملكها يومئذٍ محمد بن يحيى بن عبد الوهاب – كذا – ويلقب المستنصر – ويدعى له على جميع منابر بلاد إفريقية – فإذا ملكت إفريقية تمكنت من قصدك الديار المصرية براً وبحراً». فرجع إلى قولهم وقصد تونس في عالم عظيم)[3]، ويقول المقريزي أيضاً : (وفيها جمع الفرنسيس ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط، فأشار عليه أصحابه بقصد تونس أولاً، ليسهل أخذ دمياط بعدها، فسار إلى تونس ونازلها)[2].

---

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.191, Jean Larcena : Op. Cit., p.187.
د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٥٨.

(٢) شارل جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠، انظر أيضاً د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٨، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٣٥٧ – ٣٥٨.

(٣) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية) ص١٠١ – ١٠٢.

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٥٠٢.

وبالإضافة إلى ذلك كان للملك هدف آخر بهذه الحملة هو حماية جنوب أوروبا من خطر محتمل من الدولة الحفصية، فانطلاقاً من المبدأ الذي قررناه في مطلع هذه الدراسة من أن كل قوة معادية لأوروبا تتمركز في العدوة الإفريقية تشكل خطراً على العدوة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط والعكس بالعكس، فإن الدولة الحفصية منذ عهد مؤسسها الأمير أبي زكريا الحفصي قد سارت خطى واسعة في سبيل جعل نفسها قوة إسلامية كبيرة في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط لسد الفراغ الذي خلفه انهيار الدولة الموحدية في المنطقة، حتى أصبحت تلك الدولة معقد آمال مسلمي غرب العالم الإسلامي بأسره وموضع تطلعهم الدائم للنصرة، لذلك مد مسلمو الأندلس أيديهم إليها كما سبق أن ذكرنا. وقبل وفاة أبي زكريا كانت قد أصبحت القوة الإسلامية الأولى في الغرب، وبلغت هذه الدولة أوج مجدها وازدهارها في عهد ابنه وخليفته المستنصر[١] الذي اعترف بسيادته كل من بني زيان حكام المغرب الأوسط وبني مرين[٢] القوة الجديدة المتزايدة النفوذ في المغرب الأقصى التي كانت وقتئذٍ في سبيلها للقضاء على الدولة الموحدية المحتضرة، ثم توج ذلك المجد بمبايعة عدة جهات له في المشرق والمغرب بالخلافة[٣] مما جعل الكثير من حكام الدول عصرئذ يبادرون بإقامة علاقات ودية معه، فتبادل مع العديد منهم السفراء والهدايا[٤] فاكتسب بذلك نفوذاً أدبياً كبيراً إلى حد أن السفراء أرسلوا إليه من بلاد بعيدة مثل بلاد كانم والبورنو من قلب القارة الإفريقية سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م[٥]، والنرويج من شمال أوروبا سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م[٦]، وبذلك أصبحت تونس في عهده حاضرة المسلمين في الغرب. وما دامت

---

(١) عن هذا الموضوع انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٦، ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٢ وما بعدها، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٥ وما بعدها.
R. Brunschvig : Op. Cit., Tom. 1, p.49.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٩ و ١٣١، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣، شارل جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٧٩.

(٣) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٢٠، د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص٢٠٣.

(٤) انظر الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٦٢، شارل جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٧٩،
R. Brunschvig : Op. Cit.,, Tom, 1, p.56.

(٥) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٢٠، د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص٢٠٣.

(٦) لمزيد من التفصيل عن هذه السفارة انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom,1, p.50

الدولة الحفصية هي التي ورثت التمسك بالمبادئ الموحدية الأصيلة التي وضع أسسها المهدي بن تومرت بعد أن تنكر خلفاء الموحدين منذ عهد إدريس المأمون لتلك المبادئ مما جعل العديد من المؤرخين يعتبرونها امتداداً للدولة الموحدية، فما المانع في رأي العديد من الناس أن تكون الدولة الحفصية هي الوارثة أيضاً للدولة الموحدية في طموحاتها في جهاد نصارى غرب أوروبا والضغط عليهم واسترجاع ما سلب من بلاد المسلمين في تلك المنطقة؟ سيما وأن الأصوات قد بدأت ترتفع مطالبة المستنصر بالكرة على النصارى والتي كان يزيدها فاعلية التأثير القوي للأندلسيين والصقليين في دولته وبصفة خاصة الأندلسيين الذين كانوا أعيانها وكانوا دائمي التحريض على حرب النصارى لاستعادة بلاد المسلمين التي غلبوا عليها منهم كما سبق أن ذكرنا. وأوضح دليل على ذلك قول حازم القرطاجني الأندلسي من قصيدة يمدح فيها المستنصر:

فالغرب باب فتوحه متفتح   لك، لم يعق عنه سعودك حاجب[1]

ويؤكد ابن خلدون ما ذهبنا إليه بقوله عن المستنصر في حديثه عن ازدهار الدولة الحفصية وما وصلت إليه من قوة في عهد أبيه وعهده، إن دولته كانت (أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية فأمله أهل العلم للكرة وأجفلوا إلى الإمساك بحقويه)[2]، وغير خاف أن المقصود بالكرة هو الكرة على أوروبا، وبناء على ذلك، فإننا لا نعتقد بأن مثل هذا الأمر كان خافياً على القائمين على الحركة الصليبية لتعدد سبل الاتصال وسهولته بين الجانبين، وعلى لويس التاسع بالذات الذي حمل لواء هذه الحركة في عصره، وتبعاً لذلك لا نستبعد أن يكون هدف بحملته تلك إلى اكتساب هذه القوة الفتية إلى جانبه وإن فشل فلا أقل من تحطيمها قبل أن تتعاظم ويزداد خطرها وتشكل متاعب خطيرة لأوروبا الغربية.

يضاف إلى ذلك هدف آخر هو الاستفادة أيضاً من المكانة الرفيعة التي أحرزتها إفريقية وقتئذٍ في غرب العالم الإسلامي، بعد أن أصبحت مقر خلافة يعترف بها ليس معظم مسلمي الغرب فحسب، وإنما بعض مسلمي الشرق أيضاً، فإننا لا نستبعد أن يكون لويس التاسع قد

(١) د. محمد الحبيب بن الخوجة : المرجع السابق ص٨٨.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٦.

اعتقد أنه ببسط نفوذه عليها إن سلماً بالتنصير أو حرباً، فإن من المرجح في نظره أن كل الأقطار التي تعترف بسيادتها أو معظمها على أقل تقدير ستتبعها في تقبل الانصياع للتنصر، ولعل فيما يقوله الدكتور عبد الله العروي ما يعدم وجهة نظرنا هذه، إذ أنه يقول في حديثه عن الخطوة الواسعة التي خطتها إفريقية في عهدي أبي زكريا الأول وابنه المستنصر في سبيل التقدم والازدهار (ولا شك في أن هذه الخطوة هي التي جعلت منها هدفاً لحملة لويس التاسع الصليبية إذ أنه اعتقد أنه بالتغلب عليها أو الحصول على تحولها إلى المسيحية كان سيتغلب دفعة واحدة على الشرق)[1].

ولعل الأهداف الاقتصادية لهذه الحملة لا تقل أهمية عن الأهداف الدينية والسياسية، ذلك أن الازدهار والاستقرار اللذين شهدتهما إفريقية في تلك الآونة كما سبق أن ذكرنا صاحبهما رخاء وانتعاش اقتصادي كبير نشطت فيه حركة التجارة المحلية والخارجية نشاطاً ملحوظاً، وازداد حجم التبادل التجاري بين إفريقية ودول جنوب غرب أوروبا وبصفة خاصة المدن الإيطالية وإقليم بروفانس خاصة مرسيليا ثم مملكة أرغونة زيادة كبيرة، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي كانت تعقدها تلك الدول مع الدولة الحفصية[2]، كما يدل عليه كثرة الفنادق والقيساريات للتجار الأوروبيين التي وجدت في المهدية وسفاقس وقابس وجربة[3] فضلاً عن مدينة تونس ذاتها في تلك الفترة، وما قصة اقتراض اللياني للأموال من تجار بروفانس التي سبق أن تعرضنا لها – إن صحت – إلا دليلاً آخر على ضخامة المصالح التجارية بين الطرفين، فكان هذا الرخاء والنشاط الاقتصادي سبباً في إثارة مطامع الحركة الصليبية بإفريقية للاستئثار بخيراتها والاستحواذ على تجارتها، كما أنه إذا قدر لتلك الحملة النجاح فإن ذلك بحكم موقع إفريقية الجغرافي سيحكم القبضة الصليبية على تجارة البحر الأبيض المتوسط وستتدفق منتجات قلب القارة إلى أوروبا دون عائق أو وسيط، الأمر الذي سيؤدي إلى استغناء أوروبا عن قسم لا بأس به من التجارة الشرقية التي كانت

---

(١) د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص٢٠٣.

(٢) عن هذه المعاهدات انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.50 - 2

(٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٤١.

تتحكم فيها دولة المماليك، لذلك فقد كانت تلك الحملة حملة استعمارية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى حديث كان أحد أهدافها محاولة التوسع والاستعمار[1]. ثم إن مدينة تونس بالذات كانت تثير شهية الصليبيين لما كانوا يسمعونه عن ثرائها ونشاطها التجاري ورقي حضارتها مما جعلهم يحلمون بنهبها، يؤكد ذلك ما قاله (Paul Labal) من أن الملك الفرنسي حينما رأى فتور الناس عن الاشتراك في الحملة حاول لإثارة حماسهم إغراءهم بالفوائد المادية الكبيرة التي سيحصلون عليها فكان بذلك (يشتري الصليبيين)[2] على حد تعبيره بهذه الأمنيات الخلابة. ولذلك سرى التذمر والحنق بين الجنود الصليبيين حينما تم الصلح بين قادتهم وبين المستنصر ولم يسمح لهم بانتهاب تونس كما سيأتي ذكره. يضاف إلى ذلك أن تمركز الصليبيين في إفريقية سيكون له انعكاس قوي على نشاط التجارة للدول المسيحية بعد أن تكون القوى الصليبية قد أحكمت قبضتها على حركة الملاحة وطرق المواصلات البحرية التجارية والعسكرية في البحر الأبيض المتوسط.

وأما الأهداف الاجتماعية للحملة فإنه لما كانت إفريقية تشكو من تخلخل سكاني تواصل منذ منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، وجعل منها منطقة ضغط خفيف، أي قطب جلب بشري لا دفع[3]، وكانت أوروبا الغربية في تلك الآونة تعاني من العديد من الأمراض والآفات الاجتماعية الأمر الذي دفع العديد من أهلها إلى التفكير في الهجرة إما طلباً للقمة العيش أو سعياً لاكتساب الثروة بوسيلة أو بأخرى، أو تبرماً وضيقاً من قيود مفروضة، أو لنيل الحرية، إلى غير ذلك من أسباب، فإن ذلك جعل الكثير منهم يفكر في إفريقية عاقداً عليها آماله لتكون مهجره المحتمل. ولعل قربها الشديد من موطنه في أوروبا، وعدم وجود اختلاف كبير بينها وبين جنوب أوروبا في المناخ والحاصلات الزراعيةالتي كانت في ذلك الوقت قوام الحياة البشرية، ثم سهولة الاتصال بينها وبين أوروبا كل ذلك جعل منها أسباباً مشجعة للتفكير في الهجرة إليها واستغلال مواردها

---

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٧.

(٢) Paul Labal : Op. Cit., p.123.

(٣) د. محمد الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ص٥١.

الكبيرة التي لن تشكو من قلة أو اكتظاظ في السكان، ثم ربطها بأوروبا، وما دامت الآمال كبيرة في إعادتها إلى حظيرة المسيحية فإنها ستكون أفضل بكثير من الشرق بالنسبة لهؤلاء نظراً لما كان يعانيه الصليبيون في ذلك الشرق وقتئذٍ من التهديد وعدم الاستقرار، وما كانت هجرة الإيطاليين إلى ليبيا وهجرة الفرنسيين إلى دول المغرب العربي وبصفة خاصة الجزائر في عصر الاستعمار الحديث وما مارسوه من نشاط استعماري فيها إلا تعبيراً عما كان يفكر أسلافهم في القيام به لو كتب لمحاولاتهم النجاح. ولذلك انضم كثير من أبناء هذه الفئة من الأوروبيين للحملة يحدوهم هذا الأمل.

وبناء على ما تقدم فإن تحقيق هذه الأهداف كان هو السبب الذي جعل لويس التاسع يتجه بتلك الحملة إلى إفريقية، مستغلاً في ذلك، بالإضافة إلى ما تقدم، وضعاً طارئاً هو حدوث قحط ومجاعة أصاباها وتسببا في انتشار وباء فيها مما جعلها أضعف عن مقاومته عن ذي قبل، يقول المقريزي في ذلك إنه (عزم على الحركة إلى تونس من بلاد إفريقية، لما كان فيها من المجاعة والموتان)[1]، ويبقى تساؤل أخير عن هذا الأمر هو، هل إن لويس التاسع باتجاهه إلى تونس قد أصم أذنيه عن استغاثات الصليبيين بالمشرق وضرب بفكرة دعمهم عرض الحائط وبالتالي تناسى هدفاً من أهداف الحركة الصليبية المتمثل في استعادة بيت المقدس خاصة والديار المقدسة بصفة عامة من المسلمين؟ في الحقيقة إن كل هذه الأمور لم تغب عن ذهنه لحظة واحدة، بل إن ذلك كان غايته، ولكنه كان يسعى للوصول إليها بانتهاج أسلوب جديد هو خلق قاعدة ثابتة في إفريقية يكتمل بها المثلث الصليبي العدواني (الشام – قبرص – إفريقية) المواجه لدولة المماليك لإحكام الضغط على تلك الدولة ومن ثم اجتياحها، الأمر الذي سيقضي على المقاومة الإسلامية في المشرق، فهو بذلك حاول تدشين طريق جديد إلى الديار المقدسة تكون إفريقية محطة عليه، جاعلاً من فكرته هذه قدوة احتذاها العديد من أصحاب المشاريع الصليبية في مشاريعهم فيما بعد كما سنذكره.

---

(١) المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٤، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٦، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٦٢ – ٦٣، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص١٣١، محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص٤١.

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ .

[سورة الأحزاب : آية ٢٥]

الفصل الثاني

الصليبيون في قرطاجة

رحيل لويس التاسع من باريس – اجتماع كالياري – نزول الصليبيين في قرطاجة – المستنصر الحفصي ومواجهة الحملة – المقاومة الإسلامية – تفشي الوباء وموت الملك – الملك شارل ومفاوضات الصلح – عقد الصلح وانسحاب الصليبيين

رحيل لويس التاسع من باريس

كانت الأشهر التي سبقت رحيل الملك الفرنسي مكتظة بالأعمال بالنسبة له، فقد كان يشرف على الاستعدادادت الجارية للحملة على قدم وساق ويوجه دعاتها ويزودهم بنصائحه لإثارة حماس شعبه وحميته الدينية لحث أبناء هذا الشعب على مرافقته، ويتابع تنفيذ تعليماته بشأن ضرورة التمسك بالشعائر الدينية وحضور الصلوات والمحافظة على الأمن والنظام في كافة أنحاء المملكة ومعاقبة المجرمين والفساق والمارقين وكل من تسول له نفسه تعكير صفو الأمن، وما أن اقترب موعد الرحيل حتى شرع في تنظيم شؤون أسرته، فزف ابنته بلانش إلى فردناند ملك قشتالة (Ferdenand de Castilla) كما زوج ابنته مارجريت إلى دوق (Brabant)، ثم بدأ في تحرير القسم الأول من وصاياه، فأوصى لابنه الأكبر وولي عهده فيليب بكل ممتلكاته العقارية، ولابنه الثاني حنا الحزين بمنطقة فالوا (Valois)، ولابنه الثالث بطرس (Pierre) بمنطقتي (Percha) و (Alangon)، وأما ابنه الرابع روبير (Robert) وابنته إجني (Agnis) الصغيرين فقد أوصى لهما بمبالغ نقدية كبيرة، وحث فيليب على العناية بإخوته الصغار ورعايتهم، كما أوصى لزوجته الملكة مارجريت التي ستبقى في فرنسا هذه المرة بمبلغ نقدي ضخم هو (٤٠٠٠) قطعة ذهبية، ولم ينس في وصيته تلك منظمات الرهبان، فأوصى لمنظمات الفرانسيسكان والدومنيكان والسسترشيان بجزء من ممتلكاته الخاصة هذا بالإضافة إلى مكتبته الضخمة التي منحها لها ذلك لأن ولي عهده كان في رأيه رجل حرب لا رجل علم، وأخيراً خص الفقراء بمنحه

وعطاياه، وعهد لابنه فيليب بتنفيذ هذه الوصية على أن يساعده في ذلك هيئة مكونة من أسقف باريس (Etienne Tiempiei) وأسقف (Evreux) و (Mathew de Van-dome) رئيس دير القديس دينيس (Saint - Denis) ورئيس منظمة رهبان السسترشيان في (Royaumont) واثنان آخران من أعضاء مجلسه المقربين.

أما شؤون الحكم في المملكة فبالرغم من بقاء زوجته الملكة مارجريت في فرنسا(١)، فإنه عهد بها إلى هيئة مكونة من (Mathew de Vandome) رئيس دير القديس دينيس الآنف الذكر، والكونت سيمون كونت نزل (Simon de Nesle)(٢) وأمر مجلس الملك(٣) باستثناء الأساقفة من أعضائه باستشارتهما في كل صغيرة وكبيرة، وعهد إلى أسقف باريس (Etieme Tiempiei) بشؤون الإيرادات الملكية في المملكة(٤)، وليحلل نفسه من أي ظلم يكون قد أوقعه عماله بالرعية أرسل مندوبين عنه إلى جميع أنحاء مملكته للاستماع إلى ظلامات الشعب والعمل على إزالة أسبابها، وأوصى بتسديد ديونه، وأخيراً حرر اعترافاته(٥)، وفي ١٤ مارس سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ اليوم السابق لرحيله زار دير القديس دينيس يصحبه أبناؤه الثلاثة الذين شاركوا في الحملة وكبار مرافقيه، حيث تسلم من نائب البابا الكاردينال (de Albano) الشارات الصليبية التي كان يتسلمها الصليبي عادةً عند رحيله إلى الديار المقدسة مثل الصليب وعصا الحاج وسواهما. وفي صبيحة اليوم

---

(١) يقول بول غوث (Puth Guth : Op. Cit., p.235) إن لويس التاسع لم يعهد لزوجته بنيابته في الحكم أثناء غيابه لأنه كان لا يثق في مقدرتها على تصريف الأمور وتدبير المملكة لأنها كانت في نظره فلاحة ساذجة مثيرة للغضب.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.190 - 1, Paul Guth : Ibid, p.235., Leon Cristiani : Op. Cit., p.183, Auguste Bailly : Op. Cit., p.130.

(٣) المقصود بالمجلس هو المجلس الإقطاعي للملك (Curia Riges) وكان يتألف في جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين، ينضم إليهم أفصال الملك الإقطاعيين في حالة الشروع في إعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل الهامة، وكان ينقسم إلى عدة لجان مثل الهيئة التي اختصت بالإيرادات الملكية (Chambre des Comples) المنوه عنها أعلاه. انظر د. سعيدعاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص٢٧٥.

(٤) Albert Garreau : Ibid, p.191., Auguste Bailly : Ibid, p.130., Leon Cristiani : Ibid, p.184 - 5.

(٥) Albert Garreau : Ibid, p.191, August Bailly : Ibid, p.130.

التالي مشى حافي القدمين من قصره إلى كاتدرائية نوتردام[١] حيث أدى الصلاة متضرعاً إلى الله لينصره ويحقق مرامه، عاد بعد ذلك إلى قصره ليبيت فيه ليلته الأخيرة ويودع الملكة[٢] الوداع الأخير الذي لم يكن بعده لقاء. وفي صبيحة اليوم التالي غادر باريس متجهاً إلى ميناء (Aignes Mortes) في جنوب البلاد.

اجتماع كالياري :

وصل لويس التاسع إلى الميناء المذكور في أوائل شهر مايو من ذلك العام ليجد أن الجنويين لم يوفوا بوعدهم، فلم يرسلوا أسطولهم في الموعد المحدد، فكانت هذه هي الصعوبة الأولى التي صادفته، فقد أضاع عليه تأخر الجنويين وقتاً ثميناً كان في إمكانه الاستفادة منه في القيام بعمل ما قبل توغل الصيف بحرارته، كما أنه حرمه من السفر إلى الديار المقدسة إذا أراد ذلك[٣]، وكان عليه أن ينتظر قدوم ذلك الأسطول شهرين آخرين قضاهما في زيارة المشاهد المقدسة القريبة، والمعتقد أنه جعل إقامته خلال هذه المدة في (Saint - Gills) مبتعداً بذلك عن Aignes - Mortes التي تحيط بها المستنقعات[٤]. بينما أمضى الجند هذا الانتظار في جو من الكآبة والانفعالات العصبية، فوقع العديد منهم فريسة المرض، كما كثرت بينهم المشاجرات التي كان الملك كثيراً ما يتدخل بنفسه لفضها مثلما حدث إبان النزاع الذي احتدم بين البروفانسيين والقطلان[٥]، فكان ذلك كله نذيراً بالمتاعب التي ستصادفها الحملة بعد ذلك مما كان له بلا شك أثر سيئ على نفسيات الجند وروحهم المعنوية، حتى إن (Albert Garreau) لا يستبعد أن يكون ذلك سبباً من أسباب فشل الحملة[٦]. وأخيراً، وصلت السفن الجنوية إلى منياء (Aignes - Mortes) في أواخر يونيو سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ فاستقلها الجند لا كما ينبغي من النظام وإنما في فوضى واضحة واستغرق شحن

(١) لا زالت لغاية وقتنا الحاضر تقام مسيرة تذكارية في باريس مشابهة لهذه المسيرة في مثل هذا اليوم من كل عام.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.192., Jean Larcena : Op. Cit., p.183 - 4., Leon Cristiani : Op. cit., p.185 - 6.

(٣) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.515.

(٤) Leon Cristiani : Ibid, p.187, Albert Garreau : Ibid, p.192. M. Talbi : Op. Cit., p.249.

(٥) Albert Garreau : Ibid,p.192

(٦) Albert Garreau : Ibid, p.192

السفن بالخيول والمؤن والمعدات بضعة أيام نفد فيها صبر الجند وزاد في حنقهم. وفي يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو سنة ١٢٧٠م ركب الملك سفينته بعد أن خطب في الجند خطبة حثهم فيها على نصرة دينهم والزهد في الحياة الدنيوية من أجل ذلك. وفي اليوم التالي أقلع الأسطول متجهاً إلى ميناء كالياري (Cagliari) بجزيرة سردينيا، حيث كان على السفن التي ستقلع من مرسيليا ببقية الجيش أن تلحق به إلى ذلك الميناء، وبعد إبحار شاق تسبب فيه هبوب عاصفة بحرية على الأسطول في خليج ليون شتتت سفنه، بدأت تلك السفن في الوصول إلى مياه كالياري في يوم الثلاثاء الثامن من الشهر نفسه(١).

كانت جزيرة سردينيا وقتئذٍ تابعة لمدينة بيزا التي كانت في حالة عداء مع جنوة صاحبة ذلك الأسطول، لذلك ما إن رأى أهل كالياري السفن الجنوية قادمة نحو بلدهم حتى ظنوا الظنون ورفضوا السماح لها بدخول الميناء الأمر الذي استفز الفرسان الشبان المشاركين في الحملة فجعلهم يطالبون بسحق تلك المدينة وتخريبها لأنها بدت على حد تعبيرهم أتعس مدينة وألعن موقع شاهدوه، ولكن الملك الفرنسي تذرع بالصبر وفضل مفاوضتهم كراهية منه لسفك دماء المسيحيين(٢)، ويحدثنا (Pierre de Condet) الذي كان مرافقاً للملك في رسالته الأولى الموجهة إلى مقدم دير أرجنتيل (Au prieur de l' Abbaye d' Argen-teuil) عن استقبال أهالي كالياري للحملة فيقول : (... وإني أحب أن أخبرك بأن الملك بعد أن أقلع وعانى من مشاق البحر، وصل ميناء كالياري يوم الثلاثاء التالي، وأرسل مقدم الأسطول إلى المشرف على مراقبة الميناء وبعض الشخصيات الأخرى في البلد يطلب السماح له بدخول الميناء ولكن هؤلاء رفضوا بعناد شديد، كانوا مغالين في عنادهم لأنهم كانوا يخشون على أنفسهم من دخول الجنويين إلى الميناء، ولم يزودوا الجيش إلا بقليل من الماء العذب وبعض الفواكه والخبز، وفي صباح اليوم التالي أرسل إليهم الملك مقدم الأسطول من جديد ومعه عدد من الضباط وبعض المقربين إليه ليطمئنهم ويزيل خوفهم، وبعد أن نجح هؤلاء في إلانة موقفهم وقضوا على مخاوفهم طلبوا منهم السماح لنا بإنزال مرضانا –

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.221, Albert Garreau : Op. Cit., 193., M. Talbi : Op. Cit., p.249, Auguste Bailly : Op. Cit., p.131.

(٢) Albert Garreau : Ibid, p.193.

وكانوا كثيرين – إلى البر لمعالجتهم والعناية بهم حتى يشفوا، فأجابوا أخيراً بأنهم يرغبون في دخول الملك وأقربائه وحاشيته إلى المدينة شريطة أن يحميهم من أعدائهم الجنويين إذا فكروا في إصابتهم بمكروه لأنهم لم يكونوا يخشون سواهم...)[١]، وإثر هذا الاتفاق أمر الملك بنزول المرضى من السفن إلى البر، وعهد إلى بعض رجاله منهم (Gullaume Breton) و (Jean d' Aubergenville) بمساعدتهم وحمايتهم والسهر على راحتهم وعلاجهم، حيث مات بعضهم فيما بعد في حين ظل الباقي وكانوا حوالي المائة على قيد الحياة كان من بينهم فيليب (Philippe) شقيق كونت (Vendome) و (Jean de Corbeil)[٢] لحقوا بالحملة فيما بعد.

أما الملك فقد رفض النزول إلى البر وبقي في سفينته في انتظار وصول السفن القادمة من مرسيليا، وفي يوم الجمعة ١١ يوليو لحق به ملك نفارة وكونت فلاندرز وسواهما بهذه القطع وبذلك تكاملتسفن الحملة، وفي صباح اليوم التالي السبت ١٢ يوليو بادر الملك إلى عقد مجلس حربي ضم كبار المشاركين في الحملة وكبار العسكريين والمستشارين للتباحث في أمور الحملة، وقد دام هذا الاجتماع يومي السبت والأحد ١٢ و ١٣ يوليو ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ[٣]، وتصمت المصادر التاريخية عن التعرض لذكر ما دار في ذلك الاجتماع من مناقشات، ومما يستلفت انتباه الباحث حقاً هو ما تشيعه العديد من المراجع الغربية[٤]، من أن قرار الاتجاه بالحملة إلى إفريقية قد اتخذ في ذلك الاجتماع، وفي اعتقادنا أن هذا القول الذي يبدو أنه قصد به إضفاء صفة العفوية على مسيرة الحملة لتبرير فشلها لا يقبله عقل ويتنافى مع المنطق وفيه تجن كبير على الحقيقة التاريخية، ذلك أن قرار الاتجاه إلى إفريقية كان قد اتخذ قبل ذلك الوقت بمدة طويلة، ويمكن استشفاف ما يؤيد هذا الرأي مما يقوله برنجفيك بطريقته الملتوية المعهودة

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.221 - 222.

(٢) Pierre de Condet: Ibid, p.222.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.222, Leon Cristiani : Op. Cit., p.188.

(٤) انظر على سبيل المثال :
Albert Garreau : Op. Cit., p.193 - 4., Leon Cristiani : Ibid, p.187 - 8., Paul Labal : Op. Cit., p.123.

التي يتعمد فيها على ما يبدو إلقاء ستار من الغموض والريبة على الأمور، حيث يعتقد أن تجمع الجيوش في كالياري وموافقة الحضور الإجماعية بما فيهم نائب البابا الكاردينال (Rodolphe de Albano) على قصد إفريقية يعتبر دليلاً على أن لويس كان قد فكر في غزو إفريقية قبل ذلك التاريخ[1] فهو واضح في دليله الأول غامض في دليله الثاني إذ أنه يكرس فيه فكرة بحث هذا الموضوع وموافقة الحضور عليه، وكان (K. M. Setton) أكثر منه وضوحاً في هذا الموضوع إذ يقول إن قرار الاتجاه إلى إفريقية كان قد اتخذ قبل إقلاع الحملة في صيف سنة ١٢٧٠ بكل تأكيد، وكون كالياري مركز التجمع يؤكد ذلك لأن جزيرة سردينيا ليست على الطريق إلى المشرق، ثم إن لويس التاسع لم يكن يتخذ قراراً هاماً كهذا بشكل ارتجالي، لذلك فإنه من الصعب التصديق بأنه لم يتخذ قراره في الاتجاه إلى إفريقية إلا في ذلك الوقت أو في ربيع سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ بل يجب أن يكون قد اتخذ قراره ذلك في أواخر سنة ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ أو أوائل سنة ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ[2] ويعود بعد ذلك إلى القول بأن الذي حدث في كالياري هو إعلان ذلك القرار على الجند والبحارة[3].

والحقيقة كما نراها أن هنالك دليلاً واضحاً في أن لويس التاسع كان قد اتخذ قراره ذلك قبل اجتماع كالياري بزمن طويل، بل وإن المشاركين في الحملة كانوا يعلمون بهذا الأمر، والدليل الذي يقطع الشك باليقين هو سفارة المستنصر الحفصي التي أرسلها إلى لويس التاسع، إذ كيف يعلم المستنصر بعزم لويس التاسع على غزو إفريقية ويرسل له سفارة لمفاوضته ومحاولة استرضائه لثنيه عن عزمه تقابله في أوائل أكتوبر سنة ١٢٦٩م / صفر سنة ٦٦٨هـ كما ذكرنا، أي قبل اجتماع كالياري بأكثر من عشرة أشهر دون أن يكون الملك الفرنسي قد اتخذ قراره بعد؟ وكيف تفشل مفاوضاتهم معه في أمر لم يعقد العزم عليه بعد؟ لقد كانت المصادر التاريخية الإسلامية دقيقة وواضحة حول هذا الموضوع وضوحاً لا يدع أي مجال للشك أو الاجتهاد، فلا اجتهاد مع النص، فالعودة لتلك الروايات التي سبق أن

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p. 56.

(٢) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.511 - 512.

(٣) K. M. Setton : Ibid, vol,. 2, p.515.

تعرضنا لها تؤكد صحة ما ذهبنا إليه، مثل قول ابن خلدون عن عودة السفراء إلى تونس من بلاط الملك الفرنسي : (فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم)[1]، وقول ابن الشماع : (فطلب منه – أي من لويس التاسع – السلطان المهادنة، فامتنع من ذلك، وأغلظ للرسول، وعرفه أنه متوجه إليه)[2]، ثم إن إغفال رسالة (Pierre de Condet) الآنفة الذكر لهذا الموضوع مع أنها تعرضت لمواضيع أقل منه في الأهمية يعتبر دليلاً آخر على صحة ما ذهبنا إليه، ولو لم يكن ذلك أمراً مفروغاً منه لما أغفلته، وأما عن موعد اتخاذ ذلك القرار، فإنه ما دام السفراء قد وصلوا إلى بلاط لويس التاسع في أول أكتوبر سنة ١٢٦٩م / صفر ٦٦٨هـ فلا بد أن يكون المستنصر قد علم بعزم لويس قبل ذلك التاريخ بفترة طويلة لا تقل عن الخمسة أشهر وهي المدة اللازمة له لدراسة هذه المعلومات والتباحث مع مستشاريه واتخاذ قرار إرسال السفارة ثم إعداد الهدايا والمدة التي احتاجتها السفارة لقطع المسافة الطويلة بين تونس وباريس، وبالتالي كان لا بد أن يكون القرار قد اتخذ قبل ربيع سنة ١٢٦٩م موعد انفتاح سبل السفر البحري بين البلدين الذي فيه فقط يجري تناقل الأخبار، وبذلك لا نستبعد أن يكون ما قاله (K. M. Setton) من أن ذلك القرار قد اتخذ في أواخر سنة ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ أو أوائل سنة ١٢٦٩م هو الأقرب إلى الصواب. وأما بالنسبة لمعرفة المشاركين في الحملة به، فإنه لا يعقل أن يكون مسلمو إفريقية قد عرفوا به وخفي عن هؤلاء، خاصة أن ما قيل لسفراء المستنصر – وكانت العادة أن يتم استقبالهم في ملأ من الناس – كان علنياً، يضاف إلى ذلك أن لويس التاسع كان يمني أبناء الشعب الفرنسي بنهب مدينة تونس في محاولة منه لإغرائهم للمشاركة في الحملة كما سبق أن ذكرنا، مما يجعل كلا الأمرين ينفي أي شك في أن الجند لم يكونوا على علم بوجهة الحملة ولربما كان الوحيدون الذين جهلوا هذا الأمر هم البحارة الجنوية نظراً لأن اتفاقية استئجار الأسطول لم تحدد وجهة السفر حرصاً من الملك الفرنسي على التعتيم على مقاصده الحقيقية عند عقدها

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢.

(٢) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٦، انظر كذلك الوزير السراج. المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.

في تلك المرحلة المبكرة من مراحل إعداد الحملة.

لذلك فإننا نعتقد أن ما دار بحثه في اجتماع كالياري قد اقتصر على مناقشة الخطة العسكرية للهجوم ووضع اللمسات الأخيرة عليها، وليس لبحث اتجاه الحملة، وعلى أية حال فبعد انقضاء ذلك الاجتماع بيومين أي في يوم الثلاثاء ١٥ يوليو سنة ١٢٧٠ أقلع لويس بجموعه قاصداً إفريقية بعد إقامة في كالياري دامت ثمانية أيام وجد لديه فيها وقتاً طويلاً للتعبد والتأمل وكتابة القسم الثاني من وصاياه وتوجيهاته لابنه فيليب ولي عهده والتي عهدبها لقسيس اعترافه (Geoffroy de Baulieu)[١].

نزول الصليبيين في قرطاجة :

وبعد يومين من الإبحار وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٧ يوليو سنة ١٢٧٠م، ظهر الأسطول الصليبي أمام قرطاجة[٢] ولا تختلف الروايات المسيحية عن الروايات الإسلامية كثيراً في تحديد تاريخ وصول الحملة، فرسالة (Piere de Condet) الأولى التي تعتبر هي ورسائله الأخرى من أهم المصادر المسيحية لحوادث الحملة نظراً لكونه شاهدعيان لها وللمنصب الكبير الذي كان يشغله ولدقته في تفصيل العديد من تلك الحوادث في رسائله التي كانت عبارة عن تقارير ترسل أولاً بأول إلى فرنسا من قرطاجة، تقول إن السفن الصليبية ألقت مراسيها قبالة قرطاجة في الساعة التاسعة من يوم الخميس ١٧ يوليو ١٢٧٠م[٣]، أما روايات المصادر الإسلامية عن هذا الموضوع فتتوافق تقريباً مع هذا

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الوصايا انظر : Leon Cristiani : Op. Cit., p.187. Albert Garreau : Op. Cit., p.193, Jean Larcena : Op. Cit., p.188 - 90.,

(٢) Jean Larcena : Ibid,p.189, Pierre de Condet : Op. Cit., p.222, Leon Cristiani : Ibid, p.188. أما برنجفيك (R. Brnschvig : Op. Cit., Tom 1., p.58) ويؤيده في ذلك (K. M. Setton : Ibid, V. 2, 516) فيذكر أن وصول الصليبيين كان في يوم ١٨ يوليو ١٢٧٠ ولكن الأصح اعتماداً على رواية (Pierre de Condet) هو ما ذكرناه في المتن أعلاه.

(٣) Pierre de condet ; Ibid, p.222.
وهذا التوقيت طبقاً للتوقيت الإفرنجي القديم الذي كان اليوم يبدأ فيه ببزوغ الشمس في الساعة الواحدة وبذلك يقابل الساعة الثالثة بعد الظهر بالتوقيت الإفرنجي الحالي.

التاريخ وإن اختلفت في بعض التفاصيل، فابن خلدون[١] والمقريزي[٢] وابن أبي دينار[٣]، وحمودة بن عبد العزيز[٤] يذكرون أن ذلك كان في آخر ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ، وأما ابن الشماع[٥] ويؤيده في قوله الوزير السراج[٦] فقد حدد ذلك بيوم ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ، وأما ابن القنفذ فكان أكثر تحديداً إذ يقول إن وصول الصليبيين كان في صلاة الظهر يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ[٧] ويقول ابن أبي زرع أن وصولهم كان بعد صلاة العصر يوم الأربعاء وليلة الخميس الخامس والعشرين لذي الحجة من سنة ثمان وستين وستمائة[٨]، وبمطابقة التاريخ الميلادي على التاريخ الهجري يتبين أن يوم ١٧ يوليو سنة ١٢٧٠م يوافق يوم ٢٦ أو ٢٧ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ على احتمال أن أحد شهري ذي القعدة وذي الحجة كان في ذلك العام ٢٩ يوماً وليس ٣٠[٩]، وبما أن كلاً من ابن الشماع والوزير السراج يحددانه بيوم ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ فتكون روايتهما أدق من الروايات الإسلامية الأخرى، إلا إذا أخذ في الاعتبار ما نعتقده من الخطأ الذي حدث في رواية ابن

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢.

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٥.

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.

(٤) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٥) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٢.

(٧) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣١.
ونعتقد أن الخطأ في اسم الشهر جاء من ناسخ النسخة التي اعتمد عليها المحققان في تحقيق هذا الكتاب، فذكر ذي الحجة خطأ بدلاً من ذي القعدة إذ من الصعب أن يخطئ ابن القنفذ في الشهر بعد أن حدد اليوم والساعة اللذين يتفقان مع ما ذكره (Pierre de Condet) إذا أخذنا في الاعتبار أن صلاة الظهر تقام في معظم مساجد المغرب العربي والجمهورية التونسية بالذات قبيل صلاة العصر بحيث لا تزيد المدة الفاصلة بينهما عن نصف ساعة تقريباً فقط، وللمغاربة في ذلك أسانيدهم الشرعية، ودليلنا على ذلك أن محققي الكتاب ذكرا في حاشية (صفحة ١٣١) أن ثلاث نسخ من مخطوط الفارسية قد ذكرت اسم الشهر ذي القعدة.

(٨) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص٤٠٣ — ٤٠٤.

(٩) تم احتساب ذلك اعتماداً على جدول مقارنة السنوات الهجرية بالميلادية الملحق بكتاب زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج٢ ص٥٢٣.

القنفذ المبين في الحاشية (٧) في الصفحة السابقة، وفي هذه الحالة تكون روايته هي أصح الروايات الإسلامية لمطابقتها لرواية (Pierre de Condet) الآنفة الذكر حتى في تحديد ساعة الوصول، وإلا كان ما ذكره هو وابن أبي زرع أبعد الروايات الإسلامية عن الواقع.

لم يكن نزول الصليبيين من سفنهم دفعة واحدة بل على دفعات، وقد اختلفت الروايات الإسلامية والمسيحية في تقدير عددهم، فبينما تذكر بعض الروايات المسيحية أنهم كانوا مائة ألف مقاتل ووصلت روايات مسيحية أخرى بعددهم إلى مائتي ألف مقاتل(١)، يرى بعض الكتاب الغربيين المحدثين أنه بإغفال عدد الخدم وأتباع الملك في الحملة فإن عدد المقاتلين لا يتعدى العشرة آلاف(٢)، أما الروايات الإسلامية، فيرى كل من ابن خلدون(٣) والمقريزي(٤) مثلاً أنهم كانوا ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل أقلتهم ثلاثمائة سفينة مختلفة الأنواع والأحجام، في حين يقول ابن أبي زرع إنهم كانوا أربعين ألف فارس ومائة ألف رامٍ ومائة ألف راجل(٥)، وبعد استبعاد رواية ابن أبي زرع التي تظهر فيها المبالغة بوضوح، نرى أن الروايات الإسلامية كروايتي ابن خلدون والمقريزي الآنفتي الذكر هي الأقرب إلى الصحة. وتوضح رسالة (pierre de Condet) الأولى الأعمال التي قام بها الصليبيون خلال الأسبوع الذي يبدأ من يوم الخميس ١٧ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ يوم وصول الحملة إلى يوم الخميس الذي تلاه ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ الذي هو يوم استيلاء الصليبيين على خرائب قرطاجة وتمركزهم فيها بتفصيل كبير أغفلت المصادر الإسلامية مجرد الإشارة إليه ولو إشارة عابرة، فيقول : Pierre de Condet في تلك الرسالة إن الملك أمر مقدم الأسطول بالتقدم لارتياد مكان النزول، وبالفعل اتجه المذكور ببعض القوات إلى مرسى قريب من هضبة قرطاجة المسماة

---

(١) Leon Cristiani : Op. Cit., p.187

(٢) Leon Cristiani : Ibid, p.187. K. M. Setton : Op. Cit., V. 2, p.515

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢ – ٢٩٣، انظر كذلك الباجي المسعودي : المصدرالسابق ص٦٣.

(٤) المقريزي : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٣٦٥.

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص٤٠٤.

حالياً بهضبة بيرصا، واستولى عليه ونزل إلى البر دون مقاومة(١)، وقد وجد في ذلك المرسى بعض السفن التجارية الصغيرة فاستولى عليها، وحينما علم الملك فيما بعد أنها تخص بعض تجار النصارى سلمها لأصحابها(٢)، وكان بعض الجند المسلمين يقفون بين حين وآخر على الرابية المشرفة يراقبون الصليبيين دون أن يحاولوا الاقتراب منهم ثم يختفون، وعندما أرسل مقدم الأسطول للملك يخبره بالاستيلاء على المرسى وما شاهده من تصرفات المسلمين ويطلب منه قوة إضافية لتعزيز الموقع ونجدته عند الحاجة إذا ما هاجمه المسلمون(٣) دهش وظن أن في الأمر مكيدة، فعقد مجلس حربه للتباحث في الأمر، وبعد مناقشات طويلة تنازع الحضور فيها رأيين أحدهما يقضي بضرورة الاستجابة لمطلب مقدم الأسطول، في حين كانت خلاصة الآخر أنه إذا كان في الأمر مكيدة فإن هذه الطريقة في النزول إلى البر غير مجدية، وقد وجه (De Pressigny) الذي كان من أصحاب هذا الرأي كلامه إلى الملك قائلاً : (إذا أردت أيها الملك أن ينزل كل منا كما يستطيع أن يفعل، فاترك إذن كل فرد منا ينزل حيث يشاء)(٤)، قرر الملك أخيراً الأخذ بالرأي الأول فأرسل (Philippe d' Evreux) وأحد قادة الأسطول تصحبهما القوات اللازمة لدعم قوة مقدم الأسطول، كما كلفهما بالإضافة إلى ذلك دراسة الوضع فإن وجداه مناسباً نزل الجيش ليلاً، وإن تعرضت قواتهما للهجوم انسحب الجميع عائدين إلى السفن(٥)، فذلك متروك لتقديرهما، وما أن انبلج صباح يوم الجمعة حتى بدأ الصليبيون يشاهدون القوات الإسلامية تأخذ مواقعها حول الميناء الأمر الذي جعل الملك يعقد اجتماعاً آخر قرر فيه المجتمعون قبول التحدي والنزول إلى البر، فبدأت سفينة الملك تسير نحو الميناء تتبعها سفن الأسطول الأخرى، وبمجرد رسوها فيه بدأ الصليبيون في مغادرتها إلى البر، أما القوات الإسلامية التي تواجدت في المنطقة فيبدو أنها كانت في مهمة مراقبة فقط ولم يكن هدفها الاشتباك مع العدو كما سيأتي ذكره، وإن كان

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.222

(٢) Paul Guth : Op. Cit., p.237., M. Talbi : Op. Cit., p.252.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.222., Albert Garreau : Op. Cit. p.193.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.222 - 3, Auguste. Bailly : Op. Cit., p.132.

(٥) Pierre de Condet : Ibid, p.223.

لم يخل الأمر من بعض المناوشات بين الطرفين إذ يقول (Pierre de Condet) : (وبلغنا الأرض بعون الله، ولكن النزول كان فوضوياً إلى حد أن حوالي مائة مقاتل مسلم حالوا دون إتمام عملية النزول بنظام ويسر، ومع ذلك فلم تجد جيوشنا مقاومة تذكر)(١).

وكان نزول الصليبيين في لسان من الأرض ممتد في البحر يصفه (Pierre de Condet) بأنه شبه جزيرة طولها حوالي (٤) كيلومترات وعرضها ثلاث غلوات سهم يحيط بها الماء من جهتين ويخترقها طريقان وتبعد عن حصن قرطاجة حوالي (٥) كيلومترات، حيث نصبوا خيامهم بها(٢)، أما الآبي فيقول إن نزولهم كان بالموقع المسمى بالمنصف(٣)، ولكن ذلك الموقع بالرغم من حصانته كان خلواً من الماء العذب، فبدا لهم تبعاً لذلك أنه غير صالح للإقامة إذ يقول (Pierre de Condet) في ذلك : (وبدأنا نشعر بقلق وانزعاج أشد مما كنا نشعر به ونحن في عرض البحر)(٤)، الأمر الذي دفعهم إلى التفكير في التحول عنه إلى مكان آخر، لذلك، تقدمت بعض القوات الصليبية في صباح يوم السبت ١٩ يوليو ١٢٧٠م / ٢٨ ذي القعدة ٦٦٨هـ نحو ربوة قريبة يقوم عليها حصن صغير بغية احتلالها، فتصدى لهم بعض جند المسلمين واشتبكوا معه، ولكن القوات الصليبية تمكنت من دحرهم واحتلال الحصن حيث وجدت به بضع خزانات مليئة بالمياه، ولكن سرعان ما تجمعت القوات الإسلامية حول ذلك الحصن وكادت تحصر الصليبيين بداخله، فهب الملك الذي كان يراقب الموقف من معسكره لإنجادهم بقوات إضافية قادها (Lancelot) و(Radulphe de Trapani) (وكان من الممكن أن يتبعهم فرسان كثيرون لو كان تم إنزال كافة الخيول من السفن إلى الأرض التونسية، ولو لم يكن التعب والنصب قد أخذ من البعض مأخذاً شديداً)(٥)، ولم يمهل المسلمون الصليبيين حتى يتصلوا بأصحابهم فبادروا إلى الاشتباك معهم نضحاً بالنبال التي كانوا أكثر ما يصوبونها نحو خيولهم لقتلها وهدفهم من ذلك شل

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.223, M. Talbi : Op. Cit., p.251, K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516. Leon Cristiani : Op. Cit., p.188

(٢) Pierre de Condet : Ibid, p.223.

(٣) انظر محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص٤١ حاشية ١.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.223.

(٥) Pierre de Condet : Ibid, p.223.

حركة الفرسان الذين كانوا دائماً عماد قوة الجيوش الصليبية في الشرق والغرب على حد سواء، وعنصر الصدام فيها، لذلك كان المسلمون في معاركهم التي كانوا يخوضونها ضد تلك الجيوش أكثر ما يأخذون في حسبانهم هو إبطال فاعلية هذه القوة[1] وهذا ما حدث في هذه المعركة حينما لجأ المسلمون لهذه الحيلة الذكية للتخلص من خطر الفرسان، يقول (Pierre de Condet) في ذلك: (وحدث في هذا اليوم قتال شديد بين جيوشنا وجيوش المسلمين.لقد كانوا ينضحوننا بالنبال يرمون بها فارين أو كارين، وكانوا يصيبون بها الخيل لا الفرسان، ومع أنهم قتلوا العديد من المشاة إلا أن الطرفين لم يفقدا الكثير من المقاتلين، وتم إنقاذ المحصورين في الحصن وأعيدوا إلى المعسكر)[2]، وهكذا فشل هذا الهجوم. ولما كان اليوم التالي هو يوم أحد ويوافق ٢٠ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٢٩ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ خلد الصليبيون إلى الراحة فلم يخرجوا للقتال.

وفي صباح يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٣٠ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ خرجت القوات الصليبية بأعداد كبيرة لمهاجمة ذلك الحصن من جديد ونجحت في إزاحة المسلمين عن الربوة واحتلالها ونصبت خيامها في الفج الواسع حولها حيث تعددت آبار المياه الصالحة للشرب فيها[3]، ولكن مقدم الأسطول وربابنة السفن وبعض قواد الجند بينوا للملك في اجتماعهم به في اليوم التالي الثلاثاء ٢٢ يوليو سنة ١٢٧٠م / ١ ذي الحجة ٦٦٨هـ أن حصانة ذلك الموقع ليست بالمستوى المطلوب، وأن الأفضل منه هو الربوة القريبة التي كانت تقوم عليها مدينة قرطاجة في السابق[4]. وتمثل ربوة قرطاجة (بيرصا) موقعاً حصيناً بالفعل

---

(١) كانت الدول المتعاقبة في المغرب العربي تشعر بما تتميز به جيوش النصارى عن جيوشها بقوة الفرسان ذات التسليح الثقيل، فعملت على تعويض ذلك بفرق من فرسان النصارى ألحقتها بجيوشها، وكان أول من استخدمهم هو علي بن يوسف بن تاشفين، سلطان المرابطين، وسار حكام المغرب العربي بعده على سنته، ولكن هؤلاء الفرسان لم يكونوا يشتركون في الحروب ضد الصليبيين، وإنما كانت مهمتهم تنحصر في الاشتراك في الحروب التي كانت تنشب بين المسلمين بعضهم ببعض، أو يؤلفون الحرس الشخصي للسلطان.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.223 - 4.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.224.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.224.

فهي تواجه مدينة تونس ولا يفصل بينهما إلا البحيرة من ناحية وتطل على البطاح الممتدة على شاطئ البحيرة بحيث يسهل منها مراقبة تحركات المسلمين في تلك البطاح والروابي القليلة الارتفاع المحاذية لها من ناحية ثانية، وليست بعيدة عن البحر مما كان يتيح للمقيم بها الاتصال بالخارج بسهولة من ناحية ثالثة، وعلاوة على ذلك تتوفر فيها المياه الصالحة للشرب من الآبار والخزانات التي كان منها القديم قدم المدينة ذاتها ومنها المستحدث، وكانت المدينة في ذلك الوقت خرائب مائلة الجدران باستثناء حصن كبير تمركزت فيه بعض القوات الإسلامية، وصفه صاحب كتاب الاستبصار بقوله : (وليس يسكن منها - قرطاجة - الآن إلا قصر واحد يسمى بالمعلقة وبناؤه من أغرب ما يكون من البناء، مفرط العظم والعلو، أقباء معقودة بعضها فوق بعض طبقات كثيرة، مطل على البحر، وهو حصن عظيم[1])، وأبدوا استعدادهم للاستيلاء على ذلك الحصن إذا أمدهم الملك بالقوات اللازمة فوافقهم على اقتراحهم. وفي يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ زحفت أربع فرق صليبية يتقدمها كل من (Ceux de Carcassone) و (De Chalons) و (De Peri-gord) و (De Beaucaire) ناحية الحصن وسار الملك في إثرها بسبعة عشر فرقة أخرى، فتصدى المسلمون لهم على قلتهم في ذلك الموقع بالنسبة للمهاجمين، واشتبكوا مع فرق الطليعة، ولكن هؤلاء كاثروهم وتسلقوا أسوار الحصن ودخلوه على حاميته[2] التي كانت تقدر بحوالي مائتي جندي، وذهل المسلمون الآخرون وكأنهم أصيبوا بالجمود، فلم يهبوا لنجدة إخوانهم في الحصن، فقتل من هؤلاء من قتل، وتمكن البعض من الفرار، واختفى الباقون في سراديب الحصن وأقبائه، أما خسائر الصليبيين فكانت طفيفة حصرها (Pierre de Condet) في مقتل أحد القواد[3]، وبعد سقوط ذلك الحصن في يد الصليبيين بدأوا في العمل على تطهيره من المسلمين المختفين في الأقباء والسراديب فقتلوا كل من عثروا عليه منهم دون أن يعنوا أنفسهم بأخذ أسير واحد منهم ثم أضرموا النار في تلك السراديب

---

(١) مجهول : كتاب الاستبصار، ص١٢٢، انظر كذلك الإدريسي : المصدر السابق ص٨٢.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.224, Paul Guth : Op. Cit., p.238, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1.p.58 - 9, Leon Cristiani : Op. Cit., p.188.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.224.

لإحراق باقي المختفين أحياء، فاحترق منهم من احترق ومات الباقون اختناقاً بالدخان(1)، كل ذلك جرى بأمر الملك القديس الورع الشديد التدين وعلى مرأى منه!!! وبعد أن تم له ما أراد من سفك دم هؤلاء المسلمين بتلك الطريقة الوحشية، لم يستطع البقاء في الحصن لأن رائحة الجثث كانت تزكم أنفه فنصب خيمته في العراء، يقول (Pierre de Condet) في ذلك : (ولو لم تكن رائحة الجثث النتنة تملأ أرجاء الحصن لاتخذه الملك مقراً لإقامته)(2)، وضرب الجيش خيامه حول خيمة الملك، أما الحصن فبعد تنظيفه من الجثث اتخذ مقراً للنساء اللواتي كن يصحبن الحملة ومستشفى لعلاج المرضى والجرحى(3)، وشرع الصليبيون بعد ذلك في تحصين معسكرهم فوصلوا (ما فصله الخراب من أسوارها – أي قرطاجة – بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى وتحصنوا)(4).

المستنصر الحفصي ومواجهة الحملة :

أيقن المستنصر حينما عاد سفراؤه من بلاط لويس التاسع بفشل مسعاه السلمي، ويبدو أن هؤلاء السفراء زودوه بمعلومات هامة عن الحملة وأن مدينة تونس بالذات هي هدفها بدليل أنه ركز جهوده في الدفاع عنها، وربما كان يعلم ـ أو أدرك ذلك بحدسه – مسبقاً بمكان نزول الصليبيين، وإلا فما معنى قول ابن خلدون حين تعرضه لتحصن الصليبيين بقرطاجة (وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها)(5)؟ لهذا لم يجد بداً حيال ذلك من بذل كافة جهوده في الاستعداد، فاستنفر أهل إفريقية للجهاد (وكتب إليهم بقوله تعالى ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم**﴾)(6) فبدأت القوات ترد إليهم من

(1) Pierre de Condet : Op. Cit., p.224, M. Talbi : Op. Cit., p.251.

(2) Pierre de Condet : Ibid, p.224, M. Talbi : Ibid, p.251.

(3) Albert Garreau : Op. Cit., p.193. Auguste Bailly : Op. Cit., p.133.

(4) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، انظر كذلك حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٦٣، Leon Cristiani : Op. Cit., p.190. Albert Garreau : Ibid, p.193.August Bailly : Ibid, p.133. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516.

(5) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٦٣.

(6) انظر محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص٤١ حاشية ١.

شتى نواحيها (وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد بأنفسهم)[١]، والذين كان من بينهم الشيخ سالم القديدي والشيخ عمار المعروفي الذي توفي بالوباء بعيد رحيل الصليبيين ودفن بقرية إريانة حيث أضحى قبره (سيدي عمار) مزاراً ومحل تبرك إلى يومنا الحاضر[٢]، حتى امتلأت سواحل رادس بالمرابطين والمطوعة وجند الأندلس، وقد بلغ عدد هؤلاء جميعاً زهاء أربعة آلاف فارس عدا المشاة الذين كانوا يعدون بالألوف، وقد تولى قيادتهم جميعاً محمد بن أبي الحسين رئيس الدولة[٣]، كما قدمت إليه جموع الأعراب الهلالية وتبعهم أعراب برقة الذين أمرهم الظاهر بيبرس بالمسير إلى تونس كما سبق أن ذكرناه، وانضموا إلى صفوف المدافعين، هذا علاوة على الجيش النظامي الذي كان يتألف في غالبيته من فئة الموحدين وفرق الرماة من الأغزاز والأندلسيين وأخيراً فئة المطوعة، وكان المستنصر يشرف بنفسه على تنظيم هذه القوات وتوزيعها في مواقعها، كذلك اهتم بالعتاد والأسلحة وتوفيرها للجند ثم إصلاح الأسوار وتحصينها، وقد وجه عنايته إلى الناحية الاقتصادية لا سيما وأن البلاد كانت تمر في تلك الآونة في مرحلة عصيبة نتيجة المجاعة والوباء اللذين انتشرا فيها فكانت مجدبة شهباء على حد تعبير ابن أبي الضياف[٤] وزاد الحالة سوءاً انقطاع تجار النصارى عن إفريقية[٥] كما كانت العادة في الوقت الذي يسبق كل حملة توجه إليها مماحرم أهلها من استيراد الغلال اللازم لهم، فأمر بتخزين أقصى ما يمكن تخزينه من الإنتاج المحلي من الحبوب[٦]، والاقتصاد في استهلاكها قدر المستطاع، وحث الرعية على الإكثار من الزراعة فأمرهم (بالحرث الكثير في جميع البلاد)[٧].

---

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣٢، انظر كذلك شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠ - ١٨١.

(٢) الدباغ : المصدر السابق ج٤ ص٢٥ - ٢٦، انظر كذلك محمد الحبيب الهيلة : الزاوية وأثرها في المجتمع القيرواني ص١٢٧ - ١٢٨، R.Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.66.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، العروسي المطوي : المرجع السابق ص١١١، R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.60.

(٤) ابن أبي الضياف : المصدرالسابق ص٢٠٦.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩١، انظر حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٧) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣٢.

وعندما تواترت إليه الأخبار بقرب وصول الصليبيين، أرسل إلى نواحي المغرب العربي بالخبر يحث المسلمين على الجهاد، فوافته الإمدادات من نواحي عديدة، إذ وصل إليه أبوهلال صاحب بجاية بجنده وجموع ولهاصة سكان بسيط بونة (عنابة) وسدويكش سكان مواطن صنهاجة بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية، ثم جموع هوارة، كما أمده ملوك المغرب من زناته، وخرج إليه محمد بن عبد القوي بعسكر بني توجين وهم سكان حفافي وادي شلف والسرسو[١]، فتعاظمت قوة المستنصر بهذه النجدات التي بالغ بعض المؤرخين المسلمين في عددها فوصل ابن القنفذ بعدد الرماة منهم فقط إلى أربعين ألف رام[٢]، فاختار لقيادتها بالإضافة لابن أبي الحسين ستة قواد آخرين من الموحدين[٣]، وجعل القيادة العليا لاثنين منهم من شيوخ الموحدين هما يحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر[٤]، كما سير سفن دوريات في البحر لمراقبة السواحل وترقب وصول الصليبيين[٥]، حتى إذا ما أطلت سفنهم عادت تلك الدوريات منذرة بهم، فبادر المستنصر إلى عقد اجتماع ضم كبار مستشاريه وأعيان دولته من شيوخ الموحدين والأندلسيين لبحث الطريقة المثلى في مواجهة الغزاة، وكان ما طرحه للبحث هو العمل بأحد رأيين إما التصدي للصليبيين ومقاتلتهم ومنعهم من النزول إلى البر، أو تخليتهم وشأنهم وتمكينهم من النزول، وقد اختلف الحضور في أي الاقتراحين أفضل، فكانت وجهة نظر الذي رأى العمل بالاقتراح الأول أنه ينبغي مقاتلتهم ومنعهم من النزول إلى البر حتى تنفذ ذخيرتهم من الماء والزاد فيضطرون إلى الانسحاب والعودة إلى بلادهم أما الفريق الآخر الذي رأى السماح لهم بالنزول فقد كانت حجته أنه ينبغي نزولهم عند الحضرة ذات الحامية القوية والسلاح والعدد والناس مهيؤون

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، انظر كذلك عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج٢ ص٣٠، العروسي المطوي : المرجع السابق ص١٠١، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠ – ١٨١.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣٢.

(٣) كان هؤلاء القواد هم : إسماعيل بن أبي كلداسن، عيسى بن داود، يحيى بن أبي بكر، يحيى بن صالح، محمد بن عبو، وأبو هلال عياد صاحب بجاية. (انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣).

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢.

لقتالهم ومن ثم حصرهم والقضاء عليهم، خوفاً إذا حيل بينهم وبين النزول بقربها أن يطرقوا بعض الثغور الضعيفة ويستولوا عليه ويتمركزوا فيه فيصعب حينذاك إخراجهم منه(١)، وبعد مناقشة كلا الرأيين تفصيلياً تقرر العمل بالاقتراح الثاني.

والملاحظ في هذا المقام أن هنالك مآخذ على كلا الرأيين. فقد فات أصحاب الرأي الأول أن هذه الطريقة في المقاومة غير مجدية ذلك لأن البحر كان مفتوحاً من وراء الأسطول الصليبي ويمكنه الحصول على التموين اللازم له من صقلية القريبة أو سواها بسهولة بل قد يعجل ذلك من قدوم شارل ملك الصقليتين بجيوشه مما يضاعف الخطر الصليبي ولن يتمكن المسلمون من الصمود في وجهه لمدة طويلة، ويدل الرأي الثاني على قدر غير قليل من التخاذل على المستوى الرسمي، وبعد الطبقة الحاكمة عن التحلي بروح الفاتحين المسلمين الأوائل الذين ضربوا أروع الأمثلة في الجهاد والبطولة والاستشهاد، فكان ما هدف إليه هؤلاء هو حصر الصليبيين في موقع معين ومضايقتهم ثم بعد ذلك مفاوضتهم واسترضاؤهم بتنازلات ومنح تغريهم بالانسحاب الأمر الذي تم بالفعل فيما بعد. وكان الأصح من هذا وذاك والأجدر بالمستنصر أن يكون قد أعد للأمر عدته بإنشاء أسطول قوي كما أسلفنا ومقابلة الصليبيين في عرض البحر وتحطيم أسطولهم وإغراقه ليوقنوا أن بلاد المسلمين ليست لقمة سائغة، حتى لا يعودوا للتفكير في العدوان مرة ثانية، وإذ كان الرأي الذي أخذ به يمثل وجهة النظر الرسمية فإنه لم يكن يمثل كافة قطاعات القوات الإسلامية، فقد كان العديد من تلك القطاعات يتمتع بروح معنوية عالية، ويتطلع لقتال الصليبيين، ويدل على ذلك ما قيل في تلك الآونة من أشعار، فقد قال الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات متوعداً لويس التاسع :

يا فرنسيس هذه أخت مصر   فتهيأ لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر   وطواشيك منكر ونكير(٢)

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، العروسي المطوي : المرجع السابق ص١٠١، R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.58.

(٢) ابن القنفذ : الفارسية ص١١١ -١١٢، ابن الشماع : ص٦٧، المقريزي : السلوك ج١ ص٣٦٥.

وعلى أية حال، وبالإضافة لما تقدم ذكره من استعدادات المستنصر، شكل مجلساً دائماً للحرب برئاسته والتزم القعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه مثل الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود وابن أبي الحسين رئيس دولته وقاضيه ابن البراء وأخو العيش وغيرهم[1] حيث كانت ترد إليه الأخبار ويدير من ذلك المجلس دفة الحرب (وكان ملازماً لبابه ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب الغدر)[2] وباعتماد هذا الأسلوب في المواجهة تمكن الصليبيون من النزول بقرطاجة والتحصن بها كما ذكرنا.

المقاومة الإسلامية :

بدأت بوادر المقاومة الإسلامية للصليبيين منذ نزول هولاء إلى البر كما سبق ذكره، ولكن هذه المقاومة اتخذت في الأسبوع الأول طابع المناوشات فقط دون التورط في اشتباكات كبيرة مع الغزاة، اللهم إلا ما كان أثناء استيلاء الصليبيين على حصن قرطاجة، وإذا كان الصليبيون قد تمركزوا في قرطاجة ونواحيها، فإن القوات الإسلامية لم تلبث أن طوقتهم من كل جانب باستثناء ناحية البحر كما كانت تقضي خطتهم[3]، وبذلك بدأت الدهشة والرهبة التي شعر بها المسلمون عند وصول هؤلاء في الزوال وأخذت تتبدل بجرأة عليهم زاد فيها تجميد الصليبيين لنشاطاتهم في انتظار وصول شارل صاحب أنجو بجيشه من صقلية والذي كان قد أرسل إلى أخيه لويس التاسع في ٢٤ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ يطلب منه عدم شن أي هجوم رئيسي أو الدخول في مفاوضات مع المستنصر لحين قدومه، فاستجاب الملك لذلك لأنه كان يشعربضرورة زيادة قوة الجيش وتدعيمه قبل الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين[4]، لذلك زادت حدة المقاومة الإسلامية مما أزعج الصليبيين وجعلهم لا يذوقون طعم الراحة كما يتضح من رسالة (Pierre de Condet) إذ يقول فيها :

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٦ ص٢٩٣.

(٢) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٨.

(٣) يعتقد برنجفيك (R. Brunschvig : Op. Cit., T. 1. p.60) أن معسكر المسلمين كان في بلدة العوينة الحالية في منتصف الطريق بين قرطاجة وتونس.

(٤) Pierre de Condet : Op. Cit., p.229., Leon Cristiani : Op. Cit., p.190., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.59, Auguste Bailly : Op. Cit., p.133., K.M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516, Paul Guth : Op. Cit., p.238.

(... ويقال هنا إن من انتصب سيداً على قرطاجة يصبح قريباً سيد البلاد كلها. إلا أننا لا نؤمن بهذا المثل الشعبي لأن المقاتلين المسلمين يكررون هجماتهم علينا بكثرة، يهاجموننا من كل صوب مما كان يزعج مقاتلينا، ويدفعهم إلى تقلد سلاحهم مرتين في اليوم الواحد)(١)، وفي ذلك يقول ابن أبي الضياف أيضاً : (وضيق عليه – لويس التاسع – الخناق، وقد ظن أنه إذا نزل البر يكون طعمة له)(٢)، ولكن بالرغم من ذلك، بقيت تلك الهجمات التي كان يشنها المسلمون على أطراف المعسكر الصليبي محدودة النتائج إذ كان الهدف منها الإزعاج والمضايقة فقط وربما لاستدراج بعض الصليبيين للخروج من المعسكر لمطاردتهم فيكرون عليهم ويقتلونهم لأن شن هجوم كاسح على الصليبين لم يكن في خطتهم أصلاً، لما سيتكبده المسلمون من خسائر كبيرة لضخامة الجيش الصليبي وقوة تسليحه وحصانة موقعه، وفي ذلك يقول (Pierre de Condet) (إن المسلمين لا يتجرأون على الاقتراب من جيوشنا الضخمة، بل يكتفون بقتل الجند الذين يتجولون في أطراف المعسكر أو الذين يشدون عليهم لمطاردتهم، ومع ذلك فإننا نعتقد أنهم فقدوا من القتلى أكثر مما فقدنا، وعندما نطاردهم يهربون، وعندما نرجع عنهم يشدون علينا بنبالهم)(٣)، وبمرور الأيام زادت هذه الهجمات على المعسكر الصليبي حتى بلغت خمس مرات في اليوم الواحد(٤).

ولكن ما دور الجند النصارى الذين كانوا في جيش المستنصر في هذه المقاومة؟ إن العديد من المصادر والمراجع الغربية تزعم أن المستنصر حينما علم بنزول الصليبيين بقرطاجة قبض على هؤلاء وعلى كل من كان في بلاده من النصارى وغيرهم وهدد بقتلهم إذا بدأ الصليبيون في شن الهجوم على المسلمين، ويقول برنجفيك (R. Brunschvig) في ذلك إن اثنين من الفرسان القشتاليين الذين كانوا بين هؤلاء فرا إلى المعسكر الصليبي وأخبرا الملك الفرنسي بذلك، وأن المستنصر اتخذهم رهائن(٥)، وإننا نعتقد أن هذا القول لا يطابق الواقع

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.225.

(٢) ابن أبي الضياف : المصدرالسابق ص٢٠٦.

(٣) Pierre de Condet : Op. Cit., p.225., Paul Guth : Op. Cit., p.238., Leon Cristiani : Op. Cit., p.190.

(٤) Le duc de Levis Mirepoix : Saint Louis Roi de France, le memorial des siecles, XIII siecle les hommes, p.93.

(٥) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.442. See also Albert. Garreau : Op. Cit., 193.

من عدة وجوه أولها أن أياً من المصادر الإسلامية والتي هي أوسع اطلاعاً من المصادر المسيحية عما كان يدور في الجانب الإسلامي لم تشر إليه، ولو كان ذلك الأمر قد حدث بالفعل لما توانت عن ذكره، وبصفة خاصة ابن خلدون لقرب عهده بتلك الحوادث وثقة المصدر الذي استقى معلوماته منه وصلة هذا المصدر بالدولة الحفصية وهو جده الذي كان من أعيان الجالية الأندلسية في إفريقية، وكان الأندلسيون أركان دولة المستنصر ويتبوؤون معظم المراكز الهامة فيها، ومثل هذا الأمر لو حدث لا يمكن أن يخفى عليه، ولم يكن بالأمر المنكر الذي يمس المستنصر ليحاول إخفاءه، وينطبق مثل هذا القول على ابن القنفذ وابن الشماع اللذين كانا على صلة وثيقة بالدولة الحفصية إلى حد يمكن اعتبارهما من مؤرخيها الرسميين، فلو حدث ذلك لما أهملا ذكره بل لأشادا به. وثانيها، أن هؤلاء كانوا يمثلون الحرس الشخصي للمستنصر وكان يوليهم ثقة كبيرة فكيف يمكن أن يستثيرهم عليه ويزعزع ثقتهم به وإخلاصهم له، ولو حدث ذلك الأمر بالفعل لكان هؤلاء قد غادروا تونس بعد رحيل الصليبيين حنقاً على المستنصر الأمر الذي لم يحدث مطلقاً، وثالثها، أن معظمهم كان من أرغونة[1] وأرغونة لم تشترك في هذه الحملة بل على العكس من ذلك فبعد أن قبل ملكها الاشتراك فيها عاد وانسحب وتحلل من وعده. والأصح من ذلك أن هؤلاء ظلوا في مكانهم حول المستنصر وربما كانوا من بين الألف فارس الذين كانوا يقفون عند باب الغدر كما ذكرنا على أهبة الاستعداد لحمايته وربما مساعدته على الهرب إذا ما هوجمت المدينة. وقد يكون المستنصر قد تحفظ عليهم من المسلمين كي لا يفتكوا بهم في مثل ذلك الوقت الذي كان فيه النصارى إخوان هؤلاء في الدين يهاجمون بلادهم الأمر الذي فسرته المصادر والمراجع الغربية على أنه قبض عليهم، فظلوا بعيدين عن المعركة، مع أن برنجفيك (R. Brunschig) يحاول خلق دور للنصارى في تلك المقاومة فيذكر أن (Frederic de Castella) و (Frederic Lancia) كانا بقرب المستنصر ويبديان بعض التوجيهات الفنية في إدارة دفتها[2] الأمر الذي نستبعده لأن أياً من المصادر المسيحية أو المصادر الإسلامية التي اطلعنا عليها لم يشر إليه.

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.443.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.60.

وتفنن مسلمو إفريقية في ابتكار أساليب تصيد جند العدو مثلما فعل إخوانهم في مصر قبل ذلك بعشرين عاماً، فمن ذلك أن بعضاً منهم عمل على دغدغة مشاعر الصليبيين والاستفادة من أمنية لويس التاسع في تنصير مسلمي إفريقية، فذهب ثلاثة نفر منهم إلى معسكر الصليبيين وتظاهروا بقبول التنصر وطلبوا تعميدهم، فسر الملك الفرنسي وأمر بالإحسان إليهم والسهر على راحتهم، ثم تبعهم حوالي مائة مسلم آخر أظهروا أنهم قدموا لنفس الغاية، وبينما كان الصليبيون يحتفون بالقادمين الجدد وإذا بالمسلمين يشنون الغارة على المعسكر الصليبي، فإذا بهؤلاء الذين تظاهروا بالارتداد يستلون أسلحتهم من تحت عباءاتهم ويفاجئون العدو من داخل المعسكر ويساعدون المغيرين في الإطباق على مجموعة كبيرة منه، ولم يتمكن الجيش الصليبي من صد هذه الغارة إلاّ بصعوبة بالغة وبعد أن تكبد خسائر كبيرة، في حين خرج المسلمون من المعسكر مع إخوانهم، أما المسلمون الثلاثة الأُول والذين كانوا في حقيقة أمرهم طعماً لخداع الصليبيين، فقد واصلوا مخادعتهم وأوهموهم بأنهم يرغبون في العودة إلى قومهم ليعودوا بألفين منهم في اليوم التالي إلى الملك لتنصيرهم فسمح لهم بمغادرة المعسكر وسط احتجاجات البعض الذين أدركوا حقيقة مهمة هؤلاء ونادوا بقتلهم فلم يسمع قولهم، وهكذا خرج هؤلاء من المعسكر ولم يعودوا إليه بطبيعة الحال مرة أخرى[١].

ولعل من أكبر هجمات المسلمين على المعسكر الصليبي في تلك الفترة كان ذلك الهجوم الذي شنوه عبر البحيرة، لقد كان الصليبيون حينما خندقوا حول معسكرهم قد تركوا الجانب المطل على بحيرة تونس دون خندق اعتماداً على المناعة التي تكسبها لتلك الناحية، ونظراً لأن المعسكر الصليبي كان مشرفاً عليها فإن ذلك كان يتيح الفرصة لمشاهدة تحركات المسلمين فيها والاستعداد لهم قبل وصولهم إلى المعسكر، وبالرغم من ذلك فإن المسلمين عملوا على الاستفادة من ميزة عدم تحصين الصليبيين لتلك الناحية من معسكرهم، فتسلل عدد منهم عبر البحيرة ليلاً ودخلوا إلى المعسكر الصليبي ثم تبعتهم أعداد غفيرة من

---

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.194 - 5., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p. 59.
Auguste Bailly : Op. Cit., p.133., Paul Guth : Op. Cit., p.238.

الأعراب وكبسوا المعسكر ودارت بين الطرفين معركة أخذ فيها الصليبيون على غرة فتكبدوا خسائر جسيمة، وعندما كاثروا المسلمين انسحب هؤلاء وعادوا أدراجهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا)[1]، ومنذ ذلك الهجوم تنبه الصليبيون لخطورة البحيرة على معسكرهم فشددوا الحراسة من ناحيتها، ولم يكتفوا بذلك، بل سيروا بعض قطع أسطولهم بالرماة فيها لمنع المسلمين من اجتيازها مرة أخرى، يقول ابن خلدون : (فكلفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم)[2].

ويستلفت انتباه الباحث في هذا المقام تساؤل هام هو هل عرف مسلمو إفريقية المدفع وبالتالي استعملوه في مواجهتهم للصليبيين؟ في الحقيقة، إن الإجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير، ذلك أن المصادر والمراجع المتيسرة الغربية منها والإسلامية على حد سواء لم تسعفنا بدليل قاطع عن هذا الأمر ولكن هنالك بعض الإشارات التي وردت في كتب التاريخ تجعلنا نرجح أنه ليس من المستبعد أن يكونوا قد عرفوه واستعملوه ضد الغزاة، فقد عرفت إفريقية استغلال القوة الناجمة عن انفجار البارود في قذف قذائف على العدو بوسطة آلات خاصة في العصر الموحدي، والتي يمكن اعتبارها نوعاً من المدافع، وقد استعملها الناصر الموحدي في ضرب مدينة المهدية سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م حينما حاصرتها جيوشه، فكانت ترمي قذائف من الحجارة والكور الحديدية تسقط في وسط المدينة[3] أي قبل قيام لويس التاسع بهذه الحملة بخمسة وستين عاماً، كما عرف الجيش المصري نوعاً آخر منها فاجأ به جيش لويس التاسع نفسه إبان حملته على مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م والذي وصفه جوانفيل بأن له صوت مزعج وأن قديفته الملتهبة بحجم الدن ولها ذيل طويل من لهب كالحربة، وأن الملك الفرنسي كان كلما سمع صوت قديفة منها يجثو على ركبتيه ويقول : (يا إلهي ارحمني واحم شعبي)[4]، ثم إن أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني قد استعمل

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، حمودة بن عبد العزيز : المصدرالسابق ورقة ١٠٤.
(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣ ص٢٩٧.
(٤) Joinville : Op. Cit., p.216.

هذا السلاح أثناء حصاره لمدينة سجلماسة سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٢م أي بعد سنتين فقط من حوادث هذه الحملة، فيذكر ابن خلدون أنه (نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها)(١)، ولم يكن أبو يوسف هو أول من استعمل هذا السلاح من سلاطين بني مرين، بل استعمله أبوه من قبله(٢)، فهل يمكن أن يكون مسلمو كل من مصر والمغرب الأقصى قد عرفوا المدفع ولم يعرفه إخوانهم في إفريقية وبلدهم في موقع متوسط بينهما والعلاقات بينهم وبين كلا القطرين كانت طيبة؟ لا سيما وأن حضارة إفريقية كانت قد بلغت أوج مجدها في عهد المستنصر، كما أن بني مرين كانوا في ذلك الوقت يعترفون بتبعيتهم للمستنصر فكيف يمكن للتابع أن يملك مثل هذا السلاح الخطير ولا يملكه المتبوع؟ ثم إن يوسف أشباخ يقول بأن الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن السابع الهجري (الثالث عشرللميلاد) إلى الأندلس من إفريقية(٣) مما يدل دلالة واضحة على أن إفريقية قد عرفت المدفع قبل حملة لويس التاسع عليها، وأنها كانت سابقة في استعماله على كل من المغرب الأقصى والأندلس، وبتوافر هذه المعطيات فإننا لا نستبعد أن يكون مسلمو إفريقية قد استعملوا نوعاً من المدافع في مواجهتهم للغزاة. ولعل ما يلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع إشارة ليون كريستياني (Leon Cristiani) حين يقول إن المسلمين كانوا من مواقعهم يثيرون الرمال ويرفعونها في الهواء بالمجارف لمضايقة الصليبيين(٤)، والذي نعتقده أن حقيقة الأمر قد غمضت على صاحب المصدر الذي اعتمد عليه (Leon Cristia-ni) في قوله هذا، وربما ظن أن الدخان المنبعث مع القذائف لبعد المدافع هو رمال يثيرها المسلمون، إذ هل يعقل أن المسلمين كانوا يثيرون الرمال بالمجارف على معسكر أكثر ارتفاعاً من مواقعهم وفي فصل تكون فيه الريح ساكنة في العادة، وإن هبت فإنها في الغالب تهب باتجاه معاكس أي من البحر إلى الداخل، يضاف إلى ذلك أن مواقع المسلمين لم تكن في

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص١٨٨، عبد الحق المريني : الجيش المغربي ص٣٢.
(٢) محمد عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ج١ ص١٨٠.
(٣) يوسف أشباخ : المرجع السابق ص٢٢٥، انظر كذلك عبد الحق المريني : المرجع السابق ص٣٢.
(٤) Leon Cristiani : Op. Cit., p.189.

غالبيتها رملية يسهل تذرية ترابها، وأخيراً، وإلى أي مدى يمكن أن يصل التراب المثار؟ فهل يمكن أن يتجاوز مسافة تقدر بالكيلومترات لتصل إلى معسكر الصليبيين؟

وأيا كان الأمر، فإن هذه المقاومة الإسلامية أثرت في معنويات الصليبيين فأخذوا يفقدون حماسهم ويشعرون بحراجة موقفهم، وبالرغم من أن المدد كان يأتيهم في الأساطيل (من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات)[1]، إلاّ أن شعورهم بكونهم محاصرين، وتجميد نشاطهم الهجومي في انتظار شارل ملك الصقليتين الذي تأخر كثيراً في الوصول والانضمام إليهم، وقصر ذلك النشاط على الدفاع عن أنفسهم ضد غارات المسلمين المفاجئة والمتكررة، وبقائهم في حالة استنفار دائم، وفقدانهم الكثير من جندهم، كل تلك الأسباب خلقت بينهم روح التذمر، وجعلتهم يجأرون بالشكوى للقيادة العليا من بقائهم سلبيين في موقعهم لتلقي ضربات المسلمين، لذلك عمدت تلك القيادة للقضاء على تذمر الجند بتنظيم طلعات عسكرية لبعض الكتائب خلال الفترة من ١٧ إلى ٢٢ أغسطس سنة ١٢٧٠م / ٢٨ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ – ٣ محرم سنة ٦٦٩هـ، ولكنها كانت محدودة الأثر لم تكن تصل إلى حدود معسكر المسلمين الذي لم يكن يبعد عنهم إلاّ بضعة كيلومترات[2]، الأمر الذي أدى إلى نتيجة عكسية إذ حط من معنوياتهم إلى حد كبير، ثم زادت حالتهم سوءاً بنقصان المياه الصالحة للشرب في معسكرهم، فأخذوا يحاولون الحصول عليه من المناطق القريبة ولكن ذلك كان يكلفهم في كل مرة العديد من القتلى، وظهر النقص بيّناً أيضاً في الأقوات الطازجة، فما كان يصلهم من تلك الأقوات لم يكن طازجاً فاللحوم كانت مجففة (مقددة) وقل مثل ذلك عن الفواكه وغيرها، مما جعل الكثير منهم يعاني من سوء التغذية، الأمر الذي جعل الملك يحاول التغلب على هذه الصعوبة بإرسال بعض أعوانه إلى صقلية للحصول على اللحم الطازج وما إليه من الأغذية لإطعام المرضى من الجند على الأقل[3]، وكانت ثالثة الأثافي هي تفشي الوباء بينهم.

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.60., Auguste Bailly : Op. Cit., p.134.

(٣) Albert Garreau : Op. Cit., p.195, Leon Cristiani : Op. Cit., p.189, le duc de Levis Miropoix : Op. Cit., p.124, M. Talbi : Op. Cit., p.252, Paul Guth : Op. Cit., p.239, K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516.

تفشي الوباء وموت الملك :

في أوائل شهر أغسطس ١٢٧٠م / أواسط ذي الحجة ٦٦٨هـ تفشى الوباء بين الصليبيين، أما ماهية هذا الوباء فهي غير معروفة بالتحديد، فالمصادر الإسلامية تشير إليه دون ذكر اسمه أو تبيان أعراضه أوأسبابه، فيذكر ابن خلدون في حديثه عن موت لويس التاسع (... ويقال أصابه مرض الوباء) [١]، ويعيد حمودة بن عبد العزيز مثل هذا القول[٢]، أما ابن الشماع فيقول : (وأرسل اللّه عليهم وباء فمات كثيراً منهم)[٣]، ويقول ابن أبي دينار : (وأرسل اللّه وباءً على جيشه فمات عدد كثير)[٤]، ويقول ابن أيبك الدواداري : (فأوقع اللّه في عسكره وباء عظيماً)[٥]، وينفرد ابن أبي الضياف برواية تفيد أن ذلك الوباء قد انتقل إلى الصليبيين من المسلمين إذ يقول: (وفشا في المملكة الوباء وانتشر بجند الفرنسيس)[٦]، أما المصادر والمراجع الغربية فقد اختلفت في تحديد ماهيته، فيذكر Pierre de Condet) في رسالته الثانية التي أرسلها من قرطاجة إلى أمين الشؤون المالية (Au Tresorier de Saint - Franchour de Senlis) واصفاً حالة الأمير فيليب ولي العهد الذي اعتلى عرش فرنسا بعد أبيه ولقب بفيليب الجسور (Philippe le hardi) والذي أصيب بهذا الوباء في ٣ أغسطس ١٢٧٠م / ١٤ ذي الحجة ٦٦٨هـ وظل يعاني منه حتى أوائل أكتوبر سنة ١٢٧٠م : (إن الحمى قد اشتدت عليه ونحن نخشى عليه الهلاك هذه الأيام)[٧]، مما يفهم منه أنه الحمى، ويقول جوانفيل عن لويس التاسع إنه مات نتيجة لحمى وإسهال[٨]، ويؤيده

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.

(٢) حمودة بن عبد العزيز : المصدرالسابق ورقة ١٠٤.

(٣) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.

(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦، انظر كذلك الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٢.

(٥) ابن أيبك الدواداري : المصدر السابق ص١٠٢.

(٦) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٦.

(٧) Pierre de Condet : Op. Cit., p.227.

(٨) Jounville : Op. Cit., p.346.

في ذلك Le duc de levis Miropoix[١] ويرى (Leon Cristiani) أن بعض الصليبيين ماتوا بالحمى وذهب آخرون ضحية إسهال شديد[٢]، في حين يرى (Albert Garreau) أنه حمى وديسونتاريا[٣]، ويعتقد (Auguste Bailly) أنه ربما كان الهيضة (الكوليرا)[٤]، وأما (Jean Larcena) فيقول بأنه التيفوس[٥]، والذي نعتقده أنه تفشى في الجند الصليبي أكثر من مرض نرجح أن يكون الديسونتاريا والملاريا وربما غيرهما أيضاً من الأمراض التي يتسبب فيها سوء التغذية وتلوث المياه، ولا ننسى أن الوقت كان يمثل ذروة حرارة الصيف مما يساعد على انتشار كثير من الأوبئة والأمراض في تلك البلاد.

وأيا كانت طبيعة هذا المرض فإن أثره على الجيش الصليبي لم يكن بالقدر الذي تصفه به المصادر والمراجع الغربية، صحيح أنه تسبب في وفاة بعض الشخصيات الهامة المشاركة في الحملة مثل الأمير حنا الحزين (Jean - Tristan) ابن الملك وكونت (Nevers)[٦] الذي مات في ٣ أغسطس سنة ١٢٧٠م ونائب البابا الكردينال (Rodolph d'Albano) الذي مات في ٧ أغسطس سنة ١٢٧٠م و(Bochard de Vendome) و(Hugues de la Marchi) وكونتات (Ars) و (Ecossais) و(Venden) وتقع الأخيرة في دوقية لوكسيمبورج، وحكام (Montmorency) و(Brissac)، وماريشال فرنسا (Gautier de Nemours) و(Alphonse de Brienn) ابن امبراطور القسطنطينية وغيرهم[٧] - أما لويس التاسع فلنا رأي آخر في سبب

---

(١) Le duc de levis Miropoix : Op. Cit., p.93 - 4.

(٢) Leon Cristiani : Op. Cit., p.190.

(٣) Albert Garreau : Op. Cit., p.195. See also : Paul Labal : Op. Cit., p.124, Paul Guth : Op. Cit., p.238.

(٤) Auguste Bailly : Op. Cit., p.134.

(٥) Jean Larcena : Op. Cit., p.189 - 90.

(٦) اسمه الأصلي حنا (Jean) ولقب بالحزين (Tristan) لأنه ولد في دمياط في الأسر.
انظر عن ذلك : Le duc Levis Miropoix : Ibid, p.124.
Paul Guth : Ibid, p. 238 - 9, Auguste Bailly : Ibid, p.134.

(٧) Albert Garreau : Ibid, p.195, R. Brunschvig: Op. Cit., Tom 1, p.59, Auguste Bailly : Ibid, p.134, Leon Cristiani : Ibid, p.191. Le duc de Levis Miropoix : Ibid, p.124, Paul Guth Op. Cit., p.239, Jean Larcena : Ibid, p.190., M. Talbi : Op. Cit., p.252, K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.516.

موته نعرضه فيما بعد –، إلاّ أن عدد الموتى بهذا الوباء لا يمكن أن يكون بالحد الذي لم يعد في استطاعة الصليبيين دفنهم لكثرتهم فأخذوا يلقون بجثثهم في الخندق المحيط بالمعسكر كما يقول (Albert Garreau) حتى امتلأ ذلك الخندق بها[1] فتلك في رأينا مبالغة واضحة شأنها شأن المبالغات الأخرى التي تظهر في أحيان عديدة في المصادر والمراجع الغربية التي تحاول نسبة الفشل الذي يمنى به المسيحيون إلى كوارث طبيعية للتقليل من أثر أعدائهم في ذلك الفشل، وإذا أخذنا بهذا القول فكم هي الأعداد التي قتلت في المعارك مع المسلمين إذن؟ والذين كانوا كثيرين وربما أكثر بكثير من الذين ماتوا بفعل الأمراض والذين تصمت المصادر والمراجع الغربية عن ذكرعددهم؟ ودليلنا على كثرتهم هو ما قاله ابن الشماع في ذلك: (وفي أثناء إقامتهم كانت بينهم وبين المسلمين زحوف استشهد فيها من سبقت له من اللّه الحسنى، ومات في القتال خلق كثير من عظماء النصارى ومن سائرهم)[2].

أما لويس التاسع الذي كان عند وفاة ابنه حنا الحزين طريح الفراش يقضي هو الآخر أيامه الأخيرة، فقد كان لنبأ وفاة ابنه هذا أثره الفعال في ازدياد حالته الصحية سوءاً، وكان قسيسه يعلم مسبقاً بذلك الأثر على نفسيته لشدة محبته وتعلقه بابنه المذكور، فأخفى عنه خبر موته مدة أسبوع ولم يعلمه به إلاّ في اليوم العاشر من أغسطس تحت إلحاح شديد من الملك بطلب زيارته، ورغم أنه أبدى تجلداً كبيراً حيال ذلك، وكان تعليقه: (إن اللّه الذي وهبنيه هو الذي أخذه مني، فله الحمد)[3]، إلاّ أنه منذ ذلك الوقت اعتكف في خيمته لا يقابل أحداً سوى قسيسه وبعض رجال الدين الآخرين المكلفين بالحضور إلى خيمته لتلاوة الصلوات المعتادة، وبقي على حالته تلك إلى أن توفي في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩هـ[4]، وقد أملى في هذه العزلة القسم

---

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.195.

(٢) ابن الشماع: المصدر السابق ص٦٨.

(٣) Auguste Bailly : Op. Cit., p.134, Leon Cristiani : Op. Cit., p.190.

(٤) لمزيد من التفصيل عن أيام الملك الأخيرة انظر:
Pierre de Condet : Op. Cit., p.226, Guillaume de Saint Pathus : La vie et les miracles de monseigneur Saint Louis, Tom 11, p.65, Le duc de Levis Mropoix : Op. Cit., p.125, Paul Guth : Op. Cit., p.239 - 40, Jean Larcena : Op. Cit., p.190 - 1, Leon Cristiani : Ibid, p.196, Albert Gar reau : Ibid, p.196.

الثالث والأخير من وصاياه وتوجيهاته لولي عهده رسم له فيها النهج الذي رغب منه فيه أن يسير عليه، والذي كان عبارة عن نهج سياسي وإداري مستمد من الفكر المسيحي تتمازج فيه تصوراته لمتطلبات الحياة الدنيوية والحياة الآخرة مدللاً في كل شيء بتجاربه الشخصية[١]، وكان آخر ما صدر عنه زفرة حرّى نفثها من صدره أودعها كل المرارة والأسى والحزن التي كانت تعتمل في قلبه لتحطم آماله الدنيوية وملأها بالرجاء في مصير أفضل في حياته الأخرى ثم تمتم قائلاً : (إيه يا أورشليم! هيا إلى أورشليم – ثم شخص ببصره إلى السماء داعياً – : إلهي ارحم هذا الجند المقيم هنا وأعده إلى وطنه حتى لا يقع في أيدي أعدائه فيحمل على إنكار اسمك المقدس)[٢]، ثم أغمض عينيه إلى الأبد، ولعل في هذا القول ما يؤيد وجهة نظرنا في أن حملته على إفريقية كانت وسيلة وليست غاية، وسيلة للوصول إلى الديار المقدسة والسيطرة عليها.

وأما السبب في وفاته فهو موضع خلاف بين المصادر الإسلامية والمسيحية، فالمستفاد من المصادر الغربية التي اطلعت عليها أنه وقع فريسة المرض الذي ظل يعاني منه حتى أودى بحياته[٣]، وكان تركيز تلك المصادر على وصف إيمانه وتدينه في أيامه الأخيرة، ووصف جلده بالرغم من ضعف جسمه المتواصل دون أن تشير إلى الوقت الذي أصيب فيه بالمرض كما فعلت بالنسبة لابنيه حنا الحزين وفيليب الجسور مما يترك الباحث في حيرة من هذا الأمر، فهل كان موته بفعل ذلك المرض الذي كان يعاني منه قبل إبحاره إلى إفريقية إلى حد أن جوانفيل حمله بين يديه من قصره إلى مقر الفرانسيسكان لأنه لم يكن يقوى على ركوب حصان أو عجلة[٤]؟ أم أنه كان قد تعافى من ذلك المرض قبل رحيله خاصة وأن الفترة بين الحادثتين كانت نحو ثلاث سنوات، ثم انتقض عليه المرض ثانية حتى أودى

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الوصايا انظر :
Albert Garreau : Op. Cit., p. 201 - 10, Auguste Bailly : Op. Cit., p.135 - 42, Le duc de levis Miro poix : Op. Cit., p.125, Leon Cristiani : Op. Cit., p.190 - 94, Joinville : Op. Cit., p.347 - 49

(٢) Guillaume de Saint - Pathus : Op. Cit., p.95, Paul Guth : Op. Cit., 240, Le duc de Levis Miropoix : Ibid, p.94, Albert Garreau : Ibid, 197 Jean Larcena : Op. Cit., p.191.

(٣) Joinville : Ibid, p.346.

(٤) Joinville : Ibid, p.318.

بحياته؟ أم أنه أصيب بمرض جديد في تونس من تلك الأمراض التي أصابت الجيش الصليبي علاوة على مرضه السابق فمات به، أم أن موته كان لسبب آخر؟ كل هذه التساؤلات لا تجيب عليها المصادر المسيحية بنص صريح، أما المراجع الغربية فكل التي اطلعت عليها منها تقول عنه أنه أصيب بالوباء في تونس وكان ذلك سبب وفاته[1]، وأما المصادر الإسلامية فمنها ماذكر روايات تتفق مع هذا القول مثل ابن أيبك الدواداري الذي يقول : (فأوقع الله في عسكره وباء عظيماً، فهلك الملعون مع جماعة من الملوك وأكثر جموعه)[2]، ولكن العديد من الروايات الإسلامية الأخرى ذكرت احتمالات أخرى لوفاته عدا الوباء مما يلقي ظلالاً من الشك على ما تذكره المراجع الغربية عن هذا الموضوع، فيقول ابن خلدون : (وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال حتف أنفه ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأثبته ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن حزام الدلاصي – الدلاجي – بسيف مسموم فكان فيه مهلكه)[3]، ويؤيده في ذلك حمودة بن عبد العزيز[4]، ويكرر كل من ابن الشماع[5] والوزير السراج[6] نحو هذا القول وبتعديل في اسم الذي حمل السيف فيجعلانه أحد شخصين هما سليمان بن حزام أو سليمان الدلاجي، وبإضافة أنه مات في العاشر من محرم سنة ٦٦٩هـ، وهو وهم من ابن الشماع لأن وفاته حسب ما أوردته الوثائق المسيحية هو يوم ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م الذي يوافق يوم ٦ محرم ٦٦٩هـ، والوثائق والمصادر المسيحية أدق من رواية ابن الشماع في هذه الناحية ذلك أن بعضاً من أصحاب هذه المصادر والوثائق كان بصحبة هذا الملك يوم وفاته وبعضاً آخر كان معاصراً لها، في

---

(١) انظر على سبيل المثال : Le Duc de levis Miropoix : Op. Cit., p.124, A. Bailly : Op. Cit., p.138.

(٢) ابن أيبك الدواداري : المصدر السابق ص١٠٢ (مع تحفظنا على قوله : (وأكثر جموعه) كما ذكرناه فيما سبق).

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.

(٤) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٥) ابن الشماع : المصدر السابق ص١٠٤.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٢.

(٧) يقول Pierre de Condet في هذا الموضوع وهو ثقة فيما يقوله في هذه الناحية أن لويس التاسع توفي في الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر بالتوقيت الغربي الحالي) من يوم الاثنين التالي على عيد القديس بارثلميو الذي يصادف ٢٤ أغسطس من كل عام أي يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠.

(انظر: Pierre de Condet : Op. Cit., p.226.)

حين أن ابن الشماع جاء متأخراً عنها بما يزيد عن القرن(٧)، وقد يكون نبأ وفاته قد تسرب إلى المسلمين في العاشر من محرم أي بعد وفاته بأربعة أيام فاعتقدوا أنه مات في ذلك اليوم فنقله ابن الشماع على هذا النحو عن المؤرخين المسلمين الذين عاصروا حوادث الحملة. وأما ابن أبي دينار فلا يذكر موته بالوباء مطلقاً إذ يقول : (وفي عاشر محرم سنة تسع وستين مات طاغيتهم قيل بعث إليه السلطان بسيف مسموم وقيل مات حتفه)[١]. وأما ابن أبي زرع فيورد الخبر بقوله : (وفي الخامس والعشرين من ربيع الثاني من سنة تسع وستين توفي لويس التاسع ملك الفرنسيس المحاصر لتونس)[٢]، وهو وهم منه في تاريخ الوفاة بطبيعة الحال كما أنه أغفل ذكر السبب، ولذلك نستبعد روايته من المناقشة.

فالمستفاد من رواية كل من ابن خلدون وحمودة بن عبدالعزيز وابن الشماع والوزير السراج أنه مات بأحد أسباب أربعة هي الموت حتف أنفه أو بإصابته بسهم أو بالوباء أو بسيف مسموم، ونتفق مع ابن خلدون في استبعاد احتمال موته بسيف مسموم ذلك أن المهاداة بينه وبين المستنصر في مثل تلك الظروف لم تكن ممكنة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم تشر الروايات إلى الكيفية التي أصيب بها الملك بالتسمم من ذلك السيف، فتبقى بذلك الثلاثة احتمالات الباقية، أما بالنسبة لرواية ابن أبي دينار فيبقى احتمال واحد هو موته حتف أنفه، وقدأوردت هذه الروايات هذه الاحتمالات دون ترجيح أحدها على الآخر، ولكن حازم القرطاجني يلقي قدراً من الضوء على هذا الموضوع بقوله في قصيدة يمدح بها المستنصر إثر رحيل الصليبيين :

أضحى عماد عميده متعفراً ... قد فل غرباه وجب الغارب
وكفى القتال الناس والقوم السرى ... سعد، رماه منه سهم صائب
أنحت عليه عصابة والتكم ... ونحته من صرف الزمان نوائب
لم يشهر الصمصام يوم كريهة ... ولاه وغاربه غراب ناعب
ينعي الصليب وحامليه وكل من ... والاه حتى نفسه هو نادب[٣]

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.
(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص٤٠٤.
(٣) انظر د. الحبيب محمد بن الخوجة : المرجع السابق ص٨٨.

والواضح أن المعنيّ بهذا الشعر هو لويس التاسع، وما يستشف منه هو كيفية موته، والتعفير وجبّ الغارب لا يكون إلاّ في المعارك، ويتطرق بعد ذلك إلى رميه بسهم صائب، الأمر الذي يقوي الظن في أن القول بأن موته كان بسهم غرب هو الأصح. ويورد الآبي في شرحه على صحيح مسلم رواية نقلها عن أحد معاصري حوادث الحملة لتقطع الشك باليقين في أنه أصيب بسهم كان فيه حتفه إذ يقول : (واختلف في سبب موته، فقال الأديب جمعة وهو أحد من أرخ الكائنة والأصح بما قيل في سبب موته، أنه مات بسهم أصابه)[١]، ومن هذا النص الصريح يتبين أن موت الملك الفرنسي لم يكن بالوباء وإنما كان من أثر جرح بسهم أصيب به في إحدى المعارك مع المسلمين فظل يعاني منه المدة التي قضاها طريح الفراش قبيل وفاته وهو ما نعتقد أنه الصواب، وقد تكون المصادر المسيحية أخفت أمر جرحه عمداً حينما أصيب به حتى لا يؤثر ذلك في معنويات الصليبيين المتردية وليس ذلك بالأمر المستهجن فكثيراً ما يؤخذ على المصادر المسيحية إخفاء بعض الحقائق لسبب أو لآخر.

بقي أن نشير في هذا المقام إلى أمر آخر يتصل بهذا الموضوع هو الأساطير الكثيرة التي نسجت حول لويس التاسع بعد موته، فقد نسب إليه الذين كانوا من المقربين إليه في كتاباتهم عنه ومن اعتمد عليهم من المؤرخين الذين جاءوا من بعدهم الكثيرمن الخوارق والكرامات، حتى أصبح قبره مزاراً لبسطاء العامة في فرنسا يزورونه للتبرك ويستشفون عنده من العلل والأمراض اعتماداً على زعم أشيع بينهم أنه يشفيهم منها، وقد عدد Guillaume de Saint - Pathus في كتابه عن حياة لويس التاسع خمساً وستين خارقة أو كرامة من هذه الخوارق والكرامات المزعومة[٢]، وقد ظهرت في القرن الماضي أساطير من نوع آخر مفاد إحداها مثلاً أن لويس التاسع اعتنق الإسلام قبل موته[٣]، وأخرى مفادها أنه لم يمت أثناء الحملة وإنما اعتنق الإسلام ثم غادر المعسكر الصليبي ليعيش بين المسلمين وليدفن بعد ذلك في زاوية سيدي بو سعيد[٤] إلى غير ذلك. إن كل ما يقال عن هذه الأساطير

---

(١) انظر هذا النص في محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص٤١ حاشية ١.

(٢) Guillaume de Saint - Pathus : Op. Cit., p95.

(٣) عن هذه الأسطورة انظر : Le duc de Levis Miropoix : Op. Cit., p.125.

(٤) سيدي بو سعيد : هو أبو سعيد خلف بن يحيى التميمي الباجي درس الفقه وبرع فيه، وكان شيخاً =

وأمثالها أنها لا تدخل في نطاق التاريخ لتكون جديرة بالرد عليها وتفنيدها[١]. أما الحقيقة التاريخية فهي أن لويس التاسع توفي في التاريخ الآنف الذكر، وبعد وفاته بوشر في اتخاذ الترتيبات لنقل جثمانه إلى فرنسا، ولكن جنوده رفضوا ذلك، وأصروا على بقائه بينهم ميتاً كما كان وهو حي[٢]، ولذلك وضع جثمانه في ماء مغلي ممزوج بالخمر لفصل اللحم عن العظام[٣]، ثم أخذت العظام ووضعت في صندوق وغطيت بالملح، في حين أخذ قلبه ووضع بعد تصبيره في صندوق آخر، وقد احتفظ بكلا الصندوقين لحين رحيل الصليبيين فأخذوهما معهم حيث دفن القلب وحده في كنيسة (Monreale) بالقرب من مدينة بلرمة (بالرمو) بصقلية بطلب من شارل صاحب أنجو وتحت إلحاحه، في حين دفنت محتويات الصندوق الآخر في (Saint - Denis) تنفيذاً لوصية لويس نفسه[٤]، وعندما علم شعبه بوفاته حزنوا عليه حزناً شديداً إلى حد أنهم عبدوا ذكراه[٥] ولم ينتظروا حتى يتم رسمه قديساً من قبل الكنيسة بل أطلقوا عليه هم هذا اللقب، وفي ١١ أغسطس سنة ١٢٩٧م أصدر البابا بونيفاس الثامن (Boiniface VIII) قراراً برسمه قديساً في عداد قديسي الكنيسة الكاثوليكية[٦]. وفي ٨ أغسطس سنة ١٨٣٠م أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بأسابيع قليلة، فرض قنصل فرنسا في تونس ماتيو دلسبس Mthew de Lesspes[٧] على باي تونس المشير أحمد باشا الحسيني معاهدة ينص أحد بنودها السرية على تنازل تونس الأبدي لفرنسا عن ربوة بيرصا

= صالحاً زاهداً مرابطاً، وكانت وفاته في ليلة الاثنين ١٦ شعبان سنة ٦٢٨هـ، ودفن بجبانته المعروفة به قرب المنارة بجبل المرسى القريب من ربوة قرطاجنة (انظر الزركشي : المصدر السابق ص٢٦)، ولا زال مقامه موضع تبرك، ولشهرته أطلق اسمه على جبل المرسى فاصبح يعرف بسيدي بو سعيد، الذي هو حالياً ضاحية جميلة من ضواحي مدينة تونس وأحد متنزهات أهلها.

(١) عن هذه الأساطير وتفنيدها انظر : M. Talbi : Op. Cit., p.277 - 280.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.226, Albert Garreau : Op. Cit., p.198.

(٣) Albert Garreau : Ibid, p.198.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.226, Joinville : Op. Cit., p.350.

(٥) Robert Fewtiez : Op. Cit., p.31, Leon Cristani : Op. Cit., p.197.

(٦) Joinville : Ibid, p.351, Leon Cristiani : Ibid, p.197.

(٧) هو ابن فردناند دلسبس مصمم قناة السويس والمشرف على حفرها.

بقرطاجة[1] حيث تم إنشاء كنيسة ضخمة فيها في المكان الذي يعتقد أن لويس التاسع نصب خيمته فيه تخليداً[2] لذكراه لا زالت قائمة إلى عصرنا الحاضر وهي المعروفة بالسانت لويس الملاصقة لمتحف الآثار الذي أنشأه القساوسة المعروفون بالآباء البيض.

وفي نفس اليوم الذي توفي فيه لويس التاسع وصل أخوه شارل بجموعه إلى قرطاجة قادماً من صقلية، ولكنه لم يقابل أخاه لأنه كان قد مات قبل ساعة من وصوله، ومع أنه جزع لوفاة أخيه فارتمى باكياً على قدميه يقبلهما، إلاّ أنه سرعان ما تمالك نفسه وأبدى تجلداً بعد ذلك فمسح دموعه قبل خروجه من خيمة أخيه[3] حتى لا يراها الجند فيضعف ذلك من روحهم المعنوية، ثم باشر في إعداد الترتيبات لتنصيب ابن أخيه فيليب الجسور Philippe Le Hardi ولي العهد ملكاً خلفاً لأبيه[4]، ولما كان الملك الجديد لا يزال وقتئذٍ يعاني من المرض فقد أصبح شارل هو المتحكم في مصير الحملة. وليرفع من الروح المعنوية للجند الذين كانوا في حالة مزرية لما كانوا يعانونه من الضيق والمرض والحزن، وخشية استغلال المسلمين للموقف الذي نجم عن موت الملك، بدأ في الاستعداد لشن هجوم كبير على المسلمين، ففي يوم الخميس ٤ سبتمبر سنة ١٢٧٠م / ١٦ محرم سنة ٦٦٩هـ، بدأ ذلك الهجوم بمحاولته تسريب قطع صغيرة من أسطوله إلى البحيرة لمهاجمة المسلمين براً وبحراً، فتنبه المسلمون للأمر وحاولوا الحيلولة دون ذلك بشن هجوم مضاد على العدو، فاستنفر شارل القوات الصليبية وزحف بقسم منها على المسلمين في حين قاد ابنه (Philippe de Monfort) قسماً ثانياً وابن أخيه كونت أرتوا القسم الثالث وشد ثلاثتهم على المسلمين[5]،

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ص١٤٢، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص١٣١ حاشية ١.

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٦.

(٣) Pierre de Condet : Op. Cit., p.226., R. Brunschvig : Op. Cit. Tom, 1, p.61.

(٤) يقول ابن خلدون :(المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤) ويؤيده في ذلك حمودة بن عبد العزيز (المصدر السابق ورقة ١٠٤) إنه لما توفي لويس التاسع (اجتمع النصارى على ابنه دمياط سمي بذلك لميلاده بها فبايعوه).وهذا وهم من ابن خلدون لأن الذي ولد في دمياط هو حنا الحزين الذي توفي قبل أبيه في ٣ أغسطس ١٢٧٠م كما سبق أن ذكرنا، وكان الذي نودي به ملكاً هو فيليب الابن الأكبر للويس التاسع وولي عهده.

(٥) Pierre de Condet : Ibid, p.227.

وقاد الجانب الإسلامي كما يقول ابن خلدون القائد يحيى بن صالح والذي جعل هذا الهجوم في منتصف محرم سنة ٦٦٩هـ[١]، ودارت بين الطرفين معركة حامية، ونظراً لشدة ضغط الهجوم الصليبي الذي جرى الاستعداد الكبير له مسبقاً بدأ المسلمون في التراجع إلى معسكرهم، وبالرغم من استماتتهم في الدفاع عن ذلك المعسكر إلاّ أن الصليبيين تمكنوا من اقتحامه بعد العشاء وبعد أن تكبد كلا الطرفين خسائر كبيرة[٢]، ولكن الصليبيين غادروا معسكر المسلمين خوفاً من الكرة عليهم وفي الصباح عاد المسلمون إلى معسكرهم وبادروا في حفر خندق كبير حوله حتى لا يؤخذوا كالمرة السابقة، ولشدة اهتمامهم بحفر ذلك الخندق شارك في ذلك العمل كبراء الدولة منهم الشيخ أبو سعيد الذي حفر فيه بنفسه، يقول ابن خلدون في ذلك : (فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه)[٣].

وفي ١٢ صفر ٦٦٩هـ / ٢ أكتوبر ١٢٧٠ نشبت معركة جديدة بين الطرفين إذ أغار المسلمون على المعسكر الصليبي بأعداد كبيرة انتقاماً للمعركة الآنفة الذكر، ويبدو أن شارل كان مستعداً لهم فاشتبك الطرفان في معركة شبيهة بالأولى ولم يتحاجزا إلاّ بعد أن فقد كلاهما العديد من القتلى، ويعتقد (R. Brunschvig) أن اقتحام معسكر المسلمين قد حدث إبان هذه المعركة[٤]، ولكننا نعتقد أن الرواية الإسلامية الآنفة التي ذكرها ابن خلدون وأيده فيها المقريزي والتي قالت بأن ذلك الاقتحام كان في منتصف محرم سنة ٦٦٩هـ هي الأصح، وعلى أية حال فإن كلا الطرفين بدأ يدرك أن هذه الحرب ليست مجدية ومن شأنها أن تجر عليه المزيد من الوبال خاصة وأن كليهما كان يعاني من المتاعب فبدآ يميلان نحو التفاوض لإنهائها.

الملك شارل ومفاوضات الصلح :

فبالرغم من وصول شارل إلى قرطاجة بجموعه، وبالرغم من هذه الجهود التي بذلها

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، انظر كذلك :
Pierre de Condet : Op. Cit., p.227, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1,p. 61.

(٢) ابن خلدون :المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٥.

(٣)

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.61.

فإن الصليبيين كانوا يعانون من متاعب كثيرة كان التغلب عليها فوق طاقة شارل وملك فرنسا الجديد، فقد كان لفشل الهجومين الآنفي الذكر في شل مقاومة المسلمين أثره السيئ عليهم إذ بدأوا يشعرون باستحالة تحقيق الحملة لأهدافها، كما أن قلة الماء الصالح للشرب وسوء التغذية وحرارة الجو والأمراض التي تفشت فيهم كانت أسباباً أخرى لتثبيط عزائمهم وفتور حماسهم لا سيما وأنه كان من بينهم من لم يكن أصلاً راضياً عن الحملة، ويصور Pierre de Condet حالتهم تلك بقوله : (إنهم كانوا أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء على هذه الأرض الملعونة، ولا عجب في ذلك. فالشمس شديدة الحرارة، والغبار يزيد الجو تعكراً وعفناً، والريح تزيد في الإزعاج، والهواء المسموم ورائحة الموتى تزكم الأنوف، هذا بالإضافة إلى متاعب عديدة أخرى يصعب تعدادها دفعت الجند الأصحاء إلى كره بقائهم أحياء)(١)، يضاف إلى ذلك أسباب هامة أخرى منها قرب حلول فصل الشتاء موعد انغلاق البحر الذي تأتيهم الإمدادات والأقوات عن طريقه، مما يتسبب في عواقب وخيمة لا تحمد عقباها، الأمر الذي جعل الكثير منهم يرغب في الرحيل عن إفريقية قبل ذلك الوقت سواء أكان ذلك للرجوع إلى بلادهم أم إلى صقلية للتأهب للرحيل إلى الديار المقدسة في الربيع المقبل(٢) ومنهم من كان يرى أن الملك الجديد يجب أن يكون في مطلع عهده في بلاده ليتحسس مشاكل شعبه وآلامه ويعمل على إزالتها كي يعرف أبناء هذا الشعب مدى حبه لهم وسهره عليهم بدلاً من أن يظل محصوراً في معسكره يواصل حرباً غير معروفة النتائج.

وكان للجانب الإسلامي متاعبه هو الأخر، فقد كان المستنصر يدرك مدى خطورة العدو على عاصمته كونه لا يبعد عنها إلاّ بضعة أميال، خاصة وأن معركتي سبتمبر وأكتوبر الآنفتي الذكر قد أثبتتا له هو الآخر مدى صعوبة الصمود في وجه عدو عنيد، ثم إنه كان يخشى من انسحاب الأعراب الهلالية من قوى المقاومة الإسلامية – والذين كان يؤلفون قوة لها وزنها – من ميدان القتال والانصراف إلى مشاتيهم في مروج الجنوب كعادتهم في كل

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.227 - 8, Le duc de Levis Miropoix : Op. Cit., p.124.
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٣٨ – ١٠٣٩.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.61, M. Talbi : Op. Cit., p.253.

عام[1]، كما أن البلاد كانت لا تزال تعاني من الضائقة الاقتصادية التي سببها القحط والمجاعة والوباء، إذ يصف ابن الضياف ذلك بقوله : (واشتد حال الوباء والقحط مع الحرب)[2]، هذا بالإضافة إلى أن المستنصر، أصلاً كان يفضل المصالحة مقابل الاستجابة لبعض مطالب الصليبيين، وما زاد الطين بلة على المسلمين وقتئذٍ انطلاق الشائعات بينهم في ذلك الظرف الدقيق والحرج مما كان له أثره السيئ على روحهم المعنوية، يقول ابن خلدون في ذلك : (وابتلي المسلمون وظنوا الظنون)[3] وكان من أخطر تلك الشائعات واحدة منها مفادها أن المستنصر ينوي مغادرة مدينة تونس إلى القيروان ليتخذها مقراً له، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان)[4]، الأمر الذي خلق بلبلة كبيرة بين أهالي العاصمة إذ اعتقدوا أن المستنصر لا يقدم على مثل هذا العمل ما لم يكن يشعر بوجودخطر محدق به. أما ابن القنفذ فيذكر أنه قد عزم على ذلك بالفعل لكن ليس إلى القيروان وإنما إلى قسنطينة فيقول : (كان الملك عازماً على سكنى قسنطينة وأرادنقل ذخائره وأهله إليها، واختزن بها أربعين ألف قفيز من القمح وأمثالها من الشعير، وشرع في إصلاح أسوارها)[5]، وهي رواية مفردة لم نجد لها تأييداً في المصادر الأخرى، والأصح في اعتقادنا هو ما ذكره ابن خلدون لأن كافة الروايات الإسلامية الأخرى التي اطلعت عليها تؤيدها، هذا علاوة على أن ابن خلدون يرى أنها تهمة اتهم بها السلطان قد تكون صحيحة وقد تكون باطلة، أما ما يفهم من رواية ابن القنفذ هو أنه جعل هذا الأمر يقيناً، والذي أراه في هذه الرواية أنه قد يكون أهل قسنطينة حينما وصلهم أمر المستنصر بالاستكثار من العدة والسلاح وإصلاح الأسوار واختزان الحبوب الذي أصدره لكافة عمالاته كما سبق أن ذكرنا، ظنوا أن ذلك مقصور على بلدهم تمهيداً لانتقاله إليها، فوجد ابن القنفذ الذي جاء

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤، انظر كذلك :
R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.61, M. Talbi : Op. Cit., p.253.

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٦.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣، انظر أيضاً حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٠.

(٥) ابن القنفذ : الفارسية ص١٣٢.

بعد تلك الحوادث بحوالي القرن هذا الظن شائعاً بين أهل بلده فنقله على علاته، وخلاصة القول أن كلا الجانبين الإسلامي والصليبي كان لديه من الأسباب القوية ما جعله راغباً في إنهاء الحرب.

ولكن بالرغم من ذلك، فقد برزت معارضة للصلح في صفوف كلا الجانبين، ففي الجانب الإسلامي وجد المستنصر معارضة شديدة لهذا الأمرمن أهله وبعض كبار رجالات دولته وقطاعات أخرى من الشعب وبصفة خاصة تلك الفئة التي كانت متمسكة بمبدأ وجوب جهاد النصارى المعتدين مثل المرابطين والفقهاء وأشباههم[١] فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يعلمون أن رحيل النصارى لن يكون بدون ثمن. أما في الجانب الصليبي فكان على رأس المعارضة الملك الجديد فيليب الجسور (Philippe Le Hardi) الذي كان يفضل المضي قدماً في تنفيذ مشروع أبيه ومواصلة القتال ودخول تونس العاصمة وبسط السيطرة المسيحية على إفريقية بأسرها ومن ثم مواصلة الزحف إلى الديار المقدسة[٢]، وبالإضافة إلى الملك كان هنالك تلك الفئة من الجند التي جرها الطمع في المغنم إلى إفريقية، إذ كانت تلك الفئة ترى ضرورة اجتياح مدينة تونس ونهبها، وإذا كان الملك فيليب قد انصاع لعمه شارل وصهره ملك نفارة بما أطمعاه به من المبلغ المالي الضخم والهدايا الثمينة التي سيحصل عليها من المستنصر ثمناً لهذا الصلح، فإن تلك الفئة من الجند وجدت نفسها ستحرم من كل شيء

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.63.

وما يذكر في موضوع هذه المعارضة أنه كان من بين العلماء الذين حضروا عقد الصلح عالم عرض عليه منصب القضاء فأباه زهداً فيه هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي المتوفى في السبعينات من القرن السابع الهجري، وقد سئل هذا العالم عن رأيه في الصلح من الوجهة الشرعية ربما لاستخدام الفتوى التي تصدر منه في إقناع الناس بصحة الصلح لمكانة ذلك العالم الرفيعة في نفوسهم. ولكن أبا العباس حاول التملص من الإجابة الصريحة وكان ذلك في ديوان السلطان فقال للسائل لا علم لي بالحال وإنما يشهد من يعرف بالحال، وتوالت عليه الأسئلة الملحة من رجال البلاط لقول رأيه بمايدل على وجود معارضة قوية يراد استعمال جوابه في إسكاتها، ولكنه ظل متمسكاً بجوابه الآنف الذكر، وكان المستنصر يسمع من وراء حجاب، وظل الإلحاح يتوالى عليه وهو متمسك بقوله إلى أن ضجر المستنصر فنقر نقرة فض المجلس. (انظر الغبريني : عنوان الدراية ص١١٦ – ١١٧، محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص٤٢ حاشية ١).

(٢) M. Talbi : Op. Cit., p.267.

لذلك صبت لعناتها على الملك شارل الذي كان السبب في عقد ذلك الصلح، واتهمته بأنه ضحى بالمصالح العامة في سبيل تحقيق مصلحته الشخصية، وإنه لم يقبل ذلك الصلح إلاّ من أجل الحصول على الأتاوة التي كانت تدفعها إفريقية لصقلية[1]. ولكن تلك المعارضة في كلا الجانبين تم إسكاتها بسهولة ومال الطرفان لعقد الصلح.

وتذكر المصادر الإسلامية أن الصليبيين كانوا هم البادئين في طلب الصلح، فيقول ابن خلدون : (... واعتزموا الإقلاع وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه مؤونة حركتهم وترجع بقومها فأسعفها السلطان)[2]، ومع تحفظنا على هذه الرواية، ذلك أننا لا ندري من التي عناها ابن خلدون فيها بقوله العلجة، فإذا كان يعني الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع التي ذكر أثناء تعداده للمشاركين في الحملة أنها كانت ترافق زوجها فقال إنهم (كانوا سبعة يعاسيب... والعلجة زوج الصاغية)[3]، فإن ذلك وهم منه لأن الملكة مارجريت لم ترافق زوجها إلى إفريقية كما سبق أن ذكرنا، ولكن هذه الرواية تكون أقرب إلى الصحة فيما إذا كان قد عنى بها إيزابيلا زوجة الملك الجديد فيليب أو أخته إزابيلا أيضاً زوجة ملك نفارة اللتين كانتا مصاحبتين للحملة مع أننا نعتقد أنه لم يكن لأي منهما التأثير القوي على مصير الحملة ليخولهما الدخول في مفاوضات مع السلطان الحفصي نظراً لتحكم الملك شارل في ذلك المصير، إلاّ أن المستفاد من تلك الرواية أن الجانب الصليبي هو الذي عرض الصلح، ويؤيد ابن الشماع ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله : (وطلبوا الصلح في أوائل ربيع الأول فصالحهم السلطان)[4]، ويدعم ذلك ما ذكره كل من ابن أبي دينار[5]، وحمودة بن عبد العزيز[6] والوزير السراج[7] والباجي المسعودي[8]

---

(١) M. Talbi : Op. Cit., p.267 - 8.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣ – ٢٩٤.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٢.

(٤) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.

(٦) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٢.

(٨) الباجي المسعودي : المصدر السابق ص٦٣.

الذين رووا روايات مشابهة لهاتين الروايتين، أما ابن أبي الضياف فيذكر أن المستنصر هو الذي طلب الصلح إذ يقول : (فدعاهم المستنصر إلى الصلح فأجابوا)[1] فيتفق بذلك مع الروايات المسيحية التي يعتبر قول Pierre de Condet مثالاً لها حيث يقول في رسالته الثالثة الموجهة إلى رئيس دير القديس دينيس (Au pere Abbe de Saint - Denis) إن سلطان تونس أرسل إلى الملك شارل يطلب الصلح[2]، وحيال هذا التعارض بين الروايات الإسلامية والمسيحية باستثناء ما ذكره ابن أبي الضياف، فإنه يصعب على الباحث التوفيق بينها أو التوصل إلى رأي محدد حول هذا الموضوع خاصة وأن كلا الطرفين كان راغباً في الصلح.

وأيا كان الأمر، فقد أرسل المستنصر وفداً من قبله لمفاوضة الصليبيين في أوائل ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ / أكتوبر سنة ١٢٧٠م[3]، وفي ١٢ ربيع أول / ٣٠ أكتوبر من العام ذاته توصل الطرفان إلى اتفاق مبدئي على شروط الصلح، وبعد ذلك وفي وقت غير معروف بالضبط كتبت معاهدة هذا الصلح وقد يكون ذلك في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ / ٥ نوفمبر سنة ١٢٧٠م كما يقول برنجفيك[4] وشارل أندري جوليان[5]، وقدمت للجانب الصليبي الذي وافق عليها مما جعل المسلمين يعتبرون أن الصلح قد تم فدخلوا محلة الصليبيين (فباعوا واشتروا)[6]، وبعد ذلك وفي يوم ٥ ربيع الثاني ٦٦٩هـ / ٢١ نوفمبر ١٢٧٠م واعتمادنا في تحديد هذا التاريخ على ما جاء في وثيقة المعاهدة التي سندرسها في الفصل التالي، قدمت المعاهدة للمستنصر الذي أقسم على التقيد بما جاء فيها بحضور (Geoffroy de Beaumont) قنصل صقلية[7] وبذلك تم الصلح بين الطرفين.

---

(١) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٦.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.229 - 30, M. Talbi : Op. Cit., p.253.
M. Talbi : Ibid, p.253.

(٣) ابن خلدون : المصد رالسابق ج٦ ص٢٩٤.

(٤) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.62.

(٥) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨١، انظر كذلك :
K. M. Setton : Op. Cit., V, 2, p.516., H. E. Mayer : Op. Cit., p.270.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.

(٧) Pierre de Condet : Op. Cit., p.230, R. Brunschvig : Op. Cit. Tom, 1, p.62.

عقد الصلح وانسحاب الصليبيين :

عقب توقيع معاهدة الصلح مباشرة بدأ الصليبيون في الانسحاب تاركين بعض أثقالهم خلفهم، منها بعض المنجنيقات التي غنمها المسلمون[١]، وتختلف المصادر والمراجع الإسلامية والغربية أيضاً في تحديد موعد هذا الانسحاب، فبالنسبة للمصادر الإسلامية فإن ابن خلدون لم يذكر تاريخ انسحابهم وإنما قال إنهم رحلوا بعد إقامتهم (متمرسين في تونس ستة أشهر)[٢]، وفي اعتقادنا أن ابن خلدون قد جانب الصواب في هذه الناحية ذلك أن نزول الصليبيين في قرطاجة كان يوم ٢٦ ذي القعدة كما سبق أن ذكرنا، ولما كان توقيع معاهدة الصلح قد تم في يوم ٥ ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ، فإن المدة بين هذين التاريخين تكون أربعة أشهر وتسعة أيام فقط، ومهما تأخر موعد انسحاب الصليبيين فلن يصل إلى ستة أشهر، وكما أخطأ ابن خلدون أخطأ كذلك ابن القنفذ الذي حدد موعد انسحابهم بيوم ٢٤ ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ[٣]، ذلك أن معاهدة الصلح قدوقعت بعد ذلك التاريخ بأحد عشر يوماً ولا يمكن أن يكون هنالك انسحاب قبل توقيع المعاهدة، وأما ابن الشماع[٤]، وابن أبي دينار[٥]، والوزير السراج[٦]، فبالرغم من أنهم لم يحددوا تاريخ الانسحاب إلاّ أنهم ذكروا أن مدة إقامة الصليبيين في تونس كانت أربعة أشهر وعشرة أيام، ولما كان ما ذكرناه من أن المدة بين نزول الصليبيين وتوقيع المعاهدة كان أربعة أشهر وتسعة أيام وأن الانسحاب بدأ إثر ذلك وربما في اليوم التالي مباشرة فإن هذه الروايات تكون أقرب الروايات الإسلامية إلى الصحة، خاصة وأنها تتفق مع رواية Pierre de Condet حول هذا الموضوع الذي يقول بأن رحيل الملك فيليب من إفريقية كان في يوم الخميس التالي لعيد القديس مارتن الذي يصادف ١١ نوفمبر من كل عام[٧] أي أنه

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.
(٣) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣٢.
(٤) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.
(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.
(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.
(٧) Pierre de Condet : Op. Cit., p.232 - 3.

كان في يوم ٢٢ نوفمبر ١٢٧٠م / ٦ ربيع الثاني ٦٦٩هـ حيث تبعه بعدذلك باقي الصليبيين[١] بمن فيهم الأمير إدوارد ولي عهد إنكلترا الذي كان قد وصل إلى تونس في ١٠ نوفمبر ١٢٧٠ في ألف فارس وحينما اطلع على تفاصيل المفاوضات وشروط الصلح المبدئي الذي كان قد علم بأنبائه أثناء توقفه في سردينيا في طريقه إلى إفريقية، لم يعجبه ما جرى، لكنه اضطر إلى الانصراف مع باقي الحملة إلى صقلية حيث قضى فيها فصل الشتاء وفي الربيع التالي غادرها إلى عكا[٢].

وحرصاً من المستنصر على عدم حدوث ما يعكر صفو الأمن بينه وبين الصليبيين في تلك المرحلة، أرسل كتائب من قواته من النصارى والمسلمين لحمايتهم أثناء الانسحاب،إذ يقول Pierre de Condet في ذلك أنه بفضل هذه الجهود تم ذلك الانسحاب بهدوء ويسر[٣]. وكان قد جرى الاتفاق بين الصليبيين على الاتجاه إلى مينائي اطرابنش (Trapane) وبلرمة (بالرمو) بصقلية وكان بعضهم قد اعتزم الرحيل منها إلى الديار المقدسة من ضمنهم كونت بواتييه، وبيير شامبلون (Pierre Chmbellon)، كما اعتزم بعض آخر على رأسهم الملك شارل على الرحيل إلى اليونان لحرب امبراطور القسطنطينية، وأما الملك فيليب فقد كان عازماً على العودة إلى بلاده[٤]. وفي طريقهم إلى صقلية هبت عليهم عاصفة هوجاء حطمت كثيراً من سفنهم وأهلكت العديد منهم، ويصف Pierre de Condet تلك العاصفة بقوله : (لقد كانت العاصفة شديدة طوال ليلة يوم الأحد وكامل يوم الاثنين والليلة التالية إلى حد أن البحارة أبدوا حيرتهم ودهشتهم عن هذه العاصفة التي قالوا بأنهم لم يروا مثلها أبداً في حياتهم. لقد تحطمت الصواري وغاصت السفن الكبيرة في البحر كما تغوص الصخرة، وليس ما نأسف عليه هو الخسائر المادية بل الخسائر البشرية، إذ هلك العديد من الرجال والنساء من مختلف الأعمار قدرهم من شهد الكارثة بحوالي أربعة

---

(١) وبوصولنا إلى هذه النتيجة يتضح أن برنجفيك (R. Brnuschvig : Op. Cit., Tom 1, 62) قد جانب الصواب هو الآخر حينما ذكر أن الانسحاب كان ما بين ١٨ – ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٧٠م.

(٢) K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.517.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.233.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.231, R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.61.

آلاف نفس ومات بعد ذلك ما يزيد عن الألف من الذين نجوا من أثر الرعب والهلع... لقد فقدنا في هذه العاصفة ١٨ سفينة كبيرة عدا السفن الصغيرة)[١].

ولم يكن وصولهم إلى صقلية نهاية المتاعب بل مات فيها الكثير من مرضاهم من بينهم ملك نفارة، وتبعته بعد ذلك بفترة وجيزة زوجته التي ماتت حزناً على مولودها الذي ولدته ميتاً قبل موعده[٢] نتيجة لفقدانها زوجها، كما سقطت الملكة إيزابيلا زوجة الملك فيليب عن فرس وكانت هي الأخرى في أشهر الحمل الأخيرة، فكان ذلك سبباً في إجهاضها ولم تعش بعد ذلك طويلاً، إذ ماتت هي الأخرى في ٢٨ يناير سنة ١٢٧١م[٣]، ثم تبعها ألفونس كونت بواتييه وعم الملك فيليب، وكان لهذه الحوادث أثرها القوي على نفسية هذا الملك حتى بات رجالاته يخشون عليه من الموت هو الآخر كمداً لفقده هؤلاء[٤]، وأخيراً رحل بمن تبقى من جيشه في موكب حزين يتقدمه تابوت أبيه وتوابيت باقي الذين ماتوا من أفراد أسرته فكان ذلك نهاية المطاف بالنسبة للحملة الصليبية الثامنة.

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.232.
وانظر كذلك ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٨، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، الوزير السراج : المصدرالسابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.
R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.62.
M. Talbi : Op. Cit., p.254 - 5, Albert Garreau : Op. Cit., p.199.

(٢) Pierre de Condet : Ibid, p.234.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.235.
Albert Garreau : Ibid, p.199.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.234.

﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾.

[سورة التوبة : آية ٨]

الفصل الثالث

معاهدة الصلح

الوفد الإسلامي في المفاوضات – تعريف بوثيقة المعاهدة – ملاحظات عامة على الوثيقة – أسس الصلح : أ) الناحية الاقتصادية، ب) الناحية السياسية، جـ) الناحية الدينية

الوفد الإسلامي في المفاوضات :

بعد أن تهيأت الظروف لعقد الصلح بين المستنصر والصليبيين كما سبق أن ذكرنا، أرسل السلطان الحفصي (مشيخة الفقهاء)[١] إلى الجانب الصليبي لإتمام هذا الصلح وتحرير المعاهدة. وأول من ذكرته المعاهدة من هذا الوفد هو محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وقد حلته بالشيخ الأجل الأكرم، ولما كانت المعاهدة قد نصت أن هذا الأمر قد تم على يده، إذ جاء فيها : (هذاما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد عبد القوي)[٢]، فإنه يفهم من ذلك أنه كان رئيس الوفد الإسلامي المفاوض. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن ابن خلدون أثناء تعداده لأعضاء هذا الوفد أورد اسم ابنه زيان بدلاً منه[٣] الأمر الذي يتعارض مع ما ورد في وثيقة المعاهدة وهي الأصح بطبيعة الحال، لا سيما وأن اسم محمد بن عبد القوي قد ورد فيها مرتين، فمحمد بن عبد القوي هو الذي قاد عسكر بني توجين إلى تونس وليس ابنه زيان كما يقول ابن خلدون (وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان)[٤]، اعتماداً على نص آخر لابن خلدون في موضع آخر من كتابه جاء فيه : (ولما نزل النصارى والإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وطمعوا في ملك الحضرة بعث المستنصر إلى ملوك زناته بالصريخ فصرفوا وجوههم إليه وخف من بينهم محمد بن عبد

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.
(٢) انظر وثيقة المعاهدة – الملحق الأول.
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.
(٤) ابن خلدون المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣.

القوي في قومه ومن احتشد من أهل وطنه ونزل على السلطان بتونس وأبلى في جهاد العدو أحسن البلاء وكانت له في أيامه معهم مقامات مذكورة ومواقف مشهورة وعند الله محتسبة معدودة[1]) لذلك ربما كان الناسخ هو الذي تسبب في هذا الخطأ.

وما يستلفت انتباه الباحث هو إسناد هذه المهمة لابن عبد القوي، ألم يكن في رجالات بلاط المستنصر من يستطيع القيام بها؟ ثم إنه لم يكن من مشيخة الفقهاء التي ذكر ابن خلدون أن المستنصر أرسلها إلى الصليبيين، لقد كان أمير قبيلة وهو للعسكرية أقرب منه للسياسة ولم يكن في عداد الطبقة المثقفة، فما هي الأسس التي تم اختياره لهذه المهمة بموجبها؟ كل هذه التساؤلات لا تسعفنا لا الوثيقة ولا المصادر المتيسرة بإجابات عليها. وما نراه في هذا الموضوع هو أنه ربما كان المستنصر حينما لمس المعارضة من أهله وبعض رجالات دولته البارزين لعقد الصلح كما سبق أن ذكرنا بحث عن شخصية قوية مؤيدة له فيما عزم عليه من الصلح، تدعمها عصبية قوية يستطيع الاعتماد عليها في الوقوف في وجه المعارضة، فوجدها في محمد بن عبد القوي المذكور[2]، ذلك أن المعاهدة لم تقصر دوره على أن الصلح عقد على يده، وإنما أعطته دوراً آخر أكثر خطورة من الأول إذ جعلته شريكاً متضامناً مع المستنصر وولي عهده في الالتزام بتنفيذ شروط الصلح، فقد جاء فيها : (وأمير المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدوا على دينهم وأمانتهم لتمام ذلك)[3]، ومكافأة من المستنصر له على هذه المساندة والدعم أجزل الصلة له ولقومه إذ يقول ابن خلدون أنه عندما (ارتحل العدو عن الحضرة

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص١٥٦ – ١٥٧.

(٢) كانت العلاقة بين أمير توجين محمد بن عبد القوي والمستنصر الحفصي قوية، تعود في أصلها إلى أيام والديهما، إذ يقول ابن خلدون في ذلك إنه حينما زحف أبو زكريا الأول الحفصي إلى المغرب الأوسط لحرب بني زيان (دخلت في طاعته قبائل صنهاجة وفرت زناته أمامه وردد إليهم الغزو فأصاب منهم وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي بن العباس أمير توجين فاعتقله بالحضرة ثم منّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى إذا ملك تلمسان ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه وأذن له في اتخاذ الآلة فكانت أول مراسم الملك لبني توجين).

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه أسنى السلطان جائزته وعمم بالإحسان وجوه قومه وعساكره وأقطعه بلاد مغراوة وأوماش من وطن الزاب وأحسن منقلبه ولم يزل بعد ذلك معتقلاً بطاعته مستظهراً على عدوه بالانحياش إليه)(١).

وتمضي الوثيقة بعد ذكر الشروط فتذكر أسماء باقي أعضاء الوفد في ذيلها على هيئة شهود على معاهدة الصلح، وهم عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي، وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القاسم بن أبي بكر التجيبي، وبمقارنة هذه الأسماء بالأسماء التي ذكرها ابن خلدون نجد أن ابن خلدون أحل أحمد بن الغماز محل عبد الحميد بن أبي البركات(٢)، وفي اعتقادنا أن هذا وهم من ابن خلدون، فلو كان ابن الغماز من ضمن أعضاء الوفد أو أنه كان في منصب رسمي قاضياً للجماعة بتونس لما أغفلت الوثيقة ذكره، ذلك أنه ولي قضاء الجماعة بتونس نحو سبع مرات وتوفي وهو على ولايته(٣)، فقد يكون هذا الصلح قد عقد في وقت كان فيه معزولاً عن القضاء لذلك لم يرد اسمه في المعاهدة(٤)، ويبدو أن عبد الحميد بن أبي البركات الذي قال عنه ابن فرحون أنه ولي قضاء الجماعة بتونس(٥) كان يحل محله في ذلك المنصب في تلك الآونة(٦)، وأما علي التميمي فلم أقف له على ترجمة في المصادر المتيسرة وإن كان يبدو كما يفهم من الوثيقة أنه أحد القضاة ولا يقل علماً وفقهاً عن زميليه. وأما أبو القاسم بن أبي بكر التجيبي والمعروف بابن زيتون(٧) فهو مفتي إفريقية وقاضيها في زمن أبي زكريا وابنه المستنصر ومن أشهر

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص١٥٧.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ج١ ص٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) انظر ترجمته في الغبريني : عنوان الدراية ص١٢٩ - ١٣٠، ابن فرحون : المصدر السابق ج١ ص٢٤٩ وما بعدها. ابن القاضي : درة الحجال ج١، ص٧٩ - ٨٠.

(٥) ابن فرحون : المصدر السابق ج٢ ص٢٦.

(٦) انظر ترجمته في الغبريني : المصدر السابق ص١٢٢ - ١٢٣، ابن فرحون : المصدر السابق ج٢ ص٢٥ - ٢٦، ابن القاضي : درة الحجال ج٣ ص١٦١ - ١٦٢.

(٧) انظر ترجمته في الغبريني : المصدر السابق ص١١٤ - ١١٥، ابن فرحون : المصدر السابق ج١ ص٣١٠ - ٣١١. حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ص٦٤. وما بعدها.

تلامذة الإمام المازري وهو الذي تولى كتابة وثيقة الصلح.

ولم يقتصر دور هؤلاء القضاة على المفاوضة وإنما على الشهادة أيضاً (بانعقاد الصلح وصحته وثبوته)[(١)]، وتعني هذه الشهادة أن الصلح والشروط الواردة في المعاهدة الخاصة به صحيحة من الوجهة الشرعية وملزمة وواجبة التنفيذ، ذلك أنه كانت قد جرت العادة أن يحضر مثل هذا الصلح السياسي الهام كبار الفقهاء كمستشارين ويشهدون بالإضافة إلى ذلك بأن عقد الصلح وشروطه ملائمة من الوجهة الشرعية والقانونية لمصحلة الأمة وغير مجحفة بها ولا تلحق بها ضرراً[(٢)]، فشهادة هؤلاء الذين كانوا نخبة فقهاء إفريقية كانت كافية لإقناع مسلمي إفريقية بصحة الصلح وعدالة شروطه وبالتالي توفير الدعم الشرعي للمستنصر في عقده.

تعريف بوثيقة المعاهدة :

كانت هذه الوثيقة محفوظة بمصلحة الوثائق الوطنية بفرنسا تحت رقم (297 / J / 1) ثم نقلت حيث عرضت في متحف الوثائق بباريس تحت رقم (A E 1114) وقد كتب على ظهرها العبارة اللاتينية التالية :

Lettra Rigis Tunicii - rega inita inter dominos Francie et Navarre reges et ipsum.

وتعنى : (رسالة ملك تونس المتعلقة بالصلح والمعاهدة بينه وبين سادة فرنسا وملكها وملك نفارة)، وتوجد حالياً صورة شمسية منها محفوظة في متحف قرطاج بتونس، وبالرغم من أن العبارة اللاتينية الآنفة الذكر توضح مضمون هذه الوثيقة، إلاّ أن المؤرخين لم يتنبهوا لها إلاّ منذ أوائل القرن الماضي حينما نشر Silvestre de Sacy بحثه عنها[(٣)] في المجلة الآسيوية سنة ١٨٢٥م بعنوان :

Memoire sur la traite fait entre Philippe le Hardi et le Roi de Tunis en

---

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص٤٢.

(٣) العامري : المرجع السابق ص٤٢.

1270 pour l' evacuation du Territoire de Tunis par les Croises

ومنذ ذلك الوقت ظهرت لها ترجمات في مؤلفات عديدة مثل كتاب (De Mas La-trie) المسمى :

Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les christians avec les Arabes de l' Afrique septentrionale au Moyen - Age.

الذي صدر في باريس سنة ١٨٦٦م، وكتاب (Mauroy) المسمى :

Precis de l' Histoire et du Commerce d' Afrique septentrionale

كما نشر (Rousseau) ترجمة فرنسية لها في حوليات تونسية (Annales Tuni-siennes) في الجزائر سنة ١٨٦٤م وكذلك Rouard de Card في كتابه :

(Traites de la France avec les d' pays de d' Afrique du Nord)

اتخذت الترجمة العربية الواردة في كتاب De Mas Latrie أساساً لها، والذي صدر في باريس سنة ١٩٠٦م[١]، أما النص العربي فلم ينشر إلا في أوائل هذا القرن حينما نشره قاريو سنة ١٩١٢م[٢]، وقد أعاد August Bailly نشر الوثيقة المتضمنة لهذا النص في كتابه المسمى Saint - Louis والذي صدر في باريس سنة ١٩٦٥ وعنه صورت النسخة التي أرفقتها بهذه الدراسة، وأخيراً نشرها الدكتور محمد الطالبي مع عدة وثائق أخرى تتعلق بحملة لويس التاسع على إفريقية في كراسات تونس Les Cahiers de Tunisie سنة ١٩٧٧م تحت عنوان :

Document divers Relatifs a la Croisade de Saint Louis contre Tunis (1270)

وبالرغم من نشر هذه الوثيقة أكثر من مرة، إلاّ أنها لم تدرس الدراسة العلمية الكافية هذا بالإضافة إلى أنها لم تدرس أصلاً من وجهة النظر الإسلامية، وقد اكتفت المراجع الغربية وبعض العربية التي تعرضت لها بذكر بعض التعليقات عليها أو الإشارة إلى بعض بنودها،

---

(١) M. Talbi : Op. Cit., p.225.

(٢) العروسي المطوي : المرجع السابق ص١٠٢ حاشية ٤.

حتى بحث Silvestre de Sacy الآنف الذكر لم يتعرض إلاّ لزاوية واحدة منها هي ما تضمنته من بنود تتعلق بممارسة النصارى لنشاطاتهم الدينية في إفريقية. وكل هذه التعليقات اعتمدت على الترجمة الفرنسية وما تضمنته المصادر المسيحية من معلومات حول هذا الموضوع مثل رسائل Pirre de Condet لاسيما رسالته الثالثة الموجهة إلى رئيس دير القديس دينيس التي سبق أن أشرنا إليها والتي تضمنت تلخيصاً لشروط الصلح الواردة في هذه الوثيقة، ثم تاريخ نانجي Guillaume de Nangis والذي كان مصدراً أساسياً لهذه التعليقات. وطالعنا De Sacy في بحثه الآنف الذكر برأي غريب حول النص العربي الذي نحن بصدد دراسته مفاده أن هذا النص ما هو إلاّ ترجمة عربية لنص المعاهدة الأصلي الذي كان قد حرر بالفرنسية في ١١ نوفمبر سنة ١٢٧٠ ولم يعثر عليه وأن هذه الترجمة قد كتبت بعد الأصل الفرنسي ببضعة أيام(١)، ونعتقد أن في قبول هذا القول، الذي لا يقوم على دليل ملموس، كثير من المجازفة، وعلى أية حال فإن لنا رأي آخر في هذه الوثيقة نعرضه فيما يلي.

ملاحظات عامة على الوثيقة :

إن أول ما يلاحظ على هذه الوثيقة هو الأسلوب الذي كتبت به فهو أسلوب حجة شرعية أقرب منه إلى أسلوب المعاهدات الدولية، ومع أن من المفروض أن يكون الذي كتبها هو القاضي ابن زيتون الذي سبق أن أشرنا إلى مكانته العلمية الرفيعة، إلاّ أننا نلمح في مواضع عديدة في الوثيقة ضعفاً في الأسلوب لا نعتقد أنه يصدر عن قاض فقيه له مكانته العلمية كابن زيتون، ويظهر ذلك بجلاء منذ الجملة الأولى فيها (هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه)(٢)، والأمر الآخر الملفت للنظر هو كثرة الأخطاء الإملائية التي تظهر في عدة مواضع فيها مثل كلمة (ءاله) في السطر الأول، وكلمة (تعلى) بدلاً من (تعالى) في السطر الثالث، وكلمة (طاعطهم) بدلاً من (طاعتهم) في السطر الخامس، وكلمة (يخذمون) بدلاً من (يخدمون) في السطر الخامس عشر، وكلمة (بيد) بدلاً من (ببلد) في السطر العشرين

---

(١) M. Talbi : Op. Cit., p.256.

(٢) انظر وثيقة معاهد الصلح.

و(ذالك) بدلاً من (ذلك) في السطر الخامس عشر،وغيرها من الأخطاء التي لا نعتقد أن يقع ابن زيتون فيها، مما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الوثيقة ليست هي الأصلية وإنما هي نسخة عنها قديكون أحد الكتاب في ديوان المستنصر قد نسخها عن الأصل الذي كتبه ابن زيتون حيث سلمت للصليبيين، أما الأصل فربما حفظ بديوان المستنصر ثم فقد بعد ذلك وأن الناسخ هو الذي وقع في هذه الأخطاء، ومما يقوي هذا الاعتقاد لدينا ما ذكره ابن خلدون عن الملك شارل إذ يقول : (واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته)[1]، فالمستفاد من هذا النص أن شارل عقد صلحاً مستقلاً مع المستنصر يخص صقلية وحدها أو بالأحرى مملكة الصقليتين، والأقرب للمنطق أن يكون ذلك بوثيقة منفصلة، أو على الأقل ملحق للأولى، فكيف ظهرت شروط الصلحين في وثيقة واحدة؟ إن الأرجح في اعتقادنا أن يكون الناسخ هو الذي قام بذلك وجمع الوثيقتين في وثيقة واحدة، ذلك أن هذه الوثيقة لم تتعرض لموضوع الأتاوة التي ستؤدى للملك شارل والذي هو الأساس الذي بني عليه الصلح بين شارل والمستنصر إلاّ في بالنهاية وبعد أن كادت الوثيقة تختتم وسجلت شهادة الشهود وقسم المستنصر وولي عهده ومحمد بن عبد القوي على الالتزام بتنفيذها واحترام الشروط الواردة فيها ثم أرخت ولم يبق إلا تسجيل شهادة القضاة عليها لإثبات صحتها من الوجهة الشرعية، وإذا بالنص المتعلق بالملك شارل يبرز فجأة، الأمر الذي يدل على أنه أضيف على الوثيقة بل أقحم عليها إقحاماً، ولا تخفي الوثيقة إضافته إذ استهل هذا النص بالقول (ويضاف إلى هذا العقد...)[2] مما يجعلنا نشك كثيراً في أن يكون هذا هو النص الأصلي.

ولو كان الأمر على غير ما ذهبنا إليه لكان من المنطقي والأصح أن يجري التعرض له في غير هذا الموضوع أي عند ذكر الشروط الأخرى للصلح، ولا يمكن أن يقوم هناك احتمال في أنه قد يكون اتفق على هذا الشرط بعد كتابة باقي الشروط المتفق عليها لأن موضوع الأتاوة كان هدفاً رئيسياً للملك شارل الذي كان وراء عقد الصلح، والشخصية

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

المسيطرة على الحملة، وهذا الموضوع هو الوحيد الذي كان قد بقي معلقاً بينه وبين المستنصر دون التوصل إلى حل له، ولا يمكن إغفال مثل هذا الشرط الهام بالنسبة له أو تأجيل التوصل إلي حل له إلى ما بعد الاتفاق على باقي الشروط، بل العكس هو الأصح ذلك أن شارل رأى في الحملة فرصة ذهبية لفرض مطالبه على المستنصر وحمل الأخير على الموافقة عليها، وعندما تمكن المستنصر من استرضاء شارل، وموضوع الأتاوة بطبيعة الحال أول أسباب هذا الرضا، قام هذا بإقناع ابن أخيه الملك فيليب وباقي زعماء الحملة بالصلح، ويؤكد ذلك ما ذكره (Pierre de Condet) في رسالته الثالثة عن موضوع الصلح حيث يقول : (وعندما وصل – شارل – ووجد أخاه قد توفي حقق بالقوة فيما اعتقد هدفه الذي لم يستطع تحقيقه بالمفاوضات، وإثر ذلك مباشرة أرسل إليه ملك تونس مقترحات تهدف كلها إلى تحقيق السلام، لم تبلغ مسامع الجيوش)(١)، ولذلك فإن موضوع الأتاوة في رأينا كان هو مفتاح السلام، وتبعاً لأهميته فإنه كان جديراً بأن يتصدر باقي الشروط في الوثيقة إن لم يكن يستحق أن يكتب في وثيقة منفصلة.

ثم إن الأتاوة كانت خاصة بصقلية التي تعتبر مستقلة عن التاج الفرنسي، والأقرب إلى المنطق أن يحتفظ شارل بوثيقة تتضمن الشروط الخاصة بمملكته في ديوان وثائق تلك المملكة للرجوع إليها عندالحاجة بدلاً من الرجوع إلى باريس، وكون العبارة اللاتينية المكتوبة على ظهر الوثيقة والدالة على مضمونها والتي ذكرناها آنفاً لا تذكر اسم شارل إلى جانب اسم ابن أخيه وملك نفارة، مما يعطينا انطباعاً بأن ما في هذه الوثيقة لم يكن يعني شارل وأنه تبعاً لذلك كان قد احتفظ هو بوثيقة أخرى غير هذه الوثيقة، ولعل ذكر ما يخص شارل في نسخة الملك الفرنسي لم يكن إلاّ من قبيل الاطلاع والحفاظ على شعوره، كل هذه المعطيات ترجح وجهة نظرنا في أن هذه الوثيقة ليست هي الأصلية وأن الناسخ جمع نصوص وثيقتين في وثيقة واحدة هي التي نحن بصدد دراستها.

بقي أن نذكر أن هذه الوثيقة قد كتبت على ورقة من الحجم الكبير، وعدد أسطرها ٢٩ سطراً بما في ذلك سطر البسملة وسطر تواقيع القضاة، بمعدل ٣٠ كلمة في السطر

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.229 - 30.

الواحد، وختمت بختم أحمر قد شد بخيوط حريرية حمراء وخضراء ويحمل علامة المستنصر التي يبدو أن De Sacy لم يفهمها فقال عنها إنها (تعويذة عربية)[1].

أسس الصلح :

وبدراسة هذه الوثيقة يتضح لنا أن الشروط الواردة فيها تدور حول ثلاثة مواضيع رئيسية هي :

أ – الناحية الاقتصادية

ب – الناحية السياسية

جـ – الناحية الدينية

والتي سنتناولها فيما يلي بالدراسة والتحليل :

أ – الناحية الاقتصادية :

كانت الناحية الاقتصادية أول موضوع تعرضت له هذه الوثيقة وقد خصتها بقسم كبير من بنودها مما يدل على أهمية هذه الناحية بالنسبة للمتعاقدين، ويتمثل ذلك في تنظيم العلاقات التجارية بين كلا الطرفين من ناحية، ثم تأمين الطرق التجارية البحرية من ناحية ثانية، ويتبع ذلك موضوع الغرامة الحربية والأتاوة لملك صقلية من ناحية ثالثة، فأما بالنسبة لتنظيم العلاقات التجارية فقد تعرضت شروط المعاهدة لهذا الأمر بتفصيل كبير يؤكد ضخامة حجم التبادل التجاري بين إفريقية والدول المسيحية والفائدة الكبيرة التي يحصل عليها كل منهما من جراء ذلك، فهي كفلت الحرية التجارية بين الطرفين ليس بحدود بلدانهما وقتئذٍ وإنما المستقبلية أيضاً، فللتجار المسلمين من رعايا المستنصر آنذاك والمستقبليين الذين يترددون بتجارتهم على بلاد الطرف الآخر في المعاهدة الأمن والحماية (لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أوقليل)[2]، وإذا تعرض أي من هؤلاء التجار لأي عدوان

(١) M. Talbi : Op. Cit., 272.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

في نفسه أو ماله من قبل أحد من رعايا ملوك النصارى وزعمائهم المذكورين في المعاهدة سواء أكان هؤلاء التجار في أحد المراسي التابعة لهم أو واردين إليها أو صادرين عنها، فعلى هؤلاء الملوك والزعماء تعويض المسلمين عن هذا العدوان ورد ما أخذ منهم، وكذلك إذا كسر أي مركب للتجار المسلمين أو مركب للنصارى فيه أحد من المسلمين أو أموال تخص المسلمين في أحد الموانئ التابعة لهؤلاء الملوك والزعماء، فإن عليهم كل فيما يخصه حفظ ما يتم إنقاذه من هذه الأموال وردها للمسلمين، ويرتبط هذا البند بظاهرة عامة كانت تتعرض لها الملاحة البحرية في العصور الوسطى، هي كثرة جنوح السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط بسبب تأخر وسائل الملاحة والجهل بمسالك البحار، كما كانت هنالك صعوبة أخرى طالما اعترضت النقل البحري في تلك العصور، سببها المبدأ الذي كان سائداً خلالها، وهو أنه إذا جنح مركب وألقى به الموج أو ألقى بالبضائع التي يحملها على الشاطئ، فإنها تصبح غنيمة حلالاً لصاحب الأرض التي جنح المركب إليها، وقد أشار ابن جبير لهذا التقليد في رحلته[1]، ولذلك دأب سكان الشواطىء أحياناً على وضع عقبات مصطنعة في طريق السفن لاصطيادها وسلبها باسم العرف والتقاليد[2]، لذلك حرص الجانب الإسلامي في المعاهدة على التمسك بهذا الشرط للمحافظة على حقوقه وإبطال مفعول هذا التقليد. وفي مقابل ما تقدم، تعهد المستنصر بتوفير الحماية والأمن للتجار النصارى من رعايا هؤلاء الملوك والزعماء وسواهم الذين يترددون على الدولة الحفصية في أنفسهم وأموالهم (محفوظين في ترددهم وإقامتهم)[3]، وشرطت لهم المعاهدة ما لملوكهم من الحقوق والواجبات (سوا حرف بحرف)[4]، وهذه الحماية المتبادلة التي منحتها المعاهدة للتجار من رعايا الطرفين هي من الشروط الشهيرة التي وردت في معظم المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والنصارى في العصور الوسطى، وبصفة خاصة في عصر الحروب الصليبية[5].

---

(١) انظر ابن جبير: المصدر السابق ص٢٩٥.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٨ – ٤٩.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

(٤) انظر وثيقة المعاهدة.

(٥) د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٥.

ولكن ما يستلفت انتباه الباحث حقاً في هذا المقام، هو أن نصوص المعاهدة كانت بالنسبة لتجار النصارى أعم وأشمل منها بالنسبة لتجار المسلمين، فقد منحت هذه الامتيازات لفئات أخرى من تجار النصارى، فهي لم تقصر حماية المستنصر والتزامه بتوفير الأمن وحفظ الحقوق وباقي الامتيازات الواردة في المعاهدة على التجار من رعايا هؤلاء الملوك والزعماء، وإنما ألزمت المستنصر أيضاً بمنح هذه الامتيازات لـ (جميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم)[1] أي بإمكان كافة تجار النصارى الذين يترددون إلى إفريقية الاستفادة منها في حين أنها لم تقدم المقابل للمستنصر، فالمسلمون الذين تعرضت المعاهدة لذكرهم هم رعايا المستنصر فقط، ومعنى ذلك أنه يجوز مثلاً للتجار القطلان والجنويين وغيرهم من الإيطاليين التمتع بهذه الامتيازات كونهم أصدقاء هؤلاء الملوك والزعماء، ولا يجوز لباقي المسلمين من غير رعايا المستنصر حتى ولو كانوا من رعايا أصدقائه الاستفادة منها، وفي ذلك غبن واضح. يضاف إلى ذلك أن هذه الشروط بالرغم من مساواتها الظاهرية بين التجار النصارى والتجار المسلمين في الحقوق إلاّ أنها في حقيقتها وعملياً كانت لحماية التجار النصارى، ذلك أن زمام نقل التجارة بين عدوتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية كان قد انتقل إلى أيدي النصارى منذ وقت طويل، فهم الذين كانوا يترددون على إفريقية بدرجة تفوق كثيراً تردد التجار المسلمين على بلاد النصارى بدليل وجود الكثير من فنادقهم وقيسارياتهم في مدن إفريقية وندرة وجود مثيلاتها للمسلمين في المدن الأوروبية، الأمر الذي يؤكد أن النصارى هم المستفيدون من هذه الشروط أكثر من التجار المسلمين بنسبة لا تصح معها المقارنة،وانحصرت استفادة الدولة الحفصية في غالبيتها في عائدات الجمارك التي كانت تحصل من التجار النصارى، وهي وإن كانت مبالغ لا يستهان بها، إلاّ أنها تبقى ضئيلة بالنسبة لما كان يجنيه تجار النصارى من أرباح، ولعل ما يدلنا على ضخامة هذه الأرباح التي كانوا يكسبونها من تجارتهم مع إفريقية هو ضمان هؤلاء التجار للمستنصر بالمبلغ المتبقي عليه من الغرامة الحربية لدى الجانب الصليبي كما جاء في المعاهدة، إذ لولا مصالحهم الكبيرة في إفريقية لما قدموا هذا الضمان، في حين أن التجار المسلمين لم يشاركوا

---

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

في تقديم مثل هذا الضمان مما يدل على ضآلة مصالحهم في بلاد النصارى، وفي موضوع اقتراض اللياني لمبلغ ضخم قيمته ثلاثمائة ألف دينار كما سبق أن ذكرنا دليل آخر – إن صحت الرواية – على ضخامة هذه المصالح.

كما نصت شروط المعاهدة على أن يلتزم المستنصر للتجار النصارى المقيمين في دولته دون استثناء (من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى)[1] بالسماح لهم بمعاودة مزاولة أعمالهم التجارية من جديد كما كانوا يمارسونها قبل العدوان وكأن ذلك العدوان لم يكن، وليس ذلك فقط، وإنما ألزم نفسه بأن يرد لهم كل شيء قد يكون (أخذ لهم وكل شيء لهم عند الناس وعلى الناس)[2] أي كل مالهم من ودائع أو ديون كائناً من كان لا يستثني من ذلك أحداً حتى نفسه إذا كانت قصة اللياني صحيحة، ولم تشرط المعاهدة مثل هذا الشرط للتجار المسلمين فيما إذا كان لهم ودائع أو ديون على التجار النصارى أو أموال في الممالك النصرانية، وفي هذا غبن آخر للمسلمين. وبذلك تكون حقوق النصارى محفوظة ومضمونة الأداء من الدولة، مما يعطينا انطباعاً بأن الامتيازات الأجنبية التي وجدت في إفريقية فيما بعد تعود في أصولها إلى هذه المعاهدة، وكل ما ألزمت به المعاهدة هؤلاء التجار هو عدم تدخلهم في الشؤون الداخلية للدولة الحفصية، فإن لهم هذه الامتيازات والحقوق (ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط هذا الصلح)[3]، ولعل في ذلك ما يشير إلى أمر هام هو خشية المستنصر من نفوذ هؤلاء في دولته الأمر الذي يمكن أن نستدل عليه من تعليل نكبة المستنصر لوزيره اللياني الذي كان على علاقة طيبة بهؤلاء، فقد ذكرت بعض الروايات أن السبب في نكبته هو أنه كان يعمل على إشعال الثورة على المستنصر في المهدية[4]، وإذا صحت هذه الروايات فإنه ليس من المستبعد أنه كان لأصدقائه من التجار النصارى الذين أقرضوه الأموال يد في الموضوع أو على الأقل علم به ورضى عنه بغية إضعاف الدولة الحفصية بل والعمل على تمزيقها. وربما كان لهم نشاطات أخرى

---

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

(٤) M. Talbi : Op. Cit., p.249 - 50.

فحاول المستنصر بهذا الشرط أن يكفهم عن التدخل في شؤون دولته.

ولضمان حرية التجارة نبهت المعاهدة على وجوب محاربة القرصنة فاشترطت على ملوك وزعماء الحملة الصليبية أن (يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم، وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من ساير الأجفان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين ومما ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزاير والسواحل والمراسي، أو على أحد من ساكنيها...)[1] ولم تشترط مثل ذلك على المستنصر ليكف عادية رعاياه على بلاد هؤلاء الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من أن مسلمي إفريقية لم يكونوا يمارسون أعمال قرصنة وقتئذٍ ضد بلاد النصارى وسفنهم بل إن العكس هو الصحيح وأن قراصنة النصارى هم الذين كانوا يعتدون على إفريقية، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لما أغفلته معاهدة الصلح، لذلك اشترط المستنصر على هؤلاء الملوك والزعماء لا أن يكفوا عدوان هؤلاء على الدولة الحفصية فحسب، وإنما أيضاً ألاّ يشجعوا أو يعينوا أحداً على هذا العدوان حيث أكدت المعاهدة هذا الأمر في شرط آخر تال.

وتبعاً لذلك، فما أن أقرت المعاهدة بين الطرفين حتى نسي كلاهما العدوان، وعملا على إزالة آثاره بسرعة مذهلة، وكانت مملكة أرغونة هي السباقة في ذلك فقد سارعت لتوثيق العلاقات التجارية بينهما وبين إفريقية، فعقدت معها في سنة ١٢٧١م معاهدة تجارية هي امتداد للمعاهدات السابقة بينهما، ثم تبعتها بعد ذلك في هذا الأمر كبريات المدن الإيطالية، ففي نفس ذلك العام أي سنة ١٢٧١م عقدت معها كل من بيزا والبندقية اتفاقيات تجارية مماثلة. وفي العام التالي أي في سنة ١٢٧٢م تمكنت جنوة من الفوز هي الأخرى باتفاقية مماثلة[2]، ولعل السبب في تأخر جنوة عن منافستيها في عقد تلك الاتفاقية هو الاختلاف في مواقفها من الحملة، فبينما فشلت المفاوضات التي دارت بين لويس التاسع والبندقية لاستئجار أسطول الأخيرة لنقل الحملة كما سبق أن ذكرنا، ووقفت جزيرة سردينيا التي كانت ملتزمة بتنفيذ سياسة بيزا آنذاك لكونها تابعة لها من الحملة موقفاً عدائياً

---

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨١.

كما ذكرناه أيضاً، وافقت جنوة على تأجير أسطولها للملك الفرنسي، ومثلت دوراً لا يقل عن دور الشريك في الحملة. ولكن تمكنها من عقد هذه الاتفاقية مع الدولة الحفصية بهذه السرعة يدل دلالة واضحة على تناسي الطرفين للعدوان. وتعتبر هذه الاتفاقيات في حقيقتها استمراراً أو تجديداً لاتفاقيات سابقة أكثر من كونها اتفاقيات جديدة، وقد تركزت بنودها على أمور تجارية بحتة لا تختلف في مضمونها عن الاتفاقية المعقودة بين بيزا والسلطان ابن اللحياني الحفصي في سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م التي درسها الدكتور سعيد عاشور في بحثه (بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية) والتي يمكن اتخاذها نموذجاً لتلك الاتفاقيات[١].

ومن الممكن بحث موضوع الغرامة الحربية التي نصت عليها المعاهدة في هذا المقام لعلاقتها الوثيقة بالناحية الاقتصادية وإن كانت من ناحية أخرى تتصل بالناحية السياسية، ولكنها مع ذلك هي بالناحية الاقتصادية أكثر ارتباطاً. فقد بينت المعاهدة مقدارها بوضوح الأمر الذي كان موضع خلاف بين المؤرخين المسلمين، فابن خلدون لم يحدد مقدارها وإنما قال إن السلطان قد أغرم (الرعايا مما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية يقال إنه عشرة أحمال من المال)[٢]، ويؤيده في ذلك حمودة بن عبد العزيز الذي يكرر نفس هذا النص بحرفيته[٣]، ومعنى ذلك أن هذه الأحمال العشرة التي لا نعرف مقدارها بالضبط كانت جزءاً من الغرامة التي التزم بها المستنصر للصليبيين، وأما ابن الشماع[٤] فيقول إن هذه الغرامة كانت (ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة الخالصة)، ويؤيده في ذلك ابن أبي دينار)[٥]، والوزير السراج[٦]، في حين يقول ابن القنفذ إنها كانت (ألف قنطار من الفضة)[٧]، وكان من الممكن أن يتسبب هذا التضارب في الروايات في اختفاء الحقيقة لولا

(١) انظر د. سعيد عاشور : بعض أضواء علي العلاقات بين بيزا وتونس ص٤٥ وما بعدها.
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.
(٣) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.
(٤) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.
(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٦.
(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.
(٧) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣٢.

أن المعاهدة بينتها بجلاء حيث نصت على أن مقدار تلك الغرامة كان (مايتا ألف أوقية ذهباً وعشرة آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما مقداره خمسون درهماً من دراهمهم في الوزن والطيب)(١)، أي أنها كانت عشرة ملايين وخمسمائة ألف درهم يقدرها (K. M. Setton) بحوالي خمسمائة وخمسة وعشرون ألف ليبرة (Livre)(٢) وليس من اليسير معرفة أي هذه الروايات أقرب إلى الصحة لصعوبة معرفة ما يزنه القنطار من الدراهم مع ملاحظة اختلاف وزن القنطار نفسه من بلد إسلامي لآخر، فالقنطار الشامي مثلاً يختلف عن القنطار المصري وهكذا. وكانت رواية (Pierre de Condet) التي وردت في رسالته الثالثة مطابقة لما نصت عليه المعاهدة في هذا الموضوع(٣) الأمر الذي يوحي بقسط كبير من الثقة في ما ذكره من أمور تتعلق بنصوص هذه المعاهدة.

وكما توافقت رواية (Pierre de Condet) مع المعاهدة في مقدار هذه الغرامة طابقتها في أمر آخر هو كيفية تقسيطها، فبينما لم يذكر ابن خلدون كيفية هذا التقسيط، ويروي ابن الشماع أن هذه الغرامة قد قسطت على مدى خمسة عشر عاماً(٤) فإن المعاهدة قد نصت على أن يدفع نصف هذا المبلغ معجلاً أي قبل رحيل الصليبيين (والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين)(٥)، وإذا عدنا إلى النص الذي سبق هذه الجملة والذي حدد مدة المعاهدة بخمسة عشر عاماً شمسية (أولها شهر نوفمبر المتصل بأكتوبر الموافق لشهر التاريخ)(٦) لتبين لنا أن آخر كل عام تعني بداية شهر نوفمبر من العام الذي يليه وبناءً على ذلك فإن قول Pierre de Condet بأن كل قسط من هذين القسطين يدفع في عيد القديسين الذي يوافق الأول من نوفمبر في كل

(١) انظر وثيقة المعاهدة.
(٢) الليبرة (Livre) هي وحدة نقد ذهبية كانت متداولة في فرنسا منذ عهد لويس التاسع.
(٣) Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.
(٤) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.
(٥) انظر وثيقة المعاهدة.
(٦) انظر وثيقة المعاهدة.

عام[1] يتفق مع ما جاء في المعاهدة. على خلاف ما ذكره ابن الشماع[2]، الذي خلط بين مدة التقسيط ومدة المعاهدة، أي أمد الصلح، فالخمسة عشر عاماً التي قال عنها إنها مدة التقسيط، هي في الحقيقة مدة الصلح وليست مدة التقسيط.

ويتصل بهذا الموضوع أمرآخر هو الأتاوة، فقد كرست المعاهدة الأتاوة التي كانت تدفعها الدولة الحفصية إلى حكومة صقلية وجعلتها حقاً واجب الأداء لملك صقلية أياً كان هذا الملك، وغيرت مفهومها الأساسي من كونها منحة أشبه ما تكون بتقاسم العائدات وتبادل المنافع لا تحمل في طياتها أي معنى للهيمنة أو حق المطالبة بها إن لم تدفعها تلك الدولة إلى أتاوة لا خيار لها في دفعها. ومما يستلفت النظر أن المعاهدة قد أغفلت ذكر مقدار هذه الأتاوة بخلاف ما جرى بالنسبة للغرامة الحربية التي نصت عليها بوضوح. فكل ما ورد فيها بالنسبة للأتاوة هو أن يؤدى إلى الملك شارل (عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدى للأنبرور سواء، ويؤدى للملك الأجل المذكور من اليوم رجا في كل عام ما كان يؤدى للأنبرورمثنياً)[3]، أي أن يدفع له عن خمسة أعوام ماضية نفس المبلغ الذي كان يدفع لملوك الهوهنشتاوفن، ولما كان شارل قد اعتلى عرش صقلية في فبراير سنة ١٢٦٦م وأن المعاهدة عقدت في نوفمبر سنة ١٢٧٠م، فإن معنى ذلك أن دفع تلك الأتاوة قد جرى احتسابه بنفس القيمة السابقة منذ تولي شارل لعرش صقلية تقريباً مقسطاً بذلك مطالباته التي كان يطالب المستنصر بها بدفع هذه الأتاوة عن جميع السنوات التي لم تدفع فيها منذ عهد الامبراطور فردريك الثاني ولحين اعتلائه هو العرش لأنها خلال هذه المدة لم تكن تدفع بانتظام كما سبق أن ذكرنا الأمر الذي تؤكده تلك الوثيقة التي عثر عليها في قنصلية نابلي والتي تبين أن هذه الأتاوة لم تدفع عن مدة ثلاث سنوات قبل اعتلاء شارل عرش صقلية[4]، ومن المرجح أن تكون هنالك سنوات أخرى لم تدفع فيها للخزينة الصقلية،

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

R. Brunsechvig : Op. Cit., Tom, 1, p.62., H. E. Mayer : Op. Cit., p.270.

(٢) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٧.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

(٤) عن هذ الموضوع انظر : R. Brunshchvig : Ibid, Tom, 1, p.53 - 4.

ولكن في مقابل ذلك نصت المعاهدة على أن تضاعف قيمة تلك الأتاوة منذ تاريخ عقدها.

وإذا كانت المعاهدة قد أغفلت ذكر قيمة هذه الأتاوة كما أغفلته المصادر الإسلامية الأمر الذي لا نجد له مبرراً، فإن بعض المصادر المسيحية لم تغفله، فقد بين (Pierre de Condet) مثلاً ذلك بوضوح، ولما كانت روايته عن الغرامة الحربية سواء في قيمتها أو كيفية تقسيطها قد طابقت ما جاء في المعاهدة عن كلا الأمرين، فإن ذلك يجعلنا نقبل ما قاله عن قيمة الأتاوة بقدر كبير من الاطمئنان، فهو يقول إن المستنصر التزم بأن يدفع لملك صقلية أتاوة لمدة خمسة عشر عاماً مقدارها (٢٤) أوقية ذهباً سنوياً بدل الاثنتي عشرة أوقية التي كان يدفعها في السابق، وسيبدأ في دفعها اعتباراً من السنة المقبلة، وقد دفع هذا الملك أتاوة خمس سنوات ماضية ستون أوقية ذهباً[1]، وكل ما في هذا النص عن هذا الموضوع يطابق ما ورد في نصوص المعاهدة باستثناء قيمة هذه الأتاوة التي لم تتعرض لها المعاهدة أصلاً، مما يعتبر دليلاً آخر على صحة رواية Pierre de Condet، وبذلك يتضح أن قيمة هذه الأتاوة التي كانت تؤديها الدولة الحفصية لملوك الهوهنشتاوفن كانت ١٢ أوقية ذهباً. وبالرجوع إلى نصوص المعاهدة التي حددت قيمة أوقية الذهب بخمسين درهماً فضياً يتضح أنها كانت تساوي ستمائة درهم، وقد قدرها (De Mas Latrie) بأنها كانت في عهد أبي زكريا الأول الحفصي والد المستنصر تتراوح بين (٣٢) و (٣٤,٣٣٣) قطعة ذهبية وهو ما يعادل (٣٢٦,١٣٦) فرنكاً فرنسياً بعملة عصرنا الحاضر[2]. وعندما تضاعفت أصبحت (١٢٠٠) درهماً.

وإذا كانت نصوص المعاهدة التي تعرضت لأمور التجارة كان الهدف منها تنشيط الحركة التجارية بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية مما يعود على كلا الطرفين بالنفع والفائدة، فإن كلا الغرامة الحربية والأتاوة كانتا غنيمة وفائدة خالصة للقوى الصليبية المشاركة في الحملة على حساب مصلحة الدولة الحفصية، إذ أن ذلك المبلغ الضخم الذي دفعه المستنصر للصليبيين استنزف الخزينة الحفصية، وقد عبر ابن الشماع عن ذلك بقوله : (وكان نزولهم – الصليبيين – على تونس سبباً في إتلاف الأموال التي تركها المولى أبو

---

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

(٢) M. Talbi : Op. Cit., p.246.

زكريا رحمه الله وغيرها مما جمعه السلطان بعد وفاته)[1]، ومع أن ابن الشماع حاول تعليل هذا الاستنزاف بأمر آخر غير الأتاوة والغرامة اللتين لم يتعرض لذكرهما في أوجه صرف هذه الأموال فقال إن (جميع الأرزاق للأجناد والأعراب والوفود كلها من بيت المال لانقطاع السبل وأسباب العيش)[2] صرفاً منه للأذهان عن الحقيقة مداراة للدولة التي كان في خدمتها، إلاّ أن هذه الحقيقة هي أوضح من أن يستطيع إخفاءها، فقد كانت الغرامة والأتاوة من الضخامة بحيث إنهما كانتا فعلاً هما السبب الأول والرئيسي في نضوب تلك الأموال.

وقد عمل المستنصر بعد رحيل الصليبيين على تعويض خزينته عن هذا المبلغ الضخم فطالب شعبه بأن يدفع له تلك الأموال، فدفع له منها عشرة أحمال على حد قول ابن خلدون كما سبق أن ذكرنا، والذي انفرد بهذا القول عن باقي المصادر الإسلامية التي اطلعت عليها، بالرغم مما كان يعانيه هذا الشعب من الضائقة الاقتصادية نتيجة للقحط والوباء اللذين أظلاّ إفريقية في تلك الآونة، الأمر الذي اعتبره شارل أندري جوليان[3] خطأ بأنه كان نتيجة لوعي من هذا الشعب، والأصح من قول جوليان أن الشعب في تلك المحنة كان مغلوباً على أمره استكره على دفعها، وبذلك يكون المستنصر قد امتص دم شعبه وقدمه غنيمة باردة للصليبيين وكان الأجدر به لو أنه كان يتمتع بالروح الإسلامية الحقة أن يقاوم الغزاة حتى يقضي عليهم أو يضطرهم للرحيل أو يأخذهم أسرى كما حدث لهم في مصر ليدفعوا هم له هذا المبلغ أو أكثر منه فدية لهم جزاء لهم على عدوانهم خاصة وأنهم كانوا يعانون من المتاعب أكثر بكثير مما كان يعاني بدلاً من أن يؤدي لهم هذه الأموال ثمناً للسلام ويعطي الدنية في دينه، فقد قال تعالى في محكم كتابه : **﴿قاتلوهم يُعَذِّبْهُمُ اللّه بأيديكم ويُخْزِهِم وينصركم عليهم ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين﴾**[4]، وقال أيضاً جل من قائل : **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فَضَرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاقَ فإما منّاً بعدُ وإما فداءً﴾**[5].

---

(١) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٨، انظر أيضاً الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٣.
وعن هذا الأموال التي تركها أبو زكريا انظر ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٣.

(٢) ابن الشماع : المصدر السابق ص٦٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٧.

(٣) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨١.

(٤) سورة التوبة آية (١٤).

(٥) سورة محمد آية (٤).

وبحصول الصليبيين على هذا المبلغ عوضوا خسائرهم المادية التي أنفقوها في الإعداد لتلك الحملة وربما فاقتها على خلاف ما ذكره K.M.Setton من أن ذلك المبلغ كان أقل من النفقات خاصة وأن الملك شارل أخذ ثلثه[1]، ذلك لو أنهم لم يعوضوا خسارتهم لما قبلوا بالصلح خاصة وأن المستنصر كان على استعداد لدفع أي مبلغ يطلبونه، وكان نص ابن خلدون واضحاً في هذا الموضوع حيث يقول : (فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم وترجع بقومها فأسعفها السلطان)[2]، وبذلك تحولت الحملة ذات الأهداف الكبيرة إلى تحقيق المكسب المادي فأصبحت تبعاً لذلك لا تختلف كثيراً عن غارات القراصنة، ولم يعد هنالك فارق كبير بينها وبين الحملة التي شنها البيازنة والجنويون على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م أي قبل ذلك بحوالي قرنين، كما أنها أصبحت نموذجاً احتذتها الحملات الأخرى التي شنها الصليبيون على إفريقية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) مثل الحملة على طرابلس سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وحملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م كما سيأتي ذكره.

ب – الناحية السياسية :

تعرضت المعاهدة لعدة أمور سياسية هامة أولها إرساء أسس سياسة حسن الجوار بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية المشاركة في الحملة، وأول هذه الأسس كان إلزام ملوك هذه الدول بكف عدوانهم عن إفريقية طوال مدة المعاهدة بطبيعة الحال، فلا يباشرون هذا العدوان بأنفسهم أو يمدون يد العون والمساعدة لمن يروم ذلك أو يشجعونه عليه، فعليهم أن (لا ينجدوا لمن يتحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده)[3]، وإغفال المعاهدة لإلزام المستنصر بمثل هذا الشرط بالمقابل يؤدي بنا إلى حقيقة هامة هي أن العدوان كان يشن من قبل الجانب الصليبي على إفريقية، وهذا ما تؤكده العديد من الروايات التي وردت في المصادر التاريخية حيث كان الصليبيون يعتدون عليها كلما وجدوا غرة، وأن الصليبيين لم

---

(١) K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.517.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج٦ ص٢٩٣ – ٢٩٤.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

يكونوا يخشون من غارات المسلمين على بلادهم، هذا علاوة على أن سياسة المستنصر التي كانت قائمة على مبدأ عدم الاعتداء على النصارى كانت معروفة لديهم، ويبدو أنه نظراً لهذين السببين لم يجد المتعاقدون هنالك ثمة حاجة للنص على هذا الأمر في المعاهدة، ولولا ذلك في اعتقادنا لما أغفلت ذكره.

وثاني هذه الأسس هو عدم إيواء أي من ملوك وزعماء الصليبيين المذكورين في المعاهدة أياً من أعداء المستنصر في بلادهم، وفي مقابل ذلك تعهد المستنصر لا بعدم إيواء أعداء هؤلاء في بلاده منذ تاريخ توقيع هذه المعاهدة فحسب، وإنما أيضاً بإخراج الذين كانوا موجودين بالفعل في بلاده قبل توقيع المعاهدة ومنعهم من العودة إليها مرة أخرى (ولا يعاد يقبل)[1]، وواضح أن المعني بهذا الشرط أكثر من غيره هو الملك شارل ذلك أن الدولة الحفصية كانت الملاذ لمناوئيه في صقلية من أنصار الهوهنشتاوفن كما ذكرنا، ويتخذون منها قاعدة لممارسة نشاطاتهم المعادية له وإثارة المتاعب في وجهه في جزيرة صقلية أمثال (Fredric de Castella) و (Fredric Lancia) اللذين يعتقد برنجفيك Brunschvig أن هذا الشرط لم يوضع في المعاهدة إلاّ من أجلهما[2]. وإذا كان هذا هو ما يفهم لأول وهلة من هذه الشروط بوضوح، فإنه يفهم منها كذلك أنها غلت يد مسلمي إفريقية عن مد يد المساعدة لبقايا المسلمين في صقلية الذين كانوا على ما يبدو قد انتهزوا فرصة نشوب المشاكل التي أودت بحياة الملك مانفرد (Manfrid) وأدت إلى اعتلاء شارل عرش الجزيرة فأشعلوا الثورة التي استمرت إلى ما بعد اعتلائه ذلك العرش مما جعله يحاول استرضاءهم والقضاء على تمردهم بإصدار أمره إلى نا ئبه في الجزيرة لإسناد أعلى المناصب الإدارية في حكومتها للمسلمين كما سبق أن ذكرنا، فقضت هذه المعاهدة على آخر أمل لهؤلاء المسلمين في الخلاص، ذلك أن مسلمي إفريقية كانوا هم السند الطبيعي لهؤلاء والمصدر الأكثر احتمالاً للمساعدة التي يتلقونها، مما كان له أثر فعال في إطفاء آخر جذوة لثورة المسلمين في الجزيرة، ومنذ

---

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.442.

ذلك الوقت لم يعد يسمع عن ثورة إسلامية خالصة فيها، وبذلك اطمأن شارل على عرشه فيها وتفرغ لمشاريعه في شرق البحر الأبيض المتوسط المتعلقة بأملاك الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وقد كشفت المعاهدة عن موضوع هام آخر لم تتعرض له المصادر التاريخية لا الإسلامية منها ولا الغربية، ولم تشر إليه من قريب أو بعيد، وهو إلزام امبراطور القسطنطينية بما جاء فيها وأدخلته في الصلح إذ نصت على ما يلي : (والأنبرور الأجل بادوين صاحب قسطنطينية .... داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك)[1] في حين أنها لم تذكر بعض المشاركين فعلاً في الحملة، فقد أغفلت مثلاً ذكر كونت (Eu) وكونت بواتيبه وغيرهما، فما علاقة امبراطور القسطنطينية بهذا الموضوع؟ ومن هو الامبراطور بادوين المعني بهذا النص هل هو الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Micheal VIII Paleologue الذي كان على عرش القسطنطينية في ذلك الوقت أم هو فيليب دوكوتينيه الامبراطور اللاتيني المخلوع الذي أطاح به باليولوج منهياً بذلك حكم اللاتين للقسطنطينية الذي دام حوالي ٦٠ سنة؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي العودة مرة أخرى إلى سياسة الملك لويس التاسع، فكما سبق أن ذكرنا أن لويس كان يسعى أثناء الدعوة للحملة الصليبية الجديدة لمجابهة المسلمين بأوروبا مسيحية موحدة يسودها السلام ليكون بذلك أقدر على تحقيق أهدافه، ولم يكن ليغب عن ذهنه بطبيعة الحال الدور الذي كان من الممكن أن تقوم به القسطنطينية في مشاريعه الصليبية في الشرق، وفي تلك الأثناء اتصل به امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثامن باليولوج الآنف الذكر والذي كان يخشى على دولته من مشاريع شارل صاحب أنجو من ناحية، وربما كانت قد وصلته أنباء الاستعدادات للحملة الجديدة، فخشي من لويس التاسع نفسه أن يعمل على إعادة الحكم اللاتيني للقسطنطينية أثناء وجوده في المشرق ثانية من ناحية أخرى، لذلك أرسل سفارة إلى بلاط الملك الفرنسي مصحوبة بالهدايا النفيسة لكسب وده، والأهم من ذلك أنها عرضت عليه مشروعاً من تلك المشاريع التي تستهوي لويس التاسع في العادة وهو العمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وتطلب منه

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

التدخل لدى البابا لتحقيق هذا الأمر(١)، ومع أن المجمع الديني للكنيسة الشرقية حينما علم بهذا المشروع أبدى معارضته له وحذر الامراطور من مغبة هذا العمل(٢)، إلاّ أن هذا الامبراطور مضى قدماً في العمل على التلويح بتنفيذ ذلك المشروع، وعبر عن ذلك بإرساله سفارته الآنفة الذكر. وقد لاقت هذه الفكرة ترحيباً من الملك الفرنسي الذي وجد فيها أنها تخدم مصالحه وأهدافه إلى حد كبير، ذلك أن التقارب مع امبراطور القسطنطينية سيجعل من هذا الامبراطور سنداً قوياً له يعوضه عن عدم مشاركة العديد من ملوك أوروبا وأمرائها في الحملة نظراً للفتور الذي لمسه منهم في هذا المشروع الأمر الذي كان يخشى منه عدم متابعتهم له فيه، ويزداد هذا السند أهمية بالنسبة له كون هذا الامبراطور صهر أبغا بن هولاكو خان مغول فارس الذي كان متزوجاً من ابنته، وبذلك تكون لدى الملك الفرنسي إمكانية كبيرة لتكوين حلف قوي يضم الملوك الثلاثة يكون قادراً على القضاء على المسلمين.

ولكن لويس التاسع لم يكن بذلك السياسي القصير النظر الذي يجعل سياسته تسير في اتجاه واحد، بل كان من ذلك الطراز من السياسيين الذين يتقنون اللعبة السياسية ويحاولون تسخير كافة الظروف والوسائل لتحقيق أهدافهم، فبالإضافة إلى تقاربه مع ميخائيل باليولوج كان يتعاطف مع خصمه الامبراطور المخلوع ويتبنى قضيته وربما كان يمنيه بإعادته إلى العرش ولعل ذلك كان هو السبب الذي جعل ألفونس (Alphonse) ابن هذا الامبراطور يشترك في هذه الحملة التي كان المشرق هو نهاية المطاف بالنسبة لها، والذي مات بتونس كما سبق أن ذكرنا، ولعل مما يؤكد تعاطف فرنسا مع الإمبراطور المذكور هو أن شارل الثاني دوفالوا شقيق فيليب الرابع (Philippe Le Bel) ملك فرنسا تزوج من كاترين ابنة هذا الامبراطور وكان في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أي بعد حوادث هذه الحملة بفترة وجيزة يسعى لاستعادة عرش حميه بمختلف الوسائل، وتقدم في سنة ١٣٠١م بمشروع صليبي لهذا الغرض(٣). هو المشروع الذي سنتعرض له فيما بعد. ولذلك فإن لويس التاسع

---

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.191 - 2, Jean Larcena : Op. Cit., p.190.

K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.509.

(٢) Jean Larcena : Ibid, p.183.

(٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ج٣ ص٢٢٠.

بإعادته هذا الامبراطور إلى عرش القسطنطينية يجعل منه صنيعة له وخاضعاً لإرادته، وبهذا يتضح أن الملك الفرنسي كان يعمل على تسخير كلا الخصمين لخدمة أهدافه، مما يجعل هذا الشرط قد يعني أياًّ منهما نظراً لعلاقتهما القوية بالملك الفرنسي، ولكننا نعتقد أن المقصود به هو الامبراطور اللاتيني المخلوع وليس البيزنطي، ذلك لأنه من المستبعد أن يكون هنالك ثمة خطر يخشى من الأخير على الدولة الحفصية لبعد بلاده عنها من ناحية، ولإمكانياته المحدودة التي لا تمكنه من الاعتداء عليها من ناحية ثانية فضلاً عن أنه لم يشارك أصلاً في الحملة من ناحية ثالثة. وأما الامبراطور المخلوع، فبالرغم من أنه لم يكن يملك من القوا ت والإمكانيات ما يجعله يشكل خطراً على الدولة الحفصية، إلاّ أن سياسته كانت تتوافق مع سياسة شارل ملك الصقليتين الجار الأقرب والأشد خطراً من سواه على إفريقية، ولما كان ابنه قد شارك في الحملة، فإن إلزام المعاهدة له بالتقيد بالشروط الواردة فيها كان من قبيل الاحتياط بالنسبة للدولة الحفصية، وأما بالنسبة له فلربما كان ذكره في تلك المعاهدة يعودبالنفع على قضيته، إذ أن ذلك قد يكسبه مزيداً من تعاطف الحركة الصليبية معه، حيث إن ذكره من ضمن الملوك والزعماء المشاركين في الحملة وفي معاهدة الصلح يوفر له حضوراً في أذهان القائمين على الحركة الصليبية فيعملون على مده بما يحتاجه من دعم لاستعادة عرشه.

وكما ألزمت المعاهدة الامبراطور بادوين بما جاء فيها، ألزمت أيضاً زعيماً آخر غيره بالتقيد بذلك هو الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا، الذي ذكرت أنه لم يكن قد وصل إلى تونس وقتئذٍ بعد، إذ جاء فيها (ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد أو غيره كاين من كان)[1] وأول ما يلاحظ على هذا النص أن المعاهدة قد جعلت إدوارد ملكاً لإنجلترا، والحقيقة أنه كان لا يزال آنذاك ولياً لعهد أبيه، ثم إنها ضربت به مثلاً على من سيصل إلى إفريقية من المشاركين في الحملة بعد رحيل الصليبيين عنها، وهذا الأمير كان موجوداً في تونس بالفعل عند إبرامها، حيث وصلها في ١٠ نوفمبر ١٢٧٠م في حين أن المعاهدة أبرمت نهائياً في ٥ ربيع الثاني سنة ٦٦٩هـ / ٢١ نوفمبر سنة ١٢٧٠م كما سبق أن ذكرنا، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

الشروط الواردة فيها كان قد اتفق عليها قبل ١٠ نوفمبر وربما أن المعاهدة قد كتبت أيضاً قبل هذ ا التاريخ ذلك أن يوم ٥ ربيع الثاني سنة ٦٦٩هـ / ٢١ نوفمبر سنة ١٢٧٠م لم يكن تاريخ كتابة المعاهدة وإنما هو يوم حلف المستنصر على التقيد بما جاء فيها كما يظهر بوضوح فيها، ولهذا يمكن القول بأن وصول إدوارد الذي كان على رأس قوة صغيرة نسبياً لم يقدم أو يؤخر وظلت المعاهدة دون تعديل. كما شرطت المعاهدة أيضاً على جميع من سواه ممن قد يكون في مثل وضعه ويصل بعد إبرام الصلح أن يتقيد ببنوده.

وفصلت المعاهدة بعد ذلك أيضاً الأمور المتعلقة برحيل الصليبيين، شارطة أن لايبقى أحد منهم في إفريقية، وإذا اقتضت الضرورة تخلف بعضهم أو بقاء بعض أثقالهم، فقد ألزمتهم بالبقاء (في موضع معين لهم من جهة أمير المؤمنين ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم)[١]، ومن غير الممكن بطبيعة الحال أن يكون ذلك الموضع هو قرطاجة حتى لا يكون في الأمر خدعة وقد التزم المستنصر بحماية هؤلاء في أرواحهم وأموالهم لحين رحيلهم (وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين رد ذلك عليهم)[٢]، ولكن ما جرى هو أن الصليبيين رحلوا بأجمعهم لم يتخلف منهم أحد، ولم يتركوا من أثقالهم سوى تسعين منجنيقاً غنمها المسلمون كما ذكرنا. ويتصل بهذا الموضوع موضوع آخر هو تبادل الأسرى بين الطرفين الذي نصت عليه المعاهدة بوضوح في بند مستقل.

جـ - الناحية الدينية :

وكانت الناحية الدينية هي الموضوع الرئيسي الثالث الذي تعرضت له المعاهدة وجاء ذلك بشرط مفرد قليل الكلمات إذا ما قورن بالشروط التي عالجت الموضوعين الآخرين، ويبدو للوهلة الأولى من هذا الشرط وكأن الصليبيين يوصون المستنصر خيراً بالنصارى اندين في بلاده أو يقدمون إليها، ويحثونه على رعايتهم والسماح لهم بأداء شعائرهم الدينية، وتبدو هذه التوصية أمراً طبيعياً في ذلك العصر إذ نجد لها أمثلة عديدة في مراسلات ملوك النصارى إلى حكام المسلمين في العصور الوسطى. ولكن هذا النص في حقيقته هدف

---

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

إلى أمور أهم من مجرد التوصية وأعمق بكثير تبدو واضحة بجلاء عند إمعان النظر فيه. لقد نص ذلك الشرط على ما يلي : (وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكاناً في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه ديارة وبيوت الصلاة، ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورين يعظون ويصلون مجهراً في كنايسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم)[1]. لقد ورد في هذا النص ذكر الرهبان والقسوس ولم يكتف بأحدهما، وجاء فيه (سكاناً) وليس من ساكني، وموضعاً يعمرون فيه ديارة[2] وبيوت الصلاة، وليس مواضع، كما جاء فيه (يعظون ويصلون) ولم يكتف بكلمة (يصلون)، ثم أنهى الشرط بجملة تفيد العمومية والشمول.

فذكر الرهبان والقسوس متتاليان في النص لم يكن ترادفاً لفظياً دون أن يكن من ورائه قصد كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هو ذو مغزى هام، وهذه الأهمية تتأتى من الاختلاف في مهمة كل فئة منهما عن الأخرى، فمهمة القساوسة في إفريقية كانت هي الرعاية الروحيةللنصارى المقيمين فيها والمتمثلة في إقامة الصلوات في الكنائس وتعميد المواليد وإتمام عقود الأنكحة وتجهيز الموتى والصلاة عليهم والإشراف على دفنهم حسب ما تنص عليه الشريعة المسيحية وما إلى ذلك، وأما الرهبان فكان لهم مهمة أخرى ليست هي الاعتكاف عن الناس في الأديرة والصوامع والانقطاع للعبادة كما هو المفروض فيهم، وإنما القيام بعمل خطير هو الدعوة للمسيحية بين المسلمين والعمل على تنصيرهم، ذلك أن الرهبان في تلك الآونة وبصفة خاصة رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان خرجوا عن تقاليد الرهبنة المألوفة إلى ميدان آخر هو العمل على تنصير غير المسيحيين وقدوتهم في ذلك مؤسسا هاتين المنظمتين. فالقديس فرانسيس الأسوزي مؤسس الفرانسيسكان كرس حياته لهذا العمل وقد وجد في الحملة الصليبية الخامسة التي قام بها حنا دي بيريين على مصر سنة ٦١٨هـ / ١٢١٨م فرصة ذهبية له لممارسة نشاطه

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) جاء في المعجم الوسيط أن الديّار هو الديراني أي ساكن الدير ومن ذلك يفهم أن الديارة في اللهجة المحلية بمعنى الدير، وقد جمعت الديارة على صيغة ديارات (انظر الشابشتي : الديارات في الإسلام، تحقيق كوركيس عواد)، أما في اللغة فقد جمع الدير على أديار، وصاحبه الذي يعمره ويسكنه ديار وديراني (انظر : ابن منظور : لسان العرب).

التنصيري بين المسلمين فرافق تلك الحملة وأصر على مقابلة السلطان الكامل الأيوبي ودعوته لاعتناق المسيحية[1]، ومع أنه فشل في مهمته مع هذا السلطان، إلاّ أن حلم تنصير غير المسيحيين ظل مسيطراً عليه طوال حياته وعلى أتباعه من بعده، وأما القديس دومينيك مؤسس منظمة الدومينكان فقد بدأ في ممارسة نشاطه بادئ ذي بدء مع الألبجنسيين الذين اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية حركتهم التي قامت في جنوب فرنسا حركة هرطقية إلى حد أن البابا أنوسنت الثالث وجه إليهم سنة ١٢٠٨م حملة صليبية كبيرة على غرار الحملات الصليبية التي كانت توجه ضد المسلمين فحاربتهم بعنف وقسوة حتى تمكنت من القضاء على حركتهم في سنة ١٢١٦م فاتجه دومنيك بعد ذلك إلى العمل على تنصير غير المسيحيين واقتدى به أتباعه في ذلك من بعده، ولذلك كان رهبان هاتين المنظمتين على درجة عالية من الحماسة للتنصير وكانوا على أهبة الاستعداد للذهاب إلى أي مكان من أجل هذا الغرض، ومن هذا المنطلق تولى رهبان هاتين المنظمتين البعثات التي أرسلت إلى التتار وترددوا على بلاد المسلمين، والملاحظ على جهود هؤلاء الرهبان أنها كانت توجه إما على شكل سفارات كما كان الأمر مع خانات التتار، وإما أن تسير في ركاب القوى العسكرية المسيحية كما حدث بالنسبة لفرانسيس الأسوزي مع السلطان الكامل وبالنسبة لإفريقية في هذه الحملة والتي أصبحت نموذجاً احتذي في الدنيا الجديدة في عصر الاكتشافات الجغرافية ثم في عصر الاستعمار الأوروبي الحديث فيما بعد.

وإذا كان نشاط هؤلاء الرهبان المنصرين في الدولة الحفصية لم يكن بالشيء الجديد، وإنما كانوا يمارسون هذا النشاط بالفعل منذ وقت سابق على قيام الحملة كما ذكرنا، فإن الجديد فيه هو إعطاء هؤلاء الحرية الكاملة لممارسة هذا النشاط وإضفاء صفة الشرعية عليه بجعله شرطاً في معاهدة هامة حددت مصير حملة صليبية كبيرة، وفرضه على المستنصر بعد أن كان ذلك النشاط السابق يمارس اعتماداً على تسامحه فقط. وعلى ذلك فقد أفلح رهبان هاتين المنظمتين بموجب هذا الشرط الذي لم يوضع في المعاهدة إلاّ لإرضائهم نظراً لأنهم كانوا يتبوؤون مراكز حساسة لدى زعماء الحملة ومكافأة لهم على جهودهم في الإعداد لها، أفلحوا في جعل إفريقية ميداناً لنشاطهم العلني والحر من كل قيد، وتأكيداً على منزلة هؤلاء وتوافق جهودهم مع أهداف

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p.87 - 88.

الحركة الصليبية في إفريقية كانوا شهوداً على المعاهدة، وابتداءً من ذلك الوقت أصبحوا يذكرون كطرف شاهد مفاوض في كافة الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة الحفصية والدول المسيحية(١).

ثم تعرض النص بعد ذلك لنقطة أخرى هي تحديد هوية هؤلاء، فنص على أن يكونوا سكاناً في إفريقية، وليس من ساكني إفريقية، والفرق بين المعنيين واضح، ذلك أن كلمة (سكاناً) تعني اعتبار ما سيكون وليس ما هو كائن بالفعل، أي أن يكون هؤلاء من سكان إفريقية وليس المقصود بهم أولئك الذين كانوا يقيمون في تلك البلاد فعلاً، وبعبارة أخرى أن المعاهدة شرطت على المستنصر أن يسمح لهؤلاء الرهبان والقساوسة الذين لم تحدد عددهم والذين سيفدون إليها من الخارج إما بانتداب أنفسهم أو ينتدبهم سواهم بالإقامة في إفريقية ويصبحوا من سكانها وذلك لممارسة نشاطهم التنصيري بين مسلميها، دون أن يكون للمستنصر الحق في الاعتراض لا على عدد هؤلاء الوافدين الجدد أو على نشاطهم أو حتى على أسلوبهم في العمل فيما إذا تسبب في إيذاء شعور المسلمين. وبذلك فتحت المعاهدة أبواب إفريقية على مصراعيها لهذا الجيش من الرهبان المنصرين.

ولم تكتف المعاهدة بذلك بل ألزمت المستنصر أن يعطيهم موضعاً يؤسسون فيه ديراً لهم، وإذا عدنا إلى ما سبق أن ذكرناه من أن رهبان ذلك العصر خرجوا عن مبادئ الرهبنة المألوفة إلى ميدان التنصير، لأدركنا أن الغرض الأساسي من إنشاء ذلك الدير كان هو جعله مركزاً لنشاطات التنصير. وهذا الدير غير الكنائس، لأن الكنائس نصت عليها الجملة التالية (وبيوت الصلاة)، أي أن يمنحهم المستنصر مواضع لإنشاء الكنائس فيها، وإذا كان هذا النص لم يحدد عدد هذه الكنائس أو يبين أماكن إقامتها بوضوح مما جعل الغموض يكتنف هذا الأمر، فإن Pierre de Condet في رسالته الثالثة قد سلط عليه الضوء حيث ذكر فيها بأن السلطان أي المستنصر قد أقسم على أن يسمح للنصارى بالإقامة في أحسن المدن بمملكته وأن يملكوا ما شاؤوا من النعم والعقارات... وأن ينشئوا فيها الكنائس(٢)، والذي يفهم من ذلك كله أن المستنصر قد وافق على أن يقوم النصارى بإنشاء كنائس لهم في كبريات مدن مملكته

(١) R. Brunschvig: Op. Cit., Tom, 1, p.460.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

فضلاً عن الدير الآنف الذكر، وفي ذلك مخالفة صريحة وواضحة للعرف الذي كان متبعاً في البلاد الإسلامية منذ زمن الفتح والذي اتخذ من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل بيت المقدس عند استلامه لها أساساً له، والمتمثل في عدم السماح للنصارى بإنشاء كنائس أو أديرة جديدة لهم في البلاد الإسلامية، أما كنائسهم وأديرتهم التي كانت قائمة عند الفتح فلا تمس بسوء ولا تهدم أو تزال وإنما لهم حق الاحتفاظ بها وتجديدها كلما تطلب الأمر ذلك.

ويمضي النص فيصف طبيعة عمل الرهبان والقساوسة فيمنحهم حق الوعظ والصلاة جهراً، وما دام قد جرى التمييز بين هاتين الفئتين، فمن الطبيعي أن يتم التمييز أيضاً بين الوعظ والصلاة، لأن الوعظ هنا شيء والصلاة شيء آخر، وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن المقصود بالوعظ هنا هو ما يعظ به القسيس المصلين أثناء الصلاة طالت الموعظة أو قصرت، لأن تلك الموعظة هي ركن من أركان الصلاة المسيحية لا تتم تلك الصلاة إلاّ بها كما هو الحال بالنسبة للخطبة في صلاة الجمعة عند المسلمين، ولكن المقصود بالوعظ في هذا النص هو الدعوة إلى النصرانية، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لشملتها كلمة الصلاة، ولو كانت الصلاة وحدها هي المقصودة لم يكن هنالك ثمة داع لذكرها أصلاً في المعاهدة، لأن الحرية الدينية نظراً للتسامح الذي اتصف به الحفصيون كانت مكفولة للنصارى، وكان النصارى في تلك الدولة سواء أكانوا بقايا نصارى إفريقية الذين ظلوا على دينهم منذ الفتح أو الجاليات الأوروبية فيها من تجار وجند في جيش السلطان وسواهم كانوا يقومون بأداء شعائرهم الدينية بحرية تامة[1]، فالتركيز في النص على الوعظ وليس على الصلاة وما جاءت كلمة الصلاة إلاّ مكملة للوعظ وليست مرادفة له. وعلى ذلك فقد شرطت المعاهدة على المستنصر السماح للمنصرين بالدعوة إلى النصرانية بين المسلمين، وقرنت ذلك بشرط العلنية، أي أن يمارس هؤلاء دعوتهم بحرية وعلانية، ويتبع ذلك مباشرة جملة ثانية شاملة المعنى أعطتهم الحق في فعل كل ما يرونه لازماً لمهمتهم في إفريقية، وأباحت لهم ربما ما لم يكن مباحاً من قبل مما يلزم شعائرهم كضرب الناقوس علناً أو الاحتفالات العلنية بالمناسبات الدينية كأعياد الميلاد والتعميد وعيد القيامة وأعياد الرسل والقديسين وسواها والتي من الممكن أنها لم تكن تقام بحرية تامة لما يصاحبها في العادة

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.448.

من أعمال ينكرها المسلمون نظراً لما تسببه من إيذاء لمشاعرهم كشرب الخمر وما إلى ذلك.

وخلاصة القول، أن هذا الشرط قدفتح أبواب إفريقية لحركة التنصير بالدعوة السلمية العلنية وبحرية تامة دون أن يكون هنالك مجال لأي اعتراض لا من المستنصر ولا من شعبه.

* * *

وبعد، فإذا ما قارنا ما حققته الحملة فعلاً على ضوء الشروط الواردة في معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين بالأهداف التي سعت الحملة لتحقيقها لتبين لنا أن ما حققته من تلك الأهداف كان قدراً ضئيلاً، الأمر الذي عبر عنه جوانفيل في مذكراته التي كتبها بعد الحملة أصدق تعبير بقوله : (إنها حملة ذات فائدة قليلة)(١)، فقد فشلت في احتلال إفريقية واتخاذها معبراً إلى المشرق، كما فشلت في تحقيق أهدافها السياسية الأخرى وأهدافها الاجتماعية، ومع أنها حققت بعض المكاسب الاقتصادية والدينية، إلاّ أن تلك المكاسب لم تكن تتناسب مع الجهود والتضحيات التي بذلت من أجلها، الأمر الذي عرض لويس التاسع لنقد الناقدين ولوم اللائمين من بني جلدته فقد قال عنه جوانفيل أنه لو بقي في فرنسا لعاش وقدم لها إنجازات خيّرة(٢)، كما أخذ عليه بعض المؤرخين المحدثين تعصبه الأعمى ضد المسلمين الذي دفعه لوقف حياته واستنزاف طاقات شعبه في سبيل مشروع عقيم لم يعد على بلاده بفائدة، وإنما أنزل بها أخطاراً وكوارث كبيرة، وكان الأجدر به أن يبقى على عرشه يشارك شعبه آماله وآلامه ويعمل على رفاهيته وإسعاده، وإذا كان ذلك الفشل يشكل منعطفاً هاماً في تاريخ الحركة الصليبية لأنه كان نهاية لطور من أطوارها الذي اتسم بهيمنة فرنسا على تلك الحركة الأمر الذي عبر عنه ابن خلدون بقوله : (ورجع الفرنجة إلى دعوتهم وكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال)(٣)، وبداية لطور جديد سارت فيه الصليبية المسلحة جنباً إلى جنب مع الصليبية السلمية، فإن هذه الحملة كانت سبباً قوياً ومباشراً في حضور كبير لإفريقية في الفكر الصليبي، جعل الطور الجديد من أطوار الحركة الصليبية يظهر فيها بوضوح أشد من سواها، الأمر الذي سنتعرض له في الباب التالي من هذه الدراسة.

---

(١) Joinville : Op. Cit., p.346.

(٢) Joinville : Ibid, p.349.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤.

﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم. . . . . . ﴾.

[سورة : آية]

الباب الثالث

التآمر الصليبي على إفريقية
في القرن الثامن الهجري
(الرابع عشر للميلاد)

﴿قل إن كان لـلرحمن ولد فـأنا أول العابـدين * سبحان رب الـسموات والأرض رب العرش الـعظيم عـما يصفون * فـذرهم يخوضـوا ويلعبـوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾.

[سورة الزخرف : آيات ٨١، ٨٢، ٨٣]

إفريقية والمشاريع الصليبية

قرب نهاية الصليبيين في الشام وأثره على إفريقية – الحركة الصليبية في طور جديد – إفريقية في مشاريع الدعاة : مشروع هيثوم، مشروع رامون لول، مشروع بروكارد، مشروع فيليب دي مزيير – فكرة فرض الحصار الاقتصادي على إفريقية : مشروع شارل الثاني، مشروع مارينو سانودو، الحرس السلطاني مشروع صليبي

قرب نهاية الصليبيين في الشام وأثره على إفريقية.

أصيب القائمون على الحركة الصليبية بخيبة أمل كبيرة نتيجة للمصير الذي آلت إليه حملة لويس التاسع الآنفة الذكر على إفريقية والتي كانوا يعلقون عليها الآمال العريضة، ذلك أنهم أدركوا أبعاد الفشل الذي منيت به تلك الحملة، كما أنه لم يكن من السهل عليهم أن يجعلوا الناس في غرب أوروبا ينسون الكارثة التي حلت بالجيش الصليبي في قرطاجة بسرعة، فضلاً عن أن الأذهان كانت مشدودة إلى بلاد الشام حيث كان الوجود الصليبي فيها قد دخل في مرحلة النزع الأخير، وأصبحت نهايته أمراً مفروغاً منه نظراً للضربات القوية التي أخذ يتلقاها من الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر والشام. ولم تنته متاعب الصليبيين هناك بوفاة الظاهر بيبرس في سنة ١٢٧٧م وتولي ابنه السعيد بركة الحكم، إذ لم تلبث الحوادث في دولة المماليك أن تمخضت عن اعتلاء المنصور قلاوون سدة السلطنة في ديسمبر ١٢٧٩[(١)]، الذي سار على نهج الظاهر بيبرس في إنزال أقسى الضربات بالصليبيين وفتح معاقلهم الواحد تلو الآخر حتى توج أعماله بفتح مدينة طرابلس في ٢٦ إبريل ١٢٨٩م[(٢)] ثم أخذ يستعد لفتح عكا آخر معاقلهم الكبرى في بلاد الشام، وإذا كانت المنية المفاجئة قد عاجلته قبل أن يحقق

(١) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر المقريزي : السلوك ج١ ق٢ ص٦٤٢ وما بعدها، أبو المحاسن : المصدر السابق ج٧ ص٢٩٢ وما بعدها، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٦٥.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر المقريزي : السلوك ج٢ ق٣ ص٧٤٧ وما بعدها، أبو المحاسن : المصدر السابق ج٧ ص٣٢١ وما بعدها، أبو الفدا : المصدر السابق ج٤ ص٢٣ – ٢٤، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٧٣ وما بعدها.

هذا الهدف، فإن ابنه وخليفته الأشرف خليل ما إن تولى السلطنة حتى زحف بجيوشه على عكا وحاصرها حتى افتتحها في يوم الخميس ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠هـ / ١٨ مايو سنة ١٢٩١م[١] منهياً بذلك وجود الصليبيين في بلاد الشام.

كانت هذه الحوادث تتوالى فتثير دوياً قوياً في أوروبا الغربية مما جعل الحركة الصليبية توجه جلّ نشاطها إلى المشرق في محاولات يائسة للوقوف في وجه المد المماليكي المتزايد الأمر الذي جعل حدة النشاط الصليبي تخف في جبهة إفريقية إلى حد ما، ولكن ليس معنى ذلك أن الحركة الصليبية جمدت كافة نشاطاتها في تلك الجبهة، بل إن انشغال القوى الأوروبية الكبرى عنها، فتح المجال لقوة صليبية أخرى طامعة للظهور وقتئذٍ وممارسة نشاطها فيها هي مملكة أرغونة كما سيأتي ذكره، فضلاً عن أن تلك الجبهة كانت تشهد في تلك الآونة نشاطاً صليبياً من نوع آخر تمثل في صليبية سلمية يرتبط بطور جديد من أطوار تلك الحركة.

الحركة الصليبية في طور جديد :

برزت في ميدان السياسة الدولية منذ أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) تغيرات وتطورات هامة كان لها انعكاس قوي على الحركة الصليبية، فبالرغم من بقاء جذوة الفكرة الصليبية متقدة في نفوس الكثير من المسيحيين في غرب أوروبا، إلاّ أن الظروف التي بدأت تحيط بمجتمع غرب أوروبا في تلك الآونة لم تعد تسمح لها بالتعبير عن تلك الجذوة بالوسيلة التقليدية المتمثلة في استخدام القوة العسكرية كمتنفس وحيد لها، مما جعلها تحاول التوسل بوسيلة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ولا تحل محلها وإنما تساندها في تحقيق الهدف المنشود. وقد أدت إلى هذه التغيرات والتطورات عوامل عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ألمت بالمجتمع الغربي ومهدت للنقلة إلى العصور الحديثة.

فمن الناحية السياسية أصبحت الامبراطورية الرومانية المقدسة في أوائل القرن الثامن

(١) انظر أبو الفدا : المصدر السابق ج٤ ص٢٤ – ٢٥، المقريزي : السلوك ج٢ ق٣ ص٧٦٤ وما بعدها. أبو المحاسن : المصدر السابق ج٨ ص٥ وما بعدها، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٧٦ وما بعدها.

الهجري (الرابع عشر للميلاد) وليس لها من الموارد البشرية أو المالية فائض يمكنها من المشاركة في الحروب الصليبية، لا سيما بعد أن أنهكها النزاع مع البابوية، وأدى اهتمام أباطرتها بإيطاليا إلى إهمال شؤون ألمانيا ذاتها[1]، وقد وجد المتشبثون بالفكرة الصليبية من الألمان كهيئة الفرسان التيوتون ميداناً قريباً منهم يمارسون فيه نشاطهم الصليبي فارتكبوا باسم المسيحية في بروسيا أبشع الجرائم في سبيل تنصير البروسيين معتقدين أنهم بذلك أدوا ما عليهم للمسيحية، وبذلك حرمت الحركة الصليبية من قوة عظمى طالما قذفت بآلاف من المحاربين لخدمة تلك الحركة لا سيما في ساحات القتال بالمشرق. واشتبكت فرنسا وإنجلترا القوتان العظميان الأخريان في صراع مرير هو الذي عرف في التاريخ باسم حرب المائة عام مما أدى إلى استنزاف مواردهما وجهودهما معاً فضلاً عن انشغال كل منهما بمشاكلها الداخلية كما سبق أن ذكرنا، وقل مثل ذلك بالنسبة للمدن البحرية الإيطالية التي كثيراً ما أدى تنافسها إلى نزاع مسلح لا سيما بين البندقية وجنوة كما سبق ذكره أيضاً، هذا وإذا أضفنا إلى ذلك بداية ظهور الشعور القومي في غرب أوروبا[2] ثم انهيار نظام الإقطاع الذي كان أساس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيها منذ أواخر القرن العاشر الميلادي تقريباً ونمو الملكيات الجديدة على أنقاضه وبدء ظهور شخصية الفرد في ذلك المجتمع بعد أن كان ذائباً في كيان المجموعة[3]، ثم فقدان البابوية لهيبتها نتيجة لمحنة الأسر البابلي وما تلاه من الانشقاق الديني الكبير كما سبق ذكره كذلك، لأدركنا مدى التغير الذي طرأ على المجتمع المذكور بحيث يمكننا القول إن ذلك كان بداية التحول إلى مجتمع أوروبي جديد يختلف في ظروفه ونظرته إلى الأمور عن المجتمع الذي آمن بفكرة الحروب الصليبية، الأمر الذي جعل استمرار الحركة الصليبية في السير في اتجاهها السابق كطريق وحيد أمراً متعذراً. وليس أدل على ذلك من موقف أوروبا الغربية من سقوط عكا بيد المسلمين سنة ١٢٩١م، فمع أن ذلك النبأ أحدث دوياً هائلاً فيها لا يقل عن ذلك الذي حدث عند سقوط بيت

---

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٨٧.

(٢) انظر عن ذلك د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٨٨ وما بعدها، د. سعيد عاشور أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص٢٨٦ وما بعدها.

(٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٩. A. S. Atiya : Op. Cit., p.44.

المقدس في يد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧م، إلاّ أنها لم تستطع في نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أن تعبر عن سخطها تعبيراً عملياً بإرسال حملة صليبية كبيرة إلى الشرق مثلما فعلت في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس، ولم يفلح البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) الذي عاصر سقوط عكا في قبضة المسلمين في استثارة غرب أوروبا لإرسال حملة صليبية جديدة بالرغم من الجهود المضنية التي بذلها في هذا السبيل فمات كسيف البال في سنة ١٢٩٢م[1].

على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى الغرب الأوروبي عن الفكرة الصليبية تخلياً تاماً ومفاجئاً، فظلت تلك الفكرة ماثلة في أذهان المتحمسين والمتدينين الذين استمروا يدعون لاستئناف الحرب ضد المسلمين. غير أن هؤلاء الدعاة لم يكونوا خطباء من طراز بطرس الناسك، فلم يعتمدوا على اللسان في تحريك عواطف الناس واستثارة شعورهم الديني، وإنما أخذوا يدونون الرسائل والكتب ويرفعونها إلى البابوات والملوك والأمراء شارحين فيها مشاريعهم الصليبية[2] حتى زخر أواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر بأسره بهذه المؤلفات التي غدت السمة المميزة للأدب الأوروبي في تلك الفترة من تاريخ العصور الوسطى. وما يلاحظه الباحث على تلك المشاريع أنها بالرغم من اختلافها في كثير من التفاصيل إلاّ أنها تلتقي كلها عند هدف واحد هو استعادة الديار المقدسة من المسلمين، هذا من ناحية، ثم يلتقي معظمها في فكرة استعمال الصليبية بوجهيها المسلح والسلمي ضد غير الكاثوليك وبصفة خاصة ضد المسلمين، وهي التي دعاها رامون لول بنظرية السيفين. وقد استهل عصر الدعاة هذا بداعية فرانسيسكاني هو فيدنزيو (Fidenzio) الذي تقدم في سنة ١٢٩١م بتقرير مطول إلى البابا نيقولا الرابع شرح فيه تاريخ الديار المقدسة، ونوع الجيش اللازم لاستردادها من المسلمين والطريق الذي يرى أنه الأفضل ليسلكه هذا الجيش في زحفه

(١) انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٢.

A. S. Atiya : Ibid, p.44 - 5.
J. N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in fourteenth century France, p.76 - 7.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الجهود انظر :

A. S. Atiya : Ibid, p.34, J. N. Hillgarth : Ibid, 76 - 78.

إلى المشرق[1]، وفي العام التالي ١٢٩٢م تلاه داعية فرانسيسكاني آخر هو ثاديوس (Thaddeus) فتقدم إلى البابا بتقرير آخر وصف فيه سقوط عكا في يد المسلمين وضمنه مشروعه الصليبي المعروف باسمه[2]، ثم أخذت المشاريع الصليبية تتوالى بعد ذلك.

إفريقية في مشاريع الدعاة :

ولا يسعنا بطبيعة الحال التعرض لكافة هذه المشاريع لأن ذلك سيؤدي بنا إلى الخروج عن موضوعنا الرئيسي، وإنما سنكتفي بتناول المشاريع التي تعرضت لإفريقية فقط بالقدر الذي يكشف عن التآمر الصليبي عليها وتدبير العدوان على مسلميها، وإذا استثنينا ما كان يطمح إليه لويس التاسع بحملته الصليبية من اكتساحها واتخاذها قاعدة ونقطة انطلاق إلى المشرق، فإن الأمير هيثوم (أو هاتون) Hetoum الأرمني كان من أول أصحاب المشاريع الذين تعرضوا لذكر إفريقية في مشاريعهم.

مشروع هيثوم :

نشط دعاة الحركة الصليبية إثر سقوط عكا بيد المسلمين في العمل لإثارة حماس نصارى غرب أوروبا لتسيير حملة صليبية جديدة إلى المشرق، وكان أن رأى فيليب الرابع (Philippe le Bel) ملك فرنسا (١٢٨٥ – ١٣١٤م) ركوب هذه الموجة من الحماسة[3] لتحقيق أغراضه الخاصة فأعلن عن رغبته في تشكيل هذه الحملة، وقد حملت هذه الرغبة محمل الجد من قبل العديد من المفكرين الصليبيين، والذين كان من بينهم من خبر أوضاع المشرق وأقام فيه فترة من حياته متنقلاً بين أقطاره، فرأى هؤلاء اغتنام هذه الفرصة الذهبية ليضعوا خبرتهم وخلاصة أفكارهم في خدمة الحركة الصليبية فتقدموا إلى الملك الفرنسي

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا المشروع انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٣م.
A. S. Atiya : Op. Cit., p.36 - 43.

(٢) عن هذا المشروع انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٣م.
A. S. Atiya : Ibid, p.31 - 34.

(٣) انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.47 - 50, J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.77 - 9.
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٤ – ١١٩٥، لوثروب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢١٩ .

وإلى البابوية ثم إلى مؤتمر فينا فيما بعد (سنة ١٣١١ – ١٣١٢م) بخطط محددة عن الحملة المنشودة وكيفية إعدادها وتسليحها وتمويلها والطرق التي يجب أن تسلكها للوصول إلى الديار المقدسة، وكان من هؤلاء بطرس دوبوا (Peter “Pierre” du Bois)(١)، ولیام دي نجاري (Guillaume de Nageret)(٢)، وجاك «يعقوب» مولاي (Jacques de Molay) مقدم الداوية، وفولك دي فيلاري (Foulques de Villaret)، وهنري الثاني لوزجنان (Henry II de Lusignann)(٣)، وبنتو زخاريا (Benito Zaccharia) والأمير هيثوم (Hetoum) ووليام آدم (Guillaume Adam) ووليام ديورانت (Guillaume Durant)، وجالفانو دي ليفانتي (Galvano de lavanti)، ورامون لول (Ramon Lull)، وغيرهم(٥)، على أن أياً من المشاريع التي وضعها هؤلاء لم يوضع موضع التنفيذ، اللهم إلاّ جانباً من مشروع رامون لول كما سيذكر في موضعه، ذلك لأنه تبين للجميع أن الملك الفرنسي لم يكن جاداً في عزمه، وإنما اتخذ ذلك ذريعة للاستفادة من ضريبة العشور، ومصادرة أملاك منظمة الفرسان الداوية (Templars)(٦)، ومع ذلك فإن تلك المشاريع تعتبر ذات قيمة تاريخية وأدبية كبيرة ومؤشراً واضحاً لدخول الحركة الصليبية في طورها الجديد.

كان الأمير هيثوم Hetoum (أو هاتون Hayton كما تسميه بعض المراجع) من بين الذين أدلوا بدلوهم في هذا المجال، وهو أمير أرمني من (كرشي) وهي ثغر بحري على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى بإزاء جزيرة قبرس، وكان عمه ملكاً على أرمينيا الصغرى، وعندما فتحت جيوش المماليك بلاده فر منها بعد أن أبلى في قتال الجيش المماليكي إلى قبرس بصحبة عمه سنة ١٣٠٥م، وفي العام التالي سنة ١٣٠٦م غادرها لاجئاً إلى البابا كلمنت الخامس (Clement V)، وبعد ذلك رحل إلى مدينة بواتييه في فرنسا حيث اعتكف في أحد أديرتها

---

(١) عن هذا المشروع انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.49 - 52.

(٢) عن هذا المشروع انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.52 - 57.

(٣) عن هذا المشروع انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.58 -60.

(٤)عن هذا المشروع انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.61 - 2.

(٥) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٥.

(٦) لوثروب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢١٢، A. S. Atiya : Ibid, p.62 - 3.

إلى أن توفي في سنة ١٣٠٨م. ونظراً لكون هيثوم أحد المختصين بشؤون الشرق والمطلعين على أوضاعه، فقد كلفه البابا كلمنت الخامس الآنف الذكر بإعداد دراسة وافية عن متطلبات الحملة التي أعلن فيليب الرابع ملك فرنسا عن رغبته في القيام بها وطريق سيرها. فقام هيثوم بتأليف كتابه المسمى (Flos Historiarum Terre Orientis) الذي كتبه باللاتينية وضمنه مشروعه لاسترداد الديار المقدسة والذي قدمه إلى البابا سنة ١٣٠٧م[١]، ويعنينا في هذا المشروع تعرض هيثوم إلى طرق مسير الحملة، إذ رأى أنه ينبغي عليها أن تسلك إحدى الطرق التالية : الطريق البري عبر شرق أوروبا إلى القسطنطينية ومنها إلي آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام، بينما يسير قسم آخر من القوات الصليبية عن طريق البحر إلى قبرس، ثم يذكر إفريقية كطريق ثالث لهذه الحملة، ويرى بالنسبة لسلوك هذا الطريق ضرورة استشارة المختصين في شؤون إفريقية لتقديم معلومات وافية عنه نظراً لأنه لم يكن لديه الاطلاع الكافي الذي يتيح له إبداء رأيه في هذا الطريق، وأهم ما في هذا الموضوع أنه بذكره لطريق إفريقية في مشروعه بعث الحياة إلى فكرة لويس التاسع من جديد مما جعلها تظهر في مشاريع صليبية تالية بشكل أوضح.

مشروع رامون لول :

أما رامون لول (أو ريموند لول Reymond Lull كما تسميه بعض المراجع أو رومان لول Roman Lull كما تسميه مراجع أخرى) (١٢٣٢ - ١٣١٦م) فيعتبر من أشهر الدعاة الصليبيين في العصور الوسطى، وقد عاصر فترة ضعف الصليبيين ثم انهيار دولتهم في بلاد الشام، فتملكته فكرة وضع نفسه في خدمة الحركة الصليبية، فمنذ أن اتخذ هذا القرار في سنة ١٢٦٣م كما سيأتي ذكره، ولحين وفاته في أواخر سنة ١٣١٥م أو أوائل سنة ١٣١٦م كان شعلة من النشاط، فقد ألف من الكتب والرسائل والتقارير أكثر من الذين سبقوه أو لحقوه من الدعاة الصليبيين[٢]، ورحل إلى مراكز الثقافة في أوروبا يلقي المحاضرات

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٥، لوثروب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢٢٣، A. S. Atiya : Op. Cit., p.62

(٢) بلغ عدد الكتب التي نسبت إلى رامون لول حوالي (٤٠٠٠) أربعة آلاف كتاب ذكر منها بروك (A. Perroquet) ٤٨٨ كتاباً، في حين أعد زويمر (Zwemer) قائمة تحتوى على ٣٢١ كتاباً، أما باربر فأعد قائمة أصغر احتوت على ٢٨٢ كتاباً علاوة على ١٦ كتاباً آخر مفقوداً، واحتوت =

على المثقفين فيها ويناقشهم في مشاريعه كما طوف في أقطار المشرق وسافر إلى إفريقية ثلاث مرات، وقابل البابوات والكرادلة وحضر المجالس الكنسية واتصل بملوك وأمراء أوروبا، ولم يوقفه شيء عن حماسه في خدمة الحركة الصليبية إلاّ الموت[1]، فنال تبعاً لذلك شهرته الواسعة عن جدارة. لقد عكس رامون لول وجهة نظر عصره عن الصليبية بوضوح، فكان نموذجاً ممتازاً للصليبي بوجهيه العسكري والسلمي اللذين أشبها وجهين لعملة واحدة. ويهمنا في هذا المقام ذلك الجانب من مشروعه المعبر عن وجهة النظر الصليبية التقليدية المتمثلة في ضرورة استعمال القوة العسكرية ضد المسلمين، وأما الجانب الآخر فسنتناوله في الفصل التالي إن شاء الله.

ذلك أنه حدث في نفس الفترة التي كان فيها هيثوم يعد مشروعه، أن كان رامون لول يكتب مؤلفه الذي سماه (كتاب النهاية Libre De Fine) الذي فرغ منه في حدود سنة ١٣٠٦م والذي ضمنه مشروعه الصليبي بالإضافة إلى العديد من آرائه ومقترحاته التي استمدها من تجاربه الطويلة في الشؤون الصليبية. ومع أن العديد من أسس هذا المشروع كان قد سبق له طرحها في مؤلفات أخرى وبصفة خاصة في تلك العريضة التي كان يعتزم تقديمها إلى البابا كلستين الخامس سنة ١٢٩٤م[2]، كما يعتقد أنه تقدم بها إلى البابا بونيفاس

= القائمة التي أعدها بيرز (Peers) على ٣٢٨ كتاباً فقط.
(انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.74, Note 3)

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.74 - 5, J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.46.

(٢) ظهر رامون لول في نابلي خلال الفترة من ١٣/ ١٠/ ١٢٩٤ – ١٠/ ١٢/ ١٢٩٤م وكان لديه عريضة اعتزم تقديمها إلى البابا كلستين الخامس تتضمن آراءه في ضرورة تبني سياسة صليبية جديدة بالإضافة إلى السياسة التقليدية، فكان يرى العمل على اتباع خطة تنصير جديدة وبصفة خاصة بين التتار لخشيته من أن يعتنقوا الإسلام أو اليهودية وبذلك يشكلون أعظم الخطر على المسيحية، وكان يطمع في كسب تأييد ذلك البابا لهذه السياسة نظراً لكونه من الفرانسيسكان الذين كانت تربط لول بهم صلة قوية، ومع أن تلك العريضة كانت تتناول في مجملها موضوع التنصير، إلا أنها تضمنت إشارات واضحة إلى وجوب استعمال القوة، ولكن تخلى كلستين عن منصب البابوية خيب ظن لول، ومع ذلك لم ييأس فتبع البابا الجديد بونيفاس الثامن إلى روما لكونه هو الآخر من الفرانسيسكان وتمكن من مقابلته حيث يعتقد أنه قدم له نفس المقترحات.
انظر عن ذلك : A. S. Atiya : Ibid, p.76, J. N. Hillgarth : Ibid, p.50 - 3, p.66 - 67, & 394

الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣م) الذي خلف كلستين الخامس إثر اعتزال الأخير كرسي البابوية للتفرغ للتنسك والعبادة، إلاّ أن كتاب النهاية قد احتوى على مشروع صليبي متكامل هو خلاصة آرائه ومقترحاته، وهو عمل ذو أهمية كبيرة لمؤرخي الحركة الصليبية، وتظهر فيه آراء لول باستعمال القوة ضد المسلمين بوضوح على عكس ما يحاول بعض المؤرخين الغربيين من طمس هذه الناحية من آرائه وقصر تلك الآراء على الصليبية السلمية المتمثلة في التنصير مثل (Delavelle Le Rouix) الذي يقول إن رامون لول تيقن من عدم جدوى استعمال القوة في النزاع بين الشرق والغرب فتنازل عن فكرة الحروب الصليبية وحاول أن يكسب المسلمين بالمنطق والإقناع، ويعتقد زويمر Zwemer أن لول أراد بفكرة توحيد الفئات العسكرية في مشروعه ليس شن الحرب وإنما خلق مجموعة من الفرسان الروحيين لتحقيق الأهداف الصليبية بالسلام والمحبة، ولمؤرخ الكنيسة نيندار (Neandar) رأي مشابه لهذين الرأيين(١)، كما يعتقد شاخت أن رامون لول كان مثل روجر بيكون يرى إحلال الجهود التنصيرية التي تستند إلى فهم عميق للعقيدة الإسلامية واللغات السامية محل المساعي العسكرية(٢)، وفي اعتقادنا أن هذه الأقوال لا تمثل كامل الحقيقة وأن أي فحص لمؤلفاته كما يقول الدكتور عزيز سوريال عطية يكشف عن رغبته الحقة في خلق صليبية مسلحة ضد المسلمين(٣)، والنقطة الهامة الأخرى في هذه الناحية هي أنه كان يرى تعميم هذه الحرب لتشمل كافة بلاد المسلمين وليس لاسترداد الديار المقدسة فقط، ويظهر هذان الأمران بجلاء في مشروعه الصليبي الذي تضمنه كتاب النهاية Libre De Fine حيث يقول : (إن الجيوش الصليبية ينبغي أن لا تقف عند حد غزو الديار المقدسة، وإنما أيضاً كافة البلاد الإسلامية يجب أن تغزى بالجيوش)(٤).

وقد قسم لول كتاب النهاية إلى مقدمة وثلاثة أقسام، فعالج في المقدمة أوضاع العالم الذي يشكل فيه المسيحيون الأقلية بينما يشكل غير المسيحيين (الذين يدعوهم بالكفار)

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p.75.

(٢) شاخت وبوزورث : المرجع السابق ق١ ص٥١ .

(٣) A. S. Atiya : Ibid, p.75 - 6, J. N. Hilgarth : Op. Cit., p.6.

(٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٣ – ١١٩٤. A. S. Atiya : Ibid, p.89.

الأغلبية والذين هم في ازدياد ويوسعون رقعة بلدانهم على حساب الأرض التي كانت في الأصل أرضاً مسيحية، ولذلك يرى أنه يتوجب على المسيحيين أن يبذلوا قصارى جهدهم من أجل تنصيرهم واتباعهم المذهب الكاثوليكي بالذات.وبين في القسم الأول حججه ضد المسلمين واليهود والتتار والمسيحيين المنشقين عن الكاثوليكية كالأرثوذكس والأقباط والنساطرة وسواهم، ولم يفته أن يؤكد على ضرورة تأسيس مدارس خاصة من أجل تعليم الرهبان المنصرين اللغات الشرقية لمساعدتهم في مهمتهم التنصيرية، ويرى أنه منذ ألف عام لم توضع خطة لنشر المسيحية أفضل من هذه الخطة[١]، وتقوده هذه النتيجة المتمثلة في وجوب سير التنصير جنباً إلى جنب مع القوة العسكرية أو نظرية وجوب استعمال السيفين معاً إلى القسم الثاني من الكتاب الذي ضمنه مشروعه الصليبي. وهذا القسم يعتبر وثيقة هامة نظراً لأنها تكشف عن أفكار لول وآرائه الصليبية بوضوح وتقدم الدليل القاطع على أنه لم يكن مجرد مفكر مثالي غير عملي وإنما له آراء كثيرة تتسم بالعمق والواقعية، ويزيد في هذه الأهمية أن لول كان يعكس وجهة نظر المفكرين الصليبيين في عصره. لقد وضع لول تصوراً واضحاً للشكل الذي ينبغي أن تكون عليه الحملة الصليبية التي يقترحها، فهو يقترح أن يقودها أحد الملوك أو من ذوي الدم الملكي على الأقل يتم اختياره من قبل البابا والكرادلة وأن يكون أعوانه من أبناء الملوك أيضاً وأن يكون له مجلس استشاري يقدم له المشورة والنصح في الأمور الطارئة[٢]، ثم يرى وجوب اندماج جميع منظمات الرهبان العسكرية من داوية واسبتارية وتيوتون وسواهم في هيئة واحدة تحت إمرة هذا القائد للقضاء على روح التنافس بينها والتي كانت سبباً هاماً في الضعف الذي أصاب الصليبيين في المشرق والذي أدى بدوره إلى طردهم من بلاد الشام، هذا بالإضافة إلى ضرورة اندماج جميع المشاركين في الحملة في جيش واحد يأتمر كله بأوامر ذلك القائد[٣]، وأما بالنسبة للأموال اللازمة

---

(١) A. S. Atıya : Ibid, p.78.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.79.

J. N. Hillgarth : Ibid, p.67 - 9.

(٣) انظر : A. S. Atiya :Ibid, p. 79.، د. سعيد عاشور :الحركة الصليبية ج١ ص١١٩٣ – ١١٩٤، د. محمد محمد أمين :المرجع السابق ص١٦٣. لوثورب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢٢١.

لهذه الحملة لمواجهة مصاريف التسليح والمؤن والنقل وما إلى ذلك، فيرى أن يسمح البابا باقتطاعها من ضريبة العشور، واستمكالاً لهذا الموضوع لا يفوته أن يؤكد على وجوب القيام بحملة دعائية كبيرة لهذه الحملة في جميع أنحاء أوروبا يتولاها رجال الدين ليحثوا الناس على المشاركة فيها.

وبعد ذلك يتناول لول موضوع الطرق التي يمكن للحملة سلوكها للوصول إلى الديار المقدسة ويحددها بخمس طرق. الأول هو الطريق البري عبر شرق أوروبا إلى القسطنطينية ومنها إلى أرمينيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام، ويرى أن هذا الطريق كثير المخاطر فضلاً عن طوله والنفقات الباهظة التي ستتكلفها الحملة إذا ما سكلته، وأما الثاني فهو الطريق البحري إلى مصر مباشرة وإلى مدينة رشيد بالذات(١) المجاورة للإسكندرية، ويرى أنه يمكن احتلال رشيد بسهولة، على أن هذا الطريق في رأيه طويل وباهظ التكاليف أيضاً(٢). أما الطريق الثالث فهو الإبحار إلى قبرس لكنه يبدأ في تعداد المصاعب والمعوقات لاستعماله فيرى أنه فضلاً عن طوله المفرط فإنه يحتم على جنود الحملة أن يتقنوا فن القتال في البحر والبرمعاً يضاف إلى ذلك صعوبة أخرى هي عدم توفر مواد التموين اللازمة في تلك النواحي لإعادة تموين الجيش. وأما الطريق الرابع فهو طريق إفريقية، أي الإبحار إلى إفريقية مباشرة واحتلالها واتخاذها قاعدة انطلاق إلى المشرق، ويلاحظ هنا أنه قد تبنى وجهة نظر لويس التاسع بحذافيرها، وهو لا يخفي ذلك بل يبينه بوضوح حين ذكر وجهة نظره في هذا الطريق، ومع أنه يتفق مع الملك الفرنسي في وجوب احتلال إفريقية، إلاّ أنه نظراً لأن فشل لويس التاسع كان لا يزال ماثلاً في الأذهان فإنه يقول بأن على الصليبيين أن لا يكرروا تجربة الملك الفرنسي بالإبحار إليها مباشرة(٣)، ويقوده ذلك إلى تناول الطريق الخامس الذي يراه أفضل الطرق وهو الذي يبدأ بالأندلس، فهو يرى أن إسبانيا المسيحية بلادخصيبة وكثيرة الخيول مما يوفر للجيش حاجته منها، كما أنها لقربها من باقي دول غرب أوروبا يسهل على

---

(١) تعرف مدينة رشيد في المصادر المسيحية باسم (Raycet) وترجمتها المراجع الغربية باسم (Rosetta)
انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.79. Note 10.

(٢) A. S. Atiya : Ibid, p.79 - 80

(٣) A. S. Atiya : Ibid, p.80.

جميع القوى الأوروبية الوصول إليها بيسر، حيث يبدأ الصليبيون كفاحهم ضد المسلمين بالقضاء على مملكة غرناطة آخر معاقلهم في الأندلس والتي كانت في رأيه في وضع يمكن للمسيحين معه تحقيق النتيجة المرجوة بسهولة، ذلك أنها كانت على حد قوله محاطة بالبحر من جهة وبمملكتي قشتالة وأرغونة من جهة أخرى مما يجعل الأمر صعباً على مسلمي العدوة مد يد المساعدة إليها حينما تتقدم الجيوش المسيحية لاحتلالها، ولذلك فإن جيشاً مسيحياً صغيراً يستطيع الاستيلاء عليها دون عناء كبير قلعة بعد قلعة ومدينة تلو الأخرى[1]، وباحتلال هذه المملكة تكون الحملة الصليبية المقترحة قد حققت هدفاً هاماً من أهداف الحركة الصليبية المتمثل في طرد المسلمين من الأندلس، وبعد ذلك لا يبقى أمام تلك الحملة إلاّ عبور مضيق ضيق على حد تعبيره هو مضيق جبل طارق لمحاربة المسلمين في العدوة المغربية والذي لا يشكل اجتيازه أدنى خطورة أو مشقة على الصليبيين حيث تكون مدينة سبتة هي نقطة البداية لهم في تلك العدوة، وبعد الاستيلاء عليها تمضي الحملة في زحفها شرقاً إلى إفريقية مجتاحة في طريقها مملكة بني زيان (عبد الواد) في المغرب الأوسط، ثم تكتسح إفريقية وبعد ذلك تنطلق إلى مصر سالكة الطريق البري بمحاذاة الساحل، وبعد الاستيلاء على مصر تعبر منها إلى الديار المقدسة التي ستكون بلا حام أو مانع بعد تحطيم قوة مصر العسكرية، يتم ذلك في نفس الوقت الذي يتخذ فيه الأسطول الصليبي مالطة ورودس قاعدتين له لمساعدة الحملة البرية في زحفها إلى المشرق[2]، ويتعرض في ما تبقى من كتابه إلى أمور شتى خارجة عن نطاق موضوعنا، تهدف كلها إلى خدمة الحركة الصليبية كالمقارنة بين القوات المسيحية والإسلامية في تسليحها وعدتها وخططها العسكرية، ثم موضوع فرض الحصار الاقتصادي على مصر لإضعافها مؤكداً أنه إذا ما نفذت خطته بدقة فإن سلطنة المماليك ستتعرض لأزمة اقتصادية الأمر الذي سيجبرها على الاستسلام للجيوش المسيحية في مدة لا تتجاوز الست سنوات، ثم يستعرض بعض المشاكل التي تواجها الكنيسة والمسيحية ووسائل معالجتها[3].

إن أول ما يلاحظه الباحث على مشروع لول أنه يمثل وجهة نظر النصارى الإسبان في

---

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.80 - 81.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٤، كذلك . A. S. Atiya : Ibid, p.80 - 81

(٣) لمزيد من التفصيل انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.82.

الحروب الصليبية أصدق تمثيل والذين كانوا يرون أن تلك الحروب ينبغي أن توجه أولاً لطرد المسلمين من الأندلس ثم محاربتهم في العدوة المغربية للحيلولة دون تجميع قواهم والوثوب إلى البر الأندلسي من جديد، وليس هذا الأمر بالمستغرب من رامون لول الذي كان وثيق الصلة ببلاط ملوك أرغونة كما سيأتي ذكره، وفي سبيل ذلك تناسى المتاعب التي ستواجهها الحملة في طريقها من الأندلس إلى المشرق، وكان بروكارد أكثر منه واقعية حينما عدد تلك المصاعب في مشروعه وجعله لا يحبذ سير الحملة في تلك الطريق. كذلك يؤخذ على رامون لول أنه أساء الظن بالمسيحيين الشرقيين إلى حد كبير، فلم يأخذ في اعتباره تبعاً لذلك محاولة كسبهم والإفادة منهم مطلقاً هذا بالإضافة إلى أنه رأى تحبيذ فكرة الاستيلاء على القسطنطينية[1]. ولكنه مع ذلك امتاز باتساع الأفق ويبدو ذلك من اهتمامه بموضوع التعاون والتنسيق بين الأسطول والجيش البري، فضلاً عن عنايته بموضوع التموين والأسلحة[2]. وفي آذار سنة ١٣٠٩م أكمل لول مصنفاً آخر ذا طبيعة دعائية بحتة على أمل أن يسترعي اهتمام البابا كلمنت الخامس ليتبنى آراءه، وهو كتابه المسمى Libre De acquisitione Terrac Sanctac والذي ضمنه ملخص الكتاب الآنف الذكر مع تغيير طفيف في الترتيب، وما يهمنا من هذا الكتاب هو أن خططه وآراءه الخاصة بمهاجمة المسلمين في كل من الأندلس والمغرب وإفريقية بقيت على حالها كما كانت في كتاب النهاية دون تغيير[3] مع أنه صنفه إثر عودته إلى أوروبا مطروداً من بجاية. وأخيراً وضع خلاصة مشروعه بشقيه العسكري والتنصيري في تقرير تقدم به إلى مؤتمر فينا (١٣١١ – ١٣١٢م) على أمل أن يوضع موضع التنفيذ كما سيأتي ذكره.

مشروع بروكارد (Brucard)[4] :

كانت جهود الدعاة الصليبيين في تلك الفترة – أعني بعد طرد الصليبيين من الشام

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٤.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٤.

(٣) انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.67.

(٤) عرف اسم هذا الداعية في الأدب الفرنسي على النحو التالي : Brocard, Brochart, Brochard أما باللاتينية فهو .Brocardus, Brochardus وتسميه بعض المراجع خطأً Richard.
(انظر: A. S. Atiya : Ibid, p.95, Note 1.)

في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) – عاملاً فعلاً في الإبقاء على الروح الصليبية متمكنة في نفوس الكثيرين من مسيحي غرب أوروبا فضلاً عن البابوات والملوك والأمراء، ويتجلى ذلك الأمر بوضوح لدى الملوك الذين اعتلوا عرش فرنسا في العقود الأولى من القرن الرابع عشر، ومنهم فيليب السادس دي فالوا (Philippe de Valois) (١٣٢٨ – ١٣٥٠م) أول ملوك أسرة فالوا الذي كان متحمساً لاستئناف الحرب الصليبية ضد المسلمين على الطراز التقليدي، وعندما لمس البابا يوحنا الثاني والعشرون منه هذا الحماس ورغبته في الإعداد لحملة صليبية جديدة[١] أصدر مرسومين أولهما في ١٦ يونيو سنة ١٣٣٠ يخوله فرض ضريبة العشر لمدة سنتين من أجل تمويل تلك الحملة، وثانيهما في ٥ ديسمبر سنة ١٣٣١م يمنحه وكافة المشاركين في الحملة جميع الصلاحيات والامتيازات التي كانت تمنح عادة لقادة الحملات الصليبية[٢]، وعندما شاعت أخبار هذه الحملة في أوروبا الغربية تقدم العديد من المختصين بتقارير إلى الملك الفرنسي ليستفيد منها، كان منهم من له خبرة واسعة في شؤون المشرق، ومن هؤلاء كان بروكارد الذي كان قد أمضى في المشرق مدة أربع وعشرين سنة امتدت من سنة ١٣٠٨م – ١٣٣٢م قضاها متنقلاً بين العديد من أقطاره داعياً للكاثوليكية بين المسيحيين الشرقيين، حيث قدم تقريره المعروف باسم (Directorium ad Philippum Regem "Francia")[٣].

---

(١) بلغ من حماس هذا الملك أن أرسل وفداً إلى مصر يطلب من السلطان تسليمه بيت المقدس وسائر مدن الساحل، يقول المقريزي في حوادث شهر جمادى الأخرة سنة ٧٣٠ هـ عن ذلك : (وفي خامس عشره قدم رسل ريد إفرنس في طلب القدس وبلاد الساحل، وعدتهم مائة وعشرون رجلاً فأنكر السلطان عليهم وعلى مرسلهم، وأهانهم ثم رسم بعودهم إلى بلادهم). المقريزي : السلوك ج٢ ق٢ ص٣١٩.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٦، A.S. Atiya : Op.Cit., p.96.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٦، A.S. Ataya : Ibid, p.96.

د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٥.

نظراً لأن المعلومات عن شخصية هذا المؤلف وحياته قليلة فإن هنالك من يخلط بينه وبين شخص آخر يحمل نفس الاسم هو بروكارد جبل صهيون، ومن المؤرخين من ينسب تقريره هذا إلى =

بدأ بروكارد تقريره وحسب المعتاد في ذلك العصر بمقدمة يصف فيها فرح نصارى الغرب وغبطتهم لسماعهم بأن الملك الفرنسي قد قرر أن يحمل راية المسيح ليحارب أعداءه ويسترد الديار المقدسة على حد تعبيره، ثم يقول مع أنه لا يملك شيئاً يمكنه تقديمه إليه لمسعادته في تلك الحرب، إلاّ أنه يستطيع تقديم المعلومات والنصائح على أمل أن تكون ذات فائدة للملك في حربه المقبلة. وبعد هذه المقدمة يستهل القسم الأول من التقرير بتعداد أهداف الحركة الصليبية كمدخل طبيعي لذلك التقرير(1). ثم يتطرق بعد ذلك إلى موضوع الدعوة لتلك الحملة بين الناس، فيرى ضرورة تولي رجال الدين هذه المهمة وإعداد الذين سيشاركون في الحملة إعداداً دينياً سليماً بحثهم على التطهر ونذر أنفسهم لخدمة المسيح ووجوب إخلاصهم لهدفهم وتمسكهم بالطاعة ثم التحلي بصفات ومبادئ الفروسية الحقة.

ويجعل إشاعة السلام في أوروبا شرطاً أساسياً لنجاح أي حملة صليبية ويقول إنه بدون ذلك لا الحماس ولا المهارة في القتال ستكون مجدية، ويضرب مثلاً على ذلك بالنزاع الذي كان قائماً بين ملكي أرغونة وصقلية وبين الجنويين والقطلان ويلوم الجميع على التضحية بحياة العديد من الجنود الممتازين في تلك الحروب التي ينبغي توفيرها لقتال العدو المشترك، ثم يتناول بعد ذلك موضوع تجهيز الحملة واستئجار الأسطول ووجوب تنفيذ الحصار الاقتصادي على دولة المماليك في مصر والشام، ولم يفته بهذه المناسبة حث البابا على تجديد توقيع قرارات الحرمان على كل من يقوم بالاتجار مع الإسكندرية ودمياط،

=داعية آخر هو Guillaume Adam، وقد بين الدكتور عزيز سوريال عطية بأدلة تاريخية مقنعة أن بروكارد صاحب هذا التقرير هو غير بروكارد جبل صهيون الذي كان قد عاش في القرن الثالث عشر وزار مصر وسوريا وأرمينيا وصقلية حوالي سنة ١٢٣٢م واستقر به المقام في رهبانية جبل صهيون ببيت المقدس حيث كتب دليله المشهور لزوار الديار المقدسة في حدود سنة ١٢٨٠م بينما كتب بروكارد صاحب التقرير المشار إليه في المتن أعلاه تقريره في القرن الرابع عشر، كما أثبت الدكتور عطية نسبة هذا التقرير لبروكارد وليس لوليام آدم كما يظن البعض.

انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p97 - 9.

(١) يحصر بروكارد هذه الأهداف في أربعة أهداف رئيسية هي نشر الكاثوليكية، وحماية المسيحيين من الانقراض والانحراف، ثم استعادة الديار المقدسة من المسلمين، وأخيراً العمل الدائم على القيام بواجب حماية هذه الديار التي هي أرض الأنبياء والميعاد والتي هي في رأيه إرث شرعي للمسيحية.
(انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٢، A. S. Atiya : Ibid, p.99.)

ولم يكتف بذلك وإنما أكد على ضرورة تحريم التجارة مع الأسواق الإسلامية الأخرى[1].

ويتطرق بروكارد بعد ذلك لدراسة الطرق المؤدية إلى الشرق فيعدد أربع طرق رئيسية منها الطريق عبر إفريقية الذي سبق أن ذكره رامون لول في مشروعه والذي يبدأ بالأندلس فالعدوة المغربية ثم إلى إفريقية ومنها إلى مصر ثم إلى بلاد الشام[2]، إلاّ أن بروكارد مع أنه ذكر هذا الطريق كإحدى الطرق المؤدية إلى المشرق وبتفصيل ملحوظ، كان على العكس من رامون لول لم يحبذ استخدامه، فهو يرى أن هذا الطريق طويل جداً ومحفوف بالمخاطر، فقد قدر المسافة بين مضيق جبل طارق وعكا براً بحوالي ٣٥٠٠ ميل وهي في رأيه مسافة طويلة إذا ما قورنت بغيرها من الطرق التي اقترحها، ولا يقصر من طول هذه المسافة في نظره إبحار الحملة مباشرة إلى إفريقية لأن ذلك لن يوفر من المسافة إلاّ مائة ميل فقط. وعلاوة على طول هذا الطريق فإنه يرى أن سلوك الحملة فيه سوف يجرها حتماً إلى الدخول في حروب كثيرة ومريرة ضد الممالك الإسلامية التي تمر منها، وعليها في هذه الحالة أن تواجه قلاعاً منيعة ومدناً حصينة كثيرة في كل من المغربين الأقصى والأوسط وإفريقية، وإذا افترض أن الحملة نجحت في التغلب على هذه العقبة وهو أمر مشكوك فيه كما يقول، فسيكون عليها بعد ذلك عبور الصحراء الليبية القاحلة التي يصعب على المخلوقات تحمل قسوة الحياة فيها، حتى لو نجحت الحملة في عبور هذه الصحراء ووصلت إلى وادي النيل الخصيب فإنها ستجد سلطان مصر قد أعد عدته لمواجهتها وسحقها، ولذلك فإنه يعتقد أنه لا أمل لنجاح حملةصليبية تسلك هذا الطريق. وفي ضوء هذه الاعتبارات يرى أنه ليس هنالك ثمة مبرر لحملة لويس التاسع على إفريقية[3].

ويخلص بروكارد من تعداده لهذه الطرق إلى أن أفضلها في رأيه هو الطريق البري عبر ألمانيا وهنغاريا وبلغاريا فالقسطنطينية، وما يلاحظ هنا هو أنه تمسك بفكرة غزو بلاد الصرب واحتلال الصليبيين للقسطنطينية وأورد الأسباب الدينية والسياسية والحربية التي تبرر هذه

---

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.100.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر A. S. Atiya : Ibid, p.101. د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٦ ص١٢٤٠، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٥.

(٣) A. S. Atiya : Ibid, p.101، انظر أيضاً د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٢٠، =

الفكرة[١]. وأما باقي التقرير فيتعرض فيه لمواضيع خارجة عن موضوع هذه الدراسة، ويبدو أن أفكار بروكارد وآراءه أثارت شكوك فيليب السادس في مدى واقعيتها وحكمتها والتي كانت تختلط فيها الميول الشخصية بالمصالح الصليبية، فأحال ذلك التقرير إلى لجنة خاصة لدراسته والتي بعد أن درسته بعناية رفعت تقريراً إلى الملك الفرنسي تضمن رفضها للطريق الذي اقترحه بروكارد ونصحته باتباع الطريق البحري الذي سلكه لويس التاسع من قبل مع بعض التعديلات الطفيفة[٢]. ومما يؤخذ على بروكارد في هذا المشروع أنه بالرغم من واقعيته بالنسبة لذكر مصاعب طريق إفريقية، إلاّ أن اقتراحاته وافتراضاته الكثيرة الأخرى كانت في معظمها قليلة الأهمية لأنه أظهر عداء نحو طوائف المسيحيين الشرقيين عادل إلى حد ما عداءه للمسلمين، وجعل غزو بلاد الصرب الأرثوذكس والبيزنطيين في القسطنطينية أركاناً أساسية في مشروعه[٣]. ولعل السبب الرئيسي في تضارب وجهة نظره مع وجهة نظر رامون بالنسبة لمدى صلاحية طريق إفريقية يعود إلى أن رامون لول كان يغلب مصلحة النصارى الإسبان، فرأى الاستفادة من الحملة المقترحة في الحصول على مكاسب كبيرة لهؤلاء، أما بروكارد فلأنه لم يكن إسبانياً فقد تحرر من تأثير هذ المصلحة على أفكاره، ولكن تعصبه الأعمى للكاثوليكية جعله يقع تحت تأثير آخر هو عداؤه للمسحيين الشرقيين بحيث إن خطأه نتيجة لهذا العداء لم يكن يقل عن خطأ لول وعدم واقعيته.

مشروع فيليب دي ميزير (Philippe de Mezieres) :

إذا كانت أواخر القرن الثالث عشر والعقود الثلاثة أو الأربعة الأولى من القرن الرابع عشر قد تميزت بوجود العديد من دعاة الحركة الصليبية على مختلف فئاتهم وميولهم من منصرين وساسة ورجال دين وتجار وزوار للديار المقدسة قدموا للبابوات والملوك والهيئات خططاً مختلفة من أجل تحقيق الأهداف الصليبية بحثوا فيها تجهيز الحملات والطرق

= محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٥ – ١٦٦، لوثروب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢٢٢.

(١) انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.108.، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ص١١٩٧.

(٢) A. S. Atiya : Ibid, p.110.

(٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١١٩٧، A. S. Atiya : Ibid, p.110.

وإماكانات النجاح، فإن النصف الثاني من القرن الرابع عشر شهد ركوداً بالنسبة لحرب الدعاية والمشاريع نظراً لأن الغرب الأوروبي بدأ فيه في استئناف توجيه حملات صليبية ضخمة ضد المسلمين[١]، ولأن الأفكار تحولت إلى عمل بدلاً من الحض عليه من أجل ما اعتبر واجباً مقدساً لإنقاذ إرث المسحيية[٢]، ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن تلك الفترة كانت خالية تماماً من الدعاة، فقد وجد عدة منهم نشطوا في الدعاية لهذه الحرب، ولكن تلك الفترة تميزت بأن حلت المراسلات الدبلوماسية والمناقشات فيها محل التقارير والبحوث والمشاريع التي كثرت في الفترة التي سبقتها[٣]. ويعتبر فيليب دي ميزيير Philippe de Mezieres من أشهر الدعاة الصليبيين في الفترة المذكورة أعني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

ولد فيليب دي ميزيير في سنة ١٣٢٦م أو ١٣٢٧م في مقاطعة بيكارديه من عائلة نبيلة صغيرة[٤] وتلقى علومه الابتدائية في أميان Amiens وأما حياته العملية الحافلة بالنشاط الصليبي فقد ابتدأت بالتحاقه بخدمة لوشينو فيسكونتي (Lucchino Visconti) في سنة ١٣٤٥م[٥]، ولم يطل به المقام لدى المذكور إذ بعد فترة وجيزة انتقل إلى بلاط أندريه An-dre ملك نابولي. ولما توفي المذكور غيلة في العام التالي أي ١٣٤٦م رحل ميزيير إلى قشتالة ومنها عاد إلى فرنسا حيث أقام بها فترة قصيرة رحل بعدها إلى المشرق.، وقد ذكر أنه شارك

(١) من أشهر هذه الحملات : حملة جنوة على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م ،حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٥م ، حملة جنوة وحليفاتها على جزيرة جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م، حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م، حملة نيقوبوليس ٧٩٨هـ / ١٣٩٦.

(٢) A. S. Atiya : Op. Cit., p.128.

(٣) A. S. Atiya : Ibid, p.128.

(٤) اختلف المؤرخون في أصل هذا الداعية فقال البعض عنه بأنه صقلي وبعض آخر قال إنه من البندقية ولكن الدكتور عزيز سوريال عطية أثبت أنه فرنسي اعتمادا على ما ذكره ميزيير عن نفسه أثناء تأبينه لصديقه ومرشده بيير دي توماس.
(انظر : A. S. Ataya : Ibid, p.137)

(٥) هو شقيق غاليزو الأول دوق ميلان وخليفته.
(انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.137

في معركة ضد الأتراك وقعت في آسيا الصغرى بالقرب من أزمير في نفس ذلك العام فكوفئ بلقب فارس. وبعد انتهاء تلك المعركة رحل لزيارة الديار المقدسة. وفي طريقه إلى بيت المقدس بدأت تختمر في ذهنه فكرة تأسيس منظمة جديدة من الفرسان تقوم على أساس متين وتعمل على استعادة الديار المقدسة من المسلمين، وهي المنظمة التي أسسها فيما بعد وسماها (منظمة محبي عيسى المسيح)[١] Nova Religio Passions Jhesu Christi ثم غادر الديار المقدسة إلى قبرس واتصل بملكها هيو الرابع لوزجنان Hugh IV de Lusignan (١٣٢٤ – ١٣٥٩م) حيث حاول عبثاً التأثير علية لتبني آرائه. وفي قبرس التقى ميزيير بداعية صليبي آخر هو بطرس (بيير) دي توماس الذي كان له أعظم الأثر في حياته[٢]، كما تمكن من توثيق علاقته ببطرس لوزجنان Pierre de Lusignan ملك قبرس فيما بعد، وعندما غادر الجزيرة وعاد إلى أوروبا بدأ نشاطه الدعائي في كل من فرنسا وأرغونة، ولكن شهرته لم تبرز إلا عندما استدعاه بطرس لوزجنان ملك قبرس الجديد ليصبح مستشاراً له حيث رافقه بعد ذلك في رحلته إلى أوروبا (سنة ١٣٦٣ – ١٣٦٤م) التي كان الغرض منها الحصول على عون ملوكها وأمرائها في مشاريعه الصليبية[٣] والتي كانت حصيلتها حملته الصليبية على الإسكندرية سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٥م[٤]. ولم يمكث ميزيير طويلاً في قبرس بعد تلك الحملة

---

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.137 & 140 - 3.
حقق الدكتور عبد الحميد حمدي – المخطوط المتضمن قانون هذه المنظمة ونظامها الداخلي ونشره في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية. انظر :
Dr. Abdel Hamid Hamdy : Philippe de Mezieres and the New Order of the Passion.

(٢) كان بطرس (بيير) دي توماس Pierre de Thomas من أشهر الدعاة الصليبيين وقد ارتبط ميزيير به بعلاقة وثيقة. حيث يصعب فصل نشاط كل منهما عن الآخر في العشر سنوات الأخيرة من حياة دي توماس، وكانت ميزيير يعتبره أباً روحياً له وكانت المراسلة بينهما متواصلة ليل نهار كما يقول ميزيير. والذي شبه العلاقة التي كانت بينهما بتلك التي كانت بين الحواريين بول وبرنابا، ولكن بدون وجود الخلاف الذي كان بين هذين الحوارين، وعندما توفي دي توماس سنة ١٣٦٦م من أثر جرح أصابه في الحملة على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م أصبح ميزيير هو المنفذ الأول لسياسته وأفكاره واستمر على ذلك مدة ٤٠ سنة.
(انظر : A. S. Atiya :Ibid, p.136)

(٣) انظر : A. S. Atiya :Ibid, p.138., د. سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص٥٦ وما بعدها.

(٤) عن هذه الحملة انظر د. سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص٥٨ وما بعدها.

إذ عاد إلى أوروبا يبحث عن مزيد من العون لمليكه(١)، ولكنه فوجئ باغتيال هذا الملك سنة ١٣٦٩م ورفض نبلاء الجزيرة السماح له بالعودة إليها مما اضطره للبقاء في فرنسا. وعرف له شارل الخامس ملك فرنسا مكانته فعينه في سنة ١٣٧٣م عضواً في المجلس الملكي ومؤدباً لابنه وولي عهده الذي اعتلى العرش في سنة ١٣٨٠م باسم شارل السادس والذي وقع تحت تأثير ميزيير(٢)، والذي وجهت في عهده إلى إفريقية حملة صليبية ضخمة هي تلك التي قادها لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م والذي كان هو الآخر على صلة قوية بميزيير، إذ كان عضواً في منظمة (محبي عيسى المسيح) الآنفة الذكر(٣). وعند وفاة شارل الخامس في سنة ١٣٨٠م آثر ميزيير اعتزال الحياة العامة واعتكف في رهبانية كليستين بباريس يكتب مذكراته ويملي مراسلاته الدبلوماسية على الرهبان(٤)، ولم يقطع هذه العزلة إلاّ في سنة ١٣٩٥م حينما طلب منه شارل السادس السعي لعقد الصلح بينه وبين ريتشارد الثاني ملك إنجلترا للتفرغ لمواجهة الخطر العثماني الذي بات يهدد هنغاريا وقتئذٍ، فكتب إلى ملك إنجلترا رسالته المسماة (Epistle to Richard II)، وكان أن أثمرت جهوده في ذلك بإسهام الإنجليز بنصيب كبير في حملة نيقوبوليس، كما أنه في سنة ١٣٩٧م كتب رسالة تعزية حزينة يرثي فيها الجنود والفرسان الذين سقطوا قتلى في معركة نيقوبوليس ويعزي فيها دوق برغنديا في ابنه الذي قاد تلك الحملة ويحلل أسباب الهزيمة التي لحقت بالصليبيين في المعركة المذكورة، ويحث مسيحيي غرب أوروبا على الأخذ بالثأر(٥)، وفيما عدا ذلك فقد ظل معتزلاً الحياة العامة حتى وفاته في ٢٩ مايو سنة ١٤٠٥م مخلفاً ثروة ضخمة في أدب الدعاية للحركة الصليبية.

وما يهمنا من مؤلفات ميزيير في هذا المقام هو مشروعه الصليبي الذي ضمنه كتابه المسمى (Songe du vieil Pelerim) الذي ألفه سنة ١٣٨٩م حيث تناول فيه طريق

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر د. سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص٧٩.

(٢) A. S. Atiya :Op. Cit., p.143.

(٣) A. S. Atiya :Ibid, p.143.

(٤) A. S. Atiya :Ibid, p.153.

(٥) انظر : A. S. Atiya :Ibid, p.153.

إفريقية من ضمن الطرق التي يقترح على الصليبيين سلوكها للوصول إلى المشرق. وميزيير في ذلك المشروع بحكم خبرته الطويلة في شؤون الشرق بالإضافة إلى المنصب الحساس الذي تبوأه لدى ملك قبرس وصلاته ببلاطات ملوك وأمراء عصره كان أوسع أفقاً وأشمل نظرة من كل من هيثوم ولول وبروكارد، فهو يرى أنه ينبغي أن لا تسير جميع القوات الصليبية في طريق واحد بالرغم من أن الديار المقدسة هي هدف الجميع، بل على كل أمة من أمم أوروبا اختيار الطريق التي تناسبها[1] ما دام الكل في خدمة المسيحية، وإذا حققت كل أمة المهام المنوطة بها في زحفها إلى المشرق فإن الحملة ستحرز انتصارات عديدة وبذلك يمكنها الحصول على مكاسب كثيرة للحركة الصليبية في بلدان عديدة وفي شتى الاتجاهات، ولا يخفى أن هذا الرأي ينطوي على فكرة خطيرة هي إشعال نار الحرب الصليبية ضد المسلمين في عدة جبهات في آن واحد لشغل كل بلد إسلامي بما دهمه من خطر صليبي عن الآخر لتشتيت قوى المسلمين مما يسهل على الصليبيين الانتصار عليهم جيمعاً. ومع أن ميزيير لم يستثن بلاد المسيحيين الشرقيين من الاجتياح الصليبي لفرض الكاثوليكية عليهم، إلاّ أن ذلك لا يغير في الأمر شيئاً من أن المسلمين هم العدو الأول للحركة الصليبية وهم المقصودون الرئيسيون بالمشاريع والمؤامرات الصليبية. وفيليب دي ميزيير بتبنيه فكرة ضرب المسلمين في عدة جبهات في آن واحد، أو توزيع الأدوار على القوى الصليبية كان يود إعادة العمل بالأفكار الصليبية التي شاعت في بداية دخول الحركة الصليبية في طورها السابق الذي ابتدأ في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد حينما بدأ الهجوم الصليبي على المسلمين في الجبهات الثلاث كماسبق أن أشرنا إليه.

ومن هذا المنطلق يوزع ميزيير جبهات القتال على القوى الصليبية، فيرى أن على الألمان والهنغاريين السير في الطريق البري إلى القسطنطينية مباشرة لطرد الأتراك العثمانيين خارج أوروبا فضلاً عن أن الفرصة تكون متاحة لهم لفرض الكاثوليكية على الألبان والبلغاريين ثم يقومون بعد ذلك باجتياح الدولة البيزنطية وإعادة تأسيس الإمبراطورية الفرنجية في القسطنطينية، ويمكن للبروسيين واللتوانيين عبور روسيا والمناطق المجاورة لبلدانهم لينضموا إلى الألمان والهنغاريين في

(١) انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.147.

القسطنطينية حيث يقوم الجميع بسحق الأتراك العثمانيين ثم يستأنفون سيرهم جنوباً إلى بلاد الشام. وأماجيوش أرغونة وقشتالة ونفارة والبرتغال فيرى أن تسلك طريق إفريقية الذي هو في رأيه الطريق المثالي بالنسبة لها، وعليها في بداية زحفها اكتساح مملكة غرناطة ثم عبور مضيق جبل طارق إلى العدوة المغربية حيث تجتاح مملكتي بني مرين وبني عبد الواد في المغربين الأقصى والأوسط ثم تستأنف سيرها إلى إفريقية فتستولي علنها ومن ثم تتابع سيرها إلى مصر[(١)]، وأما شارل السادس ملك فرنسا وريتشارد الثاني ملك إنجلترا الذي سيصحبه الإسكتلنديون والإرلنديون، ويرافقهما جند هولندا وزيلندا واللورين وغيرهم من محاربي بلاد ما وراء نهر الراين وشمال إيطاليا فسيسيرون بحراً إلى مصر وسوريا مباشرة لتحطيم دولة المماليك والمساعدة في الحرب التي سيخوضها الألمان ومرافقوهم في آسيا الصغرى، وبذلك يتمكن الصليبيون من استعادة الديار المقدسة من المسلمين بعد أن تكون بلادهم قد اجتيحت.

ومع أن معظم الأفكار التي أدرجها فيليب دي ميزيير في مشروعه لم توضع موضع التنفيذ إلاّ أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن فكرة اجتياح إفريقية بحملة صليبية كبيرة كانت لا تزال ماثلة في أذهان القائمين على الحركة الصليبية في تلك الآونة، وستجرى محاولة تنفيذ هذه الفكرة في العام التالي على وضع هذا المشروع أي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م بالحملة التي قام بها لويس الثاني دي بوربون على المهدية، وتزداد أهمية هذه الملاحظة بمعرفة أن فيليب دي مزيير وضع مشروعه المذكور في سنة ١٣٨٩م أي قبيل الإعداد لتلك الحملة وأن الذي قادها وأعني لويس الثاني دي بوربون كان أحدأعضاء (منظمة محبي عيسى المسيح) التي أسسها ميزيير فضلاً عن صلة هذا الداعية القوية بهذا القائد وبمليكه شارل السادس الذي تمت الحملة الآنفة الذكر في عهده كونه مؤدبه ومرشده، مما يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الداعية الصليبي لم يغب عن تلك الحملة.

وإذا كانت المشاريع الصليبية التي تعرضنا لها ركزت على فكرة اجتياح إفريقية بالقوة العسكرية، فإن هنالك بعض المشاريع الأخرى تعرضت لناحية أخرى من نواحي الصراع الإسلامي الصليبي في جبهتها هي الناحية الاقتصادية.

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p.147.

فكرة فرض الحصار الاقتصادي على إفريقية :

إذا كانت دولة المماليك في مصر والشام قد خصت منذ أواخر القرن الثالث عشر بنصيب كبير من المشاريع الصليبية الرامية لفرض الحصار الاقتصادي عليها، فإن إفريقية نالت هي الأخرى نصيبها من هذه المشاريع ضمن الإطار العام لفكرة فرض الحصار الاقتصادي على كافة بلاد المسلمين، نظراً لمكانة إفريقية الهامة في الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط والتي لم تكن لتخفى على الحركة الصليبية، فظهر من أصحاب المشاريع الصليبية من نادوا في مشاريعهم بتعميم الحصار الاقتصادي ليشمل إفريقية أيضاً لإضعافها كي يتسنى الاستيلاء عليها بسهولة من ناحية، ثم لإحكام طوق هذا الحصار على دولة المماليك حتى لا تصبح إفريقية ثغرة أو منفذاً لتجارة المسلمين إلى غرب أوروبا من ناحية ثانية. وكان من أوائل من فكر في ذلك شارل الثاني سليل الأسرة الأنجوية (Charles II de Anjo) ملك الصقليتين.

مشروع شارل الثاني :

في غمرة الجهود التي بذلها البابا نيقولا الرابع لإعداد حملة صليبية جديدة إثر سقوط عكا بيد المسلمين سنة ١٢٩١م، تقدم شارل الثاني إلى ذلك البابا بالمشروع الصليبي الذي عرف باسمه والذي قام على دعامتين رئيسيتين أولاهما استرجاع إمبراطورية حميه في القسطنطينية كما سبق ذكره، والثانية هي العدول عن قتال المسلمين بالسيف إلى محاربتهم اقتصادياً وتعميم هذه الحروب على كافة البلاد الإسلامية، ذلك أنه في اعتقاده إذا زحفت الجيوش الأوروبية على بلاد المسلمين تركوها تنزل في سواحلهم لتقع تحت تأثير المناخ القاسي الذي لم يتعوده الصليبيون مما يكون له أعظم الأثر في وهن عزيمتهم والذي سيؤدي بدوره إلى فشلهم، ولذلك فهو يرى أن الأجدر والأولى هو قطع الطريق على تجارة المسلمين وإعداد الأساطيل اللازمة لهذا الغرض تكون خاضعة لقيادة موحدة[1] حتى إذا ما كسدت تجارتهم وانهاروا اقتصادياً، فسوف لن تكون لديهم القدرة على مدافعة الصليبيين عن

(١) انظر لوثروب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢١٥.

بلادهم. وإذا كان شارل الثاني لم يخصص إفريقية بالذات في هذا المشروع بل هدف إلى تعميم الحصار على المسلمين، فإنه بمراجعة بسيطة لنوايا حكام الصقليتين تجاه إفريقية ومطامعهم فيها منذ عهد النورمان وحتى نهاية العصور الوسطى، يتبين أنها هي من أولى البلاد الإسلامية المعنية بهذا الحصار حتى ولو تذكر بصراحة في هذا المشروع.

مشروع مارينو سانودو :

كان مارينو سانودو (Marino Sanudo)[1] أكثر وضوحاً من شارل الثاني في المشروع الصليبي الذي أعده في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد)، فكانت إفريقية من ضمن البلاد التي دعا لفرض الحصار الاقتصادي عليها في مشروعه الذي ضمنه مؤلفه المسمى «سر الصليبية المخلص» (Secreta Fidelium Crucis) الذي شرع في تأليفه في سنة ١٣٠٦ وقدمه إلى البابا كلمنت الخامس في سنة ١٣٠٩م، كما أهدى نسخة منه لشارل الرابع ملك فرنسا. كان من الطبيعي أن تستحوذ الناحية الاقتصادية على اهتمام سانودو بحكم كونه من البندقية[2]، فحظيت هذه الناحية بأوفر نصيب في مشروعه، فكانت آراؤه مبنية على مستوى عال من هذه الاعتبارات أعانه على التوصل إليها ثقافته الواسعة التي يدل عليها اتقانه لليونانية واللاتينية لغتي الثقافة في أوروبا وقتئذ، ثم رحلاتها العديدة حيث طاف فيها بإيطاليا واليونان وأرمينيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وأوروبا الغربية وقابل العديد من شخصيات عصره. لقد عالج سانودو في كتابه الآنف الذكر أمر تشكيل حملة صليبية ناجحة، فوضع مسألة إضعاف

---

(١) يعرف هذا الداعية باسم مارينو سانودو الثاني الأكبر (Marino Sanudo II Vecchio "The Elder") تمييزاً له عن شخص آخر حمل نفس الاسم هو مارينو سانودو الأصغر (Marino Sanudo "The Yonger") (١٤٩٦ – ١٥٣٣م) مؤلف كتاب (Diarii) في تاريخ البندقية.
(انظر : (A. S. Atiya : Op. Cit., p.116.

(٢) ينتمي مارينو سانودو (١٢٧٠ – ١٣٤٣م) إلى أسرة نبيلة من البندقية هي أسرة تورسلو (Torsello) وكان أبوه ماركو Marco ابن عم دوج البندقية أنريكو داندولو (Dandolo) الذي كان له اليد الطولى في تحويل مسار الحملة الصليبية الرابعة عن مصر إلى الاتجاه إلى القسطنطينية. وعند سقوط دولة اللاتين في تلك المدينة قام ماركو هذا بإعداد أسطول من ثماني قطع حربية غزا به جزر بحر إيجه واحتل عدداً منها هي التي تكونت منها دوقية ناكسوس (Naxos) حيث أصبح هو دوجاً لها. وقيل إنه حينذاك تزوج من أميرة بيزنطية ولا يستبعد أن يكون ابنه مارينو ثمرة هذا الزواج.
(انظر : (A. S. Atiya : Ibid, p.116 - 7

دولة المماليك اقتصادياً في المقام الأول، ويتأتى ذلك في رأيه بتواجد أسطول قوي أمام سواحلها لفرض الحصار عليها، ولتعزيز هذا الحصار يرى ضرورة تعميمه ليشمل إفريقية ومملكة غرناطة وسلطنة الأتراك العثمانيين[1]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية رأى أنه لسد حاجة أوروبا من السلع التي لا توجد إلاّ في أسواق المسلمين ينبغي اتباع سياسة إنتاج هذه السلع في بلدان البحر الأبيض المتوسط الواقعة تحت سيطرة المسيحيين، فقطن مصر مثلاً يمكن الاستغناء عنه بزرعه في قبرس ورودس ومالطة وصقلية وأرمينيا الصغرى، وقل مثل ذلك بالنسبة للسلع الأخرى التي تستورد من العالم الإسلامي، وأما ما يرد منها من الشرق فيمكن الحصول عليه بتحويل الطريق التجاري من الشرق الأقصى إلى فارس الواقعة تحت سيطرة التتار ثم إلى أرمينيا الصغرى فأوروبا الغربية، وعندما يتم ذلك والذي من شأنه أن يضعف المسلمين حتماً، يصبح الاستيلاء على بلادهم بالقوة العسكرية أمراً سهلاً[2].

ومع أن سانودو جعل الحصار الاقتصادي أساس مشروعه، إلاّ أنه لم يستثن استعمال القوة العسكرية ضد المسلمين، فكان هذا الأمر الركن الهام الثاني في ذلك المشروع، بل بالأحرى جعل الحصار الاقتصادي وسيلة لضمان نجاح القوة العسكرية في تحقيق أهدافها، ولذلك، ففيمايتعلق بإفريقية في هذه الناحية، يتفق سانودو مع رامون لول في أن قسماً من الحملة الصليبية المرتقبة يجب أن يبدأ زحفه من الأندلس براً وبحراً، وبعد اجتياح مملكة غرناطة، يعبر الصليبيون مضيق جبل طارق إلى سبتة، ومنها إلى إفريقية التي تكون قد ضعفت عن المقاومة بالحصار المفروض عليها، ومروراً بتلمسان (حاضرة بني عبد الواد)، وبعد الاستيلاء على إفريقية يتابع الصليبيون سيرهم إلى مصر التي تكون هي الأخرى محاصرة من قبل جانب من الأسطول الصليبي، يتم ذلك في نفس الوقت الذي يكون فيه قسم آخر من القوات قد زحف عبر أوروبا الشرقية إلى القسطنطينية واستولى عليها وتقدم جنوباً إلى أرمينيا الصغرى فبلاد الشام[3] حيث تلتقي كافة هذه القوات في الديار المقدسة بعد أن يكون كل فريق منها قد أنجز المهمة الموكلة إليه بنجاح.

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p.123.

(٢) A. S. Atiya : Ibid, p.123 - 4.

(٣) لوثروب ستودارد : المرجع السابق ج٣ ص٢٢٢.

لم يعمد سانودو إلى الخلود للدعة بعد إعداد مشروعه، بل نشط كغيره من كبار دعاة الحركة الصليبية في الحث على تبني ذلك المشروع، فعندما لمس أن البابا كلمنت الخامس لم يعره الاهتمام الذي كان ينشده اغتنم فرصة وجوده في فرنسا في إحدى جولاته، وسافر إلى أفينون (Avignon) حيث قابل البابا يوحنا الثاني والعشرين في ٢٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ وقدم له نسختين من هذا المشروع، ولما كان سانودو لا يثق كثيراً في اللجان التي كانت تشكل لدراسة مثل هذه المشاريع، فقد طلب من البابا إحالته إلى لجنة مختصة مخلصة ونزيهة يوثق بها فأكد له البابا ذلك، وحيث إنه لم يكن من ذلك النوع من المفكرين الذي يترك مصير آرائه تحت رحمة اللجان، فقد كتب في ديسمبر ١٣٢٣م رسالة إلى البابا مذكراً إياه بمشروعه، وعندما لم يجد منه التجاوب المطلوب كتب في سنة ١٣٢٥م رسالة أخرى وجهها إلى عدد من الكرادلة حول هذا الموضوع. وفي العام التالي سنة ١٣٢٦م كتب رسالة أخرى عممها على عدد من الشخصيات في أوروبا يذكر فيها الإهمال الذي لحق بمشروعه[١] ويستحثهم على بذل جهودهم لتنفيذه، كما كتب إلى الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني باليولوج Andronikos II Palaeologos في سنة ١٣٢٤م وسنة ١٣٢٦م محاولاً جذبه لوجهة نظره بالنسبة لشن الحرب الصليبية ضد العثمانيين ويطلب منه العمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية لأن في ذلك الوسيلة الأجدى لتوجيه كافة الجهود المسيحية ضد المسلمين. وبين سنتي ١٣٢٨م و ١٣٣٠م كتب إلى أسقف كابوا Archbishop of Capua وبطرس دي لافيا Pietro de Lavia ابن أخ البابا وإلى عدة كرادلة يطلب دعمهم لمشروعه، وفي سنة ١٣٣٠ اتصل بروبرت الثاني ملك صقلية ثم في سنة ١٣٣٢م قدم نسخة من مشروعه إلى فيليب السادس دي فالوا ملك فرنسا، وهنالك دلائل تشير إلى أنه قدم نسخاً مماثلة إلى إدوارد الثاني ملك إنجلترا وإلى عدد من أمراء ونبلاء فرنسا[٢] وإلى فيري الرابع (Ferry IV) دوق اللورين، وإلى ملك أرمينيا الصغرى[٣]، كل ذلك من أجل

---

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.125.

(٢) كان من بين النبلاء الفرنسيين الذين قدم سانودو مشروعه لهم، لويس الأول دوق بوربون، جد لويس الثاني دي بوربون الملقب بالطيب (Le bon Duc Louis II Borbonne) الذي قاد الحملة الصليبيةعلى المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م.

(انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.126.

(٣)

كسب تأييدهم لآرائه والعمل على تبنيها. وظل يعمل بهمة ونشاط في سبيل ذلك حتى وفاته سنة ١٣٤٣م، ولكن دون أن يتحقق له ما صبا إليه من أهداف. وعلى كل حال، فإذا كان مشروعه لم يلق الاستجابة المطلوبة من ذوي النفوذ في أوروبا فإنه كان حجر الزاوية بالنسبة لمشاريع صليبية عديدة تلته كانت كلها قد بنيت على فكرة فرض الحصار الاقتصادي على بلاد المسلمين.

وإذا كانت هذه المشاريع هي تعبير واضح عن حضور إفريقية القوي في وجدان الحركة الصليبية فإنها بالإضافة إلى ذلك تعرضت لنوع آخر من التآمر لا يقل خطورة عن النوع الأول إن لم يفقه في الأهمية الأمر الذي يؤكد حقيقة هذا الحضور.

الحرس السلطاني مشروع صليبي :

تبدو للباحث في تاريخ دول المغرب العربي في العصور الوسطى ظاهرة هامة هي وجود فئة من الجند النصارى المرتزقة في بلاطات حكام تلك الدول كانوا يؤلفون الحرس الشخصي لهؤلاء الحكام. ويعود تاريخ تواجد هذه الفئة في تلك البلاطات إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) وإلى أيام السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين بالذات الذي كان أول من استخدم حرساً من الجند النصارى[1] اختارهم من بين أسرى الحروب، وسار خلفاؤه من حكام المرابطين على نفس هذه السياسة حتى انقضاء عهد دولتهم وقيام الدولة الموحدية، ولم يجد الخلفاء الموحدون برغم شدة تزمتهم حرجاً في السير على هذا النهج حتى آذنت شمس دولتهم بمغيب فورث عنهم حكام دول المغرب العربي الثلاث التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية هذا التقليد، فكان لدى كل منهم فرقة من هؤلاء الجند يقل عددها أو يكثر حسب الظروف تكون مهمتها الرئيسية حماية شخصه وإلى جانب ذلك تقوم ببعض المهام الخاصة التي يكلفها بها.

إن الظروف التي ظهر فيها هؤلاء الجند في البلاط الحفصي وتاريخ ظهورهم يكتنفهما

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.440.
Eugene Tisserant & Gasen Wiet : Une lettre de l' Almohade Murtada au Pape Innocent IV.p.48

الغموض، ومع أننا لا نستبعد تواجد عدد منهم لدى الأمير أبي زكريا الأول مؤسس تلك الدولة، إلاّ أنه من الثابت أنهم لم يكونوا يتمتعون بتلك المكانة الخاصة التي تمتع بها نظراؤهم فيما بعد، ذلك لأن أبا زكريا اعتمد في شؤونه على فئة أخرى من النصارى تختلف عن هذه الفئة، هي فئة العلوج الذين كانوا يختارون من الأسرى ويصبحون من مماليك السلطان، والذين تبوأ البعض منهم مناصب هامة في الدولة الحفصية(١) وبصفة خاصة من كان منهم يعتنق الإسلام. أما فئة الجند المكونة من جند نصارى أحرار ظلوا محافظين على أسلوب حياتهم وديانتهم وارتباطهم بمواطنهم ويشكلون الحرس السلطاني فهم يختلفون عن العلوج. وترجع أقدم إشارة لوجود هذه الفئة في البلاط الحفصي إلى أوائل عهد المستنصر ثاني حكام الدولة الحفصية، إذ ورد في وثيقة مع أنها مؤرخة في يناير سنة ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ، إلاّ أنها تشير إلى حوادث قبل سنة ١٢٥٤م / ٦٥٢هـ بقليل، ومضمونها أن القائد (بو عبديل) – لعله أبا عبد الله – طلب عدداً من هؤلاء الجند النصارى للقدوم إلى تونس ثم استبدل هذا القائد المسلم والذي قد يكون نصرانياً اعتنق الإسلام (أي علجاً) بقائد نصراني هو Guillaume de Mancada الذي كان قد قدم من أرغونة وبصحبته (٧٠) فارساً، ومنذ هذا التاريخ لم تشر المصادر التاريخية إلاّ إلى نصارى كقواد لهذه الفئة من الجند(٢) حيث أصبح هؤلاء الجند منذ ذلك الوقت يبرزون كفئة مميزة تتمتع بمكانة ممتازة وامتيازات خاصة، وكما اختلفت هذه الفئة عن العلوج، اختلفت أيضاً عن فئة أخرى من الفرسان النصارى الذين كانوا يتواجدون في البلاط الحفصي هي المكونة من اللاجئين السياسيين الذين كانوا يلجؤون إلى الدولة الحفصية، ذلك أنه نظراً للمكانة الرفيعة التي تبوأتها تلك الدولة في عهد المستنصر كما سبق أن ذكرنا، وإلى ما اشتهر به عاهلها من التسامح تجاه النصارى، كانت الملاذ والمأوى للعديد من نبلاء وفرسان النصارى الذين كانوا يغادرون بلادهم لأسباب مختلفة، وقد برزت أسماء عدة مشاهير من هؤلاء النصارى الذين كانوا في بلاط سلاطين بني حفص في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) مثل الأمير هنري (Don Henri) ابن فردناند الملقب بالقديس (Saint Ferdinand) ملك

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.440.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.440 - 1.

قشتالة الذي غادر بلاده مغاضباً لأخيه ألفونسو العاشر وأقام في تونس مدة طويلة ولم يعد إلى بلاده إلاّ في شهر يوليو سنة ١٢٩٤م / ٦٩٣هـ محملاً بهدايا السلطان كما حمل أيضاً مشروع سلام ومودة بين السلطان الحفصي وجاقمة (خايمي) الثاني ملك أرغونة[١]، ثم كونراد (Conrad Capece) الذي كان كثير التردد على تونس والذي رأيناه في خضم الصراع الذي احتدم بين كونرادين وريث الهوهنشتاوفن والملك شارل يشكل فرقة من الجند النصارى في تونس ويعبر بهم البحر إلى صقلية لمساعدة كونرادين كما سبق ذكره، وفردريك القشتالي (Frederic de Castella) وفردريك لانسيا (Ferdeic lancia) اللذين سبق أن تعرضنا لذكرهما.

ومع أن معاهدة الصلح التي عقدت بين الصليبيين والمستنصر قد شرطت على كل من الطرفين المتعاقدين عدم إيواء أعداء للطرف الآخر، إلاّ أن ذلك لم يمنع أن يبقى البلاط الحفصي ملاذاً لبعض الشخصيات المسيحية في حالات الضيق والاضطراب في السنين التالية على ذلك الصلح، مثل (Guillaume Marchio) و (de Varazza) وقد حارب الثاني إلى جانب السلطان الحفصي في عدة مواقع كما يتضح من وثيقة ترجع إلى سنة ١٢٨٠م / ٦٧٩هـ، ثم نبيل من البندقية ينتمي إلى عائلة (Giuliani) الذي خدم السلطان الحفصي هو وفرسانه مدة (٤٠) شهراً في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)[٢]، كما كان هنالك في مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) شخصيتان هامتان من أرغونة تعيشان منفيتين في إفريقية وتخدمان هما وأتباعهما السلطان الحفصي وهما Guillaume Raymond من أسرة (Moncada) الشهيرة الذي هرب إلى إفريقية فراراً من نقمة ملك أرغونة لأنه حمل ضده السلاح في معركة (Cap d' Orlando) البحرية، وأرسل في سنة ١٣٠١م رسالة من تونس إلى مليكه يعتذر إليه ويبرر تصرفه، إلاّ أنه لم ينل العفو إلاّ بعد ثمانية عشر سنة من ذلك التاريخ عاشها في إفريقية[٣]، والثاني هو نابليون الأرغوني (Napoleon de Aragon) ابن الملك خايمي (جاقمة) الثاني الذي طرده

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.441.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom,1, p.443.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.443.

أبوه فذهب إلى إفريقية وخدم سلاطينها وبقي فيها حتى سنة ١٣٢٢م حيث غادرها إلى فاس والتحق بخدمة السلطان المريني أبي سعيد(١). يضاف إلى هؤلاء فارس آخر يدعى فردريك مانفرد (Frederic Monfred) الذي كان في تلك الآونة في خدمة السلطان الحفصي وعندما طولب بإثبات نسبه كتب من تونس في سنة ١٣٠٧ – ١٣٠٨م إلى خايمي الثاني ملك أرغونة يطلب منه تعريف السلطان بنسبه(٢).

إن وجود هذه الشخصيات في البلاط الحفصي هو أمر غير ذي بال لأنهم كانوا في الغالب يعيشون كلاجئين سياسيين، وهو أمر كان شائعاً في تلك الآونة بين المسلمين والنصارى، فقد لجأ في المقابل عدد من أمراء إفريقية في عهود مختلفة إلى بلاطات حكام نصارى مثل الأمير عبد العزيز ابن شقيق الأمير أبي زكريا الأول الحفصي الذي لجأ إلى الإمبراطور فردريك الثاني، وهؤلاء لم يكونوا يشكلون خطورة على إفريقية وكانوا في الغالب خارج نطاق المؤمرات الصليبية التي كانت تدبر لها. وأما الذين كانوا يشكلون خطراً عليها فهم تلك الفئة من الجند النصارى التي تألف منها الحرس السلطاني في البلاط الحفصي. لقد كانت هذه الفئة في بداية عهدها خليطاً من الفرسان النصارى ينتمون إلى دول مختلفة، ثم أخذ العنصر الأرغوني يتغلب فيها على غيره تدريجياً حتى إذا ما كانت بداية الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) فإذا بهذا العنصر يشكل الغالبية العظمى من هذه الفئة، وهنا بدأت خطورتها تبرز بشكل واضح مما يجعلنا نعتقد بأن إلحاقهم بالبلاط الحفصي كان مشروعاً صليبياً يستهدف سلامة إفريقية وبسط السيطرة المسيحية عليها، ويجدر بنا قبل التعرض إلى نشاط هذه الفئة أن نشير بإيجاز إلى سياسة أرغونة – التي تنتمي غالبية هذه الفئة إليها – تجاه إفريقية وقتئذٍ والتي تدل دلالة قاطعة على مطامعها فيها.

كانت معاهدة الميثرا (Almizra) التي عقدت بين ملكي قشتالة وأرغونة فيرناندو الثالث الملقب بالقديس وخايمي الأول الملقب بالفاتح في سنة ١٢٣٠م عند تكالب النصارى الإسبان على مسلمي الأندلس نظراً لما اعترى دولة الموحدين من ضعف آنذاك، والتي اتفق

---

(١) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.443.

(٢) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.443.

فيها هذان الملكان على أن تكون الأندلس طعمة لمملكة قشتالة وهي التي تتولى مهمة حرب المسلمين في البر، بينما أطلقت يد أرغونة في البحر، نقول كانت نقطة تحول في سياسة أرغونة، إذ بدأت تمد ببصرها إلى الشرق وأخذت تدعم قوتها البحرية لتعينها على تحقيق مشاريعها، وانطلاقاً من هذه السياسة وثب خايمي الأول ملك أرغونة الملقب بالفاتح على الجزائر الشرقية (جزر البليار) بأسطوله مستغلاً ضعف الموحدين حيث استولى على ميورقة سنة ٦١٧هـ / ١٢٣٠م ثم على يابسة سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٥م، وأما الجزيرة الوسطى منورقة فقد ظلت تقاوم حتى سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م، كذلك دخل ملوك أرغونة طرفاً في النزاع على عرش مملكة الصقليتين، ومع أن شارل كونت أنجو المدعوم من البابوية استطاع أن ينهي هذا النزاع لصالحه ويتوج نفسه ملكاً على تلك المملكة كما سبق ذكره، إلاّ أن ذلك لم يسقط مطالب أرغونة فيها، وتجدد هذا النزاع بعد وفاة الملك شارل وظلت أرغونة مصرة على مطالبتها حتى تمكنت أخيراً من الفوز بجزيرة صقلية حيث تم تتويج فردريك الثاني شقيق ملك أرغونة ملكاً عليها، وكانت خلال فترة هذا النزاع تضع الخطط للوثوب إلى سواحل المغرب العربي وإلى إفريقية بالذات، وحتى لا تتضارب سياستها مع مصالح مملكة قشتالة، عقدت في أواخر القرن الثالث عشر معاهدة بين الطرفين تقاسما فيها مناطق النفوذ في المغرب العربي، فاختصت قشتالة بالمغرب الأقصى، وهو أمر طبيعي لأن المغرب الأقصى هو الردء الطبيعي لمسلمي الأندلس الذين تعمل تلك المملكة على احتلال بلادهم، في حين كان نصيب أرغونة المغرب الأوسط وإفريقية[1]، حدث ذلك في فترة بلغ فيها نشاط أرغونة ذروته في سبيل الاستيلاء على إفريقية وهي فترة نصف القرن الممتد من بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر، وكانت قد أخذت منذ بداية تلك الفترة تتدخل بالفعل في شؤون إفريقية تدخلاً مباشراً وتحاول فرض مطالبها مستغلة في ذلك الضعف الذي أخذ يسري وقتئذٍ في جسد الدولة الحفصية نتيجة للفوضى السياسية التي أعقبت وفاة المستنصر في سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م، وكان الحرس السلطاني المذكور ركيزة هامة من ركائز سياسة أرغونة في هذا التدخل.

---

(١) انظر عن هذه المعاهدة R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.432 - 3.

ومما يدل على ذلك، هو عناية ملوك أرغونة الكبيرة بهذه الفئة وشدة اهتمامهم بالقيام بأنفسهم بتعيين قوادها، ولم يكونوا يكتفون بأن يكون هؤلاء القادة المعينين من قبلهم قادة للجند من رعاياهم في تلك الفترة أي الأرغونيين والقطلان فحسب، وإنما كانوا يفرضون على السلطان الحفصي أن تكون سلطة أولئك القادة شاملة لجميع الجند النصارى من الجنسيات الأخرى أيضاً إن وجدوا، ويظهر هذا الأمر بجلاء في المعاهدة المعقودة بين بيدرو (بطره) الثالث والسلطان عمر الحفصي في يونيو سنة ١٢٨٥م / ٦٨٣هـ[١]، ولم يتخل خليفته ألفونسو الثالث عن هذا المبدأ ويظهر ذلك بوضوح في المعاهدة المعقودة بينه وبين الأمير عبد الواحد بن الواثق المطالب بالعرش الحفصي والمؤرخة ١٨ جمادى الآخرة سنة ٦٨٦هـ / ٢٩ يوليو سنة ١٢٨٧م إذ ورد في شرط من شروطها العديدة والتي كان جلها في صالح ملك أرغونة وتنضح بالإفصاح عن مطامعه[٢] ما يلي : (وكذلك نوعد لكم ونريد أن جميع النصارى فرسان كانوا أو أشقوطيرين أو غيرهم من أي موضع أو مملكة كانوا إما أن يكونوا من حكمكم إن عن راتب برسم سلاح يكونوا في أرضنا يكونوا تحت طاعة وحكم قائدكم الذي يكون عنكم وبأمركم في تونس)[٣]، وليس ذلك فقط وإنما

---

(١) انظر عن هذه المعاهدة R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.443.

(٢) مما جاء في هذه المعاهدة من الشروط :

١ – يتعهد ألفونسو بمساعدة هذا الأمير ضد المسلمين فقط (ونوعد لكم أن نكون لكم حسن عون ونصوركم – ننصركم – بجميع مقدرتنا عناد وضر لجميع المسلمين الذين يكون بينكم وبينهم نفاق وعناد).

٢ – تعهد عبد الواحد بحماية جميع رعايا ألفونسو الذين يكونون في مملكته جنوداً أو تجاراً أو رهباناً ومنصرين ونصرتهم (ننصر رجالكم ونحفظهم ونرعاهم من كل قهر طول ما يكونوا في مملكتنا).

٣ – تعهد عبد الواحد أن يدفع لألفونسو طوال مدة المعاهدة التي هي مدة حياة الاثنين (طول ما نعيش نحن الزوج) مبلغاً سنوياً قدره (٣ / ٣٣٣٣٣١) دينار ولأخيه ملك صقلية (١٦٠٠٠) دينار وهذا يكرس موضوع الأتاوة لصقلية.

٤ – الحرية الدينية للنصارى مكفولة في عبادتهم وعاداتهم في أعيادهم ويبيح لهم شراء الخمر وشربه.

٥ – التزم عبد الواحد بمساعدة ألفونسو في حروبه دون تحديد وفي أي وقت يطلب منه ألفونسو ذلك.

(انظر نص المعاهدة في Maximiliano. A. Alaracon : Los documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, p.394 - 6.)

(٣) Maximiliano A. Alarcon : Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de La Corona de Aragon, p.396.

يتسلمون رواتبهم من ذلك القائد، كما (وأن جميع النصارى يتخاصموا تحت حكم المذكور قائدكم وحاكمه وقاضيه خصام مال كانوا أو خصام دية بواجب الشرع في هاؤلائك الأشياء، يأمر... ونوعد لكم أن طول ما يكون قائدكم في أرضنا ليس يكون عندنا ولا يحبس قائد آخر)[1]، وبذلك أعطت هذه المعاهدة ذلك القائد الذي سيعينه ملك أرغونة لهذا المنصب في حالة نجاح الأمير عبد الواحد في الوصول إلى العرش امتيازات عديدة هامة فضلاً عما تقدم، منها تعيين وإقالة الضباط لهذه الفئة حسب ما يراه ودون الرجوع إلى السلطان، ثم حق طرد قناصل الدول الأوروبية من إفريقية، والسلطة المطلقة على جميع النصارى المقيمين فيها من جند وسواهم، أي أن يكون هذا القائد شبه دولة داخل الدولة الحفصية، وإذا كانت هذه المعاهدة لم تنفذ لفشل عبد الواحد في حركته، فإن موقف ملوك أرغونة من المطالب الواردة في هذه الشروط ظل على حاله، فبعد ثلاث سنوات من تاريخ هذه المعاهدة قام سفير من أرغونة بمناقشة هذه المسائل ذاتها مع السلطان الحفصي، كما أن خايمي الثاني كرر إصراره عليها وألح على تحقيقها في سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وسنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م[2]. إنه من غير المعروف فيما إذا كانت هذه المطالب قد تحققت بكاملها، وعلى أية حال تجدر الإشارة إلى ملاحظتين هامتين أولاهما أنه خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٥٠م و ١٣٢٥م قدتم تعيين كثير من القادة النصارى لهذه الفئة كانوا كلهم من القطلان عين ملك أرغونة اثنين منهم بنفسه، وكان ذلك في سنة ١٢٧٢م وسنة ١٢٩٩م وهما(Berenger de Cardolla) و (Guillaume Galcerau)، وثانيتهما أن راية هذه الفئة كانت هي الراية التي فرضها ملك أرغونة[3] ولهذه الظاهرة مغزاها الكبير بلا شك، مما يحملنا على الاعتقاد بأن برنجفيك لم يتجاوز الحقيقة كثيراً حينما قال إن هؤلاء الجند الذين وضعهم سلاطين بني حفص في خدمتهم كانوا قسماً من جيش أرغونة[4].

ولم يقتصر اهتمام ملوك أرغونة على شخص قائد أولئك الجند ومسؤولياته ومهام عمله، وإنما

---

(١) Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., p.396.

(٢) انظر عن ذلك : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom,1, p.445 - 6.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.445.

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.433.

تعداه إلى رواتبهم أيضاً، فوثائقهم ومراسلاتهم مع سلاطين بني حفص تشهد على مدى عنايتهم بالمحافظة على نسبة هذه الرواتب والجرايات الأخرى منذ تعيين (Guillaume de Moncada) في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، وتلقي معاهدة سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م بين ألفونسو الثالث والأمير عبد الواحد الآنفة الذكر الضوء على هذا الموضوع إذ كان راتب الفارس (٣) دنانير فضية يومياً، والأشقوطير وهو مساعد الفارس ديناري فضة يومياً، عدا الخيول ودواب الحمل والخيام وغيرها، وأما القائد فراتبه مائة دينار فضة يومياً، وكان لملك أرغونة نسبة ثابتة من هذه الرواتب(١)، وقد بقيت هذه الرواتب ثابتة تقريباً طوال المدة من ١٢٥٤م إلى ١٣١٣م أو حتى ربما إلى ما بعد ذلك التاريخ(٢)، وأما عدد هؤلاء الجند فهو غير معروف على وجه التحديد، وإذا كان برنجفيك يستبعد ما ذكره مؤرخ قطلاني بأن عددهم وصل إلى ألفين، ويرى أنهم كانوا بضع مئات فقط(٣)، فإن الأمر في رأينا ليس كذلك، ففي اعتقادنا أن عددهم كان يتغير حسب الظروف فقد يكونون أحياناً بضع مئات كما ذهب إليه برنجفيك ويزداد عددهم أحياناً إلى أكثر من ذلك بكثير.

وأما بالنسبة للمكانة الرفعية التي تبوأها هؤلاء في الدولة الحفصية، فإن المصادر التاريخية الإسلامية لا تمدنا بكثير من المعلومات لا عنهم ولا عن مكانتهم، وكل ما ورد فيها كان عبارة عن إشارات عابرة فقط مثل ما يتعلق بتسليحهم وفنونهم العسكرية وتصديهم للثائر ابن أبي عمارة المعروف بالدعي في سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م واشتراكهم في مطاردة الأمير أبي فارس سنة ٧٣١هـ / ١٣٢٩م الذي كان ثائراً على أخيه السلطان أبي بكر، واشتراكهم في الحملة الفاشلة التي أرسلت لاسترجاع جزيرة جربة سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م التي كانت محتلة من قبل أرغونة وتحكمها أسرة (De Lauria) باسم ملك أرغونة(٤)، ومع ذلك، فإنه يفهم من تلك الإشارات ومما جاء في المصادر التاريخية المسيحية

---

(١) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., p.396.

(٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.445 - 6.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.446.

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.446.

يقدم برنجفيك ذلك كدليل على أن أولئك الجند كانوا يكلفون بمحاربة النصارى أحياناً لحساب السلطان الحفصي محاولاً بذلك تفنيد رأي ابن خلدون الذي يقول بأنهم لم يكونوا يشتركون في الحرب ضد النصارى، وفي رأينا أن الصواب هو ما رآه ابن خلدون، ذلك أ ن تلك المرة كانت هي=

أن سلاطين بني حفص أحاطوا هؤلاء الجند بالرعاية التامة ومنحوهم امتيازات كثيرة، فقد خصصوا لسكناهم حياً مستقلاً في تونس العاصمة عرف بحي النصارى نسبة لهم، وتمتعوا بحريتهم الدينية إلى أبعد الحدود حيث كانوا يمارسون طقوسهم وشعائرهم علناً، كما كانوا يديرون شؤونهم بأنفسهم ولا يخضعون إلاّ لتعليمات قائدهم وأحكامه، ولهم كاتبهم الخاص من بني جنسهم[١] فضلاً عن تمتعهم بثقة السلاطين، ونظراً لهذه الثقة أصبح قادتهم يشاركون في المفاوضات التي كانت تجري بين الدولة الحفصية والدول المسيحية، يدل على ذلك ذكر أسماء بعضهم كمترجمين أو كشهود في العديد من المعاهدات التي كانت تعقد بين الدولة الحفصية وتلك الدول علاوة على بعض المراسلات بين الطرفين، ومن ذلك مثلاً ما جاء في رسالة السلطان محمد الثاني الحفصي إلى خايمي الثاني ملك أرغونة المؤرخة ١٤ شعبان سنة ٧٠٨هـ / ٢٧ يناير سنة ١٣٠٩م إذ يقول : (... فعقد الصلح على صقلية لمدة عشرة أعوام وحضر لهذا العقد من المسلمين والنصارى من عرفت أعيانهم وثبتت فيه أسماؤهم)[٢]، وما جاء في المعاهدة المعقودة بين السلطان إبراهيم بن أبي يحيى أبي بكر على يد وزيره ابن تفراجين وانبير بن الفونس (بيدرو الرابع) ملك أرغونة المؤرخة ٢٥ صفر ٧٦١هـ / ١٥ يناير سنة ١٣٦٠م إذ ورد فيها : (وحضر... ومن الفرسان فراندو بريس ووقفوا على الكتاب الواصل به النصراني فرنسيس سكوسطة الرسول المذكور من قبل مرسله الملك الأجل الأثير أنبير المذكور وقرأوه وأمعنوا النظر فيه فذكروا كلهم أنه مقتض للتفويض التام للرسول فرنسيس سكوسطة المذكور يعقد به الصلح عن مرسله الملك الأجل الخطير أنبير المذكور وأنه يقتضي التفويض التام عنه في ذلك كله وحضر لعقد هذا الصلح... وفراندو بيرس المذكور...)[٣]، فهذا القائد اشترك في تدقيق كتاب اعتماد سفير

= الوحيدة فيما نعلم التي اشتركوا فيها في حرب ضد النصارى ولانستبعد أن يكون اشتراكهم هذا هو أحد الأساب الرئيسية في فشلها فضلاً عن أن تلك الحملة لم تتسم بالجدية وإنما كانت تورية عن هدف ابن اللحياني قائدها كما سيأتي ذكره الأمر الذي لم يكن يخفى عليهم، إذ لا يعقل أن يخلصوا في حرب ضد ملكهم.

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.448.

(٢) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., p.272.

(٣) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Ibid, p.314.

ملك أرغونة المفوض لعقد المعاهدة مع السلطان ثم حضر عقد المعاهدة وشهد عليها.

وبالإضافة إلى ذلك، كان سلاطين بني حفص يرسلون بعضهم سفراء عنهم إلى ملوك النصارى إما للتفاوض في عقد المعاهدات ومثال ذلك ما جاء في رسالة أبي زكريا بن اللحياني إلى خايمي الثاني ملك أرغونة المؤرخة ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧١٤هـ / ٢٩ سبتمبر ١٣١٤م (وقد عينا خديمنا الفارس الأثير الأكرم فراندو جوفن للمسير إليكم والحديث معكم وتكميل هذا الصلح وتتميمه على نحو ما وقع ابتداؤه...)(١)، أو لبحث بعض الأمور الهامة التي تتسم بالسرية كما فعل ابن اللحياني الآنف الذكر أيضاً حينما أرسل كاتب الجند النصارى رسولاً من قبله إلى خايمي الثاني للبحث معه فيما وصف بموضوع تنصره، إذجاء في رسالته التي حملها ذلك الرسول والمؤرخة ٢٩ رمضان سنة ٧١٢هـ / ٢٨ يناير سنة١٣١٣م ما يلي : (وقد أمرنا عبدنا وقائدنا برناط دفنس أن يشرح لكم ما لم نشرحه في كتابنا هذا فصدقوه بحول الله فيما يكتبه، واسمعوا منه ما يقوله. والواصل إليكم بكتابنا هذا د. رنس د. بركة كاتب النصارى لدينا، توجه ليصل بجوابكم ويعود إلينا بكتابكم بما نعتقده فيكم)(٢)، وما يفهم من هذا النص علاوة على ما تقدم من كون كاتب هؤلاء الجند هو السفير، تلك الثقة المطلقة التي وضعها السلطان في برناط د. فنس مساعد قائد حرسه لينوب عنه في شرح وجهة نظره في موضوع خطير كهذا.

لكل ذلك تمكنت هذه الفئة في فترة وجيزة نظراً لتماسكها وترابطها الوثيق كونها يجمع بين أفرادها وحدة الجنس والهدف، وجودة تسليحها وارتباطها بقوة خارجية طامعة، والوضع السياسي المضطرب الذي عانت منه الدولة الحفصية بعد وفاة المستنصر سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م ، تمكنت من أن تصبح قوة يحسب حسابها، وأصبحت أداة ضغط في يد ملوك

---

(١) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., p.288.

(٢) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Ibid, p.282.

برناط د. فنس الذي ورد ذكره في هذا النص هو (Bernat de Fons) مساعد قائد الحرس السلطاني، ودرنس د. بركة فهو (Lurenze de Berge) كاتب هذا الحرس.

(انظر: C. E. Dufourcq : L' Espagne Catalane et le Maghrib aux XIII et XIV siecles, p.489)

كذلك د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص٩٠ حاشية ٤ و ٥).

أرغونة على سلاطين بني حفص، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن أصبح قائدها يتدخل في شؤون الحكم وتولية بعض السلاطين وخلع بعض آخر وحتى التآمر على بعض ثالث بحسب ما تقتضيه مصحلة أرغونة، ففي سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م مثلاً اشترك قائدهم في مؤامرة ضد السلطان أبي إسحق إبراهيم استهدفت التخلص منه وإعادة السلطان المخلوع الواثق إلى العرش، وفي سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧م وعقب وفاة السلطان أبي يحيى أبي بكر الثاني ناصروا الأمير أبا حفص عمر الثاني ضد منافسيه للوصول إلى العرش، ليس لما بذله لهم من مال فقط كما يقول برنجفيك[1] وإنما لأن من مصلحة أرغونة أيضاً أن يتولى العرش الحفصي سلطان ضعيف يصبح ألعوبة في يد ملوكها ويخضع لإرادتهم.

ونظراً لذلك كانوا اعتماداً على هذه المكانة والامتيازات الممنوحة لهم لا يتورعون عن إلحاق الأذى بالمسلمين لأنهم كانوا في مأمن من أن ينالهم العقاب، وبلغت بهم الغطرسة حداً جعل البعض منهم لا يكترث بمشاعر المسلمين الدينية حتى إن أحدهم تجرأ ذات مرة وشتم مؤذن المسجد القريب من حيهم[2] بكلمات نابية وعلى مسمع من بعض المسلمين حين رفعه الأذان[3]، دون أن يتعرض لأدنى عقوبة أو لوم تكون رادعاً له ولسواه عن مثل هذا العمل الاستفزازي. لذلك، فقد أحفظت هذه الغطرسة المسلمين عليهم. حتى إن بعض الفقهاء والصلحاء لم يخف استنكاره لاستخدام السلاطين إياهم والاستعانة بهم وحتى الجهر بهذا الاستنكار للسلاطين أنفسهم، مثال ذلك حادثة جرت في عهد السلطان ابن اللحياني، إذ بينما كان ذلك السلطان ماراً ذات يوم بباب سويقة بمدينة تونس محاطاً بهذا الحرس، اعترض موكبه الزاهد القروي وكان زميلاً للسلطان في الدراسة وهتف به : أيها الفقيه، يا أبا يحيى، ليس ما تفعله مباحاً فوقف السلطان واستدناه وسأله عما أنكره من فعله، فقال له القروي إن الله حرم الاستعانة بالمشركين. فما كان من السلطان إلاّ أن أطرق ثم أجابه مبتعداً عنه بقوله : نعم[4]، أي أنه يوافقه على أن فعله هذا لا يقره الشرع الإسلامي.

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1., p.446 - 7.

(٢) يقول الحسن الوزان (ص٤٤٧) إن هذا الحي كان في الربض الواقع خارج باب المنارة.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1., p.448.

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1., p.447.

وقد بلغت نقمة المسلمين على هؤلاء حداً كبيراً حتى إن مشادة حدثت بين أحدهم وبعض المسلمين في حي سيدي محرز بتونس العاصمة تطورت بسرعة كبيرة إلى صدام كبير بين هؤلاء وسكان ذلك الحي كاد أن يؤدي إلى كارثة لولا تدخل جند السلطان الذين سارعوا إلى فض النزاع والسيطرة على الموقف[1].

لكل ما تقدم كانت أرغونة بصفة خاصة والحركة الصليبية بصفة عامة تعلق أهمية كبيرة وآمالاً عريضة على هذه الفئة لمساعدتها في تحقيق مطامعها في إفريقية، وتعتبرها مشروعاً هاماً في سلسلة خططها التي كانت تضعها لبسط سيطرتها عليها، ذلك أن وجود هذه الفئة المنظمة والمدربة والمسلحة بأحسن السلاح وأكثره فاعلية والمكانة الممتازة التي تبوأتها في الدولة الحفصية كان من شأنه أن يقدم مساعدة ودعماً قوياً لدعامتين أخرتين زامنتا فترة نفوذ هذه الفئة هما القوة العسكرية التي شرعت أرغونة في استخدامها وقتئذٍ حيث أخذت تهاجم سواحل إفريقية بصور مختلفة كما سيأتي ذكره، ثم حركة التنصير التي سنتعرض لها في الفصل التالي، وعلى هذه الدعائم الثلاث ارتكزت سياسة أرغونة لتحقيق مطامعها في إفريقية. فلم تكن هذه الفئة جنوداً مرتزقة فقط كما تقول العديد من المراجع الغربية[2]، وإنما كان وجودها في إفريقية وفي هذا المركز الحساس خطة صليبية خبيثة ومؤامرة من ضمن المؤامرات التي كانت تدبرها الحركة الصليبية لها، وليس أدل على ذلك من موقف البابوية من هذه الفئة، لقد كانت البابوية أولاً وقبل كل شيء على علم تام بأمر هذ الفئة، فكيف لم تستنكر خدمة هؤلاء الجند لسلاطين بني حفص مثلما أنكرت على المدن الإيطالية بيعها المماليك الصغار لدولة المماليك في مصر والشام وأوقعت قرار الحرمان على كل من يفعل ذلك من تلك المدن معللة ذلك بأنه يزيد من قدرة الجيش المماليكي على التصدي للجيوش المسيحية، ثم لا تحرك ساكناً بالنسبة لهؤلاء الجند بل وبالنسبة لنظرائهم الذين كان لدى حكام دول المغرب العربي الأخرى مع أن كلا الطرفين عدو للصليبيين لولا أنها أملت من هؤلاء ما لم تأمله من المماليك الذين كانوا يرسلون إلى مصر؟ بل إن موقف

---

(١) انظر : R. Brunschvig: Ibid, Tom, 1, p.447.

(٢) انظر مثلاً : R. Brunschvig: Ibid, Tom, 1, p.440.

البابوية من هؤلاء لم يكن مجرد السكوت وإنما الرضا عن وجودهم لدى حكام دول المغرب العربي، بل والإقرار بشرعيته أيضاً، وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة التي وجهها إليهم البابا نيقولا الرابع، الذي كان شديد الحماس للأفكار الصليبية وتميز بنشاطه الجم في سبيل تنفيذها كما سبق أن ذكرنا، وذلك في سنة ١٢٩٠م يحثهم فيها على التمسك بدينهم والتحلي بالسلوك القويم الذي يرفع من شأن المسيحية وإخلاصهم في خدمة تلك الديانة لتفخر بهم[1]، الأمر الذي يدل بوضوح على إقرار البابوية بوضعهم. وغير خاف على أحد أن المقصود بخدمة الديانة المسيحية هو خدمة الحركة الصليبية إذ أن كلا الأمرين كان سيان في نظر نصارى غرب أوروبا وقتئذٍ.

وإذا كان هنالك ثمة شك في هذا الدليل عن رضا البابوية عن وضع هذه الفئة وآمالها التي عقدتها عليها، فإن رسالة البابا أنوسنت الرابع (Innocent IV) التي أرسلها إلى الخليفة الموحدي المرتضى في سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م مع لوب فرناندو داين (Lope Fernando d' Ayn) الذي عين أسقفاً لمراكش والتي سنتعرض لها في الفصل التالي، تقطع الشك باليقين. لقد نشط هذا البابا الذي اشتهر بجهوده الصليبية الكبيرة[2]، وأرسلت في عهده البعثات التنصيرية المتعددة إلى خانات التتار مثل بعثات حنا الكاربيني ولونجيموه ودومينك وسواهم، نشط في توجيه جهوده إلى المغرب العربي مستغلاً الحالة المتردية التي آلت إليها الدولة الموحدية منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م وأخذت تؤذن بانهيار قريب، فبدأ يراسل خليفتها المرتضى الذي كان قد استكثر من هؤلاء الجند[3]، آملاً في إعادة المغرب العربي بأسره للسيطرة المسيحية، كان من ذلك الرسالة التي أشرنا إليها آنفاً والتي كشفت عن نوايا البابوية بشأن الجند النصارى الذين كانوا في خدمة حكام دول المغرب العربي بوضوح، فقد بدا فيها راضياً

---

(١) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.447.

(٢) يقال إن هذا البابا كتب ما يزيد عن الألفي رسالة تتعلق كلها بأعمال إرسال البعثات التنصيرية إلى البلاد غير المسيحية عدا عن نشاطاته الصليبية الأخرى.

(٣) يقول ابن عذارى في ذلك في حوادث سنة ٦٤٨هـ إن المرتضى وجه (إلى الأندلس برسم أن يصله جمع من النصارى ليركبهم معه ويكونوا له أعواناً وأنصاراً فوصلوا إليه في هذه السنة). انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص٤٠٢.

عن الامتيازات التي منحها الخليفة الموحدي لهؤلاء الجند والتي تدل على مدى حاجته إليهم وأنه يشجع قدوم جندجدد منهم للالتحاق بخدمته، وإنه لتشجيعهم اعتزم تجديد الكنائس التي كانت موجودة في دولته وتحسينها وأن ذلك العمل من قبل الخليفة نال استحسان ذلك البابا وإعجابه، وبين للخليفة في تلك الرسالة أن هذه هي مشيئة الله التي قيضته – أي المرتضى – للمسيحية ليعيد إعلاء شأنها في المغرب العربي، وبعد أن يدعوه للتنصر(١) يتناول موضوع الجند النصارى الذين كانوا في خدمته فيقول إنه انتصر على أعدائه بمساعدتهم وأن هؤلاء سيواصلون تقديم تلك المساعدة له بكل طاقاتهم ويحمون دولته من أعدائه – والمقصود هنا بالأعداء منافسيه بطبيعة الحال – وأنه سيجد المساعدة ليس من هؤلاء فحسب، وإنما أيضاً من كل القوى في الكون إذا أصبح موالياً للمسيح وفياً له(٢)، ولكنه – أي البابا – يخشى على هؤلاء الجند من انتقام خصوم السلطان منهم إذا ما هوجموا في وقت لا يكونون فيه على أهبة للقتال ولا مستعدين له كما حدث لهم ذات مرة كما يقول حيث قتل عدد كبير منهم، ولذلك ولتجنب وقوع مثل هذا الحادث فهو يطلب من ذلك الخليفة أن يسلمهم بعض المدن والقلاع الحصينة ليتمركزوا فيها حتى يأمنوا على أنفسهم من المباغتة ويتمكنوا من خدمة الخليفة على أكمل وجه، وأن يتسلموا بالإضافة إلى ذلك بعض الموانئ أو ميناء واحداً على الأقل حتى يتمكنوا من المقاومة ولتصلهم المساعدات من الدول المسيحية عن طريقه(٣)، ويزين للخليفة هذا الأمر لإقناعه بذلك فيقول إن ذلك هو في مصلحة الجند النصارى كما أنه في نفس الوقت في مصلحة الخليفة لأن كل ازدياد في قوة هؤلاء هو ازدياد في قوة الخليفة ويعود بالنفع عليه على حد تعبيره(٤).

فالبابا في رسالته هذه يبدي رضاه عن وجود الجند النصارى في خدمة الخليفة الموحدي بل ويساند هذا الوجود ويدعمه هذا من ناحية، كما وأنه من ناحية ثانية يحاول أن يحصل بهم على مكاسب للحركة الصليبية مستغلاً حاجة الخليلفة لخدماتهم، فطلب منه أن

(١) Eugene Tisserant & Gason Wiet : Op. Cit., p.43.

(٢) Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.43.

(٣) Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.43 - 4.

(٤) انظر : Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.44.

يمنحهم مدناً وقلاعاً حصينة وميناء ليسهل عليهم الاتصال بأوروبا أي منحهم قاعدة تكون مؤهلة للانطلاق منها للتوسع في المغرب فيما إذا أدى الأمر إلى استعمال القوة العسكرية، وكانت مهمة الأسقف لوب فرناندو داين (Lope Fernando d' Ayn) الحقيقية هي إقناع الخليفة بهذا الأمر علاوة على محاولة تنصيره، ثم تنظيم هذه الفئة وإحكام ربطها بخطط الحركة الصليبية من خلال المهمة المعلنة المتمثلة في الإشراف على شؤون النصارى في المغرب العربي بأسره، وقد أتبع البابا هذه الرسالة برسائل مماثلة لكل من سلطان تونس وأمير بجاية وأمير سبتة يوصيهم بالنصارى الذين في بلادهم خيراً في نفس الوقت الذي كان فيه الأسقف لوب فرناندو داين Lope Fernando d' Ayn يقوم بأداء مهمته لدى المرتضى[١]. ولما لم يستجب المرتضى لمطالب البابا كما يظهر ذلك بجلاء في رسالته الموجهة إليه المؤرخة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م[٢]. عمد ذلك البابا إلى معاودة هذا الطلب في رسالة أخرى وجهها إلى المرتضى في سنة ١٢٥١م / ٦٤٨هـ - ٦٤٩هـ، حيث ألح فيها عليه للاستجابة لمطالبه، وليس ذلك فحسب، وإنما هدده فيها هذه المرة بأنه إذا لم يستجب لتلك المطالب فإنه سيوعز لهؤلاء الجند لترك الخدمة لديه وسيحول دون قدوم الجند الجدد الذين كانوا يتأهبون وقتئذٍ للسفر إلى المغرب للالتحاق بخدمته، وقرن تهديده بالعمل فأرسل رسائل إلى الجند النصارى في المغرب وإلى أسقف مراكش وإلى الجند الذين كانوا يتأهبون للسفر إلى المغرب آمراً الجميع بالعمل على تنفيذ هذا التهديد في حالة فشله في إقناع المرتضى بالموافقة على مطالبه[٣]. فهل هنالك أبلغ من هذا الدليل على ارتباط هؤلاء الوثيق بالحركة الصليبية، وأنهم ما وضعوا في خدمة حكام دول المغرب العربي ومنهم سلاطين بني حفص إلاّ لخدمة الأهداف الصليبية.

وإذا كانت البابوية المخطط الرئيسي لهذا المشروع لم تعد منذ أواخر القرن الثالث عشر، التي هي بداية فترة نفوذ هؤلاء في البلاط الحفصي، لم تعد قادرة على المضي قدماً في تنفيذه كما ترغب، فإن ملوك أرغونة تبنوا فكرة تنفيذه وأخذوا يعملون كل ما في وسعهم

---

(١) Eugene Tisserant & Gason Wiet : Op. Cit., p.47.

(٢) انظر الملحق الثاني لهذه الدراسة.

(٣) Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.53.

في سبيل ذلك، ولكن الظروف التي أخذت تمر بها مملكة أرغونة بعد انقضاء الربع الأول من القرن الرابع عشر والتي كان من أبرزها تجدد نزاعها مع مملكة قشتالة فضلاً عما كانت تشهده أوروبا من تطورات سياسية آنذاك هذا من ناحية، ثم ما استجد على الساحة الإفريقية في تلك الآونة خاصة الزحف المريني الأول الذي قاده السلطان أبو الحسن المريني وما تلاه من زحف مريني آخر قام به ابنه السلطان أبو عنان كما سيأتي ذكره واللذين استهدفا إعادة توحيد المغرب العربي من جديد في ظل الدولة المرينية، وما أعقب ذلك بعد فترة وجيزة من تولي السلطان الحازم أبي العباس أحمد العرش الحفصي الذي بدأ يعمل على إعادة وحدة الدولة الحفصية ونفخ روح القوة فيها من جديد من ناحية ثانية، كل ذلك وقف حائلاً دون تمكن أرغونة خاصة والحركة الصليبية عامة من الاستمرار في المضي في تنفيذ هذا المشروع الصليبي، ولذلك أخذت أخبار هذه الفئة منذ أواسط القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) تقل في المصادر التاريخية ويكتنفها الغموض إذا ما قورنت بالفترة التي سبقتها، وأخذت سيطرة العنصر الأرغوني تقل بالتدريج مما جعل قوة تماسكها تأخذ في الاضمحلال، فبعد أن كان لهذه الفئة قائد واحد كان في سنة ١٣١٤م / ٧١٤هـ هو جاك قريكس (Jacques Garics) أصبح لها في سنة ١٣٥٣م / ٧٥٤هـ قائدان على الأقل، وفي سنة ١٣٩١م / ٧٩٤هـ أصبحوا على الأقل ثلاثة، كما أن هذا المنصب لم يعد وقفاً على القطلان كما كان الأمر في السابق بل وجد من بينهم من كانوا من جنوة، وأغلب الظن أن كل قائد منهم أصبح يترأس مجموعة من أبناء جنسه(١)، وظلت هذه الفئة في خدمة سلاطين بني حفص إلى ما بعد القرن الرابع عشر بمدة طويلة حيث ذكر الحسن الوزان أنها كانت موجودة في عهده في أوائل القرن السادس عشر حيث يقول : (ولملك تونس ألف وخمسمائة من الفرسان ومعظمهم من النصارى الذين اعتنقوا الإسلام، ولكل واحد منهم مرتب لنفقته هو ولحصانه. ولهؤلاء الفرسان قائدهم الخاص الذي يعينهم ويسرحهم كما يشاء)(٢). وما يستفاد من هذا النص علاوة على ذلك أن أفراد هذه الفئة كانوا قد فقدوا صفتهم الأولى المميزة واعتنق معظمهم الإسلام، الأمر الذي يؤكده نص آخر له يقول فيه

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.448.

(٢) الحسن الوزان : المصدرالسابق ص٤٥٣.

(ولدى الملك من ناحية مائة من راشقي السهام والكثير منهم نصارى أسلموا، وهم يواكبون الملك عندما يخرج راكباً في المدينة أو في خارجها)[1]، حيث آل أمرهم بعد ذلك إلى الاندماج في الشعب التونسي.

إن التآمر الصليبي على إفريقية في القرن الرابع عشر لم يقتصر على هذه المشاريع وإنما واكبها مشروع آخر لا يقل عنها خطورة وأهمية هو ذلك الذي تمثل في جهود حركة التنصير وهو ما سنتعرض له في الفصل التالي.

---

(١) الحسن الوزان : المصدرالسابق ص٤٥٣.

﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات والأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً للّه ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾.

[سورة النساء : آية ١٧١ ، ١٧٢]

الفصل الثاني

نشاط حركة التنصير في إفريقية

جهود المنصرين في إفريقية في القرن الثالث عشر – رامون لول داعية تنصير – أرغونة وحركة التنصير – فشل مخطط التنصير ونجاح الحركة المضادة.

جهود المنصرين في إفريقية في القرن الثالث عشر :

إن فكرة تنصير مسلمي إفريقية لم تظهر فجأة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) مثلما يعتقد البعض، بل إن جذورها تعود إلى ما قبل ذلك الوقت بكثير، فالبابوية التي هي الزعيم الروحي للحركة الصليبية لم تنس في يوم من الأيام أن المسيحية كانت مزدهرة في إفريقية قبل الفتح الإسلامي لها وأنها كانت إحدى المراكز الهامة لهذه الديانة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فكانت تأمل دائماً في إيجاد الفرصة لبعث أمجاد المسيحية فيها من جديد، وإذا كانت ظروف إفريقية في القرون الأربعة الأولى للهجرة قد حالت دون وجود مثل هذه الفرصة كما أشرنا من قبل، فإن حالة الضعف والفوضى التي سادت فيها في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) في ظل الهجرة الهلالية إليها أخذت تهيئ للبابوية الفرصة التي انتظرتها، وإذا أعدنا إلى الأذهان أن البابوية في تلك الآونة كانت في أوج مجدها، وأن الحركة الصليبية أخذت تدخل عندئذٍ طوراً من أنشط أطوارها، أدركنا أن أي اتجاه من البابوية إلى إفريقية في ذلك الوقت ما كان إلاّ لتحقيق أهداف الحركة الصليبية فيها وقد استهل هذا الاتجاه من البابوية إلى إفريقية برسالتين أرسلهما البابا جريجوري السابع (Gregory VII)[1] في سنتي ١٠٧٣ و ١٠٧٦م إلى مسيحيي بونة (عنابة Hippo) يحثهم فيهما لا سيما في الثانية منهما على

(١) عرف هذا البابا في التاريخ باسم جريجوري العظيم، وكانت البابوية في عهده في ذورة مجدها، وقد طرح عدة مشاريع هامة منها نظرية الوحدة العالمية القائلة بوجوب أن يكون في العالم سلطة زمنية واحدة هي الامبراطور وسلطة دينية واحدة تهيمن عليه هي البابوية، فضلاً عن أنه كان أول بابا دعا إلى إشعال الحروب الصليبية ضد المسلمين.

التمسك بطاعة كنيسة روما، ويوصيهم بالإحسان لبعضهم وتوزيع صدقات أغنيائهم على فقرائهم وأن يكونوا بتمسكهم بإيمانهم القدوة الحسنة والمثال الذي ينبغي أن يحتذى، ثم وهو الأهم يوصيهم بتحريض المسلمين من حولهم على الاقتداء بهم في الدخول في المسيحية لا صدهم واحتقارهم والازدراء بهم[١]، فهو بذلك يطلب من هؤلاء المسيحين أن يصبحوا منصرين ويبثوا الدعوة المسيحية بين المسلمين. وأما هو من جانبه فقد أرسل مع ثانية هاتين الرسالتين رسالة أخرى مؤرخة في سنة ١٠٧٦م إلى الأمير الحمادي الناصر بن علناس الذي كانت بونة (عنابة) تابعة لإمارته، رداً على توصية هذا الأمير برسم سيرفاندوس Servandus أسقفاً لتلك المدينة بعد أن انتخبه مسيحيوها لهذا المنصب، يلمح فيها بدعوته إياه للتنصر عملاً بالفكرة التي شاعت حينذاك من أنه إذا تنصر الملك فإن الرعية ستقتدي به في ذلك.

لقد استهل البابا رسالته تلك بتلقيب الناصر بملك موريتانيا الشطيفية (Mauretania Sit-ifensis)[٢]، وهو لقب له مغزاه بلا شك، إذ يعني العودة إلى مسميات أقسام المغرب العربي التي كانت شائعة في العصر الروماني[٣] عهد ازدهار المسيحية فيه، وبعد أن يتمنى للناصر (الصحة والبركة الرسولية) ويعلمه بموافقته على رسم سيرفاندوس أسقفاً حسب توصيته ويشكره على الهدايا التي أرسلها إليه وعلى إطلاقه سراح الأسرى المسيحيين الذين كانوا لديه، يبدأ في التركيز على نقطة هامة ذات مغزى واضح هي نواحي الالتقاء بين الإسلام والمسيحية في محاولة منه لتقريب المسيحية إلى ذهن الناصر فهو تارةً يقتبس من آيات القرآن الكريم وبصفة خاصة من سورة الفاتحة، ويشرح ما يقابلها مما جاء في الإنجيل تارةً أخرى مؤكداً على أن كلا المسلمين والمسيحيين يلتقون في بنوتهم لنبي الله إبراهيم عليه السلام، فيقول : وإننا نسأل الله بألسنتنا وقلوبنا أن يقودك بعد عمر طويل إلى جنة الخلد حيث تنال بركات أبينا الأقدس إبراهيم[٤]، ويخلص بعد هذا التمهيد إلى غرضه الأصلي الذي هو دعوته إلى التنصر

---

(١) انظر : Norman Daniel : Op. Cit., p.250.
(٢) انظر : Norman Daniel :Ibid, p.250.
(٣) كان المغرب العربي مقسماً في ذلك العصر إلى موريتانيا القيصرية وموريتانيا الشطيفية وإفريقية.
(٤) Norman Daniel :Ibid, p.250 - 251.

بأسلوب مبطن قائلاً : إن الله – سبحانه وتعالى – الذي لا يمكننا بدون هديه عمل أي شيء طيب أو حتى تصوره،هو الذي يوحي إلى قلبك بالخير، وهو الذي أبدع خلق كل إنسان وجد في هذا العالم، والقادر على كل شيء لهو القادر على أن ينير عقلك لأنه يرغب في خلاص كل البشر وأن لا يضيعوا(١)، ولا يخفى أن الخلاص في رأي المسيحيين لا يتأتى للإنسان إلاّ باعتناق المسيحية، وأن المخلّص في اعتقادهم هو المسيح عليه السلام. وهو الفادي أيضاً لأنه في اعتقادهم فدى البشرية بنفسه على الصليب ليخلصها. وبذلك كانت هذه الرسائل وخاصة الأخيرة منها التي يعلق عليها نورمان دانيال (Norman Daniel) بقوله إنها تتضمن قدراً من الروح الصليبية(٢)، نقطة البداية لحركة التنصير في إفريقية.

وإذا كانت الحوادث التي جرت في العقد التالي على تاريخ هذه الرسالة، ذلك العقد الذي شهد عنفوان الهجوم الصليبي الكبير الثلاثي الاتجاه على المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي وما تلاه من الزحف الصليبي على المشرق كما سبق أن ذكرناه قد شغل الحركة الصليبية عن المضي قدماً في تنفيذ هذه الخطة لفترة من الوقت، فإن الأمر لم يطل بها كثيراً إذ عقدت آمالها على النورمان الذين أخذوا منذ استكمالهم الاستيلاء على صقلية يتطلعون للاستيلاء على إفريقية لقيام بتنفيذ تلك الخطة، ولكن ظهور الموحدين ودخولهم معترك الجهاد ضد القوى الصليبية في غرب العالم الإسلامي، وقيامهم بطرد هؤلاء من المهدية آخر معاقلهم في إفريقية جعل الظروف لم تعد مواتية لاستئناف الجهود التنصيرية فيها، حتى إذا ما بدأ الضعف والانحلال يسري في جسد الدولة الموحدية منذ أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، عادت الحركة الصليبية لإحياء جهودها التنصيرية في إفريقية من جديد، وقد وجدت في رهبان منظمتي الفرنسيسكان والدومنيكان خير وسيلة لتنفيذ خططها المتعلقة بتنصير مسلميها، وتبعاً لذلك بدأ هؤلاء يتوافدون إليها غير مبالين بالمصاعب وحتى بالموت في سبيل تحقيق هذا الهدف(٣).

---

(١) Norman Daniel :Op. Cit., p.251.

(٢) Norman Daniel :Ibid, p.250.

(٣) كانت مبادئ الفرانسيسكان تقول بأن اللّه سبحانه وتعالى أرسل القديس فرانسيس (مؤسس المنظمة) وأتباعه لتجديد حياة السيد المسيح عليه السلام والحواريين (الرسل)، لذلك فإن على =

وأول إشارة تظهر في المصادر التاريخية عن نشاط هؤلاء الرهبان هي سفر فرانسيس الأسوزي (القديس فرانسيس) مؤسس منظمة الفرانسيسكان نفسه من إيطاليا إلى برغش (Burgos) بإسبانيا لمقابلة ألفونسو الثامن ملك قشتالة في سنة ١٢١٣م ليساعده على السفر إلى بلدان المغرب العربي هو وبعض أتباعه الذين كان من بينهم (Bernard of Quinta-valle)، وكان فرانسيس يأمل في مقابلة عاهل الدولة الموحدية التي كانت إفريقية وقتئذ إحدى ولاياتها لإقناعه بالتنصر والسماح له ولأتباعه بممارسة نشاطهم التنصيري في أنحاء دولته، ولكن مرضه اضطره لتغيير خططه والعودة إلى إيطاليا[1]. وإذا كان فرانسيس لم يذهب إلى المغرب العربي في تلك السنة، فإن وثائق منظمة الثالوث المقدس (The Most Holy Trinity) تذكر أن حنا دي ماتا (Saint Jean de Matha) مؤسس هذه المنظمة[2] والذي توفي في أواخر سنة ١٢١٣م قد زار إفريقية عدة مرات ومدينة تونس بالذات في السنوات ١٢٠٤م و ١٢٠٩م و ١٢١٣م قبل وفاته ببضعة أشهر وأنه أسس فيها بحي النصارى كنيسة صغيرة ومستشفى صغيراً، ونظراً لأن مؤرخي هذه المنظمة يبالغون في إضفاء هالة من الخوارق على قديسي منظمتهم فإن برنجفيك يستبعد أن يكون حنا دي ماتا قد

= رهبان هذه المنظمة أن يقتدوا بالمسيح في مماته على حد قولهم كما هو القدوة في الحياة، أي عليهم أن يستهينوا بالموت في سبيل التنصير، ويعتبرون ذلك استشهادا.

(لمزيد من التفصيل انظر : (E. R. Daniel : Op. Cit., p. XII - XIII

(١) انظر : E. R. Daniel : Ibid, p.42.

(٢) تأسست هذه المنظمة في أواخر القرن الثاني عشر واعتمد البابا تأسيسها في سنة ١١٩٨م، وكان الهدف الرئيسي من إنشائها هو العمل على فداء الأسرى المسيحيين الذين كانوا يوجدون في بلدان المغرب العربي، وأعضاؤها هم الذين كانوا يلقبون بإخوة الحمير (Maturins) أو (Donkey Brothers) كما سبق أن ذكرنا، وقد باشرت هذه المنظمة نشاطها في سنة ١١٩٩ بإرسال بعثة إلى مراكش، ثم أخذت بعثاتها تجوب أنحاء المغرب العربي بحثاً عن الأسرى، وخلال تجوالها كانت تمارس النشاط التنصيري بين المسلمين ولكن بحذر وتحفظ خشية إثارة حفيظتهم عليهم، وقد اتسع نشاط هذه المنظمة خلال القرن الثالث عشر للميلاد، حتى كان لها قبل نهايته أكثر من مائة مركز وكان لها صلة بالعديد من ملوك وأمراء أوروبا فضلاً عن البابوية مثل لويس التاسع الذي كان يصطحب معه عدداً من أفرادها في حملاته الصليبية.

انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.455.,

S. Clissoid : Op. Cit., p.12 - 14.

زار إفريقية، ومع ذلك فإنه يعتقد أنه من المحتمل جداً أن يكون بعض أعضاء هذه المنظمة قد زاروها حوالي سنة ١٢١٥م وتمكنوا بإذن من الشيخ عبد الواحد واليها من تحرير ٢١٤ أسيراً مسيحياً كانوا موجودين فيها(١). وفي سنة ١٢١٩م قسم القديس فرانسيس الأسوزي العالم غير المسيحي إلى سبعة أقسام وزعها على رهبان منظمته للعمل على تنصيرها، وتبعاً لذلك تشكلت خمس بعثات تنصيرية أرسلت إلى كل من إسبانيا والمغرب الأقصى وإفريقية وهنغاريا في حين ترأس هو نفسه البعثة إلى الشام ومصر فرافق الحملة الصليبية الخامسة حيث تمكن من مقابلة السلطان الكامل الأيوبي على أمل إقناعه بالتنصر ولكنه فشل في ذلك كما سبق أن ذكرنا، وأما البعثة التي أرسلت إلى المغرب الأقصى فقد أعدم أعضاؤها جميعاً في مراكش في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠م لأنهم أصروا على دعوة المسلمين للتنصر مما أثار حفيظتهم عليهم(٢)، وأما البعثة التي أرسلت إلى إفريقية فقد ترأسها الراهب جيلز الأسيزي (Giles of Assisi) وتقول حولية (The Longer life) إن أعضاء هذه البعثة لشدة حماسهم أفرطوا في الدعوة للمسيحية بين المسلمين ودون أدنى تحفظ، مما أثار المسلمين عليهم فاضطر مسيحيو إفريقية نظراً لذلك لإجبارهم على مغادرة البلاد(٣). وفي سنة ١٢٢٧م خرجت بعثة فرانسيسكانية أخرى من إقليم توسكانا بإيطاليا قاصدة المغرب العربي مكونة من سبعة منصرين، وما أن وصل هؤلاء إلى مدينة سبتة حتى بدأوا يدعون للمسيحية بين المسلمين علناً ضاربين بنصائح التجار النصارى الذين كانوا في المدينة عرض الحائط، فتم إلقاء القبض عليهم

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.455 - 456.

(٢) E. R. Daniel : Op. Cit., p.42, R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.458 - 459.
وقد علق فرانسيس حينما علم بموت هؤلاء بقوله : الآن أستطيع القول إن لي خمسة أخوة حقاً، وقد تداول الناس في أوروبا الغربية أخبارهم وسيرهم إعجاباً بهم وبتضحيتهم، وأخيراً منع فرانسيس حسب قول E. R. Daniel قراءة سيرهم قائلاً إن على كل أخ (أي عضو في منظمته) أن يفخر بأعماله وليس بآلام وعذاب الآخرين.

(٣) E. R. Daniel : Ibid, p.42 - 44., Gisele Chovin : A Perca sur les relations de la France avec le Maroc des origines a' la fin du Mayon age, p.280 - 281.
لم يلبث جيلز بعد عودته من إفريقية وعقب وفاة فرانسيس الأسوزي أن اعتزل النشاط التنصيري مكرساً نفسه للتفكير والتأمل والعبادة، وحينما انتقده راهب فرانسيسكاني على ذلك رد عليه بقوله إنه ذهب إلى بلاد المسلمين لأن حبه للمسيح جعله يرغب في الشهادة، ولكنه الآن يرى أنه ما=

وسيقوا إلى مراكش حيث أعدموا في ١٠ أكتوبر سنة ١٢٢٧م[١]. وأما رهبان الدومنيكان فلا يمكننا تحديد الوقت الذي بدأوا يفدون فيه إلى إفريقية. ولكن أغلب الظن أنهم لحقوا بالفرانسيسكان في وقت مبكر، فقد ثبت وجودهم فيها في بداية سنة ١٢٣٥م إلى جانب الفرانسيسكان وذلك من رسالة أرسلها رامون البنيافورتي Fr. Ramon de Penyafort الذي سنتعرض لذكره فيما بعد، رداً على رسالة وجهها إليه أحد الرهبان المنصرين من منظمته الذين كانوا مقيمين في إفريقية تتضمن فتوى منه بشأن بعض الخطايا[٢].

وبناءً على ذلك، يمكننا القول إن حركة التنصير في إفريقية قد استأنفت نشاطها وبذلت جهوداً ملحوظة منذ العقد الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، مستغلة في ذلك تسامح الأمير أبي زكريا الأول من ناحية وفترة الانتقال من تبعية إفريقية للدولة الموحدية إلى الاستقلال عنها وتأسيس الدولة الحفصية بها من ناحية ثانية، وقد أعطى موقف البابوية من موضوع ما وصف برغبة الأمير عبد العزيز الحفصي في التنصر، دفعة قوية لحركة التنصير فيها، وخلاصة هذا الموضوع أنه في سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م هرب هذا الأمير الذي هو ابن أخ الأمير أبي زكريا الأول الحفصي من إفريقية إلى صقلية، وتزعم المصادر التاريخية المسيحية اعتماداً على زعم البابوية بأن هذا الأمير كان في طريقه إلى روما للتنصر على يد البابا، ولكن الامبراطور فردريك الثاني نظراً للعلاقات الطيبة التي كانت تربطه بالأمير أبي زكريا من ناحية، ولكرهه للبابوية ورجال الدين المسيحي من ناحية ثانية، أوقفه

= كان عليه أن يرغب في الموت شهيداً وبقي في عزلته حتى وفاته.

(١) E. R. Daniel : Op. Cit., p.43., Gisele Chovin : Op. Cit., p.281

وتصفهم بعض المصادر المسيحية بأنهم رجال وهبوا أنفسهم للعبادة وخدمة الله، توقدت أرواحهم حماسة، متعطشون للعمل بكل طاقاتهم لتخليص أرواح المسلمين (أي تنصيرهم)، وكان كل منهم على أهبة تامة للموت إذا استطاع أن يقدم لله هذه الثمرة الطيبة من بين الكفرة (المسلمين!)، وقد بقي جزء من الرسالة التي كتبوها من السجن إلى قسيس من جنوة يدعى (Hugo)، يصفون فيها معاناتهم التي قلدوا فيها آلام المسيح! (انظر هذه الرسالة في E. R. Daniel : Ibid, p.44)، وقد منحهم الخليفة الموحدي الفرصة لإنقاذ أنفسهم بدعوتهم لاعتناق الإسلام، وعندما رفضوا أمر بإعدامهم.

(انظر : E. R. Daniel : Ibid, p.44 - 45)

(٢) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.461

في صقلية وحال بينه وبين متابعة سيره إلى روما، ولم يرض البابا جريجوري التاسع عن هذا التصرف من الامبراطور فأرسل إليه رسالتين أولاهما في ٢٣ يوينيو ١٢٣٦ / ٦٣٣هـ والثانية في أكتوبر من العام ذاته يلح فيهما عليه أن يخلي سبيل الأمير الحفصي ويسمح له بالذهاب إلى روما، فرد عليه الامبراطور بقوله إن الأمير عبد العزيز الغر قد بهرته البعثة التنصيرية السرية وقد لايكون إيمانه بالدين المسيحي عن اقتناع علاوة عن أن الأمير أبا زكريا قد يستاء من ذلك، لهذا فإنه يرى – أي الامبراطور – ضرورة استشارته فإن وافق على تعميد ابن أخيه فحينئذٍ يتم تعميده، ولكن هذا الرد لم يعجب البابوية التي رأت أن الامبراطور حال دون حصولها على مكسب كبير بتنصير الأمير الحفصي الذي كما تقول تلك المصادر ما إن أقام في صقلية بعض الوقت حتى صرف نظره عن فكرة التنصر وأقام لاجئاً سياسياً في بلاط الامبراطور(١)، لذلك فقد وردت الإشارة إلى هذا الموضوع في مبررات قرار الحرمان الذي أوقعه البابا جريجوري التاسع على الإمبراطور في سنة ١٢٣٩م، إذ جاء فيه (... ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه قبض على ابن أخ ملك تونس ولم يسمح له بالحضور لينصر في كنيستها)(٢)، ومع أن هذا الزعم يمكن اعتباره من ضمن حملة التشهير التي شنتها البابوية على الامبراطور لإثارة الرأي العام المسيحي عليه، أو أنها تصورت أن لجوء الأمير المسلم إلى بلاد النصارى لا يكون إلاّ للتنصر مع أنه من الواضح أن لجوءه إلى الامبراطور كان لأمور سياسية بدليل أنه أقام لاجئاً سياسياً في بلاطه، إلاّ أنه يستفاد من هذه القصة أمران أولهما ما كانت البابوية تمني به نفسها من تنصير مسلمي إفريقية فغضبت على الإمبراطور مما تصورته أن تدخله أفشل جهود حركة التنصير مع هذا الأمير وبالتالي سيضع عقبة في سبيل جهودها مع الآخرين، وثانيهما أنه يؤكد أن هنالك بعثة تنصيرية كانت مقيمة في إفريقية في تلك الآونة وتمارس نشاطها باطمئنان، وقدأكدت ذلك وثيقة أخرى هي رسالة أخرى كتبها هذا البابا في سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م(٣).

(١) انظر R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.465 - 466., N. Daniel : Op. Cit.,162.
N. Daniel : Ibid, p.162 - 163 R. Brunschvig : Ibid, Tom 1 p.466.

(٢) عن قرار الحرمان المذكور انظر : د. سعيد عاشور : أوروبا الوسطى ج١ ملحق ١٤ ص٧٣٠.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.460.

وتلقي الرسالة التي كتبها رامون البنيافورتي Fr. Ramon de Penyafort (١١٧٦ – ١٢٨٠م)[١] عند استقالته من رئاسة منظمة الدومنيكان في سنة ١٢٤٠م إلى خلفه في رئاسة تلك المنظمة، تلقي مزيداً من الضوء على جهود المنصرين الدومنيكان في تلك الآونة، إذ تبين مقدار اهتمامه بتلك البعثات وتوصيه بإرسال المزيد منها وإصراره على ضرورة تعليم الرهبان لغات الأقوام الذين يرسلون إليهم وخاصة العربية لمناظرة المسلمين لإقناعهم بالتنصر. ويشير في تلك الرسالة إلى أن المنصرين الدومنيكان الذين كانوا في إفريقية وقتئذٍ تمكنوا من كسب عطف بعض رجالات الدولة والأهم من ذلك عطف السلطان نفسه الذي يسميه (Miramolin)[٢]. وفي أواخر العقد الرابع من ذلك القرن أظهر البابا الإسكندر الرابع (Alexander IV) ميله لدعم جهودالمنصرين الدومنيكان في إفريقية وذلك في رسالة بعث بها إلى رئيس تلك المنظمة يأمره بإرسال المزيد من هؤلاء المنصرين إليها، وجرت الاتصالات بين الدومنيكان وخايمي الأول ملك أرغونة بهذا الخصوص، فكان أن اتصل هذا بالمستنصر

---

(١) أصل هذا الراهب قطلاني تلقى علومه الأولى في برشلونة ثم انتقل إلى جامعة بولونا حيث نال شهادة الدكتوراه في القانون سنة ١٢١٦م عاد بعدها إلى موطنه حيث انضم إلى منظمة رهبان الدومنيكان سنة ١٢٢٢م وقد استدعاه البابا جريجوري التاسع إلى روما وبناءً على طلبه ألف كتابه Decretales Grogori IX خلال الفترة ١٢٣٠ – ١٢٣٤م. وفي سنة ١٢٣٨م انتخب رئيساً لمنظمة الدومنيكان فقام بإجراء عدة تعديلات على نظامها، وفي سنة ١٢٤٠م استقال من هذا المنصب للتفرغ لأعمال التنصير، وقد أثر كثيراً في حركة التنصير، ومن أشهر من تأثروا به رامون لول الذي عده البعض أنه تتلمذ عليه، وكان من أوائل من نادوا باتباع الصليبية السلمية (أي التنصير) بعد بطرس المبجل Abbot Peter the Venerable الكولوني (١١٢٢ – ١١٥٦م). وقد ربطته صلة قوية بملوك أرغونة إلى حد إنه أصبح مستشارهم ومستودع أسرارهم حتى إنه كان قسيس اعتراف الملك خايمي الأول الفاتح.
(انظر عن ذلك : (E. R. Daniel : Op. Cit., p.8 - 9.

(٢) عن هذه الرسالة انظر : E. R. Daniel : Ibid, p.9.
أما بالنسبة لاسم (Miramolin) الذي ورد فيها فهو تحريف كبير لكلمة عربية أو أكثر يصعب معرفتها فقد تكون الأمير يحيى أي أبو زكريا أو الأمير محمد أي المستنصر ابن أبي زكريا، أو أمير المؤمنين، وإن كنت استعبد ذلك لأن أول من حمل هذا اللقب من الحفصين كان هو المستنصر وبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨م في حين أن من المنطقي أن تكون تلك الرسالة قد كتبت في سنة ١٢٤٠م عندما استقال من رئاسة المنظمة.

الحفصي وطلب منه السماح للدومنيكان بتأسيس مدرسة في مدينة تونس لتعليم الرهبان اللغة العربية (Studium Arabicum)[1]، فوافق على ذلك. وفي سنة ١٢٥٠م تم إرسال ثمانية رهبان منصرين إلى تونس حيث أسسوا تلك المدرسة[2] التي حظيت باهتمام كبير من القائمين على حركة التنصير، ففيها كان المنصرون يتعلمون اللغة العربية والعلوم العقلية الإسلامية ويزودون بمعلومات وافية عن عادات الناس في إفريقية وطريقة تفكيرهم ثم يطلقون إلى ميدان العمل القريب منهم مستفيدين من تسامح السلطان الحفصي. وفي نفس ذلك الوقت كانت البابوية تبذل جهوداً كبيرة في سبيل توحيد مسيحيي المغرب العربي بما فيه إفريقية وجعل مراكش مركزاً أسقفياً لهم جميعاً لتوحيد جهودهم، وقد أرسل البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٤٦م أحد أبرز العاملين في ميدان التنصير ومن أكثرهم نشاطاً هو Lope Fernando d' Ayn الآنف الذكر إلى مراكش بعد أن رسمه أسقفاً لكنيستها، في مهمة متعددة الأغراض منها توحيد مسيحيي المغرب العربي، والإشراف على الجهود التنصيرية التي كانت تبذل في تلك الآونة، ثم محاولة تنصير الخليفة المرتضى الموحدي وكذلك إقناعه بتسليم الجند النصارى الذين كانوا في خدمته مواقع حصينة ليتمركزوا فيها خشية مباغتتهم كما سبق أن ذكرناه ، وتدل الرسائل التي وجهها البابا أنوسنت الرابع في تلك المناسبة إلى أربعة حكام كان من بينهم أمراء تونس وبجاية وسبتة، وإلى تسعة رؤساء أساقفة وأساقفة وإلى مراكز منظمة الفرانسيسكان وسواها من المنظمات الدينية[3] وإلى

---

(١) في سنة ١٢٣٦م أوصى الإخوان المبشرون (Les Freres Precheurs) المجتمعون في باريس بتأسيس مدارس في كل المناطق التي يتجاور فيها المسلمون والنصارى فتأسست تبعاً لذلك أربع مدارس في : مرسية وشاطبة وبلنسية وبرشلونة في الفترة من ١٢٤٥ - ١٢٥٠م، وفي سنة ١٢٥٠م وبناء على التوصية المذكورة أعلاه اتصل خايمي الأول وبتأثير من الدومنيكان عامة ورامون البنيافورتي بصفة خاصة بالمستنصر الحفصي يطلب السماح للدومنيكان بفتح مدرسة مماثلة.
R. Brunchvig : Op. Cit., Tom 1, p.461., E. R. Daniel : Op. Cit., p.9.

(٢) R. Brunchvig : Ibid, Tom 1, p.461., E. R. Daniel : Ibid, p.10.

(٣) وجهت البابوية بهذه المناسبة رسائل إلى السلطات الزمنية والدينية في كل من قشتالة وجنوة ومرسيليا وبرشلونة وميورقة وبلنسية وبامبلونة ولاردة وبرغش فضلاً عما ذكرناه في المتن هذا بالإضافة إلى سلطات الموانئ التي سيمر بها في طريقه إلى المغرب.
انظر : E. Tisserant & G. Wiet : Op. Cit., p.47.

جميع مسيحيي المغرب العربي يطلب منهم أن يساعدوا هذا الأسقف بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ لإنجاح مهمته، كل ذلك يدل على خطورة تلك المهمة ومدى أهميتها(١)، وقد تضمنت الرسالة الموجهة إلى أبي زكريا الأول الحفصي حث البابا له على الإحسان إلى البعثة الدينية التي سيوجهها هذا الأسقف إلى إفريقية وشملها برعايته(٢)، وكان الدافع الرئيسي للبابا على الطلب من الجميع مساعدة الأسقف Lope Fernando d' Ayn في مهمته هو أن البابا المذكور (كان يرى إمكانية ازدهار الكاثوليكة في هذه البلاد الإسلامية)(٣)، ولدى مرور d' Ayn بإسبانيا في طريقه إلى مراكش شرع في اختيار رجال الدين الذين سيقومون بمساعدته في المهام التي أوكلت إليه متسلحاً برسائل البابا التي كانت بحوزته فضلاً عن ما كان يرد من تلك الرسائل إلى إسبانيا والمتضمنة أوامر البابا بتقديم كل العون لهذا الأسقف ذلك (أن العناصر التي ستساعد الأسقف ستقوم بأداء خدمة جليلة وثمينة، لذا فهي جديرة بالاهتمام والعناية والتشجيع)(٤)، ولكن موقف الأمير الحفصي من ناحية وموقف المرتضى الموحدي كما يتضح من رسالته التي أشرنا إليها سابقاً من ناحية ثانية من مهمة الأسقف المذكور جعل البابوية تشعر بالفشل في ما أملته من تلك المهمة(٥).

وإذا كانت جهود الحركة التنصيرية في المغرب الأقصى قد باءت بالفشل، فإن آمال الحركة الصليبية في تنصير مسلمي إفريقية بقيت على حالها، وقد قوى تلك الآمال انتخاب همبرت الرومانسي (Humbert of Romans) في سنة ١٢٥٤م رئيساً لمنظمة الدومنيكان الذي كان من أشد المتحمسين لحركة التنصير وكان يشارك رامون البنيافورتي طموحاته في إفريقية(٦) وكان يأمل أن يتمكن رهبان منظمته تحت رئاسته (من سنة ١٢٥٤م إلى سنة

(١) E. Tisserant & G. Wiet : Op. Cit., p.46.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit. , Tom, 1, p. 460.

(٣) E. Tisserant & G. Wiet : Ibid, p.47.

(٤) E. Tisserant & G. Wiet : Ibid, p.50.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر : E. Tisserant & G. Wiet : Ibid, p.49 - 53.

(٦) كان همبرت الرومانسي من أنشط مفكري الدومنيكان، وفي سنة ١٢٥٥م وهي السنة التالية لانتخابه رئيساً لتلك المنظمة كتب كتابه Littera Encyclica الذي ضمنه خلاصة آرائه في ميدان التنصير، كما قدم في كتابه التالي المسمى Opus Tripartitim الذي كتبه للبابا جريجوري العاشر =

١٢٦٣م) من تنصير كافة المسلمين واليهود وغيرهم فضلاً عن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية[1]، ولذلك ما إن تولى رئاسة هذه المنظمة حتى أوعز إلى أولئك الرهبان بضرورة مضاعفة جهودهم وموافاته بتقارير تفصيلية عن نشاطاتهم أولاً بأول، وأما فيما يتعلق بإفريقية فقد أخذ في تعزيز المنصرين الدومنيكان فيها ببعثات تنصيرية جديدة أرسلها إليها، وكان البابا الإسكندر الرابع من جانبه يدعم هذه الجهود بقوة كما يظهر من رسالته المؤرخة ١٥ يوليو سنة ١٢٦٠م التي أرسلها إلى رامون البنيافورتي يصرح فيها بمساندته لحركة التنصير في إفريقية[2]، الأمر الذي زاد في نشاط هذه الحركة في تلك الآونة زيادة ملحوظة. وقد توجت هذه الجهود بظهور منصر آخر يعتبر من أشهر المنصرين في القرن الثالث عشر هو رامون مارتي (Ramon Marti) الملقب بخنجر الإيمان المسلول على المسلمين واليهود Pugio Fidei Adverus Mauros et judacos (١٢٣٠م – ١٢٨٦م)[3] القطلاني الأصل والذي انضم إلى منظمة الدومنيكان بين سنتي ١٢٤٣م و ١٢٤٨م، ثم أرسل إلى مدينة تونس بإفريقية عند إنشاء المدرسة العربية (Studium Arabicum) بها في سنة ١٢٥٠م حيث تعلم اللغة العربية إلى أن أجادها حتى إنه نسب إليه معجم عربي لاتيني[4]، وقد أقام في تونس مدة طويلة يمارس نشاطه التنصيري فيها، وقد ربطته خلال تلك المدة بالمستنصر الحفصي صلة صداقة قوية، كما كان على اتصال وثيق بلويس التاسع ملك فرنسا كما سبق

= أثناء اشتراكه في مجمع ليون الثاني تفصيلاً أكثر عن تصوره للإرساليات التنصيرية، وقد بين في ذلك الكتاب أن التهديدات الموجهة للمسيحية تتلخص في ثلاثة مصادر هي : الأعداء الخارجيون، الانشقاق الديني، مفاسد الكنيسة، ولهذا قسم كتابه المذكور إلى ثلاثة أقسام عالج في كل قسم أحد هذه التهديدات حيث تناول في القسم الأول الحرب الصليبية ضد المسلمين ورأى أن التنصير السلمي يجب أن لا يتعدى حدود مملكتي قشتالة وأرغونة، أما في الخارج فكان يرى وجوب اتباع الصليبية بوجهيها المسلح والسلمي فذلك أنجح الوسائل وإن كان يميل إلى الصليبية المسلحة أكثر من الأخرى، ذلك أن التنصير الناجح في رأيه إنما يكون في ظل السيف.

(انظر : E. R. Daniel : Op. Cit., p.10 - 11.)

(١) E. R. Daniel : Ibid, p.11.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.461.

(٣) د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص٥٢ حاشية ٢.

(٤) د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص٥٢ حاشية ٢.

ذكره[١]، وفي سنة ١٢٦٧م غادر إفريقية للمرة الأولى إلى إسبانيا، ثم عاد إلى إفريقية ثانية وأقام بها إلى سنة ١٢٦٩م حيث غادرها نهائياً إلى أوروبا بصحبة منصر آخر كان في إفريقية وقتئذٍ هو Cendra ونظراً لصلته القوية بلويس التاسع وبالمستنصر فإن بعض المراجع الغربية تشير إلى أن اتجاه لويس التاسع بحملته الصليبية إلى إفريقية إنما كان بوحي منه طمعاً في تنصير سلطانها كما سبق أن ذكرنا[٢]، وإذا أضفنا إلى جهود هؤلاء، جهود كل من لونججميوه ورهبان منظمة الثالوث المقدس اللذين سبق أن أشرنا إليهما. فضلاً عن نشاط رهبان منظمة أخرى هي منظمة عذراء الرحمة "Notre - Dame de la Merci" (The Order of our Lady of Mercy)[٣] الذين كانوا هم الآخرون يجوبون أرجاءالمغرب العربي بحثاً عن الأسرى، ويمارسون نشاطهم

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.462.

(٢) لم تفتر جهود رامون مارتي بعد عودته من إفريقية إلى أوروبا، فقد اختير عضواً في لجنة من خمسة أشخاص أسندت إليها مهمة تنقيح التلمود من العبارات المنافية للمسيحية، وفي تلك الآونة ألف كتابه (The Pugio Fide) الذي كان عبارة عن دفاع عن المسيحية ضد الإسلام واليهودية، وقد انتقل إلى مونبلييه للتدريس في جامعتها حيث أقام بها بضع سنوات، وفي سنة ١٢٨١م عين أستاذاً للدراسات العبرية في جامعة برشلونة، وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١٢٨٤م وهي السنة السابقة على وفاته. وتشير المراجع الغربية إلى أنه قد ربطته صلة قوية بكل من رامون البنيافورتي وهمبرت الرومانسي ورامون لول.
(انظر : R. Breunschvig : Ibid, Tom 1, p.462., E. R. Daniel : Op. Cit., p.11.

(٣) أسس هذه المنظمة فرنسي من كراكسون يدعى بطرس نولاسكو St. Peter Nolasco ربما في سنة ١٢١٨م وكان قد ترك موطنه واستقر في أرغونة واتصل بملكها خايمي الأول، وقد وضع نظامها بالتعاون مع رامون البنيافورتي وكانت ذات طبيعة دينية وعسكرية، وكان الغرض الأساسي من إنشائها هو العمل على إطلاق الأسرى المسيحيين الذين كانوا يتواجدون في دول المغرب العربي، وكان أعضاؤها يرهنون أنفسهم لدى المسلمين مقابل إطلاق سراح هؤلاء الأسرى ويظلوا رهائن حتى تدفع الأموال المقررة للفداء، وفي خلال تجوالهم واتصالاتهم بمسلمي إفريقية والمغرب كانوا يمارسون نشاطات تنصيرية الأمر الذي كان يؤدي إلى إعدامهم،وقيل إنهم قاموا في العقود الثمانية التالية على تأسيس منظمتهم حتى نهاية القرن الثالث عشر بحوالي سبعين رحلة إلى إفريقية والأندلس والمغرب وقد أعدم منهم في هذه الرحلات سبعة عشر عضوا وزاد نشاطهم في القرن الرابع عشر وأعدم منهم الكثير في إفريقية في مدن تونس وعنابة وبجاية والقل، وكان غالبية أعضائها من القطلان، وفي سنة ١٤٠٣م أعلن مارتن ملك أرغونة حمايته لهذه المنظمة.
(انظر : E. Tisserant & G. Wiet : Op. Cit., p.47, R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.457
S. Clisold : Op. Cit., p.14 -15).

التنصيري حتى إن بعضهم أعدم في بجاية سنة ١٢٦٦م[١] لأدركنا مدى نشاط الحركة التنصيرية في إفريقية قبيل حملة لويس التاسع الصليبية عليها، وما يدلنا على ذلك هو أن المنصرين الدومنيكان في إفريقية كانوا في سنة ١٢٦٠م يهنئون بعضهم بعضاً على الجهود التي بذلوها في سبيل تنصير المسلمين فيها وعلى ما يتوقعونه من ثمار طيبة أملوا في جنيها في المستقبل القريب[٢].

وقد فتحت معاهدة الصلح المعقودة بين المستنصر الحفصي والصليبيين سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م المجال أمام القائمين على هذه الحركة لبذل مزيد من الجهود التنصيرية وبحرية تامة ودون أدنى اعتراض من السلطان كما سبق ذكره ولذلك أخذت البعثات التنصيرية تتوالى على نواحي إفريقية خاصة في عهد الاضطراب السياسي الذي أعقب وفاة المستنصر ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م وبتشجيع من مملكة أرغونة التي أخذت في تلك الآونة تتدخل في شؤون الدولة الحفصية بشكل سافر، ووصلت تلك الجهود ذروتها بوصول رامون لول إلى إفريقية في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد).

رامون لول داعية تنصير :

يعتبر رامون لول من أشهر دعاة التنصير في العصور الوسطى، وقد اكتسب هذه الشهرة ليس لأنه أول من عمل في هذا المجال بين المسلمين، ولكن لأنه كان أكثر مجهوداً من الذين سبقوه أو عاصروه. ولد رامون لول في ميورقة إحدى الجزائر الشرقية (جزر البليار) في حدود سنة ١٢١٢م من أبوين هما رامون أيضاً وإليزابيث الذين كانا ينتميان لعائلتين نبيلتين من أرغونة، وكان والداه قد حصلا على أملاكهما في تلك الجزيرة مكافأة لهما من الملك خايمي الأول الفاتح ملك أرغونة نظير المساعدات التي قدماها له في حروبه[٣]. قضى لول مطلع حياته في ميورقة حيث عني أهله بتربيته وتثقيفه ليصبح من رجالات بلاط ملك أرغونة، وفي سنة ١٢٤٦م اختير مرافقاً ومرشداً للأميرين الصغيرين

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.457.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.465.

(٣) J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.2 - 3.

بيدرو وخايمي ابني الملك خايمي الأول. وقد أغرته حياته المترفة على أن ينغمس في الفسق والفجور(١) وأن يقرض الشعر بالقطلانية على نهج شعراء الترابدور(٢)، ولم يردعه زواجه أو إنجابه لطفلين ليغير من نمط حياته(٣)، ولكن في سنة ١٢٦٣م حدث تحول هام في مجرى حياته إذ قرر ترك التهتك والخلاعة ونذر نفسه لخدمة المسيحية، أما السبب الحقيقي لهذا التحول فهو غير معروف بالضبط(٤)، ومن غير المستبعد أن يكون قد شعر كأبناء عصره بمرارة الفشل الذي منيت به الحركة الصليبية في تلك الآونة مما جعله يتأثر بما كان يدور من حوله ويدرك أنه لا بد للحركة الصليبية من اتباع أسلوب جديد إلى جانب أسلوبها التقليدي المتمثل في استعمال القوة العسكرية كي يتسنى لها تحقيق أهدافها، ما دام ذلك الأسلوب التقليدي لم يؤد إلى الحصول على النتيجة المرجوة، فهداه تفكيره إلي ضرورة تدعيم الصليبية السلمية المتمثلة في حركة التنصير لا لتحل محل الصليبية المسلحة ولكن لتساندها وتكون مكملة لها.

لم يكن رامون لول هو المبتدع لهذه الفكرة، بل سبقه إليها العديد من المفكرين الصليبيين حتى شاعت بين المسيحيين في غرب أوربا، فقد ظهرت هذه الفكرة لأول مرة أثناء حملة الأطفال سنة ١٢١٢م، عندما قام صبي اسمه نيقولا في حوض الراين وأعلن أن الأطفال الألمان لن يلجأوا إلى غزو الديار المقدسة بالقوة، وإنما سينجحون في تحويل المسلمين

---

(١) J. N. Hillgarth : Ibid, p.2.

(٢) N. Daniel : Ibid, p.67. J. N. Hillgrath : Ibid, p.2.

(٣) تزوج رامون لول من فتاة تدعى بلانكا (Blanca Picany) في سنة ١٢٥٦م أو ١٢٥٧م وهي سليلة إحدى الأسر النبيلة أيضاً وأنجب منها طفلين هما درمنيك وماجدولين.
انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.3. E. R. Daniel : Ibid, p.67.

(٤) تزعم العديد من المصادر والمراجع الغربية أن سبب هذا التحول هو أنه بينما كان في إحدى الليالي يكتب قصيدة غرامية لإحدى صديقاته التفت يمنة فرأى هيئة السيد المسيح معلقة على الصليب ففزع وهرع إلى فراشه ينشد الأمان. وفي اليوم التالي شك في الرؤية وأبعدها من خاطره، ولكن حدث أن تكررت نفس الرؤية في الأسبوع التالي في نفس المكان والساعة التي حدثت فيها الأولى حينما كان يعالج الشعر أيضاً، وعندما تكررت بعد ذلك ثلاث مرات أخرى، اعتقد أن المسيح أراده أن يهجر حياته تلك ويتفرغ لخدمته. وبعد صراع مع نفسه أعلن التوبة ونذر نفسه لخدمة المسيحية.
(انظر : J. N. Hillgrath : Ibid, p.3, E. R. Daniel : Ibid, 67.

جيمعاً إلى المسيحية عن طريق التبشير[١]، وفي سنة ١٢٤٨م ظهر كتاب (Super Hiere-mion) أو (Expositio Hieremion) الذي ينسب إلى المفكر الصليبي (Joachim)[٢] والذي يقول مؤلفه فيه إن الحروب الصليبية تضعف المسيحية وأن السلام يكتسب برهبان المنظمات التنصيرية لا بالحرب[٣]. كما أن توما الأكويني كان يستهدف المسلمين عندما كتب دراسته الكبيرة المسماة (خلاصة ضد الأعاجم) Summa Contra Gentiles حوالي سنة ١٢٦١م – ١٢٦٤م بناءً على طلب رامون البنيافورتي لكي يستخدمه في تدعيم جهود بعثاته التنصيرية[٤] حيث تظهر آراؤه التنصيرية في ذلك المؤلف المشابهة لآراء (Joachim)، كما نادى بهذه الفكرة مفكر آخر يعتبر من أشهر المفكرين المسيحيين في العصور الوسطى وهو روجر بيكون (١٢١٤ – ١٢٩٢م) إذ يقول في كتابه Compendium Studii Philosophia الذي كتبه في سنة ١٢٧١م : (إن المسيحيين قلة، وإن غير المسيحيين أكثر، وكسب غير المسيحيين يجب أن يكون بالوعظ – أي بالتنصير – وليس بالحروب الصليبية، وسيهتدي الكثيرون منهم إذا ما اتبع المنصرون الخطة التي قدمها في ذلك الكتاب)[٥]. كما قال إن الحروب الصليبية غالباً ما أدت إلى كوارث عسكرية كالهزيمة التي لحقت بلويس التاسع في دمياط، وحتى حينما احتل المسيحيون بلداناً وراء البحار كانت تنقصهم القوة البشرية للدفاع عن أنفسهم. وزيادة على ذلك فإن الصليبين لم يقوموا بهداية المسلمين الذين يدعوهم بالكفار! إلى الإيمان وإنما كانوا يقتلونهم وبذلك كانوا يحكمون بإرسالهم إلى جهنم! لهذا كان الناجون من القتل من هؤلاء الكفرة!

---

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٩٥٥ – ٩٥٦، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٢.

(٢) هو مفكر صليبي معروف، وبالرغم من أنه كان أحد دعاة الحملة الصليبية السابعة إلا أنه كان يرى أن استعمال القوة العسكرية ضد المسلمين والهراطقة الذين يسميهم بأتباع الشيطان هي عديمة الفائدة وأن انتصار المسيحيين يجب أن يكون بالتنصير، ليس بالسلاح ولكن بالتمسك بالإيمان والصبر. انظر : E. R. Daniel : Op. Cit., p.9.

(٣) E. R. Daniel : Ibid, p.21 - 22.

(٤) شاخت وبوزورث : المرجع السابق ق١ ص٤١.

(٥) E. R. Daniel : Ibid, p.61 - 62.

في أشد الغيظ وأكثر عداء للمسيحية عما كانوا عليه من قبل(١). ولم يقف روجر بيكون في آرائه الصليبية عند هذا الحد بل رأى أن ترصد الأموال التي تصرف على الحروب الصليبية لدعم حركة التنصير، كما حث البابوية على إصدار تعليماتها للمنصرين لدراسة اللغات الشرقية(٢). وكان ممن نادى باستعمال الصليبية السليمة إلى جانب الصليبية المسلحة في تلك الآونة أيضاً رامون البنيافورتي الذي تعود معرفة لول به إلى عهد مبكر حينما كان لول وصيفاً في بلاط خايمي الأول ورامون البنيافورتي قسيس اعتراف ذلك الملك، وتوثقت العلاقات بينهما حتى أصبح رامون البنيافورتي هو المرشد والموجه لرامون لول في خططه التي كان يضعها لتنصير المسلمين وفي إنشاء كليات تعليم اللغات الشرقية(٣)، ثم همبرت الرومانسي(Humbert of Romans) الآنف الذكر، ومعاصره وليم الطرابلسي الذي كان يعتقد أن التنصير هو أفضل السبل لتحقيق الأهداف الصليبية وللتدليل على صحة رأيه كتب إلى البابا رسالة زعم فيها أن عمد أكثر من ألف مسلم(٤) بالإقناع.

ومع ذلك، فإن رامون لول بالرغم من أن هؤلاء قد سبقوه في المناداة بالعمل بهذه الفكرة وأنه قد تأثر بآرائهم إلى حد بعيد، إلاّ أنه فاقهم جميعاً في بذل الجهود المضنية لوضعها موضع التنفيذ. لقد رأى لول حينما اتخذ قراره الآنف الذكر بأنه تنقصه الثقافة الدينية اللازمة للعمل الضخم الذي هو مقدم عليه، كما وتنقصه المعرفة باللغة العربية اللازمة له لمناظرة المسلمين ونقل حججه وآرائه إليهم مباشرة، لذلك اعتكف(٥) في دير للرهبان السسترشيان فترة من الوقت هو دير (Nestra Dona dela Real) القريب من بالما حاضرة ميورقة للتأمل والعبادة ودراسة الذين على الرهبان(٦). وفي عزلته تلك توصل إلى الأهداف الرئيسية الثلاثة

---

(١) E. R. Daniel : Ibid, p.62.

(٢) E. R. Daniel : Ibid, p.62.

(٣) E. R. Daniel : Ibid, p.68. J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.5 & p.22.

(٤) E. R. Daniel : Ibid, p.12.

(٥) يقال إنه عندما اتخذ قراره بوقف نفسه على خدمة الحركة الصليبية باع معظم أملاكه ولم يترك منها إلاّ ما يكفي زوجته وطفيله، وتبرع بالثمن لفقراء مدينة بالما حاضرة ميورقة.

انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.5.

(٦) E. R. Daniel : Ibid, p.67 - 68., H. N. Hillgarth : Ibid, p.7 & p.451.

التي عمل من أجل تحقيقها باقي حياته، وهي تأليف كتب يدحض فيها حجج غير المسيحيين خاصة المسلمين، وإعداد الرهبان الذين يتولون مهمة التنصر إعداداً صحيحاً بإنشاء مدارس خاصة لهذا الغرض، وأخيراً الموت في سبيل المسيح للتكفير عن ذنوبه السابقة[١]. وبعد أن غادر ذلك الدير الذي ظل يتردد عليه بين الحين والآخر، اشترى عبداً مسلماً ليعلمه اللغة العربية والفلسفة الإسلامية حيث أمضى في دراستهما نحو عشر سنين حتى أتقن اللغة العربية وغرف خلالها من الثقافة الإسلامية لا سيما الفلسفة ما أطاق[٢] وتقول المراجع الغربية إن هذا المسلم انتحر بعد ذلك[٣]. أما لول فقد بدأ حياة التجوال فسافر إلى الشرق حيث زار الديار المقدسة ومصر وغيرها ثم عاد إلى ميورقة، وقد عزم بعد عودته على السفر إلى باريس في طلب العلم ولكن والديه وأصدقاءه وخاصة رامون البنيافورتي ثنوه عن عزمه، ويذكر توماس سلاني (Thomas de Celano) في كتابه (Vita Prima S. Francisci) أن لول ألف في تلك الفترة كتابه المسمى (Libre de contemplacio de Deu) الذي كتبه أولاً بالعربية ثم ترجمه إلى القطلانيةويتضمن دفاعه عن المسيحية ضد المعتقدات الأخرى خاصة الإسلام واليهودية، كما ألف في تلك الفترة كتاباً آخر في نفس الغرض هو (Ars Magna) الذي عرف فيما بعد باسم (Ars Generalis)[٤] ويبدو تأثير رامون البنيافورتي وتوما الأكويني على رامون لول واضحاً في كلا المؤلفين.

---

(١) E. R. Daniel : Op. Cit., p.66 - 67., A. S. Atiya : Op. Cit., p.74.

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p. 4.

E. R. Daniel : Ibid, p.67 - 68., A. S. Atiya : Ibid, p.74.

J. N. Hillgarth : Ibid, p.5. N. Daniel : Op. Cit., p.310 - 311

(٣) وتذكر بعض هذه المراجع إن السبب في انتحار هذا المسلم هو أنه جرى ذكر المسيح عليه السلام أمامه ذات يوم فقال عنه إنه نبي كباقي الأنبياء تمشياً مع العقيدة الإسلامية فيه، فاعتبر الحضور هذا القول منه تجديفاً وقذفاً منه على المسيح لإنكاره ألوهيته فوثبوا به إلى سيده الذي ما كان منه إلاّ أن جلده بقسوة مما أثار حفيظة هذا المسلم على لول فحاول بعد ذلك اغتياله ولكنه فشل بسبب تدخل باقي الخدم الذين سارعوا لإنقاذ سيدهم، فأمر لول بوضعه في السجن حتى يرى رأيه فيه بعد عودته من عزلة كان يعتزم وقتئذٍ القيام بها في الدير الآنف الذكر، وعندما عاد من تلك العزلة وجده كان قد انتحر. (انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.450 - 451.).

(٤) J. N. Hillgarth : Ibid, p.6., E. R. Daniel : Ibid, p.68.

وفي سنة ١٢٧٤م أو سنة ١٢٧٥م استدعاه خايمي الأول إلى بلاطه في مونبلييه، وأثناء وجوده هنالك قدم مؤلفيه إلى هذا الملك فأحالهما هذا بدوره إلى راهب يدعى بتراند برنجار (Betrand Berenguer) لدراستهما وتقديم تقرير إليه عنهما، وقد أبدى برنجار إعجابه بهما[١] الأمر الذي شجع لول على أن يطلب من الملك تأسيس مدرسة في ميورقة تعد لتعليم ثلاثة عشر راهباً صغيراً اللغة العربية، وحينما يتم إعدادهم إعداداً جيداً يؤهلهم لتولي مهمة التنصير بين المسلمين يغادرون تلك المدرسة ويؤتى بغيرهم ليحلوا محلهم فيها، فوافق الملك على ذلك، ومع أن خايمي الأول قد توفي في تلك الآونة، إلاّ أن ذلك كان في صالح مشروع لول حيث إن ميورقة كانت من نصيب صديقه خايمي لدى اقتسام المملكة بينه وبين أخيه بيدرو، الذي وافق على إنشاء تلك المدرسة على نفقته. وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٢٧٦م صدر مرسوم فيتربو Viterbo من البابا يوحنا الحادي والعشرين بالموافقة على إنشاء كلية ميرامار في ميورقة والتي ظلت تعمل حتى سنة ١٢٩٢م حيث توقفت لسبب غير معروف بالضبط[٢]، وخلال الفترة من سنة ١٢٨٢م إلى سنة ١٢٩١م أخذ لول يطوف في أوروبا داعياً لتبني آرائه، فحضر اجتماع منظمة الدومنيكان الذي عقد في مونبلييه سنة ١٢٨٣م، وزار روما سنة ١٢٨٧م على أمل مقابلة البابا هونوريوس الرابع (Honorious IV) فوجده قد توفي (ت ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م) فغادر إيطاليا إلى باريس حيث أخذ يحاضر في جامعتها فترة من الزمن ألف خلالها كتابه (Libre de les besties) الذي قدمه إلى فيليب الرابع ملك فرنسا، ولما لم يجد لديه ما كان أمل فيه من دعم ومساندة عاد إلى مونبلييه فحاضر في جامعتها، وفيها ألف كتابه (Ars Ueritatis Inuentius) وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١٢٩٠م سافر إلى روما

---

(١) انظر : J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.47.

(٢) E. R. Daniel : Op. Cit., p.68 - 9., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.461 - 462.
J. N. Hillgarth : Ibid, p.48 - 9.
ويعتقد (J. N. Hillgarth : Ibid, p.48 - 9) أن السبب في تعطيل هذه المدرسة يعود لعلاقة قويةبين لول وخايمي ملك ميورقة الذي كان على خلاف مع أخيه بيدرو الثالث ملك أرغونة وعندما استولى الأخير على نصيب أخيه من المملكة والذي كانت ميورقة من ضمنه أمر بإقفال تلك المدرسة نكاية بلول.

مزوداً برسالة توصية من رئيس منظمة الفرانسيسكان إلى جميع مراكز المنظمة المذكورة في إيطاليا لبذل العون إلى لول[١]، وكان يأمل من تلك الزيارة جعل البابا نيقولا الرابع الفرانسيسكاني يصغي إليه ويقنعه لتبني آرائه، ولكن هذا البابا الذي كان يدعم موقف الأسرة الأنجونية في نزاعها مع أرغونة على عرش مملكة الصقليتين خيب ظنه لكونه على صلة قوية بالأسرة الحاكمة في أرغونة[٢]، لذلك عاد لول إلى جنوة حيث قرر السفر إلى إفريقية لبدء جهوده التنصيرية فيها، وبعد أن وجد سفينة كانت على وشك الإقلاع إليها خانته شجاعته فعدل عن رأيه، حتى إذا ما أقلعت تلك السفينة ندم على جبنه ندماً شديداً مما أوقعه فريسة للمرض، وأخيراً استجمع شجاعته حينما علم بأن سفينة أخرى هي (San Bernardo) على وشك الإقلاع إلى مدينة تونس، فاستقلها وأبحر في سنة ١٢٩٢م في رحلته الأولى إلى إفريقية[٣].

وأثناء الطريق بدأ يستعيد صحته تدريجياً، كما تمكن من أن يجمع من التجار والملاحين الذين كانوا على ظهر السفينة جميع المعلومات اللازمة له عن مسلمي إفريقية، عن حياتهم وعاداتهم، وما يحبونه ويكرهونه أو يحرمونه وعن آداب السلوك عندهم والطريقة المثلى لجعلهم يصغون إليه، وكان من بين الذين عرفهم على ظهر تلك السفينة تاجرين جنويين هما : (Luigi de Pastorga) و (Stephano Colombo) اللذين سيكون له معهما شأن فيما بعد، وعند وصوله إلى تونس لم يفصح في البداية عن غرضه، حتى إذا ما اختلط بالناس وعرف ما كان يرغب في معرفته عن الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في المدينة وأسماء المسؤولين في الدولة ومنتديات المثقفين، أخذ يؤم تلك المنتديات مدعياً أنه قد درس المسيحية وجاء إلى إفريقية لدراسة الإسلام، وإن وجده أفضل من المسيحية فإنه سيعتنقه دون تردد، وقد مكنه هذا الزعم من مناظرة بعض مسلمي المدينة الذين أملوا في إفهامه مبادئ

---

(١) انظر : J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.47.

(٢) J. N. Hillgarth : Ibid, p.52 - 3., E. R. Daniel : Op. Cit., p.70.

ولمزيد من التفصيل عن علاقة لول بملوك أرغونة انظر J. N. Hillgarth : Ibid, p.70 - 3

(٣) انظر : E. R. Daniel : Ibid, p. 70., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p. 463.

J.N. Hillgarth : Ibid, p.22. الذي يرى أن هذه الرحلة كانت سنة ١٢٩٣.

الدين الإسلامي[١]. وتزعم بعض المراجع الغربية أنه في مناظراته مع هؤلاء استطاع أن يفند حججهم الواحدة تلو الأخرى مما أصابهم بالدهشة والارتباك لقوة حجته[٢]، الأمر الذي جعلهم يعتبرونه خطراً على المسلمين فوشوا به للسلطات[٣]، ومع أنه من غير المستبعد أن يكون في هذا الزعم المبالغ فيه إلى حد كبير شيء يمت إلى الحقيقة بصلة، ذلك لأنه وكما هو معروف بأن المناظرة تتطلب معرفة تامة بعلم الكلام وهو ما لم يكن مسلمو إفريقية يهتمون به أو بدراسته بقدر اهتمام الأندلسيين والمشارقة، فضلاً عن أن أهل إفريقية كانوا يربؤون بأنفسهم عن مناظرة أصحاب الديانات الأخرى احترازاً من وقوعهم في الإثم، يؤكد ذلك ما ذكره الضبي عن الفقيه القيرواني أبي محمد عبد الله بن أبي زيد عندما وصف للفقيه أحمد بن محمد بن سعدي المالكي عند عودته من المشرق مجالس المناظرات بين المسلمين وغيرهم في بغداد وما كان يدور فيها (فجعل أبو سعيد يتعجب من ذلك وقال ذهب العلماء وذهبت حرمة الإسلام وحقوقه وكيف يبيح المسلمون المناظرة بين المسلمين والكفار وهذا لا يجوز أن يفعل لأهل البدع الذين هم مسلمون ويقرون بالإسلام وبمحمد عليه السلام وإنما يدعى من كان على بدعة من منتحلي الكلام إلى الرجوع إلى السنة والجماعة فإن رجع قبل وإن أبى ضربت عنقه. وأما الكفار فإنما يدعون إلى الإسلام فإن قبلوا كف عنهم وإن أبوا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها كف عنهم وقبل منهم وأما أن يناظروا على أن لا يحتج عليهم بكتابنا ولا بديننا فهذا لا يجوز فإنا لله وإنا إليه راجعون)[٤]، ولعل ذلك كان هو سبب الندرة الشديدة في تسجيل المناظرات في مؤلفاتهم، وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر بقوله في المقدمة عن هذا الموضوع : (ولم نر أن نسخم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم، فهي على الجملة معروفة، وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم، ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال، إنما هو الإسلام أو الجزية أو القتل)[٥]،

---

(١) N. Daniel : Op. Cit., p.311., J. N. Hillgarath : Op. Cit., p.22 - 3.

(٢) انظر : N. Daniel : Ibid, p.311., J. N. Hillgarth : Ibid, p.23.

(٣) لمزيد من التفصيل عن هذه المناظرات انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.23 - 5.

(٤) الضبي : بغية الملتمس ص١٤٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة، طبعة دار الشعب بالقاهرة ص٢٠٩.

لذلك كان من اختص بهذا النوع من المؤلفات من المسلمين هم الأندلسيون والمشارقة[1].

أما حقيقة الأمر في اعتقادنا فهي أنه نظراً لشدة تعصب لول هذا التعصب الذي يمكن الاستدلال عليه من عقوبته لمملوكه المسلم الذي علمه اللغة العربية والفلسفة الإسلامية لا لشيء إلاّ لأنه عبر عن معتقده في المسيح عليه السلام، قد أصمت أذنيه وختمت على فؤاده فلم تسمح له بتفهم الإسلام، سواء أكان الذين ناظرهم من العلماء أو من بسطاء العامة فتصور أنه دحض حجج المسلمين، وبطبيعة الحال حينما يئس المسلمون منه، ونظراً لتهجمه على معتقدهم لم يستطيعوا الاستمرار في احتمال ذلك منه، فشكوا أمره إلى السلطات بعد إقامة له في مدينة تونس تقارب السنة، وهو أمر يدل على تسامح المسلمين الذين احتملوا تهجمه على الإسلام هذه المدة الطويلة في نفس الوقت الذي لم يكن مسيحيو أوروبا على استعداد لاحتمال أقل من ذلك من مسلم في بلادهم ولو ساعة واحدة إذن لأعدموه فوراً. لهذا قبض عليه وأودع السجن، ثم حوكم حسب الشريعة الإسلامية وأسندت إليه تهمة الشرك والحض على الكفر، فحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم ربما بتدخل من النصارى في إفريقية إلى النفي، فنقل من سجنه إلى الميناء تحت وابل من الحجارة من العامة، وألقي به في مركب جنوي كان يوشك على مغادرة تونس، وبالكاد تم إنقاذه من الجماهير الغاضبة والتي كادت تفتك بشخص أوروبي آخر يشبهه ظناً منها أنه لول، حيث أقلته تلك السفينة إلى نابلي[2]، وقدصرح فيما بعد أنه نجا من الموت في تونس نظراً لأن علماء المدينة رأوا أن قتله سيتسبب في خلق العراقيل في وجه المسلمين الذين كانوا وقتئذٍ يعملون على هداية النصارى للإسلام[3].

ولم يوهن فشله في إفريقية من عزيمته، بل حاول مقابلة البابا كليستين الخامس (Celestine V) ففشل أيضاً، لكنه تمكن من مقابلة خليفته البابا بونيفاس الثامن حيث قدم له

(١) انظر قائمة كتب المناظرات التي ألفها المسلمون (بيبلوغرافيا) التي أعدها الأستاذ عبد المجيد الشرفي، ونشرها في مجلة «إسلاميات مسيحيات». Islamochristiana روما، عدد سنة ١٩٧٦، وعدد سنة ١٩٧٨.

(٢) انظر : E. R. Daniel : Op. Cit., p.70., N. Daniel : Op. Cit., p.311.
A. S. Atiya : Op. Cit., p.90., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.463.

(٣) انظر : N. Daniel : Ibid, p. 311.

مشروعه الصليبي وخططه المتعلقة بالتنصير على أمل تبنيها ولكن دون جدوى[1] كما سبق أن ذكرنا، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه فظل يطوف أوروبا يقابل ملوكها وأمراءها وكبار رجال الدين فيها، ويلقي محاضراته في جامعاتها، ويؤلف الرسائل والكتب والمقالات، كل ذلك من أجل خدمة الحركة الصليبية، حتى إذا ما سمع بأن غازان خان تتار فارس قد زحف على بلاد الشام في سنة ١٢٩٩م بجيش يقدر بمائة ألف جندي، سارع للسفر إلى المشرق على أمل مقابلة هذا الخان وتنصيره، ولكنه عندما وصل إلى الشام وجد أن الخان كان قد قفل عائداً إلى فارس[2]، مما جعل لول يشعر بخيبة مسعاه، ومع ذلك فقد حاول إقناع ملك قبرس بمساعدته في السفر إلى العراق ومصر وآسيا الصغرى وبلاد الشام للعمل على كثلكة المسيحيين الشرقيين، لكنه فشل في ذلك أيضاً مما جعله يعود أدراجه إلى باريس بهدف التفاهم مع أساتذة جامعتها فيما يتعلق بخططه التنصيرية، والعمل على مناظرة أتباع فلسفة ابن رشد ودرء خطرهم على المعتقدات المسيحية الذي استفحل في تلك الآونة[3]. ولكن تلك الجهود لم تشغله عن هدفه في إفريقية، إذ ظلت فكرة العودة إليها لتنصير مسلميها أو لإنقاذ أرواحهم كما كان يزعم مسيطرة عليه حتى تملكته[4]، ويبدو أن الفشل الذي صادفه مرات عديدة كان له تأثير قوي على نفسه، حتى إنه لم يخف ذلك في كتابه المسمى «كتاب النهاية» (Libre de Fine) الذي ألفه في تلك الآونة، والذي ينضح بالمرارة التي كان يشعر بها لتحطم آماله والتي تظهر حتى في عنوانه، مما دفعه إلى المغامرة بالسفر إلى إفريقية من جديد.

وفي سنة ١٣٠٧م أبحر إلى مدينة بجاية في رحلته الثانية إلى إفريقية حيث اتصل فيها

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p. 76.

(٢) زحف غازان بهذا الجيش بغية القضاء على دولة المماليك فالتقى بسرية من الجيش المماليكي بقيادة الأمير كابشاك بسلامية قرب حمص في ٢٣ ديسمبر ١٢٩٩م، ولما رأى المماليك قلة عددهم انضموا إلى غازان الذي زحف حتى وصل أبواب دمشق فاستسلمت له على شرط الأمان، وقد اكتفى بهذه النتيجة وعاد إلى فارس في شهر فبراير سنة ١٣٠٠م مهددا بالعودة ثانية وتدمير كل شيء إذا تجرأ أحد على عصيانه.

(انظر : A. S. Atiya ; Ibid, p.90., J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.73 - 4.)

(٣) انظر : A. S. Atiya ; Ibid, p. 91., N. Daniel : Op. Cit., 310.

(٤) انظر : د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٥. A. S. Atiya : Ibid, p.95.

ببعض علماء المسلمين وطلب مناظرتهم في أمور الدين، وحدد قاضي المدينة الزمان والمكان لتلك المناظرة(١)، ولكنه بدلاً من أن يستفيد من تجربته في تونس فيتوخى مزيداً من الحذر في دعوته ولا يحاول إثارة عامة المسلمين عليه، وإذا به يتجه وقبل موعد المناظرة مباشرة إلى جمهور المسلمين ربما مدفوعاً بشعوره باليأس، وبمزيد من الوقاحة والعداء خاطبهم بأعلى صوته قائلاً بأن الديانة المسيحية مقدسة وهي الصحيحة وأن العقيدة الإسلامية زائفة ومبنية على مغالطات(٢)!!! فثارت ثائرة المسلمين وهجموا عليه يريدون الفتك به مستحلين دمه، ولم ينقذه إلاّ تدخل السلطات التي ألقت القبض عليه وساقته إلى قاضي المدينة حيث جرت محاكمته حسب مقتضيات الشريعة الإسلامية، وقد حاول القاضي أثناء المحاكمة إفهامه الدين الإسلامي على حقيقته على أمل إقناعه باعتناق الإسلام، ولكنه أصم أذنيه واستمر في طعنه في الإسلام، مما جعل الناس يطالبون بإعدامه، فتدخل التجار القطلان والجنويون الموجودون في المدينة لدى السلطات وتمكنوا من إقناعها بالاكتفاء بنفيه من بجاية فألقي في السجن ومن ثم طرد إلى بيزا سنة ١٣٠٨م بعد سجن دام ستة أشهر(٣). وقد ألف في السجن كتابه المسمى (الخلاف بين رامون المسيحي وعمر المسلم) Disputatio Raimundi Christiana et Homeri Saraceni الذي تضمن ردوده على حجج المسلمين عليه أثناء وجوده في بجاية وبصفة خاصة شخص يسميه (Homeri) يقول عنه إنه أحد المثقفين المسلمين في تلك المدينة(٤)، والذي دعوناه (عمر) نظراً لأنه أقرب الأسماء العربية لهذا الاسم(٥)، وهو كتاب كان من الممكن أن يكون ذا فائدة كبيرة في ميدان المناظرات. لو أنه وصلنا بأكمله إذ أنه فقد منه في البحر قبل وصوله إلى بيزا.

---

(١) انظر : د.سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٩ A. S. Atiya : Op. Cit., p.91.
R. Brunchvig : Op. Cit., Tom 1, p. 463., J. N. Hillgrath : Op. Cit., p.26.

(٢) انظر : J. N. Hillgrath : Ibid, p.26., N. Daniel : Op. Cit., p.311 - 2.

(٣) انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.26., N. Daniel : Ibid, p.311 - 2.
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٩. A. S. Atiya : Ibid, p.31.

(٤) J. N. Hillgarth : Ibid, p.26 & p. 99 - 101, A. S. Atiya : Ibid, p.91.
R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.464.

(٥) ناقش الدكتور عزيز سوريال عطية موضوع هذا الاسم وتوصل إلى أن أقرب الأسماء العربية له هي عمر أو عمار (انظر A.S. Atiya : Ibid, p.91)

ويستدل من مؤلفات لول الأخرى التي تلت ذلك الكتاب بأنه كان يتكون من مقدمة وثلاثة أجزاء، والثاني منها ذو أهمية دينية كبيرة، وأما الثالث فهو ذو قيمة تاريخية بالإضافة إلى بعض الآراء التي تَضمَّنَّها في الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها المناظرة، وخلاصة ما يقول لول في الجزأين الأول والثاني أن عمر Homeri أثناء مناظرته له وضع سبع قواعد أساسية للإسلام وأحد عشر خاصية لله سبحانه وتعالى مبيناً أنه ما من خاصية منها أتت بالمصادفة، كما بين أن الثالوث المقدس (الأقانيم الثلاثة) وتجسيد الألوهية في المسيح عليه السلام شيء مستحيل، ثم يتناول عمر هذه القواعد والخصائص ويعالجها الواحدة تلو الأخرى بهدف إثبات وحدانية اللّه سبحانه وتعالى وبطلان ما يقول به المسيحيون(١)، ويزعم لول بأن عمر انتهى في مناظراته إلى عرض المال والنساء عليه إذا هو اعتنق الإسلام فيجيبه لول على ذلك بوعده بالحياة الأبدية إذا قبل التنصر ثم يشرع في الرد على أقوال عمر وحججه لإثبات صحة الثالوث المقدس وتجسد الألوهية في المسيح!! ثم يختتم الجدل بأربعين حجة تهدف إلى إثبات أن اليهودية دين جيد وأن المسيحية أفضل منها لأنها أكمل وأشمل، وأما الإسلام فهو على حد زعمه خطأ وكله مغالطات(٢)، وهذه الحجج الأربعين هي الوصايا العشر، والفضائل السبع، والأسرار المقدسة السبعة، والشرائع الكنسية الأربعة عشر(٣) وما إلى ذلك. وأما الجزء الثالث فيدور حول محور واحد هو أن أساس المناظرة بينه وبين عمر كان المنطق كما هو المفروض وليس التهديد بقوة السلطة. ثم يصف فيه رحلته إلى بجاية وأيامه في سجنها ثم طرده منها، ويعرج بعد ذلك على ذكر مشروع الحملة الصليبية التي يقترحها وجهوده في ميدان التنصير مبيناً الأخطار المحدقة بالمسيحية حاصراً إياها في المسلمين والتتار، وآراءه في كيفية اتقائها(٤). ومن الثابت أن لول استفاد من تجربته ببجاية في صقل بعض آرائه المتعلقة بالتنصير كما يتضح مماجاء في كتابه (الخلاف) إذا ما قورن بمؤلفاته التي سبقته.

وقد ظهر لول بعد عودته إلى أوروبا في مجمع فينا الذي عقد في سنة ١٣١١م /

---

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p.92.

(٢) انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.92., J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.26.

(٣) انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.92.

(٤) A. S. Atiya : Ibid, p.92 - 3.

١٣١٢م حيث تقدم بتقريره إلى ذلك المؤتمر والذي سبق أن أشرنا إليه، وقد أسفرت جهوده في ذلك المؤتمر عن تأسيس كراسي لدراسة اللغات الشرقية في جامعات روما وشلمنقة وبولونا وباريس وأكسفورد[١]، وعاد بعد اختتام أعمال ذلك المجمع إلى موطنه ميورقة، لكنه لم يمكث بها طويلاً إذ غادرها إلى صقلية على أمل ممارسة نشاطه التنصيري بين المسلمين واليهود فيها تحت حماية ملكها الأرغوني فردريك الثاني[٢]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كسب دعم هذا الملك في مشروعه التنصيري في إفريقية معتمداً في ذلك على الصلة القوية التي ربطته بملوك أرغونة، في وقت وصل فيه نشاط أرغونة الصليبي في إفريقية ذروته. ولكن يبدو أن فردريك الثاني آثر التريث مما جعل لول يتردد بين صقلية وميورقة أكثر من مرة خلال الفترة من سنة ١٣١٢م إلى مايو ١٣١٤م[٣]. وعندما وجد أن تجاوب ملك صقلية معه ليس بالقدر الذي كان ينشده، قرر العودة إلى إفريقية من جديد، وعلى ما يبدو أنه كان يدرك ما كان ينتظره فيها إذ إنه كتب وصيته الأخيرة في إبريل سنة ١٣١٣م والتي تدل كتابتها على اليأس من نجاح مشاريعه، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه ذهب إلى إفريقية هذه المرة وجل همه الموت على يد المسلمين لينال الشهادة في زعمه، حتى يكون بذلك قد حقق الهدف الثالث من الأهداف الرئيسية الثلاثة التي وضعها لنفسه منذ تحوله لخدمة الحركة الصليبية.

وفي أغسطس سنة ١٣١٤م أبحر لول وكان قد جاوز الثمانين من عمره من ميورقة قاصداً مدينة تونس مزوداً برسالة توصية من خايمي الثاني ملك أرغونة إلى أبي يحيى زكريا ابن اللحياني سلطان تونس[٤]، ورسالة أخرى إلى قائد حرسه القطلاني[٥]، حيث سمح له بالإقامة في تلك المدينة، ويبدو أن الوضع الذي كان سائداً فيها وقتئذٍ من اضطراب سياسي وحاجة

---

(١) J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.29.

(٢) E. R. Daniel : Op. Cit., p.70 - 1, A. S. Atiya : Op. Cit., p.86.

(٣) انظر : J.N.Hillgarth : Ibid, p.128 - 134., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.463.

(٤) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٥٩، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٤٢ – ١٤٣، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٣٢٩، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٤، A. S. Atiya : Ibid, p.93., R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.464.
E. R. Daniel : Ibid, p.71.
J. N. Hillgarth : Ibid, p.27 & p.133.

(٥) R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.464.

السلطان المذكور للدعم والمساندة جدد لديه الأمل في نجاح مسعاه، لذلك التزم في بداية الأمر جانب الحيطة والحذر في ممارسة نشاطه، فأخذ يختار من يدعوهم للتنصر بعناية، كما حاول إشاعة الاطمئنان منه في نفوس علماء المسلمين في المدينة إلى حد أنه ألف في تلك الفترة كتاباً أهداه إلى قاضي تونس هو Libre de Majori fine intellectus Amoris et Homoris(1) فتركه المسلمون وشأنه ما دام أنه لم يكن يؤذي مشاعرهم، فشجعه ذلك على الكتابة إلى ملك أرغونة يطلب منه التدخل لدى منظمة الفرانسيسكان لإرسال تلميذه سيمون (Fr. Simon de Puigcerda) ليلتحق به في إفريقية بغية مساعدته في ترجمة ما يكتبه هو بالعربية إلى اللاتينية، فما كان من خايمي الثاني إلاّ أن كتب رسالتين إلى رئيس تلك المنظمة ثانيتهما مؤرخة في ٢٩ أكتوبر سنة ١٣١٥م يطلب فيهما تلبية طلب لول(2).

كان لول في ديسمبر سنة ١٣١٥م لا يزال في تونس(3)، ولكنه فجأة ارتحل إلى بجاية، وما يحير الباحث حقاً هو عودة لول إلى تلك المدينة بعد أن كان بالكاد ينجو من الموت فيها، إذ ليس هنالك ثمة داع أو مبرر ظاهري لذلك، إذ أنه كان يقيم في تونس وتحت حماية السلطات ويمارس نشاطه التنصيري بقدر كبير من الحرية. وما أعتقده هو أن لول قد يكون شعر بدنو أجله فأراد أن يموت على يد المسلمين هذا الأمر الذي قد لا يتأتى له في تونس نظراً للعلاقات التي كانت بين ابن اللحياني وملك أرغونة، والذي سيكتفي بطرده إذا ما أثار عليه المسلمين حتى لا يسيء إلى الملك الذي أوصى به خيراً في وقت كان فيه بحاجة إلى مساندة ذلك الملك، فآثر لول تبعاً لذلك الذهاب إلى بجاية في طلب تلك الميتة خاصة وأنه كان كثيراً ما أبدى مخاوفه من أن يموت ميتة طبيعية، لا سيما وأنه لمس بأنه لم يحقق ما كان يرجو من نجاح في تونس، ورأى جل جهوده الصليبية مع البابوات والملوك والأمراء ومسلمي إفريقية قد ذهبت أدراج الرياح مما جعله يرغب في إنهاء حياته. وما أن وصل إلى بجاية في أواخر ١٣١٥م أو أوائل سنة ١٣١٦م حتى عرفه أهلها وهجموا عليه يرجمونه،

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.464, A. S. Atiya : Op. Cit., p.93, E. R. Daniel : Op. Cit., p.71

(٢) J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.133, E. R. Daniel : Ibid, p.464.

(٣) E. R. Daniel : Ibid, p.71.

في قول بعض المراجع[1]، بينما تقول بعض المراجع الأخرى أنه ما أن وصل إلى تلك المدينة حتى قصد المسجد الجامع بها وصعد درجه ووقف بحيث يراه الناس وأخذ يطعن في الإسلام بأعلى صوته على مرأى ومسمع منهم فبادروا إلى رجمه بالحجارة حتى فارق الحياة[2]، وإن صح ما تذكره هذه المراجع فإن ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه لم يذهب إلى بجاية إلاّ طلباً للموت. وعلى أية حال، قام التاجران الجنويان اللذين رافقاه في رحلته الأولى إلى إفريقية واللذين تصادف وجودهما في بجاية وقتئذٍ، قاما بنقله إلى سفينتهما التي أقلعت بهم إلى ميورقة، حيث دفن في كنيسة القديس فرانسيس في بالما حاضرتها[3]، وبذلك طويت صفحة صليبي يعتبر من أشهر دعاة الحركة الصليبية في العصور الوسطى.

وبعد، فإن رامون لول يعتبر مرآة عكست آراء عصره عن الصليبية بوجهيها العسكري والسلمي، لقد بنى آراءه ونظرياته على أساس العمل على تحقيق أهداف الحركة الصليبية بوسيلتين متساندتين هما القوة العسكرية والتنصير واللتين عرفتا بنظرية السيفين، وإذا لم يكن رامون لول مجدداً في أفكاره، فإن جهوده قد عممت هذه الأفكار بعد أن كادت تظل حبيسة لا يعلم بها إلاّ القليل ،ولجهوده فقط يعود الفضل في إنشاء كراسي للدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية التي كانت نواة حركة الاستشراق التي ازدرهت فيما بعد. وأما كون جهوده لم تلق النجاح الذي كان ينشده في كلا الاتجاهين المسلح والسلمي، فإن السبب الرئيسي في ذلك كان خارجاً عن إرادته، فبالنسبة للاتجاه الأول وقفت التطورات التي كانت تشهدها أوروبا الغربية عقبة كأداء في سبيل وضعها موضع التنفيذ، وأما بالنسبة لفشل جهوده التنصيرية مع مسلمي إفريقية، فإن ذلك يعود في المقام الأول لقصوره عن فهم الإسلام والمسلمين بالرغم من اطلاعه الجيد على الثقافة الإسلامية، فتعصبه الأعمى للمسيحية الكاثوليكية حجب عن ذهنه حقيقة بسيطة وهامة في نفس الوقت هي أن الإسلام قد حصن المسلمين بفكر يتسم بالرفعة والسمو بحيث لن يصمد أمامه فكرآخر.

---

(١) انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.94.، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٣٤٠، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٤ – ١٦٥.

(٢) A.S. Atiya : Ibid, p.94., R. Brunschvig: Op. Cit., Tom 1, p.133.

(٣) A. S. Atiya : Ibid, p.94, R. Brunschvig; Ibid, Tom, 1, p.434.

أرغونة وحركة التنصير :

يلاحظ الباحث في تاريخ حركة التنصير في إفريقية ملاحظة هامة، هي أن الغالبية العظمى من المنصرين الذين عملوا في ميدان إفريقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانوا إما من أرغونة وتربطهم علاقات قوية بملوكها أو أنهم تلقوا علومهم وقضوا فترة طويلة من حياتهم فيها فقد كان رامون البنيافورتي ورامون مارتي ورامون لول - وهم أعلام حركة التنصير في إفريقية - كلهم من رعايا مملكة أرغونة، كما أن معظم بعثات التنصير من رهبان منظمتي الدومنيكان والفرانسيسكان كانت إما أنها تخرج من أرغونة أو تمر بها في طريقها إلى المغرب العربي بما فيه إفريقية وتتزود بالتوصيات والتوجيهات الأمر الذي يجعل هذه الملاحظة جديرة بالدراسة بغية إلقاء مزيد من الضوء على أبعاد حركة التنصير في إفريقية.

إن اهتمام ملوك أرغونة بحركة التنصير في إفريقية ودعمهم ورعايتهم لها، له مايبرره، ذلك أنه منذ أن بدأوا يتطلعون إلى الشرق عملاً بما جاء في معاهدة (الميثرا) التي أشرنا إليها آنفاً، بنوا سياستهم المتعلقة ببسط نفوذهم على إفريقية على ثلاث دعائم رئيسية متساندة كانت أولاها الاستفادة من فئة الجند الأرغوني الذين كانوا يشكلون الحرس السلطاني في الدولة الحفصية كما سبق أن ذكرنا، والثانية مساندة حركة التنصير فيها، والثالثة الهجوم المسلح والتي سنتعرض لها في الباب التالي من هذه الدراسة. وأما فيما يتعلق بمساندتهم لحركة التنصير فإن الدلائل تشير إلى أن هذه المساندة بدأت منذ وقت مبكر ربما منذ أوائل العقد الثالث من القرن الثالث عشر، ويبدو أن رامون البنيافورتي قام بدور كبير في هذا الأمر حيذاك، فمثل حلقة الاتصال بين حركة التنصير في إفريقية وملك أرغونة، ويمكننا الاستدلال على ذلك من تلك الرسالة التي بعث بها إليه أحد المنصرين المقيمين في إفريقية في سنة ١٢٣٥م التي سبق أن أشرنا إليها، وظهرت هذه المساندة بشكل أوضح في منتصف ذلك القرن حينما طلب خايمي الأول من المستنصر السماح للدومنيكان بإنشاء مدرسة في تونس لتعليم الرهبان اللغة العربية، ثم من تلك الرسالة التي بعث بها البابا الإسكندر الرابع إلى رامون البنيافورتي والمؤرخة ١٥ يوليو ١٢٦٠م والذي كان وقتئذٍ قسيس اعتراف الملك خايمي الأول، يطلب فيها تقديم مزيد من الدعم لبعثات التنصير في إفريقية الأمر الذي كان السبب في إرسال عدد من المنصرين الجدد

إليها خاصة من الدومنيكان، وإذا أضفنا إلى ذلك جهود رامون مارتي في تلك الآونة والذي كانت تربطه علاقة قوية بخايمي الأول وبرامون البنيافورتي وكان على اتصال دائم بهما إلى حد أنه لم يغادر إفريقية منذ وصوله إليها في حدود سنة ١٢٥٠م إلاّ مرة واحدة كانت في سنة ١٢٦٧م وإلى أرغونة بالذات حيث قابل خايمي الأول ورامون البنيافورتي وأطلعهما على ما كان يجري في إفريقية ثم عاد إلى مدينة تونس وأقام فيها عامين آخرين ليغادرها في سبتمبر سنة ١٢٦٩م إلى أوروبا نهائياً وربما بإيعاز من خايمي الأول في انتظار ما تسفر عنه حملة لويس التاسع التي كانت على وشك المسير، ولعل ذلك كان سبباً هاماً في عدم اشتراك خايمي الأول في تلك الحملة لأن احتلال لويس التاسع لإفريقية كان يتعارض مع مصالحه فيها، لأنه أرادها خالصة له وحده بالضبط كما أرادها رجار الثاني من قبل، ثم أخيراً جهود رهبان منظمة عذراء الرحمة التي تأسست في أرغونة وكان مؤسسها على صلة قوية بخايمي الأول كما أسلفنا، لتبين لنا مقدار نشاط ملوك أرغونة في ذلك الوقت.

وفي أوائل الربع الأخير من القرن الثالث عشر نشط خايمي الأول في العمل على الاستفادة من معاهدة الصلح التي عقدت بين المستنصر الحفصي والصليبيين والتي فتحت باب إفريقية على مصراعيه لحركة التنصير فاستدعى رامون لول إلى بلاطه في سنة ١٢٧٤م أو سنة ١٢٧٥م للاطلاع على آرائه بشأن هذه الحركة حيث جرى تقييمها من قبل الراهب بتراند برنجار وأسفر ذلك عن تأسيس كلية ميرامار سنة ١٢٧٦م والتي يقول برنجفيك عنها إنه ما كان الهدف منها إلاّ تخريج الرهبان المنصرين لإرسالهم إلى إفريقية[١]، ويبدو أن اهتمام ملوك أرغونة بحركة التنصير في إفريقية كان معروفاً لدى المسلمين أيضاً فضلاً عن القوى الصليبية، ولذلك نجد ابن أبي دبوس الموحدي يلجأ إلى ملك أرغونة بعد مقتل أبيه آخر خلفاء الموحدين، ويقيم في بلاطه، وكان قد سبقه عمه أبو زيد إلى ذلك والذي تنصر على يد هذا الملك في حين سيستخدم خايمي الثاني ابن أبي دبوس هذا في حركة صليبية كبيرة على إفريقية كما سيأتي ذكره، وفي تلك الآونة نجحت حركة التنصير في إغراء أمير حفصي بالتنصر هو الأمير أبو إسحق الحفصي الذي هرب من إفريقية ولجأ إلى بطره (بيدرو

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.463.

الثالث) ملك أرغونة (١٢٧٦ - ١٢٨٥م) ويبدو أن تنصره تم على يد الملك المذكور، وقد شوهد في صقلية بصحبةحاميه ومنصره في أوائل سنة ١٢٨٣م[1]. وعلى هذا أصبح كل من يحتاج إلى دعم لتحقيق مطامع سياسية في إفريقية يلجأ إلى ملك أرغونة موهماً إياه برغبته في التنصر ليحصل منه على الدعم الذي ينشده، ومن ذلك ما فعله أبو بكر بن موسى البزاري المعروف بابن الوزير والي قسنطينة الذي استغل حالة الفوضى السياسية في الدولة الحفصية التي أعقبت وفاة المستنصر سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م وثار على السلطان أبي إسحاق بن أبي زكريا الأول في سنة ٦٧٩هـ وكتب إلى بيدرو الثالث ملك أرغونة يطلب مساعدته موهماً إياه بأنه يرغب في التنصر، فما كان من بيدرو الثالث إلاّ أن قاد بنفسه حملة إلى إفريقية لمساعدة الوالي الثائر كما سيأتي ذكره.

وقد ازداد هذا الدعم من أرغونة لحركة التنصير في إفريقية منذ مطلع القرن الرابع عشر، ذلك أن نشاطها في جبهتها كان وقتئذ في أوجه، فكان أسطولها قد احتل جزيرة جربة وجزر قرقنة وأخذ يهاجم نواحي عديدة من سواحلها كما سيأتي ذكره، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان نفوذ الحرس السلطاني قد ازداد بشكل واضح، لذلك نجد خايمي الثاني يقدم مساعداته ومساندته لرامون لول كما سبق ذكره، ثم يركز جهوده على تنصير السلطان الضعيف ابن اللحياني الذي اغتصب العرش الحفصي بمساعدة منه ومن أخيه فردريك الثاني ملك صقلية[2] مستغلاً في ذلك الأوضاع الداخلية السيئة التي كانت تمر بها إفريقية في تلك الفترة، وقد وجد ابن اللحياني في هذا الأمر فرصة طيبة له للاستمرار في حصوله على دعم هذين الملكين، فأخذ يوهمهما بميله للتنصر لعله بمساعدتهما يستطيع تثبيت أركان عرشه المتضعضع[3]، وقد شغلت هذه القضية البلاط الأرغوني لمدة تقارب الأربع سنوات. ففي ٢٣ يوليو سنة ١٣١٣م وبعد محادثات أجراها مبعوث مسيحي من

---

(١) R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.466.

(٢) انظر عن ذلك الرسالتين (الملحقين الثالث والرابع) اللتين يشير ابن اللحياني فيهما لهذه المساعدة.
انظر د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص٨٥.
ولمزيد من التفصيل انظر : Ch. E. Dufourcq : Op. Cit., p.488.

(٣) انظر : Ch. E. Doufourcq : Ibid, p.488.

قبل السلطان مع خايمي الثاني، قام الأخير بإرسال (Guillaume Oulomar) في سفارة إلى تونس لتجديد معاهدة السلام التي كانت معقودة بينه وبين السلطان، وقد أمر سفيره هذا بأن يوضح لابن اللحياني أن تنصره حدث عظيم الأهمية ويقدم خدمة جليلة للمسيحيين وللمسيحية التي هي دين الله الحق على حد تعبيره وبالتالي فإن الله لن يخذله إذا ما أطاعه باعتناقها، هذا بالإضافة إلى أن إخوانه الجدد في الدين سيقدمون له كل عون قد يحتاجه، وأوعز إلى ذلك السفير بأن يقدم للسلطان تنازلات كبيرة أثناء المفاوضات لإبرام المعاهدة فيما إذا قبل التنصر(١)، لكن المعاهدة المبرمة بين الطرفين في ٢١ فبراير ١٣١٤م / ٧١٣هـ كانت تكراراً لنص المعاهدة المنتهية ولم يتضمن أي إشارة لتنازل أو أي بند جديد(٢) مما يدل على أن السفير لم يفلح في حمل ابن اللحياني على اتخاذ موقف واضح من موضوع التنصر ليكون جديراً بأن يتم تنازل من قبل أرغونة.ومع ذلك، استمر ابن اللحياني في لعبته، فكان يلمح بهذا الأمر في رسائله إلى خايمي الثاني وأخيه فردريك الثاني ملك صقلية تلميحاً دون تصريح واضح ويكلف من يسملهما تلك الرسائل بإيضاح ذلك لهما، فقد جاء في رسالته إلى خايمي الثاني المؤرخة ٢٩ رمضان ٧١٢هـ / ٢٨ يناير ١٣١٣م ما يلي : (وقد أمرنا عبدنا وقائدنا برناط دفنس أن يشرح لكم ما لم نشرحه في كتابنا هذا فصدقوه بحول الله فيما يكتبه واسمعوا منه ما يقوله)(٣)، فهو هنا يحيل الأمر للقائد برناط د. فنس (Bernat de Fons) القطلاني مساعد قائدحرسه ليشرح لخايمي الثاني موضوع تنصره حتى يكون في إمكانه التنصل من مغبة هذا الأمر في المستقبل إذا ما أخذه خصمه عليه، ويعود إلى هذا التلميح في رسالته الثانية إلى خايمي الثاني أيضاً المؤرخة ٩ محرم سنة ٧١٦هـ / ٣إبريل سنة ١٣١٦م والتي أرسلها من طرابلس بعد اضطراره لمغادرة تونس حاضرة دولته إلى أنه قد تنصر في السر ويكلف الراهب بيرو دو من ملن (Pero de Monmolon) مستشار فردريك الثاني ملك صقلية الذي كان في زيارة لإفريقية بتوضيح ذلك لكلا الملكين فيقول : (... وصل إلينا القسيس الحسيب الكبير الثقة الأمين بيرد من ملن فتحدثنا معه فيما بيننا

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.467.
(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.467.
(٣) انظر الملحق الثالث.

وبينكم من الود الصميم والاعتقاد الخالص السليم وشافهناه بما يلقيه إليكم في ذلك فالذي يلقيه لكم نحن أمرناه بإلقائه وهو يبلغه لكم على أكمل أنحائه لعلمنا بصدقه وأمانته وحسن أدائه ولما نتحققه من انقطاعه إليكم وإلى الأخ الأعز علينا السلطان الحسيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير فردريك ملك صقلية...)[1]، وكانت الظروف تفرض على ابن اللحياني زيادة الجرعة لملكي صقلية وأرغونة لنيل مساعدتهما بعد أن كان قد غادر عاصمة ملكه شبه هارب من الاضطرابات التي كانت تجري فيها، فادعى أنه تنصر في السر إذ أنه يعني بالاعتقاد الخالص السليم الديانة المسيحية[2].

وأما خايمي الثاني فقد بقي هو الآخر متشبثاً بفكرة تنصير ابن اللحياني ففي ٩ يوليو سنة ١٣١٤م بعث إليه برسالة تتضمن إشارة واضحة عن هذا الموضوع رغم تعمده فيها إضفاء نوع من الغموض عليه، فيموه عنه بتسميته (القضية) فيقول إن (القضية) التي دعت انتباهه وأرادها الله هي خير لكلا الطرفين وستتحقق، ونظراً للظروف التي كان يمر بها السلطان في ذلك الوقت، يقول بأن مثل هذه الخطوة سابقة لأوانها ويستدعي إعلانها التريث والحذر من قبل السلطان وتتطلب مزيداً من الوقت. وأما فيما يخصه هو فإنه يعد بكتمان هذا السر ويدعو السلطان إلى الاعتراف بفضل الله عليه، فلولاه لما كان سلطاناً، وهو بذلك يشير أيضاً إلى مساعدة المسيحيين له في الوصول إلى العرش، ثم يمضي في تلك الرسالة قائلاً إن الله وضعه على رأس دولته ليحقق مبادئه وينشر ديانته بين جميع رعاياه، ويطلب منه في نهاية تلك الرسالة موافاته بكل ما يستجد لديه من أمور[3]. كما بعث في الوقت نفسه رسالة أخرى إلى قائد الحرس السلطاني الذي كان قطلانياً يوجهه فيها إلى بذل جهوده مع السلطان والتأثير عليه لتطمئن نفسه بالمسيحية ويعده بأنه لن ينسى له ذلك فيما إذا نجح في مهمته[4].

ويواصل خايمي الثاني جهوده مع ابن اللحياني في السنتين التاليتين على ذلك محاولاً

---

(١) انظر الملحق الرابع.

(٢) انظر د. محمد الطالبي. : المرجع السابق ص٨٥ حاشية ٦.

ولمزيد من التفصيل انظر : Ch. E. dufourcq : Op. Cit., p.488 - 94.

(٣) انظر عن تلك الرسالة : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.467.

(٤) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.467.

دفعه إلى إعلان تنصره، ولكن موقف ابن اللحياني بقي على حاله من المراوغة والتلميح فقط، وقد رأى خايمي الثاني حيال ذلك الجمود أنه لا بد من إطلاع البابوية على هذا الأمر لكسب تأييدها ودعمها، فأرسل في أواخر سنة ١٣١٦م سفيره (Oulmar) إلى البابا الجديد يوحنا الثاني والعشرين لبحث أمور عديدة كان من بينها موضوع تنصير ابن اللحياني، ويبدو أن البابا قد ساورته الشكوك للطريقة التي عرض فيها السفير هذا الأمر عليه، فلم يشأ التدخل قبل أن يطلع على الموضوع من جميع نواحيه، لذلك أبدى استغرابه في رسالة بعث بها إلى خايمي الثاني مؤرخة ٢٣ يناير سنة ١٣١٧م من التأخير في إطلاعه على هذا الموضوع الهام الذي يجب أن يحتل في رأيه مركز الصدارة بين المواضيع التي كانت مدار بحث بين البابوية وأرغونة، ويبدي رغبته في أن يحاط علماً بكل ما حدث وبالتفصيل وبكل ما سيحدث في المستقبل بواسطة مبعوثين خاصين يكونون على مستوى هذه القضية الهامة ليتسنى له اتخاذ القرار المجدي، وبذلك عاد(Oulmar) إلى أرغونة دون أن يحصل من البابوية على شيء[1]. وجرت الحوادث في إفريقية وقتئذٍ على غير ما يرغب خايمي الثاني، إذ بعد ذلك بقليل وفي أوائل الشهر التالي على وجه التحديد فبراير سنة ١٣١٧م اضطر ابن اللحياني إلى مغادرة مملكته والرحيل إلى مصر ليعيش فيها بقية حياته (ت سنة ١٣٢٨).

لقد ظهر الخلاف واضحاً بين المصادر التاريخية الإسلامية والمسيحية حول هذا الموضوع. فإن أياً من المؤرخين المسلمين كابن خلدون وابن القنفذ وابن الشماع والزركشي وغيرهم ممن اطلعت على مؤلفاتهم لم يشر لا تصريحاً ولا تلميحاً إلى اتهام ابن اللحياني بالتنصر أو رغبته في ذلك على الأقل، ولكن العديد من المصادر المسيحية وقفت من ذلك موقفاً مختلفاً، فذكرت أنه تنصر بالفعل، فقد زعمت وثائق أرغونية يعود تايخها إلى سنة ١٣٢٥م أن ابن اللحياني قد تنصر وتم تعميده بالفعل، وأن ملك أرغونة عقد العزم على الاستيلاء على مملكته[2]. وما نراه في هذا الموضوع هو أن المصادر المسيحية كانت تعبر عن أماني ليس إلاّ، ولا تستند إلى الواقع مما يفرض على الباحث توخي الحذر في ما تقدمه

---

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.467.

(٢) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.468.

النصوص المسيحية الرسمية، والمصادر الإسلامية أصح منها فيما يتعلق بهذا الموضوع، ذلك أنه لو كان الأمر على ما تقوله الوثائق المسيحية الآنفة الذكر لما توانى خصوم ابن اللحياني عن اتخاذه وسيلة وذريعة للتشهير به، خاصة وأن الاضطراب السياسي الذي شهدته إفريقية في أواخر عهده كان يوفر فرصة كبيرة لذلك، وبالتالي من غير المعقول أن تجمع كافة المصادر الإسلامية على إغفال الإشارة إليه. بل إن البعض منها يصفه بالتدين، وخير مثال على ذلك أن الزاهد القروي لقبه بالفقيه كما سبق أن ذكرنا. ولايمكن توجيه التهمة له في دينه لكونه تنكر للمبادئ الموحدية أو لكون أمه نصرانية كما تحاول ذلك بعض المراجع الغربية(١)، لأن التنكر للمبادئ الموحدية لا يعد ارتداداً عن الإسلام، فالمبادئ الموحدية ليست هي الإسلام، فالإسلام مثلاً لا يقول بعصمة المهدي محمد بن تومرت كما تقضي عقيدة الموحدين، بل العكس هو الصحيح.

فبإنكاره عصمة المهدي يكون قد اقترب أكثر من مبادئ الدين الإسلامي الصحيحة، وأما أن أمه نصرانية، فذلك أمر كان شائعاً في الأسرة المالكة الحفصية ولم ينفرد هو به، فالكثير من سلاطين وأمراء بني حفص ولدوا من أمهات نصرانيات، وإذا كانت قد ربطته صلة قوية ببعض ملوك النصارى وبعض أعلام حركة التنصير، فإن ذلك كان من مقتضيات السياسة فقط وليس لأمور التنصر. ولذلك فإننا نرى أن ما ذهب إليه برنجفيك في أن إيهامه لملكي أرغونة وصقلية برغبته في التنصر لم يكن إلاّ خدعة سياسية قصد منها كسب مساندتهما له(٢) هو الصواب.

وإذا كانت جهود خايمي الثاني مع ابن اللحياني قد خيبت آماله، فإن هذا الأمل قد عاد من جديد بعد ذلك بفترة وجيزة في شخص والي المهدية الأمير أبي بكر ابن أخ السلطان. فتذكر المصادر المسيحية أنه في أواخر شهر مايو سنة ١٣٢٥م أرسل هذا الأمير رسالة إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين يعلمه فيها أنه رأى السيدة العذراء في نومه، لذلك فقد قرر أن يتنصر هو وبعض أصدقائه وأن يحتموا بملك نصراني يعيشون في كنفه، وقد اهتم البابا

---

(١) انظر عن ذلك : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.468.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.468.

بالأمر فرد على الوالي المذكور بأنه على استعداد لتوفير الأمان له ولأصحابه بعد تعميدهم جميعاً، ولكن شريطة أن يسلم المهدية للنصارى، وفي نفس الوقت بادر البابا إلى الاتصال بخايمي الثاني يعلمه بالأمر، ويوكل إليه مهمة اتخاذ التدابير اللازمة لإتمامه[1]، ولكن المصادر التاريخية الإسلامية تشير إلى هذا الموضوع بشكل مختلف، فتذكر أن هذا الوالي قد ثار في المهدية مما جعل السلطان أبو يحيى أبو بكر الثاني المتوكل يجرد جيشاً ويقضي على هذه الثورة. وعلى أية حال فإن خايمي الثاني بادر إلى محاولة انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على المهدية القاعدة الحصينة لتكون نقطة انطلاق له إلى باقي إفريقية – لا سيما وأن جزيرة جربة كانت وقتئذٍ خاضعة له – سواء عن طريق مساندة الوالي الثائر أو تنصيره فكلا الأمرين يؤدي إلى نفس النتيجة، ولكن القضاء على هذه الثورة قبل استفحالها بدعم قوى أجنبية قضى على أمل ملك أرغونة من جديد. وللتوفيق بين ما جاء في المصادر المسيحية والإسلامية عن هذا الموضوع، نرى أنه من غير المستبعد أن يكون اتصال الوالي بالبابا – إن صحت الرواية – هو خدعة سياسية أخرى قام بها ذلك الوالي للحصول على مساندة النصارى له في الاستقلال عن الدولة.

وظل هذا الاهتمام من ملوك أرغونة بدعم ومساندة حركة التنصير في إفريقية على عنفوانه إلى أن بدأت المشاكل التي تعرضت لها مملكتهم منذ أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر لا سيما تجدد النزاع بينهم وبين ملوك قشتالة فضلاً عن الظروف التي استجدت في أوروبا الغربية وفي إفريقية والتي سبق أن أشرنا إليها، بدأت تشغلهم عن ذلك الموضوع، ولذلك أخذت منذ ذلك الوقت أخبار البعثات التنصيرية إلى إفريقية تقل في المصادر التاريخية تدريجياً حتى كادت تتلاشى في أواخر ذلك القرن.

فشل حركة التنصير ونجاح الحركة المضادة :

إن التساؤل الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو إلى ماذا أدت جهود حركة التنصير في إفريقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وما مدى ما حققته من نجاح؟ إننا إجابة على

---

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.466.

هذ التساؤل لن نعدو الحقيقة إذا قلنا إن آمال الحركة الصليبية في تنصير مسلمي إفريقية قد باءت بالفشل الذريع، ذلك أنه بالرغم من تسامح سلاطين بني حفص تجاه النصارى والمنصرين منذ عهد الأمير أبي زكريا الأول مؤسس دولتهم، هذا التسامح الذي أكدته الكثير من الوثائق التاريخية التي سبق أن أشرنا إليها، وبالرغم من الإمكانيات التي وضعت تحت تصرف حركة التنصير والدعم والمساندة التي كانت تتلقاهما من البابوية والعديد من الدول المسيحية خاصة مملكة أرغونة، فإنها لم تؤد إلى نتيجة تذكر. ولا يمكننا بطبيعة الحال الوثوق بالمعلومات التي تقدمها الوثائق المسيحية عن هذا الموضوع كسجلات المنظمات التي مارست الجهود التنصيرية والرسائل المتبادلة بين البابوية وملوك الممالك النصرانية وكبار رجال الدين في تلك الممالك أو سير القديسين والمنصرين، ذلك لأن هذه الوثائق تحيط من تكتب عنهم بهالة من القدسية المبالغ فيها كثيراً إلى حد الوصول بهم إلى صنع المعجزات والخوارق لإعلاء مكانتهم على حساب الحقيقة التاريخية، ومما يؤكد ذلك ما يقوله برنجفيك في هذا الموضوع من أنه لا بد من الاحتراز قبل كل شيء من المعلومات المبالغ فيها التي قدمها أعضاء البعثات التنصيرية أو المؤرخين الذين عاصروها وكتبوا أخبارها[١]. إذ لو صدقنا تلك المعلومات لكان علينا أن نصدق أخبار الرهبان الدومنيكان مثلاً والتي تقول إن هؤلاء الرهبان جنوا في أواسط القرن الثالث عشر ثماراً طيبة وهامة لجهودهم بين مسلمي إفريقية بفضل معاملة السلطان الحفصي لهم وأضحوا يرجون نجاحاً أكبر في المستقبل القريب وكانوا في سنة ١٢٦٠م يهنئون بعضهم البعض على الجهود التي بذلوها لنشر المسيحية في إفريقية والثمار التي جنوها من وراء ذلك كما سبق ذكره، هذا الأمر الذي لم يحدث مطلقاً بدليل أن المصادر التاريخية الإسلامية لم تشر إليه لا من قريب ولا من بعيد وهو من الأهمية بحيث لا يمكنها أن تجمع على إغفاله لو حدث منه شيء بالفعل، الأمر الذي يقطع بتفاهة نتيجة هذه الجهود هذا إن كانت قد أدت إلى نتيجة أصلاً، حتى رامون لول نفسه والذي تحيط الوثائق المسيحية جهوده بقدر كبير من الإكبار وتؤكد أن جهوده قد أفلحت في تنصير كثير من المسلمين، لم يفلح في رحلاته الثلاث إلى إفريقية في تنصير أحد يذكر.

---

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.465.

وليس أدل على تجاوز تلك الوثائق والمصادر للحقيقة من موقفها من ابن الوزير الوالي الثائر بقسنطينة والسلطان ابن اللحياني وأبي بكر الثائر بالمهدية حيث إنها تقطع بأنهم قد تنصروا، ولكن الحقيقة هي غير ذلك كما سبق ذكره، حتى إن المنصرين لم يكونوا ينجحون في غالب الأحيان في رد النصارى الذين كانوا يعتنقون الإسلام إلى المسيحية ثانية والدليل على ذلك ما حدث مع عبدالله الترجمان كما سيأتي ذكره. لذلك فإن معظم ما تردده تلك الوثائق ليس إلاّ مجرد أوهام لا تعبر إلاّ عن أماني الحركة الصليبية في تنصير مسلمي إفريقية.

وأما السبب الرئيسي في هذا الفشل فهو أن الحجج التي كان يقدمها هؤلاء عن المسيحية لم تستطع الصمود أمام الفكر الإسلامي الذي كان يتسلح به مسلمو إفريقية مثقفوهم وعامتهم على حد سواء ، فكانت هذه الحجج تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام المسلمين، ولا مجال هنا للاحتجاج بأي تعصب من قبل المسلمين، على عكس ما تردده بعض المراجع الغربية من أن المسلمين كانوا لشدة تعصبهم ولشعورهم بالحقد على المنصرين كانوا يرمونهم بتهم خطيرة منها فساد السلوك والعادات والتعدي على حرمة المساجد ودعوة المسلمين للتنصر بطريقة استفزازية الأمر الذي كان يؤدي إلى ثورة العامة عليهم وضربهم وأحياناً الفتك بهم وإن نجوا من العامة كانت السلطات تحاكمهم وتعدمهم(١). والحقيقة هي غير ذلك، فلم يكن هنالك ثمة أدنى تعصب من قبل المسلمين، وإذا تصادف أن تم إعدام بعض هؤلاء المنصرين، فإن لإعدامهم ما يبره. لقد اختلف رد فعل المسلمين تجاه هؤلاء حسب اختلاف الأسلوب الذي كانوا يلجؤون إليه في ممارسة نشاطهم، فمن كان منهم يتبع أسلوب المناظرة ومحاولة الإقناع بالحسنى كان يجد من بين المسلمين من يناظره دون استعمال أي نوع من الضغط أو الإكراه، ومن اتبع أسلوب الدعوة السلمية كان يترك وشأنه، والدليل على ذلك هو أن بعض أعلام حركة التنصير قد أقاموا فترة طويلة في إفريقية دون أن يمسهم أحد بسوء مثل لونجميوه، ورامون مارتي حيث أقام الأخير فيها مدة تقارب العشرين سنة كما سبق ذكره، وحتى رامون لول وفي رحلته الثالثة التي أعدم فيها أقام في تونس يمارس نشاطه دون أن يتعرض له أحد بسوء كما سبق ذكره أيضاً، وأما الذين

---

(١) انظر على سبيل المثال : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.456.

كانوا يلاقون حتفهم من المنصرين فهم مهووسو الشهادة الذين كانوا يهاجمون الإسلام على مسمع ومرأى من جمهور المسلمين وينعتونه بأقبح النعوت ويصفون النبي صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا يمكن لأي مسلم السكوت عليها، وليس لهم غرض في ذلك إلاّ طلب الموت على يد المسلمين لنيل تاج الشهادة على حد تعبيرهم، وهم يعلمون نتيجة هذا التصرف الأخرق سلفاً، فهؤلاء هم فقط الذين كانوا يعدمون عملاً بمقتضى الشريعة الإسلامية، وإذا كان برنجفيك قد ضرب مثلاً على إعدام هؤلاء المنصرين بما تضمنه سجل منظمة الثالوث المقدس من أسماء بعض الذين أعدموا في إفريقية خلال الفترة من سنة ١٢٣٣م إلى سنة ١٢٨٥م[١] للتدليل على تعصب المسلمين، فهو نفسه يقول إن سجل هذه المنظمة لا يذكر إلاّ البعثات التي آلت إلى نهاية مأساوية خلال القرن الثالث عشر في إفريقية والمغرب[٢]. إذن فكم هي البعثات التنصيرية لتلك المنظمة التي لم يلاق أعضاؤها حتفهم وهي المنظمة التي كانت من أنشط المنظمات في هذا الميدان؟ إنها لا شك كثيرة وتفوق الحصر، فلماذا لم تنته منها هي وبعثات المنظمات الأخرى إلى نهاية مأساوية لو كان هنالك تعصب من قبل المسلمين؟

وعلى أية حال، فقد أدى نشاط الحركة التنصيرية في إفريقية إلى نتيجة هامة هي تنشيط الحركة المضادة في تلك البلاد إلى حد كبير والتي أكثر ما تجلت في العمل المتواصل على جعل النصارى الذين كانوا يفدون إليها يعتنقون الإسلام والتي حققت نتائج تفوق بكثير النتائج التي حققتها حركة التنصير إلى حد لا تصح معه المقارنة بينهما. وقد اعترف العديد من المؤرخين الغربيين بذلك، فيقول برنجفيك مثلاً : (ومن الثابت أن ظاهرة التنصر أقل بكثير من الظاهرة المقابلة أي دخول النصارى في الإسلام)[٣]، حتى إن رامون لول نفسه اعترف بوجود هذه الحركة المضادة حينما علل نجاته من الموت في تونس في رحلته الأولى إليها بخشية القائمين على تلك الحركة من أن يكون إعدامه السبب في عرقلة الجهود

---

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.456.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.456.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.469.

التي كانت تبذل لهداية النصارى للإسلام[1]. ويحاول برنجفيك قصر ظاهرة اعتناق النصارى للإسلام على الأسرى منهم، زاعماً أنهم كانوا يعتنقونه بضغط من أسيادهم[2]، إلاّ أن ذلك ليس هو كامل الحقيقة، ويمكن الاستدلال على قولنا هذا من برنجفيك نفسه إذ يقول في موضع آخر إن الذين اعتنقوا الإسلام من النصارى والذين كانا يعرفون بالعلوج لم يكونوا كلهم من الأسرى بل كان منهم من النصارى الأحرار ارتدوا عن النصرانية ودخلوا في الإسلام عن طيب خاطر[3]، صحيح أن كثيراً من الأسرى والذين كانوا بأعداد غفيرة في عصر تعددت فيه الغزوات واختلطت فيه أعمال القرصنة بالجهاد، كانوا يعتنقون الإسلام، ولكن عن طيب خاطر على عكس ما كان يجري للأسرى من المسلمين الذين كانوا يؤخذون إلى بلاد النصارى أو أولئك الذين ظلوا في بلادهم بعد أن استولى النصارى عليها والذين كانوا يجبرون على التنصر وإلاّ قتلوا شر قتلة، وما محاكم التفتيش (دواوين التحقيق) إلاّ دليلاً واحداً على ذلك. لقد كان الكثير من النصارى الأسرى يعتنقون الإسلام طوعاً ويختارون الإقامةفي بلاد المسلمين إلى حد أنهم كانوا يرفضون العودة إلى بلادهم، وليس أدل على اختيار الأسرى النصارى الإقامة لدى المسلمين مما جاء في رسالة موسى بن أبي يعقوب العبدوادي سلطان تلمسان إلى بيدرو الرابع ملك أرغونة المؤرخة ٢٣ صفر سنة ٧٦٤هـ / ١١ ديسمبر ١٣٦٢م التي جاء فيها أن الأسرى الذين كانوا لديه رفضوا العودة إلى بلادهم وآثروا البقاء في تلمسان[4]. وقد فتح اعتناق هؤلاء للإسلام أمامهم سبل الحياة الحرة الكريمة والارتقاء إلى أعلى المناصب، فمنهم من حظي بثقة السلاطين وأصبحوا قواداً للجند وحكاماً وولاة على المدن والأقاليم[5]، فقد ذكر الحسن الوزان أسماء اثنين من هؤلاء تولوا قسنطينة في عهد أبي عبد الله محمد أحدهما يدعى فرح والثاني السيد النبيل[6]، وكان هنالك العديد من أمثالهم بطبيعة الحال تبوؤوا مراكز هامة في الدولة الحفصية منذ

(١) N. Daniel : Op. Cit., p.311.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.449.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.452.

(٤) انظر : Maximiliano A. Al - Aracon : Op. Cit., p.233.

(٥) R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.451.

(٦) الحسن الوزان : المصدر السابق ص٤٢٩.

تأسيسها وحتى انقضاء عهدها، فضلاً عن أولئك الذين كانوا يمارسون الأعمال الحرة في ميادين التجارة والصناعة وغيرها.

ولم يقتصر اعتناق المسيحيين الإسلام على هؤلاء فقط، وإنما تعداه إلى العديد من الفئات الأخرى مثل الكثير من التجار الذين كانوا يترددون على إفريقية ثم يقيمون فيها بصفة مستمرة بعد إسلامهم، ثم إن كثيراً من الأميرات الحفصيات كن أصلاً مسيحيات واعتنقن الإسلام وحسن إسلام العديد منهن مثل (عطف) أم المستنصر وغيرها، يضاف إلى ذلك أن العديد من أولئك الأميرات كن عندما يحظين لدى أزواجهن يستدعين أقاربهن من أوروبا إلى إفريقية ليعيشوا في كنف أزواجهن[١] وكثيراً ما كان يؤول أمر هؤلاء إلى اعتناق الإسلام والاستقرار في إفريقية. حتى إنه وجد من بين الرهبان المنصرين الذين كانوا يفدون إلى إفريقية في مهمات تنصيرية من كان ينفتح قلبه للإسلام فيعتنقه، وكانت هذه الفئة مكسباً كبيراً للمسلمين إذ أنهم كانوا عندما يعتنقون الدين الإسلامي يتولون هم مهمة الدفاع عنه أمام المنصرين يعينهم في ذلك ثقافتهم الواسعة وحسن اطلاعهم على الدين المسيحي بحكم حسن إعدادهم لمهمة التنصير هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أنهم يكونون قد دخلوا في الإسلام عن قناعة تامة تأتت لهم من دراستهم له، وبذلك يكونون مؤهلين لتفنيد حجج المنصرين، ومن هؤلاء الراهب أنسلمو تورميدا Anselmo Turmeda .

كان أنسلمو تورميدا ميورقياً (من جزيرة ميورقة) مثل رامون لول، وقد ولد سنة ١٣٥٣م وكان وحيد أبويه، تلقى علومه الدينية الأولية في الجزيرة ثم رحل منها إلى لاردة (Lerida) بقطلونية حيث استأنف الدراسة في جامعتها، فدرس بها العلوم الطبية والفلكية واللغتين اليونانية والعبرية[٢] فضلاً عن العلوم الدينية، ويبدو أنه خلال دراسته في هذه

---

(١) انظر ابن الشماع : المصدر السابق، حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ص١٢١ – ١٢٢.

(٢) عبد الله الترجمان : تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص٤ – ٥، انظر كذلك مقدمة تحفة الأريب تحقيق ميغول دي أبلثا ص٨٧ – ٨٨.لقد وضعت عدة دراسات عن أنسلمو تورميدا من أهمها ما كتبه دي أبلثا عنه، انظر المقدمة التي كتبها لتحفة الأريب للنسخة التي حققها ونشرها، ثم
M. de Epalza : La Tuhfa Autoboiografia Y Polemica Islamica Contra et Cristianismo de Abdullah Al - Taryuman (Fray Anselmo Turmeda).

الجامعة التي دامت ست سنوات قد تعلم شيئاً من العربية حتى ألم بها، وبعد تخرجه من جامعة لاردة تصدر لتدريس الإنجيل ولغته للطلاب في تلك المدينة لمدة أربع سنوات، حيث غادرها بعد ذلك إلى مدينة بنونية (بولونا) Balogne لاستكمال دراسته في جامعتها المشهورة، وهنالك التقى بأحد أساتذتها ويدعى نقلا مارتل حيث تقرب منه حتى أصبح من خواصه[١]. ومع أن برنجيفك يحاول أن يثير الشك حول رحيل تورميدا إلى بولونا وتلقيه العلم فيها، فيقول عنه إنه بعد مغادرته لاردة يغلب على حياته الغموض فلا شيء يثبت أنه ذهب إلى هنالك والتقى بنقلا مارتل، ويزعم أنه اختلق ذلك ليخفف من شدة وقع إسلامه على نفوس النصارى[٢]، إلاّ أن تورميدا في رأينا كان واضحاً في حديثه عن نفسه ووصفه لإقامته في تلك المدينة[٣] مما يحملنا على الاعتقاد بأنه وصف معاين، الأمر الذي يجعل شكوك برنجفيك لا تقوم على أساس سيما وأنه لم يقدم الدليل على قوله، وعلى أية حال، فإن تورميدا يقول عن نفسه إنه أقام في تلك المدينة عشر سنوات تلقى فيها أصول الدين المسيحي على هذا الأستاذ واختص به، حيث يقول في ذلك (صيرني أخص خواصه وانتهيت في خدمتي وتقربي إليه إلى دفع مفاتيح مسكنه وخزائن أكله إليّ ولم يستثن من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، الظاهر أنه بيت خزانة أمواله التي تهدى إليه)[٤]، ثم يقول في حديث طويل إنه هو الذي وجهه للإسلام[٥]، وقد عاد بعد ذلك إلى موطنه ميورقة حيث أقام بها ستة أشهر، ثم رحل بعد ذلك إلى صقلية التي أقام بها خمسة أشهر، ومنها وفي سنة ١٣٨٨م سافر ضمن بعثة تنصير فرانسيسكانية إلى مدينة تونس[٦]، مع أنه تجاهل في كتابه (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) أمر هذه البعثة، وقال إنه قصد تونس لاعتناق الإسلام[٧]، ويبدو أن السبب في عدم ذكره لهذا الأمر هو تلافياً لأي

---

(١) عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص٥.

(٢) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.469 - 70.

(٣) انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص٥.

(٤) انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص٦ – ٨.

(٥) انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص٨.

(٦) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.470.

(٧) انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص٨.

إحراج مع حركة التنصير والذي قد يتطور إلى حد الإيذاء، و بعد إقامة في تونس امتدت أربعة أشهر اتصل بالسلطان أبي العباس أحمد وأسلم على يده[1] وتسمى بعبد اللّه فأكرمه ووهب له منزلاً وأجرى له نفقة مقدارها ربع دينار ذهبي يومياً وهي جراية كبيرة وقتئذٍ، ثم زوجه من ابنة الحاج محمد الصفار أحد رجالاته ووهب له مائة دينار وكسوة وعينه موظفاً في إدارة الجمارك حيث أتقن اللغة العربية، وعندما رزق ابنه الأول سماه محمداً تيمناً باسم الرسول صلى اللّه عليه وسلم[2]. وأثناء حملة لويس الثاني دي بوربون على المهديةسنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م كان يتولى أعمال الترجمة بين الجانبين الإسلامي والصليبي[3] فأطلق عليه لقب الترجمان، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بعبد اللّه الترجمان، وقد قربه السلطان أبو العباس حتى أصبح من خاصته وقيم خزائنه ورافقه في بعض حروبه مثل حركته إلى قابس وقفصه، وعندما توفي أبو العباس سنة ١٣٩١م وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز حفظ السلطان الجديد لعبد اللّه الترجمان منزلته الرفيعة حتى شغل عدة مناصب هامة في عهده[4].

وفي سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ألف عبد اللّه كتابه (تحفة الأريب) الآنف الذكر.

---

(١) يروي قصة إسلامه بقوله : (فلما نزلت بديوان تونس وسمع بي الذين بها من أجناد النصارى أتوا لي بمركوب وحملوني معهم إلى ديارهم وصحبهم بعض التجار الساكنين أيضاً بتونس فأقمت عندهم في ضيافتهم على أرغد عيش أربعة أشهر وبعد ذلك سألتهم هل بدار السلطنة أحد يحفظ لسان النصارى وكان السلطان إذ ذاك مولانا أبو العباس أحمد فذكروا لي أن بدار السلطان المذكور رجلاً فاضلاً من كبراء خدمه اسمه يوسف الطبيب وكان طبيبه ومن خواصه... – فقدمه للسلطان الذي سر به وطلب منه أن يعلن إسلامه ولكن عبد اللّه الترجمان طلب من السلطان أن يسأل من يؤم مجلسه من الأجناد عن منزلته خشية أن يطعن فيه النصارى بعد إسلامه فأرسل السلطان إلى كبار أجناد النصارى والتجار وأدخله في بيت قريب من مجلسه، فلما سألهم عنه امتدحوه بقولهم – : (... هو عالم كبير في ديننا وقال شيوخنا إنهم ما رأوا أعلى منه درجة في العلم والدين في ديننا فقال لهم وما تقولون فيه إذا أسلم فقالوا نعوذ باللّه من ذلك هو ما يفعل ذلك أبداً فلما سمع ما عند النصارى بعث إلي فحضرت بين يديه وتشهدت بشهادة الحق بمحضر النصارى فصلبوا على وجوههم وقالوا ما حمله على هذا إلاّ حب التزويج فإن القسيس عندنا لا يتزوج فخرجوا مكروبين). وهي تشبه إلى حد ما قصة إسلام الصحابي الحصين بن سلام رضي اللّه عنه. (انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص٩ – ١٠).

(٢) عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص١٠.

(٣) عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص١٠. R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.470.

(٤) عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص١١.

إن مضمون هذا الكتاب يتضح من عنوانه وحتى من السطور الأولى إذ بعد أن يبين عبد اللّه الترجمان منهجه يقول : (فكنت شديد الحرص على أن أضع في الرد عليهم – أي اليهود والنصارى – موضوعاً بطريق النقل وحقيقة الإنصاف... وأبين فيه باطلهم وما أسس من القول بالتثليث. والأخذ بذلك المذهب الخبيث. وأذكر مع ذلك أناجيلهم ومن ألفها. وشرائعهم ومن صنفها. وفساد عقولهم. وإبطال كفرهم في منقولهم)[1]، ويبدو أن حركة التنصير نشطت آنذاك من جديد بعد فترة ركود نسبي في أواخر القرن الرابع عشر، فانبرى عبد اللّه الترجمان للدفاع عن الإسلام وتفنيد حجج النصارى. والطريف أن اعتماده في ذلك كان على نصوص التوارة والإنجيل مما يجعل هذا الكتاب على صغر حجمه ذا أهمية كبيرة في موضوع المناظرات والجدل العقائدي بين المسلمين والنصارى، ومع أنه لم يكن المؤلف الوحيد لعبد اللّه الترجمان إذ صنف قبله مؤلفين آخرين أحدهما (En Tunise de Barberia) الذي كان شعراً بالقطلانية الممزوجة بالميورقية تضمن آراءه في تشتت الغرب بالإضافة إلى أخبار حملة صليبية وجهت إلى بجاية. والثاني كتبه في سنة ١٤١٧م – ١٤١٨م هو (Disputato de Lase) بالقطلانية أيضاً، وهو عبارة عن محاورات بين الكاتب وحمار يتضمن رد عبد اللّه الترجمان على النصارى بطريق المحاورة ولم يصلنا إلاّ ترجمة فرنسية له ترجع إلى القرن الخامس عشر أي بعد كتابته بفترة وجيزة، وأما أصله القطلاني فقد ضاع معظمه ولم يصل منه إلاّ تنبؤات الحمار[2]، إلاّ أن (تحفة الأريب) يبقى هو الأهم في مؤلفات الترجمان.

ولم تسكت حركة التنصير على عبد اللّه الترجمان، فيكشف لنا في تحفة الأريب عن الجهود التي بذلتها معه لإعادته إلى النصرانية، فيقول إنه في ١٦ نوفمبر سنة ١٤٠٢م وبعد أن يئس منه المنصرون الذين كانوا في إفريقية على ما يبدو، بعثت إليه سلطات ميورقة إذناً بالدخول إلى الجزيرة صالحاً لمدة سنة ليتمكن من زيارة أهله، وأعلمته أنه بإمكانه العودة إلى تونس بعدذلك محملاً بالهدايا إذا شاء. ولكنه لعلمه بما كان ينتظره من إجبار على التنصر أو

---

(١) عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص١ – ٢.

(٢) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.471.

الموت رفض هذا العرض، وفي وقت غير معروف بالضبط حاول برنجفيك تحديده بما بعد شهر يوليو سنة ١٤٠٩م قدم راهب كان زميل دراسة له وصديقاً قديماً، قدم من صقلية إلى تونس خصيصاً لمقابلته وإقناعه بالعودة إلى المسيحية، وعندما وصل هذا الراهب إلى ميناء تونس كتب رسالة لعبد اللّه الترجمان وسلمها إلى أحد الموظفين طالباً منه أن يوصلها إليه ويعود بجوابها، فسلمها هذا إلى مدير الجمارك الذي استدعى أحد التجار الجنويين وطلب منه ترجمتها له، وبعد أن عرف ما فيها أرسلها للترجمان وأخبر السلطان بشأنها، فقام السلطان باستدعاء عبد اللّه الترجمان، وسأله عن تلك الرسالة فترجمها له فوافق قوله ما أعلمه به صاحب الجمارك فزاد ذلك في ثقة السلطان به وزاد سروره به أكثر حينما رفض ما عرضه عليه ذلك الصديق في تلك الرسالة ثباتاً منه على دينه[1]. ويزعم برنجفيك أن عبد اللّه الترجمان كان في وقت من الأوقات وقبل تأليفه تحفة الأريب يتمنى العودة إلى أوروبا والتنصر من جديد[2]. ولما كنا لا ندري على أي مصدر اعتمد برنجفيك في زعمه هذا، فإننا نعتبره من قبيل غبار الشك الذي يثيره أحياناً حول كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، ذلك أن موضوع مؤلفه الأول يتعلق بأوضاع أوروبا في عصره وحملة صليبية على بجاية وليس من المقبول عقلاً أن يقحم فيه هذا الموضوع، وينطبق نفس القول على مؤلفه الثاني الذي صنفه للدفاع عن الإسلام والرد على النصارى، فكيف يمكن أن يتمنى فيه التنصير؟ وإذا كان قد اعتمد على إحدى المصادر المسيحية فهو نفسه يشك في صحة المعلومات التي تقدمها عن موضوع التنصر، أما إذا كان عبد اللّه الترجمان قدلمح بالحنين إلى وطنه، فليس معنى ذلك أنه راغب في التنصر، فالحنين إلى الوطن أمر طبيعي لدى البشر حتى إن الحيوان يشارك البشر فيه.

---

(١) انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص١١ – ١٢.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.472.

وكان نص تلك الرسالة كما أورده عبد اللّه الترجمان في تحفة الأريب كما يلي : (أما بعد السلام من أخيك فرنسيس القسيس أعرفك أني وصلت إلى هذه البلد برسمك لأحملك معي وأنا اليوم عند صاحب صقلية بمنزلة أن أعزل وأولي وأعطي وأمنع وأمر جميع مملكته بيدي فاسمع مني وأقبل إلي على بركة اللّه تعالى ولا تخف ضياع مال ولا جاه وغير ذلك فإن عندي من المال والجاه ما يغمر الجميع وأعمل لك كل ما تريد). (انظر عبد اللّه الترجمان : المصدر السابق ص١٢).

(٢) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.472.

وتستمر محاولات إغراء الترجمان بالتنصر، وتشارك فيها الأوساط الدينية والسلطات الزمنية، فيكتب إليه أحد القائمين على حركة التنصير وهو (Benoit) من مقر إقامته في بنيسكولا (Peniscola) رسالة يطلب منه فيها العودة إلى أوروبا ويعده بغفران ذنوبه وحمايته من أن يطاله أي عقاب إذا ما عاد ابناً باراً للكنيسة[١]، ولكنه يرفض هذ العرض من جديد، وفي شهر ديسمبر سنة ١٤٢١م كتب إليه الفونسو الخامس ملك أرغونة رسالة من نابلي الهدف المعلن منها هو شكره وابن السلطان الحفصي على الجهود والمساعدات التي قدماها لتحرير بعض الأسرى النصارى الذين كانوا في إفريقية[٢]، ولكنها تتضمن أيضاً إغراء الترجمان بما بذله من الرضا منه لتشجيعه على العودة إلى وطنه. وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٤٢٣م أي بعد أقل من عامين فقط وصلته رسالة أخرى من ملك أرغونة تتضمن الإذن له ولعائلته لزيارة جميع البلاد الخاضعة لمملكة أرغونة مع إذن له بحرية التنقل بين إفريقية وأرغونة لمدة عامين. ولكن كل ما فعله عبد اللّه الترجمان هو أن شكر الملك على ذلك الإذن الذي لم يفكر أبداً في الاستفادة منه[٣]، وبقي في تونس وفياً لدينه الإسلامي إلى أن وافاه الأجل في وقت غير معروف بالضبط حيث دفن بها قرب باب المنارة، وقبره معروف بها إلى الآن ويطلق عليه العامة في تونس حالياً (قبر سيدي تحفة) نسبة لكتابه تحفة الأريب الذي أكثر ما اشتهر به.

وبعد، فإن حركة التنصير في إفريقية فشلت هي الأخرى، مثلما فشل الدعاة الصليبيون في وضع مشاريعهم الصليبية موضع التنفيذ، وإذا كانت هذه المؤمرات الصليبية على إفريقية التي احتدم أوارها في أواخر القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر قد خفت حدتها في النصف الثاني من ذلك القرن أعني القرن الرابع عشر، فإن ذلك لا يعني أن اهتمام الحركة الصليبية بإفريقية قد تضاءل بل العكس هو الصحيح، إذ إن هذه الحدة قد خفت لتفسح المجال أمام العدوان المسلح من جديد، فقد شهدت إفريقية في النصف الثاني من ذلك القرن حملات صليبية ضخمة هي التي سنتعرض لها في الباب التالي.

---

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.472.

(٢) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.472.

(٣) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.472.

﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾ .

[سورة المائدة : آية ٦٢]

الباب الرابع

الحملات الصليبية على إفريقية
في القرن الرابع عشر

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾.

[سورة المائدة : آية ٥٧]

أرغونة قوة عدوان جديدة في جبهة إفريقية

إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول حتى تولي أحمد الثاني – محاولة احتلال قسنطينة – احتلال جزيرة جربة – مهاجمة المهدية – حركة بن أبي دبوس – غارات قراصنة أرغونة وصقلية على إفريقية – فشل خطط أرغونة وتحرير جربة

إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول حتى تولي أحمد الثاني :

أعقب وفاة المستنصر الأول الحفصي (ت ١١ ذي الحجة سنة ٦٧٥/١٢٧٧م)(١) عهد من الفوضى والاضطراب السياسي في إفريقية دام حوالي القرن من الزمن كثرت فيه الفتن والحروب والثورات الداخلية، الأمر الذي أدى إلى إنهاك قواها وانشغالها بنفسها عن ما كان يجري حولها ويدبر لها. فلم يكن أبو زكريا يحيى الثاني الواثق الذي خلف أباه المستنصر في الحكم في مستوى أبيه وجده من الكفاءة والحزم، وتبعاً لذلك سرعان ما ابتدأ الصراع بين رجالات دولته، وهو الصراع الذي أسفر عن استبداد يحيى بن عبد الملك الغافقي الملقّب بابن الخير كاتب الواثق بأمور الدولة بعد أن استطاع التخلص من منافسيه، يقول الزركشي عن الواثق في ذلك : (غير أنه لم يمسك بعنان الملك حق الإمساك حتى استبد عليه ابن الخير)(٢)، وكان ابن الخير فاسد الرأي سيئ التدبير فاضطربت أحوال البلاد سيما وأنها كانت لا تزال وقتئذٍ تعاني من آثار حملة لويس التاسع عليها، الأمر الذي أدى إلى ظهور طامع في العرش هو الأمير أبو إسحق إبراهيم بن أبي زكريا الأول عم الواثق، والذي كان يعيش لاجئاً سياسياً في بلاط بني الأحمر ملوك غرناطة منذ فشل ثورته على أخيه المستنصر وفراره إلى الأندلس(٣)،

---

(١) الزركشي : المصدر السابق ص٤٠ .
(٢) الزركشي : المصدر السابق ص٤٢، انظر كذلك ابن الشماع : المصدر السابق ص٧٦ .
(٣) ثار أبو إسحق إبراهيم على أخيه المستنصر في أوائل عهده، وحينما فشلت ثورته هرب إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس وأقام في بلاط ملوك غرناطة كما سبق ذكره، وكان المستنصر يخشى من طمع أخيه في العرش فكان يحكم الرقابة عليه ويهادي ملوك بن الأحمر ليمنعوه من العودة إلى=

والذي ما أن وصلته أنباء ما آلت إليه الأمور في إفريقية حتى عقد العزم على العودة إليها وانتزاع العرش من ابن أخيه الضعيف(١). كان أبو إسحق يعتقد بأنه لا بد له من قوة كبيرة تسانده في هذا الأمر، فكان أن اتصل ببيدرو الثالث ملك أرغونة الجديد طالباً منه العون، فلم يتوان المذكور عن اغتنام هذه الفرصة الطيبة التي ستجعل من سلطان إفريقية صنيعة له وبالتالي يكون ذلك خطوة هامة في سبيل تحقيق أهدافه في تلك البلاد فأمده بالمعونة(٢)، وعند ذلك عبر أبو إسحق البحر إلى تلمسان حيث تلقاه أميرها يغمراسن بن زيان عاهل الدولة الزيانية (العبدوادية) بالإكرام ووعده هو الآخر بالمساعدة، وتوثيقاً للروابط بينهما أصهر يغمراسن إليه بتزويج ابنه عثمان من إحدى بنات أبي إسحق(٣)، وكان هدف يغمراسن الرئيسي من ذلك هو وضع سلطان على عرش الدولة الحفصية يكون موالياً له فيؤمن بذلك الحدود الشرقية لبلاده من الخطر الحفصي الذي طالما تهددها منذ تأسيس إمارته إلى حد أنه جرى اكتساحها في عهد أبي زكريا الأول واجتياح حاضرتها تلمسان وإقصائه عن العرش، وبذلك تتاح له حرية أكبر لمقارعة بني مرين سلاطين المغرب الأقصى الذين كانوا يتطلعون إلى ضم إمارته لمملكتهم.

ومن تلمسان نشط أبو إسحق في كسب الأنصار، فاتصل بعرب الدواودة الذين اتفقوا معه على نصرته والقيام بدعوته، كما بدأ في استمالة مشيخة الموحدين ورجالات دولة ابن أخيه، حتى إذا ما اطمأن إلى القوة التي تجمعت لديه زحف بها إلى بجاية واحتلها(٤) ثم زحف على قسنطينة فدانت له هي الأخرى، وبذلك سيطر على القسم الغربي من الدولة الحفصية وأخذ يستعد للزحف على مدينة تونس، واضطربت الأمور على

= إفريقية، يقول ابن القنفذ في ذلك : (وكان أخوه المستنصر يوجه الهدايا الضخمة لابن الأحمر ويبعث الأموال الكثيرة ليمسك ابن الأحمر عنه أخاه، ويرسل المستنصر الأرسال من كبار الموحدين وأعيان الطلبة في السفارة عنه لابن الأحمر، وفي طي ذلك الاطلاع على أحوال أخيه) (انظر ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٨).

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٧، ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٨، الزركشي : المصدر السابق ص٤٢، ابن الشماع : المصدر السابق ص٨٧، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٨ .

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص١٨٢ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠١، انظر كذلك ابن القنفذ : المصدر السابق ص١١٨ .

(٤) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٧٩ . كذلك الزركشي : المصدر السابق ص٤٢ .

الواثق خاصة عندما وصلته الأنباء بقرب وصول عمه إلى العاصمة، فكان أن خلع نفسه من السلطنة لعمه الذي دخل المدينة وبويع بالخلافة في منتصف ذي الحجة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م(١)، والذي بالرغم من ذلك لم يطمئن لابن أخيه فكان أن قتله هو وبنوه الثلاثة بعد ذلك بفترة وجيزة في صفر سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م بسبب وشاية وشي بها إليه مفادها أنهم يدبرون مؤامرة للتخلص منه(٢).

وقد فتحت حركة أبي إسحق هذه باب الفوضى والفتنة في إفريقية على مصراعيه، إذ أن أبا إسحق أخذ منذ توليه الحكم يتتبع رجالات دولة ابن أخيه المخلوع ويمتحنهم بالسجن والقتل ومصادرة الأموال، يضاف إلى ذلك قسوته وشدة وطأته على الناس وانصرافه للهوه، فضلاً عن السياسة غير الحكيمة التي انتهجها مع الأعراب الهلالية بمنحه الامتيازات العديدة لبطونهم التي ساعدته في حركته، فأباح هؤلاء لأنفسهم تبعاً لذلك حرية التصرف كما يشاؤون والاعتداء على أهل المدن والقرى، فحاكاهم في ذلك غيرهم من الأعراب وبعض قبائل البربر حيث أخذ الجميع يعيثون الفساد في نواحي البلاد، وبذلك أفلت زمام الأعراب من يد السلطة المركزية من جديد بعد أن كانوا قد أخلدوا إلى السكينة نوعاً ما في عهد كل من أبي زكريا الأول والمستنصر، ولم تتمكن الدولة الحفصية من فرض سيطرتها الكاملة عليهم ثانية حتى انقضاء عهدها في العصر الحديث(٣). وزاد من سوء الوضع أنه حدث في

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٢٩٨، الزركشي : المصدر السابق ص٤٣ . ابن الشماع : المصدر السابق ص٧٧، صالح الكواش : تاريخ تونس، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم ٣٣٨، ورقة ١ .

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٢٩٨، الزركشي : المصدر السابق ص٤٣، ابن الشماع : المصدر السابق ص٧٧، صالح الكواش :المصدر السابق ورقة ١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٨، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢١٠ .

(٣) يصف ابن القنفذ هذا الوضع بقوله عن ذلك السلطان : وكانت (فيه غلظة وشجاعة وخفة وغيبة عن مجلسه في لهوه وأنسه، وكان لا ينظر في عواقب الأمور... واستولت العرب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم، وهو أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر، وزاد في العوائد ليجد الراحة في لذاته بعد تقدم غزواته، وقلت المجابي في أيامه وكثر الإخراج والإنفاق). ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٣٩، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠٢، الزركشي : المصدر السابق ص٤٥، ابن الشماع : المصدر السابق ص٧٨ .

السنة التالية على اعتلائه العرش مجاعة عظيمة شملت إفريقية وأضرت بالناس والحيوان(١).

وتمخض هذا الوضع السيئ عن ثورتين كبيرتين إحداهما في قسنطينة والتي سنتعرض لها فيما بعد، والثانية ثورة أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المعروف بالدعي لادعائه أنه الفضل ابن السلطان المخلوع الواثق والتي بدأت في ٤ محرم سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وأخذت تتفاقم حتى أدت في النهاية إلى هرب السلطان أبي إسحق من تونس حيث لاقى حتفه فيما بعد، واعتلى الدعي سدة السلطنة في ذلك العام أعني سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م(٢)، إلاّ أنه لم يتمكن من

---

(١) يصف الزركشي هذه المجاعة التي حدثت سنة ٦٧٩هـ بقوله : (أكل الناس القمح فريكاً ثم عدم في سنبله فإذا حصد جمعت الأغمار ولم يوجد فيها شيء فكان البقر الذي أكل ذلك الزرع تلف وكان ذلك في جميع بلاد إفريقية).
الزركشي : المصدر السابق ص٤٥، انظر أيضاً صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١ .

(٢) أصل هذا الدعي من المسيلة وبها ولد، ونشأ في بجاية واحترف في مطلع حياته الخياطة، وتقول عدة مصادر إسلامية : إن نفسه كانت تطمح للملك، لذلك غادر بجاية ولحق بصحراء سجلماسة حيث اختلط بعرب المعقل (عن هؤلاء ومساكنهم وقواهم العسكرية انظر الحسن الوزان : المصدر السابق ص٦٢ وما بعدها)، وادعى لهؤلاء الأعراب أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار البربر طالباً منهم القيام بدعوته، وزعم لهم أنه يحيل المعادن إلى ذهب بالصناعة، وتمكن من إقناعهم فالتفوا من حوله، ولكنهم عادوا وزهدوا فيه لخصال ظهرت منه لم تعجبهم ولضعف مدعاه فرحل عنهم ضارباً في الأرض حتى وصل إلى نواحي طرابلس، فنزل على دياب الهلالية وكان يقيم بينهم نصير الفتى أحد موالي الواثق السلطان المخلوع، ونظراً للشبه الكبير بينه وبين الفضل بن الواثق اتفق مع نصير على أن يصدقه في زعمه بأنه الفضل على أن يتتبع قتلة الواثق وبنيه ويثأر لنصير منهم، وفعلاً نفذ هذا الاتفاق وزعم لذياب الذين كان شيخهم آنذاك مرغم بن صابر بأنه الفضل فقام هو وقومه بدعوته وأخذ يهاجم بهم نواحي إفريقية فهاجم طرابلس وعندما استعصت عليه غادرها إلى بلاد هوارة فدانت له ثم قصد قابس فبايعه صاحبها عبد الملك بن مكي وفاء لذكرى الواثق ثم زحف على قفصة فأطاعته، وفي تلك الآونة أرسل أبو إسحق جيشاً بقيادة ابنه أبي فارس لمواجهة الدعي، ولكن هذا الجيش تفرق عن أبي فارس قبل الاشتباك الأمر الذي اضطره للعودة إلى تونس ومنها ذهب إلى بجاية تاركاً أباه يواجه مصيره، حينذاك زحف الدعي إلى القيروان فبايعه أهلها واقتدى بهم أهل المهدية وسوسة وسفاقس، فاضطرب الأمر على أبي إسحق، وخرج إلى ظاهر العاصمة ليعد جيشاً يقابل به الدعي الذي بدأ زحفه على العاصمة، ولكن الجيش الذي جمعه تقاعس عن نصرته وأخذ الجند ورجالات الدولة ومشيخة الموحدين يتركونه وينضمون إلى خصمه فأيقن أن أمره إلى زوال، فلم يجد بداً من مغادرة تونس بأهله وولده هارباً إلى قسنطينة فمنعه واليها عبد الله بن توفيان الهرغي من دخولها، فزاد ذلك من متاعبه فضلاً عما عاناه من البرد والمطر والجوع=

فرض سيطرته على إفريقية[1] نظراً لأنه كان سفاكاً للدماء وفاسد التدبير، فتتبع رجالات أبي إسحق بالقتل والتعذيب واستصفاء الأموال، وأودع جميع أمراء البيت الحفصي في السجن وهم بقتلهم فنفر الناس منه، ولم تلبث أوضاع البلاد أن ازدادت سوءاً في عهده، إذ ازداد فساد الأعراب وكثرت اعتداءاتهم على الناس حتى جأر هؤلاء بالشكوى، وعندما حاول أن يحد من هذا الفساد الذي استفحل، تحول الأعراب عنه واتصلوا بأمير حفصي كان لاجئاً في قلعة سنان هو الأمير عمر حيث ذهب إليه وفدهم وبايعوه بالخلافة في ربيع الأول سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م فزحف هذا إلى تونس مدعوماً من عدة بطون من الهلالية من ناحية ومستنداً إلى الاتفاق الذي عقده مع ملك أرغونة كما سبق أن ذكرنا من ناحية ثانية حيث تمكن من دخول المدينة وقتل الدعي وبويع بالخلافة في ٢٥ ربيع الثاني سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م[2].

ومع أن أبا حفص عمر ظل في الحكم مدة أحد عشر عاماً وثمانية أشهر تقريباً (ت في

= طوال الطريق، فارتحل إلى بجاية ولكن ابنه أبا فارس الآنف الذكر تنكر له ومنعه من دخول البلد، بل وأجبره على التنازل له عن العرش، وبويع أبو فارس في أواخر ذي القعدة سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م فأخذ يعد جيشاً من رياح الهلالية وبربرسدويكش ليواجه به الدعي.
لمزيد من التفصيل عن هذه الثورة انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠٢ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٤٢ - ١٤٣، ابن الشماع : المصدر السابق ص٨٦ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص٤٥ - ٤٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٩ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢ - ٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١ ق٤ ص١٠٣٦، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢١٠ وما بعدها.

(١) اشتبك أبو فارس مع قوات الدعي في معركة بفج الأخيار قرب مرماجنة لكنه هزم وقتل في المعركة، كما أسر بعض إخوته فقتلهم الدعي صبراً، ولم ينج من الأمراء الحفصيين إلا أبو حفص عمر الذي لجأ إلى قلعة سنان في ثلاثة نفر من صحبه أحدهم محمد بن أبي بكر بن خلدون الجد الأقرب لابن خلدون المؤرخ، كانوا يتناوبون حمله أثناء الطريق حتى وصلوا إلى تلك القلعة التي كانت معقل قبيلة هوارة البربرية، أما السلطان المخلوع أبو إسحق فحينما علم بهزيمة ابنه ومقتله هرب من بجاية هو وابنه يحيى. لكن والي المدينة اتبعه بجند قبضوا عليه وقتلوه وأما ابنه يحيى فقد تمكن من الفرار إلى تلمسان.
انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠٣ - ٣٠٤، الزركشي : المصدر السابق ص٤٦ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٤ .

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠٣ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٤٤ - ١٤٥، الزركشي : المصدر السابق ص٤٩ - ٥٠، ابن الشماع : المصدر السابق ص٨٥ - ٨٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٣٩ - ١٤٠، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٤ - ٥ .

٢٤ ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) وهي مدة طويلة نسبياً إذا ما قورنت بالست سنوات التي سبقت اعتلاءه العرش والتي تبدل فيها ثلاثة حكام، إلا أن الأمن لم يستتب ولم تتحسن الأوضاع في عهده عن السابق فقد كان من الضعف بحيث لم يستطع ضبط أمور البلاد، فعندما لمس العديد من الولاة اضطراب الأحوال وضعف السلطة المركزية وعجزها عن أن تطالهم يدها بالعقاب أخذوا يطمحون إلى الاستقلال بولاياتهم عنها مثل ابن مكي صاحب قابس الأمر الذي كان ينذر ببدء عهد ملوك طوائف في إفريقية من جديد . كما حدثت في عهده حوادث جسام أهمها انقسام الدولة الحفصية إلى قسمين أحدهما مركزه تونس والآخر مركزه بجاية، ذلك أن الأمير يحيى ابن السلطان المخلوع أبي إسحق إبراهيم كان قد فر بعد مقتل أبيه وإخوته إلى تلمسان، وعندما رأى اضطراب الأوضاع في إفريقية عاد إليها حيث دعمه بربر سدويكش وبنو زغبة والدواودة من الهلالية واستولى على بجاية وبويع بها بالخلافة، ولم يكتف بذلك بل زحف إلى تونس في سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م وعندما صد عنها سار إلى قابس فهاجمها وخرب أرباضها ثم ارتحل إلى مسراته فلجأ السلطان أبو حفص إلى عثمان بن يغمراسن أمير بني زيان طالباً عونه ليكف أذى أمير بجاية المتمرد عنه، فقام هذا بمهاجمة بجاية مما اضطر أميرها للعودة إليها. وبقي أبو يحيى مستقلاً بالقسم الغربي من إفريقية حتى وفاته في سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م. ونتيجة لهذه الحوادث المتلاحقة نشط العدو الأرغوني المتربص بإفريقية في العمل، ففي عهد هذا السلطان استولى الأسطول الأرغوني على جزيرة جربة سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م، وظهرت حركة ابن أبي دبوس المدعومة من قبل ملك أرغونة كما سيأتي ذكره، وازداد فساد الأعراب في عهده إلى حد كبير[1].

---

(١) يصف العبدري الذي مر بإفريقية في تلك الآونة في طريقه إلى الحج من المغرب الأقصى في الذهاب والإياب في رحلته التي بدأها في يوم ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م، يصف إفساد الأعراب بإفريقية في معرض حديثه عن مدينة باجة : (إن أهلها لا يفارقون السور خوفاً من العربان، وإنهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعدون ليوم الضراب والطعان).
(انظر العبدري : الرحلة المغربية ص٣٧ – ٣٨).
ويقول عن طرابلس : إنه استولى (عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر). (انظر العبدري : المصدر السابق ص٧٧).
ويقول عن إفساد غابة الزيتون المشهورة في إفريقية والتي قطعها في ثلاثة أيام : بأنها (الآن معطلة=

وقد حاول أبو حفص قبل وفاته إسناد ولاية العهد لابنه عبد الله، ولكن مشيخة الموحدين استصغروا سنه فاستشار الشيخ الزاهد أبا محمد المرجاني في شأن من يوليه العهد فأشار عليه بإسناد هذا الأمر لربيبه محمد المعروف بأبي عصيدة[1]، فقبل منه ذلك وسماه ولياً للعهد، وبعد وفاته بويع أبو عصيدة المذكور بالخلافة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م، وكانت الدولة الحفصية لا زالت وقتئذٍ على انقسامها إلى قسمين والفساد قد استشرى فيها، فاستهل أمره بقتل الأمير عبد الله بن السلطان السابق أبي حفص عمر (لأجل ترشحه)[2] وخوفاً من طمعه في العرش ولم يحفظ بذلك الجميل لأبيه ثم سلم مقاليد الأمور في دولته لحاجبه محمد بن إبراهيم بن الدباغ الذي سار في الناس سيرة سيئة فنقموا عليه، وقد أضرّ الأعراب ولا سيما الكعوب بالناس وقطعوا السبل الأمر الذي أدى إلى ظهور حركة أحمد بن عثمان بن أبي دبوس كما سيأتي ذكره، ثم إلى هياج العامة في تونس في رمضان سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م الذين هاجموا القصبة مطالبين بتسليمهم ابن الدباغ لقتله هذا من ناحية، كما ازدادت في عهده جرأة قراصنة أرغونة وصقلية على مهاجمة سواحل إفريقية كما سيأتي ذكره من ناحية ثانية، وقد جرت في عهده محاولة لتحرير جزيرة جربة من الاحتلال الأرغوني قام بها شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن اللحياني كما سيأتي ذكره أيضاً، وقد

= لفساد البلاد واستيلاء العربان عليها فانقطعت منفعتها رأساً حتى صار الزيت بإفريقية مجلوب من جزيرية جربة) العبدري : المصدر السابق ص٢٣٧، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص٦٥ ص٦٨ .

ويجمل وصفه لوضع إفريقية السيئ وقتئذٍ بقوله : (والذي في بلاد إفريقية من عجائب البناء، وآثار الاعتناء أمر يضيق عنه الوصف... وقد دلت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكتها في غابر الزمان، على ضد ما هي عليه الآن فإنها شديدة الإهمال غير سديدة الأحوال طامسة المسالك دامسة كالليل الحالك، عمرانها خراب وغدرانها سراب وعنوانها يباب، يكل عن وصف فنائها لسان النطق ويضيق في تبيان خلائها عنان التلفيق، حلت بها الآفات والمحن، وشفي منها الدهر على عقد لها من حقود وإحن لايسلكها إلا مخاطر ولا يعدم من عربانها إيلام خاطر قد استوى لديهم الصالح والطالح...) العبدري : المصدر السابق ص٨٢ – ٨٣، انظر أيضاً التجاني : المصدر السابق ص١١٩ – ١٢٠ .

(١) هو محمد بن الواثق بن المستنصر الأول، ولدته أمه في زاوية الشيخ المرجاني وكانت قد فرت عند مقتل أبيه وهي حامل به فآواها المرجاني، وقد عق عليه المرجاني وأطعم الفقراء يوم مولده عصيدة الحنطة فلقب بأبي عصيدة، وبعد ذلك أظهره فتربى في قصور الخلفاء. انظر ابن خلدون : ج٦ ص٣٢١ .

(٢) الزركشي : ص٥٤ .

حاول السلطان أبو عصيدة توحيد الدولة الحفصية من جديد فزحف بجيش على قسنطينة، وقد أسفرت هذه المحاولة عن عقد اتفاق بينه وبين أبي البقاء خالد أمير بجاية الذي كان قد خلف أباه يحيى في حكمها على أن من يموت منهما قبل صاحبه يرثه الآخر ويتم توحيد شطري إفريقية تحت سلطانه، ولكن عندما توفي أبو عصيدة في ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م دون أن يعقب ولداً نقض أهل تونس هذا الاتفاق وبايعوا أخاه أبا يحيى أبا بكر بن عبد الرحمن الملقب بالشهيد، ويبدو أن أبا البقاء خالد قد علم بنية أهل تونس قبل وفاة أبي عصيدة، فعندما شعر بدنو أجل السلطان المذكور الذي كان يعاني من مرض الاستسقاء خرج من بجاية بجيشه قاصداً تونس، وحينما وصل إلى موضع يقال له قصر جابر بالقرب منها علم بوفاة أبي عصيدة ومبايعة السلطان الجديد، فجد في سيره ولم يصمد أمامه الجيش الذي وجهه السلطان الجديد لقتاله إذ هزمه في معركة السعترية ودخل العاصمة وقتل أبا بكر وبويع بالخلافة في ٢٧ ربيع الآخر سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م[1]، وبذلك أعاد توحيد إفريقية من جديد.

ولكن هذه الوحدة لم تعد لإفريقية الاستقرار كما أنها لم تدم طويلاً، إذ لم تلبث أن نشبت ثورة على أبي البقاء قادها ابن عمه يحيى بن خالد بن السلطان أبي أسحق الذي جمع جمعاً من الأعراب قصد بهم قسنطينة وحاصرها فلجأ أهلها إلى التثبيط عنه فداخلوا زعيم الأعراب في جيشه منصور بن مزني الذي كان قائماً بدعوته فانصرف عنه إلى بلده، وانفضت جموع يحيى مما اضطره للهرب إلى تلمسان. وما كاد أبو البقاء يتخلص من هذا الثائر حتى ثار عليه أخوه أبو بكر الذي كان قد ولاه على قسنطينة فدعا لنفسه وآزره في دعوته راشد بن محمد أمير مغراوة فاستقل بها ثم سار إلى بجاية واستولى عليها في سنة ٧١١هـ / ١٣١١م، وفي أثناء استعداد أبي البقاء للقضاء على ثورة أخيه ظهر مطالب جديد هو شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى زكريا أحمد بن اللحياني، الذي كان قد قدم لتوه من

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٢٠ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٥٤ – ١٥٥، ابن الشماع : المصدر السابق ص١٠٢ – ١٠٣، الزركشي : المصدر السابق ص٥٧ وما بعدها، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٤١ – ١٤٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٠، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢١٥ – ٢١٦ .

الحج وعندما وصل إلى طرابلس ورأى اضطراب الأمور على أبي البقاء خالد دعا لنفسه وسانده في دعوته أعراب الكعوب وملكا أرغونة وصقلية كما سبق ذكره، ولما سمع أبو بكر يحيى الثائر بقسنطينة بأمر ابن اللحياني أوفد إليه حاجبه عبد الرحمن بن عمر بهدية عظيمة ووعده بنصرته ضد أبي البقاء فقوي بذلك أمر ابن اللحياني وآل الأمر أخيراً إلى مقتل أبي البقاء وتولي ابن اللحياني العرش في ٢ جمادى الأولى سنة ٧١١هـ / ١٣١١م[١].

ولكنه هو الآخر لم يتمكن من ضبط أمور البلاد وإعادة توحيدها، إذ بالرغم من أن أبا يحيى المسيطر على قسنطينة وبجاية آزره في دعوته، إلا أنه لم يعترف به سلطاناً على كامل إفريقية وبقي يسيطر على القسم الغربي منها أي أن الدولة الحفصية تفسخت إلى فرعين من جديد، وليس ذلك فحسب، وإنما بدأ النزاع بين هذين السلطانين، وقد حاول ابن اللحياني كسب مساندة ملكي أرغونة وصقلية ضد خصمه بإيهامهما برغبته في التنصر كما سبق ذكره، ولما رأى أن زمام الأمور بدأ يفلت من يده، وأنه لا قبل له بالصمود في وجه خصمه، عمل على الخروج من العاصمة لعل الأوضاع تهدأ أو لعلها تتاح له حرية أكبر للمناورة بوجوده خارجها، ولما كان لديه احتمال بعدم تمكنه من الرجوع إليها مرة ثانية، عمل على أخذ أكبر قدر ممكن من الأموال معه، فأخذ كل ما كان في الخزينة من (الأموال والذخائر وباع ما كان بقصر الملك مما يحضره من الأواني والفروش وغير ذلك حتى الكتب التي كان المولى أبو زكريا جمعها أخرجت للورّاقين وبيعت بدكاكينهم وجمع من ذلك قناطر من الذهب تجاوز العشرين وجولقين بحصا الدر والياقوت)[٢] وبعد أن تم له ذلك غادر تونس إلى قابس في أوائل سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م (مورياً بمشارفة عملها)[٣] ومنها رحل إلى طرابلس وأقام بها

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٢٤، ابن القنفذ :المصدر السابق ص١٥٩، (ويذكر أن البيعة تمت في ٩ جمادى الأولى سنة ٧١١)، ابن الشماع : المصدر السابق ص١٠٠ – ١٠١، الزركشي : المصدر السابق ص٦٠ – ٦١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٤٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٢ – ١٣، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢١٦ .

(٢) ابن الشماع : المصدر السابق ص١٠١ – ١٠٢، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٢٨، الزركشي : المصدر السابق ص٦٣، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٤٣، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٢٨، انظر كذلك ابن الشماع : المصدر السابق ص١٠٢،=

يترقب ما تسفر عنه الحوادث التي كانت تجري في إفريقية.

ومع أنه كان قد رتب حاميات بكل من تونس وباجة والحمامات واستخلف نائباً عنه في العاصمة هو أبو الحسن بن وانودين، إلاّ أن هذا النائب حينما علم باستعدادات أبي أبي بكر بن يحيى للزحف على تونس، أرسل إلى أبي زكريا يطلب منه المساعدة، فكان كل ما أرسله إليه هو بعض الأموال وأطلق يده في الجيش والجباية، فأدرك ابن وانودين أنه لا يستطيع التصدي وحده لأبي يحيى الذي كان قد بدأ زحفه على تونس بجموع زناته وسدويكش وعدة بطون من الهلالية، فاستقر رأي رجالات الدولة على إخراج محمد بن أبي زكريا بن اللحياني المعروف بأبي ضربة من السجن[1] ومبايعته عوضاً عن أبيه، فخرج أبو ضربة إلى باجة للدفاع عنها فخالفه أبو بكر إلى تونس وأناخ عليها ولكنه لم يتمكن من دخولها فتراجع عنها إلى قسنطينة، ثم عاد إلى مهاجمتنا من جديد في صفر سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨م فتمكن هذه المرة من اقتحامها حيث بويع بالخلافة في ربيع أول سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م وأرسل جيشاً لملاحقة أبي ضربة الذي فر منها بنفر قليل من جنده ، وحاول الصمود أمام القوات التي أرسلها السلطان الجديد لملاحقته ، ولكنه هزم في المعركة التي دارت بين الطرفين بموضع يسمى (مصبوح) وقتل كثير من أصحابه، أما هو فتمكن من النجاة وأرسل يطلب العون من أبيه فأمده بمال حشد به جيشاً سار به إلى القيروان ولكن أبا بكر هزمه من جديد ففر إلى المهدية وتحصن بها، وحينما علم أبوه بهزيمته يئس من أمره فركب البحر بأهله وولده وأمواله إلى الإسكندرية وبقي في مصر في كنف السلطان محمد بن قلاوون إلى أن مات بها سنة ٧٢٨هـ /١٣٢٧م[2] وبذلك عادت إفريقية إلى الوحدة مرة أخرى في ظل السلطان الجديد.

= الزركشي : المصدر السابق ص٦٣ – ٦٤، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ .

(١) كان الأمير محمد آنذاك في السجن بسبب جناية كان قد جناها.
انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٢٩، ابن الشماع : المصدر السابق ص١٠٢، الزركشي : المصدر السابق ص٦٤، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٤٣، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ .

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٨ – ٣٢٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٤ – ٦٥ ، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٦٠ وما بعدها ، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٣ ، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٠٢ – ١٠٣ ، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣–١٤، ابن أبي الضياف : ص ٢١٧ – ٢١٨ .

ومع أن هذا السلطان قد حكم إفريقية الموحدة مدة تقارب الثلاثين سنة (٧١٨-٧٤٧هـ/١٣١٨-١٣٤٦م)، إلاّ أن أوضاعها بقيت غير مستقرة وكانت الثورات تنشب في نواحي عديدة منها من حين لآخر، وظل الأعراب يعيثون الفساد فيها، وكثرت حركات المطالبين بالعرش، وليس أدل على ذلك الوضع السيئ من أن هذا السلطان نفسه قد أقصي عن العاصمة أكثر من مرة وجددت له البيعة عدة مرات منها سبع مرات فقط لغاية شوال سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م[١] وذلك في حوادث طويلة لا يسعنا التعرض لها في هذه العجالة بطبيعة الحال[٢]، ومما زاد من الأخطار التي أحدقت به اشتباكه مع بني زيان حكام المغرب الأوسط في حروب دامت فترة طويلة[٣] كانت هي التي مهدت للزحف المريني إلى إفريقية، ذلك أن أبا بكر حينما أرهقته الحرب مع بني زيان في نفس الوقت الذي كان قد كثر فيه الثوار وتعددت حركات القائمين عليه، رأى الاستنجاد بأبي سعيد عثمان عاهل الدولة المرينية في المغرب الأقصى ليكف عنه عدوان بني زيان. فأرسل لهذا الغرض ابنه أبا زكريا وحاجبه ابن تفراجين على رأس وفد إلى أبي سعيد فاستقبلهم بحفاوة، وأكرمهم واتفق معهم على موعد يهاجم فيه كلا الطرفين تلمسان، كما أصهر إلى أبي بكر إذ زوج ابنه وولي عهده أبا الحسن من ابنة السلطان الحفصي، وتوفي أبو سعيد بعد ذلك بقليل فنهض السلطان الجديد سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م لتنفيذ هذا الاتفاق مع صهره واجتاح الدولة الزيانية بمساعدة الحفصيين سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م[٤] وضمها إلى مملكته، وبذلك امتد ملكه إلى حدود إفريقية الغربية. وبوفاة

---

(١) الزركشي : المصدر السابق ص ٦٩ ، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٣٢ وما بعدها، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٠٥-١٠٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٤، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣.

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٢٩ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٦ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٥ وما بعدها، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٨ وما بعدها.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٣١ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٨ وما بعدها، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٠٧ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٧-١٨.

(٤) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤٠ وما بعدها ، الزركشي : المصدر السابق ص٦٨-٦٩، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٨-١٩. ماريا خيسوس فيغيرا : أخبار إفريقية في المسند لابن مرزوق ص٧٢ .

أبي بكر في ٢ رجب سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م، (انحلت أبواب الفتن)[١] في إفريقية، إذا تنازع أبناؤه وأمراء البيت الحفصي على العرش[٢]، فرأى أبو الحسن في ذلك فرصة لتحقيق حلم كان يراوده هو توحيد المغرب العربي تحت سلطانه فأخذ يعد العدة للحركة إلى إفريقية مبرراً ذلك بمعاقبة سلطانها الجديد أبي حفص عمر لتنكره لعهد أبيه وقتله لإخوته[٣]، ومما قوى هذا العزم

---

(١) ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٠٧.

(٢) كان أبو بكر قد سمى ابنه الأكبر أبا العباس أحمد ولياً لعهده، وأشهد أبا الحسن المريني على ذلك، وعندما توفي أبو بكر قام ابن تفراجين حاجب الدولة بمبايعة ابن آخر لأبي بكر هو أبو حفص عمر ولم يلتفت إلى عهد السلطان المتوفى وذلك ليسهل على ابن تفراجين السيطرة على الدولة بسبب صغر سن أبي حفص عمر، فغضب أبو العباس وزحف من قفصة التي كان والياً عليها إلى تونس واحتلها وبويع بها، أما أخوه أبو حفص فقد هرب إلى باجة حيث أعد جيشاً كبيراً وزحف به على تونس ثانية فاحتلها وقتل أبا العباس وباقي إخوته، وقد ظهر في تلك الأثناء عدة مطالبين بالعرش، ففي قسنطينة وحدها ظهر ستة منهم كانوا في سجنها فخرجوا بسيوفهم يطلبون العرش حتى سمي ذلك العام في قسنطينة بعام المثقفين أي المسجونين (انظر : عن ذلك ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٦٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٥ وما بعدها، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٨١-٨٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢٣-٢٤).

(٣) الزركشي : المصدر السابق ص ٨٢، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ص٣٥٧، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١١٦، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٢٢. ولعل في ما ذكره ابن مرزوق في مسنده عن هذا الموضوع ما يؤكد ما ذهبنا إليه في أن أبا الحسن كان يبيت النية على ضم إفريقية لمملكته وكل ما كان ينتظره هو الفرصة المناسبة، إذ يقول في ذلك إنه دخل ذات يوم على أبي الحسن ومؤذن المغرب يؤذن بالصلاة، فقبل أن يستقر به الجلوس دعاه أبو الحسن واستدناه وأخبره بوفاة السلطان أبي بكر الحفصي : (فقلت سبحان الله، إنا لله وإنا اليه راجعون، فتأسف هو أيضاً (رضه) وذكره بخير، ثم قلت : يا مولاي، الآن تدعونا الحركة إليها، فقال لي : ولم؟ وله خليفة وهو ولده أحمد ولا يسعنا إلا التوفية له، فأجرى الله على لساني أن قلت : ولعلهم يختلفون ويصير الأمر إليكم، فقال : الله أعلم أي شيء تقول في هذا؟ فقلت هذا والله أحبه من وجه وأكرهه من وجوه : «أما الوجه الذي أحبه من أجله فاتصال طريق الحجاز واتحاد البلاد، وأما الوجه الأخر فما في إفريقية من الشغب والبعد عن الوطن وتحمل المشاق » فقال لي : نختار هذا إن شاء الله ونحن في الطريق للصلاة). (انظر ماريا خيسوس فيغيرا Maria J. Figuera : أخبار إفريقية في المسند لابن مرزوق ص٧٣-٧٤)، وقد جرت هذه المحاورة بمجرد أن وصل الخبر إلى أبي الحسن بموت السلطان الحفصي ولم يكن يعلم بموته إلا أبا الحسن وابن مرزوق حتى عزّونة ابنة السلطان المتوفى التي كانت قد زفّت في تلك الآونة لأبي الحسن وأخيها الفضل الذي كان قد رافقها في رحلتها إلى المغرب الأقصى لم يكونا يعلمان=

لديه وصول ابن تفراجين حاجب الدولة الحفصية إلى بلاطه إثر هزيمة أبي حفص عمر أمام أخيه أبي العباس أحمد في المرة الأولى، والذي أخذ يحرض أبا الحسن ويغريه بالزحف على إفريقية.

وعلى ذلك زحف أبو الحسن إليها في صفر سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م في جموع كثيفة (يجر الدنيا بما حملت)[١]، وحينما تسامع ولاتها الذين كانوا قد استقلوا عن الدولة الحفصية بحركته، قدموا إليه بطاعتهم في وفد واحد ضم (ابن مكي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة وابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة فلقوه بوهران وآتوه بيعتهم رغبة ورهبة)[٢] وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس ولم يتخلف منهم أحد إلاّ من بعدت داره، كما جاء في أثرهم يوسف بن منصور ابن مزني صاحب الزاب ومشيخة الدواودة فبر الجميع وأكرمهم وولى كلاً منهم على بلده[٣]، وجد في سيره إلى بجاية، ولما وصلها ورأى أهلها عدم جدوى المقاومة خرج إليه أميرها محمد بن أبي زكريا بطاعته فقبلها منه وأرسله هو وإخوته إلى المغرب الأقصى ثم سار إلى قسنطينة فخرج إليه واليها ابن أبي عبد الله وإخوته بالطاعة فقبلها وأرسلهم هم الآخرون مع باقي الأمراء الحفصيين الذين كانوا بها إلى المغرب الأقصى، وعندما علم أبو حفص عمر بقرب وصول السلطان المريني إلى تونس خرج منها هارباً فاتبعه أبو الحسن بجيش لحق به عند قابس حيث هزمه وقبض عليه وأعدمه، ودخل أبو الحسن تونس في جمادى الأولى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م فدانت له إفريقية بالطاعة[٤]، وبذلك تمت وحدة المغرب العربي من جديد بعد تمزق دامت مدته ما يزيد عن قرن ونصف، وجال أبو الحسن في أنحاء إفريقية ليشيع فيها الهدوء والاستقرار، ولكن جذور الفتنة كانت عميقة بحيث لم

= بموت أبيهما بعد، ناهيك بأن الخلاف بين أمراء البيت الحفصي لم يكن قد ذر قرنه بعد، الأمر الذي يؤكد أن أبا الحسن كان يبيت النية لضم إفريقية لمملكته، ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره ابن خلدون (ج٦ص٣٥٦) عن هذا الأمر حين يقول : (كان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك إفريقية ويتربص بالسلطان أبي بكر ويسر له حسداً).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٥٧، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٥٧، الزركشي : المصدر ص ٨٢.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٥٧ وما بعدها، الزركشي : ص ٨٢ وما بعدها.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٥٧ وما بعدها.

يقدر على اجتثاثها، فسرعان ما انقلب عليه العديد من بطون الأعراب الهلالية، لحرمانه لهم من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، كما انقلب عليه ابن تفراجين أيضاً لأنه لم يجد عنده ما كان يأمل فيه من إسناد إفريقية إليه[1]، فأخذ يهيج الفتنة ضده، فكان أن اصطدم أبو الحسن بالأعراب الهلالية بالقرب من القيروان حينما خرج من تونس لإخضاعهم حيث كانوا قد استقدموا أحمد بن عثمان بن أبي دبوس وبايعوه بالخلافة كما سيأتي ذكره، وجعلوا ابن تفراجين حاجبه، وعند اشتباك الفريقين انهزم بنو زيان (عبد الواد) الذين كانوا مرافقين لأبي الحسن لكراهيتهم له كونه قضى على دولتهم في تلمسان، فتمكن الهلالية بذلك من إيقاع هزيمة شنعاء بأبي الحسن في معركة القيروان في ٢ محرم سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ونهبوا معسكره وحاصروه في القيروان، ولم يتمكن من الخروج من ذلك الحصار إلا بمداخلة أولاد مهلهل من الكعوب وبعض بني سليم وشرط على نفسه لهم الأموال الكثيرة فأوصلوه إلى سوسة ومنها ركب أسطوله إلى تونس ونزل بها[2] وبذلك عادت الفوضى إلى الظهور من جديد ، وزاد من سوء الوضع تفشي الوباء العظيم وقتئذٍ والذي عرف بوباء الموت الأسود، الذي عم إفريقية كما عم غيرها من أقطار المغرب العربي فضلاً عن المشرق وأوروبا والذي دام حوالي الثلاث سنوات وأودى بحياة الكثير من الناس[3] كان من ضمنهم نخبة من أفاضل العلماء الذين كانوا يرافقون أبا الحسن، وصاحب

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٦٠، ابن الشماع : المصدر السابق ص١١٥ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص٨٢-٨٣، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٧، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢٥.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٩ وما بعدها، وج ٧ ص ٢٧٥-٢٧٦، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١١٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٣ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٠ وما بعدها، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٧، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢٤-٢٥.

(٣) أسهب الكثير من المؤرخين من المسلمين والمسيحين في وصف هذا الوباء الذي شمل نواحي عديدة من العالم القديم وبيان آثاره، فقد ذكر علي بن خاتمة (تحصيل غرض المقاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوطة المكتبة الوطنية بمدريد رقم MSS 5067-1 الكراسة السادسة ورقة ١٠) ما يلي : (... فقد بلغنا على ألسنة الثقات أنه هلك في يوم واحد بتونس ألف نسمة). وقال المقريزي (السلوك ج٢ق٣ص ٧٧٧) : (وعم الموتان أرض إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها،=

هذا الوباء اشتداد الغلاء (حتى بيع قفيز القمح بثمانية دنانير)[1]، وزاد في حدة المشاكل التي واجهها هذا السلطان السيئ الحظ، وصول الأخبار إليه بأن ابنه أبا عنان الذي كان قد استخلفه نائباً عنه في المغرب الأقصى قد خلعه وبويع بالخلافة، فعزم على العودة إلى بلاده، وركب البحر مغادراً تونس، وفي الطريق هبت على أسطوله عاصفة قوية دمرته ولم ينج إلاّ هو ونفر قليل من جنده وكانت نهايته أن مات شريداً في جبل هنتانة بالمغرب الأقصى، طريد ابنه وذلك في سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م بعد أن هزمه في عدة معارك جرت بينهما[2]، وبذلك باءت هذه المحاولة الجادة لتوحيد المغرب العربي بالفشل.

وأما إفريقية فقد وقعت بعد رحيل أبي الحسن فريسة مزيد من الفوضى والاضطراب سيما وأنها كانت وقتئذٍ قد خلت من سلطان، وتغلب الأعراب على نواحيها، (وتنازع رؤساؤهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساربه. . . حتى لقد حدثتهم أنفسهم بالخلافة)[3] فتقدم الأمير أبو العباس الفضل بن أبي يحيى أبي بكر أمير بونة ليملأ هذا الفراغ، فدخل تونس وبويع بها في ٢٩ ذي القعدة سنة ٧٥١هـ / ١٥٣١م ولكنه لم يستطع ضبط أمور الدولة فلم يمكث في الحكم تبعاً لذلك إلاّ خمسة أشهر ونصف تقريباً إذ

= وجافت من الموتى، وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها، ثم أصاب الغنم داء، فكانت الشاة إذا ذبحت وجد لحمها منتناً قد اسود، وتغير ريح السمن واللبن وماتت المواشي بأسرها...)، ويكرر أبو المحاسن (المصدر السابق ج ١٠ ص ٢٠٠) نحو هذا القول، أما ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ٥٧) فيقول عنه : (. . . إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور، وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله . . .) وقال ابن أبي دينار (المصدر السابق ١٤٧) : (وكثر الوباء حتى انتهى عدد الأموات ألف شخص كل يوم). لمزيد من التفصيل عن هذا الوباء وآثاره انظر المقريزي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٧٥ وما بعدها، أبو المحاسن : المصدر السابق ج١٠ ص١٩٥ وما بعدها، علي بن خاتمة : المصدر السابق ورقة ١ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٣٠ وما بعدها، فيشر : المرجع السابق ق ٢ ص ٣٠٦ وما بعدها، د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص ٤٩٦، R.S.Lopez : Op. Cit., P.164.

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٧.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨٧، الزركشي : المصدر السابق ص ٩١، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٢٨.

أطاح به ابن تفراجين بالتواطؤ مع عمر بن حمزة شيخ أولاد أبي الليل الهلالية(١) واستبدله بـأخيه أبي إسحق إبراهيم الذي كان غلاماً صغيراً فاستبد عليه ابن تفراجين(٢)، ومع أن ابن تفراجين بذل كل جهده للقضاء على الفتن، إلاّ أنه لم يفلح، وظلت الأوضاع في تردي متواصل، وفي عهد هذا السلطان كانت حملة الجنويين على طرابلس الغرب كما سيأتي ذكره، كما عاد الخطر المريني يهدد الدولة الحفصية من جديد، إذ زحف السلطان أبو عنان على بجاية سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م واحتلها(٣) وعندما تمردت عليه في العام التالي عاد إليها وأخضعها في سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وبعد فترة وجيزة استولى على قسنطينة والزاب في سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م، ويبدو أن ابن تفراجين أراد وقتئذٍ مدافعة السلطان المريني بالحسنى فأرسل إليه هدية جليلة مع رسالة يعلمه فيها أنه دخل في طاعته، ولكن أبا عنان الذي كان عازماً على تنفيذ مشروع أبيه بشأن توحيد المغرب العربي، لم يقنع بذلك من ابن تفراجين سيما وأنه كان يدرك أن المذكور إنما كان يخادعه بالكلام المعسول، فأرسل أسطوله إلى تونس لاحتلالها، فأظهر ذلك ابن تفراجين على حقيقته إذ أنه تصدى لهذا الأسطول وألحق

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٣ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٩١، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٢٨.

(٢) يصف ابن الحاج حال هذا السلطان مع حاجبه ابن تفراجين بأنه كان كالمحجور عليه إذ يقول : (وأما سلطانه بل محجوره الأمير إبراهيم بن أبي يحيى . . .) (ابن الحاج : فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم ٣٢٦٧ ورقة ٢١٤).

(٣) يفهم من روايات بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن القنفذ (ص ١٧٤) أن السبب في زحف أبي عنان على إفريقية هو أنه خطب ابنة السلطان أبي يحيى أبي بكر الحفصي أخت السلطان الجديد، ولكنها رفضته محتجة بأنه بلغها أن فيه قلقاً يمنع من عشرته، فأحفظه ذلك، ويفهم من رواية الزركشي (ص٩٧) أن هذا الرفض حدث بعد هذا الزحف وبالذات عندما أرسل أسطوله لاحتلال تونس، وفي اعتقادنا أن قول الزركشي هو الأقرب إلى الصواب، بدليل أن ابن الحاج مؤرخ تلك الحركة لم يشر إلى هذا الأمر في فيض العباب، وإنما علل الحركة بأن أبا عنان بعد عقده معاهدات سلام مع قشتاله وأرغونة وصقلية والبرتغال (انظر فيض العباب ورقة ٣٢ وما بعدها) تفرغ لإفريقية، فيقول : (فلم يبق إلا أن نصرف وجوه نصرنا إلى البلاد الشرقية، ونوفي في جبر أهلها المطيعين بالأذمة المرعية ونبتغي رضا الله سبحانه في إنقاذهم من الفتن والأخذ بأضباعهم من نوء الإحن وإذهاب ما ملأ تلك الأرض من الجور والظلم ودهمها من الخطوب الممضة الكلم).
ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ١٧ــ١٨.

به هزيمه شنعاء ومنعه من دخول البلد، ثم شاع في تونس خبر مفاده أن أبا عنان قد زحف بالجيش البري على العاصمة، فخشي ابن تفراجين من سوء العاقبة سيما وأنه كان يدرك عدم جدوى المقاومة، لذلك أخرج السلطان أبا إسحق مع أولاد أبي الليل، بينما فر هو إلى المهدية وتحصن بها، حينذاك تمكنت قوات أبي عنان البحرية من اقتحام مدينة تونس(١)، وفي أثناء ذلك كان ولاة الأقاليم بإفريقية يرسلون بطاعتهم وبيعتهم لأبي عنان، فوصلته بيعة ابن مكي عن قابس وطرابلس وسفاقس وقرقنة مع ابن سلمة الأندلسي(٢)، كما وفد عليه في قسنطينة شيوخ أعراب مناطق بجاية وقسنطينة والزاب ببيعتهم وحرضوه على احتلال تونس(٣).
ولكن الأمر تطور على غير ما كان يشتهي أبو عنان، ذلك أنه عندما عزم على الزحف إلى تونس خالفه جنده الذين كانت هزيمة أبيه لا زالت ماثلة في أذهانهم فاضطر إلى العودة إلى المغرب الأقصى(٤)، وعندما شعر أهل تونس بعجز أبي عنان عن الزحف على بلدهم، ثاروا بجند أسطوله الذين كانوا بين ظهرانيهم فهرع هؤلاء إلى سفنهم وغادروا البلد، فعاد السلطان الحفصي وحاجبه ابن تفراجين إليها في ذي القعدة سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٦م، وبذلك فشلت المحاولة المرينية الثانية لتوحيد المغرب العربي. وظل أبو إسحق في الحكم حتى توفي في ١٢ رجب سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م دون أن يتمكن من حسم الأدواء التي كانت تفت في عضد إفريقية، بل وبلغ من ضعفه وتخاذله أن استسلم لابتزاز ملك أرغونة وأعاد دفع الأتاوة

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٧١، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣١ـ ١٣٢، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٧، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٨. أما ابن الحاج (المصدر السابق ورقة ٢١٠ وما بعدها)، فيذكر أن أسطول أبي عنان الذي أرسله إلى تونس بقيادة عبد الله بن ظاخم عندما وصل إليها وهاجمها حاول ابن تفراجين مقاومته لكنه هزم ودخل المرينيون المدينة مما اضطر ابن تفراجين للفرار إلى المهدية، فهو بذلك لا يذكر صد ابن تفراجين لهذا الهجوم في بداية الأمر. وما نراه أن ابن الحاج الذي كان كاتب السلطان أبي عنان أخفى حقيقة صد الهجوم مجاملة لسلطانه.

(٢) ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ١١٥.

(٣) ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ٢٠٠ـ٢٠١.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ٣٣٠ وما بعدها. ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ص ٣٧٢، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٥. ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٢، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٧ـ٩٨.

السابقة لخزينة صقلية والتي كانت الدولة الحفصية قد منعتها فترة طويلة، وتولى بعده ابنه أبو البقاء خالد، فولى حجابته لأحمد اليالقي الذي استبد بأمور الدولة ولم يترك منها للسلطان شيئاً يذكر، وانتهب أموال الناس وأهان الأشراف فعظم ذلك على الناس واضطربت الأوضاع، الأمر الذي جعل العديد من رجالات الدولة يفدون على أبي العباس أحمد والي قسنطينة يستحثونه على الزحف على تونس[1]. وبالفعل نهض أبو العباس إلى العاصمة، وعندما وصلها فر السلطان خالد وصحبه منها، فلحق بهم جند أبي العباس وقبضوا عليهم حيث وجه به بعد ذلك هو وأخوه إلى المغرب بحراً فهبت عاصفة على سفينتهما فماتا غريقين، أما أبو العباس فقد دخل تونس وبويع بها بالخلافة في ١٢ ربيع الآخر سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. وبتولي هذا السلطان العرش يبدأ عهد جديد للدولة الحفصية.

يتضح من هذا العرض الموجز لأوضاع إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول ولحين تولي أبي العباس أحمد الثاني عرش الدولة الحفصية، أنها مرت بعهد مظلم سادته الفوضى والفتن والحروب مما أفقدها قسطاً كبيراً من قدرتها على المقاومة ضد ما كانت تدبره لها الحركة الصليبية المتربصة بها، فتعرضت خلاله تبعاً لذلك لسلسلة من الاعتداءات الصليبية بدأها ملك أرغونة الذي كان الأكثر طمعاً فيها في تلك الفترة من باقي القوى الصليبية الأخرى.

محاولة احتلال قسنطينة :

سبق أن ذكرنا أن سياسة مملكة أرغونة للاستيلاء على إفريقية قامت على ثلاث دعائم رئيسية، هي الاستفادة من وضع الحرس السلطاني في البلاط الحفصي، ثم نشاط حركة التنصير،وكانت ثالثتها هي اللجوء إلى القوة العسكرية، وقد سبق أن ذكرنا أن نصف القرن الممتد من بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر شهد أوج نشاط ملوك أرغونة في التدخل في شؤون إفريقية أثناء تعرضنا لبحث الدعامتين الأوليين، ورأينا أن ملوك أرغونة قد ساندوا العديد من الأمراء الحفصيين في الوصول إلى العرش ليملوا عليهم السياسة التي تتفق مع مصالحهم وأهدافهم الصليبية، وقد واكب هاتين الدعامتين، الدعامة الثالثة لتلك السياسة والتي تمثلت في استخدام القوة

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٥٠.

العسكرية، وبذلك كان نشاط ملوك أرغونة في إفريقية وقتئذٍ يعبر تعبيراً صادقاً عن الأفكار الصليبية التي شاعت في تلك الفترة والتي كانت تنادي بوجوب استخدام الصليبية بوجهيها السلمي والعسكري لتحقيق أهداف الحركة الصليبية فكانوا بذلك نموذجاً ممتازاً لما ينبغي أن يكون عليه الصليبي في رأي أصحاب تلك الأفكار، وما يقع تحت هذا النشاط ليس فقط مساندة المطالبين بالعرش في الوصول إلى الحكم، وإنما أيضاً دعم الثوار وذوي الطموحات الاستقلالية عن الدولة الحفصية في ذلك العهد المضطرب على أمل إيجاد موطىء قدم لهم في إفريقية يكون نقطة انطلاق لهم للتوسع فيما بعد. وقد وجدت الحركة الصليبية في ملوك أرغونة خير منفذ لمخططاتها في تلك البلاد بعد أن أخفقت حملة لويس التاسع عليها في الوصول إلى الهدف المنشود. ومن هذا المنطلق انبثقت محاولة احتلال قسنطينة.

فعندما اعتلى الأمير أبو إسحق إبراهيم العرش الحفصي بمساندة بطرس (بيدرو) الثالث ملك أرغونة كما سبق ذكره، أسند المذكور ولاية قسنطينة، وهي من الولايات الهامة في إفريقية(١)، لشخصية معروفة في ذلك الوقت هو ابن الوزير(٢) فضبط أمورها، وعندما رأى هذا الوالي اضطراب الأمر على السلطان أبي إسحق وظهور الدعي حدثته (نفسه بالامتناع بها والاستبداد على الدولة)(٣) فامتدت يده إلى أموال الناس بالغصب والمصادرة دون خشية أو ملل(٤) مما جعل أهلها يجأرون بالشكوى إلى السلطان. ويقول ابن القنفذ أنهم كتبوا فيه إلى السطان (عقداً مشهوداً بشهودها أنه ارتد وأكل الخنزير وأنه ظهر منه ما يدل على نفاقه

---

(١) مدينة قسنطينة كانت من أكثر مدن إفريقية حصانة، وقد أسهب الجغرافيون والرحالة المسلمون في وصف هذه الحصانة، وتبعاً لذلك أصبحت في فترات من عهد الاضطراب الآنف الذكر مركزاً لفرع حفصي ثالث بالإضافة لفرعي تونس وبجاية. انظر وصفها في الشريف الإدريسي : ص٦٧– ٦٨، ياقوت : ج ٤ ص ٣٤٩، مجهول : كتاب الاستبصار ١٦٥، العبدري : ص١٣٧، الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٢٧.

(٢) يقول ابن خلدون : إن اسم هذا الوالي هو أبو بكر بن موسى بن عيسى ونسبته في كومية من بيوت الموحدين، كان مستخدماً لابن كلداني في قسنطينة فكان له غناء وصداقة فولاه الواثق عليها واتصلت ولايته في عهد أبي إسحق إبراهيم حيث أقره عليها.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠.

(٤) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

من رد الأوامر السلطانية، وأنه وضع يده في أهل البلد بالنهب)[1] وتاريخ ذلك الكتاب حسب ما يذكره ابن القنفذ هو ٢٧ رمضان سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م[2]، ولكن أبا إسحق نظراً لانشغاله في تثبيت سلطانه سيما وأنه لم يكن قد مضى على اعتلائه العرش إلاّ فترة وجيزة، وخوفه من امتناع ابن الوزير بقسنطينة إذا صدر من السلطان ما يسيء إليه، ثم انشغاله بمواجهة ثورة الدعي بعد ذلك، ثم كتابة ابن الوزير إليه بالاعتذار وإنكار ما رمي به من التهم، كل ذلك جعل السلطان يهمل هذه الشكوى[3]. الأمر الذي زاد من شدة وطأة ابن الوزير على الناس من ناحية، وقوى عزمه على الاستقلال من ناحية ثانية، إذ ترجح لديه عجز السلطان عن معاقبته سيما وأن ثورة الدعي كانت وقتئذٍ قد استفلحت.

لقد تجمعت لدى ابن الوزير عدة عناصر من مقومات النجاح لحركته، في مقدمتها حصانة قسنطينة ومناعتها، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وعلم أن قسنطينة معقل ذلك المصر وحصنه فحدثته نفسه بالامتناع بها)[4]، هذا فضلاً عن كثرة الأموال التي تجمعت لديه واللازمة له لاستئلاف الجند من البربر والأعراب من ناحية ثانية، يضاف إلى ذلك الجند النصارى الذين كانوا لديه والذين شرع في الاستكثار منهم ليكونوا له عوناً على ما اعتزمه، من ناحية ثالثة، ومع ذلك فقد كان ينقصه عنصر له أهميته البالغة في النجاح المنشود هو العصبية القوية التي لا بد من توفرها لديه ليستند إليها أسوة ببني مرين وبني زيان (عبد الواد) وبني حفص حكام دول المغرب العربي في ذلك الوقت الذين كانوا يستندون لعصبيات قوية، فضلاً عن أن سياسته الغاشمة أحفظت أهل بلده عليه فأصبحوا يتمنون الخلاص منه. وهداه تفكيره للتغلب على هذه الصعوبة باللجوء إلى قوة أجنبية تسانده، ولما كان نشاط مملكة أرغونة في إفريقية وقتئذٍ آخذاً في الازدياد، فقد رأى أنها هي خير من يعينه على تحقيق هدفه، سيما وأن ملكها الجديد بطرس (بيدور) الثالث قام لتوه بمساندة أبي إسحق في الوصول إلى العرش الحفصي، لذلك تطلع هو الآخر لمساندته دون أن يدرك على ما يبدو

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

(٣) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩. انظر أيضاً ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣٠٠.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠.

الأبعاد الحقيقية لمطامع ملوك أرغونة في إفريقية، ولا يستبعد أن يكون بعض جنده النصارى هم الذين زينوا له مدّ يده إلى ذلك الملك، وعلى أية حال، فإنه حينما استقر على هذا الرأي لجأ إلى الوسيلة التي تغري القوى الصليبية عادة ومنها ملوك أرغونة أعني الإيهام بالرغبة في التنصر، فكان أن أوهم بيدرو الثالث بذلك ليدفعه لمساعدته[1]، واتصل به يطلب منه مساعدته بجيش (من النصارى يكون معه في ثغره يردّد بهم الغزوَ على أن يكون فيما زعموا داعية له)[2] وليهون الأمر عليه لم يشتط في مطالبه فأعلمه أنه إذا ما نزل بمرسى القل الذي لم يكن بينه وبين قسنطينة إلاّ مرحلتان بجيش من ثمانمائة فارس وألفي راجل فإنّ طريق قسنطينة سيكون مفتوحاً أمامه[3].

لقيت دعوة ابن الوزير هذه اهتماماً كبيراً من ملك أرغونة، فجمع رجالات دولته واستشارهم في الأمر، فأجمعت الغالبية العظمى منهم على عدم تلبية هذه الدعوة وعدم المخاطرة في مغامرة غير مأمونة العواقب، ولكن هذا الملك الطموح لم يشأ أن يترك هذه الفرصة النادرة تفلت من يده، لذلك أصم أذنيه عن نصائح مستشاريه، وأرسل لابن الوزير يعلمه بموافقته على إنجاده وأنه سيحضر إليه بنفسه عند استكمال استعداداته، وبالفعل باشر على الفور في الاستعداد للرحيل. ويقول أحمد توفيق المدني نقلاً عن المؤرخ القطلاني برنارد دسكلوت الذي يرجع إليه الفضل الأول في تسجيل أخبار هذه الحملة تفصيلياً ، بأن ملك أرغونة حينما قبل دعوة ابن الوزير وضع في اعتباره أن الجند النصارى الذين كانوا في

(١) لقد سبق أن ذكرنا أن موضوع التنصر كان خدعة سياسية يلجأ إليها من يتطلعون لمساعدة النصارى في تحقيق مطامعهم وطموحاتهم، ومع أن النص الذي ورد في رواية ابن القنفذ من أنه ارتد وأكل الخنزير يكاد يؤكد تنصره، إلا أننا ينبغي ألا نقبل هذا القول كحقيقة مسلم بها بالرغم من سعة اطلاع ابن القنفذ على تاريخ قسنطينة بحكم أنها بلده ولمكانة أسرته فيها، ذلك أن أحداً غيره من المؤرخين المسلمين لم يتعرض لهذا الموضوع والذي يستبعد لوحدث بالفعل أن يغفلوا ذكره، وحتى لو افترضنا أنه اطلع على كتاب أهل قسنطينة الذي أرسلوه للسلطان لكونه هو الوحيد الذي ذكر تاريخه، فإنه يمكن اعتبار ذلك من قبيل التشنيع على هذا الوالي لإثارة السلطان عليه، إذ من غير المعقول أن يجاهر بتنصره في بلد إسلامي حتى لو كان قد تنصر بالفعل قبل وصول قوة أجنبية تحميه من غضب المسلمين.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠، انظر كذلك ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

(٣) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة عام بين إسبانيا والجزائر ص ٣٥٣.

خدمة حكام دول المغرب العربي في تلك الآونة والذين قدر ذلك المؤرخ عددهم بمائة ألف جندي[1] سيلتفون حوله عندما يصل إلى إفريقية[2]، الأمر الذي يعتبر دليلاً آخر على صحة ما ذهبنا إليه من أن وجود هؤلاء الجند في بلاطات حكام المغرب إنما كان مشروعاً صليبياً. كما وضع ملك أرغونة في اعتباره أمراً آخر هو أن السلطان أبا إسحق الحفصي لن يقف في وجهه نظراً لمساندته إياه في الوصول إلى العرش.

حشد بيدرو الثالث ثمانمائة فارس وثلاثة آلاف راجل أغلبهم من (الموكارس)[3] وعبر بهم البحر إلى جزيرة ميورقة حيث توقف بها بضعة أيام للاستراحة ومراجعة الخطط العسكرية، وقد تسربت أنباء هذه الحملة إلى أمير جزيرة منورقة[4] الذي كان يراقب تحركات الأساطيل الصليبية وخاصة أسطول أرغونة دوماً وباهتمام شديد خوفاً من هجوم مفاجىء يشن على بلاده[5]، وعندما علم من عيونه الذين كانوا مبثوثين في ميورقة بنية ملك أرغونة، أرسل

---

(١) من الملاحظ أن في هذا الرقم مبالغة واضحة، إذ أن عدد هؤلاء الجند لم يصل في أي وقت من الأوقات حتى إلى خمس هذا الرقم.

(٢) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ص ٣٥٣.

(٣) الموكارس : لفظ أطلقه نصارى الإسبان على مواطنيهم الذين أسلموا بعد الفتح ثم تنصروا عند احتلال النصارى لبلادهم إما رغبة وإما رهبة وفراراً من اضطهاد النصارى لهم، ويقول المؤرخ القطلاني دسكلوت عنهم أنهم كانوا قوماً لا يعرفون الحياة إلا بواسطة السلاح، ويتركون حياة المدن والقرى ويسكنون الجبال الشاهقة بين الصخور ويحترفون الحرب ضد المسلمين.
(انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٤).

(٤) كانت جزيرة منورقة، إحدى الجزائر الشرقية – جزر البليار – لا تزال وقتئذ جزيرة إسلامية، إذ ظل أميرها أبو عثمان سعيد بن الحكم الأموي (ت سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م) ثم ابنه الحكم بن سعيد من بعده يقاومان الهجمات الأرغونية على تلك الجزيرة حتى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م حينما سقطت في يد ملك أرغونة، بينما كانت شقيقتاها ميورقة ويابسة قد سقطتا قبل ذلك بوقت طويل في يد خايمي الأول ملك أرغونة (سقطت ميورقة سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، ويابسة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م) وعلى ذلك يكون أمير ميورقة الحكم بن سعيد هو الذي أرسل ينذر أهل القل بحملة بيدرو الثالث وليس أمير ميورقة كما يقول أحمد توفيق المدني (ص٣٥٤) ذلك أنه لم يكن لميورقة وقتئذ حاكم مسلم كما يقول بل كان ملكها هو خايمي بن خايمي الأول وشقيق بيدرو الثالث ملك أرغونة.

(٥) مما يدل على يقظة هذا الأمير ما ذكره ابن الخطيب (أعمال الأعلام – ق٢ص ٢٧٥–٢٧٧) من أنه كان يقتل شارب الخمر بدلاً من إقامة حد الخمر عليه بالجلد كما يقضي الشرع الإسلامي، وحينما احتج عليه المحدث ابن مفوز بأنه تعدى حدود الله أجابه بقوله : (يا فقيه هذه جزيرة كثيرة العنب،=

رسلاً في سفينة خفيفة إلى مرسى القل لينذروا و أهلها بقرب هجوم ذلك الملك على بلدهم ، وأوصى هؤلاء الرسل أن يبذلوا قصارى جهدهم للوصول إلى القل قبل الأسطول الأرغوني وأن يتجنبوا محاذاة ذلك الأسطول أو الاقتراب منه. فأسرع الرسل إلى القل وأدوا رسالتهم لأهلها، ولما لم يكن لدى أهل هذا المرسى الوقت الكافي للاستعداد لمواجهة الهجوم المرتقب سيما وأنه لم يكن به من التحصينات والأسوار[1] ما يساعدهم على المقاومة، لم يجدوا بداً من الرحيل عن بلدهم حتى إذا ما وصل الأسطول الأرغوني إليها في سنة ٦٨١هـ/٢٨ يونيو سنة ١٢٨٢م وجدها خالية تماماً من السكان فنزل بها وشرع في تحصينها لاتخاذها مركزاً لعملياته[2].

ولكن كانت هنالك مفاجأة تنتظر ملك أرغونة لم يكن قد وضعها في اعتباره، ذلك أن ابن الوزير حينما علم باستجابة ملك أرغونة لمطلبه، تعجل الأمر وأعلن الثورة في قسنطينة ولم ينتظر وصول منجده، ويبدو أن السلطان أبا إسحق شعر باتصالات ابن الوزير مع ملك أرغونة فأدرك أبعاد هذه الثورة، لذلك وبالرغم من انشغاله بمواجهة ثورة الدعي التي كانت وقتئذ في عنفوانها، بادر إلى العمل على القضاء على ثورة ابن الوزير فأوعز الى ابنه أبي فارس والي بجاية للنهوض بسرعة إلى قسنطينة، فسار أبو فارس إليها وحاصرها في غرة ربيع الأول سنة ٦٨١هـ/٩ يونيو سنة ١٢٨٢م، وحاول ابن الوزير خداع المذكور ومطاولته ريثما تصل إليه النجدة المرتقبة، فأرسل وفداً من أهل البلد قابل أبا فارس وحاول ثنيه عن عزمه ولكن دون جدوى[3] وظل على تصميمه. ولم يطل الحصار إذ أن أهلها الذين كانوا يمقتون ابن الوزير ساعدوا أبا فارس فاقتحمها وقتل ابن الوزير وأخاه وأعوانهما وعلق رؤوسهم على أسوار المدينة[4]، وطير الخبر لأبيه في تونس لطمأنته[5] ثم دخل البلد وتمشى في سككها (مسكناً

= والناس يشربون الخمر بها ويسكرون، فيضيعون الاحتراس فيظهر علينا العدو).

(١) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٢٦.

(٢) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص٣٥٤ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠-٣٠١، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩-١٤٠، أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٥.

(٥) يقول ابن القنفذ : (المصدر السابق ص ١٤٠) أنَّ أبا فارس ضرب عنق ابن الوزير وأخيه يوم الجمعة ٨ ربيع الأول سنة ٦٨١هـ وأرسل برأسيهما إلى تونس.

ومؤنساً وأمر برم ما تثلم من الأسوار وبإصلاح القناطر[1] ، ثم عاد إلى بجاية بعد إقامة في قسنطينة دامت ثلاثة أيام. حدث ذلك قبل وصول بيدرو الثالث إلى مرسى القل بتسعة عشر يوماً فقط، فكان ذلك هو السبب الرئيسي في إخفاق المذكور في مسعاه، إذ لو وصل قبل موت ابن الوزير كما كان مقرراً وتم التنسيق بينهما لتعقدت المشكلة واستحال حلها بسهولة.

أدرك ملك أرغونة أن احتمال فشل خطته أصبح كبيراً بموت ابن الوزير، ولكنه لم يرغب في التراجع قبل الحصول على نتيجة تحفظ عليه ماء وجهه، وتغفل المصادر التاريخية الإسلامية ذكر الحوادث التي تلت نزول بيدرو الثالث بمدينة القل، ولولا ما ذكره المؤرخ القطلاني دسكلوت عن هذه الحوادث لظلت مجهولة بالنسبة لنا، فيذكر المؤرخ المذكور أنه عندما نزل الأرغونيون بمدينة القل أحاط المسلمون بها وأخذوا يراقبون تحركات أعدائهم من المرتفعات المطلة على المدينة دون أن يجازفوا بالاقتراب إلى حد يؤدي إلى الاشتباك معهم، ويبدو أن بيدرو الثالث كان يعي تماماً ما تعنيه هذه الخطة المتمثلة في حصره داخل المدينة ومن ثم شن غارات متلاحقة ومفاجئة على جنده في وقت تكون فيه العوامل الجويه وقلة التموين ورداءته تفعل فعلها في تثبيط عزائم الجند وهممهم كما حدث إبان حملة لويس التاسع على إفريقية التي لم يكن قد مضى عليها وقت طويل آنذاك الأمر الذي سيضطره في النهاية إلى الانسحاب خالي الوفاض هذا إذا لم تحل به وبجنده كارثة كتلك التي حلت بالملك الفرنسي وجيشه، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن إحرازه نصراً مبكراً سيكسبه عطف الحركة الصليبية ومساندتها لذلك رأى أن يتعجل الصدام مع المسلمين بقدر المستطاع، فأرسل إليهم يقول بأنه قدم لحربهم[2]، ويطلب منازلتهم، ولكن المسلمين الذين كانوا ينتظرون قدوم النجدات من النواحي التي استنفروها عندما نزل العدو بأرضهم بدوا غير متعجلين في أمرهم لذلك ردوا عليه بأنهم لا زالوا يتشاورون في الأمر، وأنهم ينتظرون تعليمات السلطان في تونس إذ إنهم أرسلوا يخبرونه بأمر الحملة، ومع ذلك فإنهم على استعداد للدخول معه في مفاوضات لعقد الصلح بينهم وبينه بحيث يرحل بجنده لقاء مبلغ من المال يدفعونه إليه[3].

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ٦ ص١٣٠١.
(٢) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٦.
(٣) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٦.

ولم يقتنع بيدرو الثالث الذي كان يعلق الآمال الكبيرة على هذه الحملة بهذا الرد الذي يجعل تلك الحملة لا تختلف كثيراً عن غارات القراصنة، فاستقرا رأيه على جرهم للحرب، لذلك أرسل سريه من جنده للاستكشاف وتقدير مدى قوة واستعداد المسلمين ومناوشتهم، وعندما رأى المسلمون هذه السرية قادمة نحوهم أدركوا أن الملك الأرغوني قرر البدء في هجومه، فاشتبكوا معها، وحينما علم بيدرو الثالث بأمر هذا الاشتباك أوعز إلى فصائل من جيشه للتقدم نحو المرتفعات من طرق جانبية، في حين تقدم هو بفصائل أخرى ليشد من أزر تلك السرية بعد أن ترك عدداً كافياً في المدينة لحمايتها ولم يشعر المسلمون إلاّ وقد أحيط بهم من كل جانب ودارت بين الطرفين معركة حامية غير متكافئة لأن المسلمين كانوا قلة وعلى غير أهبة تامة للحرب، لذلك لم تنفعهم شجاعتهم واستبسالهم فاستشهد القسم الأكبر منهم ووقع البعض في الأسر بينما فر البعض الآخر. أما ملك أرغونة فقد شجعه هذا الانتصار على مواصلة زحفه في أثر المسلمين، وعلى مسيرة ثلاث ساعات من أرض تلك المعركة وجد مدينة أخرى أخلاها المسلمون، وأعجلتهم سرعة الإخلاء عن نقل ما فيها فوجد مخازنها مملوءة بالقمح وأصناف الحبوب والكتان والحرير وغير ذلك، فأباحها لجنده ينهبون منها كيفما شاؤوا إلاّ الحرير الذي استأثر به لنفسه. وبعد أن نهبوا منها ما قدروا على حمله أمر بإضرام النار فيها وكر راجعاً إلى القل يجر وراءه غنيمته من السلع والمواشي والأسرى[1]. ولكن نتيجة تلك المعركة لم توهن عزم المسلمين على قتال العدو كما توهم بل بدوا أكثر تصميماً عن ذي قبل على حربه، إذ ما أن عاد إلى القل حتى أخذت جموعهم تحتشد في الجبال من جديد وبأعداد كبيرة ناهيك عن توالي وصول النجدات عليهم وأخذوا يشنون غاراتهم السريعة والمفاجئة على جيشه فيكبدونه الخسائر ثم ينسحبون إلى الجبال حتى نفذ صبر الملك الأرغوني وقرر الاشتباك معهم في معركة كبيرة أخرى علهاّ تريح جنده من هذه المضايقات المتلاحقة، فزحف بجنده نحوهم، وقد حاول المسلمون التصدي للغزاة ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمامهم طويلاً لأن أولئك كانوا يتسلحون بالأسلحة الثقيلة ويتقنون حرب الصدام أكثر من المسلمين الذين كانوا يعتمدون أسلوب الكر والفر، فلم يجدوا بداً من التراجع والاعتصام بالجبال مرة ثانية[2] الأمر

(١) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٦.
(٢) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٧.

الذي جعل بيدرو يكف عن ملاحقتهم في تلك الجبال لما في ذلك من خطورة أكيدة على جيشه.

لم يغب عن ذهن الملك الأرغوني أن متابعة الحرب بهذا الأسلوب لن تكون في صالحه على المدى الطويل، وأن احتلال مدينة واحدة لن يقنع الحركة الصليبية بالتعاطف معه، ولذلك عقد مجلس حربه لتدارس الأمر حيث طرح اقتراحاً بالزحف لاحتلال قسنطينة للبحث، مبيناً للحضور بأنه إذا ما احتل تلك المدينة فإنه يكون قد استولى على جزء هام في إفريقية ومن ثم يمكنه التوسع في المستقبل للاستيلاء عليها بالكامل، وفي ذلك الخير والبركة لمملكته وللمسيحية جمعاء حيث (يكون فيها اسم الرب ممجداً ومشرفاً)[1]، وأكد لهم بأنه من جانبه سيرسل رسله إلى البابا ليحث ملوك أوروبا على مده بجيش قوي يعينه على استكمال خططه، فوافقه هؤلاء على رأيه وأبدوا استعدادهم للقتال حتى الموت في سبيل المسيحية. وقام بالفعل بإرسال رسول إلى البابا أطلعه على ما جرى بالنسبة لتلك الحملة موكداً له بأن ملكه قد احتل مدينة القل وأحرز انتصارات كبيرة على المسلمين ولذلك فهو يطلب عونه لتحقيق المزيد من تلك الانتصارات والاستيلاء على إفريقية بالكامل وإعادتها للمسيحية. ولكن البابا الذي كان وقتئذٍ مشغولاً بأمر دعم الصليبيين في المشرق من ناحية، وللشكوك التي ساورته في مدى صحة ما قاله ذلك الرسول إلى حد أنه لم يخف تلك الشكوك عن الرسول نفسه إذ قال له بأنه ليس على يقين من أن ملكاً صغيراً كملك أرغونة قد استطاع احتلال شيء من إفريقية أو أنه يستطيع عمل ما لم يقدر عليه ملوك أوروبا العظام[2] من ناحية ثانية، بدا غير راغب في قطع أي وعد على نفسه بتقديم أي مساعدة، لذلك عاد الرسول إلى بيدرو خائباً، مما جعل المذكور يفقد الأمل في الحصول على المعونة التي كان ينشدها من أوروبا. وزاد من حرج موقفه أن المقاومة الإسلامية كانت آخذة في الاشتداد فأيقن أنه كتب لحملته الفشل.

وتسوق إليه الصدفة حلاً مشرفاً ينقذه من المأزق، إذ في تلك الآونة قدم إليه وفد من

---

(١) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص٣٥٧ .

(٢) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص٣٥٧ .

نصارى صقلية يطلب منه مساعدتهم للتخلص من الملك الأنجوي وأعوانه الفرنسيين الذين أرهقوا الجزيرة[1]، ويقدم له مقابل ذلك عرشها، ووعده بأنهم سيقدمون له كل ما يستطيعون من مساعدات إذا ما قبل ذلك العرض، فرحق بيدرو بهذا العرض الذي كان فوق ما تمناه لإنقاذه من ورطته، وشرع في الاستعداد للرحيل. وبعد ثلاثة أيام فقط صعد جنده إلى مراكبهم بعد أن نهبوا ما أمكنهم نهبه من المدينة وأضرموا فيها النار من مائة موضع، وأقلعوا عنها والنار تشتعل في أرجائها، وعندما جاء المسلمون إليها وجدوها قاعاً صفصفاً[2]. وبذلك فشل مسعى ملك أرغونة في احتلال قسنطينة والاستقرار في إفريقية، وقد عبر ابن خلدون عن هذه النتيجة بقوله: (وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير فأخفق مسعاهم)[3].

احتلال جزيرة جربة :

بالرغم من فشل بيدرو الثالث في الاستقرار في القل واحتلال قسنطينة، إلاّ أن ذلك الفشل لم يضع حداً لمطامعه في إفريقية سيما وأن ظروفها الداخلية كانت مشجعة له على مواصلة العمل في سبيل تحقيق تلك المطامع هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن ضم صقلية لمملكته جعله يقترب من إفريقية أكثر من السابق وأوجد لديه حافزاً قوياً آخر لبسط نفوذه عليها، ثم اعتقاده بأن أبا حفص عمر السلطان الحفصي الجديد الذي اعتلى العرش بمساعدة منه هو صنيعته فضلاً عن أنه كان أضعف من أن يتصدى له من ناحية ثالثة، ولذلك أخذ أسطوله – الذي كان يعتبر وقتئذ القوة البحرية الثالثة في حوض البحر

---

(١) سبق أن بينا كيفية اعتلاء شارل أنجو عرش الصقليتين، وكان ينيب عنه في حكم صقلية نائباً شبه مطلق الصلاحية يعاونه فرنسيون من إداريين وحامية عسكرية، وقد فرض هؤلاء الفرنسيون على الجزيرة حكماً استبدادياً غاشماً وأخضعوا أهلها للإرهاب الأمر الذي دفع أهل الجزيرة للثورة ودبروا مذبحة كبيرة للفرنسيين في ٣٠ مارس ١٢٨٢م راح ضحيتها العديد منهم هي التي عرفت بمذبحة Vepres Siciliennes وأما سبب اتجاه الصقليين إلى بيدرو الثالث، فذلك يعود إلى أنه كان زوج ابنة مانفريد بن فردريك الثاني. وبهذا الزواج اكتسب حق المطالبة بعرش الجزيرة ودخل معترك الصراع مع فرنسا وإنكلترا على ذلك العرش كما سبق أن أشرنا إليه.
(انظر شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص ١٨٢. فيشر: المرجع السابق ق ٢ ص ٤٣٩).

(٢) انظر أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٨.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠١.

الأبيض المتوسط[1] بعد البندقية وجنوة - يجوب البحر قبالة سواحل إفريقية وجزرها ويشن غاراته عليها كلما واتته الفرصة لا سيما جزيرة جربة التي ألح في هجومه عليها نظراً لأهميتها البالغة كونها هي الأكثر صلاحية لاتخاذها قاعدة لعملياته العسكرية، ويعبر ابن خلدون في معرض حديثه عن السلطان أبي حفص عمر عن ذلك بقوله : (كان من أعظم الحوادث تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحريه)[2]. ومن الملاحظ في هذا المقام أن ملك أرغونة أخذ يتتبع نفس الخطى التي سار عليها رجار الثاني من قبل حينما استولى على ساحل إفريقية، فكان قائد أسطوله رجار دي لوريا (Roger di Loria) يوجه ضربة في ناحية ثم يسارع لتوجيه ضربة أخرى في ناحية ثانية وهو في غضون ذلك لم يكن يغفل عن جربة، بل كان يرقب فيها الغرة مثلما كان يفعل جرجي الأنطاكي، لقد هاجمها مراراً ولكن مقاومة أهلها الشديدة كانت تضطره للتراجع عنها[3]، وفي سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م هاجم قابس ففشل في احتلالها ولكنه تمكن من أسر عدد من أهلها، وفي سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م هاجم مرسى الخرز واحتلها بعد أن ثلم أسوارها ثم نهبها وحمل كثيراً من أهلها أسرى وغادرها بعد أن أضرم فيها النار، ثم حاول مهاجمة ميناء تونس بعد ذلك ولكن يقظة أهلها ومسارعتهم للتصدي له فوتت عليه الفرصة فارتد عنها خائباً[4] ليهاجم جربة من جديد وفي نفس ذلك العام إلا أنه أخفق أيضاً في احتلالها، فهاجم مدينة القل وتمكن من اقتحامها فأباحها لجنده الذين انتهبوها وتركوها خاوية[5]. وفي أوائل سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م عاد لمهاجمة جربة ففشل في احتلالها أيضاً، ولكنه عاد في شهر رجب من ذلك العام أي سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م لمهاجمتها بأسطول كبير من سبعين قطعة، وهب أهلها للدفاع عن بلدهم ولكنه هزمهم هذه المرة ونزل في الجزيرة حيث أباحها لجنده[6] فانتهبوها وأسروا كثيراً من أهلها عدا عن ما

(١) فيشر : المرجع السابق ج٢ ص ٤٣٩.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠٥ .

(٣) د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص ٢٣٣.

(٤) عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج٢ص ٣١.

(٥) عبد الرحمن الحيلالي : المرجع السابق ج٢ص٢١.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص٣٠٦، انظر أيضاً محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص١٠٢.
يذكر ابن القنفذ (المصدر السابق ص١٤٩-١٥٠) أن هذا الاحتلال جرى في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ويؤيده في ذلك الباجي المسعودي (ص ٦٧) وشارل أندري جوليان (ج٢ص١٨٣)، وما نعتقده=

قتلوه منهم ورموه في آبارها[١]، ويصف ابن القنفذ ما جرى وقتئذٍ بقوله : (وأسروا من الشاب القوي والشابة الحسناء ثمانية آلاف وقتلوا الضعفاء ونهبوا الأمتعة والأموال والزيت والزبيب فحملوا في سفنهم التي هي نحو السبعين وفي سفن الجزيرة والتي هي نحو الثلاثين . .)[٢] وأرسلوا بهذه الغنائم إلى صقلية، فروعت هذه الفظائع المسلمين حتى قال ابن خلدون إن تلك الواقعة كانت (من أشجى الوقائع على المسلمين)[٣].

وبعد أن اكتفى دي لوريا وجنده من أعمال النهب وارتكاب الفظائع بأهل الجزيرة فرض عليهم جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار[٤]، ثم بادر إلى العمل على إعدادها كقاعدة للأعمال المستقبلية فشرع في بناء حصنها الشهير على ساحلها القبلي المعروف بالقشتيل أو (قصطيل الواد) كما يسميه محمد أبو راس الجربي[٥]، وكما هو معروف في وقتنا الحاضر، وتدل آثاره الباقية على أنه كان حصناً منيعاً[٦]، والذي أصبح مقراً للحامية

= أن الصواب في جانب ابن خلدون الذي ذكر أن ذلك كان في سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، ذلك لأن ملك أرغونة كان في سنة ٦٨٣هـ لا يزال مشغولاً بأمر صقلية إذ كان النزاع وقتئذٍ لا يزال محتدماً بينه وبين شارل صاحب أنجو على عرش مملكة الصقليتين والذي كان لا يزال على قيد الحياة (ت في ٦ يناير سنة ١٢٨٥م) ذلك النزاع الذي أسفر فيما بعد عن تفسخ تلك المملكة إلى مملكة نابلي التي احتفظ بها الأنجويون، ومملكة صقلية التي فاز بها الأرغونيون. وتبعاً لذلك فإننا نستبعد أن يكون بيدرو الثالث قد شغل نفسه بأمر إفريقية قبل وفاة شارل أنجو وتصفية مشكلة صقلية.

كما وأننا لا نتفق مع محقق كتاب الأدلة البينة النورانية لابن الشماع الذي يقول (حاشية ١ ص٩٢) إن دي لوريا كان بعمارته في البحر فعرض على ضباطه احتلال جربة واعداً إياهم بغنم كبير فاهتزوا لذلك فرحاً، ذلك أنه جعل هذا الاحتلال كأنه صدفة أو فكرة طارئة وليدة ساعتها ، والحقيقة كما نراها هي أن ذلك الاحتلال كان بتخطيط وتصميم مسبق وكان من المقرر له أن يكون خطوة أولى في سبيل احتلال إفريقية بأسرها.

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٠٦.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٥٠، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٣.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.

(٥) محمد أبو راس الجربي : المصدر السابق ص ٧٣، ويسميه مؤرخو الدولة الحفصية مثل ابن خلدون والتجاني وابن الشماع وابن القنفذ والزركشي وغيرهم (القشتيل) ومن الواضح أن هذا اللفظ اشتق من الكلمة الاسبانية (Castillo) أي الحصن.

(٦) انظر وصفه في التجاني : المصدر السابق ص ١٢٨، كذلك رشيد غريب : برج الغازي مصطفى بجربة ص ٨٩.

الأرغونية، كما أصبح المرسى القريب منه في الجزيرة قاعدة للأسطولين الصقلي والأرغوني. وما أن علم بيدرو الثالث بأمر احتلال جربة حتى غمرته الغبطة واستبشر بإمكانية نجاح خططه في إفريقية، لذلك أنعم على دي لوريا بتنصيبه حاكماً على الجزيرة وأمره بمواصلة جهوده، فقام المذكور بمهاجمة باقي جزر إفريقية القريبة من جربة فاحتل جزر تفليسية وتاوسخت وبين البحرين[1]، ثم احتل قرقنة بعد ذلك، وبذلك سيطر على كامل بحر إفريقية، وأصبح من الطبيعي حينذاك إن يمد بصره إلى برها، فهاجم في العام التالي أي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م مرسى القل كما حاصر بونة (عنابة) ولكنه أخفق في احتلال أي منهما نظراً لشدة المقاومة التي واجهته فرجع عنهما ولم يفز بطائل[2]، ومع ذلك لم ييأس بل ظل يتابع هجماته التي كان من أهمها مهاجمته لمدينة المهدية.

مهاجمة المهدية :

كما أن جزيرة جربة هي أفضل قاعدة بحرية في بحر إفريقية لمن يتطلع للوثوب إلى برها، فإن المهدية بموقعها المتوسط وحصانتها كانت هي أفضل منطلق للتوسع في ذلك البر، ولهذا السبب كانت موضع تطلع القوى الصليبية الدائم لاحتلالها بدليل أن معظم الحملات الصليبية التي كانت توجه إلى إفريقية كانت تتجه إليها، ولم تكن هذه الحقيقة لتخفى على دي لوريا، ولذلك فإنه بعد احتلاله جربة بمدة وجيزة وفي عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م أو العام الذي يليه وكلا القولين لابن خلدون[3]، توجه بأسطول كبير لمهاجمة تلك المدينة، وما يفهم من رواية ابن أبي الضياف[4] ويؤيده في ذلك الباجي المسعودي[5] بأنه هاجمها مراراً قبل هذه المرة دون أن

---

(١) تدعى الجزيرة الأولى حالياً (القطاعية القبلية) والثانية (القطاعية البحرية).
انظر محمد أبو راس الجربي : المصدر السابق ص ٧٨-٧٩ والحواشي).

(٢) انظر عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١، أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦، أما ابن القنفذ (المصدر السابق ص ١٥٠) فيقول إن ذلك الهجوم جرى سنة ٦٨٦هـ، والأرجح في رأينا هو ما قاله ابن خلدون.

(٤) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٣.

(٥) الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٧.

ينجح في احتلالها، وقد حاول في هذه المرة أن يطرقها بغتة ليفاجىء أهلها، ولكن خاب ظنه إذ أنه وجدهم على أهبة لحربه، وحينما عاينوا أسطول العدو قادماً نحو بلدهم بادروا لمواجهته، كما أرسلوا يستنجدون بإخوانهم في النواحي القريبة منهم. واستبسلوا في الدفاع عن بلدهم، ولم يمكنوا العدو في الأيام الثلاثة الأولى من الاستقرار في البر. وفي اليوم الرابع ونتيجة لوصول النجدات إليهم شدوا على الأعداء والتحموا معهم واضطروهم للتراجع (حتى اقتحموا عليهم الأسطول)(١)، فأدرك دي لوريا عدم جدوى مواصلة الهجوم واستحالة احتلال المدينة هذه المرة، فانسحب بأسطوله خائباً بعد حصار دام خمسة أيام وبعد أن فقد من جنده نحو المائة في حين استشهد من أهل المهدية ثلاثة فقط(٢).

حركة ابن أبي دبوس :

كانت سياسة بيدرو الثالث ومن خلفه على عرش أرغونة تجاه إفريقية تسير في أكثر من اتجاه ومن هذه الاتجاهات جانب له خطورته هو محاولة خلق الفوضى فيها وحرمانها من الاستقرار على أمل أن تتسبب هذه الفوضى في إنهاك قواها فتضعف عن مقاومته، ومن هذا المنطلق نجده هو وخلفاؤه من بعده يساندون عدداً من المطالبين بالعرش الحفصي، فضلاً عن بعض الثوار وذوي الحركات الاستقلالية وما شابهها. وفي سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م واتته فرصة سارع إلى انتهازها هي خلق منافس جديد للحفصيين على عرش إفريقية، فرفع شعار إحياء الدولة الموحدية مستخدماً في ذلك الأمير عثمان بن أبي دبوس وهو ابن آخر خلفاء الموحدين، وكان المذكور قد فر إلى الأندلس بعد مقتل أبيه في سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وسقوط دولتهم والتجأ إلى بلاط خايمي الأول ملك أرغونة حيث كان يقيم أبناء عمه أبي زيد الذي كان هو الآخر قد لجأ إلى خايمي الأول وتنصر على يده، وبعد وفاته أقام أبناؤه في كنف الملك المذكور، وأصبحت لهم حظوة عنده، فاحتفوا بابن عمهم عثمان الآنف الذكر وإخوته حينما وفدوا عليهم . ووصلوه بخايمي الأول(٣)، وعند

---

(١) ابن خلدون : المصدر السادبق ج ٦ ص ٣٠٦.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٥٠، انظر أيضاً ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٣.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨، ج ٧ ص ٢٧٥.

تولي بيدرو الثالث العرش خلفاً لأبيه خايمي الأول في سنة ١٢٧٦م راودته فكرة الاستفادة من هذا الأمير في تحقيق طموحاته في إفريقية، وتأتي الصدفة لتقدم لبيدرو خدمة كبيرة في هذا المجال فيقع مرغم بن صابر شيخ بني ذياب الهلالية أسيراً في يد قراصنة صقلية سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م فانتهز بيدرو هذه الفرصة واشتراه من القراصنة وأكرمه ثم قدمه لعثمان بن أبي دبوس ووثق العلاقة بينهما وقد آل الأمر إلى أن عقد الثلاثة اتفاقاً فيما بينهم يقضي بأن يقوم مرغم بن صابر بمساعدة عثمان بن أبي دبوس وأن يقوم بيدرو بمساندتهما بأسطوله على أن يدفعا له جميع المبالغ التي سينفقها في هذا السبيل[1]، وغير خاف أن المستفيد الأول من هذا الأمر هو ملك أرغونة، ذلك أنه إذا نجح هذا الأمير في دعوته فإنه سيكون ألعوبة في إمكانية تحقيق أهدافه من خلاله وإن كان نجاحه جزئياً أي أنه تمكن من يده، وسيظل يشعر بالحاجة إليه لكونه دخيلاً على بلد ليس له فيه جذور، الأمر الذي يقوي الاحتمال في إمكانية تحقيق أهدافه من خلاله وإن كان نجاحه جزئياً أي أنه تمكن من تأسيس إمارة له في إحدى نواحي إفريقية فإن تلك الإمارة ستكون شوكة في جنب الدولة الحفصية ويعني أن ذلك هو مزيد من التمزق والفوضى في إفريقية، وإن فشل فإن ذلك الفشل سيضع ذياب التي كانت من أقوى بطون الهلالية في مواجهة السلطان الحفصي مما يزيد في الفتن والفوضى. وهو في كل ذلك لن يخسر شيئاً لأنه سيحصل على كل ما أنفقه في تلك الحركة.

لذلك، وبعد عقد هذا الاتفاق دار البحث بين الأطراف الثلاثة عن الموقع الأفضل ليكون نقطة الانطلاق، واستقر رأيهم أخيراً على أن تكون تلك النقطة هي طرابلس الغرب، ذلك أن ذياب تبسط نفوذها على قسم كبير من باديتها، ثم لأنهم أملوا (الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية)[2]، وباشربيدرو الثالث في إعداد أسطوله وشحنه بالعدد والرجال والأقوات وما أن تكاملت هذه الاستعدادات حتى أبحر الأسطول ونزل على طرابلس الغرب سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، وتمكن مرغم بن صابر من حشد قومه في طاعة الأمير الموحدي وآزروا الأرغونيين في شن الهجوم على المدينة المذكورة. حيث هاجموها ثلاثة أيام متواصلة (وساء أثرهم فيها)[3] دون أن يتمكنوا من اقتحامها

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣٠٨، ج ٧ ص ٢٧٥ .
(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨ و ج ٧ ص ٢٧٥ .
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨.

لاستبسال أهلها في الدفاع عنها، حينذاك شعر جند أرغونة بعدم جدوى مواصلة القتال وقرروا الانسحاب، لذلك طلبوا من حليفيهم المال المتفق عليه، ولما لم يكن لدى هذين المبلغ المطلوب اضطرا للمسير بقسم من جيشهما إلى المناطق المجاورة للمدينة لجباية المال المطلوب وتركوا القسم الآخر لمواصلة الحصار بينما تنحى الأرغونيون بأسطولهم عن المدينة وأرسوا في موضع قريب منها ينتظرون المال، وحينما دفع لهم أقلعوا عائدين إلى بلادهم[١]، وبرحيلهم هبت رياح الفشل على هذه المعركة ففك ابن أبي دبوس الحصار عن طرابلس وأقام يتقلب مع أعراب ذياب في نواحيها[٢] إلى أن استدعاه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب الهلالية في سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م وبايعه ليناوىء به السلطان محمد أبا عصيدة، وزحف به على تونس فوجه إليه السلطان جيشاً بقيادة وزيره ابن يرزكين الذي ألحق الهزيمة بابن أبي دبوس وأتباعه، وجال بعد ذلك في نواحي إفريقية لتمهيد الجهات وتسكين ثائرة الأعراب الأمر الذي جعل ابن أبي الليل يثوب لطاعة السلطان من جديد، فصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه بنواحي طرابلس ووفد هو على ابن يرزكين، ويعلل ابن خلدون فشل ابن أبي دبوس بقوله : (... فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين بإفريقية وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقادمة فنسي أمرهم)[٣]. وقد حاول ابن مكي صاحب قابس الطامح للاستقلال الاستفادة من ابن أبي دبوس أيضاً فاستدعاه (لأن يشتد به في استبداده فلم يتم أمره)[٤]، فكانت هذه محاولته الأخيرة، ولما باءت بالفشل يئس من أمره ودخل جزيرة جربة التي كانت وقتئذٍ تحت الاحتلال الأرغوني وأقام بها إلى أن أدركته منيته[٥].

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨- ٣٠٩.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٩.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣١٤، ج ٧ ص ٢٧٥، انظر أيضاً الزركشي : المصدر السابق ص٥٦.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص ٣٠٩.

(٥) قام ابنه الأصغر أحمد بن عثمان في سنة ٧٤٨ هـ بمحاولة ثانيةشبيهة بهذه المحاولة. ذلك أنه عندما هلك عثمان وتم تحرير جربة انتقل أبناؤه إلى مدينة تونس بعد أن ظنوا أن الناس نسوا أمرهم ولكن السلطان أبا يحيى أبا بكر عرف بأمرهم فاعتقلهم ثم نفاهم إلى الإسكندرية فأقاموا بها، وبعد فترة رجع أصغرهم أحمد إلى إفريقية واستقر بتوزر واحترف الخياطة، وعندما زحف أبو الحسن المريني إلى إفريقية وفسد ما بينه وبين الأعراب (انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣٥٩)=

أما لماذا تخلى ملك أرغونة عن الأمير الموحدي، فذلك أمر لا تعيننا المصادر التاريخية المتيسرة على الوصول إلى إجابة محددة بشأنه، فهل كان ذلك بسبب امتناع طرابلس على المهاجمين؟ أو لإدراك بيدرو صعوبة نجاح الدعوة الموحدية في إفريقية للسبب الذي ذكره ابن خلدون وأوردناه آنفاً؟ أو لعدم ثقته بالأعراب القائمين بهذه الدعوة المتقلبي الأهواء؟ أم أن دور ذلك الأمير في خطط ملك أرغونة كان فقط خلق مزيد من الفوضى في إفريقية وأنه قد أدى هذا الدور ولم تعد هنالك ثمة حاجة إليه؟ كل هذه التعليلات تبقى في عداد الافتراض لعدم وجود الأدلة التي ترجح أحدها أو تعين على تقديم الإجابة الشافية لهذا التساؤل.

غارات قراصنة أرغونة وصقلية على إفريقية :

كان لنشاط أرغونة العسكري في إفريقية منذ عهد بيدرو الثالث وجهاً آخر لا يقل أهمية عن توجيه الحملات إليها بل هو مكمل وممهد رئيسي لها في نفس الوقت، هو استخدام القراصنة. ويخطىء من يظن أن أولئك القراصنة كانوا بعيدين عن الهدف السياسي وأن همهم كان هو السلب والنهب فقط، ذلك أن مجتمعات العصور الوسطى لم تفرق بين القرصنة بمعنى العدوان في البحر للسلب والنهب وبين مطاردة العدو ومهاجمته عن طريق البحر، فالاعتداء على شواطىء العدو وسفنه ونهبها كان يعتبر نوعاً من الحروب الدينية تستهدف ضرب اقتصاديات العدو بخنق تجارته وأسر من يعمل على سفنه وتخريب موانئه وإثارة الفزع والرعب في شواطىء بلاده، هذا بالإضافة إلى أنها كانت وسيلة يلجأ

= واتفقوا على حربه نظروا فيمن يبايعون فذكروا أحمد فأتوا به ونصبوه للأمر وجمعوا له ما يحتاجه من مظاهر السلطنة وزحفوا به للقاء أبي الحسن حيث هزموه في معركة القيروان كما سبق ذكره، وصادف أن تمكن ابن تفراجين حاجب الدولة الحفصية المشهور من الفرار من تونس وقتئذٍ فأتوا به ونصبوه حاجباً للأمير الموحدي وزحفوا على تونس فامتنعت عليهم وأخيراً لجأ الأعراب إلى مسالمة أبي الحسن فعقد لهم السلم ودخل عمر بن حمزة شيخ أولاد أبي الليل على أبي الحسن واختلط به، وليثبتوا حسن نيتهم له قبضوا على أحمد بن عثمان وسلموه إليه فأودعه في السجن وبقي في سجنه إلى أن رحل أبو الحسن إلى المغرب فخرج أحمد من ذلك السجن ثم هاجر إلى الأندلس وبذلك فشلت حركته هو الآخر، وليس هنالك دليل يؤكد أو ينفي ارتباط هذا الأمير بملك أرغونة أو أية قوة خارجية أخرى (انظر ابن خلدون : ج٦ ص ٣٥٩ وبعدها و ج ٧ ص ٣٧٥-٣٧٦، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٥).

إليها في كثير من الاحيان للضغط على العدو ومراقبة تحركاته ولريادة سواحله تمهيداً لاحتلالها، وعلى ذلك فإنها كانت في حقيقتها حرباً غير معلنة على العدو، ولذلك كانت ذات نظم وقوانين ولها تقاليد معروفة لا تحيد الدول ولا القراصنة عنها. ويذكر عبد العزيز ابن عبد الله أنه كانت هنالك معاهدة عقدت بين أرغونة والدولة الحفصية سنة ١٣٢٣م تعتبر القرصنة وسيلة حربية مشروعة سواء عند المسلمين أو المسيحيين[1]. ولهذا ومن هذا المنطلق ارتبط نشاط قراصنة أرغونة وصقلية في إفريقية بالنهج السياسي الذي انتهجه ملوكهم تجاهها آنذاك برباط وثيق ويؤكد هذه الحقيقة ما جاء في رسالة السلطان محمد أبي عصيدة الحفصي إلى خايمي الثاني ملك أرغونة المنشورة ضمن وثائق تاج أرغونة والمؤرخة ٤ ربيع الثاني سنة ٣٠/٧٠٧ أكتوبر سنة ١٣٠٧م من أن القرصان (ولد لوجير – Roger –) عمر ببلادكم جهاراً ووصل بأجفانكم وأعلامكم فيها وأخذ للمسلمين زوج أجفان فيهما جملة وماله عندكم ورباعه بأرضكم)[2] أي إنه بنى سفنه في أرغونة علناً تحت سمع ملكها وبصره ومفصحاً عن الغرض الذي بنيت من أجله، وعلاوة على ذلك ضم إليها قطعاً من أسطول ذلك الملك وهجم بها على المسلمين وهي ترفع أعلام أرغونة وأخذ لهم سفناً تجارية كانت فيها أموال كثيرة لتجار المسلمين وذهب بها غنيمة له.

لذلك، نشط قراصنة أرغونة منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر أي منذ مطلع عهد الاضطراب والفوضى في إفريقية بمهاجمة شواطيء تلك البلاد ينهبون ويقتلون ويأسرون ويدمرون، وقد زادت هذه الهجمات حدة وتلاحقاً منذ احتلال دي لوريا لجزيرة جربة وسواها من جزر بحر إفريقية التي أصبحت أوكاراً لهؤلاء القراصنة وقواعد قريبة يديرون عملياتهم منها، ومنذ انضمام صقلية للتاج الأرغوني أصبح قراصنتها هم الآخرون عوناً وردءاً لقراصنة أرغونة واستطاع الفريقان فرض حصار بحري قوي غير معلن على إفريقية فأصبحت كل سفينة إسلامية لا تغادر موانئها أو تقدم إليها إلاّ على خطر وبمجازفة كبيرة، ولم تقتصر تلك المخاطر على سفن المسلمين فقط، وإنما شملت أيضاً السفن التابعة

(١) عبد العزيز بن عبدالله : تاريخ الحضارة المغربية ج ٢ ص ٩٢.

(٢) انظر : Maximiliano A . Alaracon : Op. Cit., P.255.

لبعض الدول المسيحية الأخرى التي كانت تمارس نشاطاً تجارياً مع مسلمي إفريقية، كما أن اعتداءات أولئك القراصنة لم تقتصر على التعرض للسفن الإسلامية أو غيرها من سفن النصارى الآنفة الذكر في عرض البحر، وإنما كانوا يتجرؤون ويهاجمون موانىء إفريقية ويأخذون ما تصل إليه أيديهم من السفن الراسية فيها بما حملت من سلع. فخنقوا بذلك تجارة إفريقية وبالتالي قطعوا الشريان الرئيسي لاقتصادها في وقت كانت فيه نشاطات مملكة أرغونة الأخرى في إفريقية في عنفوانها. والغريب حقاً أن هؤلاء القراصنة كانوا يمارسون نشاطهم العدواني على الدوام وفي وقت كانت فيه معاهدات السلام وعدم الاعتداء بين صقلية وأرغونة من جهة والدولة الحفصية من جهة ثانية تكون سارية المفعول، تلك المعاهدات التي ما كانت تنتهي حتى يتم تجديدها فوراً بحيث لن نجازف إذا قلنا إنها غطت تلك الفترة بكاملها، الأمر الذي يؤكد عدم جدية ملوك أرغونة في الالتزام بما جاء فيها لأن ما هدفوا إليه بتلك الأعمال كان في نظرهم أهم من التقيد بتلك المعاهدات، وأنهم كانوا يضربون بها عرض الحائط في سبيل الوصول لهدفهم، ومما يدل على خطورة أعمال القرصنة الأرغونية على إفريقية في تلك الفترة هو أن كافة المعاهدات التي عقدت بين سلاطين بني حفص وملوك أرغونة وصقلية كانت أكثر ما تهتم به هو معالجة ووضع حدّ لاعتداءات القراصنة عليها بما يرد فيها من شروط تتعلق بهذا الموضوع من ناحية، ثم كثرة الشكاوى من هذه الاعتداءات التي تضمنتها رسائل سلاطين بني حفص إلى ملوك أرغونة من ناحية ثانية.

فبالنسبة للناحية الأولى ورد في المعاهدة المعقودة بين محمد أبي عصيدة وخايمي الثاني والمؤرخة ١٨ ربيع أول سنة ٧٠١هـ/٢١ نوفمبر ١٣٠١م شرط ينص على (أن الملك الأجل الأثير الخطير الشهير جاقمو المذكور يمنع من يريد الخروج من جميع بلاده إلى بلاد الحضرة العليه مهدها الله تعالى بسبب القطع في جفن من الأجفان على أي نوع كان صغيراً أو كبيراً ولا يصل أحد من بلاده ولا ممن هو في عمله وتحت طاعته إلى أحد ممن هو في مرسى من مراسي بلاد الحضرة العلية مهدها الله تعالى مسلمين كانوا أو غير مسلمين واردين عليها أو صادرين عنها بضرر . . .)(١)، وكان هذا الشرط مثالاً احتذي في كافة المعاهدات التي عقدت بين الدولة

(١) انظر : Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P.247.

الحفصية وأرغونة[1]. ولم تكتف المعاهدة بهذا الشرط بل شرطت على أهل أرغونة أيضاً الالتزام بعدم شراء أي من السلع التي ينهبها القراصنة من إفريقية إذ جاء فيها عن ذلك : (وعلى أن لا يشتري أحد من أهل بلاده ممن يقطع على أهل بلاد الحضرة العلية شيئاً من سلعهم ولا من أسراهم . .)[2]. وأما بالنسبة للناحية الثانية المتعلقة بكثرة شكاوى السلاطين الحفصيين من تعديات القراصنة فإن ذلك يظهر بوضوح في رسالة السلطان محمد أبي عصيدة إلى خايمي الثاني أيضاً المؤرخة ٤ ربيع الثاني سنة ٧٠٧هـ/٣٠ أكتوبر سنة ١٣٠٧م التي سبق أن أشرنا إليها والتي تبين أن قراصنة أرغونة كانوا يبنون سفنهم في أرغونة وصقلية ويقصدون بها إفريقية لغزوها[3].

ومن الغريب حقاً أن ملوك أرغونة وصقلية كانوا لا يصغون لهذه الشكاوى أو يعيرونها أدنى اهتمام، ولكن إذا بدر من مسلمي إفريقية أي تصرف تجاه مقاومة هؤلاء القراصنة أو القيام بأي نوع من الحرب الوقائية ضد نشاطهم، كان هؤلاء الملوك يبادرون إلى الاحتجاج لدى السلطان الحفصي ويتهمونه بنقض المعاهدات المعقودة بين الطرفين، ويظهر هذا الأمر بوضوح في رسالة أبي عصيدة إلى خايمي الثاني المؤرخة ٤ ربيع الثاني سنة ٧٠٧هـ/ ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٠٧م الآنفة الذكر حيث يقول فيها : (وعملنا على ما يوافقكم من حفظ الشروط التي يقتضيها الصلح وكل من يصل من بلادكم الداخل تحت حكمكم على الرعي والاعتناء والأمان وحديث صقلية ومن يقصدها من رعيتكم ورجالكم يتصرفون في القرصلة – القرصنة – وفي عمارة الأجفان الغزوانية المضرة للمسلمين فإذا ألحقتهم أذية من المسلمين مشوا إليكم وتشكوا وقالوا نحن رجالكم ورعيتكم وضرنا صاحب البحر بحضرة تونس وليس الأمر كذلك)[4]، ويؤكد ذلك ما جاء في رسالة أخرى وجهها السلطان المذكور إلى خايمي الثاني مؤرخة أول صفر سنة ٧٠٦هـ/٩ سبتمبر سنة ١٣٠٦م والتي اختصت بالرد على مسائل بير بسوط De Pere Busot [5] أي تفنيد مزاعم ملك

(١) انظر على سبيل المثال المعاهدة المعقودة بين السلطان إبراهيم بن أبي يحيى أبي بكر وبيدرو الرابع في :
Maximiliano A.Alaracon : Op. Cit., P.311-14

(٢) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 248.

(٣) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, p,255.

(٤) انظر : Maximiliano A,Alaracon : Ibid, p.255.

(٥) بير بسوط De Pere Busot هو سفير لخايمي الثاني أرسله إلى السلطان محمد أبي عصيدة في سنة=

أرغونة عن تجاوزات المسلمين للمعاهدة المعقودة بين الطرفين والتي تقدم بها بير بسوط De Pere Busot وأول ما تشير له تلك الرسالة هو موضوع أن (صاحب البحر بتونس قد عمر قطائعاً وتوجه بها إلى طرابلس. فوجد في البحر والبر قدر خمسين نسمة فقتلهم وأخذ سلورة(*) بثمانية مجاديف كانت واصلة من أطرابنة إلى تونس وفيها ستة من القطلانيين فأخذها في بحر المعلقة. . . ولما توجه صاحب البحر المذكور إلى جهة طرابلس كان جفن واصلاً لإفريقية موسقاً بالطعام لشخيص اسمه جاقمة ذا لبنتن من سكان برجلونة وأخذ أسبابهم وكان فيه ثمانية عشر شخصاً من القطلانيين فلم يبق منهم أحيا غير ثلاثة وهم الآن مثقفون بطرابلس)[1]، ويرد السلطان محمد على هذا الزعم بتكذيبه أخذ السلورة بقوله إن (أمر السلورة ليس بصحيح)[2]، وأما بالنسبة للجفن فإنه يبين أن السبب في أخذه كان لأنه (عمر في صقلية وأوسق منها الطعام وتوجه إلى طرابلس في معونة القطائع التي أخذت الجفن الواصل من الشرق وحرقته وبرسم اشتراء الأسرى المأخوذين منه فصادفهم صاحب البحر فأخذهم وإن صح أن فيه قطلانيين كما ذكر فهم من سكان صقلية وممن عمر فيها من أهل قطلونية الذين تحت إيالة صاحب صقلية ولم يزالوا يضرون بأهل إفريقية وقد كان في الأجفان التي أخذت جفن المسلمين المذكور منهم خلق كثير فمنهم الرمند سلبير وغيره)[3].

وعلاوة على أن هذا النص يفند التجاوز المزعوم للمعاهدة المعقودة بين الجانبين ويبين الحقيقة، فإنه يلقي الضوء على عدة أمور هامة، منها أن القراصنة القطلان وهم من رعايا ملك أرغونة كانوا لا يتوقفون عن ممارسة نشاطهم العدواني ضد إفريقية حتى في زمن السلم

= ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م لبحث عدة أمور من ضمنها التجاوزات التي زعم ملك أرغونة أنها حدثت من قبل المسلمين للمعاهدة المعقودة بين الطرفين.

(انظر : Maximiliano A.Alaracon : Op. Cit., p.257.

(*) السلورة : جمعها سلالير وهي نوع من المراكب متوسطة الحجم تستعمل في الحرب والسلم على السواء، لها ثلاثة شرع وتحتوي عادة على أربعين مجدافاً.

(انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٤٧).

(١) انظر : Maximiliano A.Alaeacon : Ibid, P. 258.

(٢) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 258.

(٣) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 258.

المعقود بين الجانبين وتلافياً لإحراج ملك أرغونة كانوا أحياناً يجعلون من صقلية وهي في حقيقتها كانت وقتئذٍ تابعة لأرغونة مركزاً لعملياتهم، ففيها يعمرون سفنهم ومنها يخرجون إلى إفريقية حتى يتيحوا الفرصة لملكهم للتنصل من جريرة أعمالهم فضلاً عن أنها كانت أقرب إلى إفريقية من أرغونة، ثم إنهم كانوا يتزودون منها بالمؤن وإليها يرسلون بغنائمهم وأن مراكب خاصة كانت تحمل إليهم المؤونة وتأخذ تلك الغنائم بينما هم يجوبون البحر قبالة ساحل إفريقية لإحكام الرقابة عليها، وأخيراً أن هؤلاء كانوا كثيري العدد ذكرت الرسالة اسم واحد منهم هو رمند سلبير Ramon Salaver الذي كان معروفاً على ما يبدو، وأن هؤلاء كانوا قد أضروا بإفريقية وأن الدولة الحفصية حاولت الحد من نشاطهم فكلفت صاحب البحر بالعمل على مواجهتهم بعد أن استفحل خطرهم. ولم تكتف تلك الرسالة بتفنيد مزاعم الجانب الأرغوني، بل أخذت تعدد تجاوزات الأرغونيين للمعاهدة المعقودة بين الطرفين فكشفت عن عدة حوادث اعتداء قام بها قراصنة أرغونة على إفريقية منذ عقد تلك المعاهدة في ١٨ ربيع الأول سنة ٧٠١هـ/٢١ نوفمبر سنة ١٣٠١م ولغاية تاريخ كتابة تلك الرسالة في أول صفر سنة ٧٠٦هـ/٩ سبتمبر ١٣٠٦م كما سبق أن ذكرنا.

ففي القسم الأول من رسالة مسائل بير بسوط الآنفة الذكر ورد أنه في شهر شوال سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م هجمت ثلاث قطع بحرية غراب[١] وشيطيان[٢] للقراصنة القطلانيين على مرسى مدينة تونس فأخذوا طريدة[٣] لأهل مدينة بيزا كانت محملة بالصوف قيمتها جميعاً ثلاثين ألف دينار وشيطي للجنويين يحمل سلعاً لتجار مسلمين من بونة قيمتها عشرة

---

(١) الغراب : جمعها أغربة وغربان وهو نوع من المراكب الحربية وقد سمي بهذا الاسم لأن مقدمه يشبه رأس الغراب أو الطائر ويمثل في الماء الطير في الهواء، وكان الغراب يحمل الغزاة ويسير بالقلع ، كما كان يسير بعدد من المجاديف لا يتجاوز (١٨٠ مجدافاً) ومن خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط علـى مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية. (انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٢).

(٢) الشيطي : نوع من المراكب الحربية مهمته كشف العدو وإبلاغ خبره لقائد الأسطول وهو سريع الحركة ويحتوي على ٨٠ مجدافاً. (انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٢).

(٣) الطريدة : نوع من السفن الصغيرة سريعة السير وتستعمل في الحرب والسلم، وفي أيام الحرب أكثر ما تختص به هو نقل الخيل.
(انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص٣٥٣-٣٥٤).

آلاف دينار وسلورة أخرى لأهل بيزا (وفي هذا هتك حرمة المرسى ونقض للصلح)[1]. وفي نفس ذلك الشهر هجمت سفينة أخرى لأولئك القراصنة على ميناء بنزرت وأخذت جفناً للمسلمين محملاً بالأقمشة والبرانس كان قد قدم بها من بجاية قيمتها أربعين ألف دينار، وسفينة صغيرة لأهل بونة قيمتها مع حمولتها خمسة آلاف دينار وأسروا ثلاثة من المسلمين باعوهم بخمسمائة دينار[2]. وفي شهر ذي الحجة من ذلك العام هجم قرصان قطلاني تدعوه الرسالة الميرالية (EL Amirante) يبدو أنه كان مشهوراً وقتئذٍ بسفينة كان قد بناها في أرغونة على منطقة الحمامات واحتل بلداً اسمه (منزل زيد) فقتل كثيراً من أهلها (وأسرآخرين وسبا وحرق ودمدم – دمر– وانفصل عنها بمن أسر وبما أخذ من سبي)[3]. وفي الشهر التالي محرم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م هاجم القرصان المذكور موضعاً يسمى (إيزو) وقاتل أهله ثم توجه إلى موضع آخر هو (قصر زياد) فقاتل أهله وحرق حوانيت وانفصل عنه[4]، وفي شهر شوال من ذلك العام أغار قرصان آخر هو بير الرباطة Pedro Ribalta على بنزرت فأخذ من مرساها سفينة للرائس إبراهيم السوسي كان قد وصل بهامن طبرقة محملة بالعود فأخذها بحمولتها من سلع وركاب وباع الجميع في صقلية وقوصرة[5]. وفي شهر ذي الحجة من ذلك العام غدر الميرالية الآنف الذكر بأهل بونة إذ طلب منهم التضييف فأخرجوه له، ولكنه كافأهم على صنيعهم بأن آخذ من مرساها شيطياً لتجار نصارى ثم غادرها إلى بلدة قريبة منها تسمى (السكرة) فهاجمها وأخذ منها (نحو مائتي عيال وسباها وأبلى أهلها ثم رجع إلى بنزرت فأخذ غراباً للمسلمين على المنشار كان فيه للمسلمين عود وقطن وتمر قيمته عشرة آلاف دينار وفيه ثلاثون رجلاً وأربع عشرة امرأة)[6].

وتمضي الرسالة في سرد هذه الهجمات فتذكر أنه في شهر ربيع الأول سنة

---

(١) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Op. Cit., P. 259

(٢) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 259.

(٣) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 259.

(٤) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 259.

(٥) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 259.

(٦) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Ibid, P. 259.

٧٠٤هـ/١٣٠٤م وصلت قطعتان بحريتان إلى بحر إفريقية من برشلونة كان قد عمرهما قرصان يدعى جاقمة د. بروصة (Jaime de Brossa) فأخذتا طريدة للمسلمين بالقرب من طرابلس وأرسل جميع ما فيها إلى صقلية حيث بيع بها بمال جزيل[١]. كما أغار قرصان آخر يدعى القسيس المجزّع كان قد خرج من سرقوسة بصقلية في ذلك الوقت على مدينة بونة وأخذ من مرساها سفينتين محملتين بالعود ثم أخذ من البر رأسين من البقر وراعيهما[٢]، ولا ندري فيما إذا كان إطلاق القسيس على هذا القرصان هو لقب له أم أنه قسيس بالفعل، وإذا كان الأمرعلى هذا الافتراض أعني الثاني، فإن لذلك دلالته الهامة هي أنَّ من رجال الدين من كانوا يمارسون القرصنة ضد إفريقية الأمر الذي يعتبر دليلاً آخر على أهمية القرصنة بالنسبة للحركة الصليبية وارتباطها الوثيق بأهدافها. ولعل في الحادثة التالية ما يؤكد أن أعمال القرصنة هذه كانت تجري بعلم ملك أرغونة وبإرادته وخدمة لأهدافه، ذلك أنه في شهر صفر سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م خرج رسول لصاحب قطلونية التابع للملك أرغونة بطبيعة الحال هو جيسبرت القصطليوني Gisberto de Castellon في مهمة رسمية إلى صاحب صقلية في غرابين فمر بجزيرة قوصرة ثم بدا له هو الآخر ممارسة القرصنة فاتجه من قوصرة إلى نواحي طرابلس حيث هاجم جفناً للمسلمين فيه (أكسية وسلع بمال كبير ورجع بها إلى قوصرة فباع ما أخذه فيها بقدر خمسين ألفاً)[٣]. وعلاوة على ذلك تذكر الرسالة أنه في شهر شوال سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م وصل إلى إفريقية رجل يدعى عبد الله الجزي كان أسيراً في برشلونة وأطلق سراحه فذكر أن هنالك مراكب عديدة قد أعدت وقتئذٍ في مملكة أرغونة لممارسة القرصنة ضد إفريقية اثنين منها من بلنسية (Valencia) وأربعة من طركون (Tarragone) وثلاثة من طرطوشة (Tortose) وثلاثة من بنشكلة (Peniscola) وثلاثة من لقنت (Alicante) وأربعة من قصطليون (Castellon) وأن من أشهر قواد هذه القطع إنكراو دفنيليه (En Grau de Fonollar) وفرانده وسليت

(١) انظر : Maximiliano A.Alaracon : Op. Cit., P. 259.

(٢) انظر : Maximiliamo A, Alaracon : Ibid, P. 259.

(٣) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Ibid. P. 259.

(Fernando Uesellet)[1] الأمر الذي يؤكدارتباط نشاط هؤلاء القراصنة بسياسة ملوك أرغونة تجاه إفريقية إذ من غير المعقول أن يقوم هذا العدد من السفن الذي هو في حقيقته عبارة عن أسطول، بنشاطاته دون علم ملك أرغونة وموافقته.

وتعرض القسم الثاني من تلك الرسالة والتي كتبت في ربيع أول سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م لذكر عدة حوادث اعتداء أخرى من قبل أولئك القراصنة، إذ تشير إلى أنه في شهر محرم سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م أفاد الرائس محمد بن زكريا البجائي أنه بينما كان مبحراً بسفينته بالقرب من بنزت خرج عليه قراصنة من بلنسية في شيطيين وهاجموه وأخذوا جميع ما كان في سفينته ثم أرسوا إلى البر وهاجموا المسلمين الذين كانوا متواجدين في تلك الناحية وأسروا اثنين منهم في حين لاذ الباقون بالفرار، وكان بعض هؤلاء القراصنة قد هاجموا قبل ذلك قلعة أبي خليفة بالقرب من بنزرت أيضاً وأخذوا قوارب كانت متواجدة فيها[٢]. وفي شهر جمادى الأولى من ذلك العام اكترى تجار من أهل تونس ونواحيها جفناً لشخص قطلاني يدعى جيم ملقدر Yim Melcader فأوسقوه طعاماً وعطوراً وغير ذلك من السلع بما قيمته ثمانية آلاف دينار لنقلها إلى قابس، فلما كان ذلك الجفن على مقربة من جربة خرج عليه شيطيان أحدهما من جربة والثاني من إطرابنة بصقلية وصاحبه يدعى جيم الطرطوشي Yim Tortusa فأسروا لصاحب الجفن بشيء ثم انصرفوا، وبعد يومين هاجموا ذلك الجفن ليلاً في بحر قبودية ومعهم طريدة أخرى للمسلمين استولوا عليها من مرسى المهدية استعانوا بها على ذلك الجفن فأحاطوا به واستولوا عليه، وهنالك من وجه التهمة لصاحب الجفن أنه تواطأ مع القراصنة وهنالك من نفاها عنه[٣]. وفي أوائل صفر سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م هاجم غرابان لقراصنة بلنسية ميناء القصير وأخذا ثمانية قوارب كانت راسية فيه، ثلاثة منها لأهل سفاقس وخمسة لأهل طرابلس كان فيها من السلع ما قيمته ثلاثون ألف دينار ونحو ستين من المسلمين[٤].

---

(١) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 259.

(٢) انظر: Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 260.

(٣) انظر : Maximiliano A, Alracon ; Ibid, P. 260.

(٤) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 260.

وتكشف رسالة أخرى من محمد أبي عصيدة إلى خايمي الثاني مؤرخة في ذي القعدة سنة ٧٠٧هـ/ إبريل – مايو سنة ١٣٠٨م والتي عنوانها جواب الفصول التي كتب بها ملك أرغونة للحضرة العلية بتونس بتاريخ ذي القعدة سنة ٧٠٧هـ عن أن السلطان الحفصي كان قد اشتكى من كثرة اعتداءات قراصنة أرغونة على بلاده. وأن خايمي الثاني حاول التنصل من جريرة أعمالهم ومخادعة السلطان الأمر الذي لم ينطل عليه فيحاول أن يضع ملك أرغونة أمام مسؤولياته التي فرضتها عليه المعاهدة المعقودة بينهما فيقول : (لما عرفناكم أن أجفانا تخرج من قبلكم وجهتكم للقرصلة – القرصنة – والضرر بجهاتنا تعجبتم من هذه القضية وقلتم إنكم أمرتم أن لا يعمر أحد في بلادكم لمضرة في جهتنا وأن رجلون – Rogeron – ما عمر في جهتكم وإنما عمر في صقلية قطعين – قطعتين – وجاء بهما إلى بلنسية. وجوابنا أنه لا فرق بين أن تعمر في بلادكم أو يخرج رجالكم بأموالهم من بلادكم فيعمرون بها في غير جهاتكم وكان يجب عليكم أن تمنعوهم من ذلك وأن تأخذوا أموالهم وتزجروهم عن ذلك وكان يجب عليكم لما وصل رجلون إلى بلنسية أن تقبضوا عليه وتمنعوه مما أراده من ضرر بالمسلمين في جهاتنا)[1].وهذه المراوغة والمخادعة من ملك أرغونة تدل دلالة واضحة على رضاه بل وتشجيعه لهذه الأعمال، ويؤكد ذلك ما جاء في تلك الرسالة عن القرصانين بير الرباطة Pere Ribalta وجاقمة القصطليوني Jaime Casteller اللذين سبق أن اشتكى السلطان لملك أرغونة في رسالته عن مسائل بير بسوط من اعتداءاتهما كما سبق ذكره، كما أن السفير بير بسوط الذي تصادف وجوده في تونس حينما قام هذين القرصانين بمهاجمة مرسى تلك المدينة وأخذا منها مركباً كان قد قدم من الأندلس بسلع قيمتها مبلغ كبير من المال، تعهد للسلطان بأنه سيرفع الأمر لمليكه وأنه على ثقة بأن مليكه سينصف السلطان منهما ويمنعهما من القرصنة بل ويقبض عليهما حتى ينقطع ضررهما، ولم يحرك ملك أرغونة ساكناً بل غض الطرف عنهما كما يفهم من الرسالة الآنفة الذكر[2]. بل إن بير الرباطة استمر في اعتداءاته، ولو أراد خايمي الثاني منعه لفعل.

---

(١) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 267.

(٢) انظر عن ذلك : Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 267.

كما تلقي وثائق أرغونة الضوء على نشاط قراصنة صقلية في تلك الفترة والتي كان يحكمها آنذاك فريدريك أخو خايمي الثاني، فتبين رسالة محمد أبي عصيدة إلى خايمي الثاني المؤرخة ١٤ شعبان سنة ٧٠٨هـ/٢٧ يناير سنة ١٣٠٩م أن فردريك تلكأ في توقيع معاهدة السلام البديلة للمعاهدة السابقة التي انتهت آنذاك بالرغم من أن أخاه خايمي الثاني قد أقرها، وذلك لرغبته في استمرار أعمال القرصنة ضد إفريقية، عاد رسل السلطان من صقلية دون أن يظفروا من فردريك بطائل بعد أن أقاموا في بلاطه أربعة أشهر فيقول في ذلك : (... ولا كمل الصلح الذي عقده رجالكم ورجاله ولا أمضاه وأقام عنده أربعة أشهر ثم انفصل على غير شيء والقرصلة بأجفان صقلية ما زالت وأحوال البحر من جهته ما تغيرت عما يعهد منه ولا حالت وقد أنكرت جميع ملوك النصارى هذا الفعل...)(١). وأما دور خايمي في تشجيع القرصنة فعلاوة على ما سبق أن ذكرناه، فقد ورد نص في رسالة من السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني إلى خايمي الثاني مؤرخة ٢٩ رمضان سنة ٧١٢هـ/٢٨ يناير سنة ١٣١٣م يؤكد هذه الحقيقة ويبين عدم اكتراث ملك أرغونة بالمعاهدة المعقودة بينه وبين السلطان عند تعارضها مع مخططاته، فقد جاء في ذلك النص ما يلي : (وقد اتصل بنا أن النداء شاع ببلادكم بأن من أحب القطع – أي القرصنة – على بلاد المسلمين ما عدى بلاد الأندلس فليخرج، فعجبنا من كونكم لم تستثنوا بلادنا مع ما بيننا من الصلح المعقود وبقاء مدة من أمده)(٢). وإذا كان ذلك قد جرى في عهد السلطان ابن اللحياني الذي كان ملك أرغونة يلاطفه ويسايسه طمعاً في تنصيره، فكيف كان الأمر بالنسبة لغيره من السلاطين الحفصيين الذين لم يكن يطمع في ذلك منهم؟ لا بد أن الأمر كان أدهى وأمرّ.

ويبدو أن نشاط القراصنة بخاصة حاكم جربة الأرغوني لجير (Roger di Loria) قد بلغ آنذاك حداً لم يستطع ابن اللحياني – على مداراته لملك أرغونة طمعاً في مساندته له كما سبق ذكره – تحمله الأمر الذي جعله يوجه إلى خايمي الثاني رسالة ملؤها الوعيد والتهديد مؤرخة في ١٣ مايو دون ذكر السنة وإن كنت أرجح أنها سنة ١٣١٣م يقول فيها :

---

(١) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 272-273.

(٢) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 282.

(... وأعرفكم أني أمرت بالكتب لكم في أمر المرالية جير لتنهوه عن التعرض لبلاد إفريقية فإنه قد أفسد فيها في العام الفارط كثيراً وهو عبدكم وعامل على مرضاتكم فإن أمرتموه أن لا يتعرض لبلادنا فهو يقف عند أمركم ولا يتعداه... وهذا المرالية لم يقف عند حده والغرض أن يصل كتابكم له بالارتجاع عن هذه الجهات فإن وقف عند حده فحسن فهو القصد وإن لم يرتجع ويصل بجوابكم ولم يقف عند أمركم فوالله لأنزلن جربة بنفسي ونقطع ثمارها ونهدم ديارها ولا نترك له فيها منفعة)[1]. وواضح من هذا النص أن ابن اللحياني كان يدرك أن احتلال أرغونة لجزيرة جربة كان لاتخاذها قاعدة للأعمال العدوانية ضد إفريقية، ولكنه وهو الذي كان يواجه مشاكل وفتن داخلية تكاد تعصف به لم يجد إلا إطلاق هذا التهديد وهو أمر لم يحمله خايمي الثاني محمل الجد لأنه كان على اطلاع جيد على ما يدور في إفريقية وكان يعرف أن ابن اللحياني أعجز من أن ينفذ تهديده، ولذلك غض الطرف عن ذلك التهديد ولم يحرك ساكناً، وهذا ما تؤكده رسالة ابن اللحياني التالية التي تواصل الشكوى من اعتداءات قراصنة أرغونة على بلاده[2].

لقد ظلت أعمال القرصنة هذه والتي كانت تسيرها وتوجهها مملكة أرغونة والتي ما كانت إلا تعبيراً عن وجه آخر من وجوه سياستها تجاه إفريقية بغية إضعافها إلى أقصى حد ممكن، ظلت على عنفوانها طوال مدة نشاط أرغونة في جبهة إفريقية، حيث ألحقت باقتصادها أفدح الضرر علاوة على الرعب والفزع الذي أثارته في شواطئها في وقت كانت فيه الفتن والحروب الداخلية تفتك بها، وبذلك وقع أهلها بين شقي رحى هما المشاكل الداخلية ومؤامرات أرغونة ونشاطاتها العدوانية المسلحة، حتى أصبح وضع إفريقية في تلك الآونة أشبه ما يكون بوضعها قبيل الاحتلال النورماني في أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) ، والذي يشير إلى أنه كان من الممكن أن ينجح ملوك أرغونة في فرض سيطرتهم عليها لو استمرت جهودهم تسير بنفس هذه القوة كما نجح رجار الثاني النورماني في ذلك من قبل.

---

(١) انظر : Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 284.

(٢) انظر عن ذلك رسائله في : Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 286.

فشل خطط أرغونة وتحرير جربة :

بالرغم من نشاط أرغونة الصليبي في إفريقية بوجهيه العسكري والسلمي طوال فترة نصف القرن الذي أعقب وفاة المستنصر الأول، وبالرغم من أن ظروف إفريقية الداخلية كانت من الممكن أن توفر فرصة كبيرة لنجاح جهود تلك القوة الصليبية في تحقيق أهداف الحركة الصليبية في تلك الجبهة، إلا أنها أخفقت بصليبيتها المسلحة كما أخفقت في صليبيتها السلمية في تحقيق تلك الأهداف. ذلك أن الظروف التي جدت على ساحة شبه جزيرة إيبرية منذ أوائل العقد الرابع من ذلك القرن، ودخول أرغونة معترك السياسة جنباً إلى جنب مع قشتالة لمواجهة الخطر المريني في الأندلس ثم الدخول في لعبة الأحلاف والأحلاف المضادة التي مارستها الممالك النصرانية في شبه الجزيرة فضلاً عن مملكة غرناطة والدولة المرينية من ناحية، ثم الأمور التي برزت في ساحة أوروبا الغربية من ناحية ثانية، ثم اشتباكها في نزاع مرير مع مملكة قشالة فيما بعد من ناحية ثالثة، كل ذلك صرف مملكة أرغونة عن إفريقية وعن مواصلة نشاطها في ساحتها، الأمر الذي جعل السلطان أبو يحيى أبو بكر يعمل على إبعاد الخطر الأرغوني عن بلاده، فكان أن أعد حملة عسكرية بقيادة مخلوف بن الكماد أرسلها إلى جربة سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، حيث هاجمت الجزيرة وحاصرت حصن القشتيل، ومع أن هذه الحملة لم تكن الأولى التي أرسلت لتحريرها بل سبقتها حملة أخرى قادها ابن اللحياني سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م الذي كان وقتئذٍ شيخ الموحدين في الدولة الحفصية، وذلك عندما اشتد عدوان قراصنة أرغونة الذين اتخذوا من الجزيرة مركزاً لعملياتهم، حاصر بها القشتيل مدة شهرين ثم ارتد عنه[1] إذ أن حملته تلك إنما كانت تورية ليخرج من العاصمة بقصد السفر إلى المشرق[2] كما سبق ذكره، كما يفهم أيضاً من رواية لابن خلدون أن أهل الجزيرة حاولوا تحرير بلدهم أكثر من مرة ففشلوا[3]، إلاّ

(١) انظر عن هذه الحملة التجاني : المصدر السابق ص ١٢٧ وما بعدها، ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣١٩- ٣٢٠، الزركشي : المصدر السابق ص ٥٦، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٦، ابن الشماع : المصدر السابق ص ٩٩.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣١٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٥٦.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٠.

أن إرسال هذه الحملة كانت المحاولة الجادة الأولى من قبل السلطة المركزية لتحرير الجزيرة، وقد نجح ابن الكماد في اقتحام حصن القشتيل فقتل عدداً من أفراد الحامية الأرغونية، وهرع الباقون إلى سفنهم لائذين بالفرار[1]، ولم يلبث قراصنة أرغونة وصقلية هم الآخرون حينما علموا بفتح ابن الكماد لجربة أن غادروا أوكارهم في الجزر القريبة الأخرى وبذلك قل خطرهم على إفريقية، ولعل ذلك يفسر قلة الأخبار عن نشاطاتهم في تلك الجبهة في المصادر التاريخية منذ أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر. وبفقدان أرغونة لقاعدتها في جربة، ونظراً للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً، زال خطرها على إفريقية منذ ذلك الوقت إلى حد كبير.

وإذا كانت أرغونة قد فشلت في إحراز مكاسب للحركة الصليبية في إفريقية في ذلك الوقت، فإن منتصف القرن السابع الهجري (الرابع عشر للميلاد) أي بعد تحرير جربة بفترة قصيرة شهد محاولة ثانية في هذا المضمار قامت بها قوة أخرى.

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٤- ٣٧٥، الزركشي : المصدر السابق ص٧٥، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٤٠.

﴿إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبِّؤهم بما كانوا يفعلون﴾ .

[سورة الأنعام : آية ١٥٩]

الفصل الثاني

تجدد هجمات الإيطاليين على إفريقية

التنافس بين جنوة والبندقية وأثره على إفريقية – تطلع جنوة لإفريقية من جديد – هجوم الجنويين على طرابلس الغرب – حملة جنوة وحلفاؤها على جربة

التنافس بين جنوة والبندقية وأثره على إفريقية :

من المعروف أنه منذ بداية انحسار سيادة البحرية الإسلامية عن مياه البحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وحلول المدن البحرية الإيطالية محلها في السيطرة على ذلك البحر، بدأ التنافس بين تلك المدن بغية انفراد كل منها بتلك السيطرة دون المدن الأخرى والتي ستمكنها بالتالي من التحكم في حركة التجارة الدولية نظراً لأن ذلك البحر كان هو مركز تلك الحركة في العالم القديم، وكانت أهم هذه المدن المتنافسة هي البندقية وجنوة وبيزا، ولما لم تكن بيزا في مستوى غريمتيهما من حيث القوة والإمكانيات، الأمر الذي كان يضطرها لمسالمتهما أحياناً، بل وإلى محالفة جنوة في أحيان أخرى لتنفيذ مشاريع مشتركة فيما بينهما، فإن هذا التنافس أكثر ما كان بين البندقية وجنوة. لذلك أخذتا منذ أواسط ذلك القرن تتسابقان في الحصول على الامتيازات لدى مختلف القوى في شرق البحر المتوسط سواء لدى الدولة البيزنطية أو الجانب الإسلامي للاستئثار بأكبر نصيب من التجارة الشرقية التي كانت تدر عليهما أرباحاً طائلة، وتحاول كل منهما حرمان الأخرى من هذه التجارة. وإذا كانت كفة البندقية في أواخر ذلك القرن بدأت ترجح على كفة غريمتها في شرق البحر الأبيض المتوسط بما قدمته للدولة البيزنطية من خدمات، فإنها لم تستطع مجاراتها في غربه. ذلك لأن جنوة حرصت منذ أواسط القرن المذكور على بسط نفوذها هنالك، ولذلك كانت هي التي أسهمت ببحريتها بنصيب كبير في محاربة المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي منذ بداية الطور النشط للحركة الصليبية الذي بدأ وقتئذٍ، فأسهمت إلى جانب النصارى الإسبان في حروبهم ضد المسلمين في الأندلس، وتعاونت هي وبيزا في الهجوم على الجزائر الشرقية (جزر البليار)، ثم دشنت الحرب الصليبية في جبهة إفريقية بحملة المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م التي أسهمت فيها بأكبر نصيب كما سبق ذكره.

وقد شد الزحف الصليبي على المشرق إبان الحملة الصليبية الأولى اهتمام كل من المدينتين البندقية وجنوة ومثلهما بيزا ولكن على مستوى أقل وحفزهما على محاولة إحراز أكبر قدر ممكن من المكاسب من تلك الحرب، ولذلك كانتا تتسابقان إلى تقديم المساعدات المختلفةللصليبيين في المشرق ولا سيما مساعدتهم بأساطيلهما في الاستيلاء على مدن الساحل الشامي مقابل حصة في الغنائم بالإضافة إلى امتيازات أخرى دائمة، وسرعان ما احتدم التنافس بين المدينتين في الشرق وعاد إلى ما كان عليه قبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، هذا التنافس الذي كان كثيراً ما يتطور إلى نزاع مسلح بينهما غطت حوادثه فترات كثيرة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكان سبباً رئيسياً في سريان الضعف إلى الكيان الصليبي في المشرق والذي أدى بدوره إلى تصفية ذلك الكيان في أواخر القرن الثالث عشر. وإذا كان الوجود الصليبي في بلاد الشام قد انتهى في ذلك الوقت، فإن التنافس والنزاع بين المدينتين قد استمر في النصف الأول من القرن الرابع عشر لا سيما في المشرق إذ عملت كل منهما على التودد لدولة المماليك في مصر والشام للحفاظ على مصالحها التجارية، وجرى نفس الأمر بالنسبة للدولة البيزنطية التي قامت على أنقاض دولة اللاتين في القسطنطينية، وشهد منتصف القرن الرابع عشر تجدد النزاع بين المدينتين، وفي سنة ١٣٥٣م اشتبك أسطولاهما في معركة كبيرة في المياه البيزنطية وقرب القسطنطينية نفسها، ظفرت فيها البندقية بغريمتها وألحقت بها هزيمة ساحقة، ويشير المقريزي إلى هذه الحرب في حوادث سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م بقوله : (وفيه – شهر ربيع أول – قدم الخبر بفتنة الجنوية والبنادقة وكثرة الحروب بينهم، من أول المحرم إلى آخر ربيع الآخر... ثم قدم الخبر أن البنادقة انتصرت على الجنوية، وأخذت لهم واحداً وثلاثين غراباً بعد قتل من بها)[١]، وكان لهذه الهزيمة التي لحقت بجنوة أثرها البالغ بطبيعة الحال على مصالحها في المشرق، إذ حرمتها من تجارة موانىء البحر الأسود ومحطات الطريق البري عبر بلاد فارس وجنوب روسيا لعدة سنين[٢]. ولذلك كان عليها لتعويض الخسارة التي لحقت بها في الشرق أن تعمل على تدعيم نفوذها في الغرب، وكانت إفريقية نظراً لظروفها التي سبق أن أشرنا اليها هي الميدان الأفضل لهذا الأمر.

---

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ق٣ ص ٨٦٢.

(١) انظر : W. Heyd : Op. Cit., V. 2, P. 49.

كذلك المقريزي : السلوك ج٢ق٣ص ٨٦٢.

تطلع جنوة لإفريقية من جديد :

إذا كانت الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية على المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م والتي تمثلت في بداية الزحف الصليبي على المشرق ثم ظهور نورمان صقلية كقوة جديدة في قلب حوض البحر الأبيض المتوسط، قد حالت دون استمرار نشاط جنوة العدواني ضد إفريقية، فليس معنى ذلك أنها أغفلتها وفقدت اهتمامها بها. وإنما فرضت عليها تلك الظروف اتباع أسلوب آخر للحفاظ على مصالحها فيها، فاكتفت بدور ثانوي في العدوان الصليبي الذي وجه إليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر هو دور المساند ما دام ذلك يؤمن لها مصالحها، فضلاً عن قيامها ببعض أعمال القرصنة ضدها كلما سنحت الفرصة، هذا من ناحية، كما حرصت خلال هذه الفترة على الارتباط بها بمعاهدات تجارية تكفل لها تدعيم الحركة التجارية بينهما من ناحية ثانية، ولم تفكر خلال هذه المدة في إعداد حملة صليبية ضدها على غرار حملة المهدية، اللهم إلاّ ما كان من احتلالها لجيجل سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. وببروز مطامع أرغونة في إفريقية منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر والتي كانت في حالة نزاع مستمر مع جنوة كان من أسبابه تنازعهما على ملكية جزيرتي سردينيا وكورسيكا كما سبق ذكره، ابتعدت جنوة أكثر فأكثر عن مجرى الحوادث في إفريقية سيما وأن نزاعها مع البندقية في الشرق الصليبي كان يفرض عليها توجيه جل اهتمامها إلى شرق البحر الأبيض المتوسط فضلاً عن أن نشاط قراصنة أرغونة وصقلية قبالة ساحل إفريقية خلق أمامها مصاعب جديدة في علاقاتها بها.

وبخروج جنوة مهزومة من صراعها مع البندقية في الشرق في أواسط القرن الرابع عشر كما سبق ذكره، وما واكب ذلك من انشغال أرغونة عن إفريقية وقتئذٍ، جعلها تتطلع إلى إفريقية من جديد. وقد حفزها على ذلك علاوة على ما تقدم عاملان هامان أولهما أثر وباء الموت الأسود الذي انتشر في جزء كبير من أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر فضلاً عن أجزاء كبيرة أخرى من العالم القديم ودام مدة تزيد عن الثلاث سنوات مما هدد تجارة جنوة بالكساد فكان لا بد لها من أن تسارع إلى إيجاد متنفس لها ما دامت قد حرمت من متنفس الشرق أيضاً إلى حد كبير، ورأسمال عوضاً عما فقدته في الحرب يدفع بعجلة اقتصادها للحركة من جديد، وثانيهما ظروف إفريقية في أواسط ذلك القرن خاصة بعد

انحسار الظل المريني عنها برجوع السلطان أبي الحسن إلى المغرب الأقصى واحتدام الفتن والمشاكل الداخلية فيها التي مزقتها وأنهكت قواها وجعلتها فريسة سهلة لكل طامع، الأمر الذي كان عاملاً مشجعاً لجنوة لبعث أطماعها فيها من جديد.

هجوم الجنويين على طرابلس الغرب :

تعتبر طرابلس الغرب إحدى موانيء إفريقية الهامة، وكان يصدر منها جزء لا يستهان به من منتجات قلب القارة الإفريقية، وكانت علاقتها بالسلطة المركزية في تونس منذ بداية عهد الفوضى والفتن في مد وجزر، يقر ولاتها بتبعيتهم للسلطان الحفصي تارةً وينكرونها تارةً أخرى، وحينما غادرها السلطان ابن اللحياني الحفصي إلى مصر سنة ٧١٠هـ/١٣١٨م، كما سبق ذكره، استخلف محمد بن أبي عمران والياً عليها، ولما تمخضت الحوادث في تونس عن فرار محمد أبي ضربة ومبايعة أبي يحيى أبي بكر سلطاناً، استقل ابن أبي عمران في طرابلس ثم لم يكتف بذلك بل لم يلبث أن زحف بجموع من الأعراب إلى تونس في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م طامعاً في السلطنة، وتمكن من دخولها وإخراج السلطان الآنف الذكر منها، وبقي فيها إلى أوائل سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م حيث عاد السلطان أبو يحيى أبو بكر فأخرجه منها واضطره للعودة إلى طرابلس، ولكنه لم يجد من أهلها الإقبال الذي وجده منهم قبل حركته على تونس، وبلغ من تبرمهم به أن ثاروا عليه سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م وأخرجوه من المدينة حيث لحق بالأعراب خارجها وحاول الاستيلاء على تونس بعد ذلك فاغار عليها أكثر من مرة(١) وحينما فشل فر إلى تلمسان(٢). أما أهل طرابلس فقد ولوا عليهم بعد طرده، ثابت بن محمد بن ثابت(٣) الذي سار في الناس سيرة حسنة وبقي والياً عليها

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢) قام المذكور بعد ذلك بمحاولة أخرى لاحتلال تونس في سنة ٧٢٩هـ، إذ في تلك السنة ذهب وفد من أعراب سليم إلى تلمسان واستعدوا أميرها أبا تاشفين الزياني على السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر فأرسل معهم ابن أبي عمران الذي جمع جموعاً كبيرة من الأعراب وأغار على تونس في أواخر ذلك العام حتى تمكن من دخولها في صفر سنة ٧٣٠هـ وفر السلطان منها جريحاً ولكنه عاد وتمكن من استعادتها منه من جديد.

(٣) بنو ثابت هم عرب وشاحيون من بني سليم الهلالية من الأسر الطرابلسية التي تسكن المدينة ولهم=

حتى وفاته في سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م حيث تولى حكمها من بعده ابنه محمد بن ثابت الذي نعمت طرابلس في عهده بقدر كبير من الاستقرار، ونشطت تجارتها نوعاً ما برغم المعوقات التي سبق أن أشرنا إليها، الأمر الذي وفر لأهلها قدراً من الرخاء. حتى كان وباء الموت الأسود فأصابها ما أصاب غير ها من بلدان إفريقية من كثرة الأموات وتردي الأوضاع الاقتصادية، وتوفي محمد بن ثابت في سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م فخلفه ابنه ثابت في حكمها، فأعلن استقلاله عن الدولة الحفصية، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (... ومرت الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليه من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمائة منقطعاً عن الحضرة)[1] وفي تلك الآونة، وفي ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م على وجه التحديد شنت جنوة عدوانها الغادر عليها فما هي الدوافع التي جعلت جنوة تختارها هدفاً لهذا العدوان؟

إن ذلك يعود في اعتقادنا لعدة أسباب أهمها أن استقلالها عن الدولة الحفصية قبل العدوان بفترة وجيزة دون أن تحاول الحصول على قوة تقوم بدعمها في الملمات حرمها من النصير، وجعلها تعتمد على إمكانياتها الذاتية في الدفاع عن نفسها والتي كانت محدودة بعد أن قطعت باستقلالها آخر أمل لها في الحصول على أي نوع من المساعدة من السلطان الحفصي. صحيح أنه لم يكن من المتوقع من السلطان أن يقوم بمدها بمساعدات عسكرية فعالة تمكنها من صد العدوان في مثل ذلك الوقت العصيب الذي كان هو نفسه يواجه فيه فتناً ومشاكلاً حادة، ولكن كان لجنوة مصالح حيوية كبيرة في إفريقية بدليل حرصها على تجديد المعاهدات التجارية المعقودة بينها وبين سلاطين بني حفص كلما انتهى مفعولها؛ ووجود فنادق لها في العديد من مدن إفريقية الرئيسية[2]، ومن المعروف أن جنوة كغيرها

= مكانة رفيعة بين أهلها، وقد حكموا تلك المدينة مدة ٧٩ سنة وكان أول حاكم منهم هو ثابت بن محمد بن ثابت الذي تولاها في سنة ٧٢٤هـ، وآخرهم يحيى بن أبي بكر بن ثابت الذي عزل عنها سنة ٨٠٣هـ.

(انظر الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص ٢٦٠).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨.

(٢) وقد دام النشاط التجاري لجنوة إلى ما بعد القرن الرابع عشر بمدة طويلة يدل على ذلك ما قاله الحسن الوزان في هذا الموضوع في حديثه عن بعض مدن إفريقية، إذ يقول عن أهل مدينة القل (المصدر السابق ص ٤٢٦) : (... وهم يقومون بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من-

من المدن البحرية الإيطالية كانت مصالحها التجارية هي التي تحكم تصرفاتها وتوجهها، فكان بإمكان السلطان الحفصي أن يهددها في تلك المصالح الأمر الذي سيجعلها تفكر أكثر من مرة قبل شروعها في عدوان على ولاية تابعة للسلطان، أما وقد استقلت، فإنه لم يعد في وسع السلطان إشهار سلاح التهديد في وجه جنوة إذ في إمكانها التملص بالتعلل بأنها لم تهاجم أياً من ممتلكاته وإنما هاجمت بلداً خارجاً عن إرادته بل وتناصبه العداء.

ويضيف ابن خلدون إلى ما تقدم سبباً آخر استهل به حديثه عن هذاالهجوم، لعل له أهميته في طمع القوى الصليبية ومنها جنوة بطرابلس هو جغرافيتها وقلة قبائل الأعراب في ضواحيها[١]، فوقوعها في بسيط من الأرض على ساحل البحر مباشرة حرمها من الحصانة الطبيعية التي تمكنها من الصمود في وجه المهاجمين لمدة طويلة، وأما قلة الأعراب في ضواحيها فقد حرمها من مصدر للمقاتلين الأشداء الذين من الممكن أن يسارعوا لنجدتها وفي وقت قصير ويشدوا من أزر أهلها في الدفاع عنها ضد المعتدين. وعلاوة على ما تقدم فإنها كانت لا تزال وقتئذٍ تعاني من آثار وباء الموت الأسود الذي كان قد تفشى فيها وأهلك كثيراً من أهلها وتسبب في شح الأقوات الأمر الذي أضعفها عن المقاومة إلى حد بعيد. وكل هذه الأمور لم تكن خافية على الجنويين بحكم صلتهم الوثيقة بها، ويؤكد ابن خلدون هذه الحقيقة بقوله : (وكان تجار الجنويين يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها)[٢]. فكانت تلك الأسباب مجتمعة هي التي دفعت جنوة إلى شن العدوان عليها.

وتجمع المصادر التاريخية الإسلامية التي تعرضت لحوادث هذا العدوان أن الجنويين اتبعوا

= الشمع، ولديهم كمية كبيرة من الجلود، ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التي يجلبها الجنويون الذين يترددون على مينائهم)، ويقول (ص٤٢٦–٤٢٧) إنه كان بميناء سكيكدة مساكن ومستودعات للجنونين الذين يتأخرون في البلاد أقامها لهم أمير قسنطينة، كما كان سكان جبل سكيكدة يزاولون التجارة بكثرة معهم فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم الأقمشة وغيرها من المنتجات الأوروبية. كما يذكر أن الجنويين احتكروا صيد المرجان بالقرب من القل (ص٤٣٣–٤٣٤).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، انظر كذلك النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦، محمد بن أحمد بوراس المعسكري : عجائب الأسيار ولطائف الأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم ٢٦٢، ورقة ٥٩.

في غزوها أسلوباً جديداً هو مخادعة حاكمها وأهلها حتى تمكنهم الفرصة من مفاجأتها، فما يفهم من رواية ابن خلدون الذي يقول إنهم تآمروا على غزوها (واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين)[1] إن خطة الهجوم وضعت في جنوة، وحتى لا يثيروا ريبة أهلها فيهم إذا ما أقبلوا عليها بكامل أسطولهم تواعدوا على أن يكون مرساها هو نقطة التجمع، وتقول هذه المصادر عن هذه الخديعة بأن الجنويين أظهروا أنهم تجار فصدقهم المسلمون دون أن تتعرض للتفاصيل[2]، ولولا رواية ابن حجر العسقلاني التي أوردها في (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لربما بقيت تفاصيل هذه الحيلة مجهولة، فيقول ابن حجر أن الجنويين قدموا في مراكبهم بصفتهم تجاراً وهم في حقيقتهم مقاتلة، وأرسلوا من قبلهم شيخاً مجرباً يتقن اللغة العربية يصفه بأنه ترجمان، وذلك لاستطلاع أحوال البلد من ناحية، ثم للاتصال بمن فيها من النصارى لكسب عونهم على إنجاز مهمتهم[3] من ناحية ثانية، وبالفعل تمكن المذكور من إنجاز هذين الشقّين من مهمته، فاتصل بالنصارى المقيمين في طرابلس واستمد منهم المعلومات اللازمة له بعد أن أطلعهم على ما اعتزمه صحبه من الغدر، وعبأهم لمساندة المهاجمين حين ساعة الصفر، كما درس أوضاع أهل المدينة حيث تبين له ما كانوا يعانونه من الغلاء لقلة الحب عندهم[4]، نظراً لظروف الوباء والمجاعة التي كانت آثارها لا زالت ماثلة، فاستغل هذه الظاهرة أحسن استغلال في إنجاح الشق الثالث من مهمته المتمثلة في مخادعة الوالي ثابت بن محمد، إذ أنه سعى لمقابلته حيث نجح في إقناعه ربما بمساعدة تجار النصارى المقيمين في المدينة–بأن الجنويين قد قدموا إلى طرابلس بطعام وسلع ولكنهم متخوفون من النزول من مراكبهم إلى البر، ولذلك فهو يشير على الوالي بأن يجمع الأسلحة من أهل البلد وحتى من الجند ويحفظها

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣٦٨، انظر كذلك النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦.

(٢) انظر على سبيل المثال ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٦٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق٤ ص ١٠٦٢، محمد بن أحمد بوراس المعسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩، حاجي خليفة : تقويم التواريخ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ADD. 23307 ورقة ٥٢.

(٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ٦٤، انظر كذلك الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص ٢٦٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤.

عنده في القلعة ليطمئن الجنويون وينزلوا بضاعتهم من المراكب، وإمعاناً منه في إقناع ابن ثابت للموافقة على هذا الطلب أثار طمعه فأوهمه أن هؤلاء التجار قد قدموا بسلع كثيرة مما يجعل نصيبه المتمثل في عائدات الخمس مبلغاً كبيراً، وفي نفس الوقت ينتفع أهل البلد من تلك السلع[١] لا سيما المواد الغذائية التي هم في أمس الحاجة إليها فيعمهم الرخاء.

فانطلت الحيلة على ثابت وقام بتجريد أهل البلد والجند من أسلحتهم ووضعها عنده في القلعة، فلما تأكد الجنويون أن البلد أصبحت عزلاء من السلاح، شرعوا في تنفيذ مهمتهم، وزيادة في حبك هذه الخديعة أنزلوا من مراكبهم بعض السلع لإشاعة الاطمئنان في نفوس المسلمين، فاستبشر هؤلاء بها وأسرعوا إلى شرائها منهم[٢]، واطمأنوا إليهم وأغفلوا مراقبتهم، الأمر الذي جعل الجنويين ينتشرون في البلد وكأنهم في حوائجهم[٣] حتى عرفوا عوراتها ونقاط الضعف فيها وأخذوا مراكزهم في نواحيها، وفي ليلة العاشر من ربيع الأول سنة ٧٥٥هـ/٧ إبريل سنة ١٣٥٤م صعدوا إلى سور البلد وأهلها نيام حيث تخلصوا من حراسها بسرعة وفتحوا الأبواب ونادوا بالحرب، فلم يشعر المسلمون إلاّ والجنويين قد خالطوهم في البلد يقتلونهم كيفما شاؤوا، فلم يكن همهم إلاّ النجاة بعد أن حيل بينهم وبين أسباب الدفاع عن أنفسهم بتجريدهم من السلاح[٤]، فقتل منهم من قتل، وأسر من أسر[٥]، وفر من قدر منهم على النجاة ولكن ليقع في يد الأعراب الذين لم يكونوا على مستوى المسؤولية هذه المرة، فبدلاً من أن يسارعوا لنجدة إخوانهم والتصدي للعدو المشترك كما فعلوا إبان هجوم جرجي الأنطاكي الأول عليها كما سبق ذكره، وجدوا في الفارين من المدينة غنيمة باردة، فقتلوا وسلبوا الكثيرين منهم. وسيطر الجنويون على المدينة بسرعة واستباحوها

---

(١) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨-٣٦٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٢، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦-١٦٧، محمد بن أحمد المعسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩.

(٥) يقول الزركشي (المصدر السابق ص ٩٤) في ذلك : (وأسر النصارى جميع أهل البلاد)، وهذه مبالغة واضحة من الزركشي، إذ سقط كثير من أهلها قتلى بسيوف الجنويين، وفي ذلك يقول المقريزي (السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١) : (وقتل عامة أهلها)، كما تمكن آخرون من الفرار.

وأعملوا فيها سلباً ونهباً. وأما واليها ثابت، فإنه أسقط في يده، وعندما رأى جند الجنويين يحاصرون قصره ويضيقون عليه الخناق، لم يكن أمامه إلاّ العمل على الهرب، ويبدوا أن الجنويين كادوا يعجلونه حتى عن ذلك، فيقول ابن حجر إنه تدلى من القصر بعمامته[1]، وخرج من المدينة قاصداً أعراب الجوار وهم من ذياب الهلالية، فقبض هؤلاء عليه وقتلوه هو وأخوه لدم كان قد أصابه فيهم[2]، فنال بذلك جزاءه على طمعه الذي دفعه إلى الثقة بعدو غادر مما جعل تلك الكارثة تحل ببلده، في حين تمكن أخوان آخران له من الهرب إلى الإسكندرية[3].

وتنبغي الإشارة في هذا المقام إلى اختلاف المصادر الإسلامية في تحديد السنة التي تمت فيها هذه الغزوة، إذ أن المقريزي يذكرها في حوادث سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م[4]، ويؤيده في ذلك ابن أبي دينار[5]، والوزير السراج[6]، وحاجي خليفة[7]، الذين يجمعون أنها كانت في تلك السنة، وأما ابن حجر العسقلاني فيقول إنها كانت في سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م أو سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م[8]، في حين أن ابن خلدون يقول إنها كانت في سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م دون تحديد اليوم والشهر[9]، ويؤيده في ذلك ابن الشماع[10] والمعسكري[11] والنائب الأنصاري[12]، بينما يذهب الزركشي في روايته إلى أبعد من ذلك فيحدد تاريخ تلك الحادثة بدقة فيقول إنها كانت في يوم العاشر من ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/٧ إبريل سنة ١٣٥٤م[13]، والأصح في رأينا

---

(١) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥.

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، النائب الأنصاري المصدر السابق ص ١٦٧.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص١٦٧ .

(٤) المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١.

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٩.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦١.

(٧) حاجي خليفة : المصدر السابق ورقة ٥٢.

(٨) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥.

(٩) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨.

(١٠) ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٠.

(١١) محمد بن أحمد المعسكري : المصدرالسابق ورقة ٥٩.

(١٢) الناتئب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦.

(١٣) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤.

هو رواية ابن خلدون ومن قال بقوله؛ لأن ابن خلدون لم يكن معاصراً لتلك الحوادث فحسب، وإنما كان قد بدأ حياته السياسية أيضاً في بلاط السلطان الحفصي، فلا بد أن يكون قد اطلع عليها ووعاها جيداً وما دام الزركشي يتفق مع ابن خلدون في تحديد السنة، وعاش في عصرليس بالبعيد عن تاريخ تلك الحادثة ومن عاصروها، فلا نستبعد أن تكون هذه الدقة منه صحيحة، وأما الروايات التي أوردت القول الآخر فكلها كتبت في عصر متأخر باستثناء رواية ابن حجر ورواية المقريزي وهما من مؤرخي المشارقة، وللتوفيق بين قوليهما والرواية الأخرى نرجح أن الأخبار وصلت إلى مصر متأخرة عن زمنها الحقيقي فسجلها المشارقة على أنها تمت حين علمهم بها. وعلى أية حال، فإن الجنويين نهبوا المدينة (واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرثي والمتاع والعقائل والأسرى)[١] وأرسلوها إلى جنوة وأقاموا في المدينة.

وما يلاحظه الباحث في هذا المقام هو أن الروايات الإسلامية تنتقل بعد ذكر سيطرة الجنويين على المدينة إلى ذكر المفاوضات التي دارت بينهم وبين ابن مكي دون التعرض للمقاومة الإسلامية، مع أن هذا الاحتلال دام مدة تزيد عن الأربعة أشهر، فهل استكان المسلمون لذلك الاحتلال ولم يحاولواالقيام بأي نوع من المقاومة لطرد الغزاة؟ إن معظم الروايات الإسلامية التي اطلعت عليها تصمت عن هذا الأمر، ولكن يمكن الاستشفاف من رواية الزركشي أنه كان هنالك ثمة محاولات لقتال الأعداء، فهو يقول في وصفه لخروج الجنويين من البلد : (وتركوها خالية خاوية والعرب في أثناء ذلك يردون من أراد قتالهم من المسلمين إلى أن داخلهم ابن مكي)[٢]، ويؤيد الوزير السراج هذه الرواية بقوله : (... والعرب في أثناء ذلك يردون من يقدم من المسلمين لفكها إلى أن داخلهم ابن مكي)[٣]، والمستفاد من هذين النصين أنه كان هنالك محاولات من المسلمين لتحرير المدينة، ولكن موقف الأعراب السلبي من هذه المحاولات هو الذي حال دون أن تؤدي إلى نتيجة ملموسة. ولا ينبغي أن

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، انظر كذلك الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٠، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٩، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٢، النائب الأنصارى : المصدر السابق ص ١٦٧.

(٢) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٢-١٠٦٣.

يفسر هذا الموقف منهم على أنه تعاون منهم مع الجنويين، بل إن ذلك يعود إلى التنافر الذي كان بين الأعراب وأهل المدن سببهما الفوضى والفساد اللذين عمّا إفريقية في ذلك الوقت فالأعراب يعتدون على المدن، وأهل المدن يمنعون هؤلاء من الدخول إلى مدنهم، حتى إنهم كانوا في أحيان كثيرة يمنعونهم من الميرة، بل وينتهزون أي فرصة تسنح لهم ويفتكون بمن قدروا عليه ممن يدخل إلى مدنهم منهم، والأدلة على ذلك كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ولعل تحامل المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة الواضح وكلهم من أهل المدن على الأعراب لدليل آخر على هذا النفور، ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يعتبر مبرراً لهذا الموقف السلبي الذي وقفه الأعراب الذين إن صحت روايتا الزركشي والوزير السراج أفشلوا محاولات التحرير.

وبقي الجنويون في المدينة إلى أن دخل معهم أحمد بن مكي صاحب قابس في مفاوضات لإجلائهم عنها، فاشترطوا عليه أن يدفع لهم خمسين ألف دينار ذهباً[(١)] مقابل انسحابهم من المدينة، فأرسل ابن مكي إلى السلطان أبي عنان المريني (يطرفه بمثوبتها)[(٢)] بأن يبعث إليه هذا المبلغ، ولكن الجنويين لم يرغبوا في الانتظار فتعجلوا على ابن مكي في دفع المال، فقام المذكور بإخراج مالديه منه واستوهب باقي المبلغ من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد الذين جمعوه له حسبة ورغبة في الخير،، ودفعه للجنويين فسلموه البلد وأقلعوا عائدين إلى بلادهم في يوم ١٢ شعبان سنة ٧٥٥هـ/٢٦ أغسطس سنة ١٣٥٤م بعد إقامة دامت حوالي خمسة أشهر[(٢)]، وبعث أبو عنان بالمال لابن مكي بعد ذلك مع أبي عبد الله

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٠، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، محمد بن أحمد المعسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٧، ويجعلها خمسين ألف مثقال من الذهب، في حين أن ابن الشماع قال خمسين ألف دينار وهو ما اعتمدناه في المتن في حين لم تحدد الروايات الأخرى الوحدة واكتفت بالقول من الذهب العين.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، انظر كذلك الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١، المعسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١١٧.

(٣) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، وتجدر الإشارة إلى أنه ذكر أن هذه الإقامة دامت أربعة أشهر، ولما كان قد ذكر في روايته أن احتلال الجنويين للبلد كان في ١٠ ربيع أول كما سبق ذكره، وخروجهم منها كان في ١٢ شعبان كما يقول في هذا الموضع، فإن ذلك يعني أن هذه الإقامة=

بن مرزوق وأبي عبد الله محمد بن سيد الناس وطلب منه أن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد هو بمثوبتها وذكرها فامتنعوا إلاّ قليلاً منهم[1] فوضع المال عند ابن مكي، ولعل ذلك كان هو السبب الذي جعل المقريزي يقول إن أبا عنان (اشتراها من الفرنج بمال كبير وعمرها)[2] فكان ذلك نهاية حوادث هذا الهجوم الغادر.

والذي يستلفت النظر هو أن الجنويين بالرغم من احتلالهم للمدينة، فإنهم لم يتخذوها قاعدة للتوسع، بل فاوضوا ابن مكي على افتدائها منهم بالمال مما يعيد إلى الذهن نتيجة الحملة على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م حينما أخذوا هم وحلفاؤهم فدية ضخمة من أميرها تميم بن المعز وانسحبوا منها، فهل كان هدف الجنويين من هذه الغزوة هو الغنيمة فقط؟ أي أنها كانت عملاً من أعمال القرصنة على مستوى أكبر من العادي، أم أن هدفها كان أكبر من ذلك ولكن الظروف لم تتهيأ لتحقيقه؟ وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن نبحث في إمكانيات جنوة وقدراتها، إنه مما لا ريب فيه أنها كانت تدرك أن إمكانياتها ولا سيما البشرية لا تمكنها من الاستقرار والتمركز في طرابلس، وهي من باب أولى أعجز عن القيام بأي توسع مستقبلي في إفريقية، إذن فما الذي دفعها إلى هذه المغامرة؟ إن ما نراه في هذا الموضوع أن جنوة كانت تأمل في بيع هذا الانتصار لإحدى القوى الصليبية الكبرى التي تملك الإمكانيات التي كانت تنقصها مقابل أن تفوز هي منها بامتيازات تجارية، أي وبعبارة أخرى أن تحصل هي على المكاسب التي تبتغيها دون أن تتحمل عبء الحرب المتوقعة مع المسلمين، ولعل في النتيجة التي آلت إليها الحملة على جربة فيما بعد والتي أسهمت فيها هي بأكبر نصيب وما أملته من حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية كما سيأتي ذكره خير دليل على صحة هذا القول، ولكن ظروف أوروبا الغربية في ذلك الوقت لم تساعد جنوة على الوصول إلى بغيتها، فالقوتين الكبيرتين فرنسا وإنكلترا اشتبكتا وفي ذلك الوقت بالذات في معارك طاحنة في

= كانت حوالي خمسة أشهر وليس أربعة، وبذلك يتفق مع ابن الشماع (ص ١٣٠)، وابن أبي دينار (ص١٤٠)، والوزير السراج (ص ١٠٦١) الذين قالوا إنها كانت خمسة أشهر، وما نعتقده أن الخطأ في احتساب المدة جاء من الناسخ، أما ابن خلدون والمقريزي والمعسكري فلم يتعرضوا لذكر المدة.

(١) الزركشي : ص ٩٤ ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٦٩.

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١.

إحدى مراحل حرب المائة عام، علاوة على أنهما كانتا تعانيان وقتئذٍ من أزمات اقتصادية واجتماعية حادة خلفها وباء الموت الأسود[١]، وينطبق نفس الأمر على مملكة أرغونة التي كان النزاع بينها وبين قشتالة محتدماً في تلك الآونة، فضلاً عن أن النزاع الذي كان قائماً بين أرغونة وجنوة على ملكية سردينيا وكورسيكا كان يفرض على الأخيرة التحفظ في عرض المدينة على أرغونة، وحيال هذه الظروف شعرت جنوة أنها ستغادر طرابلس إن آجلاً أو عاجلاً، فلا أقل إذن من أن تكسب الفدية لا سيما وأن ظروفاً لم تكن في حسبانها قد بدأت تستجد على ساحة إفريقية وهي تباشير الزحف المريني الثاني عليها إذ كان أبو عنان قد هاجم القسم الغربي من إفريقية واحتل بجاية[٢] وأخذ يدعم نفوذه في تلك النواحي ويتأهب لمواصلة زحفه الأمر الذي قام به بعد تلك الحملة بفترة وجيزة كما سبق ذكره، فسيطرة أبي عنان على غرب إفريقية ليس في صالح الجنويين، إذ لو استمر في زحفه ووحد إفريقية فإنه سيوجه جهوده نحوهم وينتزع طرابلس منهم، ولا نستبعد أن يكون أبو عنان قد فكر في ذلك بالفعل، الأمر الذي يفسر تأخره في إرسال المال إذ أنه لم يرسله إلاّ بعد رحيل الجنويين ولعل هؤلاء شعروا بذلك مما جعلهم يتعجلون ابن مكي في دفع الفدية لهم، ومما يدعم هذا القول ما ذكره محمد بن أحمد المعسكري حيث يقول : (ثم تعجلوا عليه – أي ابن مكي – لما خافوا من أبي عنان يغزيهم)[٣]، لذلك فإن النتيجة الظاهرة أخفت الأهداف الحقيقية للغزوة.

وثمة ملاحظة أخرى يلاحظها الباحث في هذا الموضوع هي لماذا طلب ابن مكي المال من السلطان المريني أبي عنان ولم يطلبه من السلطان الحفصي؟ وفي اعتقادنا أن ذلك الأمر يعود إلى العلاقة الطيبة التي كانت تربط ابن مكي بالمرينيين إلى حد أننا لن نكون مغالين إذا ماقلنا أنه كان رجلهم المعول عليه في إفريقية، بعكس ماكان عليه حاله مع الحفصيين حيث إن علاقته بهم كانت سيئة إلى حد العداء، وكانت هذه العلاقة السيئة بين الحفصيين وأسرة ابن مكي ليست بالأمر الجديد أو المستحدث، وإنما تعود إلى ما قبل ذلك بكثير، ذلك أن

---

(١) عن أثار وباء الموت الأسود على أوروبا، انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص٤٩٦ – ٤٩٧.

(٢) انظر الزركشي : المصدر السابق ص٩٤، ابن الشماع : المصدر السابق ص١٣٠.

(٣) محمد بن أحمد المعسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩.

أمراء هذه الأسرة كانوا يطمحون إلى الاستقلال، ولذلك رأينا علي بن مكي والد أحمد الآنف الذكر يناصر ابن أبي دبوس في حركته كما سبق ذكره، وكان أحمد بن مكي يحاول اغتنام أي فرصة لشق عصا الطاعة على الحفصيين، ولذلك ما أن علم بعزم أبي الحسن المريني على الزحف على إفريقية حتى أسرع إليه على رأس وفد قسطيلية وبلاد الجريد حيث لقيه بوهران وتقدم إليه بالبيعة، وحفظ أبو الحسن له هذا الجميل فقابله هو وصحبه بالبر والإكرام وعقد لهم على أمصارهم، وصرفهم إلى أعمالهم إلاّ ابن مكي فإنه استصحبه ليكون عوناً له، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وتمسك بأحمد بن مكي لصحابة ركابه وفي جملته)[1]، وفعلاً كان خير عون له في إفريقية حتى إنه حينما دخل تونس وفر منها السلطان الحفصي أبو حفص، وأتبعه أبو الحسن بأعراب أولاد أبي الليل الذين لحقوا به وهزموه وفرت فلول جيشه بعد مقتله إلى قابس، قام عبد الملك بن مكي رديف أخيه أحمد في حكم تلك المدينة بالقبض على أصحاب السلطان الحفصي المقتول مثل أبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين وصديق ذلك السلطان ، وصخر بن موسى شيخ بني مسكين زعيم قبيلة سدويكش وغيرها وأرسلهم مقرنين في الأصفاد إلى أبي الحسن[2]، وظلت علاقة الود بين ابن مكي والمرينيين قائمة حتى بعد رحيل أبي الحسن عن إفريقية حيث اتصلت بعد ذلك بينه وبين ابنه أبي عنان سلطان بني مرين الجديد، في حين ازدادت علاقته سوءاً بالسلطان الحفصي أذكتها الكراهية التي كانت مستحكمة بينه وبين ابن تفراجيين حاجب السلطان[3].

وعند هجوم الجنويين على طرابلس كان أبو عنان قد بدأ يعد العدة لزحفه على إفريقية كما سبق ذكره، ولا بد أن ابن مكي كان يدرك عزم أبي عنان، فهو بذلك اتصل بالسلطان الذي يدين له بالولاء من ناحية، ثم إنه أراد تخليص إفريقية من هذا الخطر لتكون خالصة لأبي عنان من ناحية ثانية وهو في غضون ذلك يحقق مطامعه في تأسيس ولاية كبيرة بضم طرابلس ونواحيها إلى ولايته من ناحية ثالثة. وقد تم له ما أراد فقد ضمها أبو عنان إليه وعقد

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٧٢.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٦٩.

(٣) انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٤.

له عليها في حين عقد لأخيه عبد الملك بن مكي على قابس[1]، فانتقل أحمد إثر ذلك إلى طرابلس واتخذها مقراً لإماراته وبذلك خلص معظم شرق إفريقيةلأبي عنان في حين أنه كان قد بسط نفوذه على معظم قسمها الغربي ولم يبق منها خارجاً عن طاعته إلاّ وسطها وجنوبها اللذان سيحاول بسط نفوذه عليهما بعد ذلك بثلاث سنوات أي في سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م.

وهنالك ملاحظة ثالثة حول هذا الموضوع، تتعلق بموقف السلطان أبي إسحق إبراهيم من هذه الغزوة والدوافع التي جعلته يتخذ موقفاً سلبياً منها. لقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا السلطان كان صغير السن الأمر الذي جعل حاجبه الداهية ابن تفراجين يستبد بالأمور دونه حتى كانت حاله معه أشبه ما يكون بالمحجور عليه، وكانت الأمور قد اضطربت على هذا السلطان إلى حد كبير، فالفتن الداخلية كانت لا تزال محتدمة، والخطر المريني كان قد بدأ يهدده، وبالإضافة إلى ذلك أصيبت إفريقية في ذلك العام بالقحط الأمر الذي كان يهدد بتفشي المجاعة فيها، وما يصاحب المجاعة من تفشي الأمراض والأوبئة، فارتفعت أسعار المواد الغذائية في تونس على وجه الخصوص ارتفاعاً كبيراً، وفي ذلك يقول الزركشي : (وفي سنة خمس وخمسين ارتفع سعر الطعام بتونس إلى أن بلغ سعر القفيز من القمح أحد عشر ديناراً ذهباً والشعير إلى النصف من ذلك)[2]. وحيال هذه الظروف عجز السلطان عن بذل أي مجهود مجدي لإنقاذ طرابلس، ومع ذلك فإن أي حكم منصف لا يعفيه من المسؤولية ، وكان الواجب يحتم عليه أن يحاول بأقصى ما يستطيع للتصدى للغزاة سيما وأن مسلمي إفريقية على اختلاف ميولهم كانوا على استعداد لدعم أي محاولة جدية يقوم بها لتحرير المدينة، يدل على ذلك الموقف النبيل الذي وقفه أهل قابس والحامة وبلاد الجريد حينما دفعوا أموالهم عن طيب خاطر لابن مكي – وهو ما طلب منهم – من أجل افتدائها، ورفضوا إلاّ القليل منهم أن يستردوا ما دفعوه جاعلين ما أنفقوه هو في سبيل الله، فكان على هذا السلطان أن يحاول بدلاً من موقف اللامبالاة الذي اتخذه، ولا يعفيه أن طرابلس كانت آنذاك خارجة عليه من هذه المسؤولية أيضاً، ذلك أن خروج وال على سلطانه لا يعطي ذلك السلطان المبرر لجعل جزء من بلاده طعمة للأعداء، يحتلونها ويقتلون

(١) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٥.
(٢) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٥.

ويأسرون من أهلها كيفما شاؤوا ثم ينهبونها، وأما ابن مكي فكان الأجدر به أن يحررها بحد سيفه كما يليق بالمسلم الحق أن يفعل بدلاً من شرائها من العدو بالمال.

وعلى أية حال، فقد شهد الصراع الإسلامي الصليبي في جبهة إفريقية بعد هذه الغزوة فترة من الهدوء النسبي لم يعكره إلاّ بعض أعمال القرصنة(١) كان أهمها الهجوم على الحمامات سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م حيث تمكن المهاجمون من احتلالها ونهبها، وأقاموا بها يومين ينقلون ما وجدوه فيها إلى سفنهم ثم انصرفوا عنها(٢)، ثم توتر العلاقات مع أرغونة من جديد منذ اعتلاء السلطان أبي العابس أحمد المستنصر العرش الحفصي كما سيأتي ذكره، وقد دامت فترة الهدوء هذه حتى سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حينما وجهت إلى إفريقية حملة صليبية جديدة استهدفت جزيرة جربة.

حملة جنوة وحلفائها على جربة:

حدثت في إفريقية خلال تلك الفترة تطورات هامة، فقد توفي السلطان الضعيف أبو إسحق إبراهيم في ٢٠ رجب سنة ٧٧٠هـ/١٩ فبراير سنة ١٣٦٩م، ولم يتمكن ابنه وولي عهده الطفل أبو البقاء خالد الذي تولى الحكم من بعده من الوقوف في وجه ابن عمه القوي أمير القسم الغربي من إفريقية أبي العباس أحمد الذي زحف على تونس، فكان أن فر هو ووزراؤه منها، فدخلها أبو العباس واعتلى سدة السلطنة في ١٨ ربيع الآخر سنة ٧٧٢هـ/٩ نوفمبر ١٣٧٠م حيث اتبع السلطان الهارب بعض جنده فقبضوا عليه، فسيره أبو العباس في البحر منفياً إلى المغرب فغرقت السفينة به في الطريق(٣)، وبذلك خلص العرش الحفصي لأبي العباس الذي بدخوله تونس أعاد وحدة إفريقية من جديد. كان أبو العباس أحزم وأقوى حاكم اعتلى العرش الحفصي بعد المستنصر الأول، وبتوليه انتهى عصر الفتنة والفوضى في إفريقية

---

(١) عن ذلك انظر على سبيل المثال ابن الحاج: المصدر السابق ورقة ١٩٥-١٩٦.

Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 324-5.

(٢) انظر ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٦٢.

(٣) لمزيد من التفصيل عن هذه الحوادث ، انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨١ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٧ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٦ وما بعدها ، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٦ وما بعدها، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٥٠ وما بعدها

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, P. 185-7.

الذي دام حوالي القرن، ذلك أنه كان علاوة على حزمه يتمتع بكفاءة إدارية عالية إلى جانب تسامح كبير حتى معه أعدائه، مما جعل الرعية تحبه وتلتف من حوله، وتفسح له المجال لتحقيق طموحاته في تخليص إفريقية من العلل التي كانت تنخر فيها، وقد اختار جهازاً إدارياً ممتازاً على رأسه أخوه أبو يحيى زكريا، فكان هذا الجهاز خير معين له في كافة أموره، فاستطاع أن يسير به دفة الحكم وينظم مملكته، الأمر الذي جعله يعتبر المجدد للدولة الحفصية وباعث الحياة فيها، مما جعل المؤرخين المسلمين في المغرب والمشرق على حد سواء يقرضونه في كتاباتهم[1].

كانت سياسة أبي العباس الداخلية تدور حول محورين رئيسيين هما القضاء على الفساد والفوضى وتوفير الأمان والاطمئنان لرعيته، ثم القضاء على النزعة الانفصالية لدى بعض الولاة وحكام الأقاليم، وقد قضى جل عهده يعمل على تحقيق ذلك، فبالنسبة للناحية الأولى اصطدم منذ البداية مع الأعراب الذين بدؤوا في الشغب عليه لأنه حرمهم من امتيازاتهم وانتزع ما بأيديهم من النواحي وكفهم عن الاستبداد، فكانت له معهم وقائع كثيرة حتى لانت له عريكتهم[2]، وكما نجح في هذا المضمار إلى حد بعيد، نجح في القضاء على النزعات الانفصالية مثل حركة ابن يملول في الزاب، وأبناء مكي في قابس وطرابلس[3] وسواهم. وأما سياسته الخارجية فقد اتسمت هي الأخرى بالحزم واتباع أسلوب المعاملة بالمثل، فقد قطع

---

(١) انظر بالنسبة لمؤرخي المغرب، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨١، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٧، ابن الشماع : المصدر السابق ص ١٣٩، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٦ ، وممن قرضه من مؤرخي المشرق شهاب الدين بن حبيب الحلبي حيث يقول : (كان فيما يحكى عنه ملكاً مهاباً، فاتحاً للخير أبواباً، عارفاً بتدبير مصالحه وممالكه ومصالحها، صارفاً همته إلى ما يرضي الله عز وجل والناس في غادي الأيام ورائحها. كثير المكارم لذوي الاستحقاق، غزير العلم والأدب والإرفاد مجتهداً في قمع أعداء الدين، معتمداً على الله في عمل مصالح المسلمين، ولا زال ماشياً على هذا النهج القويم، إلى أن اخترمته المنية ودخل في مغفرة الرب الرحيم).
شهاب الدين بن حبيب الحلبي : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣، مخطوط أكسفورد رقم DCCXXXIX ورقة ٢٩١.
وقد أشاد العلامة الإسكندري بدر الدين الدماميني بخصاله في قصيدة بديعة مدحه بها وأرسلها إليه فأجازه عليها. (انظر عن ذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٥٢).

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٨٣ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٦، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٧.

الأتاوة التي كان يدفعها سلفه للملكي صقلية وأرغونة(1)، الأمر الذي خلق توتراً في العلاقات بين الجانبين، كما نشط غزاة البحر المسلمين منذ بداية عهده في الرد على أعمال القرصنة ضد إفريقية، فأخذوا يهاجمون بسفنهم الخفيفة سفن القراصنة النصارى والسفن التجارية الأوروبية على حد سواء حتى طهروا بحر إفريقية من هؤلاء القراصنة فلم نعد نجد ذكراً لحوادث قرصنة ضد إفريقية في المصادر التاريخية منذ أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر، ويبدو أن أبا العباس حاول في بداية الأمر فرض السيطرة على هؤلاء، إما التزاماً من جانبه بالمعاهدات المعقودة بينه وبين بعض الدول المسيحية لتنشيط التجارة الخارجية التي توفر لرعيته مزيداً من الرخاء، أو ليسهل عليه توجيهها الوجهة التي تتلائم مع سياسته تجاه تلك الدول. ولم يصل الأمر بينه وبينهم إلى حد الخلاف، بل توصل إلى اتفاق معهم تقوم الدولة بموجبه بحمايتهم(2) في حالة تعرضهم لخطر أكبر من إمكانياتهم مقابل ما كانوا يؤدونه لها من خدمات وما يدفعونه لخزينتها من أموال هي خمس الغنائم، ولهذا تغاضى عن نشاطهم إن لم يكن قد شجعه، نظراً للعبء الذي أزاحوه عن كاهله في الدفاع عن سواحل إفريقية فضلاً عما تقدم، وتصامم عن شكاوى النصارى من هؤلاء الغزاة كما كان ملوكهم يصممون آذانهم في السابق عن شكاوى السلاطين الحفصيين من اعتداءات قراصنة رعاياهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية فصم عن سماعها)(3)، ونتيجة لذلك ازداد نشاطهم كما سبق ذكره زيادة كبيرة، فاتخذوا من موانىء إفريقية لا سيما المهدية وبجاية مراكز لعملياتهم، وتجدر الإشارة هنا إلى أن بداية نشاط غزاة البحر المسلمين الأفارقة، لم تكن إلاّ رداً على نشاط القراصنة النصارى، أو بعبارة أخرى نوعاً من الحرب الوقائية وليس العكس كما تزعم العديد من المراجع الغربية(4)، ذلك أن إفريقية تعرضت مدة قرن لهجمات القراصنة النصارى إبان عصر الفوضى دون أن يكون لديها القدرة على الدفاع عن نفسها، ولم يكف هؤلاء القراصنة عن التعدي عليها إلاّ حينما بدأ نشاط غزاة البحر المسلمين في عهد

---

(1) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, I, P. 192.

(2) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ١٤٢.

(3) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٤٠٠.

(4) انظر على سبيل المثال : شاخت وبوزورث : المرجع السابق ق ١ ص ٣٣٢.
R.Brunschvig : Op. Cit., Tom. I.P, 196.

أبي العباس، والمراجع الأوروبية تحاول بهذا الزعم خلق المبرر للحملات الصليبية التي وجهت لإفريقية في أواخر القرن الرابع عشر، صرفاً للأذهان عن الدافع الحقيقي لتلك الحملات. وعلى كل حال فإن غزاة البحر المسلمين الذين اختلطت في أذهان البعض منهم فكرة الجهاد بالقرصنة أخذوا يتجرؤون ويهاجمون جزر غرب البحر الأبيض المتوسط وشواطئ جنوب غرب أوروبا ويعودون وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى، حتى أثاروا فيها الرعب. وأصبحت بجاية بصفة خاصة والتي تولى القيادة في بحرها أبو عبد الله محمد بن أبي مهدي متولي دار الصناعة فيها[(١)] والذي كان يساند غزاة البحر من أهلها، أصبحت أكبر مركز لبيع الرقيق في المغرب العربي بأسره، نظراً لأن أهلها كانوا أسبق من غيرهم من مسلمي إفريقية في الغزو في البحر؛ يقول ابن خلدون في ذلك : (... فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم – أي الفرنج – وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرة وعجزوا عن الثأرة به)[(٢)].

وتبعاً لذلك، فقد جَرَّتْ عليه هذه السياسة الحازمة مع الدول المسيحية نقمة تلك الدول، إذ كان لا يرضيها بطبيعة الحال أن تأخذ إفريقية بأي نوع من أسباب القوة، بل تعمل دائماً على الإبقاء عليها ضعيفة وممزقة ليسهل احتلالها، فخلق ذلك توتراً في العلاقات بين أبي العباس وبعض تلك الدول في حين ظلت قوى مسيحية أخرى تحتفظ بعلاقات طيبة مع الدولة الحفصية كالبندقية مثلاً. وكانت أرغونة التي لم تنس أطماعها في إفريقية ولم تكف عن السعي لتحقيق تلك الأطماع إلاّ مرغمة، هي أول القوى الصليبية التي توترت علاقاتها مع

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٨٦، انظر كذلك :
R.Brunschvig : Op. Cit., Tom, l, P. 196.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٩ – ٤٠٠.

إفريقية، ويبدو أن عدم خضوع أبي العباس لدفع الأتاوة السنوية للخزينة الصقلية كان له أثر مباشر على هذا التوتر، ولذلك ما أن انتهت الحرب بينها وبين قشتالة وعقدت معاهدة الصلح بينهما حتى وجد ملكها بيدرو الرابع نفسه مطلق اليدين لاستئناف نشاطه العدواني ضد إفريقية، فوجه جهوده بلهفة وإصرار إلى جزر البحر الأبيض المتوسط التي تقربه منها مثل سردينيا وكورسيكا وصقلية التي نظراً لانشغاله في الحرب ضد قشتالة تراخت قبضته عنها، فكانت جنوة التي تنازعه ملكية كورسيكا وسردينيا قد بسطت نفوذها على القسم الأكبر منهما، كما كانت قد ظهرت مقاومة ضد أرغونة في صقلية، ولذلك باشر في وضع الخطط لإعادة هيمنته على هذه الجزر ثم في الاستعداد لتوجيه حملة صليبية إلى إفريقية لنشر المعتقد المسيحي كما كان يقول، حتى إنه في ٢٦ يونيو سنة ١٣٧٣م/٧٧٥هـ سمى مسبقاً (Pierre Saula) ليكون حاكماً عاماً على إفريقية عندما يتم استيلاؤه عليها[١]، عاقداً الآمال لإحراز المكاسب التي كان يتمناها بعد تنصيب الحاكم الجديد في مناطق ما وراء البحر، ومع أنه أحرز نجاحاً إلى حد ما في القسم المتعلق ببسط نفوذه على الجزر الآنفة الذكر[٢] من خططه، إلاّ أنه أخفق في القسم المتعلق باستيلائه على إفريقية من تلك الخطط، ذلك أنه بالرغم من أن أرغونة اتفقت مع بيزا[٣] على شن هجوم مشترك على إفريقية حيث قامت قوة بحرية من أسطوليهما بالإغارة في سنة ١٣٧٩م على بعض نواحيها وتسببت في بعض الخسائر[٤]، إلاّ أن تلك القوة اضطرت للانسحاب والعودة من حيث أتت نتيجة للمقاومة الشديدة التي ووجهت بها، وفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م كان بيدرو لا يزال يحلم بالاستيلاء على إفريقية، إلاّ أن وفاته المفاجئة في ٤ يناير سنة ١٣٨٧م / ٧٨٨هـ بعد حكم دام نصف قرن وضعت حداً لأطماعه، وأعقب

(١) انظر : R, Brunschvig : Op. Cit., Tom 1,P. 197.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : R, Brunschvig : Ibid, Tom 1, P. 196-7.

(٣) كان لبيزا مصالح تجارية في إفريقية تحاول المحافظة عليها بالمعاهدات التجارية تارة، كما أنها لم تكن تمانع في الاشتراك في عمل عسكري مع أي من القوى الأخرى ضدها تارة أخرى، فبالنسبة للناحية الأولى في تلك الفترة أرسلت سفارة إلى إفريقية في ١١ سبتمبر ١٣٧٨ ترأسها (Rainier Bullia de Gualandi) لعقد معاهدة تجارية مع السلطان للاتجار مع تونس وبونة وبجاية، وفي العام التالي ١٣٧٩م اشتركت مع أرغونة في شن هذا الهجوم ، ثم بالرغم من أنها كانت على عداء مع جنوة لتنازعهما على سردينيا إلا أنها شاركت في الحملة على جربة سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م كما سيأتي ذكره.

(٤) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, P. 197.

وفاته تغير جذري في سياسة أرغونة الخارجية إذ كان ابنه جان الأول (Jean 1) وخليفته في العرش مسالماً، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لا تسعفنا بمعلومات كثيرة عن علاقة هذا الملك بإفريقية إلا أنها على الأرجح لم تكن علاقة عداوة واضحة نظراً لطبيعته المسالمة[1].

وكما توترت العلاقات بين إفريقية وأرغونة في هذه الفترة، كذلك فإن نشاط غزاة البحر المسلمين في إقليم بروفانس بجنوب فرنسا أقلق مدينة مرسيليا، وتكشف مناقشات المجلس البلدي لتلك المدينة عن مدى ما سببه ذلك النشاط من خوف وقلق لدى أهلها خاصة وأهالي بروفانس عامة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنها تطرقت إلى البحث عن الوسائل التي من المفروض أن تتخذ للتصدي لغزاة البحر المسلمين، حيث قرر ذلك المجلس وضع حراسة في الموقع البحرية وتعزيز مدخل ميناء المدينة بحراسة شديدة ثم تسليح مراكب حربية للتصدي لهم في عرض البحر وملاحقتهم، وعلاوة على ذلك كشفت تلك المناقشات عن اهتمام المجلس بالبحث في الطرق الكفيلة باسترجاع الأسرى من مواطني المدينة من إفريقية[2]، وبذلك تلقي هذه المناقشات الضوء على ناحية هامة هي أن علاقات الدولة الحفصية بفرنسا كان يشوبها التوتر في تلك الفترة، فكانت هي الأخرى تفكر في القيام بعمل ما ضد إفريقية، وقد يرى البعض أنه لم يكن هنالك ثمة مبرر لهجمات غزاة البحر المسلمين على بروفانس حيث إن علاقة مرسيليا بإفريقية لم تكن تتعدى العلاقات التجارية، ولكن الحقيقة هي غير ذلك، صحيح أن المصادر التاريخية لم تتطرق لذكر فيما إذا كان هنالك نشاطات عدوانية من مرسيليا ضد إفريقية، ولكن الصحيح أيضاً أن قراصنة كل من أرغونة وميورقة وجنوة وصقلية الذين كانوا يعتدون على إفريقية وجدوا من مرسيليا كل مساعدة وعون، فكانت أبوابها مفتوحة لهم للتزود منها وبيع غنائمهم في سوقها، وهو أمر لم يكن يخفى على غزاة البحر المسلمين، فكانت هذه السياسة الحازمة التي انتهجها أبو العباس تجاه الدول المسيحية هي السبب في إثارة تلك الدول عليه.

وعلى أية حال، فإن جنوة التي شعرت بأنها أكثر هذه الدول تضرراً من نشاط غزاة البحر المسلمين في تلك الآونة، نظراً لأن إفريقية خاصة والمغرب العربي عامة أصبح الشريان الأهم

---

(١) انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom l, P. 197.

(٢) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom l, P. 196.

لنشاطها التجاري بعد أن تضاءل هذا النشاط في المشرق لصالح البندقية إلى حد كبير، أخذت تفكر في وضع حد لنشاط هؤلاء الغزاة الذي بات يهدد مصالحها تهديداً خطيراً. ولكن الظروف الحرجة التي كانت تمر بها في تلك الفترة حالت دون قيامها بعمل عسكري ضد إفريقية يوقف هذا التهديد. ذلك أن الصراع بينها وبين البندقية قد تجدد في سنة ١٣٧٨م، وكانت هزيمتها أمام البندقية في معركة كيوجا (Ghioggia) سنة ١٣٨٠م كارثة عليها، إذ فقدت فيها معظم أسطولها وزهرة شبابها[١]، الأمر الذي جعل تلك المعركة نقطة تحول في تاريخ جنوة من القوة والازدهار إلى بداية عهد الضعف والانحلال. وزاد الطين بلة تفجر الفتن والمشاكل الداخلية فيها، والتي سببتها الحزبية والنزاع بين العائلات النبيلة فيها إلى جانب البغض والكراهية التي كان عامة الشعب من فلاحين وعمال وبحارة يكنونهما للنبلاء الذين كانوا يسيطرون على الأرض ورؤوس الأموال ويستغلون الفئات المذكورة أبشع استغلال[٢]، حتى تطور هذا الوضع إلى انقسام أهل جنوة إلى معسكرين متعارضين، يضاف إلى ذلك ما سببه الانشقاق الديني الكبير فيها من تمزق إذ وجد كل من بابا روما وبابا أفينون فريقاً يناصره من أهل المدينة، فضلاً عن نزاعها مع أرغونة الذي أججته طموحات بيدرو الرابع كما سبق ذكره، ثم أخيراً وليس آخراً الخطر الذي أخذ يهدد حدودها الشمالية من قبل دوق ميلان جان جالياتزو فيسكونتي (Gan Galeazzo Visconti) الذي بعد أن فرض سيطرته على إقليم لومبارديا بأسره أخذ يتطلع إلى جنوة بعين طامعة[٣].

لكل ذلك بدت جنوة عاجزة عن اللجوء إلى القوة العسكرية لضرب المسلمين في إفريقية، فلجأت إلى أسلوب ملاينة السلطان الحفصي ريثما تتهيأ لها فرصة أفضل، فأرسلت سفيرها فردريك ليكافيلو إلى تونس والذي تمكن في ١٦ أغسطس سنة ١٣٨٣م من عقد معاهدة مع محمد بن أبي هلال ممثل أبي العباس[٤] تتضمن بنودها إلى جانب الأمور التجارية

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الحروب انظر فيشر : المرجع السابق ق ٢ ص ٤٢٥، ص ٤٣١ كذلك محمد عوني يس : حملة لويس البوربوني على المهدية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ص ٦٨.

(٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر :
Agostino Guistiniani : Annali Della Republica di Genova. V.II,P. 160-70.

(٣) محمد عوني يس : المرجع السابق ص ٦٨. وكذلك Leon Mirot : Le Siege De Mahdia, P.9

(٤) انظر : R,Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1 ,P. 197.

عقد السلام بين الجانبين.ولكن هذه المعاهدة وإن كفت غزاة البحر المسلمين عن أراضي جنوة وسفنها إلى حد كبير، إلاّ أنها لم توقف نشاطهم ضد الدول الأخرى، بل زاد خطرهم على حركة التجارة في غرب البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي جعل جنوة صاحب أكبر نصيب في تجارة تلك المنطقة تشعر بأن هذا الخطر لا زال يهدد مصالحها، وحفزها بالتالي على وقف ذلك النشاط بالقوة العسكرية. وهنا التقت مصالحها بمصالح مملكة صقلية التي كانت قد ورثت طموحات بيدرو الرابع في إفريقية بعد أن لمست عزوف ابنه وخليفته جان الأول عن تلك الطموحات وميله للسلام، فأخذت تفكر هي الأخرى في توجيه حملة صليبية ضدها في تلك الآونة ، وتبعاً لذلك جرت الاتصالات بينها وبين جنوة للتنسيق بينهما وإعداد حملة من قوات مشتركة لتوجيهها إلى إفريقية، وقد حظيت هذه الفكرة بتأييد وتشجيع كبير من البابا أوربان السادس (١٣٧٨-١٣٩٠م) بابا روما[١]، فدعا أنصاره لمساندتها الأمر الذي رفع هذه الحملة إلى مستوى الحملات الصليبية، ولم تلبث أن دخلت بيزا شريكاً ثالثاً في هذا المشروع، ولم تكتف جنوة بذلك بل إنها دعت البندقية عدوتها اللدودة للمشاركة في الحملة المرتقبة والتي وافقت مبدئياً في سنة ١٣٨٨م على ذلك، ووعدت بالإسهام فيها بخمس قطع حربية من أسطولها[٢]، وبناءً على ذلك الاتفاق تم إعداد هذه الحملة، فاشتركت جنوة فيها باثنتي عشرة قطعة حربية قادها رفاييل أدورنو (Raphael Adorno) شقيق الدوج أدورنو، وأسهمت بيزا بخمس قطع قادها فرانسيس أورلاندي (Francois Orlandi)، أما البندقية فعادت وسحبت وعدها ولم تشارك في تلك الحملة، وأما صقلية فإنها اشتركت بثلاث قطع. وأسندت القيادة العامة لهذا الأسطول إلى مانفرد دي كيرمونت (Manfredo di Chiara-monte) قائد أسطول صقلية. وفي أوائل صيف سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م تجمع هذا الأسطول في صقلية حيث تم الاتفاق على اختيار جزيرة جربة لتكون هدفاً له[٣]، يقول المؤرخ الجنوي أوبرتي فوليتاي (Uberti Folietae) في كتابه المسمى (Patricii Genvensis Historiae

(١) انظر : R,Brunschvig : Op. Cit., Tom.l, P. 198.

(٢) انظر : R,Brunschvig : Op. Cit.,Tom.l,P. 197.

(٣) R,Brunschvig : Ibid, Tom l.P. 1978.
انظر أيضاً حاجي خليفة : المصدر السابق ورقة ٥٤.

(Genvensium) عن هذا الموضوع بأن رافائيل دي كيرمونت (Rafaello di Ghiaramonte) حاكم صقلية من قبل ملكتها ماري أسند إلى أخيه مانفرد قيادة الحملة التي وجهت ضد سلطان تونس والمكونة (من اثنتي عشرة سفينة حربية جنوية كبيرة تضم كل واحدة منها ثلاث مجموعات من المجدفين، بالإضافة إلى ثلاث سفن كبيرة من صقلية، وخمس من بيزا، وقد اتجهت إلى شاطئ إفريقية . . .)[1]. وفي يوم ١٨ إبريل سنة ١٣٨٨م/ رجب سنة ٧٩٠هـ أقلع هذا الأسطول متجهاً إلى جربة الهدف الأول لكل من كان يطمع في إفريقية.

كانت جربة منذ أن أستخلصها القائد مخلوف بن الكماد من الأرغونيين سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م كما سبق ذكره قد ترددت بين الاستقلال والتبعية للسلطان، فبعد طرد الأرغونيين منها استضافها أحمد بن مكي صاحب قابس إلى عمله فأضيفت له، ولكن نظراً لنزعته الاستقلالية ولأنه سار في أهل الجزيرة سيرة سيئة الأمر الذي جعلهم يشكونه إلى الحاجب ابن تفراجين والذي كان الخلاف محتدماً بينه وبين ابن مكي[2]، أرسل إليها حملة عسكرية سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م بقيادة ابنه محمد، وكان ابن مكي غائباً عنها في طرابلس منذ أن تسلمها من الجنويين، وقد تمكنت هذه الحملة من طرد أتباع ابن مكي وأخذ الجزيرة، فاستعمل عليها محمد بن الحاجب بن تفراجين، كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون الذي ظل والياً عليها حتى وفاة الحاجب بن تفراجين سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م، ثم استقل بها عن السلطان بعد أن داخل شيوخها من الوهبية والنكارة، مقلداً في هذا الاستقلال جيرانه الحكام في قابس وطرابلس والجريد، ولم يكتف بذلك الاستقلال بل شرع يداخل أولئك الحكام لتكوين جبهة موحدة تناوئ السلطان الجديد أبا العباس. لذلك حينما خرج أبو العباس لإخضاع الساحل في سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م أرسل إلى جربة ابنه أبا بكر على رأس جيش كبير يدعمه الأسطول، فنزل بالجزيرة، فلاذ ابن أبي العيون بحصن القشتيل محاولاً الامتناع به ولكن أبا بكر حاصره حتى تمكن من اقتحامه على ابن أبي العيون ونقله إلى تونس، حيث أودع السجن بعد التشهير به، فبقي فيه حتى وفاته سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م[3]،

---

(١) انظر محمد عوني يس : المرجع السابق ، ملحق رقم ١، ص ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٤.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨٥–٣٨٦، وكذلك .
R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P, 189.

وبذلك عادت جربة إلى حظيرة الدولة الحفصية. وظلت كذلك يتعاقب عليها ولاة السلطان أبي العباس، إلى أن هاجمتها جنوة وحلفاءها سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م.

وصل الأسطول الصليبي الآنف الذكر إلى مياه جربة بعد بضعة أيام من إقلاعه، وتمكن من مباغتة أهلها، فنزل الصليبيون إلى البر وأعملوا السيف في المسلمين، وبعد أن رووا ظمأهم الوحشي من الدماء بدأت عملية النهب والأسر والسبي المعهودة منهم في مثل هذه الحالة، فنهبوا كل ما وصلت أيديهم إليه، ونقلوا غنائمهم وأسراهم إلى سفنهم حتى امتلأت بها حيث أرسلوها إلى مواطنهم، وبقيت فئة منهم في الجزيرة بقيادة مانفرد دي كيرمونت كحامية لها والذي سرعان ما أعلن ضمها إلى مملكة صقلية، وبارك البابا أوربان السادس هذا الاحتلال، وأتبع هذه المباركة بتعيين مانفرد حاكماً عليها وعلى كافة الجزر الأخرى في خليج قابس[1]، والتي لم تكن قد احتلت بعد، الأمر الذي يؤكد المغزى الصليبي لهذه الحملة بعكس ما تزعمه العديد من المراجع الغربية بأن هذا الهجوم لم يكن إلاّ رد فعل لنشاط غزاة البحر المسلمين دون أن يحمل في طياته أي طابع صليبي[2]. وقد جنت جنوة صاحبة أكبر قوة في هذة الحملة فوائد كبيرة، فقد حازت على أكبر قسم من الغنائم من ناحية، ثم إنها حصلت من مانفرد على مبلغ ستة وثلاثين ألف فلورين ذهبي مقابل أتعابها وتخليها عن الجزيرة[3]، والأهم من هذا وذاك هوأنها ساعدت في إقامة حكومة صديقة لها في الجزيرة تعترف لها بالجميل بحيث ستحافظ لها هذه الحكومة على مصالحها، دون أن تتحمل هي أي عبء في الدفاع عنها.

ولكن ما موقف السلطان الحفصي من هذاالهجوم؟ الحقيقية أن أبا العباس فوجئ بهذا الهجوم المباغت، فلم يكن بطبيعة الحال قد أعد العدة لمواجهته، ولم يتمكن عامله على الجزيرة

---

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 198., A. S. Atiya : Op. Cit., P. 398.

(٢) انظر على سبيل المثال R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 197. والذي يفترض بالإضافة إلى ما ذكر في المتن فرضاً آخر، هو رغبة مانفرد دي كيرمونت في تحقيق طموح شخصي له، حيث إن ذلك يطابق المطالب التقليدية لصقلية في الجزيرة بل وفي إفريقية.

(٣) انظر رواية المؤرخ الجنوي أوبرتي فوليتاي عن هذا الموضوع في : محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق رقم ١ ص ٢٤٣، انظر كذلك :
R. Brunschvig : Ibid, Tom I, P. 198., A.S.Atiya : Op. Cit., P, 398.

بإمكانياته المحدودة فضلاً عن ما سببته المباغتة من إرباك للمسلمين فيها، من صد الغزاة، ومع أن العباس لم يكن بالذي يقف موقف اللامبالي من هذا العدوان، إلاّ أنه لم يكن في استطاعته تجريد حملة عسكرية إلى الجزيرة لتحريرها نظراً لأنه كان وقتئذٍ مشغولاً بالقضاء على فتنة خطيرة في نواحي قسنطينة ، ذلك أن أعراب الدواودة في تلك المنطقة كانت لهم تطلعات خطيرة منذ بضع سنين سبقت ذلك الهجوم، فكان أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب في تلك الفترة (مضطرب الطاعة متحيزاً على السلطان)[1] ويمتنع عن دفع الجباية للسلطان في أكثر السنين معتمداً على مساعدة الأعراب له ولا سيما يعقوب ابن علي وقومه الدواودة، وزاد من سوء الوضع في تلك المنطقة ظهور الثائر ابن يملول فيها الذي أعد جيشاً وزحف به على توزر، فاضطر السلطان حيال ذلك للخروج إلى نواحي قسنطينة والزاب بنفسه للقضاء على التمرد فيها، في منتصف سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م، وقد التف أعراب الدواودة ورياح حول ابن مزني كراهية لأعراب سليم الذين كانوا من ضمن جيش السلطان، ودارالقتال بين الطرفين أياماً حاول السلطان أثناءها مداخلة يعقوب بن علي شيخ الدواودة، ولكن المذكور كان من الدهاء على قدر كبير، فكان يخادع السلطان، وهواه هو وقومه مع ابن مزني، وأخيراً تمكن المذكور من إقناع السلطان، بإنهاء الحرب حتى تتاح له فرصة أخرى أفضل تمكنه من خصمه، فرجع السلطان بمن معه إلى تونس، وبقيت المشكلة قائمة دون حل جذري[2]، وما كاد يفرغ من ذلك حتى نهض إلى قابس التي كان قد عاد إليها عبد الوهاب بن مكي، في محاولة لإعادة مجد أسرته بها بعد أن كان السلطان قد طردهم منها سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩م، وتمكن عبد الوهاب المذكور من مداخلة بعض أهل المدينة وساعده بعض الأعراب في ذلك فدخل وقتل ابن الأبار عامل السلطان عليها واستقل بها، فنهض السلطان إليه في سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م وحاصره حتى أجبره على الخضوع له ووضع ابنه رهينة لدى السلطان[3].

ولم يكد السلطان يفرغ من مشكلة ابن مكي حتى عاد الوضع في نواحي قسنطينة إلى

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٦.
(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٧ وما بعدها ، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٨٧–١٨٨.
(٣) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٧–٣٩٨. ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٥٢.

التردي من جديد في أوائل سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م أي إبان الفترة التي وقع فيها الاعتداء الصليبي على جربة، وكان السبب المباشر في ذلك هو قيام أمير قسنطينة بتخفيض المنح المالية التي أقرها السلطان لأعراب الدواودة لقلة العائدات على خزينة ولاية قسنطينة في ذلك الوقت نظراً لأن الأعراب أخذوا يزرعون الأراضي ولا يدفعون أموال الجباية عنها[1]، الأمر الذي دفع يعقوب بن علي وقومه للثورة واجتياح ريف قسنطينة يقومون (بالنهب وانتساف الزرع حتى اكتسحوا عامتها)[2]، وفي تلك الآونة توفي يعقوب بن علي، فاستأنف ابنه محمد هذه الثورة الأمر الذي اضطر السلطان إلى الخروج إلى قسنطينة والزاب من جديد والاشتباك مع الدواودة وحلفائهم حتى تمكن من طردهم إلى الجنوب بعد أن استغرق ذلك منه صيف سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م بأكمله[3]. ولذلك فإن هذه المشاكل الخطيرة حالت دون قيام أبي العباس بإرسال حملة عسكرية تطهر جربة وغيرها من جزر إفريقية من الصليبيين، والتي ما كاد يفرغ منها حتى بدأ يستعد لمواجهة الحملة الصليبية الكبرى التي قادها لويس الثاني دي بوربون على المهدية والتي سنتعرض لها في الفصل التالي .

---

(١) انظر ابن خلدون : المصدرالسابق ج ٦ ص ٣٩٨، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٨٧.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٩.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٨ وما بعدها، انظر كذلك :
R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 190-5

﴿فغلبوا. . . . . .﴾.

[سورة : آية]

الفصل الثالث

حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية

جنوة محرك لقوى العدوان الصليبي – الاستعدادات للحملة الصليبية الجديدة – نزول الصليبيين بساحل المهدية – مواجهة المسلمين للغزاة – متاعب دي بوربون وعقد الصلح – انسحاب الصليبيين وفشل الحملة

جنوة محرك لقوى العدوان الصليبي :

كان نجاح جنوة وحلفاءها في احتلال جزيرة جربة وما أكسبها ذلك النجاح من فوائد، حافزاً لها على التفكير في القيام بعدوان أكبر لإحراز المزيد من المكاسب، وأن تكون تلك المكاسب دائمة بدلاً من كونها مؤقتة كالتي حصلت عليها، ولذلك أخذت تراودها فكرة شن هجوم واسع النطاق على إفريقية للاستيلاء عليها، ولما كان مثل هذا المشروع يتطلب إمكانية تفوق إمكانياتها بكثير، كان لا بد لها من اللجوء إلى قوة صليبية كبرى تقوم بتبنيه وتعمل على تنفيذه، وأن تساعدها هي بأقصى ما تستطيع لقاء ضمان مصالحها. ولم يطل بحثها عن هذه القوة، إذ رأت أن فرنسا هي القوة المنشودة لعدة أسباب أهمها أن القوى الصليبية الأخرى إما أنها كانت وقتئذٍ لا تقوى على ذلك، كعاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي لم يعد لديه من القوة المادية أو العسكرية ما يمكنه من فرض سيطرته على أمراء الإقطاع في امبراطوريته الذين ازداد نفوذهم على حسابه إلى حد كبير ناهيك عن تبني مثل هذا المشروع الكبير، ثم مملكتي نابلي وصقلية(١) اللتين كانتا أيضاً أضعف من أن تقوم إحداهما به، أو أنها من غير المتوقع أن تتعاون معها في ذلك كالبندقية التي أصبحت

(١) سبق أن ذكرنا أن مملكة الصقليتين انقسمت بعد موت شارل أنجو إلى مملكتين هما مملكة صقلية التي خضعت لأرغونة، ومملكة نابلي التي ظلت خاضعة للأنجويين، وقد تفسخ البيت الأنجوي الحاكم في نابلي إلى فرعين الأكبر الذي كان في تلك الآونة قد أقام دولة له في المجر والأصغر الذي ظل يحكم نابلي.
(انظر : فيشر، المرجع السابق، ق ٢، ص: ٤٣٩–٤٤٠).

الدولة البحرية الأولى في البحر الأبيض المتوسط للعداوة المستحكمة بين المدينتين علاوة على تجربة جنوة السابقة معها حينما سحبت وعدها بالمساعدة في حملة جربة كما سبق ذكره، وأرغونة التي فضلاً عن نزاعها مع جنوة فإن سياسة ملكها الجديد جان الأول المسالمة كانت تمنعه من الاشتراك في هذا العمل ، أو لانشغالها بمشاكلها الداخلية كإنجلترا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن جنوة كانت تفضل فرنسا على غيرها من القوى الصليبية للعلاقات الطيبة التي كانت تربطهما معاً منذ وقت طويل، ليس فقط فيما يتعلق بالتعامل التجاري بينها وبين العديد من المدن الفرنسية مثل مرسيليا وليون وباريس وإقليم بروفانس، ولكن للتعاون الوثيق بينهما في مجالات أخرى منها المجال العسكري حيث كانت تمد يد المعونة لفرنسا منذ بداية حربها مع إنجلترا في حرب المائة عام ببحارتها الماهرين الذين شاركوا في جميع المعارك البحرية إلى جانب فرنسا ضد الأسطول الإنجليزي، كما قاتل الرماة الجنوية ذوي الكفاءة العالية مع الجيوش الفرنسية في المعارك البرية(١).

ومما زاد في التقارب بين جنوة وفرنسا وبالتالي ترجيح الاعتماد على الأخيرة في هذا المشروع هو الظروف التي أحاطت بجنوة في تلك الفترة، فهزيمتها أمام البندقية وتهديدات دوق ميلان لها ثم انقسامها على نفسها وازدياد حدة الفتن الداخلية فيها وقتئذ خاصة إثر اشتراك حاكمها الدوج أنطونيوتو أدورنو (Antoniotto Adorno) في مؤامرة تعذيب وقتل ستة من الكرادلة أرسلوا مؤثقين بالقيود إلى جنوة بأمر بابا روما أوربان السادس كعقاب لهم لانحيازهم إلى جانب بابا أفينون كلمنت السابع إثر الانشقاق الديني الكبير، الأمر الذي أدى إلى غضب الحزب الآخر حتى بات الوضع فيها ينذر بنشوب حرب أهلية مما جعلها تتطلع أكثر فأكثر إلى جارتها الكبيرة فرنسا، هذا التطلع والتقارب الذي استمر في التزايد حتى أدى فيما بعد إلى استسلام جنوة الكامل لفرنسا في سنة ١٣٩٦م وتعيين الماريشال بوكيكو (Marshal Boucicaut) حاكماً للمدينة من قبل شارل السادس ملك فرنسا(٢). فكان تطلع جنوة إلى فرنسا لإنقاذها من التهديد الخارجي والمشاكل الداخلية سبباً هاماً في

---

(١) انظر عن ذلك : L. Mirot : Op. Cit., P. 9-10. كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ٩٣.

(٢) انظر : : Delaville le Roulx : la France en Orient au XIV Siecle. P, 403., A.S. Atiya : Op. Cit., P. 400.

اعتمادها أيضاً عليها في تنفيذ مشروعها الكبير في إفريقية.

وكانت ظروف فرنسا في تلك الآونة مواتية لتنفيذ هذا المشروع، إذ كانت منذ عقد معاهدة بريتاني (Bretigny) بينها وبين إنجلترا في سنة ١٣٦٠م والتي أنهت المرحلة الأولى من مراحل حرب المائة عام، قد بدأت تتمتع بنوع من السلام والاستقرار إلى حد بعيد، وقد استطاعت تحت قيادة ملكها شارل الخامس (١٣٦٢-١٣٨٠م) الحكيمة أن تسترد عافيتها التي أنهكتها الضربات القوية والعديدة التي تلقتها في عهد أسلافه[١]، وعندما اعتلى ابنه شارل السادس (١٣٨٠ - ١٤٢٥م) الحكم، استمرت حركة الازدهار والنمو فيها باضطراد مستمر خاصة في الفترة الأولى من حكمه التي سبقت إصابته بالجنون في أوائل القرن الخامس عشر، وقد ساعدتها الظروف التي كانت تمر بها غريمتها إنجلترا في تلك الآونة على ذلك[٢]، لهذا أخذت تبسط نفوذها حينذاك في أكثر من اتجاه، ففي الداخل كانت هنالك حكومة قوية قادرة على وضع حد لثورة الفلاحين وثورة أبناء المدن في باريس والرون والمدن الأخرى في الشمال، وعلى حل مشكلة الوصاية على الملك الصبي شارل السادس[٣]، وأما سياستها الخارجية فقد تركزت في اتجاهين رئيسيين أولهما دعم حركة

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص : ٥٩٩ وما بعدها.

(٢) كانت إنجلترا في عهد ملكها ريتشارد الثاني (١٣٧٧-١٣٩٩م) الذي كان صبياً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره تعيش فترة صراع داخلي كبير، إذ امتلأت البلاد آنذاك بالقلق الشديد والحزبية البغيضة والهرطقة الدينية التي أذاعتها تعاليم ويكليف وجماعة اللولاردية، تلك التعاليم التي تحدت نظم البابوية والكنيسة معاً، وأيقظت وعي الطبقات الكادحة وأوقفتهم على مساوئ النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة في إنجلترا وفتحت أعينهم على ما هم فيه من بؤس وشقاء وحرمان، فقاموا بثورتهم المشهورة سنة ١٣٨١م التي انتشرت في أنحاء إنجلترا وأحدثت هزة اجتماعية خطيرة كادت تعصف بعرش ريتشارد الثاني، والتي ترجع أسبابها إلى الآثار السيئة التي خلفها وباء الموت الأسود على الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فيها، إذ نقص عدد سكان البلاد بسبب ذلك الوباء بمقدار الثلث وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً مخيفاً، وقلت الأيدي العاملة فبارت الأراضي الزراعية، لذلك طالب العمال الزراعيون برفع أجورهم وتحطيم نظام الإقطاع ومنحهم الحرية الشخصية وحرية الانتقال من مزرعة إلى أخرى، فكانت هذه المشاكل تتفاعل في الداخل وتخلق المتاعب للحكومة.

(انظر د. نظير حسان سعداوي : تاريخ إنجلترا ص ١٥٤).

(٣) انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p. 399.، محمد عوني يس : المرجع السابق، ص ٤٠.

التوسع في الأراضي المنخفضة والتي تولاها فيليب الجسور (أو القاسي) Philippe le Hardi دوق برجنديا الذي تمكن وبدعم من ملك ونبلاء فرنسا من إحراز نجاح كبير في خططه التي وضعها لهذا الأمر، إذ ألحق الهزيمة بجيش الفلمنكيين في معركة روزبك (Rosebecka) في ٢٧ نوفمبر سنة ١٣٨٢م[١]، ووجّه حملة أخرى إلى الفلاندرز في سنة ١٣٨٣م أحرزت عدة انتصارات الأمر الذي مكنه من فرض السلام في تلك البلاد بهدنة تورناي (Tournai) سنة ١٣٨٥م، كما احتل دوقية جلدرز (Gueldres) سنة ١٣٨٨م بالرغم من مساعدة الانجليز لها[٢]، وكان ثانيهما الاتجاه إلى إيطاليا، ذلك أنه في سنة ١٣٨٢م كان لويس الثاني الأنجوي ابن عم الملك يهاجم إيطاليا، بمساعدة الفرنسيين ويتوغل فيها حتى تمكن من احتلال مملكة نابلي، هذا الاحتلال الذي باركه أيضاً البابا كلمنت السابع (بابا أفينون) منهياً بذلك حكم شارل دورازو (Charles of Durazzo) سليل الفرع الآخر من البيت الأنجوي المناوئ لنفوذ الملك الفرنسي في شبه الجزيرة والذي لم يلبث أن اغتيل في هنغاريا في فبراير سنة ١٣٨٦م محروماً من قبل بابا أفينون[٣]. وبناء على ذلك فلم تكن الرغبة في التقارب من قبل جنوة فقط، وإنما أيضاً من قبل فرنسا لأن ذلك كان يسير وفق سياستها في إيطاليا، ولهذا كانت الظروف مهيأة لفرنسا للإقدام على تنفيذ مشروع صليبي كبير كالحملة على المهدية.

وفي أواخر عام ١٣٨٩م[٤] وأثناء جولة كان يقوم بها الملك الفرنسي في جنوب مملكته يرافقه أخوه دوق تورين وخاله لويس الثاني دوق بوربون[٥] ليمحو الآثار السيئة التي خلفها عمه جان دوق بيري (Jean Duc de Bery) في إقليم لانجدوق (Languedoc)[٦] ولتلقي ولاء بعض أفصاله الإقطاعيين في تلك المنطقة، ثم للتأكد من

---

(١) انظر د . سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج ١. ص : ٥٠١، كذلك : A.S.Atıya : Op. Cit., p. 399.

(٢) انظر : A.S.Atiya : lbıd, p. 399.، كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ٧٥.

(٣) انظر A.S. Atiya : lbid, p. 399.

(٤) غادر الملك الفرنسي باريس في جولته هذه في يوم ٢ سبتمبر سنة ١٣٨٩م انظر :

Maurice Hiem : la passion d'un Roi Charles VI le Fol. P. 29.

L. Mirot : Op. Cit., p.9 - 10., A.S.Atiya : Ibid, p.402. Note l.

(٥) انظر : Maurice Hiem : lbid, p. 90.

(٦) انظر عن ذلك : A.S.Atiya : lbid. p. 402.

ولاء بعض البارونات الأقوياء الذين كانوا لا يدينون له بكامل الطاعة مثل جاستون فوبس (Gaston Phocbus) كونت فويكس (Conte de Foix)، وكذلك للاجتماع بالبابا كلمنت السابع في أفينون لتنصيب ابن عمه لويس الثاني الآنف الذكر كونت أنجو وكونت بروفانس ملكاً على نابلي من ناحية، وللعمل على إنهاء الانشقاق الديني من ناحية ثانية(١)، وبعد رحلة طويلة(٢) وصل إلى أفينون يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٨٩م حيث تم بحضوره تتويج لويس الثاني وسلمه التاج بنفسه إبرازاً لدوره في هذا التتويج، وبعد أن صادق البابا على البراءة التي عينه بها الامبراطور شارل الرابع نائباً امبراطورياً في مملكة آرل (Arles) غادر أفينون إلى طولوز التي وصلها في ٢٩ نوفمبر سنة ١٣٨٩م وأقام بها حتى يناير سنة ١٣٩٠م، وخلال إقامته في هذه المدينة وفدت عليه سفارة من جنوة ضمت مجموعة من أبرز شخصيات تلك المدينة حيث عرضت عليه تبني مشروع الحملة الصليبية على المهدية، وإذا كان الكتاب الفرنسيون الذين عاصروا تلك الحملة. وأرخوا لها مثل جان فرواسار (Jean Froissart) الذي عاصر حوادثها، وكاباريه دورفيل Cabaret D'Orville الذي قام بعد حوادثها بأربعين سنة بتجميع ذكريات أحد المشاركين فيها هو جان دي كاستيلوس (Jean de Castellus) صاحب شاتو موران (de Chateaumurand) في كتابه عن تلك الحملة، قد أشاروا في مؤلفاتهم إلى ما دار بين الملك الفرنسي وتلك السفارة باقتضاب دون ذكر تفاصيل عن هذا الموضوع، بل اقتصر الأخيران على القول بأن الجنويين عرضوا على الملك تزويد الحملة التي يقترحونها بالسفن اللازمة لنقلها إلى إفريقية ثم تزويدها بما يلزمها من تموين فضلاً عن دعمها باثني عشر ألفاً من الرماة(٣). فإن مؤرخي جنوة الذين عاصروها كانوا أكثر اهتماماً وأكثر وضوحاً من الكتاب الفرنسيين في هذا الموضوع، إذا أسهبوا في ذكر تلك التفاصيل، وبذلك أمدونا بمادة تاريخية بالغة الأهمية سدت الكثير من الفجوات

---

(١) انظر L.Mirot : Op. Cit., P.9., A.S.Atiya : Op. Cit., P. 402.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ٧٦.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الرحلة انظر : Maurice Hiem : Op. Cit., p. 89-92.

(٣) Cabaret D' Orville : la Chronique du Bon Loys de Bourbon. P. 218 - 220.
J.Froissart : Chronicles of England, France, Spain and the adjoining Countries, Vol.2.p. 446-7.
Delaville le Roulx : Op. Cit., p. 168., L.Mirot : Ibid, p.10, A.S.Atiya : Ibid, p.402-3.

في تاريخ تلك الحملة وأتمت ما جاء في حولية فرواسار ومذكرات كاباريه دورفيل[١].

فقد ذكر المؤرخ الجنوي (Agostion Guistiniani) أن هذه السفارة مثلت بين يدي الملك الفرنسي حيث قام رئيسها بإلقاء خطاب طويل منمق أورد نصه في مؤلفه[٢]، وقد أسبغ فيه على الملك الشاب كثيراً من صفات التمجيد لإثارة حماسه لقتال المسلمين، فوصفه بأنه الملك العظيم، المنتصر دائماً[٣]، وأنه حامي الدين وأن اسمه على كل لسان وفي شتى البقاع وأن ذلك الاسم يخشاه كافة الأقوام غير المسيحية[٤]، ثم تطرق بعد ذلك إلى وصف أوضاع العالم المسيحي في ذلك الوقت وما أسماه بتطاول المسلمين عليه والذين كانوا في السابق لا يجرؤون على ذلك لأن الفرنسيين كانوا لهم بالمرصاد، حتى أصبحت كلمة فرنسي لدى هؤلاء مرادفة لكلمة مسيحي[٥]، ولكن شأن المسيحية قد تضاءل لانشغال فرنسا عن نصرتها الأمر الذي جعل هؤلاء والمقصود بهم المسلمين بالطبع يسودون في أفريقيا وآسيا ثم يعبرون إلى أوروبا فيقيمون مملكة لهم في غرناطة ثم يعملون على الاستيلاء على القسطنطينية ويرهبون بلاد المجر، ولم يكتفوا بذلك بل أصبحت مراكبهم تجوب البحار وتهاجم شواطئ فرنسا وتهدد شعبها[٦] مثيراً بذلك نخوة الملك ومؤكداً أن الفرنسيين

---

(١) انظر L.Mirot : Ibid,p.10, A.S.Atiya : Ibid, p. 402.
محمد عوني يس : المرجع السابق ، ٩٧-٩٨.

(٢) انظر نص هذا الخطاب في Agostino Guistiniani : Op. Cit., vol.II,p.163-167 أي (حوليات جمهورية جنوة) ونقله محمد عوني يس إلى اللغة العربية . (انظر محمد عوني يس : المرجع السابق ملحق رقم ٢، ص : ٢٥١ وما بعدها).

(٣) انظر Agostino Guistiniani : Ibid,vol.II.p.163.

(٤) إن ما ورد في نص هذا الخطاب كما أورده جستنياني وغيره (انظر L.Mirot : Ibid, p.10 A.S.Atiya : Ibid.p. 402.) في ذلك الخطاب ما يترجم حرفياً بلفظ (الكفار)، والمعروف أن المصادر المسيحية تطلق صفة الكفر على غير المسيحيين وفي مقدمتهم المسلمين، فترجمنا هذا اللفظ بما هو مذكور في المتن تنزيهاً للمسلمين عن صفة الكفر التي وردت في النص الأصلي.

(٥) في هذا القول تجاوز واضح للحقيقة قصد به إثارة حماس الملك الفرنسي وشعبه، اللهم إلا إذا كان يعني كلمة (فرنجه) وهو لفظ أطلقه المسلمون على المسيحيين الأوروبيين فقط، ومثله لفظ (الإفرنج) ولفظ (الفرنج) وليس على كافة المسيحين.

(٦) انظر : Agostino Guistiniani : Ibid, vol 2, p. 164.

والجنويين سيتمكنون من إحراز النصر في حربهم المقدسة ضد المسلمين(١)، وتوضيحاً للملك وليثبت له بأن ما يطلبه من تعاون بين فرنسا وجنوه ليس بالأمر الجديد أو المستحدث لإقناعه بقبول مطلبه يعود في خطابه إلى الأيام الأولى للزحف الصليبي على المشرق مبيناً دور جنوه في مساندة فرنسا في ذلك الوقت بكل قواها حيث قاما معاً آنذاك بتحقيق إنجاز عظيم في حربهما ضد المسلمين على حد قوله(٢)، ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف جنوه عن مساعدة فرنسا في حروبها المقدسة ضد المسلمين بكل قواها وبكل إخلاص ومحبة وتضامن، ولذلك ولما كان شعب جنوه الحالي هو من سلالة أولئك الجنويين القدامى زملاء أسلاف الملك الفرنسي في السلاح وعضدهم في حروبهم المجيدة التي قاموا بها للدفاع عن المسيحية والتي حازوا بها المجد والشرف على حد قوله، فإنه من الضروري التآزر في الحرب الجديدة ضد المسلمين التي يرى أنها أصبحت ضرورية(٣)، مبيناً وجهة نظر جنوه في هذه الحرب والتي تتلخص في وضع حد لنشاط غزاة البحر المسلمين الذين في رأيه جعلوا السفر في البحر الأبيض المتوسط محفوفاً بالمخاطر مما عرقل حركة التجارة الدولية(٤)، ثم ينتقل بعد ذلك لبيان ما ستشارك به حكومة جنوه في هذه الحرب المقترحة من سفن ومحاربين(٥). وبعد أن استمع الملك الفرنسي لمطالب أعضاء هذه السفارة، وعدهم بأنه سيفكر في الأمر ويتداول الرأي مع مستشاريه ثم يبلغهم قراره النهائي بشأنه بعد يومين(٦).

ولدى خلو الملك بمستشاريه وأعضاء المجلس الملكي المرافقين له طرح هذا الموضوع على بساط البحث حيث ظهرت في ذلك المجلس وجهتا نظر متباينتين، الأولى والتي كان من أبرز أصحابها مستشارا الملك بيير دي لا ريفيير (Burea de la Riviere) وجان لو

---

(١) (٢) انظر : Agostino Guistiniani : Op. Cit., p. 165.

(٣) Agostino Guistiniani : Ibid,p.165-166.

(٤) انظر Agostino Guistiniani : Op. Cit., p.166.., J.Delaville le Roulx : Op. Cit.,p.168., L.Mirot : Op. Cit., p.10, A.S.Atiya : Op. Cit., p. 402.

Agostino Guistiniani: Ibid,p. 166-67.See Also L.Mirot : Ibid,p.10.

(٥) انظر كذلك رواية المؤرخ الجنوي فولتاي في محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق ١، ص : ٣٣٩ وما بعدها . A.S.Atiya: Ibid,402-3.

(٦) انظر : Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.200.A.S.Atiya: Ibid,403.

ميرسييه (Jean le Mercier) اللذين كانا أصلاً من أبناء الطبقة الوسطى فرفعهما الملك شارل الخامس وقربهما إليه ثم عينهما شارل السادس مستشارين له،تعارض الاشتراك في الحملة المقترحة نظراً لأن فرنسا في اعتقاد أصحاب هذا الرأي كانت في حاجة للاحتفاظ بكل قوتها، لأن السلام الدائم بينها وبين إنجلترا لم يتم تثبيت أركانه بعد، بل إن المفاوضات من أجل هذا الغرض كانت لا تزال جارية بين البلدين وأنه ليس من المصلحة الموافقة على إرسال جيش فرنسي إلى أرض أجنبية في مثل هذا الظرف[1]. وأما الثانية والتي كانت وجهة نظر غالبية النبلاء وخاصة الشبان منهم الذين كانت تحدوهم الرغبة – كما تقول العديد من المصادر والمراجع الغربية – في الشهرة وحب المغامرة ورؤية الشرق فضلاً عن الكسب وامتلاك الأراضي، فكانوا يرون أن توقف القتال مع إنجلترا فوت عليهم الفرصة لإظهار شجاعتهم ومهارتهم في فنون الفروسية والقتال، فعليهم أن يغتنموا هذه الفرصة الثمينة لوضع هذه الشجاعة والمهارة في خدمة مهمة مقدسة[2]، لذلك أيدوا الموافقة على اقتراح الجنويين. وبعد مناقشات مطولة لكلا الرأيين تغلبت وجهة النظر الثانية، فوافق الملك على المشاركة في الحملة المرتقبة، ولكنه أخذاً منه في الاعتبار وجهة نظر الفريق الأول رأى فرض قيود تحدد عدد الفرنسيين المشاركين فيها خلاصتها أن كل فارس أو نبيل يرغب في الاشتراك، عليه أن يجهز نفسه على نفقته الخاصة، ولن تتحمل الدولة في ذلك أي شيء، كما أنه يحظر على النبلاء استخدام محاربين من خارج إقطاعاتهم، ثم إن هذا الاشتراك مقصور على الفرسان والنبلاء باستثناء الشبان الذين لم يبلغوا سن الرشد منهم، وعلى أن لا يتجاوز عددهم في مجموعه عن (١٥٠٠) فارساً[3]، وفي الموعد المحدد اجتمع بالسفراء

---

(١) انظر : A.S.Atiya: Op. Cit.,p.403. د سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢، ص: ١٢٤٢، محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ٩٩–١٠٠.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢.ص: ١٢٤٣.

(٣) انظر L.Mirot : Op. Cit.,p.12,A.S.Atiya: Ibid,p.404.
د.سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢،ص : ١٢٤٣. محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٠٠–١٠١.وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الدكتور عزيز سوريال عطية ذكر أن عدد المحاربين الفرنسيين (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف، في حين أن ميرو (L.Mirot: Ibid,p.12) يذكر أن هذا العدد هو خمسة عشر مائة أي (١٥٠٠) ألف وخمسمائة، وللتوفيق بين القولين نرى أن الرقم الذي ذكره ميرو هو عدد الفرسان فقط بينما ما ذكره الدكتور عطية في رأينا هو مجموع=

الجنويين وأبلغهم قراره فعمتهم الغبطة والسرور عند سماعهم بذلك القرار(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى عدة ملاحظات هامة يلاحظها الباحث في هذا المقام، أولها هو ما تردده العديد من المصادر والمراجع الغربية وحتى المراجع العربية التي اطلعت عليها من أن جنوه هي التي تتحمل النصيب الأكبر من وزر هذه الحملة وأن دور فرنسا قد اقتصر على تقديم المعونة لها فقط(٢)، وبعبارة أخرى تقليص مسؤولية فرنسا إلى حد كبير، وكأنها لم تكن تفكر في هذا الأمر حتى أرسلت جنوه تلك السفارة وأقنعت الملك الفرنسي بالفكرة. والحقيقة كما أراها هي أنه لا رغبة الملك الفرنسي في رد الجميل لجنوه في وقت كانت فيه بحاجة لمساعدة فرنسا، ولا الخطاب البليغ المنمق المتضمن لعبارات التفخيم والتملق هما اللذان دفعا الملك لاتخاذ قراره الآنف الذكر، بل إن السبب الحقيقي أعمق من ذلك بكثير يعود في جذوره إلى ذلك الترابط الوثيق والتلاحم بين فرنسا والحركة الصليبية، إن ما شغل فرنسا التي كانت بمثابة العمود الفقري للحركة الصليبية عن الاستمرار في خدمة أهداف هذه الحركة بعد فشل حملة لويس التاسع على إفريقية، هي أمور خارجة عن إرادتها والتي كان أهمها حرب المائة عام والمشاكل الداخلية التي نشبت فيها الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في الحيلولة دون استمرارها في تقديم العطاء لتلك الحركة، أما وقد تحسن وضعها في تلك الآونة وخطت خطوات واسعة على درب الانتعاش والازدهار كما سبق ذكره، فلم يعد هنالك ما يمنع من استئناف هذا العطاء من جديد. ودليلنا على هذا القول هو أن فيليب دي ميزير ذلك الصليبي العريق أذاع مشروعه الصليبي في سنة ١٣٨٩م وقبل وفود السفارة الجنوية على الملك الفرنسي ببضعة أشهر، فهل كان ذلك من قبيل المصادفة أم أن ذلك الصليبي كان يعبر عن أفكار الساعة أم أنه كان ينبه لمعاودة المبادرة للعمل على خدمة الحركة الصليبية؟ إن احتمال الصدفة في رأينا هو احتمال بعيد، والأقرب إلى الصواب هو أحد الاحتمالين الآخرين، فإن

= عدد المقاتلين ذلك أن الفرسان كان يلحق بهم مساعدون، ثم هنالك أيضا فئة المشاة، ولذلك من غير المستبعد بل هو الأرجح في اعتقادنا أن ما ذكره الدكتور عطية هو الأقرب إلى الصواب .

(١) انظر J.Froissart : Op. Cit., p.447., Cabaret D'Orville: Op. Cit., 220.

(٢) انظر على سبيل المثال : J.Froissart : Ibid,vol.2,p.447.
Cabaret D'Orville: Ibid,p.220, L.Mirot : Op. Cit., p.10., R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p.200.
A.S.Atiya : Op. Cit., p.403,N.Daniel : Op. Cit., p.309,W.Heyd : Op. Cit., Tom 2.p.722.

كان أولهما فإن ذلك يدل على أن نية استئناف العمل الصليبي كانت موجودة قبل أن تتصل جنوة بالملك الفرنسي، وإن كان الاحتمال الثاني هوالصحيح فإنه أدى إلى نفس النتيجة التي أدى إليها الاحتمال الأول، فعلاقة فيليب دي ميزيير بكل من الملك الفرنسي ولويس الثاني دوق بوربون كانت أوثق ما تكون، إذ أنه كان مؤدب الأول الذي أشرف على تعليمه وتربيته كما سبق ذكره، وصديقاً حميماً للثاني الذي كان خال الملك والوصي عليه طوال مدة الوصاية وعضواً في جمعية أحباء عيسى المسيح التي أسسها ميزيير، فإذا لم ينبه ميزيير هذين الشخصين فمن المقصود بالتنبيه إذن؟ ولذلك نعتقد أن نية العمل الصليبي لدى الملك الفرنسي والعديد من رجال دولته كانت موجودة، وما كان سفير جنوه في خطابه إلا معبراً تعبيراً واضحاً عن تلك النية أكثر منه مجاملاً ومثيراً لحماس الملك ونخوته.

ذلك من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإن نشاط غزاة البحر المسلمين في جنوب فرنسا لم يكن ليقابل من الملك الفرنسي بالترحاب بطبيعة الحال أو ليتغافل عنه أو يسكت عليه خاصة وأن فرنسا كانت في تلك الآونة مطلقة اليدين، فهل من المعقول أن يقوم المجلس البلدي في مرسيليا بمناقشة موضوع غزوات المسلمين للمدينة ونواحيها ويبحث عن وسائل التصدي لها فيشدد الحراسة ويسلح سفناً لقتال هؤلاء الغزاة كما سبق ذكره، ويغفل الملك عن هذا الأمر؟ وهو الذي كان يسعى لبسط نفوذه في أكثر من اتجاه كما أشرنا إلى ذلك أيضاً، فمن باب أولى إذن أن يسارع لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بكفهم عن مملكته كما يفرضه المنطق. ثم إن هنالك ناحية هامة أخرى تدعم هذا الرأي، هي السرعة اللامعقولة في اتخاذ قرار المشاركة في الحملة، فهل يعقل حقاً أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير في مدة لا تتجاوز اليومين لولا أن النية معقودة على ذلك؟ كل هذه الدلائل تعطي انطباعاً قوياً على الأقل إن لم تكن كافية للتأكيد بأن فكرة قيام فرنسا بحملة صليبية وعلى إفريقية بالذات كانت ماثلة في أذهان أولى الأمر فيها، وربما كانت البابوية في أفينون على علم بهذه النية والدليل على ذلك أنها لم تستشر قبل البت في هذا الموضوع كما جرت العادة عليه بالنسبة للحملات الصليبية. ومما يدعم وجهة نظرنا بوجود هذه النية لدى فرنسا هو قول ابن خلدون في مطلع حديثه عن هذه الحملة وحديثه كان منصباً على نشاط غزاة البحر المسلمين في سواحل

فرنسا الجنوبية : (. . وتطارحوا سهمهم ونكلهم وتداعوا لنزول المسلمين والأخذ بالثأر منهم)(١). وأما عدم وجود دليل قاطع على هذا الأمر في المصادر المسيحية ولا سيما الفرنسية وما اعتمد عليها من مراجع غربية، فهو أمر حددته نتيجة تلك الحملة. فقد تم تجاهل ذلك عمداً لأن الحملة فشلت في تحقيق أهدافها، ولو أنها نجحت في ذلك لتغير الأمر وظهرت الحقيقة بوضوح. وأما دور جنوه فكان هو إظهار هذه النية إلى حيز الوجود ووضعها موضع التنفيذ. لقد التقت مصلحة جنوه بمصلحة فرنسا ووافقت هواها فأثمر ذلك هذا التعاون بين الطرفين. ولا يحتج بطبيعة الحال بقلة القوة الفرنسية المشاركة في الحملة بالنسبة لدورها في الحملات الكبرى السابقة كدليل على دورها الثانوي في الحملة لأن ذلك أمر فرضته علاقاتها مع إنجلترا آنذاك فلم يكن في مقدورها أن تفعل أكثر من ذلك تحسباً للطوارئ، ومع ذلك فإن القوة الفرنسية كانت أكبر القوى المشاركة فيها.

وأما الملاحظة الثانية حول هذا الموضوع فهي ما تردده هذه المصادر والمراجع بأن هذه الحملة ما كانت إلا رد الفعل تجاه نشاط غزاة البحر المسلمين وأن هدفها كان هو تأديبهم نافية بذلك الصفة الصليبية عنها، والحقيقة هي غير ذلك، فهي حملة صليبية بكل ما تعنيه الكلمة وأن هذه الحقيقة بدت بوضوح حتى في العديد في تلك المصادر وإن كان ذلك عن غير قصد، وأول دليل على هذه الحقيقة هو ماجاء في خطاب رئيس السفارة الجنوية الذي ألقاه أمام الملك الفرنسي حيث يقول : وإننا الآن نرى أنفسنا ملزمين بشن حرب مقدسة ضد المسلمين . . . وإذا تمكنتم من كسب هذه الحرب فإن ذلك سيكون دفاعاً عن المسيحية(٢). ثم قوله : لقد حارب أجدادك مع القديسين لنصرة المسيحية فتقبلها أنت بقلب مؤمن(٣). ومن ذلك يتضح أنها حملة قصد بها إشعال حرب مقدسة من وجهة نظر مسيحيي غرب أوروبا أي صليبية. وثمة دليل آخر على ذلك هو قول قائد تلك الحملة دوق بوربون الذي ورد في خطابه الذي وجهه إلى الفرسان المشاركين فيها والذي أعرب فيه عن رغبته في الاقتداء بلويس التاسع والقتال في البلاد التي قضى فيها ذلك القديس – على حد تعبيره – أواخر أيامه مدافعاً عن واجب كان يراه مقدساً، ثم

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦ص ٤٠٠.

(٢) انظر Agostino Guistiniani : Op. Cit.,vol.2.p,166.

(٣) انظر Agostino Guistiniani : Ibid,vol.2.p,167.

استطرد قائلاً : لنذهب جميعاً في خدمة الرب[١]، وهل كان لويس التاسع الذي اتخذه دوق بوربون مثلاً أعلى له إلا صليبياً؟ وهل كانت حملة لويس المذكور التي قضى نحبه إبانها إلا حملة صليبية؟ وهنالك دليل ثالث يقطع الشك باليقين على الآمال العريضة التي كانت معقودة على هذه الحملة وأنها لم تكن تهدف إلى تأديب غزاة البحر المسلمين بل كانت لتحقيق أهداف صليبية أكبر من ذلك بكثير الأمر الذي يؤكد صفتها الصليبية هو ما جاء في رواية فرواسار Froissart عن ما جاء في مداولات الصليبيين التي جرت في جزيرة كونلييرا القريبة من المهدية وقبل الهجوم عليها مباشرة كما سيذكر فيما بعد، إذ يقول فرواسار إن قادة الحملة قالوا لبحارة الأسطول الجنويين أن أمراء الممالك النصرانية المجاورة سوف يزودون الحملة بالمؤن والمحاربين (حتى إذا ما انتصرنا أصبح هذا الموضوع – المهدية – قاعدة لجميع الفرسان والمحاربين يتابعون منه حربهم ضد المسلمين واحتلال أراضيهم)[٢]، ثم قوله بأن هؤلاء القادة وصفوا المهدية في تلك المداولات بأنها ليست هي مفتاح إفريقية فحسب بل وأقطار المغرب العربي بأسره. ولذلك فإن استيلاءهم عليها سيجعل المسلمين حتى في بلاد النوبة وسوريا يرتعدون خوفاً[٣]. يضاف إلى ذلك دليل آخر هو ما ذكره فرواسار أيضاً في معرض حديثه عن المناقشة التي دارت بين مندوب المسلمين وبعض قادة الحملة في مقر القيادة وبحضور دوق بوربون كما سيأتي ذكره حيث يقول إن ذلك المندوب سأل قادة الحملة عن سبب حضورهم لقتال المسلمين فردوا عليه بإنهم إنما جاؤوا لقتالهم لأن أسلافهم قتلوا المسيح[٤] عليه السلام، ولأنهم لا يؤمنون بقدسية العذراء المقدسة أم المسيح، وأنهم يعتبرون كافة المسلمين على اختلاف مذاهبهم أعداء لهم ولذلك فقد جاؤوا للانتقام منهم[٥]. كل هذه الأدلة تؤكد الصفة الصليبية لتلك الحملة، وأما ما تردده العديد من المصادر والمراجع الغربية بهذا الشأن فما هو إلا من قبيل صرف الأذهان عن المغزى الحقيقي لها. ولعل برنجفيك كان أكثر وضوحاً من غيره من الكتاب الغربين المحدثين في

---

(١) انظر Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.13 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١١٧.

(٢) انظر J.Froissart : Op. Cit., vol.2,p.446.

(٣) انظر J.Froissart : Ibid, vol.2,p.446.

(٤) من الواضح أن هذا الاتهام هو اتهام غير صحيح حتى من وجهة النظر المسيحية، ذلك أن المسيحيين يقولون بأن اليهود هم الذين يتحملون وزر دم المسيح على حد قولهم وليس المسلمين.

(٥) انظر J.Froissart : Ibid,vol.2,p.471.

هذا الموضوع وإن كان هو الآخر يحاول إلقاء ستار الغموض على الحقيقة إذ يقول : (واختلط عند البعض تنصير الكفار !! – المسلمين – وإرادة الدفاع عن مصالح المسيحيين وحماية مجد المسيحية بطعم المغامرة والميل إلى إظهار البطولة وتحقيق المصالح الشخصية)(١)، فهو بذلك يشير إلى الطابع الصليبي لتلك الحملة.

وثمة ملاحظة أخرى تجدر الإشارة إليها هي ما تردده تلك المصادر والمراجع عن نشاط غزاة البحر المسلمين والأثر السيئ لذلك النشاط على حركة التجارة الدولية، وتنعته بشتى النعوت القبيحة كالإرهاب وممارسة الابتزاز للنصارى ومصدر الرعب وأنه كان مثيراً للفزع والهلع إلى غير ذلك، وتصمت عن ما كان يفعله قراصنة النصارى في إفريقية. لقد ظلت إفريقية تتعرض لغارات أولئك القراصنة مدة قرن من الزمن تقريباً قبل هذه الفترة دون أن تشير تلك المصادر والمراجع إلا نادراً إلى ما ذاقته إفريقية على أيديهم من ويلات من سفك دماء ونهب وإحراق وتدمير وخطف وأسر وسبي بل واحتلال أحياناً، وتنسى أو تتناسى أن نشاط غزاة البحر المسلمين ما كان إلا حرباً وقائية بدأت للدفاع عن شواطئ إفريقية ضد هجمات هؤلاء القراصنة، وكان ذلك أمراً طبيعياً في أن تتولى الرعية الدفاع عن نفسها وممتلكاتها بهذه الوسيلة ما دامت السلطة المركزية عاجزة عن حمايتها بالوسائل المتعارف عليها والمتمثلة في شن حروب كبيرة كما هو المفروض نظراً لما كانت تواجهه تلك السلطة من مشاكل. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، أن قراصنة النصارى لم يكفوا يدهم عن إفريقية وكانوا هم وخاصة الجنوية الذين عفنوا البحر الأبيض المتوسط بأعمال القرصنة على حد تعبير موريس هيم Maurice Hiem(٢) ولم يكفوا يدهم إلا بعد أن عجزوا عن مقارعة غزاة البحر المسلمين، فهل العدوان مشروع للنصارى في عرف هؤلاء الكتاب، والحرب الوقائية للدفاع عن النفس إرهاب وابتزاز وعمل منكر لا يطاق؟ ومن ناحية ثالثة تركيز تلك المصادر والمراجع دائماً على إغفال الدافع الديني لحروب المسلمين ضد النصارى صغرت تلك الحروب أو كبرت مسقطة بذلك من حسابها هدفاً سامياً ونبيلاً للكثير من المسلمين المشاركين في تلك الحروب ألا وهو الجهاد،

---

(١) انظر R.Brunschvig : Op. Cit.. Tom l, p. 200.

(٢) انظر Maurice Hiem : Op. Cit., p.93.

وجرت عادة كتاب الغرب القدامى والمحدثين أن ينعتوا تلك الحروب بالنعت السلبي فهي في البر غارات نهب وفي البحر قرصنة ذلك أنهم لا يعون ذلك الهدف السامي وإن وعوه لا يقرون به ولا يعترفون أن دوافع المسلمين كثيراً ما تكون أكثر سمواً من ردود الفعل التي يقابلها بها الأعداء على حد تعبير الدكتور شاكر مصطفى(١)، وأخيراً هل المسيحية الحقة تجيز لأتباعها ممارسة الأعمال المشينة التي كانت ترتكب في حق المسلمين باسمها؟

الإستعدادات للحملة الصليبية الجديدة :

بعد اتخاذ قرار مشاركة فرنسا في الحملة المرتقبة وإبلاغه إلى سفراء جنوه، طرحت مسألة اختيار قائد تلك الحملة للبحث، فأبدى السفراء رغبة بلدهم في أن يتولى هذه المهمة الملك الفرنسي بنفسه أسوة بأسلافه ملوك فرنسا العظام على حد قولهم الذين قادوا الحملات الصليبية الكبيرة من قبل، ولكن الملك اعتذر عن قيادتها لانشغاله بأمور بلاده الداخلية وبتدعيم السلام مع إنجلترا، فطلب السفراء حينذاك وبإلحاح أن يقودها أمير من البيت الملكي الفرنسي والهدف من ذلك واضح إذ أن حملة يقودها ملك فرنسا أو على الأقل أحد أقربائه سيجري إعدادها الإعداد الحسن حتماً مما يجعل إمكانية نجاحها كبيرة، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية إذا دعت الحاجة إلى طلب الدعم والمساعدة أثناء احتدام القتال مع المسلمين، فإمكانية تلبية ذلك الطلب سواء من فرنسا أو من خارجها ستكون أكبر بكثير مما لو كان قائدها من غير البيت الملكي، ثم إن حملة يقودها ملك فرنسا أو أحد أقربائه ستشيع أنباؤها في أوروبا وستجذب جموعاً غفيرة من المتحمسين للفكرة الصليبية للمشاركة فيها، كما أن حملة يقودها مثل هذا القائد ترفع من الروح المعنوية للجنود المشاركين فيها وتجعلهم يتحلون بقدر أكبر من الانضباط والضبط والربط العسكري مما يجعلها أقدر على تحقيق أهدافها. وحيال إلحاح الجنويين على طلبهم هذا، عرض الملك على مجلسه إسناد القيادة إلى شقيقه لويس دوق تورين وكونت فالوا، ولكن صغر سن هذا الدوق الذي كان في الثامنة عشرة من عمره، وبالتالي قلة خبرته بأمور القتال الأمر الذي يعرض الحملة لخطر الفشل حال دون الموافقة عليه(٢)، فطرح اسم عم

(١) انظر شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ق ١، ص: ٣٣٢ حاشية١.

(٢) انظر J.Froissart : Op. Cit., vol.2,p.447, A.S.Atiya : Op. Cit.,p.404.=

الملك جان دوق بري (Jean Duc de Berry) وكونت بواتييه، ولكنه سرعان ما استبعد أيضاً لأنه لم يكن يتصف بصفات تؤهله لهذه المهمة لا في مجال الحرب ولا في السياسة ولا الإدارة، كما أن سلوكه المشين في لانجدوق كان لا يزال عالقاً في الأذهان[١]، فاتجهت الأنظار حينذاك إلى عم الملك الآخر فيليب (philippe le Hardi) دوق برجنديا وكونت الفلاندرز الذي كان أكبر شخصية مرموقة بين سياسيي فرنسا ومن أغنى نبلائها، ولكن اهتمام هذا الدوق بمشروعاته الخاصة في شمال شرق فرنسا ثم رغبته في البقاء قريباً من البلاط الملكي لتدعيم نفوذه صرفاه عن التفكير في الابتعاد عن فرنسا في حملة صليبية[٢].

وأخيراً أعرب الجميع عن اعتقادهم بأن لويس الثاني دوق بوربون[٣] خال الملك هو الرجل المناسب لتولي القيادة. كان دوق بوربون يمتلك عدة مؤهلات أهلته لأن يكون موضع هذا الاختيار، فقد كان من أشد الناس وفاءً وإخلاصاً للملك[٤] وغنياً وقائداً ماهراً مقداماً وسياسياً بارعاً ومحنكاً عركته التجارب وكريماً متحلياً بأخلاق الفروسية الأمر الذي كان السبب في تلقيبه بالدوق الطيب (la Bon Duc)[٥]، والناحية الهامة الأخرى في شخصيته أنه كان مفعماً بالروح الصليبية مما يقدم دليلاً آخر على صليبية هذه الحملة، فقد

= كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١١٥.

(١) انظر A.S.Atiya : Ibid,p.404.

(٢) انظر A.S.Atiya: Ibid,p.405 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١١٦.

(٣) كان دوق بوربون في ذلك الوقت في الثالثة والخمسين من عمره حيث إنه ولد في سنة ١٣٣٧م، وقد شارك المذكور في عدة معارك ضد إنجلترا في حرب المائة عام تحت لواء ملك فرنسا حنا الثاني المعروف بحنا الطيب، وأخذ رهينة إلى إنجلترا بدلاً من الملك المذكور حينما وقع في الأسر (انظر عن ذلك د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج١ص: ٤٩٦) وأقام فيها من سنة ١٣٦٠م حتى سنة ١٣٦٨م ولما عاد إلى فرنسا اشترك في حملات بريتاني وجويين، وقد عين وصياً على الملك شارل السادس عند وفاة أبيه شارل الخامس، وحارب تحت لوائه في معركة روزبك سنة ١٣٨٢م وكان من مساندي الحملة الإسبانية سنة ١٣٨٦م .

انظر : Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.12-15,L.Mirot: Op. Cit., p.ll,A.S.Atiya: Ibid,p.405. محمد عوني يس : المرجع السابق، ص، : ١١٦).

(٤) Maurice Hiem: Op. Cit.,p.93.

(٥) Cabaret D'Orville: Ibid,p.12-15,L.Mirot: Ibid,p.ll,A.S.Atiya: Ibid,p.405-6.

نشأ وتربى في ظل المفاهيم الصليبية إذ كان جده لويس الأول دي بوربون من المهتمين بالفكرة الصليبية، ولذلك قدم إليه مارينو سانودو نسخة من مشروعه الصليبي كما سبق ذكره، كان ذلك في أيام طفولة حفيده لويس الثاني القائد المقترح للحملة الأمر الذي جعل الأفكار الصليبية ترسخ في أعماقه، وعندما شب تعرف على الداعية الصليبي المشهور فيليب دي ميزيير كما سبق ذكره أيضاً، وزاد الصلة وثوقاً بينهما كونهما الاثنين من رجالات شارل الخامس المقربين حيث تأثر دوق بوربون بأفكار فيليب دي ميزيير إلى حد كبير، يدل على ذلك انضمامه إلى جمعية أحباء عيسى المسيح، ولذلك دفعته هذه الروح الصليبية التي كان مشبعاً بها لأن يكون أول المتحمسين لاشتراك فرنسا في تلك الحملة وأكبر المشجعين للملك على اتخاذه قراره بهذا الشأن، وعلاوة على ذلك فإنه أخذ يتوسل إلى الملك ليسند إليه قيادتها راجياً إياه أن يتيح له الفرصة للحرب في خدمة المسيحية، حيث إنه لا فخر لديه يعادل الاقتداء بلويس التاسع والقتال في نفس الأرض التي قضى نحبه فيها كما كان يقول[1]. ويبدو من رواية كاباريه دورفيل أن الملك تردد في موافقة دوق بوربون على رأيه مبرراً ذلك بكثرة العمل الذي كان عليه أن يقوم به في فرنسا، ثم الصعوبة في الحصول على المحاربين اللازمين لهذه المهمة، ولكن الدوق أقنع الملك بأن فرسان إقطاعاته لن يخذلوه بل سيتبعونه في حملته المقدسة[2]. وأخيراً وافق الملك على تعيين خاله دوق بوربون المذكور قائداً للحملة وعين صاحب كوسي مساعداً له. فباشر دوق بوربون من فوره في التباحث مع سفراء جنوة في شأن الاستعدادات وما التزمت به جنوه من أسطول ومؤن ومحاربين، وما أن تم الاتفاق على هذه الأمور حتى أسرع أولئك السفراء إلى بلدهم يزفون البشرى لمواطنيهم بنجاح مهمتهم، في حين باشر دوق بوربون من جانبه في استعداداته، وأما البابا كلمنت السابع فلم يتوان هو الآخر حينذاك عن المبادرة إلى دعم الحملة فمنح الغفران لدوق بوربون وكافة المشتركين فيها وحللهم من الخطايا والذنوب[3]، كما جرى العرف إبان

---

(١) Cabaret D'Orville: Op. Cit.,p.221., A.S.Atiya : Op. Cit.,p.406.

(٢) انظر Cabaret D'Orville: Ibid,p.221., A.S.Atiya: Ibid p.406.

كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١١٧.

(٣) Cabaret D'Orville: Ibid,p.221,A.S.Atiya: Ibid,p.406.

الاستعداد للحملات الصليبية الأمر الذي يعتبر دليلاً آخر على صليبية تلك الحملة. ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى شاعت أخبار الحملة في أنحاء أوروبا الغربية وانهالت الطلبات على الدوق من النبلاء والفرسان ومساعديهم والمحاربين من كافة الفئات من فرنسا وخارجها كلهم يرجون السماح لهم بحمل الصليب تحت قيادته(١).

وما يسترعي انتباه الباحث حقاً في هذا الموضوع هو أنه بالرغم من أن الانشقاق الديني الكبير (١٣٧٨ – ١٤٠٩م) كان مخيماً على أوروبا آنذاك، وأنها كانت منقسمة إلى حزبين متنازعين كل منهما يدعم أحد البابوين القائمين كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، إلا أن الحماس للحملة لدى كلا الفريقين كان متساوياً ولم يتم إعارة هذا الانشقاق أي اهتمام لا على المستوى الرسمي ولا على المستوى الشعبي، بل إن المحاربين من كلا الطرفين أخذوا يتأهبون لحرب المسلمين الأمر الذي يؤكد حقيقة هامة هي أن مصالح الحركة الصليبية كانت فوق مستوى الخلاف. لذلك شارك فيها إلى جانب القوات الفرنسية والجنوية قوات من إنكلترا والأراضي المنخفضة وبيزا وأرغونة(٢). والجدير بالذكر أن أرغونة كان لها دوافعها وأسبابها الخاصة للمشاركين في هذه الحملة والتي لولاها لما شاركت فيها لعدة أسباب أهمها طبيعة ملكها المسالمة ثم لعدائها مع جنوه بسبب مشكلة سردينيا وكورسيكا ثم لنزاعها مع فرنسا على صقلية. وأما سبب اشتراكها فكان هو الخشية من أن تتحول تلك الحملة إلى بعض ممتلكاتها أكثر منه تعاوناً مع جنوه وفرنسا(٣)، إذ حينما علم جان الأول عاهل تلك المملكة بأنباء الاستعدادات ساورته الشكوك في النوايا الحقيقية للقائمين عليها، خاصة وأن هذه الأنباء كانت تصل إليه مشوشة، وكلما زادت هذه الاستعدادات ازدادت شكوكه الأمر الذي جعله يكتب في أول مايو سنة ١٣٩٠م إلى سفيره في بلاط بابا روما يستوضح حقيقة الأمر، ثم إصدار تعليماته إلى حكام الجزر التابعة له للاحتراز الشديد والبقاء على أهبة للدفاع، وبالرغم من أن الدوق فيليب دي بار (Philippe de Bar) كتب إليه يطمئنه ويعلمه بأن الحملة موجهة

---

(١) A.S.Atiya : Op. Cit., p.408, Note 2-4.

(٢) Agostino Guistiniani : Op. Cit., Vol.2 .p.164, A.S.Atiya : Op. Cit., p.408., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p.200

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢،ص : ١٢٤٣.

(٣) A.S.Atiya: Ibid,p.408.

ضد إفريقية، إلا أن ذلك لم يزل مخاوفة سيما وأن دي بار كان مجاوراً لممتلكاته، كما أن الماركيز دي مونفرات (Marquis de Montferrat) الذي كان يطالب بميورقة وسواها من الجزائر الشرقية قد انضم للحملة[1]، لذلك أمر حكام سردينيا وكورسيكا والجزائر الشرقية بأن يستقبلوا قادة الحملة إذا ما مروا ببلدانهم بالحفاوة اللائقة بهم على أن لا يسمحوا لجندهم بالنزول إلى اليابسة. وبقيت هذه المخاوف ملازمة له حتى قبل إقلاع الحملة بأيام إذ في ٢٠ يونيو سنة ١٣٩٠م أرسل رسالة إلى حاكم سردينيا يحذره فيه من الغياب عن الجزيرة ويستعد للدفاع عنها[2]. لذلك، ومن منطلق الخوف على ممتلكاته سمح لقوات أرغونية يقودها بعض أقاربه بالانضمام للحملة ليظل على علم بما يجري بالنسبة لها، ومن ناحية ثانية كان يرغب في إثبات وجوده حتى إذا ما حققت الحملة أهدافها لا ينسى من الغنيمة خاصة أن مطامع أرغونة وصقلية في إفريقية كانت كبيرة كما تقدم ذكره.

وأياً كان الأمر، فإن الاستعدادات كانت منذ أواخر يناير سنة ١٣٩٠م / سنة٧٩٢هـ تجري على قدم وساق، فقد عاد دوق بوربون إلى باريس في فبراير سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ ليعمل على تدبير الأموال اللازمة، فباع قصره الذي كان في باريس، واقترض من دوق تورين شقيق الملك مبلغ عشرين ألف فلورين، كما حصل على منحة مالية من الملك مقدارها أثنا عشر ألف فلورين، فضلاً عن مبلغ آخر تبرع به الملك للمشاركين في الحملة مقداره عشرون ألفاً وستمائة وثلاثون فرنكاً ذهبياً، كما تبرع شقيقه دوق تورين لأفصاله الإقطاعيين من النبلاء المشاركين في الحملة بمبلغ ثلاثة عشر ألف وخمسمائة وثلاثين فرنكاً ذهبياً لمساعدتهم في تجهيز أنفسهم[3]، وقدم الدوق فيليب Philippe le Hardi إلى الدوق فيليب دي بار بصفة خاصة ألفي فلورين منحة منه لمساعدته[4]. وبعد أن تم جمع هذه المبالغ وسواها من تبرعات المحسنين الأغنياء سافر دوق بوربون إلى ممتلكاته للإشراف على إعداد

---

(١) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.19 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق ، ص: ١٠٣.

(٢) انظر L,Mirot: Ibid,p.19 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٤.

(٣) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit.,p.221,L.Mirot: Op. Cit.,p.13., A.S.Atıya: Op. Cit., p.407.

(٤) محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٤.
Cabaret D'Orville: Ibid,p.221,L.Mirot: Ibid,p.13.

فرسانه وأفصاله ثم لإجراء الترتيبات المتعلقة بإدارتها أثناء غيابه، وبعد القيام بتلك الترتيبات حيث ولى أمر إدارة ممتلكاته إلى أحد أتباعه المخلصين هو بيير دي نوريس (Pierre de Norris) واطمأن على حسن استعداد فرسانه وكتب وصيته الأخيرة استعداداً للمجهول[١] عاد إلى باريس. وعلى صعيد آخر كانت الاستعدادات المماثلة تجرى في جنوه بنشاط، وقد رأت جنوه التي كانت ملتزمة بتوفير الأسطول والتموين اللازمين أن تحاول قصر المشاركين على المحاربين فقط فأعلنت أنها لن تنقل في سفنها الخدم والحاشية ليبدو رجال الحملة أنهم رجال عمل وحرب فقط[٢]، ولما كان دوق بوربون يخشى أن يكون عدد السفن التي ستقدمها جنوه لا يكفي لنقل جميع الجند، ندب بعض مساعديه ليكونوا على اتصال دائم بتلك المدينة والتنسيق معها لاتخاذ التدابير اللازمة للرحيل وتذليل كافة العقبات التي قد يؤدي ظهورها إلى تأجيل قيام الحملة[٣] حيث تم تحديد الموعد النهائي للرحيل في الأسبوع التالي لعيد القديس يوحنا المعمدان أي في نهاية يونيو سنة ١٣٩٠م/ رجب ٧٩٢هـ[٤].

ومن أهم العقبات التي ظهرت وقتئذ والتي لم تكن متوقعة، كان عدم تمكن جنوه من توفير ما يلزم من المؤن من أراضيها وبصفة خاصة القمح والخمور مما جعل دوج جنوه يكتب لدوق بوربون قائلاً له إنه إذا لم يتوسط لدى كونت بروفانس وملك نابلي الذي لم يكن يتعاطف مع الجنويين ليسمح للدوق بشراء هذه المواد وغيرها من المواد الضرورية الأخرى التي يفتقر إليها إقليم ليجوريا من أراضي الملك المذكور فإن الاحتمال كبير في حدوث نقص خطير فيها[٥]، فسارع دوق بوربون الذي أقلقه هذا الخبر إلى إيفاد أحد مساعديه هو شارل دي

---

(١) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.224, L.Mirot : Op. Cit., p.13.
Delaville le Roulx: Op. Cit., p.170.A.S.Atiya : Op. Cit., p.407.

(٢) محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠١.

(٣) Delaville le Roulx: Op. Cit.. p.170.

(٤) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit.,p.255 محمد عوني يس : المرجع السابق ، ص : ١٠٥، لما كان عيد القديس يوحنا المعمدان (هو نبي الله يحيى عليه السلام) في التقويم المسيحي الغربي يصادف ٢٤ يونيو من كل عام، فمعنى ذلك أن الموعد المحدد للرحيل كان في أواخر شهر يونيو.

(٥) انظر Cabaret D'Orville: Ibid,p.225., L.Mirot: Op. Cit.,p.17
Delaville le Roulx: Ibid.p.170-171., A.S.Atiys : Op. Cit.,p.408.

هانجست (Charles de Hangast) إلى بروفانس ونابلي للسعي لدى الملك الذكور للموافقة على طلب جنوه هذا الأمر الذي تم بالفعل ومرت الأزمة بسلام[١]، وتم الاتفاق على أن تكون مرسيليا هي ميناء التجمع للقوات الفرنسية، وجنوه ميناء التجمع للقوات المشاركة الأخرى، ومنذ أواخر شهر أبريل سنة ١٣٩٠م بدأت هذه القوات تتوالى في الوصول إلى هاتين المدينتين، وفي أوائل مايو سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ غادر دوق بوربون باريس عقب احتفال كبير أقيم لوداعه[٢]، قاصداً مرسيليا بصحبة كبار مرافقيه والتي ربما يكون قد وصلها حوالي يوم ٢٠ يونيو سنة ١٣٩٠م[٣]، حيث وافته السفن الجنوية والتي كان عددها (٢٢) سفينة من نوع جالي (Galleys)[٤]. وخلال البضعة أيام التي قضاها في مرسيليا قبل الرحيل، بحث مع الجنويين المسائل المتعلقة بالإبحار تفصيلياً كما استكمل بعض المواد التموينية، وبذلك اطمأن على أن كل شيء يسير على ما يرام[٥]. وقد ظهرت أثناء ذلك كفاءة الدوق بوربون وقدرته الإدارية بجلاء، دل عليها النظام الذي ساد أثناء تجمع القوات وصعودها إلى السفن، فقد وجد كل فرد منها لدى وصوله إلى مرسيليا بياناً واضحاً بإقامته سواء في المدينة أو على ظهر السفن بعكس ما جرى أثناء تجمع قوات لويس التاسع إبان حملته على إفريقية كما سبق ذكره. وشحنت السفن بمعدات الجند وأمتعتهم، حيث تبعها الجند بعد ذلك، وفي اليوم الأول من يوليو سنة ١٣٩٠م / رجب سنة ٧٩٢هـ أقلع هذا الأسطول من مرسيليا متجهاً إلى جنوة لاصطحاب باقي القوات التي كانت قد تجمعت هنالك[٦] والتي كانت تتأهب للرحيل تحت

---

(١) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.225., L.Mirot : Op. Cit., p.17., A.S.Atiya : Op. Cit., p.408.
محمد عوني يس : المرجع السابق ، ص : ١٠٥-١٠٦.

(٢) انظر Maurice Hiem: Op. Cit., p.93.

(٣) Cabaret D'Orville: lbid,p,227,A.S.Atiya: lbid,p.408.، محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٠٦.

(٤) الجالي بالإنكليزية وجالير(Galere) بالفرنسية يقابلها لفظ شيني باللغة العربية وجمعها شواني. والشيني سفينة كبيرة الحجم استخدمها المسلمون والأوروبيون في أساطيلهم في العصور الوسطى وهي تحمل عدداً من الجند لا يقل عن ٢٥٠ جندياً عدا البحارة، ويجدف فيها بما لا يقل عن مائة مجداف. (انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق، ص: ٣٥٢-٣٥٣).

(٥) Cabaret D'Orville: lbid,p.227.L.Mirot: lbid,p.17-18., A.S.Atiya: lbid,p.408.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٧.

(٦) =Cabaret D'Orville: lbid,p.227, A.S.Atiya: lbid.p.408, L. Mirot: lbid,p.18.

إشراف بعثة أرسلها الدوق بوربون إليها في ١٣ مايو سنة ١٣٩٠م / جمادى الأولى سنة ٧٩٢هـ لهذا الغرض من ضمنها الدوق فيليب دي بار Philippe de Bar وجاي دي لا ترموي Guy de La Tremouille[(١)]، فوصلها الدوق بوربون بقواته في اليوم الثالث لخروجه من مرسيليا، فرست السفن على بعد ثلاثة أميال من المدينة[(٢)] مصدراً أوامره بعدم نزول الجند إلى البر تلافياً لضياع الوقت وحدوث أي بلبلة أو اضطراب، أما هو فقام بصحبة كونت دو Conte d'Eu وسير دي كوسي، وسير دي تراو بزيارة سريعة للدوج حيث استقبله مواطنو المدينة استقبالاً حافلاً وقدموا الهدايا له ولمرافقيه[(٣)]. وسرعان ما انتهت الاستعدادات التي كانت تجري في المدينة، وأخذت السفن التي كانت قيادتها قد أسندت إلى جيوفاني سنتريوني (Giovanni Centurione) الملقب ألترا مارينو (Oltra Marino)[(٤)]، ولم يبق إلا مباركة البابا للحملة كما جرت بذلك العادة عند رحيل الحملات الصليبية، وهنا برزت مشكلة، فمن من البابوين سيقوم بهذه المباركة؟ ذلك أن الحملة قد ضمت محاربين من كلا الحزبين الذين يعترف كل منهما بأحد البابوين المتنافسين ولايعترف بالآخر، وبعد مباحثات مطولة في هذا الموضوع سويت هذه المشكلة قبل أن تتفاقم فأرسل كل من البابوين مندوباً عنه قام كل منهما بهذه المباركة، وبذلك نالت الحملة بركة كلا البابوين[(٥)]. وبعد ذلك وفي أوائل

= د.سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢،ص: ١٢٤٣.

(١) J,Froissart: Op. Cit.,vol.1,p.448. Cabaret D'Orville: Ibid,p.227., L.Mirot: Ibid, p.18, A.S.Atiya : Ibid,p.409.

(٢) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.226., A.S.Atiya: Ibid,p.409.

(٣) J.Froissart: Ibid, vol.2.p.448., Cabaret D'Orville: Ibid,p.228-9, A.S.Atiya : Ibid,p.409.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٢١.

(٤) كان جيوفاني سنتريوني قريب أنطونيوتو أدورنو Antoniotto Adorno دوج جنوه، وهو من عائلة عريقة اشتهرت بخدماتها لبلدها جنوه منذ القرن الثالث عشر، وقد تولى المذكور قبل اشتراكه في هذه الحملة عدة مناصب سياسية واقتصادية هامة في بلده، كما شارك في الحملة التي احتلت جربة سنة ١٣٨٨م وقام آنذاك بدور بارز في ذلك الاحتلال مما أهله لقيادة هذا الأسطول.
انظر عن ذلك A.Guistiniani : Op. Cit.,vol.2. p.163 ورواية أوبرتي فولياتي (U.Folietae) في محمد عوني يس : ملحق ١،ص : ٢٤٥، A.S.Atiya : Ibid. p.410., L.Mirot : Ibid. p.20.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٢٠.

(٥) L.Mirot : Ibid,p.20., A.S.Atiya: Ibid. p.410., R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1,p.200.

شهر يوليو سنة ١٣٩٠م/ رجب سنة ٧٩٢هـ أقلعت تلك الحملة قاصدة إفريقية[(١)].

إنه لمن الأمر الصعب تحديد عدد المشاركين في هذه الحملة نظراً لأن المعلومات التي وردت في المصادر المسيحية عن ذلك غير دقيقة وغير محددة، كما أن المصادر الإسلامية لم تمدنا بمعلومات كثيرة، فضلاً عن عدم وجود إحصائيات دقيقة في ذلك العصر تعين على التوصل إلى رأي محدد بهذا الشأن، فقد ذكر فرواسار أن عدد الفرسان الفرنسيين كان ألفاً وأربعمائة[(٢)] الأمر الذي يبدو معه وكأن العدد الذي حدده الملك شارل السادس قد روعي فعلاً، ولكن الحقيقة أن ذلك العدد لم يكن كامل القوة الفرنسية المشاركة فهنالك الجند المشاة، فالملك حدد عدد الفرسان فقط وأما عدد المشاة فقد تركه مفتوحاً، والمشاة في النظم العسكرية في ذلك الوقت كانوا يعتبرون قوام الجيش، ذلك أن الفرسان كانوا يشكلون القوة الضاربة في الجيوش فتصدم العدو لتشق الطريق أمام المشاة الذين يتولون الإجهاز عليه، في حين كان للرماة مهمة أخرى هي نضح العدو بالنبال قبل الاشتباك لإصابة أكبر عدد ممكن من أفراده وإشاعة الفوضى والاضطراب في صفوفه لتسهيل مهمة الفرسان، وعند التحام القتال ينضمون إلى صفوف المشاة، وما دام أن الرماة ستقدمهم جنوه حسب الاتفاق الآنف الذكر مع أن رواية المؤرخ الجنوي أوبرتي فوليتاي (Uberti Folietae) تشير إلى أنه كان هنالك عدد من الرماة الانجليز في الحملة وهم الذين قاموا بحماية نزول الصليبين بساحل المهدية[(٣)]، إذن كان لا بد من أن تكون هنالك فرق من المشاة الفرنسيين صاحبت الفرسان، وما يدل على ذلك هو أنه إذا كان الأسطول الذي أقل الفرنسيين من مرسيليا هو (٢٢) قطعة حربية من نوع الشيني (Gally)، وأن حمولة كل قطعة منها في حدود (٣٠٠) جندي

---

(١) تختلف المصادر والمراجع الغربية في تحديد يوم إقلاع الأسطول الصليبي من جنوه فلم يحدد فرواسار (J.Froissart : Op. Cit., vol, 2 p.443) ذلك اليوم بل قال ما معناه أنه في أوائل يوليو، ويقول ميرو (L.Mirort : Op. Cit., p.31) إنه كان يوم ٣ يوليو سنة ١٣٩٠هـ، وأما (Delaville le Roulx : Op. Cit. p.178) فيقول إن الفرنسيين وصلوا جنوه بعد ثلاثة أيام من رحيلهم عن مرسيليا، وإذا كنا قد حددنا ذلك الرحيل بنهاية شهر يونيو أو يوليو فمعنى ذلك أنهم وصلوا جنوة يوم ٢ أو ٣ يوليو، وما أعتقده أن هذا الإقلاع كان في أوائل الأسبوع الثاني من شهر يوليو سنة ١٣٩٠م.

(٢) J.Froissart: Op. Cit., Vol.2.p.447.

(٣) انظر رواية فوليتاي في محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق ١،ص:٢٤٥.

– ولا يحتج بوجود المعدات والمؤن لتقليل عدد الركاب في كل قطعة بطبيعة الحال لأن ذلك قد تعهدت به جنوه وسيتم تحميله من مينائها – هذا عدا عن عدد البحارة الجنويين لهذه السفن بالطبع، لوجدنا أن عدد القوة الفرنسية لم يكن يقل عن سبعة آلاف جندي وإذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد الجنويين الذين كانوا حسب ما أوردته حولية دير القديس دينيس ألف رام وألفي مقاتل وحوالي أربعة آلاف بحار[١] علاوة على عدد الجند من البلدان الأخرى، لتبين لنا أن العدد الإجمالي للمشاركين في الحملة كان في حدود خمسة وعشرين ألف جندي، وهو عدد كبير لا يقل كثيراً عن عدد المشاركين في حملة لويس التاسع على إفريقية، على عكس ما تزعمه العديد من المصادر والمراجع الغربية إخفاء منها للحقيقة للتقليل من شأن تلك الحملة نظراً لفشلها كنوع من المداراة والتبرير لذلك الفشل. وكان من مشاهير الفرنسيين المشاركين في تلك الحملة بالإضافة إلى دوق بوربون ومساعده سير دي كوسي، الدوق فيليب دي بار (Philippe de Bar)، وكونت دو (Conte d' Eu)، وكونت دي اركو (Comte de Harcoret)، وكونت سنسير (Conte de Sansarre)، وفين دي فوا (Yvain de Foix)، وكونت أفيران (Dauphin d'Avvergne)، ومقدم الأسطول جان دي فيين (Jean de Vienne)، وصاحب تراو (Trau)، والأخوان تروموي (Tremoille)، وأما مشاهير الانكليز فكان منهم جان هاريدن (Jean Harpedeart)، وجون بوفورت (John Beaufort) وهو ابن غير شرعي لدوق لانكستر، وفيلبون بلورد (Philippon Pe-lourde)، ولويس كليفورد (Lewis Clifford)، ولورد نيفيل (Lord Neville)، ومن الفلاندرز كونت دي وستريفانت (Comte d'Ostrevant) ، وجان دي لانوي (Jean de Lannoy)، وجان دي لين (Jean de Ligne)[٢].

وأما العدد الإجمالي لقطع الأسطول الذي أقل هؤلاء الصليبيين فهو أيضاً موضع خلاف بين المصادر التاريخية، فيروي فرواسار أنه كان مكوناً من مائة وعشرين شيني (Galley) ومائتي قطعة أخرى مختلفة الأنواع والأحجام كلها قد خصصت لنقل الجند

---

(١) انظر A.S.Atiya : Op. Cit., p.409.See Also R.Brunschvig: Op. Cit., Tom 1,p.200.

(٢) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.41-50, A.S.Atiya: Op. Cit., p.519-22,R.Brunschvig : Ibid,Tom 1,p.200.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٠٦ وملحق ٣، ص: ٢٥٧ وما بعدها.

وأكثر من مائة سفينة أخرى لنقل المؤن والمعدات[١]، ومن الواضح أن في هذا القول كثيراً من المبالغة والمغالاة، وأما حولية دير القديس دينيس فتذكر أن عدد السفن التي أقلت الجنويين والقوات التي تجمعت في جنوه، كان ثمانين قطعة، وإذا أضيف ذلك الرقم إلى عدد السفن التي أقلت الفرنسيين فإن مجموعها جميعاً يتعدى المائة قليلاً[٣]. وأما مؤرخو جنوه فتقديراتهم لهذا الأسطول أقل بكثير، فيروي جستنياني A.Guistiniani أنه كان من أربعين شيني وعشرين سفينة أخرى[٣]، ويؤيده في ذلك أوبرتي فوليتاي (U.Folietae)[٤]، وأما (Delaville le Roulx) فيقول إنه كان من اثنتين وعشرين قطعة من نوع شيني وثمانية عشرة سفينة أخرى[٥] ويؤيده في ذلك برنجفيك[٦]. وأما المصادر الإسلامية، فيذكر الزركشي أن ذلك الأسطول كان من مائة قطعة[٧]، ويؤيده في ذلك الوزير السراج[٨] وابن مقديش الصفاقسي[٩]، وأما ابن أبي دينار فيقول إنها كانت ثمانين قطعة[١٠]، ويجعلها ابن الشماع ثمانية فقط[١١]. وفي اعتقادنا أن ما رواه الزركشي والوزير السراج والصفاقسي هو الأقرب إلى الصواب لتوافقهم تقريباً مع ما جاء في حولية دير القديس دينيس، وبذلك يكون عدد قطع هذا الأسطول في حدود مائة قطعة. وأياً كان الأمر فإنه وبعد إبحار شاق نتيجة لعاصفة هبت على الأسطول المذكور في عرض البحر بعثرت قطعه[١٢]، وصل

---

(١) J.Froissart : Op. Cit., vol. 2,p.448.

(٢) انظر A.S.Atiya : Op. Cit., p.409 - 410.

(٣) Agostino Guistiniani: Op. Cit., vol.2. p.163.

(٤) انظر محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص : ٢٤٥.

(٥) Delaville le Roulx: Op. Cit., p.178.

(٦) R.Brunschvig: Op. Cit., Tom 1, p.200.

(٧) الزركشي : المصدر السابق، ص : ١١٢.

(٨) الوزير السراج : المصدر السابق، ج١، ق٤، ص : ١٠٧.

(٩) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ٢٠١.

(١٠) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص : ١٥٣.

(١١) ابن الشماع :المصدر السابق، ص : ١٤١.

(١٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر J.Froissart: Op. Cit.,vol.2.p. 448-9
A.S.Atiya: Op. Cit.,p.410-11,R.Brunschvig: Op. Cit.,Tom l.p.200.
محمد عوني يس: المرجع السابق، ص : ١٢٣ — ١٢٤.

الصليبيون إلى جزيرة كونلييرا (Conigliera) وهي جزيرة صغيرة واقعة قبالة المنستير وكانت في ذلك الوقت تابعة لفرسان مالطه[١]، وكان الإنهاك قد بلغ بهم حداً كبيراً حتى إن بعضهم تمنى العودة إلى بلاده مما جعل دوق بوربون يبذل جهوداً كبيرة لرفع الروح المعنوية لديهم[٢]. فأقاموا في تلك الجزيرة تسعة أيام للراحة، دارت خلالها مناقشة الخطة العسكرية بين القادة وأميرال ومقدمي الأسطول فضلاً عن حث الجند على التمسك بالمبادئ الصليبية كما سبق ذكره، وقد ذكر فرواسار جانباً من تلك المناقشات[٣] وبعد ذلك أقلعوا إلى المهدية حيث وصلوها في يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٣٩٠م / ٥ شعبان ٧٩٢هـ.

نزول الصليبيين بساحل المهدية :

إن المصادر التاريخية لا توضح الوقت الذي وقع فيه الاختيار على المهدية لتكون هدفاً لهذه الحملة الصليبية، ولم يعرف فيما إذا كان ذلك قد تم أثناء وجود السفارة في طولوز أو أثناء الاتصالات التي كانت تجري بين دوق بوربون والجنويين، وعلى أية حال ففي اعتقادي أن هذا الاختيار تم في وقت مبكر، ربما بعد موافقة الملك الفرنسي على الاشتراك في الحملة بوقت قصير، ذلك أنه من المستبعد أن يكون قائد مجرب كدوق بوربون قد باشر في الإعداد لحملة لا يعرف هدفها. وأما الأسباب التي أدت إلى هذا الاختيار فهي كثيرة أهمها أن المهدية كانت أكثر مدن أفريقية شهرة في أوروبا حتى إنها عرفت في العديد من المصادر المسيحية بمدينة إفريقية[٤]، فالاستيلاء عليها يعطى الحملة شهرة واسعة في أوروبا الغربية مما

---

(١) انظر : J.Froissart : Op Cit., vol.2, p.448. Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.229., L.Mirot : Op. Cit., p.21. Delaville le Roulx: Op. Cit., p.179,A.S.Atiya : Op Cit., p.410.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٢٤.

(٢) انظر Delaville le Roulx : Ibid,p.179.

(٣) انظر J.Froissart : Ibid, vol.2.p.466-7,See Also, L,Mirot : Ibid, p.21,R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p. 200.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٢٤ وما بعدها.

(٤) انظر على سبيل المثال : J.Froissart: Ibid,vol,2,p.466

A.Gustiniani: Op. Cit.,vol.2,p.163.

كذلك : A.S.Atiya: Ibid,p.411.

يجذب ذوي النزعة الصليبية إلى السفر إليها والانضمام إلى الصليبيين فيها، فتتوفر بذلك الطاقة البشرية اللازمة لتثبيت الاحتلال ومن ثم التوسع. كما أنها كانت أصلح مدينة في إفريقية لتكون قاعدة لتوسع مستقبلي نظراً لحصانتها وتوسط موقعها، فإذا ما تم احتلالها والتمركز فيها فإنه يسهل على حامية صغيرة الدفاع عنها إذا ما هوجمت من قبل المسلمين، وليس أدل على صحة هذا القول من أن الصليبيين وفقاً لرواية فرواسار اعتبروها في مداولات كونليرا المفتاح الرئيسي ليس لإفريقية فحسب، وإنما للمغرب العربي بأسره وأن سقوطها في أيديهم سيجعل المسلمين حتى بلاد النوبة وبلاد الشام يرتعدون خوفاً كما سبق ذكره[١]، كما أن المهدية كانت مركزاً هاماً لغزاة البحر المسلمين وكان أكثر نشاط هؤلاء الغزاة الذين كانوا يتمركزون فيها يوجه ضد إقليم ليجوريا الإيطالي الذي كانت تتزعمه جنوه، ولذلك فالاستيلاء عليها يحرم هؤلاء الغزاة من قاعدتهم الهامة وبذلك تستريح جنوه من مصدر هام لمتاعبها[٢]، يضاف إلى ذلك أنها كانت ميناء تجارياً هاماً على البحر الأبيض المتوسط في العدوة المغربية، وكان لها علاقات تجارية نشطة مع الاسكندرية وبلاد الشام وصقلية وإيطاليا وإسبانيا، فكانت بذلك مركزاً هاماً للتبادل التجاري، يدل على ذلك كثرة الفنادق والقيساريات فيها مما أكسبها الغنى والثروة[٣] الأمر الذي أطمع الصليبيين فيها، ولعل من المفيد أن نذكر أنه لما كان من الطبيعي أن لا يفكر الصليبيون في مهاجمة تونس العاصمة نظراً لأن الكارثة التي حلت بلويس التاسع وحملته كانت لا تزال ماثلة في أذهانهم من ناحية، ولأنها كانت مركز الدولة مما يجعل القوات المدافعة عنها كثيرة إلى حد بعيد من ناحية ثانية، فإنه من غير المستبعد أن يكون ذلك سبباً آخر في اختيار المهدية هدفاً لهذا الهجوم الصليبي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين المسلمين المشارقة ذكروا في مؤلفاتهم أن هذه الحملة كانت موجهة إلى المشرق وأنها نزلت على طرابلس الشام ثم بعد ذلك سارت

---

(١) انظر : J.Froissart: Op. Cit., vol.2. p.466.

(٢) A.Guistiniani : Op. Cit., vol.2. p.163., L.Mirot : Op. Cit., p.8, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I. p.200.A.S.Atiya : Op.Cit., p.402.
ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦، ص : ٣٩٩-٤٠٠، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٤٢.

(٣) انظر : د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص : ١٢٤٢.

إلى إفريقية وهاجمت المهدية، فيقول المقريزي في حوادث شهر رمضان سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م أن الفرنج نزلوا بسبعين مركباً على طرابلس فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية أغرقت لهم مركباً بما فيه وفرقت المراكب الأخرى[١]، ويقول بعد ذلك في حوادث شهر شوال من ذلك العام : (وفيه قدم الخبر من الاسكندرية بأن الفرنج الذين مزقت الريح مراكبهم على طرابلس ، ساروا إلى إفريقية، وحاصروا المهدية، وبها ولد أبي العباس صاحب تونس، فكانت حروباً شديدة، انتصر فيها المسلمون على الفرنج، وقتلوا كثيراً منهم)[٢]، ويقول ابن الصيرفي في ذلك أيضاً في حوادث شهر رمضان سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م (وفيه ورد البريد من سكندرية – الاسكندرية – بأن عدة من مراكب الفرنج مشحونة بالسلاح والرجال نزلوا على طرابلس وعدتها سبعون مركباً فأرسل الله عليهم ريحاً عاتيةً أغرقت لهم مركباً بما فيه وفرقت البقية، فردوا مدحورين خائبين ولله الحمد رب العالمين)[٣]، ثم يقول بعد ذلك : (وفيه – شوال سنة ٧٩٢هـ – ورد الخبر من الاسكندرية أن الفرنج اللئام – عليهم لعائن الله إلى يوم العرض والقيام – الذين أغرقت الريح مركبهم ومزقتهم كل ممزق توجهوا إلى إفريقية وحاصروها – يقصد المهدية – وبها ولد أبي العباس صاحب تونس فوقع بينهم حروب شديدة، وانتصر المسلمون عليهم وقتلوا عدداً كبيراً، فلله الحمد على ذلك)[٤]. وهو وهم واضح من هؤلاء المؤرخين لأن المؤرخين المسيحيين المعاصرين والمؤرخين المسلمين المغاربة الذين عاصروا الحملة مثل ابن القنفذ فضلاً عن ابن خلدون الذي كان في ذلك الوقت في مصر وكان حسن الإطلاع على حوادث المشرق والمغرب على حد سواء، ثم الطبقة التي تلت هؤلاء مثل ابن الشماع والزركشي وغيرهما، كل هؤلاء لم يشيروا إلى ذلك، ولو كان هذا الأمر قد تم بالفعل لما أغفلوا ذكره خاصة ابن خلدون والذي يطابق مفهوم روايته ما جاء في المصادر المسيحية التي تقول إن الحملة قد أقلعت من جنوة قاصدة المهدية مباشرة، فهو يقول : (وأقلعوا من جنوه فحطوا بمرسى

(١) المقريزي : السلوك، ج٣، ق٢، ص: ٧٢٣.
(٢) المقريزي : السلوك، ج٣، ق٢، ص: ٧٢٥.
(٣) ابن الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ص: ٣١٣.
(٤) ابن الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ص: ٣١٤.

المهدية . . .)[1]، ولو قال أولئك المؤرخون المشارقة أن فئة من الفرنج بعد انسحاب الحملة من المهدية قصدت بلاد الشام لصحت أقوالهم ذلك أنه بعد انسحاب الصليبيين من المهدية اتجه البعض منهم إلى الديار المقدسة لزيارتها كما سيأتي ذكره.

وعلى كل حال، فإنه عند ظهور الأسطول الصليبي أمام المهدية كان المسلمون قد استعدوا للقائهم، إذ تفيد المصادر الإسلامية[2]، أن السلطان الحفصي كان قد علم بأنباء تلك الحملة قبل وصولها إلى المدينة، فأرسل يستنفر المقاتلين من جميع أنحاء مملكته، وأرسل في نفس الوقت ابنه وولي عهده أبا فارس عبد العزيز على رأس جيش إلى المهدية، وكلفه بمراقبة سواحلها وموافاته بالأخبار أولاً بأول، كما أمر بتجديد تحصينات تلك المدينة وشحنها بالمقاتلة والسلاح والأقوات استعداداً لحصار طويل، وعندما وصل الصليبيون إليها كانت قد استكملت استعداداتها، وكان أبو فارس قد عسكر بظاهرها، فطير الخبر لأبيه بقدوم الصليبيين، وما هي إلا بضعة أيام حتى أخذت القوات الإسلامية تتوالى في القدوم عليه لشد أزره في الدفاع عن المدينة إذ قدم إليها أمير بجاية[3] بجنده والعديد من أمراء الهلالية بقبائلهم كما خرج إليها المجاهدون والمرابطون والصلحاء لجهاد العدو[4]، وكانت القيادة العليا لهذه القوات لأبي يحيى زكريا شقيق السلطان وحاجبه[5]، وقد اختلفت المصادر

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦،ص : ٤٠٠.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦،ص : ٤٠٠.

(٣) يضيف الدكتور عزيز سوريال عطية (A.S.Atiya : Op. Cit., p.418) اعتماداً على قول ميرو (L.Mirot : Op. Cit.. p.25) أن سلطان تلمسان قد أسهم بجنده في هذه الحرب، والحقيقة أن ذلك وهم من ميرو والدكتور عطية سيما وأن ميرو لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في هذا القول، ذلك أن بني زيان (عبد الواد) سلاطين تلمسان كانوا وقتئذ في وضع سيئ لا يمكنهم من تقديم هذه المساعدة لحربهم مع بني مرين من ناحية، ثم المشاكل الداخلية التي واجهوها من ناحية ثانية، فضلاً عن أنهم كانوا على عداء مع بني حفص وكانت لهم حروب مع أبي العباس بالذات، ثم أن أياً من المؤرخين المسلمين المعاصرين للحملة وقولهم هو الأصح بطبيعة الحال لأنهم أدرى بما كان يدور في الجانب الإسلامي من المؤرخين المسيحيين، لم يشر إلى اشتراك سلطان تلمسان في هذه الحرب.

(٤) كان من بين هؤلاء (الشيخ الصالح الورع أبي العباس أحمد القلجاني) (الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٣).

(٥) انظر ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦،ص: ٤٠٠، ابن الشماع : المصدر السابق ص: ١٤١، الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج١،ق: ٤، ص: ١٠٦٩.

المسيحية في تقدير عدد هذه القوات فيذكر فرواسار أنها كانت مكونة من عشرة آلاف فارس وثلاثين ألف رام[١]، وتؤيد حولية دير القديس دينيس هذه الرواية[٢]، وأما (Delaville le Roulx) فيقول إنهم كانوا في حدود ستين ألف مقاتل[٣]، ولا يستبعد الدكتور عزيز سوريال عطية أن يكون عددهم ما بين أربعين ألف إلى ستين ألف مقاتل[٤]. ولما كانت المصادر الإسلامية لم تتعرض لهذا الموضوع، فإنه ليس في استطاعتنا تحديد هذا العدد بدقة، ولكننا نرجح أن يكون ما ذكره كل من فرواسار وحولية القديس دينيس هو الأقرب إلى الصواب.

لم تكن حصانة المهدية واستعدادات المسلمين لتخفى على الجنويين الذين كانوا على صلة وثيقة بها، وقد هال دوق بوربون وكبار مرافقيه ما شاهدوه من تلك الحصانة، ومن كثرة الجند الإسلامي المحيط بها[٥]، لذلك آثر عدم الاقتراب بالأسطول، فألقت السفن مراسيها على بعد فرسخ منها لتبقى بعيدة عن نطاق مرمى المدافع المنصوبة على أسوارها وفي أبراجها. ثم عقد مجلس حربه للبحث في كيفية النزول إلى البر؛ حيث اتخذ قراره على ضوء ما دار في ذلك المجلس من مناقشات بعدم المغامرة بالنزول دفعة واحدة، فقسم قواته إلى ثلاثة أقسام، طليعة تكونت من ثمانمائة جندي ومائة رام قادهم سير دي كوسي (Enguerand de Coucy) وكونت دو (Conte D'Eu) وتولى دوق بوربون قيادة القسم الثاني وهو القوات الرئيسية المكونة من الفرنسيين بما فيهم محاربو إقطاعاته، والقسم الثالث المؤخرة أو الساقة وكان يشمل الانكليز والجنوية وفرسان جاسكونيا، وكانت بقيادة سوديك صاحب تروا (Soudic Trau)، وسير كاستيلون (Sire Castillon) وكونت دوفن (Conte Dauphin)[٦]، والتي كانت مهمتها الحماية ومشاغلة المسلمين بالسهام فيما إذا

---

(١) J.Froissart : Op. Cit., vol.2.p.470.

(٢) انظر A.S.Atiya : Op. Cit., p.418.

(٣) Delaville le Roulx: Op. Cit., p.186.

(٤) انظر A.S.Atiya : Ibid,p.418

(٥) انظر J.Froissart: Op. Cit., vol.2.p.466.L.Mirot: Op. Cit., p.25.

(٦) L.Mirot : Ibid. p.25. Cabaret D'Orville : Ibid. p.229. A.S. Atiya : Op. Cit., p.415.
وكذلك محمد عوني يس، المرجع السابق، ص : ١٤٢.

بادروا بالهجوم حتى تتم عملية الإنزال. وفي صباح اليوم التالي الأربعاء ٢٢ يوليو سنة ١٣٩٠م/٦ شعبان سنة ٧٩٢هـ تقدم سير كوسي بقواته في قوارب صغيرة ونزل إلى البر دون مقاومة تذكر اللهم إلا من بعض القذائف التي أطلقت من البرج الكبير[١]، ذلك أن قادة الجند الإسلامي كانوا حينما ظهر الأسطول الصليبي في الأفق قد عقدوا مجلس حربهم لبحث سبل الدفاع، فطرحت في ذلك المجلس وجهتي نظر متباينتين إحدهما ترى التصدي للصليبيين ومنعهم من النزول[٢] والثانية تقول بالسماح لهم بذلك ليسهل حصرهم والقضاء عليهم أو إجبارهم على الرحيل وتوفير الجهد لحماية المدينة نفسها لأن الصليبيين كانوا كثيري العدد وعلى درجة عالية من الكفاءة والتسليح والحماس، وما دام الأمر كذلك فالأفضل في رأي أصحاب هذا القول هو تركيز قوات المسلمين داخل المدينة ودفع العدو عنها[٣]، وقد تقرر أخيراً الأخذ بالرأي الثاني والسماح للصليبيين بالنزول إلى البر مما يذكرنا بخطة المستنصر أيام نزول الصليبيين بقرطاجة لذلك لم يتعرضوا لطليعة الصليبيين إلا بمناوشات بسيطة. وعندما اتخذت تلك الطليعة مواقع لها في البر بدأت القوات الصليبية الأخرى تتلوها في القدوم بالقوارب الصغيرة تحت حماية تلك الطليعة حيث تكامل نزولهم في اليوم التالي الخميس ٢٢ يوليو سنة ١٣٩٠م / ٧ شعبان سنة ٧٩٢هـ، ويبدو من رواية فوليتاي أنه حدثت بعض المناوشات بين المسلمين والصليبيين أثناء عملية النزول كما سبق ذكره والتي يؤيدها الزركشي بقوله: (فاتفق للمولى أبي فارس عبد العزيز وقائع منها يوم نزولهم)[٤] ولكنها لم تكن ذات أهمية تذكر. وعسكر الصليبيون في الشريط الذي يصل المهدية بالبر لقطع اتصالها بالمسلمين في حين بقيت سفن الأسطول راسية قبالتهم في عرض البحر والمؤن والمعدات تجلب لهم يومياً منها بالقوارب[٥]. وقضى دوق بوربون ذلك اليوم

---

(١) A.S.Atiya : Op. Cit., .p.415.

(٢) J.Froissart : Op. Cit., vol.2. p.467.

(٣) J.Froissart: Ibid,vol.2.p.467. Delaville le Roulx : Op. Cit. 181 د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص : ١٠٤٢-١٠٤٣، ويورد فرواسار تفاصيل كثيرة عن ما دار في ذلك المجلس من مناقشات والتي نرجح أن يكون خياله قد لعب دوراً كبيراً في نسجها (J.Froissart : Ibid,vol.2. p .466-8.)

(٤) الزركشي : المصدر السابق ص: ١١٢.

(٥) J.Froissart: Op. Cit., vol.2, p.470, Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.231, A.S.Atiya: Op. Cit.,p.416.=

في ترتيب المعسكر الصليبي[1] وتوزيع المهام على القادة، ثم وكما جرت عليه العادة في مثل هذه الحالات قام برسم عدد من المحاربين برتبة فارس[2]. وفي صباح اليوم التالي الجمعة ٢٤ يوليو سنة ١٣٩٠م / ٨ شعبان سنة ٧٩٢هـ، أمر قواته بالزحف لحصار المدينة فحوصرت براً وبحراً[3].

مواجهة المسلمين للغزاة :

انقضت ثلاثة أيام على حصار الصليبيين للمدينة دون أن يقوم المسلمون سواء حامية المدينة أو قواتهم المعسكرة بالقرب منها بأي بادرة للاشتباك مع الصليبيين[4]، وعلى ما يبدو أنهم آثروا الانتظار قليلاً حتى تتجمع قواتهم، ذلك أن أي اشتباك كبير مع الصليبيين وهم في ذروة حماسهم بقوات قليلة يعتبر مغامرة غير مأمونة العواقب، وعند غروب شمس اليوم الثالث ٢٦ يوليو ١٣٩٠م / ١١ شعبان ٧٩٢هـ حدث أول اشتباك جاد بين الفريقين، إذ انتهزت حامية المدينة[5] فرصة انشغال الصليبيين في تناول طعام العشاء وهدوء الحركة في

= محمد عوني يس : المرجع السابق ص: ١٥٢.

(١) لمزيد من التفصيل انظر J.Froussart : Op. Cit., vol.2, p.469. L.Mirot: Op. Cit., p.27. محمد عوني يس : المرجع السابق ص : ١٥٠ وما بعدها.

(٢) كان من بين هؤلاء الفرسان الجدد جان دي لين Jean de la Ligne من هيوليت، وابن عمه هنري دي أنتونغ Henri D'Antoing وغيرهما. (انظر J.Froissar t: Ibid, vol.2, p.469,A.S.Atiya: Op. Cit., p.416.)

(٣) J.Froissart : Ibid, vol.2, p.470.Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.231 .A.S.Atiya : Ibid, p.416. د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ص: ١٢٤٤.

(٤) A.S.Atiya : Ibid,p.416.

(٥) تقدر حولية دير القديس دينيس (انظر A.S.Atiya: Op. Cit.,p.417.) عدد هذه الحامية بستة آلاف جندي في حين يقول كباريه دورفيل (Cabaret D'Orville: Op. Cit.,229) وميرو (L.Mirot: Op. Cit.,p.38.) أنها كانت اثني عشر ألف جندي، وفي تقدير لمؤرخين آخرين (انظر : A.S.Atiya : Ibid, p.417) أن السلطان حشد في المدينة ألفي جندي، ونحن نعتقد من جانبنا أن القول الأخير أقل بكثير من الواقع على مدينة مشهورة كالمهدية تستعد لاستقبال حملة صليبية، أما إذا كان المقصود بالقول الثاني هو الجيش النظامي فقط فإننا نميل إلى الأخذ به، وأما إذا كان المقصود به هو مجموع القوات الموجودة في المدينة فإن ذلك في اعتقادنا أقل من العدد الفعلي، وعلى ذلك نرجح القول الأول إذا ما أخذنا في اعتبارنا إضافة حوالي ستة آلاف آخرين على ما ذكرته حولية دير=

معسكرهم وشنت هجوماً قوياً ومباغتاً عليهم، إذ فتح الباب البري للمدينة واندفعت قوة كبيرة من جند الحامية نحو الصليبيين، ولكن دوق بوربون القائد الذي عركته الحروب لم يكن بالذي يؤخذ على غرة إذ كان قد احتاط لمثل هذا الأمر فأقام نوبة للحراسة مكونة من مائتي جندي وألف رام تحت إمرة هيوج دي كاستيلوس (Hugues de Castellus) صاحب شاتوموران (de Chateaumurand) وولديه جان (Jean) وجيشارد (Guichard) فانبرى هؤلاء لمواجهة المسلمين واشتبكوا معهم، ولم يصدوهم فحسب، بل طاردوهم حتى باب المدينة بعد أن كبدوهم في هذه المعركة التي دامت ساعتين حوالي ثلاثمائة قتيل كما تقول المصادر المسيحية[1] التي تبالغ عادة في تضخيم انتصارات المسيحيين، ويبدو أن السبب في هذه الهزيمة كان هو عدم وجود التنسيق الكامل بين حامية المدينة والقوات الإسلامية الأخرى المعسكرة خارجها، وأن الحامية اتخذت مسؤولية هذا الهجوم على عاتقها ظناً منها أنه في إمكانها مفاجأة الصليبيين وتوجيه ضربة قوية لهم، ولو تم التنسيق بينها وبين المعسكر الإسلامي لساندتها تلك القوات ولربما تمكن الجميع من ضرب الصليبيين ضربة موجعة، ولعل ذلك يفسر عدم تحرك المسلمين في ذلك المعسكر لمساعدة الحامية في هذا الهجوم. وعلى كل حال كانت هذه المحاولة من الحامية هي الأولى والأخيرة لم تكررها مرة أخرى مكتفية بالدفاع عن المدينة وتاركة مهمة شن الغارات على الصليبيين ومشاغلتهم للقوات الإسلامية الأخرى .

كان الأمير أبوفارس عبد العزيز معسكراً بقواته قبالة المعسكر الصليبي في انتظار القوات الرئيسية، وما هي إلا بضعة أيام حتى وصلت هذه القوات تحت إمرة عمه زكريا، وباشرت في إقامة معسكرها على تل قبالة المعسكر الصليبي وعلى بعد مرمى سهم منه[2]، وكان دوق بوربون قد علم بقرب وصولها من سفينتين جنويتين كانتا تجوبان الشواطيء

= القديس دينيس، هم من المجاهدين وغزاة البحر الذين كانوا يتمركزون في المدينة، ولذلك فإننا نرجح أن تكون رواية كباريه دورفيل وميرو هي الأقرب إلى الصواب .

(١) انظر Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.231. Froissart : Op. Cit., v.2.p.472 «الذي يقول أن ذلك حدث في اليوم الثاني وليس الثالث». A.S.Atiya : Ibid. p.417., R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I.p.200-1.

(٢) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.28. R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I.p.201.

القريبة للتجسس على تحركات المسلمين[١] الأمر الذي أقلقه، وزاد قلقه حينما رأى هذه القوات الضخمة تعسكر قبالته[٢] إلى حد أن فصائل منها تقدمت واشتبكت مع الصليبيين، ومع أن ذلك الاشتباك كان محدوداً انتهى بحلول الظلام ولم يسفر عن شيء يذكر[٣]، إلا أنه حسب أن ذلك مقدمة لهجوم كبير يزمع المسلمون شنه عليهم، ويبدو أن قلق دوق بوربون انتقل إلى الجند الصليبي، فسرت بينهم همسات تدعو إلى رفع الحصار عن المدينة لمواجهة الهجوم المرتقب، ولكن دوق بوربون رفض الفكرة بحزم ولقي في ذلك التأييد من صاحب كوسي وكونت دو[٤]، لذلك عقد مجلس حربه لدراسة الموقف، وقد اقترح الجنوية الذين كانوا أكثر من غيرهم معرفة بأساليب القتال التي يتبعها المسلمون، اقترحوا تحصين المعسكر بسياج من الخشب والحبال بارتفاع أربعة أقدام ليأمنوا من غارات المسلمين المفاجئة، وقد نال هذا الاقتراح استحسان الجميع وبوشر في تنفيذه بالفعل، فأحضرت مجاديف السفن ودقت متشابكة في الرمال حول المعسكر بحيث يسهل على الرماة رمي السهام من الفتحات[٥] التي كونها هذا التشابك، ولعل ذلك السياج هو الذي عناه ابن خلدون بقوله : (وضربوا عند أول طرقهم سوراً من الخشب بينه – البحر – وبين البر)[٦]، كما قسم جند حراسة المعسكر إلى مجموعات كل واحدة منها مكونة من مائة مقاتل وخمسين رام ووزعت حول المعسكر بحيث تبعد كل مجموعة عن الأخرى مسافة مائة وعشرين قدماً. وتمركز في الجانب المواجه للمدينة ألف مقاتل وخمسمائة رام جنوي تحسباً لأي غارة من حاميتها[٧]. ولكن بالرغم من هذه التحصينات بدأ المسلمون في تنفيذ خطتهم بشن الغارات المفاجئة على الصليبيين دون الدخول معهم في معركة حاسمة فأخذوا يغيرون

---

(١) A.S.Atiya : Op. Cit.. p. 418.

(٢) Delaville le Roulx : Op. Cit., p.186.

(٣) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.236., A.S.Atiya: Ibid. p.418.

(٤) Delaville le Roulx : Ibid. p.186

(٥) Cabaret D'Orville: Ibid, .p.233-4., L.Miort : Op. Cit., p.28.
A.S.Atiya: Ibid.p.419., R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1 .p.201.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ،ج٦،ص ٤٠٠.

(٧) انظر : Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.234., L.Mirot : Op. Cit., p.28., A.S.Atiya : Op. Cit., p.419.

عليهم يومياً كلما واتتهم فرصة المباغتة حتى تكررت الغارات في اليوم الواحد فضلاً عن الغارات الليلية التي كانوا يشنونها[1] حيث كانوا يكبدون العدو فيها الخسائر الجسيمة ويستشهد منهم من كتبت له الحسنى. ويروي فرواسار أن المسلمين عزموا في إحدى الليالي على شن غارة من هذه الغارات الليليةبأعداد كبيرة، ولم ينقذ الصليبيين منهم إلا نباح كلب حراسة للجنويين نبههم لهذا الخطر الداهم، الأمر الذي جعل المسلمين يدركون أن فرصة المباغتة قد فاتتهم فقفلوا عائدين إلى معسكرهم[2]. كما يصف محاولة هجوم ليلي آخر حاول المسلمون القيام به فيقول إنهم بينما كانوا يزحفون بحذر تحت جنح الظلام، اعترضتهم مجموعة من السيدات يرتدين ملابس بيضاء ويحملن أعلاماً رسم عليها صلبان حمراء فذعر المسلمون وولوا الأدبار[3]، والحقيقة أن هذه الخرافة إن لم تكن من نسج خيال فرواسار، فهي قد اختلقت لبث الحماس في نفوس الصليبيين، واختلاق مثل هذه الخرافة لم يكن بالأمر المستهجن على الصليبيين، ولها مثيلات كثيرة في تاريخ الحروب الصليبية. وعلى أية حال فقد أدت هذه الهجمات الغرض المتوخى منها، إذ أزعجت الصليبيين وبدأت تفتر من حماسهم وتحط من معنوياتهم. وقد حاولت قيادتهم القيام بإرسال فصائل منهم في طلعات ضد المسلمين لرفع تلك المعنويات، ولكن المسلمين الذين كانوا يتقنون هذا النوع من الحرب كانوا يفشلونها، الأمرالذي جعلها تأتي بنتائج عكسية[4].

وتبعاً لذلك ازدادت جرأة المسلمين على أعدائهم فأقضوا مضاجعهم واضطروهم للبقاء في أسلحتهم ودروعهم الثقيلة طوال اليوم مما جعل تلك الدروع تصبح عبئاً ثقيلاً على أجسادهم التي ألهبتها حرارة الشمس في ذلك الفصل القائظ فزادتهم الحرارة ضيقاً على ضيق، وكلما شعر المسلمون بهذا الضيق زادوا من غاراتهم التي كان يقوم بها فرسانهم الخفيفو الحركة نظراً لخفة دروعهم وأسلحتهم وسرعة خيولهم حيث كانوا يهاجمون

---

(١) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.238., A.S.Atiya : Op. Cit, p.420, R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1 .p.201.

(٢) J.Froissart: Op. Cit., p.473.

(٣) J.Froissart: Ibid.vol, 2.p.473.

(٤) انظر J.Froissart : Op. Cit., vol.2.p.471.

الصليبيين تحت حماية رماتهم الذين كانوا ينضحون العدو بزخات متلاحقة من النبال ثم يرقدون على الأرض اتقاء لسهام رماة الجنوية لينهضوا بعد ذلك ويعيدوا عملية الرمي من جديد في سرعة خاطفة(١)، يكررون هذه العملية عدة مرات، حتى إذا ما وصل فرسانهم إلى المعسكر الصليبي والتحموا مع العدو كفوا عن الرمي، وينتظرون فروغ هؤلاء الفرسان من مهمتهم، وعند انسحاب هؤلاء كان الرماة يستأنفون عملية الرمي من جديد لتغطية ذلك الانسحاب، حتى بات الصليبيون يضيقون ذرعاً بهذه الغارات الخاطفة والمتلاحقة والتي لا يدرون متى وأين تشن عليهم، والتي لم يكونوا يملكون حيالها إلا مجرد العمل على صدها أو تقليل الخسائر الناجمة عنها بقدر الإمكان.

ولدى تكرار هذه الهجمات وفشل المحاولات التي كان يبذلها الصليبيون لجر المسلمين للدخول معهم في معركة حاسمة، بدأ دوق بوربون يفكر في أن يقوم هو بهجوم قوي على المسلمين بدلاً من انتظار هجومهم، لعله بذلك يكسب نصراً يرفع به معنويات جنوده، وفي نفس الوقت يحطم المقاومة الإسلامية المتزايدة ويقتحم المدينة، ذلك لأن الوقت لم يكن في صالحه، فقوات المسلمين تتزايد كل يوم، على العكس من قواته التي كانت تتناقص سواء بفعل الحرب أو المرض دون تعويض، وواتته الظروف إذ عمل على استغلال حادث بسيط حدث في حدود منتصف أغسطس/ رمضان من ذلك العام، ذلك أنه وفقاً لرواية فرواسار المغرم بإضفاء مسحة درامية على الحوادث، جرت مناقشة لأوضاع الحرب بين مجموعة من الشبان المسلمين فأبدى أصغرهم سناً ويسميه فرواسار (Agadinquor)(٢) ابن (D'Oliferne) والذي يقول عنه إنه يحب ابنة السلطان الوحيدة التي يسميها (Alsala)، أبدى رغبته في مبارزة الصليبيين ليبرهن لمحبوبته أنه يتمتع بشجاعة كبيرة ليكون جديراً بها، وقال لصحبه إنه ما دام أن الحق في جانبه فإنه سينتصر إذا ما أتيحت له الفرصة لمبارزة متكافئة مع أحد الصليبيين، لذلك تقدم إلى المعسكر الصليبي بصحبة مترجم وطلب المبارزة،

---

(١) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.29.

(٢) إنه لمن الصعب التعرف على هذه الأسماء التي أوردها فرواسار في اللغة العربية مع هذا التحريف الكبير عن الأصل العربي هذا إذا لم تكن من نسيج خيال فرواسار.

وتصادف أن كان قريباً من خيمة صليبي يدعى أفرنال (Affernal)[1] فخرج إليه، وعندما فهم غرضه وافق على مطلبه بحيث يخرج عشرة من الصليبيين لمبارزة عشرة من المسلمين، وتم الاتفاق بينهما على أن تجري تلك المبارزة بعد أربع ساعات من ذلك الوقت يقوم كل منهما خلالها باختيار شركائه التسعة الآخرين. وشاع خبر هذه المبارزة في المعسكر الصليبي حتى علم بها صاحب كوسي مساعد القائد العام للجيش الصليبي، فأنكر على أفرنال موافقته على مبارزة المسلمين بحجة أنهم قد لا يكونون أنداداً للصليبيين، فلربما كانوا من العبيد أو الخدم وتساءل عن عن جدواها، فإنهم إذا ما انتصروا فيها فلن يؤدي ذلك إلى دخولهم المهدية فضلاً عن أنه سيعرض أرواحاً عديدة هامة للخطر، إذ لربما كان المسلمون قد نصبوا كميناً للصليبيين، وأنحى باللائمة على أفرنال مبيناً له أنه كان ينبغي عليه اصطحاب ذلك الشاب المسلم إلى القيادة بعد أن يمنحه الأمان في ذهابه وإيابه كي تقوم القيادة بمناقشته ومعرفة نواياه الحقيقية، وترد عليه بما تراه مناسباً، وطلب منه عدم إتمام تلك المبارزة إلا بعد ترو وكشف خصومهم المسلمين عن شخصياتهم، وذهب إلى دوق بوربون ليعلمه بالأمر فوجده على علم به وقد اجتمع ببعض القادة لبحثه[2].

وفي الوقت الذي كانت فيه بعض فصائل الصليبيين تستعد للذهاب لمشاهدة المبارزة، خرج دوق بوربون مع بعض مرافقيه للحيلولة دون إتمامها، وعندما اقترب من الحلبة رأى أعداداً غفيرة من المسلمين قد خرجت لتشهد هي الأخرى تلك المبارزة، فرأى دوق بوربون أن هذه فرصة ثمينة ينبغي عليه استغلالها فأسرع بقوة تقدر بألفي جندي وهاجم معسكر المسلمين الذي كان شبه خال من القوات وأعمل فيه النهب وأشعل النار فيه، وقد تبعه كونت دو بقوة أخرى ليكون ردءاً له في حين بقي صاحب كوسي ببعض القوات في المعسكر الصليبي لحراسته والذي كان هو الآخر شبه خال إلا من المرضى وبعض الجند، وفوجئ المسلمون بهذا الهجوم ولكنهم سرعان ما تمالكوا أنفسهم، فهرع قسم منهم إلى معسكرهم لإنقاذه في حين قام القسم الآخر بشن هجوم مضاد على المعسكر الصليبي،

---

(١) يذكر كل من (Delaville le Roulx : Op. Cit., p.188) و (L.Mirot : Op. Cit., p.29) و(A.S.Atiya : Op. Cit., p.420) أن اسم هذا الفارس كان بوكيكو .Baucicaut

(٢) انظر J.Froissart: Op. Cit., vol.2, p.474-5.

واحتدم القتال في كلا المعسكرين، الأمر الذي اضطر دوق بوربون أخيراً إلى التراجع لحماية معسكره وانسحب المسلمون هم الآخرون من المعسكر الصليبي، وهكذا انتهت هذه المعركة بعد أن تكبد كلا الفريقين خسائر كبيرة(١). ولما كانت المصادر الإسلامية المعاصرة لم تتعرض لحوادث هذه الحملة إلا ببضعة سطور لا تتضمن إلا القليل جداً من المعلومات عنها والتي يعتبر تاريخ ابن خلدون على قلة المعلومات الواردة فيه عنها أكثرها تفصيلاً، وحيث إنها كلها لم تتعرض لهذه الحادثة، فلا ندري مدى صحة الروايات المسيحية عن هذا الموضوع، وعلى كل حال فإن ما يمكن تأكيده من هذه الحادثة هو الهجوم المتبادل على كلا المعسكرين اعتماداً على ما ذكره الزركشي من أنه وقعت بين المسلمين والصليبيين حروب كثيرة (كان للمسلمين فيها جولة بحيث أسلموا المحلة ودخلها العدو ولم يجد فيها عيناً تطرف عدا رجلاً واحداً مغشياً قتلوه. وبينما هم في سبي الأزواد والأسباب إذا بالمولى أبي فارس نادى في المسلمين وجميع القواد ومن حضرهم من الجند وكر راجعاً تجاه العدو حتى أخذ المحلة من أيديهم قهراً فحميت العرب وانصرف العدو منهزماً وقتل منهم نحو خمسة وسبعين فارساً . . .)(٢)، وكادت هذه الحادثة تنقلب إلى كارثة على المسلمين، ذلك أن أبا فارس الذي كان يقود الهجوم الإسلامي المضاد بنفسه كما هو واضح من رواية الزركشي، وأثناء تراجع المسلمين عن المعسكر الصليبي، رأى بعض المسلمين يقعون أسرى في أيدي الصليبيين، فلم يكن من أبي فارس إلا أن كر ببعض جنده لتخليصهم، ويبدو أن الحماس استحوذ على كامل انتباهه، فلم يشعر إلا والصليبيون قد أحاطوا به من كل جانب ويأسرونه، وكانت عادتهم في الحرب كما يقول الزركشي أنهم إذا أسروا ملكاً أو ابن ملك لا ينزلونه عن فرسه احتراماً له (فأخذوا بعنان فرسه وساروا به، فألهمه الله سبحانه فأخلع عنان فرسه وألح على الفرس وهمزه فخرج من بينهم فرموه بسهام وأسنة وأتبعوه بخيل وأعنة وهو لا يلتفت إلى أن وصل إلى المسلمين وسلمه الله عز وجل) فكانت نجاته نصراً

(١) انظر عن ذلك : J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.475-7.
Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.245, Delaville le Roulx : Op. Cit., p.188-190. L.Mirot : Op. Cit., p.29 A.S.Atiya: Op. Cit., p.420-1., محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٢ وما بعدها.
(٢) الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٢–١١٣.

آخر للمسلمين في ذلك اليوم[1].

ولما لم تؤد هذه المعركة إلى النتيجة التي أملها الصليبيون، أدرك دوق بوربون أن بقاء جيشه في هذا الوضع دون الوصول إلى نتيجة حاسمة سيما وأنه كان قد مضى على وجودهم في إفريقية مدة تقارب السبعة أسابيع، سيؤدي إلى كثير من المخاطر نظراً لكون الصليبيين أصبحوا شبه محصورين بين المدينة والقوات الإسلامية المعسكرة في خارجها والتي توالي الإغارة عليهم ، فرأى ضرورة العمل على احتلال المدينة قبل تفاقم الوضع، فعقد مجلس حربه للبحث في هذا الموضوع، حيث تم اتخاذ قرار بالهجوم على المدينة بعد مناقشة مطولة أبدى الجنوية أثنائها استعدادهم لصنع برج خشبي كبير من ثلاث طوابق وسلمين من نوع ما يسمى بمنقار الصقر (Bec de Falcon)[2] من الأخشاب التي أحضروها معهم[3]، وذلك من أجل نصبها على أسوار المدينة لاقتحامها، كما اتفق على خطة هذا الاقتحام والتي خلاصتها بدء الهجوم أولاً من البر، فإذا ما تركز دفاع الحامية على تلك الناحية وخلت ناحية البحر من المدافعين أو قل عددهم على الأقل قام القسم الآخر من القوات الصليبية بمهاجمة تلك الناحية فيتم اقتحام المدينة[4]، وتبعاً لذلك دب النشاط في المعسكر الصليبي لتجهيز هذه المعدات مما جعل ذلك ينعكس على الجند فعمهم الفرح والاستبشار واعتقدوا أن سقوط المهدية في أيديهم قد بات وشيكاً[5].

---

(١) الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٣، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦،ص: ٤٠٠، الوزير السراج : المصدر السابق، ج١،ق٤،ص: ١٠٦٩. ويعتقد برنجفيك (R.Brunschvig: Op. Cit., Tom I,p.201) أن ذلك الحادث جرى يوم الهجوم على المهدية في أوائل سبتمبر، هذا الهجوم الذي سنتعرض له فيما بعد، ولكن الأصح هو أنه جرى يوم المبارزة كما ذكرناه في المتن اعتماداً على رواية الزركشي.

(٢) يتكون هذا النوع من السلالم من سلم ذو غطاء خشبي بحيث يصبح وكأنه اسطوانة، ويتصل بطرفه الأعلى مشبك حديدي قوي على هيئة منقار الصقر ليشبك في حافة السور، ويتسع لحوالي خمسة عشر جندياً ينفذون عبره إلى الأسوار وهم محميون من مقذوفات المدافعين .
انظر(A.S.Atiya : Op. Cit., p.422 ، محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٦٥ حاشية ٨٦).

(٣) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.239., A.S.Atiya : Ibid, p.422.

(٤) L.Mirot : Op. Cit., p.30., A.S.Atiya : Ibid,p.422.

(٥) = Cabaret D'Orville: Ibid,p.240.

وبعد اكتمال هذه الاستعدادات التي استغرقت أسبوعاً، شرع الصليبيون في أوائل سبتمبر سنة ١٣٩٠م / رمضان سنة ٧٩٢هـ في شن هجومهم على المدينة من ناحية البر حسب تلك الخطة، وعلى ما يبدو أن الجنوية المقيمين بها كانوا يزودون الصليبيين بالمعلومات ويدلونهم على عورات البلد ونقاط الضعف عند المدافعين عنها، فيعتقد أنه بناء على توجيهاتهم استقر الرأي على جر البرج الخشبي إلى حد أبراج السور المواجهة للبر لأنه(١) أقل استعداداً من غيره. وبدأ الهجوم شديداً واحتدم القتال عند (باب الفتوح) البوابة الرئيسية للمدينة وهي التي تدعى حالياً (السقيفة الكحلاء)، وتصدت الحامية للمهاجمين بقوة وبسالة واستماتت في الدفاع، وما أن تحرك البرج الخشبي باتجاه هدفه الذي رسم له حتى أدركت الحامية وجهته مما جعلها تسرع في نقل عدد من المدافع وتركزها في مواجهته، وبدأت تمطره بقذائفها الملتهبة، وقد استمر قذفه مدة يوم وليلة حتى اشتعلت فيه النار فحولته إلى كومة من الرماد قبل أن يصل إلى السور، ويصف ابن خلدون احتراق هذا البرج الخشبي وأثره على ذلك الهجوم بقوله : (وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البرج يشرف على أسوار المعقل ليعظم نكايتهم، وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين متحسبين . . . ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المطل عليها من جهة البحر فوجموا لحريقه. . .)(٢). وزاد ضغط المهاجمين على البوابة الرئيسية أي عند السقيفة الكحلاء إلى حد أنهم تمكنوا من كسرها، ولكن حصانتها(٣) من ناحية واستماتة المسلمين

---

(١) A.S.Atiya: Ibid,p.422-3.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٦٦.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦، ص : ٤٠٠، انظر كذلك :
A.S.Atiya : Ibid,p.422 - 3, R.Brunschvig : Op. Cit. Tom I,p.201.

(١) محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٦٨.

(٣) عاينت هذه البوابة عند زيارتي للمهدية، وهي من نوع ذي الأبواب المزدوجة بين الباب الأول والباب الثاني مسافة لا تقل عن الثلاثين متراً، وتصل مسافة دهليز هذه البوابة إلى ما لا يقل عن خمسين متراً ويعلوها برج حصين لا زالت آثاره ماثلة إلى وقتنا الحاضر، ونظراً لهذه الحصانة فإنه يصعب اقتحام المدينة من هذه الناحية.
لمزيد من التفصيل انظر : حسن حسني عبد الوهاب، ورقات ق٣،ص: ٣٧٤ وما بعدها.

في الدفاع عنها من ناحية ثانية فوتت على الصليبيين الفرصة في اقتحامها، إذ أن المدافعين قاموا بإصلاحها فوراً في الوقت الذي كانوا فيه لا زالوا يمطرون المهاجمين بقذائفهم من البرج الذي يعلوها[١]. وفي غضون ذلك بدأ الهجوم من ناحية البحر فتحركت سلالم منقار الصقر على أربع سفن من نوع الصال[٢] يتبعها عدد غفير من المشاة والرماة في القوارب، ولكن المسلمين كانوا متيقظين لخطة عدوهم ووضعوا خطتهم المضادة لها فأخلوا برج الميناء من المدافعين بعد أن غطوه بأرضية من الخشب بها فتحات متقاربة صغيرة اختفى تحتها عدد من الرماة، وتركز الدفاع على الأسوار في تلك الناحية التي استهدفها سلما منقار الصقر، ولدى اقتراب المهاجمين بدأ المسلمون يمطرون عدوهم بالقذائف والسهام والحجارة، وبالرغم من تمكن الجنوية من الوصول إلى الأسوار وتركيز أحد السلمين عليها، فإن أول جنديين صعدا به وكانا من النورمان أمسك المسلمون بهما وقتلوهما وألقوا بجثتيهما إلى المهاجمين لإلقاء الرعب في نفوسهم[٣]، ولم يلبثوا أن حطموا هذا السلم، وأما الثاني الذي نصب على البرج وصعد المهاجمون به إلى البرج المذكور، فما أن وطأت أقدامهم أرضيته الخشبية حتى بدأت سهام جند الكمين تنهال عليهم مما اضطرهم للتراجع[٤]، وما هي إلا فترة وجيزة حتى احترق هذا السلم هو الآخر أيضاً، فاضطر المهاجمون إلى الانسحاب، كما انسحب المهاجمون من ناحية البر في ذلك الوقت أيضاً تحت ضغط هجوم مضاد قامت به القوات الإسلامية الموجودة خارج المدينة على المعسكر الصليبي لتخفيف حدة الهجوم على أسوارها، وبذلك فشل هذا الهجوم بالرغم من شدته وضراوته بعد أن تكبد كلا الفريقين خسائر كبيرة، وكانت

---

(١) انظر : L.Mirot : Op. Cit., p.31, Delaville le Roulx : Op. Cit., p.192, A.S.Atiya : Op. Cit., p.423.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٨.

(٢) الصال جمع صالات وهي نوع من السفن يشبه الطوف يتسع لحوالي أربعمائة جندي (انظر محمد عوني يس: المرجع السابق، ص: ١٦٦ حاشية ٨٨).

(٣) A.S.Atiya: Ibid,p.423.

(٤) L.Mirot: Ibid,p.31,A.S.Atiya: Ibid, p.423., Brunschvig: Op. Cit., Tom I,p.201.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٩.

النتيجة الوحيدة التي حققها الصليبيون هي تمكنهم من صد الهجوم الإسلامي على معسكرهم(١). وقد حاول دوق بوربون تجهيز معدات جديدة لمعاودة الهجوم، ولكن الجنوية أخبروه بنفاذ كمية الأخشاب التي كانت لديهم(٢) الأمر الذي جعله يشعر بالعجز عن تحقيق نتيجة حاسمة.

متاعب دي بوربون وعقد الصلح :

بدأ دوق بوربون يواجه العديد من الصعوبات والمتاعب منذ وصوله بحملته إلى إفريقية فضلاً عن المتاعب التي واجهها من قبل سواء في مرسيليا أو في عرض البحر خاصة هبوب العاصفة الهوجاء على أسطوله التي بعثرت قطعه واضطرته للتوقف في جزيرة كونلييرا تسعة أيام، الأمر الذي أضاع عليه فرصة أفضل لمفاجأة المهدية، وفسح المجال أمام المسلمين للمزيد من التأهب والاستعداد لمواجهة الحملة(٣)، ومع أنه تمكن من إنزال جنده إلى البر دون مقاومة تذكر، ثم فرضه الحصار على المدينة، إلا أن جيشه قد أصبح هو في حكم المحاصر بين القوات الإسلامية خارج المدينة وبين حاميتها، وهذا الوضع لم يفسح له المجال لقدر كبير من المناورة فقلما جاء محصور بخير كما يقال، وبدأت المتاعب بعد ذلك تتوالى عليه وعلى جنده، فقد فشل في جر المسلمين للدخول معه في معركة فاصلة يحرز فيها نصراً عليهم يمكنه من احتلال المدينة، وبدلاً من ذلك وقع جيشه تحت رحمة المسلمين يوجهون إليه الضربة تلو الأخرى هذا من ناحية، ثم فريسة لحرارة الشمس في صيف إفريقية القائظ الذي لم يتعوده جنده، فضلاً عن اضطرارهم وخاصة الفرسان منهم للبقاء في أسلحتهم ودروعهم الثقيلة تحسباً من غارات المسلمين مما زاد في عبء الحرارة على أجسامهم، حتى أخذ الكثير منهم يعاني من الإرهاق وحتى المرض إن صحت الروايات المسيحية(٤) من ناحية ثانية،

---

(١) Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.241-242.

(٢) L.Mirot : Op. Cit., p.31, A.S.Atiya : Op. Cit., p.423.

(٣) R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1,p.201.

(٤) انظر عن ذلك : Delaville le Roulx : Op. Cit., p.190.
R.Brunschvig: Ibid,Tom 1,p.201.

ويأتي عامل هام آخر ليزيد من تلك المتاعب هو سوء التغذية لعدم وصول إمدادات التموين إلى الجيش الصليبي بانتظام، إذ أن المؤن التي زودت جنوه بها الحملة لم تكن كافية لمدة طويلة، حيث كان من المأمول أن يتم الاستيلاء على المهدية في غصون أيام قليلة وقبل نفاذ تلك المؤن وبذلك يمكن للصليبيين الحصول على ما يلزمهم منها من المدينة ومن المناطق الأخرى التي كان من المأمول أن يقوموا باحتلالها تباعاً أثناء تقدمهم في إفريقية، ولكن صمود المدينة أكثر مما كان متوقعاً جعل خطر احتمال نفاذ الأقوات التي أحضروها معهم يبرز بوضوح، حتى نوعية تلك الأقوات المجلوبة لم تكن كلها لتناسب أذواق الفرنسيين فالخمر الذي أحضره الجنويون من إقليمي أبوليا وقلورية (كلابريا) بجنوب إيطاليا مثلاً وهو مادة ضرورية في طعام الأوروبي لم يكن يناسب ذوق الفرنسيين لقوته[1]، مما زاد في ضيقهم وتبرمهم، وحيال خطر نفاذ المؤونة، كان على دوق بوربون العمل على استحضارها من الدول المسيحية القريبة من إفريقية، وقد عملت السلطات الحاكمة في نابلي وصقلية والجزر القريبة الأخرى كسردينيا وكورسيكا وحتى كريت شرقاً وبرشلونة غرباً على مد الصليبيين بحاجتهم من هذه المؤن إما طمعاً في الربح المادي أو شعوراً منهم بالواجب تجاه هذا الجند الذي يحارب المسلمين وتضامناً معه. فوصل إليهم الخمر من كانديا (Candia)[2] كما وصلتهم شحنة من الفواكه ومعظمها من البرتقال والرمان من برشلونة[3] علاوة على بعض أصناف المواد الغذائية الأخرى من مناطق أخرى، ولكن هذه الشحنات لم تكن تصل بانتظام حسب قول المصادر المسيحية[4] مغفلة ذكر السبب في ذلك، والذي أراه أن ذلك يعود إلى نشاط غزاة البحر المسلمين، فإذا كان معظم الذين يتمركزون في المهدية من هؤلاء الغزاة قد حصروا فيها قاصرين نشاطهم في تلك الفترة للدفاع عنها، فإن نظراءهم في بجاية وغيرها من مدن إفريقية الساحلية كانوا لا يزالون مطلقي الأيدي، ومن غير المنطقي أن يروا

---

(١) A.S.Atiya : Op. Cit.,p.425.

(٢) كانديا هي مدينة الخندق التي أسسها غزاة البحر الأندلسيين حينما قاموا بفتح جزيرة كريت (أقريطش) بقيادة أبي حفص عمر البلوطي، وحرف هذا الاسم حتى أصبح كانديا.

(٣) انظر J.Froissayrt : Op. Cit., vol.2. p.469.

(٤) انظر مثلاً : J.Froissart: Ibid,v.2,p.469. كذلك رواية أوبرتي فوليتاي (U.Folietae) في محمد عوني يس: المرجع السابق، ملحق ١، ص : ٢٤٦.

العدو يهاجم بلادهم ويقفون موقف المتفرج من تلك الحرب، فلا بد أن يكونوا قد وجهوا نشاطهم لقطع إمدادات العدو وأخذوا يتصيدون غالبية السفن المقلة لهذه المؤن حتى لا تصل للصليبيين. ثم يضاف إلى تلك المتاعب صعوبة أخرى واجهها الصليبيون وقتئذ هي أنهم في موقعهم على الشاطئ كانوا يجدون صعوبة بالغة في الحصول على المياه العذبة الصالحة للشرب، وقد حاولوا التغلب على ذلك بحفر العديد من الحفر في رمال الشاطئ لتجميع المياه الجوفية، ولكن ما كانوا يحصلون عليه منها كان قليلاً وعكراً تعافه النفس(١)، وزاد في تلك المتاعب إيذاء الحشرات والهوام لهم، فيذكر فرواسار أن أسراباً من الحشرات هاجمت الصليبيين مدة أسبوع، ولم ينقذهم منها إلا عاصفة قضت عليها بعد أن تسببت لهم تلك الحشرات في كثير من المضايقات(٢).

لقد كان لهذه المتاعب أثرها بلا شك في الحط من معنويات الصليبيين، ولكنها تبقى عوامل ثانوية إذا ما قورنت بسبب هام رئيسي جعلهم يدركون فشل مسعاهم تحاول العديد من المصادر والمراجع الغربية إخفاءه تحت ستار هذه العوامل الثانوية ألا وهو شدة المقاومة الإسلامية، لقد أقام الصليبيون يحاصرون المهدية مدة تزيد عن الشهرين دون أن يتمكنوا من تحقيق أي نتيجة تذكر، فلا هم نجحوا في اقتحام المدينة، ولا هم نجحوا في القضاء على الجيش الإسلامي المعسكر خارجها، وقد حاولوا ذلك في كلا الاتجاهين فباؤوا بالفشل. فشلوا في تحقيق نصر كاسح على الجيش الإسلامي في المعركة المفتوحة التي نشبت يوم المبارزة في منتصف شهر أغسطس، كما فشلوا في اقتحام المهدية في هجومهم الكبير الذي شنوه عليها بعد ذلك بحوالي أسبوعين، فكان لكلا الفشلين أثره القوي على معنويات الجند الصليبي، لذلك كانت شدة المقاومة هي السبب الرئيسي في تردي هذه المعنويات، ولعل ابن خلدون كان خير من عبر عن ذلك، فقد بين بوضوح أن احتراق البرج الخشبي الذي هو رمز لفشل الهجوم الكبير على المدينة كان له أبلغ الأثر في شعورهم بالفشل ومن ثم انسحابهم إذ يقول : (فوجموا لحريقه ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم)(٣). ولا يعني ابن خلدون بقوله من الغد أي في صبيحة

---

(١) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.30.

(٢) J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.473

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦، ص: ٤٠٠.

اليوم التالي، فالغد ينسحب بطبيعة الحال على المستقبل، ويؤكد هذه الحقيقة ابن القنذ بقوله :(وخيب الله سعيهم وانصرفوا. . . واتفقت عليها – المهدية – وقائع . ..)[١]، ويزيدها تأكيداً كل من ابن الشماع حين يقول : (. . . فولى حربهم ولده الأنجب وخلاصة عنصره المنتخب مولانا أبا فارس عبد العزيز فبذل نفسه وماله في الجهاد وأظهر من نفسه الجلد عند الجلاد حتى صرف الله الكافرين إلى بلادهم المدمرة خاسئين)[٢]، ثم المقريزي بقوله : (فكانت حروباً شديدة، انتصر المسلمون فيها على الفرنج وقتلوا كثيراً منهم)[٣].

وكان لفشل دوق بوربون في إحراز نصر حاسم وسريع أثره القوي على فقدان الجند للثقة به حتى بدأت روح التذمر منه تسري بينهم ويوجهون النقد إليه علناً فأخذوا عليه حسب قول فرواسار أنه كان متعالياً عليهم محتجباً عنهم لا يكترث بهم كثيراً ولم يكن يترك مقره ليتعرف على مشاكلهم ويعمل على حلها أو حتى يهتم براحة فرسانه، ولم يكن لأحد أن يتصل به إلاعن طريق سلسلة من الوسطاء على عكس مساعده صاحب كوسي الذي كان كريماً من كافة الوجوه ذا طريقة محببة في التعامل، ويضيف فرواسار أن بعض فرسان الحملة أخبروه أنه لو قدر لصاحب كوسي أن يقود الحملة بدلاً من دوق بوربون لتغيرت نتائجها ولحالفها التوفيق، لأن كثيراً من الوقائع التي جرت بين الصليبيين والمسلمين فشلت في تحقيق أهدافها نتيجة أخطاء دوق بوربون وغروره، ويعتقد الكثيرون أنه لولا قيادته غير الحكيمة لأمكن الاستيلاء على المدينة[٤]. ويؤكد جستنياني الذي يمثل وجهة نظر جنوه بطبيعة الحال ذلك ويلقي باللائمة على الفرنسيين، فيقول إنه نظراً لسوء النظام الذي ساد بين الفرنسيين فشلت الحملة وعاد الأسطول من حيث أتى[٥]. وهكذا بدأ الصليبيون

---

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق، ص: ١٨٨، انظر كذلك ابن الشماع : المصدر السابق، ص: ١٤١، الزركشي: المصدر السابق، ص: ١١٣، الوزير السراج : المصدر السابق، ج١، ق٤، ص : ١٠٧٠، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق، ورقة ٢٠١.

(٢) ابن الشماع : تكميل التاريخ المسمى الأدلة البينة النورانية، مخطوط، تونس ١٠١١، ورقة ٨٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص : ٧٢٥، انظر أيضاً ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص: ٣١٤.

(٤) انظر J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.472 - 473, L. Mirot : Op. Cit., p.30.
محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٧٦.

(٥) انظر Agostino Guistiniani : Op. Cit., vol.2, p.163.

يشعرون أن آمالهم في الاستيلاء على المهدية قد خابت وأن إقامتهم في إفريقية أصبحت عديمة الجدوى والأفضل لهم أن ينسحبوا عائدين إلى بلادهم قبل حلول فصل الشتاء حيث يتعذر عليهم حينذاك السفر في البحر.

ولم يكن المسلمون أقل رغبة من الصليبيين في إنهاء هذه الحرب، صحيح أن الزمن كان في صالحهم ولكن لفترة محدودة، إذ لو أقام الصليبيون على المهدية حتى فصل الربيع التالي لأمدتهم أوروبا بقوات جديدة حيث تكون حامية المدينة وأهلها قد ضعفوا عن المقاومة الأمر الذي يوفر للصليبيين فرصة اقتحام المدينة وهم يدركون سلفاً نتيجة ذلك الاقتحام إذ أن دماءهم ستسفك وأموالهم ستنهب وأعراضهم ستنتهك، وبعد تمركز الصليبيين في المدينة يصعب إخراجهم منها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن السلطان الحفصي الذي واجه منذ اعتلائه العرش العديد من الثورات حتى إنه قضى الشطر الأكبر من عهده يعمل على إخمادها، لم يكن يأمن من نشوب ثورة جديدة يقوم بها أحد الطامعين بالعرش منتهزاً فرصة انشغاله بالصليبيين الأمر الذي يهدد سلطانه بالزوال، لا سيما وأنه كان هنالك بعض النواحي في إفريقية لم تكن قد خضعت له تماماً بعد، والتي قام بإخضاعها بعد رحيل الصليبيين مثل طرابلس وقفصة، كما كان يدرك صعوبة الاحتفاظ بالأعراب الهلالية الذين كانوا قوة كبيرة في جيشه في حرب طويلة الأمد ولربما تركوا القتال إذا ما انقضى فصل الصيف للنجعة في مراعيهم بالجنوب، وذلك يحمل في طياته خطر تغلب الصليبيين على قواته المتبقية، فإذا كان قد عجز عن طرد الصليبيين بوجود الهلالية فهو بدونهم أعجز عن ذلك.

لذلك، فقد كان لكلا الطرفين متاعبه التي جعلته راغباً في إنهاء هذه الحرب وعقد الصلح، وكان الجنوية الأكثر رغبة في ذلك في الجانب الصليبي، لقد كانوا يشعرون أنهم الشريك الأكثر خسارة في هذا المشروع الذي كلفهم الكثير دون أن يحقق لهم شيئاً مما كانوا يطمعون فيه، فقد أنفقوا كثيراً من الأموال في تجهيز الحملة كان من الممكن أن تستثمر في أعمال تجارية تدر عليهم الربح، وجمدوا أسطولهم موسماً كاملاً كان من الممكن أن يستخدم في الأعمال التجارية أيضاً فيعود عليهم بأرباح وافرة، والأهم من هذا وذاك أنهم

غامروا بمصالحهم التجارية الكثيرة مع إفريقية في سبيل هذا المشروع الفاشل والتي من المؤكد أنهم سيفقدونها، وقد انعكس هذا الشعور على تصرفاتهم فأخذوا يظهرون الاستياء من بطء سير العمليات الحربية ونتائجها ويتذمرون من القيادة ويوجهون النقد لدوق بوربون، ويقول فرواسار في ذلك إنهم كانوا لا يخفون شعورهم باليأس من النصر وأن بعضهم كان يقول للفرنسيين : (إنكم أيها الفرنسيون شجعان في الحروب، وكنا نعتقد عندما غادرنا جنوه أنكم ستستولون على المهدية خلال أسبوع أو أسبوعين، وها نحن ذا قد أمضينا الآن شهرين دون أن نحقق شيئاً، ويبدو لنا جلياً على ضوء المعارك التي خضناها أن المدينة لن تخضع لكم، وإنكم لن تتمكنوا منها أبداً)(١).

ووصل بهم الأمر حداً أن قالوا لدوق بوربون نفسه الذي كان يصر على مواصلة الحصار أن الأمل غدا ضعيفاً جداً في تحقيق أهداف الحملة لأن المهدية مدينة في غاية الحصانة، وأن المسلمين يطاولون في القتال عمداً إلى وقت غير معروف وأن الزمن في غير صالح الصليبيين، فضلاً عن أنهم لم يعودوا يملكون المواد اللازمة لصنع المعدات لشن هجوم آخر على المدينة، ولم يكتفوا بذلك بل أبلغوه استياءهم من التأخير في تحقيق النصر ومن تعطيل أرزاقهم(٢) ونظراً لهذا الاستياء والتذمر الذي أشاعه الجنوية بين الصليبيين(٣) أصبح دوق بوربون على ما كان له من مهابة وتأثير قوي على جنده، وقد تقلص نفوذه عليهم واحترامهم له إلى حد كبير حتى ارتفعت أصوات الكثيرين منهم قائلة بأن بقائهم أصبح عديم الفائدة لأنهم لن يتمكنوا بهذه المناوشات البسيطة مع المسلمين من احتلال المهدية، الأمر الذي جعله يدرك أن هذه الظروف تحتم عليه البحث عن حل سريع(٤). ويبدو أن الجالية الجنوية التي كانت مقيمة في المهدية إدراكاً منها بأن فشل الحملة قد بات أمراً محتوماً، وتحسباً من احتمال انتقام المسلمين منها بعد رحيل الصليبيين(٥)، استلمت زمام

(١) J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.482.
(٢) L.Mirot : Op. Cit., p.23. محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٧٧ – ١٧٨.
(٣) J.Froissart: Ibid,vol,2,p482.
(٤) Delaville le Roulx : Op. Cit.,p.193.
(٥) يقول ميرو (L.Mirot : Op. Cit., p.30.) إن المسلمين في المهدية كانوا يهددون الجنوية بأنهم=

المبادرة، فتوجهت بالرجاء لقائد الأسطول الجنوي جيوفاني سنتريوني وبقية القادة الجنويين للعمل على الوصول إلى اتفاق مع المسلمين فهو الأمر الأسلم عاقبة، وعلى ذلك دخل الجنوية في مفاوضات مع المسلمين دون علم دوق بوربون لعقد صلح يكفل لهم تأمين مصالحهم التي هي في نظرهم الأهم بالنسبة لهم ضاربين بمصالح الحركة الصليبية عرض الحائط في سبيل مصلحتهم الذاتية(١) الأمر الذي جعل بعض المؤرخين المسلمين يعتبرونه غدراً من الجنوية بالفرنسيين، فيقول الزركشي في ذلك : (ثم أن النصارى اختلفوا فيما بينهم وأراد الجنوي الغدر بالفرنسيس)(٢)، ويؤيد الوزير السراج ذلك بقوله: (ثم أن النصارى أنفسهم اضطربت أحوالهم لأنهم كانوا من فرقتين أهل جنوه وفرانسة، وأراد أهل جنوه الغدر بالفرنسيس ولكن لا قوة لهم وتفرقوا شذراً بعد أن أقاموا شهرين ونصفاً)(٣). وقد قامت جالية جنوه في المهدية وعبد الله الترجمان بدور هام في هذه المفاوضات فكانت تلك الجالية الوسيط بين المسلمين والقادة الجنوية في الحملة،وتذكر المصادر المسيحية أنه عندما توصل الطرفان إلى اتفاق مبدئي يقوم على أساس انسحاب الصليبيين مقابل تعهد من السلطان بعدم القيام بأي عمل عدائي ضد الدول المشاركة في الحملة وهذا الأمر هو في صالح الجنويين أكثر من غيرهم، إذ يكفل لهم ما كانوا يصبون إليه من تأمين حرية التجارة، عرض قادتهم هذا الأمر على دوق بوربون الذي رفض هذا العرض بكبرياء قائلاً بأنه وجنده لم يحضروا إلى إفريقية لإقامة سلام مع سلطانها أو حتى لمجرد الغنيمة، وإنما جاء للاستيلاء عليها، الأمر الذي جعل الجنوية يبحثون عن أسس أخرى للصلح يرضى بها دوق بوربون(٤). وبعد جهود مكثفة ومفاوضات دامت أربعة أيام توصلوا إلى اتفاق آخر مع المسلمين يجلوا الصليبيون بموجبه عن المهدية مقابل عقد اتفاقية مع السلطان مدتها عشر سنوات تتضمن الشروط التالية :

= سيقومون بإيداعهم في السجون انتقاماً لما فعله بنو جنسهم بهجومهم على بلدهم، أما المصادر الإسلامية فلم تشر لشيء من هذا القبيل.

(١) Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.247, A.S.Atiya : Op. Cit., p.426. Maurice Hiem : Op. Cit., p.93.

(٢) الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٣.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق، ج١، ق٤، ص : ١٠٧٠.

(٤) L.Mirot : Op. Cit., p.32. محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٨٣.

١–يتعهد السلطان بعدم إلحاق أي ضرر بالمسيحيين المقيمين في بلاده خلال مدة هذه الاتفاقية.

٢– يدفع السلطان إلى جنوه عائدات ميناء المهدية لمدة ١٥ سنة.

٣– يدفع السلطان للدوق بوربون وبقية المشاركين في الحملة مبلغ (٢٥) ألف دوكات[١] خلال سنة كتعويض حرب.

٤–أن يضمن تجار قطلونية وسردينيا ونابلي المقيمين في المهدية السلطان في تنفيذ هذا الاتفاق[٢].

وأعطي الصليبيون مهلة أربعة أيام لإبداء رأيهم بشأن هذا الاتفاق، ولدى عرضه على دوق بوربون عقد مجلس حربه لمناقشته[٣]، حيث تقرر قبول عقد الصلح بموجب هذه الشروط التي اعتبروها نصراً يعادل امتلاكهم للمهدية، وقرروا الانسحاب من إفريقية على أمل إعداد حملة صليبية جديدة توجه إليها، حيث عبر صاحب كوسي عن ذلك بقوله للجنوية بأن مشيئة الله قضت بالعودة إلى فرنسا لإحاطة ملكها الشاب علماً بأحوال هذه البلاد، وأضاف قائلاً بأنه لما كان ليس للملك الفرنسي خطة محددة في الاستفادة من جيشه بعد عقد السلم بينه وبين ملك إنجلترا، فإنه سوف ينصحه بإعداد حملة أخرى إلى نفس هذا البلد، كما وأنه ينوي مقابلة ملك صقلية لنفس الغرض[٤]، وبعد إمضاء هذا الاتفاق حدد

---

(١) الدوكات وحدة نقد عرفت في أوروبا في العصور الوسطى كان متوسط قيمتها في تلك الآونة نصف جنيه إنكليزي تقريباً.(انظر محمد عوني يس: ص: ١٨٤).

(٢) Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.247, L.Mirot : Op. Cit., p.32, Delaville le Roulx : Op. Cit., p.94. A.S.Atiya Op. Cit., p.426, R.Brunschvig : Op. Cit., vol ,2, p.202.

محمد عوني يس: المرجع السابق، ص: ٢٤٨–٢٤٩.

وأما فوليتاي U.Folietae (انظر محمد عوني يس: المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص: ٢٤٨–٢٤٩) فيذكر في روايته شرطاً ينص على إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الذين كانوا لدى السلطان، ويغفل ذكر حصول جنوه على عائدات ميناء المهدية، كما يجعل قيمة التعويض عشرة آلاف دوكات بدلاً من خمسة وعشرين ألفاً، ولعله يقصد بذلك المبلغ الذي دفع بالفعل، إذ أن السلطان لم يدفع إلا عشرة آلاف فقط في العام التالي سنة ١٣٩١م.

(٣) لمزيد من التفصيل عن ما دار في هذا الاجتماع انظر: A.S.Atiya: Ibid,p.426, Delaville le Roulx: Ibid.p.144, L.Mirot : Ibid.p.31-32.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٨٥– ١٨٦.

(٤) J.Froissart : Op. Cit., vol.2 p.482.

الصليبيون موعد رحيلهم بنهاية شهر سبتمبر سنة ١٣٩٠م / شوال ٧٩٢هـ ومذ ذاك شرعوا في الاستعداد للرحيل. أما المصادر الإسلامية فلا تتعرض لشروط هذا الصلح، ولكن يستشف من رواية ابن القنفذ ما يؤيد الشرطين المتعلقين بدفع المال للصليبيين على الأقل، وقد اكتفى في ذلك بالتلميح دون التصريح لموقعه من السلطان أبي العباس وابنه أبي فارس الذي خلفه في الحكم والذي قام بدور كبير في كلا الحرب والمفاوضات، فهو يقول : (وكان السلطان – رحمه الله – يحاول الأمر في ذلك بالإنفاق وغيره)(١).

انسحاب الصليبيين وفشل الحملة :

وفي الموعد المحدد بدأ الصليبيون يعودون إلى سفنهم، وكان دوق بوربون آخر من غادر بر إفريقية بناء على رغبته(٢). ويبدو أنه كان يخشى من مهاجمة المسلمين لجيشه أثناء الانسحاب، فاحتاط لذلك بأن أخفى كميناً من مائتي مقاتل ومائة رام لتغطية هذا الانسحاب عند اللزوم، وكان هذا الاحتياط ذا نفع للصليبيين بالفعل، ذلك أنه تقدمت فئة من المسلمين وهاجمت القوات الصليبية، فخرج ذلك الكمين عليها واشتبك معها حتى تمكن من صدها بعد أن قتل مائة من أفرادها كما تقول بعض المراجع الغربية وما عدا ذلك الحادث تم الانسحاب بدون متاعب(٣)، حيث أقلعوا بعد ذلك إلى جزيرة نلبيرا، بعد إقامة دامت (٧٣) يوماً (٥ شعبان –٢٠ شوال سنة ٧٩٢هـ / ٢٢ يوليو –٣ أكتوبر سنة

---

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق،ص: ١٨٨.

(٢) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.250, J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.483, A.S.Atiya : Op. Cit., p.427.

(٣) Delaville le Roulx : Op. Cit., p.194-5, L.Mirot : Op. Cit., p.33.

(٤) إن مدة إقامة الصليبيين على المهدية هي موضع خلاف بين المصادر التاريخية الإسلامية والغربية على حد سواء، وخلاصة ما تقوله المصادر والمراجع الغربية إن هذه الإقامة كانت في حدود شهرين من ٢٢ يوليو إلى ٢٣ سبتمبر، ويؤيد هذا القول من المصادر الإسلامية ابن أبي دينار (المصدر السابق، ص: ١٥٣). ويقول ابن الشماع (المصدر السابق ص: ١٤١) إنها كانت شهرين وعشرة أيام، أما ابن القنفذ (المصدر السابق : ص١٨٨) وروايته هي التي اعتمدنا عليها في المتن لأنه كان معاصراً للحملة وكتب مؤلفه بعد حوادثها بفترة وجيزة، فيقول إن إقامتهم كانت شهرين ونصف، دون أن يحدد يوم النزول أو الانسحاب ويؤيده في ذلك الزركشي (المصدر السابق ص: ١١٣)، وابن مقديش الصفاقسي : (المصدر السابق ورقة ٢٠) والوزير السراج (المصدر السابق ج١،ق٤،=

١٣٩٠م)[٤] الأمر الذي أبهج المسلمين، وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله: (وخرج أهل المهدية يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم)[١]. ويبدو أن الصليبيين حينما غادروا المهدية لم يكونوا قد وضعوا خطة واضحة لعودتهم، ولذلك دارت بينهم مناقشات مطولة في جزيرة كونلبيرا حول هذا الموضوع والتي أقاموا فيها يوماً لتحديد وجهة سيرهم، فأبدى بعضهم رغبته في العودة إلى وطنه، ورغب فريق آخر في الرحيل إلى نابلي، بينما أصر فريق ثالث على نقله إلى صقلية أو قبرص أو ردوس للتوجه منها لزيارة الديار المقدسة[٢]، وكان قادتهم الذين ساءهم فشلهم في احتلال المهدية يرغبون في إحراز نصر ما على المسلمين قبل عودتهم إلى أوروبا يحفظ عليهم ماء وجوههم، فسارع الجنوية إلى استغلال هذه الرغبة لتحقيق مصالحهم الذاتية، فأقنعوا دوق بوربون الذي أبدى استعداده لمحاربة المسلمين في أي مكان يريده الجنوية[٣]، بالتوجه إلى سردينيا لتحقيق مطامعهم فيها على حساب أرغونة وبيزا، إذ زعم قائد الأسطول جيوفاني سنتريوني لدوق بوربون بأن غزاة البحر المسلمين الذي يهاجمون شواطئ إيطاليا الغربية وجنوب فرنسا يتزودون من هذه الجزيرة بالماء والمؤن[٤]، فاحتلال الحملة لهذه الجزيرة هو خدمة للمسيحية عامة ولجنوه بصفة خاصة، وبذلك أصبحت هذه الحملة ألعوبة في يد الجنويين يوجهونها حسب أهوائهم، وعلى أية حال وافق دوق بوربون على اقتراح الجنوية وغادر الصليبيون الجزيرة في اليوم التالي حيث اتجه قسم إلى المشرق واتجه القسم الآخر وهو الأكبر مع دوق بوربون إلى جزيرة سردينيا[٥]، وهكذا انتهت حوادث آخر حملة صليبية كبرى توجه إلى إفريقية في العصور الوسطى.

= ص : ١٠٧٠) ولما كان ابن الشماع قد حدد يوم نزولهم على المهدية بيوم ٥ شعبان فإن انسحابهم كان في حدود يوم ٣٠ شوال كما أثبتناه في المتن.

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦،ص: ٤٠٠.

(٢) Delaville le Roulx : Op. Cit., p.195, R. Brunschvig: Op. Cit., Tom l, p.202.

(٣) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.251.

(٤) Cabaret D'Orville: Ibid, p.251-252. L.Mirot : Op. Cit., p34, Delaville le Roulx : Ibid. p.196.

(٥) لمزيد من التفصيل عن رحلة العودة انظر :

Cabaret D'Orville: Ibid, p.251, A.S.Atiya : Op. Cit., p.428-9, R. Brunschvig: Ibid, Tom l, p.202

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٩٣ وما بعدها.

وأما نتائجها، فقد اتفق المؤرخون المسلمون والغربيون على حد سواء على أنها منيت بالفشل الذريع، فلا هي حققت أياً من أهداف الحركة الصليبية في إفريقية، ولا وضعت حداً لنشاط غزاة البحر المسلمين ولا أشبعت طمع الذين جرهم هذا الطمع في النهب والغنيمة من أولئك الذين شاركوا فيها، ولا هي حافظت على مصالح جنوه التجارية، فقد علق ابن خلدون[1] على هذا الفشل بالآية الكريمة: ﴿ **وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾، وعلق ابن القنفذ بقوله : (وخيب الله سعيهم)[2]، ويقول دلافيل ليرو(Delaville le Roulx) في هذا الموضوع إن هذه الحملة لم تؤت ثمارها ولم تحقق أي هدف من أهدافها بالرغم من كل ما بذله الصليبيون المتحمسون من جهود[3]، ويقول برنجفيك – مع تحفظنا على قوله لأنه قصر أهداف الحملة على معاقبة غزاة البحر المسلمين – لقد فشلت الحملة في تحقيق هدفها الأساسي المتمثل في عقاب قراصنة إفريقية ووضع حد لنشاطهم[4]، ويعترف شارل أندري جوليان صراحة بهذا الفشل حين يقول : (... وفشل الهجوم ولكن قد تكون المهدية اضطرت إلى دفع الأتاوة...)[5]، ويقول نورمان دانيال Norman Daniel : (لقد كانت نتائج هذه الحملة غير مقنعة، لقد فشل الهجوم كحملة صليبية، وقرر العرب بحق أنه قد تم صد الأوروبيين، وقد وجد الفرنسيون بعد ذلك حجة ليزعموا بأن النقود التي أخذوها هي جزء من جزية دائمة فرضت على المدينة، وهو أمر غير صحيح)[6]، ويؤكد W.Heyd هذه الحقيقة بقوله: (ولسوء الحظ فشلت حملة دوق

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق،ج٦، ص: ٤٠٠.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق،ص: ١٨٨، وقال نحو قوله كل من الزركشي (المصدر السابق، ص : ١١٣)، وابن الشماع (المصدر السابق، ص: ١٤١) وابن أبي دينار (المصدر السابق ص: ١٥٣)، وابن مقديش الصفاقسي(المصدر السابق ورقة ٢٠١) والوزير السراج (المصدر السابق ج١، ق٤، ص : ١٠٧٠)، والباجي المسعودي (المصدر السابق، ص: ٨٨).

(٣) Delaville le Roulx : Op. Cit., p.200.

(٤) R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1.p.202.

(٥) شارل أندري جوليان : المرجع السابق،ج٢،ص: ١٩٧، ويقول كل من (A.S.Atiya : Op. Cit., p.432) والدكتور سعيد عاشور (الحركة الصليبية ج٢،ص: ١٢٤٢) نحو هذا القول.

(٦) N.Daniel : Op. Cit., P. 309

بوربون فشجع ذلك قراصنة البربر وضاعف إقبالهم على السلب)[١].

وقد كان لهذه النتيجة أثرها القوي في تدعيم مركز السلطان الحفصي في الخارج وفي الداخل على حد سواء، أما في الخارج فقد رأت جنوه نفسها مرغمة على أن تتبع الأسلوب السلمي في إعادة علاقاتها التجارية مع إفريقية بدلاً من أسلوب القوة، فأخذت تحاول عقد صلح دائم مع السلطان، فأرسلت سفيرها أليفر مارتيني (Olivier Martini) إلى تونس لهذا الغرض والذي ظل يحاول ذلك من ٢٠ مايو –٨يوليو سنة ١٣٩١م / ٧٩٣هـ دون أن يفوز من السلطان بطائل[٢]، في حين نجح قنصل البندقية بتونس (Jacques Vallresso) بتاريخ ٤ يوليو سنة ١٣٩١م/٧٩٣هـ في الحصول على معاهدة تجارية لبلاده من السلطان الحفصي مدتها عشر سنوات مكافأة لها لعدم اشتراكها في تلك الحملة، كما نجح أيضاً في إطلاق سراح أسرى بلاده الذين كانوا في أفريقية دون فدية[٣]. الأمر الذي حفز جنوه للمحاولة مع السلطان من جديد، فأرسلت سفارة أخرى إلى تونس بعد شهر واحد من عودة مارتيني إلى جنوه، كان على رأسها Gentile de Grimdi و Luchino Bonavey وبعد مفاوضات مضنية وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٣٩١م /٢٠ ذي الحجة سنة ٧٩٣هـ وافق السلطان على تجديد اتفاقية سنة ١٣٨٣م / ٧٨٥هـ المعقودة بين الطرفين لفترة عشر سنوات أخرى، وقد نصت المعاهدة الجديدة في أحد بنودها على انهزام الجنويين في المهدية[٤] مما يقدم دليلاً آخر على اعتراف الغربيين بفشل الحملة المذكورة، كما أن السلطان رفض إطلاق الأسرى الجنويين إلا لقاء الفدية فأطلق بضعهم مقابل كل الأسرى من مسلمي إفريقية الذين كانوا لدى جنوه، وقبض مقابل الآخرين وكانوا بضع مئات مبالغ نقدية[٥] وبذلك استعاد المبلغ الذي دفعه كتعويض للصليبيين[٦] إن لم تزد عنه. وجاء بعد ذلك دور بيزا التي أرسلت سنة

---

(١) انظر R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1 ,p.203.

(٢) R.Brunschvig : Op. Cit. , Tom l,p.203.

(٣) A.S.Atiya : Op. Cit., p.432-3, R.Brunschvig : Ibid,Tom l, p.203-4.

(٤) R.Brunschvig : Ibid,Tom l, p.203, L.Mirot : Op. Cit., p.39, A.S.Atiya : Op. Cit., p.432-433.

(٥) R.Brunschvig:Ibid,Tom 1,p.203.

(٦) صحيح أن معاهدة الصلح قد نصت على أن يدفع السلطان للصليبيين غرامة كتعويض حرب=

١٣٩٣م سفيرها نيقولا لانفريدوسي (Nicolas Lanfreducci) إلى تونس للحصول على معاهدة مماثلة، ولكن استياء السلطان منها بسبب اشتراكها في الهجوم على جربة سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م كما سبق أن ذكرنا حرمها من ذلك بالرغم من التبرير الذي قدمته للسلطان بأن المشتركين في ذلك الهجوم كانوا قد اشتركوا بصفة شخصية ولا يمثلون وجهة النظر الرسمية للمدينة تجاه الدولة الحفصية، هذا التبرير الذي لم يقتنع به السلطان، وعادت سفارتها خائبة، ولم تحصل على المعاهدة المنشودة إلا في عهد السلطان الجديد أبي فارس عبد العزيز(١). يضاف إلى ذلك ارتفاع مكانة السلطان أبي العباس في العالم الإسلامي، وعلو شأنه نظراً لتصديه للصليبيين فتوثقت علاقات إفريقية مع العديد من الأقطارالإسلامية وبصفة خاصة مع مصر والمغرب الأقصى(٢). وأما في الداخل فقد أتيحت له الفرصة لبسط نفوذه على كامل إفريقية بقضائه على طموح حاكمي قفصة وطرابلس في الاستقلال، كما أنه استطاع استعادة جزيرة جربة إلى حظيرة الدولة بعد أن كان أهلها قد ثاروا بالحامية الصقلية التي بقيت فيها إثر احتلالها سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، وبذلك فإنه حين وفاته في ٣ شعبان سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م كانت الدولة الحفصية قد استعادت مجدها حيث واصل ابنه أبو فارس من بعده تدعيم أركانها، وكانت النهاية التي آلت إليها هذه الحملة خاتمة للمرحلة التي اختصت بها هذه الدراسة من مراحل الحروب الصليبية في إفريقية.

= مقدارها(٢٥) ألف دوكات، ولكنه لم يدفع في الواقع سوى مبلغ عشرة آلاف دوكات فقط في سنة ١٣٩١م.

انظر : R.Brunschving : Op. Cit., Tom 1 ,p.202.

(١) R.Brunschvig : Ibid,Tom 1 ,p.204.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : R.Brunschving : Ibid. Tom l.p.205

﴿هو الـذي بعث في الأمـيّين رسولاً مـنهم يتـلو علـيهم آيـاته ويزكّيـهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا مـن قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ .

[سورة يونس : آية ٢ ، ٣]

الباب الخامس

إفريقيَة معبَر حضَاري في عَصر الحروبِ الصليبية

- القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة الإسلامية في المغرب.
- أثر إفريقية في معبري الأندلس وصقلية.
- إفريقية معبر مباشر للحضارة الإسلامية إلى أوروبا :

أ – النواحي الاقتصادية.

ب – النواحي الثقافية.

جـ – النواحي الاجتماعية.

الأنصار(١)، وأبو ذر الغفاري(٢)، وأبو عبد الله عمرو بن عوف المزني(٣)، وأبو سعيد المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي(٤)، وأبو عبد الرحمن جرهد بن خويلد الأسلمي(٥)، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس ، لذلك سميت تلك الغزوة بغزوة العبادلة لكثرة من اشترك فيها من الصحابة ممن كان اسمه عبد الله، ثم عبد الرحمن بن أبي بكر، وسلمه بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، وفضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي، وعقبة بن عامر الجهني، ورويفع بن ثابت بن السكن بن عدي الأنصاري، وحمزة بن عمر الأسلمي وبلال بن الحارث المزني، والمسوّر بن مخرمة بن نوفل الزهري القرشي، وجبلة بن عمرو الأنصاري وغيرهم رضي الله عنهم، وكان من أشهر من غزا إفريقية في غير هذه الغزوة من الصحابة، معاوية بن حديج إذ غزاها قائداً للجيش ثلاث مرات، ثم أبو زمعة عبيد بن أرقم البلوي، غزاها مع معاوية بن حديج سنة ٣٤هـ، ومات بالقيروان ودفن بها بالبقعة التي تعرف بالبلوية سميت به منذ ذلك الوقت، ودفنت

= (انظر الدباغ : المصدر السابق، ج١،ص ٧٦ – ٧٧).

(١) صحب رسول الله ﷺ، وصلى معه القبلتين، وبعثه النبي ﷺ لخالد بن سفيان سرية وحده فقتله، شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح. توفي سنة ٥٤هـ ودفنت معه مخصرة كان أعطاها له رسول الله ﷺ وقال له : (تخصر بها حتى تلقاني بها يوم القيامة فإن أقل الناس المتخصرون يومئذ)، روى عنه أبو أمامه وجابر بن عبد الله، وروى عنه من التابعين : الليث بن سعد وبنوه : عطية وعمرو وضمرة، وعبد الله بن عبد الله بن أنيس الجهني.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص٤٥، الدباغ : المصدر السابق ج١،ص ٧٧ وما بعدها).

(٢) من كبار الصحابة وأفاضلهم ومن السابقين الأولين في الإسلام، أسلم بمكة وعاد إلى قومه فاقأم معهم إلى ما بعد غزوة الخندق ثم قدم على النبي (ﷺ) وصحبه. شهد فتح إفريقية، توفي سنة ٣٢هـ بالربذة. وعى علماً كثيراً.(المالكي المصدر السابق : ج١، ص ٤٧، الدباغ المصدر السابق : ج١.ص ٧٥).

(٣) هو من أهل الصفة، قديم الإسلام يقال إن أول مشاهده كانت غزوة الخندق وصلى مع الرسول صلى الله عليه وسلم القبلتين.
(انظر الدباغ : المصدرالسابق،ج١،ص ٩٢ وما بعدها).

(٤) هو والد سعيد بن المسيب، كان أبوه حزن من المهاجرين ومن أشراف قريش في الجاهلية. أما المسيب فكان ممن بايع تحت الشجرة وشهد غزو إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٥٤، الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٤).

(٥) من أهل الصفة وشهد الحديبية، وبايع بيعة الرضوان، شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح وتوفي سنة ٣١هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج ١، ص ٥٤، الدباغ : المصدرالسابق ج١، ص ١٠٤).

القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة الإسلامية في المغرب :

كانت مدينة القيروان أول مدينة أسسها المسلمون في المغرب الإسلامي، وكان الهدف من تأسيسها تثبيت أركان الفتح الإسلامي ليس في إفريقية فحسب، وإنما في بلاد المغرب بأسرها. وجاء ذلك وفقاً لمقتضيات الخطة العامة التي وضعها المسلمون لتعريب البلاد المفتوحة ونشر الإسلام وحضارته فيها. فكان أن أسسوا في موجة الفتوح البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر والقيروان في إفريقية، ولا أدل على الهدف من تأسيس مدينة القيروان من قول مؤسسها عقبة بن نافع لأصحابه حينما عزم على إنشائها (إن إفريقية إذا دخلها أمير تحرم أهلها بالإسلام، وإذا خرج منها عادوا إلى الكفر، وإني أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسكراً وقيرواناً تكون عزاً للمسلمين إلى آخر الدهر)[١]، وهكذا غدت هذه المدينة مركزاً لإدارة المناطق المفتوحة، وقاعدة لعملية الفتوحات الجديدة، ومقراً لنشر الإسلام في غرب المتوسط. والإسلام بمفهومه الواسع هو دين وفكر وحضارة، لذلك فإن نشره يدعو إلى وجود تعليم وتعلم، ومن هنا كان لا بد من ظهور حركة علمية في هذه المدينة منذ تأسيسها.

بدأت الحركة العلمية في القيروان خاصة وفي إفريقية عامة إبان الفتح بوجود العديد من الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – في الجيوش الإسلامية التي نهضت بأعباء هذا الفتح، فكان من ضمن الجيش الذي قاده عبد الله بن أبي السرح إلى إفريقية سنة ٢٧هـ عدد كبير منهم من بينهم المقداد بن عمرو (أو ابن الأسود كما عرف أيضاً)[٢]، وأبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري[٣]، وعبد الله بن أنيس الجهني حليف

---

(١) ابن الشباط : المصدر السابق، ص ١٧٩، انظر أيضاً الدباغ : المصدر السابق، ج١ص ٨.

(٢) من المسلمين الأوائل ومن فضلاء الصحابة ونجبائهم، وهو أول من غزا به فرسه في سبيل الله، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي في الجرف بأرضه وحمل إلى المدينة فصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ودفن بها وكان ذلك سنة ٣٣هـ، يروي عنه جماعة كبيرة من كبار التابعين منهم طارق بن شهاب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبيد الله بن عدي بن الخيار. (انظر ترجمته في المالكي : المصدر السابق، ج١،ص ٧١ وما بعدها).

(٣) شهد العقبة وبدراً وهو ابن عشرين سنة، وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في غزوة بدر، شهد العديد من المشاهد مع الرسول ﷺ، وشهد صفين مع علي كرم الله وجهه وتوفي بالمدينة سنة ٥٥هـ، روى عنه حنظلة بن قيس،وعبادة بن الوليد وربعي بن خراش. =

معه قلنسوته وفيها من شعر رسول الله ﷺ[1]، وكان من بين صغار الصحابة الذين أسهموا في فتح إفريقية والمغرب عبد الرحمن بن الأسود القرشي، وعاصم بن عمر بن الخطاب، وعقبة بن نافع، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبد الرحمن بن العباس ابن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن صبيحة الليثي، ومروان بن الحكم الأموي القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي، وأبو منصور الفارسي، وكيسان المقبري. ومن التابعين رضي الله عنهم، أمراء الجيوش أنفسهم مثل أبي المهاجر دينار، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، ومن غير الأمراء حنش بن عبد الله الصنعاني[2]، ومحمد بن أوس الأنصاري[3]، وعياض بن عقبة بن نافع[4]، وعبد الرحمن بن وعلة السبائي المصري[5]، والمغيرة

---

(١) انظر المالكي : المصدر السابق، ص ٥٤، الدباغ : المصدر السابق، ج١،ص ٩٨.
(وقبره رضي الله عنه معروف بالقيروان، عليه بناء فخم ويدعوه العامة حالياً «السيد الصحبي».

(٢) كان من أعلم التابعين يروي عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ورويفع بن ثابت الأنصاري. وروى عنه الحارث بن يزيد، وعبد الرحمن ابن أنعم، وقيس بن الحجاج، وعامر بن يحيى المعافري، وخالد بن أبي عمران، وصلاح بن عبد الله ابن هبيرة السهمي، وأبو مروان، كان من أصحاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وخرج مع عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، شهد فتح إفريقية، وهو الذي فتح جزيرة شريك من أرضها، كما صحب موسى بن نصير في حروبه في المغرب وشهد فتح الأندلس، سكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً، توفي بإفريقية سنة ١٠٠هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٦٤، الدباغ : المصدر السابق ج١،ص ١٨٧ وما بعدها، الضبي : المصدر السابق، ص ٢٥٣، أحمد أمين : المرجع السابق، ج٣، ص ٤٨).

(٣) كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه،يروي عن أبي هريرة وروى عنه الحارث بن يزيد وكذلك محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي، دخل إفريقية سنة ٩٣هـ وغزا المغرب والأندلس، مع موسى بن نصير، كما تولى بحر إفريقية سنة ١٠٢هـ.
(انظر الحميدي : جذوة المقتبس، ص ٤٢، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٨٩).

(٤) كان من خيار التابعين وفضلاء المؤمنين يروي عن عبد الله بن عمروبن العاص وغيره من الصحابة والتابعين، روى عنه يزيد بن أبي حبيب، وإسحق بن أبي بردة، وأخوه أبو عبيد بن عقبة سكن القيروان مع أبيه وبعده، ثم انتقل في آخر عمره إلى مصر فمات بها سنة ١٠٠هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٨٤، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٩٠).

(٥) من فضلاء التابعين يروي عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وروى عنه زيد بن أسلم، ويحيى بن سعيد، والقعقاع بن حكيم، وعبد الرحمن بن أنعم والنسائي وأبو داود كان شريفاً بمصر ثم سار إلى إفريقية وأقام بها. =

إبن أبي بردة الكناني[1]، وعلي بن رباح بن قصير اللخمي[2]، وأبو عثمان مسلم بن يسار الأنصاري[3]، وأبو علقمة مولى عبد الله بن عباس[4]، وغيرهم كثير ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات.

كان هؤلاء رضي الله عنهم جنوداً في جيوش الفتح، وهم مع ذلك حملة علم، عنهم أخذ العديد من جنود الفتح الذين استقروا في المناطق المفتوحة، وعنهم وعن تلاميذهم أخذ أهل البلاد من البربر منذ أن بدأت قلوبهم تتفتح للإسلام، فكانوا يعلمونهم الدين والفقه واللغة، وقد اهتم ولاة إفريقية منذ البداية بنشر الإسلام بين البربر، فقد ترك عقبة بن نافع بينهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن منهم تابعه شاكر[5]، وفي عهد أبي المهاجر دينار أسلم كسيلة وعدد كبير من قومه، وكان تعريب حسان بن النعمان للدواوين خطوة هامة في إقبال العديد من غير العرب على تعلم اللغة العربية، وتعززت هذه الحركة بجهود موسى بن نصير الذي أدرك أن استقرار الفتح لا يتم إلا بنشر الإسلام بين البربر، فيذكر الرقيق القيرواني – مؤرخ القيروان – أن

= (انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص٨٠، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٩٥).

(١) روى عن أبي هريرة وغيره، وروى عنه موسى بن الأشعث البلوي، وعبد الرحمن بن أنعم، وابنه عبد الله بن المغيرة، ومن أهل مصر يزيد بن أبي حبيب والحارث بن يزيد وسعيد بن مسلمة، صحب موسى بن نصير في غزواته في المغرب وفي الأندلس، ولما قتل يزيد بن مسلم والي إفريقية اجتمع أهل الدين والفضل على أن يولوه ولايتها لما عرفوا من فضله ودينه وحزمه، فأبى ذلك.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٨٠، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٩٦).

(٢) كان يروي عن عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وعن فضالة بن عبيد وعقبة بن عامر وأبي هريرة وعائشة أم المؤمنين، وروى عنه ابنه موسى وأبو هاني الخولاني وغيرهما كثير، كانت له منزلة عند عبد العزيز بن مروان فولاه إفريقية، فسكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً وانتفع به أهل القيروان. توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج سنة ١١٧هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٧٧، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٩٩).

(٣) كان يروي عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة، وسفيان بن وهب، وروى عنه عمرو بن أبي نعيمة، وشراحيل ابن يزيد، وحميد بن هانئ، وعبد الرحمن بن أنعم، سكن القيروان واستوطنها وبها كانت وفاته.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٨٦، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ٢١٤).

(٤) هو من كبار التابعين، استوطن القيروان وكان يروي عن ابن عباس وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وروى عنه ابن أنعم وخالد بن أبي عمر من إفريقية، والحارث بن يزيد ويعلى بن عطاء، من مصر.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٨٥، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ٢١٨).

(٥) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٧٩.

موسى ابن نصير (أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين)(١)، وذكر غيره أنه (ترك سبعين رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام)(٢)، فكان ذلك بداية للحركة العلمية في القيروان إلى حد أنه وجد فيها في هذا الوقت المبكر من تاريخها كتاتيب للتعليم، يؤكد هذه الحقيقة ما ذكره الدباغ الذي يقول : حكى غياث بن أبي شبيب، قال : (كان سفيان بن وهب – صاحب رسول الله ﷺ – يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان، فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه)(٣)، ومن المعروف أن دخول سفيان بن وهب رضي الله عنه إلى إفريقية كان سنة ٧٨هـ/٦٩٧م في خلافة عبد الملك بن مروان، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على وجود الكتاتيب في القيروان في ذلك الوقت، ولم يكن قد مضى على تأسيسها أكثر من ربع قرن. وقد قام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعد ذلك بفترة وجيزة بخطوة هامة أخرى في دفع الحركة العلمية في القيروان بإرساله عشرة من أجلاء التابعين إلى إفريقية والمغرب لنشر الإسلام بين البربر فاتخذوا من القيروان مقراً لهم، وهم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي(٤)، وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي(٥)، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله(٦)، وأبو

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص ٧٦.
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٧٨.
(٣) انظر الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ١٢٠.
(٤) روى عن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وفضالة بن عبيد الأنصاري وعقبة بن عامر وغيرهم، وروى عنه يزيد بن عمرو وأبو هاني الخولاني وعامر بن يحيى المعافري، شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير، ثم بعثه عمر بن عبد العزيز ليفقه أهل إفريقية في الدين فسكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً وانتفع به الكثير. (انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٦٤، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٨٠).
(٥) روى عن جماعة من الصحابة خاصة عن أبي الدرداء، وعندما بعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية سكن القيروان وبث فيها علماً كثيراً، روى عنه جماعة منهم عبد الله بن زحر.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٦٦، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٨٤).
(٦) كان من أهل الفضل والعبادة والنسك مع علم وفقه، روى عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، وروى عنه من أهل إفريقية بكر بن سوادة الجذامي وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ومن أهل مصر عمران بن عوف الغافقي والحارث بن أبي كريمة وعبد الله بن جعفر. ومن مواليه عبد الله ابن أبي كريمة، سكن القيروان عندما بعثه عمر بن عبد العزيز وانتفع به خلق كثيرمن أهلها. وهو=

الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي(١)، وأبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير الرعيني(٢)، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي(٣)، وحبان بن أبي جبلة القرشي مولى بني عبد الدار(٤)، وموهب بن حبي المعافري(٥)،وطلق بن جابان الفارسي(٦)، وأخيراً بكر بن سوادة الجذامي(٧)، فكان هؤلاء وأمثالهم ومن سبقهم هم الذين بذروا البذرة الأولى للعلوم

= الذي بنى جامع الزيتونة أحد المساجد المشهورة السبعة بالقيروان، مات غرقاً في البحر أثناء غزوة عطاء بن رافع لصقلية سنة ١٠٧.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٦٩، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٩١).

(١) كان يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره، وهو أول من استقضي بالقيروان بعد بنائها، ولاه ذلك موسى بن نصير سنة ٨٠هـ، وحينما بعثه عمر بن عبد العزيز إلى القيروان بقي فيها حتى وفاته سنة ١١٣هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٧٢، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٩٨).

(٢) كان فقيهاً صالحاً كان يروي عن أبي تميم عبد الله بن مالك الجيشاني، وروى عنه بكر بن سوادة، وعبيد الله بن زحر وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ولي قضاء جند إفريقية لهشام بن عبد الملك، سكن القيروان وتوفي قريباً من سنة ١١٥هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٧٥، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ٢٠٢).

(٣) كان يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد، وروى عنه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن أنعم، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية سنة ٩٩هـ وقيل سنة ١٠٠هـ وأسلم على يديه عامة البربر وكان حريصاً على إسلامهم.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٧٥، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ٢٠٣).

(٤) روى عن ابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وعن أبي قتادة، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وعبيد الله بن زحر وعبد الرحمن بن يحيى الصدفي سكن القيروان وتوفي ودفن بها سنة ١٢٥هـ.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ١٣، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ٢٠٩).

(٥) كان يروي عن ابن عباس وغيره وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وعياش بن عباس القتباني، سكن القيروان وبث بها علماً كثيراً وبها كانت وفاته.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٧٣، الدباغ : المصدر السابق ج١،ص ٢١٣).

(٦) كان فقيهاً عالماً روى عن جماعة من الصحابة ، وروى عنه موسى بن علي، وعبد الرحمن بن زياد ابن أنعم، ومن أهل مصر يزيد بن أبي أيوب.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١، ص ٧٦، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ٢١٥).

(٧) من فضلاء التابعين وفقهائهم وصلحائهم، يروي عن عقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسهل بن سعد، وسفيان بن وهب،وأبي ثور الفهمي، وسعيد بن المسيب، وابن شهاب الزهري،=

في القيروان، وكانت هذه العلوم آنذاك دينية كما هو الأمر بالنسبة للبذرة التي بذرت في المشرق، فكانت عبارة عن قرآن كريم يتلى ويحفظ ويقرأ بالقراءات، وحديث يفسر عن النبي ﷺ وعن الصحابة، والحديث يتضمن أحكاماً دينية، وأخباراً عن سيرة الرسول ﷺ وغزواته وأعماله، وأخبار أصحابه وآراءهم ورواياتهم إلى ما شابه ذلك، فالثقافة الأولى في المشرق وفي المغرب فيها دين وفيها أخلاق وفيها تاريخ وغير ذلك(١). وكانت هذه الأقوال تنتشر انتشاراً كبيراً حتى لتترجم إلى اللغة البربرية، ويتثقف بها العرب والبرابرة والمولدون، وكان هذا عملاً جليلاً قام به هؤلاء الصحابة والتابعون، وكانوا يعدون الرعيل الأول، وبانتهاء القرن الأول الهجري استقر الفتح وزاد تبعاً لذلك الإقبال على العلم.

ففي أوائل القرن الثاني للهجرة، تلت هذه الطبقة طبقة ثانية كان من أشهرها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الذي كان أول مولود ولد للمسلمين بعد فتح إفريقية(٢)، كان من أجلاء المحدثين والعلماء المتقدمين ذا ورع وزهد وصلاح مع تفنن في علم العربية والشعر، أخذ عن جملة من التابعين منهم أبوه زياد بن أنعم الذي روى عن أبي أيوب الأنصاري وغيره(٣)، كما روى عبد الرحمن أيضاً عن أبي عبد الرحمن الحبلي، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي وبكر بن سوادة، وحنش الصنعاني، وعبدالرحمن ابن وعلة السبائي المصري، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي وغيرهم، وروى عنه جماعة منهم: سفيان الثوري، وابن لهيعة، وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك، ومن أهل القيروان : عبد الله بن غانم القاضي، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن أبي حسان ومعاوية الصمادحي وغيرهم، وولي قضاء القيروان مرتين أولاهما كانت لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، والثانية لأبي جعفر المنصور، وبقي في هذا المنصب إلى أن عزل نفسه في إمارة يزيد بن حاتم المهلبي أي قبيل وفاته، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ١٦١هـ،

= وروى عنه بمصر ابن لهيعة، استوطن القيروان، فروى عنه العديد من أهلها،وانتفعوا بعلمه.
(انظر المالكي : المصدر السابق ج١،ص ٧٤، الدباغ : المصدر السابق ج١، ص ١٦١ وما بعدها).

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج٣، ص ٤٨.

(٢) الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ٢٣٠.

(٣) انظر ترجمته في المالكي : المصدر السابق ،ج١، ص ٨٣، الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.

وصلى عليه يزيد بن حاتم ودفن في القيروان بباب نافع[1]. ومن هذه الطبقة أيضاً موسى بن علي بن رباح اللخمي، ولد بالقيروان وروى عن جملة من التابعين منهم أبوه علي بن رباح وغيره، وروى عنه جماعة من أكابر العلماء منهم الليث بن سعد، وابن المبارك، وابن وهب وغيرهم وتوفي بالاسكندرية سنة ١٦٣هـ[2]، ثم عبد الله بن فروخ الفارسي، والذي كان فقيهاً ورعاً فاضلاً متواضعاً قليل الهيبة للملوك لا تأخذه في الله لومة لائم، يقال إن مولده كان بالأندلس سنة ١١٥هـ ثم انتقل إلى القيروان واستوطنها وأخذ عن علمائها ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم فسمع من أبي زكريا بن أبي زائدة، ومن الإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري والأعمش وهشام بن حسان وجريج والإمام أبي حنيفة، وكان الإمام مالك يجله ويوقره، وحينما وفد عليه في رحلته الثانية قام له،وكان لا يفعل ذلك لكثير من الناس، وأجلسه إلى جانبه، وقال له : لو علمت بقدومك لأتيت إليك، وجعل الإمام مالك لا ترد عليه مسألة – وعبد الله في مجلسه – إلا قال له : أجب يا أبا محمد، فيجيب ثم يقول مالك للسائل : هو كما قال لك. وكان الإمام مالك يقول لأصحابه عنه، هذا فقيه المغرب، وتوفي بمصر أثناء منصرفه من الحج سنة ١٧٥هـ وقيل سنة ١٧٦هـ ودفن بالمقطم[3]. ثم عبيد الله بن زحر الكناني، كان فاضلاً صالحاً، ولد بإفريقية وهو معدود من شيوخها، ويروي عن عبد الله بن مسعود التجيبي، وخالد بن أبي عمران التونسي[4]، وجعثل بن هاعان بن عمير الجهني، وحبان بن أبي جبلة القرشي، ثم رحل إلى الشرق فأخذ عن الأعمش، وأبي هارون العبدي، والربيع بن أنس، وروى عنه يحيى بن سعيد، ورقبة بن مصقلة، وخلاد الصفار، وليث بن أبي سليم، ويحيى بن أيوب، والمفضل بن فضالة. فكان هؤلاء وأمثالهم هم ناشري العلم الأولين في إفريقية، وهم مؤسسو مدرسة القيروان العلمية التي ازدهرت فيما بعد.

وجاء بعدهم طبقة أخرى قدمت العلم في القيروان بخاصة وإفريقية والمغرب بعامة

---

(١) انظر : المالكي : المصدر السابق، ج١،ص ٩٦، الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ٢٣٠.

(٢) انظر المالكي : المصدر السابق، ج١،ص ١١٢، الدباغ : المصدر السابق،ج١، ص ٢٣٧.

(٣) انظر المالكي : المصدر السابق، ج١، ص ١١٣، الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ٢٣٨، القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٤٠.

(٤) أخذ عن علقمة مولى ابن عباس، وعن جماعة أخرى من الصحابة رضي الله عنهم.

خطوة عظيمة جديدة، وكان من مشاهير هذه الطبقة رباح بن يزيد بن رباح اللخمي، والبهلول بن راشد، وشقران بن علي الهمداني، وعبد الله بن عمر بن غانم، وأسد بن الفرات ابن سنان، ومحمد بن عبد الله بن قيس بن مسلم الكناني، والإمام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، فقد أخذ هؤلاء وأمثالهم عن علماء الطبقة التي تقدمتهم، ثم رحلوا إلى المشرق في طلب العلم في مراكز الثقافة الإسلامية في مصر والحجاز والعراق والشام، وامتدت رحلة بعضهم إلى أبعد من العراق شرقاً، وعادوا إلى إفريقية بعلم غزير أخذوا يبثونه في نواحيها، وقد استقر معظمهم في القيروان، فكان لهم أثر كبير في دفع الحركة العلمية فيها إلى الأمام. فأما رباح بن يزيد فكان عالماً صالحاً فاضلاً سمع من علماء القيروان ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن الأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم وقد اعتبره بعض العلماء رابع أربعة علماء في العالم الإسلامي في عصره هم ابن عون بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة، والأوزاعي بالشام، وهو بإفريقية، ومن أشهر من أخذوا عنه أبو خارجة الغافقي وتوفي سنة ١٧٢هـ ودفن بباب سلم بالقيروان(١). وأما البهلول بن راشد، فقد أخذ عن الإمام مالك وسفيان الثوري، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، وموسى بن علي بن رباح اللخمي، والحارث بن نبهان، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ووصفه الإمام مالك بأنه عابد بلده، وأخذ عنه الإمام سحنون بن سعيد، وعبد المتعال، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وعون بن يوسف، وأبو زكريا الحفري، ويحيى بن سلام وغيرهم، وكانت وفاته بالقيروان سنة ١٨٣هـ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ودفن بباب سلم أيضاً(٢). وأما أبو علي شقران بن علي الهمداني فإنه أخذ عن علماء القيروان وتفقه بها وكان مؤاخياً للبهلول بن راشد وقيل عنه إنه كان واحد الزمان عبادة وزهداً وعلماً بالفرائض، وله في ذلك كتاب فيكون بذلك من أول من ألفوا الكتب، وكان ضريراً فأقعدته علته عن الترحال، ولكن أمره اشتهر فقصده طلاب العلم من الأمصار، فكان ممن قصده من مصر ذو النون المصري وأخذ عنه علماً كثيراً، ومن أشهر من أخذ عنه من القيروان الإمام سحنون بن سعيد، كما أخذ عنه أيضاً

(١) انظر المالكي : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٠، الدباغ : المصدر السابق،ج١، ص ٢٥٣.
(٢) انظر المالكي : المصدر السابق، ج١، ص ١٣٢، الدباغ : المصدر السابق، ج١، ص ٢٦٤، القاضي عياض : المصدر السابق،ص ٢٧.

عون بن يوسف، وتوفي بالقيروان سنة ١٨٦هـ ودفن بباب سلم[(١)].

وأما عبد الله بن غانم فقد ولد بالقيروان، وبها تفقه فأخذ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وخالد بن عمران وغيرهما ثم رحل إلى المشرق، فلازم الإمام مالك بن أنس حتى عرف بصحبته، وكان إذا دخل عليه أجلسه إلى جانبه، وقد عرض عليه أن يزوجه من ابنته ولكن ابن غانم قال له إذا خرجت إلى القيروان تزوجتها، وأخذ عن جلة من العلماء غير الإمام مالك مثل سفيان الثوري وإسرائيل بن يونس وعثمان بن الضحاك المدني وأبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وغيرهم ثم عاد إلى بلده، وقد ولي قضاء إفريقية لهارون الرشيد سنة ١٧١هـ وبقي في هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٩٠هـ، ودفن بباب نافع بالقيروان، وكان من أشهر من أخذ عنه الإمام سحنون[(٢)]، وأما أسد بن الفرات فقد ولد بحران سنة ١٤٢هـ وكان أبوه من جند خراسان وقدم به إلى إفريقية مع جند محمد بن الأشعث وكان عمره وقتئذ عامين، فأقام بالقيروان خمس سنوات ثم انتقل إلى تونس وأقام بها نحو تسع سنوات. تفقه بإفريقية فأخذ عن عدد من علمائها من أشهرهم علي بن زياد[(٣)]، ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن الإمام مالك ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة، والمسيب بن شريك وهيثم بن بشير، وعن أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وأسد بن عمرو، وسمع بمصر من عبد الرحمن بن قاسم صاحب الإمام مالك وعنه كتب (المدونة)، إذ أنه أخذ عن أبي يوسف الأسئلة التي كان يثيرها الحنفية ويضعون لها الأحكام على مقتضى مذهبهم، فجردها أسد من أحكامها وعرضها على ابن القاسم وتلقى منه أحكامها، على مذهب مالك أو اجتهاد ابن القاسم نفسه، أو اجتهاد أشهب، ودَوّن ذلك كله في الكتاب المشهور المسمى بالمدونة، فالمسائل المجردة مسائل الحنفية، والأحكام أحكام الإمام مالك وصحبه، وكانت تتألف من ستين كتاباً تحتوي على ست

---

(١) انظر المالكي : المصدر السابق، ج١ ،ص٢٢٢، الدباغ : المصدر السابق، ج١،ص ٢٧٩.

(٢) انظر المالكي : المصدر السابق،ج١، ص ١٤٣، الدباغ : المصدر السابق،ج١، ص ٢٨٨، القاضي عياض : المصدرالسابق، ص ٨.

(٣) كان من أهل تونس ثقة كثير العبادة، برع في الفقه، روى عن الإمام مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وغيرهم، ولم يكن بافريقية في عصره مثله وهو الذي أدخل موطأ الإمام مالك وجامع سفيان إلى المغرب.
(انظر القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٢١).

وثلاثين ألف مسألة[1] وقدم بها إلى القيروان وسماها (المدونة) و(الأسدية)، وما تجدر الإشارة إليه هو أنه حينما عزم أسد على الرحيل إلى إفريقية بالأسدية سأله أهل مصر أن يسمح لهم باستنساخها فأبى عليهم فشكوا أمره إلى القاضي، وبعد أخذ ورد سمح لهم بذلك فنسخوها، كما أرسل منها نسخة فيما بعد لابن القاسم نفسه. ولما قدم أسد إلى إفريقية أظهرهافكانت من أوائل المصنفات الفقهية التي انتشرت بين الناس، وكان ممن انتفع بها الإمام سحنون، ومحمد بن رشيد وغيرهما . وتولى قضاء إفريقية بعد ابن غانم وغزا سردينيا، كما تولى قيادة الجيش الذي قام بفتح صقلية، وتوفي وقتئذ أثناء حصاره لسرقوسة من أثر جراحات أصابته وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢١٣هـ ودفن في ذلك الموضع[2].

وأما محمد بن عبد الله بن قيس الكناني، فقد كان فاضلاً ورعاً فصيح اللسان بصيراً باللغة والشعر فضلاً عن سعة علمه في الفقه، روى عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وعبد الله ابن فروخ ثم رحل إلى المشرق فسمع من الإمام مالك بن أنس وغيره، وعاد إلى القيروان، وقد تولى القضاء سنة ١٩١هـ خلفاً لعبد الله بن غانم ولم يزل قاضياً إلى أن مات سنة ٢١٤هـ، وكان من أشهرمن أخذ عنه ابنه أحمد بن أبي محرز عالم إفريقية وفقيهها المعروف[3]. ونختتم مشاهير هذه الطبقة بالإمام سحنون بن سعيد التنوخي، واسمه عبد السلام، وسحنون (وهو اسم لطائر حديد النظر) لقب غلب عليه لحدته في المسائل، وأصله شامي من حمص، قدم أبوه سعيد إلى إفريقية في جند حمص، ولد ونشأ بالقيروان، وبها تفقه فأخذ عن عبد الله بن غانم، والبهلول بن راشد، وأبي خارجة، وابن أبي حسان، وابن أبي كريمة، وأخيه حبيب، وأبي زيد الرعيني، وعبد الرحيم (العباس) بن أشرس، ومعاوية الصمادحي، وأخذ عن علي بن زياد بتونس، وأخذ عن أسد بن الفرات مدونته (الأسدية)، ورحل إلى المشرق فسمع بمصر من عبد الرحمن بن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن

---

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٧٥، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج١، ص ٢٩٨، د.حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) انظر المالكي : المصدر السابق، ج١، ص١٧٢، القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٥٢، الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٣.

(٣) انظر ترجمته في المالكي : المصدر السابق، ص ٣٠٦، الدباغ : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠.

عمر، وسمع بالمدينة من عبد الله بن عبد الله بن نافع، ومعن بن عيسى، وأنس بن عياض،وابن الماجشون، والمغيرة بن عبد الرحمن، ومطرف وغيرهم، وبمكة من سفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح،وحفص بن غياث، ويزيد بن هارون، ويحيى بن سليمان، وأبي داود الطيالسي، وأبي إسحق الأزرق، وبالشام من الوليد بن مسلم، وأيوب بن سويد، وعاد إلى القيروان سنة ١٩١هـ بعلم كثير، وكان في مصر قد قرأ الأسدية على ابن القاسم وناقشه في مسائلها، فرجع ابن القاسم عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها ودونها في الكتاب الذي سمي (بالمدونة)، وقد أثبت فيها ما رجع عنه ابن القاسم، وعاد بها إلى القيروان، وهي المدونة المشهورة في الفقه المالكي، وقد كتب ابن القاسم لأسد بن الفرات أن يأخذ بمدونة سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس الأسدية وأقبلوا على مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط في المسائل وفي الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة نظراً لذلك، وعكف أهل القيروان على المدونة كما عكف أهل الأندلس على (الواضحة)(١) و(العتبية)(٢)، وتناولوها بالشرح والاختصار والتلخيص فيما بعد، فقد اختصرها ابن أبي زيد القيرواني(٣) في كتابه (المختصر)، ولخصها أبو سعيد البرادعي الذي سنتعرض لذكره فيما بعد في كتابه (التهذيب) الذي (اعتمده المشيخة من أهل إفريقية وتركوا ما سواه)(٤)، ولم يزل علماء المذهب المالكي يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع، فكتب علماء إفريقية في العصور التالية على المدونة الكثير من المؤلفات مثل ابن يونس واللخمي وابن محرزالتونسي وابن بشير وأمثالهم(٥). وقد بز سحنون علماء عصره علماً وفقهاً وكان قد اجتمعت فيه خصال قلما

---

(١) الواضحة : من أقدم كتب الفقه المالكي ألفها عبد الملك بن حبيب السلمي.
(انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٦٩).

(٢) العتبية : من أمهات مصنفات الفقه المالكي ألفها محمد بن أحمد العتبي القرطبي وهي المستخرجة من الأسمعة المسموعة من الإمام مالك.
(انظر الضبي : المصدر السابق، ص ٣٧).

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزوي القيرواني، إمام المالكية في زمنه، كثير التأليف واسع الفقه حتى لقب بمالك الصغير، رحل إليه العلماء للأخذ عنه، له كتاب الزيادات على المدونة ومختصر المدونة توفي سنة ٣٨٦هـ كما سنتعرض لذكره فيما بعد.

(٤) ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٧٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٧٦.

اجتمعت في غيره منها الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهد في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة، وعفة النفس، والشدة على أهل البدع، والجرأة في قول الحق لايهاب سلطاناً أو غيره، لذلك أجمع أهل عصره على تقدمه وفضله وانتشرت إمامته. وانتشر علمه في أنحاء المغرب الإسلامي فصار (زمانه كأنه مبتدأ. وقد محا ما قبله فكان سراج القيروان)[1]، وقد ولي قضاء إفريقية مدة بعد تمنع طويل، وتوفي في رجب سنة ٢٤٠هـ ودفن بباب نافع بالقيروان[2]، وكان من أشهر من أخذ عنه ابنه محمد بن سحنون الذي كان كثير التأليف حتى إنه صنف ما يزيد عن الخمسين مؤلفاً في الفقه والتاريخ والحديث ونحوها، ثم يحيى بن عمر، وابن مسكين، وابن أبي سليمان وغيرهم كثير حتى عد العلماء الذي تخرجوا عليه بنحو السبعمائة[3]، وقد وافق عصرهذه الطبقة أوائل العصر الأغلبي الذي منذ بدايته بدأت الحركة العلمية في القيروان تسير بخطى حثيثة.

كان تولي إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية لهارون الرشيد سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م نقطة تحول هامة في تاريخ هذه الإمارة، إذ بدأ فيها منذ ذلك الوقت عهد نعمت فيه بالاستقرار الذي هو شرط أساسي لانطلاق الحركة العلمية بل وانتعاش الحضارة بصفة عامة وازدهارها في أي مكان وزمان، فمنذ ذلك الوقت عملت هذه الدولة الفتية على النهوض بإفريقية نهضة شاملة، فبدأت في إنشاء الحصون (الرباطات) وتحصين المدن وتدعيم الأسطول وإنشاء المسالح ودور الصناعة ثم تمهيد الطرقات وتعبيد المسالك الرومانية القديمة وإصلاح الجسور، وتنظيم أسواق المدن ودروبها ومجاريها الصحية وإنشاء المستشفيات[4] وجر المياه من الأماكن البعيدة بطرق هندسية محكمة، إلى غير ذلك، وأما بالنسبة للحركة العلمية، فإن الأمراء الأغالبة لم يدخروا جهداً في سبيل تشجيع هذه الحركة رغبة منهم في العلم وتقديراً

(١) الدباغ : المصدر السابق، ج٢، ص ٨٣. انظر أيضاً القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٩٣.
(٢) انظر ترجمته في المالكي : المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٩. القاضي عياض : المصدر السابق، ص٨٦، الدباغ : المصدر السابق، ج٢، ص ٧٧.
(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج١، ص ٢٩٩.
(٤) عن المستشفيات في عهد الأغالبة وكانت تدعى دمنات (مفردها دمنة) انظر : حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٧٣ وما بعدها.

منهم له لأن غالبيتهم كانوا ممن طلبوه وتذوقوه، فقد كان إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الأسرة في صغره وقبل قدومه إلى إفريقية ممن درس العلم في مصر حتى برع ونبغ فيه، وكان من مشاهير من أخذ عنهم الليث بن سعد إذ لازمه مدة طويلة، والليث هو الذي وهبه (جلاجل) أم ابنه زيادة الله[1]،فكان من المتفقهين في الدين ومن الشعراء المجيدين والخطباء البلغاء المترسلين البارعين[2]، وابنه زيادة الله الأول الذي تولى الإمارة من سنة ٢٠١-٢٢٣هـ كان من أعلم أهل بيته وأفصحهم لساناً، وكان أبوه إذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء أصحبهم إياه وأمرهم بملازمته[3]، فنشأ عالماً بالعربية وشاعراً مجيداً، وإبراهيم الثاني الذي كان قد تعلم اللاتينية في صغره حتى أتقنها، وكان يتكلم بها مع فتيانه وجواريه من الصقالبة، أضف إلى ذلك أنه كان يحسن علم الفلك ويرصد النجوم ويرسم أزياجها وحساباتها[4]، كما كان ابنه عبد الله الثاني عاقلاً أديباً مشاركاً في العلوم، له نظر جيد في الجدل وعناية باللغة والأدب وقد أخذ ذلك عن كبار أساتذة القيروان مثل أبي العباس القيار الحنفي وغيره[5]، والأمير محمد بن زيادة الله الثاني والي طرابلس، وكان عالماً أديباً شاعراً خطيباً لا ينادم إلا أهل الأدب، وقد ألف كتباً كثيرة في الأدب والتاريخ منها كتابه في تاريخ بني الأغلب الذي لم يصلنا مع الأسف[6]، لذلك كان من الطبيعي أن يكون أمراء هذه الأسرة من أكبر مشجعي الحركة العلمية في القيروان بل وفي إفريقية بصفة عامة، وبلغ من تشجيعهم للعلم أنهم بعد نقل مقر سكناهم إلى (العباسية) ثم (رقادة) القريبتين من القيروان، كانوا يحرصون على زيارة القيروان يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، لتفقد العاصمة وحضور صلاة الجمعة بمسجدها أو لتشييع جنازة عالم كبير، وكان من عادتهم أن يأتوا جامع القيروان ليلة نصف شعبان وليلة نصف

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٨٤.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات، ق١ ص,٨٤

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١،ص ٨٤.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١،ص ٨٥.

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١،ص ٨٦.

(٦) انظر الدباغ : المصدر السابق،ج٢، ص ٧٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٨٦.

رمضان فيعطون الصدقات ثم يخرجون من الجامع فيزورون دور الزهاد والعلماء والكتاتيب والمحارس والدمنة – وهي مستشفى القيروان – فيوزعون الأموال والعطايا السخية[1]. وفي ذلك العهد تزاحمت الآراء والمذاهب بإفريقية مما كان له أكبر الأثر في الحركة العلمية فيها، ذلك أن العلماء الذين سبق أن ذكرناهم والذين كان لهم الفضل الأول في تأسيس مدرستها الفكرية كانوا من أهل السنة، وكان جلهم قد أخذوا عن الإمام مالك وأصحابه، وبجهودهم انتشر المذهب المالكي ليس في إفريقية فحسب بل في المغرب الإسلامي بأسره، وعلى ذلك كانت الغالبية العظمى من أهل إفريقية على هذا المذهب، ولكن ذلك لم يمنع تسرب المذاهب الأخرى إليها خاصة في ذلك العصر كالمذهب الحنفي الذي كانت تأخذ به الخلافة العباسية نتيجة لجهود أبي يوسف منذ توليه القضاء في دار الخلافة، ثم آراء المعتزلة التي مال إليها المأمون والمعتصم من بعده،إذ أن إفريقية بالرغم من استقلالها الذاتي كانت ولاية عباسية ملتزمة رسمياً بما تأخذ به الخلافة، لذلك كانت القيروان وتونس ورقادة وغيرها من مدن إفريقية تعج في ذلك العصر بالعلماء وطلاب العلم المختلفي العقائد والنزعات والميول، فمنهم المالكية، ومنهم الأحناف ومنهم من كان يميل إلى أقوال الأوزاعي، وسفيان الثوري، والشافعي ، ومنهم من يرى رأي المعتزلة ، ومنهم من أبناء البربر من كان متمسكاً بالنحل الخارجية كالصفرية والإباضية، ثم المتكلم المتفلسف مما لا يتقيد بمذهب ما[2]، وكلهم عاكفون على الدراسة أو التدريس أو المناظرة، كل ذلك دون تعصب وفي ظل تسامح بين أصحاب المذاهب والآراء تميزت به إفريقية عن غيرها مما أوجد بينهم الألفة على اختلاف ميولهم[3]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنه منذ مطلع هذا العصر أخذت الحركة العلمية في القيروان في التفرغ والتنوع، ذلك أن هذه الحركة كانت في البداية دينية الصبغة اختصت بدراسة الفقه والحديث واللغة وما إليها من العلوم النقلية، ولكن منذ أواخر القرن الثاني الهجري بدأت هذه الدراسات تشمل العلوم العقلية من طب وفلسفة ورياضيات وفلك وغيرها، وعلى ذلك أصبحت الحركة العلمية في القيروان تماثل نظيراتها في المراكز

---

(١) انظر الدباغ : المصدر السابق،ج٢، ص ٧٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٨٧.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٧٣ – ٧٤.

(٣) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج١، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

العلمية الهامة في المشرق.

لذلك، وتشجيعاً من الأمراء الأغالبة لهذه الحركة المباركة، بذلوا جهوداً كبيرة في اجتذاب العلماء من المشرق إلى بلاطهم، فكانوا يشجعون قدومهم بما يبذلونه لهم من عطاء سخي وتقدير لعلومهم، حتى أصبح هذا البلاط صورة مصغرة عن بلاط الخلفاء العباسيين ببغداد، ومن مشاهير هؤلاء العلماء الذين قدموا إلى إفريقية في ذلك العهد، أبو اليسر الشيباني البغدادي، وإسحق بن عمران الطبيب المشهور، وإسحق بن سليمان الإسرائيلي الطبيب أيضاً، ومحمد بن أحمد بن الفرج البغدادي، الذي فضلاً عن طول باعه في فنون العلم والأدب كان متخصصاً في الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة(١)، وغيرهم، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الأمراء بالغوا في الاهتمام باستجلاب الكتب من المشرق وحتى من بعض البلاد المسيحية، وكانوا ينفقون في ذلك الأموال الطائلة، فالأمير إبراهيم الثاني المعروف بالأصغر مثلاً كان يرسل كل عام – وأحياناً مرتين في السنة – سفارة إلى بغداد لتجديد ولائه للدولة العباسية، وكان يكلف هذه السفارة بشراء الكتب النفيسة من بغداد ومن مصر مما لا نظير لها في إفريقية من ناحية، ثم بإغراء العلماء للقدوم إلى بلاطه من ناحية ثانية، وكان يزودها بالمال الوافرلهذا الغرض(٢)، وكان لكلا الأمرين أثره القوي على الحركة العلمية في إفريقية وجعلها تواكب ركب الثقافة الإسلامية في المراكز الأخرى، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن هذه المواكبة كانت حتى في أعمال الترجمة لكتب علوم الأمم الأخرى إبان عصر الترجمة، حيث كانت حركة الترجمة في القيروان وبتشجيع ورعاية الأمراء الأغالبة لا تقل في مستواها عن ما كان يجري في مراكز المشرق إن لم تفق بعضها، ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن أعمال الترجمة التي تمت في إفريقية كانت عن اللاتينية على خلاف ما جرى في المشرق. فما ترجم في المشرق من كتب كان عن اللغات التي كانت رائجة هناك في زمن الفتح كاليونانية والسريانية والفارسية والهندية، ولم نقف البتة على اسم كتاب واحد ترجم عن اللاتينية هناك إذ أنها لم تكن منتشرة وقتئذ في ربوعه. وأما

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق، ص ٣٥.
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ١٩٦.

بلاد المغرب من الأندلس إلى برقة فإن اللغة التي كانت سائدة فيها عند الفتح هي اللاتينية سواء في الشؤون الرسمية أو الرسوم الدينية، ولذلك اضطر كثير من العرب الذين استقروا في هذه البلاد إلى تعلمها وإتقانها تكلماً وكتابة لما يفرضه عليهم امتزاجهم بالعناصر المحلية ومجاورتهم المستمرة لبقايا الرومان والمسيحيين المقيمين في بلادهم سواء في المغرب العربي أو الأندلس أو صقلية[١]، وقد ظلت هذه اللغة معروفة في إفريقية إلى ما بعد الفتح بعهد طويل، يؤكد ذلك قول الإدريسي عن قفصة : (وأهلها متبربرون وأكثرهم يتكلم باللسان اللطيني الإفريقي)[٢]، لذلك كان كل ما ترجم من المؤلفات الأعجمية في إفريقية بل وفي الأقطارالمغربية إنما كان عن اللاتينية، فقد نشط الأمراء الأغالبة خاصة إبراهيم الثاني الأصغر، وابنه عبد الله الثاني، وزيادة الله الأخير الذين تثبت المصادر التاريخية أنهم كانوا يحسنون هذه اللغة[٣] في تشجيع الترجمة، ويعتقد حسن حسني عبد الوهاب اعتقاداً يرقى إلى حد اليقين، أن الأمير إبراهيم الأصغر الذي كان شغوفاً بالعلوم، تعلقت همته بترجمة المؤلفات اللاتينية المناسبة لذوقه وميوله، وأنه تخير بنفسه بعض المؤلفات في العلوم الرياضية التي اطلع عليها، وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية، وألحق بهم بعض علماء اللغة من أهل إفريقية، وعهد إليهم بمهمة تنقيح عباراتهم وصياغتها في قالب عربي صحيح، رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين الناس. ومما يؤيد لديه هذا الاعتقاد أن الحسن الوزان رأى في إفريقية ترجمة كتاب بلينوس الروماني (Plinus) في علم النبات باللغة العربية، ومن المؤكد أن هذا الكتاب المفيد جداً والذي نقل عنه العشابون المغاربة كثيراً فيما بعد، لم تتم ترجمته في الأندلس لا في عهد عبد الرحمن الناصر ولا في عهد ابنه الحكم الثاني[٤]، وبالتالي فالأرجح أن يكون قد ترجم في إفريقية في هذا العصر، كما عثر في المكتبة العتيقة في جامع عقبة بالقيروان على نسخة من ترجمة عربية لكتاب (تاريخ الأمم

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص٢٠٢.

(٢) الشريف الإدريسي : المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٠٠، والمقصود باللغة اللاتينية هنا هي اللغة اللاتينية المتأخرة أو الرومانية الدارجة في ذلك العصر في الممالك الإفرنجية الغربية والتي كانت رائجة الاستعمال بين سكان إفريقية النصارى .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٠١ – ٢٠٢.

القديمة) المنسوب لجيروم (Saint Gerome) المتوفى سنة ٤٢٠م وهي النسخة الوحيدة المعروفة لغاية الآن، وقد رسم على هوامشها كلمات بالحروف اللاتينية منها اسم المؤلف (أي جيروم)[1] مما يرجح أن ترجمة هذا الكتاب تمت في إفريقية في عصر الترجمة أيضاً وليس بعده، ذلك لأن المسلمين بعد انقضاء ذلك العصر لم يعودوا في حاجة إلى مزيد من الترجمة إذ انطلقوا هم لوحدهم يحلقون في سماء الإبداع.

وكانت المأثرة الهامة الأخرى للأغالبة هي إنشاؤهم (بيت الحكمة) في إفريقية على غرار سميّه في بغداد، وهو أكبر مؤسسة وجدت قديماً في إفريقية لدراسة العلوم الفلسفية والرياضية والفلكية والطبية وغيرها، كان الأمير إبراهيم الثاني الأصغر (سنة ٢٦١-٢٨٩هـ) هو الذي أنشأ هذه المؤسسة العلمية الهامة التي كانت أشبه ما تكون بجامعة كبيرة تدرس فيها مختلف العلوم، فكانت تتألف من عدة مجالس (قاعات) فسيحة، منها ما كان للتدريس والمطالعة ومنها ما كان لنسخ الكتب والترجمة، وقد ضمت إحداها مكتبة ضخمة جمعت كتبها من أنحاء العالم الإسلامي عدا عما كان يترجم فيها فضلاً عن خزائن لحفظ الآلات الفلكية لحساب سير الكواكب ورصدها كالإصطرلابات والمقنطرات والجيوب وما يشبهها من أدوات البحث وتحقيق الأوفاق، وضبط الأطوال والعروض مما يستعمل في الفلك والتنجيم[2]. وكان أول من تولى رئاسة هذه الجامعة - وكان يطلق على شاغل هذا المنصب (صاحب بيت الحكمة) - هو أبو اليسر الشيباني البغدادي[3]، ومن أشهر من كان لهم علاقة بهذه الجامعة سواء بالتدريس فيها أو بحضور

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب :ورقات ق،١ص ٢٠٣.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ١٩٧.

(٣) هو إبراهيم بن محمد الشيباني ويكنى بأبي اليسر ويعرف (بالرياضي)الكاتب، أصله من بغداد وبها نشأ ودرس على جلة من محدثيها وفقهائها وتتلمذ إلى كبار أدباء عصره كالجاحظ والمبرد وثعلب وابن قتيبة وأخذ عنهم مصنفاتهم ولقي من فحول الشعراء أبا تمام والبحتري وعلي بن الجهم وروى عنهم دواوينهم مباشرة، وجالس من مشاهير الكتاب : سعيد بن حميد، سليمان بن وهب، أحمد ابن أبي طاهر وغيرهم، رحل إلى الأندلس واتصل بأميرها محمد بن عبد الرحمن الأموي ثم لحق بالأمير الأغلبي إبراهيم الأصغر فأكرم وفادته واتخذه رئيساً لديوان الرسائل بدولته فاستقر بإفريقية وتوفي بها سنة ٢٩٨هـ، ومن مؤلفاته الأدبية (سراج الهدى) في معاني القرآن وإعرابه ومشكله،=

المجالس العلمية والدروس والمحاضرات التي تلقى فيها بالإضافة إلى أبي اليسر الشيباني، عبد الله بن الصائغ(١)، إسحق بن عمران(٢)، إسحق بن سليمان الإسرائيلي(٣)، بني

= (مسند في الحديث)، (لقط المرجان) في الأدب على نسق عيون الأخبار لابن قتيبة.(انظر ابن عذاري : المصدر السابق ج١، ص ١٥٠، ١٦٢، المقري : المصدر السابق.ج٢، ص ١١٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٤ وما بعدها).

(١) هو أحد وزراء وخواص الأمير زيادة الله الثالث الأغلبي، من القيروان وبها نشأ وتلقى علومه، استخدمه منصور بن إسماعيل رئيس ديوان الخراج في عهد إبراهيم الأصغر في كتابة رسائله ثم استوزره زيادة الله الثالث بعد ذلك وأسند إليه وظيفة صاحب البريد وهي من الوظائف الهامة في الدولة وقتئذ،كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً، تتلمذ إلى كبار الكتاب في إفريقية مثل أبي اليسر الشيباني ومحمد بن الفرج البغدادي، وأبي محمد عبد الله المكفوف كبير اللغويين والنحاة في القيروان في القرن الثالث الهجري، وكان من أعيان المترددين على بيت الحكمة، مات مقتولاً سنة ٢٩٦ (انظر ابن الأبار : المصدر السابق ص ٢٦٦، ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٣٦، ١٤٣، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٣٠ وما بعدها).

(٢) طبيب بغدادي الولادة والنشأة والدراسة، مسلم بعكس ما قد يظن البعض بأنه يهودي لتشابه اسمه بأسماء اليهود، حذق العلوم الطبية ولا يستبعد أن يكون قد أخذ عن بختيشوع وحنين بن إسحاق وأمثالهما، مارس الطب في العراق، ثم استدعاه الأمير إبراهيم الأصغر الأغلبي إلى إفريقية فالتحق به سنة ٢٦٤هـ، ومن أشهر من أخذوا عنه ابنه علي المولود بالقيروان، وزياد ابن خلفون، وإسحق بن سليمان الإسرائيلي وأبو بكر محمد بن الجزار، وأبو سعيد عثمان بن الصيقل، وغيرهم، وقد ألف عدة مؤلفات منها كتاب المالنخوليا في وصف أمراض الوسواس وغيره (انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٧٨، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٣٣ وما بعدها).

(٣) نشأ في مصر وبها تعلم الطب ومارس مهنة الكحالة (أمراض العيون) في عهد أحمد بن طولون، استقدمه الأمير زيادة الله الثالث إلى إفريقية فوصلها سنة ٢٩٢هـ، ولازم إسحق بن عمران يحضر دروسه في بيت الحكمة وتتلمذ له، وبعد انقضاء دولة بني الأغلب خدم خلفاء الفاطميين أثناء مقامهم في إفريقية فخدم المهدي، والقائم والمنصور والمعز، وكان ذا حظوة لديهم، وكان مع علمه بالطب بصيراً بالمنطق وغيره من المعارف، وكان يهود إفريقية يجلونه حتى إنهم أسندوا إليه رياستهم الدينية، وقد ألف لهم كتباً في تفسير تعاليمهم وكانت وفاته في منتصف القرن الرابع الهجري قبيل انتقال المعز الفاطمي إلى مصر، ودفن بمقبرة اليهود بالمهدية، وقد أخذ عنه جماعة من أهل إفريقية منهم الطبيب الشهير (أحمد بن الجزار) ومن أهم مؤلفاته كتاب (الحميات) كتاب (البول) كتاب (النبض)كتاب (الحدود والرسوم) في الطب وغيرها. (انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٤٧٩ وما بعدها، ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٤١، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٣٧ وما بعدها).

الجزار[١]، زياد بن خلفون[٢]، ابن ظفر[٣]، محمد بن حيون المعروف بالبريدي[٤]، أبي سعيد عثمان بن سعيد المعروف بالصيقل[٥]، ابن القمودي[٦]، إسماعيل بن يوسف المعروف

---

(١) هم أفراد بيت واحد برعوا في علم الطب وتناقلوه لمدة تزيد عن القرن أولهم أبو بكر محمد ابن أبي خالد بن الجزار – عم أحمد بن الجزار المشهور – وقد تلقى علومه الطبية عن إسحق بن عمران وعن تلميذه إسحق الإسرائيلي، وزياد بن خلفون وغيرهم، وقد خدم الخليفة الفاطمي الأول المهدي وتوفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ويبدو أنه كان له مؤلفات في الطب والنبات لم تصلنا. ثم أخوه إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار، تلقى علومه مع أخيه، ومعه كان يمارس الكحالة في القيروان، وهووالد أحمد الذي سنتعرض لذكره فيما بعد.(انظرحسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٣٩ وما بعدها).

(٢) كان من موالي بني الأغلب، وكان يسكن القيروان، ويعالج الأمراء، وكان يزور مرضى الدمنة – مستشفى القيروان – في أيام معينة، ثم انتقل للسكنى في رقادة عندما بناها إبراهيم الأصغر وذلك ليكون قريباً من حاشية الأمير، ويبدو أنه تلقى علومه من سليمان بن عمران، وبعد انقضاء دولة الأغالبة التحق بالفاطميين فخدم المهدي، وتوفي مقتولاً في القيروان سنة ٣٠٨هـ.
(انظر ابن عذارى : ج١ص ١٥٠، ١٨٣، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤١).

(٣) هو الفضل بن علي بن ظفر، طبيب وأديب وحكيم وشاعر قيرواني، درس الفلسفة والطب على مشاهير علماء عصره، كما درس على أعيان علماء الأحناف في القيروان، وكان من أصحاب ابن الصائغ الآنف الذكر، وصديقاً لأبي جعفر البغدادي وتدل علاقته بكبار رجالات دولة الأغالبة على أنه كان من أعيان المترددين على بيت الحكمة ويحضر مجالس كبار علمائه من الأطباء كإسحاق ابن عمران وإسحق الإسرائيلي وزيادة بن خلفون علاوة على علاقته بأعيان أدبائه كأبي اليسر الشيباني وأبي جعفر البغدادي ونظرائهما وتوفي سنة ٣٢٣هـ (انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ٢٧١، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٣ – ٢٤٤).

(٤) كان من مشاهير كتاب الدولة وأدبائها وقد ترأس ديوان الرسائل قبل قدوم أبي اليسر إلى إفريقية، وقد سخط عليه الأمير إبراهيم الأصغر فسجنه ثم أمر بقتله سنة ٢٧٦هـ. (انظر ابن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص ١١٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٧ – ٢٤٨).

(٥) من موالي إبراهيم الأصغر أخذ عن ثعلب في بغداد وعن أبي اليسر في بيت الحكمة وصحبه فترة طويلة وحذق صناعة الآلات الفلكية والرياضية وصناعة الورق، خدم المهدي الفاطمي بعد انقضاء دولة الأغالبة ثم رحل إلى الأندلس واستقر بقرطبة في كنف الناصر الأموي ونال حظوة لديه حتى أصبح مؤدب أبنائه وفي مقدمتهم ولي عهده الحكم، وتوفي في حدود سنة ٣٣٠ هـ (انظر المقري : المصدر السابق ج٢، ص ١١٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٩ – ٢٥٠).

(٦) أبو بكر القمودي المشهور بالفيلسوف نشأ بالقيروان وبها تلقى علومه وتخصص في الجدل والمناظرة ودرس كتب الفلسفة للأوائل وبحث آراءهم وصحب سعيد بن الحداد مدة طويلة وتتلمذ له=

بالطلاء المنجم[١]، أبي العباس أحمد بن القيار[٢]، بكر بن حماد[٣]، ابن خنبس اليوناني الترجمان[٤]، أبي عثمان سعيد بن محمد بن صبيح المعروف بابن الحداد الغساني[٥]،

= ولغيره من المتكلمين وكان يميل إلى المعتزلة وكثيراً ما شارك في المناظرات المذهبية التي كانت تدور في بيت الحكمة، ناظر أبا العباس الشيعي الداعية الفاطمي فأفحمه فخشي منه على نفسه فانضم للدعوة الفاطمية فولوه رياسة دار الضرب(السكة) ويبدو أنه مات في عهد المهدي .(انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٤٨، ١٥١،حسن عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٥١).

(١) ولد بالقيروان وتلقى علومه الأولية بها ثم رحل إلى العراق ودرس علم الفلك والتنجيم حتى برع فيهما كما حذق صناعة عقاقير التجميل فعرف بالطلاء، وتجول في بلاد الشام ومصر يدرس العلوم اللسانية والأدب والفلسفة والفنون الرياضية ثم عاد إلى القيروان بعلم غزير والتحق بخدمة الأمير إبراهيم الأصغر، ومن غير المستبعد أن يكون قد ألحقه ببيت الحكمة، وقد صحب الأمير إلى صقلية ثم عاد إلى إفريقية وعند سقوط دولة الأغالبة هاجر إلى الأندلس كما سيأتي ذكره،(انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) من علماء القيروان وفقهائها على المذهب الحنفي، صحب الإمام سحنون وأخذ عنه العلم، برع في علم الكلام والجدل، واختص بصحبة الأمير عبد الله بن إبراهيم الثاني، ومات سنة ٢٩٠هـ (انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٧٣، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٣) نشأ بمدينة تاهرت بالمغرب الأوسط ثم ارتحل إلى القيروان ودرس على نخبة من محدثيها وفقهائها، ثم رحل إلى المشرق فسمع من جلة علماء البصرة والكوفة وبغداد، وأتقن علم الحديث وفنون الأدب وبرع في الشعر ومدح المعتصم فوصله بصلات جزيلة واجتمع بأبي تمام ومسلم بن الوليد ودعبل الخزاعي وعلي بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق، وعاد إلى إفريقية ولحق بالبلاط الأغلبي فأقام مدة طويلة يمدح الأمراء حتى انقضاء دولتهم فتوجه عائداً إلى بلده فاعترضه قطاع الطرق وقتلوه سنة ٢٩٦هـ. (انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٥٣- ١٥٤، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٥٥ وما بعدها).

(٤) رومي الأصل من موالي زيادة الله الثالث وكان في خدمة ذلك الأمير وترجمانه عند استقباله للسفارة البيزنطية سنة ٢٩٥هـ، ومرافقاً له في أسفاره وتحركاته ولا يستبعد أن يكون قد أسهم في تعريب المصنفات التي ترجمت في بيت الحكمة.
(انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٥٧ - ٢٥٨).

(٥) من كبار متكلمي القيروان في عصره إن لم يكن أشهرهم وأعلمهم، أخذ علومه الدينية عن الإمام سحنون وأبي سنان وأبي الحسن الكوفي، ثم مال بكليته للفلسفة وأتقن فن الكلام والجدل، وتتلمذ له العديد منهم أبو بكر بن اللباد وابنه عبد الله وأبو العرب وأحمد بن موسى التمار وغيرهم، وكان عابداً زاهداً ورعاً عالماً بالعربية، كان يشارك في المناظرات ببيت الحكمة، وبعد انقضاء عهد دولة الأغالبة ناظر دعاة الفاطميين فكانت له معهم أربعين مناظرة. وتوفي سنة ٣٠٢هـ. له عدة مؤلفات منها (إيضاح المشكل) ، (المقالات) ، (الاستيعاب) ، (الأمالي). =

ومحمد بن زرزور الفارسي[1]، وغيرهم والذين كانوا في الوقت نفسه من أشهر علماء إفريقية في ذلك العصر وكلهم سابق ومجل في ميدانه. لذلك، ومما لا شك فيه أن الأغالبة بتأسيسهم لبيت الحكمة قد دفعوا بحركة النهضة العلمية في القيروان بصفة خاصة وإفريقية بصفة عامة دفعة قوية إلى الأمام، إذ وقف صرحاً شامخاً للعلم إلى جانب المعاهد العلمية الأخرى. وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هودور الرباط في هذه الحركة العلمية النشطة في هذا العصر،ذلك أن الأغالبة أولوا الرباطات قدراً كبيراً من عنايتهم كما تقدم ذكره، وحيث إن جل علماء إفريقية كانوا يخرجون للمرابطة في هذه الرباطات طوال فصل الصيف لجهاد العدو كما تقدم ذكره أيضاً، فإن تلك الرباطات كانت تصبح في ذلك الفصل أشبه بالمعاهد العلمية، إذ كانت تجتذب طلاب العلم للالتحاق بهؤلاء العلماء والأخذ عنهم، وكان من هؤلاء العلماء من يشغل نفسه بنسخ الكتب لتيسيرها للطلبة مثل حمدون بن مجاهد الكلبي الذي حكى عنه صاحبه أبو بكر مَسَرَّة بن مسلم، أنه قال عن نفسه، بأنه نسخ ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب بيده[2]، ومن هذه الكتب ما كان يحبس (يوقف) على نزلاء الرباط[3]. لذلك انتشر العلم في هذا العصر بين الخاص والعام، وتجاوز الرجال إلى

= (انظر الدباغ : المصدر السابق، ج٢،ص ٢٩٥ وما بعدها، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٦١).

(١) كان عالماً فقيهاً على مذهب أبي حنيفة، يصفه ابن عذارى بقوله: (كان حافظاً لبيباً، ونظر في النجوم والحساب)، توفي سنة ٢٩١هـ.
(انظر الدباغ : المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٧، ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٣٦).

(٢) عالم فقيه ورع زاهد مرابط، استوطن رباط المنستير، كان من أصحاب عيسى بن مسكين وهو راويته، وأخذ عن الإمام سحنون ورحل إلى المشرق في طلب العلم وعاد إلى إفريقية كتب من الكتب العلمية قدراً عظيماً، وكان ملازماً للعبادة، كان إذا انصرف من المحراب يوجد موضع سجوده قد ابتل من دموعه،كان يحب نشر العلم وإذاعته لذلك اشتغل بنسخ الكتب. أخذ عنه مسرة بن مسلم، وعمر بن المثنى وروى عنه نخبة من علماء مصر والمغرب توفي سنة ٣٢١هـ.
(انظر ترجمته في المالكي : ج١، ص٧٦، القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٤٢٠).

(٣) يقول حسن حسني عبد الوهاب في ذلك (إنني كثيراً ما رأيت أجزاء مخطوطة على الرّق يرجع تاريخها إلى القرن الرابع والخامس مرسوماً تحت عنوانها (حبس على جماعة المرابطين بقصر . . . كذا) ويذكر حصن الرباط الموقوف عليه، وأحياناً تكون عبارة التحبيس هكذا (حبس على من يسكن حجرتي برباط . . . كذا، وهلم جرا). =

النساء، إلى حد أن برزت منهن فيه عدة نساء اشتهرن بالعلم، مثل خديجة بنت الإمام سحنون في الفقه، ومهرية بنت الحسن بن غلبون في الأدب والتي كانت إلى جانب ذلك شاعرة مجيدة[1]، وغيرهما.

وانقضى عهد الدولة الأغلبية ليبتدئ العصر الفاطمي، وبالرغم من بعض المعوقات التي عرقلت مسيرة الحركة العلمية في ذلك العصر، والتي كان من أهمها محاولة الفاطميين صبغ تلك الحركة بما يتفق مع دعوتهم الشيعية بل والعمل على تسخيرها لخدمة تلك الدعوة والقضاء على كل ما يعارضها، وظهر ذلك بوضوح في الحرب الشعواء التي شنوها على المذاهب الدينية المعارضة لهم خاصة المذهب المالكي الذي كان يأخذ به معظم أهل إفريقية فقتلوا وامتحنوا الكثير من أفاضل العلماء خاصة في عهد خليفتهم الأول عبد الله المهدي علاوة على ما كان يقتل منهم في الحركات المناوئة لهم، فقد قتل في حركة أبي يزيد مخلد ابن كيداد وحدها مثلاً خمسة وثمانون من نخبة علماء القيروان[2]، الأمر الذي كان سبباً هاماً في هجرة العديد من العلماء من إفريقية فراراً من هذا الاضطهاد هذا بالإضافة إلى الذين كانوا قد فروا منهم ممن خدموا الأمراء الأغالبة خوفاً على أنفسهم من الفاطميين، هذا من ناحية، ثم محاولتهم تحويل بيت الحكمة عن مهمته الرئيسية في خدمة الحركة العلمية المحضة والحرة، وفرض القيود الثقيلة عليه حتى إن داعيتهم أبا عبد الله الشيعي جعله مركزاً لنشاطه، فكان يجري فيه مناظراته الدينية مع الفقهاء المتكلمين من غير الشيعة مثل مناظراته مع ابن الحداد وغيره، مما جعل الكثير من العلماء والفقهاء يعزفون عن هذه المؤسسة العلمية الهامة علاوة على تحرج بعض المتزمتين من فقهاء المالكية أصلاً عن ارتيادها وتشجيعها نظراً لما كان يدرس فيها من علوم نظرية وفلسفية لا يقرونها، مما جعل مكانة هذه المؤسسة تأخذ في التراجع، حتى آل أمرها إلى الاندثار وذلك حينما انتقل الفاطميون إلى مصر وأخذوا محتويات مكتبتها معهم فدرست وطواها النسيان.

= (انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١،ص ٣٣٩–٣٤٠).

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق، ص ٣٦.

(٢) انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ٣١٧ – ٣١٨، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج١، ص ٣٠٠.

ولكن بالرغم من هذه المعوقات، فقد واصلت الحركة العلمية بل والحركة الحضارية بمجملها في إفريقية نشاطها المستمر، ذلك أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا يرغبون في الظهور في مستوى أقل من مستوى خصومهم العباسيين في بغداد حاضرة الدنيا آنذاك، أو الأمويين في قرطبة التي كانت هي الأخرى قد بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والرقي في تلك الفترة التي كانت بمثابة عصرها الذهبي في ظل الخليفة الناصر وابنه الحكم، لذلك دفع الفاطميون بعجلة الحركة الحضارية في إفريقية إلى الأمام دفعة قوية، زاد من قوتها ما عرف عنهم من بذخ وترف. وأما القيروان فبالرغم من ظهور مركز حضاري جديد في إفريقية في ذلك العصرهو المهدية التي نقل خلفاء الفاطميين مقرهم إليها حيث اجتذب بلاطهم فيها نخبة من العلماء في مختلف نواحي المعرفة، ثم بروز تونس كمركز آخر حيث أصبح جامع الزيتونه بها مركزاً علمياً نشطاً يرفد الحركة العلمية في إفريقية بقوة، إلا أن القيروان ظلت هي المركز الرئيسي لهذه الحركة، وظلت الحاضرة الأولى في غرب العالم الإسلامي بأسره، يؤكد هذه الحقيقة ما وصفها به المقدسي إذ قال عنها إنها كانت في القرن الرابع الهجري : (مصراً بهياً عظيماً قد جمع أضداد الفواكه، والسهل والجبل، مع علم كثير، لا ترى أرفق من أهلها، ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية، فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان، أرفق من نيسابور، وأكبر من دمشق، وأجل من أصبهان . . .)[1]. وتبعاً لذلك ظهر في إفريقية في ذلك العصر العديد من العلماء المبرزين الذين كان لهم أثر كبير ليس في الحركة العلمية في إفريقية فحسب، وإنما أيضاً في الحضارة العربية الإسلامية بوجه عام.

ومن مشاهيرهؤلاء العلماء الذين ظهروا في هذا العصر نذكر أبا جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار، والذي يعتبر أحد مفاخر علم الطب لدى العرب والمسلمين، وهو ثالث الأطباء في أسرته كما سبق أن ذكرنا حينما أشرنا إلى أبيه وعمه. وقد ولد في القيروان سنة ٢٨٥هـ / ٨٩٨م في عهد الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني الأصغر أي في زمن ذروة نشاط الحركة العلمية في العصرالأغلبي، فأخذ عن أبيه وعمه، ثم صحب إسحق بن

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

سليمان الإسرائيلي المتقدم ذكره، حيث أخذ عنه واستفاد كثيراً من علمه كما يذكر ذلك في مصنفاته، فبرع في الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ، وعندما آنس من نفسه العلم الكافي والخبرة المطلوبة افتتح في بيته شبه عيادة لاستقبال المرضى، إذ بنى عند باب داره محلاً مستقلاً خصص منه قسماً للصيدلة جعل فيه غلاماً له يسمى (رشيق) أعد بين يديه الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم وغيرها من المستحضرات يصرفها للمرضى لقاء ثمنها بموجب وصفات طبية كان يكتبها له ابن الجزار بعد فحصه للمريض، فنال بذلك شهرة واسعة حتى أصبح أشهر أطباء عصره، ومع ذلك فيبدو أنه كان منقبضاً عن الدولة الفاطمية فلم يذكر أنه اتصل بأحد خلفائها وإن كانت ربطته علاقة ببعض رجالاتها، كما أنه كان متواضعاً مع الناس يشهد جنائز الفقراء ويحضر أعراسهم، وكان ينهض في كل عام للمرابطة في رباط المنستير فيقيم فيه فصل الصيف ثم يعود بعد ذلك إلى القيروان على ما جرت به عادة العلماء الزهاد، وقد قرضه العديد من كتاب التراجم والطبقات مثل ابن جلجل في طبقاته وياقوت في معجمه والمالكي في طبقاته وابن أبي أصيبعة في طبقاته، وأحمد الخميري الطبيب في (تحفة القادم) وقد صنف العديد من المصنفات ترجم عدد منها إلى اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية، وظلت عمدة لأطباء أوروبا في العصور الوسطى كما سيذكر فيما بعد، وقد عمر طويلاً حتى بلغ الثمانين وتوفي بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٨٠م، وقد ترك مكتبة ضخمة قيل إنها كانت عشرين قنطاراً من الكتب بين طبية وغيرها[1].

ومن أشهر مؤلفاته الطبية (زاد المسافر وقوت الحاضر) في علاج الأمراض وسيأتي التعريف به فيما بعد، وكتاب (العدة لطول المدة) قال عنه ابن أبي أصبعية : (هو أكبر كتاب وجدناه له في الطب)[2] وهو كتاب لم يصلنا، ثم كتاب (الاعتماد) في الأدوية المفردة وسيأتي ذكره، وكتاب (البغية) في الأدوية المركبة، لا نعلم عنه شيئاً، وكتاب (نصائح

(١) انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٤٨١ وما بعدها، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣٠٦ وما بعدها، أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : عصر القيروان، ص ٤٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٤٨٢.

الأبرار)، و(قوت المقيم) وهو غير زاد المسافرالآنف الذكر، قال ابن أبي أصيبعة نقلاً عن جمال الدين بن القفطي أنه كان عشرين مجلداً، ثم كتاب (المعدة وأمراضها ومداواتها)، وكتاب (أصول الطب)، وكتاب (مجربات) في الطب، (المختبرات) في الطب، (البلغة) في حفظ الصحة، (أبدال الأدوية) رسالة موجودة في خزانة أحمد خيري في البحيرة بمصر[1]، (التحذير من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه) رسالة، (طب الفقراء والمساكين) موجود في مكتبة غوطة والأسكوريال ومنه نسخة في خزانة عبد الحي الكتاني بفاس وقد ترجم قديماً إلى العبرية[2]، (النصح) قال عنه في (طب المشايخ) أنه جمع فيه أدوية الملوك والخواص، (طب المشايخ) رسالة في عشرين ورقة عالج فيها الحالات التي تعتري المسنين والمعمرين وما يجب عليهم فعله للمحافظة على صحتهم،توجد في مكتبة أحمد خيري في البحيرة بمصر، (سياسة الصبيان وتدبيرهم)، (الخواص) وترجم قديماً إلى العبرية، (الزكام) رسالة في أسبابه وعلاجه، (الجذام) مقالة، (الوباء ونعت الأسباب المولدة له في مصر، وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه) وغير ذلك[3]، وله في التاريخ والجغرافية، (التعريف بصحيح التاريخ) وهو مفقود، قال عنه ابن أبي أصيبعة بأنه يشتمل على وفيات علماء زمانه وبعض أخبارهم)[4]، وقال عنه ياقوت إنه في عشر مجلدات وينقل عنه في معجم البلدان[5]، (تاريخ الدولة) أي الدولة الفاطمية بسط فيه حوادث نشأة الدولة الفاطمية في إفريقية وهو في عداد المفقود، نقل عنه المقريزي في كتابه (اتعاظ الحنفاء) وغيره من المؤرخين[6]،كتاب (مغازي إفريقية) في أخبار الفتح الإسلامي لإفريقية وهو مفقود أيضاً ذكره البكري في مسالكه، (طبقات القضاة) ترجم فيه لقضاة إفريقية في عصره ونقل عنه القاضي عياض في مداركه، (عجائب البلدان) وقيل (عجائب الأرض) وهو في تقويم البلدان ووصفها، ورد ذكره مراراً في الكتاب المعروف بجغرافية المأمون المنسوب إلى

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٦.
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٦.
(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٧ – ٣١٨.
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٢.
(٥) انظر ياقوت : المصدر السابق (اسم طنبذة) ج٢، ص٦١.
(٦) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٨ – ٣١٩.

الفزاري، كما نقل عنه ابن البيطار[1]، وله في الأدب وغيره (المكلل) في الأدب والسياسة، (الفصول) في سائر العلوم والبلاغات، (الأحجار) في الأحجار الكريمة ومعادنها ومنافعها وخواصها، (العطر)، (النفس واختلاف الأوائل فيها) رسالة، (النوم واليقظة) رسالة، (الاستهانة بالموت) رسالة أيضاً[2]. ومما لا شك فيه بناء على ما تقدم أن ابن الجزار كان أحد أعلام علماءالمسلمين لا يقل في مستواه عن ابن سينا والبيروني ونظرائهما.

ومن هؤلاء المشاهير أيضاً أبوسهل دونش بن تميم، وهو يهودي ويدعى عند بني ملته (أدنيم) وينعت بلقب الشفلجي الإسرائيلي، وقد ولد في القيروان في أواخر القرن الثالث للهجرة، وأخذ عن إسحق بن سليمان الإسرائيلي وتخرج عليه في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك وبرع فيها جميعاً وأتقن اللغتين العربية والعبرية ودرس الديانة اليهودية وتفقه فيها حتى عد من كبارأحبارها، فكانت الاستفتاءات ترد إليه من يهود الأندلس ومصر والعراق فضلاً عن إفريقية، واتصل دونش بخدمة الخلفاء الفاطميين فخدم المنصور وابنه المعز قبل انتقاله لمصر، وقد وضع دونش عدة مؤلفات في الطب والرياضات والفلك وكانت هنالك مراسلات جارية بينه وبين يهود الأندلس خاصة مع (حسداي بن إسحق الإسرائيلي) طبيب الحكم الثاني[3] بقرطبة كما سيأتي ذكره، وكانت وفاته في حدود سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م ويقال إنه مات على الإسلام[4]، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (التخليص) في الأدوية المفردة، الذي نقل عنه ابن البيطار الصيدلي الأندلسي المشهور (١١٩٧ – ١٢٤٨م) في كتابه (جامع المفردات) الذي يعتبر من خيرة الكتب التي صنفها العرب في الصيدلة والأدوية[5]، ثم كتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار وهو من أقدم المؤلفات في هذا الموضوع، وكتاب في حركة الفلك والكواكب، ومصنف في علم الفلك قدمه لمخدومه المنصور بن القائم الفاطمي، كتاب في المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية، وشرح على (سفرالتكوين) في

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٩ – ٣٢٠.
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣٢٠ – ٣٢١.
(٣) انظر ترجمته في ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٤٩٨.
(٤) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٩٧ وما بعدها.
(٥) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ١٦٥.

التوراة، وقد وضعه دونش بالعربية الفصحى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٥م ثم نقل إلى العبرية بعد ذلك، وتوجد من هذه الترجمة عدة نسخ في بعض مكتبات أوروبا، أما الأصل العربي فمفقود، وله عدة رسائل أخرى محفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد منها (المستلحق)،(التنبيه)، (التسوية)، وغير ذلك[١].

ومن هؤلاء أيضاً موسى بن العازر اليهودي أيضاً، وكان حاذقاً في صنعته الطبية، ويبدو أنه كان قد وقع في الأسر وهوصغير، فتلقى علومه في إفريقية ونبغ حتى إنه أصبح هو وآل بيته أطباء الخلفاء الفاطميين، وقال عنه ابن أبي أصيبعة نقلاً عن ابن القفطي إنه كان طبيباً عالماً بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات[٢]، وقد ألف عدة مؤلفات منها (المعزّى) في فن الطبخ أي الغذاء الطبي وخواص كل لون وفوائده وحالات استعماله وقد ألفه للمعز لدين الله الفاطمي، ثم (السعال) وهي مقالة، ثم (الأقراباذين) أي علم الأدوية في جزء، وممن تخرج عليه أبناؤه عون الله وإسحق وإسماعيل، وقد خدموا المعز لدين الله الفاطمي وانتقلوا معه إلى مصر، ثم يعقوب بن إسحق بن موسى الذي خدم المعز أيضاً[٣]، ومن أطباء إفريقية في هذا العصر أيضاً (أعين بن أعين) وكان كحالاً أي طبيب عيون، ومارس هذه الصناعة في القيروان واشتهر بمعالجة الرمد المزمن وشفي على يده الكثير منهم الشريف أحمد بن عوانه وابنه، وعبد الله بن أبي زيد فقيه المالكية المشهور، وقد خدم المعز الفاطمي وانتقل معه إلى مصر، واستقر بها إلى أن وافاه أجله في ذي القعدة سنة ٣٨٥هـ / ديسمبر سنة ٩٩٥م، ومن مؤلفاته كتاب (أمراض العين ومداواتها)، (كناش) في الطب[٤]. ونبغ في هذا العصر من علماء الفقه أبوالقاسم حماس بن مروان بن سماك[٥]، ومحمد بن

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١،ص ٣٠٠.
(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٥٤٥.
(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدرالسابق ص ٥٤٥. انظر أيضاً حسن حسني عبد الوهاب ورقات ق١،ص ٣٠١ وما بعدها
(٤) انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٤٦. حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص٣٠٥ وما بعدها.
(٥) أخذ عن محمد بن عبدوس بن وسمع من سحنون وهو صغير ومن ابن عبد الحكم بمصر، كان فقيهاً ورعاً عابداً زاهداً، ولي قضاء القيروان سنة ٢٩٠هـ وتوفي سنة ٣٠٢ وقيل ٣٠٧هـ . =

محمد بن الإمام سحنون، ثم أبوبكر محمد بن محمد المعروف بابن اللباد الذي اشتهر بالحفظ والاتقان وسعة العلم وسعيه لنشرالمذهب المالكي في المغرب الإسلامي وتكوين علماء حملوا علمه، وقد اضطهده الفاطميون وسجنوه، وكانت وفاته في سنة ٣٣٣هـ[١]، ثم أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني إمام المالكية في زمنه والذي سبق أن أشرنا إليه، وكانت وفاته في سنة ٣٨٦هـ[٢]، وعبد الله بن أبي هاشم بن مسرور التجيبي، من تلاميذ عيسى بن مسكين، ومن أشهر من أخذ عنه ابن أبي زيد الآنف الذكر[٣]،ومن الأدباء أبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني شيخ ابن رشيق، وقد نقل ابن رشيق في كتابه (العمدة) كثيراً من دروسه ومحاضراته في اللغة والأدب[٤]، وعبد الكريم النهشلي وغيرهما، ومن الشعراء ابن هانئ الأندلسي الملقب بمتنبي المغرب[٥]، وعلي بن عبد الله التونسي، ومقداد بن الحسن الكتامي، وفي ميدان التاريخ والتراجم والطبقات ظهر أبوالعرب محمد بن أحمد التميمي صاحب كتاب الطبقات المشهور وحامل لواء تاريخ القيروان كما يقول عنه الدباغ في معالم الإيمان[٦]، فقد كان كثير الكتب حسن الخط والتقييد واسع الاطلاع ويقال إنه كتب بيده أربعة آلاف كتاب وتوفي سنة ٣٣٣هـ، ثم القاضي النعمان بن محمد صاحب كتاب (المجالس والمسايرات) المتوفى سنة ٢٦٣هـ، والذي كان علاوة على تبحره في فقه الشيعة ومن أكبر دعاة الفاطمين والمدافعين عن دعوتهم، كان من أبرز مؤرخي دولتهم

= (انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٣٢٠ وما بعدها).

(١) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٣، ص ٢١ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٣، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٣، ص ٥٧.

(٤) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق ص ٤٠.

(٥) لقب بالأندلسي لنشأته بالأندلس، فهو من إفريقية ومن المهدية بالذات، وهاجر أبوه منها إلى الأندلس فولد بها ابن هانئ ونشأ ، وقضى بها شطراً من باكورة شبابه ثم انتقل إلى إفريقية وفيها نضجت موهبته، واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي ومدحه بقصائد كثيرة، وكان منه كما كان المتنبي من سيف الدولة، ولحق بالمعز حينما انتقل إلى مصر ولكنه اغتيل في برقة، وقد أسف المعز كثيراً حينما علم بمقتله، وكان مما قاله وقتئذ : كنا نريد مفاخرة شعراء المشرق به.

(٦) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٣، ص ٣٦ وما بعدها، انظر كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣٤٠.

وكتاب سير أئمتهم. ومن أكثر الخلفاء الفاطميين اهتماماً بالعلم في تلك الفترة المعز لدين الله الفاطمي الذي كان هو نفسه على درجة كبيرة من العلم والاطلاع، يقول القاضي النعمان في ذلك : (وأما الطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة فأهل النفاذ في كل فن من ذلك بين يديه، وكلهم في ذلك عيال عليه. يخترع في كل يوم لهم من الصنائع ويبدع لهم فيه البدائع من دقائق معانيه وما تحار أذهانهم فيه فيما لو أخذت في تقصي معانيه ووصف ما آثره الله عز وجل به وجعله من العلم والحكمة فيه، لقطع هذا الكتاب مما بنيته عليه)[1]، وكان يحسن عدة لغات، وضم قصره بالمنصورية مكتبة ضخمة جمعت كتبها من نواحي عديدة فضلاً عما ورثه منها عن الأغالبة، وكان لشدة تعلقه بها يعرف مواضيع الكتب فيها وما يحويه كل جزء منها من فنون العلم والمعرفة[2]، وكان يقول على ما ذكره القاضي النعمان : (إني لأجد من اللذة والراحة والمسرة، في النظر في كتب الحكمة ما لو وجده أهل الدنيا لاطرحوها لها، ولولا ما أوجب الله سبحانه عليّ من أمور الدنيا لأهلها وإقامة ظاهرها ومصالحهم فيها لرفضتها بالتلذذ بالحكمة والنظر في كتبها، والله ما تلذذت شيئاً تلذذي بالعلم والحكمة)[3]، وبالإضافة إلى شغفه بالعلوم والفنون ارتقت الصناعات في عهده إلى حد كبير حتى إنه هو نفسه كان له باع طويل في هذا المضمار، فقد كان أول من صنع قلم حبر بخزان يخزن المداد، فقد ذكر القاضي النعمان أنه قال : (نريد أن نعمل قلماً يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده من داخله : فمتى شاء الإنسان كتب به فأمده وكتب بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المداد، وكان القلم ناشفاً منه، يجعله الكاتب في كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يبتغي منه ويراد الكتابة به)[4]، وفعلاً قام بعمل التصميم لذلك القلم وأعطاه لأحد الصناع لديه فصنعه كما أراد، وبذلك يكون قد سبق الأوروبيين إلى هذا الاختراع بثمانية قرون، ذلك أن أول قلم حبر بخزان عرف في أوروبا كان قلم F.B.Foelsh سنة ١٨٠٩ ثم قلم J.Schaffer سنة

(١) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ص ١٤٨.
(٢) انظر القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات، ص ٥٣٣.
(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات، ص ٩١.
(٤) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ص ٣١٩ – ٣٢٠.

١٨١٩م، وقلم J.H.Lewis الذي صنع له خزاناً من المطاط وذلك في سنة ١٨١٩ أيضاً[١].

وكما كان قيام الدولة الفاطمية سبباً في ظهور بعض المعوقات للحركة الحضارية، كان انتقالهم إلى مصر سنة ٣٦٢هـ سبباً في ظهور معوقات أخرى لهذه الحركة، ذلك أنهم أخذوا معهم كثيراً من دعائم الحركة المذكورة حتى كان فعلهم هذا أشبه ما يكون بنهب لإفريقية، أخذوا جل أموالها التي بها تمضي الحضارة قدماً في مسيرتها في كل زمان ومكان، وأخذوا الكتب من مكتبتي بيت الحكمة وقصر المنصورية وسواهما، فحرمت إفريقية من هذا العنصر الهام اللازم لاستمرار تقدم الحركة العلمية، وأخيراً وليس آخراً أخذوا كثيراً من خيرة علمائها وصناعها ممن كانوا على صلة ببلاطهم فضلاً عن أشياء هامة أخرى كمعظم الأسطول والجيش والدواوين وما إلى ذلك، ومع أن هذا كان له بلا شك أثره السلبي على الحركة الحضارية في إفريقية، إلا أن هذه الحركة بالرغم من ذلك لم تلبث أن واصلت مسيرتها، إذ سرعان ما استطاع أمراء بني زيري تجاوز هذه المعوقات والنهوض بها لما عرف عنهم من إنفاق بيد مبسوطة[٢] – قصدوا به أكثر ما قصدوا الاستعلاء على خصومهم وجذب الأنصار – نهضة كبيرة شملت جميع نواحيها، فشهدت إفريقية في عهد أمرائهم الأول بالرغم من المشاكل السياسية التي واجهتهم والتي سبق أن أشرنا إليها، شهدت عصراً من الرقي والتمدن يعتبر من أزهى عصورها الحضارية، يقول ابن خلدون في ذلك : (واستبحر عمران القيروان وقرطبة، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما، وما كان فيهما من حضارة)[٣]. وأصبح بلاط أمرائها لا سيما في الشطر الأول من عهد المعز بن باديس من أزهى بلاطات حكام المسلمين، ولعل خير دليل على ذلك هو ما قاله ابن خلدون أيضاً عن المعز في هذا الموضوع

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر القاضي النعمان : المصدر السابق ص ٣١٩ وما بعدها.

(٢) يقول ابن خلدون في ذلك : (نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والهدايا والخبائز والأعطيات ما يشهد بذلك – أي البذخ والترف – مثل ما ذكر أن عطية صندل عامل باغانة حمل مائة حمل من المال وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان من العود الهندي بمسامير الذهب وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود – أي فلفل بن سعيد – الزناتي ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً).
ابن خلدون : المصدر السابق ج٦، ص ١٥٨–١٥٩.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج١، ص ٣١٠.

حيث يقول : (واستمر ملك المعز بإفريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه)[1].

وتبعاً لذلك ظهر العديد من العلماء المبدعين في شتى فروع العلم والمعرفة نذكر من مشاهيرهم على سبيل المثال في علوم الرياضيات والهندسة : أبو الطيب عبد المنعم محمد الكندي المتوفى سنة ٤٣٥هـ الذي كان له تآليف عديدة في فنون شتى إلا أن المنية عاجلته عن تهذيبها، ولكن أكثر ما يميزه هو تصميمه لمشروع هندسي ضخم لشق قناة من البحر إلى القيروان، فقد قال عنه القاضي عياض إنه كان دبَّرَ جلب ماء البحر من الساحل إلى القيروان وسوقه خليجاً من هناك بنظر هندسي ظهر له، ولكن اخترمته المنية قبل إنفاذ رأيه فيه، وظهور ما دبر منه[2] هذا علاوة على سعة علمه بالفقه والحديث واللغة والغريب وعلم الكلام[3]. ثم علي ابن أبي الرجال وزير الدولة الزيرية الشهير، الذي كان عالماً أديباً لغوياً فقيهاً، وأكثر ما اشتهر به هو تبحره في علم الفلك، وله في ذلك مؤلف نال شهرة واسعة هو (كتاب البارع في الفلك) كما سيأتي ذكره، ومثله أحمد بن يوسف التفاشي القفصي الذي كان من خيرة من أنجبتهم إفريقية في علم الفلك، فضلاً عن إتقانه لعلوم أخرى. ثم عالم الطبيعيات أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت، ومع أنه كان أندلسياً من دانية إلا أنه أقام شطراً كبيراً في إفريقية وبها نضجت موهبته كما أنه مات ودفن فيها لذلك عد من أهلها، وقد كان إلى جانب علمه الواسع في الطبيعيات يتقن عدة علوم أخرى كالفلسفة والموسيقى والرياضيات والطب وغيرها، بالإضافة إلى أنه كان شاعراً مجيداً، قال عنه ابن أبي أصيبعة : (من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم وله التصانيف المشهورة والمآثر المذكورة، قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وحصل من معرفة الأدب ما لم يدركه كثير من سائر الأدباء. وكان أوحد في العلم الرياضي، متقناً لعلم الموسيقى وعمله)[4]، وكان من أبدع ما نظمه قصائده في علم الهيئة، وقد عده ابن خلدون من قمم هذا العلم عند المسلمين، إذ يقول

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦، ص ١٥٨.
(٢) عن ذلك انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق ص ٤٤.
(٣) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ص ١٨٤ — ١٨٥.
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٠١.

في معرض حديثه عن هذا العلم :(ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس . . . وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الأندلس وابن السمح وابن الصلت في كتاب الاقتصار)[1]، وقد حكى ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء عنه شيئاً كان يعتقد أنه من أفكار العصر الحديث، وهي فكرة رفع المراكب الغارقة من قعر البحار، فيذكر أن مركباً مملوءاً بالنحاس غرق بالقرب من الاسكندرية، فعزم ابن أبي الصلت على رفعه، فاجتمع بالأفضل أمير الجيوش وأطلعه على ما جال في خاطره، وطلب منه أن يهييء له ما أراد، فأحضر له الأفضل الآلات اللازمة، فوضعها في مركب كبير سار به حتى وازى المركب الغارق، ثم أمر غواصين كانوا معه ليغوصوا ويوثقوا ربط حبال من الابريسم (الحرير) المبروم – لأن الحبال القوية المصنوعة من الأسلاك المعدنية لم تكن معروفة – في المركب الغارق، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية لرفع الأثقال في المركب الذي هم فيه، وأمرهم بما يفعلونه في تلك الآلات، ولم يزل شأنهم ذلك، والحبال ترتفع إليهم أولاً بأول وتنطوي على دواليب بين أيديهم، حتى بان لهم المركب الذي كان قد غرق، وارتفع إلى قريب من سطح الماء. ثم عند ذلك انقطعت الحبال، وهبط راجعاً إلى قعر البحر، لقد تلطف ابن أبي الصلت فيما صنعه، وفي التحيل لرفع المركب، إلا أن القدر لم يساعده. وغضب عليه الأفضل لما غرقه من الآلات وأمر بحبسه، وبقي في سجنه إلى أن شفع فيه بعض الأعيان فأطلق سراحه وعاد إلى إفريقية[2]. وأما في الفقه والعلوم الدينية فقد اشتهر علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي، صاحب الآراء القيمة في التربية والذي كان واسع الرواية عالماً بالحديث فقيهاً مالكياً أصولياً متكلماً له تآليف كثيرة منها (كتاب الممهد) في الفقه، (والمنقذ من شبه التأويل)، (وكتاب المعلمين والمتعلمين)، (وكتاب رتب العلم وأحوال أهله) وغيرها، وقد مات بالقيروان في سنة ٤٠٣هـ[3]، ثم أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بابن البراذعي، وكان من كبارأصحاب ابن أبي زيد

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٧.

(٢) انظر ابن أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٠١ – ٥٠٢، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٢، ص١٩٥ – ١٩٦.

(٣) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٣، ص ١٣٤ وما بعدها.

وابن القابسي الآنف الذكر، ومن حفاظ المذهب المالكي والمؤلفين فيه، له كتاب (تمهيد مسائل المدونة)، (وكتاب الشرح والتمامات)، (واختصار الواضحة)[1]. ثم أبو علي الحسن بن خلدون البلوي، الذي كان ركناً من أركان أهل السنة مع فقه كثير وصدقة ومعروف وهمة عالية وإحسان إلى العلماء، وهو الذي تزعم الثورة ضد الشيعة في القيروان في مطلع عهد المعز بن باديس حيث آل أمره إلى أن اغتيل في مسجده سنة ٤٠٧هـ كما سبق ذكره[2]. وأبوالقاسم عبد الرحمن بن علي بن محمد الكناني المعروف بابن الكاتب وكان أحد الفقهاء المستنبطين والعلماء الراسخين وكانت له فتاوى مشهورة وتوفي سنة ٤٠٨هـ[3]. وأبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي[4]، وأبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني[5]، ومحرز بن خلف وغيرهم. وفي ميدان الأدب اشتهر في هذا العصر إبراهيم الحصري الضرير، والإمام محمد بن جعفر بن القزاز صاحب المعجم الكبير المسمى (الجامع في اللغة) وهو من أمهات كتب اللغة[6]، ومحمد بن عطية بن حيان الكاتب، وابن الربيب المعروف بالقاضي التاهرتي، وأبو الحسن علي بن رشيق (٣٨٥ - ٤٥٦هـ / ٩٩٥ - ١٠٦٣م) الذي كان شاعراً مجيداً، وناقداً أدبياً مبدعاً، وكاتباً بليغاً، خدم المعز بن باديس وكان من أركان دولته، وبعد محنة القيروان في ظل الهجرة الهلالية انتقل مع المعز إلى المهدية. وبعد وفاة المعز سنة ٤٥٣هـ خدم ابنه تميم، وآل به الأمر بعد ذلك أن هاجر إلى صقلية وأقام بها آخر أيام حياته، وتوفي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م[7]. وقد ترك ابن رشيق ثروة عظيمة من الكتب في مختلف فنون الأدب نذكر منها كتاب (قراضة الذهب في نقد أشعار العرب) وقد اعتنى فيه بالخصوص بسرقات الشعراء، وكتاب (الأنموذج)، وكتاب (الشذور)، ولكن أشهرها على الإطلاق هو كتاب (العمدة) ويقع في

---

(١) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٦ وما بعدها.
(٢) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق،ج٣، ص ١٥١ وما بعدها
(٣) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق،ج، ٣ص ١٥٥.
(٤) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق،ج٣، ص ١٥٧ وما بعدها.
(٥) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق،ج٣، ص ١٦٥ وما بعدها.
(٦) أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط: المرجع السابق، ص ٥٤.
(٧) أنظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط: المرجع السابق، ص ٩٧ وما بعدها.

جزأين بحث فيه كل القضايا المتعلقة بالأدب والنقد كمنزلة النثر والشعر والدفاع عن الشعروأثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء، وذكر مشاهير الشعراء، والتعريف بالشعر وأنواعه واختلاف المذاهب الجمالية فيه إلى غير ذلك(١)، ولعل خير من يبرز أهمية هذا الكتاب في ميدان النقد الأدبي هو ابن خلدون بقوله عنه : (وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله)(٢). ثم ابن شرف (٣٩٠هـ - ٤٦٠هـ / ٩٩٩ - ١٠٦٧م) الذي يعتبر أحد مفاخر أدباء إفريقية في ذلك العصر، تتلمذ ابن شرف لأساتذة كبار مثل ابن القابسي، وإبراهيم الحصري الضرير والإمام محمد بن جعفر ابن القزاز وغيرهم، وهو صنو ابن رشيق ومنافسه جمعهما بلاط المعز بن باديس، ولحق هو أيضاً بالمعز إلى المهدية حين خروجه إليها من القيروان إثر الهجرة الهلالية وبعد موت المعز هاجر إلى صقلية، ثم انتقل منها إلى الأندلس متنقلاً بين ملوك الطوائف مادحاً إياهم، حتى استقر به المقام أخيراً في بلاط ابن عباد بإشبيلية وبها كانت وفاته سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م(٣). أما مؤلفاته فكثيرة ولكن لم يصلنا منها إلا القليل، منها كتاب (أبكار الأفكار) ويتضمن إنتاجه الخاص من نثر ونظم وهو مفقود توجد منه شذرات متفرقة في كتب الأدب، وكتاب (أعلام الكلام) وكتاب (رسائل الانتقاد)(٤). وفي التاريخ برز أبو إسحق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني المتوفى بعد سنة ٤١٧هـ والذي يعتبر من أحسن من كتبوا في تاريخ إفريقية والمغرب حيث تناول في مؤلفه التاريخي المشهور (تاريخ إفريقية والمغرب) الحوادث التاريخية التي جرت في إفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامي، وعنه نقل العديد من المؤرخين الذين جاؤوا من بعده مثل ابن عذارى وابن خلدون وغيرهما. وفي ما ذكرنا يكفي لتوضيح ما وصلت إليه القيروان خاصة وإفريقية بصفة عامة من رقي وحضارة.

وظلت مسيرة هذه النهضة المباركة في تقدم مستمر حتى كانت الهجرة الهلالية إلى

---

(١) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق، ص ١٠١ وما بعدها.
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٣، انظر كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج٢، ص ١٠٩ - ١١٠.
(٣) انظر أبو القاسم محمد كرو، عبد الله شريط : المرجع السابق، ص ١٠٧ وما بعدها، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ١٨٤ .
(٤) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق، ص ١٠٩ .

إفريقية فأصيبت الحركة الحضارية فيها في ظل تلك الهجرة بنكسة قوية، فخربت القيروان ودرست معاهدها، وهجرها علماؤها، وغابت بذلك شمس هذا المركز الحضاري الذي يعتبر أحد مراكز الحضارة العربية الإسلامية الرئيسية، وتخلت عن دورها الحضاري القيادي في غرب العالم الإسلامي للمراكز الحضارية الأخرى كقرطبة في الأندلس وفاس في المغرب الأقصى وتلمسان في المغرب الأوسط وبلرم (بلرمو) في صقلية، أما في إفريقية فقد انتقل نشاط الحركة الحضارية فيها إلى المراكز الفرعية والتي كان أهمها المهدية وبجاية وطرابلس وتونس، فبانتقال المعز بن باديس إلى مدينة المهدية سنة ٤٤٩هـ وجعلها حاضرة لإمارته عادت إليها بعض أهميتها التي فقدتها منذ انتقال الفاطميين إلى مصر مع حفظ الفارق بين كونها حاضرة للدولة الفاطمية التي كانت تبسط نفوذها على القسم الأكبر من المغرب العربي بأسره، وكونها مقراً لإمارة صغيرة من ضمن دويلات إفريقية العديدة التي تمخضت عنها الهجرة الهلالية تكافح من أجل البقاء خصوماً عديدين، ومع ذلك فقد شهدت المهدية في عهد تميم بن المعز وخلفائه نشاطاً حضارياً ملحوظاً عززه العلماء الصقليون الذي غادروا بلادهم فراراً من النورمان كما سبق ذكره، ولكنه ظل نشاطاً محدوداً إذا ما قورن بنشاط مركز القيروان السالف، وجاء الاحتلال النورماني بعد ذلك ليضع حداً له، ولم يعد إليها تحريرها من هذا الاحتلال سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أهميتها الحضارية إذ انتقل مركز الثقل في إفريقية في العهدين الموحدي والحفصي إلى تونس وأصبحت هي مقراً لولاية من ولاياتها فحسب، وأما بجاية فمنذ أن أصبحت حاضرة الدولة الحمادية شهدت نشاطاً حضارياً متواصلاً عززه التنافس الذي كان محتدماً بين الحماديين وبني عمهم الزيريين ورغبة أمراء هذه الدولة في مجاراة بني عمهم في الترف والبذخ وتشجيع الحركة العلمية، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تخلف القيروان فظلت مركزاً حضارياً فرعياً في إفريقية سواء في العهد الحمادي أو ما بعده، وأما طرابلس فإن كونها لم تصبح مقراً لدولة كبيرة أو إمارة قوية منذ الفتح وحتى انقضاء العصر الحفصي فإن ذلك كان سبباً قوياً في أن دورها كمركز حضاري بقي محدوداً إذا ما قورن بدور القيروان الآنف الذكر أو تونس فيما بعد، وأما تونس فإن الحركة العلمية بدأت فيها منذ مطلع عصرها الإسلامي، وكان من أعلام هذه الحركة في ذلك العهد المبكر عباس بن الوليد الفارسي الذي كان من كبار المحدثين، سمع من سفيان بن

عيينة، والفضيل بن عياض، وقتل لما دخلت تونس في ثورة منصور الطنبذي سنة ٢١٨هـ[١]. وعلي بن زياد العبسي التونسي، الذي أخذ عن نخبة من أوائل علماء القيروان من أشهرهم خالد بن أبي عمران، ثم رحل إلى المشرق فسمع من الإمام مالك، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، وابن لهيعة وغيرهم، وأخذ الموطأ عن الإمام مالك، وهو أول من أدخله هو وجامع سفيان إلى إفريقية والمغرب، وكان من أول من صنفوا المؤلفات، إذ ألف كتابه المسمى (كتاب خير من زنته)، ويذكر القاضي عياض أن أهل العلم بالقيروان كانوا إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إليه (ليعلمهم بالصواب فيها)[٢]، ومن مشاهير من أخذوا عنه البهلول بن راشد، والإمام سحنون، وأسد بن الفرات وشجرة، وكانت وفاته سنة ١٨٣هـ[٣]. ثم عبد الرحيم بن أشرس، سمع من الإمام مالك ومن تلميذه ابن القاسم، وعبد الله العمري وغيرهم، كان من أحفظ أهل إفريقية للرواية وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب علم وفقه واسع، ومن أشهر من أخذوا عنه ابن وهب، وسعيد بن تليد، ومهدي بن جعفر، والإمام سحنون، ثم عمران بن هارون بمصر[٤]. وواصلت هذه الحركة – التي كان جامع الزيتونة مركزها الرئيسي – نشاطها بثبات حتى أصبحت تونس مركزاً حضارياً في إفريقية يلي مركز القيروان في الأهمية، وعند محنة القيروان أصبح هذا المركز يقف على قدم المساواة مع المهدية وبجاية. وفي العصر الموحدي برزت أهمية تونس كمركز حضاري بشكل أوضح حينما أصبحت مقر ولاة الموحدين، ولكنها بلغت أوج مجدها الحضاري في العصر الحفصي خصوصاً في عهد أبي زكريا الأول وابنه المستنصر، وتدعم هذا المركز بما وفد إليه في تلك الآونة من الأندلسيين الفارين من ضغط النصارى الإسبان وهو ما عرف بالهجرة الأندلسية إلى إفريقية، وتفاعلت العناصر الوافدة مع أهل البلد مما كان له أثر فعال على الحركة الحضارية في تونس حتى أصبحت هذه المدينة في عهد هذين العاهلين الحاضرة الأولى في غرب العالم الإسلامي، وبذلك أصبحت خير خلف

(١) انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٥، القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٦٢ و١٤٢ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٢٣ .

(٣) القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٢١ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٢٦ – ٢٧ .

للقيروان، ومع أن القرن التالي على وفاة المستنصر كان عهد فوضى واضطراب سياسي كما سبق أن بيناه، الأمر الذي شكل عائقاً قوياً لمسيرة الحركة الحضارية لا في تونس وحدها وإنما في إفريقية بوجه عام، إلا أن إفريقية أنجبت في ذلك القرن نخبة من العلماء ممن يعدون من مفاخر الحضارة الإسلامية مثل ابن خلدون، وابن عرفة فقيه المغرب الإسلامي المشهور وإمام المالكية في عصره، وابن منظور صاحب معجم (لسان العرب) الذي يعتبر أكبر موسوعة في مادة اللغة العربية، وغيرهم.

وتبعاً لما تقدم، فلا عجب أن تكون القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية في غرب العالم الإسلامي، إذ منذ بدء نشاط الحركة العلمية فيها في عهد مبكر من تأسيسها كما سبق ذكره، أصبحت محط رحال طلاب العلم في المغرب الإسلامي، ساعد على ذلك أن هذا العلم كان آنذاك ديني الصبغة، فكان هؤلاء يفدون إليها للتفقه في دينهم وزيادة معرفتهم به على ذلك الرعيل الأول من التابعين وتابعيهم رضي الله عنهم الذين استقروا بها ثم عن تلاميذهم من بعدهم كما سبق أن ذكرنا، وكان في ذلك فقه وتاريخ ولغة وقراءات وحديث، ومن هؤلاء من كان يكتفي بما حصل عليه فيها من علوم، ومنهم من كان يستأنف رحلته إلى المشرق ثم يعود إليها ثانية في طريقه إلى بلاده، الأمر الذي جعلها تسهم بنصيب وافر في نشر الثقافة الإسلامية في تلك النواحي، وبالتالي يكون لها دور كبير في تأسيس المراكز الحضارية الأخرى كقرطبة وفاس وبلرم، وكلما ازداد نشاط الحركة العلمية في القيروان كان ذلك حافزاً أقوى لهؤلاء الطلاب للرحيل إليها، فكان تنوع العلوم فيها منذ بداية عهد الأغالبة سبباً هاماً في اجتذاب المتشوقين لمعرفة العلوم الجديدة فضلاً عن الدينية وما إليها واستنساخ كتبها ومن ثم العودة إلى بلادهم لبث ما لقنوه من علوم وحصلوا عليه من كتب في نواحيها، وظل الأمر كذلك حتى إلى ما بعد ظهور قرطبة وفاس وبلرم كمراكز رئيسية للحضارة العربية الإسلامية، بل إن هذا الاتصال الحضاري المستمر لكل من الأندلس وصقلية بالقيروان كان سبباً هاماً في نضوج الحضارة العربية الإسلامية في كلا القطرين وهو ما سنتعرض له فيما يلي.

أثر إفريقية في معبري الأندلس وصقلية :

رأينا أن الحركة الصليبية دخلت في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) طورها النشط والذي غطى فترة تاريخية امتدت من ذلك الوقت حتى نهاية العصور الوسطى، وإذا كانت تلك الحركة قد أخفقت في ذلك الطور في تحقيق الكثير من أهدافها، إلا أنها أحرزت مكسباً في غاية الأهمية كان له انعكاس قوي على الحياة البشرية بوجه عام هو إتاحة الفرصة للأوروبيين للنهل من مناهل الحضارة العربية الإسلامية في شتى ميادين صراع تلك الحركة مع المسلمين. فقد كان من حسن حظ هؤلاء الأوروبيين أن هذه الحضارة كانت قبيل بداية ذلك الصراع قد نضجت وبلغت ذروة ازدهارها واستعدت لعطائها السخي، في وقت كانت فيه أوروبا تعاني من آثار التخلف الحضاري. وفي عصر الحروب الصليبية بالذات أخذ الغرب الأوروبي يتطلع إلى آفاق حضارية جديدة بعد أن ضاق ذرعاً بتزمت الكنيسة الغربية، فكان أن أدى احتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الأندلس وصقلية والشرق الأدنى وإفريقية إلى وقوفهم على معالم حضارة جديدة أسمى مستوى وأوسع أفقاً وأكثر انفتاحاً على مشاكل الحياة ومتطلباتها، الأمر الذي جعلهم يقبلون في شغف ونَهَم على الإفادة من حضارة المسلمين. وكانت نتيجة هذا الاتصال الحضاري أن تعرض غرب أوروبا لطفرة حضارية شاملة نقلته من ظلمة العصور الوسطى إلى فجر عصر جديد هو عصر النهضة الأوروبية الحديثة، وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين المغرضين يحاولون في كتاباتهم إخفاء الدور الهام لهذا الاتصال الحضاري أو التقليل من أهميته، فإن هنالك بعضاً آخر من منصفيهم لا يقرهم على ذلك بل يعترف بأهمية هذا الدور ويشيد به، ومن هؤلاء وعلى سبيل المثال لا الحصر المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون الذي يقول : (إذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية المطرد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ من تحاك الصليبيين والشرقيين من النمو في الفنون والصناعة تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس الى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تعول عليها فينبثق عصر النهضة منها ذات يوم)[1]، ويؤكد المؤرخ الإنجليزي هرنشو هذه الحقيقة بقوله : (فكما

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٣٣٩ .

أن بلعام خرج يدعو على بني إسرائيل فإذا به يدعو لهم، فكذلك الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا «الكفار» الذين ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما)[1]. ويقول بارثلمي سانت هيلير : (لقد هذبت طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة في العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب وتقليدهم لهم، فتعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، وإنني أشك في أن النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتي مثل هذا التأثير مهما يبالغ في إكرامها)[2]. أما الباحث بريفولت فيقول : (ليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده (فرانسيس بيكون) الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، إذ لم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة)[3].

وإذا كان العرف قد جرى بين معظم المؤرخين على التركيز على ثلاثة معابر سلكتها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا هي الأندلس وصقلية وبلاد الشام، فإن هنالك في رأينا معبراً رابعاً أسهم في عملية انتقال هذه الحضارة إلى الغرب الأوروبي له أهميته، هو إفريقية، ومن الواضح أن هذا المعبر لم يلق العناية الكافية من المؤرخين، ولعل ذلك كان هو السر في أن المصادر والمراجع التاريخية المتيسرة لا تسعف الباحث بالمعلومات الكافية لإبراز أهمية هذا المعبر بوضوح من ناحية، ولصعوبة تتبع مسيرة الحضارة الإسلامية عبر كل معبر من هذه المعابر على حدة نظراً لأن اتصال الأوروبيين بالمسلمين تم عن طريق هذه المعابر في آن واحد، يضاف إلى ذلك أن سمة بارزة اتصفت بها الحضارة الإسلامية في جوانبها الفكرية والاجتماعيةوالاقتصادية، وغيرها، هي صفة التجانس بسبب تأثير الدين من جهة ووحدة اللغة من ناحية أخرى، فأسلوب المسلمين في حياتهم الاجتماعية أسلوب واحد في المشرق

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ص ٥٠ .

(٢) Barhelmy Saint Hilaire : Mohomet et le Coran.

(٣) Briffault : Making of Humanity, p. 201-202.

والمغرب وهو أسلوب يستظل بآداب الإسلام وأحكامه، ونظرة المسلمين إلى مشاكل الحياة وطرق علاجهم لها واحدة. وهكذا فإننا عندما ننظر إلى أثر الحضارة الإسلامية في الغرب الأوروبي يصعب في كثير من الحالات تمييز المؤثرات الإسلامية الوافدة من المشرق من تلك الوافدة من بلاد المغرب.

ومع هذه الصعوبات فإننا نستطيع بشيء من المثابرة تتبع العديد من المؤثرات الحضارية الإسلامية التي انتقلت من إفريقية إلى بلاد الغرب الأوروبي، ذلك أن أهمية إفريقية كمعبر حضاري تكمن في ناحيتين رئيسيتين أولاهما أنها كانت معبراً حضارياً غير مباشر في بعض الجوانب، وثانيهما أنها كانت معبراً مباشراً في جوانب أخرى. أما كونها معبراً حضارياً غير مباشر، فإن ذلك قد تأتى من أنها كانت الشريان الأساسي الذي ربط المغرب الإسلامي بقلب بلاد الإسلام في المشرق، وأنها كانت الطريق الرئيسي الذي سلكه المسلمون وحضارتهم إلى المغرب والأندلس من ناحية وإلى صقلية من ناحية أخرى، لذلك فإن أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية في كل من الأندلس وصقلية وهما اللذين كانا أهم معبرين سلكتهما هذه الحضارة إلى أوروبا فيما بعد، قد دخلت إليهما من إفريقية، ففي البدء انطلقت منها جيوش الفتح، وكان معظم الذين استقروا فيهما بعد هذا الفتح من مسلميها، فكان هؤلاء أشبه بالأنفحة أو البذرة الأولى للحضارة المذكورة في تلك الربوع، يضاف إلى ذلك أن الهجرة من إفريقية إلى هذين القطرين لم تقتصر على موجة الفتح، وإنما ظلت مستمرة سواء هجرة فردية أو جماعات لأسباب مختلفة الأمر الذي كان وفود كل مجموعة يحقنهما بدم جديد. لقد حمل هؤلاء دينهم إلى تلك البلاد وامتزجوا بأهلها الأصليين وانصهر الجميع في بوتقة في ظل الفكر الإسلامي فهيؤوا بذلك التربة التي نبتت فيها تلك الحضارة فيما بعد، وانقضى جيل الفتح، وجاء جيل جديد فيهما سواء من أبناء الفاتحين أو المولدين أو من الذين اعتنقوا الإسلام، فأخذ هذا الجيل يتشوق إلى زيادة معرفته بهذا الدين لما في ذلك من صلاح في دنياه وآخرته، فوجد أن القيروان هي المركز الأقرب إلى موطنه الذي يلبي حاجته، فأهلها هم الذين حملوا قسطاً كبيراً من علم الصحابة الذين دخلو إفريقية إبان الفتح، وفيها استقر العديد من التابعين الأجلاء وتابعيهم رضي الله عنهم أجمعين والذين أخذ عنهم نظراؤهم من القيروانيين الراغبين في العلم طبقة بعد أخرى،

فقصدوها ليقبسوا من هذا العلم الذي كان مشعله يزهر فيها، ومن هؤلاء من كان يكتفي بما تحصل عليه من العلم فيها، ومنهم من كانت تمكنه ظروفه بعد ذلك من مواصلة رحلته إلى المشرق للأخذ عن شيوخه في مصر والمدينة ومكة والعراق وبلاد الشام وربما أوغل بعضهم في رحلته شرقاً إلى فارس وبلاد ما وراء النهر ليعودوا بعد ذلك إلى بلادهم ليبثوا ما لقنوه من علوم في نواحيها. وكانت القيروان مركزاً هاماً لكلا الفريقين سواء من اكتفى بها أو من رغب في الاستزادة إذ كانت محطة في طريقه في الذهاب والإياب يحرص على التزود منها بأكبر قسط من العلم تتيحه له طاقاته، لذلك فلا عجب أن تتبوأ القيروان مكانة هامة في عملية انتقال العلوم - لا سيما وأنها كانت في البداية دينية - بل ومؤثرات الحضارة الإسلامية بشكل عام إلى هذين القطرين.

فبالنسبة للأندلس، فبعد انقضاء عهد طبقة التابعين الذين شاركوا في أعمال فتح تلك البلاد والتي كان من أشهرها رويفع بن ثابت الأنصاري، وعلي بن رباح[1]، وحنش بن عبد الله الصنعاني رضي الله عنهم، جاءت الطبقة الثانية والتي من أشهرها عبد الملك بن حبيب السلمي[2]، ويحيى بن يحيى الليثي[3]، وعيسى بن دينار[4] فكانوا ممن رحلوا في طلب

(١) تابعي بصري، كان له مكانة عند عبد العزيز بن مروان كما سبق ذكره، صحب موسى بن نصير أثناء فتح الأندلس.

(٢) روى عن صعصعة بن سلام والغازي بن قيس وزياد بن عبد الرحمن وفي رحلته سمع من عبد الملك ابن الماجشون ومطرف بن عبد الله وإبراهيم بن المنذر الجذامي وأصبغ بن الفرج وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير، كان مشاوراً في الأندلس حافظاً لمذهب مالك له مؤلفات كثيرة في الفقه والتواريخ والآداب منها (الواضحة) التي سبق أن أشرنا إليها، والجوامع، وكتاب فضل الصحابة، وكتاب غريب الحديث وكتاب تفسير الموطأ وكان يقال له عالم الأندلس.
(انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ص ٢٦٩ وما بعدها).

(٣) روى عن زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن مضر ورحل إلى المشرق فسمع من الإمام مالك، وسفيان ابن عيينة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وابن القاسم، وأنس بن عياض وعاد إلى الأندلس وتوفي سنة ٢٣٤هـ.
(انظر ترجمته في ابن الفرضي : المصدر السابق : ص ١٧٩ وما بعدها).

(٤) روى عن ابن القاسم وغيره وعاد إلى الأندلس، كان عالماً متفنناً مشاوراً كان يقال عنه إنه فقيه الأندلس، توفي بطليطلة سنة ٢١٢هـ.
(انظر ترجمته في ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٣٣١).

العلم إلى المشرق وفي رحلاتهم توقفوا في القيروان وسمعوا من بعض أعلام العلم فيها، ومنهم من استوطنها، بعد تفقهه فيها مثل إبراهيم بن زرعة شيخ الإمام سحنون والذي توفي فيها سنة ٢١٢هـ[١]، كان هؤلاء هم طلاب العلم الأولين في الأندلس، وبجهودهم بدأت الحركة العلمية فيها بالظهور، صحيح أن المشرق كان يشد انتباه هذه الطبقة لوجود العديد من التابعين كانوا لا يزالون على قيد الحياة فيه، ولكن الصحيح أيضاً أن القيروان كانت المركز الوحيد في غرب العالم الإسلامي آنذاك - إذ لم تكن المراكز الأخرى قد ظهرت بعد - في حين أنه كان في المشرق مراكز عديدة، وعلى ذلك لو قورن بين القيروان وأي من هذه المراكز بالنسبة لأثره في الحركة العلمية الإسلامية في الغرب لرجحت كفة القيروان على العديد منها.

وتزامن ظهور الطبقة الثانية في الأندلس مع بداية العصر الأغلبي الذي شهدت فيه الحركة العلمية في القيروان نشاطاً كبيراً، ولذلك نجد أن كثيراً من أعلام هذه الطبقة التي قدمت العلم خطوة جديدة، أخذوا عن علماء القيروان بنسبة أكبر، ومن مشاهير هذه الطبقة، بقي بن مخلد، الذي سمع بالأندلس من محمد بن عيسى الأعشى، ويحيى بن يحيى الليثي، ثم رحل في طلب العلم فسمع في القيروان من الإمام سحنون، وعون بن يوسف وغيرهما، وسمع في المشرق من جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين منهم : إبراهيم بن محمد الشافعي صاحب سفيان بن عيينة، وأبو المصعب الزهري، وإبراهيم بن المنذر الجذامي، ويحيى بن عبد الله بن بكير صاحب الإمام مالك، والإمام أحمد بن محمد ابن حنبل، وأبو ثور صاحب الإمام الشافعي وغيرهم وعاد إلى الأندلس فملأها حديثاً ورواية، وقد انفرد بإدخاله إلى الأندلس مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وكتاب الفقه للإمام الشافعي، وتاريخ خليفة بن خياط وغيرها وتوفي سنة ٢٧٦هـ، ومن أشهر من أخذوا عنه في الأندلس أسلم بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة[٢]، ومن مشاهير هذه الطبقة أيضاً إبراهيم بن يزيد بن قلزم، وقد أخذ عن الإمام سحنون أيضاً بالقيروان، وكانت وفاته

---

(١) انظر ترجمته في ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٨، الضبي : المصدرالسابق ص ٢٠٤ .
(٢) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٩١ وما بعدها.

بالأندلس سنة ٢٦٨[(١)]، ثم إبراهيم بن قاسم بن هلال القيسي، وكان محدثاً مشهوراً مذكوراً بالخير والصلاح وسعة العلم وقد سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى الليثي، وبالقيروان من الإمام سحنون وغيره وعاد إلى الأندلس ومات بها سنة ٢٨٢هـ، ومن أشهر من أخذ عنه ابن اخته يحيى ابن زكريا بن الشامة[(٢)]، ثم قاسم بن أصبغ بن محمد ويعرف بالبياني وهو قرطبي سمع بقرطبة من بقي بن مخلد، وأبي عبد الله الخشني، ومحمد بن وضاح وغيرهم، وفي القيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد الذي سبق ذكره، وساح بمصر والعراق والحجاز وسمع من نخبة من علمائها ثم عاد إلى الأندلس وقد ملأ وطابه علماً أخذ يبثه بين مواطنيه، فكان بصيراً بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب والشعر، وكان يشاور في الأحكام، ألف كتاباً طويلاً ثم اختصره وسماه (المجتنى) قدمه للحكم المستنصر وفيه من الحديث المسند ألفين وأربعمائة وتسعين حديثاً في سبعة أجزاء، فهو كذلك أكثر من الحديث، وصنفه على أبواب الفقه، وكان له الفضل في نظر العلم في الأندلس على هذه الطريقة، وله مصنف آخر جليل القدر احتوى على بيان صحيح الحديث وغريبه، كما ألف في أحكام القرآن، وفي فضائل قريش، وفي الناسخ والمنسوخ، وقد سمع منه الكثير من الأندلسيين منهم الخليفة الناصر الأموي قبل ولايته وابنه الحكم المستنصر وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، وألحق الصغار الكبار في الأخذ، وتوفي سنة ٣٤٠هـ عن سنة بلغت ٩٢ عاماً[(٣)]. ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد العتبي الذي كان من أشهر علماء هذه الطبقة، سمع من يحيى بن يحيي الليثي، وسعيد بن حسان وغيرهما في الأندلس، ثم رحل فسمع من الإمام سحنون وأصبغ بن الفرج وغيرهما في القيروان، وعاد إلى الأندلس، وكان حافظاً للمسائل جامعاً لها، عالماً بالنوازل، وهو الذي جمع المستخرجة وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة وهي التي سميت (العتبية) والتي تعتبر من أمهات المصنفات الفقهية في الفقه المالكي، وقد انتشرت في الأندلس انتشاراً كبيراً وتناولها العلماء بالدراسة والشرح والنقد في زمنه وبعد

---

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٢) انظر الضبي : المصدر السابق : ص ٢٠٩ .

(٣) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٣٦٥ وما بعدها، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص٥٠ – ٥١ .

وفاته، فكانت هي والواضحة ذات أثر كبير على الحركة العلمية في الأندلس كما قال ابن خلدون في النص الذي سبق أن أوردناه، وتوفي العتبي سنة ٢٥٥هـ وقيل ٢٥٤[١].

ومنهم محمد بن وضاح بن بزيع مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي (عبد الرحمن الداخل)، من أهل قرطبة، روى بالأندلس عن محمد بن عيسى الأعشى، ومحمد ابن خالد الأشج، ويحيى بن يحيى الليثي، وسعيد بن حسان، وعبد الملك بن حبيب وغيرهم، ورحل إلى المشرق رحلتين أولاهما في سنة ٢١٨هـ لقي فيها سعيد بن منصور وسمع منه، كما سمع من آدم بن أبي أياس العسقلاني، ويحيى بن معين، والإمام أحمد بن حنبل، وإبراهيم بن حسان الطرابلسي وغيرهم، ولكن رحلته الثانية كانت هي الأهم بالنسبة لحياته العلمية فقد سمع فيها من عدد كبير من العلماء، ففي إفريقية أخذ عن الإمام سحنون، وعون بن يوسف، وسعيد بن عبدوس، كما سمع من نظرائهم في مصر والحجاز والعراق والشام، فكان مجموع من أخذ عنهم في هذه الرحلة (٧٥) عالماً من الرواة المكثرين والأئمة المشهورين، وعاد إلى الأندلس فحدث بها مدة طويلة، ونشر بها علماً جليلاً فقد كان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه متكلماً على علله، كثير الحكاية عن العباد، ورعاً زاهداً فقيراً متعففاً صابراً على الإسماع، محتسباً في نشر علمه، فبه وببقي بن مخلد صارت الأندلس دار حديث على حد تعبير ابن الفرضي، وقد سمع الناس منه كثيراً، وروى عنه بالأندلس من أهلها جماعة رفعاء مشهورون مثل وهب بن مسرة وابن أبي دليم، وقاسم بن أصبغ، وأحمد ابن خالد بن يزيد، ومحمد بن المسور، وعلي بن عبد القادر بن أبي شيبة وأحمد بن زياد بن شبطون وغيرهم، وتوفي سنة ٢٨٦هـ وقيل سنة ٢٨٧هـ[٢].

ولا يسعنا بطبيعة الحال الاسترسال في ذكر علماء هذه الطبقة الذين أخذوا عن علماء القيروان لأن ذلك يخرجنا عن موضوع هذه الدراسة، وحسبنا ما أوردناه للدلالة على أثر القيروان الهام في نشاط الحركة العلمية في الأندلس، ويكفي أن أقول إنني بنظرة سريعة أحصيت عدد من أخذوا عن الإمام سحنون وحده من الأندلسيين، فوجدته ما يزيد عن

---

(١) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق : ص ٦ – ٧ .

(٢) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١٦ وما بعدها، الضبي : المصدر السابق : ص ١٢٣ – ١٢٤ .

السبعين من علماء هذه الطبقة، ولا شك أن المدقق في كتب التراجم والطبقات سيجد أن عددهم يفوق ذلك بكثير، ففي مدينة البيرة وحدها وجد سبعة من تلاميذ الإمام سحنون في آن واحد هم إبراهيم بن خلاد اللخمي، وإبراهيم بن خالد الأموي، وعمر بن موسى الكناني، وسعيد بن النمر الغافقي، وإبراهيم بن شعيب، وسليمان بن نصر، وأحمد بن سليمان بن أبي الربيع(١)، فما بالك بأمهات المدن الأندلسية كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة وغيرها(٢)؟ وجاءت بعد ذلك طبقة أخرى أخذت عن تلاميذ الإمام سحنون ونظرائه، فممن أخذ عن أبي الحسن علي بن القابسي : محمد بن قاسم بن محمد الجالطي كما أخذ أيضاً عن ابن أبي زيد القيرواني(٣)، وحاتم بن محمد الأطرابلسي، وإبراهيم بن قاسم الأطرابلسي(٤) ووليد بن سعيد بن وهب الحضرمي(٥)، وممن أخذ عن ابن أبي زيد القيرواني الآنف الذكر : محمد بن مطرف(٦)، وأحمد بن محمد بن سعدي(٧)، وأحمد بن فتح بن عبد الله التاجر(٨)، وحماد بن عمار الزاهد(٩)، وخلف بن أحمد بن خلف الرحوي(١٠)، والقاضي أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي، الذي تخصص في تراجم علماء الأندلس وهو من مشاهير المحدثين والمؤرخين، ولد في قرطبة سنة ٣٥١هـ ودرس الفقه والحديث والتاريخ فيها، ثم خرج من الأندلس للحج وطلب العلم

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٢) نذكر من مشاهير هؤلاء العلماء : إبراهيم بن زيان، أبو بشر عبد الله بن حمادة، عبد الملك بن أيمن ابن فرجون، عبد المجيد بن عنان البلوي، عميرة بن عبد الرحمن بن مروان العتقي، مطرف بن إبراهيم بن قيس، أحمد بن الوليد بن عبد الخالق قاضي طليطلة، إبراهيم بن محمد المعروف بابن القزاز، وغيرهم.

(٣) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١١٤ .

(٤) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٥) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ٤٦٧ .

(٦) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١١٩ .

(٧) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٨) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١٨٦ – ١٨٧ .

(٩) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ٢٦١ .

(١٠) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ٢٦٧، انظر أيضاً ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٤١٥ .

فطوف ببلاد كثيرة منها القيروان والقاهرة ومكة والمدينة، وفي القيروان لقي ابن أبي زيد القيرواني وسمع منه كثيراً، كما أخذ عن أبي الحسن علي بن محمد بن القابسي وغيرهما، ولما عاد إلى الأندلس درس بها مدة طويلة، وولي قضاء بلنسية، وكانت وفاته سنة ٤٠٣هـ حيث قتل بداره أيام ثورة البربر، وقد اشتهر بعلمه في فن الحديث، وعلم الرجال والأدب، واطلع على كتب كثيرة في رحلاته، ومن أشهر مؤلفاته كتابه المشهور (تاريخ علماء الأندلس) الذي نشر ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية والذي أفدنا منه في هذه الدراسة، وهو الكتاب الذي أكمله ابن بشكوال فيما بعد بكتابه المسمى (الصلة) الذي نشر أيضاً ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية، وأفاد منه أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي في كتابه (بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس) الذي كان من بين المصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، ولابن الفرضي كتاب آخر كبير في (المؤتلف والمختلف) وسواه[١]. ولم يقتصر العلماء القيروانيون الذي أثروا في العلماء الأندلسيين من هذه الطبقة على ابن أبي زيد، وابن القابسي، وإنما كان هنالك العديد سواهم نذكر منهم محمد بن الإمام سحنون الذي أخذ عنه الكثير من هؤلاء مثل عبد الله بن محمد بن أبي الوليد، وهو من العلماء الأجلاء ومات بالأندلس في حدود سنة ٣١٠هـ[٢]. ومنهم أحمد بن ملول صاحب الإمام سحنون الذي كان من أشهر من أخذوا عنه سعيد بن عثمان التجيبي المعروف بالأعناقي أو العناقي أحد شيوخ ابن حزم، وقد توفي سنة ٣٠٥[٣]، ومنهم أيضاً بكر بن حماد الذي سبق أن تعرضنا لذكره، ثم أبو عمران الفاسي، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن مناس، وأبو محمد بن قاسم القرشي، وأبو إسحق إبراهيم بن قاسم بن يونس المعافري، وحماس بن مروان بن حماس قاضي القيروان، ومحمد بن محمد بن اللباد وغيرهم. كل هؤلاء كانوا من شيوخ هذه الطبقة الأندلسية، ونختتم هذه الطبقة الأندلسية بعالمين من أجل علمائها هما أبو حفص عمر بن بريق الأندلسي الذي رحل إلى القيروان ولازم ابن الجزار شيخ أطباء

---

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٣٢١ – ٣٢٢، انظر أيضاً أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٢) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٣١٧ .

(٣) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١٦٤، الضبي : المصدر السابق ص ٢٩٥ .

إفريقية وأخذ عنه وعاد إلى الأندلس بعلم غزير في الطب وأصبح من أشهر أطبائها وخدم عدداً من أمراء الأمويين خاصة عبد الرحمن الناصر الذي استخلصه لنفسه، وابن بريق هو الذي أدخل كتب أستاذه إلى الأندلس حيث تلقاها عنه العديد من الأندلسيين المختصين بالطب ما بين مسلمين ونصارى ويهود كان منهم سليمان بن جلجل صاحب كتاب طبقات الأطباء، وراجت كتب ابن الجزار بين أطباء الأندلس وترجمت إلى اللاتينية والعبرية(١). ثم أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر أول طبيب في أسرة بني زهر الأندلسية التي اشتهرت بالطب، فقد رحل من الأندلس إلى القيروان طلباً للعلم ثم رحل إلى مصر ومنها عاد إلى الأندلس، وشهر فيها كطبيب، واتصل بمجاهد العامري فعينه طبيباً خاصاً له، وعنه أخذ ابن أبو العلاء الذي رويت له عجائب في تشخيص الأمراض(٢).

لقد قامت الحركة العلمية بل والحضارة العربية الإسلامية في الأندلس على أكتاف هؤلاء وأمثالهم من رجالات هذه الطبقات وعلى أكتاف تلاميذهم. والكل منهم قد تأثر بالحركة العلمية في القيروان إما تأثراً مباشراً بالأخذ عن علمائها مباشرة أو غير مباشر بالتلمذة على من رحلوا إليها، فعالم مثل يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الذي كان فقيهاً حافظاً مكثراً عالماً بالقراءات وبالخلاف في الفقه وبعلوم الحديث والرجال والذي يعتبر من أجل علماء الأندلس وأكثرهم أثراً في الحركة العلمية فيها، لم يخرج من الأندلس، وإنما أخذ عن علماء قرطبة ومن الوافدين إليها، فقد أخذ عن جماعة تلاميذ قاسم ابن أصبغ البياني وغيره، ومن أشهر شيوخه عبد الوارث بن سفيان تلميذ قاسم بن أصبغ، ثم ابن الفرضي وهما ممن رحل إلى القيروان وأخذا عن علمائها كما أسلفنا القول. وقد كان ابن عبد البر المذكور من أكثر علماء الأندلس تصنيفاً، ومن هذه المصنفات نذكر (كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) في عشرة أسفار، والذي قرضه ابن حزم بقوله لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه. ومنها (كتاب في الصحابة والتعريف بهم وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم) على حروف المعجم في ٤ مجلدات، وقد تجاوزت شهرته المغرب إلى المشرق فكان علماء المشارقة يستحسنونه

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣، ص ٣١٨ .
(٢) انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥١٧، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٢٤١ .

ويقدمونه على ما ألف في بابه، ومنها (كتاب جامع بيان العلم) في مجلدين، وكتاب (الدرر في اختصار المغازي والسير) في سفر واحد، وكتاب (الشواهد في إثبات خبر الواحد)، وكتاب (أئمة الأمصار) في سبعة أجزاء، وكتاب في التجويد والقراءات، وكتاب (الكافي في الفقه) وغيرها[1]، كل هذا الإنتاج الغزير إنما يدل دلالة واضحة على مدى سعة الثقافة التي تحصل عليها من شيوخه والذين بدورهم كانوا قد اكتسبوا قدراً كبيراً منها من شيوخهم القيروانيين. ومثل ابن عبد البر الكثير الذين لا تسع هذه العجالة لذكرهم.

ولم يقتصر أثر علماء القيروان على الحركة العلمية في الأندلس على ما تقدم ذكره أي على الذين رحلوا إليها أو على من أخذوا عن الذين رحلوا إليها فحسب، بل يضاف إلى ذلك طريق ثالث لاتقل أهميته وأثره على تلك الحركة عن هذين الطريقين، وأعني بذلك هجرة العديد من علماء إفريقية إلى الأندلس نتيجة لعوامل عديدة أهمها الحوادث السياسية التي شهدتها إفريقية في القرون الخمسة الأولى للهجرة. ذلك أن عهد الاضطراب السياسي الذي أظلها بل وأظل المغرب الإسلامي بصفة عامة منذ أوائل القرن الثاني للهجرة نتيجة للممارسات الخاطئة لبعض ولاتها الأمويين مما أدى إلى نجاح دعاة الفرق والأحزاب المناوئة للدولة الأموية في اجتذاب أعداد غفيرة من البربر لدعواتهم الأمر الذي أدى بدوره إلى كثير من المشاكل والفتن، ثم ما أعقب ذلك من سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس التي أخفقت في إعادة الهدوء والاستقرار إلى كامل ربوع المغرب العربي فضلاً عن انفصال الأندلس عنه، هذا العهد الذي امتد في إفريقية حتى قيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ، كل ذلك جعل العديد من العلماء يغادرون إفريقية إلى الأندلس التي بدأ يسود فيها الاستقرار منذ قيام الدولة الأموية فيها، فكان لهذه الهجرة أثرها بلا شك في تلك الحركة في نواحيها، وتظهر هذه الهجرة بشكل أكثر وضوحاً إثر سقوط دولة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية في إفريقية، إذ أن كثيراً من علماء القيروان خاصة وإفريقية عامة هاجروا وقتئذ بكتبهم وعلومهم إلى الأندلس وصقلية إما كراهية منهم للفاطميين ودعوتهم الشيعية وخوفاً من بطشهم، أو تحت تأثير الإغراءات التي قدمها لهم الأمراء الأمويون، وكان أن استقر هؤلاء العلماء في

---

(١) انظر الضبي: المصدر السابق ص ٤٧٤ وما بعدها.

مدن الأندلس يبثون فيها علومهم وما حذقوه من صناعات وفنون، ومن بين هؤلاء نذكر إسماعيل بن يوسف الطلاء الذي سبق أن ذكرناه، الذي منذ سقوط الأغالبة ابتعد عن بلاط الحكام الجدد وأقام في القيروان يتكسب بصناعة مستحضرات التجميل، ولكن الفاطميين لم يتركوه وشأنه نظراً لعلاقته السابقة بالأغالبة فسرعان ما اتهمه صاحب السكة الفاطمي بصنع دنانير ودراهم مزيفة، وهي أكثر تهمة يمكن أن تلصق به قابلة للتصديق نظراً لبراعته في الكيمياء، فلم يجد بداً من الهرب من إفريقية فراراً من العقاب الذي ينتظره، فلجأ إلى الأندلس في عهد الخليفة الناصر الأموي، وغير معروف على وجه التحديد فيما إذا كان قد خدم خلفاء بني أمية كسائر المهاجرين من رجال الأغالبة ومواليهم أم أنه أقام يعمل في تحضير المواد الكيماوية والارتزاق من بيعها. والأمرالذي نعلمه هو أنه مات بقرطبة في الربع الأول من القرن الرابع الهجري[1]، ثم أبو جعفر أحمد بن سليمان، وكان ممن أخذ عن الإمام سحنون، دخل الأندلس واستقر ببجانة وبها توفي، قيل في سنة ٢٩٦هـ وقيل بعد ذلك، وقد أخذ عنه سعيد بن فحلون[2]. ومنهم أيضاً أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد، رحل إلى الأندلس بعد مقتل أبيه بكر بن حماد كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وكان أديباً وشاعراً ومحدثاً، يقول ابن الفرضي : (وكتب عنه غير واحد شعر أبيه ومن حديثه)[3] وكانت وفاته بقرطبة. ثم أبو القاسم عبد الرحمن بن سعيد القيرواني وقد أقام بقرطبة وبها توفي وكان ممن أخذ عنه عبد الرحمن بن عبيد الله[4]، والكثير غير هؤلاء.

ونخص بالذكر في هذا المقام صناعة الورق بالذات التي انتقلت من إفريقية إلى الأندلس في تلك الفترة، نظراً لما ترتب على انتشارها في الأندلس من تيسير تداول الكتب وكثرتها وسهولة انتقالها مما يعكس آثارها على حركة التأليف والترجمة والنشاط الثقافي بوجه عام. فقد كان من بين الذين ارتحلوا إلى بلاط الأمويين في قرطبة وقتئذ عثمان بن سعيد الصيقل مولى الأغالبة الذي سبق أن تعرضنا لذكره، لقد نشأ عثمان في بلاط الأغالبة

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .
(٢) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٦٠ – ٦١ .
(٣) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٦٨ .
(٤) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٦٨ .

وتتلمذ لأبي اليسر الشيباني صاحب بيت الحكمة وتبحر في عدة علوم، كما حذق عدة صناعات، وعند سقوط دولة مواليه التحق بالخليفة الناصر الأموي في الأندلس ونال لديه حظوة كبيرة يدل على ذلك أنه جعله مؤدباً لأولاده، فأقام معززاً في بلاط قرطبة حيث أخذ عنه العديد من علماء الأندلس من بينهم أبو بكر الزبيدي إمام اللغويين والنحاة بقرطبة[1]، وغالب بن عمر التيان الأديب المشهور الذي روى عنه أشعار أبي تمام وغيره[2]، فضلاً عمن أخذوا عنه في الرياضيات والفلك. وكان أثناء ذلك يصنع للأمير الحكم الورق الرفيع والآلات الفلكية والرياضية، فكان بذلك أول من أدخل صناعة الورق إلى الأندلس، وظل موضع الاحترام والتقدير حتى وفاته في سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م[3]، ومثله إبراهيم بن سالم التونسي المعروف بالوراق، الذي كان ممن درس في تونس والقيروان وحذق إلى جانب العلم صناعة الورق كذلك، ورحل إلى الأندلس واتصل بالأمير الحكم الأموي أيضاً[4]. ثم محمد بن حارث الخشني وهو من شيوخ ابن رشيق وكان مشهوراً بالنحو واللغة بصيراً بغيرهما من العلوم، كما كان شاعراً مطبوعاً، وبالإضافة إلى ذلك كان يتقن صناعة الورق كما حذق تركيب الأصباغ والأدهان ومعالجة حل الذهب والفضة[5] اللازم لكتابة الكتب النفيسة، والذي رحل إلى الأندلس والتحق بالبلاط الأموي بقرطبة، ثم محمد بن يوسف التاريخي الوراق الذي احتواه بلاط الحكم الأموي أيضاً، وقد ألف للحكم كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها، وألف في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً كثيرة، كما ألف في قرطبة زيادة على ذلك كتباً في أخبار تاهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة (بصرة المغرب وليست بصرة العراق) وغيرها وتوفي ودفن في قرطبة[6]،

---

(١) كان من الأئمة المشهورين في اللغة ألف في النحو كتاباً نال شهرة واسعة أسماه (الواضح) واختصر كتاب (العين) اختصاراً حسناً، توفي قريباً من سنة ٣٣٠هـ وكان ممن أخذ عنه ابنه أبو الوليد، وإبراهيم ابن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الأفليلي. (انظر الضبي : المصدر السابق ص ٥٦).

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣، ص ٢٥٠ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢، ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢، ص ١٦٢ .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢، ص ١٦٢ .

(٦) انظر الضبي : المصدر السابق ص ١٣١ .

وكان إلى جانب ذلك كله يتقن صناعة الورق، وأخيراً نذكر عباس بن عمر بن هارون الكناني الوراق وهو من أهل صقلية رحل إلى القيروان سنة ٣١٥هـ وأقام بها مدة طويلة حيث أخذ عن جملة من علمائها وحذق بها صناعة الورق ثم رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٦هـ فاتصل بالأمير الحكم الأموي، فألحقه به (وتوسع له في صناعة الورق وصار من جملة الوراقين)(١)، وبقي في قرطبة إلى أن توفي بها سنة ٣٧٩هـ. وكان من أشهر شيوخه أحمد بن سعيد الصقلي، وأبو بكر الدينوري، ومحمد بن معاوية القرشي. وأخذ عنه في الأندلس جملة من أهل العلم منهم ابن الفرضي(٢)، وعن طريق هؤلاء جميعاً دخلت صناعة الورق إلى الأندلس.

وكانت كلما اشتدت وطأة الفاطميين على مخالفيهم من ذوي المذاهب الأخرى في إفريقية، كلما زادت أعداد المهاجرين منها إلى الأندلس وصقلية، فقد هاجر إليها بعد هؤلاء عدد آخر نذكر منهم الحكم بن محمد بن هشام القرشي المقرئ(٣)، وتميم بن محمد بن أحمد التميمي الذي استوطن قرطبة وكانت وفاته بها سنة ٣٦٩هـ(٤)، ومحمد بن الحسين بن محمد بن أسد التميمي الحصاني الطبني وهو من طبنة وكانت شاعراً مكثراً وأديباً متفنناً ومن بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة حافظاً للأنساب عالماً بالأخبار وقد وصل إلى الأندلس سنة ٣٣١هـ وكان مولده سنة ٣٠٠هـ، وولي الشرطة فترة من حياته وتوفي سنة ٣٩٤هـ(٥)، وإبراهيم بن قاسم الأطرابلسي(٦)، وأبا محمد حباشة بن حسن اليحصبي وهو من أهل القيروان سمع بها من أبي الحسن زياد بن عبد الرحمن بن زياد، ومن إبراهيم بن عبد الله الزبيدي المعروف بالقلانسي، دخل الأندلس وأقام بها مدة ثم رحل إلى المشرق حاجاً فلقي في رحلته جماعة من محدثي المشرق، فسمع كتاب البخاري من أبي زيد

(١) : ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٩٩ .
(٢) انظر ترجمته في ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٩٩ .
(٣) انظر عنه ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١٢١ .
(٤) انظر عنه ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٩٩ .
(٥) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١١٨، الضبي : المصدر السابق ص ٥٨ .
(٦) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢٠٩ .

المروزي ثم عاد إلى الأندلس فلزم العبادة ودراسة العلم وتدريسه والجهاد. كان فقيهاً في المسائل حافظاً للاختلاف عالماً بالسنن والآثار، وقد حاوله الأمير الأموي أن يخصص له جراية ليجلس للفتيا فرفض ذلك، ومع أن إقامته كانت بقرطبة، إلا أنه كان كثير التردد إلى إشبيلية، وتوفي بقرطبة سنة ٣٧٤هـ[١]. ثم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفارسي المعروف بابن الخراز، من أهل القيروان أخذ بها عن أحمد بن زياد، وأحمد بن محمد القصري ونظرائهما، ثم رحل إلى المشرق فسمع بمكة من العقيلي وابن الأعرابي وغيرهما. وبالاسكندرية من ابن أبي مطر، وعاد إلى إفريقية ثم رحل إلى الأندلس فكان يتجول بين قرطبة وشذونة وإشبيلية وأخيراً استقر بقرطبة، وقد روى عنه الكثير مثل إسماعيل بن إسحق، وعبيد الله بن الوليد وسليمان بن عبد الرحمن وغيرهم، وكانت وفاته في سنة ٣٥٩هـ[٢].

ثم الشاعر عبد الله بن أبي طاهر بن أبي إسحق بن أحمد بن علي بن سالم السفاقسي، ذكر ابن رشيق في (الأنموذج) أنه رحل إلى الأندلس فاتصل بمجاهد العامري فأكرمه وعظمه وقربه منه فحسده البعض على هذه المنزلة وآل أمره أن وجد مذبوحاً في منزله سنة ٤١٥هـ[٣]. ثم أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن النعمان المقرئ، وهو من أهل القيروان، أخذ عن نخبة من علمائها وقد عني بالقرآن، ورحل إلى مصر حيث أخذ بها القراءة على ابن بذهن، وأبي أحمد السامري، وجوّدها، وقد اشتهر بحسن صوته، قدم إلى الأندلس في حدود سنة ٣٦٠هـ وكان الناس يقرؤون عليه، وتوفي بها سنة ٣٦٨هـ[٤]. وأخيراً وليس آخراً نذكر أبا عمر بن أبي بكر بن حمود الصدفي المعروف بابن الضابط، الإمام المحدث الشاعر، كان قد رحل إلى المشرق وأخذ عن جماعة من العلماء يطول تعدادهم، منهم الحافظ أبو نعيم سمع منه بأصبهان وكتب عنه كثيراً، ذكر أنه كتب عنه مائة ألف حديث، ثم عاد إلى بلاده ومنها رحل إلى الأندلس سنة ٤٣٦هـ فأقرأ بها وأخذ علماؤها عنه وأثنوا عليه[٥]، وقد

(١) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١١٢ .
(٢) انظر ابن الفرضي : ص ١٣٩ .
(٣) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٨٢ .
(٤) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١١٣ — ١١٤ .
(٥) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٧٨ وما بعدها.

أقام بالأندلس نحو عامين متنقلاً بين مدنها، ثم عاد إلى القيروان فأرسله المعز بن باديس في سفارة إلى القسطنطينية فمات في الطريق إما وارداً وإما صادراً بعد سنة ٤٤٠هـ، وهو أول من أدخل كتاب (غريب الحديث) للخطابي إلى الأندلس(١)، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد دخلت إلى الأندلس من إفريقية في تلك الفترة بعض المؤثرات الفنية عن طريق بعض مشاهير فناني إفريقية الذي رحلوا إليها مثل أبي القاسم بن أخت الغساني الموسيقي الذي خدم الناصر الأموي، وحسنون الدباغ المعروف بابن زبيبة ونظرائهما(٢).

وفي أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) حدث حادث سياسي هام آخر في إفريقية تسبب في هجرة ثانية للعديد من علمائها إلى كل من الأندلس وصقلية، ونعني به دخول الهلالية إلى إفريقية وإصابة القيروان بالمحنة القاسية من جراء ذلك الحادث، فكان من بين الذين هاجروا إلى الأندلس وقتئذ علي بن عبد الغني الفهري الضرير القيرواني وكان ذلك في سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م حيث تنافس ملوك الطوائف في إكرامه، ولكنه آثر المقام أخيراً في بلاط ابن عباد بإشبيلية(٣). ثم ابن شرف القيرواني الآنف الذكر الذي غادر القيروان سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م إلى صقلية ومنها إلى الأندلس فاتصل بالعديد من ملوك الطوائف فعرفوا فضله وأجلّوه وأجزلوا له العطاء واستقر به المقام أخيراً في بلاط ابن عباد بإشبيلية أيضاً وبها توفي سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م كما سبق ذكره، وعبد الدايم بن مرزوق بن خير الذي رحل من إفريقية إلى المرية وأقام فيها فترة، ثم انتقل منها إلى إشبيلية واستقر بها، وقد أخذ عنه نخبة من علماء الأندلس منهم عبد الله بن محمد السيد البطليوسي(٤)، ومحمد بن الحكم السرقسطي وغيرهما. ثم أبو محمد عبد القادر بن محمد الصافي المعروف بابن الحناط، وكان فقيهاً محدثاً ولد بالقيروان سنة ٤٢٤هـ وبها نشأ وتفقه ورحل

---

(١) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٧٨ وما بعدها.

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٢، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر الضبي : المصدر السابق ص : ٤١٢ – ٤١٣، كذلك محمد النيفر : عنوان الأريب ج١، ص ٥٦ .

(٤) كان إماماً في اللغة والآداب سابق مبرز ومصنفاته تدل على رسوخه وطول باعه وسعة علمه. كان ثقة مأموناً على ما قيد وروى ونقل وضبط، ولد سنة ٤٤٤هـ وتوفي في رجب سنة ٥٣١هـ. (انظر الضبي : المصدر السابق، ص ٣٢٤، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٩١).

إلى الأندلس وكانت وفاته بالمرية في ربيع أول سنة ٥٠٧هـ[١]. ثم أبو طالب مكي بن محمد بن حموش، وهو من القيروان وبها ولد وعلى شيوخها نشأ وتفقه، رحل إلى الأندلس واستوطن قرطبة وأقرأ بها، وكان إماماً في علوم اللغة نحوياً أديباً حافظاً له تآليف كثيرة في هذه العلوم تزيد عن خمسة وثمانين مؤلفاً[٢]. ثم يوسف الورجلاني الذي أقام في قرطبة يبث علمه الغزير كما صنف فيها تآليف عديدة من أشهرها كتابه المسمى (الدليل لأهل العقول) وهو صورة مصغرة لدائرة معارف إسلامية إذ اشتمل على فنون من الحكمة والفلسفة والإلهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة ومناقشة المذاهب والتفسير، وقد طبع هذا الكتاب في مصر مؤخراً[٣]، وغير هؤلاء كثير مما لا يتسع المجال للاسترسال في ذكرهم خشية من استطراد قد يخرجنا عن خطة الدراسة، ولعل مما يزيد في أهمية هذه الهجرة أنها تزامنت مع مرحلة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ونضوجها، وبالتالي استعدادها للعطاء السخي لأوروبا والذي بدأ عصره بعد فترة وجيزة، إذ أن المؤثرات الحضارية التي انتقلت إلى الأندلس عن طريق هؤلاء وسواهم تفاعلت مع غيرها مما كان موجوداً في تلك البلاد فساعدت بذلك على توسيع قاعدة هذه الحضارة، وجعلتها أكثر شمولاً بما حقنتها به من دم جديد.

وهنالك ثمة طريق آخر كان له أهميته في توثيق الصلات الحضارية بين إفريقية والأندلس، وبالتالي زيادة عطاء إفريقية للحركة الحضارية في ذلك القطر وبصفة خاصة تنشيط الحركة العلمية فيه، هو الاتصال المباشر بين علماء إفريقية ونظرائهم في الأندلس عن طريق الرسائل التي كانوا يتبادلون فيها وجهات النظر في الأمور العلمية، بل إن من علماء إفريقية من كان يؤلف كتباً علمية خصيصاً لأصدقائه من علماء الأندلس، يبعث بها إليهم فينتفعون هم وتلاميذهم بها، ومثال على النوع الأول أي المرسلات لتبادل وجهات النظر هو تلك المراسلات التي دارت بين دونش اليهودي الطبيب القيرواني الذي أشرنا إليه من قبل وبين أحبار اليهود في الأندلس في مفهوم المسائل المعقدة من الشريعة اليهودية، وفي حساب

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٣٨١ .
(٢) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٤٥٥ .
(٣) انظر د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٣٠٦ .

مواقيت أعيادهم ومعرفة سني تاريخهم، وكان من أعيان مراسليه الأندلسيين يوسف حسداي بن إسحق الإسرائيلي طبيب الأمير الحكم الثاني الأموي بقرطبة كما سبق ذكره، وكان فصل القول في النهاية لدونش[1]. ثم تلك المراسلات التي جرت بين أحمد بن رشيق الأندلسي مدبر دولة مجاهد العامري والذي كان كما يقول الضبي أديباً بارزاً، حسن الخط، بسق في صناعة الرسائل وشارك في سائر العلوم ومال إلى الفقه والحديث[2]، وبين أبي عمران موسى الفاسي، وأبي بكر بن عبد الرحمن اللذين كانا وقتئذ من أبرز علماء القيروان، والتي كان من بينها رسالة تداولها الناس في الإصلاح بين هذه العالمين حينما وقع بينهما الخلاف[3]. ومثال على النوع الثاني نذكر أن دونش اليهودي الآنف الذكر كتب كتاباً في الفلك وحركة الكواكب إلى صديقه يوسف حسداي بن إسحق الإسرائيلي الآنف الذكر أيضاً بعث به إليه، وفيه تعديل السنين الشمسية بحساب الشهور القمرية[4]، ولا يستبعد أن يكون الشرح الذي وضعه على سفر (يصيرا) أي سفر التكوين الذي يعتبر من دعائم الشريعة اليهودية كما سبق ذكره، ثم مصنفه في بيان المشابهة القوية بين اللغتين العربية والعبرية والذي نقل عنه الطبيب الغرناطي موسى بن عمره الإسرائيلي في كتابه (المحاضرة والمذاكرة) نبذاً في بيان تلك المقارنة[5]، لا يستبعد أن يكون وضعهما بناء على طلب من يهود الأندلس للانتفاع بهما في أمور دينهم بالنسبة للأول وأمور الترجمة بالنسبة للثاني ذلك أنه يسهل عليهم أعمال ترجمة الكتب العلمية عن العربية والتي كما لا يخفى على أحد أن اليهود أسهموا بنصيب لا يستهان به في تلك الأعمال.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن هجرة علماء إفريقية إلى الأندلس إثر محنة القيروان لم تكن خاتمة الاتصال الحضاري بين إفريقية والأندلس، بل ظل هذا الاتصال مستمراً في القرون التالية على ذلك، ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى أن إفريقية

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .
(٢) انظر الضبي : المصدر السابق ص ١٦٧ .
(٣) انظر الضبي : المصدر السابق ص ١٦٧ .
(٤)انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ٢٩٩ .
(٥) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣٠٠ .

كانت في طريق الأندلسيين من وإلى المشرق في رحلة الحج أو طلب العلم أو التجارة وما إلى ذلك، فكانوا يتوقفون فيها ذهاباً وإياباً لمدد تطول أو تقصر حسب ظروف كل منهم، وخلال هذا التوقف كانوا يتفاعلون مع أهل البلاد حضارياً سيما وأن ركب الحركة الحضارية فيها كان ماض في سيره كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فكانوا يتأثرون ويؤثرون، ويعودون إلى بلادهم بكل جديد اكتسبوه من علم ومعرفة. كما أن طلاب العلم الأندلسيين لم يتوقفوا أيضاً عن الوفود إلى إفريقية للأخذ عن شيوخ العلم فيها ثم يعودون إلى بلادهم يضخون الحركة العلمية فيها بما لقنوه، الأمر الذي كان يساعد على تطور الحركة الحضارية فيها وتجددها باستمرار وبالتالي يجعل حركة العطاء لأوروبا في تجدد دائم، ويكفي للتدليل على صحة هذا القول أن نضرب المثل بأبي عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة القاضي الأندلسي الذي كان فقيهاً محدثاً خطيباً عارفاً مشهوراً، والذي بدأ رحلته العلمية في سنة ٥٢٦هـ وقد لقي بالمهدية الإمام المازري وقرأ عليه (كتاب المعلم بفوائد مسلم) وسمع منه ثم عاد إلى الأندلس بعد ذلك[(١)]. ثم أبو يعقوب يوسف بن محمد بن أحمد القرشي الأموي المشهور بابن اندارس الطبيب الأندلسي الذي رحل في مطلع حياته العلمية إلى تونس وأخذ عن ابن زيتون عالم إفريقية المشهور، وحصل فنوناً من العلم وتفقه بأبي محمد عبد الوهاب بن عبد القادر الزواوي الذي كان إماماً في العلوم خصوصاً المنطق، عاد بعد ذلك إلى بلاده حيث نال شهرة واسعة فيها بعلمه، وأخذ عنه العديد من مواطنيه، وبعد إقامة طويلة فيها ونظراً لاشتداد ضغط النصارى الإسبان على المسلمين فيها هاجر إلى إفريقية واستوطن مدينة تونس، وبها كانت وفاته سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م، يقول ابن فرحون عنه إنه كان (طبيباً عالماً بعلم أقليدس، وتصانيفه في الحكمة والطب والهيئة وعلوم الأوائل مما يطول عدها لكثرتها)[(٢)]. ثم القلصادي الرياضي الأندلسي المعروف الذي رحل إلى تونس في طلب العام وأخذ عن عدد من خيرة علمائها خاصة إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عقاب الحزامي تلميذ ابن عرفة، ثم عاد إلى بلده بسطة بالأندلس فأقام بها مدة ثم انتقل إلى غرناطة واستقر بها، وعند سقوطها بيد النصارى احتال في الخروج منها وعاد إلى إفريقية فأدركته

---

(١) انظر ابن فرحون : المصدر السابق ج٢، ص ٣٧٢ .
(٢) انظر ابن فرحون : المصدر السابق ج٢، ص ٣٧٢ .

المنية بمدينة باجة سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م. يقول ابن القاضي في ترجمته للقلصادي عن ذلك : (... إمام في الفرائض والحساب، أصله من بسطة، وبها تفقه، وانتقل إلى غرناطة وأخذ عن علمائها، وإلى تونس وأخذ من علمائها...)[١].

ومما لا شك فيه أن انضواء إفريقية والأندلس تحت لواء الدولة الموحدية منذ أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) كان عاملاً هاماً في توثيق عرى الصلات الحضارية بين البلدين لإتاحة الحرية التامة للمشتغلين بالعلم في كلا البلدين للتنقل فيما بينهما من ناحية، واهتمام خلفاء الموحدين بالعلوم من ناحية ثانية حتى كان بلاطهم لا سيما في عصر المنصور الموحدي يضم نخبة من العلماء في دولتهم بما فيها إفريقية والأندلس حيث كان هؤلاء العلماء يؤثرون ويتأثرون ببعضهم البعض[٢]، ولعل خير دليل على ذلك، هو تلك العلاقة القوية التي ربطت في ذلك البلاط بين الفيلسوفين المشهورين، ابن طفيل (ت سنة ٥٩٢هـ / ١١٨٥م) صاحب قصة (حي بن يقظان) والذي يقال إن أصله من إفريقية، وابن رشد الأندلسي. فابن طفيل هو الذي قدم ابن رشد للخليفة الموحدي، وهو الذي حبب إليه أيضاً تلبية رغبة الخليفة في شرح فلسفة أرسطو التي نال بها شهرته الواسعة، وابن رشد أيضاً هو الذي حل محله لما طعن في السن[٣]، وغير خاف على أحد مدى تأثير ابن رشد على فلاسفة أوروبا العصور الوسطى. وقد ورث حكام الدول التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية في المغرب الإسلامي هذا التقليد، فكانوا يسعون جاهدين لاجتذاب ما أمكنهم من العلماء البارزين إلى بلاطاتهم خاصة في عهد زكريا الأول وابنه المستنصر بالنسبة للدولة الحفصية، وأبي حمو موسى الزياني بالنسبة للدولة الزيانية، وأبي الحسن المريني بالنسبة للدولة المرينية[٤]، ولعل في سيرة ابن خلدون الذي تنقل بين هذه البلاطات

---

(١) ابن القاضي : درة الحجال ج٣، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
ولمزيد من التفصيل عن القلصادي انظر محمد السويسي : بحث بعنوان : (عالم رياضي أندلسي تونسي - القلصادي)، حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع، سنة ١٩٧٢ .

(٢) انظر محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٢٤٢ وما بعدها، كذلك محمد المنوني : المرجع السابق ص ٩٧ وما بعدها.

(٤) رافق أبا الحسن المريني حينما زحف إلى إفريقية عدد ضخم من علماء المغرب والأندلس وانضم=

جميعاً وربطته صلات قوية بالعديد من العلماء فيها ما يؤكد هذه الحقيقة. وظل هذا الاتصال الحضاري بين إفريقية والأندلس مستمراً حتى إلى مابعد سقوط غرناطة بيد النصارى، وكان من القوة بحيث إن الإمام محمد العبدري القرشي الشهير بالمواق الأندلسي الغرناطي قال : إن شيوخه وصفوا العلاقة بين علماء كل من غرناطة وتونس بأنها كانت (عقد نكاح أفاضل كل من الحضرتين بأفاضل الأخرى، وتتشرف كل واحدة منهما بصاحبتها ويتوادون ويتحابّون، ولقد رأيت من أهل هذه الحضرة العلية التونسية ومن أهل الأخرى كثيراً من الناس الأكابر، ولم ينقطع من بينهما الوصال)[1].

وأما صقلية فقد كانت في عصرها الإسلامي أكثر ارتباطاً وأشد التصاقاً من الأندلس بإفريقية، فالصلات والتفاعل بينهما كانا كاملين لامتزاج عناصر السكان وكثرة الانتقال والعلاقات المتشابكة المختلفة بينهما، فمنذ أن بدأت جيوش الأغالبة بفتحها في سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م قامت بينها وبين إفريقية علاقة خاصة امتدت إلى ما بعد خروجها من يد المسلمين بزمن طويل كما سبق أن أشرنا إليه، وكانت هذه العلاقة سبباً في اتصال حضاري قوي بينهما، بحيث إن صقلية بالرغم من كونها جزيرة كبيرة تحيط بها مياه البحر الأمر الذي أدى إلى أن تتكيف الحضارة العربية الإسلامية بها وفق ظروف البيئة، وتتخذ لنفسها طابعاً خاصاً وسمات بارزة وفق أوضاع هذه البيئة، إلا أنها لم تكن في حقيقتها إلا امتداداً حضارياً لإفريقية. فالحضارة العربية الإسلامية بها لم تنشأ ولم يشتد عودها ثم لم تنضج إلا بفعل مؤثرات هذه الحضارة المتسربة إليها من إفريقية في الدرجة الأولى على مر السنين. لقد بدأ ركب هذه الحضارة في صقلية في مسيرته مع بداية الفتح الإسلامي لها، لقد كان من حسن حظ صقلية أن فتحها تم في عهد الأغالبة، ذلك العهد الذي بلغت فيه الحضارة العربية الإسلامية في إفريقية درجة عالية من الرقي والازدهار، مما جعلها تستفيد من ثمرة ناضجة،

= إليهم الكثير من علماء إفريقية أثناء إقامته في تونس، ولكن مع الأسف حلت بهؤلاء العلماء كارثة كبيرة إذ مات منهم الكثير بوباء الموت الأسود ومن لم يمت بالوباء مات غرقاً في البحر حينما هبت على أسطوله عاصفة أغرقته في طريق عودته منسحباً إلى المغرب.

(١) انظر عبد المجيد التركي : وثائق من الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس، حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع سنة ١٩٦٧، ص ٥٣ – ٥٤ .

وجنبها بذر بذرة هذه الحضارة وتعهدها وانتظار ثمرتها مدة تقارب القرن، كما حدث بالنسبة للأندلس وحتى إفريقية ذاتها، ولعل خير دليل على ذلك هو أن الحملة الأولى التي بدأت بفتحها كانت أشبه ما تكون بحملة علماء مجاهدين نظراً لكثرة ما ضمته من علماء في صفوفها من الذين كانوا قد تبحروا في شتى أنواع العلوم التي كانت قد انتشرت في العالم الإسلامي آنذاك، وفي مقدمة هؤلاء يأتي قائد الحملة أسد بن الفرات عالم إفريقية وفقيهها وقاضيها المعروف كما سبق أن أشرنا إلى مكانته العلمية، ومنهم الكثير ممن كانوا على شاكلته علماً وفضلاً وصلاحاً، نذكر منهم محمد بن قادم الذي كان قد سمع من أسد بن الفرات نفسه ومن غيره من علماء إفريقية، وكان على درجة عالية من العلم والمكانة الرفيعة بين جند الحملة بحيث إنهم حينما أضر بهم القتال والجوع بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها الروم، مشوا إليه وطلبوا منه إقناع أسد بالعودة بالناس إلى إفريقية، وفعلاً مضى ابن قادم إلى أسد وباحثه في الأمر فاختلفت وجهتا نظرهما في موضوع مواصلة القتال إلى أن حسم أسد الأمر بسلطته كقائد[1]. ومنهم أيضاً أحمد بن محمد بن قادم الآنف الذكر والذي أخذ عن أسد بن الفرات أيضاً وعن أبيه وغيرهما، يقول الدباغ في ترجمته له : (كان حافظاً لمذهب أهل العراق، ومذهب أهل المدينة، صحب أسد ابن الفرات ولازمه وشهد معه فتح صقلية، وكان له بها آثار حسنة)[2]، والمستفاد من هذا النص أنه كان عالماً بالفقه على المذهبين الحنفي والمالكي كأستاذه أسد، وقد شارك في أعمال الفتح وبقي في صقلية، وطوال إقامته فيها لم يكن له مشغلة إلا بث العلم فيها، ولعل ذلك هو الذي عناه الدباغ

(١) يروي الدباغ ما دار بين أسد وابن قادم في هذه المحاورة فيقول : (فمشى الناس إلى ابن قادم، فمضى إلى أسد فقال له : «ارجع بنا إلى إفريقية فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم»، فقال له أسد : «ما كنت لأكسر غزوة عن المسلمين ففي المسلمين خير كثير» فأبى الناس ذلك فأراد إحراق المراكب فبدت من ابن قادم كلمة فقال : «على أقل من هذا قتل عثمان رضي الله عنه» فتناوله أسد بالسوط فضربه، ولم يجرده وإنما ضربه أسواطاً يسيرة قدرالثلاثة أو الأربعة، وتمادت عزيمته وبصيرته، فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى قتلهم وهزمهم وسباهم وغنم أموالهم وفتح صقلية وأباد الروم واستأصلهم، وسكنها المسلمون واستوطنوها).
(انظر الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٢٤ – ٢٥، كذلك المالكي : المصدرالسابق ج١، ص ١٨٨).

(٢) الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ١١١ .

بقوله إنه كان له بها آثار حسنة، وكانت وفاته سنة ٢٤٧هـ. ثم ابن أبي الفضل، وكان هو الآخر ممن أخذ عن أسد، ويبدو أنه كان ممن روى أخبار فتح تلك الجزيرة وأخذها عنه الناس، إذ يقول الدباغ : (قال ابن أبي الفضل : فرأيت أسداً في يده اللواء وهو يزمزم فحملوا علينا – يعني الروم – فكانت فينا روعة شديدة، وأقبل أسد على قراءة «يس» فلما فرغ منها قال للناس «هؤلاء عجم الساحل هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم» فحمل وحمل الناس معه فهزم الله تعالى «بلاطه» وأصحابه فلما انصرف أسد رأيت الدم وقد سال مع قناة اللواء مع ذراعه حتى صار تحت إبطه)(١)، وغير هؤلاء كثير، وقد استوطن العديد منهم المناطق المفتوحة في الجزيرة وأخذوا يبثون علومهم فيها.

ومنذ ذلك الوقت، أولى الأمراء الأغالبة ولايتهم الجديدة صقلية قدراً كبيراً من عنايتهم، فكان ولاتها في معظم الأحيان من أمراء البيت الأغلبي نفسه، ولا يخفى أن شغف أمراء هذا البيت بتشجيع العلوم وتعلقهم بأسباب الرقي والحضارة كان له انعكاس قوي على هذه الجزيرة، فلم تكد تمضي فترة وجيزة حتى أصبحت الحركة الحضارية فيها بجهود هؤلاء تواكب الحركة الحضارية الأم في إفريقية، فنقلوا إليها زراعة الكثير من الحاصلات الزراعية التي لم تكن معروفة، في أوروبا في ذلك الوقت والتي أتوا بها من المشرق مثل الأرز وقصب السكر والقطن والليمون والبرتقال، فضلاً عن الأساليب الجديدة في الزراعة والري وما إلى ذلك، كما نقلوا إليها العديد من الصناعات مثل صناعة المنسوجات الرفيعة لا سيما المنسوجات الحريرية، وما يتبعها من الصباغة والغزل والتبييض... إلخ، ثم صناعة الورق، والصابون، والدباغة، والزجاج لا سيما الملون وغيرها من روائع ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية آنذاك.

وأما بالنسبة لنشاط الحركة العلمية فيها، فزيادة على العلماء الذين استقروا بها منذ بداية الفتح كما أشرنا، أخذ العديد سواهم من علماء إفريقية يتوافدون إليها منذ ذلك الوقت لأغراض مختلفة، إما لتبوء منصب رسمي فيها أو للمشاركة في أعمال الجهاد، ذلك أن

---

(١) انظر الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٢٣، والمقصود بقوله عن الروم إنهم عجم الساحل : أي إنهم هم الذين هربوا من ساحل إفريقية عندما فتحها المسلمون.

الحملة الأولى لم تفتح إلا جزءاً منها واستكمال فتح الجزء الباقي استغرق مدة طويلة نظراً لمناعة حصونها والمساعدات التي كانت تتوالى على أهلها من الدولة البيزنطية التي كانت لاتزال وقتئذ تتمتع بقدر من القوة، فكانت أعمال الجهاد مستمرة في الجزيرة، فضلاً عن أنها أصبحت قاعدة لأعمال الفتح في جنوب إيطاليا وإقليم بروفانس في فرنسا، أو فراراً من قحط أو وباء واللذين كانا كثيراً ما ينتابان إفريقية مما كان يضطر أهلها إلى الهجرة مؤقتاً منها لا سيما إلى صقلية، أو للتعرض لرفد أُولي الأمر فيها، أو للالتحاق بأمرائها ومصاحبتهم، أو فراراً من اضطهاد أو حوادث سياسية، أو رغبة من بعض الخلعاء والمتهكتين من الشعراء والأدباء في الفرار والتحرر من قيود التزمت التي كانت مفروضة عليهم في إفريقية إلى رهبان الأديرة التي كانت مبثوثة في ربوعها حيث يجدون بغيتهم من الخمر، وينالون مطلبهم من الفسق والفجور ومطارحة الغرام لحسانها، وما يتبع ذلك من قرض الشعر في الغزل والخمر مما لا تسمح به بيئة إفريقية، فكان قدوم هؤلاء جميعاً له أثره القوي بلا شك في تنشيط الحركة العلمية فيها ودفعها نحو الازدهار والتقدم.

وفي مقدمة هؤلاء العلماء الذين قصدوا تلك الجزيرة نذكر أحمد بن أبي محرز الذي يقول عنه ابن ناجي إنه (كان بحراً من بحور العلم، حافظاً للسنن، جامعاً لها، إماماً فيها، عارفاً بأصول الديانات، من أهل الورع والكرامات، على هدى وسنة واستقامة، كثير البكاء غزير الدمعة، وكان سيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع، قامعاً لهم، غيوراً على الشريعة، شديداً في ذات الله تعالى)[١]، أخذ عن أبيه أبي محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن مسلم الكناني كما سبق أن ذكرنا، وعن غيره من نظرائه، وقد أجبره الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على تولي القضاء على غير رغبة منه في هذا المنصب تعففاً وخشية من الله شأنه في ذلك شأن الكثير من فقهاء إفريقية[٢]، ويبدو من نص لابن عذارى أنه تولى قضاء صقلية

(١) انظر ابن الدباغ المصدر السابق ج٢، ص ٤٠ .

(٢) يقول الدباغ في ذلك إن الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ — ٢٢٣هـ) عرض القضاء على جماعة من العلماء فامتنعوا، فجمعهم وقال لجلسائه : «انظروا من يقدمون لصلاتهم؟» فلما كان وقت الصلاة قدموا أحمد بن أبي محرز، فصلى بهم، فقال زيادة الله : «قد رضوا لدينهم من رضيته أنا لديني». فجبره على القضاء انظر الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٤٠ — ٤١).

لفترة من الزمن فوصفه بقاضي صقلية إذ يقول: (وفي سنة ٢٢١ توفي قاضي صقلية ابن أبي محرز)[١]، وأما ما يستفاد من رواية الدباغ أنه تولى القضاء جبراً لمدة تسعة أشهر هي الأخيرة في حياته ومات وهو في هذا المنصب[٢]، وللتوفيق بين القولين نقول إنه ربما عند توليه القضاء أقام في صقلية مدة، أو ربما كانت إقامته فيها في فترة سابقة على هذه الولاية، وأياً كان الأمر فإننا نرى في إقامته في تلك الجزيرة فائدة كبيرة للحركة العلمية فيها.

ومنهم دعامة بن محمد، وكان فقيهاً متبحراً في العلوم الدينية واللغوية، ومن أشهر شيوخه الإمام سحنون، وقد ولي هو الآخر قضاء صقلية لمدة طويلة وأقام بها وكانت وفاته سنة ٢٩٧هـ[٣]. ثم ابن القيار الذي كان متمكناً في الفقه وعلم الكلام واللغة وقد اختص بصحبة الأمير عبد الله بن إبراهيم الثاني الأغلبي وأقام عنده طوال مدة إقامة الأخير والياً على صقلية من قبل أبيه، وهو الذي علمه الفقه ولقنه وسائل المناظرة، وعندما عاد هذا الأمير إلى القيروان باستدعاء من أبيه الذي تنازل له عن الإمارة رغبة منه في التفرغ لأعمال الجهاد في جنوب إيطاليا، عاد ابن القيار إلى إفريقية بصحبة مخدومه وأقام ببلاط الأغالبة في رقادة حتى وفاته[٤]. ثم لقمان بن يوسف، وهو من أهل تونس، سمع من يحيى بن عمر[٥]، وعيسى بن مسكين[٦]، ورحل إلى المشرق فسمع بمصر من عدد من شيوخ العلم فيها، وعاد إلى إفريقية فأقام بها فترة ثم انتقل إلى صقلية واستوطنها وكانت وفاته بها في سنة ٣١٩هـ. ثم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بابن البرادعي الذي سبق أن ذكرناه والذي كان من تلاميذ ابن أبي زيد القيرواني وابن القابسي، وكان من كبار فقهاء المالكية في عصره، وقد نال كتابه التهذيب في اختصار المدونة شهرة واسعة في غرب العالم الإسلامي،

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦.

(٢) الدباغ: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ج١، ص ١٦١.

(٤) انظر حسن حسني عبد الوهاب ورقات ق١، ص ٢٥٥.

(٥) انظر ترجمته في القاضي عياض: المصدر السابق ص ٢٦١ وما بعدها، الدباغ: المصدر ا لسابق ج٢، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٦) انظر ترجمته في القاضي عياض: المصدر السابق ص ٢٣٢ وما بعدها، ابن فرحون: المصدر السابق ج٢، ص ٦٦.

واعتمده مشيخة المذهب المالكي فأقبل عليه طلبة الفقه (وتيمنوا بدرسه وحفظه وعليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس)[١]، وله غيره (كتاب الشرح والتمامات) وكتاب (اختصار الواضحة) وغيرها، وكان سبب خروجه إلى صقلية أنه اتهم بقبول هدايا الفاطميين فانقبضت أنفس علماء القيروان عنه وأبغضوه حتى إنهم أفتوا برفض كتبه وترك قراءتها لتهمته لديهم، فرحل إلى صقلية قاصداً أميرها فحصلت له عنده مكانة فاستوطنها مشتغلاً بالتدريس والتأليف إلى أن وافته منيته بها، وقيل إنه عاد إلى القيروان في أواخر حياته وتوفي ودفن بها[٢]، ثم أبو عمرو ميمون بن عمرو القاضي الزاهد الذي كان من تلاميذ الإمام سحنون، وكان صالحاً ذا فضل ودين وعلم كثير، وقد ولي القضاء في صقلية لبني الأغلب وقد ذكر الدباغ أنه حينما وصل إلى سوسة للإبحار منها إلى صقلية لتولي منصبه خاطب أهلها بقوله : (يا أهل سوسة هذا كسائي وجعبتي وخرجي، فيه كتبي، وهذه السوداء تخدمني معها كساؤها وجبتها، بهذا خرجت، وانظروا بأي شيء أرجع)[٣]، فلما وصل إلى صقلية لم ينزل الدار التي كانت مخصصة لمن يتولى القضاء، تعففاً، فنزل في حجرة، وكانت جاريته الآنفة الذكر تغزل وتبيع غزلها وتطعمه، واتخذ مجلسه بباب تلك الحجرة يقابل فيه الناس يقضي بينهم ويرد على أسئلتهم، ويأخذ عنه طلاب العلم، وأقام على ذلك سنين إلى أن اعتل فاستعفى من القضاء فأعفي وغادر صقلية مأسوفاً عليه إلى القيروان، وعند وصوله سوسة أشهد أهلها على ما كان معه وأنه لم يزد عما أخذه إلى صقلية شيئاً قائلاً لهم : ما تعلقت من دنياكم بشيء، ولم يلبث أن توفي في القيروان ودفن بها سنة ٣١٠هـ[٤].

ومنهم أيضاً أبو جعفر محمد بن الحسين المروزي الذي كان فقيهاً عالماً وقد تولى القضاء فيها واستوطنها وبها كانت وفاته سنة ٢٩٣هـ[٥]. ثم إسحق بن أبي المنهال الذي كان من علماء الحنفية في القيروان، وقد أخذ عن أبيه الذي كان شيخ علماء هذا المذهب في

---

(١) الدباغ : المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٧ .
(٢) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ١٤٦ وما بعدها.
(٣) الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٣٥٦ .
(٤) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٣٥٦ وما بعدها.
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج١، ص ١٤٢ .

إفريقية، والذي كان قد أخذ عن أسد بن الفرات وغيره، وقد ولي إسحق بن أبي المنهال قضاء صقلية لبني الأغلب وأقام بها، وعند انقضاء عهد الأغالبة انضم للدولة الفاطمية فولي القضاء للمهدي الفاطمي في سنة ٣٠٧هـ، وعزل في سنة ٣١١هـ ثم أعيد في العام التالي ٣١٢هـ وبقي قاضياً للفاطميين حتى وفاته في زمن الخليفة أبي القاسم الفاطمي(١)، ثم الشاعر محمد بن عبدوس السوسي، وهومن سوسة وأصله من القيروان، رحل إلى ثقة الدولة أبي الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد الكلبي أمير صقلية، فامتدحه بعدة قصائد نال بها حظوة لديه وألحقه بابنه جعفر فأدناه وقربه وكان من أكرم الناس عنده، وطالت إقامته لدى الأمير الكلبي فتشوق للرجوع إلى أهله ووطنه ولكن جعفر تمسك به ولم يسمح له بالرحيل، فاضطر أن يوسط الأمير أبا الفتوح في الأمر، ولكن هذا لم يسعفه بما طلب، الأمر الذي اضطره أخيراً إلى الخروج من الجزيرة خلسة دون رغبة أمرائها(٢). ونختتم هذه السلسلة من العلماء بإسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم الذي سبق أن ذكرناه، والذي صحب الأمير إبراهيم الثاني (الأصغر) إلى صقلية حينما غادر القيروان مجاهداً بعد تنازله لابنه عبد الله عن الإمارة، وشهد معه فتح طبرمين (Taormine) وغزوته لمسينا ورافقه في جميع حروبه في جنوب إيطاليا، ولم يعد إلى إفريقية إلا بعد وفاة الأمير إبراهيم في شعبان سنة ٢٨٩هـ / أغسطس سنة ٩٠١م(٣).

لقد كان لهؤلاء العلماء وأمثالهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة العربية الإسلامية في نواحي تلك الجزيرة، ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى ظهرت طبقة من أبناء البلاد أخذت تقوم برحلاتها العلمية إلى خارج الجزيرة في طلب المزيد، وكانت إفريقية بطبيعة الحال أول ما كان يقصده هؤلاء للدراسة في معاهدها والأخذ عن شيوخها، تعود بعد ذلك إلى بلادها لتدفع بالحركة العلمية فيها إلى الأمام، وجاءت بعدها طبقة أخرى وسعت من مجال الرحلة حتى أخذت تشمل مصر وبعض بلدان المشرق الأخرى فضلاً عن إفريقية، ومن هذه الطبقة نذكر محمد بن الحسن بن علي الكركنتي (الجرجنتي) نسبة إلى كركنت (أو

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج١، ص : ١٨٢، ١٨٨، ١٨٩ .

(٢) انظر التجاني : المصدر السابق، ص : ٣٨ وما بعدها.

(٣) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص : ٢٥٣ .

جرجنت) وهي مدينة بصقلية. الفقيه المالكي الصقلي المعروف الذي تفقه بصقلية وإفريقية ثم رحل إلى مصر وأخذ عن نخبة من علماء الاسكندرية[١]، وعاد إلى بلاده، ثم محمد بن خراسان الصقلي مولى بني الأغلب الذي درس في إفريقية وتبحر في علوم اللغة ثم رحل إلى مصر فأخذ عن أبي جعفر النحاس في النحو، وروى عنه مصنفاته وعاد إلى بلاده وأقرأ بها النحو حتى وفاته سنة ٣٧٩هـ[٢]. ثم محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر الصقلي التميمي اللغوي والذي ولد ونشأ بصقلية وتلقى علومه الأولية بها ورحل عنها إلى إفريقية في طلب العلم ثم إلى المشرق حيث عاد بعد ذلك إليها، وكان موجوداً بها سنة ٤٥٠هـ، وكان من أشهر تلاميذه ابن القطاع الصقلي أحد أئمة الأدب واللغة والنحو والعروض ومؤلف (الدرة الخطيرة، والمختار من شعراء الجزيرة)[٣]، ومنهم عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الذي يقول عنه الدباغ إنه تفقه بالشيوخ القيروانيين كأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي، وعبد الله الأجدابي[٤]، وغيرهم، وكانت له رحلة إلى المشرق أدى فيها فريضة الحج كما لقي فيها القاضي عبد الوهاب، وأبا ذر الهروي، وعاد لبلده فعكف على التدريس والتأليف ومن أشهر مؤلفاته (كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة)، وهو أول مؤلف له، يقول عنه الدباغ إنه (كتاب مفيد عند الشادين من حذاق الطلبة، ويقال : إنه ندم بعد ذلك على تأليفه، ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته، واستدرك كثيراً من كلامه فيه وقال : «لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت»)[٥]، والمستفاد من النص أن هذا الكتاب لقي رواجاً كبيراً بحيث إنه لم يعد في إمكان المؤلف جمعه وإخفاءه، كما ألف كتابه الكبير المسمى (تهذيب الطالب) وله استدراك على مختصر البرادعي المنوه عنه آنفاً، وله جزء في شرح ألفاظ المدونة، وبعد أن أسن وكبر حج مرة ثانية فلقي في مكة أبا المعالي الجويني إمام الحرمين آنذاك فباحثه في أمور علمية عديدة

---

(١) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج١، ص ٣٠٩ .
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج١، ص ٣٠٩ .
(٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج١، ص ٣١٠ .
(٤) انظر الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٥٦ .
(٥) انظر الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٥٦ .

وسأله عن مسائل أجابه عليها هي المشهورة في أيدي الناس كما يقول الدباغ، وكانت وفاته بالاسكندرية سنة ٤٥٦هـ[١].

ومنهم محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي الذي كان فقيهاً إماماً عالماً فرضياً أخذ عن أبي الحسن الحصائري القاضي، وعتيق بن الفرضي، وابن أبي العباس، وغيرهم، وكان إلى جانب سعة علمه ملازماً للجهاد موصوفاً بالنجدة، له مؤلفات كثيرة منها كتاب في الفرائض، وكتب كتاباً جامعاً للمدونة أضاف إليها غيرها من أمهات الكتب، وعليه كان اعتماد طلبة العلم للمذاكرة، وقد راج رواجاً كبيراً في أنحاء المغرب الإسلامي، ويذكر ابن فرحون أن أول من أدخله إلى سبتة هو الشيخ محمد خطاب، فاستنسخه من القاضي محمد بن عيسى التميمي، وعن طريقه كثر عند الناس، وكانت وفاته سنة ٤٥١هـ[٢]. ومثله ابن ظفر الصقلي مؤلف كتاب (سلوان المطاع)، وابن القطاع الصقلي الذي ذكرناه آنفاً. ونذكر أخيراً إمام عصره وعالم زمانه، الإمام محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، المعروف بالإمام المازري، وهو من (مازر) أو (مازرة) بصقلية أخذ بإفريقية عن اللخمي، وعبد الحميد السوسي، وغيرهما حتى فقه، فعاد إلى بلده حيث تصدر لتدريس أصول الفقه والدين في بلده، وعندما دخل النورمان إلى صقلية عاد إلى إفريقية واستوطن المهدية، وذاعت شهرته حتى أصبح إمام أهل إفريقية وما وراءها من بلاد المغرب، وصار الإمام لقباً له فلا يعرف بغير الإمام المازري[٣]، ولم يكن أحد للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه، ولا أقوم لمذهبهم، روى الحديث حتى أصبح إماماً فيه، واطلع على علوم كثيرة منها الأدب والحساب والطب، وقد أتقن الطب إلى حدّ أنه كان يفزع إليه فيه كما يفزع إليه في الفقه[٤]، وكان رحمه الله مع سعة علمه حسن الخلق،

---

(١) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق ج٢، ص ٥٦ .

(٢) انظر ترجمته في ابن فرحون: المصدر السابق ج٢، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٣) ابن فرحون: المصدر السابق ج٢، ص ٢٥٠ .

(٤) ابن فرحون: المصدر السابق ج٢، ص ٢٥١ .
ويقول ابن فرحون: إن سبب دراسته الطب هو أنه مرض فكان يعالجه طبيب يهودي فقال له اليهودي يوماً: يا سيدي مثلي يطب مثلكم؟ وأي قربة أجدها أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين؟ فمنذ ذلك الوقت بدأ في دراسة الطب فبرع فيه.

أنيس المجلس لطيف العشرة، كثير التأليف، شرح كتاب مسلم في كتابه المسمى (المعلم بفوائد كتاب فوائد مسلم)، وكتاب (التلقين) للقاضي أبي محمد عبد الوهاب في الفقه المالكي، كما شرح كتاب (البرهان) لأبي المعالي الجويني، وسماه : (إيضاح المحصول من برهان الأصول) وغيرها وقد انتشرت هذه الكتب في المغرب الإسلامي، ومنها ما عرف في المشرق أيضاً، كما أخذ عنه الكثير من العلماء مثل محمد بن يوسف بن سعادة الأندلسي الذي سبق أن ذكرناه، والتجيبي شيخ أحمد بن الفهري اللبلي النحوي، وكان من أشهر من أخذوا عنه بالإجازة القاضي عياض، وكانت وفاته سنة ٥٣٦هـ، ودفن في رباط المنستير، وقبره معروف إلى وقتنا الحاضر[1].

وكما أفادت حركة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من محنة القيروان إبان الهجرة الهلالية في أواسط القرن الخامس الهجري، حدث الأمر ذاته بالنسبة لهذه الحركة في صقلية، إذ أن كثيراً من علماء إفريقية هاجروا إليها وقتئذ واستقروا فيها، نذكر منهم ابن رشيق القيرواني الذي رحل إليها واستوطن مازرة حتى وافته منيته بها سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م كما سبق ذكره، ثم صنوه ومنافسه ابن شرف القيرواني الذي رحل إليها وأقام بها مدة ثم رحل عنها إلى الأندلس كما مر ذكره، ويبدو أن التقاء ابن رشيق وابن شرف في الغربة بصقلية أنساهما ما كان بينهما من خصام وضغائن، فحاول ابن شرف إقناع زميله بمرافقته إلى الأندلس فرفض وقال له بيتيه المشهورين :

مما يُزَهِّدُني في أرضِ أندلسٍ ... سماع مُعتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقاب سَلْطَنَةٍ في غير موضعها ... كالهرِّ يَحْكي انتفاخاً صولةَ الأسَدِ

ومثلهما العديد ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات، وكلما كانت المشاكل والفتن تتوالى وتشتد في إفريقية، كلما كان ذلك سبباً هاماً في الهجرة إلى صقلية سيما وأن ملوك النورمان منذ عهد مؤسس مملكتهم في صقلية رجار الأول كانوا يقدرون الثقافة العربية الإسلامية ولم يدخروا جهداً في سبيل اجتذاب النابهين من علماء المسلمين إلى بلاطهم ليس

---

(١) انظر ترجمته في ابن فرحون : المصدر السابق ج٢، ص ٢٥٠ وما بعدها.

للاستفادة من علومهم فقط وإنما لأغراض سياسية أيضاً، وقد بلغ هذا الأمر ذروته في عهد رجار الثاني الذي اجتذب مفخرة علم الجغرافية عند المسلمين الشريف الإدريسي كما سيأتي ذكره، ثم تلميذ الثقافة العربية الإسلامية جرجي الأنطاكي وآل بيته الذين استقدمهم من المهدية كما سبق ذكره. وكان ممن رحل إلى صقلية في تلك الفترة أيضاً الشاعر يحيى التيفاشي القفصي متعرضاً لرفد آل حمود الأشراف العلويين بها (كما كان الكثيرون من شعراء إفريقية يفعلون)[1].

ولم يكن هذا الاتصال بين إفريقية وصقلية مقصوراً على الطبقة المثقفة، وإنما تعداه إلى المستوى الشعبي، ذلك أنه بالإضافة لما أحدثته الحركة التجارية النشطة بين البلدين من تعزيز الروابط بين شعبيهما، كانت هنالك هجرات جماعية متبادلة تطول مدتها أو تقصر حسب الظروف، فقد ذكر الإخباريون الأفارقة من مؤلفي كتب التراجم مثل المالكي والدباغ وابن ناجي وغيرهم أن أهل إفريقية كانوا إذا أصابتهم سنوات جدب من جراء انحباس الغيث يعمدون إلى مراكبهم فينقلون فيها أسرهم وحيواناتهم ويرتحلون إلى صقلية ويقيمون فيها حتى تخصب بلادهم فيعودون إليها[2]، وفي المقابل كان الصقليون إذا ألم بهم طارئ أو دهمهم خطر بادر الكثير منهم للهجرة إلى إفريقية حتى تنجلي تلك الغمة، كما حدث إبان جثوم الخطر البيزنطي على تلك الجزيرة في أوائل القرن الخامس الهجري، ثم جثوم الخطر النورماني عليها منذ أواسط ذلك القرن، فضلاً عن تلك الهجرة التي دعا إليها رجار الثاني عند احتلاله لساحل إفريقية ولباها جمع غفير من رعاياه في صقلية وجنوب إيطاليا كما سبق ذكره. فكانت هذه الهجرات المتبادلة تقوي وشائج هذا الاتصال وتعمم مستواه، مما كان له بلا شك أثر قوي على حركة الحضارة في صقلية لما كان يحمله هؤلاء معهم من مؤثرات حضارية.

وبعد هذا العرض الموجز لأثر إفريقية في نشأة ونضوج الحضارة العربية الإسلامية في كل من الأندلس وصقلية أهم معبرين سلكتهما تلك الحضارة إلى أوروبا، وفي ضوء

---

(١) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ٢٨٥ .

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣، ص ٣٨٧ – ٣٨٨ .

المعطيات المستفادة منه تتضح أبعاد دور إفريقية كمعبر حضاري غير مباشر للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، ومع أن ظروف البيئة لكل من الأندلس وصقلية قد استوعبت المؤثرات الحضارية المتسربة إليها من إفريقية وطبعتها بطابعها الخاص الذي تميزت به وجعلت مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية التي انتقلت إلى أوروبا عبر هذين المعبرين تبدو وكأنها أندلسية أو صقلية محضة هي وليدة بيئتها، إلا أنه بقليل من التمعن والتدقيق يستطيع الباحث تتبع أصول العديد من هذه المؤثرات فيتضح له أن لإفريقية دوراً كبيراً في نشأة هذه المؤثرات، ونكتفي بضرب مثل واحد للتدليل على صحة ما ذهبنا إليه هو الكتاب الذي ألفه ابن حزم الأندلسي (ت سنة ٤٥٦هـ) في أسماء الله الحسنى، فابن حزم قد تأثر كثيراً بمؤلفات بقي بن مخلد[1] الذي أخذ عن نخبة من علماء القيروان كما سبق أن ذكرنا، فضلاً عن أنه هو نفسه قد أخذ عن شيوخ سمعوا من بعض علماء القيروان، وقد اكتسب بذلك حصيلة علمية ممتازة في علوم الدين والجدل والمناظرة مكنته من الرد على أقوال الفرق الإسلامية[2]، وبحكم البيئة الأندلسية التي كان يتجاور فيها المسلمون والنصارى واليهود وتدور بينهم المناظرات الدينية وهو الأمر الذي لم يكن موجوداً في إفريقية كما سبق ذكره، فبهذه الثقافة والحصيلة العلمية انبرى ابن حزم للدفاع عن الإسلام ضد المسيحية واليهودية، واعتمد على العقيدة الإسلامية بأن التوراة والإنجيل حرفا عن أصلهما اعتماداً كبيراً، وحاول بكل إمكانه أن يجد تناقضاً في كتبهم ليبرر أقواله في أنهم حرفوا النصوص، فألف في هذا الموضوع كتابه المسمى (كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل) الذي قال عنه الحميدي إنه كان مما سبق إليه[3]، ومن ضمن مؤلفاته في إبراز صحة العقيدة الإسلامية كان كتابه في أسماء الله الحسنى الذي يبدو فيه أثر علماء القيروان على ابن حزم واضحاً، والذي قرضه الغزالي بقوله : (إنه يدل على عظم

(١) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٥١ .

(٢) وفي ذلك ألف كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل).
(انظر الحميدي : جذوة المقتبس ص ٣٠٩، الضبي : المصدر السابق ص ٤٠٣ .

(٣) انظر الحميدي : جذوة المقتبس ص ٣٠٩، الضبي المصدر السابق ص ٤٠٣، كذلك انظر عن هذا الموضوع أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٥٧ .

حفظه، وسيلان ذهنه)[1]، وكان ممن تأثروا كثيراً بابن حزم كل من ابن عربي، وابن رشد[2]، وكان من أبرز الجوانب التي تأثر ابن عربي به فيها أنه ألف كتاباً في أسماء الله الحسنى نحى فيه منحاه، وعن ابن عربي أخذ رامون لول، بل غرف من فلسفته وعلمه بقدر ما استطاع، واستفاد منه في تكوين جانب كبير من آرائه ونظرياته التي ذاعت في أوروبا، ومن ذلك أن كتابه الذي ألفه في أسماء الله الحسنى هو الآخر ما كان إلا تأثراً بابن حزم وابن عربي[3] بل رداً عليهما، وأما ابن رشد فإن أثر فلسفته في فلاسفة أوروبا أشهر من أن يعرف وأكبر من أن تستوعبها هذه العجالة، ويكفي القول بأنه بشرحه لفلسفة أرسطو عرف الأوربيين بهذا الفيلسوف، وأن فلسفته شغلت الدارسين في جامعة باريس – أكبر مركز للدراسات الفلسفية في أوروبا في العصور الوسطى – طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين مؤيد ومعارض مما حرك الكنيسة ضد ابن رشد وفلسفته حتى أصدرت قرارها بلعن ابن رشد وأرسطو معاً وحظرت دراسة فلسفتهما[4]، ولكن بالرغم من ذلك ظلت فلسفة ابن رشد تؤثر في الفلسفة الأوروبية إلى عهد قريب. وما هذا إلا مثالاً واحداً له أشباه عديدة كلها تؤكد مدى أهمية إفريقية كمعبر حضاري غير مباشر إلى أوروبا.

إفريقية معبر مباشر للحضارة الإسلامية إلى أوروبا :

من المعروف أن الاتصال المباشر الطويل الأمد والاستقرار شرطان أساسيان للتجاوب الحضاري بين الشعوب، وإذا كان الجانب المنظور من الاتصال الذي تم بين الصليبيين والمسلمين في إفريقية قد اتسم بالعداء وتغلب الصفة العسكرية عليه المتمثلة في الهجمات التي كانت تشنها القوى الصليبية على إفريقية من ناحية، وقصر أمد هذه الهجمات التي لم تفسح المجال لاحتلال دائم كما حدث بالنسبة للأندلس وصقلية أو طويل الأمد كما حدث بالنسبة لبلاد الشام، إذ لم تزد مدة أي من هذه الهجمات عن بضعة أشهر باستثناء الاحتلال

(١) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٥٧ .
(٢) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٦٣ .
(٣) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٣ .
(٤) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٠ – ٩١، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٢٦٠، محمد المنوني : المرجع السابق، ص٩٩ .

النورماي الذي دام حوالي (١٢) سنة فقط، أي أنه لم يكن هنالك استقرار صليبي في إفريقية من ناحية ثانية، إلا أنه كان هنالك جوانب أخرى من هذا الاتصال كان فيها التعويض الكافي عن هذين الشرطين، هما الاتصال المباشر من خلال العلاقات التجارية المستمرة والطويلة الأمد بين إفريقية والبلدان المسيحية من ناحية، ثم نشاط دعاة الصليبية السلمية ولا سيما أنصار حركة التنصير في ربوعها من ناحية ثانية. فمنذ بداية عصر الحروب الصليبية إن لم يكن قبل ذلك وحتى نهاية العصور الوسطى كانت تربط إفريقية بدول جنوب غرب أوروبا علاقات تجارية نشطة ومستمرة لم تكن تتوقف إلا لفترات محدودة ومع بعض تلك الدول، وعلى وجه التحديد إبان الهجمات أو الحملات الصليبية التي كانت توجه إليها فقط، ثم تعود تلك العلاقات بعد انتهاء الهجمة أو الحملة لتستأنف من جديد، وتبعاً لذلك وجدت جاليات أوروبية مستقرة أو شبه مستقرة في معظم مدن إفريقية الهامة[١] تدفع بهذه الحركة التجارية نحو النمو والازدهار باستمرار.

فمنذ بداية تحول السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط لصالح القوى البحرية المسيحية في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) أخذت هذ القوى وأهمها المدن البحرية الإيطالية وبصفة خاصة جنوه وبيزا وإلى حد ما البندقية تعمل على تأسيس علاقات تجارية مع إفريقية وتتطلع دوماً إلى تطويرها وتدعيمها، ولعل ما ورد في بنود المعاهدة المعقودة بين تميم بن المعز بن باديس ورجار الأول سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م وشروط الصلح المعقودة بين تميم أيضاً والصليبيين إبان الهجوم على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كما أسلفنا القول ما يؤكد هذه الحقيقة، وإذا كانت الحوادث التي تلت هذا الهجوم والتي تمثلت في الزحف الصليبي إلى المشرق قد جذبت جل اهتمام المدن البحرية الإيطالية إلى شرق البحر الأبيض المتوسط للحصول على أكبر نصيب من التجارة الشرقية، فإن ذلك لا يعني إصابة هذه العلاقات التجارية بين إفريقية وتلك الدول بالفتور، ذلك أن النورمان هم الذي استأثروا بأكبر نصيب من هذه العلاقات وبالتالي من تجارة إفريقية منذ مطلع القرن التالي أي السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) والتي بلغت أوج ازدهارها في تلك الفترة وفي ظل الاحتلال النورماني

(١) لمزيد من التفصيل انظر : R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p. 432-39.

لساحلها كما سبق أن ذكرنا. ولا يعني ذلك أن النورمان احتكروا هذه التجارة، بل كان لإفريقية علاقات تجارية مع جهات أخرى، فقد احتفظت جنوة بنصيب كبير من نشاطها التجاري مع العديد من مدنها الساحلية[١]، إذا بلغ مجموع العقود التجارية التي أبرمتها مع إفريقية خلال الفترة من سنة ٥٥١هـ إلى ٥٦٠هـ / ١١٥٥ - ١١٦٤م (٧٣) ثلاثة وسبعين عقداً[٢]، كما أن بيزا وقعت في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م معاهدة تجارية مع عبد الله بن خراسان صاحب تونس آنذاك تعتبر إحدى أقدم المعاهدات التجارية والبحرية التي عقدت بين إفريقية والدول المسيحية[٣]، يضاف إلى ذلك نشاط بني حماد أصحاب بجاية في هذا الميدان والذين ربطتهم علاقات مماثلة مع هاتين المدينتين وغيرهما من البلدان المسيحية.

ومع أن سياسة الدولة الموحدية التي أصبحت إفريقية إحدى ولاياتها منذ سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م قد اتصفت بالتحفظ تجاه الدول المسيحية بل والتزمت أحياناً نظراً لما كانت تواجهه من ضغط الحركة الصليبية ومؤامراتها، إلا أن الحركة التجارية بين إفريقية وهذه الدول استمرت على حالها إن لم نقل إنها نمت وتطورت، فقد نجحت كل من بيزا وجنوة والبندقية وصقلية ثم مرسيليا في وقت لاحق في عقد المعاهدات التجارية مع خلفاء الموحدين، ومنها ما عقد معاهدات مماثلة مع ولاة إفريقية بتفويض من هؤلاء الخلفاء تكفل استمرار التبادل التجاري بينها وبين إفريقية[٤].

ففي سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م وقعت جنوة معاهدة تجارية مع عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين الأول كانت تجديداً للمعاهدة المبرمة بين الطرفين في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م حصلت بيزا على معاهدة مماثلة من أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدتها عشرون عاماً، والتي جددها ابنه المنصور سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م ثم الناصر سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م[٥]، وكانت هذه المعاهدات التي عقدت مع هؤلاء الخلفاء شاملة

---

(١) انظر : D.Abulafia : Op. Cit., p. 108-9.

(٢) D.Abulafia : Ibid, p. 99.

(٣) R.Brunschvig : Op. Cit., Tom II,p. 25.

(٤) انظر : R.Brunschvig : Ibid, Tom II,p. 25.

(٥) د. عبد الله العروري : المرجع السابق، ص ١٨٧ .

لجميع ولايات دولتهم وفي طليعتها إفريقية بطبيعة الحال. ومنذ تولي أبي زيد عبد الرحمن ولاية إفريقية (نحو سنة ٥٩٧ – ٥٩٩هـ / ١٢٠٠ – ١٢٠٢م)كان لمدينة بيزا مثلاً علاقات متواصلة مع هذا الوالي ومع الذين تولوا الولاية من بعده، وفي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م بعثت هذه المدينة سفيراً لها إلى تونس للتفاوض مع والي إفريقية الشيخ أبي محمد عبد الواحد بشأن تدعيم العلاقات بين الجانبين[١]، وخطت صقلية وعلى رأسها الملك الشاب فردريك الثاني خطوة هامة في هذا المضمار بعد ذلك بعشر سنوات، إذ في منتصف جمادى الآخرة سنة ٦١٨هـ / ٥ أغسطس سنة ١٢٢١م أرسل سفيره فيبالد (Vibald) إلى تونس حيث استطاع هذا عقد معاهدة تجارية مع الوالي أبي إسحق إبراهيم تتسم بالدقة والوضوح، إذ من ضمن ما ورد فيها من بنود، وجدت شروط تقتضي بإقرار السلام بين الجانبين لمدة عشر سنوات وحق البلدين في ممارسة النشاط التجاري[٢]، وقد أصبحت هذه الشروط نموذجاً احتذي به في المعاهدات التجارية التالية بين إفريقية والدول المسيحية. وفي سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م تمكن سفيرا جنوة (Marchisio Scriba وSimon de Bulgaro) من الحصول على معاهدة تجارية لبلدهما من والي إفريقية السيد أبي العلاء المؤمني كان من شروطها حصول الجنويين على فندق وحمام ومخبز في مدينة تونس أسوة بالبيازنة الذين كانوا قد حصلوا على مثل ذلك منذ مدة طويلة، وبعد أربع سنوات من هذا التاريخ أرسلت البندقية سفيراً لها إلى تونس لنفس الغرض، ومن غير المعروف فيما إذا كان هذا السفير قد نجح في مهمته أم لا[٣].

ومنذ استقلال الأمير أبي زكريا الأول الحفصي بإفريقية عن الدولة الموحدية وشروعه في إرساء قواعد الدولة الحفصية، استحوذت العلاقات التجارية لدولته الفتية مع الدول المسيحية على قسط كبير من اهتمامهم وبذل جهوداً كبيرة في سبيل تنشيط تجارة إفريقية مع تلك الدول، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي عقدها معها، وقيام الدول المذكورة بتعيين

---

(١) انظر : R.Brunschvig : Op. Cit., Tom II,p. 25-26

كذلك د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس، ص ٤٤ .

(٢) انظر : R.Brunschvig : Ibid, Tom II,p. 26.

(٣) انظر : R.Brunschvig : Ibid, Tom II,p. 26-27.

قناصل لها في إفريقية[١] لرعاية مصالحها التجارية، فقد عقد معاهدات مع كل من البندقية (أكتوبر – نوفمبر سنة ١٢٣١م / ٦٢٩هـ)، وبيزا (أواخر أغسطس سنة ١٢٣٤م / ٦٣١هـ)، وجنوة (في ١٠ يونيو سنة ١٢٣٦م / ٦٣٣هـ) على يد سفرائها وهم على التوالي (Piere Delfino) و(Tediccio Lamberti Ugoccime) و(Conrad de Castro) تنظم علاقات إفريقية التجارية مع الدول الثلاث وكانت مددها أربعين سنة مع البندقية، وثلاثين سنة مع بيزا، وعشر سنوات فقط مع جنوة[٢]، كما أن هنالك عدة دلائل تشير إلى أن تجار مدينة مرسيليا أيضاً كانوا يترددون على موانيء إفريقية بانتظام، إذ أن قوانين تلك المدينة المؤرخة في يناير سنة ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ تنظم بيع الخمور لفنادق مدينتي تونس وبجاية، كما أنها في سنة ١٢٢٣م / ٦٣٠هـ أوفدت (Guillaume Charvel) في مهمة تجارية إلى بجاية ثم عينته قنصلاً لها في تلك المدينة في نفس ذلك العام، وكان من أشهر من عرف من أهل مرسيليا بعلاقاته التجارية مع إفريقية بل والمغرب العربي بأسره عائلة (Manduel) التي سيطرت على تجارة مرسيليا مع المغرب العربي لمدة تزيد عن النصف قرن[٣]، كما يمكننا القول بأن لانجدوق ومونبلييه وناربونة كانت لها هي الأخرى وقتئذ نشاطات تجارية مع إفريقية[٤].

وأما صقلية فقد توثقت العلاقات بين أبي زكريا الأول والإمبراطور فردريك الثاني، فأرسل الإمبراطور في سنة ١٢٣١م / ٦٢٩هـ قنصلين إلى تونس هما (Henricus Abbas) و(Peter Capuanus)[٥]، ثم عقدت في سنة ١٢٣٩م معاهدة بين الطرفين هي التي سبق أن تعرضنا لها. وقد أتاح الاستقرار السياسي الذي نعمت به إفريقية في عهد الأمير المذكور الفرصة للتبادل التجاري بينها وبين الدول المسيحية للنمو باضطراد حتى بلغت أوج نشاطها في عهد ابنه وخليفته المستنصر الأول [٦]، وإذا كان هذا النشاط قد توقف لفترة بسيطة إبان

---

(١) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر : R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p. 435-9.

(٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر : R.Brunschvig : Ibid, Tom I,p.27-9.

(٣) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر : Gisele Chovin : Op. Cit., p.274.

(٤) R.Brunschvig : Ibid, Tom I,p.29

(٥) انظر : G.P. Guttıno : English Diplomatic Administration, 141, Thomas C.V. Celve : Op. Cit., p. 271., N. Daniel : Op. Cit., p. 162-3.

(٦) لمزيد من التفصيل انظر : C.E. Dufourcq : Op. Cit., p. 93-99, R.Brunschvig : Op. Cit.,=

حملة لويس التاسع عشر على تونس سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م فإنه لم يلبث أن استؤنف كما سبق ذكره. وبالرغم من أن إفريقية شهدت عصراً من الفوضى والاضطراب السياسي بعد وفاة المستنصر الأول، إلا أن هذا النشاط التجاري الذي دخل التجار القطلان رعايا مملكة أرغونة طرفاً نشطاً فيه منذ بداية الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)(١) لم يتوقف، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي عقدت بين سلاطين بني حفص والدولة المسيحية ثم المراسلات بين الطرفين التي سبق أن تعرضنا لبعضها مما يغني عن التفصيل الذي لن يتسع له هذا العرض الموجز.

وخلاصة القول، إن التبادل التجاري النشط بين إفريقية ودول جنوب غرب أوروبا بدأ مع بداية عصر الحروب الصليبية واستمر إلى ما بعد نهاية العصور الوسطى، وكانت أهم السلع التي تصدرها إفريقية إلي أوروبا في هذا التبادل هي التمور والملح والصوف والمرجان والرصاص والجلود والشب والشمع وزيت الزيتون والأسماك والسجاد، ثم منتجات قلب القارة الإفريقية كالذهب وريش النعام والعاج والرقيق، وتستورد في المقابل الحبوب عند الضرورة والبلور والخشب المصنوع والمعادن والأسلحة وبعض أنواع المنسوجات، ومن خلال هذه العلاقات التجارية المزدهرة تسربت العديد من مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، إذ وكما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور من الصعب الفصل بين التبادل التجاري والتبادل الفكري والثقافي(٢) وبخاصة في تلك العصور، وإذا أضفنا إلى ذلك نشاط رهبان حركة التنصير في إفريقية، ذلك النشاط الذي غطى فترة طويلة من عصر الحروب الصليبية كما سبق أن ذكرنا، والذين لم يكونوا يقلون ثقافة بل وتخصصاً عن طلاب العلم الذين انتجعوا معبري الأندلس وصقلية، ثم الفئات الأخرى من الأوروبيين الذي قضوا في إفريقية فترات من حياتهم سواء طالت تلك الفترات أو قصرت مثل الحرس المسيحي في البلاط الحفصي وأسرى الحروب وبصفة خاصة نتيجة لنشاط غزاة البحر

= Tom I,p.42-53.

(١) لمزيد من التفصيل انظر R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p.63-64

C.E. Dufourcq : Op. Cit., p. 422-448.

(٢) د. سعيد عاشور أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص ٢٨ .

المسلمين وما يقابلهم من أسرى مسلمي إفريقية الذين كانوا يؤخذون إلى أوروبا، ثم أعضاء المنظمات التي تخصصت في فداء الأسرى الذين كانوا يتوافدون إلى إفريقية باستمرار، وأخيراً أقارب جواري سلاطين وأمراء بني حفص وأكابر رجالات دولتهم كما سبق ذكره، لأدركنا أن اتصال الأوروبيين بإفريقية كان وثيقاً خلال ذلك العصر مما جعلها تكون معبراً حضارياً مباشراً وتصبح بذلك المعبر الرابع من معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، والذي تتجلى أهميته في النواحي التالية : الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية.

أ – الناحية الاقتصادية :

شهد الاقتصاد الأوروبي في عصر الحروب الصليبية طفرة كبيرة نتيجة لازدهار التجارة بين أوروبا الغربية والمسلمين لا سيما في إفريقية والمشرق شملت جميع نواحيه، الأمر الذي أحدث تغييرات جذرية في مجتمع غرب أوروبا ودفعت بهذا المجتمع دفعة قوية نحو التحرر من قيود العصور الوسطى وجعلته يسير بخطى حثيثة للتقدم الذي تمخض عن النهضة الأوروبية الحديثة. فقد أدى ازدهار التجارة إلى ازدياد الثروة في يد التجار الأمر الذي أدى بدوره إلى بروز الطبقة الوسطى. ولم تلبث هذه الطبقة أن أخذت تناضل من أجل الحصول على امتيازات تتناسب وإمكانياتها المادية ضد طبقة النبلاء التي كانت تملك الامتيازات دون أن يكون لدى الكثير من أبنائها مثل تلك الإمكانيات بسبب نظام الوراثة الذي كان يمنح الابن الأكبر كل شيء ويترك باقي الأبناء صفر اليدين من ناحية، ثم لإفلاس العديد من هؤلاء بسبب صرفهم على الحملات الصليبية من ناحية ثانية، هذا النضال الذي دخل فيه الملوك الذين كانوا هم الآخرون يرغبون في التخلص من نفوذ النبلاء، دخلوا طرفاً ثانياً إلى جانب التجار، والذي أسفر عن انهيار نظام الإقطاع، وانهيار هذا النظام وازدياد سلطة الملوك أدى إلى ضعف نفوذ البابوية، إذ بخروج الملوك أقوياء من صراعهم مع النبلاء والإقطاعيين بدأت فكرة الدولة القوية التي يقف على رأسها ملك قوي تتضح في أذهان الأوروبيين الذين لمسوا الفرق الشاسع بين هذه الدولة وما كان في السابق من إمارات إقطاعية متعددة ومتنازعة، فأصبح الناس يشعرون بأن مثل هذه الدولة ضرورية للحياة الآمنة المستقرة، فكان هذا التأييد الشعبي للملوك عاملاً هاماً في ازدياد نفوذهم مما جعل البابوية لا

تقوى على مناوأتهم. وأدى تركيز التجار في المدن إلى اجتذاب الصناع والحرفيين إلى تلك المدن، فقد وجد التجار في إنتاج هؤلاء سلعة رائجة فشجعوهم على زيادة إنتاجهم الأمر الذي كان له أثر فعال في ازدهار الصناعة. وكما اجتذبت المدن الصناع والحرفيين، اجتذبت أيضاً الرقيق وأقنان الأرض الذين كانوا يجدون فيها الحرية والحياة الكريمة التي كانوا يحلمون بها حيث رحبت تلك المدن بهجرة هؤلاء إليها لأنهم كانوا يزيدون من قدراتهم الإنتاجية ثم الدفاعية في نضالها ضد الإقطاعيين، فأدى ذلك إلى نمو تلك المدن وازدهارها المستمر، ومن رحاب هذه المدن انبثقت النهضة الأوروبية الحديثة، فهي التي أسست الجامعات واحتضنت العلوم والفنون ورجالات الفكر والثقافة. وبتجمع هذا الخليط من الناس في هذه المدن ظهرت النقابات الحرفية (Gilds) إذ انتظم أصحاب كل مهنة في نقابة لحماية مصالحهم[1]. ولم يكن لازدهار المدن أية آثار سلبية على الزراعة، بل العكس هو الصحيح إذ كانت حافزاً قوياً للفلاحين لزيادة إنتاجهم، ذلك أن سكان المدن أخذوا يعتمدون على الريف في مدهم بحاجتهم من الغذاء، مما حفز الإقطاعيين على إلغاء السخرة واعتماد الإيجار النقدي لزيادة الإنتاج.

ولم يقتصر أثر التجارة على ذلك، وإنما تعداه ليؤثر بشكل مباشر في رأس المال الأوروبي، فكان أولاً أن ظهر رأس المال التجاري مستقلاً عن رأس المال الزراعي، ذلك أن الأرض كانت في السابق هي أساس الثروة وهي وحدها رأس المال، وكان المال السائل في ذلك الوقت متعطلاً، فكبار الملاك من الدنيويين والكنسيين الذين تركز في أيديهم ما كان يجري التداول به من مبالغ قليلة، لم يكن بوسعهم استثمار ذلك المال، وإن كانت بعض الأديرة تقرضه بالربا للنبلاء الذين كانوا يحتاجون إليه إبان الأزمات، ولأن القانون الكنسي يحرم ذلك، كانت هذه الوسيلة للاستثمار مؤقتة، والقاعدة العامة كانت هي اختزان المال أو تحويله إلى أوعية وحلي للكنيسة، فإذا ما دعت الحاجة إليه أعيد صهره من جديد[2]، فقام التجار بإطلاق هذا المال المجمد وأعادوه إلى وظيفته الصحيحة، فأخذوا يستثمرونه في

---

(١) جيمس وستفال تومسون وآخرون : حضارة عصر النهضة، ص ٧٠ – ٧١ .

(٢) د. السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى ص ٢١٠ .

التجارة، وبذلك ظهر أنه قابل للنمو والزيادة، فأصبح رأس المال التجاري مستقلاً عن رأس المال الزراعي، كما أصبحت التجارة مصدراً آخر من مصادر الثروة. ثم لم يلبث أن برز بعد ذلك رأس المال الصناعي، فقد كان الغرض من الإنتاج الصناعي قبل ذلك الوقت هو توفير اللازم من المواد المصنعة للاستهلاك المحلي وليس للبيع في الأسواق الخارجية، ولكن التجار وجدوا في المنتجات الصناعية سلعاً رائجة فشجعوا الصناع على زيادة إنتاجهم، فأصبح عمل هؤلاء مقتصراً على إنتاج بضائع للبيع، في حين كانت الزراعة والصناعة من قبل مهنتين متداخلتين[1]، فكان هذا التطور هو بداية التخصص الصناعي المستمر إلى الوقت الحاضر، وهو الذي يمثل القوة الهائلة في الإنتاج. وكانت المصنوعات تصنع في السابق تلبية لتكليف خاص، فأصبحت تصنع لتباع حسب العرض والطلب، فظهرت الرأسمالية الصناعية تبعاً لذلك لتمويل الحصول على المواد الخام وتسويق المنتجات المصنعة. ومضى رأس المال الصناعي في النمو حتى استقل بذاته عن رأس المال التجاري، وكانت هذه التغييرات التي طرأت على رأس المال هي من أهم العوامل التي دفعت بالاقتصاد الأوروبي إلى الأمام كما كانت في الوقت ذاته هي التربة التي نبتت فيها بذرة الاستعمار الأوروبي الحديث، إذ كان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة والوصول إلى أسواق جديدة لتصريف الإنتاج أهم دوافع هذا الاستعمار.

ولمواجهة متطلبات هذا النشاط الاقتصادي المتزايد، بدأ التجار يستعملون طريقة التعاقد الكتابي حفظاً للحقوق، وهي طريقة نقلوها عن المسلمين، واختفت المحاكمات التي كانت شائعة في عصر الإقطاع كالمبارزة والكي بالنار لتحل محلها المحاكم التجارية التي تنظر في خصومات التجار على ضوء العادات والتقاليد التي اصطلحوا عليها والتي تطورت لتصبح فيما بعد قواعد قانونية في القانون التجاري[2]، كما بدؤوا في استعمال الصكوك (الشيكاتCheques) والسفاتج (الحوالات Bills of Exchange) وهي نظم إسلامية[3]، وظهرت المصارف والبيوتات المالية واتخذت لها فروعاً في إفريقية والمشرق وأصبحت

(١) ج. كرامب، أ. جاكوب : تراث العصور الوسطى، ج٢، ص ٦١٦ .
(٢) د. السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ص ١٢٩ .
(٣) روم لاندو : الإسلام والعرب، ص ١١٦ .

تساعد التجار في عقد الصفقات التجارية وتقبل الودائع وصرف الشيكات وإقراض الأموال للعملاء[١]. وقد لمعت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) عدة أسماء من التجار الذين كانوا يتعاملون مع إفريقية في هذا المضمار منهم آل أكياولي (Acciaiuoli) وبروجي (Perruzi) من فلورنسة الذين فتحوا في تونس وكالات مستقرة[٢]. كما ظهر نوع من الشركات التجارية لم تكن معروفة من قبل كانت الأصل الذي انبثقت عنه الشركات المساهمة فيما بعد، ومع أنه لم يعرف بالتحديد متى نشأت هذه الشركات في أوروبا، إلا أنه يعتقد أنها تطور لعملية المشاركة في السفن التي ظهرت في جنوة في القرن الثاني عشر[٣]، ولما لم يكن هذا النوع من المشاركة معروفاً قبل الحروب الصليبية، فأغلب الظن أن التجار الإيطاليين نقلوه عن المسلمين، إذ تطورت عملية المشاركة في السفن إلى أن أصبحت مشاركة في التجارة نفسها، وهي ما سمي (Compagnia)[٤]، وكانت في البداية تتم بين الأقارب ثم تعدت الأقارب للآخرين، وتقوم هذه المشاركة على أساس إسهام جماعة من التجار في رأس مال تجارة معينة وأن يعهدوا لأحدهم أو لبعضهم بالسفر ويقيم الباقون في أرض الوطن، ويتفق الشريك المقيم مع الشريك المسافر على نسبة من الربح أو نسبة معينة من الفائدة على رأس ماله، وفي الحالة الأولى يكون شريكاً مساهماً أو حامل أسهم، أما في الحالة الثانية فيكون شريكاً دائناً أو حامل سندات، والنوع الأول هو أصل الشركات المساهمة، وأشهر الأمثلة لهذا النوع من الشركات كان مصرف سانت جورج في جنوة الذي تأسس سنة ١٤٠٩م، كما طبقت هذه الفكرة في صناعة الحديد في ليون سنة ١٤١٥م[٥].

ولسنا نزعم بطبيعة الحال بعد هذا العرض السريع للتطورات التي جدت على الاقتصاد الأوروبي في عصر الحروب الصليبية، بأن هذه التطورات إنما كانت نتيجة لاتصال الأوروبيين بإفريقية فقط، ولكن مما لا شك فيه هو أن التبادل التجاري مع إفريقية الذي سبق

---

(١) ج. كرامب، أ. جاكوب : المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢٢ .
(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٦ .
(٣) ج. كرامب، أ. جاكوب : المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢٢ وما بعدها.
(٤) د. السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ص ١٢٨ .
(٥) ج. كرامب، أ. جاكوب : المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢٤ .

أن أشرنا إليه قد أسهم بنصيب فيه، وعلاوة على هذه المساهمة، فإن إفريقية قد انفردت بجوانب أخرى من هذا التأثير، ذلك أن الغنيمة الضخمة التي حصلت عليها كل من جنوة وبيزا نتيجة للحملة على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م في ذلك الوقت المبكر من تاريخ نشاطهما التجاري قد وفر لكلا المدينتين جزءاً لا يستهان به من رأس المال الذي باشرتا باستثماره في التجارة سواء في السلع التجارية أو في إنشاء سفن جديدة وتوظيف بحارة جدد دعمتا بكليهما أسطوليهما التجاريين فضلاً عن تنفيذ بعض المشاريع الكبرى في كلا المدينتين، كما أن رجار الثاني والإمبراطور فريدريك الثاني من بعده قد كسبا أرباحاً كبيرة من تجارتهما مع إفريقية خاصة تجارة القمح كانت السبب في تدعيم اقتصاد مملكة الصقليتين في عهد كلا العاهلين وثباته وعدم تأثره بالأزمات، وظل اقتصاد هذه المملكة تبعاً لذلك يتمتع بمكانة مرموقة في أوروبا حتى انقضاء عهد الهوهنشتاوفن، وقد أمدت الغرامات الحربية من جراء الحملات الصليبية والأتاوات والحصص من عائدات الجمارك والموانئ في إفريقية خزائن الدول الأوروبية التي استفادت منها بمصدر جديد للمال خاصة صقلية وأرغونة الأمر الذي كان له أثره بلا شك على اقتصادهما، وقد أسهمت الغنائم والفدية التي حصلت عليها جنوة حين حملتها على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م في إنقاذ اقتصادها من الانهيار بعد هزيمتها الساحقة أمام البندقية قبل تلك الحملة بفترة وجيزة كما سبق أن أسلفنا فضلاً عن أن إفريقية أصبحت المتنفس الهام لتجارة جنوة بعد حرمانها من سوق المشرق بسبب تلك الهزيمة وينطبق نفس القول على نتيجة حملتها على جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م. هذا بالإضافة إلى أن صوف إفريقية الخام الذي كانت تنقله جنوة وبيزا إلى الأراضي المنخفضة كان يسد جزءاً لا يستهان به من حاجة مصانع النسيج في بروج من هذه المادة إلى جانب الصوف الإنجليزي.

وقد أسهمت إفريقية بدور فعال في إعادة استعمال الذهب في النقد في أوروبا، ذلك أنه بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية اختفى النقد الذهبي من غرب أوروبا إلى حد بعيد، ومنذ بدء الفتوحات الإسلامية في غرب البحر الأبيض المتوسط وحتى بداية عصر الحروب الصليبية كان الذهب لا يستعمل في النقد في أوروبا الغربية باستثناء الأندلس وصقلية

الإسلاميتين إلا في أضيق الحدود، وكانت النقود الفضية هي الشائعة في تلك المنطقة، نظراً لقلة الذهب، ومنذ بداية اتصال نورمان صقلية بمسلمي إفريقية ظهرت حاجتهم للنقد الذهبي لكسب ثقة التجار المسلمين كما جرى الأمر بالنسبة للإمارات الصليبية في المشرق، وكلما ازداد حجم التبادل التجاري بين إفريقية وصقلية النورمانية اشتدت الحاجة لهذا النوع من النقد، فكان أن سك رجار الثاني عملته الذهبية سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م، وعقب احتلاله لساحل إفريقية وحرصاً منه على تنشيط حركة التجارة بين شطري مملكته، قام بضرب دنانير ذهبية في المهدية والتي كانت تقليداً للدنانير الفاطمية فكانت إسلامية الصيغة والوزن والطراز، واقتفى ابنه وخليفته وليام الأول أثره في ذلك فضرب هو الآخر في المهدية عملة مشابهة[(١)]، وتلاهما بعد ذلك الإمبراطور فردريك الثاني حيث أصدر نقوداً ذهبية لمواجهة متطلبات الحركة التجارية النشطة بين صقلية وإفريقية في عهده، ثم قلدته فلورنسة فسكت عملتها الذهبية المسماة الفلورين في سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م، وسك لويس التاسع الليرة الذهبية سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م، والبندقية سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م، وبذلك شاع استعمال هذا النقد في أوروبا وأصبح هو أساس التعامل من جديد مما جعل الاقتصاد الأوروبي يصبح قائماً على النقد، وبذلك استكملت أوروبا أساس التي قام عليها اقتصادها المتين.

وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن وجود الأسرى من كل طرف في بلاد الطرف الآخر طوال هذا العصر عاد على أوروبا بفوائد كثيرة، ذلك أن الأسرى من مسلمي إفريقية الذين كان يأخذهم الصليبيون أو يتخطفهم القراصنة في هجماتهم كانوا يباعون في أسواق الرقيق في أوروبا فكانوا يسخرون في أعمال الفلاحة أو الصناعة، فبالإضافة إلى أنهم كانوا يوفرون أيد عاملة مدربة كل في مجال اختصاصه رخيصة التكاليف مما يزيد في القدرة الإنتاجية، كانوا يدربون المحيطين بهم على طرق ووسائل متقدمة في أعمال الفلاحة والصناعة فضلاً عن إسهامهم في نقل صناعات وفنون صناعية جديدة، وأما الأسرى الأوروبيين الذين كانوا يؤخذون إلى إفريقية فكانوا هم الآخرون يتعلمون من المسلمين حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم نشروا ما تعلموه بين مواطنيهم، فكان لذلك أثره بلا ريب على الاقتصاد الأوروبي فضلاً عن

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه العملة انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٤٥١ – ٤٥٢ .

آثاره الاجتماعية.

ونتيجة لهذا الاتصال الطويل والمباشر بين الأوروبيين ومسلمي إفريقية، تعلم الأوروبيون بعض الصناعات ونقلوها إلى بلادهم، فقد نقل أهل بيزا صناعة الشمع من بجاية إلى بلدهم ومنها انتقلت صناعته إلى البلدان الأوروبية الأخرى، ولا يزال مسمى الشمع عندهم هو بوجي (Bougie) وهو اسم بجاية في نطقهم الإفرنجي(١)، كما يعتقد أن بعض الفنون الصناعية(٢) قد تسربت إلى أوروبا من خلال هذا الاتصال مثل صناعة بعض أنواع الخزف الذي اشتهرت به إفريقية، وبعض أساليب الحفر على الخشب والتكفيت والتطعيم والكتابة المذهبة على الجلد بواسطة أداة محماة وغيرها. ثم بعض الصناعات المتعلقة بالسلع الاستهلاكية كدباغة الجلود بأساليب لم تكن معروفة في أوروبا من قبل، والصباغة ومزج الألوان اللازمة لها بوسائل كيميائية لتثبيتها على النسيج واستحداث ألوان أخرى جديدة، ثم تقطير بعض أنواع العطور، وصناعة الزرابي الرفيعة المستوى، وهي صناعة اشتهرت بها إفريقية من بين أقطار المغرب الإسلامي، إلى غير ذلك.

ب – الناحية الثقافية :

من الثابت أن احتكاك الأوروبيين بالمسلمين منذ بداية عصر الحروب الصليبية كان له أثر فعال في فتح أعين الأوروبيين على ماكانوا فيه من تخلف، وجعلهم يضيقون بتزمت الكنيسة التي حصرت تفكيرهم داخل إطار ضيق، مما جعلهم يأخذون في التطلع إلى حياة علمية وفكرية أخصب وأوسع أفقاً وأكثر تنوعاً، فولوا وجوههم شطر حضارة أعدائهم المسلمين، وأقبلوا على دراسة علومهم في شراهة بالغة وحماسة كبيرة، على أن استفادتهم من خلاصة الفكر العربي الإسلامي لم تتم إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة، عكف فيها فريق من المستعربين على نقل الكثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية، وبذلك تمكن أهل

---

(١) انظرعبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق، ج١، ص ٣٨٤ .

(٢) الفنون الصناعية هي جميع المنتجات المصنوعة بطرق يدوية وتكون مشربة بروح الفن الجميل مثل الزجاج الفني والخزف والنجارة والصياغة والتكفيت والتطعيم وغير ذلك (انظر غوستاف لوبون : المرجع السابق، ص ٣٣٧).

أوروبا الغربية من الاستفادة مما أنتجته قرائح العرب المسلمين على نطاق واسع(١)، ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأن إفريقية تميزت بدور طليعي في حركة نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا، فمنها وصلت الجرعة الأولى من تلك العلوم إلى أوروبا عن طريق واحد من أوائل هؤلاء المستعربين الذي اضطلعوا بهذا الدور ومن أكثرهم شهرة، وإليها ينسب، هو قسطنطين الإفريقي Constantinus Africanus الذي فتح بجهوده عصر ترجمة العلوم العربية الإسلامية إلى اللاتينية.

ولد قسطنطين الإفريقي في قرطاجة سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م وكانت آنذاك قرية صغيرة، وتلقى علومه الأولية في مدينة تونس، ثم انتقل بعد ذلك إلى القيروان التي كانت وقتئذ في أوج مجدها الحضاري، فأقام بها مدة طويلة يأخذ عن علمائها حتى لقن علوم العربية والرياضيات والطب والفلك، وتزعم العديد من المصادر المسيحية والتي استقت معظم معلوماتها عنه من المصنف الذي وضعه بطرس الشماس Peter the Deacon أحد رهبان دير مونت كاسينو عن حياة قسطنطين وأعماله، أن قسطنطين رحل من القيروان إلى مصر ومنها إلى الشرق ليدرس علوم المنطق والرياضيات والفلك والروحانيات والموسيقى وعلم النفس عند الكلدان والعرب والفرس والهنود، وتورد قصصاً تضفي على شخصيته هالة مزجت فيها البطولة بالغموض والتشويش كما هو دأبها حين تعرضها لسير من تعتبرهم أبطالاً للمسيحية بحيث تخفي في ثنايا هذا التمجيد الأبعاد الحقيقية للشخصية التي تؤرخ لها، ومن أغرب ما تنسبه هذه المصادر لقسطنطين أنه وصل إلى الهند ثم سافر منها إلى أثيوبيا لاستكمال دراسته فيها(٢)، ولا يسعنا بطبيعة الحال قبول هذه المزاعم التي تعتبر في عداد الأساطير ولا تدخل في نطاق التاريخ، ولكن ما هو ثابت تاريخياً أنه رحل إلى مصر شأنه في ذلك شأن العديد من طلاب العلم في المغرب الإسلامي، ومن غير المستبعد أن يكون قد رحل من مصر إلى العراق وبلاد الشام، وأياً كان الأمر، فإن ما ترمي إليه الأساطير التي أوردتها هذه المصادر عن رحلاته هو إبراز جهوده في طلب العلم للتدليل على سعة

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٥٩ – ٦٠ .

(٢) انظر عن ذلك : N.Daniel : Op. Cit., p,143.

ثقافته، وهو أمر ثابت فعلاً إذ أن الكثير من الدلائل تشير إلى أنه اكتسب حصيلة علمية ممتازة، وبعد استكمال تحصيله العلمي عاد إلى بلده.

لم يشتغل قسطنطين بالعلم عند عودته، وإنما احترف التجارة، وبحكم طبيعة هذه المهنة كانت له صلات بصقلية وجنوب إيطاليا، وأثناء إحدى رحلاته إلى إيطاليا سعياً وراء تجارته أتيحت له فرصة الاتصال بجيزولف أمير سالرنو(١) الذي حينما لمس سعة ثقافته أكرمه ورفع من شأنه، ورغب في إبقائه عنده إعجاباً بشخصيته وسعة علمه، ولكن قسطنطين رغب في العودة إلى بلاده، وتفيد روايات عديدة أنه بعد عودته أثار كراهية مواطنيه له دون أن تبدي أسباب ذلك(٢)، وربما كان ذلك نتيجة للنشاط المشبوه الذي بدأ يمارسه، ولم يطق حيال هذا الوضع البقاء في إفريقية طويلاً، فغادرها إلى صقلية مصطحباً معه كنزاً ثميناً من الكتب العلمية، والتحق بأمير سالرنو الذي رحب به، وكان أن التحق بدير مونت كاسينو (Monte Cassino) كراهب أولاً ثم رئيساً له بعد ذلك. وفي ذلك الدير عكف على دراسة اللغة اللاتينية حتى أجادها، وبذلك اكتملت له عناصر المؤهلات التي ساعدته في إنجاز العمل الضخم الذي أهله لأن يتبوأ مكانته السامية في عملية نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا، إذ أنه منذ ذلك الوقت بدأ في ترجمة الكتب العلمية التي أحضرها معه إلى اللغة اللاتينية، والتي تعتبر من أفضل إنتاج القريحة العربية الإسلامية، وكان من أهم ما ترجمه عدد من الكتب الطبية التي تلقفتها جامعة سالرنو التي لم تكن آنذاك جامعة، وإنما مدرسة تعتمد الدراسة فيها على بعض كتب أطباء اليونان القدامى مثل هيبوقراط وجالن التي ترجم بعضها إلى اللاتينية في القرن السادس(٣)، والتي كان كثير من المعلومات الواردة فيها متخلفة عما وصل إليه أطباء المسلمين، لذلك وبفضل هذه الكتب أخذت هذه المدرسة تنال شهرة واسعة في العلوم الطبية مما يجعله المؤسس الحقيقي لتلك المدرسة، وبناء على هذه الشهرة قصدها المرضى للاستشفاء والطلاب للمدرسة، وواصلت نموها في ظل النورمان الذين أحاطوها بما أحاطوا به بقية

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب ورقات ق٣، ص ٣٩٣، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٢٠٠ .

(٢) انظر عن ذلك : N.Daniel : Op. Cit., p. 144.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٧٤ .

المؤسسات والدراسات العربية من رعاية وتشجيع، لتصبح جامعة سالرنو الشهيرة فيما بعد، والتي ظلت زهاء قرنين تتمتع بشهرة واسعة في ميدان الطب[1]، وكان من أشهر من قصدها للاستشفاء في تلك الآونة روبرت جيسكارد النورماني في سنة ١٠٩٩م بعد أن أصيب بجراح في الحروب الصليبية[2]. ومن مدرسة سالرنو شاعت تلك الكتب وتناقلتها الجامعات الأوروبية واحدة عن الأخرى، فمنها إلى جامعة نابلي، ثم إلى جامعة بادوا وهكذا راجت رواجاً كبيراً وظلت هي المعول عليها لمدة طويلة[3]، وعندما أدركته منيته سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كان قد ترجم ما يزيد عن اثنين وعشرين كتاباً من نفائس الكتب العلمية كانت الغذاء الفكري والعلمي للطبقة المثقفة في أوروبا لبضعة قرون.

إن جهود قسطنطين الإفريقي في نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا جعلت إفريقية تحرز قصب السبق كمعبر لهذه العلوم، فقد سبقت معبري الأندلس وصقلية بمدة تزيد عن النصف قرن، فكان لتلك الجهود أثرها في تهيئة أذهان الأوروبيين لتقبل سيل العلوم الذي تدفق عليهم فيما بعد من مختلف المعابر. يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور في وصفه لأهمية هذه الجهود : إنه كان لقسطنطين الإفريقي (فضل كبير على علم الطب في أوروبا)[4]، ويقول نورمان دانيال (N. Daniel) في ذلك : إن أعمال قسطنطين (كانت هي الجرعة الأولى من تأثير جسر الثقافة العربية على المعرفة الأوروبية)[5]، وأما توماس فان كليف (Thomas Curtiz Van Cleve) فيقول : (إنه ليس هنالك ثمة شك في أهمية قسطنطين في ازدهار الدراسات الطبية في سالرنو من خلال ترجماته عن العربية واليونانية)[6]، ويقول حسن حسني عبد الوهاب : إن أعمال قسطنطين (كانت المادة الأولى لتدريس

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١٦١ .

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٧٤ .

(٣) شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ق ١، ص ١٢٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٨، ق٣، ص ٣٩٣ - ٣٩٤، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص٢٠٠ - ٢٠١ T.C.Cleve : Op. Cit., p. 287, N.Daniel : Op. Cit., p.144

(٤) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج٢، ص ١٤٩ .

(٥) N.Daniel : Ibid, p. 263.

(٦) Thomas C.V. Cleve : Ibid, p. 288

تقنيات وطرق لا يملكها في ذلك الوقت إلا المسلمين)[1]. وتزداد أهمية إفريقية كمعبر حضاري إلى أوروبا بقدر أكبر فيما إذا علمنا أن الغالبية العظمى من الكتب التي قام قسطنطين الإفريقي بترجمتها، إنما كانت من إنتاج قرائح علماء القيروان مثل أحمد بن الجزار، وإسحق بن عمران، وإسحق الإسرائيلي، وأبي الحسين بن أبي الرجال كما سيأتي ذكره، ولم يعرف له ترجمة كتب لغير علماء القيروان إلا كتاباً واحداً في الطب هو (الكتاب الملكي) أو (كامل الصناعة) كما يدعى أحياناً لعلي بن العباس المجوسي، ومن غير المستبعد أن يكون قد استنسخه من القيروان أيضاً لأنه كان معروفاً بها.

وأما ما يؤخذ على قسطنطين الإفريقي من أخطاء في الترجمة فإن ذلك ليس بالأمر المستهجن في ترجمة كتب علمية محضة جافة المادة في ذلك العصر، وربما كان ذلك يعود إلى أنه قد يكون قام بترجمة الكتب التي ظهرت فيها هذه الأخطاء ولم يكن قد تمكن من اللاتينية بعد، أو ربما رغب في تبسيط مصطلحاتها لتيسير فهمها في ذلك العصر الذي ندرت فيه الثقافة في أوروبا فوقع فيها، وأما كونه قد نسب تلك الكتب لنفسه فلعل السبب في ذلك يعود إلى أنه كان يخشى إذا نسبها لأصحابها المسلمين أن يحول التعصب المسيحي دون اهتمام الناس بها بل وربما محاربتها وبالتالي عدم انتشارها، فكانت نسبتها إليه كراهب من دير مونت كاسينو تفتح أمامها الأبواب ويتقبلها الناس القبول الحسن وينتفعون بها[2]. وعلى أية حال فإن كلا هذين المأخذين لا يقللان من أهمية هذه الجهود، إذ أن أوروبا أفادت منها فائدة كبيرة. وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن الدراسات قد كشفت عن جانب هام آخر من جوانب شخصية قسطنطين هو ميوله الصليبية، فبالإضافة إلى أنه كان المخطط والموجه للحملة الصليبية التي وجهت إلى المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كما سبق ذكره، كان يسعى إلى تسخير العلم والمعرفة لخدمة الحركة الصليبية، فقد كان أول من نادى بضرورة الاطلاع على ثقافة المسلمين لزيادة المعرفة بهم وبالتالي تسهل مهاجمة معتقداتهم، وكان يرى أن أفضل وسيلة لذلك هي تعلم اللغة العربية، لهذا كان يحث رهبان دير مونت كاسينو دائماً على

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣، ص ٣٩٤ .

(٢) انظر شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ق١، ص ١٢٥ .

تعلمها بل إنه كان يقوم بتدريسها لهم بنفسه، فكان بذلك قد وضع حجر الأساس لفكرة الصليبية السلمية التي سعى رامون لول وأمثاله لتحقيقها بعد ذلك.

ولم يقتصر أثر قسطنطين الإفريقي على الحركة العلمية في أوروبا على ما ترجمه من كتب، وإنما تعداها إلى جانب آخر هو تلمذة نخبة من علماء أوروبا على يده، حيث أخذوا عنه في فروع مختلفة من العلم والمعرفة والذين خطوا بالحركة العلمية الأوروبية خطوة واسعة نحو التقدم، ومن أشهر هؤلاء حنا فلاخيوس (John Afflacius) الذي بالرغم من الغموض الذي يكتنف شخصيته شأنه في ذلك شأن أستاذه، لما نسج حوله من أساطير وما نسب إليه من خوارق، إلا أن من الثابت أنه ظل يؤثر في تلك الحركة تأثيراً قوياً طوال القرن الثاني عشر بأسره[1]، ثم ألفانوس (Alfanus) الذي كان له هو الآخر أثر قوي على تلك الحركة، والذي دلت الدراسات الحديثة أنه تتلمذ عليه بعكس ما كان يعتقد في السابق أنه لم يكن له علاقة بقسطنطين[2] وبالرغم من أن العلوم العربية الإسلامية أخذت تتسرب إلى أوروبا بعد قسطنطين من المعابر الأخرى، إلا أن ذلك لم يعطل معبر إفريقية الذي استمر في أداء دوره وهو ما سنتناوله بشيء من التفصيل فيما يلي :

الطب والصيدلة :

كان كتاب (زاد المسافر وقوت الحاضر) الذي صنَّفه أحمد بن الجزار شيخ أطباء إفريقية في طليعة الكتب الطبية التي قام قسطنطين الإفريقي بترجمتها، ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب الطبية العلمية التي صنَّفها المسلمون، ويوجد منه حالياً عدة نسخ محفوظة في المكتبات الأوروبية والشرقية العمومية والخصوصية، منها المكتبة الوطنية بباريس وفي الجزائر ودرسدن بألمانيا وفي مكتبة بودليان بأكسفورد، ومكتبة هافانا بهولندا وفي رنبور بالهند[3]. يقع هذا الكتاب في مجلدين ويتضمن عدة أقسام منها كتاب المعدة، وكتاب العيون، وكتاب النبات الطبي، وكتاب الحمية للمرضى، وكتاب طبيعة الإنسان ووظائف

---

(١) انظر عن ذلك : N.Daniel : Op. Cit., p. 263. Thomas C.V. Cleve : Op. Cit., p. 287.

(٢) انظر عن ذلك : N.Daniel : Ibid, p. 263.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٣ .

الأعضاء، وكتاب الحيوان وما إلى ذلك، وحينما ترجمه قسطنطين إلى اللاتينية سماه (Peragrinantis Viaticum) وتعني زاد المسافر، ومنذ ذلك الوقت شاع أمره في أوروبا وظهرت له عدة ترجمات، فبالإضافة إلى ترجمته اللاتينية، ترجم إلى اليونانية باسم (Ephodes) ويوجد من هاتين الترجمتين نسخ عديدة بمكتبات أوروبا، منها في المكتبة الوطنية بباريس، وفي المتحف البريطاني بلندن، وفي فلورنسا بإيطاليا، وأقدم هذه النسخ جميعاً هي تلك المحفوظة بمكتبة الفاتيكان بروما وتاريخها أواخر القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) أي بعد وفاة ابن الجزار بقليل. كما قام طبيب يهودي أندلسي يسمي موسى بن طيبون بترجمته إلى العبرية بعنوان (تزداد هاشم)، ويوجد من هذه الترجمة بضع نسخ في إيطاليا وإنكلترا[١]. كما أعيدت ترجمة بعض فصوله عدة مرات إلى لغات مختلفة وكتبت عنه مقالات عديدة[٢]، وكانت هذه الترجمات سبباً رئيسياً في شيوع طريقة ابن الجزار في تشخيص المرض وأساليب معالجته وجعلها الطريق المعتمدة في أوروبا لمدة طويلة.

وبالإضافة إلى كتاب (زاد المسافر) قام قسطنطين بترجمة (كتاب المالنخوليا Melancolia) والذي ألفة الطبيب إسحق بن عمران، وهو في وصف أمراض الوسواس أو المرض السوداوي، وطرق معالجته، وهو من أشهر كتب الطب الإسلامية التي تعرضت لهذا المرض، وقد قال ابن جلجل في طبقاته : إنه (لم يسبق إلى مثله)، وقد راج هذا الكتاب في أوروبا رواجاً كبيراً، فكان أول كتاب طبي بأسلوب علمي يصل إلى أوروبا عن هذا المرض، وكان سبباً رئيسياً في القضاء على الأسلوب الذي كان متبعاً بها في معالجة هذا المرض بالذات والذي كان أكثر اعتماده على الخرافات وأعمال الشعوذة والتي ما كانت تزيد المريض إلا شقاء وطول معاناة دون ما شفاء. كما ترجم كتاب الحميات باسم (Liber de Febribus)، وكتاب البول باسم (Liber de Urinus)، وكتاب العناصر باسم (Liber de Elementis)، وكتاب الحدود والرسوم باسم (Liber de Definintionibus) وسبع مقالات أخرى في الطب وكلها من تأليف الطبيب إسحق بن سليمان الإسرائيلي، وقد طبعت الترجمة اللاتينية

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٣ – ٣١٤، كذلك أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٤ .

لها في ليون سنة ١٥١٥م بعنوان (Opera Isaci)[(١)] كما أعيد طبعها في مجلدين ضخمين بمدينة بال بسويسرا ما بين سنة ١٥٣٦ وسنة ١٥٣٩م، سمي الأول منهما باسم (Morborum Cognitione) والثاني (Opera Reliquat)[(٢)]، ولم يكتف قسطنطين بترجمة كتب أطباء إفريقية بل ترجم قسماً من (الكتاب الملكي) أو (كامل الصناعة) لعلي بن العباس الذي كان مؤلفه قد أهداه إلى السلطان عضد الدولة البويهي، وهو في الطب العملي بين فيه طرق العلاج، والذي كان من أحسن ما وصفه فيه مرض الجدري وأسبابه الظاهرية والباطنية وطرق علاجه، أما قسطنطين فقد سمى ترجمته (Practica Pantegni)، وقد أعاد أسطفان الأنطاكي (Estienne D'Antioche) ترجمته فيما بعد، وكانت هذه الترجمة هي التي كشفت حقيقة قسطنطين بأنه مترجم وليس بمؤلف.

ولم تكن جهود قسطنطين الإفريقي هي الوحيدة التي انتقلت من خلالها كتب أطباء القيروان إلى أوروبا، بل تلتها جهود أخرى، ففي سنة ٧٣٤هـ \ ١٣٣٣م قام قسيس إسباني يدعى أسطيفان السرقسطي بترجمة كتاب آخر لابن الجزار إلى اللاتينية هو (كتاب الاعتماد) في الأدوية المفردة التي يعتمد عليها الأطباء في معالجة الأمراض، ويشتمل على أربع مقالات في (١٤٠) ورقة، وقد أطلق أسطيفان على هذه الترجمة اسم (Pantegni) وسمى المؤلف (ابن زيزار)، وتوجد نسخة منها في مكتبة ميونخ بألمانيا، كما نقله موسى بن طيبون إلى العبرية أيضاً[(٣)]، ويبدو أن كتاب الاعتماد هذا قد أحرز شهرة واسعة بين أطباء الأندلس بدليل هاتين الترجمتين اللتين تمتا في الأندلس، فضلاً عن تناول العديد منهم له بالشرح والنقد، فكان من أشهر من نقده منهم الطبيب عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم الأندلسي في كتابه المسمى (الاقتصاد والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد) الذي يعتبر في عداد المفقود، ولعل هذه الشهرة كانت هي السبب في إقبال الإسبان على ترجمته وبذلك يكون قد أفاد منه أطباء الأندلس ما بين مسلمين ونصارى ويهود.

---

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢١٢ .

(٢) أحمد توفيق المديني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ٢٠١ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣١٥ .

الفلك والهيئة :

يعتبر علم الفلك ومثله علم الهيئة من العلوم التي استأثرت بنصيب كبير من اهتمام المسلمين وقدروه حق قدره، يقول ابن خلدون في الهيئة : (وهذه الهيئة صناعة شريفة... وإنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم)[١]، ولعل اهتمام المسلمين بتعيين القبلة وتحديد أوقات الصلاة التي يؤدونها خمس مرات في اليوم، ثم تحديد منازل القمر الذي يرقبونه لصيامهم وعيد فطرهم، ثم معرفة بلادهم الواسعة كانت كلها حوافز قوية لهم للاهتمام بالفلك ودراسته دراسة سليمة، هذا إلى أن تقدمهم في العلوم الرياضية ساعد على تفوقهم في هذا العلم الذي عنوا به عناية عظيمة، تدل عليها المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي والتي زودوها بمختلف الأجهزة والمعدات البالغة الدقة كمقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة وغيرها[٢]، مكنتهم من إعداد الأزياج الفلكية الدقيقة، والتي سارت أوروبا على هداها مدة طويلة، وقد برز في إفريقية نخبة من علماء الفلك والهيئة تبوؤوا مكانة سامية بين علماء المسلمين نذكر منهم أمية بن أبي الصلت، وأبو الحسين علي بن أبي الرجال، ودونش اليهودي، وكان عثمان بن سعيد الصيقل قد تخصص في صنع الأجهزة والمعدات الفلكية كما سبق ذكره.

وفي ظل هذه البيئة كان لا بد أن يخص قسطنطين الإفريقي هذا العلم قدراً من عنايته خاصة وأنه عاصر بعض هؤلاء العلماء مثل ابن أبي الرجال وابن أبي الصلت وكان قريب عهد بالآخرين، لذلك فلا عجب أن قام بترجمة أحد الكتب الهامة في هذا العلم إلى اللاتينية هو (كتاب البارع في الفلك) لابن أبي الرجال، ويتضمن هذا الكتاب معلومات هامة عن الكواكب والنجوم والهيئة والتنجيم[٣]، ونظراً لأنه كان أول كتاب يصل إلى أوروبا في هذا العلم، فقد أحرز شهرة واسعة وظل يدرس في جامعاتها لمدة طويلة، وقد أعيدت ترجمته في بلاط قشتالة، ثم ترجمه بعض الإسبان مجدداً إلى اللاتينية للمرة الثالثة

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٧ .

(٢) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١١٠ — ١١١ .

(٣) اطلعت أثناء زيارتي لمكتبة بودليان بأكسفورد على شرح وضعه ابن القنفذ القسنطيني لهذا الكتاب قد حفظ في تلك المكتبة (مخطوط رقم Humt. 192 / CMLXXI).

باسم De Fudiciis Astrorum[1] الأمر الذي يدل دلالة واضحة على شدة عناية الأوروبيين به. ولا يفوتنا أن نذكر مؤلفات أحمد بن يوسف التفاشي القفصي في علم الفلك التي انتقلت إلى أوروبا وترجمت وظلت معتمدة عند علماء الفلك فيها إلى عهد قريب[2].

العلوم الرياضية :

اعتنى المسلمون بالعلوم الرياضية عناية بالغة، صحيح أنهم بنوا معارفهم في هذه العلوم على أساس من علوم اليونانيين والهنود[3]، إلا أنهم لم يلبثوا أن طوروها بجهودهم وأضافوا إليها من النظريات مالم يكن معروفاً من قبل، حتى فاقوا غيرهم من الأمم، وخطوا بها خطوات واسعة نحو الأمام حتى ظهر منهم علماء مبرزون مثل الخوارزمي (ت سنة ٩٤٤)، وثابت بن قرة (ت ٩٠١)، والبوزجاني (ت ٩٨٨)، والخيام (ت ١١٣٢) في المشرق، ومسلمة المجريطي (ت ١٠٠٧) وتلميذه ابن السمح (ت ١٠٣٤) في الأندلس، وأمية بن أبي الصلت، وابن النمر الطرابلسي، وعبد المنعم بن محمد الكندي، في إفريقية، ومما بعثهم على المهارة في هذه العلوم هو حل المسائل المعقدة في الميراث وهو ما يسمى بعلم الفرائض فضلاً عن شعورهم بالحاجة إليها في حياتهم اليومية بعد أن اتسعت رقعة بلادهم واحتكوا بغيرهم من الشعوب وتشابكت المصالح خاصة في أمور التجارة التي نهضوا بها نهوضاً لم يسبق له مثيل، ثم في أعمال الدواوين وتقدير الخراج وما إلى ذلك، وقد ظهرت فئة من الفقهاء الرياضيين تخصصت في الفرائض قاموا بتصنيف المؤلفات حسب آراء المذاهب المختلفة، يقول ابن خلدون في معرض حديثه عن هذا العلم : (وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن النمر والجعدي والصردي وغيرهم)[4]، ومن المعروف أن من مستلزمات هذا العلم إتقان الحساب والجبر في

---

(١) انظر : N.Daniel : Op. Cit., p. 288.، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق٣ ، ص ٣٩٤ .
(٢) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق، ص ٣٣ .
(٣) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٧ .
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥ .

الدرجة الأولى، وأما الهندسة فقد خصها المسلمون بقدر كبير من الاهتمام يؤكد ذلك ما قاله ابن خلدون عنها: (وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضار والأدران)(١).

ونظراً للعلاقات التجارية المستمرة بين إفريقية والعديد من الدول الأوروبية وبصفة خاصة المدن البحرية الإيطالية أدرك تجار هذه المدن تفوق تجار إفريقية عليهم في العمليات الحسابية اللازمة للأمور التجارية، وأن طرقهم في هذه العمليات أسهل بكثير من الطريقة المعقدة التي يتبعونها هم في أعمالم، فلا عجب إذن أن يتوالى قدوم طلاب العلم والمعرفة من الأوروبيين على إفريقية لدراسة العلوم الرياضية فيها. وكان من أشهر من قصدها لهذا الغرض ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) أو ليونارد البيزي (Leonardo Pisano) كما يدعى أحياناً. ولد ليوناردو في مدينة بيزا (١١٧٠ - ١٢٤٠م) الإيطالية، وكان أبوه أحد تجار هذه المدينة الذين يترددون على إفريقية، وكان يميل إلى تعليمه أصول مهنته ليخلفه في تجارته، لذلك وبعد أن نال قسطاً من الثقافة في بلده اصطحبه أبوه في إحدى رحلاته إلى مدينة بجاية، وفيها عكف علي دراسة الرياضيات وبصفة خاصة الحساب على بعض علماء المسلمين، ثم تاقت نفسه للمزيد فرحل إلى المشرق، فالتقى في مصر برياضي حذق علم الجبر تسميه المصادر المسيحية أبو كامل(٢)، فلازمه مدة أغفلت هذه المصادر تحديدها، وإن كنا نعتقد أنها لم تكن قصيرة، بدليل الحصيلة الكبيرة التي اكتسبها منه في هذا العلم، ولا نستبعد أن يكون قد اتصل أيضاً أثناء إقامته في مصر بعلماء آخرين وسع بما أخذه عنهم من معارفه فيه بخاصة وفي العلوم الرياضية بوجه عام، وأياً كان الأمر فقد أخذ ليوناردو عن أبي كامل جوانب هامة في علم الجبر كحساب الأس والجذور والمعادلات والتربيع والتكعيب(٣)، ثم طاف ببلاد الشام وعاد بعد ذلك إلى بلاده وقد لقن العلوم الرياضية الإسلامية.

ومنذ عودته بدأ في تأليف كتبه الرياضية التي أحرز بها شهرته حتى اعتبر أول عالم

---

(١) ابن خلدن : المقدمة ص ٤٠٥ .
(٢) انظر د. سيجريد هونكه : شمس الله تسطع على الغرب، ص ٩٣ .
(٣) انظر د. سيجريد هونكه : المرجع السابق، ص ٩٣ .

رياضيات في أوروبا، والذي كان له أثر كبير على العلوم الرياضية فيها، فقد قدم للأوروبيين بهذا الحساب طرقاً في العمليات الحسابية أسهل بكثير من الطريقة المعقدة التي كانوا يعرفونها. وتتضح هذه السهولة إذا ما قارنا بين النظام العددي في علم الحساب العربي وبين النظام العددي اللاتيني الذي لم تكن أوروبا تعرف سواه، ذلك أن نظام الأعداد العربي الذي تعلمه ليوناردو يمكن أن تتغير قيمة الرقم الواحد فيه حسب وضعه في خانة الآحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف وهكذا في حين أن قيمة الرقم في النظام اللاتيني لا تتغير بتغير خانته، فرقم (١) مثلاً لا يمكن أن يعني عشرة أو مائة أو ألف بل يبقى كما هو، وبناء على ذلك كان المرء إذا أراد أن يكتب رقم ٣٨٨ مثلاً بالأرقام اللاتينية كتبه على هذا الوضع (CCCLXXXVII)[١]، ولنا أن نتصور مدى التعقيد الذي يصيب العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب وقسمة عند استخدام هذا النظام فكيف بالأعداد الكبيرة من الآلاف والملايين أو في الجداول الرياضية والمعادلات؟[٢] كما أن وجود الصفر في النظام العددي العربي قد سهل ترتيب الخانات اللازمة في العمليات الحسابية الطويلة، إذ لولاه لاضطر كاتب الحسابات إلى إجراء عدة عمليات اختصرها وجود الصفر في عملية حسابية واحدة. وتعتبر كلمة (صفر) التي ترجمها ليوناردو (Ciphirum) هي الأصل للألفاظ الدالة عليه في اللغات الأوروبية، فهو (Cipher) و(Zero) في الإنجليزية، و(Chiffericen) في الفرنسية، و(Zeffer) في الألمانية[٣] وهكذا مما يدل دلالة واضحة على أثر ليونارد على علم الحساب في أوروبا. يضاف إلى ذلك ما أوجده علم الحساب العربي من تسهيل آخر باستعمال طريقة الإحصاء العشري ووضع علامة الكسر العشري اللذين هما من مبتكرات العرب المسلمين[٤].

ومن الثابت أنه كانت هنالك محاولة لنقل النظام العددي العربي إلى أوروبا سبقت

---

(١) الأرقام اللاتينية هي : I = ١، V = ٥، X = ١٠، L = ٥٠، C = ١٠٠، D = ٥٠٠، M = ١٠٠٠ .

(٢) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٨ – ٩٩ .

(٣) انظر د. سيجريد هونكه : المرجع السابق ص ٧٣، كذلك د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص١٠١ – ١٠٢ .

(٤) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ١٠١ .

جهود ليوناردو فيبوناتشي هي تلك التي قام بها البابا سلفستر الثاني الذي كان قد تلقى علومه قبل اعتلائه كرسي البابوية في جامع القرويين بفاس، ولكنها كانت محدودة الأثر إلى حد بعيد، لأن ذلك البابا لم يدعمها بالتطبيق العملي الذي يوضح مدى الفائدة من استخدام هذا النظام في الحياة اليومية، لذلك ظلت هذه المحاولة محصورة في إطار التعليم الأكاديمي الضيق، لكن جهود فيبوناتشي هي التي أخرجت هذا النظام من ذلك الإطار الضيق وأخضعته للممارسة العملية، وبذلك وصل بين العلم النظري والمنهج الاقتصادي، وبالتالي سخره لمواجهة متطلبات الحياة التي كانت وقتئذ آخذة في التطور السريع، وبصفة خاصة أعمال طبقة التجار، وهذه الممارسة هي التي يسميها ابن خلدون بالمعاملات، فيقول عنها : هي (تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها)[١]. ولذلك سرعان ما أدخل علم الحساب العربي في المناهج التعليمية في المدارس، وأولاه الصرافون والمشتغلون بالأمور المالية عناية خاصة مما جعله ينتشر بين الأوروبيين وقد سار في البداية جنباً إلى جنب مع النظام اللاتيني، فظهرت كتب الحساب متضمنة لجداول الأرقام العربية إلى جانب الأرقام اللاتينية مع تراجم للألفاظ العربية المستعملة آنذاك. وبقي هذا النوع من الكتب معروفاً حتى أيام آدم ريزه في القرن السادس عشر حيث تغلب النظام العددي العربي في تلك الآونة وحل محل النظام العددي اللاتيني[٢].

ولم تقتصر جهود فيبوناتشي على ما تقدم، بل إنه كان أول من أدخل علم الجبر والمقابلة إلى أوروبا[٣]. ويتجلى ذلك في مؤلفه في هذا العلم الذي قدمه إلى الإمبراطور فريدريك الثاني، إذ أنه حينما ذاعت شهرته كرياضي استدعاه ذلك الإمبراطور إلى بلاطه الذي كان يضم نخبة من علماء أوروبا في ذلك العصر مثل ميخائيل سكوت، ودمينوس هيسبانوس عالم الفلك المعروف، وماجستير يوحنا البلرمي، وتيودور الأنطاكي وغيرهم فكان أن ألف رسالة في الجبر التكعيبي أهداها للإمبراطور سنة ١٢٠٠م، وفي سنة ١٢٠٢م

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٤ .

(٢) د. سيجريد هونكه : المرجع السابق، ص ٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٥٩ .

ألف كتابه المسمى (La Liber Abbaci) الذي أملاه على ميخائيل سكوت الإنكليزي الآنف الذكر، والذي كان من مشاهير المهتمين بنقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا، وممن قاموا بترجمة العديد من كتبها إلى اللاتينية، وقد نشر ذلك الكتاب في نفس ذلك العام، وأعيد نشره سنة ١٢٢٨م، وفي سنة ١٢٢٠م ألف كتابه (La Practica Geometriae)[١]، فأحرزت هذه المؤلفات شهرة واسعة في أوروبا، وراجت رواجاً كبيراً، وبدئ بتدريسها في الجامعات، وتناولها المهتمون بالعلوم الرياضية جيلاً بعد جيل بالدراسة والشرح والتحليل حتى ظل أثرها واضحاً في مؤلفات عصر النهضة، مثل أعمال المعلم يعقوب الفلورنسي (Master Jacob)، وحتى في مؤلفات ليوناردو دافنشي (Leonardo de Vinci)[٢].

الفلسفة والفكر الديني :

من المعروف أن المسلمين خطوا بالعلوم الفلسفية خطوات واسعة نحو التقدم، وقد دفعهم إلى الاهتمام بهذه العلوم عوامل عديدة منها أنه كان من بين الأقاليم التي افتتحوها ما كان يعتبر مراكز هامة للفلسفة مثل الاسكندرية وأنطاكية وحران وجنديسابور وغيرها، فكان على المسلمين أن يستوعبوا هذه العلوم للرد على أصحاب المعتقدات الأخرى المتسلحين بها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أدى اهتمامهم بالطب وبالفلك لأن يسلمهم ذلك إلى الفلسفة إذ أنهما كان فرعين من فروعها، وقد علل الأستاذ أحمد أمين ذلك بأن الطبيب يحتاج بالضرورة لمعرفة النباتات وخصائصها والعقاقير وما إليها وبالتالي فإنه يحتاج إلى المنطق لمعرفة الأقيسة والاستنتاجات الصحيحة في معالجة الأمراض، ومتى اتصل بذلك اتصل بجالن (جالينوس) وأفلاطون وأرسطو، فاتصل بالفلسفة اليونانية، ومن اشتغل بالفلك اتصل ببطليموس، ثم يرى نفسه بحاجة إلى رياضة دقيقة وهندسة عميقة، فيتصل بأقليدس وفيثاغورس ثم بأفلاطون وأرسطو[٣]. لذلك أقبل المسلمون على دراسة فلسفة الأمم التي سبقتهم من يونانيين وفرس وهنود، واستوعبوها وتناولوها بالشرح والنقد والتعليل وأضافوا

---

(١) انظر ألدوميلي : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ص ٤٧٩ وما بعدها، كذلك : N.Daniel : Op. Cit., p. 295.

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ص ٢٥١ وما بعدها.

(٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج٣، ص ٢٣٢ .

إليها من آرائهم ونظرياتهم الشيء الكثير، وظهر منهم فلاسفة عظام مثل الفارابي (ت سنة ٨٥٠م) والكندي (ت ٨٧٣م)، وابن سينا (ت ١٠٣٧م)، وابن باجة (ت ٥٣٣هـ)، وابن طفيل (ت ٥٩١هـ) وابن رشد (ت ٥٩٥هـ) وغيرهم، أمدوا الفكر الأوروبي بنتاج فكرهم، فأثروا فيه تأثيراً كان من العمق بحيث قال عنه ترند : إن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الأوروبي هو أعمال فلاسفتهم[١].

وكانت العلوم الفلسفية قد بلغت عصر الحروب الصليبية شأواً بعيداً، وحيث إن هذا العصر كان هو عصر انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، فلا عجب أن يقبل المفكرون والفلاسفة الأوروبيون على أعمال فلاسفة المسلمين ينهلون منها، ونخص من هؤلاء بالذكر أنصار الصليبية السلمية مثل رامون البنيافورتي، ورامون مارتي، وروجر بيكون، ورامون لول وغيرهم الذين أقبلوا على دراسة الدين الإسلامي والفلسفة الإسلامية بتعمق لفهم الفكر الذي انبثق عن هذا الدين والتعرف إليه لتسهل عليهم محاربته. ويعتبر رامون البنيافورتي من أوائل من أقبلوا على دراسة الفلسفة الإسلامية، وظهر أثرها جلياً في أعماله، وليس ذلك فحسب، وإنما أثر في العديد من المفكرين الأوروبيين مثل توما الإكويني، ورامون مارتي، ورامون لول، وأما رامون مارتي الذي قضى فترة طويلة من حياته في تونس يتعلم اللغة العربية وأستاذاً للدراسات الشرقية في المدرسة التي أسست بها كما سبق ذكره، فقد ظهر أثر الفلسفة الإسلامية بجلاء في كتابه (The Pugio Fide) الذي كان يتضمن دفاعه عن المسيحية ضد الإسلام واليهودية، وأما رامون لول، فهو أشهر هؤلاء جميعاً ومن أكثرهم تأثيراً في الفكر الأوروبي، لقد مكّنته معرفته باللغة العربية من دراسة مؤلفات العديد من فلاسفة المسلمين ومتصوّفيهم، ولكنه تأثر أكثر ما تأثر بالفيلسوف والصوفي الأندلس محيي الدين بن عربي، فقبس منه الكثير من آرائه، ويظهر ذلك بوضوح في كتابه عن أسماء الله الحسنى كما ذكرنا، وإذا كان قد تأثر بابن عربي في تكوين العديد من آرائه ونظرياته، فإن اتصالاته ومناقشاته ومناظراته للمسلمين في إفريقيةخلال رحلاته الثلاث إلى تلك البلاد كان لها الفضل الأكبر في صقل هذه الآراء والنظريات، إذ أن تجربته

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٨٦ .

العملية في تطبيقها والتي وضتها على المحك إنما كانت في إفريقية، وقد ظهر ذلك بوضوح في مؤلفاته التي ألَّفها منذ عودته من رحلته الأولى، إذ أن تلك المؤلفات امتازت عن سابقتها بعمق النظرة وشموليتها ووضوح الهدف، وفيها أيضاً ألَّف كتباً نالت شهرة أوسع من العديد من مؤلفاته الأخرى. لقد اكتسب مشروعه الصليبي الذي ضمَّنه كتابه الشهير (النهاية Libre de Fine) في بعض جوانبه صفة عملية خاصة فيما يتعلق بإفريقية كطريق للحملة الصليبية التي اقترحها، وكان كتابه الذي ألفه في بجاية في رحلته الثانية إلى إفريقية وسماه : (الخلاف بين رامون المسيحي وعمر المسلم Disputatio Raimundi Christia-na et Homari saracani) عبارة عن سلسلة من المناظرات أبرز فيها حجج المسيحية ومميزاتها ودراسة مقارنة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية بأسلوب جدلي فلسفي اعتمد فيه على علم المنطق، وأما كتابه (Libre de Majori Fine Intellectus Amoris et Homoris) الذي أهداه إلى قاضي تونس فكان يتضمن شرحاً للعقيدة المسيحية جاء أثر الفكر الإسلامي فيه واضحاً. فكانت هذه الكتب الثلاثة بصفة خاصة مراجع للمفكرين الأوروبيين الذين جاؤوا من بعده وتعرضوا لموضوع محاججة غير الكاثوليك من أصحاب المعتقدات الأخرى والهراطقة، فآراؤه هذه التي سجلها في هذه الكتب ومثيلاتها أو في مقالاته ورسائله العديدة أو نادى بها في محاضراته ودروسه التي ألقاها في مختلف الجامعات والمعاهد العلمية أو البيوتات التابعة للهيئات التنصيرية أثناء تجواله في أوروبا لا سيما في باريس التي كانت في عهده المركز الرئيسي في أوروبا المسيحية للدراسات الفلسفية وعلوم المنطق واللاهوت قوبلت بعناية كبيرة من الأوساط العلمية في أوروبا، فضلاً عن تلك التي ضَمَّنَها تقاريره التي رفعها إلى البابوات والكاردينالات والملوك والأمراء والمجالس الكنسية والتي شغل بها الأوساط الدينية والسياسية والثقافية الأوروبية لفترة طويلة. لذلك فلا عجب أن يعتبر أحد الأعلام الذين أثروا في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى.

وأما أثره الكبير في هذا الفكر، فإنه يعود لسببين رئيسيين أولهما ما اكتسبه من الفكر الإسلامي من ثقافة كانت له المعين الذي لا ينضب في كل ما كتب، وثانيهما شهرته الواسعة التي أحرزها في أوروبا فضلاً عن علاقاته القوية بأعلام الفكر المسيحي في عصره مثل روجر بيكون وتوما الأكويني وغيرهما، ثم مع المنظمات التنصيرية كالدومنيكان

والفرنسيسكان حتى إن كلاً منهما ادعته لنفسها، مع أنه كان في حقيقة أمره مستقلاً عنهما وإن اتفق مع كل منهما في جانب من آرائه، ولذلك راجت مؤلفاته في أوروبا رواجاً كبيراً حتى إنها أصبحت ميداناً هاماً للدراسة والبحث في حياته وبعد مماته، ففي حياته كانت رسائله وكتبه التي يرفعها للبابوات والملوك تحال إلى لجان مختصة لدراستها وتقديم التقارير عنها، حدث ذلك أكثر من مرة في البلاط البابوي، وبلاط فيليب الرابع ملك فرنسا، وبلاط ملك أرغونة، كما أن كتبه كثيراً ما أحيلت إلى مفكرين بارزين لتقييمها كا حدث عندما أحال خايمي الأول ملك أرغونة بعضاً منها إلى رامون البنيافورتي لهذا الغرض، وفي مرة أخرى أحيل بعضها إلى لجنة في جامعة باريس، وبناء على نتيجة تقييمها سمح له بالمحاضرة في تلك الجامعة، وحدث نفس الأمر في جامعة مونبلييه ولدى منظمتي الدومنيكان والفرانسيسكان حيث أذن له بإلقاء محاضراته في الجامعة المذكورة، وفي البيوتات التابعة لهاتين المنظمتين، فكان لذلك أثره بلا شك في تعريف الطبقة المثقفة بما اقتبسه من الفكر الإسلامي، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنه أثناء إقامته في باريس احتدم الجدل بينه وبين أنصار فلسفة ابن رشد، ذلك أن جامعة باريس كانت أكبر مركز لدراسة هذه الفلسفة في أوروبا، ولما كان رامون لول من المتعصبين للكنيسة الكاثوليكية التي تحارب هذه الفلسفة كما سبق ذكره، لذلك انبرى يناظر هؤلاء ويحاول تفنيد حججهم والرد عليهم، وكان في ذلك يرد عليهم بآراء ابن عربي وفلسفته التي غرف منها بكلتي يديه لا سيما في القول بوحدة الوجود والأديان، ثم بآراء الإمام الغزالي التي وصلت إليه عن طريق مثقفي إفريقية الذين اتصل بهم أثناء تردده عليها، ثم عن طريق توما الإكويني خاصة فيما يتعلق بالعقل والعقيدة وعجز العقل وحده عن إدراك الأسرار الإلهية، والتي لم تكن إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة»[1]، فكان لذلك أثره القوي بلا شك على العلوم الفلسفية في أوروبا، ذلك أنه قد تأثر بآرائه وآراء أساتذته المسلمين العديد من فلاسفة أوروبا الأوَل نتيجة لهذه الجهود، فيرى المستشرق الأسباني بلاكيوس أنه جانباً هاماً من آراء (دانتي) الدينية لا سيما ما يتعلق منها بالحياة الآخرة إنما استمده من ابن عربي[2]، ثم

(١) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٩١ .
(٢) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٩٢ .

إن هنالك تشابه شديد بين آراء (جوهان إكهارت) الألماني الذي يعتبر أول الفلاسفة الصوفيين في الغرب الأوروبي، وآراء ابن عربي أيضاً فيما يتعلق بالحقيقة الإلهية وصلة الروح بالله[1]، ولما كان إكهارت قد درس في جامعة باريس في تلك الآونة فإن من المنطقي أن يكون قد اكتسبها عن طريق رامون لول.

وقد استمر تأثيره في الفكر الأوروبي بعد مماته عن طريق مؤلفاته وتلاميذه، ومن أشهر هؤلاء كان تلميذه سيمون (Simon de Puigcarda) الذي كان من أقربهم إلى لول فضلاً عن أنه كان المترجم لأعمال أستاذه من العربية إلى اللاتينية، ذلك أن لول كان يكتب كتبه الجدلية ومناظراته بالعربية، فيترجمها سيمون إلى اللاتينية الأمر الذي يؤكد إجادته للّغتين، ولما كان سيمون قد لحق بأستاذه في إفريقية كما سبق ذكره، فإن من المنطقي أن يكون هو الآخر قد تأثر بالفكر الإسلامي عن طريق علمائها ومثقفيها الذي اتصل بهم أستاذه وحاورهم. وقد حفظ سيمون قدراً كبيراً من مؤلفات أستاذه وعمل على نشرها، ولكن أهم من حافظ على تراث لول الفكري كان هو (Thomas le Myesier) الذي كان رئيساً للسُّوربون وربطته برامون لول علاقة قوية، وقد قضى شطراً من حياته عاكفاً على دراسة أعمال لول ومؤلفاته، وكان له الفضل الأول في انتشارها. ومنذ القرن الرابع عشر وجدت مراكز لدراسة فكر لول في بالما بميورقة وبرشلونة ومونبلييه وباريس، وكان مركز باريس هو أهمها حتى وجد الكثير من بين أساتذة جامعة باريس والدارسين فيها من اهتم بهذا الفكر وتأثر به، وقد استمر أثر لول في الفكر الأوروبي في القرنين التاليين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، حتى أنه استحدثت كراسي لتدريس ما سمي بالفكر اللولياني (Lullialism) في جامعتي بالما ورنده وسواهما من الجامعات الأوروبية الأخرى[2]، وفي سنة ١٥١٢م تبنى مجمع لاتيران منهجه في محاربة الهرطقة[3]، كما أن مؤلفاته أصبحت مرجعا للمفكرين الذين كانوا ينادون بإصلاح الكنيسة منذ أوائل القرن الرابع عشر، إذ أنهم استمدوا منها آراء هامة ضمنوها برامجهم الإصلاحية، وعلى ذلك فإن أثر لول في الفكر

---

(١) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٩٢ .

(٢) J.N Hillgarth : Op. Cit., P.125-48.

(٣) J.N. Hillgarth Ibid, P.135.

الأوروبي كان عميقاً ومتشعباً بحيث إن كثيراً من مفكري أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة قد تأثروا به من قريب أو بعيد.

الجغرافية والرحلات :

لا شك في أن اتساع الدولة الإسلامية التي شملت قسماً كبيراً من العالم القديم فامتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن جنوب أوروبا وأواسط آسيا شمالاً إلى قلب القارة الإفريقية جنوباً، ورغبة المسلمين في التنقل في أرجائها في سبيل التجارة وطلب العلم أو أداء فريضة الحج قد جعلهم يهتمون بعلم الجغرافية وينبغون فيه فطافوا بالبلاد من شرق آسيا إلى مجاهل إفريقيا وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون بها في العصور الوسطى أو شكوا في وجودها(١)، وبرز منهم في هذا العلم من ألفوا المؤلفات التي ظلت الهدى للأوروبيين لمدة طويلة، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر الإصطخري، واليعقوبي، والمسعودي، والبلخي، والبيروني، والنضر البصري، والمقدسي، والقزويني، وابن حوقل، وياقوت الحموي، وأبو حامد الغرناطي، وابن خرداذبه، والإدريسي، وابن بطوطة، وغيرهم الكثير في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي، وفي كل عصر، الأمر الذي يؤكد رفعة المستوى الذي وصل إليه المسلمون في علم الجغرافية وعظم محصولهم منه، فهم أولاً حفظوا معلومات الأمم التي سبقتهم ولا سيما اليونانيين في العلوم الجغرافية، وهي التي لم يعرفها الأوروبيون إلا من الكتب العربية في أواخر العصور الوسطى(٢)، ثم ما قدموه هم للبشرية من معلومات جادت بها قرائحهم استناداً إلى تجاربهم الذاتية ومشاهداتهم، فصححوا ما وقع فيه اليونانيون من أخطاء مما جعلهم يسهمون بنصيب وافر في بناء علم الجغرافية وفي زيادة محصول المعلومات الجغرافية، ويظهر لنا هذا الأمر بوضوح في نواحي عديدة، فبالمقارنة بين أماكن المدن التي عينها اليونانيون وتلك التي عينها المسلمون، نجد أن تقدير المسلمين يطابق الحقيقة أو يقترب منها ولا يختلف عنها إلا في بضع دقائق، بينما كانت أخطاء اليونانيين واضحة في نواحي

---

(١) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١١٨ .

(٢) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١١٩ .

عديدة، حتى إن خطأ بطليموس السكندري في تقدير طول البحر المتوسط بلغ أربعمائة فرسخ[١]. وإلى الشريف الإدريسي يرجع الفضل في توضيح حقيقة منابع النيل بعد أن تضاربت الأقوال في هذا الشأن منذ أقدم العصور، ففي خريطة له محفوظة في أحد متاحف فرنسا رسم النيل نابعاً من بحيرات كبيرة جنوبي خط الاستواء، فكان ذلك أول بيان حقيقي لمنابع هذا النهر في التاريخ[٢]، كما أنهم كانوا أول من وضع أصول الرسم علي سطح الكرة، مما كان له أثر كبير في تصوير معالم الكرة الأرضية تصويراً دقيقاً، فضلاً عن أنهم كانوا قد تمسكوا بفكرة كروية الأرض، فابن خرداذبة في القرن التاسع للميلاد يقول : (إن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة)[٣]، ويقول ابن رستة المعاصر له أيضاً : (إن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً... كاستدارة الكرة أجوف دواراً، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك)، والمسعودي يعبر عن الأرض بعبارة (كرة الأرض)[٤]، كما قالوا بدوران الأرض حول الشمس إلى غير ذلك من المفاهيم التي أثبت العلم الحديث صحتها.

وإذا كانت جهود المسلمين في هذا العلم كما هو ثابت هي الأساس القوي الذي بنى عليه الأوربيون معارفهم الجغرافية، فإن للحروب الصليبية في جبهة إفريقية أثر قوي ومباشر في هذا الأمر، ذلك أنه بالإضافة إلى المعلومات الجغرافية القيمة التي اكتسبوها عن إفريقية والمغرب العربي بصفة خاصة وعن باقي القارة الإفريقية بوجه عام نتيجة للنشاط التجاري المستمر بين الطرفين من ناحية، ورحلات رهبان حركة التنصير وأعضاء منظمات فداء الأسرى الذين كانوا يجوبون أنحاء المغرب العربي منذ مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، فقد أفادوا من جهود واحد من أعظم علماء الجغرافية في العصور الوسطى هو الشريف الإدريسي، صحيح أن الإدريسي لم يكن من إفريقية، وأن مؤلفاته وصلت إلى أوروبا عن طريق صقلية، وأن علاقته بإفريقية لم تختلف كثيراً عن علاقته بالأقطار التي زارها، ولكن

(١) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١٢٠ .
(٢) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١٢١ .
(٣) انظر عن ذلك د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ١٢١ .
(٤) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١٢١ .

أهمية الإدريسي بالنسبة لموضوعنا تكمن في كنه علاقاته برجار الثاني ملك الصقليتين لقد زار الإدريسي صقلية مرتين ثانيتهما وهي الأهم كانت في حدود سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م حيث أنجز خريطته المعروفة على لوح من الفضة[1]، ثم ابتدأ في تصنيف مؤلفه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي زوده بأكثر من أربعين خريطة، وما يعنينا من ذلك التاريخ هو أن رجار الثاني كان آنذاك قد بدأ في تنفيذ المرحلة الأخيرة والهامة من مراحل احتلاله لإفريقية. لقد اختلف المؤرخون في تحديد الهدف الحقيقي لرجار الثاني حينما تمسك بالإدريسي وألح عليه بالبقاء في بلاطه وكلفه بإعداد خريطته ومصنفه الآنف الذكر، فقد ذهب تاوديتس ليفيكي إلى رأي خلاصته أن اهتمام رجار باستدعاء الإدريسي إلى بلاطه لم يكن بسبب علمه في الجغرافية، وإنما لشخصه كرجل من بيت الأدارسة يمكن أن يكون مطالباً بعرش أو منافساً فيه، وذلك للانتفاع به في تحقيق مآربه في غزو الأندلس والسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط، ويعلل ذلك بأن مكانة الإدريسي كجغرافي ورحالة لم تكن قد تقررت بعد[2]، ويستند في رأيه هذا إلى نص للصفدي جاء فيه أنه عندما وفد إلى صقلية لم يكن ينوي الإقامة فيها، ولكن رجار رغبه في ذلك بقوله : (أنت من بيت الخلافة، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي أمنت على نفسك)[3].

ويرى الدكتور حسين مؤنس بعد نقده القيم لرأي ليفيكي[4]، أن رجار الثاني كان يستخدم النابهين من المسلمين وسواهم لتثبيت أركان دولته، ويضع العلاقة بين الاثنين في هذا الإطار، فالإدريسي في رأيه قد (قصد باباً مفتوحاً على مصراعيه لأمثاله من النابهين، وكان إلى جانبه مسلمون كثيرون يعملون في البلاط النورماني ويشاركون في شؤون القيادة والإدارة، وكانت الجزيرة عامرة بالمسلمين ومعالم الإسلام، وكان شعور الإدريسي أنه عالم يهدي العلم إلى من يقدره)[5]. ويستند في رأيه هذا على نص للصفدي أيضاً جاء

(١) عن هذه الخريطة انظر محمد المنوني : المرجع السابق، ص ٧٩ – ٨٠ .
(٢) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٦٩ .
(٣) انظر د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٦٩ .
(٤) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافية والجغرافيون، ص ٢٦٩ وما بعدها.
(٥) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٧٤ .

فيه أن رجار أكرم منزلته وبالغ في تعظيمه ويسر له طريق العمل حيث بدأ الإدريسي تبعاً لذلك يعمل صورة الأرض على الفضة، فلما فرغ منها كافأه مكافأة سنية، وألح عليه في الاستقرار في صقلية والاستمرار في العمل معه فاستجاب، ويخلص بعد ذلك إلى أن الإدريسي لم يكن مجرد عالم يخدم ملكاً بعلمه، بل كان صديقاً له أثيراً لديه، ثم بعد ذلك يفترض افتراضاً آخر هو أنه ربما كان من أسباب إقبال رجار على الإدريسي هو علويته وشرف محتده، مما يعود على رجار بالنفع فيما لو استقر في بلاطه إذ أن (وجود ذلك الشريف العلامة إلى جانبه يعلي جاهه بين رعاياه من المسلمين ويؤيد سلطانه في نظرهم)[1].

ومع تقديرنا لرأي الدكتور حسين مؤنس في هذا الموضوع، إلا أننا نرى أن سبب استدعاء رجار للإدريسي وتمسكه به يعود إلى سبب أعمق من حبه وتقديره للعلم والعلماء أو لرفع جاهه بين رعاياه، وعلى ذلك فإننا إذ نتفق معه في ما ذهب إليه من تفنيده لرأي ليفيكي بأن رجار استدعى الإدريسي لتحقيق مطامعه في الأندلس، فإننا نختلف معه في تحديد الإطار الذي وضعه لهذه العلاقة، ونرى أن ليفيكي على حق في أن سبب هذه العلاقة كان رغبة رجار في تحقيق طموحاته السياسية ولكن ليس في الأندلس وإنما في مكان آخر. إذ أن الحركة الصليبية التي وزعت الأدوار على القوى الأوروبية في صراعها مع المسلمين جعلت حربها في الأندلس من نصيب النصارى الإسبان. لقد كانت طموحات رجار ومطامعه واسعة، ولذلك كان من الطبيعي أن يبذل قصارى جهده للتعرف على عالم البحر الأبيض المتوسط موضع هذه الطموحات والمطامع، فلم يجد أفضل من الإدريسي الذي كان خبيراً بالمغرب العربي والبحر الأبيض المتوسط كما يقول الدكتور حسين مؤنس[2] ليزوده بما يحتاجه من معلومات لم يستطع غيره توفيرها له، ولعل فيما يقوله الدكتور نقولا زيادة من أن رجار (كان يريد أن يحصل على معلومات دقيقة عن بلاده وجيرانه والبلاد التي تربطها بمملكته علاقات تجارية أو التي يفكر بالسير إليها، فوجد أن الإدريسي هو الرجل الذي باستطاعته أن يقوم بذلك)[3] ما يدعم وجهة نظرنا في هذا الموضوع، ولما كان رجار

---

(١) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٧٤ .
(٢) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٣١٥ .
(٣) د. نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب، ص ٦٩ .

بصدد احتلال إفريقية ثم اتخاذها قاعدة للتوسع في بلدان المغرب العربي كما سبق ذكره، فإنه كان بلا شك بحاجة لمعرفة كل شيء عن تلك البلاد التي يخطط لاحتلالها، وكما كانت له طموحات في المغرب كانت له طموحات أخرى في المشرق بدليل محاولته الاشتراك في الحملة الصليبية الثانية، مما يحتم عليه أيضاً معرفة المشرق، فكان أن وجد في الإدريسي ضالته للحصول منه على هذه المعلومات متستراً بحبه للعلم، وما كان إكرامه له في رأينا وتخويفه إياه من ملوك المسلمين مع أنه محق في ذلك، إلا من قبيل الترغيب والترهيب لإبقائه في بلاطه. وعلى ذلك فإننا نعتقد أن مطامع رجار في إفريقية وسواها كانت دافعاً قوياً لتمسكه بالإدريسي هذا التمسك الذي عاد بثمرة طيبة على أوروبا في علم الجغرافية، إذ ظل كتابه (نزهة المشتاق) عمدتها في هذا العلم لمدة طويلة، فقد ترجم إلى عدة لغات وطبع أكثر من مرة. فقد طبع مختصره العربي في روما سنة ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م، ونشر في باريس سنة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م ترجمة لهذا المختصر باللاتينية قام بها المارونيان جيربيل سيونيتا، وجون هرنيتا، كما ترجم أصل الكتاب إلى الفرنسية قام بها أمديه جوبير ونشرت بباريس سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م - ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م، وقد نشرت منه عدة أقسام بالعربية منها القسم المختص بمكة الذي طبعه المعلم بابوكا وأعاد نشره المعلم غزيري، وطبع قسم منه في بانور سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م، كما طبع القسم المختص بالأندلس مع ترجمة كوندي له للإسبانية في مدريد سنة ١٢١٤م / ١٧٩٩م، وأعيدت طباعته وترجمته للإسبانية في مدريد سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م إلى غير ذلك[1].

وكما أفادت أوروبا من الإدريسي، أفادت من رحالة آخر نال شهرة واسعة في العصور الوسطى هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي المشهور بليون الإفريقي الذي شاءت له الأقدار أن يقع في أسر النصارى في جزيرة جربة أثناء توقفه فيها قادماً من المشرق، إذ أسره القرصان الصقلي بيترو بوفا ديغليا وأخذه إلى إيطاليا سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م حيث قدم هدية للبابا ليون العاشر الذي عرف بحبه للعلم حتى إنه كان يعتبر حامياً للعلوم والآداب والفنون في عصره، فلما رأى سعة علم الوزان أكرمه وأحسن إليه، ثم حمله فيما بعد على اعتناق

(١) عن هذا الموضوع انظر محمد المنوني : المرجع السابق، ص ٨٢ - ٨٣ .

المسيحية حيث عمده بنفسه في كنيسة القديس بطرس بروما في ٦ يناير سنة ١٥٢٠م / ٩٢٧هـ، وأطلق عليه اسم جوهانيس ليو دوميديسيس نسبة إليه، إلا أنه عرف فيما بعد باسم ليون الإفريقي[١]. ولد الحسن الوزان بغرناطة، وعند سقوطها بيد النصارى رحل منها مع أسرته إلى فاس حيث كان لا يزال صغيراً، وفي فاس تلقى علومه، ويبدو أنه كان لأسرته صلة ببلاط عاهلها مما أتاح له الفرصة لنيل ثقافة واسعة، ومنذ مطلع شبابه بدأ في رحلاته فزار ممالك قلب القارة الإفريقية ثم رحل إلى المشرق عبر إفريقية وعاد إليها بعد إقامة في المشرق دامت بضع سنين حيث وقع في الأسر، وقد أكسبه تجواله حسن اطلاع على الثقافة الإسلامية في مراكزها المختلفة، وفي إيطاليا عكف على دراسة اللغتين اللاتينية والإيطالية حتى أجادهما، ويبدو أنه كان ملماً أيضاً باللغة الإسبانية إلى جانب العربية، ولذلك لم يجد صعوبة في نقل ثقافته وعلمه إلى معاصريه من الإيطاليين، فقد كانت تربطه صلات قوية بالعديد من رجالات الأدب والعلم في إيطاليا، وعلاوة على ذلك فقد تصدر لتدريس اللغة العربية في مدينة بولونا الإيطالية، ولكن الأهم من ذلك هو مؤلفاته العديدة التي ألفها أثناء إقامته في إيطاليا في علوم مختلفة، ففي سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م ألف معجماً عبرياً عربياً لاتينياً من أجل طبيب يهودي يدعى يعقوب بن سيمون لا تزال مخطوطته محفوظة في مكتبة الاسكوريال، كما عثرت الأستاذة كودازي على رسالة له في القياس المسطح مما يشهد على اتساع دائرة معارفه الموسوعية[٢]، وفي ١٠ مارس سنة ١٥٢٦م / ٩٣٣هـ أنجز كتابه (وصف إفريقيا)، وفي سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م ألف كتاباً باللاتينية جامعاً لسير ثلاثين من مشاهير العرب المسلمين في العلوم الفلسفية والطبية الذي نشره هوتينغر سنة ١٦٦٤م في زيوريخ بسويسرا ثم أعيد نشره في هامبورج سنة ١٧٤٦م وكان أول سفر يقدم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا في تاريخ تطور العلوم عند العرب المسلمين، هذا وتحوي مكتبة الاسكوريال نسخة مخطوطة في نحو اللغة العربية ربما يكون قد ألفها لتلاميذه الطليان أثناء تدريسه اللغة العربية في بولونا. كما يذكر في مناسبات عديدة كتابه (الوجيز في الشريعة الإسلامية)، و(الوجيز في التواريخ الإسلامية) ولكن لم يصلنا منهما

(١) انظر الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ص ٢٢ – ٢٣ .

(٢) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : هـ.

شيء. مثلما يذكر اعتزامه إصدار ثلاث مؤلفات أحدها (وصف إفريقيا) والآخر عن أوروبا، والثالث عن الأقطار التي زارها في جزيرة العرب وأرمينيا وبلاد فارس والتتر والقسطنطينية[١]، وتبعاً لذلك فقد نال الحسن الوزان مكانة علمية مرموقة في الأوساط العلمية الأوروبية، وزاد في أهمية تلك المكانة أنه صنف كتبه تلك في فترة كانت تتمخض عن عصر النهضة.

أما كتابه (وصف إفريقيا) الذي يهمنا في هذا المقام، فقد كتبه بالإيطالية، ويرجح أكثرالباحثين أنه وضعه اعتماداً على أصل كان قد دونه بالعربية على شكل مذكرات على الأقل، ويرى آخرون مثل ش. شيفر أن الأصل العربي لهذا الكتاب كان معه عند وقوعه في الأسر[٢]، وعلى أية حال فإن هذا الكتاب قد حظي بشهرة واسعة في أوروبا، فقد نشره راموزيو في البندقية سنة ١٥٥٠م أي بعد مدة لا تزيد عن ٢٤ سنة من تصنيفه وأهداه إلى شخصية علمية وسياسية كبيرة هو جيروم فراكاستور، وفي سنة ١٥٥٥م ترجمه تامبورال إلى الفرنسية، وترجمه جان فولريان في العام التالي سنة ١٥٥٦م إلى اللاتينية، وفي سنة ١٦٠٠م ترجمه جون بوري إلى الإنجليزية وفي سنة ١٦٦٥م نقل إلى اللغة الهولندية، وترجم في سنة ١٨٠٥م للألمانية، وظهرت له طبعة إيطالية حديثة سنة ١٨٩٦م كما أعاد براون نشره بالإنجليزية في نفس ذلك العام اعتماداً على طبعة بوري، بينما كان شيفر يعمل وقتئذ على نشره في باريس، وبعد ذلك تناوله العديد من الباحثين بالدراسة والتحليل[٣]. ويعتبر هذا الكتاب فريداً في نوعه في ذلك العصر إذ تضمن معلومات هامة عن جغرافية المغرب العربي والسودان الغربي طبيعياً وبشرياً وإنتاجياً بأسلوب علمي تميز بروح نقدية مما يضفي على مؤلفه طابعاً ذا أصالة إذ يجد فيه كلا الجغرافي والمؤرخ مصدراً غنياً بالمعلومات، ولعل ذلك يفسر شدة اهتمام الأوساط العلمية في أوروبا به منذ تصنيفه والذي بدا جلياً في تعدد الترجمات والنشر المتكرر الذي أشرنا إليه آنفاً. وأما عن الحسن الوزان فتشير الكثير من المصادر التاريخية إلى أنه استطاع الإفلات من إيطاليا بين عامي ١٥٢٨م و١٥٣٠م

---

(١) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : هـ.
(٢) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : هـ.
(٣) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : أ – ب.

وقصد إفريقية حيث وصل إليها بعد إقامة في الغربة تتراوح بين عشرة أعوام واثني عشرعاماً وأقام في مدينة تونس ونبذ المسيحية وعاد إلى دينه الإسلامي، إلى أن كانت وفاته فيها في حدود سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م عن عمر يناهز الخمسين سنة، وفي قول آخر إنه توفي سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م عن ستين سنة، وهنالك ثمة قول ثالث مفاده أن إقامته في إيطاليا امتدت إلى فترة أطول حيث قاربت الاثنتين وثلاثين سنة وعاد إلى تونس وعمره ٦٤ سنة تقريباً، وفي قول آخر إنه لم يغادر إيطاليا وظل يدرس اللغة العربية فيها حتى وفاته[1] وهو رأي ضعيف لا يستند إلى دليل مقنع، والأرجح عند غالبية المؤرخين أنه عاد إلى تونس وتوفي بها. ويرى بعض الباحثين أن أصدقاءه من الكرادلة أرسلوا إليه وفداً لإقناعه بالعودة إلى إيطاليا ولكن دون جدوى، وعلى أية حال فقد كان له أثر كبير على معارف الأوروبيين الجغرافية فضلاً عما سواها من فروع المعرفة الأخرى، وبذلك تكون أوروبا قد جنت فائدة عظيمة في هذا العلم من اتصالها بإفريقية في عصر الحروب الصليبية.

يضاف إلى ما تقدم ما اكتسبوه من معلومات هامة في الملاحة كمعرفة المياه والأنواء وهبوب العواصف واتجاهات الرياح الأمر الذي أفاد بدون شك علم الخرائط الملاحية ولعل فيما سبق أن ذكرناه أن لويس التاسع كان أثناء حملته على تونس يمتلك خريطة ملاحية دقيقة تمكنه من تحديد أي موضع يكون فيه وهو في عرض البحر، ما يدعم هذا القول.

حركة الاستشراق :

اختلف الباحثون في تحديد مفهوم حركة الاستشراق وماهيتها ونشأتها ودوافعها وتعددت آراؤهم في ذلك وكثرت الدراسات التي تعرضت لهذه الأمور، ولا تزال هذه الدراسات تطالعنا بين فترة وأخرى بآراء جديدة. فأما بالنسبة لمفهوم هذه الحركة وماهيتها فقد ناقش الدكتور أحمد سمايلوفتش هذا الموضوع بإسهاب واستعرض العديد من آراء العلماء ما بين شرقيين وغربيين، عرب وغير عرب ومسلمين وغير مسلمين، وعقد موازنة بينها وخلص إلى نتيجة مفادها أن الاستشراق علم مستقل له ذاتيته وكيانه ويقوم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق وحضارته وأنه لا بد للمستشرق من معرفة كاملة بإحدى اللغات

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : د.

الشرقية وآدابها، ثم أنه إذاكان هنالك البعض من المستشرقين المنصفين، فإنه وجد ما يقابلهم من ذوي التطرف والتعصب نظراً لصلتهم الوثيقة بحركة التنصير ومهمتها. ومع ذلك فقد اتفقت الآراء على أن حركة الاستشراق قامت بدور كبير في تعريف الغرب بحضارات الشرق عامة، وحضارة العرب والمسلمين وآدابهم بصفة خاصة وأثرهما في الغرب نفسه ونهضته العلمية والفكرية على حد سواء[(١)]. وأما عن نشأة هذه الحركة، فإنه إذا كان قد وجد هنالك من الباحثين من يقول إنها نشأت في القرن العاشر حينما أدرك الغرب الأوروبي تلك المعجزة الحضارية التي شادها العرب المسلمون فاندفعوا إليها ليتعلموها ويتسلحوا بها ويستفيدوا منها فأخذوا يدرسون لغتها وآدابها ويترجمون كتبها وينقلون علومها إلى بلادهم[(٢)]، ويضربون المثل على ذلك بالبابا سلفستر الثاني[(٣)] الذي عاش في ذلك القرن، وكان من أوائل المترجمين لعلوم العرب المسلمين وآدابهم، فإن هنالك من يرى منهم مثل إبراهيم مدكور أن الاستشراق بالمعنى العلمي الكامل لم يبدأ إلا في منتصف القرن التاسع عشر إذ يقول : (إننا لا نستطيع أن نتحدث عن دراسات إسلامية بالمعنى الكامل سابقة على النصف الأخير من القرن الماضي لا في الغرب أو في الشرق، ذلك لأن الغربيين في اتصالهم بالشرق شغلوا أولاً بنواحيه السياسية والاقتصادية، ولم يتجهوا إلا أخيراً إلى نواحيه الثقافية)[(٤)]، لذلك وحيال هذه الآراء المتعددة والمتباينة حول هذا الموضوع[(٥)]، ليس من السهل على الباحث التوصل إلى رأي قاطع بشأنه، ذلك أنه إذا كانت الأدلة التي استند إليها أصحابها فيها تعتبر مقنعة من عدة وجوه، فالعديد منها لا يثبت للنقد من وجوه أخرى.

---

(١) انظر عن هذا الموضوع د. أحمد سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص ٢١ وما بعدها.

(٢) حمد الاسكندري وآخرون : المفصل في تاريخ الأدب العربي ج٢، ص ٤٠٨ .

(٣) سبق أن أشرنا إلى هذا البابا عند حديثنا عن العلوم الرياضية، وكان اسمه جريردي أوراليباك (٩٣٨ – ١٠٠٣م) فرنسي من مقاطعة أكتانيا متواضع الأصل نهل من الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس ثم في جامع القرويين بفاس، وتدرج في المناصب فأصبح ناظراً لمدرسة رمز الأسقفية، ثم أستاذاً وناصحاً للأباطرة ثم أسقفاً لرافنا، ثم اعتلى أخيراً كرسي البابوية (٩٩٩ – ١٠٠٣).

(٤) إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية، ص ٢٥ .

(٥) لمزيد من التفصيل انظر د. أحمد سمايلوفتش : المرجع السابق، ص ٥٤ وما بعدها.

والذي نعتقده، أن حركة الاستشراق واكبت في نشأتها دخول الحركة الصليبية في طورها النشط في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي، وإذا كان هنالك ثمة جهود قد سبقت هذه الفترة مثل جهود البابا سلفستر الثاني، فإنها بالرغم من كونها جهود محدودة، إلا أنها كانت لها أهميتها، فهي التي نبهت الحركة الصليبية إلى أن صراعها مع المسلمين ليس صراعاً سياسياً وعسكرياً وحسب، وإنما هو صراع فكري وحضاري أيضاً، ولذلك فإن النشاط الذي شهدته حركة الاستشراق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين حينما أقبل الأوروبيون على ترجمة كتب العلوم والآداب العربية الإسلامية ونقلها إلى بلادهم، إنما كان نتيجة لجهود دعاة الصليبية السلمية الذين كانوا هم أنفسهم من أبرز أعلام الاستشراق مثل بطرس المكرَّم (أو المُبَجَّلْ) (١٠٩٤ - ١١٥٦م)، توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م)، رامون مارتي (١٢٣٠ - ١٢٨٤م) رامون البنيافورتي (١١٧٦ - ١٢٨٠م) روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤م)، رامون لول (١٢٣٢ - ١٣١٥ / ١٣١٦م) وغيرهم، ومضت حركة الاستشراق في تقدمها وتطورها بعد ذلك.

وأما بالنسبة لدوافع تلك الحركة فقد حددها الدكتور أحمد سمايلوفتش بسبعة دوافع رئيسية : نفسية، وتاريخية، واقتصادية، وأيدولوجية، ودينية، واستعمارية، وعلمية[1]، ومع تقديرنا لهذا الرأي فإنه إذا كان هذا التحديد ينطبق على ما هو عليه الأمر في عصرنا الحاضر، فإنه لا يتوافق مع ما كان عليه واقع الحال في عصر الحروب الصليبية الذي سبق أن أشرنا إليه الذي شهد نشأة حركة الاستشراق حينما كانت الروح الصليبية متمكنة من نفوس الأوروبيين وكانت الكنيسة هي المهيمنة على الحياة الفكرية في أوروبا، وحتى بعد تراخي هذه الهيمنة في مطلع العصور الحديثة، لذلك فإن الدافع الديني هو الذي كان وراء نشوء هذه الحركة وتطورها حتى عهد قريب، لقد نبتت فكرة دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي والثقافة الإسلامية لخدمة أهداف الحركة الصليبية منذ بداية ذلك العصر، وكان قسطنطين الإفريقي الذي يعتبر من أوائل المستشرقين هو أيضاً من أوائل من نادوا بهذه الفكرة ووضعوها موضع التنفيذ أثناء مقامه بدير مونت كاسينو كما سبق ذكره. وإذا كانت

(١) لمزيد من التفصيل انظر د. أحمد سمايلوفتش : المرجع السابق ص ٤٠ وما بعدها.

حمى الحماسة لقتال المسلمين التي سرت في أوروبا آنذاك قد طغت على هذه الفكرة، فإنها لم تستطع كبتها إلا لمدة محدودة، إذ منذ بدء تطرق الضعف والوهن إلى الكيان الصليبي في المشرق في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) وانكباب العديد من مفكري الحركة الصليبية على دراسة أسباب هذا الضعف وعوامل فتور الحماسة للحركة الصليبية في أوروبا الغربية والعمل على إزالة هذه الأسباب، برزت هذه الفكرة إلى حيز الوجود من جديد وبشمول أوسع لتحقيق هدف أكبر هو فرض المسيحية الكاثوليكية على العالم، ذلك أن هؤلاء المفكرين مثل جوكيم، وتوما الأكويني، ووليم الطرابلسي، ورامون البنيافورتي، ورامون مارتي، ورامون لول، أدركوا المصاعب الجمة التي كانت تعترض سبيل تحقيق هذا الهدف عن طريق الصليبية المسلحة، فأخذوا ينادون بتحويل قسط من جهود الحركة الصليبية من الاتجاه العسكري إلى اتجاه آخر هو العمل على تنصير غير المسيحيين وكثلكة غير الكاثوليك من المسيحيين عن طريق الإقناع، بحيث يكون هذا الاتجاه مكملاً للاتجاه الأول وليس بديلاً له، وهو ما عرف بالصليبية السلمية، وتبعاً لذلك رأوا ضرورة دراسة لغات الشعوب الشرقية وعقائدها وثقافاتها وبصفة خاصة اللغة العربية والثقافة الإسلامية لأنهم كانوا يرون في المسلمين العدو الأول للمسيحية والأشد خطراً على المسيحيين لمواجهتهم لهم، ثم تدريسها للرهبان المنصرين ليكونوا أقدر على النهوض بالمهمة الموكلة إليهم سواء في بلاد المسلمين أو سواهم. كان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه الدراسات الشرقية التي عرفت فيما بعد بالاستشراق. ومن ذلك يتضح وجود تلاحم قوي بين حركتي الاستشراق والتنصير منذ نشوء الحركة الأولى منهما، هذا التلاحم الذي لم ينفصم أبداً في العهود التالية.

وإذا كانت حركة الاستشراق التي لم تقم أصلاً إلا لخدمة الحركة الصليبية قد ارتبطت منذ البداية بمفكرين كان لهم نشاط صليبي في إفريقية من أبرزهم قسطنطين الإفريقي، ورامون مارتي، وهمبرت الرومانسي، ورامون البنيافورتي، ورامون لول، الذين كانوا فضلاً عن مكانتهم البارزة بين مفكري الحركة الصليبية، يعتبرون من أبرز أعلام الاستشراق، فإنه مما لا ريب فيه أنه كانت هنالك علاقة وطيدة بين النشاط الصليبي في إفريقية ونشوء حركة الاستشراق، والدلائل التاريخية التي تؤكد ذلك كثيرة، منها أنه كان من بين المدارس الأولى

الخمس التي أنشئت للدراسات الشرقية وبصفة خاصة لدراسة الثقافة الإسلامية وتعليم الرهبان المنصرين اللغة العربية Studium Arabicum واحدة في تونس أسست سنة ١٢٥٠ وربما كانت أقدمها، لقد أسست هذه المدارس بجهود من رامون البنيافورتي الذي جمع بين النشاطين التنصيري والاستشراقي، وبصفة خاصة مدرسة تونس التي حظيت منذ إنشائها بقسط كبير من جهود أحد كبار القائمين على حركة الاستشراق هو رامون مارتي الذي سبق أن أشرنا إليه، فظلت هذه المدرسة طوال مدة نشاطها مركزاً هاماً لحركة الاستشراق وفي الوقت نفسه مركزاً للحركة التنصيرية في إفريقية. ولعل جهود رامون لول في هذا المجال تقدم دليلاً آخر على هذه العلاقة، إذ أن تشجيع هذه الدراسات كان هدفاً رئيسياً من أهدافه الثلاثة التي نذر لها حياته كما سبق أن أشرنا، ولذلك منذ أن وضع نفسه في خدمة الحركة الصليبية رأى أن إفريقية هي الميدان الأول لنشاطه، وتحقيقاً لهذا الهدف تم إنشاء كلية ميرامار بميورقة سنة ١٢٧٦م من أجل تدعيم الاتجاه للاستشراق الذي يكون في خدمة حركة التنصير، فباشرت هذه الكلية منذ ذلك الوقت في تعليم الرهبان المنصرين اللغة العربية وتدريسهم أكبر قدر ممكن من الثقافة الإسلامية ومن ثم إطلاقهم لممارسة نشاطهم، ولم يكتف بذلك بل إنه سعى جاهداً لحمل البابوية وملوك وأمراء أوروبا على تبني هذا الاتجاه، حتى نجح أخيراً في استصدار قرار من مجمع فينا (١٣١١ - ١٣١٢م) يقضي بإنشاء كراسي لتدريس اللغات العربية والعبرية والكلدانية واليونانية في جامعات روما وبولونا وشلمنقة وباريس وأكسفورد التي كانت أكبر الجامعات الأوروبية وقتئذ كما سبق ذكره. ومنذ ذلك الوقت أخذ الاهتمام بهذه الدراسات خاصة الإسلامية منها يشق طريقه وينتشر في الجامعات الأوروبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بتأثير من فكر رامون لول ونظرائه، ثم جاءت الحركة الإنسانية (Humanism)، فعززت هذا الاتجاه أثناء محاولاتها البحث عن ثقافة عالمية، ومن خلال اهتماماتها السياسية والتجارية إذ وسعت هذه الدراسات لتصبح مجموعة من الدراسات الإسلامية المتخصصة.

وكان وليام بوستل (Guillaume Postel) (١٥٠٥ - ١٥٨١م) من أشهر من أسهموا بنصيب وافر في دفع حركة الاستشراق إلى الأمام، وهو فرنسي نذر نفسه لخدمة المسيحية عن طريق نشاطه الجم في هذه الحركة، فسخر علمه الواسع وحدة ذهنه وإتقانه

الجدل والمحاورة لهذا الغرض، وجدَّ في تعلم اللغات فأجاد اللاتينية واليونانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والعبرية والكلدانية والسريانية والأرمنية والحبشية والعربية، وقد ألحقه فرانسوا الأول ملك فرنسا بسفارته في استانبول لدى السلطان سليمان المشرع (القانوني) فكانت تلك فرصة له للاطلاع على نفائس الكتب في شتى فروع المعرفة الإسلامية، وحينما أنشىء أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانس في باريس (سنة ١٥٣٩) شغله بوستيل[١] حيث تربى على يده تلاميذ كان لهم أثرهم في حركة الاستشراق كان من أشهرهم جوزيف سكاليجيه (Joseph Scoilige) (١٥٤٠ – ١٦٠٩م) الذي كان عالماً موسوعياً شديد الحماس للتنصير، فسار على نفس خطى أستاذه في العناية بحركة الاستشراق ودعم النشاط التنصيري بهذه الوسيلة، وكان من أبرز أعماله في هذا المجال أنه أغنى المكتبات بمجموعات من المخطوطات اللازمة للمشتغلين بالعلم من الأوروبيين لينمي معارفهم[٢] ويفتح أمامهم آفاقاً جديدة. وفي سنة ١٥٨٦م خطت حركة الاستشراق خطوة واسعة في تعزيز نشاطاتها وذلك بالاستفادة من المطابع العربية التي أسسها دوق توسكانيا فيردناند دي مديتشي الذي أعلن بوضوح عن أن تلك المطابع لم تنشأ إلا لمساعدة حركة التنصير[٣]، فبدأت أعمال المستشرقين منذ ذلك الوقت تطبع فيها بكميات كبيرة لتنشر بين المسلمين تحت ستار نشر تراثهم، والتي كان الكثير منها حافلاً بالمغالطات والدس الخبيث بهدف زعزعة العقيدة الإسلامية لدى المسلمين ومن ثم اجتذابهم للمسيحية، ثم تواصلت الجهود في تنشيط هذه الحركة وتدعيمها حتى وصلت إلى ما هي عليه في وقتنا الحاضر. وما دامت نشأة حركة الاستشراق قد تمت بجهود أبرز القائمين على حركة التنصير في إفريقية، فإنه ما من شك في أهمية دور الحروب الصليبية في إفريقية في نشأة تلك الحركة وتطورها.

الأدب :

بالإضافة إلى ما تقدم فإن هذه الحروب قد تركت آثاراً لها في الأدب الأوروبي، ذلك

---

(١) انظر د. أحمد سمايلوفتش : المرجع السابق ص ٦٠ – ٦١ .

(٢) انظر د. أحمد سمايلوفتش : المرجع السابق ص٦٠ – ٦١ .

(٣) شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ق١، ص ٦١ – ٦٢، د. أحمد سمايلوفتش : المرجع السابق، ص ٧٧ – ٧٨ .

أن أعمال الصليبيين وحروبهم في إفريقية قد أمدت هذا الأدب بمادة ومصدر إلهام جديدين، ولعل خير مثال على ذلك ما أثاره موت لويس التاسع في إفريقية من قصص وأساطير، منها ما وجد طريقه إلى الكتب التي ألفت في سيرته والتي كان منها ما حفل بتعداد الأعمال الخارقة التي نسبت إليه وكراماته مثل ما حفل به مؤلف وليام دي سانت باثو (Guillaume de Saint Pathus) المسمى (La Vie et les Miracles de Monseigneur Saint-Louis) هذا بالإضافة إلى الأساطير العديدة التي جعلته لم يمت بل تقول إنه اعتنق الإسلام وغادر خيمته في ثياب مرابط ليعيش بين المسلمين مدة أخرى يموت بعدها ويدفن في زاوية سيدي بوسعيد، فضلاً عن القصائد التي نظمها الشعراء المتحمسون للفكرة الصليبية إبان الاستعداد لحملة لويس التاسع على إفريقية تأييداً للملك الفرنسي، مثل قصائد الشاعر (Rutebouf) وبصفة خاصة قصيدته المعنونة (خصام بين صليبي ومعارض Dispute du Croise et De-croise)، ثم قصيدته المعنونة (أنشودة ما وراء البحر Complainte D'Outrmer) اللتين كان يحث فيهما الملك الفرنسي على إسكات صوت المعارضة لتلك الحملة كما سبق ذكره، ثم ما تركته مؤلفات عبد الله الترجمان من آثار في ذلك الأدب سواء من ناحية الإلهام أو المادة، وبصفة خاصة مؤلفه (en Tunise de Barberia) ثم مؤلفه (Disputato de Lase) اللذين كانا بالقطلانية أولهما نظمه شعراً وثانيهما محاورات بين الكاتب وحمار يتضمن رد عبد الله الترجمان على النصارى، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية في القرن الخامس عشر أي بعد وفاة المؤلف بقليل، يضاف إلى ذلك أن قصة روبنسون كروزو قد أخذت كما يقول المستشرق الألماني جورج يعقوب عن قصة (حي بن يقظان) التي كتبها الفيلسوف ابن طفيل، والتي ترجمت إلى اللاتينية سنة ١٦٧١م، وإلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨م[1]. هذا بالإضافة إلى تلك القصص التي نسجت عن موت من لاقوا حتفهم في إفريقية من مهووسي الشهادة من رهبان حركة التنصير والمنظمات الرهبانية الأخرى، وعن أعمالهم وبطولاتهم، ثم تلك الحوافز التي أذكتها هذه الحروب في نفوس الدعاة الصليبيين، فانعكس ذلك بوضوح في أعمال العديد منهم التي كانت من أبرز مؤلفات ذلك الأدب

---

(١) د سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٨٢ .

الذي ظهر في القرن الرابع عشر والذي عرف بالأدب الدعائي. ثم ما كسبته اللغات القومية الأوروبية من ألفاظ عربية في تلك المرحلة التي كانت فيها تلك اللغات في طور التكوين سواء ما كان منها ما يتعلق بمصطلحات علمية أو أمور تجارية، وإذا صح ما نسب إلى رامون مارتي من تأليفه معجماً عربياً لاتينياً، فإن ذلك يكون من أول المعاجم التي ألفت في أوروبا في هذا الموضوع، مما جعله مثالاً احتذي فيما بعد، وإذا كان هنالك ثمة شك في تأليف مارتي لهذا المعجم، فإنه من الثابت أن الحسن الوزان قد ألف في سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م وأثناء مقامه في إيطاليا معجاً عربياً عبرياً لاتينياً للطبيب اليهودي يعقوب بن سيمون لا تزال مخطوطته محفوظة في مكتبة الاسكوريال حظي بشهرة في الأوساط الأدبية في أوروبا كما سبق ذكره.

وأما في مجال التاريخ فقد كثرت المؤلفات التاريخية التي تناولت حوادث الحروب الصليبية في إفريقية سواء منها ما كان ترجمة ذاتية لشخصيات اشتركت في هذه الحروب مثل تلك التي ألفت عن حياة لويس التاسع كمصنف سانت باثو الآنف الذكر ومثله تاريخ بيليه (Geoffori de Beaulieu) ثم الحولية التي ألفها كاباريه دورفيل (J. Cabaret D'Orville) عن حياة لويس الثاني دي بوربون واستوعب فيها حوادث حملته الصليبية على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وسماها (La chronique du bon Duc Loys de Bourbon) أي «حولية لويس الطيب دوق بوربون»، يضاف إلى ذلك كتاب الحسن الوزان التاريخي (الوجيز في التورايخ الإسلامية) الذي ألفه أثناء مقامه في إيطاليا فقدم به للأوروبيين مادة تاريخية جديدة عن المسلمين.

جـ – الناحية الاجتماعية :

إنه مما لا شك فيه أن وجود الأوروبيين في إفريقية في عصر الحروب الصليبية بهذه الأعداد الكبيرة إما تجاراً أو جنوداً أو أسرى حروب قد جعلهم يكتسبون بعض المؤثرات الاجتماعية من المسلمين وينقلونها معهم إلى مواطنهم عند رحيلهم إليها، فعن طريق هؤلاء عرف الأوروبيون بعض أنواع الأطعمة والأشربة وترتيب المائدة وطريقة تقديم الطعام، ثم استعمال بعض أنواع الملابس وبعض الألعاب الرياضية واستعمال الحمامات العامة وأساليب

جديدة في الصيد بالجوارح، ثم اكتساب بعض النواحي الأخلاقية الحميدة كالعطف على الضعفاء، ونصرة المظلوم، واحترام المرأة التي كانوا من قبل يعتبرونها شيئاً مهملاً مما كان يجردها من صفة الإنسانية، وغير خاف على أحد مدى أهمية هذه الأمور في تخليص المجتمع الأوروبي من التخلف الذي كان يسوده في العصور الوسطى، ومدى آثارها في دفعه نحو التقدم والرقي.

﴿لِنَجْعَلَها لكُمْ تذكرةً وتَعِيَها أُذُن واعِيَة﴾ .

[سورة الحاقة : آية ١٢]

خاتمة

وبعد، فإن الحروب التي شنها الغرب الأوروبي على إفريقية على مدى قرون طويلة داخل إطار الحركة الصليبية، لم تكن تقل في شراستها أو تختلف في دوافعها ونتائجها عن تلك التي اشتعلت في جبهات الصراع الإسلامي الصليبي الأخرى. لقد استهدفت تلك الحروب إفريقية لتحقيق أهداف دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية تماماً مثلما استهدفت الحملات الصليبية في الأندلس وصقلية وبلاد الشام ومصر. والملاحظ أن بداية الحروب في إفريقية سبقت الزحف الصليبي إلى المشرق، ذلك أن إفريقية حظيت باهتمام الحركة الصليبية منذ وقت مبكر نظراً لأهميتها الجغرافية والدينية والاقتصادية والسياسية والاستراتيجية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي، وتبعاً لذلك كانت منذ الفتح الإسلامي لها جبهة مواجهة بين المسلمين والقوى المسيحية كما بينته في التمهيد. وإذا كانت الحركة الصليبية قد استغلت العاطفة الدينية لدى مسيحيي غرب أوروبا التي بلغت ذروتها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) نتيجة للصحوة الدينية التي انطلقت من دير كولوني، وساقتهم تجاه بلاد الشام لارتباطهم بها روحياً وكونها مهد المسيحية والمحتوية على مقدساتها، فإنها استغلت كذلك ما يكنه هؤلاء لإفريقية من عاطفة دينية مماثلة نظراً لكونها هي الأخرى ذات روابط روحية قديمة مع الغرب الأوروبي الكاثوليكي، إذ أنها مقر كنيسة قرطاجنة إحدى الكنائس الأولى الست في العالم، والتي نظراً لنضالها المجيد في سبيل المسيحية ولما قدمته لهذه الديانة من مفكرين تبوؤوا مكانة رفيعة بين مفكري المسيحية الأول الذين يطلق عليهم آباء الكنيسة، فوجهتهم إليها لانتزاعها من المسلمين تحت هذا الشعار مخفية أهدافها الأخرى كما فعلت بالنسبة لاحتلال بلاد الشام.

وقد حرصت في هذا البحث على أن أكشف النقاب عن أنه منذ انقلاب ميزان القوى

في عالم البحر الأبيض المتوسط لصالح القوى المسيحية في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، احتلت إفريقية مكانة خاصة في نشاط الحركة الصليبية، فكانت في طليعة أقطار المغرب الإسلامي التي تعرضت للعدوان الصليبي الكبير الذي بدأ في أواسط ذلك القرن، حينما وجهت إليها المدن البحرية الإيطالية المدعومة من البابوية حملة كبيرة هاجمت المهدية سنة ٤٨٠هـ /١٠٨٧م والتي كانت حملة صليبية بكل ما تعنيه الكلمة كما بينته أثناء تعرضي لحوادثها على خلاف المفهوم السائد بأنها كانت غارة لردع عدوان غزاة البحر المسلمين. ومنذ ذلك الوقت توالت عليها الغزوات والحملات المتلاحقة من قوى صليبية متعاقبة، كلما أفل نجم قوة منها أو شغلت عنها حلت محلها قوة أخرى في شن العدوان. وقابل هذا الإصرار من الحركة الصليبية على احتلالها إصرار مماثل إن لم نقل أشد من مسلميها على الدفاع عن بلادهم ضد مطامع هذه الحركة فيها، وليس الأمر كذلك فحسب، وإنما أيضاً العمل على مواجهتها في جبهات القتال الأخرى، إذ أن مسلميها بتجاوبهم مع إخوانهم في بقية العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، أسهموا بقسط وافر في التصدي للعدوان بما قدموه لهم من مساعدات مادية ومعنوية طوال عصر الحروب الصليبية، وهو ما توصلت إليه وحاولت توضيحه بقدر الإمكان. وفي الوقت الذي بدأ فيه الزحف الصليبي على المشرق، كانت إفريقية قد بدأت تستحوذ على اهتمام قوة صليبية جديدة ظهرت قبيل ذلك في عالم البحر الأبيض المتوسط وأخذت تتطلع إليها بعين طامعة، وأعني بها النورمان، الذين استغلوا تردي الأوضاع فيها في ظل الهجرة الهلالية وبدؤوا في مهاجمتها، ففي الوقت الذي كانت فيه المعارك محتدمة بين المسلمين والصليبيين في المشرق، كانت إفريقية تتعرض للعدوان النورماني الشرس، والذي كان صليبياً خالصاً كما بينته وبالأدلة التاريخية بخلاف ما تردده العديد من المراجع والتي تحاول تجريده من صفته الصليبية تبعاً لمفهوم أصحابها للحركة الصليبية. ومع أن رجار الثاني النورماني نجح في احتلال معظم شاطئ إفريقية بما فيه من مدن هامة، إلا أن ذلك الاحتلال لم يدم طويلاً، فسرعان ما هب المسلمون لمقاومته، ولم تكد تمضي بضع سنوات حتى كانت هذه المدن قد حررت نفسها باستثناء المهدية التي قام بتحريرها عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين الأول، ولعلّي في هذا أكون قد أزلت التباساً شائعاً في أن هذا الخليفة هو الذي نهض بعبء تحرير

إفريقية، فهو لم ينل في الحقيقة إلا شرف تحرير المهدية فقط آخر معاقل النورمان في إفريقية.

ومن خلال فصول هذه الرسالة أوضحت أنه إذا كان طرد النورمان من إفريقية وما أعقبه من انضوائها تحت لواء الدولة الموحدية المجاهدة التي أخذت على عاتقها مقارعة الصليبيين في غرب العالم الإسلامي قد خفف من حدة نشاط الحركة الصليبية في جبهة إفريقية، فإن هذه الحركة ما كادت تشعر بسريان الضعف والوهن في تلك الدولة حتى عاودت هذا النشاط من جديد، ففي عام ٦٦٨هـ /١٢٧٠م أي بعد انهيار الدولة الموحدية ببضعة أشهر، توجهت إليها حملة صليبية ضخمة هي التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا، وعرفت في التاريخ بالحملة الصليبية الثامنة، هذه الحملة التي لم تلق ما تستحقه من عناية من الباحثين، فبقيت جوانب من حوادثها مجهولة وهو ما حاولت أن ألقي عليه الضوء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. لم تكن إفريقية هدفاً في حد ذاته لهذا الصليبي العريق الذي لم تثنه الهزيمة التي مني بها في المنصورة بمصر ولا فشل مؤامراته التي صرف السنوات الأربع التي قضاها في بلاد الشام بعد إطلاق سراحه من الأسر في نسجها، لم يثنه كل ذلك عن عزمه على تحقيق أهداف الحركة الصليبية التي نذر نفسه لخدمتها، فقصد إفريقية بجموعه ليجعل منها نقطة ارتكاز يتوسع منها في الغرب على حساب المسلمين، ثم يخنق دولة المماليك في الشرق ثم يجهز عليها بعد ذلك، ولكن قدره كان في انتظاره، إذ هلك متأثراً بجراح أصيب بها في إحدى المعارك مع المسلمين بعكس ما هو شائع من أنه مات بالوباء الذي تفشى في جيشه. وبالرغم من فشل تلك الحملة في تحقيق معظم أهدافها، إلا أنها نجحت في فتح أبواب إفريقية أمام نشاط حركة التنصير، وهو أمر تبين لي بوضوح من خلال دراستي لوثيقة الصلح الذي عقد بين المستنصر الحفصي والصليبيين والذي أنهى حوادث تلك الحملة، هذا من ناحية، والتي لم تدرس دراسة علمية من قبل على الأقل من وجهة النظر الإسلامية، ومن ناحية ثانية فإن اتجاه لويس التاسع إلى إفريقية أصبح مثالاً احتذي في العديد من المشاريع الصليبية التي حفلت بها الفترة التي امتدت من أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وشملت القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد).

كذلك أوضحت أنه كان لطرد الصليبيين من بلاد الشام انعكاس قوي على نشاط

الحركة الصليبية في إفريقية، وظهر ذلك جلياً في المشاريع الصليبية التي وضعت في تلك الآونة، الأمر الذي يؤكد مكانة إفريقية في الخطط الصليبية وحضورها القوي والدائم في أذهان القائمين على تلك الحركة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى في النقمة التي صبها عليها الغرب الأوروبي ممثلاً بمملكة أرغونة التي تولت مهمة شن العدوان عليها طوال مدة شملت معظم عصر الفوضى والفتن فيها الذي أعقب وفاة المستنصر الأول وامتد إلى ما يقارب القرن، وذلك في صورة مؤامرات صليبية حاكتها ضدها والتي كان من أبرزها إلحاق الحرس المسيحي بخدمة سلاطين بني حفص الذي بينت أنه كان مشروعاً صليبياً علقت عليه تلك المملكة بصفة خاصة والحركة الصليبية بوجه عام آمالاً كبيرة بعكس ما هو شائع من أنهم كانوا جنوداً مرتزقة لا يمتون لتلك الحركة بصلة، وتبنيها لجهود حركة التنصير فيها والتي بلغت ذروة نشاطها في تلك الآونة، ثم في صورة حملات عسكرية كان من أهمها تلك الحملة التي قادها ملكها بطرس الثالث بنفسه على مرسى القل، واحتلال رجار دي لوريا قائد أسطول هذه المملكة لجزيرة جربة، وغارات تخريبية أكثر من أن يحيط بها حصر كان يوجهها القراصنة القطلان والصقليون رعايا تلك المملكة وكان أكبر مشجع لها على هذه الأعمال العدوانية هو حالة الضعف التي انتابت إفريقية في عصر الفوضى والفتن الذي أشرنا إليه آنفاً.

ولم يخفف من حدة النشاط الصليبي في جبهة إفريقية انشغال مملكة أرغونة بمشاكلها في شبه جزيرة أيبرية بصفة خاصة وأوروبا بعامة في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، إذ حلت جنوة محلها في هذا العدوان، ذلك أنها وجدت في إفريقية المتنفس الوحيد لها بعد خروجها مهزومة من صراعها الطويل مع منافستها البندقية، حيث كانت هذه الهزيمة سبباً رئيسياً في حرمانها من التجارة الشرقية، فاستهلت نشاطها العدواني بتوجيه حملة صليبية كبيرة احتلت طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، ثم أعقبتها بحملتها هي وحليفاتها التي احتلت بها جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م، وإسهامها بنصيب كبير في الحملة الصليبية التي قادها لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م، والتي كان دورها فيها دور الشريك الأصغر وليس الأكبر كما تردده العديد من المراجع لا سيما الفرنسية

حفاظاً على سمعة فرنسا وهيبتها على ما يبدو لما صادفته تلك الحملة من الفشل، فضلاً عما تنسبه تلك المراجع لجنوة خطأ من أنها كانت المحرض على تلك الحملة، لأن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن فرنسا كانت تفكر في القيام بها، وما كان دور جنوة إلا عاملاً مساعداً فقط وهو ما بينته بوضوح أثناء دراستي لحوادثها. كما أن بمقابلتي الروايات المسيحية بما ورد في المصادر التاريخية الإسلامية تبين لي جوانب من تلك الحوادث لم يسبق لها أن بحثت من وجهة النظر الإسلامية على الأقل، فألقيت عليها مزيداً من الضوء لعلي بذلك أكون قد أوليتها ما تستحقه من الدراسة.

ومن خلال متابعتي لتاريخ نشاط الحركة الصليبية في إفريقية في هذا البحث، أوضحت أن الضعف الذي كان يصيب إفريقية نتيجة للمشاكل والفتن الداخلية هو الذي كان يحفز تلك الحركة ويشجعها على شن العدوان عليها، ولكن لسوء حظ تلك الحركة كانت الظروف دائماً تحول دون ما تشتهي، فكانت الحملات التي توجهها إليها وتعقد عليها الآمال الكبيرة، لا تلبث نظراً لتلك الظروف أن تفشل ويطغى هذا الفشل على تلك الأهداف ويخفيها فتبدو لغير المحقق تبعاً لذلك وكأنها غارات كبيرة لا تختلف عن غارات القراصنة إلا من حيث كبر حجمها، وأنها بعيدة عن نطاق النشاط الصليبي، ولكنها في حقيقة أمرها كانت صليبية الدوافع والأهداف بكل ما تعنيه الكلمة، ولو أنها كانت تصادف النجاح لبرز هذا الأمر فيها بوضوح، لقد كانت هذه الظروف خارجة عن إرادة الحركة الصليبية، فدخول الهلالية ميدان المعركة إلى جانب تميم بن المعز إبان الهجوم الأول على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ورفض رجار الأول النورمان التعاون مع المدن البحرية الإيطالية التي قامت بهذا الهجوم ورفضه قبول تلك المدينة منها حينما احتلتها لأنه كان مشغولاً باستكمال استيلائه على صقلية، وضعف إمكانيات تلك المدن وشعورها بالعجز عن الاحتفاظ بالمهدية ناهيك بالتوسع قلب حسابات تلك المدن وجعلها تقبل الانسحاب مقابل فدية ضخمة وامتيازات تجارية، الأمر الذي جعل تلك الحملة الصليبية تبدو وكأنها غارة للردع والحصول على الغنيمة. وأدى ظهور الدولة الموحدية إلى إنهاء الوجود النورماني في إفريقية بهذه السرعة لاختفاء الأهداف الصليبية من وراء ذلك الاحتلال، والتي كانت قد

بدأت تظهر وقتئذ، كما وأن الحملتين الكبيرتين اللتين وجهتهما الحركة الصليبية إليها واللتين كانت قد توفرت لهما إمكانيات كبيرة وهما حملة لويس التاسع، وحملة لويس الثاني دي بوربون، قد أرسلتا في وقت غير مناسب، إذ كانت إفريقية في زمن كلتا الحملتين تمر في عهد قوة مما مكنها من مواجهتهما، حيث كانت الأولى في عهد المستنصر الأول الذي كانت الدولة الحفصية وقتئذ في أوج مجدها، والثانية في عهد أبي العباس أحمد الثاني الذي نعمت تلك الدولة في عهده بفترة صحوة بعد طول اعتلال، فلو تأخرت الحملة الأولى عقداً من الزمن حيث بداية عهد الفوضى والفتن، أو تقدمت الثانية عقدين أي قبل انقضاء ذلك العهد لكان من الممكن لأي منهما تحقيق أهدافها. وبالتالي بروز تلك الأهداف الصليبية لهما بوضوح، والتي ألقى ذلك الفشل عليها ستاراً كثيفاً، بحيث لم تعد تظهر بسهولة. وكان انشغال أرغونة بمشاكلها مع جيرانها بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة هو الذي أجبرها على صرف النظر عن إفريقية مؤقتاً بالرغم من أنها كانت قد بدأت في ربطها بعجلتها بل وباشرت في احتلالها بالفعل حينما أقدم أسطولها على احتلال جزيرة جربة. كما أن ظروف جنوة الداخلية وأوضاع القوى الأوروبية في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لم تتح لجنوة الاستفادة من احتلالها لطرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، فاضطرت لأخذ الفدية والانسحاب منها. وتبعاً لكل ذلك فشلت الحركة الصليبية في تحقيق أهدافها في إفريقية.

وكما فشلت هذ الحركة عسكرياً فإنها فشلت كذلك سلمياً، إذ تمسك مسلمو إفريقية تمسكاً قوياً بدينهم في مواجهة حركة التنصير، فسقطت حجج الرهبان المنصرين، ولم تصمد أمام الفكر الإسلامي الذي كان يتسلح به عامة مسلمي إفريقية وخاصتهم على حد سواء، مما جعل تلك الجهود تذهب هباء وتخفق في تنصير أحد يذكر من المسلمين، ولم يكن الأمر كذلك فحسب، بل إن تلك الجهود أدت إلى نتائج عكسية، ذلك أن الكثير من النصارى الذي كان لهم صلة بإفريقية على اختلاف أنواعها، ومن بينهم رهبان في حركة التنصير ذاتها قد انفتحت قلوبهم للإسلام فاعتنقوه، ومن هؤلاء من لم يكتف بذلك بل أصبح من دعاة الإسلام ومن المدافعين عنه، ويؤلف المؤلفات يرد فيها على النصارى ويفند حججهم ويقدم الأدلة من التوراة والإنجيل على نبوة سيدنا محمد ﷺ.

ولعلّي أكون قد ألقيت أضواء في هذا البحث على حقيقة هامة هي أن الحركة الصليبية إذا كانت قد فشلت في الوصول إلى أهدافها في إفريقية، فإنها قد أحرزت مكسباً هاماً هو إتاحة الفرصة للأوروبيين للاحتكاك بالمسلمين الذي كانوا يفوقونهم حضارياً، مما جعلها معبراً رابعاً للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا يضاف إلى معابرها الأخرى الثلاث الأندلس وصقلية وبلاد الشام. فبالإضافة إلى الدور الكبير الذي قامت به القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية في الغرب في نشأة تلك الحضارة في كل من الأندلس وصقلية ورفدها المستمر لهما بمؤثراتها حتى بعد نضجها فيهما واللذين كانا أهم معبرين لهذه الحضارة إلى أوروبا مما جعلها والحالة كهذه تصبح معبراً حضارياً غير مباشر، فإنها نظراً لاحتكاك الأوروبيين بمسلميها طوال عصر الحروب الصليبية سواء عن طريق الاتصال التجاري المستمر بين الطرفين أو عن طريق الجاليات الأوروبية التي أقامت فيها إما للتجارة أو كحرس سلطاني أو أسرى حروب، أو طلاب علم، أو رهبان تنصير وسواهم، كل ذلك جعلها تصبح معبراً مباشراً للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، تسربت منها الكثير من مؤثراتها في النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مما يجعل من ذلك تعويضاً للحركة الصليبية عن ما منيت به من فشل.

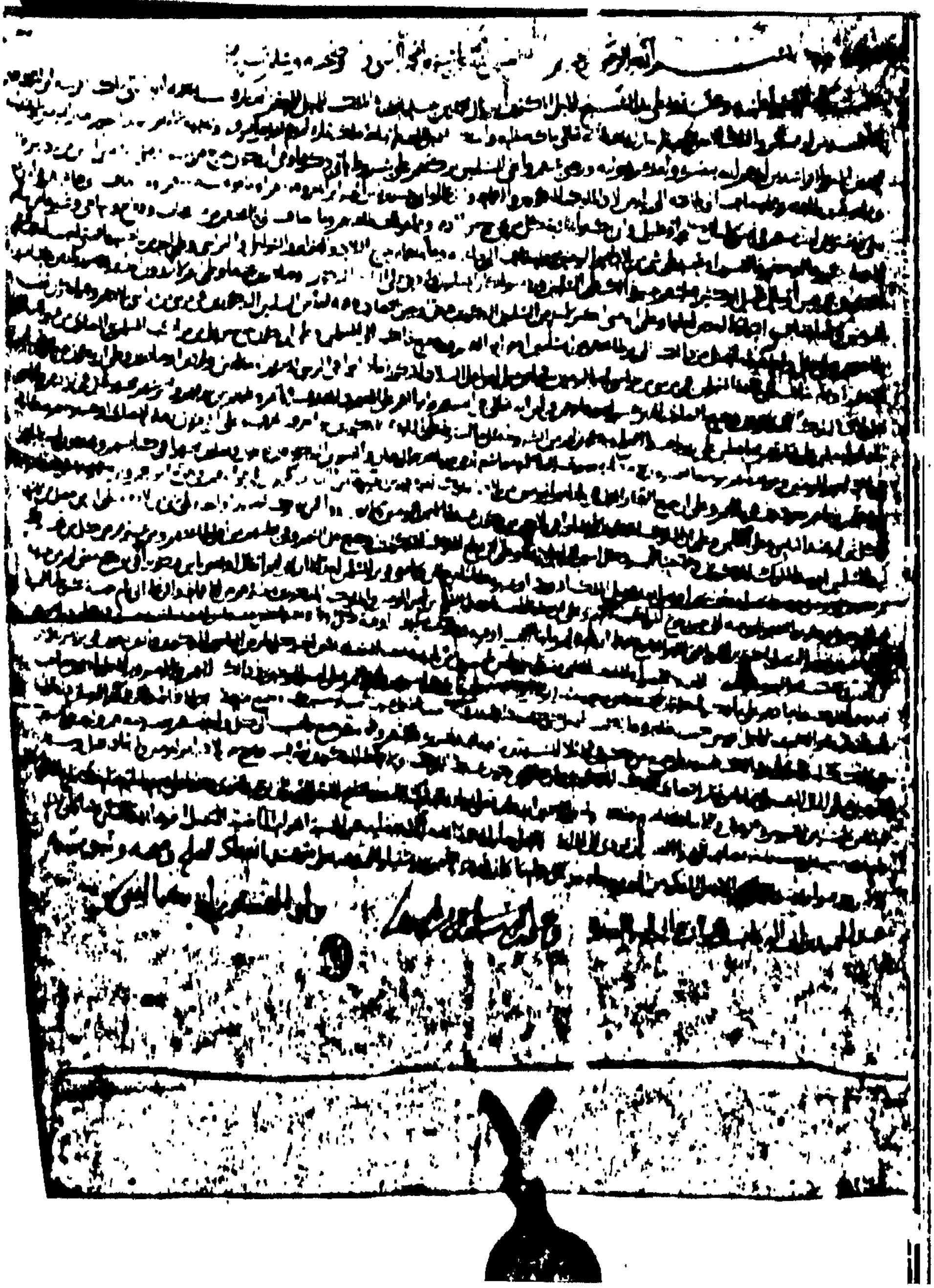
ولكن، هل كان فشل حملة لويس الثاني دي بوربون هو نهاية للحروب الصليبية في إفريقية؟ الحقيقة أن ذلك لم يكن نهاية لهذه الحروب كما أوضحت ذلك في البحث، وإنما كان خاتمة مرحلة من مراحلها، فقد أعقب تلك الحملة مباشرة بدء مرحلة تالية حمل لواء العدوان فيها النصارى الإسبان الذي ظلوا مفعمين بالروح الصليبية إلى حد الإشباع، لقد بدأت هذه المرحلة منذ أواخر ذلك القرن بالذات (القرن الرابع عشر الميلادي) وامتدت إلى أواسط القرن السادس عشر الميلادي، حيث شهدت إفريقية خلالها العديد من الهجمات الصليبية التي كان يشنها هؤلاء على نواحيها، وحفزهم سقوط غرناطة في أيديهم على تشديد تلك الهجمات ملاحقة منهم للمسلمين في العدوة إلى أن تمكنوا من احتلال مدينة تونس ذاتها حيث نفثت قلوبهم ما كانت تطفح به من حقد أسود على الإسلام والمسلمين في صورة فظائع ارتكبوها في تلك المدينة، حتى إن جامع الزيتونة الذي كان له مكانة خاصة

في قلوب المسلمين نظراً للدور الديني والحضاري الهام الذي قام به، لم يسلم من فظائعهم، فانتهكوا حرمته، وأخرجوا ما كان به من كتب بما فيها المصاحف الشريفةوداسوها بأقدامهم وبعثروها أوراقاً في الشوارع والأزقة، فضاعت تلك الثروة العلمية الضخمة التي لا تقدر بثمن، وأثبتوا بذلك أنهم كانوا لايختلفون كثيراً عن هولاكو حينما دخل بغداد، وعلى ذلك كادت الحركة الصليبية في هذه المرحلة أن تنجح في تحقيق أهدافها، إلا أن تدخل العثمانيين في أواسط القرن العاشر الهجري (السادس عشر للميلاد) فوت عليها الفرصة وحرمها من إحراز هذا النجاح.

والحمد لله رب العالمين

الملاحق واللوحات والخرائط

وَثيقَة الصلْح بَيْن المستَنصِر الحفْصي وَالصليْبيين



بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليماً.

هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد بن عبد القوي : الملك الأجل المعظم المختار فليب بنعمة الله تعالى ملك افرنسة ابن الملك الأجل الأقدس لويس، والملك الأجل المعظم جارل بنعمة الله تعالى ملك صقلية، والملك الأجل المعظم تيبلط ملك نفاره، أمدهم الله تعالى لتوفيقه، والخليفة الإمام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم، على شروط يأتي ذكرها وهي : أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين ومما هو تحت طاعته ومما ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والأقماط والزعماء، أو إلى جزيرة من الجزاير المعروفة بهم، أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم، في أمان الله تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل وأن يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم، وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من ساير الأجفان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين ومما ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزاير والسواحل والمراسي، أو على أحد من ساكنيها، فمتى أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده، سوا كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها، وعلى أنهم لا يمدون أحداً يريد ضرر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها، وعلى أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن، أو جفن للنصارى وفيه أحد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم، فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى بر طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم ورد جميع ذلك إلى المسلمين، وعلى أن يكون جميع من يحل من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة ومما ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد المذكورة ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين واردين أو

صادرين، وعلى أن يكون جميع من يصل من تجار أهل بلاد الملوك المذكورين، وجميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم، في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على المعهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيوعهم وأشريتهم، محفوظين في ترددهم وإقامتهم، ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط هذا الصلح، ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف بحرف، وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكاناً في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه دياره وبيوت الصلاة، ومواضع لدفن موتاهم، والرهبان والقسوس المذكورين يعظون ويصلون مجهراً في كنايسهم، يخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم، وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوايدهم في جميع أمورهم، ويرد لهم كل شيء لهم عند الناس وعلى الناس، وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا في بلادهم من يكون عدواً لأمير المؤمنين ولا ينجدوا لمن يتحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده، وعلى أن من حصل من الأسرى ببلد المسلمين أو بيد الملوك المذكورين وبقي حياً فيرد كل أسير إلى أهل دينه، وعلى أن يقلع الملوك المذكورين وجميع من إليهم وفي محلتهم من أهل طاعتهم ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد أو غيره كائناً من كان، ولا يبقى في بر المسلمين أحد إلا إن بقي لهم أثقال أو بعض ناس فيكونوا في موضع معين لهم من جهة أمير المؤمنين، ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم، وعلى أن مدة انعقاد الصلح بين أمير المؤمنين والملوك المذكورين وغيرهم من الأقماط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاماً شمسية، أولها شهر نوفمبر المتصل بأكتوبر الموافق لشهر التاريخ، وعلى أن يعطي لهم مايتا ألف أوقية ذهباً وعشر آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهماً من دراهمهم في الوزن والطيب، يعجل لهم منها نصف العدد محضراً، والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين، والذين يبقون في بر أمير المؤمنين بعد سفر الملوك وأجنادهم على ما ذكرناه يكونون محفوظين من جهة أمير المؤمنين، وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين رد ذلك إليهم. والانبرور الأجل بادوين صاحب

قسطنطينية والكمت الأجل ألفوس كمت طلوزة، والكمت الأجل كي كمت دافلندر، والكمت الأجل هري كمت لوسنبرك، وجميع من حضر من الأقماط والزعما والفرسان داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك. شهد على جميع من ذكر في الأعلا المشهودين بما فيه بعد تقريرهم عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر الجميع. وليعطي أمير المؤمنين على المال المتبقي ضماناً من تجار النصارى للملوك المذكورين وإن كل من يكون عدواً للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل. وشهد أيضاً من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك. وأمير المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدوا على دينهم وأمانتهم لتمام ذلك، بتاريخ الخامس لربيع آخر عام تسعة وستين وستمائة. ويضاف إلى هذا العقد أن يودى إلى الملك الأجل جارل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يودى للانبرور سوا، ويودى للملك الأجل المذكور من اليوم رجاء في كل عام ما كان يودى للانبرور مثنياً.

والحمد لله تعالى، شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي، وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القسم بن أبي بكر التجيبي.

الملحق الثاني

رسالة من المرتضى الموحدي إلى البابا أنوسنت الرابع

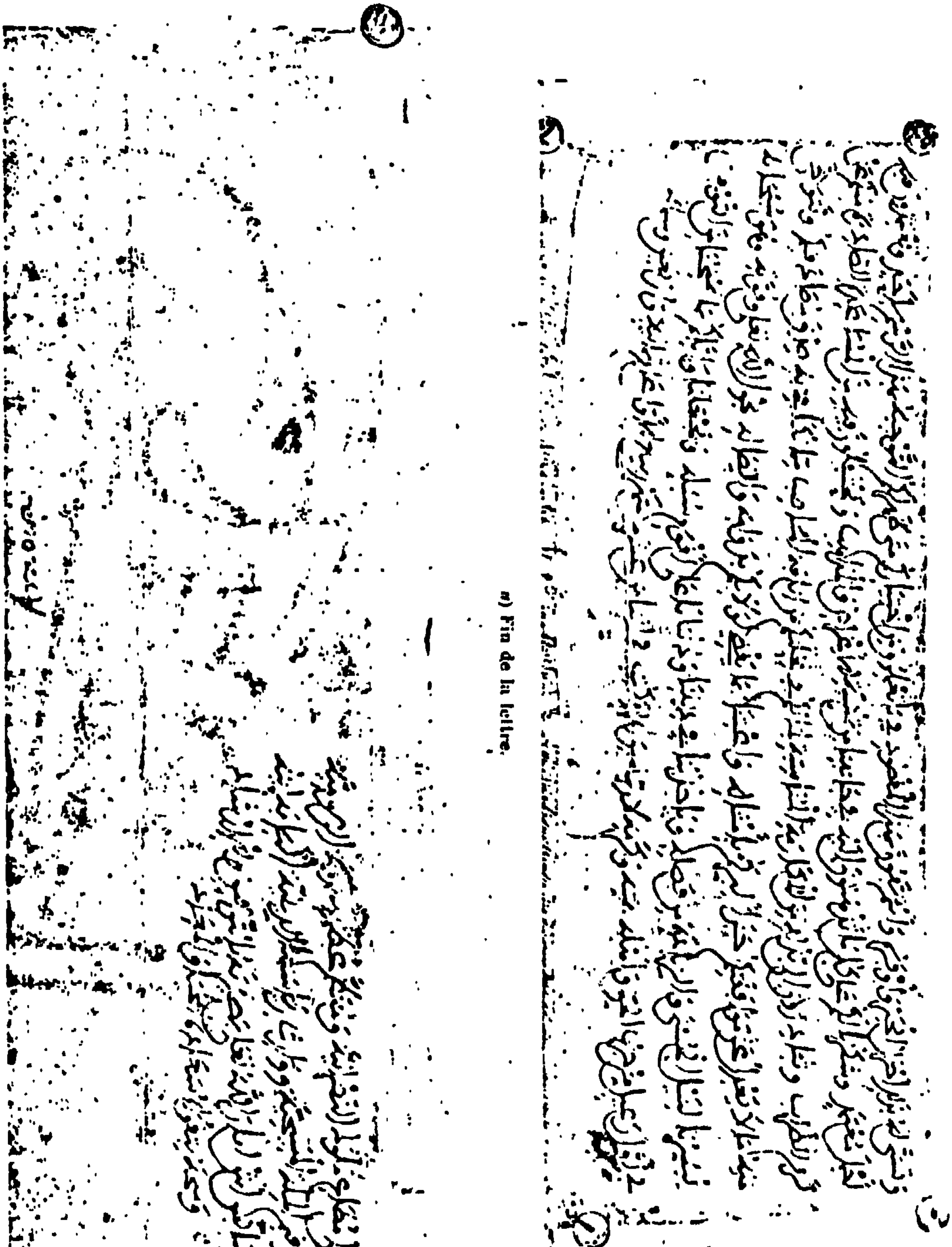

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

والحمد لله وحده

رساله إلى البابا انوست

(الصفحة الثانية)

(٣)



a) Fin de la lettre.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله وحده

من عبد الله عمر أمير المؤمنين ابن سيدنا الأمير أبي إبراهيم بن أميرالمؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعلى بنصره وأمدهم بمعونته إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابه اينه سانس أش أنار الله تعلى بصيرته بتوفيقه وإرشاده وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها عدته لمحياه ومعاده وأناله من سابق الهداية ما يفضي لمدى الغاية بأتم انفساحه وامتداحه تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به المبار لدينا. أما بعد فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو حمد من علم أنه الرب الواحد الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد تعالى الملك الرحمان عما يقول المثلث والمشبه والجاحد ونصلي على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوائد ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان يناوى ويعاند وعلى آله وصحبه الكرام الذين ازدانت بهم المحاضر والمشاهد ووصلت قصار صوارمهم في مواقف الحروب السواعد وأنجزت لهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد ونسأل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم الذي جذبه لدين الله تعلى الشباب المعاود وأهلت بهدايته بعد إقفارها المعاهد وباء بالخسران المخاتل لأمره والمكايد وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى منهم إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقي والمصاعد وعن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذي طابت منه العناصر والمحاتد واشتق من نبعة للخلافة قد أورق نضارة وغضارة فننها المائد وزهد في الدنيا الفانية ورغب في الأخرى الباقية فنعم الراغب الزاهد. وهذا كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تزكو وتتوفر واستعملنا وإياكم بكل ما نتهيأ به لإحراز الفوز لديه ونتيسر من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده والسعي معمل في ابتغاء رضاء الله تعالى موفقه ومسدده والحمد لله رب العالمين حمداً

يتوالى على الألسنة تكرره وتردده ونستدعي به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من يشكره ويحمده وإلى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسعادكم وجعل في طاعته التي تعبر بها خلقه اصداركم وايرادكم فإنه سبقت منا اليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة الينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تمنا به بركم ووفينا وعرفناكم أنا نوجب لمنصبكم الذي أبر في ملتكم على المناصب وأقر لرتبتكم فيه أهل دينكم.

الهامش:

بالشغوف على سائر ما لهم من المراتب فأنتم عندنا لذلكم بالتكرمة الحفيلة ملحوظون وبالعناية الجميلة محظوظون يؤكد من أسباب المواصلة لكم ما حقه أن يؤكد ونجدد من عهود الحفاية بكم ما شأنه أن يجدد ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله البشب* الذي كان قد وصل بكتابكم إلينا انصرافاً لم يعده منا فيه بر وإكرام ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام كما أنه في المدة التي قضي له فيها لدينا بالمقام لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام وتحمل كتابنا إليكم تعريفا بما اختار من انصرافه وتوخياً في ما آثره من ذلك لإسعافه وما قصر له في حالي مقامه ورحيله ولا عدل به عن حفيّ البر وحفيله وسنيّ المن وجزيله ذهابا لتكريم إشارتكم السابقة في حقه وسلوكاً به من البر على أوضح طرفه والله تعالى يرشد في كل الأحوال لأزكى الأعمال لديه وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم فتخيروه من أهل العقل الراجح والسمت الحسن وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلك هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة ومتحلياً بالخلال المشكورة حسن في كل ما يستخدم الرب.

---

* البشب : الأسقف.

الظهر :

وتسنى له بذلك أجزل الخير وأوفره وأنتم تفون بهذا المقصود في ما تعلمون من اختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الاسم لأحد وتعتمدون فيه أجمل معتمد وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب وتبادرون إلى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في نحلتكم من انافة المناصب مما نكافئ به صدق مصادقتكم ونتوخى منه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بأمثاله واعتناء بما يقضي لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله ويأخذ بنا في ديننا ودنيانا على أقوم سبله ويجعلنا وإياكم بما يمنحنا من التوفيق في أول رعيل من حزب الحق وأهله بمنه وكرمه لا رب سواه وكتب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وستمائة.

حافة الظهر :

إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابه اينه سانس أش أنار الله تعالى بصيرته بالتوفيق والإرشاد ومنحه بتقواه سعادة المحيا والمعاد.

الملحق الثالث

رِسَالة مِن أبي يحيى زكريَّا بن اللحْياني إلى خَايمي الثّاني ملك أرغوْنَة

وهي من تحرير أبي الفضل محمد بن أبي الحسين بن إبراهيم التجاني مؤرخة في ٢٩ رمضان سنة ٧١٢هـ / ٢٨ يناير سنة ١٣١٣م، وهي منشورة ضمن وثائق تاج أرغونة. وأعاد نشرها الدكتور محمد الطالبي ضمن بحثه (الهجرة الأندلسية إلى إفريقية ص ٨٧ – ٩٠) وعنه أخذت صورة هذه الرسالة الذي أخذها بدوره عن الأصل مباشرة.



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً الحمد لله والشكر لله

من عبد الله زكريا أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى السلطان الحسيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير جاقمة ملك أرغون وبلنسية وميورقة ومرسية وقمط برجلونة وقبطان جنرال عن الكنائس وعن الباب ابن السلطان الحسيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير بطرو ملك أرغون وبلنسية وميورقة وقمط برجلونة وفق الله قصده وأجمل رشده. أما بعد فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا تونس حرسها الله ونعم الله سبحانه قبلنا مستمرة وآلاءه بدوام الشكر ثابتة مستقرة – والحمد لله – حمداً يؤذن بالمزيد ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد وإلى هذا أرشدكم الله فإنا كتبناه إليكم مقررين لصفاء ودادنا وخلوص محبتنا واعتقادنا ما أردنا أن يكون معلوماً عندكم مقدمين ومعرفين أن ابن عمكم الملك الحسيب الكبير الشهير الخطير صاحب ميورقة وجه إلينا رسولاً من قبله في شأن الصلح فعقدناه معه وأبرمناه لعلمنا أن الحال منه ومنكم واحدة وأن نيتكم له في جميع ما يفعله مساعدة وطلب منا في صلحه أن يكون لمن يصل من ميورقة فندق لسكناهم وقنصل يحكم بينهم فأجبناه لذلك بعد أن ذكر لنا رسوله أنه تحدث معكم في هذا فوافق رضاكم ونحن لا نعمل إلا ما يكون باختياركم ويجيء بوفق مرادكم لما بيننا من المحبة المتصلة قبل جلوسنا هذا الموضع وبعده وذلك متوارث عن الآباء متصل فيما بعد بين الأبناء إن شاء الله تعلى والصلح الذي كنتم عقدتموه قبل هذا على يدنا مع ابن عمنا وجددتموه بعد ذلك جدير منكم أن تثبتوه وتمكنوه وتزيدوا على ما عقدتم فيه لأننا باقون عليه وقد اتصل بنا أن النداء شاع ببلادكم بأن من أحب القطع على بلاد المسلمين ما عدى بلاد الأندلس فليخرج فعجبنا من كونكم لم تستثنوا بلادنا مع ما بيننا من الصلح المعقود وبقاء مدة من أمده المحدود بل نعتقد أن المدة لو فرغت لكنتم من يجدده ويمنع بلادنا من القطع بكل سبب يجده هذا هو ظننا فيكم واعتقادنا في مودتكم وتصافيكم وقد أمرنا عبدنا وقائدنا برناط دفنس أن يشرح لكم ما لم نشرحه في كتابنا هذا فصدقوه بحول الله فيما يكتبه واسمعوا منه ما يقوله والواصل إليكم بكتابنا هذا د.رنس بركه كاتب النصارى لدينا توجه ليصل بجوابكم ويعود إلينا بكتابكم بما نعتقده فيكم إن شاء الله وهو سبحانه يرشدكم كتب في التاسع والعشرين لشهر رمضان المعظم من عام اثني عشر وسبعمائة.

رِسَالة مِن أبي يحيى زكريَّا بن اللحْياني إلى خَايمي الثاني ملك أرغونَة

وهي من تحرير أبي الفضل محمد بن أبي الحسين بن إبراهيم التجاني مؤرخة في ٩ محرم سنة ٧١٦هـ / ٣ أبريل سنة ١٣١٦م، وهي منشورة ضمن وثائق تاج أرغونة. وأعاد نشرها الدكتور محمد الطالبي ضمن بحثه (الهجرة الأندلسية إلى إفريقية ص ٨٤ – ٨٦) وعنه أخذت صورة هذه الرسالة الذي أخذها بدوره عن الأصل مباشرة.



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله والشكر لله

من عبد الله زكريا أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى السلطان الحسيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير جاقمة ملك أرغون وبلنسية وميورقة ومرسية وقمط برجلونة وقبطان جنرال عن الكنائس وعن الباب ابن السلطان الحسيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير بطرو ملك أرغون وبلنسية وميورقة وقمط برجلونة وفق الله قصده

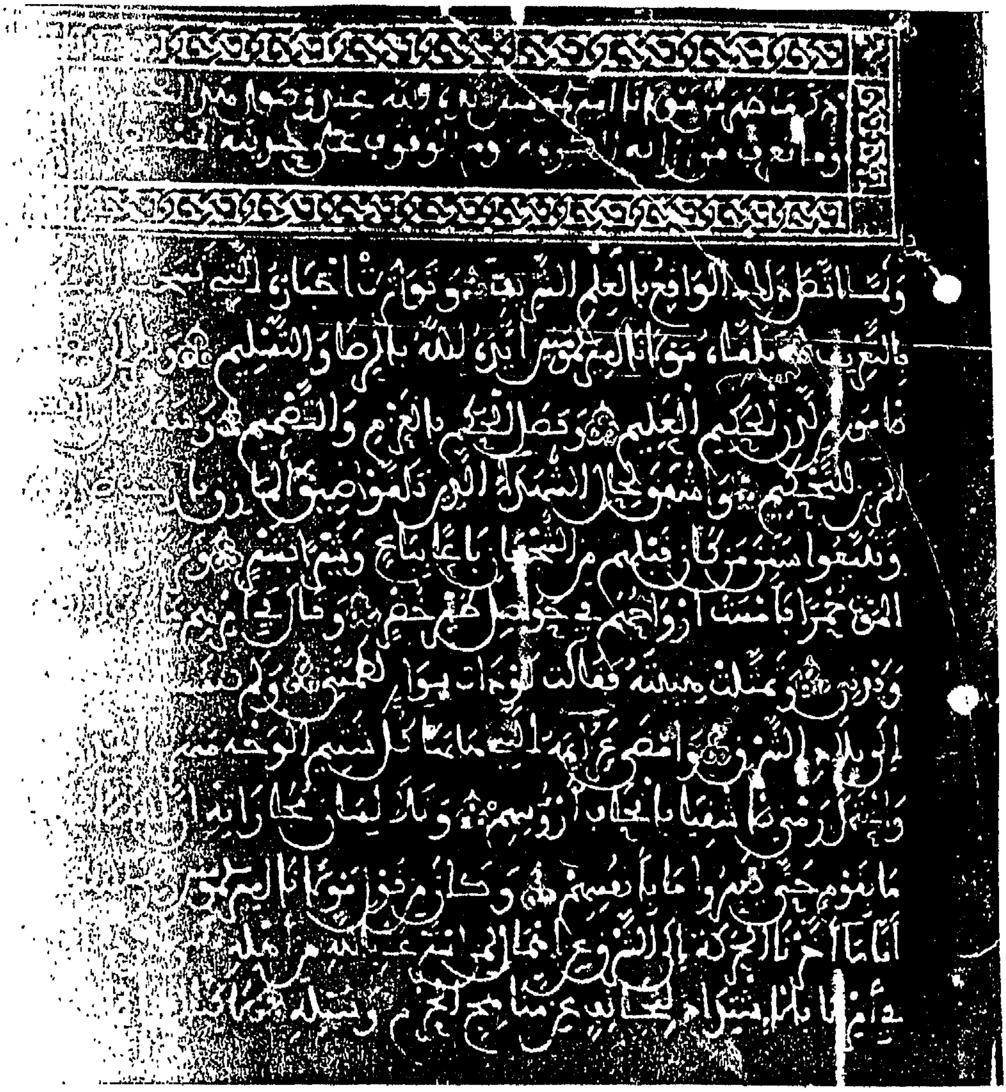
أما بعد فكتابنا هذا إليكم من منزلنا المبارك بطرابلس يمنه الله ونعم الله سبحانه قبلنا مستمرة، وآلاءه بدوام الشكر ثابتة مستقرة والحمد لله حمداً يؤذن بالمزيد ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد وإلى هذا أرشدكم الله فإنه وصل إلينا القسيس الحسيب الكبير الثقة الأمين بير د من ملن فتحدثنا معه فيما بيننا وبينكم من الود الصميم والاعتقاد الخالص السليم وشافهناه بما يلقيه إليكم في ذلك فالذي يلقيه لكم نحن أمرناه بإلقائه وهو يبلغه لكم على أكمل أنحائه لعلمنا بصدقه وأمانته وحسن أدائه ولما نتحققه من انقطاعه إليكم وإلى الأخ الأعز علينا السلطان الحسيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير فدريك ملك صقلية أسعده الله تعلى

وقد أكدنا عليه في أن يبالغ فيما يلقيه لكم من تقرير المحبة والصداقة على نحو ما كان بين أسلافنا وأسلافكم وعلى ما يكون بين عقبنا وعقبكم إن شاء الله تعالى وبعثنا معه كتبا لملك المغرب أعزه الله تعالى في شأن ما لحقنا من أذية أهل سبتة بوصول قطعهم إلى جهتنا وإفسادهم لمراسينا وأخذهم أجفانا للنصارى الذين هم منا وإلينا فإن من صالحناه من النصارى حكمه حكمنا وصون دمه وماله واجب علينا كما نصون دماءنا وأموالنا وملك المغرب أعزه الله عند وصول كتابنا إليه يقطع عنا هذا الضرر بأن يأمر أهل سبتة أن لا يقربوا بلادنا ولا يصلوا إلى جهتنا بوجه من الوجوه فإن احتاج القسيس الحسيب الكبير بيرد من ملن إلى التدبير معكم في وصول الكتاب المذكور إليه فأعينوه على ذلك والله يعين الجميع على ما يصلح الأحوال هو سبحانه ولي التوفيق

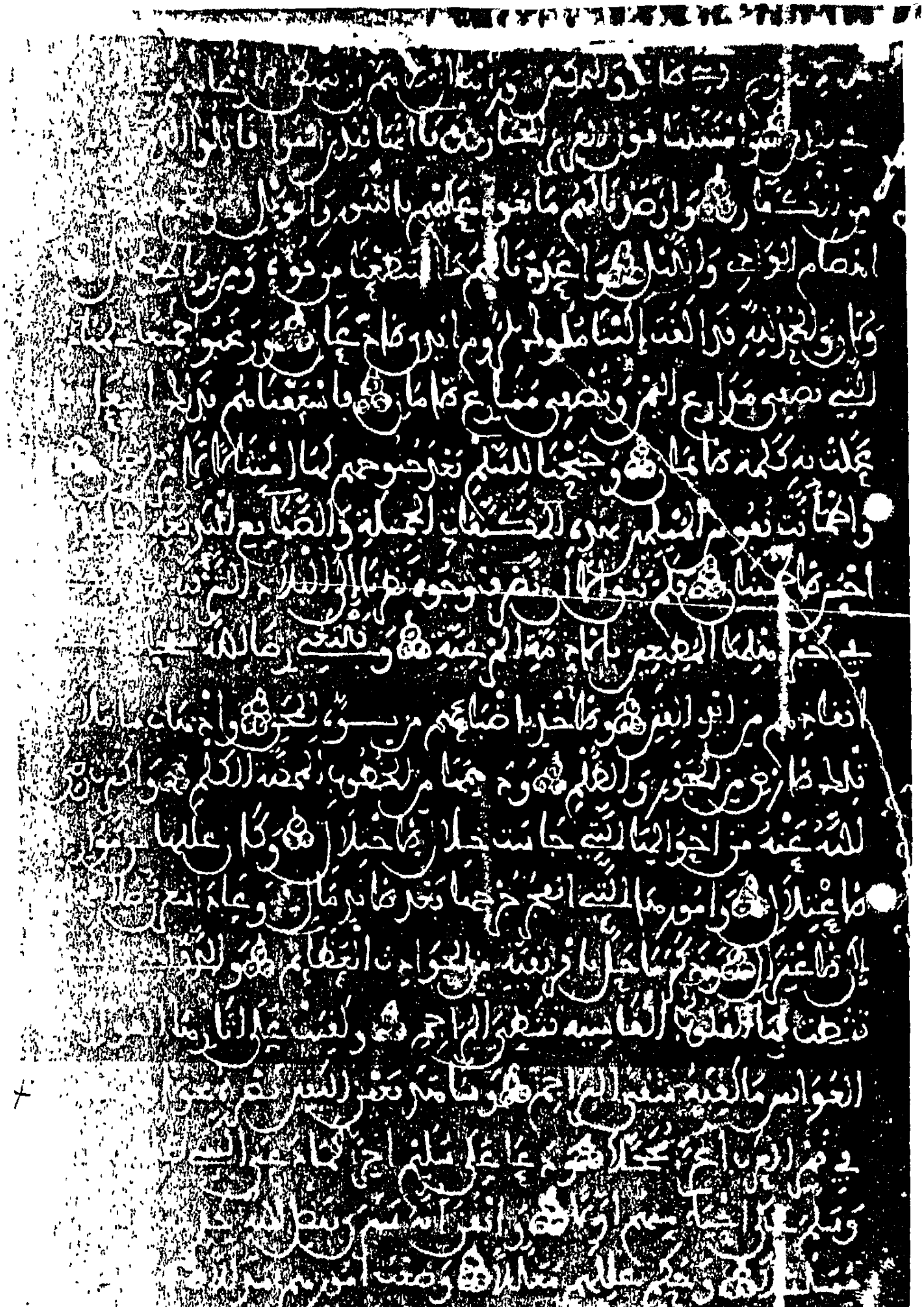
كتب في التاسع لشهر محرم عام ستة عشر وسبعمائة وهو الموافق لليوم الثالث من أبريل – سنة ١٣١٦م –.

الملحق الخامس

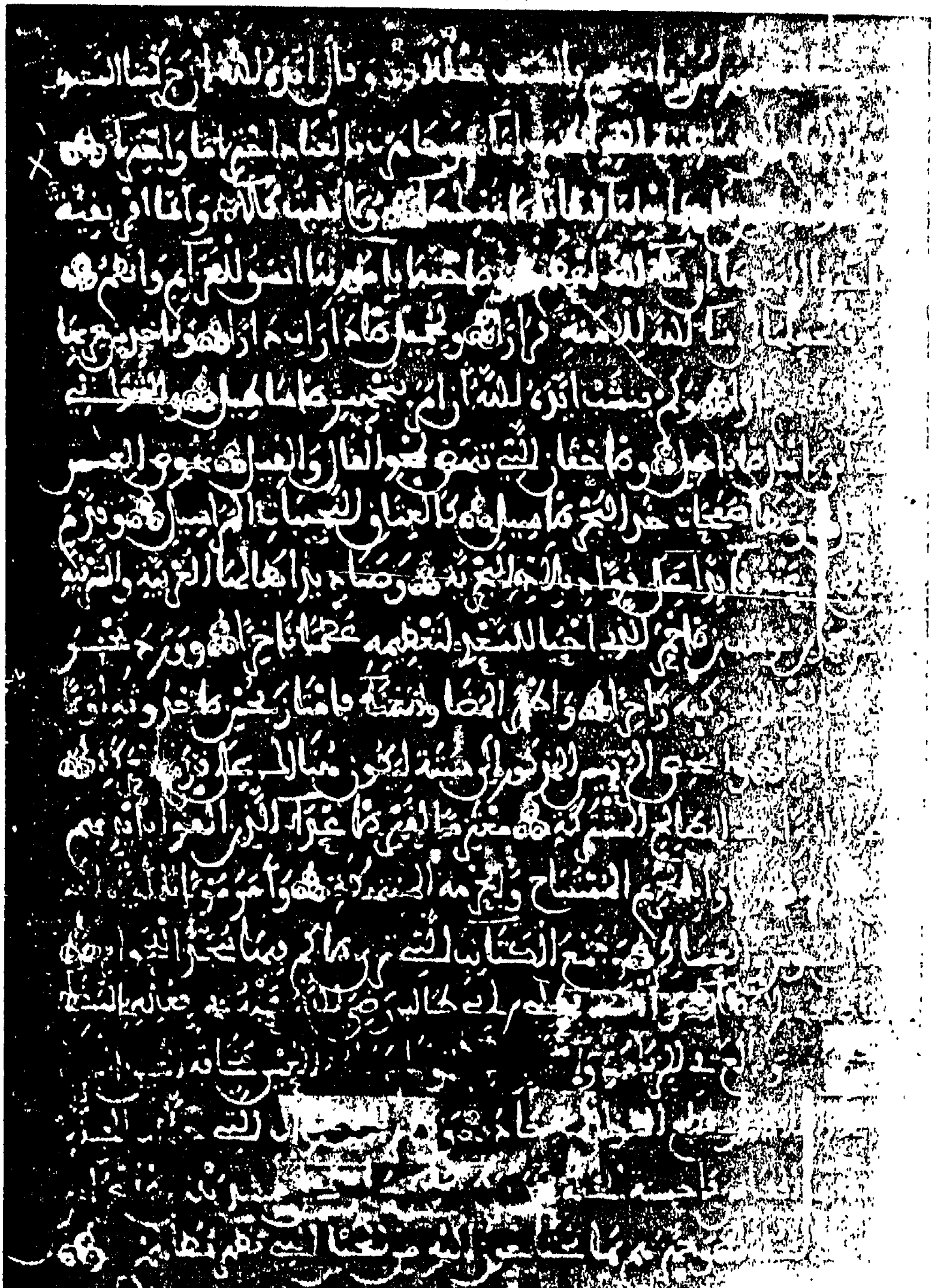
عَزم أبي عنّان المريني على الزحف إلى إفريقية في المحاولة المرينيَّة الثّانيَة لتوحيْد المغربْ العَربي (من فيضْ العبَاب وإفَاضَة قداح الآداب في الحَركَة السَّعيْدَة إلى قسنطينَة وَالزاب) لمؤلفه ابن الحاج النميري



(٦)



(٧)



(٨)



ذكر ما ظهر من مولانا أمير المؤمنين أيده الله عن وصول هذا الخبر وما تعرف من آرائه الكريمة يوم الوقوف على حديثه المستظهر

ولما اتصل ذلك الواقع بالعلم الشريف، وتواترت بأخباره التي نسخت التنكير بالتعريف، تلقاه مولانا أمير المؤمنين أيده الله بالرضا والتسليم، ونظر إلى مصادر الأمور من لدن الحكيم العليم، وفصل الحكم بالعزم والتصميم، وسفه رأي القعدى المزين للتحكيم، وأشفق لحال الشهداء الذين تلقوا ضيق المآزق بأرحب صدر، وتتبعوا سنن من كان قبلهم من الشجعان باعاً بباع وشبراً بشبر، وتردوا أردية الموت حمراً فأمست أرواحهم في حواصل طير خضر، وقال في أمرهم ما يقرب إلى الله ويدني، وتمثلت هيبته فقالت لو ذات سوار لطمتني، ولم ينشب أن أشاد بالحركة إلى بلاد الشرق، وأمضى عزائمه التي هابها كل شتيم الوجه...[1] الشدق، واعتمل رمي الأشقياء بأقحاف أرؤسهم، وتلا لسان مجازاته أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وكان من قول مولانا أمير المؤمنين رضي الله عنه إنا ما أخرنا الحركة إلى الشرق عن إهمال لمن انتزى بالله من أهله، ولا أرجأنا الأخذ في أمرها بالاشتداد لتجانب عن مناهج الحزم وسبله، ولكنا آثرنا الاشتغال (ورقة ٨ب)... اللزوم... والتمكين ورأينا الأهم أن ننهض لإذعان من عادى في الدين، وامتثلنا قول العزيز الجبار، ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونوكم من الكفار**﴾، وأرصدنا لهم ما يعود عليهم بالثبور والويل ويجمع لهم... أهضام الوادي والليل، وأعددنا لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل، والآن والحمد لله قد ألقت إلينا ملوك الروم أيدي الإذعان، ورغبوا جمياً في المهادنة التي تضفي مدارع الأمن وتصفي مشارع الأيمان، فأسعفناهم بذلك إسعافاً علت به كلمة الإيمان، وجنحنا للسلم بعد جنوحهم لها امتثالاً لأمر الرحمن، واطمأنت نفوس المسلمين بهذه المكيفات الجميلة والصنائع البديعة الجليلة أحسن الاطمئنان، فلم يبق إلا أن نصرف وجوه نظرنا إلى البلاد الشرقية، ونوفي في جبر أهلها المطيعين بالأذمة المرعية، ونبتغي رضا الله سبحانه في إنقاذهم من أيدي الفتن، والأخذ بأضباعهم من نوء المحن، وإذهاب ما ملأ تلك الأرض من الجور والظلم، ودهمها من الخطوب الممضة الكلم، واكترث رضي الله عنه

---

(١) النقط المتلاحمة تعني كلمات غير مقروءة نظراً لكونها إما ممسوحة أو غير واضحة.

من أحوالها التي جاست خلال الاختلال، وكان عللها من موارد الاعتلال، وأمورها التي انفجر جرحها بعد الاندمال، وعاد أشعري صلاحها إلى الاعتزال[١]، وذكر ما حل بإفريقية من الحوادث العظائم، والدواهي التي تشظت بها القلوب القاسية تشظي المراجم، ولقيت على آثارها الفوارس العوابس ما لقيه شقي البراجم، وشاهد بعين اليقين نصره تحولاً، ويومه في قهر العرب أغر محجلاً، ودعا على سليم[٢] آخراً كما دعى النبي ﷺ على أحياء منهم أولاً، وأيقن أنه سيرى بفضل الله حديث قهرهم مسلسلاً، وحكم عللهم معللاً، وضعف أمورهم مدللاً، وحسام (ورقة ٩أ) بغيهم مفللاً، ورأس رياستهم بالسيف مجللاً، وقال أيده الله إن حركتنا السعيدة في هذا العام إلى قسنطينة التي أظهرت إباء وجاهرت بالعناد اجتراماً واجتزاءً، وأن المواعظ من قلوب أهلها قيعاناً لا تمسك ماء، ولاتنبت كلأ، وأما إفريقية فلها احتفال لتمهيدها إن شاء الله أعظم، والاحتفاء بأمورها أنسق للعزائم وأنظم[٣]، وسوف نجعلها إن شاء الله للأمنة قراراً، ولجميل الإدارات داراً، ونأخذ من عربها الذين ثار بغيهم ثاراً، ولم يلبث أيده الله أن أمر بتجهيز الأساطيل، والشواني السوابق لأهل الأباطيل والأجفان التي تنهض لمحو القال والقيل، نهوض العيس المراقيل، وتطأ صفحات خد البحر الأسيل، كالعتاق النجيبات المراسيل، وقدم رضي الله عنه قائداً على قواد بلاده البحرية، وصناديد أبطالها الغربية والشرقية الريس محمد بن يوسف بن الأحمر، الذي أحيا... ولتعظيمه عظماً ناخراً، وورد بحر الجنود كالبحر الذي ركبه زاخراً، وأظهر المضا والغناء فامتاز بحسن الأحدوثة أولاً.. آخراً، وأشخص الريس المذكور إلى سبتة ليكون هنالك على قدم الحركة، ناظراً للقواد في المصالح المشتركة، معتزماً لقهر الأعداء الذين ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، وباؤوا بالحريم المستباح والحرمة المنتهكة، وأمر مولانا أيده الله بإقبال الجيوش

---

(١) الأشاعرة والمعتزلة هما من فرق أهل السنة.

(٢) سليم بطن من بطون الهلالية.

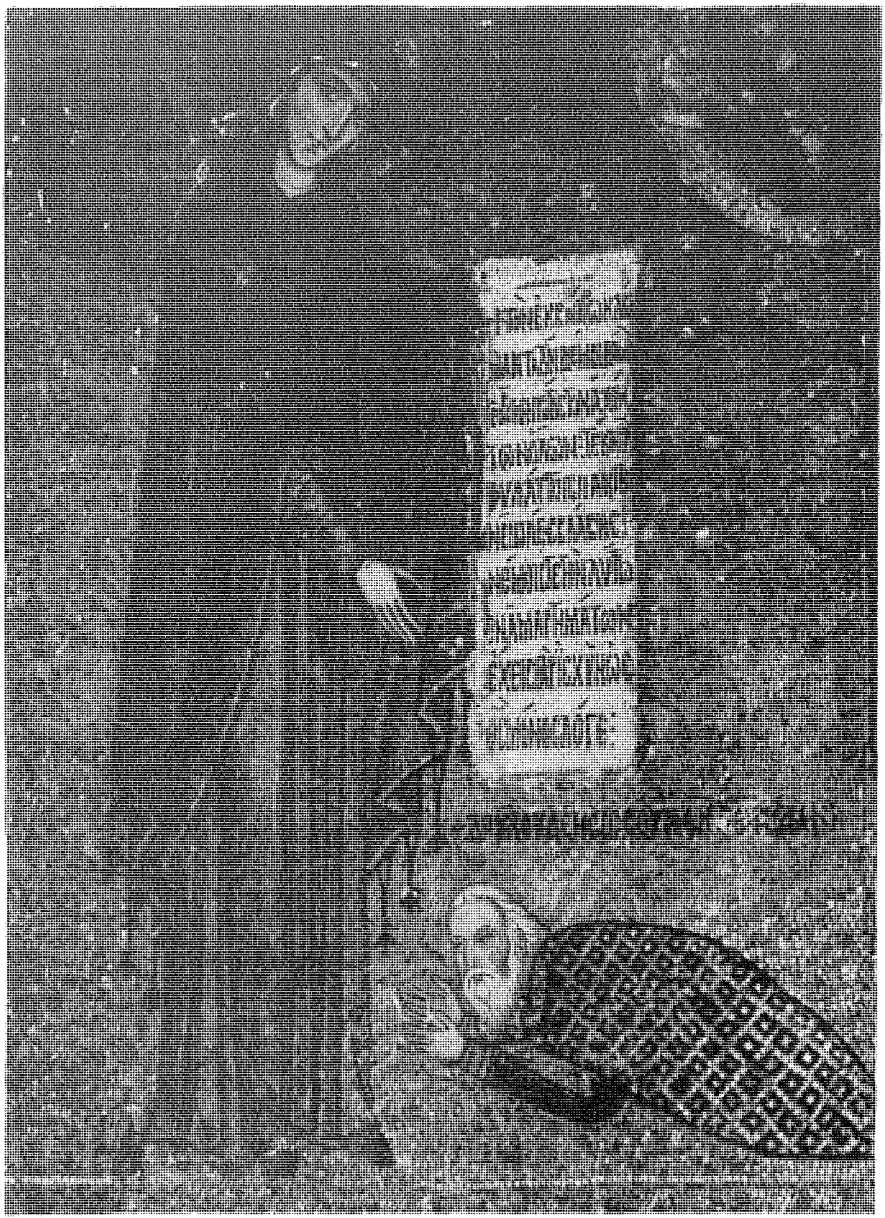
(٣) يخفي ابن الحاج الحقيقة هنا عمداً مجاراة لأبي عنان، فالحركة كانت تستهدف كامل إفريقية وليس قسنطينة فقط، بدليل أن أبا عنان أقام في قسنطينة وأرسل أسطولاً لاحتلال تونس كما ذكر في موضعه، وكما يذكره ابن الحاج نفسه فيما بعد، وكان عزم على الزحف عليها براً واللحاق بأسطوله ولكن جيشه خالفه في ذلك. وقصر ابن الحاج هذه الحركة على قسنطينة والزاب لأن أبا عنان تمكن من احتلالهما بالفعل.

والعساكر، وجمع الكتائب التي ترى الأكم فيها سجداً للحوافر، وأفاض بحور العطاء،... برأي طالبه رضي الله عنه في فعاله البيضاء، وبالغ في الزيادة والاعتناء... العين مخافة العين.. ولقطع الفلاة، وقطع الجبال والنجاد... التي قللت الحذر وتخللتها المحاسن.. الذي كسى الجلة، وجهزهم بما يحتاجون إليه من الخيل التي تظهر... (ورقة ٩ب) السيوف التي تضرب كان وصلها خطاهم، والبيضات التي حفظت بها بيضة الإسلام، والمصفحات التي زلت على صفوانها أقدام الحمام، وأصدر أيده الله الأوامر الكريمة بحشد القبائل، وحشر الرامح والقافل، واستقدام العالي والسافل، واجتماع البازغ والآفل، وجعلهم لصلوات جيوشه كالنوافل، ووسم أغفال الكماة العواقل، ومسح بالساعد الأشد على الضروع الحوافل، واستنهض أبطالاً تسرع خيولهم كالنعام الجوافل، وسلك مع الرعايا في تقسيط الجنود مسالك العدل، وأمرهم بالجري في التجاوز على أوضح السبل، وقال لهم اقتضوا بالتوفية دينكم، واتركوا في قهر الأعداء دينكم، ولا تتكاسلوا إن قالت الحرب... ودعوا بعدكم عن مأزق... وبينكم، وتلا عليهم لسان حاله الكريمة ولا تنسوا الفضل بينكم، وما زال أيده الله يعمر بهذا التدبير... ليله ونهاره، ويساوي في إبرام معاهده إعلانه وإسراره، ويبرأ إلى الله من قوته وحوله، ويضرع إليه في فعله وقوله، ويلظ بالدعاء ويستوهب بركة خواطر الصلحاء، ويشكر نعم الله التي أسبغها عليه ظاهرة وباطنة، وصنائعه الجميلة التي لم تزل... آمنة ومواهب إحسانه التي تسوغها هادئة هادنة، وعوارف الآية التي زاد خمايلها ميمونة آمنة، وعواطف عنايته التي... حافظة سادنة (ورقة ١٠أ).

لوحة (١)

لوحة فسيفساء تمثل جرجي الأنطاكي يرتمي على أقدام السيدة العذراء موجودة في الكنيسة التي بناها في بلرمة والمسماة حالياً كنيسة مرتورانا.

(من كتاب : D.C. Douglas : the Norman Fate)



لوحة (٢)

لوحة فسيفساء تصور تتويج رجار الثاني من قبل المسيح عليه السلام موجودة في كنيسة مرتورانا أيضاً.

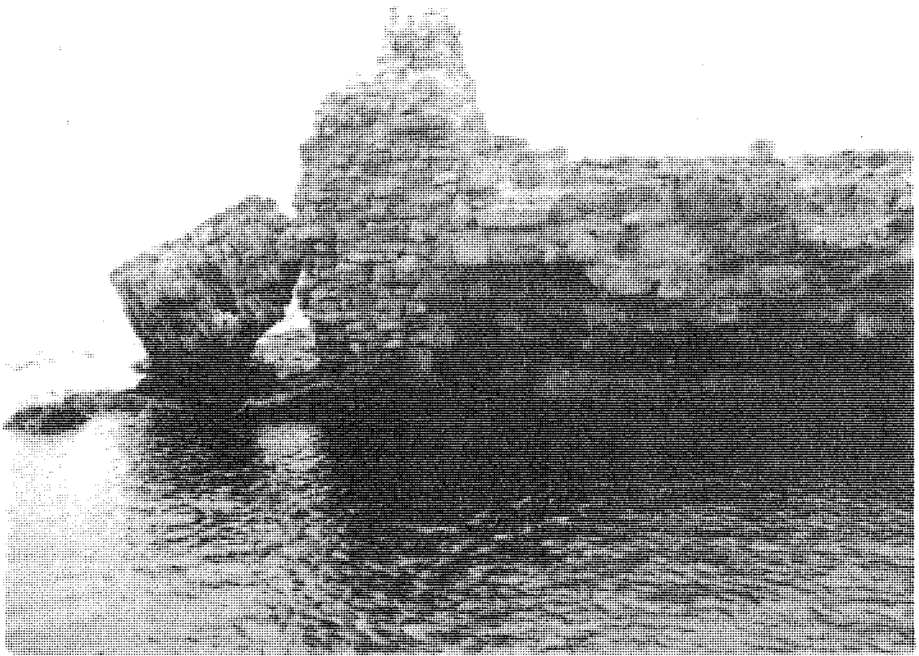
(من كتاب D.C. Douglas : the Norman Fate)



لوحة (٣)

جانب من بقايا سور المهدية

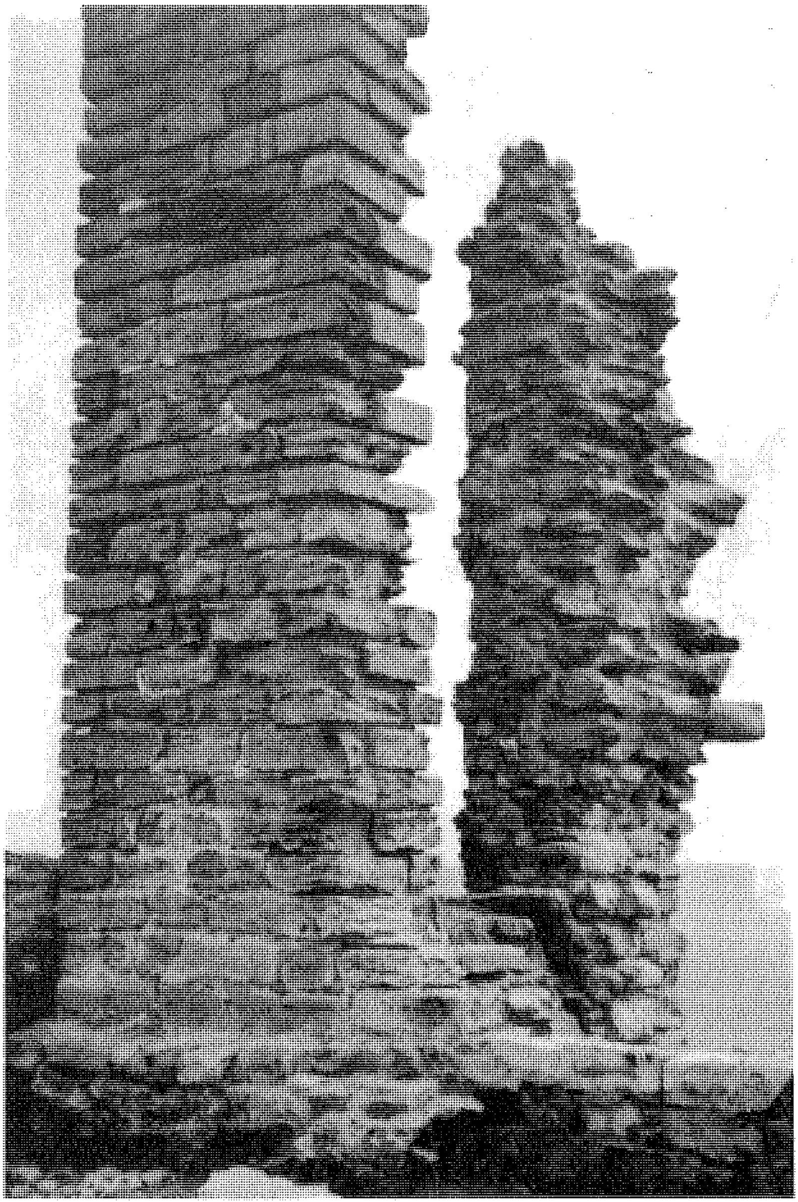
(تصوير خاص)



لوحة (٤)

جانب من مدخل ميناء المهدية القديم (الميناء الداخلي)

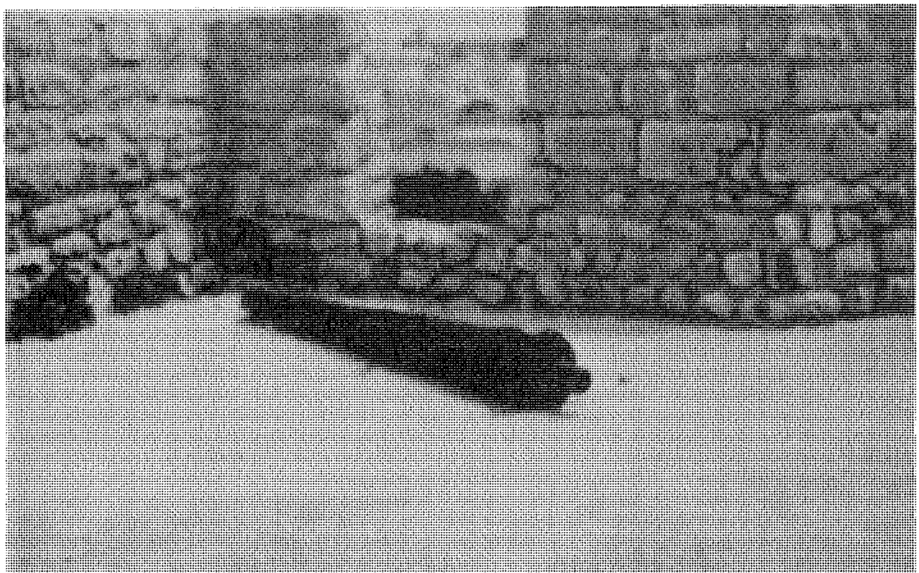
(تصوير خاص)



لوحة (٥)

جانب من بقايا البرج الذي يعلو باب الفتوح «السقيفة الكحلاء» بالمهدية.

(تصوير خاص)



لوحة (٦)

جانب آخر من بقايا البرج الذي يعلو باب الفتوح بالمهدية

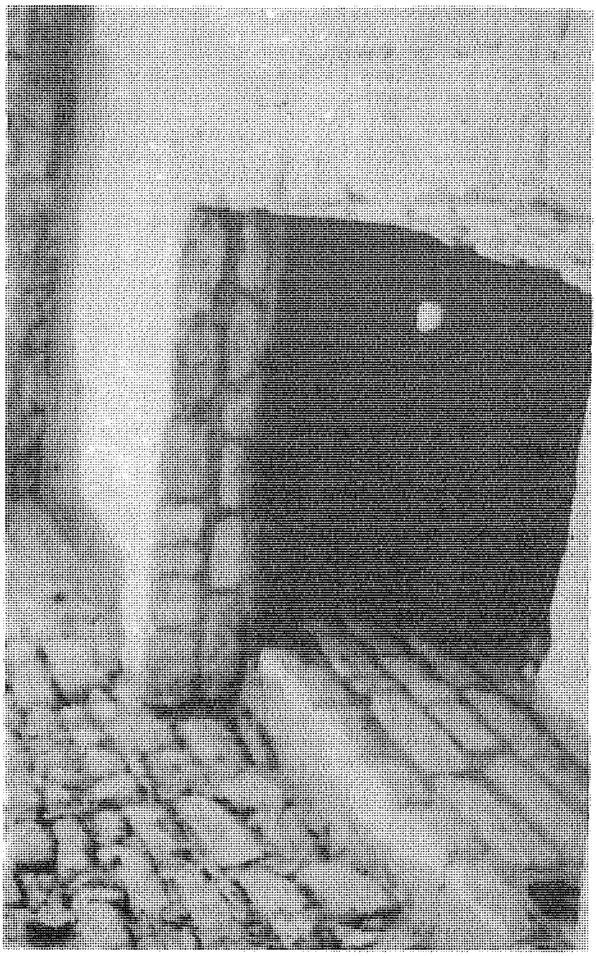
(تصوير خاص)



لوحة (٧)

مطلع البرج الذي يعلو باب الفتوح بالمهدية

(تصوير خاص)



لوحة (٨)

منارة رباط المنستير (القرن الثالث الهجري)

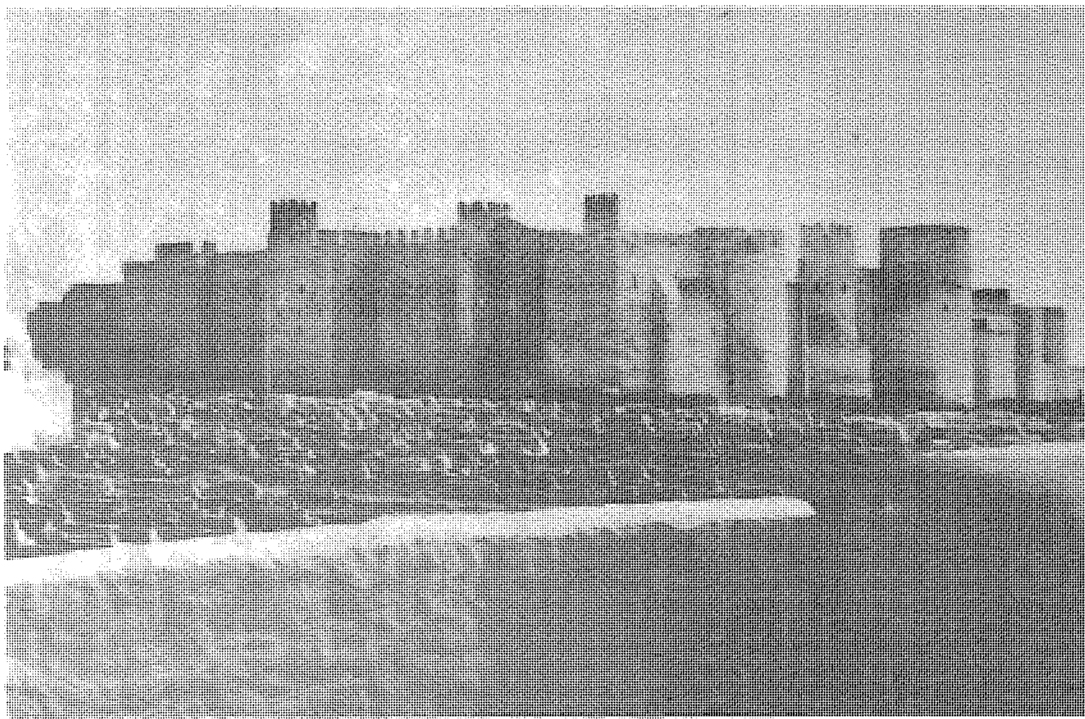
(من كتاب سليمان مصطفى زبيس : المنستير – ص ١٦)



لوحة (٩)

منظر عام لرباط المنستير والمقبرة

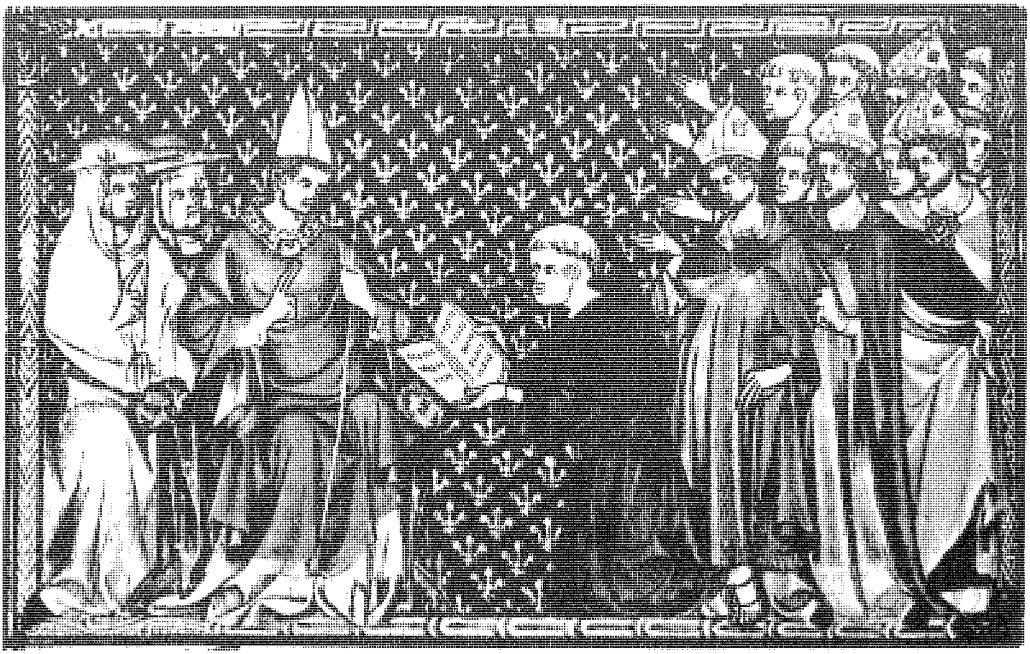
(من كتاب سليمان مصطفى زبيس : المنستير – ص ٤١)

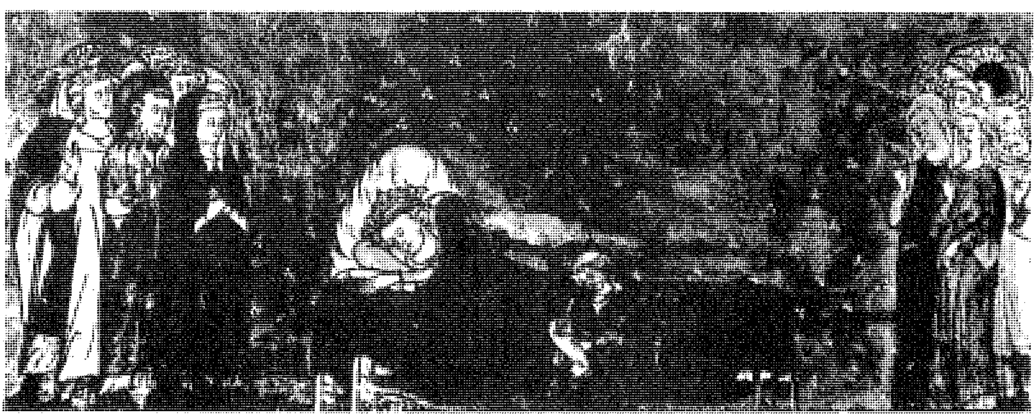


لوحة (١٠)

لوحة تمثل لويس التاسع في أيامه الأخيرة يملي القسم الثالث والأخير من وصاياه وتوجيهاته لولي عهده

(من كتاب : CL. Hachette : Le Siecle de Saint Louis, p. 292)





لوحة (١١)

لوحة تمثل لويس التاسع مسجى على فراش الموت

من كتاب

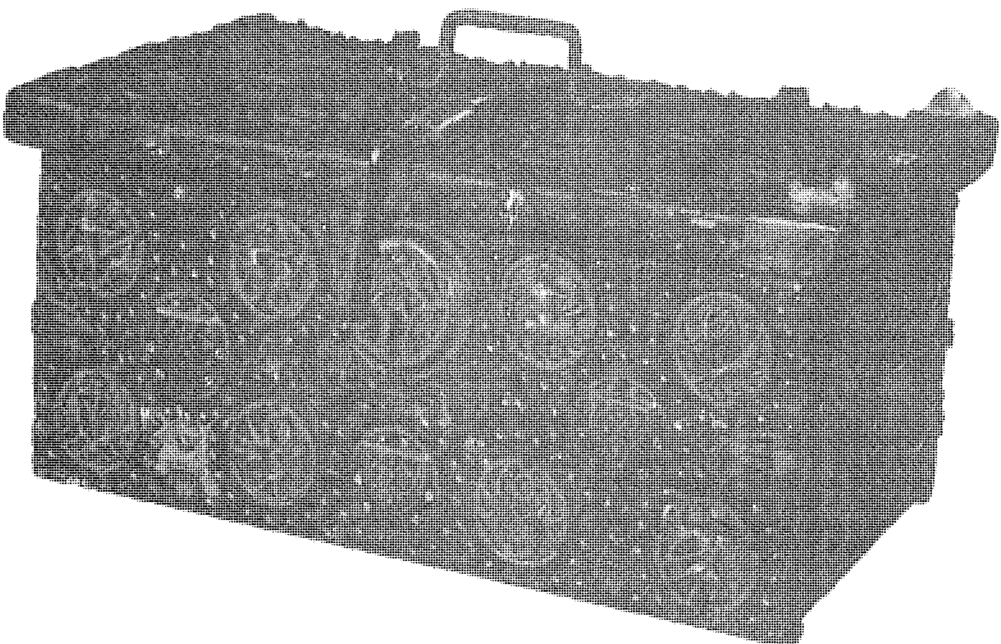
(Gullaume de Saint Pathus : La Via et les Miracles de Monseigneur Saint Louis.)



لوحة (١٢)

صورة للصندوق الذي نقلت فيه رفات لويس التاسع من قرطاجة وهو محفوظ في المتحف الوطني بباريس.

(من كتاب : CL. Hachette : Le Siecle de Saint Louis, p. 241)



لوحة (١٣)

لوحة تمثل حادث التحول في حياة رامون لول، وهي من ثلاثة أقسام، الأول يمثله إلى جوار فراشه يكتب قصيدة غرامية حينما ظهرت له الرؤيا، والثاني والثالث زيارته للمقدسات.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 505)



لوحة (١٤)

لوحة تمثل قصة لول مع مملوكه المسلم، القسم الأول يبين دراسة لول على ذلك المملوك، والثاني محاولة المملوك اغتياله والثالث انتحار المملوك.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 507)



لوحة (١٥)

رحلة رامون لول الأولى إلى إفريقية، ويمثل القسم الثاني منها مناظرته لعلماء المسلمين في تونس.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 513.)



لوحة (١٦)

لوحة تمثل جهود رامون لول الصليبية، يمثل القسم الأول مقابلته للبابا بونيفاس الثامن، والقسم الثاني مقابلاته لملوك أوروبا وهم في الصورة ملوك فرنسا وأرغونة ونابلي، حيث كشفت تروسهم المبينة في أعلى اللوحة عن شخصياتهم.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France. p. 512.)



لوحة (١٧)

رحلة رامون لول الثانية إلى إفريقية، ويمثل القسم الثاني منها رد الفعل عند المسلمين بسبب استثارته لهم.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 514.)



لوحة (١٨)

رجم رامون لول في بجاية

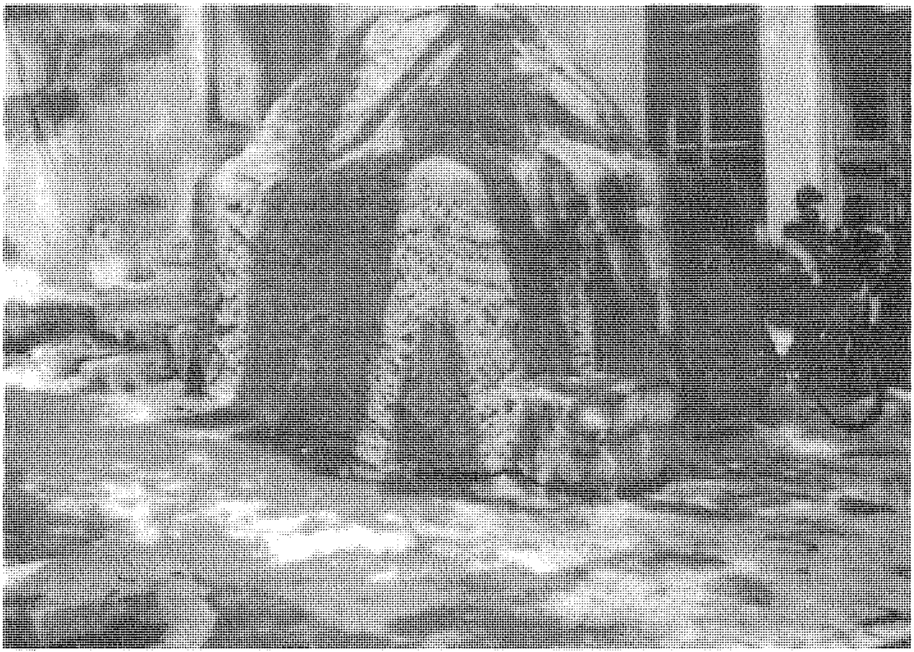
(من كتاب Liam Brophy :So Great a Lover, p. 1)



لوحة (١٩)

قبر عبد الله الترجمان

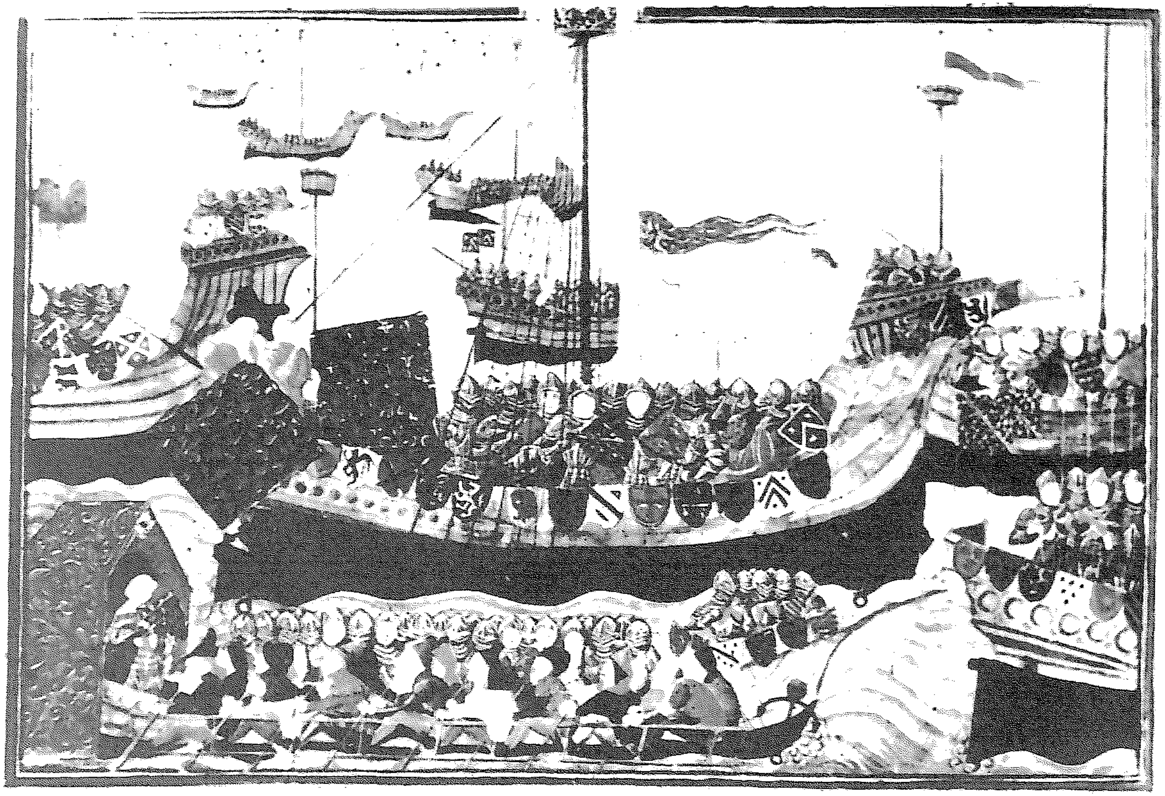
(تصوير خاص)



لوحة (٢٠)

الحملة الصليبية على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م

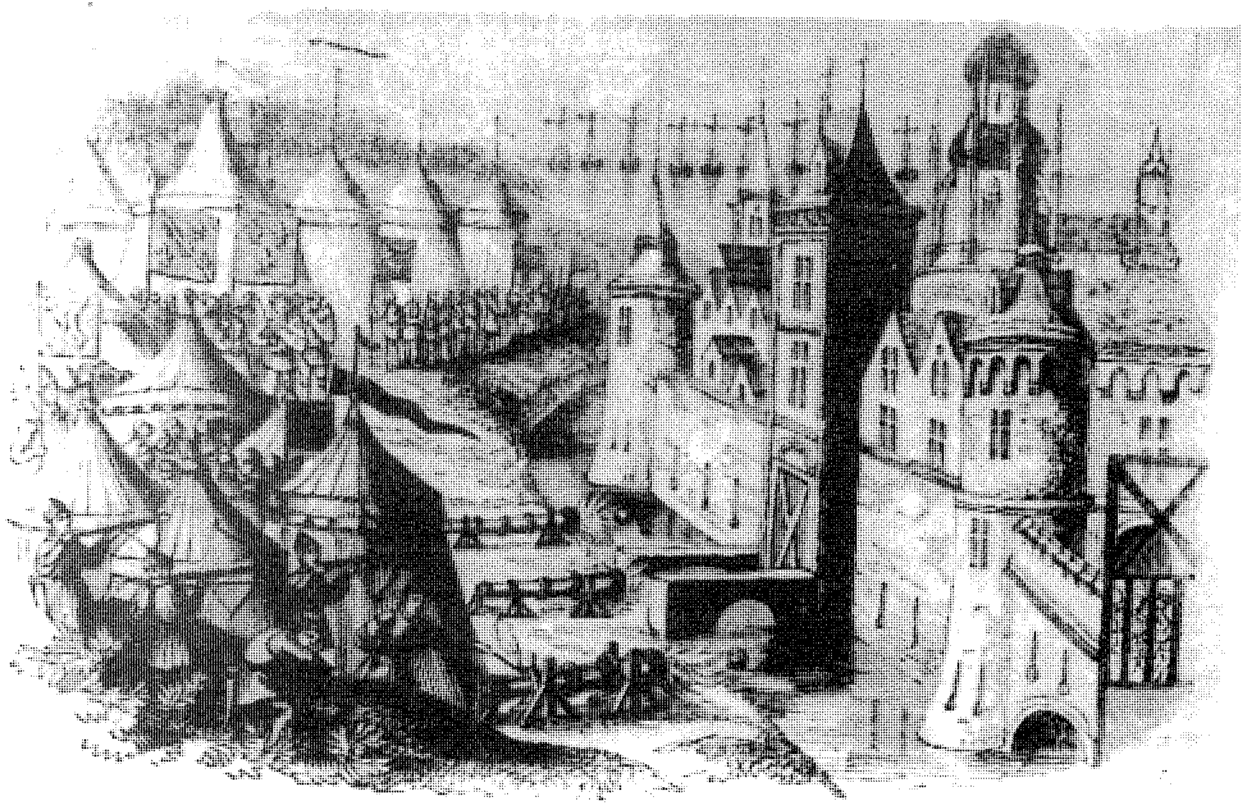
(من كتاب : A.S. Atiya : the Crusade in The Later Middle ages, p.1)



لوحة (٢١)

حصار المهدية سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م

(من كتاب : J. Froissart : Chronicles of England, France, Spain and the Adjoinig Countries vol. 2, p.470)



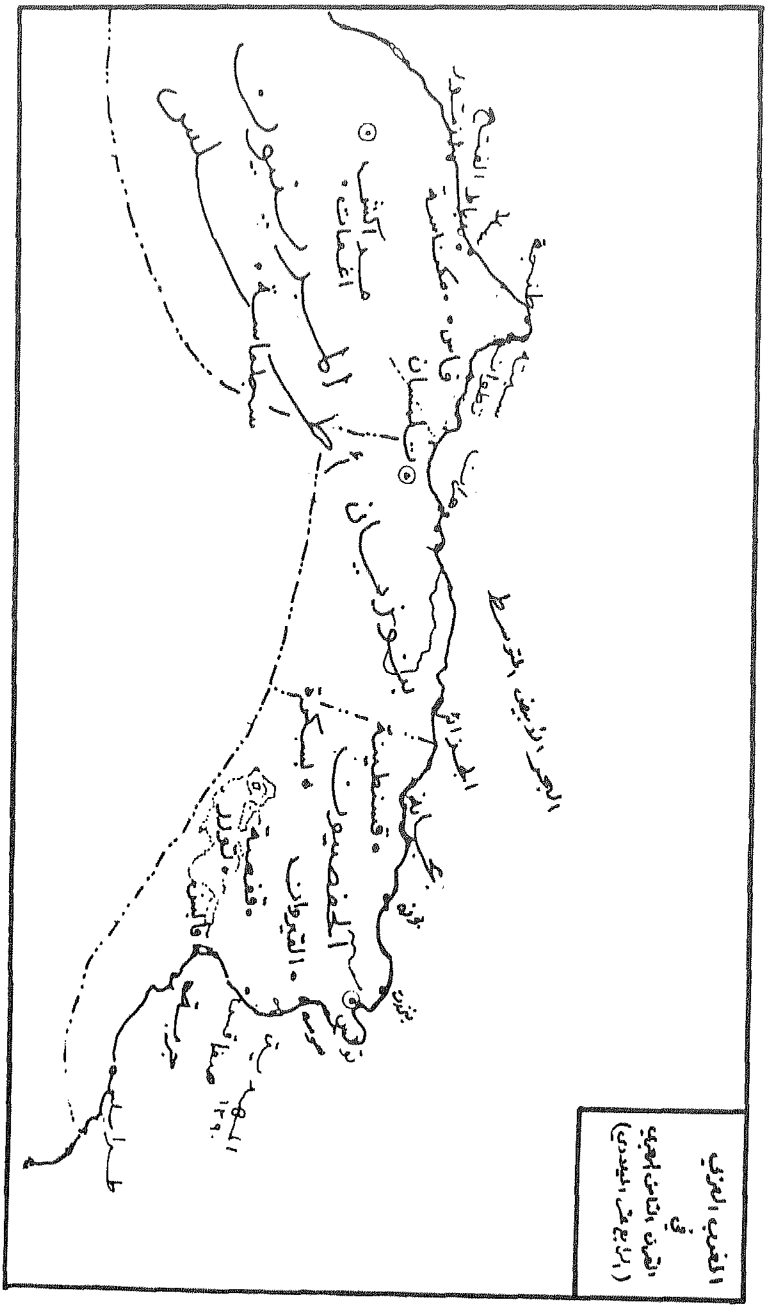
لوحة (٢٢)

رفع الحصار عن المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م

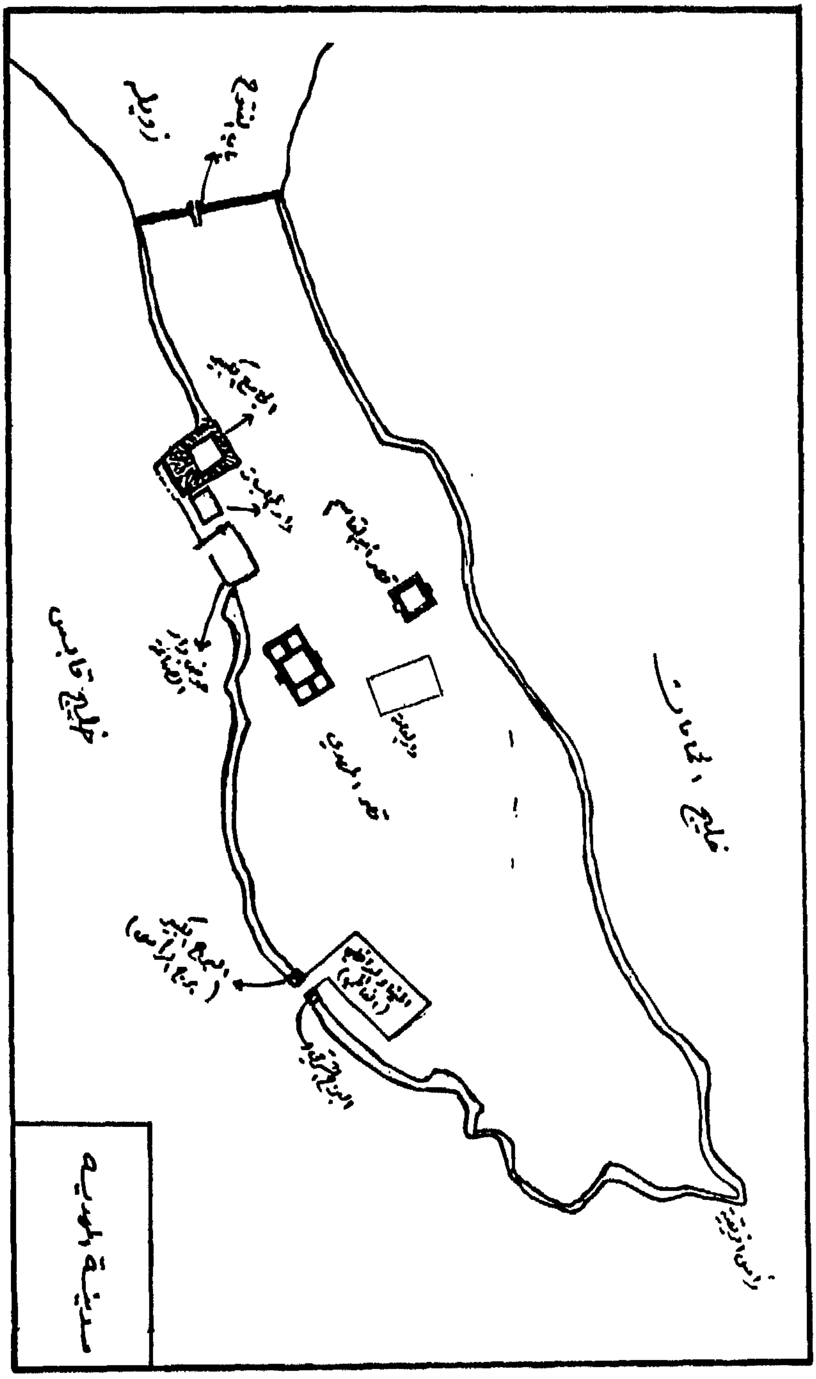
(من كتاب : A.S. Atiya : the Crusade in The Later Middle ages, p.426)



خريطة المغرب العربي

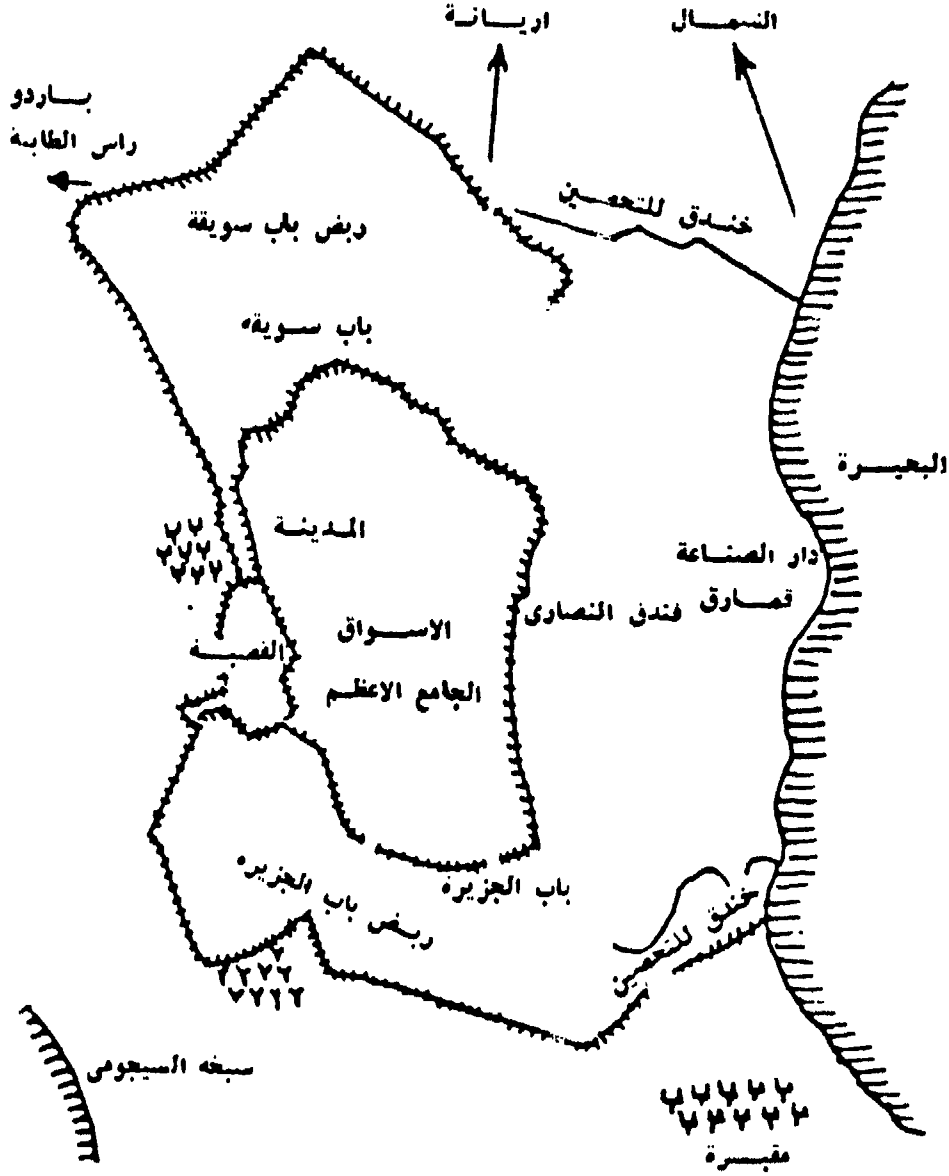


خريطة مدينة المهدية



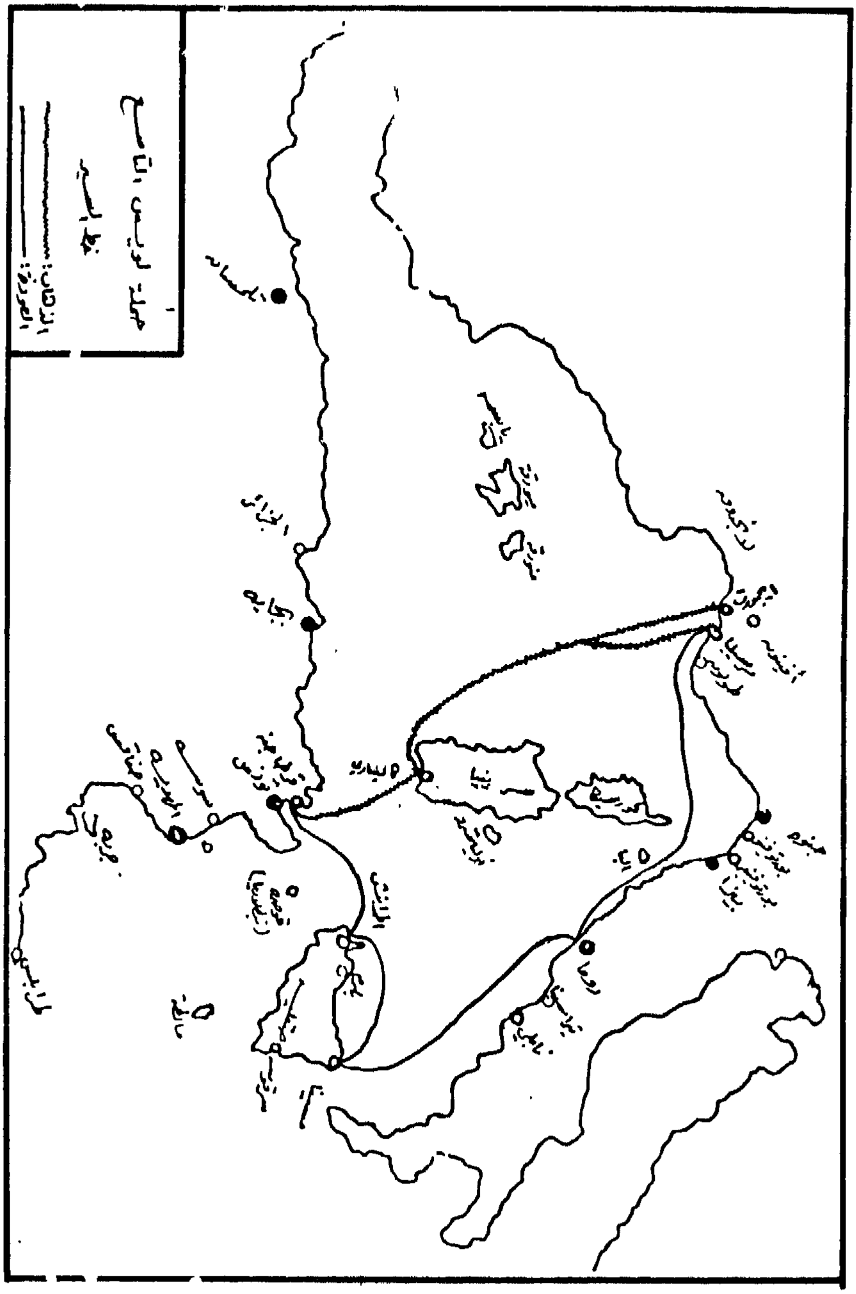
مدينة تونس في العصر الحفصي

(من كتاب شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ج٢، ص ١٣٥)

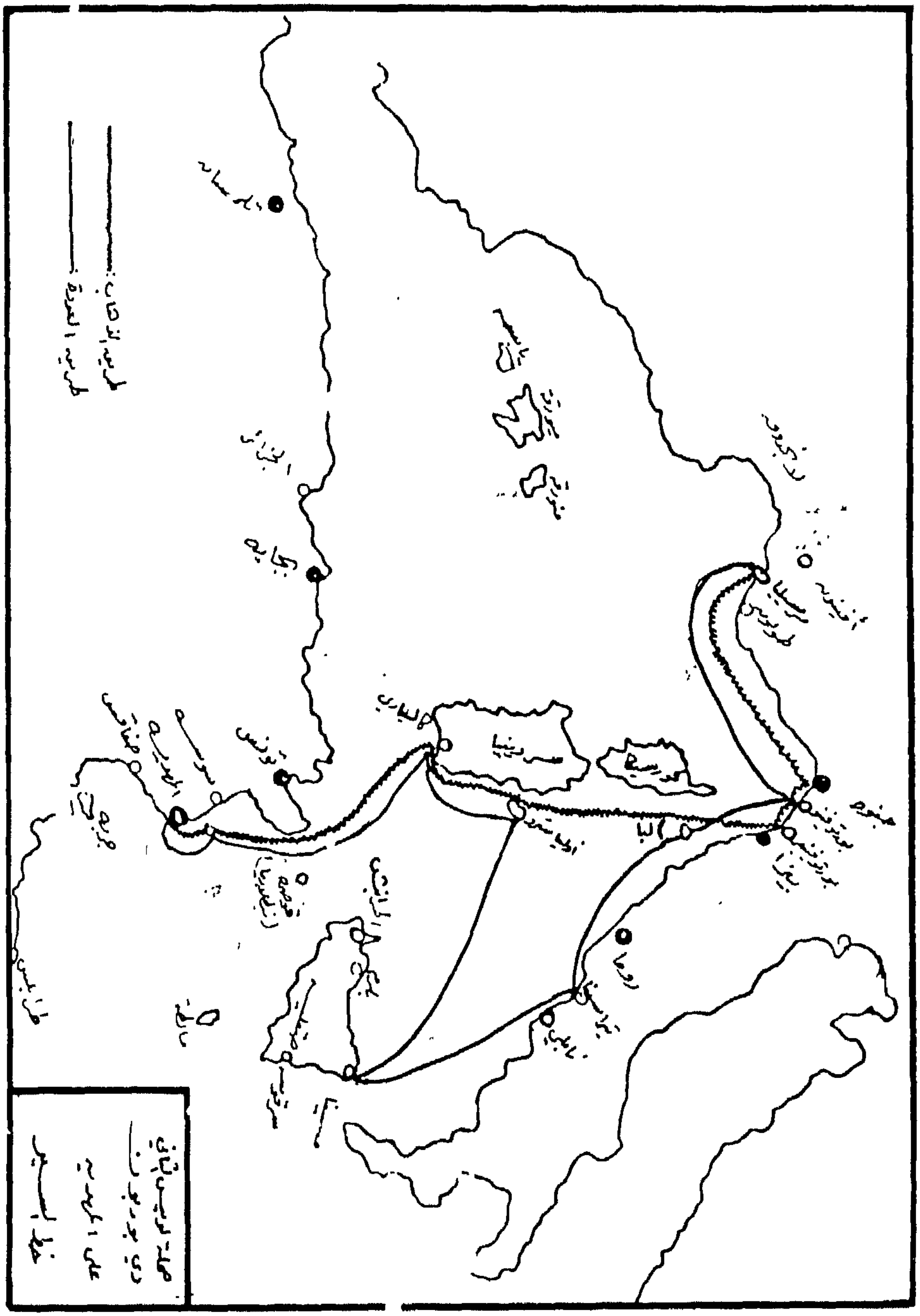


خريطة حملة لويس

التاسع

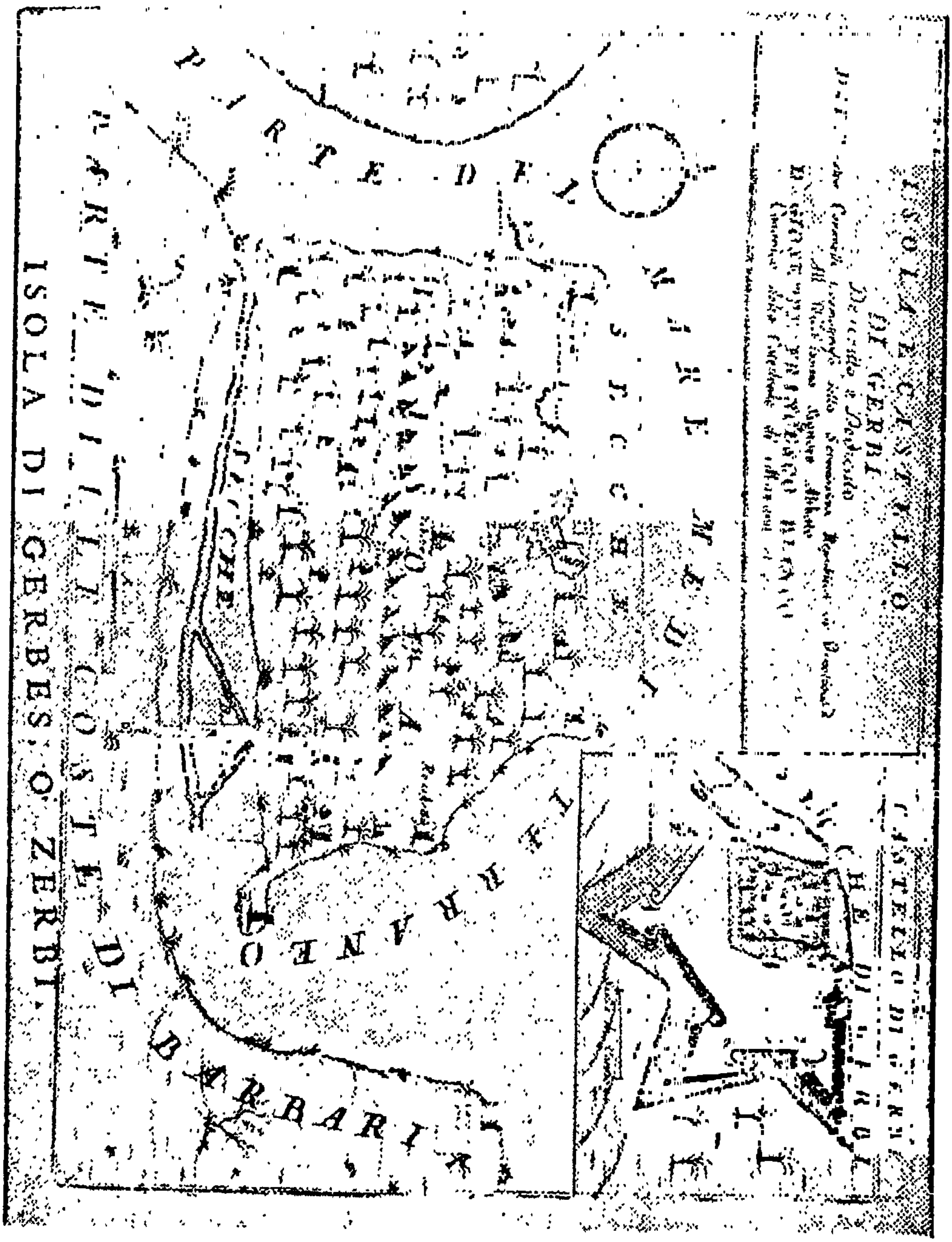


خريطة حملة لويس
الثاني دي بوربون



أقدم خريطة لجزيرة جربة، وقد وضعها الإسبان حينما احتلوا الجزيرة

(من كتاب محمد أبو راس الجربي : مؤنس الأحبة في أخبار جربة ص ١)



فهـــارسُ الكتـــاب

قائمة المصادر العربية

- القرآن الكريم.
- إنجيل متى.
- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ).
الحلة السيراء، تحقيق وتعليق د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
- ابن الأثير : أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
الكامل في التاريخ، دار صادر – دار بيروت، بيروت، سنة ١٩٦٦ .
- الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف (ت ٥٦٢هـ).
وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، صححه هنري بيريس، دار الكتب، الجزائر، سنة ١٩٥٧ .
- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ).
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٦٥ .
- الأنصاري : النائب أحمد
المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، بدون تاريخ.

– ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ).
كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

– البكري : عبيد الله الأندلسي، (ت سنة ٤٨٧ هـ).
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، نشره دي سلان، الجزائر، سنة ١٩١١ .

– البيذق : أبو بكر بن علي الصنهاجي
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط سنة ١٩٧١ .

– التجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت حوالي سنة ٧١٧هـ).
رحلة التجاني، تحقيق وتقديم حسن حسني عبد الوهاب، كتابة الدولة للمعارف، تونس، سنة ١٩٥٨ .

– الترجمان : عبد الله (ت سنة ٨٣٢هـ).
تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، مطبعة التمدن، القاهرة، سنة ١٩٠٤ .

– ابن خاتمة : علي، (كان حياً في أواسط القرن الثامن الهجري).
تحصيل غرض المقاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط المكتبة الوطنية، مدريد رقم MSS5067-1.

– ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الوزير الغرناطي (ت سنة ٧٧٦هـ).
أ – أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، القسم الأول مخطوط، والثاني بتحقيق أ. ليفي بروفنسال، معهد الدراسات العليا، الرباط، سنة ١٩٣٤، والثالث تحقيق د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

ب – الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (المنسوب لابن الخطيب)، تونس، سنة ١٩١١ .

– ابن خلدون : أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن (ت سنة ٨٠٨هـ).
أ – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بولاق، القاهرة، سنة ١٩٧١ .
ب – المقدمة، طبعة دار الشعب، القاهرة.
جـ – التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ.

– ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت ٦٨١هـ).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

– خليفة : حاجي
تقويم التواريخ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ADD23307.

– الدباغ : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي (ت ٦٩٦هـ).
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت ٨٣٩هـ).
ج١ : تحقيق وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٦٨ .
ج٢ : تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي، القاهرة – المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ.
ج٣ : تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس سنة ١٩٧٨ .

– الدواداري : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك
كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ (الدرة الزكية في الدولة التركية)، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، سنة ١٩٧١ .

- ابن أبي دينار : أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني
المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط٣، سنة ١٣٨٧هـ.
- الرقيق : أبو إسحق إبراهيم بن القاسم القيرواني (ت بعد سنة ٤١٧هـ).
تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، سنة ١٩٦٨ .
- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني
رحلة ابن جبير المسماة (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، دار صادر - دار بيروت، بيروت، سنة ١٩٦٤ .
- الجربي : محمد أبو راس (توفي بعد سنة ١٢٢٢هـ).
مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه ومهد له وعلق عليه محمد المرزوقي، قدم له حسن حسني عبد الوهاب، تونس، سنة ١٩٦٠ .
- ابن الحاج : إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري المعروف بابن الحاج، (كان حياً في أواسط القرن الثامن الهجري).
فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٣٢٦٧ .
- الحلبي : شهاب الدين بن حبيب
درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج٣، مخطوط مكتبة بودليان بأكسفورد رقم DCCXXXIX.
- الحموي : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ).
: معجم البلدان، دار صادر - دار بيروت، بيروت، سنة ١٩٥٧ .
- الحميدي : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨هـ).
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، سنة ١٩٦٦ .

– ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت سنة ٧٤١هـ).
أ – الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٢ .
ب – الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٢ .

– الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (ت بعد سنة ٨٩٤).
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس، سنة ١٩٦٦ .

– الزيري : الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس (ت بعد ٤٨٣هـ).
مذكرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة كتاب التبيان، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، القاهرة، سنة ١٩٥٥ .

– السبتي : محمد بن عمر بن رشيد
رحلة ابن رشيد السبتي المسماة : ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة، ج٣، مخطوط الإسكوريال رقم MSS1737.

– السراج : محمد بن محمد الأندلسي الوزير (ت سنة ١١٤٩هـ).
الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٠ .

– ابن سعيد : علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت سنة ٦٧٢هـ).
المغرب في حلي المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، بدون تاريخ.

– الشابشتي : أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي
الديارات في الإسلام، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، سنة ١٩٥١ .

- أبو شامة : أبو محمد شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٦٥هـ).
الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن الشباط : محمد بن علي بن محمد المصري التوزري (ت ٦٨١هـ).
صلة السمط وسمة الرمط، قطعة منه : شرح القصيدة الشقراصية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ٣٢٠٨، قطعة أخرى، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، سنة ١٩٧١.
- ابن الشماع : أبو العباس أحمد (ت ٨٦٩هـ).
أ - الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق عثمان الكعاك، تونس، سنة ١٩٠٤ .
ب - تكميل التاريخ المسمى الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٠١١ .
- ابن مقديش : أبو الثناء محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي
نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٠٣٨٠ .
- ابن الصيرفي : علي بن داود بن إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهري (ت سنة ٩٠٠هـ).
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .
- الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ).
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، مطبعة روض مجريط، (مدريد)، سنة ١٨٨٤ .
- ابن أبي الضياف : أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن أحمد بن نصر (ت شعبان ١٢٩١هـ).

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج١، الدار التونسية للنشر، ط٢، سنة ١٩٧٦ .

- العبدري : محمد الحاحي، (كان حياً سنة ٦٨٨هـ).
الرحلة المغربية تحقيق د. محمد الفاسي، الرباط، سنة ١٩٦٩ .

- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ).
فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق وتقديم عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٩٦٤ .

- ابن عبد العزيز : الوزير الحاج حمودة بن محمد (توفي سنة ١٢٠٢هـ).
التاريخ الباشي في الدولة التونسية، الجزء الأول مطبوع بتحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس سنة ١٩٧٠، والباقي مخطوط، المكتبة الوطنية بتونس رقم ٣٥١ .

- ابن عذارى : أحمد بن عذارى المراكشي (كان حياً سنة ٧١٢هـ).
البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ٣ أجزاء الجزأين الأول والثاني في ٤ مجلدات : مجلد ١ و٢ تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٧ .
مجلد ٣ : تحقيق أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت،سنة ١٩٦٧ .
مجلد ٤ : تحقيق وتعليق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧ .
ج٣ : (القسم الخاص بالموحدين)، تحقيق هويسي ميرانده، ومشاركة محمد بن تاويت، ومحمد إبراهيم الكتاني، معهد مولاي الحسن، تطوان، سنة ١٩٦٠ .

- العسقلاني : شهاب الدين أحمد بن حجر (ت سنة ٨٥٢هـ).
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه، محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦٦ .

– العمري : ابن فضل الله
وصف إفريقية من المسالك، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس بدون تاريخ.
– عياض : القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤هـ).
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مقتطفات منه بعنوان : (تراجم أغلبية من المدارك)، تحقيق د. محمد الطالبي، نشر جامعة تونس، سنة ١٩٦٨ .
– الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد (ت ٧٠٤هـ).
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة ١٩٧٠ .
– ابن فرحون : القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد (ت ٧٩٩هـ).
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، سنة ١٩٧٤ .
– أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ).
المختصر في تاريخ البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.
– ابن القاضي : أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (ت ١٠٢٥هـ).
أ – ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس، دار التراث بالقاهرة، سنة ١٩٧٠ .
ب – جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٣ .
– ابن القنفذ : أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب بن القنفذ القسنطيني (ت ٨١٠هـ).

الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٦٨ .

- ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك التوزري (عاش في أواخر القرن السادس الهجري). تاريخ الأندلس، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، سنة ١٩٧١.

- الكواش : الشيخ أبو الفلاح صالح بن حسن. تاريخ تونس، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ٣٣٨ .

- المالكي : أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله (ت أواسط القرن الخامس الهجري). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج١، تحقيق د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥١ .

- مجهول : ذكر بلاد إفريقية ولم سميت إفريقية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ٧٨٧د.

- مجهول : مؤرخ مراكشي عاش في القرن السادس الهجري. كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب، الإسكندرية، سنة ١٩٥٨ .

- مجهول : ذكر الياقوتة الجلية في الذرية السعيدية المرينية، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم MSS. 5180.

- أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردى الأتابكي (ت٨٧٤هـ). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

- ابن مرزوق : محمد بن أحمد الخطيب (ت ٧٦٨هـ). المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، مقتطفات منه، نشر أ. ليفي بروفنسال، مجلة هيسبريس عدد ٥، سنة ١٩٢٥ .

ومقتطفات أخرى نشر ماريا خيسوس فيغيرا : بحث (أخبار إفريقية في المسند لابن مرزوق)، أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، عدد ١٠٣ – ١٠٤، تونس سنة ١٩٧٨ .

– المسعودي : محمد الباجي
الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تونس سنة ١٢٨٣هـ.

– المعسكري : محمد بن أحمد أبو راس
عجائب الأسيار ولطائف الأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ٢٦٢ .

– المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تصحيح دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، سنة ١٩٠٩ .

– المقريزي : تقي الدين أبو العباس علي بن أحمد (ت ٨٥٤هـ).
أ – السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣ أجزاء كل منها في ٣ أقسام، ج١ و٢ تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، سنة ١٩٣٤ – ١٩٤٢، ج٣، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، سنة ١٩٧٠ – ١٩٧٢.
ب – المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، بدون تاريخ.

– المقري : أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقري القرشي التلمساني (ت ١٠٤١هـ).
أ – روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط سنة ١٩٦٤ .
ب – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

– ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري

لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ.

– النعمان : القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت ٣٦٣هـ).
كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، تونس سنة ١٩٧٨ .

– الوزان : الحسن بن محمد الوزان الزياتي، المعروف بليون الإفريقي (ت في حدود سنة ١٥٥٠م).
وصف إفريقيا، ألفه بالإيطالية، وترجمه من الإيطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة آ. إيبولار، وعلق عليها آ. إيبولار وآخرون، ترجمه من الفرنسية إلى العربية د. عبد الرحمن حميدة، راجعه د. علي عبد الواحد، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، سنة ١٣٩٩هـ.

– الوسياني : أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله (ت في حدود سنة ٥٥٥هـ).
كتاب السير، مخطوط دار الكتب المصرية، القاهرة رقم ٩٠٣٠خ.

قائمة المراجع الحديثة
العربية والمعربة

- أرسلان : الأمير شكيب
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٦٦ .
- أرنولد : سير توماس
الدعوة إلى الإسلام، ترجمه وعلق عليه د. حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .
- الإسكندري : أحمد، وأخرون
المفصل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة مصر، القاهرة، سنة ١٩٣٤ .
- أشباخ : يوسف
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٢، سنة ١٩٥٨ .
- أماري : ميخائيل (ميشيل)
المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، جمعها وحققها المستشرق الإيطالي، ميخائيل أماري، ليبسك، سنة ١٨٥٧ .
- أمين : أحمد
ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٦٦ .

– أمين : د. محمد محمد
أ – تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، فصل من كتاب العلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، سنة ١٩٧٧ .
ب – شمال إفريقية والحروب الصليبية، بحث مستخرج من مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الثالث، ١٩٧٤، معهد الدراسات والبحوث الإفريقية، القاهرة، سنة ١٩٧٥ .

– برنيط : خوان
بحث : هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط الملاحية، ترجمة د. أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الأول، سنة ١٩٥٣ .

– بل : ألفرد
الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي، سنة ١٩٦٩ .

– بونصي : ج.
أسطورة الكارثة الهلالية، تقديم المنصف الشنوفي، بحث في حوليات الجامعة التونسية، العدد الخامس، سنة ١٩٦٨ .

– التازي : د. عبد الهادي
جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٦٧ .

– التركي : عبد المجيد
وثائق من الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس، حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، سنة ١٩٧٦ .

– تومسون : جيمس وستفال وآخرون
حضارة عصر النهضة، ترجمة د. عبد الرحمن زكي، دار النهضة

العربية، القاهرة، سنة ١٩٦١ .
- ابن الخوجة : د. محمد الحبيب
قصائد ومقطعات صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٢ .
- الجنحاني : د. الحبيب
أ - من قضايا الفكر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، سنة ١٩٧٥ .
ب - تاهرت عاصمة الدولة الرستمية، بحث في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، مركز الأبحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة تونس، عدد ٤٠ - ٤٣، تونس، سنة ١٩٧٥ .
- جوليان : شارل أندري
تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي، البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج١، ١٩٦٩، ج٢، سنة ١٩٧٨ .
- الجيلالي : عبد الرحمن بن محمد
تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية - الجزائر، مكتبة دار الحياة - دار بيروت، بيروت، ط٢، سنة ١٩٦٥ .
- الحجي : د. عبد الرحمن علي
التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، سنة ١٩٧٦ .
- حسن : حسن إبراهيم
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٨، سنة ١٩٧٣ .
- حسين : طاهر راغب
الدولة الحفصية بالمغرب إلى آخر القرن الثامن، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

– ريتستيانو : د. أمبرتو
العلاقات بين النورمنديين وبني زيري من الفتح النورمندي لصقلية حتى وفاة رودجيرو الثاني (رجار) سنة (٤٥٣ – ٥٤٨هـ / ١٠٦١ – ١١٥٤م)، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر، الجزء الأول، مايو سنة ١٩٤٩ .

– زامباور : إدوارد فون
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه د. زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة، سنة ١٩٥١ .

– الزاوي : الطاهر أحمد
تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٦٣.

– زبيس : سليمان مصطفى
المنستير – معالمها الأثرية، الدار التونسية للنشر، تونس، بدون تاريخ.

– زيادة : د. نقولا
لمحات من تاريخ العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٩٦١ .

– سالم : د. السيد عبد العزيز
المغرب العربي الكبير – العصر الإسلامي، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، سنة ١٩٦٦ .

– ستودارد : لوثروب
حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق وحواشي الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر، ط٣، سنة ١٩٧١ .

– سعداوي : د. نظير حسان
تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٨ .

– سمايلوفتش : د. أحمد
فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مطابع دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٧٤ .

– ابن سودة : عبد السلام بن عبد القادر
دليل مؤرخ المغرب الأقصى، معهد مولاي الحسن، تطوان، سنة ١٩٥٠ .

– السويسي : محمد
عالم رياضي أندلسي تونسي – القلصادي، بحث في حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع، سنة ١٩٧٢ .

– شاخت : جوزيف، سي. بوزورث
تراث الإسلام، ترجمة د. حسين مؤنس، إحسان صدقي العمد، مراجعة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة ١٩٧٨ .

– الشرفي : عبد المجيد
بيبلوغرافيا في مجلة إسلاميات مسيحيات، روما، عدد سنة ١٩٧٦، وعدد سنة ١٩٧٨ .

– الشناوي : د. عبد العزيز محمد
أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، سنة١٩٧٥ .

– الصحراوي : عبد القادر
جولات في تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة ١٩٦١ .

– صفر : أحمد
مدنية المغرب العربي في التاريخ، دار النشر، تونس، سنة ١٩٥٩ .

– الطالبي : د. محمد
الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، بحث مستخرج من حوليات الجامعة التونسية، عدد سنة ١٩٧٥ .

- طرخان : د. إبراهيم علي
أ – إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .
ب – المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة ١٩٦٦ .

- عاشور : د. سعيد عبد الفتاح
أ – أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج١، ط٥، ١٩٧٢، وج٢، سنة ١٩٧٦ .
ب – الحركة الصليبية – صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج١، ط٣، سنة ١٩٧٥، وج٢، ط٢، سنة ١٩٧١ .
جـ – العصر المماليكي في مصر والشام، دار النضهة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
د – بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، بيروت، سنة ١٩٧٧ .
هـ – الظاهر بيبرس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
و – قبرس والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٧ .
ز – الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٩ .
حـ – المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
ط – بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية، بحث مستخرج من حوليات كلية الآداب، جامعة

القاهرة، المجلد ٢٧، سنة ١٩٦٥ / ١٩٦٦ .

– ابن عامر : أحمد
الدولة الصنهاجية، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٢ .

– العامري : محمد الهادي
تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، سنة ١٩٧٤ .

– العبادي : د. أحمد مختار، د. السيد عبد العزيز سالم
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٦٩ .

– ابن عبد الجليل : محمد
كيف قاومت المالكية التشيع من أول عهد الدولة الزيرية إلى عهد المعز بن باديس الصنهاجي، بحث في أعمال الملتقى التونسي الإسباني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، تونس، عدد ١٠٣ – ١٠٤، مجلد ٢٥، سنة ١٩٧٨ .

– عبد الحميد : د. سعد زغلول
أ – تاريخ المغرب العربي، ليبيا، وتونس والجزائر والمغرب من الفتح العربي حتى قيام دولة الأغالبة والرستميين والأدارسة، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٤ .

ب – العلاقات بين صلاح الدين الأيوبي والمنصور الموحدي، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٥٣ .

جـ – هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب، دراسة لكتاب السير، بحث نشر في أشغال المؤتمر الدولي الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، جامعة تونس، ج١، سنة ١٩٧٩ .

– ابن عبد الله : عبد العزيز
تاريخ الحضارة المغربية، الرباط، سنة ١٩٧٠ .
– ابن عبود : محمد عبد السلام
تاريخ المغرب، دار الطباعة المغربية، تطوان، ط٢، سنة ١٩٥٧ .
– عبد الوهاب : حسن حسني
أ – بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تقديم محمد العروسي المطوي، مكتبة المنار، تونس، ط٢، سنة ١٩٧٠ .
ب – خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٦ .
جـ – شهيرات التونسيات، مكتبة المنار، تونس، ط٢، سنة ١٩٦٥ .
د – ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، ط٢، سنة ١٩٧٢ .
– العروي : د. عبد الله
تاريخ المغرب محاولة في التركيب، ترجمة د. ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٧ .
– العريني : د. السيد الباز
أ – الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
ب – الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
– بو عزيز : د. يحيى
الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، سنة ١٩٦٥ .
– العدوي : د. إبراهيم أحمد
بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .

- عنان : محمد عبد الله
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٦٩ .
- غريب : رشيد
برج الغازي مصطفى بجربة، بحث في المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد٤، سنة ١٩٧٥ .
- فيغيرا : ماريا خيسوس
انظر ابن مرزوق.
- فشر : هـ. أ. ل.
تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة وآخرون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ق١، ط٥، سنة ١٩٦٩، وق٢، ط٣، سنة ١٩٦٦ .
- كرامب : ج. أ، أ. جاكوب
تراث العصور الوسطى، ترجمة قسم الترجمة والألف كتاب، وزارة التعليم العالي بمصر، مراجعة د. محمد بدران، د. محمد مصطفى زيادة، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
- كرو : أبو القاسم محمد، عبد الله شريط
عصر القيروان، دار المغرب العربي، تونس، سنة ١٩٧٣ .
- لاندو : روم
الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٦٢ .
- لوبون : غوستاف
حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط٢، سنة ١٩٤٨ .

– لويس : أرشيبالد
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٠ .

– مارينو : د. مارتينو مورينو
المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، سنة ١٩٦٨ .

– ماهر : د. سعاد
البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٧ .

– المجذوب : عبد العزيز
الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم علي الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٥ .

– مدكور : إبراهيم
في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨ .

– المريني : عبد الحق
الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط، سنة ١٩٦٩ .

– المدني : أحمد توفيق
أ – حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط٢، سنة ١٩٧٦ .
ب – المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة ١٣٦٥هـ.

– المطوي : محمد العروسي
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، نشر دار الكتب الشرقية، تونس، سنة ١٩٥٤ .

– المنجد : د. صلاح الدين
أ – المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين، دار الكتاب الجديد، بيروت، سنة ١٩٢٣ .
ب – دمشق في نظر الأندلسيين، بحث في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد السادس، سنة١٩٥٨ .

– المنوني : محمد
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، معهد مولاي الحسن، الرباط، ط٢، سنة ١٩٧٧ .

– مؤنس : د. حسين
أ – رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
ب – سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، بحث في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، عدد٢، سنة ١٩٥٣ .
جـ – الجغرافية والجغرافيون في الأندلس – الشريف الإدريسي قمة علم الجغرافية عند المسلمين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد ٩ – ١٠ .

– ميلي : ألدو
العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، د. محمد يوسف موسى، مراجعة د. حسين فوزي، دار القلم، دمشق، سنة ١٩٦٢ .

– النيفر : الشيخ محمد
عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، تونس، سنة ١٣٥١هـ.

– نويهض : عادل.
معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت، سنة ١٩٧١ .

- هرنشو : هـ. أ.
علم التاريخ، ترجمة د. عبد الحميد العبادي، القاهرة، بدون تاريخ.

- هونكه : د. سيجريد
شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة د. فؤاد حسنين، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون تاريخ.

- الهيلة : محمد الحبيب
الزاوية وأثرها في المجتمع القيرواني، بحث في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، جامعة تونس، عدد ٤٠ - ٤٣، سنة ١٩٧٥ .

- يس : محمد عوني
حملة لويس البوربوني على المهدية، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٧٩ .

- يوسف : د. جوزيف نسيم
لويس التاسع في الشرق الأوسط، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٥٩ .

- **Douglas, D.C.,**
The Norman Fate 1100-1154, London, 1976.

- **Epalza, M. de,**
La Tuhfa, Autobiograficy Polemica Islamica Cont'a el Cristianismo de Abdullah Al - Turyuman (Fray Anselmo Turmeda)., Rome, 1971.

- **Fawtier, R.,**
The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation 987-1328,. Translated by : Lionel Burter & R.J. Adam., London, 1976.

- **Friossart, J.,**
Chronicles of England, France, Spain and the Adjoining Countries. Translated by Thomas Johnes., London, 1839.

- **Hachette, A.N. Cl.,**
Le Siecle de Saint Louis, Paris, 1970.

- **Hamdy, Dr. A.H.,**
Philippe de Meziers and the New Order of the passion, Bulletin of Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. 18, 1964.

- **Heyd, W.,**
Histoire du Commerce du Levant, Leipzig, 1923.

- **Hiem, M.,**
La passion d'Un Rio Charles VI, le fol, Paris, 1955.

- **Hilaire (B.Saint)**
Mohomet et la Coran, Paris, 1865.

- **Hillgarth, J.N.,**
Ramon Lull and Lullism in fourteenth Century France, Oxford, 1971.

- **Garreau, A.,**
Saint Louis et son Royame, Paris, 1949.

- **Grousset, R.,**
1 - Bilan de l'Histoire, Paris, 1946.
2 - Histoire des Croisades et du Royame France de Jerusalem, Paris, 1939.

- **Guillemain, B.,**
The Early Middle Ages, London, 1960.

- **Guistiniani, A.,**
Annali Della Republica di Genova, Terza Edizione Gevonese, Vol. 2., Genova, 1854.

- **Guth, P.,**
Saint Louis Roi de France, Paris, 1960

- **Joinville, J.,**
The Life of Saint Louis, Translated by M.R.B. Show, Penguin., London, 1976.

- **Labal, P.,**
Le Siecle de Saint Louis, Paris, 1972.

- **Lane poole, S.,**
A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.

- **Larcena, J.,**
Saint Louis de France, Paris, 1964.

- **Lopez, R.S.,**
The Commercial Revolution of The Middle Ages, 950 - 1350., London - New York, 1976.

- **Mayer, H.E.,**
The Crusades, Translated by John Gillingham., Oxford, 1972.

- **Miropoix, La Duc de Levis.,**
Saint Louis Roi de France, Presente par La Duc de Levis Mirepoix, de l'Acadimic Francaise, Le Memorial des Siecles, Etabli par Gerard Walter,

XIII Siecle Les Hommes, Textes de Saint Louis, Joinville, Jean Sarrasin. Pierre de Condet, Makrizi et le Liver Des Metiers D'Etienne Boileau. Editions Albin Michel, Paris.

Mirot, L.,

Le Siege de Mahdia (1390), Paris, 1932.

- Nangis, Guillaume de,

Vita Sancti Ludovici Regis Franciac. Ed. Hist. de Er., XX, pp. 312 - 465.

- Pathus, G. de Saint.,

La Via et Les Miracles de Monseigneur Saint Louis, Paris, 1971.

- O' Conell, D.,

Les Porpose de Saint Louis, Presentes par David O'Connell, et Prefaces par Jacques Le Goff., Paris, 1974.

- d' Oreville, Cabaret Jehan

La Chronique du Bon Duc Loys de Bourbon, Ed. A.M. Chazuad., Paris 1876.

- Raley-Smith. J.,

What Were The Crusades, London, 1977.

- Rothelin,

Continuation de Giullaume de Tyre du Manuscrit de Rothelin (1229 -1261). Vol. 2., Paris, 1859.

- Delaville le Roulx, J.,

Le France en Orient au XIV, Siecle., Paris, 1886.

- Setton, K.M.,

A History of The Crusades, London 1969 - 1974.

- Talbi, Dr. M.,

Document Divers Relatifs a La Croisade de Saint Louis Contre Tunis, Les Cahiers de Tunisie, Faculte des Lettres et Sciences Humaines de Tunis, Universite de Tunis, Tunis, Tom, XXV, 1977.

- **Tisserant, E. & G. Wiet.,**

Une Lettre de l'Almohade Murtada au Pope Innocent IV., Hesperis, Tom VI, 1926.

- **Tyre, W. of.,**

A History of Deeds Done Beyond The Sea, Translated and Annotated by Emily A. Bad Cock and A. C. Kreg., New york, 1943.

- **Walter, G.,**

Refere Le Duc de Levis Miropoix.

فهرس اللوحات

فهرس الخرائط

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

فهارس الكتاب

دار عمار

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص . ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن



دار عمار

عمان - ساحة الجامع الحسيني
سوق البتراء - تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧
ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن